

عُمْدَةُ النَّفْسِيرِ

عَنْ الْحَافِظِ ابْنِ كَثِيرٍ

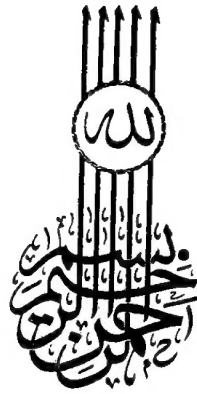
مُخْتَصَرُ نَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

لِلْعَلَّامَةِ الْمُحَقِّقِ

الْشَّيْخِ أَحْمَدُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ

الجزء الأول

تأليفه



عُمْدَةُ النَّفْسِيرِ

عَنْ الْحَافِظِ ابْنِ كَثِيرٍ

مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْقَاسِمِ

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الثانية
١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع. - المنصورة

الإدارة: ش. الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص.ب.: ٢٣٠

ت.: ٢٢٥٦٢٢٠ / ٢٢٥٦٢٣٠ - فاكس: ٢٢٦٠٩٧٤ / ٥٠

المكتبة: أمام كلية الطب ٢٢٤٩٥١٣ / ٥٠

E-Mail: DAR ELWAFI @ HOTMAIL . COM



بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يضلل فلا هادي له ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله صَلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه .

وبعد :

فإن اختصار العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر لتفسير الحافظ ابن كثير والذي أسماه « عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير » - يعتبر من أجود المختصرات ، وهذا يتضح من خلال المنهج الذي ذكره في مقدمته للمختصر ، والذي يفرد عن غيره في نقاط ، أهمها :

١ - أنه تم ضبط النص وتحقيقه على مخطوطتين ، إحداهما كاملة ، مما أعان على ضبط النص ، كما هو واضح من خلال الهوامش في الكتاب .

٢ - أنه أبقي على جميع الأحاديث الصحيحة ، باعتبار أن كل حديث فيه إضافة تُضم إلى غيرها مما يزيد المعنى وضوحاً - وهو ما فعله أيضاً في الإبقاء على جميع آيات الاستشهاد .

٣ - أنه يذكر مصدر الحديث ولا يكتفى بالراوي ، وذلك لبيان ما وقع من وهم ، كان يذكر الحافظ أن الحديث في البخاري ومسلم مع أنه - عند البحث والتحري - نجده في أحدهما فقط .

٤ - أنه قام بضبط الأخطاء الواردة سواء في الأعلام أو الأحداث وغيرهما ، وساعدت المخطوطات على ذلك .

٥ - أنه كان من الدقة وتوفيق الله له أنه لم يُبق في المختصر إلا ما صح من أحاديث عن النبي ﷺ . ولا غرابة ، فتلك صنعة ، وميدانه الذي قلَّ أن يُسبق فيه ، مما يجعلنا أن نقول بحق : إنه صحيح مختصر تفسير القرآن العظيم لابن كثير . قلت : وليس صحيحاً تلك النسخة التي يتداولها الناس ويطلق عليها بأنها صحيح المختصر ، إذ بها من الأحاديث الشديدة الضعف والمنكرة الكثير ، بعضها أشرنا إليه في المآخذ على مختصر الصابوني .

ولذا كان هذا المختصر من أجود المختصرات ، مقارناً بمختصر ابن كثير لفضيلة الشيخ محمد علي الصابوني على شهرته - وكذا المختصرات التي جاءت بعده تقريباً - يتبين ذلك من خلال النماذج التالية من مختصر الصابوني - وتتشرك بقية المختصرات في كثير منها :

١ - فعند تفسير الآية (٢١٣) من سورة البقرة قال الحافظ : « وفي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول : « اللهم رب جبريل ... » وهو سهو من الحافظ . والصواب نسبه للبخاري فقط ، كما في المخطوط .

٢ - وعند تفسير الآية (١٩١) من سورة آل عمران ، حديث عمران بن حصين ، حيث ذكر الحافظ أنه في الصحيحين . والصواب نسبته للبخارى فقط ، كما في المخطوط .

٣ - وعند تفسير الآية (٢٢٩) من سورة البقرة ، قال الحافظ ابن كثير : « وقد ذكر ابن جرير رحمه الله أن هذه الآية نزلت في شأن ثابت بن قيس بن شماس وامرأته حبيبة بنت عبد الله بن أبي ابن سلول » . مع أن الصواب كما في الروايات : « حبيبة بنت سهل الأنصاري » و « جميلة بنت عبد الله بن أبي ابن سلول » .

٤ - وعند تفسير الآية (٢٣٧) من سورة البقرة ، روى الحافظ ابن كثير عن سهل بن سعد وأبي أسيد أنهما قالوا : « تزوج رسول الله ﷺ أميمة بنت شراحيل ، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها ، فكانها كرهت ذلك ، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين أزرقين » . حيث وقع التحريف في موضعين في الحديث ، فأمية هي : « أميمة بنت شراحيل » ، وقوله : « أزرقين » صوابه : « رازقين » كما هو موضح في موضعه من هذا المختصر .

٥ - وعند الآية (٢٧٥) من سورة البقرة ، قال الحافظ : « ... وكما قال النبي ﷺ يوم فتح مكة : « وكل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين ، وأول ربا أضاع ربا العباس » مع أن الصواب : أن هذا كان في حجة الوداع ، كما هو موضح في موضعه من هذا المختصر .

٦ - وعند الآية (٣٤) من سورة غافر ، قال الحافظ : « وقوله : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ : يعنى أهل مصر ... وكان رسولا يدعو إلى الله أمته بالقسط ... » حيث جاءت كلمة « القسط » محرفة ، وصوابها : « القبط » كما في المخطوط .

٧ - ومن حيث التزام صحة الأحاديث في المختصر، فإن هذا الشرط قد انتقض في مواضع كثيرة، حيث نجد فيه - وفي غيره - الأحاديث الضعيفة بل وشديدة الضعف والمنكرة ، من ذلك :
أ - عند الآية (٢٧٩) من سورة البقرة حديث: سهل بن حنيف أن رسول الله ﷺ قال : « من أعان مجاهدا في سبيل الله أو غازيا ... » . وقد تعقبه الذهبي في التلخيص بقوله : « فيه عمرو بن ثابت وهو رافضى متروك » .

ب - عند الآية (١٨) من سورة آل عمران حديث: عن الزبير بن العوام قال : « سمعت رسول الله ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ ... ﴾ ... » . وهو في مسند الإمام أحمد ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٢٥/٦) : « في إسناده مجاهيل » .

ج - عند الآية (١٠٣) من سورة آل عمران حديث : عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إن هذا القرآن هو حبل الله المتين ... » . وقد قال عنه ابن الجوزي في العلل المتناهية (١٠١/١) : « هذا حديث لا يصح عن رسول ﷺ ، ويشبه أن يكون من كلام ابن مسعود » .

ولما كان ذلك كذلك ، فقد اشتدت الرغبة لدينا فى الحصول على هذا المختصر كاملا للشيخ أحمد شاكر - والمعروف أن الشيخ وافته المنية ولم نر له من المختصر إلا الأجزاء الخمسة الصغيرة والتي تولت نشرها مكتبة التراث الإسلامى آنذاك ، وهى تبدأ من سورة الفاتحة حتى الآية رقم (٨) من سورة الأنفال - وعليه فقد سعينا فى دار الوفاء فى الاتصال بآل شاكر للحصول على بقية المختصر لإتمام هذا العمل المبارك ، وكان من توفيق الله عز وجل لهذا العمل أن يستكمل أن حصلنا على النسخة التى قام فضيلة الشيخ أحمد شاكر باختصارها بخط يده ، وذلك حتى آخر سورة الناس ، والتي ختمها بقوله :

« أتممت اختصار هذا التفسير الجليل فى المسودة ليكون (عمدة التفسير) بين العشائين يوم الأحد ١٢ محرم سنة ١٣٧٦ هـ - ١٩ / ٨ / ١٩٥٦ م » .

كما كان من فضل الله لإتمام هذا المختصر أن عثرنا على المخطوطة الأزهرية التى حقق بها فضيلة الشيخ أحمد شاكر النص . ولذا سعينا جادين - بعد أن توافر لدينا المختصر كاملا - بخط الشيخ شاكر وكذا المخطوطة لضبط النص - فى إخراجه ليكون المختصر - ولأول مرة - كاملا بين يدى القراء الكرام ، والله نسأل أن يتقبل منا هذا العمل ، وأن يغفر لنا ما كان من خطأ أو تقصير يغلب على طبيعة البشر ، كما أدعوه أن يرحم ويرضى عن أستاذنا وشيخنا أحمد شاكر ، وأن يجمعنا وإياه وكل من أعان فى مستقر رحمته ، والحمد لله رب العالمين .

المنصورة : ١٦ من جمادى الآخرة سنة ١٤٢٣ هـ .

أنور الباز

٢٥ من أغسطس سنة ٢٠٠٢ م .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حق حمده ، حمداً وشكراً ، نسأل ربنا عز وجل أن يتقبلهما بفضلته وكرمه ، وأن يجعلهما خالصين لوجهه الكريم ، ونرجو أن نستوجب بهما المزيد من فضله ونعمائه ، إنه الجواد الكريم ، البر الرحيم ، لا نحصى ثناء عليه ، هو - سبحانه - كما أثنى على نفسه ، إنه العلى الأعلى ، ليس كمثل شئ وهو السميع البصير . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد النبی الأمی ، سيد المرسلين وإمام المهتدين وخاتم النبيين ، وعلى آله وصحبه ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد :

فإن تفسير الحافظ (ابن كثير) أحسن التفاسير التي رأينا وأجودها وأدقها ، بعد تفسير إمام المفسرين أبي جعفر الطبري . ولسنا نوازن بينهما وبين أى تفسير آخر مما بأيدينا ، فما رأينا مثلهما ولا ما يقاربهما .

وقد حرص الحافظ ابن كثير على أن يفسر القرآن بالقرآن أولاً ، ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، ثم بالسنة الصحيحة التي هي بيان لكتاب الله ، ثم يذكر كثيراً من أقوال السلف في تفسير الآي . وإنه ليذكر الأحاديث - في أكثر المواضع - بأسانيداً من دواوين السنة ومصادرها . وكثيراً ما يذكر تعليل الضعيف منها ، ولكنه يحرص أشد الحرص على أن يذكر الأحاديث الصحاح ، وإن ذكر معها الضعاف . فكتابه - بجانب أنه تفسير للقرآن - معلم ومرشد لطلاب الحديث ، يعرف به كيف ينقد الأسانيد والمتون ، وكيف يميز الصحيح من غيره . فهو كتاب - في هذا المعنى - تعليمي عظيم ، ونفقه جليل كثير .

وكان اتصالنا به منذ أكثر من خمس وأربعين سنة ، في طبعته الأولى ببوراق ، التي طبع فيها بهامش تفسير آخر من سنة ١٣٠٠ - ١٣٠٢ هـ . وهي طبعة محرفة لا يكاد يتفح بها نفعاً صحيحاً . ثم طبعه أستاذنا السيد محمد رشيد رضا رحمه الله - ومعه تفسير البغوي - في مطبعة المنار في تسعة مجلدات ، من سنة ١٣٤٣ - ١٣٤٧ هـ ، بأمر جلالة الملك إمام أهل السنة ومحبي مذهب السلف ، وباعث النهضة الإسلامية والعربية الإمام (عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود) رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته . واجتهد أستاذنا رحمه الله في تصحيحه ما استطاع ، ولكن فاته من ذلك الشيء الكثير .

ثم تداولت المطابع في مصر طبعه طبعات تجارية ، ليس فيها تصحيح ولا تحقيق ولا مراجعة . إنما اعتمدوا طبعة المنار ، فأخذوها بما فيها من أغلاط ، ثم زادوها ما استطاعوا من غلط أو تحريف . فكان انتفاع الناس بهذا التفسير العظيم انتفاعاً قاصراً ، لما امتلأت به طبعاته من غلط وتحريف ، يجب معهما أن يعاد طبعه طبعة علمية محققة ، يرجع فيها إلى النسخ

المخطوطة منه ما أمكن ، ثم الرجوع إلى مصادر السنة التى ينقل عنها المؤلف الإمام الحافظ، وإلى مراجع رجال الحديث والتراجم ، لتصحيح أسماء الرجال فى الأسانيد - وهم شئ كثير ، وعدد ضخم .

هذه ناحية ، وناحية أخرى : أن القارئ المتوسط ، الذى يريد أن يصل إلى المقصد الأول من التفسير ، وهو فهم الآيات الكريمة على معناها الصحيح ، الذى يؤيده الكتاب والسنة الصحيحة - يجد أمامه بجرأ خضماً لا يكاد يدرك ساحله ، من الأسانيد والآثار والأقوال ودقائق العلم فى تخريج الأحاديث ونقد الرجال ، مما يجب معه أن نعهد الطريق لهذا القارئ المتوسط ، ونيسر له السبيل . فنضع بين يديه مقاصد هذا التفسير العظيم قريبة صافية ، يفهم منها القرآن الكريم فهماً صحيحاً ، لا يخوض معه عباب الأبحاث الفنية الدقيقة فى تخريج الأحاديث ونقد الرجال ، ولا يطغى عليه اختلاف ألفاظ المفسرين من الصحابة والتابعين فمن بعدهم ، وهى فى الأكثر الأغلب ترجع إلى معنى واحد فى تفسير الآيات .

وقد بدا لى أن أقوم بالعملين : نشر هذا التفسير فى طبعة علمية محققة متقنة ، وإخراج مختصر منه للقارئ المتوسط يحفظ عليه مقاصده - إن شاء الله ذلك ويسره ووفقنى له . ثم رأيت أن أبدأ بالذى هو أيسر وأقرب للناس - وهو التفسير المختصر - وإن كان العمل فيه أكثر مشقة ، وأصعب دقة . بعد طول تردد ، وعمق تفكير ، واستشارة كثير من الإخوان العارفين بالخلصاء الأمانة على العلم والدين ، جزاهم الله عنى وعن العلم أحسن الجزاء ، ووفقنى وإياهم للعمل الصالح، والعلم النافع . واعتمدت « مخطوطة الأزهر » أصلاً لتصحيح نصوص الكتاب ، وهى أقرب إلى الصحة من كل طبعاته ، والخطأ من الناسخ فيها قليل ، يمكن تداركه بسهولة . وسيأتى وصفها فى فصل خاص ، إن شاء الله .

وسميت هذا المختصر : (عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير) وأرجو أن يكون المسمى جديراً باسمه ، إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة .

منهج الاختصار :

١ - حافظت كل المحافظة على الميزة الأولى لتفسير ابن كثير ، الميزة التى انفرد بها عن جميع التفاسير التى رأيناها ، وهى تفسير القرآن بالقرآن، وجمع الآيات التى تدل على المعنى المراد من الآية المفسرة أو تؤيده وتقويه ، فلم أحذف شيئاً مما قاله المؤلف الإمام الحافظ فى ذلك .

٢ - حافظت على آراء الحافظ المؤلف وترجيحاته فى تفسير الآيات ، مجتهداً فى إبقاء كلامه بحروفه ما استطعت .

٣ - اخترت من الأحاديث التى يذكرها أصحابها وأقواها إسناداً ، وأوضحها لفظاً . فإن المؤلف رحمه الله كثيراً ما يذكر الحديث الواحد بروايات متعددة ، ومن أوجه مختلفة .

٤ - حذفت أسانيد الأحاديث التى أذكرها . فإن الحافظ ابن كثير يذكر الأحاديث بأسانيد

مفصلة من دواوين السنة . فيقول مثلاً : « قال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا . . . » - ثم يسوق الإسناد والحديث ، ثم كثيراً ما يذكر بعده تخريجه من الصحاح والسنن وغيرها ، بأسانيداً كاملة ، أو بالإشارة إلى الأسانيد .

٥ - فاكتفيت من ذلك بذكر الحديث عن الصحابي راويه ، أو التابعي إذا كان الصحابي غير مسمى . ثم أذكر بعد ذلك من رواه من الأئمة ، معتمداً في ذلك على ما ذكره المؤلف رحمه الله ، وهو حجة في ذلك . فلم أرجع إلى المصادر التي يذكرها إلا عند الضرورة القصوى ، لتحقيق لفظ الحديث ، أو لغير ذلك من المقاصد العلمية الدقيقة ، التي تتعلق بالرواية أو الدراية . ولم أزد على تخريجه إلا ما لم يكن منه بد .

٦ - حذف كل حديث ضعيف أو معلول ، إلا أن يكون إثباته في موضعه ضرورة علمية : لرفع شبهة ، أو بيان معنى حديث صحيح بحديث ليس ضعيفاً بمرّة ، أو رد على احتجاج به لدى هوى أو ضغن على الإسلام وأهله ، أو غير ذلك من المقاصد العالية .

٧ - حذف المكرر من أقوال الصحابة في التفسير ، وكثيراً من آراء التابعين ، اكتفاء ببعضها . خصوصاً وأنها كثيراً ما تختلف لفظاً وتتفق أو تتقارب معنى ، كما قال المؤلف الحافظ رحمه الله (ص ٤٥ س ١١) : « والكل بمعنى واحد في أكثر الأماكن » .

٨ - نفيت عن كتابي هذا كل الأخبار الإسرائيلية وما أشبهها ، فإن المؤلف رحمه الله قد جذبها (١) في مواضع كثيرة من تفسيره ، وأبان عن خطئها وضررها ، وأنحى باللائمة على روايتها ورواتها ، ورسم لنفسه خطة في شأنها . ومع ذلك فإنه - فيما يبدو لي - لم يستطع أن يسير على ما رسم ، وغلبه ما وجد من الروايات في كثير من المواطن ، فأثبت طائفة منها غير قليلة . فحذفها كلها ، والحمد لله .

٩ - حذف أكثر ما أطال به المؤلف رحمه الله من الأبحاث الكلامية والفروع الفقهية ، والمناقشات اللغوية واللفظية ، مما لا يتصل بتفسير الآية اتصالاً وثيقاً . وأبقيت من ذلك ما لم أجد منه بداً في إيضاح معنى الآية أو تقوية المعنى الراجح المختار في تفسيرها .

١٠ - أحياناً يذكر المؤلف الحافظ حديثاً طويلاً لمناسبة تفسير آية أو لمعنى يتعلق بها ، ولا يكون كله في موضع الشاهد المتعلق بالآية ، بل بعضه فقط .

فرايت أن أقصر في مثل هذه الحال على موضع الشاهد منه ؛ لأن المقصد الأصلي هو التفسير ، لا رواية الحديث كله . وأشير بكلمة تدل على ذلك ، وأضعها بين معكفين هكذا : [دون أن أنه عليه ، ليعلم القارئ أن هذا من صنيعى ، لا من صنيع ابن كثير .

١١ - وأصنع نحو هذا فيما يذكر المؤلف من الأحداث التاريخية المطولة ، التي تتعلق

(١) جذبها : أى ذمها وعابها .

بالتفسير . فأضع الملخص الذى أكتبه بين المعكفين أيضاً ، دلالة على أنه من كلامى لا من كلامه .

١٢ - أما الزيادات التى أضعها بين المعكفين أثناء الكلام ، سواء أكانت زائدة فى المخطوطة الأزهرية على المطبوعة ، أم كانت زيادة من قبلى لتصحيح الكلام ، مما لا يفهم الكلام أو لا يتم إلا به - فإنى أنه على ذلك وعلى سبب الزيادة فى الهامش . حتى يثق المطلع على الكتاب أنى لم أتصرف فى الأصل إلا على أساس علمى صحيح . وأصيب وأخطئ ، كما يخطئ الناس ويصيبون ، والتوفيق من الله .

١٣ - وهناك تغيير أكتفى بالإشارة إليه هنا . وهو ما اقتضاه حذفى للأسانيد التى يسوقها المؤلف للأحاديث - كما بينت فى الفقرتين الرابعة والخامسة : فلما أن أذكر الحديث أولاً ، مبتدئاً باسم الصحابى مثلاً : « عن فلان » ، ثم أذكر الكتب التى نسبها إليه الحافظ . وإما أن أذكر الكتاب الذى روى منه أولاً ، فأقول مثلاً : « روى البخارى » أو « روى الإمام أحمد » ، ثم أكمل التخريج الذى ذكره المؤلف ، بعد سياق الحديث . دون أن أشير فى كل موضع إلى هذا التغيير ، فإنه بديهى ألجأ إليه حذف الإسناد .

١٤ - وتغيير آخر بسيط ، فى سياق أقوال الصحابة أو التابعين فمن بعدهم ، فى تفسير الآيات . فقد أذكر القول ثم أبين قائله ، وقد أقدم اسم قائل ذلك بعد حذف الإسناد إليه - على ما يقضى به نظام الكلام وسياقه .

١٥ - وآيات القرآن الحكيم المفسرة ، التى يذكرها الحافظ ابن كثير ويبدأ بها مجموعة - نرسمها على رسم المصحف العثمانى ، مضبوطة بالشكل الكامل ، على الرسم الثابت فى المصحف الذى طبعته الحكومة المصرية مراراً ، بعد تصحيحه ومراجعته فى لجنة علمية عظيمة ، برئاسة الشيخ محمد بن على بن خلف الحسينى - شيخ المقارئ المصرية إذ ذاك ، رحمه الله - فى سنة ١٣٣٧هـ .

١٦ - ونثبت فى آخر كل آية رقمها على ما فى ذلك المصحف الجليل .

١٧ - وأما الوقوف أثناء الآيات ، فنضع بجوارها شولة هكذا « ، » دون تقييد بالاصطلاح فيه بين : وقف جائز على التساوى ، أو جائز مع أوليته ، أو جائز مع أولوية الوصل . إلا الوقف اللازم ، فإننا نضع فوق الشولة ميماً صغيرة هكذا « م » .

١٨ - وأما الكلمة التى فيها وقفان : قبلها وبعدها ، والتى لا يجوز فيها إلا أحدهما - ولها اصطلاح خاص فى ذلك المصحف - فإننا ستخير أجودهما وأولاهما فى المعنى . مثل « ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢١﴾ » . فإن الوقف بعد « فيه » أدق وأجود من الوقف قبلها .

١٩ - ونضع فى رأس كل صفحة اسم السورة ورقم الآيات المفسرة ، حتى يسهل على القارئ البحث عما يريد من التفسير دون عناء .

٢٠ - ونثبت بجوار أوائل أجزاء القرآن الثلاثين - بالهامش - كلمة « الجزء » وتحتها رقمه .

٢١ - ونثبت بجوار أوائل الأرباع - بالهامش أيضاً - كلمة « ربع » . ومعناها : ربع حزب ، والحزب نصف جزء . ولكننا لا نتقيد بذكر الأحزاب ولا أرقام أرباعها : « نصف الحزب » ، « ثلاثة أرباع الحزب » - المثبتة بهامش المصحف ؛ لأن أكثر الناس لا يعرفون إلا أنها كلها أرباع فذلك أيسر لهم .

٢٢ - وإذا كان أول الربع أول الآيات التي يذكرها الحافظ المفسر ، اكتفينا بكلمة « ربع » . أما إذ كان أثناء الآيات ، فإننا نضع بجواره - بعد رقم الآية التي قبله - نجمة صغيرة هكذا « * » للدلالة على ذلك .

٢٣ - ونكتب بالهامش أيضاً - بجوار مواضع السجودات في الآيات - كلمة « سجدة » ؛ ليعرف موضع السجود عند التلاوة ، إن شاء الله .

وأنا بفطرتي العلمية ، وبما خبرت من شأن الكتب ونفائس التراث الإسلامى العظيم - أكره اختصار الكتب أو أى تصرف فيها . ولكنى لمست الحاجة الماسة والضرورة الملحة لتقريب التفسير للمتوسطين من المثقفين ، الذين لم يمارسوا دقائق العلم ، ولم يتصلوا باصطلاحات العلماء الأئمة فى الفنون ، ولطلاب العلوم الإسلامية فى شتى أنحاء العالم الإسلامى . فرأيت أن لابد مما ليس منه بد .

ثم قوى من عزمى وأزال ترددى ما رأيت فى (مخطوطة الأزهر) من (تفسير ابن كثير) . فإننى وجدتتها قد خلت من كثير مما رأيت حذفه ، كأنها مختصرة من الكتاب ، وما هى بمختصرة . ولكنى رجحت - كآله اليقين - أن الحافظ رحمه الله كان لا يزال ينظر فى كتابه ، فيزيد فيه ما يرى زيادته ، من أبحاث كلامية ، وفروع فقهية ، وأبحاث لغوية ، وأقوال وآراء للعلماء الأئمة . فخرجت نسخ الكتاب مختصرة ومطولة ، كما هو شأن كثير من العلماء الكبار الذين يحرصون على العلم والمعرفة ، والمثل فى ذلك حاضرة ، لا نطيل بذكرها .

وأسال الله العلى القدير أن يوفقنى لإتمام هذا المختصر ، على النحو المفيد المجزى . وأن يوفقنى لإخراج الأصل إخراجاً علمياً صحيحاً . إنه سميع الدعاء ، وهو ولى التوفيق .

كلمات لابن كثير بشأن الإسرائيليات

للمحافظ ابن كثير كلمات قوية فى شأن الإسرائيليات وروايتها، وقد رسم فى بعضها خطته نحوها . ولكنى رأيته - على الرغم من ذلك - يحكى بعضها ، وكثيراً ما يعقب على ما يحكى بالرد . وقد رأيت أن أجمع هنا - فى هذه المقدمة - ما وجدته أثناء قراءتى فيه مما قيدت الإشارة إلى موضعه . وعسى أن أستطيع جمع ما فاتنى من ذلك ، ثم أذكره فى آخر هذا الكتاب (العمدة) إن شاء الله .

فقال فى مقدمة تفسيره (ص ٤٣ ، ٤٤) - بعد أن ذكر حديث : « بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » : « ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد ، لا للاعتضاد . فإنها على ثلاثة أقسام :

أحدها : ما علمنا صحته مما بأيدينا مما نشهد له بالصدق ، فذاك صحيح .

والثانى : ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه .

والثالث : ما هو مسكوت عنه ، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل ، فلا نؤمن به ولا نكذبه ، ونجوز حكايته لما تقدم . وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر دينى ؛ ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب فى مثل هذا كثيراً ، ويأتى عن المفسرين خلاف بسبب ذلك . كما يذكرون فى مثل أسماء أصحاب الكهف ولون كلبهم وعدتهم ، وعصا موسى من أى شجر كانت ؟ وأسماء الطيور التى أحيهاها الله لإبراهيم ، وتعين البعض الذى ضرب به القتل من البقرة ، ونوع الشجرة التى كلم الله منها موسى . . . إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى فى القرآن ، مما لا فائدة فى تعيينه تعود على المكلفين فى دنياهم ولا دينهم ، ولكن نقل الخلاف عنهم فى ذلك جائز . كما قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْبُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ « إلى آخر الآية [الكهف : ٢٢] .

ويقول أحمد محمد شاكر عفا الله عنه : إن إباحة التحدث عنهم فيما ليس عندنا دليل على صدقه ولا كذبه شئ ، وذكر ذلك فى تفسير القرآن ، وجعله قولاً أو رواية فى معنى الآيات ، أو فى تعيين ما لم يعين فيها ، أو فى تفصيل ما أجمل فيها شئ آخر !! لأن فى إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله ما يوهم أن هذا الذى لا نعرف صدقه ولا كذبه مبين لمعنى قول الله سبحانه ، ومفصل لما أجمل فيه ! وحاشا لله ولكتابه من ذلك . وإن رسول الله ﷺ إذ أذن بالتحدث عنهم - أمرنا ألا نصدقهم ولا نكذبهم ، فأى تصديق لرواياتهم وأقوالهم أقوى من أن نقرنها بكتاب الله ونضعها منه موضع التفسير أو البيان ؟! اللهم غفرأ .

وقد قال المحافظ ابن كثير نفسه ، فى تفسير الآية (٥٠) من سورة الكهف - بعد أن ذكر أقوالاً فى « إبليس » واسمه ومن أى قبيل هو ؟! : « وقد روى فى هذا آثار كثيرة عن السلف ، وغالبها من الإسرائيليات التى تنقل لينظر فيها ، والله أعلم بحال كثير منها . ومنها ما قد

يقطع بكذبه ، لمخالفته للحق الذى بأيدينا ، وفى القرآن غنية عن كل ما عده من الأخبار المتقدمة ؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان ، وقد وضع فيها أشياء كثيرة . وليس لهم من الحفاظ المتقنين - الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين - كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء ، والسادة والأتقياء ، والبررة والنجباء ، من الجهابذة النقاد ، والحفاظ الجياد ، الذين دونوا الحديث وحرروه ، وبيّنوا صحيحه من حسنه من ضعيفه ، من منكره وموضوعه ومتروكه ومكذوبه ، وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين ، وغير ذلك من أصناف الرجال . كل ذلك صيانة للجناب النبوى والمقام المحمدى ، خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ - أن ينسب إليه كذب ، أو يحدث عنه بما ليس منه ، فرضى الله عنهم وأرضاهم ، وجعل جنات الفردوس مأواهم . وقد فعل .

وقال عند تفسير الآيات (٥١ - ٥٦) من سورة الأنبياء - بعد إشارته إلى حال إبراهيم عليه السلام مع أبيه ، ونظره إلى الكواكب والمخلوقات : « وما قصه كثير من المفسرين وغيرهم ، فعامتها أحاديث بنى إسرائيل . فما وافق منها الحق بما بأيدينا عن المعصوم قبلناه ؛ لموافقة الصحيح ، وما خالف منها شيئاً من ذلك رددناه ، وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة ، لا نصدقه ولا نكذبه ، بل نجعله وقفاً . وما كان من هذا الضرب منها فقد رخص كثير من السلف فى روايته ، وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه ، ولا حاصل له مما ينتفع به فى الدين ، ولو كانت فائدته تعود على المكلفين فى دينهم لبيتته هذه الشريعة الكاملة الشاملة . والذى نسلكه فى هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية ، لما فيها من تضييع الزمان ، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم . فإنهم لا تفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها ، كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة . »

وقال عند تفسير الآية (١٠٢) من سورة البقرة : « وقد روى فى قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين ، كمجاهد والسدى والحسن البصرى وقتادة وأبى العالية والزهرى والربيع ابن أنس ومقاتل ابن حيان وغيرهم ، وقصها خلق من المفسرين ، من المتقدمين والمتأخرين ، وحاصلها راجع فى تفصيلها إلى أخبار بنى إسرائيل ؛ إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى . وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فيها ، فنحن نؤمن بما ورد فى القرآن على ما أراد الله تعالى ، والله أعلم بحقيقة الحال . »

وقال فى أول سورة ق : « وقد روى عن بعض السلف أنهم قالوا : ق ، جبل محيط بجميع الأرض ، يقال له : جبل قاف ! وكأن هذا - والله أعلم - من خرافات بنى إسرائيل التى أخذها عنهم بعض الناس ، لما رأى من جواز الرواية عنهم بما لا يصدق ولا يكذب . وعندى أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم ، يلبسون به على الناس أمر دينهم . كما افترى فى هذه الأمة - مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها - أحاديث عن النبى ﷺ ، وما

بالعهد من قدم ، فكيف بأمة بنى إسرائيل ، مع طول المدى ، وقلة الحفاظ النقاد فيهم ، وشربهم الخمر ، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه ، وتبديل كتب الله وآياته . وإنما أباح الشارع الرواية عنهم فى قوله : « وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » فيما قد يجوزه العقل . فأما فيما تحيله العقول ، ويحكم فيه بالبطلان ، ويغلب على الظنون كذبه . - فليس من هذا القليل . » .

وقال عند تفسير الآيات (٤١ - ٤٤) من سورة النمل ، وقد ذكر فى قصة ملكة سبأ أثراً طويلاً عن ابن عباس ، وصفه بأنه « منكر غريب جداً » - ثم قال : « والأقرب فى مثل هذه السياقات أنها متعلقة عن أهل الكتاب ، مما وجد فى صحفهم ، كروايات كعب وهب ، سامحهما الله فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بنى إسرائيل ، من الأوابد والغرائب والعجائب ، مما كان وما لم يكن ، وما حرف وبدل ونسخ . وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ . ولله الحمد والمنة . » .

وقال عند تفسير الآية (٤٦) من سورة العنكبوت ، بعد أن روى الحديث : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » - قال : « ثم ليعلم أن أكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وبهتان ؛ لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل . وما أقل الصدق فيه ، ثم ما أقل فائدته لو كان صحيحاً » .

وقال عند تفسير الآية (١٩٠) من سورة الأعراف : « ثم أخبارهم على ثلاثة أقسام : فمنها ما علمنا صحته ، بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله . ومنها : ما علمنا كذبه ، بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً . ومنها : ما هو مسكوت عنه ، فهو المأذون فى روايته ، بقوله عليه السلام : « حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » . وهو الذى لا يصدق ولا يكذب ، لقوله : « فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » .

وهناك قصة طويلة جداً ، رواها النسائي فى باب التفسير من السنن الكبرى - التى لم نرها - وابن أبى حاتم فى تفسيره ، عن ابن عباس ، ويسمياها الحافظ ابن كثير « حديث الفتون » ، ساقه بطوله عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَفَتَّاكَ فُتُونًا ﴾ من الآية (٤٠) من سورة طه - ثم قال : « وهو موقوف من كلام ابن عباس ، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه ، وكأنه تلقاه ابن عباس مما أبيع نقله من الإسرائيليات ، عن كعب الأخبار أو غيره ، والله أعلم . وسمعت شيخنا أبا الحجاج المزى يقول ذلك أيضاً » . وهذا الحديث - حديث الفتون - يشير إليه الحافظ ابن كثير ، فى مواضع متعددة من تفسيره . وقد نفته عن كتابى هذا نفيًا ، ولم أشر إليه إلا مرة واحدة ، عند أول مرة أشار إليه ابن كثير فيها ، عند تفسير الآية (٤٩) من سورة البقرة ، ثم أعرضت عن الإشارة إليه ، إن شاء الله ، فلا أشير إليه إلا أن أضطر إلى ذلك اضطراراً . وأسأل الله التوفيق واليسير ، والهدى والسداد .

ومن أعظم الكلم في الدلالة على تنزيه القرآن العظيم عن هذه الأخبار الإسرائيلية - كلمة لابن عباس رواها البخارى فى صحيحه ، ونقلها عنه الحافظ ابن كثير ، عند تفسير الآية (٧٩) من سورة البقرة . فقال ابن عباس : « يا معشر المسلمين ، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ، وكتابكم الذى أنزل الله على نبيه أحدث أخبار الله ، تقرؤونه محضاً لم يشب ! وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا: هو من عند الله ، ليشتروا به ثمناً قليلاً . أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم ؟ ولا والله ما رأينا منهم أحداً قط سألكم عن الذى أنزل إليكم » . وهذه الموعظة القوية الرائعة ، رواها البخارى فى ثلاثة مواضع من صحيحه ٢١٥/٥ ، و١٣ / ٢٨٢ ، ٤١٤ من فتح البارى .

مخطوطة الأزهر

هى مخطوطة نفيسة فى المكتبة الأزهرية ، تحت رقم (١٦٨ تفسير) . فى سبعة مجلدات ، مجموع أوراقها (٢١٩٥) ورقة ، وهى كاملة إلا خروماً فى المجلد الثالث منها ، وقد صورتها لمكتبتى .

كتبها « محمد بن على الصوفى ، البواب بالخانقاه السمسطائية ، بدمشق المحروسة » ، كما أثبت ذلك ناسخها. وفرغ من كتابتها يوم ١٠ جمادى الأولى سنة ٨٢٥ هـ . أمره بكتابتها « قاضى القضاة ، حاكم الحكام ، نجم الدين ، حجة الإسلام والمسلمين ... عمر ، ابن سيدنا ومولانا ... أبى محمد حجى السعدى الشافعى ... برسم خزانه » . وأثبت كاتبها ذلك فى وثيقة مطولة فى آخر النسخة .

وقاضى القضاة نجم الدين بن حجى ولد سنة ٧٦٧ هـ بدمشق ، ومات فيها قتيلاً ليلة الأحد مستهل ذى القعدة سنة ٨٣٠ هـ . وهو مترجم فى الضوء اللامع للسخاوى ٧٨/٦ ، ٧٩ ، والمدارس فى تاريخ المدارس ١/٢٥٧ ، ٢٥٨ ، والشذرات ٧/١٩٣ . وكنيته عندهم « أبو الفتوح » . ولكن كاتب هذه النسخة قال : « أبو حفص » . فلا أدرى : أكان له كنيان ؟ أم أن ما أثبتته كاتب النسخة أقرب إلى القبول ؛ لأنه من أتباعه ؟ وهذه النسخة يغلب عليها الصحة ، والخطأ فيها قليل ، بما خبرتها فى مواضع كثيرة ، وفى عملى فى هذا الكتاب . ولكن أستاذنا السيد رشيد رضا رحمه الله لم ينصفها حين وصفها . فإنه حين وصف عمله فى إخراج هذا التفسير ، فى آخر كتاب « فضائل القرآن » الذى ألحقه بالمجلد التاسع الأخير منه - قال : « ثم استعزنا من خزانة كتب الجامع الأزهر النسخة الخطية الوحيدة التى فيها ، وليست من الأصول الصحيحة التى يعتمد عليها ، بل هى كثيرة التصحيف والتحريف والسقط » ! وهكذا قال رحمه الله . أما « السقط » ، فقد بينا أنه ليس كذلك ، وإنما هناك نسخ أخرى فيها زيادات زادها الحافظ ابن كثير بعد التأليف . ولعلنا نزيد ذلك بياناً وإثباتاً ، إذا يسر لنا إخراج التفسير كله فى طبعة علمية محققة ، إن شاء الله .

وأما « التصحيف والتحريف » ، فإنه فيها قليل ، مما لا يخلو منه مخطوط أو مطبوع ، بل إنى لأستطيع أن أقرر أن أكثر ما أجد فى مطبوعة المنار من أغلاط وتصحيفات ، أجده ثابتاً على الصواب فى هذه المخطوطة ، « مخطوطة الأزهر » ، وإنى لأجد فى بعض المواضع هامشة لأستاذنا رحمه الله ، يذكر فيها ما فى نسخة الأزهر ، ثم يتبين أنه هو الصواب ، وأن ما أثبت فى صلب الكتاب هو الخطأ أو التصحيف .

والذى أرجحه أن أستاذنا رحمه الله لم يقابل الكتاب على نسخة الأزهر بنفسه ، ولعله عهد بذلك إلى بعض من يلوذ به من الطلاب أو غيرهم ، بعد أن نظر إلى النسخة نظرة عجلية ، على

ما كان من مشاغلة الكثيرة ، وما اعتذر به فى آخر كلمته من المرض الطويل الذى منعه من كل عمل ، رحمه الله رحمه واسعة .

وها هى ذى نماذج مصورة (١) من بعض صحفها ، قد تقنع القارئ ببعض ما أقول ، إن لم يكن به كله . وأسأل الله سبحانه الهدى والسداد ، والعصمة والتوفيق .

أحمد محمد شاكر

الاثنين : ٢٣ ذى القعدة سنة ١٣٧٥ هـ .

عفا الله عنه بيمينه

٢ يوليو سنة ١٩٥٦ م .

(١) ستأتى بعد ترجمة ابن كثير . (الباز) .

بسم الله الرحمن الرحيم (١)

الحمد لله رب العالمين ، حمد الشاكرين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين ، سيدنا محمد رسول الله ، وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد :

فقد اقتنيت قبل الشروع فى هذا الجزء صوراً لخمس مجلدات مخطوطة من تفسير ابن كثير ، من نسخة عتيقة نفيسة صحيحة ، الخطأ فيها نادر جداً ، أحد هذه المجلدات من المكتبة الأزهرية ، وهو المجلد الثالث ، وباقيها من دار الكتب المصرية ، وهى المجلدات ٦ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، وكلها من نسخة واحدة .

فهذه النسخة مقسمة إلى عشر مجلدات ، خلافاً للمخطوطة الأزهرية المقسمة إلى سبع مجلدات (٢). وهذه النسخة العتيقة أقدم من النسخة الأزهرية - على اليقين - بما يظهر من خطها ، بل لعلها كتبت فى حياة المؤلف ، وهو الراجح عندنا ، ويؤيد ذلك : أن ناسخها كتب بهامش ص (٨٥) منها ، عند آخر تفسير الآية : ٩٩ من سورة الأنعام ما نصه : « آخر الجزء الأول من تفسير سورة الأنعام ، من خط المؤلف عفا الله عنه » . فالظاهر من هذا الدعاء - عفا الله عنه : أن المؤلف - رحمه الله - كان حياً عند كتابته .

وقد ضاع باقى هذه النسخة وما يدرينا ، لعلها موجود فى أنحاء من الدنيا لم يصل إلينا علمها ، أو لعل عوادى الزمن أتت عليه ، أو فرقت فى أماكن متعددة ، كما فرقت هذه المجلدات الخمس ، بين المكتبة الأزهرية ودار الكتب المصرية ، فى مدينة واحدة ، هى مدينة القاهرة . وهاك بيان ما اشتملت عليه هذه المجلدات الموجودة :

المجلد الثالث : أوله أول تفسير سورة الأنعام ، وآخره آخر تفسير الآية : ٣٦ من سورة التوبة ، وهو يوافق ص (٤٧١) من المخطوطة الأزهرية . وقد ختم المؤلف رحمه الله تفسير هذه الآية بقوله : « ولنذكر الأحاديث الواردة فى ذلك » . وهذه الجملة ثابتة فى المخطوطة الأزهرية ، وبعدها بياض قبل البدء فى تفسير الآية التى بعدها ، فلم تذكر فيها الأحاديث التى وعد بها الحافظ ابن كثير . وكذلك ثبت فى مطبوعة المنار ١٦٤/٤ . وكتب أستاذنا السيد رشيد رضا بهامش هذا الموضع ما نصه : « ترك المصنف - رحمه الله - بياضاً بعد هذا لذكر الأحاديث التى وعد بها ، والظاهر أنه توفى قبل أن يكتبها .

(١) كتب فضيلة الشيخ أحمد شاكر هذه المقدمة قبل تفسير سورة الأنعام بعد وقوفه على أجزاء لمخطوطة أخرى من دار الكتب المصرية ، حيث قام بضبط النص ابتداء من أول الأنعام حتى الآية رقم (٨) من سورة الأنفال على المخطوطتين . ولم نعر على هذه الأجزاء فاكفينا بضبط النص حتى آخر المختصر على المخطوطة الأزهرية الكاملة . (البار) .

(٢) وصفنا للمخطوطة الأزهرية فى الصفحة السابقة

المجلد السادس : أوله أول تفسير سورة الإسراء ، وآخره آخر تفسير سورة الحج . ولكن فى أوله خمس صفحات وبضعة أسطر من الصفحة السادسة بخط آخر دقيق مخالف لخط سائر النسخة ، متصل بما بعده .

المجلد الثامن : أوله أول تفسير سورة الأحزاب ، وآخره آخر تفسير سورة حم السجدة .
المجلد التاسع : أوله أول تفسير سورة الشورى ، وآخره آخر تفسير سورة الممتحنة ، وفى آخره أربع ورقات بخط آخر مخالف لخطه .

المجلد العاشر : أوله أثناء تفسير الآية : ٢ من سورة الصف ، فهو ينقص ورقة واحدة من أوله ، ثم ينتهى إلى آخر تفسير القرآن الكريم ، ثم يتلوها بالخط نفسه « كتاب فضائل القرآن » للمؤلف ، وضاعت منه الورقة الأخيرة ، والذى كان فيها هو بضعة أسطر من آخر « كتاب فضائل القرآن » ، ويحتمل أن يكون فى هذه الورقة الناقصة اسم الكاتب وتاريخ الكتابة ؛ ولذلك لم نستطع الجزم بتاريخ كتابتها ، لخلو سائر الأجزاء من التاريخ واسم الكاتب .



ومما يجدر التنبيه له ما ذكرنا آنفاً : أن كاتب هذه النسخة كتب بهامش الصفحة (٨٥) من المجلد الثالث : « آخر الجزء الأول من تفسير سورة الأنعام ، من خط المؤلف - عفا الله عنه » . فإنه قد يفهم منه أن المؤلف قسّم تفسير سورة الأنعام إلى أجزاء صغيرة ، فلماذا كان البدء بالجزء الأول من تفسير سورة الأنعام؟! ولماذا لم يكن التقسيم إلى أجزاء من أول تفسير القرآن؟! ثم لماذا لم يذكر الكاتب بعد ذلك - إلى آخر الكتاب - بياناً بتجزئة المؤلف ، واقتصر على بيان « آخر الجزء الأول من تفسير سورة الأنعام »؟!

ليس بين أيدينا فى هذه النسخة ما يفسّر هذا الصنيع ويجيب عن هذه الأسئلة الضرورية فى مثل هذا المقام !! ولكننا وجدنا فى النسخة الأزهرية شيئاً قد يضىء لنا الطريق إلى فهم هذا التصرف ، فإن كاتبها كتب بهامش ص (١٠٨) من الجزء الثالث منها ، قبيل نهاية تفسير الآية : ١٠٠ من سورة الأنعام ما نصه :

« حشد [أى : حاشية] : آخر أول أجزاء المؤلف - رحمه الله - من هذه السورة ، ومن هذه الآية ابتداءً بتعليق هذا التفسير إلى آخر القرآن العظيم ، ثم فسرّ من سورة البقرة إلى ههنا ، ووافق آخر التعليق يوم الجمعة رابع عشرى ذى قعدة ، سنة إحدى وأربعين وسبع مائة ، فكتب الجميع فى نحو أربع سنين » .

فهذه الحاشية توافق ما كتب على هامش النسخة العتيقة : أن آخر الجزء الأول من تفسير سورة الأنعام - فى خط المؤلف - هو آخر تفسير الآية : ٩٩ من هذه السورة ، ثم تفيدنا ثلاث فوائد جديدة :

١ - أن الحافظ ابن كثير بدأ تأليف هذا التفسير من أول الآية : ١٠٠ من سورة الأنعام ، حتى أتم تفسير القرآن العظيم ، ثم رجع عوداً على بدء ، فكتب تمة التفسير من أوله إلى آخر الآية : ٩٩ من سورة الأنعام .

٢ - أنه فرغ من كتابة التفسير يوم الجمعة ٢٤ ذى القعدة سنة ٧٤١ هـ .

٣ - أنه كتب هذا التفسير الجليل فى نحو ٤ سنين .

* * *

ولكن لماذا بدأ الحافظ ابن كثير فى كتابة التفسير من أول الآية : ١٠٠ من سورة الأنعام ؟ ولماذا هذه الآية بالتعين ، وهى ليست بدء سورة، وليست بدء جزء ، وليست بدء ربع حزب؟! ونص الآية : ١٠٠ التى بدأ بتفسيرها ، هو : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ .

لسنا نستطيع أن نعلل هذا التصرف إلا بشئ واحد، قد يكون هو الحقيقة، فى أغلب الظن عندنا ؛ إذ ليس بيدنا دليل آخر يرشدنا إلى تعليله الصحيح ؛ وذلك : أن يكون الحافظ ابن كثير - رحمه الله - بدأ دروساً علمية لتلاميذه فى تفسير القرآن تفسيراً شفوياً فى الدرس فقط ، وأن الرغبة كانت تساوره ليكتب ما يفسر به ، فيتردد فى الكتابة ، أو أن طلابه كانوا يسألونه كتابة التفسير ، فيتراوح بين الإقدام والإحجام ، حتى أتم التفسير الشفوى فى الدرس إلى نهاية الآية : ٩٩ من سورة الأنعام ، ثم زال تردده ، ووقفه الله للعزم على كتابة هذا التفسير الجليل ، فلم يرد أن يقطع الدرس ويستأنف التفسير، فكتب من حيث انتهى فى القراءة ، من بدء الآية : ١٠٠ من سورة الأنعام ، حتى إذا أتم درس التفسير العظيم قراءةً وكتابةً ، استأنف إتمام التفسير من أول الكتاب العزيز، إلى حيث انتهى من قبل، فكان القسم الذى كتبه من سورة الأنعام إلى آخر الآية : ٩٩ هو آخر الجزء الأول من تفسيرها فى خطه ، فهو جزء أول فى تفسيرها ، لهذا السبب ، لا قصداً إلى تقسيم تفسير سورة الأنعام إلى أجزاء ، ولا قصد إلى تقسيم التفسير نفسه كله إلى أجزاء ؛ إذ لو قصد إلى هذا لم يكن أول سورة الأنعام أول أجزاء التفسير، كما هو بديهى .

ولعلنا نجد فيما نستقبل من العمل فيه ، إن شاء الله ، ما يدلنا على حقيقة ما كان . وهذا غاية جهدنا الآن ، والحمد لله رب العالمين .

مساء الاثنين : ٧ رجب سنة ١٣٧٧ هـ .

أحمد شاكر

٢٧ يناير سنة ١٩٥٨ م .

ترجمة الحافظ ابن كثير

الإمام الحافظ الحجة المحدث المؤرخ الثقة ، ذو الفضائل ، عماد الدين ، أبو الفداء : إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير ، القرشي ، الدمشقي ، الشافعي .

ولد رحمه الله بقرية «مِجْدَل» من أعمال «بُصْرَى» (١) . وكان أبوه من أهل «بُصْرَى» ، وأمه من قرية «مِجْدَل» .

وقومه كانوا «ينتسبون إلى الشرف ، وبأيديهم نسب . وقف على بعضها شيخنا المزي فأعجبه وابتهج به ، فصار يكتب في نسبي بسبب ذلك «القرشي» - كما قال هو في ترجمة أبيه في تاريخه «البداية والنهاية» .

وتاريخ مولده سنة ٧٠٠هـ ، كما ذكر أكثر من ترجم له ، «أو بعدها بقليل» كما قال الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة . وهو تاريخ تقريبي ، أرجح أنه مستنبط من كلامه في ترجمة أبيه ، حيث ذكر أن أباه «توفي سنة ٧٠٣هـ وكنت إذ ذاك صغيراً ابن ثلاث سنين أو نحوها ، لا أدركه إلا كالحلم» .

و «ابن ثلاث سنين» لا يعرف تواريخ السنين - على اليقين - في تلك السن . فقد سمع إذن تحديد السنة التي مات فيها أبوه عن حوله من إخوة أو أهل أو جيران . ولكنه يدرك أباه «كالحلم» . فالذي هو في سن أقل من الثلاث ما أظنه يذكر شيئاً «كالحلم» ولا أبعد من الحلم ولا أقرب . فهو حين موت أبيه قد جاوز الثالثة - في أكبر ظني - ولذلك أرجح أن مولده كان في سنة ٧٠٠هـ أو قبلها بقليل . وهو أقرب إلى الصحة من قول الحافظ ابن حجر «أو بعدها بقليل» ؛ لأن الذي «بعدها» لا يكاد يبلغ الثالثة عند موت أبيه .

وكان أبوه «الخطيب شهاب الدين أبو حفص عمر بن كثير» من العلماء الفقهاء الخطباء . ولد - كما قال ابنه - في حدود سنة ٦٤٠هـ . وترجم له ابنه الحافظ في تاريخه الكبير «البداية والنهاية» (١٤ / ٣١ - ٣٣) . ومما قال في ترجمته : «اشتغل بالعلم عند أخواله بني عقبة ببصرى ، فقرأ «البداية» في مذهب أبي حنيفة ، وحفظ «جمل الزجاجي» ، وعنى بالنحو والعربية واللغة ، وحفظ أشعار العرب ، حتى كان يقول الشعر الجيد الفائق في المدح والمراثي وقليل من الهجاء . وقرر بمدارس بصرى بمبرك الناقة شمالي البلدة ، حيث يزار ، وهو المبرك المشهور عند الناس (٢) ! والله أعلم بصحة ذلك .

ثم انتقل إلى خطابة القرية شرقي بصرى ، وتغذى للشافعي ، وأخذ عن النواوى

(١) «مِجْدَل» بكسر الميم وفتحها مع سكون الجيم وفتح الدال . و «بُصْرَى» بضم الباء وسكون الصاد وآخرها ألف مقصورة: بلد بالشام من أعمال دمشق . وهي قصبة كورة «حوران» .

(٢) يريد هؤلاء الناس - فيما يزعمون : مبرك ناقة صالح عليه السلام .

والشيخ تقى الدين الفزارى - وكان يكرمه ويحترمه، فيما أخبرنى شيخنا العلامة ابن الزملكانى . فأقام بها نحواً من ١٢ سنة ، ثم تحول إلى خطابة « مجدل » القرية التى منها الوالدة ، فأقام بها مدة طويلة ، فى خير وكفاية وتلاوة كثيرة . وكان يخطب جيداً ، وله مقول عند الناس ، ولكلامه وقع ، لديانته وفصاحته وحلاوته . وكان يؤثر الإقامة فى البلاد (١) ، لما يرى فيها من الرفق ووجود الحلال له ولعِياله .

وقد ولد له عدة أولاد من الوالدة ومن أخرى قبلها. أكبرهم : إسماعيل ، ثم يونس ، وإدريس . ثم من الوالدة : عبد الوهاب ، وعبد العزيز ، وأخوات عدة . ثم أنا أصغرهم وسميت باسم الأخ « إسماعيل » ؛ لأنه كان قد قدم دمشق ، فاشتغل بها بعد أن حفظ القرآن على والده ، وقرأ مقدمة فى النحو ، وحفظ التنبيه ، وشرحه على العلامة تاج الدين الفزارى ، وحصل المنتخب فى أصول الفقه . قاله لى شيخنا ابن الزملكانى . ثم إنه سقط من سطح الشامية البرانية ، فمكث أياماً ومات . فوجد الوالد عليه وجداً كثيراً ، ورثاه بأبيات كثيرة . فلما ولدت أنا له بعد ذلك سماني باسمه. فأكبر أولاده: إسماعيل، وأصغرهم وآخرهم : إسماعيل . فرحم الله من سلف ، وختم بخير لمن بقى. توفى والدى فى شهر جمادى الأولى سنة ٧٠٣هـ فى قرية مجدل، ودفن بمقبرتها الشمالية عند الزيتون، وكنت إذ ذاك صغيراً ، ابن ثلاث سنين أو نحوها. لا أدركه إلا كالحلم ، ثم تحولنا من بعده فى سنة ٧٠٧هـ إلى دمشق، صحبة « كمال الدين عبد الوهاب » وقد كان لنا شقيقاً، وينا رفيقاً شغوفاً. وقد تأخرت وفاته إلى سنة خمسين [يعنى سنة ٧٥٠هـ] . فاشتغلت على يديه فى العلم، فيسر الله تعالى منه ما يسر ، وسهل منه ما تعسر .

وقد بدأ الاشتغال بالعلم على يد أخيه عبد الوهاب - كما قال آنفا - ثم اجتهد فى تحصيل العلوم على العلماء الكبار فى عصره . وحفظ القرآن الكريم ، وختم حفظه سنة ٧١١هـ ، كما صرح بذلك فى تاريخه ١٤ / ٣١٢ . وقرأ بالقراءات، حتى عده الداودى من القراء (٢) ، وترجم له فى طبقاتهم التى ألفها (٣) . وسمع الحديث من كثير من أئمة الحفاظ فى عصره ، وعنى بالسماع والإكثار منه ، فمما ذكر فى تاريخه ١٤ / ١٤٩ : أنه سمع صحيح مسلم فى تسعة مجالس على الشيخ نجم الدين بن العسقلانى ، بقراءة الوزير العالم أبى القاسم محمد بن سهل الأزدى الغرناطى الأندلسى ، المتوفى بالقاهرة فى ٢٢ محرم سنة ٧٣٠هـ - حين قدم دمشق فى جمادى الأولى سنة ٧٢٤هـ عازماً على الحج .

(١) يعنى القرى .

(٢) الداودى : هو شمس الدين محمد بن على بن أحمد الداودى المصرى ، مات سنة ٩٤٥هـ . ولكن ابن الجزرى لم يذكر ابن كثير فى طبقات القراء .

(٣) وما ينبغى التنبيه إليه : أن « ابن كثير » هذا الحافظ المفسر ، غير « ابن كثير » أحد القراء السبعة . فذلك اسمه « عبد الله بن كثير المكي » ، إمام أهل مكة فى القراءة ، وهو قديم من التابعين ، روى عن ابن الزبير وأنس بن مالك . ولد سنة ٤٥هـ ، ومات سنة ١٢٠هـ .

وذكر في ترجمة شيخه الكبير المعمر الرحلة شهاب الدين الحجار المعروف بابن الشحنة :
أنه سمع عليه « بدار الحديث الأشرفية في أيام الشتويات نحواً من خمسمائة جزء بالإجازات
والسماع » . وهذا الشيخ « عاش مائة سنة محققاً ، وزاد عليها » . وتوفي سنة ٧٣٠ هـ .
(التاريخ ١٤ / ١٥٠) .

وتفقه على الشيخين برهان الدين الفزاري وكمال الدين ابن قاضي شهبة . وحفظ التنبيه
للشيرازي في فروع الشافعية ، ومختصر ابن الحاجب في الأصول . ولزم الحافظ الكبير أبا
الحجاج المزى ، وقرأ عليه مؤلفه العظيم في الرجال « تهذيب الكمال » . وصاهره على ابنته
زينب (١) . وكان من أعظم تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية ، ولازمه وتخرج على يديه ،
وكانت له به خصوصية ومناضلة عنه ، واتباع له في كثير من آرائه ، وكان يفتى برأيه في مسألة
الطلاق (٢) ، وامتنح بسبب ذلك وأذى .

وكان من أفاض العلماء في عصره، أثنى عليه معاصروه وتلاميذه ومن بعدهم الثناء الجم:
فذكره الحافظ الذهبي في طبقات الحفاظ ٤ / ٢٩ ، مع أن الذهبي يكاد يكون من طبقة
شيوخه؛ لأنه مات سنة ٧٤٨ هـ، قبل ابن كثير بـ ٢٦ سنة . فقال في طبقات الحفاظ : « سمعت
مع الفقيه المفتي المحدث ، ذى الفضائل ، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير البصري
الشافعي . . . سمع من ابن الشحنة وابن الرداد وطائفة . له عناية بالرجال والمتون والفقه .
خرج وناظر وصنف وفسر وتقدم » . وقال الذهبي في المعجم المختص - فيما نقله ابن حجر
 وغيره : « الإمام المفتي المحدث البار ، فقيه متفنن ، محدث متقن ، مفسر نقال » .

وقال تلميذه شهاب الدين بن حجي : « كان أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث ،
وأعرفهم بتخريجها ورجالها ، وصحيحها وسقيمها . وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك .
وكان يستحضر كثيراً من التفسير والتاريخ ، قليل النسيان . وكان فقيهاً جيد الفهم صحيح
الذهن ، ويحفظ التنبيه إلى آخر وقت . ويشارك في العربية مشاركة جيدة ، وينظم الشعر .
وما أعرف أني اجتمعت به - على كثرة ترددي عليه - إلا واستفدت منه » . (عن النعيمى في
كتاب الدارس) .

وقال تلميذه الحافظ أبو المحاسن الحسينى في ذيل تذكرة الحفاظ (ص ٥٨) : « وصاهر
شيخنا أبا الحجاج المزى فأكثر عنه ، وأفتى ودرس وناظر ، وبرع في الفقه والتفسير والنحو ،
وأمن النظر في الرجال والعلل » .

وقال الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة : « ولازم المزى ، وقرأ عليه تهذيب الكمال ،
وصاهره على ابنته . وأخذ عن ابن تيمية ففتن بحبه ، وامتنح بسببه . وكان كثير الاستحضار ،

(١) ذكرها باسمها في ترجمة شيخه الحافظ المزى ، التوفى سنة ٧٤٢ هـ . (التاريخ ١٤ / ١٩١ ، ١٩٢) .

(٢) أى وقوع الطلاق الثلاث بلفظ واحد طلقة واحدة ، كما هو الحق الذى تدل عليه الدلائل الصحاح .

حسن المفاكهة . سارت تصانيفه فى البلاد فى حياته ، وانتفع بها الناس بعد وفاته . ولم يكن على طريقة المحدثين فى تحصيل العوالى ، وتمييز العالى من النازل ونحو ذلك من فنونهم ، وإنما هو من محدثى الفقهاء . وقد اختصر مع ذلك كتاب ابن الصلاح (١) ، وله فيه فوائد .

ونقل السيوطى فى ذيل طبقات الحفاظ كلام الحافظ ابن حجر فى أنه « لم يكن على طريقة المحدثين ... » ثم تعقبه بقوله : « العمدة فى علم الحديث معرفة صحيح الحديث وسقيمه ، وعمله واختلاف طرقة ، ورجاله جرحاً وتعديلاً . وأما العالى والنازل ونحو ذلك - فهو من الفضلات ، لا من الأصول المهمة . » وهذا حق . وقال السيوطى أيضاً : « له التفسير الذى لم يؤلف على نمطه مثله » . يشير إلى هذا التفسير العظيم الذى نختصره .

وقال العلامة العينى - فيما نقل عنه ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة : « كان قدوة العلماء والحفاظ ، وعمدة أهل المعانى والألفاظ . وسمع وجمع ، وصنف ودرس ، وحدث وألف . وكان له اطلاع عظيم فى الحديث والتفسير والتاريخ ، واشتهر بالضبط والتحرير ، وانتهى إليه علم التاريخ والحديث والتفسير . وله مصنفات عديدة مفيدة » .

ووصفه الحافظ العلامة شمس الدين بن ناصر ، فى كتاب « الرد الوافر » - بأنه « الشيخ الإمام العلامة الحافظ ، عماد الدين ، ثقة المحدثين ، عمدة المؤرخين ، علم المفسرين » .

وقال فيه ابن حبيب - فيما نقل الداودى فى طبقات القراء وابن العماد فى الشذرات : « إمام ذوى التسبيح والتهليل ، وزعيم أرباب التأويل . سمع وجمع وصنف ، وأطرب الأسماع بأقواله وشئف ، وحدث وأفاد ، وطارت فتاويه إلى البلاد ، واشتهر بالضبط والتحرير ، وانتهت إليه رياسته العلم فى التاريخ والحديث والتفسير » .

وروى له الحافظ ابن حجر فى إنباء الغمر ، وابن العماد فى الشذرات - البيتين المشهورين ، الذائعين على الألسنة :

تمر بنا الأيام تترى وإنما نساق إلى الآجال والعين تنظر

فلا عائد ذاك الشباب الذى مضى ولا زائل هذا المشيب المكدر

وصحبته وملازمته لشيخ الإسلام ابن تيمية أفادته أعظم الفوائد ، فى علمه ودينه ، وتقوية خلقه ، وتربية شخصيته المستقلة الممتازة .

فهو مستقل رأى ، يدور مع الدليل حيث دار ، لا يتعصب لمذهبه ولا لغيره . وكتبه العظيمة - وخاصة هذا التفسير الجليل - فيها الدلائل الوافرة . ونجده - مع أنه شافعى المذهب -

(١) كتابه هذا هو « اختصار علوم الحديث » . طبع أول مرة فى مكة المكرمة بالمطبعة الماجدية سنة ١٣٥٣هـ ، بتصحيح أخينا العلامة الكبير الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة ، أحد كبار المدرسين الآن بالحرم المكي . ثم شرحت أنا شرحاً متوسطاً ، وطبع فى مصر فى شهر ذى القعدة سنة ١٣٥٥هـ . ثم أعدت طبعه مرة أخرى مع زيادات وتنقيح فى الشرح ، فى شهر ذى الحجة سنة ١٣٧٠هـ .

يفتى فى مسألة الطلاق الثلاث بلفظ واحد ، بما رجحته الدلائل الثابتة الصحاح ، أنه يقع طلبة واحدة ، ثم يمتحن ويلقى الأذى ، فيثبت على قوله ، ويصبر على ما يلقي فى سبيل الله .

وهو - وهو تلميذ شيخ الإسلام ومن خاصة أنصاره - يعرف ما كان بين شيخه شيخ الإسلام وبين قاضى القضاة تقي الدين السبكي - ومع ذلك فإنه لا يعين عليه فى محنة لحقته ، بل يعلن عن غبطته بأن تزول عنه المحنة . فيذكر فى التاريخ - فى حوادث سنة ٧٤٣هـ (١٤ / ٢٠٤) أنه أرجف الناس كثيراً بقاضى القضاة - فى دمشق - « واشتهر أنه سينعقد له مجلس للدعوى عليه بما دفعه من مال الأيتام إلى الطنبغا وإلى الفخرى . وكتبت فتوى عليه بذلك فى تغريمه ، وداروا بها على المفتين ، فلم يكتب لهم أحد فيها غير القاضى جلال الدين ابن حسام الدين الحنفى ، رأيت خطه عليها وحده بعد الصلاة . وسئلت فى الإفتاء عليها فامتنعت ، لما فيها من التشويش على الحكام » . ثم يقول : « وكانوا له فى نية عجيبة ، ففرج الله عنه بطلبه إلى الديار المصرية » . فهذا خلق أهل العلم النبلاء الاتقياء .

وقد طار ذكره فى الأقطار الإسلامية ، حتى إنه ليذكر فى حوادث سنة ٧٦٣هـ (١٤ / ٢٩٤ ، ٢٩٥) أن شاباً عجمياً حضر من بلاد تبريز وخراسان ، « يزعم أنه يحفظ البخارى ومسلماً ، وجامع المسانيد والكشاف للزمخشري وغير ذلك » ، وأنه امتحنه بقراءة مجالس من البخارى وغيره بحضرة قاضى القضاة الشافعى وجماعة من الفضلاء ، ثم قال : « وفرح بكتابتي له بالسماع على الإجازة . وقال : أنا ما خرجت من بلادى إلا إلى القصد إليك ، وأن تميزنى . وذكرك فى بلادنا مشهور » .

وهذا الخبر يدل على أن كتابه « جامع المسانيد » وصل إلى أقصى الشرق ، فى بلاد تبريز وخراسان ، حتى يحفظه هذا الشاب الأعجمى أو يحفظ شيئاً منه . فى حين أن الحافظ ابن كثير لم يتم تأليف « جامع المسانيد » كما هو معروف . فكان العلماء وطلاب العلم كانوا ينسخون ما يخرج منه ، ويتداولونه بينهم ، حتى يصل من دمشق إلى تلك النواحي النائية .

ولم يكن ممن يخدع فى الفتاوى التى ظاهرها قصد الاستفتاء ، ووراءها ألاعيب سياسية ، أو أغراض شخصية غير سليمة ، وإن كان المستفتى من الأمراء أو ممن يخشى بأسه . فهو يقول فى حوادث سنة ٧٦٢هـ : « وجاءتني فتيا صورتها : ما تقول السادة العلماء فى ملك اشترى غلاماً فأحسن إليه وأعطاه وقدمه ، ثم إنه وثب على سيده فقتله وأخذ ماله ومنع ورثته منه ؟ وتصرف فى المملكة ، وأرسل إلى بعض نواب البلاد ليقدم عليه ليقتله : فهل له الامتناع منه ، وهل إذا قاتل دون نفسه وماله حتى يقتل يكون شهيداً ؟ وهل يثاب الساعى فى خلاص حق ورثة الملك المقتول من القصاص والمال ؟ أفتونا مأجورين ؟ » .

فهذا استفتاء صيغ فى صورة توحى بالجواب . وباطنه أن ذاك الأمير السائل يريد أن يمتنع على الملك الذى دعاه للحضور عنده ، ويريد أن يثير فتنة وقتالاً على صاحب الأمر ، لعله يصل

إلى ما يصل إليه ذاك من الملك ، كعادة الأمراء من الممالك في ذلك العهد . ولكن ابن كثير يجيبه جواباً حكيماً يكشف عن بعض مقصده ، ويضمن جوابه النصيحة في مثل هذه الحال ، فيقول : « فقلت للذي جاءني بها من جهة الأمير : إن كان مراده خلاص ذمته فيما بينه وبين الله تعالى - فهو أعلم بنيته في الذي يقصده ! ولا يسعى في تحصيل حق معين إذا ترتب على ذلك مفسدة راجحة في ذلك ، فيؤخر الطلب إلى وقت إمكانه بطريقه ! وإن كان مراده بهذا الاستفتاء أن يتقوى بها في جمع الدولة والأمراء عليه - فلا بد أن يكتب عليها كبار القضاة والمشايخ أولاً ، ثم بعد ذلك بقية المفتين بطريقه » . (التاريخ ١٤ / ٢٨١ ، ٢٨٢) .

وكان الإفرنج قد غدروا بمدينة الإسكندرية ، وأشاعوا فيها الرعب ، وارتكبوا الفظائع غدراً . وذلك : أنهم وصلوا إليها من البحر يوم الأربعاء ٢٢ محرم سنة ٧٦٧ هـ « فلم يجدوا بها نائباً ولا جيشاً ، ولا حافظاً للبحر ولا ناصراً . فدخلوها يوم الجمعة بكرة النهار ، بعد ما حرقوا أبواباً كثيرة منها . وعاثوا في أهلها فساداً ، يقتلون الرجال ، ويأخذون الأموال ، ويأسرون النساء والأطفال ، فالحكم لله العلى الكبير المتعال . وأقاموا يوم الجمعة والسبت والأحد والاثنين والثلاثاء ، فلما كان صبيحة الأربعاء قدم الشاليش المصري ^(١) ، فأقلعت الفرنج - لعنهم الله - عنها ، وقد أسروا خلقاً كثيراً يقاربون الأربعة آلاف ، وأخذوا من الأموال ذهباً وحريراً وبهاراً وغير ذلك ، ما لا يحد ولا يوصف . وقدم السلطان والأمير الكبير يلغا ظهر يومئذ وقد تفارط الحال ، وتحولت الغنائم كلها إلى الشوائن بالبحر ، فسمع للأسارى من العويل والبكاء والشكوى والجأر إلى الله ، والاستغاثة به وبالمسلمين - ما قطع الأكباد ، وذرفت له العيون وأصم الأسماع . فإنا لله وإنا إليه راجعون . ولما بلغت الأخبار إلى أهل دمشق شق عليهم ذلك جداً ، وذكر ذلك الخطيب يوم الجمعة على المنبر ، فبكاى الناس كثيراً . فإنا لله وإنا إليه راجعون » .

فهذه وقعة شنيعة غادرة من الإفرنج - كعاداته - والنفوس تنقز من مثلها ، وتثور من أجلها . والملوك والأمراء الظالمون يتتهزون فرصة تعبئة الرأي العام الإسلامى - وثورته من أجل هذا الغدر ، وغضباً لهذه الفظائع - ليأكلوا أموال الناس بالباطل ، وظاهر أمرهم الانتقام وباطنه السلب والنهب . ولكن الحافظ ابن كثير يلزم جانب الحق والعدل ، ولا يرضى بالظلم ، ولو كان ظاهره الانتقام والثار للمسلمين . فيقول : « وجاء المرسوم الشريف من الديار المصرية ، إلى نائب السلطنة ، بمسك النصارى من الشام جملة واحدة ، وأن يأخذ منهم ربع أموالهم ، لعمارة ما خرب من الإسكندرية ، ولعمارة مراكب تغزو الإفرنج . فاهانوا النصارى ، وطلبوا من بيوتهم بعنف . وخافوا أن يقتلوا ، ولم يفهموا ما يراد بهم فهربوا كل مهرب . ولم تكن هذه

(١) فى النجوم الزاهرة (٢٩/١١) طبعة دار الكتب المصرية) : « فلما وصل السلطان إلى الطرانة أرسل جاليشاً من الأمراء أمامه فى خفية . . . » . وكتب مصححه الأستاذ محمد البرهامى منصور ، بهامشة : « الجاليش : مقدمة الجيش والراية العظيمة فى رأسها خصلة من الشعر » . وهى كلمة أعجمية - لعلها تركية أو فارسية - وفى مثلها الجيم شديدة التعطيش - بين الجيم والشين ، فيجوز تعريبها جيماً أو شيئاً ، مثل « شايش » و « جاويش » .

الحركة شرعية ولا يجوز اعتمادها شرعاً . وقد طلبت يوم السبت السادس عشر من صفر [أى سنة ٧٦٧ هـ] إلى الميدان الأخضر ، للاجتماع بنائب - السلطنة ، وكان اجتماعنا بعد العصر يومئذ ، بعد الفراغ من لعب الكرة ، فرأيت منه أنسا كبيراً ، ورأيت كامل الفهم ، حسن العبارة كريم المجالسة . « فذكرت له أن هذا لا يجوز اعتماده فى النصارى » [يعنى المرسوم بالمصادرة] . فقال : إن بعض فقهاء مصر أفتى للأمير الكبير بذلك ! قلت له : هذا مما لا يسوغ شرعاً ، ولا يجوز لأحد أن يفتى بهذا . ومتى كانوا باقين على الذمة ، يؤدون إلينا الجزية ملتزمين بالذلة والصغار ، وأحكام الملة قائمة - لا يجوز أن يؤخذ منهم الدرهم الواحد الفرد فوق ما يذلونه من الجزية . ومثل هذا لا يخفى على الأمير ! فقال : كيف أصنع وقد ورد المرسوم بذلك ؟ ولا يمكننى أن أخالقه ! ؟ . ثم ذكر أن نائب السلطنة كتب بذلك إلى الديار المصرية . ولكن هذا النائب لم يكن عند قوله ، فنفذ المرسوم ، وطلب النصارى الذين اجتمعوا فى كنيستهم إلى بين يديه ، وهم قريب من أربعمائة ، فحلفهم : كم أموالكم ؟ والزهم بأداء الربيع من أموالهم ، فإننا لله وإنا إليه راجعون . وكانت هذه المصادرة الظالمة فى شهر ربيع الأول سنة ٧٦٧ هـ . ثم قال الحافظ - فى حوادث شهر ربيع الآخر : « وفى أوائل هذا الشهر ورد المرسوم الشريف السلطانى ، بالرد على نساء النصارى ما كان أخذ منهن مع الجباية التى كان تقدم أخذها منهن وإن كان الجميع ظلماً ، ولكن الأخذ من النساء أفحش وأبلغ فى الظلم » . (التاريخ ١٤ / ٣١٥ ، ٣١٨) .

فانظر إلى هذا الإمام العظيم ، الذى يقف عند حدود الشريعة المطهرة ، يقيم ميزان العدل الصحيح كما عرفه من دينه الحنيف ، ويألم ويسترجع لما ناب النصارى من مصادرة ظالمة من أمراء طغاة جائرين ، كما ألم واسترجع من قبل لما أصاب المسلمين من غدر النصارى وبغيهم ، وشتان هذا وذاك . ولكنه لا يرضى إلا أن يقيم ميزان العدل .

فكان هذا العقل المستقل الثابت على الحق ، والذى لا تغلبه العواطف والأهواء ، مما يجعل للرجل منزلة عند الناس كبيرة . يثق به أنصاره وغير أنصاره ، وموافقوه ومخالفوه . بل جعله موضع الثقة والاستشارة عند الذميين ، حتى ليستشير بعض رؤسائهم ، فى أخص شؤونهم الكنيسية . فإنه يذكر قصة طريفة ، فى استشارة أحد البطاركة إياه فى ذلك ، يحسن أن نذكرها بعبارته بحروفها :

فقال - فى حوادث سنة ٧٦٧ هـ : « وحضر عندى يوم الثلاثاء تاسع شوال ، البترك بشارة ، الملقب بميخائيل ، وأخبرنى أن المطارنة بالشام بايعوه على أن جعلوه بتركاً بدمشق عوضاً عن البترك بأنطاكية . فذكرت له أن هذا أمر مبتدع فى دينهم ، فإنه لا تكون البتاركة إلا أربعة : بالإسكندرية ، وبالقدس ، وبأنطاكية ، وبرومية . فنقل رومية إلى إسطنبول ، وهى القسطنطينية ، وقد أنكر عليهم كثير منهم إذ ذاك ، فهذا الذى ابتدعوه فى هذا الوقت أعظم من ذلك . لكن اعتذر بأنه فى الحقيقة هو عن أنطاكية ، وإنما أذن له فى المقام بالشام الشريف ، لأجل أنه أمره

نائب السلطنة أن يكتب عنه وعن أهل ملتهم إلى صاحب قبرص ، يذكر له ما حل بهم من الخزي والنعكس والجناية بسبب عدوان صاحب قبرص على مدينة الإسكندرية . وأحضر لى الكتب إليه وإلى ملك إسطنبول، وقرأها على من لفظه . لعنه الله ولعن المكتوب إليهم أيضاً !! وقد تكلمت معه فى دينهم ، ونصوص ما يعتقده كل من الطوائف الثلاثة ، وهم : الملكية ، واليعقوبية - ومنهم الإفرنج والقطب - والنسطورية ، فإذا هو يفهم بعض الشيء . ولكن حاصله أنه حمار ، من أكفر الكفار ! لعنه الله . (التاريخ ١٤/٣١٩ ، ٣٢٠) .

ولا يعجبني القارئ من أن ابن كثير أعلم بعقائد طوائف النصارى من أحد بشاركتهم . استغفر الله ، بل إنه يذكر عن ذاك البترك ميخائيل الذى تكلم معه « أنه يفهم بعض الشيء » ؛ لأن ابن كثير رحمه الله من أوسع العلماء اطلاعاً على أقوال أهل الملل والنحل ، وخاصة مذاهب المسيحيين ، كما يدل عليه كلامه فى مواضع كثيرة فى التفسير والتاريخ ، بل يكفى فى الدلالة على سعة اطلاعه فى ذلك أن يكون تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية ، ذلك الذى ألف موسوعته النفيسة فى ذلك : « كتاب الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » . وهو مطبوع معروف .

وكان - رحمه الله - قد أضر فى آخر عمره . ثم مات يوم الخميس ٢٦ شعبان سنة ٧٧٤هـ . وقال ابن ناصر : « وكانت له جنازة حافلة مشهورة . ودفن بوصية منه فى تربة شيخ الإسلام ابن تيمية ، بمقبرة الصوفية ، خارج باب النصر من دمشق » . مؤلفاته :

له مؤلفات كثيرة ، ما أظن أنى أستطيع استقصاءها الآن ، وبعضها مفقود ، أو لم نعرف مكان وجوده إلى الآن . وهو يشير إلى كثير منها فى التفسير وغيره من كتبه عند المناسبات . وسنذكر هنا ما وصل إليه علمنا ، وجله ومعظمه مما ذكره أخونا العلامة الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة ، فى ترجمته إياه فى كتاب (اختصار علوم الحديث) :

١ - التفسير . وهو هذا الكتاب الذى نختصره ، وقد فصلنا وصفه فى المقدمة .

٢ - البداية والنهاية . وهو التاريخ النفيس المعروف . طبع منه بمصر سنة ١٣٥٨هـ - ١٤ مجلداً كبيراً ، أرخ فيه من بدء الخليقة إلى أثناء سنة ٧٦٨هـ ، أى قبل وفاته بنحو ٦ سنوات . وبقي منه مجلدان لم يطبعوا . وهو القسم الأخير منه المشار إليه فى اسمه « النهاية » ، جمع فيه ما ورد من الأخبار فى الفتن وأشراف الساعة والملاحم وأحوال الآخرة .

٣ - السيرة النبوية (مطولة) . ولم نره ، ولكنه أشار إليه وإلى السيرة المختصرة فى تفسير الآية (٦) من سورة الأحزاب « فى كتاب السيرة التى أفردناها موجزاً وبسيطاً » .

٤ - السيرة (مختصرة) . وقد طبعت بمصر سنة ١٣٥٨هـ تحت اسم « الفصول فى اختصار سيرة الرسول » . وهذا المطبوع غير كامل يقيناً . فلا أدري أقتصر المؤلف رحمه الله

على هذا القدر ؟ أم فقد باقى الكتاب ؟ فإنه يقول فى خطبة الكتاب : « لا يجمل بأولى العلم إهمال معرفة الأيام النبوية والتواريخ الإسلامية » . ثم يقول : « وقد أحببت أن أعلق تذكرة فى ذلك ... وهى مشتملة على ذكر نسب رسول الله ﷺ وسيرته وأعلامه ، وذكر أيام الإسلام بعده ، إلى يومنا هذا » . ولكن المطبوع هو السيرة النبوية فقط ، عن مخطوطة (مكتبة عارف حكمت) بالمدينة المنورة . فالكتاب ناقص ييقن .

٥ - اختصار علوم الحديث . اختصر فيه مقدمة ابن الصلاح فى المصطلح .

وقد طبع بمكة ، وطبعته بشرحى مرتين ، كما بينت آنفاً ص : ٢٦ .

٦ - جامع المسانيد والسنن . ذكره الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة باسم (الهدى والسنن فى أحاديث المسانيد والسنن) ، وأنه « جمع فيه بين مسند الإمام أحمد والبخارى وأبى يعلى وابن أبى شيبة مع الكتب الستة » . ولست أدري حقيقة هذا الوصف ، فإن المؤلف رحمه الله لم يتمه ، ثم المقدار الذى عمله لم يوجد منه إلا سبعة مجلدات بدار الكتب المصرية . وقد صورت المجلد الأخير منها . وفيه معظم (مسند أبى هريرة) ، رتب فيه الأحاديث من مسند أحمد على أسماء التابعين الرواة عن أبى هريرة - على حروف المعجم . وأول هذا المجلد أثناء حرف الجيم ، وأول الأسماء فيه « جعفر بن عياض المدنى عنه » ، يعنى عن أبى هريرة . وآخره « آخر مسند أبى هريرة » . وهو فى (٢٦٩) ورقة . وقد درسته طويلاً ، بعملى فى « مسند أبى هريرة » من مسند الإمام أحمد . ولم أجد فيه إشارة إلى « البخارى وأبى يعلى وابن أبى شيبة » ولكن تكثر الإشارة فيه إلى الكتب الستة . ولست أدري خطته فيه بالدقة ، فإنه محتاج إلى دراسة وافية ، بعد تصوير سائر المجلدات الموجودة . ومجموع أوراق المجلدات السبعة - على ما فيها من خروم (٢٢٨٠) ورقة .

٧ - التكميل فى معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل جمع فيه كتابى شيخيه : المزى والذهبى ، (تهذيب الكمال) و (ميزان الاعتدال) مع زيادات فى الجرح والتعديل .

٨ - مسند الشيخين : أبى بكر وعمر .

٩ - رسالة فى الجهاد . وهى مطبوعة .

١٠ - طبقات الشافعية ، ومعه مناقب الشافعى .

١١ - اختصار كتاب (المدخل إلى كتاب السنن) للبيهقى .

١٢ - كتاب (المقدمات) . ولعله فى المصطلح .

١٣ - تخريج أحاديث أدلة التنبيه - فى فروع الشافعية .

١٤ - تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب - فى الأصول .

١٥ - شرح صحيح البخارى - شرع فيه ولم يكمله ، وأشار إليه مراراً فى كتبه .

١٦ - كتاب (الأحكام) وهو كتاب كبير لم يكمله - وصل فيه إلى « الحج » .

مصادر الترجمة:

البداية والنهاية . وهو التاريخ الكبير لابن كثير - الجزء ١٤ ، طبعة مصر ١٣٥٨هـ .

تذكرة الحفاظ للذهبي ، طبعة حيدر آباد ١٣٣٤هـ .

الدارس في تاريخ المدارس للنعمى الجزء الأول ، طبعة دمشق ١٣٦٧هـ .

الدور الكامنة للحافظ ابن حجر الجزء الأول ، طبعة حيدر آباد ١٣٤٨هـ .

ذبول تذكرة الحفاظ للحسينى ، طبعة مصر ١٣٤٧هـ .

ذبول تذكرة الحفاظ للسيوطى ، طبعة مصر ١٣٤٧هـ .

النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، الجزء ١١ ، طبعة دار الكتب المصرية ١٣٦٩هـ .

شذرات الذهب لابن العماد ، الجزء ٦ ، طبعة مصر ١٣٥١هـ .

الرد الوافر لابن ناصر الدين ، الجزء ٦ ، طبعة مصر ١٣٢٩هـ .

ترجمته بقلم الأخ العلامة الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة فى أول (اختصار علوم الحديث)

بشرحنا ، طبعة مصر ١٣٧٠هـ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الشيخ الامام العالم الاوحد الباق المات في القرن الثاني من الهجرة النبوية
 اي حضر من كثير الشافعي رحمه الله تعالى ورضي عنه في الحديث الذي اخرج كتابه بالحد
 فقال الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ملك يوم الدين وقال تعالى الحمد لله الذي ابدى
 على عبد الكتاب بولس لم يزل له عوجا في عينيه اذنه وجفرا في عينيه للذين يعملون الاضاحات
 ان لم يزلوا احسن ما كنتم فيه ابدا وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم
 ولا يابهم كبريت كلما تخرج من افواههم ان يقولون الا كذبا وقال تعالى خلقه بالحمد
 فقال تعالى الحمد لله الذي خلق السموات والارض وحمل النجالات والنور ثم الذين كبروا
 بهم بعد لون واستحقوا لعنهم فقال الحمد لله الذي خلق السموات والارض وحمل النجالات
 الملك المنان فيقول الحمد لله الذي خلق السموات والارض وحمل النجالات وقال
 العالمين الحمد لله الذي خلق السموات والارض وحمل النجالات وقال العالمين الحمد لله الذي
 اكرم واليه ترجعون كما قال الحمد لله الذي خلق السموات والارض وحمل النجالات
 في الاخرة وهو اعلم الحكيم الحمد لله الذي خلق السموات والارض وحمل النجالات
 خالق هو الحمد لله الذي خلق السموات والارض وحمل النجالات وقال العالمين الحمد لله الذي
 الارض وما لا شئ من شئ بعد الحمد لله الذي خلق السموات والارض وحمل النجالات
 بل من النفس اي سبحانه وتعالى وحده وانه عدد انفسهم لا يدرون من خلقهم نعم عليهم
 وقال الحمد لله الذي خلق السموات والارض وحمل النجالات وقال العالمين الحمد لله الذي
 والارض والسموات الحمد لله الذي خلق السموات والارض وحمل النجالات وقال العالمين الحمد لله الذي
 دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحتهم فيها سلام واخبرهم ان الحمد لله رب
 العالمين وحمد لله الذي ارسل رسله مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على
 الله حجة بعد الرسل وختمهم بالنبي الامي العربي للملك الهادي لا اوضح السبل ارسله
 الى جميع خلقه من الانس والجن من اذن بعثته الى قيام الساعة كما قال تعالى
 الحمد لله الذي خلق السموات والارض وحمل النجالات وقال العالمين الحمد لله الذي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هل صليت قلت لا قال قم فصل قال فقلت فصليت ثم جلست فقال يا بادر
 نفوذ بالله من شياطين الانس والجن قلت يرسل الله ولا شياطين قال
 نعم قال قلت يرسل الله الصلاة قال خير موضوع من شياطين اكل وشيا
 اكثر قلت يرسل الله الصوم قال فرض مجزى وعبد الله يريد قلت يرسل
 الله الصدقة قال اضعاف مضاعفة قلت يرسل الله قايما افضل فقال جهد
 من عقل او سيرا الى فقير قلت يرسل الله اى الانبياء كان اول قال ادم قلت
 يرسل الله وسى كان قال نعم نبي تكلم قلت يرسل الله كبر المرسلون قال
 ثلثمائة وبضعة عشر جمعا غفيرا وقال مع نفسه عشر قلت يرسل الله اى ما
 انزل عليك اعظم قال ايه الكوسى الله لا اله الا هو احيى القوم ورواه
 النسائى من حديث ابى عمير الدمشقى به وقد اخرج هذا الحديث مطولا جدا
 ابو حاتم من جبان فى صحيحه بخبرين اخر ولله اخر رسول جدا قال الله اعلم ورواه
 الامام احمد وكيع عن سفيان عن منصور عن زر بن عبد الله اهدى عن
 عبد الله بن شداد عن ابن عباس قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال
 يرسل الله انى احدث نفسي ناسى من اذخر من الساجد الى من ان انهم به
 قال فقال النبي صلى الله عليه وسلم اكبر الله اكبر الله اكبر الله الذى رد كبدك الى
 الوسوسة ورواه ابو داود والنسائى من حديث منصور زاد النسائى
 والاعمش كلاهما عن زر به **الخير** التفسير لله الحمد والمنة

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد

والهوا عليه اجمعين

عن الصحابة

خير الله والذكر

وكان الفراغ منه فى شهر ربيع الثانى سنة ١٠٠٠ وعشر وثمان مائة واخمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة سبحان وهي مكية

قال الإمام الحافظ المنقح أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شعبة عن أبي إسحاق، قال سمعت عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، يقول سمعت ابن مسعود، يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قال في بني إسرائيل والكهف ومريم: إن من الساق الأول ومن من تلاميذ. وقال الإمام أحمد، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا حماد بن زيد عن مروان عن أبي ليلى، قال سمعت عائشة تقول: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر.

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هُ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

يُجَدُّ تَعَالَى تَعَالَى، وَيُعْظَمُ شَأْنُهُ، لِقُدْرَتِهِ عَلَى مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ سِوَاهُ، فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، (الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ) يَعْنِي مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَيْلًا) أَيْ فِي جَنَحِ اللَّيْلِ (مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) وَهُوَ مَسْجِدُ مَكَّةَ (إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى) وَهُوَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ الَّذِي بَابِلِيَاءُ مَعْدَنُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ لَدُنْ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِهَذَا جُمِعُوا لَهُ مِنْكَ كُلُّهُمْ فَأَمَّهُمْ فِي عِلْمِهِمْ وَدَارِهِمْ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ، وَالرَّئِيسُ الْمَقْدَمُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى (الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ) أَيْ فِي الزُّرُوعِ وَالْخَزَائِرِ (لِنُرِيَهُ) أَيْ مُحَمَّدًا (مِنَ آيَاتِنَا) أَيْ الْعِظَامَ كَمَا قَالَ تَعَالَى (لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى) وَنَسْأَلُكَ مِنْ ذَلِكَ مَا وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ مِنَ الْأَحَادِيثِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) أَيْ السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ، مُصَدِّقُهُمْ وَمُكَذِّبُهُمْ، الْبَصِيرُ بِهِمْ فَيَعْلَمُ كُلَّ مَا فِي دُيُونِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

(ذَكَرَ الْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةَ فِي الْإِسْرَاءِ: رَوَاةُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)

قال الإمام أبو عبد الله البخاري، حدثني عبد العزيز بن عبد الله بن عدي، حدثنا ثمال بن أنس - هو ابن بلال - عن شريك، قال سمعت عبد الله بن مالك يقول ليلة أسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة أنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام فقال أولهم أيهم هو؟ فقال أولهم هو خيرهم فقال آخرهم خذوا خيرهم، فكانت تلك الليلة فلم يرم حتى أتوه ليلة أخرى فيها يرى قلبه وتنام عينه ولا يتنام قلبه - وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم - فلم يكلموه حتى لحنوا فوضعوه على برزخ من قنطرة منهم جبريل فشق جبريل ما بين نحره إلى لبتة حتى فرغ من صدره وجوفه ففسكه من ماء زمزم بيده حتى أتى جوفه ثم أتى بطنه من ذهب فيه تور من ذهب عمو إيماناً وحكمة فغشا به صدره ولثامه - يعني عروقه حلقه - ثم أطلقه ثم عرج به إلى الدِّيار الدنيا فضرب باباً من أبوابها فناداه أهل الدِّيار من هذا؟ فقال جبريل، قالوا ومن هذا؟ قال معي محمد قالوا وقد بعثت إليه؟ قال نعم قالوا فرجبا به وأهلاً، يستبشر به أهل الدِّيار لا يعلم أهل الدِّيار بما يريد الله به في الأرض حتى يعلمهم، فوجد في الدِّيار الدنيا آدم فقال له جبريل هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلم عليه ورد عليه آدم فقال مرحباً

صلى الله عليه وسلم يوما من الدهر بل كنى الله وشفى به . وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن يزيد بن
سفيان عن زيد بن أرقم قال سحر النبي صلى الله عليه وسلم رجل من اليهود فاشتكى لذلك أياما قال جاءه جبريل فقال إن
رجلا من اليهود سحرك وعقد لك عقدا في بئر كذا . فأرسل إليها من يحى بها فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم
فاستخرجها فجاء بها حلها قال فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما نشط من عقال فاذا ذكر ذلك لليهودى ولا رآه
في وجهه حتى مات ، ورواه النسائي عن هناد عن أبي معاوية - محمد بن عازم الصيرفي .
وقال البخاري في كتاب الطب من صحيحه حدثنا الله بن محمد قال سمعت سفيان بن عيينة يقول أول من حدثنا
به ابن جويج يقول حدثني آل عروة عن عروة : سألت هشاما عنه لحدثنا عن أبيه عن عائشة قالت كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم سحر حتى كان يرى أنه يأبى النساء ولا يأتمن قال سفيان وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان
كذا فقال : يا عائشة أعلت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه ؟ أنا في رجلان فقدم أحدهما عند رأسي والآخر عند
رجلي فقال الذي عند رأسي للآخر ما بال الرجل ؟ قال مطبوب ، قال ومن طبه ؟ قال لبيد بن أعسم رجل من بني
زريق حليف اليهود كان منافقا ، قال وفيه ؟ قال في مشط ومشاطة ، قال وأين ؟ قال في جف طامة ذكر تحت روعة في
بئر ذروان ، قالت فأتى البئر حتى استخرجه فقال هذه البئر التي أرى بها فاعثا الحناء وكان ظاهرا موسى الشياطين ، قال
فاستخرج فقلت أفلا تنشرت ؟ فقال : أما الله فقد شفاني وأكره أن أنير على أحد من الناس شيئا . واستند من حديثه
حديث بن يونس وأبي حمزة أنس بن عياض وأبي أسامة وبني القطان وفيه قالت حتى يخيل إليه أنه فعل الشيء . ولم
يقبله ، وعنده فأمر بالبئر فدفنت وفكر أنه زواجه عن قتاد أيضا بن أبي الزناد الليث بن سعد ، وقدر رواه مسلم حين
حدثني أبي أسامة حماد بن أسامة وعبد الله بن عمر ورواه أحمد عن عفان عن وهب عن هشام به ورواه الإمام أحمد
أبضا عن إبراهيم بن خالد عن معمر عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت : لبث النبي صلى الله عليه وسلم ستة أشهر يرى
أنه يأبى ولا يأتي فأناه ملكان جلس أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه فقال أحدهما للآخر ما باله ؟ قال مطبوب ،
قال ومن طبه ؟ قال لبيد بن الأعسم وذكر تمام الحديث وقال الأستاذ المفسر الثملي في تفسيره قال ابن عباس وعائشة
رضي الله عنهما كان غلام من اليهود يقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدفبت إليه اليهود فلم يرأوا به حتى أخذ مشاطة
رأس النبي صلى الله عليه وسلم وعدة من أسنان مشطه فأعطاهم اليهود فسحروه فيها وكان الذي تولى ذلك رجل منهم
يقال له ابن أعسم ثم دسافي بن لبي زريق يقال له ذروان فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتشر شعر رأسه
ولبث ستة أشهر يرى أنه يأبى النساء ولا يأتمن وجعل يذوب ولا يدري ما عراه فينهاهوا نائم إذا ناه ملكان جلس
أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه فقال الذي عند رأسه الذي عند رجليه ما بال الرجل ؟ قال طب ، قال وما طب قاله
سحر ، قال ومن سحره ؟ قال لبيد بن الأعسم اليهودي قال ومن طبه ؟ قال مشط ومشاطة قال وابن عمر ؟ قال في جف طامة ذكر
تحت روعة في بئر ذروان والجف فشر الطلع والروعة حجر في أسفل البئر نائق يقوم عليه الماسخ ، فأنير رسول الله صلى الله
عليه وسلم مذعورا وقال : يا عائشة أما شعرت أن الله أخبرني بذلك ، ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا والزبير
وعمار بن ياسر فخرجوا ماء البئر كاه نفاعا الحناء ثم رفعوا الصخرة وأخرجوا الجف فإذا فيه مشاطة رأسه وأسنان
من مشطه وإذا فيه وتر ممقود فيه اثنا عشرة عقدة مفرزة بالبر ، فأمر الله تعالى السورتين فجعل كلما قرأ آية أعانك
عقدة ووكف رسول الله صلى الله عليه وسلم خفة حين انحلت العقدة الأخيرة فقام كأنما نشط من عقال وجعل جبريل
عليه السلام يقول بسم الله أرقبك من كل شيء يؤذي من حاسد وعين ، الله يشفيك . فقال يا رسول الله أفلا تأخذ
الحديث فتقله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما أنا فقد شفاني الله وأكره أن أشير على الناس شيئا . هكذا رواه
بلا إسناده فيه غرابة وفي بعضه تنكارة شديدة وبعضه شواهد بما تقدم والله أعلم .

تفسير سورة الناس : وهي مكية

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) هـ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ هـ مَلِكِ النَّاسِ هـ إِلَهِ النَّاسِ هـ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ

الْخَفَّاسِ هـ الَّذِي يُوسَسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ هـ مِنَ الْخِيَةِ وَالنَّاسِ

هذه ثلاث صفات من صفات الرب عز وجل الربوبية والملك والإلهية فهو رب كل شيء ومليكه وله جميع الأشياء

الحمد لله رب العالمين
أتممت اختصار هذا التفسير الجليل في المسودة
ليكون (عمدة التفسير) بين العارفين
من يوم الأحد ١٢ محرم ١٣٧٦ هـ ١٩/١/١٩٥٦
أحمد شاكر

فمن بلغه هذا القرآن من عرب وَعَجَمَ، وَأَسْوَدَ وَأَحْمَرَ، وَإِنْسَ وَجَانٍ، فهو نذير له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]. فمن كفر بالقرآن عمن ذكرنا فالنار موعده، بنص الله تعالى، وكما قال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ مَسْتَدِرٌّ جَهَنَّمَ مِنْ حَيْثُ

لَا يَعْلَمُونَ ﴿[القلم: ٤٤]﴾. وقال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ» (١). قال مجاهد: يعنى: الإنس والجن. فهو، صلوات الله وسلامه عليه، رسول الله إلى جميع الثقلين: الإنس والجن، مُبَلِّغاً لَهُمْ عَنْ اللَّهِ مَا أَوْحَاهُ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ الْعَزِيزِ الَّذِي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وقد أعلمهم فيه عن الله تعالى أنه نَدَبَهُمْ فِيهِ إِلَى تَفْهَمِهِ، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَذْكُرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله، وتفسير ذلك، وطلبه من مظانه، وتَعَلُّم ذلك وتعليمه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧]. فذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله إليهم، وإقبالهم على الدنيا وجمعها، واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله.

فعلينا - أيها المسلمون - أن ننتهي عما ذمَّه الله تعالى به، وأن نأتمر بما أمرنا به، من تَعَلُّم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه، وتفهمه وتفهمه، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ. اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٦، ١٧]. ففى ذكره تعالى لهذه الآية بعد التى قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحيى الأرض بعد موتها، كذلك يلين القلوب بالإيمان بعد قسوتها من الذنوب والمعاصى، والله المؤمل المسؤول أن يفعل بنا ذلك، إنه جواد كريم. فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟

فالجواب: إن أصح الطرق فى ذلك أن يُفسَّر القرآن بالقرآن، فما أَجْمَلَ فى مكان فإنه قد فُسِّرَ فى موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام الشافعى: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لَتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]. ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ» يعنى: السنة. والسنة أيضاً تنزل عليه بالوحى، كما ينزل القرآن؛ إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن، وقد استدلل الإمام الشافعى، وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة.

(١) معناه ثابت ضمن حديث رواه مسلم (١٤٧/١) عن جابر، وآخر رواه أحمد فى المسند (٢٢٥٦، ٢٧٤٢) عن ابن عباس.

والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فمن السنة، كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «بم تحكم؟». قال: بكتاب الله. قال: «فإن لم تجد؟». قال: بسنة رسول الله. قال: «فإن لم تجد؟». قال: أجتهد برأى. قال: فضرب رسول الله ﷺ في صدره، وقال: «الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يرضى رسول الله». وهذا الحديث فى المساند والسنن بإسناد جيد. وحينئذ، إذا لم نجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة، رجعنا فى ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدركوا بذلك، لما شاهدوا من القرائن والأحوال التى اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم، كالائمة الأربعة والخلفاء الراشدين، وكعبد الله بن مسعود.

فقد قال ابن مسعود: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن. وقال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئونا أنهم كانوا يستقرئون من النبى ﷺ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعا.

ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس، ابن عم رسول الله ﷺ، وترجمان القرآن ببركة دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال: «اللهم فقهه فى الدين، وعلمه التأويل». وروى الطبرى عن ابن مسعود قال: نعم ترجمان القرآن ابن عباس وإسناده صحيح. وقد مات ابن مسعود، فى سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح، وعمر بعده ابن عباس ستاً وثلاثين سنة، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود! وقال أبو وائل: استخلف على عبد الله بن عباس على الموسم، فخطب الناس، فقرأ فى خطبته سورة البقرة، وفى رواية: سورة النور، ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا.

ولهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير فى تفسيره، عن هذين الرجلين: ابن مسعود وابن عباس، ولكن فى بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب، التى أباحها رسول الله ﷺ حيث قال: «بلغوا عنى ولو آية، وحدّثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» رواه البخارى عن عبد الله ابن عمرو.

ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد، لا للاعتضاد، فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته بما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح.

والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني؛ ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب فى هذا كثيراً، ويأتى عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون فى مثل

هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعدتهم، وعصا موسى من أى الشجر كانت؟ وأسماء الطيور التى أحيها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذى ضرب به القتل من البقرة، ونوع الشجرة التى كلم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى فى القرآن، مما لا فائدة فى تعيينه تعود على المكلفين فى دنياهم ولا دينهم. ولكن نقل الخلاف عنهم فى ذلك جائز، كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةً وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢]، فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب فى هذا المقام وتعليم ما ينبغى فى مثل هذا، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث، فدل على صحته إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما، ثم أرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فقال فى مثل هذا: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ﴾، فإنه ما يعلم ذلك إلا قليل من الناس، ممن أطلعه الله عليه، فلهذا قال: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ أى: لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب.

فهذا أحسن ما يكون فى حكاية الخلاف: أن تستوعب الأقوال فى ذلك المقام، وأن تنبه على الصحيح منها وتبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته؛ لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فتشتغل به عن الأهم فالأهم.

فأما من حكى خلافاً فى مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص، إذ قد يكون الصواب فى الذى تركه. أو يحكى الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال، فهو ناقص أيضاً. فإن صحح غير الصحيح عامداً فقد تعدد الكذب، أو جاهلا فقد أخطأ، وكذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته، أو حكى أقوالاً متعددة لفظاً ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى، فقد ضيع الزمان، وتكثر بما ليس بصحيح، فهو كلابس ثوبى زور، والله الموفق للصواب.

فصل :

إذا لم تجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة فى ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جبر، فإنه كان آية فى التفسير، فقد روى الطبرى عن ابن أبى مليكة قال: رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن، ومعه ألواح، قال: فيقول له ابن عباس: اكتب، حتى سألته عن التفسير كله. ولهذا كان سفيان الثورى يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به. وكسعيد بن جببر، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبى رباح، والحسن البصرى، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبى العالية، والربيع ابن أنس، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم، فتذكر أقوالهم فى الآية فيقع فى عباراتهم تباين فى الألفاظ، يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالاً، وليس كذلك، فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو بنظيره، ومنهم من ينص على الشيء

بعينه، والكل بمعنى واحد في كثير من الأماكن، فليفتن اللبيب لذلك، والله الهادي.

وقال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين في الفروع ليست حجة، فكيف تكون حجة في التفسير؟ يعنى: أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على قول بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك.

فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام، لما رواه محمد بن جرير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «من قال في القرآن برأيه، أو بما لا يعلم، فليتبوأ مقعده من النار». ورواه الترمذى والنسائى، وأبو داود، وقال الترمذى: حديث حسن. وروى ابن جرير، عن جندب؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال في القرآن برأيه فقد أخطأ».

ورواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، وقال الترمذى: غريب، وقد تكلم بعض أهل العلم في سهل. وفي لفظ لهم: «من قال في كتاب الله برأيه، فأصاب، فقد أخطأ» أى: لأنه قد تكلف ما لا يعلم له به، وسلك غير ما أمر به، فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ؛ لأنه لم يأت الأمر من بابه، كمن حكم بين الناس على جهل فهو في النار، وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر، لكن يكون أخف جرماً ممن أخطأ، والله أعلم (١)، وهكذا سمي الله القذفة كاذبين، فقال: ﴿فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأَوْرَثَكْ عَنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: ١٣]، فالقاذف كاذب، ولو كان قد قذف من زنى في نفس الأمر؛ لأنه أخبر بما لا يحل له الإخبار به، ولو كان أخبر بما يعلم؛ لأنه تكلف ما لا علم له به، والله أعلم.

ولهذا تحرَّج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به، كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «أى أرض تقلنى، وأى سماء تظلنى، إذا قلت في كتاب الله بما لا أعلم! وروى أبو عبيد القاسم بن سلام: أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١]، فقال: أى سماء تظلنى، وأى أرض تقلنى، إذا أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم. إسناده منقطع. وروى أيضاً: أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١]، فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر. وروى عبد بن حميد

(١) أما في عصرنا، فقد نابت نوابت، ونبت نوابت، ممن استعبدوا لآراء المبشرين وأهوائهم. ومن جهلوا لغة العرب إلا كلام العامة وأشباههم، وجهلوا القرآن فلم يقرؤوه، ولا يكادون يسمعون إلا قليلاً، وجهلوا السنة، بل كانوا من أعدائها. وهم سخرها من علم علماء الإسلام، وسفهات أحلامهم، ومردت ألسنتهم على قولة السوء في سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم. بل لا يؤمنون بالغيب إلا قليلاً. هؤلاء وأشباههم وأمثالهم، اجتروا على العبث بالقرآن، واللعب بالسنة، فعرضوا لتفسير القرآن، وزعموا لأنفسهم الاجتهاد الجاهل، يفتون الناس ويعلمونهم اللعب والعبث، وينزعون من قلوبهم الإيمان. لا أقول: إن هؤلاء وأولئك يفسرون القرآن بأهوائهم، فإنهم أضعف من أن تكون لهم أهواء وأشد جهلاً، بل بأهواء سادتهم ومعلميهم من المبشرين والمستعمرين أعداء الإسلام، وقد نضرب المثل لذلك عند المناسبات، فيما سيأتى، إن شاء الله.

عن أنس، قال: كنا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفي ظهر قميصه أربع رقاع، فقرأ: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ فقال: ما الأب؟ ثم قال: إن هذا لهو التكلف، فما عليك ألا تدريه.

وهذا كله محمول على أنهما رضي الله عنهما إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأب، وإلا فكونه نباتاً من الأرض ظاهر لا يجهل، لقوله: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا﴾ الآية [عبس: ٢٧، ٢٨].

وروى الطبري عن ابن أبي مليكة: أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها، فأبى أن يقول فيها. وإسناده صحيح.

وروى أبو عبيد عن ابن أبي مليكة، قال: سألت رجل ابن عباس عن ﴿يَوْمَ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥] فقال له ابن عباس: فما ﴿يَوْمَ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]؟ فقال له الرجل: إنما سألتك لتحديثي. فقال ابن عباس: هما يومان ذكرهما الله في كتابه، الله أعلم بهما. فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم. وروى الطبري عن الوليد بن مسلم، قال: جاء طلق بن حبيب إلى جندب بن عبد الله، فسأله عن آية من القرآن؟ فقال: أخرج عليك إن كنت مسلماً لما قمت عني، أو قال: أن تجالسني. وروى مالك، عن سعيد بن المسيب: أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن، قال: إنا لا نقول في القرآن شيئاً. وروى الليث عنه أنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن.

وقال ابن شاذب: حدثني يزيد بن أبي يزيد، قال: كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحرام والحلال، وكان أعلم الناس، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت، كأن لم يسمع. وروى ابن جرير عن عبيد الله بن عمر، قال: لقد أدركتُ فقهاء المدينة، وإنهم ليعظمون القول في التفسير، منهم: سالم بن عبد الله، والقاسم ابن محمد، وسعيد بن المسيب، ونافع. وروى أبو عبيد عن هشام ابن عروة، قال: ما سمعت أبا تاول آية من كتاب الله قط. وروى أيضاً عن مسلم بن يسار، قال: إذا حدثت عن الله حديثاً فقف، حتى تنظر ما قبله وما بعده. وروى أيضاً عن مسروق، قال: اتقوا التفسير، فإنما هو الرواية عن الله.

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تخرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به؛ فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً، فلا حرج عليه؛ ولهذا روى عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة؛ لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد؛ فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه، لقوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ وَلَا يُكْمِئَهُ﴾ (١) [آل عمران: ١٨٧]، ولما جاء في الحديث المروي من طرق: «من سئل عن علم فكتمه، ألجم يوم القيامة بلجام من نار». روى ابن جرير عن ابن عباس: التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله.

(١) هي قراءة سبعة متواترة كما في البحر المحيط ٣ / ١٣٦. (الباز).

مقدمة

قال قتادة : نزل في المدينة من القرآن: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة ، وبراءة، والرعد، والنحل، والحج، والنور، والأحزاب، ومحمد، والفتح، والحجرات ، والرحمن، والحديد ، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والصف، والجمعة، والمنافقون، والتغابن، والطلاق، و﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ ، إلى رأس العشر، وإذا زلزلت، وإذا جاء نصرُ الله. هؤلاء السور نزلت بالمدينة، وسائر السور بمكة.

فأما عدد آيات القرآن فسته آلاف آية، ثم اختلف فيما زاد على ذلك على أقوال، فمنهم من لم يزد على ذلك، ومنهم من قال: ومائتى آية وأربع آيات، وقيل: وأربع عشرة آية، وقيل: ومائتان وتسع عشرة آية ، وقيل: ومائتان وخمس وعشرون آية، أو ست وعشرون آية، وقيل: ومائتان وست وثلاثون آية. حكى ذلك أبو عمرو الداني في كتابه البيان.

وأما التحزيب والتجزئة. فقد اشتهرت الأجزاء من ثلاثين كما في الربعات بالمدارس وغيرها ، وأما تحزيب الصحابة للقرآن ففي مسند الإمام أحمد وسُنَنِ أَبِي دَاوُدَ وابن ماجه عن أوس بن حذيفة أنه سأل أصحاب رسول الله ﷺ في حياته: كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: ثلاث، وخمس ، وسبع ، وتسع ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة، وحزبُ المُفَصَّل حتى نختم (١).

فصل :

واختلف في معنى السورة: ممَّ هي مشتقة؟ فقيل: من الإبانة والارتفاع. فكان القارئ يتنقل بها من منزلة إلى منزلة. وقيل: لشرفها وارتفاعها كسور البلدان. وقيل: سميت «سورة» لكونها قطعة من القرآن وجزءاً منه، مأخوذ من سور الإناء وهو البقية، وعلى هذا فيكون أصلها مهموزاً، وإنما خففت الهمزة فأبدلت الهمزة واواً لانضمام ما قبلها. وقيل: لتمامها وكمالها ؛ لأن العرب يسمون الناقة التامة: سورة.

قلت: ويحتمل أن يكون من الجمع والإحاطة لآياتها ، كما يسمَّى سورُ البلد؛ لإحاطته بمنزله ودوره. وجمع السورة سورٌ بفتح الواو، وقد تُجمع على سورٍ وسورات.

وأما الآية ، [فأصل معناها : العلامة. سميت بذلك لأنها العلامة] (٢) على انقطاع الكلام الذى قبلها عن الذى بعدها وانفصالها، أى: هى بائة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٨]. وقيل: لأنها جماعة حروفٍ من القرآن وطائفة منه، كما يقال: خرج القوم

(١) سيذكر المؤلف هذا الحديث مطولاً ، ويشرحه ، فى أول «سورة ق» ، وهى أول المفضل ، وانظر : ابن حبان بتحقيقنا (١/ ١١٠).

(٢) فى المطبوعة : « وأما الآية فمن العلامة » ! وهو كلام غير مستقيم ، فزدنا ما بين القوسين لإقامته . وهذه المقدمة ليست فى الأزهرية ، فلم نجد مناصاً من تصحيحها اجتهدا.

بآياتهم، أى: بجماعتهم. وقيل: سُمِّيَتْ آيَةٌ لِأَنَّهَا عَجَبٌ يَعْجِزُ الْبَشَرَ عَنْ التَّكَلُّمِ بِمِثْلِهَا. قال سيوييه: وأصلها آيَةٌ مثل أَكْمَةٍ وَشَجَرَةٍ، وَتَحَرَّكَتِ الْيَاءُ وَافْتَتَحَ مَا قَبْلَهَا فَقَلْبَتْ أَلِفًا فَصَارَتْ آيَةً، بِهِمْزَةً بَعْدَهَا مَدَّةٌ. وقال الكسائي: أصلها آيَةٌ عَلَى وَزْنِ أَمِينَةٍ، فَقَلْبَتْ أَلِفًا، ثُمَّ حُذِفَتْ لِاتِّبَاسِهَا. وَجَمَعُهَا: آيٌ وَآيَا وَآيَاتٌ.

وأما الكلمة فهي اللفظة الواحدة، وَقَدْ تَكُونُ عَلَى حَرْفَيْنِ مِثْلُ: «مَا» وَ«لَا» وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَقَدْ تَكُونُ أَكْثَرَ. وَأَكْثَرُ مَا تَكُونُ عَشْرَةُ أَحْزَفٍ: مِثْلُ ﴿لَيْسَ خَلْقُهَا﴾ [النور: ٥٥]، وَ﴿أَلَمْ نَكْمُلْهَا﴾ [هود: ٢٨]، وَ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢]، وَقَدْ تَكُونُ الْكَلِمَةُ الْوَاحِدَةُ آيَةً، مِثْلُ: وَالْفَجْرِ، وَالضُّحَى، وَالْعَصْرُ، وَكَذَلِكَ: الْم، وَطه، وَيَس، وَحَم - فِي قَوْلِ الْكُوفِيِّينَ - وَ﴿حَم - عَسَقُ﴾ عِنْدَهُمْ كَلِمَتَانِ. وَغَيْرُهُمْ لَا يُسَمِّي هَذِهِ آيَاتٍ بَلْ يَقُولُ: هَذِهِ فَوَاتِحُ السُّورِ. وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو الدَّانِيُّ: لَا أَعْلَمُ كَلِمَةً هِيَ وَحْدَهَا آيَةٌ إِلَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مُدْهَامَتَانِ﴾ بِسُورَةِ الرَّحْمَنِ [الآية: ٦٤].

فقط:

قال القرطبي: أجمعوا أنه ليس في القرآن شيء من التراكيب الأعجمية، وأجمعوا أن فيه أعلامًا من الأعجمية كإبراهيم، ونوح، ولوط، واختلفوا: هل فيه شيء من غير ذلك بالأعجمية؟ فأنكر ذلك الباقلاني والطبري وقالوا: ما وقع فيه مما يوافق الأعجمية فهو من باب ما توافقت فيه اللغات (١).

(١) هذا هو الحق الذي تدل عليه الدلائل. وقد شنع الشافعي - رحمه الله - بمن زعم أن في القرآن ألفاظا أعجمية، تشنيعا شديدا بأبلغ عبارة وأعلاها وأقواها، في كتاب (الرسالة) في الفقرات: (١٣١-١٧٨) بتحقيقنا.

سورة الفاتحة

وهي مكية، وقيل: مدنية، ويقال: نزلت مرتين: مرة بمكة، ومرة بالمدينة، والأول أشبه .
وهي سبع آيات بلا خلاف . وإنما اختلفوا في البسملة: هل هي آية مستقلة من أولها كما هو
المشهور عن جمهور قراء الكوفة وقول جماعة من الصحابة والتابعين وخلق من الخلف أو بعض
آية؟ أو لا تعد من أولها بالكلية، كما هو قول أهل المدينة من القراء والفقهاء؟ على ثلاثة أقوال،
سيأتي تقريرها في موضعه إن شاء الله تعالى، وبه الثقة .

قال البخارى في أول كتاب التفسير: وسميت أم الكتب ؛ لأنه يبدأ بكتابها في
المصاحف، ويبدأ بقراءتها في الصلاة، وقيل: إنما سميت بذلك لرجوع معاني القرآن كله إلى ما
تضمنته . قال ابن جرير: والعرب تسمى كل جامع أمراً أو مقدم لأمر - إذا كانت له توابع تتبعه
هو لها إمام جامع - أمّا، فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ: أم الرأس، ويسمون لواء الجيش
ورايتهم التي يجتمعون تحتها أمّا .

ويقال لها أيضاً: الفاتحة؛ لأنها تفتح بها القراءة، وافتتحت الصحابة بها كتابة المصحف
الإمام، وصح تسميتها بالسبع المثاني، قالوا: لأنها تنثني في الصلاة، فتقرأ في كل ركعة، وإن
كان للمثاني معنى آخر غير هذا، كما سيأتي بيانه في موضعه، إن شاء الله .

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال في أم القرآن: «هي أم القرآن،
وهي السبع المثاني، وهي القرآن العظيم» ورواه ابن جرير أيضاً بنحوه . وروى الحافظ أبو بكر
أحمد بن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله رب العالمين سبع آيات:
بسم الله الرحمن الرحيم إحداهن، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم، وهي أم الكتاب ، وفاتحة
الكتاب » . وقد رواه الدارقطني - أيضاً - عن أبي هريرة مرفوعاً بنحوه أو مثله، وقال: كلهم
ثقات . ورواه البيهقي عن علي وابن عباس وأبي هريرة أنهم فسروا قوله تعالى: ﴿سَبْعًا مِنْ
الْمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧] بالفاتحة، وأن البسملة هي الآية السابعة منها .

فضل الفاتحة :

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد بن المَعْلَى رضى الله عنه قال: كنت أصلى فدعاني رسول
الله ﷺ، فلم أجه حتى صليت فاتيته ، فقال: «ما منعك أن تأتيني؟» . قال: قلت: يا رسول
الله، إني كنت أصلى . قال: «ألم يقل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا
دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] » ، ثم قال: «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من
المسجد» . قال: فأخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت: يا رسول الله، إنك قلت:
«لأعلمنك أعظم سورة في القرآن» . قال: «نعم، الحمد لله رب العالمين هي: السبع المثاني
والقرآن العظيم الذي أوتيته» (١) . ورواه البخارى وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه ، ورواه

(١) هو في المسند (٢١١/٤) طبعة الحلبي ، ورواه أيضاً قبل ذلك بنحوه (١٧٥٩٥) (٣/ ٤٥٠) حلبي .

الواقدي عن أبي سعيد بن المعلّى، عن أبي بن كعب، فذكر نحوه.

وقد وقع في الموطأ للإمام مالك بن أنس، ما ينبغي التنبيه عليه، فإنه رواه مالك عن العلاء ابن عبد الرحمن بن يعقوب الحرقي: أن أبا سعيد مولى ابن عامر بن كريز أخبرهم: أن رسول الله ﷺ نادى أبا بن كعب، وهو يصلي في المسجد، فلما فرغ من صلاته لحقه، قال: فوضع النبي ﷺ يده على يدي، وهو يريد أن يخرج من باب المسجد، ثم قال: «إني لأرجو ألا تخرج من باب المسجد حتى تعلم سورة ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلها». قال أبا: فجعلت أبطى في المشي رجاء ذلك، ثم قلت: يا رسول الله، السورة التي وعدتني؟ قال: «كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة؟». قال: فقرأت عليه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حتى أتيت على آخرها، فقال رسول الله ﷺ: «هي هذه السورة، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيت». فأبو سعيد هذا ليس بأبي سعيد بن المعلّى، كما اعتقده ابن الأثير في جامع الأصول ومن تبعه، فإن ابن المعلّى صحابي أنصاري، وهذا تابعي من موالى خزاعة، وذاك الحديث متصل صحيح، وهذا ظاهره أنه منقطع، إن لم يكن سمعه أبو سعيد هذا من أبي بن كعب، فإن كان قد سمعه منه فهو على شرط مسلم^(١)، والله أعلم.

على أنه قد روى عن أبي بن كعب من غير وجه كما روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ على أبي بن كعب، وهو يصلي، فقال: «يا أبا»، فالتفت فلم يجبه، ثم صلى أبا، فخفف. ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ، فقال: السلام عليك أي رسول الله. قال: «وعليك، ما منعك أي أبا إذ دعوتك أن تحييني؟». قال: أي رسول الله، كنت في الصلاة، قال: «أفلمست تجد فيما أوحى الله إلي: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]». قال: بلى يا رسول الله، لا أعود قال: «اتحب أن أعلمك سورة لم تنزل في التوراة ولا في الزبور ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلها؟» قلت: نعم، أي رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأرجو ألا أخرج من هذا الباب حتى تعلمها». قال: فأخذ رسول الله ﷺ بيدي يحدثني، وأنا أبطأ، مخافة أن يبلغ قبل أن يقضى الحديث، فلما دنونا من الباب قلت: أي رسول الله، ما السورة التي وعدتني؟ قال: «فكيف تقرأ في الصلاة؟». قال: فقرأت عليه أم القرآن، قال: «والذي نفسي بيده، ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلها؛ إنها السبع المثاني»^(٢). ورواه الترمذي، وعنده: «إنها من السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته»، ثم قال: هذا حديث حسن صحيح. وفي الباب، عن أنس بن مالك، ورواه عبد الله بن أحمد، عن أبي هريرة، عن أبي بن كعب، فذكره مطولا بنحوه أو قريبا منه^(٣). وقد رواه الترمذي والنسائي، عن أبي هريرة، عن أبي بن كعب، قال:

(١) الحديث في الموطأ، ص ٨٣، باختلاف في الألفاظ قليل. وانظر: جامع الأصول (٦٢٢٥).

(٢) الحديث في المسند (٩٣٣٤) (١٢/٢) (٤١٢). وقد صححته في هذا الموضع على ما في المسند.

(٣) هو في المسند (١١٤/٥، ١١٥) (حلبى).

قال رسول الله ﷺ: «ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن، وهي السبع المثاني، وهي مقسومة بيني وبين عبدى»، هذا لفظ النسائي. وقال الترمذى: حسن غريب.

وروى الإمام أحمد عن ابن جابر، قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وقد أهرق الماء، فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فلم يرد علىّ، قال: فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فلم يرد علىّ، قال: فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فلم يرد علىّ. قال: فانطلق رسول الله ﷺ يمشى، وأنا خلفه حتى دخل رحله، ودخلت أنا المسجد، فجلست كئيباً حزيناً، فخرج علىّ رسول الله ﷺ قد تطهر، فقال: «عليك السلام ورحمة الله، وعليك السلام ورحمة الله، وعليك السلام ورحمة الله»، ثم قال: «ألا أخبرك يا عبد الله بن جابر بخير سورة في القرآن؟». قلت: بلى، يا رسول الله. قال: «اقرأ: الحمد لله رب العالمين، حتى تختتمها». هذا إسناد جيد (١). وعبد الله بن جابر هذا هو الصحابي، ذكر ابن الجوزى أنه هو العبدى، والله أعلم. ويقال: إنه عبد الله بن جابر الأنصارى البياضى، فيما ذكره الحافظ ابن عساكر (٢).

واستدلوا بهذا الحديث وأمثاله على تفاضل بعض الآيات والسور على بعض، كما هو المحكى عن كثير من العلماء، منهم: إسحاق بن راهويه، وأبو بكر بن العربى، وابن القصار من المالكية. وذهبت طائفة أخرى إلى أنه لا تفاضل فى ذلك؛ لأن الجميع كلام الله، ولثلاثيهم التفضيل نقص المفضل عليه، وإن كان الجميع فاضلاً، نقله القرطبى عن الأشعرى، وأبى بكر الباقلانى، وابن حبان، ويحيى بن يحيى، ورواية عن الإمام مالك.

وقد روى البخارى عن أبى سعيد الخدرى، قال: كنا فى مسير لنا، فزلزنا، فجاءت جارية فقالت: إن سيد الحى سليم، وإن نَفَرْنَا غَيْبٌ، فهل منكم راق؟ فقام معها رجل ما كنا نأمنه برقية، فرقاه، فبرأ، فأمر له بثلاثين شاة، وسقانا لبناً، فلما رجع قلنا له: أكنت تحسن رقية، أو كنت ترقى؟ قال: لا، ما رقيت إلا بأمر الكتاب. قلنا: لا تُحَدِّثُوا شيئاً حتى نأتى، أو نسأل رسول الله ﷺ، فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي ﷺ فقال: «وما كان يُدْرِي أنها رقية؟ اقسما واضربوا لى بسهم» (٣). ورواه مسلم، وأبو داود وفى بعض روايات مسلم لهذا الحديث: أن أبا سعيد هو الذى رقى ذلك السليم، يعنى: اللديغ يسمونه بذلك تفاؤلاً.

وروى مسلم فى صحيحه، والنسائى فى سننه، عن ابن عباس، قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل، إذ سمع نقيضاً فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء، فقال: هذا باب قد فتح من السماء، ما فتح قط. قال: فتزل منه ملك، فأتى النبي ﷺ، فقال: أبشر بنورين قد

(١) هو فى المسند (١٧٦٧٣) (١٧٧/٤) حلى.

(٢) بين الحافظ ابن حجر فى التعجيل، ص ٢١٦ أنه البياضى الأنصارى. وأما العبدى فذكر أن له حديثاً آخر، وأنه قيل: إن اسمه «عبد الرحمن».

(٣) هو فتح البارى (٤٩/٩). وقوله «ما كنا نأمنه برقية» قال ابن الأثير: «أى ما كنا نعلم أنه يرقى، فنعينه بذلك». وهو من قولهم: «أبنة يأنه»، إذا رماه بخلة سوء.

أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، ولن تقرأ حرفاً منها إلا أوتيته. وهذا لفظ النسائي^(١). وروى مسلم: عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج - ثلاثاً - غير تمام». فقيل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام، فقال: اقرأ بها في نفسك؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وبين عبدى نصفين، ولعبدى ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، قال الله: حمدني عبدى، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة: ٣]، قال الله: أثني على عبدى، فإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، قال: مجدني عبدى» - وقال مرة: «فوض إلى عبدى» فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، قال: هذا بينى وبين عبدى، ولعبدى ما سأل، فإذا قال: ﴿اعْزِزْنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، قال: هذا لعبدى ولعبدى ما سأل»^(٢).

ثم الكلام على ما يتعلق بهذا الحديث مما يختص بحكم الفاتحة من وجوه:

أحدها: أنه قد أطلق فيه لفظ الصلاة، والمراد القراءة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا وَاتَّبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]، أى: بقراءتك، كما جاء مصرحاً به فى الصحيح، عن ابن عباس، وهكذا قال فى هذا الحديث: «قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، فنصفها لى ونصفها لعبدى، ولعبدى ما سأل»، ثم بين تفضيل هذه القسمة فى قراءة الفاتحة: فدل على عظم القراءة فى الصلاة، وأنها من أكبر أركانها، إذا أطلقت العبادة وأريد بها جزء واحد منها وهو القراءة؛ كما أطلق لفظ القراءة والمراد به الصلاة فى قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ. إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، والمزاد صلاة الفجر، كما جاء مصرحاً به فى الصحيحين: من أنه يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، فدل هذا كله على أنه لابد من القراءة فى الصلاة، وهو اتفاق من العلماء.

ولكن اختلفوا فى: أنه هل يتعين للقراءة فى الصلاة فاتحة الكتاب، أم تجزئ هى أو غيرها؟ على قولين مشهورين، فعند أبى حنيفة ومن وافقه من أصحابه وغيرهم: أنها لا تتعين، بل مهما قرأ به من القرآن أجزاء فى الصلاة، واحتجوا بعموم قوله تعالى: ﴿فَاقْرَأُوا مَا تيسرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [الزمل: ٢٠]، وبما ثبت فى الصحيحين، من حديث أبى هريرة فى قصة المسىء صلته: أن رسول الله ﷺ قال له: «إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن» قالوا: فأمره بقراءة ما تيسر، ولم يعين له الفاتحة ولا غيرها، فدل على ما قلنا.

والقول الثانى: أنه تتعين قراءة الفاتحة فى الصلاة، ولا تجزئ الصلاة بدونها، وهو قول بقية

(١) هو فى النسائي (٤٥/١). وفى آخره: «إلا أعطيته» بدل «أوتيته». ورواية مسلم هى فى الصحيح (١/٢٢٢).

(٢) وهذا الحديث لم أجده فى مسند أحمد، على سبعة.

(٢) هو فى صحيح مسلم (١١٦/١) والنسائي (١٤٤/١) ورواه مالك فى الموطأ ص ٨٤، ٨٥، وكذلك رواه

أحمد فى المسند (٧٢٨٩، ٧٤٠٠)، ورواه الطبرى مختصراً (٢٢١ - ٢٢٣).

الأئمة: مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم وجمهور العلماء؛ واحتجوا على ذلك بهذا الحديث المذكور، حيث قال صلوات الله وسلامه عليه: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج» والخداج هو: الناقص كما فسّر به في الحديث: «غير تمام». واحتجوا - أيضاً - بما ثبت في الصحيحين عن عبادة بن الصّامت، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب». وفي صحيح ابن خزيمة وابن حبان، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجزئ صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن». والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

ثم إن مذهب الشافعيّ وجماعة من أهل العلم: أنه تجب قراءتها في كل ركعة. وقال آخرون: إنما تجب قراءتها في معظم الركعات، وقال الحسن وأكثر البصريين: إنما تجب قراءتها في ركعة واحدة من الصلاة، أخذًا بمطلق الحديث: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب».

وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي: لا تتعين قراءتها، بل لو قرأ بغيرها أجزأه لقوله: ﴿فَأَقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٢٠]، والله أعلم. وقد روى ابن ماجه عن أبي سعيد مرفوعاً: «لا صلاة لمن لم يقرأ في كل ركعة بالحمد وسورة، في فريضة أو غيرها». وفي صحة هذا نظر.

الوجه الثالث: هل تجب قراءة الفاتحة على المأموم؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء:

أحدها: أنه تجب عليه قراءتها، كما تجب على إمامه؛ لعموم الأحاديث المتقدمة.

والثاني: لا تجب على المأموم قراءة بالكلية لا الفاتحة ولا غيرها، لا في الصلاة الجهرية ولا السرية؛ لما رواه الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة» ولكن في إسناده ضعف. ورواه مالك، عن وهب بن كيسان، عن جابر من كلامه. وقد روى هذا الحديث من طرق، ولا يصح شيء منها عن النبي ﷺ، والله أعلم.

والقول الثالث: أنه تجب القراءة على المأموم في السرية، لما تقدم، ولا تجب في الجهرية لما ثبت في صحيح مسلم، عن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتم به؛ فإذا كبر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا» وذكر بقية الحديث. وروى أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «وإذا قرأ فأنصتوا». وقد صححه مسلم بن الحجاج أيضاً، فدل هذان الحديثان على صحة هذا القول وهو قول قديم للشافعي، ورواية عن الإمام أحمد. وروى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وضعت جنبك على الفراش، وقرأت فاتحة الكتاب و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فقد أمنت من كل شيء إلا الموت» (١).

(١) الحديث في مجمع الزوائد (١٠ / ١٢١)، وقال: «رواه البزار، وفيه غسان بن عبيد، وهو ضعيف، ووثقه ابن حبان. وبقية رجاله رجال الصحيح». أقول: وغسان بن عبيد الموصلي، مترجم في لسان الميزان، وأنه ضعفه أحمد، والبخاري. وأنه اختلف فيه قول يحيى بن معين بين التوثيق والتضعيف، إلا أنه صرح بأنه «لم يكن من أهل الكذب». وترجمه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٢ / ٥١)، ولم يذكر فيه جرحاً، أمارة توثيقه عنده.

الكلام على تفسيرها :

الاستعاذة :

قال الله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ . وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ١٩٩ ، ٢٠٠] ، وقال تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ . وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ . وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون : ٩٦ - ٩٨] ، وقال تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [فصلت : ٣٤ - ٣٦] .

فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة في معناها ، وهو أن الله يأمر بمصانعة العدو الإنسي والإحسان إليه ، ليرده عنه طبعه الطيب الأصل إلى الموالاة والمصافاة ، ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة ؛ إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً ولا يتغنى غير هلاك ابن آدم ، لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل ؛ كما قال تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف : ٢٧] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حُزْنَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر : ٦] وقال : ﴿ اتَّخِذُوهُ وَذَرِيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف : ٥٠] ، وقد أقسم للوالد آدم : إنه لمن الناصحين ، وكذب ، فكيف معاملته لنا وقد قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص : ٨٢ ، ٨٣] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل : ٩٨ ، ٩٩] ؟

والمشهور الذي عليه الجمهور أن الاستعاذة لدفع الوسواس فيها ، إنما تكون قبل التلاوة ، ومعنى الآية : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [النحل : ٩٨] أى : إذا أردت القراءة كقوله : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾ الآية [المائدة : ٦] أى : إذا أردتم القيام . والدليل على ذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ بذلك . فروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري ، قال : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبر قال : « سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك » . ويقول : « لا إله إلا الله » ثلاثاً ، ثم يقول : « أعوذ بالله السميع العليم ، من الشيطان الرجيم ، من همزه ونفخه ونفثه » . وقد رواه أهل السنن الأربعة وقال الترمذي : هو أشهر شيء في هذا الباب . وقد فسر الهمز بالموتة (١) وهى الخنق ، والنَّفْخ بالكبر ، والنَفْث بالشعر .

كما روى أبو داود وابن ماجه عن ابن جبير بن مطعم ، قال : رأيت رسول الله ﷺ حين دخل فى الصلاة ، قال : « الله أكبر كبيراً ، ثلاثاً - الحمد لله كثيراً - ثلاثاً - سبحان الله بكرة وأصيلًا - ثلاثاً - اللهم إني أعوذ بك من الشيطان من همزه ونفخه ونفثه » . قال عمرو بن مرة : وهمزه الموتة ، ونفخه الكبر ، ونفثه الشعر (٢) . وروى ابن ماجه عن ابن مسعود عن النبى ﷺ

(١) الموتة - بضم الميم : جنس من الجنون والصرع يعتري الإنسان ، فإذا أفاق عاد إليه عقله ، كالنائم والسكران .

(٢) هو فى ابن ماجه (٧ - ٨) .

قال: «اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم، وهَمَزَهُ ونَفَخَهُ ونَفَثَهُ». قال: همزه: الموتة، ونَفَثَهُ: الشعر، ونَفَخَهُ: الكبر^(١). وروى الحافظ أبو يعلى الموصلى عن أبي بن كعب، قال: تلاحي رجلان عند النبي ﷺ، فَمَزَعَ أَنْفُ أَحَدَهُمَا غَضَبًا، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم شيئاً لو قاله ذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». وكذا رواه النسائي في اليوم والليلة. وروى الإمام أحمد وأبو داود، والترمذى، والنسائي في اليوم والليلة، عن معاذ بن جبل، قال: استَبَّ رجلان عند النبي ﷺ، فغضب أحدهما غضباً شديداً حتى خِيلَ إِلَى أَن أَحَدَهُمَا يَتَمَزَعُ أَنْفَهُ مِنْ شِدَّةِ غَضَبِهِ، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب» فقال: ما هي يا رسول الله؟ قال: «يقول: اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم». قال: فجعل معاذ يأمره، فأبى، وجعل يزداد غضباً. وهذا لفظ أبي داود. وقال الترمذى: مرسل، يعنى أن عبد الرحمن بن أبى ليلى لم يلق معاذ بن جبل، فإنه مات قبل سنة عشرين.

قلت: وقد يكون عبد الرحمن بن أبى ليلى سمعه من أبى بن كعب، كما تقدم، وبلغه عن معاذ بن جبل، فإن هذه القصة شهد بها غير واحد من الصحابة رضى الله عنهم. فروى البخارى: عن سليمان بن صُرَدَ قال: استَبَّ رجلان عند النبي ﷺ، ونحن عنده جلوس، فأحدهما يسب صاحبه مغضباً قد احمر وجهه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول رسول الله ﷺ؟ قال: إني لست بمجنون. ورواه مسلم وأبو داود والنسائي.

فصل: ومعنى «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» أى: أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دنياي، أو يصدني عن فعل ما أمرت به، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه؛ فإن الشيطان لا يكفُّه عن الإنسان إلا الله؛ ولهذا أمر الله تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه، ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل؛ لأنه شرير بالطبع ولا يكفه عنك إلا الذى خلقه، وهذا المعنى في ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لهن رابعة (٢).

والشيطان في لغة العرب مشتق من شَطَنَ إذا بعد، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، وبعيد بفسقه عن كل خير، وقيل: مشتق من شاط لأنه مخلوق من نار، ومنهم من يقول: كلاهما صحيح في المعنى، ولكن الأول أصح، وعليه يدل كلام العرب. وقال سيويه: العرب تقول: تشيطن فلان إذا فَعَلَ فَعَلَ الشيطان ولو كان من شاط لقالوا: تشيط.

والشيطان مشتق من البعد على الصحيح؛ ولهذا يسمون كل ما تمرد من جني وإنسى وحيوان شيطانا، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

(١) هو فيه (٨٠٨). وقال البوصيرى في زوائده: «رواه أبو داود، والترمذى، والنسائي، من حديث أبى سعيد الخدرى. ورواه ابن حبان في صحيحه، من حديث جبير بن مطعم»، يعنى الحديثين اللذين قبل هذا.

(٢) أعاد الحافظ رحمه الله - ذكر الآيات الثلاث، وقد مضى في الصفحة السابقة.

وفى مسند أحمد، عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر، تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن»، فقلت: أو للإنس شياطين؟ قال: «نعم»^(١). وفى صحيح مسلم عن أبي ذر - أيضاً - قال: قال رسول الله ﷺ: «يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب الأسود». فقلت: يا رسول الله، ما بال الكلب الأسود من الأحمر والأصفر؟ فقال: «الكلب الأسود شيطان». وروى الطبرى أن عمر بن الخطاب ركب برذوناً، فجعل يتبختر به، فجعل يضربه فلا يزداد إلا تبختراً، فنزل عنه، وقال: ما حملتموني إلا على شيطان، ما نزلت عنه حتى أنكرت نفسى وإسناده صحيح.

و «الرجيم»: فعيل بمعنى مفعول، أى: أنه مرجوم مطرود عن الخير كله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ. وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ. لَا يَسْمُومُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ. دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ. إِلَّا مَنْ خُفِيَ الْخُطْفَةُ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصفات: ٦ - ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ. وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ. إِلَّا مِنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ - ١٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

افتتح بها الصحابة كتاب الله، واتفق العلماء على أنها بعض آية من سورة النمل، ثم اختلفوا: هل هي آية مستقلة فى أول كل سورة، أو من أول كل سورة كتبت فى أولها، أو أنها بعض آية من أول كل سورة؟ أو أنها كذلك فى الفاتحة دون غيرها؟ أو أنها إنما كتبت للفصل، لا أنها آية؟ على أقوال للعلماء سلفاً وخلفاً، وذلك مبسوط فى غير هذا الموضع. وفى سنن أبى داود بإسناد صحيح، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وأخرجه الحاكم فى المستدرک. وفى صحيح ابن خزيمة، عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ قرأ البسملة فى أول الفاتحة فى الصلاة وعدّها آية، لكنه من رواية عمر ابن هارون البلخى، وفيه ضعف، عن ابن جريج، عن ابن أبى مليكة، عنها، وروى له الدارقطنى متابعا، عن أبى هريرة مرفوعا. وروى مثله عن على وابن عباس وغيرهما.

ومن حكى عنه أنها آية من كل سورة إلا براءة: ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وأبو هريرة، وعلى. ومن التابعين: عطاء، وطاوس، وسعيد بن جبیر، ومكحول، والزهرى، وبه يقول عبد الله بن المبارك، والشافعى، وأحمد بن حنبل - فى رواية عنه - وإسحاق بن راهويه، وأبو عبيد القاسم بن سلام، رحمهم الله^(٢).

(١) رواه النسائى (٣١٩/٢) هكذا مختصرا. وهو فى المسند ضمن روایتين مطولتين (١٧٨/٥)، (١٧٩ حلى). ورواه أيضا ضمن حديث مطول عن أبى أمامة (٢٦٥/٥).

(٢) وهو القول الصحيح، الذى تنصره الدلائل الصحاح، من الكتاب والسنة. ومن أقواها أن جميع المصاحف الأمهات، التى كتبها عثمان بن عفان، وأقرأها الصحابة جميعا، دون ما عداها - كتبت فيها البسملة فى أول =

وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما : ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور ، وقال داود: هي آية مستقلة في أول كل سورة لا منها، وهذه رواية عن الإمام أحمد . وحكاها أبو بكر الرازي، عن أبي الحسن الكرخي، وهما من أكابر أصحاب أبي حنيفة.

هذا ما يتعلق بكونها من الفاتحة أم لا. فأمّا ما يتعلق بالجهر بها، فمفترّع على هذا؛ فمن رأى أنها ليست الفاتحة فلا يجهر بها، وكذا من قال: إنها آية من أولها، وأمّا من قال بأنها من أوائل السور فاختلفوا؛ فذهب الشافعي، إلى أنه يجهر بها مع الفاتحة والسورة، وهو مذهب طوائف من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين سلفاً وخلفاً، فجهر بها من الصحابة أبو هريرة، وابن عمر، وابن عباس، ومعاوية، ونقله الخطيب عن سعيد بن جبيرة، وعكرمة، وأبي قلاب، والزهرى، وسعيد بن المسيب، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، وعمر بن عبد العزيز وغيرهم.

وروى أبو داود والترمذى، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يفتح الصلاة بسم الله الرحمن الرحيم. ثم قال الترمذى: وليس إسناده بذلك. وقد رواه الحاكم في المستدرک، عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ يجهر بسم الله الرحمن الرحيم، ثم قال: صحيح. وفي صحيح البخارى، عن أنس بن مالك أنه سئل عن قراءة النبي ﷺ فقال: كانت قراءته مداً، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، بمد بسم الله، ومد الرحمن، ومد الرحيم. وفي مسند الإمام أحمد، وسنن أبي داود، وصحيح ابن خزيمة، ومستدرک الحاكم، عن أم سلمة، قالت: كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته: بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. وقال الدارقطنى: إسناده صحيح. وروى الإمام الشافعي، والحاكم في المستدرک، عن أنس: أن معاوية صلى بالمدينة، فتروك البسملة، فانكر عليه من حضر من المهاجرين ذلك، فلما صلى المرّة الثانية بسم.

وفى هذه الأحاديث، والآثار التى أوردناها كفاية ومقنع فى الاحتجاج لهذا القول عما عداها، فأما المعارضات والروايات الغريبة، وتطريقها، وتعليلها وتضعيفها، وتقريرها، فله موضع آخر.

وذهب آخرون إلى أنه لا يجهر بالبسملة فى الصلاة، وهذا هو الثابت عن الخلفاء الأربعة وعبد الله بن مغفل، وطوائف من سلف التابعين والخلف، وهو مذهب أبى حنيفة، والثورى، وأحمد بن حنبل.

= كل سورة سوى براءة . وأن الصحابة رضوان الله عليهم ، إذ جمعوا القرآن فى المصاحف، جردوه من كل شيء غيره ، فلم يكتبوا أسماء السور ، ولا أعداد الآى ، ولا كلمة « آمين » . ومنعوا أن يجرؤ أحد على كتابة ما ليس من كتاب الله فى المصاحف ، حرصاً منهم على حفظ كتاب الله ، وخشية أن يشبه على أحد من بعدهم فيظن غير القرآن قرآناً . أفيعقل - مع هذا كله - أن يكتبوا مائة وثلاث عشرة بسملة زيادة على ما أنزل على رسول الله ؟ ! ألا يدل هذا دلالة قاطعة منقولة بالتواتر العملى المؤيد بالكتابة المتواترة - على أنها آية من القرآن فى كل موضع كتبت فيه ؟

وقد فصلنا القول فى ذلك ، فى بحث طويل ، فى شرحنا على الترمذى (١٦ / ٢ - ٢٥) .

وعند الإمام مالك: أنه لا يقرأ البسملة بالكلية، لا جهرًا ولا سرًا، واحتجوا بما في صحيح مسلم، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بالحمد لله رب العالمين. وبما في الصحيحين، عن أنس بن مالك، قال: صَلَّيْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ، وأبى بكر وعمر وعثمان، فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين. ولمسلم: لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم فى أول قراءة ولا فى آخرها. ونحوه فى السنن عن عبد الله بن مُعَلَّل رضى الله عنه .

فهذه مأخذ الأئمة، رحمهم الله، فى هذه المسألة وهى قريية؛ لأنهم أجمعوا على صحة صلاة من جهر بالبسملة ومن أسر، والله الحمد والمنة.

فصل فى فضلها : روى الإمام أحمد فى مسنده : عن عاصم، قال: سمعت أبا نعيمه يحدث، عن رديف النبي ﷺ قال: عثر بالنبي ﷺ، فقلت: تَعَسَ الشيطان. فقال النبي ﷺ: «لا تقل تعس الشيطان. فإنك إذا قلت: تعس الشيطان تعاضم، وقال: بقوتى صرعت، وإذا قلت: بسم الله، تصاغر حتى يصير مثل الذباب». هكذا وقع فى رواية الإمام أحمد^(١)، وقد روى النسائي فى اليوم والليلة وابن مردويه عن أسامة بن عمير قال: كنت رديف النبي ﷺ، فذكره، وقال: «لا تقل هكذا، فإنه يتعاضم حتى يكون كالبيت، ولكن قل: بسم الله، فإنه يصغر حتى يكون كالذباب»^(٢).

فهذا من تأثير بركة بسم الله؛ ولهذا تستحب فى أول كل عمل وقول. فتستحب فى أول الخطبة لما جاء: «كل أمر لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم، فهو أجذم»، وتستحب البسملة عند دخول الخلاء لما ورد من الحديث فى ذلك، وتستحب فى أول الوضوء لما جاء فى مسند الإمام أحمد والسنن، من رواية أبى هريرة، وسعيد بن زيد، وأبى سعيد مرفوعاً: «لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه»، وهو حديث حسن. ومن العلماء من أوجبها عند الذكر ههنا، ومنهم من قال بوجوبها مطلقاً، وكذا تستحب عند الذبيحة فى مذهب الشافعى وجماعة، وأوجبها آخرون عند الذكر، ومطلقاً فى قول بعضهم، كما سيأتى بيانه فى موضعه، إن شاء الله.

وهكذا تستحب عند الأكل لما فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لربيبة عمر بن أبى سلمة: «قل: بسم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك». ومن العلماء من أوجبها والحالة هذه، وكذلك تستحب عند الجماع لما فى الصحيحين، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً».

ومن ههنا ينكشف لك أن القولين عند النحاة فى تقدير المتعلق بالباء فى قوله: بسم الله،

(١) هو فى المسند (٥/٥٩، ٧١، ٣٦٥ حلى) بأربعة أسانيد .

(٢) ورواه أبو داود (٤٩٨٢) عن أبى المليح عن رجل، قال: «كنت رديف النبي ﷺ ...».

هل هو اسم أو فعل - متقاربان . وكل قد ورد به القرآن ؛ أما من قدره باسم ، تقديره : بسم الله ابتدائي ، فلقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [هود: ٤١] ، ومن قدره بالفعل ، فلقوله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق: ١] ، وكلاهما صحيح ، فإن الفعل لأبد له من مصدر ، فلك أن تقدر الفعل ومصدره ، وذلك بحسب الفعل الذى سميت قبله ، إن كان قياماً أو قعوداً أو أكلاً أو شرباً أو قراءة أو وضوءاً أو صلاة ، فالمشروع ذكر اسم الله فى الشروع فى ذلك كله ، تبركاً وتيمناً واستعانة على الإتمام والتقبل ، والله أعلم .

﴿ الله ﴾ : عَلَّمَ على الرب تبارك وتعالى ، ويقال : إنه الاسم الأعظم ؛ لأنه يوصف بجميع الصفات ، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ . هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ . هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٢ - ٢٤] ، فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له ، كما قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الإسراء: ١١٠] ، وفى الصحيحين ، عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة » ، وجاء تعددها فى رواية الترمذى ، وابن ماجه ، وبين الروایتين اختلاف زيادات ونقصان .

وهو اسم لم يسم به غيره تبارك وتعالى ؛ ولهذا لا يعرف فى كلام العرب له اشتقاق من «فعل يفعل» ، فذهب من ذهب من النحاة إلى أنه اسم جامد لا اشتقاق له . وقد نقل القرطبى عن الشافعى والخطابى وإمام الحرمين والغزالى وغيرهم ، وروى عن الخليل وسيبويه أن الألف واللام فيه لازمة . قال الخطابى : ألا ترى أنك تقول : يا أله ، ولا تقول : يا الرحمن ، فلولا أنه من أصل الكلمة لما جاز إدخال حرف النداء على الألف واللام . وقيل : إنه مشتق ، واستدلوا عليه بقول رؤبة بن العجاج :

لله در الغانيات المدة سبّحنَ واسترجعن من تألهي (١)

فقد صرح الشاعر بلفظ المصدر ، وهو التأله ، من أله يأله إلهة وتألها ، كما روى أن ابن عباس قرأ : « ويدرك ولاهتك » قال : عبادتك ، أى : أنه كان يُعبد ولا يُعبد ، وكذا قال مجاهد وغيره .

وأصل ذلك « الإله » ، فحذفت الهمزة التى هى فاء الكلمة ، فالتقت اللام التى هى عينها مع اللام الزائدة فى أولها للتعريف فأدغمت إحداها فى الأخرى ، فصارتا فى اللفظ لهما واحدة مشددة ، وفخمت تعظيماً ، فقيل : الله .

(١) « المده » بضم الميم وتشديد الدال ، من « المده » بفتح الميم وسكون الدال . وهو المد . قيل : إن الهاء بدل من الحاء ، وقيل : المده فى نعت الهيئة والجمال ، والمدح فى كل شيء .

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ : اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة ، ورحمن أشد مبالغة من رحيم ، وفي كلام ابن جرير ما يفهم منه حكاية الاتفاق على هذا ، وقال القرطبي : والدليل على أنه مشتق ما أخرجه الترمذى وصححه عن عبد الرحمن بن عوف ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «قال الله تعالى : أنا الرحمن ، خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي ، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته» . قال : وهذا نص في الاشتقاق فلا معنى للمخالفة والشقاق .

قال : وإنكار العرب لاسم الرحمن لجهلهم بالله وبما وجب له ، قال القرطبي : قيل هما بمعنى واحد كندمان ونديم قاله أبو عبيد ، وقيل : ليس بناء فعلان كفعيل ، فإن فعلان لا يقع إلا على مبالغة الفعل نحو قولك : رجل غضبان ، للرجل الممتلئ غضباً ، وفعليل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول ، قال أبو على الفارسي : الرحمن : اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى ، والرحيم إنما هو في جهة المؤمنين ، قال الله تعالى : ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الاحزاب : ٤٣] ، وقال ابن عباس : هما اسمان رقيقان ، أحدهما أرق من الآخر ، أى أكثر رحمة ، ثم حكى عن الخطابي وغيره : أنهم استشكلوا هذه الصفة ، وقالوا : لعله أرفق كما جاء في الحديث : «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله ، وإنه يعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف» (١) . وقال ابن المبارك : الرحمن إذا سئل أعطى ، والرحيم إذا لم يسأل يغضب ، وهذا كما جاء في الحديث الذى رواه الترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : «من لم يسأل الله يغضب عليه» .

قالوا : ولهذا قال : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان : ٥٩] ، وقال : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه : ٥] . فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم جميع خلقه برحمته ، وقال : ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الاحزاب : ٤٣] فخصهم باسمه الرحيم ، قالوا : فدل على أن الرحمن أشد مبالغة فى الرحمة لعمومها فى الدارين لجميع خلقه ، والرحيم خاصة بالمؤمنين ، لكن جاء فى الدعاء المأثور : رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما .

واسمه تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ﴾ خاص به لم يسم به غيره ، كما قال تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء : ١١٠] ، وقال تعالى : ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف : ٢٥] . ولما تجهروا مسيلمة الكذاب (٢) وتسمى بـ «رحمن اليمامة» كساه الله جلباب الكذب وشهره به ، فلا يقال إلا : مسيلمة الكذاب ، فصار يضرب به المثل فى الكذب بين أهل الحضرة من أهل المدر ، وأهل الوبر من أهل البادية والأعراب .

(١) رواه بنحوه الإمام أحمد فى المسند (٩٠٢) من حديث على ، مرفوعاً . ورواه بنحوه أيضاً الشيخان ، من حديث عائشة . انظر : صحيح مسلم ٢ / ٢٨٥ .

(٢) هذا الحرف «تجهروم» حرف غريب ، لم أجد فى شيء من المعاجم ، ولا فى المصادر الأخرى . وأنا أستسيغه جداً بذوقى العربى ، لا أجدنى نافراً منه ، ويخيل إلى أنه حرف مولد من مجموع مادتين ، كأنه من مادتي «جهر» و «حرم» ، كأنه يراد به تجاهر بجرمه . كما مزجوا من مادتين أو أكثر «حمدل» و «حسبل» و «بسمل» و «هلل» و «حوقل» ونحو ذلك .

وأما الرحيم فإنه تعالى وصف به غيره، حيث قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] كما وصف غيره بذلك من أسمائه كما فى قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٢].

والحاصل: أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره، ومنها ما لا يسمى به غيره، كاسم الله والرحمن والخالق والرازق ونحو ذلك؛ فلهذا بدأ باسم الله، ووصفه بالرحمن؛ لأنه أخص وأعرف من الرحيم؛ لأن التسمية أولا إنما تكون بأشهر الأسماء، فلهذا ابتدأ بالأخص فالأخص.

وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن، حتى رد الله عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]؛ ولهذا قال كفار قريش يوم الحديبية لما قال رسول الله ﷺ لعلى: «اكتب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾»، فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم. رواه البخارى، وفى بعض الروايات: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠].

والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جحود وعناد وتعت فى كفرهم؛ فإنه قد وجد فى أشعارهم فى الجاهلية تسمية الله تعالى بالرحمن، قال ابن جرير: وقد أنشد لبعض الجاهلية الجهال:

أَلَا ضَرَبْتَ تِلْكَ الْفَتَاةَ هَجِجِيهَا
أَلَا قَضَبَ الرَّحْمَنُ رَبِّي يَمِينَهَا

وقال سلامة بن جندل الطهوى:

عَجَلْتُمْ عَلَيْنَا عَجَلَتَيْنَا عَلَيْكُمْ
وَمَا يَشَاءُ الرَّحْمَنُ يَعْجِدُ وَيُطْلِقُ (١)

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

قال أبو جعفر بن جرير: معنى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الشكر لله خالصاً دون سائر ما يعبد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه، بما أنعم على عباده من النعم التى لا يحصى العدد، ولا يحيط بعددها غيره أحد، فى تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم فى دنياهم من الرزق، وغذاهم به من نعيم العيش، من غير استحقاق منهم ذلك عليه، ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه، من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود فى دار المقام فى النعيم المقيم، فلو ربنا الحمد على ذلك كله أولاً وآخرأ.

وقال ابن جرير رحمه الله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: ثناء أثنى به على نفسه، وفى ضمنه أمر عباده أن يشنوا عليه، فكأنه قال: قولوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾. قال: وقد قيل: إن قول القائل: «الحمد لله»، ثناء عليه بأسمائه وصفاته الحسنى، وقوله: «الشكر لله» ثناء عليه بنعمه وأياديه، ثم شرع

(١) فى المطبوعة: «إذ عجلنا» بدل «عجلتينا» والصواب من الأزهري، وهو الموافق لما فى الطبرى (١/١٣١) من طبعنا.

فى رد ذلك بما حاصله أن جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلا من الحمد والشكر مكان الآخر. وهذا الذى ادعاه فيه نظر؛ لأنه اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، والشكر لا يكون إلا على التعدية، ويكون بالجنان واللسان والأركان، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدى ولسانى والضمير المحجبا

ولكن اختلفوا: أيهما أعم، الحمد أو الشكر؟ على قولين، والتحقيق أن بينهما عموماً وخصوصاً، فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية، تقول: حمّدت لفروسيته وحمدته لكرمه. وهو أخص لأنه لا يكون إلا بالقول، والشكر أعم من حيث ما يقعان به؛ لأنه يكون بالقول والعمل والنية، كما تقدم، وهو أخص لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية، لا يقال: شكرته لفروسيته، وتقول: شكرته على كرمه وإحسانه إلىّ. هذا حاصل ما حرره بعض المتأخرين، والله أعلم. وقال الجوهري: الحمد نقيض الذم، تقول: حمّدت الرجل أحمدته حمداً ومحمدة، فهو حميد ومحمود، والتحميد أبلغ من الحمد، والحمد أعم من الشكر. وقال فى الشكر: هو الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف، يقال: شكرته، وشكرت له. وباللام أفصح.

وقد روى الإمام أحمد بن حنبل: عن الأسود بن سريع، قال: قلت: يا رسول الله، ألا أنشدك محامد حمّدت بها ربى، تبارك وتعالى؟ فقال: «أما إن ربك يحب الحمد». ورواه النسائي^(١). وروى الترمذى، والنسائي وابن ماجه، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله». قال الترمذى: حسن غريب. وفى سنن ابن ماجه عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ حدثهم: «أن عبداً من عباد الله قال: يارب، لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها، فصعدا إلى السماء فقالا: يا ربنا، إن عبدك قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها، قال الله - وهو أعلم بما قال عبده -: ماذا قال عبدى؟ قالوا: يارب إنه قد قال: يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك. فقال الله لهما: اكتبها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها»^(٢).

والألف واللام فى الحمد لاستغراق جميع أجناس الحمد، وصنوفه لله تعالى كما جاء فى الحديث: «اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله» الحديث.

و « الرب » هو: المالك المتصرف، ويطلق فى اللغة على السيد، وعلى المتصرف للإصلاح،

(١) هو فى المسند (١٥٦٥٠) (٣/٤٣٥ حلى)، ونسبه السيوطى فى الدر المنثور (١/١٢) لأحمد والبخارى فى الأدب المفرد والنسائي والحاكم وصححه، وغيرهم.

(٢) هذا الحديث ليس فى الأزهرية، وقد صحّحته من سنن ابن ماجه (١/٣٨٠) وإسناده جيد، ليس فيه مجروح.

وكل ذلك صحيح فى حق الله تعالى. ولا يستعمل الرب لغير الله، بل بالإضافة تقول: رب الدار، رب كذا، وأما الرب فلا يقال إلا لله عز وجل، وقد قيل: إنه الاسم الأعظم .

و« العالمين »: جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله عز وجل، والعالم جمع لا واحد له من لفظه، والعوالم أصناف المخلوقات فى السموات والأرض فى البر والبحر، وكل قرن منها وجيل يسمى عالماً أيضاً.

﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾

وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ تقدم الكلام عليه فى البسملة بما أغنى عن إعادته. قال القرطبى: إنما وصف نفسه بـ ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ بعد قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ ليكون من باب قرن الترغيب بعد الترهيب، كما قال تعالى: ﴿نَبِيٌّ عَبْدِي أَيُّ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَن عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥]. قال: فالرب فيه ترهيب، و﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ترغيب. وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع فى جنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد».

﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾

قرأ بعض القراء: ﴿مَلِكٍ﴾. وقرأ آخرون: ﴿مَالِكٍ﴾. وكلاهما صحيح متواتر فى السبع. ويقال: مَلِكٌ - بكسر اللام وإسكانها - ويقال: مَلِكٌ أيضاً، وأشيع نافع كسرة الكاف فقرأ: «ملكى يوم الدين»، وقد رجح كلا من القراءتين مرجحون من حيث المعنى، وكلاهما صحيحة حسنة، ورجح الزمخشري «ملك»؛ لأنها قراءة أهل الحرمين، ولقوله: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦]، ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ [الأنعام: ٧٣].

ومالك مأخوذة من الملك، كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠] وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ. مَلِكِ النَّاسِ﴾ [الناس: ١، ٢] ومالك: مأخوذ من المَلِكُ كما قال تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وقال: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ [الأنعام: ٧٣]، وقال: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه؛ لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين، وذلك عام فى الدنيا والآخرة، وإنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لا يدعى أحد هنالك شيئاً، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه، كما قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَحُشَّتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]، وقال: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]. وعن ابن عباس قال: يوم الدين يوم الحساب للخلائق، وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر،

إلا من عفا عنه. وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف، وهو ظاهر.

والملك في الحقيقة هو الله، عز وجل، قال الله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة، رضى الله عنه، مرفوعاً: «أخضع اسم عند الله رجل تسمى بملك الأملك ولا مالك إلا الله». وفيهما عنه عن رسول الله ﷺ قال: «يقبض الله الأرض ويطوى السماء بيمينه ثم يقول: أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟». وفي القرآن العظيم: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، فأما تسمية غيره في الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة: ٢٤٧]، ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مُلْكٌ﴾ [الكهف: ٧٩]، ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠]، وفي الصحيحين: «مثل الملوك على الأسرة».

و «الدين»: الجزاء والحساب كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُؤْقِطُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥]، وقال: ﴿أَنْبِيَائُ لَمُدِّيُونُ﴾ [الصافات: ٥٣] أى: مجزيون محاسبون. وفي الحديث: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت» (١) أى: حاسب نفسه لنفسه. كما قال عمر رضى الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتأهبوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم» «يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ» [الحاقة: ١٨].

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

قرأ السبعة والجمهور بتشديد الياء من ﴿إِيَّاكَ﴾ وقرأ عمرو بن فايد بتخفيفها مع الكسر وهى قراءة شاذة مردودة؛ لأن «إيا» ضوء الشمس. وقرأ بعضهم: «أياك» بفتح الهمزة وتشديد الياء، وقرأ بعضهم: «هياك» بالهاء بدل الهمزة. و﴿نَسْتَعِينُ﴾ بفتح النون أول الكلمة فى قراءة الجميع سوى يحيى بن وثاب والأعمش، فإنهما كسراها وهى لغة بنى أسد وربيعة وبنى تميم.

والعبادة فى اللغة: من الذلة، يقال: طريق مُعَبَّد، وبغير مُعَبَّد، أى: مذل. وفى الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف. وقدم المفعول وهو ﴿إِيَّاكَ﴾، وكرر؛ للاهتمام والحصر، أى: لا نعبد إلا إياك، ولا نتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة. والدين يرجع كله إلى هذين المعنيين، وهذا كما قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فالأول تبرؤ من الشرك، والثانى تبرؤ من الحول والقوة، والتفويض إلى الله، عز وجل. وهذا المعنى فى غير آية من القرآن، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [مود: ١٢٣]، ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [الزلزل: ٩]، وكذلك هذه الآية الكريمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب، وهو مناسب؛ لأنه لما أثنى على الله

(١) من حديث رواه أحمد والترمذى وابن ماجه والحاكم، من حديث شداد بن أوس، مرفوعاً.

فكانه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى ؛ فلهذا قال : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ . وفى هذا دليل على أن أول السورة خبر من الله تعالى بالشأن على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنی، وإرشاد لعباده أن يشنوا عليه بذلك ؛ ولهذا لا تصح صلاة من لم يقل ذلك ، وهو قادر عليه ، كما جاء فى الصحيحين ، عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال : «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» . وفى صحيح مسلم ، من حديث العلاء بن عبد الرحمن ، مولى الحرقة ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ : «يقول الله تعالى : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، فنصفها لى ونصفها لعبدى ، ولعبدى ما سأل ، إذا قال العبد : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة : ٢] قال : حمدنى عبدى ، وإذا قال : ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة : ٣] قال : أثنى على عبدى ، فإذا قال : ﴿مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة : ٤] ، قال الله : مجدنى عبدى ، وإذا قال : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة : ٥] قال : هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل ، فإذا قال : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ [الفاتحة : ٦ ، ٧] قال : هذا لعبدى ولعبدى ما سأل» .

وإنما قدم : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأن العبادة له هى المقصودة ، والاستعانة وسيلة إليها ، والاهتمام والحزم هو أن يقدم ما هو الأهم فالأهم ، والله أعلم .

فإن قيل : فما معنى النون فى قوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإن كانت للجمع فالداعى واحد ، وإن كانت للتعظيم فلا تناسب هذا المقام ؟ وقد أجيب : بأن المراد من ذلك الإخبار عن جنس العباد والمصلين فرد منهم ، ولا سيما إن كان فى جماعة أو إمامهم ، فأخبر عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين بالعبادة التى خلقوا لأجلها ، وتوسط لهم بخير ، ومنهم من قال : يجوز أن تكون للتعظيم ، كان العبد قيل له : إذا كنت داخل العبادة فأنت شريف وجاهك عريض ، فقل : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، وإذا كنت خارج العبادة فلا تقل : نحن ولا فعلنا ، ولو كنت فى مائة ألف أو ألف ألف لاحتياج الجميع إلى الله عز وجل . ومنهم من قال : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ اللفظ فى التواضع من إياك أعبد ، لما فى الثانى من تعظيمه نفسه من جعله نفسه وحده أهلاً لعبادة الله تعالى الذى لا يستطيع أحد أن يعبد حق عبادته ، ولا يشئ عليه كما يليق به ، والعبادة مقام عظيم يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى .

وقد سمي الله رسوله ﷺ بعبده فى أشرف مقاماته فقال : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف : ١] ، «وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ» [الجن : ١٩] ، «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا» [الإسراء : ١] ، فسماه عبداً عند إنزاله عليه وعند قيامه فى الدعوة وإسرائه به ، وأرشدته إلى القيام بالعبادة فى أوقات يضيق صدره من تكذيب المخالفين ، حيث يقول : «وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ . وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ» [الحجر : ٩٧ - ٩٩] .

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

لما تقدم الثناء على المسؤول، تبارك وتعالى ، ناسب أن يعقب بالسؤال ؛ كما قال : «فنصفها لى ونصفها لعبدى، ولعبدى ما سأل» وهذا أكمل أحوال السائل، أن يمدح مسؤوله، ثم يسأل حاجته ؛ لأنه أنجح للحاجة وأنجح للإجابة، ولهذا أرشد الله تعالى إليه لأنه الأكمل، وقد يكون السؤال بالإخبار عن حال السائل واحتياجه، كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] وقد يتقدمه مع ذلك وصف المسؤول ، كقول ذى النون : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وقد يكون بمجرد الثناء على المسؤول، كقول الشاعر:

أأذكر حاجتى أم قد كفانى حياؤك إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوما كفاه من تعرضه الثناء

والهداية ههنا: الإرشاد والتوفيق، وقد تعدى الهداية بنفسها كما هنا: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فتضمن معنى ألهمنا، أو وفقنا، أو ارزقنا، أو اعطنا؛ ﴿وَهْدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] أى: بينا له الخير والشر، وقد تعدى بإلى، كقوله : ﴿اجْتَبَاهُ وَهْدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١] ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصفات: ٢٣] وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة، وكذلك قوله: ﴿وَأِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] وقد تعدى باللام، كقول أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] أى وفقنا لهذا وجعلنا له أهلا.

وأما « الصراط المستقيم »، فقال الإمام أبو جعفر بن جرير: أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن «الصراط المستقيم» هو الطريق الواضح الذى لا اعوجاج فيه . وكذلك ذلك فى لغة جميع العرب. قال: ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله فى كل قول وعمل، وصف باستقامة أو اعوجاج، فنصف المستقيم باستقامته، والمعوج باعوجاجه.

ثم اختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف فى تفسير الصراط، وإن كان يرجع حاصلها إلى شىء واحد، وهو المتابعة لله وللرسول؛ فروى أنه كتاب الله.

وفى هذا الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده، عن الثواس بن سمعان، عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلا صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعاً ولا تعوجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب، قال: ويحك، لا تفتح، فإنك إن تفتحته تلجه . فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله، والداعى من فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم» (١) ورواه الترمذى والنسائى وابن أبى حاتم

(١) هو فى المسند (١٧٧١١) (٤/ ١٨٢، ١٨٣) ، وفى بعض ألفاظه مخالفة لما ثبت هنا . فلعله اختلاف فى نسخ

المسند . ورواية الطبرى ، التى أشار إليها ابن كثير ، مختصرة ، وهى برقمى (١٨٦ ، ١٨٧).

الطبرى. إسناده حسن صحيح ، والله أعلم .

وقال مجاهد: ﴿ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ﴾ : الحق . وهذا أشمل، ولا منافاة بينه وبين ما تقدم .
وروى ابن أبى حاتم وابن جرير عن أبى العالية: ﴿ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ﴾ هو النبى ﷺ ، وصاحبه
من بعده، قال عاصم: فذكرنا ذلك للحسن، فقال: صدق أبو العالية ونصح .

وكل هذه الأقوال صحيحة، وهى متلازمة، فإن من اتبع النبى ﷺ، واقتدى باللذين من
بعده أبى بكر وعمر، فقد اتبع الحق، ومن اتبع الحق فقد اتبع الإسلام، ومن اتبع الإسلام فقد
اتبع القرآن، وهو كتاب الله وحبله المتين، وصراطه المستقيم، فكلها صحيحة يصدق بعضها
بعضاً، والله الحمد .

وروى الطبرانى عن عبد الله ^(١)، قال: الصراط المستقيم: الذى تركنا عليه رسول الله ﷺ .

ولهذا قال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: والذى هو أولى بتأويل هذه الآية عندى
- أعنى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ - أن يكون معنياً به: وفقنا للثبات على ما ارتضيته ووفقت له
من أنعمت عليه من عبادك، من قول وعمل، وذلك هو الصراط المستقيم؛ لأن من وفق لما وفق
له من أنعم الله عليه من النبين والصديقين والشهداء والصالحين، فقد وفق للإسلام، وتصديق
الرسول، والتمسك بالكتاب، والعمل بما أمره الله به، والانزجار عما زجره عنه، واتباع منهاج
النبى ﷺ، ومنهاج الخلفاء الأربعة، وكل عبد صالح، وكل ذلك من الصراط المستقيم .

فإن قيل: فكيف يسأل المؤمن الهداية فى كل وقت من صلاة وغيرها، وهو متصف بذلك؟
وهل هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا؟ فالجواب: أن لا، ولولا احتياجه ليلاً ونهاراً إلى
سؤال الهداية لما أرشده الله إلى ذلك؛ فإن العبد مفتقر فى كل ساعة وحالة إلى الله تعالى فى
تبتيته على الهداية، ورسوخه فيها، وتبصره، وازدياده منها، واستمراره عليها، فإن العبد لا يملك
لنفسه نفعاً ولا ضرراً إلا ما شاء الله، فأرشده تعالى إلى أن يسأله فى كل وقت أن يمهده بالمعونة
والثبات والتوفيق، فالسعيد من وفقه الله تعالى لسؤاله؛ فإنه تعالى قد تكفل بإجابة الداعى إذا
دعاه، ولا سيما المضطر المحتاج المفتقر إليه آناء الليل وأطراف النهار، وقد قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ﴾ الآية
[النساء: ١٣٦]، فقد أمر الذين آمنوا بالإيمان، وليس فى ذلك تحصيل الحاصل؛ لأن المراد الثبات
والاستمرار والمداومة على الأعمال المعينة على ذلك، والله أعلم .

وقال تعالى أمراً لعباده المؤمنين أن يقولوا: ﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ
رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨] ، وقد كان الصديق رضى الله عنه يقرأ بهذه الآية فى
الركعة الثالثة من صلاة المغرب بعد الفاتحة سراً ، فمعنى قوله تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيمَ ﴾: استمر بنا عليه ولا تعدل بنا إلى غيره .

(١) عبد الله : هو ابن مسعود ، وإسناده الطبرانى إليه إسناده صحيح .

﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾

قد تقدم الحديث فيما إذا قال العبد: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخرها أن الله يقول: «هذا لعبدي ولعبدى ما سأل». وقوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ مفسر للصراط المستقيم. وهو بدل منه عند النحاة، ويجوز أن يكون عطف بيان، والله أعلم.

و«الذين أنعم عليهم»: هم المذكورون في سورة النساء، حيث قال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا. ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

وقوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾: يعنى اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم عن تقدم وصفهم ونعمتهم، وهم أهل الهداية والاستقامة، والطاعة لله ورسله، وامثال أوامره وترك نواهيه وزواجره، غير صراط المغضوب عليهم، وهم الذين فسدت إرادتهم، فعلموا الحق وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين وهم الذين فقدوا العلم فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون إلى الحق، وأكد الكلام بـ «لا»، ليدل على أن ثَمَّ مسلكين فاسدين، وهما طريقتا اليهود والنصارى.

وقد زعم بعض النحاة أن «غير» ههنا استثنائية، فيكون على هذا منقطعاً لاستثنائهم من المنعم عليهم وليسوا منهم، وما أوردناه أولى، ومنهم من زعم أن «لا» في قوله: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ زائدة، وأن تقدير الكلام عنده: غير المغضوب عليهم والضالين. والصحيح ما قدمناه. ولهذا روى أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب فضائل القرآن، عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه: أنه كان يقرأ: «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَغَيْرِ الضَّالِّينَ». وإسناده صحيح، وهو محمول على أنه صدر منه على وجه التفسير، فبدل على ما قلناه من أنه إنما جرى بـ «لا» لتأكيد النفي، وللفرق بين الطريقتين، لتجنب كل منهما؛ فإن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به، واليهود فقدوا العمل، والنصارى فقدوا العلم؛ ولهذا كان الغضب لليهود، والضلال للنصارى؛ لأن من علم وترك استحق الغضب، بخلاف من لم يعلم. والنصارى لما كانوا قاصدين شيئاً لكنهم لا يهتدون إلى طريقه؛ لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه، وهو اتباع الحق، ضلوا، وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه، لكن أخص أوصاف اليهود الغضب، وأخص أوصاف النصارى الضلال، وبهذا جاءت الأحاديث والآثار.

فروى الإمام أحمد: عن عدى بن حاتم، قال: جاءت خيل رسول الله ﷺ، فأخذوا عمتى وناساً، فلما أتوا بهم إلى رسول الله ﷺ صفوا له، فقالت: يا رسول الله، نأى الوافد وانقطع الولد، وأنا عمجور كبيرة، ما بى من خدمة، فمنّ على منّ الله عليك. قال: «من وافدك؟» قالت: عدى بن حاتم، قال: «الذى فر من الله ورسوله!» قالت: فمنّ على، فلما رجع، ورجل إلى جنبه ترى أنه علىّ - قال: سليه حُمْلانا، فسألته، فأمر لها، قال: فأتنتى، فقالت:

لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها، فإنه قد أتاه فلان فأصاب منه ، وأتاه فلان فأصاب منه ، فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيان، أو صبي ، وذكر قربهم من النبي ﷺ ، قال : فعرفت أنه ليس بملك كسرى ولا قيصر ، فقال : « يا عدى ، ما أفرك أن يقال : لا إله إلا الله؟ فهل من إله إلا الله؟ قال : ما أفرك أن يقال : الله أكبر، فهل شيء أكبر من الله، عز وجل؟ ». قال : فأسلمت، فرأيت وجهه استبشر، وإن قال : «المغضوب عليهم اليهود، وإن الضالين النصارى». ورواه الترمذى ، وقال : حسن غريب (١). وروى عبد الرزاق : عن عبد الله بن شقيق، أنه أخبره من سمع رسول الله ﷺ، وهو بوادى القرى، على فرسه، وسأله رجل من بنى القين، فقال : يا رسول الله، من هؤلاء؟ قال : «المغضوب عليهم - وأشار إلى اليهود - والضالون هم النصارى» وقد روى مرسلًا ، لم يذكر فيه من سمع رسول الله ﷺ (٢) .

وكذلك قال ابن عباس والربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد، وقال ابن أبي حاتم : ولا أعلم بين المفسرين فى هذا اختلافًا.

وشاهد ما قاله هؤلاء الأئمة من أن اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون، الحديث المتقدم، وقوله تعالى فى خطابه مع بنى إسرائيل فى سورة البقرة: ﴿يَسْمَأُ اشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠]، وقال فى المائدة : ﴿قُلْ هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠]، وقال : ﴿لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

فصل : اشتملت هذه السورة الكريمة، وهى سبع آيات، على حمد الله وتمجيده والثناء عليه، بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العلى، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين، وعلى إرشاده عبده إلى سؤاله والتضرع إليه، والتبرؤ من حولهم وقوتهم، وإلى إخلاص العبادة له وتوحيده بالالوهية تبارك وتعالى، وتنزه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو الدين القويم، وتثبيتهم عليه حتى يفضى بهم ذلك إلى جواز الصراط الحسى يوم القيامة، المفضى بهم إلى جنات النعيم فى جوار النبين، والصدقيين، والشهداء، والصالحين.

واشتملت على الترغيب فى الأعمال الصالحة؛ ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، والتحذير من مسالك الباطل، لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة، وهم المغضوب عليهم والضالون. وما

(١) هو بطوله فى المسند (٤ / ٣٧٨ ، ٣٧٩ حلى) ، وفى الترمذى (٤ / ٦٧) ، ورواه أحمد قبل ذلك (٤ / ٣٥٧) من وجه آخر ، مختصراً .

(٢) رواه الطبرى (١٩٨) من طريق عبد الرزاق . وذكر الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦ / ٣١٠ ، ٣١١) بنحوه من روايتين ، وقال : « رواه كله أحمد ، ورجاله رجال الصحيح » وهو كما قال .

أحسن ما جاء إسناد الإنعام إليه في قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وحذف الفاعل في الغضب في قوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وإن كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المجادلة: ١٤]، وكذلك إسناد الضلال إلى من قام به، وإن كان هو الذى أضلهم بقدره، كما قال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]. وقال: ﴿مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه هو المنفرد بالهداية والإضلال، لا كما تقوله الفرقة القدريّة ومن حذا حذوهم، من أن العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلونه، ويحتجون على بدعتهم بمتشابه من القرآن، ويتركون ما يكون فيه صريحاً فى الرد عليهم، وهذا حال أهل الضلال والغنى، وقد ورد فى الحديث الصحيح: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سى الله فاحذروهم»^(١). يعنى فى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧]، فليس - بحمد الله - لمبتدع فى القرآن حجة صحيحة؛ لأن القرآن جاء ليفصل الحق من الباطل مفرقاً بين الهدى والضلال، وليس فيه تناقض ولا اختلاف؛ لأنه من عند الله، تنزيل من حكيم حميد.

فصل: يستحب لمن قرأ الفاتحة أن يقول بعدها: آمين، ويقال: آمين. بالقصر أيضاً، ومعناه: اللهم استجب، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد وأبو داود، والترمذى، عن واثل بن حجر، قال: سمعت النبی ﷺ قرأ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فقال: «آمين»، ومد بها صوته، وقال الترمذى: حديث حسن. وروى عن على، وابن مسعود وغيرهم.

وعن أبى هريرة، قال: كان رسول الله ﷺ إذا تلا: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قال: «آمين» حتى يسمع من يليه من الصف الأول. رواه أبو داود، وابن ماجه، وزاد: يرتج بها المسجد، والدارقطنى وقال: هذا إسناد حسن.

قال أصحابنا وغيرهم: ويستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة، ويتأكد فى حق المصلى، وسواء كان منفرداً أو إماماً أو مأموماً، وفى جميع الأحوال، لما جاء فى الصحيحين، عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمن الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة، غفر له ما تقدم من ذنبه» ولمسلم: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قال أحدكم فى الصلاة: آمين، الملائكة فى السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه». وفى صحيح مسلم عن أبى موسى مرفوعاً: «إذا قال، يعنى الإمام: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فقولوا: آمين. يجبكم الله».

وقال أصحاب مالك: لا يؤمن الإمام ويؤمن المأموم، لما رواه مالك عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «وإذا قال: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فقولوا: آمين». الحديث. واستأنسوا - أيضاً - بحديث أبى موسى، وقد قدمنا فى المتفق عليه: «إذا أمن الإمام فأمنوا» وأنه عليه الصلاة

(١) رواه الشيخان من حديث عائشة. وسأى فى الآية (٧) من سورة آل عمران، إن شاء الله. وقد فصلنا القول فى تخريجه، فى الطبرى (٦٦٧٠-٦٦١٥) وفى صحيح ابن حبان (٧٢، ٧٥).

والسلام كان يؤمن إذا قرأ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (١) .

وقد اختلف أصحابنا في الجهر بالتأمين للمأموم في الجهرية، وحاصل الخلاف: أن الإمام إن نسي التأمين جهر المأموم به قولاً واحداً، وإن آمن الإمام جهرأ فالجديد أنه لا يجهر المأموم وهو مذهب أبي حنيفة، ورواية عن مالك؛ لأنه ذكر من الأذكار فلا يجهر به كسائر أذكار الصلاة. والقديم أنه يجهر به، وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل، والرواية الأخرى عن مالك، لما تقدم: «حتى يرتج المسجد». ولنا قول آخر ثالث: أنه إن كان المسجد صغيراً لم يجهر المأموم؛ لأنهم يسمعون قراءة الإمام، وإن كان كبيراً جهر ليبلغ التأمين من في أرجاء المسجد، والله أعلم.

(١) حديث أبي هريرة في الموطأ، ص ٨٧. وحديث أبي موسى مضي قبل أسطر، وليس فيهما دلالة لما يقول أصحاب مالك، فإن هذا من الاختصار في الكلام. وقد روى مالك نفسه في الموطأ - قبل هذا الحديث - حديث أبي هريرة الماضي: «إذا آمن الإمام فأمنوا». فالحديثان عن أبي هريرة في معنى واحد، وإن اختلف اللفظان قليلاً.

تفسير سورة البقرة

ذكر ما ورد في فضلها :

روى أحمد ومسلم والترمذى والنسائى، عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، فإن البيت الذى يقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان» وقال الترمذى: حسن صحيح (١). وروى أبو عبيد: عن عبد الله، يعنى ابن مسعود، قال: إن الشيطان يفر من البيت الذى يسمع فيه سورة البقرة. ورواه النسائى فى اليوم واللييلة، وأخرجه الحاكم فى مستدركه، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه (٢). وعن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شئ سناما، وإن سنام القرآن البقرة، من قرأها فى بيته ليلة لم يدخله الشيطان ثلاث ليال، ومن قرأها فى بيته نهاراً لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام». رواه الطبرانى، وابن حبان فى صحيحه، وابن مردويه (٣).

وقد روى الترمذى، والنسائى، وابن ماجه عن أبى هريرة، قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً وهم ذوو عدد، فاستقروهم، فاستقرأ كل واحد منهم، يعنى ما معه من القرآن، فأتى على رجل من أحدثهم سناً، فقال: «ما معك يا فلان؟» قال: معى كذا وكذا وسورة البقرة، فقال: «أمعك سورة البقرة؟» قال: نعم. قال: «اذهب فأنت أميرهم»، فقال رجل من أشrafهم: والله ما منعنى أن أتعلم البقرة إلا أنى خشيت ألا أقوم بها. فقال رسول الله ﷺ: «تعلموا القرآن واقرووه؛ فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقراه وقام به كمثلى جراب محشو مسكاً يفوح ريحه فى كل مكان، ومثل من تعلمه، فيرقد وهو فى جوفه، كمثلى جراب أوكى على مسك». هذا لفظ رواية الترمذى، ثم قال: هذا حديث حسن (٤). وعن أسيد بن حضير، قال: بينا هو يقرأ من الليل سورة البقرة، وفرسه مربوطة عنده، إذ جالت الفرس، فسكت، فسكنت، فقرأ فجالت الفرس،

(١) هو فى المسند (٧٨٠٨، ٨٩٠٢) وصحيح مسلم (٢١٧/١) والترمذى (٤٢/٤) بنحوه.

(٢) هو فى المستدرک (٢٥٩/٢، ٢٦٠) بنحوه. ووافقه الذهبى على تصحيحه. وهو وإن كان موقوفاً لفظاً، فإنه مرفوع حكماً، لأنه مما لا يعلم بالرأى. وقد رواه ابن مردويه، والنسائى فى اليوم واللييلة، عن ابن مسعود، مرفوعاً مطولاً، على ما ذكره الحافظ ابن كثير بعده. وإسناده عندهما صحيح، ثم يؤيده حديث أبى هريرة المرفوع، الذى قبله.

(٣) ذكره الهيثمى فى الزوائد (٣١١/٦، ٣١٢) وقال: «رواه الطبرانى، وفيه سعيد بن خالد الخزاعى المدنى، وهو ضعيف». ولكن الذى فى صحيح ابن حبان (١٣٠/٢ - ١٣٢ من مخطوطة الإحسان): «خالد بن سعيد المزنى». و«المزنى» خطأ، صوابها: «المدنى». وخالد هذا مترجم فى لسان الميزان. وأشار إلى هذا الحديث، وذكر أنه هو «خالد بن سعيد بن أبى مريم التيمى المدنى، مولى ابن عجلان»، المترجم فى التهذيب، وهو ثقة، ذكره ابن حبان فى الثقات، وترجمه البخارى فى الكبير (١٤٠/١، ١٤١)، وابن أبى حاتم (٣٣٣/٢، ١). فلم يذكر فيه جرحاً.

(٤) الترمذى (٤٣/٤، ٤٤).

فسكت، فسكنت، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحيى قريباً منها. فأشفق أن تصيبه، فلما أخذه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال: «اقرأ يا ابن حُصَير». قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى، وكان منها قريباً، فرفعت رأسي وانصرفت إليه، فرفعت رأسي إلى السماء، فإذا مثل الظِّلَّةِ فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها، قال: «وتدري ما ذاك؟». قال: لا. قال: «تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصاحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم» رواه البخاري، ورواه أيضاً أبو عبيد، في كتاب فضائل القرآن. وقد وقع نحو من هذا لثابت بن قيس بن شماس فيما رواه أبو عبيد بإسناد جيد، إلا أن فيه إبهاماً، ثم هو مرسل، والله أعلم.

ذكر ما ورد في فضلها مع آل عمران :

روى الإمام أحمد عن بريدة، قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ فسمعت يقول: «تعلموا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة». قال: ثم سكت ساعة، ثم قال: «تعلموا سورة البقرة، وآل عمران، فإنهما الزهراوان، يُظْلَنُ صاحبهما يوم القيامة، كأنهما غماتان أو غيبتان، أو فرقان من طير صَوَافٍ، وإن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب، فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك. فيقول: أنا صاحبك القرآن الذي أظمتك في الهواجر، وأسهرت ليلك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة. فيعطى الملك يمينه والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويكسى الداء حلتين، لا يقوم لهما أهل الدنيا، فيقولان: بم كسينا هذا؟ فيقال: بأخذ. ولدكما القرآن. ثم يقال: اقرأ واصعد في دَرَجِ الجنة وغرفها. فهو في صعود ما دام يقرأ هذا كان أو ترتيلاً» (١).

ولبعضه شواهد؛ فمن ذلك حديث أبي أمامة الباهلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن؛ فإنه شافع لأهله يوم القيامة، اقرأوا الزهراوين: البقرة وآل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غماتان، أو كأنهما غيبتان، أو كأنهما فرقان من طير صوافٍ يحاجبان عن أهلها يوم القيامة» ثم قال: «اقرأوا البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة» رواه أحمد ومسلم (٢). الزهراوان: المنيران. والغاية: ما أظلك من فوقك. والفرق: القطعة من الشيء، والصواف: المصطفة المتضامة. والبطلة: السحرة، ومعنى «لا تستطيعها» أي: لا يمكنهم حفظها، وقيل: لا تستطيع النفوذ في قارئها، والله أعلم.

ومن ذلك حديث النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْكَلَابِيِّ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمهم سورة البقرة وآل عمران». وضرب

(١) هو في المسند (٣٤٨/٥ حلى)، وفي إسناده «بشير بن المهاجر الغنوي» وثقه ابن معين، وأخرج له مسلم، وتكلم فيه أحمد وغيره. ولذلك قال الحافظ ابن كثير هنا: «وهذا إسناد حسن على شرط مسلم».

(٢) المسند (٢٤٩/٥ حلى) وهذا لفظه. ومسلم (٢٢٢/١) ورواه ابن حبان في صحيحه (١١٦) بتحقيقنا، والحاكم في المستدرک (٥٦٤/١).

لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال: «كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق، أو كأنهما فرقان من طير صَوَافٍ يُحَاجَّانِ عن صاحبهما». رواه أحمد ومسلم والترمذى وقال: حسن غريب (١). وثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعة واحدة.

ذكر ما ورد في فضل السبع الطول (٢) :

روى أبو عبيد عن واثلة بن الأسقع، عن النبي ﷺ، قال: «أعطيت السبع الطول مكان التوراة، وأعطيت المثني مكان الإنجيل، وأعطيت المثاني مكان الزبور، وفضلت بالفصل». هذا حديث غريب. وقد رواه أبو عبيد عن سعيد بن أبي هلال، قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال - فذكره (٣).

وروى أبو عبيد عن سعيد بن جبير، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧]، قال: هي السبع الطول: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس. وقال مجاهد: هي السبع الطول. وهكذا قال مكحول وغيره في تفسير الآية بذلك، وفي تعدادها، وأن يونس هي السابعة. والبقرة جميعها مدنية بلا خلاف.

وقد ثبت في الصحيحين، عن ابن مسعود: أنه رمى الجمرة من بطن الوادي، فجعل البيت عن يساره، ومنى عن يمينه، ثم قال: هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة. وروى ابن مَرْدُويه عن عتبة بن فَرْقَد (٤)، قال: رأى النبي ﷺ في أصحابه تأخراً، فقال: «يا أصحاب سورة البقرة». وأظن هذا كان يوم حنين، حين ولوا مدبرين أمر العباس فناداهم: «يا أصحاب الشجرة»، يعني أهل بيعة الرضوان. وفي رواية: «يا أصحاب سورة البقرة»؛ وينشطهم بذلك، فجعلوا يقبلون من كل وجه. وكذلك يوم اليمامة مع أصحاب مسيلمة، جعل الصحابة يفرون لكثافة جيش بني حنيفة، فجعل المهاجرون والأنصار يتنادون: يا أصحاب سورة البقرة، حتى فتح الله عليهم. رضى الله عن أصحاب رسول الله أجمعين.

(١) المسند (١٧٧١٤) (١٨٣/٤ حلى)، و «الشرق» بفتح الشين مع فتح الراء وإسكانها: الضوء، أو الشمس.

(٢) الطُّول - بضم الطاء وفتح الواو: جمع طولى.

(٣) هكذا ذكر الحافظ ابن كثير هذا الحديث من كتاب أبى عبيد بإسنادين فيهما مقال، فثانيهما منقطع؛ لأن سعيد ابن أبى هلال من أتباع التابعين. وفي أولهما «سعيد بن بشير الأزدي»، قال ابن كثير هنا «فيه لين». والحق أنه ثقة، كما بينا في تخريج أحاديث الطبرى (٥٤٣٩).

ولكن الحديث ثابت بإسناد آخر ليس فيه مقال. فرواه الطيالسى (١٠١٢) بإسناد صحيح. ورواه أحمد

(١٧٠٤٩) (١٠٧/٤ حلى) عن الطيالسى. وكذلك رواه الطبرى (١٢٦) من طريق الطيالسى، وفصلنا الكلام

فيه هناك، ولكن فيه عندهم: أن المثني مكان الزبور، وأن المثاني مكان الإنجيل.

(٤) في المطبوع من عمدة التفسير (طبعة مكتبة التراث): «مَرَكْدٌ» وهو خطأ. انظر: المعجم الكبير للطبرانى (٣٢٨)

(١٧/١٣٣). (الباز).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . اَلَمْ

قد اختلف المفسرون فى الحروف المقطعة التى فى أوائل السور، فمنهم من قال: هى مما استأثر الله بعلمه، فردوا علمها إلى الله، ولم يفسروها، حكاه القرطبى فى تفسيره عن أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وابن مسعود، وقاله الشعبى والثورى، واختاره ابن حبان. ومنهم من فسرها، واختلف هؤلاء فى معناها:

فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنما هى أسماء السور، قال الزمخشري فى تفسيره: وعليه إطباق الأكثر، ونقل عن سيبويه أنه نص عليه، ويعتضد هذا بما ورد فى الصحيحين، عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة الصبح يوم الجمعة: الم السجدة، وهل أتى على الإنسان. وقال مجاهد: الم، وحَم، والمص، وصر، فواتح افتتح الله بها القرآن. وقال بعض أهل العربية: هى حروف من حروف المعجم، استغنى بذكر ما ذكر منها فى أوائل السور عن ذكر بواقيها، التى هى تنمة الثمانية والعشرين حرفاً، كما يقول القائل: ابني يكتب فى: ا ب ت ث، أى: فى حروف المعجم الثمانية والعشرين فيستغنى بذكر بعضها عن مجموعها. حكاه ابن جرير.

قلت: مجموع الحروف المذكورة فى أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً، وهى: ا ل م ص ر ك ه ي ع ط س ح ق ن، يجمعها قولك: نص حكيم قاطع له سر. وهى نصف الحروف عدداً.

قال الزمخشري: وهذه الحروف الأربعة عشر مشتملة على أنصاف أجناس الحروف يعنى من المهموسة والمجهورة، ومن الرخوة والشديدة، ومن المطبقة والمفتوحة، ومن المستعلية والمنخفضة، ومن حروف القلقة. وقد سردها مفصلة ثم قال: فسبحان الذى دقت فى كل شئ حكمته، وهذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها، وقد علمت أن معظم الشئ وجله ينزل منزلة كله. ومن ههنا لحظ بعضهم فى هذا المقام كلاماً، فقال: لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها سبحانه وتعالى عبثاً ولا سدى؛ ومن قال من الجهلة: إنه فى القرآن ما هو تعبد لا معنى له بالكلية - فقد أخطأ خطأ كبيراً، فتعين أن لها معنى فى نفس الأمر، فإن صح لنا فيها عن المعصوم شئ قلنا به، وإلا وقفنا حيث وقفنا، وقلنا: ﴿أَمَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]. ولم يجمع العلماء فيها على شئ معين، وإنما اختلفوا، فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه، وإلا فالوقف حتى يتبين. هذا مقام.

المقام الآخر: فى الحكمة التى اقتضت إيراد هذه الحروف فى أوائل السور، ما هى؟ مع قطع النظر عن معانيها فى أنفسها. فقال بعضهم: ابتدئ بها لتُفتحَ لاستماعها أسماعُ المشركين - إذ تواصلوا بالإعراض عن القرآن - حتى إذا استمعوا له تلى عليهم المؤلف منه. حكاه ابن جرير، وهو ضعيف؛ لأنه لو كان كذلك لكان ذلك فى جميع السور، لا يكون فى بعضها، بل غالبها

ليس كذلك، ولو كان كذلك - أيضاً - لانبغى الابتداء بها فى أوائل الكلام معهم، سواء كان افتتاح سورة أو غير ذلك. ثم إن هذه السورة والتى تليها - أعنى البقرة وآل عمران - مدنيتان ليستا خطاباً للمشركون، فانتقض ما ذكروه .

وقال آخرون: بل إنما ذكرت هذه الحروف فى أوائل السور التى ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه من هذه الحروف المقطعة التى يتخاطبون بها. وقد حكى هذا المذهب الرازى عن المبرد وجمع من المحققين، وحكى القرطبى عن الفراء وقطرب نحو هذا، وقرره الزمخشري فى كشافه ونصره أتم النصر، وإليه ذهب الشيخ الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية، وشيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المزي، وحكاها لى عن ابن تيمية . قال الزمخشري : ولم ترد كلها مجموعة فى أول القرآن، وإنما كررت ليكون أبلغ فى التحدى والتبكيث كما كررت قصص كثيرة وكرر التحدى بالصريح فى أماكن . قال : وجاء منها على حرف واحد كقوله: ﴿ ص ﴾، ﴿ ن ﴾، ﴿ ق ﴾، وحرفين مثل : ﴿ حم ﴾، وثلاثة مثل : ﴿ آلَم ﴾، وأربعة مثل : ﴿ آلَمَر ﴾ و ﴿ آلَمَص ﴾، وخمسة مثل : ﴿ كَهَمَقَص ﴾ و ﴿ حَمَ عَسَق ﴾ ؛ لأن أساليب كلامهم على هذا، من الكلمات ما هو على حرف وعلى حرفين، وعلى ثلاثة، وعلى أربعة، وعلى خمسة لا أكثر من ذلك .

قلت: ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع فى تسع وعشرين سورة؛ ولهذا يقول تعالى: ﴿ آلَمَ . ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة: ١، ٢]. ﴿ آلَمَ . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ . نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [آل عمران: ١ - ٣]. ﴿ آلَمَص . كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ [الأعراف: ١، ٢]. ﴿ آلَمَ . نَزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [السجدة: ١، ٢]. ﴿ حَمَ . نَزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [فصلت: ١، ٢]. ﴿ حَمَ عَسَقَ . كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الشورى: ١ - ٣] ، وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر، والله أعلم .

وأما من زعم أنها دالة على معرفة المدد، وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم، فقد ادعى ما ليس له، وطار فى غير مطاره .

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾

قال ابن عباس: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴾ أى: هذا الكتاب. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد ابن جبیر، أن «ذلك» بمعنى هذا . والعرب تقارض بين هذين الاسمى الإشارة ، فيستعملون كلا منهما مكان الآخر، وهذا معروف فى كلامهم. و «الكتاب»: القرآن. ومن قال: إن المراد بذلك الكتاب الإشارة إلى التوراة والإنجيل، كما حكاها ابن جرير وغيره، فقد أبعد النجعة وأغرق فى النزع، وتكلف ما لا علم له به. والريب: الشك. ومعنى الكلام: أن هذا الكتاب - وهو القرآن -

لا شك فيه أنه نزل من عند الله ، كما قال تعالى فى السجدة : ﴿الَمْ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة : ١ ، ٢] . وقال بعضهم : هذا خبر ومعناه النهى ، أى : لا ترتابوا فيه .

ومن القراء من يقف على قوله : ﴿لَا رَيْبَ﴾ . ويتبدئ بقوله : ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ والوقف على قوله تعالى : ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أولى للآية التى ذكرنا ، ولأنه يصير قوله : ﴿هُدًى﴾ صفة للقرآن ، وذلك أبلغ من كون : ﴿فِيهِ هُدًى﴾ . و﴿هُدًى﴾ : يحتمل من حيث العربية أن يكون مرفوعاً على النعت ، ومنصوباً على الحال .

وخصت الهداية للمتقين ، كما قال : ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت : ٤٤] . ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء : ٨٢] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن ؛ لأنه هو فى نفسه هدى ، ولكن لا يناله إلا الأبرار ، كما قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس : ٥٧] . وعن ابن عباس : ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أى : الذين يحذرون من الله عقوبته فى ترك ما يعرفون من الهدى ، ويرجون رحمته فى التصديق بما جاء به . وقال قتادة : ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ : هم الذين نعتهم الله بقوله : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ . الآية والثى بعدها [البقرة : ٣ ، ٤] . واختار ابن جرير : أن الآية تعم ذلك كله ، وهو كما قال . وقد روى الترمذى وابن ماجه عن عطية السعدى ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس » . قال الترمذى : حسن غريب .

ويطلق الهدى ويراد به ما يقر فى القلب من الإيمان ، وهذا لا يقدر على خلقه فى قلوب العباد إلا الله ، عز وجل ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [التقصص : ٥٦] ، وقال : ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ [البقرة : ٢٧٢] ، وقال : ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ [الاعراف : ١٨٦] ، وقال : ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف : ١٧] إلى غير ذلك من الآيات ، ويطلق ويراد به : بيان الحق وتوضيحه والدلالة عليه والإرشاد إليه ، قال الله تعالى : ﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى : ٥٢] ، وقال : ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد : ٧] وقال تعالى : ﴿وَأَمَّا أُمُودٌ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت : ١٧] ، وقال : ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد : ١٠] على تفسير من قال : المراد بهما : الخير والشر ، وهو الأرجح ، والله أعلم . وأصل التقوى : التوقى مما يكره لأن أصلها « وَقَوًى » من الوقاية .

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾

عن عبد الله ، قال : الإيمان التصديق . وقال ابن عباس : ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ : يصدقون . وقال الزهرى : الإيمان العمل . وقال أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس : ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ : يخشون .

قال ابن جرير وغيره : والأولى أن يكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولاً واعتقاداً وعملاً ،

وقد تدخل الخشية لله فى معنى الإيمان، الذى هو تصديق القول بالعمل، والإيمان كلمة جامعة للإقرار بالله وكتبه ورسله، وتصديق الإقرار بالفعل.

قلت: أما الإيمان فى اللغة فيطلق على التصديق المحض، وقد يستعمل فى القرآن، والمراد به ذلك، كما قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]، وكما قال إخوة يوسف لأبيهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، وكذلك إذا استعمل مقرونا مع الأعمال؛ كقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الانشقاق: ٢٥، والتين: ٦]، فأما إذا استعمل مطلقاً فالإيمان الشرعى المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً. هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة، بل قد حكاه الشافعى وأحمد بن حنبل وأبو عبيد وغير واحد إجماعاً: أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص. وقد ورد فيه آثار كثيرة وأحاديث. ومنهم من فسره بالخشية، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ [الملك: ١٢]، وقوله: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّغِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، والخشية: خلاصة الإيمان والعلم، كما قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. وقال بعضهم: يؤمنون بالغيب كما يؤمنون بالشهادة، وليسوا كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤]، وقال: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، فعلى هذا يكون قوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ حالاً، أى: فى حال كونهم غيباً عن الناس.

وأما الغيب المراد ههنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه، وكلها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد. قال أبو العالية: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وجنته وناره ولقائه، ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث، فهذا غيب كله. وكذا قال قتادة. وعن ابن عباس: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ قال: بما جاء منه، يعنى: من الله تعالى. وقال زر: الغيب القرآن. وقال عطاء بن أبى رباح: من آمن بالله فقد آمن بالغيب. وقال زيد بن أسلم: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ بالقدرة. فكل هذه متقاربة فى معنى واحد؛ لأن جميع هذه المذكورات من الغيب الذى يجب الإيمان به. وقال سعيد بن منصور: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمار بن عمير.

وعن عبد الرحمن بن يزيد، قال: كنا عند عبد الله بن مسعود جلوساً، فذكرنا أصحاب رسول الله ﷺ وما سبقوا به، قال: فقال عبد الله: إن أمر محمد ﷺ كان بينا لمن رآه، والذى لا إله غيره ما آمن أحد قط إيماناً أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ [البقرة: ١٦٠]. رواه سعيد بن منصور، وأبى حاتم، وابن مردويه، والحاكم. وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه (١). وفى معنى هذا الحديث الذى رواه أحمد، عن أبى جمعة قال: تغدينا مع رسول الله ﷺ ومعنا

أبو عبيدة بن الجراح، فقال: يا رسول الله، هل أحد خير منا؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك. قال: «نعم، قوم من بعدكم يؤمنون بى ولم يرونى» (١) [رواه ابن مردويه بأطول من هذا. وفى آخره أن رسول الله ﷺ] قال: «ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم يأتىكم بالوحى من السماء، بل قوم من بعدكم يأتىهم كتاب بين لوحين يؤمنون به ويعملون بما فيه، أولئك أعظم منكم أجراً» مرتين (٢). وهذا الحديث فيه دلالة على العمل بالوَجَادَة التى اختلف فيها أهل الحديث، كما قررته فى أول شرح البخارى؛ لأنه مدحهم على ذلك وذكر أنهم أعظم أجراً من هذه الخبيثة لا مطلقاً.

﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

قال ابن عباس: إقامة الصلاة: إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها. وقال قتادة: إقامة الصلاة: المحافظة على مواقيتها، ووضوئها، وركوعها وسجودها. وقال ابن عباس: «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ» قال: زكاة أموالهم. وقال الضحاك: كانت النفقات قربات يتقربون بها إلى الله على قدر ميسرتهم وجهدهم، حتى نزلت فرائض الصدقات: سبع آيات فى سورة براءة، مما يذكر فيهن الصدقات، هن الناسخات المُثَبَّتَات. وقال قتادة: فأنفقوا مما أعطاكم الله، هذه الأموال عوارى وودائع عندك يابن آدم، يوشك أن تفارقها. واختار ابن جرير أن الآية عامة فى الزكاة والنفقات، فإنه قال: وأولى التأويلات وأحقها بصفة القوم: أن يكونوا لجميع اللازم لهم فى أموالهم مُؤَدِّين، زكاة كان ذلك أو نفقة مَنْ لزمته نفقته، من أهل أو عيال وغيرهم، ممن يجب عليهم نفقته بالقرابة والملْك وغير ذلك؛ لأن الله تعالى عم وصفهم ومدحهم بذلك، وكل من الإنفاق والزكاة مدوح به محمود عليه.

قلت: كثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال، فإن الصلاة حق الله وعبادته، وهى مشتملة على توحيده والثناء عليه، وتمجيده والابتهال إليه، ودعائه والتوكل عليه؛ والإنفاق هو الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدى إليهم، وأولى الناس بذلك القربات والأهلون والمماليك، ثم الأجانب، فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل فى قوله تعالى: «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ»؛ ولهذا ثبت فى الصحيحين، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «بُنِيَ الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت». والأحاديث فى هذا كثيرة.

وأصل الصلاة فى كلام العرب الدعاء، ثم استعملت الصلاة فى الشرع فى ذات الركوع والسجود والأفعال المخصوصة فى الأوقات المخصوصة، بشروطها المعروفة، وصفاتها، وأنواعها المشهورة. قال ابن جرير: وأرى أن الصلاة المفروضة سميت صلاة؛ لأن المصلى يتعرض

(١) هو فى المسند بإسنادين (١٧٠٤٣، ١٧٠٤٤) (٤/ ١٠٦-حلبى).

(٢) هذه الرواية الطويلة أشار إليها الحافظ ابن حجر فى الإصابة، فى ترجمة «أبى جمعة الأنصارى» (٣٢/٧).

ثم ذكر أنه «أخرجه أحمد والدارمى، وصححه الحاكم».

لاستنجاح طَلَبْتَهُ من ثواب الله بعمله، مع ما يسأل ربه من حاجته [تعرّض الداعى بدعائه ربه استنجاح حاجاته وسؤله . [وقيل فى اشتقاقها أقوال أخرى] (١) . واشتقاقها من الدعاء أصح وأشهر، والله أعلم .

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾

قال ابن عباس: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أى: يصدقون بما جئت به من الله، وما جاء به مَنْ قَبْلَكَ من المرسلين، لا يفرقون بينهم، ولا يَجْحَدُونَ ما جاؤوهم به من ربهم ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أى: بالبعث والقيامة، والجنة، والنار، والحساب، والميزان. وإنما سميت الآخرة لأنها بعد الدنيا. وقد اختلف المفسرون فى الموصوفين هاهنا: هل هم الموصوفون بما تقدم من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣] ومن هم؟ على ثلاثة أقوال حكاه ابن جرير:

أحدها: أن الموصوفين أولاً هم الموصوفون ثانياً، وهم كل مؤمن، مؤمنو العرب ومؤمنو أهل الكتاب وغيرهم .

والثانى: هما واحد، وهم مؤمنو أهل الكتاب، وعلى هذين تكون الواو عاطفة صفات على صفات، كما قال تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى. الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى. وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى. وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى. فَجَعَلَ نَظَاءً أَحْوَى﴾ [الأعلى: ١ - ٥] .

الثالث: أن الموصوفين أولاً مؤمنو العرب، والموصوفون ثانياً بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ لمؤمنى أهل الكتاب، واختاره ابن جرير، ويستشهد لما قال بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ الآية [آل عمران: ١٩٩] ، ويقول تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ. وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ الْقُلُوبُ آمَنُوا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٤] . وبما فى الصحيحين، عن أبى موسى: أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبىه وآمن بى، ورجل مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورجل أدب جاريته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها» .

وأما ابن جرير فما استشهد على صحة ما قال إلا بمناسبة، وهى أن الله تعالى وصف فى أول هذه السورة المؤمنين والكافرين، فكما أنه صنف الكافرين إلى صنفين: منافق وكافر، فكذلك المؤمنون صنفهم إلى عربى وكتابى .

قلت: والظاهر قول مجاهد: أربع آيات من أول سورة البقرة فى نعت المؤمنين، وآيتان فى نعت الكافرين، وثلاث عشرة فى المنافقين، فهذه الآيات الأربع عامة فى كل مؤمن اتصف بها (١) الزيادة الأولى: تمتة كلام الطبرى، تركها الحافظ المؤلف، والمعنى لا يتم بدونها. والزيادة الثانية: تلخيص لكلام المؤلف، لم نجد حاجة للإطالة به، خصوصاً وأنه غير ثابت فى المخطوطة الأزهرية.

من عربى وعجمي، وكتابي من إنسى وجنى، وليس تصح واحدة من هذه الصفات بدون الأخرى، بل كل واحدة مستلزمة للأخرى وشرط معها، فلا يصح الإيمان بالغيب وإقام الصلاة والزكاة إلا مع الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ، وما جاء به من قبله من الرسل والإيقان بالآخرة، كما أن هذا لا يصح إلا بذلك، وقد أمر الله تعالى المؤمنين بذلك، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ الآية [النساء: ١٣٦]. وقال: ﴿وَلَا تَجَادَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أَنزَلَ إِلَيْنَا وَأَنزَلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ الآية [المعنكوت: ٤٦]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [النساء: ٤٧]، وقال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنَ رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨]، وأخبر تعالى عن المؤمنين كلهم بذلك، فقال: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ١٥٢] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أمر جميع المؤمنين بالإيمان بالله ورسوله وكتبه. لكن لمؤمنى أهل الكتاب خصوصية، وذلك أنهم مؤمنون بما بأيديهم مفصلا، فإذا دخلوا فى الإسلام وآمنوا به مفصلا كان لهم على ذلك الأجر مرتين، وأما غيرهم فلإنما يحصل له الإيمان، بما تقدم مجملا، كما جاء فى الصحيح: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تكذبوهم ولا تصدقوهم، قولوا: آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم»، ولكن قد يكون إيمان كثير من العرب بالإسلام الذى بعث به محمد ﷺ أتم وأكمل وأعم وأشمل من إيمان من دخل منهم فى الإسلام، فهم وإن حصل لهم أجران من تلك الحثيثة، فغيرهم قد يحصل له من التصديق ما يُنيف ثوابه على الأجرين اللذين حصلا لهم، والله أعلم.

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

يقول تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ أى: المتصفون بما تقدم: من الإيمان بالغيب، وإقام الصلاة، والإنفاق من الذى رزقهم الله، والإيمان بما أنزل إلى الرسول ومن قبله من الرسل، والإيقان بالدار الآخرة، وهو يستلزم الاستعداد لها من العمل بالصالحات وترك المحرمات ﴿عَلَى هُدًى﴾ أى: نور وبيان وبصيرة من الله تعالى ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: غطوا الحق وستره، وقد كتب الله تعالى عليهم ذلك، سواء عليهم إنذارك وعدمه، فإنهم لا يؤمنون بما جئتهم به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] وقال فى حق المعاندين من أهل الكتاب: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ الآية [البقرة: ١٤٥] أى: إن من كتب الله عليه الشقاوة فلا مُسعد له، ومن أضله فلا هادى له، فلا تذهب نفسك

عليهم حسرات، وبلغهم الرسالة، فمن استجاب لك فله الحظ الأوفر، ومن تولى فلا تحزن عليهم ولا يهملنك ذلك؛ ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠]، و﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود: ١٢]. وعن ابن عباس، في قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة في الذكر الأول، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاوة في الذكر الأول.

وقوله تعالى: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾: محله من الإعراب أنه جملة مؤكدة للتي قبلها: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ﴾ أى هم كفار فى كلا الحالين؛ فلهذا أكد ذلك بقوله: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ويحتمل أن يكون ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ خبراً لأن تقديره: إن الذين كفروا لا يؤمنون، ويكون قوله: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ﴾ جملة معترضة، والله أعلم.

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

قال السدى: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ ﴾ أى: طبع الله. وقال قتادة فى هذه الآية: استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه؛ فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، فهم لا يبصرون هدى ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون. وقال ابن جرير: وقال بعضهم: إنما معنى قوله: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ إخبار من الله عن تكبرهم، وإعراضهم عن الاستماع لما دُعُوا إليه من الحق، كما يقال: إن فلاناً أصم عن هذا الكلام، إذا امتنع من سماعه، ورفع نفسه عن تفهمه تكبراً. قال: وهذا لا يصح؛ لأن الله قد أخبر أنه هو الذى ختم على قلوبهم وأسماعهم.

قلت: وقد أطنب الزمخشري فى تقرير ما رده ابن جرير ها هنا، وتأول الآية من خمسة أوجه وكلها ضعيفة جداً، وما جراه على ذلك إلا اعتزاله؛ لأن الختم على قلوبهم ومنعها من وصول الحق إليها قبيح عنده يتعالى الله عنه فى اعتقاده، ولو فهم قوله تعالى: ﴿ قَلَمًا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥]، وقوله: ﴿ وَنَقَلَبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الانعام: ١١٠]، وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى إنما ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاءً وفاقاً على تماديهم فى الباطل وتركهم الحق، وهذا عدل منه تعالى حسن وليس بقبيح، فلو أحاط علماً بهذا لما قال ما قال، والله أعلم.




قال ابن جرير: والحق عندى فى ذلك ما صحَّ بنظيره الخبرُ عن رسول الله ﷺ [ثم روى]، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَعْتَبَ صَقَلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُو قَلْبَهُ، فَذَلِكَ الرَّأْيَ الَّذِى قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَأَى عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ » [المطففين: ١٤] وقال الترمذى: حسن صحيح^(١). ثم قال ابن جرير: فأخبر ﷺ أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا

(١) الحديث فى الطبرى رقم (٣٠٤) بتخريجنا. ورواه أيضاً أحمد (٧٩٣٩) والحاكم (٥١٧/٢) وصححه هو والذهبي.

أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى والطبع، فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر عنها مخلص، فذلك هو الختم والطبع الذى ذكره فى قوله : ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ نظير الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف، التى لا يوصل إلى ما فيها إلا بفض ذلك عنها ثم حلها، فكذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم وعلى سمعهم إلا بعد فضه خاتمه وحله رباطه .

واعلم أن الوقف التام على قوله تعالى : ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾، وقوله : ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ جملة تامة، فإن الطبع يكون على القلب وعلى السمع، والغشاوة - وهى الغطاء - تكون على البصر. قال ابن جريج: الختم على القلب والسمع، والغشاوة على البصر، قال الله تعالى : ﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤]، وقال : ﴿وَحَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ [الحائىة: ٢٣]. قال ابن جرير: ومن نصب غشاوة من قوله تعالى : ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ يحتمل أنه نصبها بإضمار فعل، تقديره: وجعل على أبصارهم غشاوة، ويحتمل أن يكون نصبها على الاتباع، على محل ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ كقوله تعالى : ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ [الواقعة: ٢٢] (١) .

لما تقدم وصف المؤمنين فى صدر السورة بأربع آيات، ثم عرّف حال الكافرين بهاتين الآيتين، شرع تعالى فى بيان حال المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ولما كان أمرهم يشبه على كثير من الناس أطنب فى ذكرهم بصفات متعددة، كل منها نفاق، كما أنزل سورة براءة فيهم، وسورة المنافقين فيهم، وذكرهم فى سورة النور وغيرها من السور، تعريفاً لأحوالهم لتجتنب، ويُجتنب من تلبس بها أيضاً، فقال تعالى :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾   **وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** 

النفاق: هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو أنواع: اعتقادى: وهو الذى يخلد صاحبه فى النار، وعملى: وهو من أكبر الذنوب، كما سيأتى تفصيله فى موضعه، إن شاء الله تعالى، وهذا كما قال ابن جريج: المنافق يخالف قوله فعله، وسره علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مغيبه. وإنما نزلت صفات المنافقين فى السور المدنية؛ لأن مكة لم يكن فيها نفاق، بل كان خلافة: من الناس من كان يظهر الكفر مُستكرهاً، وهو فى الباطن مؤمن، فلماً هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج، وكانوا فى جاهليتهم يعبدون الأصنام، على طريقة مشركى العرب، وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم، وكانوا ثلاث قبائل: بنو قَيْنُقَاع حلفاء الخزرج، وبنو النَّضِير، وبنو قُرَيْظَةَ حلفاء الأوس، فلماً قدم رسول الله ﷺ المدينة، وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتى الأوس والخزرج، وقل من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سلام، رضى الله عنه، ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضاً؛ لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف، بل قد كان عليه، الصلاة والسلام، وأدعَ اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب

(١) نصب « غشاوة » قراءة شاذة ، ردها الطبرى ولم يجز القراءة بها . وهو كما قال رحمه الله .

حوالى المدينة، فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته، وأعلى الإسلام وأهله، قال عبد الله ابن أبى ابن سلول، وكان رأسا فى المدينة، وهو من الخزرج، وكان سيد الطائفتين فى الجاهلية، وكانوا قد عزموا على أن يملكوه عليهم، فجاءهم الخير وأسلموا، واشتغلوا عنه، فبقى فى نفسه من الإسلام وأهله، فلما كانت وقعة بدر قال: هذا أمر قد تَوَجَّهَ فأظهر الدخول فى الإسلام، ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته، وآخرون من أهل الكتاب، فمن ثم وُجِدَ النفاق فى أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد، لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرهاً، بل يهاجر ويترك ماله، وولده، وأرضه رغبة فيما عند الله فى الدار الآخرة.

ولهذا نبه الله، سبحانه، على صفات المنافقين لئلا يغترّ بظاهر أمرهم المؤمنون، فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم، ومن اعتقاد إيمانهم، وهم كفار فى نفس الأمر، وهذا من المحذورات الكبار أن يظن بأهل الفجور خير، فقال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَا أَيُّهَا الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أى: يقولون ذلك قولاً ليس وراءه شيء آخر، كما قال تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ [المنافقون: ١] أى: إنما يقولون ذلك إذا جاؤوك فقط، لا فى نفس الأمر؛ ولهذا يؤكدون فى الشهادة بأن ولاهم التأكيد فى خبرها؛ كما أكدوا قولهم: ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَا أَيُّهَا الْآخِرُ ﴾، وليس الأمر كذلك، كما أكذبهم الله فى شهادتهم، وفى خبرهم هذا بالنسبة إلى اعتقادهم، بقوله: ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون: ١]، ويقول: ﴿ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى: يظاهروهم ما أظهروه من الإيمان مع إسرارهم الكفر، يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك، وأن ذلك نافعهم عنده، وأنه يروج عليه كما يروج على بعض المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَعْثُورُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُخْلِفُونَهُ كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [المجادلة: ١٨]؛ ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله: ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ يقول: وما يغرّون بصنيعهم هذا ولا يخدعون إلا أنفسهم، وما يشعرون بذلك من أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [النساء: ١٤٢]. ومن القراء من قرأ: ﴿ وما يخدعون إلا أنفسهم ﴾، وكلا القراءتين يرجع إلى معنى واحد.

قال ابن جرير: فإن قال قائل: كيف يكون المنافق لله وللمؤمنين مخادعاً، وهو لا يظهر بلسانه خلاف ما هو له معتقد إلا تقية؟ قيل: لا تمتنع العرب من أن تسمى من أعطى بلسانه غير الذى فى ضميره تقية، لينجو مما هو له خائف، مخادعاً، فكذلك المنافق، سمى مخادعاً لله وللمؤمنين، بظهاره ما أظهر بلسانه تقية، مما تخلص به من القتل والساء والعذاب العاجل، وهو لغير ما أظهر مستبطن، وذلك من فعله - وإن كان خادعاً للمؤمنين فى عاجل الدنيا - فهو لنفسه بذلك من فعله خادع، لأنه يُظْهِرُ لها بفعله ذلك بها أنه يعطيها أمنيّتها، ويُسْقِيها كأس سرورها، وهو موردها به حياض عطيتها، ومُجَرِّعُهَا بها كأس عذابها، ومُزِيرُهَا من غضب الله

وأليم عقابه ما لا قبلَ لها به، فذلك خديعته نفسه، ظناً منه - مع إساءته إليها في أمر معادها - أنه إليها محسن، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ إعلاماً منه عبادة المؤمنين أن المنافقين بإساءتهم إلى أنفسهم في إسقاطهم عليها ربهم بكفرهم، وشكهم وتكذيبهم، غير شاعرين ولا دارين، ولكنهم على عمية من أمرهم مقيمون.

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ ﴿١٠﴾

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ : شك، ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ : شكاً. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قال: هذا مرض في الدين، وليس مرضاً في الأجساد، وهم المنافقون. والمرض: الشك الذي دخلهم في الإسلام ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ قال: زادهم رجساً، وقرأ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، قال: شراً إلى شرهم وضلالة إلى ضلالتهم. وهذا الذي قاله عبد الرحمن، رحمه الله، حسن، وهو الجزء من جنس العمل، وكذلك قاله الأولون، وهو نظير قوله تعالى أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾: وقرئ «يكذبون» (١)، وقد كانوا متصفين بهذا وهذا، فإنهم كانوا كذبة ويكذبون بالغيب، يجمعون بين هذا وهذا.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ﴿١١﴾ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿١٢﴾

الفساد: هو الكفر، والعمل بالمعصية. قال ابن جرير: فأهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها ربهم، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه، وتضييعهم فرائضه، وشكهم في دينه الذي لا يُقبلُ من أحد عملاً إلا بالتصديق به والإيقان بحقيقته، وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك والريب، ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله، إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً. فذلك إفساد المنافقين في الأرض، وهم يحسبون أنهم يفعلهم ذلك مصلحون فيها.

وهذا الذي قاله حسن، فإن من الفساد في الأرض اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣] فقطع الله المروالة بين المؤمنين والكافرين، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا اللَّهُ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤] ثم قال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥] فالمنافق لما كان ظاهره الإيمان اشتبه أمره على المؤمنين، فكان الفساد من جهة المنافق حاصل؛ لأنه هو الذي غرّ المؤمنين بقوله الذي لا حقيقة له، والى الكافرين على المؤمنين، ولو أنه استمر على حالته الأولى لكن شره أخف، ولو أخلص العمل لله

(١) أى بفتح الياء مع سكون الكاف، وبضم الياء وفتح الكاف وتشديد الذال المكسورة. وكلاهما من القراءات السبعة.

وتطابق قوله وعمله لأفلق وأنجح؛ [ولكنهم يقولون] أى: نريد أن ندارى الفريقين من المؤمنين والكافرين، ونصطلح مع هؤلاء وهؤلاء، . ويقول الله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: ألا إن هذا الذى يعتمدونه ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد، ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فساداً.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٣﴾

يقول تعالى: وإذا قيل للمنافقين: ﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ أى: كإيمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنة والنار وغير ذلك، بما أخبر المؤمنين به وعنه، وأطيعوا الله ورسوله فى امتثال الأوامر وترك الزواجر ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾، يعنون - لعنهم الله - أصحاب رسول الله ﷺ، رضى الله عنهم. والسفهاء: جمع سفيه، كما أن الحكماء جمع حكيم، والسفيه: هو الجاهل الضعيف الرأى القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار؛ ولهذا سمى الله النساء والصبيان سفهاء، فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: ٥] قال عامة علماء السلف: هم النساء والصبيان. وقد تولى الله، سبحانه، جوابهم فى هذه المواطن كلها، فقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ فأكد وحصر السفاهة فيهم. ﴿وَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعنى: ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم فى الضلالة والجهل، وذلك أردى لهم وأبلغ فى العمى، والبعد عن الهدى.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿١٥﴾

يقول تعالى: وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا: ﴿آمَنَّا﴾ أى: أظهرنا لهم الإيمان والموالة والمصافاة، غروراً منهم للمؤمنين ونفاقاً ومصانعة وتقية، وليشركوهم فيما أصابوا من خير ومغنم، ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ يعنى: وإذا انصرفوا وذهبوا وخلصوا إلى شياطينهم. فَضَمَّنَ ﴿خَلَوْا﴾ معنى انصرفوا؛ لتعديته بـ «إلى»؛ ليدل على الفعل المضمر والفعل الملفوظ به. ومنهم من قال: «إلى» هنا بمعنى «مع»، والأول أحسن، وعليه يدور كلام ابن جرير. ﴿إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ من يهود الذين يأمرونهم بالكذب وخلاف ما جاء به الرسول قاله ابن عباس . وقال مجاهد: ﴿شَيَاطِينِهِمْ﴾: أصحابهم من المنافقين والمشركين. قال ابن جرير: وشياطين كل شيء مُردَّة، وتكون الشياطين من الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] . وفى المسند عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ». فقلت: يا رسول الله، وللإنس شياطين؟ قال: «نعم» (١).

(١) مضى أيضاً ص ٥٦، وهو فى المسند (٥/١٧٨ حلى) ضمن حديث مطول، ورواه النسائى مختصراً (٣١٩/٢).

وقوله تعالى : ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ : أى إنا على مثل ما أنتم عليه ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ أى : إنما نحن نستهزئ بالقوم ونلعب بهم .

وقوله تعالى جواباً لهم ومقابلة على صنيعهم : ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ . أخبر تعالى أنه فاعل بهم ذلك يوم القيامة ، فى قوله : ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ الَّذِينَ آمَنُوا أَمْ نَرْوَاهُ نَفْتَسٍ مِنْ تَابِئِهِمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهَرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ الآية [الحديد: ١٣] ، وقوله تعالى : ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطَمِّلُ لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُطَمِّلُ لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨] . فهذا وما أشبهه ، من استهزاء الله ، تعالى ذكره ، وسخريته ومكره وخديعته للمنافقين ، وأهل الشرك به .

وقوله تعالى : ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ : يمدهم : يملئ لهم . يزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم فى عتوهم وتمردهم ، كما قال : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠] . والطغيان : هو المجاوزة فى الشيء ، كما قال : ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] . والعمة : الضلال ، يقال : عمه فلان يعمه عمهأ وعموها : إذا ضل . قال : وقوله : ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ : فى ضلالهم ، وكفرهم الذى غمرهم دنسه ، وعلاهم رجسه ، يترددون حيارى ضللاً ، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً ؛ لأن الله قد طبع على قلوبهم وختم عليها ، وأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها ، فلا يبصرون رُشدًا ، ولا يهتدون سبيلاً .

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ﴿١٦﴾

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ : استحبوا الضلالة على الهدى . وهذا يشبهه فى المعنى قوله تعالى فى ثمود : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] . وحاصل قول المفسرين : أن المنافقين عدلوا عن الهدى إلى الضلال ، واعتاضوا عن الهدى بالضلالة ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ : أى بذلوا الهدى ثمنًا للضلالة ، وسواء فى ذلك من كان منهم قد حصل له الإيمان ثم رجع عنه إلى الكفر ، كما قال فيه : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَغَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣] ، أو أنهم استحبوا الضلالة على الهدى ، كما يكون حال فريق آخر منهم ، فإنهم أنواع وأقسام ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ : أى : ما ربحت صفقتهم فى هذه البيعة ، ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ : أى : راشدين فى صنيعهم ذلك . وروى ابن جرير : وابن أبى حاتم عن قتادة : قد - والله - رأيتهم يخرجوا من الهدى إلى الضلالة ، ومن الجماعة إلى الفرقة ، ومن الأمن إلى الخوف ، ومن السنة إلى البدعة .

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٧﴾

﴿١٨﴾

وتقرير هذا المثل : أن الله ، سبحانه ، شبههم فى اشتراهم الضلالة بالهدى ، وصيرورتهم بعد التبصرة إلى العمى ، بمن استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله وانفع بها وأبصر بها ما عن

يمينه وشماله، وتأنس بها - فيينا هو كذلك إذ طفئت ناره، وصار في ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدى، وهو مع ذلك أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى لو كان ضياء لما أبصر؛ فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فكذا هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى، واستحبابهم الغي على الرشد. وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا، كما أخبر عنهم تعالى في غير هذا الموضع، والله أعلم.

وقد التفت في أثناء المثل من الواحد إلى الجمع، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ. صُمُّ بَكْمٌ عُمِيٌّ لَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ وهذا أفصح في الكلام، وأبلغ في النظام، وقوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أى: أذهب عنهم ما ينفعهم، وهو النور، وأبقى لهم ما يضرهم، وهو الإحراق والدخان ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾: لا يهتدون إلى سبل خير ولا يعرفونها، وهم مع ذلك ﴿صُمُّ﴾ لا يسمعون خيراً ﴿بَكْمٌ﴾ لا يتكلمون بما ينفعهم ﴿عُمِيٌّ﴾ فى ضلالة وعماية البصيرة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] فلهذا لا يرجعون إلى ما كانوا عليه من الهداية التى باعوها بالضلالة.

﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْـِٔعَهُمْ فِيءَآذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٦﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطُفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين، وهم قوم يظهر لهم الحق تارة، ويشكّون تارة أخرى، فقلوبهم فى حال شكهم وكفرهم وترددهم ﴿كَصَيْبٍ﴾، والصيب: المطر، نزل من السماء، فى حال ظلمات، وهى الشكوك والكفر والنفاق. ﴿ورعدٌ﴾: وهو ما يزعج القلوب من الخوف، فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفرع، كما قال تعالى: ﴿يُخَسِّبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤] وقال: ﴿وَيَخْلُقُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ. لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَفَارَاتٍ أَوْ مَدْخَلًا لَّوَكُوا إِلَيْهِ وَهُمْ يُجْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٦، ٥٧]. والبرق: هو ما يلمع فى قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين فى بعض الأحيان، من نور الإيمان؛ ولهذا قال: ﴿يَجْعَلُونَ أَصْـِٔعَهُمْ فِيءَآذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أى: ولا يُجْدَى عنهم حذرهم شيئاً؛ لأن الله محيط بهم بقدرته، وهم تحت مشيئته وإرادته، كما قال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ. بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ. وَاللَّهُ مِّنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [البروج: ١٧ - ٢٠].

ثم قال: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطُفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ قال ابن عباس: أى لشدة ضوء الحق، كلما أضاء لهم مشوا فيه ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾: أى كلما ظهر لهم من الإيمان شئ استأنسوا به واتبعوه، وتارة تعرّض لهم الشكوك أظلمت قلوبهم فوقفوا حائرين. وهكذا يكونون يوم القيامة عندما يعطى الناس النور بحسب إيمانهم، فمنهم من يعطى من النور ما يضىء له مسيرة فرائخ، وأكثر من ذلك وأقل من ذلك، ومنهم من يطفأ نوره تارة ويضىء له أخرى، فيمشى على

الصراط تارة ويقف أخرى ، ومنهم من يطفأ نوره بالكلية وهم الخُلص من المنافقين ، الذين قال فيهم : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِبْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ [الحديد: ١٣] وقال في حق المؤمنين : ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [الحديد: ١٢] وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحریم: ٨]

فإذا تقرر هذا صار الناس أقساماً: مؤمنون خلص، وهم الموصوفون بالآيات الأربع في أول البقرة، وكفار خلص، وهم الموصوفون بالآيتين بعدها، ومنافقون، وهم قسمان: خلص، وهم المضروب لهم المثل الناري، ومنافقون مترددون، تارة يظهر لهم لُمع من الإيمان وتارة يخبو، وهم أصحاب المثل المائي، وهم أخف حالا من الذين قبلهم. وهذا المقام يشبه من بعض الوجوه ما ذكر في سورة النور، من ضرب مثل المؤمن وما جعل الله في قلبه من الهدى والنور، بالمصباح في الزجاج التي كأنها كوكب دري، وهي قلب المؤمن المفطور على الإيمان واستمداده من الشريعة الخالصة الصافية الواصلة إليه من غير كدر ولا تخطيط، كما سيأتي تقريره في موضعه، إن شاء الله.

ثم ضرب مثل العباد من الكفار، الذين يعتقدون أنهم على شيء، وليسوا على شيء، وهم أصحاب الجهل المركب، في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ يَفِيقَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [النور: ٣٩]. ثم ضرب مثل الكفار الجهال الجهل البسيط، وهم الذين قال تعالى فيهم : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَفْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ ظُلُمَاتٌ لَبِيبٌ فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [النور: ٤٠] فقسم الكفار ههنا إلى قسمين: داعية ومقلد، كما ذكرهما في أول سورة الحج وقال : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مُرِيدٍ ﴾ (١) وقد قسم الله المؤمنين في سورة الواقعة وآخرها، وفي سورة الإنسان، إلى قسمين: سابقون وهم المقربون، وأصحاب يمين وهم الأبرار.

فتلخص من مجموع هذه الآيات الكريمات: أن المؤمنين صنفان: مقربون وأبرار، وأن الكافرين صنفان: دعاة ومقلدون، وأن المنافقين - أيضاً - صنفان: منافق خالص، ومنافق فيه شعبة من نفاق. كما جاء في الصحيحين، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ: «ثلاث من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اتّمن خان». استدلوا به على أن الإنسان قد

(١) الآية (٣) من سورة الحج ، والتي ذكر المؤلف قبلها هي الآية (٨) . ولم يرد بذلك نسق التلاوة ، وإنما أراد أن الله سبحانه وصف الداعية ووصف المقلد . فذكر الآيتين للاستدلال على وصف كل منهما . وطابعو التفسير لم يلاحظوا مقصد الحافظ المؤلف ، فقدموا وآخروا ، اتبعوا لنسق التلاوة .

تكون فيه شعبة من إيمان، وشعبة من نفاق. إما عملى لهذا الحديث، أو اعتقادي كما دلت عليه الآية، كما ذهب إليه طائفة من السلف وبعض العلماء، كما تقدم، وكما سيأتى، إن شاء الله. وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «القلوب أربعة: قلب أجرد، فيه مثل السراج يُزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مُصَفَّح؛ فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن، سراج فيه نوره، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق، عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة، يمدّها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها القيح والدم، فأى المدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه». وإسناده جيد حسن (١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ : لما تركوا من الحق بعد معرفته. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال ابن جرير: إنما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء فى هذا الموضع؛ لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته وأخبرهم أنه بهم محيط، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير، ومعنى ﴿قَدِيرٌ﴾: قادر، كما أن معنى (٢) ﴿عَلِيمٌ﴾: عالم.

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

شرع تبارك وتعالى فى بيان وحدانية ألوهيته، بأنه تعالى هو المنعم على عبّيده، بإخراجهم من العدم إلى الوجود وإسباغهم عليهم النعم الظاهرة والباطنة، بأن جعل لهم الأرض فراشا، أى: مهدا كالفرش مُقرّرة موطأة مثبتة بالرواسى الشامخات، «وَالسَّمَاءَ بِنَاءً»، وهو السقف، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِنَا مُعْرِضُونَ﴾ [الانبيا: ٣٢] وأنزل لهم من السماء ماء - والمراد به السحاب ههنا - فى وقته عند احتياجهم إليه، فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار ما هو مشاهد؛ رزقا لهم ولأنعامهم، كما قرر هذا فى غير موضع من القرآن. ومن أشبه آية بهذه الآية قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤] ومضمونه: أنه الخالق الرازق مالك الدار، وساكنيها، ورازقهم، فهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يُشْرَكَ به غيره؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى: لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التى لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره وقد علمتم أن الذى يدعوكم إليه الرسول ﷺ من توحيده هو الحق الذى لا شك فيه. وفى الصحيحين عن ابن مسعود، قال:

(١) هو فى المسند (١١١٤٦) (١٧/٣) حلى. ومجمع الزوائد (٦٣/١) وقال: «رواه أحمد والطبرانى فى الصغير، وفى إسناده ليث بن أبى سليم». وأشرنا إليه فى تخريج أحاديث الطبرى (١٤٩٧) وبيننا أن إسناده صحيح.

(٢) فى المطبوع من «عمدة التفسير»: «كما معنى» وهو خطأ طباعى واضح. (البار).

قلت: يا رسول الله، أى الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندا، وهو خلقك» الحديث. وكذا حديث معاذ: «أتدري ما حق الله على عباده؟ أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً» الحديث. وعن الطفيل بن سَخْبَرَةَ، أخى عائشة أم المؤمنين لأمها، قال: رأيت فيما يرى النائم، كأنى أتيت على نفر من اليهود، فقلت: من أنتم؟ فقالوا: نحن اليهود، قلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنتم تقولون: عَزِير ابن الله. قالوا: وأنتم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. قال: ثم مررت بنفر من النصارى، فقلت: من أنتم؟ قالوا: نحن النصارى. قلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبحت أخبرت بها مَنْ أخبرت، ثم أتيت النبی ﷺ فأخبرته، فقال: «هل أخبرت بها أحداً؟» فقلت: نعم. فقام، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد، فإن طُفَيْلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قُلتُم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهارم عنها، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده». رواه ابن مردويه وأخرجه ابن ماجه (١) بنحوه .

وعن ابن عباس، قال: قال رجل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت. فقال: «أجعلتنى لله ندا؟ قل: ما شاء الله وحده». رواه ابن مردويه، والنسائي، وابن ماجه (٢). وهذا كله صيانة، وحماية لجناب التوحيد، والله أعلم.

وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: الأنداد هو الشرك، أخفى من ديب النمل على صفاء سوداء فى ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله وحياتك يا فلان، وحياتي، ويقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط فى الدار لأتني اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها «فلان». هذا كله به شرك.

[ثم ذكر الحافظ ابن كثير هنا حديثاً طويلاً ، عن المسند للإمام أحمد من حديث الحارث ابن الحارث الأشعري: أن نبى الله ﷺ قال: «إن الله، عز وجل، أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات أن يعمل بهن، وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن...» وذكر الحديث وفيه

(١) الحديث رواه أيضاً أحمد فى المسند (٥ / ٧٢ حلى) ، وإسناده صحيح . ورواه الدارمى فى سننه (٢ / ٢٩٥) مختصراً ، وأشار إليه البخارى فى التاريخ الكبير (٢ / ٣٦٤ ، ٣٦٥) فى ترجمة الطفيل ، ورواه الحافظ المزي فى ترجمته أيضاً ، فى تهذيب الكمال ، وروى هذه القصة أيضاً - مختصرة - حذيفة بن اليمان : أتى رجل النبی ﷺ فقال : « إني رأيت فى المنام ... » رواها عنه أحمد فى المسند (٥ / ٣٩٣ حلى) ، وكذلك رواها ابن ماجه (٢١٨) من حديث حذيفة ، ثم رواها من حديث الطفيل بن سخبرة - فلم يذكر لفظه ، قال البوصيرى فى رواته ، فى حديث الطفيل : « رجال الإسناد ثقات على شرط البخارى » . فالظاهر أن حذيفة شهد قصة الطفيل ، أو لعله سمعها منه أو من غيره ممن شهدها .

(٢) أبعد المؤلف النجعة ، إذ ذكر الحديث من رواية ابن مردويه ، وهو بين يديه فى المسند بنحوه (١٨٣٩ ، ١٩٦٤ ، ٢٥٦١ ، ٣٢٤٧) . ومن عادته أن يقدم المسند على غيره . والحديث رواه أيضاً البخارى فى الأدب المفرد ، ص ١١٦ ، وأشار إليه ابن حجر فى الفتح (١١ / ٤٧٠) وهو فى الدر المشور (١ / ٣٥) .

«وأولهن: أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً، فإن مثل ذلك مثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بورق أو ذهب، فجعل يعمل ويؤدى الذى عليه إلى غير سيده فأيكس يسه أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً» إلى آخر الحديث . ثم قال الحافظ ابن كثير : هذا حديث حسن، والشاهد منه فى هذه الآية قوله: «وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً» (١).

وهذه الآية دالة على توحيدى تعالى بالعبادة وحده لا شريك له، وقد استدلل به كثير من المفسرين - كالرازى وغيره - على وجود الصانع تعالى، وهى دالة على ذلك بطريق الأولى، فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها ووضعها فى مواضع النفع بها محكمة، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٢﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣﴾﴾

ثم شرع تعالى فى تقرير النبوة بعد أن قرر أنه لا إله إلا هو، فقال مخاطباً للكافرين: «وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا» يعنى: محمداً ﷺ «فأتوا بسورةٍ مثله» من مثل ما جاء به إن زعمتم أنه من عند غير الله، فعارضوه بمثل ما جاء به، واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله، فإنكم لا تستطيعون ذلك. وقد تحداهم الله تعالى بهذا فى غير موضع من القرآن، فقال فى سورة القصص: «قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» [القصص: ٤٩] وقال فى سورة سبحان: «قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً» [الإسراء: ٨٨]، وقال فى سورة هود: «أَمْ يَقُولُونَ افْعَلْ فَأْتُوا بَعْشَرَ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» [هود: ١٣]، وقال فى سورة يونس: «وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَمْ يَقُولُونَ افْعَلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» [يونس: ٣٧، ٣٨] وكل هذه الآيات مكية. ثم تحداهم بذلك - أيضاً - فى المدينة، فقال فى هذه الآية: «وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا» يعنى: محمداً ﷺ «فأتوا بسورةٍ مثله» من مثل القرآن؛ قاله مجاهد وقتادة، واختاره ابن جرير بدليل قوله: «فأتوا بعشر سورٍ مثله» [هود: ١٣] وقوله: «لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ» [الإسراء: ٨٨]. وقد تحداهم بهذا فى مكة والمدينة مرات عديدة، مع شدة عداوتهم له

(١) وهذا الحديث بطوله فى المسند (١٧٢٣٦) (٤/١٣٠ حلى)، ورواه الطيالسى فى (١١٦١، ١١٦٢)، ورواه الترمذى (٣٨، ٣٧/٤) عن محمد بن إسماعيل، وهو البخارى، ثم رواه أيضاً من طريق الطيالسى. وقال الترمذى: «حديث حسن صحيح غريب». وقد أشار إليه البخارى فى التاريخ الكبير (٢٥٨/٢، ٢٥٩) فى ترجمة الحارث الأشعري، كعادته فى الإشارة الموجزة.

وبغضهم لدينه، ومع هذا عجزوا عن ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ «ولن»: لنفى التأييد، أى: ولن تفعلوا ذلك أبداً. وهذه - أيضاً - معجزة أخرى، وهو أنه أخبر خبراً جازماً قاطعاً مقدماً غير خائف ولا مشفق أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبداً، وكذلك وقع الأمر، لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن، وأنى يتأتى ذلك لأحد، والقرآن كلام الله خالق كل شىء؟ وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين؟!

ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى، قال الله تعالى: ﴿الرَّكَّابُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾: [هود: ١]، فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه أو بالعكس على الخلاف، فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يجارى ولا يدانى، فقد أخبر عن مغيبات ماضية وآتية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء^(١)، وأمر بكل خير، ونهى عن كل شر كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أى: صدقاً فى الأخبار وعدلاً فى الأحكام، فكله حق وصدق وعدل وهدى ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء، كما يوجد فى أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التى لا يحسن شعرهم إلا بها، كما قيل فى الشعر: إن أعذبه أكذبه، وتجد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها فى وصف النساء أو الخيل أو الخمر، أو فى مدح شخص معين أو فرس أو ناقة أو حرب أو كائنة أو مخافة أو سب، أو شىء من المشاهدات المتعينة التى لا تفيد شيئاً إلا قدرة المتكلم المعين على التعبير على الشىء الخفى أو الدقيق أو إبرازه إلى الشىء الواضح، ثم تجد له فيها بيتاً أو بيتين أو أكثر هى بيوت القصيد وسائرهما هذر لا طائل تحته.

وأما القرآن فجميعه فصيح فى غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلاً وإجمالاً من فهم كلام العرب وتصاريح التعبير، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها فى غاية الخلاوة، سواء كانت مبسطة أو وجيزة، وسواء تكررت أم لا، وكلما تكرر حلا وعلا، لا يخلق عن كثرة الرد، ولا يمل منه العلماء، وإن أخذ فى الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمات، وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان، ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن، كما قال فى الترغيب: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] وقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقال فى التهريب: ﴿أَفَأَمْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ [الإسراء: ٦٨]، ﴿أَمْ أَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ إِذَا هِيَ تَمُورُ . أَمْ أَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ [الملك: ١٦، ١٧]، وقال فى الزجر: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وقال فى

(١) هكذا ثبت فى المطبوعة؛ لأن هذه القطعة من أول قوله: «ومن تدبر...» إلى أول قوله: «ولهذا ثبت فى الصحيحين، ص ١٢٠ س ١٦ ليست فى الأثرية. وأخشى أن يكون فى الكلام سقط ونقص، وأن يكون مراد الكلام: أنه أخبر عن مغيبات ماضية لم يكن لرسول الله ﷺ علم بها قبل هذا الوحي، وأخبر عن أشياء مستقبلية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء.

الوعظ : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٠٥ - ٢٠٧] ، إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة ، وإن جاءت الآيات فى الأحكام والأوامر والنواهي ، اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب ، والنهى عن كل قبيح رذيل دنىء ؛ كما قال ابن مسعود وغيره من السلف : إذا سمعت الله تعالى يقول فى القرآن ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فأرعها سمعك فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه . ولهذا قال تعالى : ﴿ يَا مَعْرُوفُ بِتَنبَاهِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَجْلُ لُهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ الآية [الأعراف : ١٥٧] ، وإن جاءت الآيات فى وصف المعاد وما فيه من الأحوال وفى وصف الجنة والنار وما أعد الله فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الآليم ، بشرت به وحذرت وأنذرت ودعت إلى فعل الخيرات واجتناب المنكرات ، وزهدت فى الدنيا ورغبت فى الآخرة ، وثبتت على الطريقة المثلى ، وهدت إلى صراط الله المستقيم وشرعه القويم ، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم .

ولهذا ثبت فى الصحيحين ، عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ ، قال : « ما من نبي من الأنبياء إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيت أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » لفظ مسلم (١) . وقوله : « وإنما كان الذى أوتيت » أى : الذى اختصاصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه ، بخلاف غيره من الكتب الإلهية ، فإنها ليست معجزة ، والله أعلم . وله ﷺ من الآيات الدالة على نبوته ، وصدقه فيما جاء - ما لا يدخل تحت حصر ، والله الحمد والمنة .

وقوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أما الوقود ، بفتح الواو ، فهو ما يلقى فى النار لإضرامها كالخشب ونحوه ، كما قال : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ [الجن : ١٥] وقال تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ [الأنبياء : ٩٨] .

وقوله تعالى : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ : الأظهر أن الضمير فى ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ ، عائد إلى النار التى وقودها الناس والحجارة ، ويحتمل عوده على الحجارة ، ولا منافاة بين القولين فى المعنى ؛ لأنهما متلازمان . و﴿ أُعِدَّتْ ﴾ أى : أرصدت وحصلت للكافرين بالله ورسوله . وقد استدل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن لقوله تعالى : ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ أى : أرصدت وهيئت ، وقد وردت أحاديث كثيرة فى ذلك منها : «تحتاج الجنة والنار» ، ومنها : «استأذنت النار ربها فقالت : رب أكل بعضى بعضاً فأذن لها بنفسين ، نفس فى الشتاء ونفس فى الصيف» ، وغير ذلك من الأحاديث المتواترة فى هذا المعنى . وقد خالفت المعتزلة بجهلهم فى هذا ، ووافقهم القاضى منذر بن سعيد البلوطى قاضى الأندلس .

﴿ وَيَبَشِّرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ﴿١٥﴾

لما ذكر تعالى ما أعدّه لأعدائه من الأشقياء الكافرين به وبرسله من العذاب والنكال، عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله، الذين صدّقوا بإيمانهم الصادق بأعمالهم الصالحة. وهذا معنى تسمية القرآن «مثنى» على أصح أقوال العلماء، كما سنستطه في موضعه، وهو أن يذكر الإيمان ويتبعه بذكر الكفر، أو عكسه، أو حال السعداء ثم الأشقياء، أو عكسه. وحاصله ذكر الشيء ومقابله. وأما ذكر الشيء ونظيره فذاك التشابه، كما سنوضحه إن شاء الله؛ فلهذا قال تعالى: ﴿ وَيَبَشِّرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾، فوصفها بأنها تجري من تحتها الأنهار [كما وصف النار بأن وقودها الناس والحجارة ، ومعنى ﴿ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾] (١) أى: من تحت أشجارها وغرفها، وقد جاء فى الحديث: أن أنهارها تجري من غير أخدود، وجاء فى الكوثر أن حافتيه قباب اللؤلؤ المجوف، ولا منافاة بينهما، وطينها المسك الأذفر، وحصاؤها اللؤلؤ والجوهر، نسال الله من فضله ، إنه هو البر الرحيم ، وعن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنهار الجنة تُفَجَّرُ من تحت تلال - أو من تحت جبال - المسك» رواه ابن أبى حاتم (٢) . وقال أيضا: حدثنا أبو سعيد، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، قال: قال عبد الله: أنهار الجنة تفجر من جبل مسك.

وقوله تعالى: ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ﴾: معناه: مثل الذى كان بالأمس، «وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا» يعنى: فى اللون والمراى، وليس يشبهه فى الطعم.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ﴾ قال ابن عباس: مطهرة من القذر والأذى . وقال قتادة: مطهرة من الأذى والمأثم. وقوله تعالى: ﴿ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾: هذا هو تمام السعادة، فإنهم مع هذا النعيم فى مقام أمين من الموت والانقطاع فلا آخر له ولا انقضاء، بل فى نعيم سرمدى أبدى على الدوام، والله المسؤول أن يحشرنا فى زمرةهم، إنه جواد كريم، بر رحيم.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ يَنْفَضُّونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ﴿١٧﴾

(١) هذه الزيادة ثابتة فى المخطوطة الأزهرية ، وقد سقطت خطأ فى المطبوعة .

(٢) ذكر السيوطى فى الدر المنثور (١ / ٣٧) ، وأنه رواه أيضا ابن حبان ، والحاكم ، والطبرانى ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث .

قال السدي في تفسيره - عن ابن مسعود ، وغيره : لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين ، يعنى قوله : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ [البقرة: ١٧] وقوله : ﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ [البقرة: ١٩] الآيات الثلاث ، قال المنافقون : الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال ، فأنزل الله تعالى هذه الآية إلى قوله : ﴿ هُمُ الْغَاسِقُونَ ﴾ . ومعنى الآية : أنه تعالى أشجع أنه لا ﴿ يَسْتَحْيِي ﴾ ، أى : لا يستنكف ، وقيل : لا يخشى أن يضرب مثلاً ما ، [أى] : أى مثل كان ، بأى شيء كان ، صغيراً كان أو كبيراً . و«ما» ههنا للتقليل ، وتكون ﴿ بَعُوضَةً ﴾ منصوبة على البدل ، كما نقول : لأضربن ضرباً ما ، فيصدق بأدنى شيء .

واختار ابن جرير أن ما موصولة ، و﴿ بَعُوضَةً ﴾ معربة بإعرابها ، قال : وذلك سائغ فى كلام العرب ، أنهم يعربون صلة « ما ومن » بإعرابها لأنهما يكونان معرفة تارة ، ونكرة أخرى ، كما قال حسان بن ثابت :

وَكَفَى بِنَا فَضْلاً عَلَى مَنْ غَيْرِنَا حُبُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ إِيَّانَا

قال : ويجوز أن تكون ﴿ بَعُوضَةً ﴾ منصوبة بحذف الجار ، وتقدير الكلام : إن الله لا يستحى أن يضرب مثلاً ما بين بعوضة إلى ما فوقها .

وقوله : ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ فيه قولان : أحدهما : فما دونها فى الصغر ، والحقارة ، كما إذا وصف رجل باللؤم والشح ، فيقول السامع : نعم ، وهو فوق ذلك ، يعنى فيما وصف . والثانى : فما فوقها : فما هو أكبر منها ؛ لأنه ليس شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة . وهذا اختيار ابن جرير .

فأخبر أنه لا يستصغر شيئاً يضرب به مثلاً ولو كان فى الحقارة والصغر كالبعوضة ، كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت فى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذَّيَّابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴾ [الحج : ١٧٣] ، وقال : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتُ لَبِيتَ الْعَنْكَبُوتُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤١] وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ . تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ . يَتَّبِعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم : ٢٤ - ٢٧] ، وقال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ [وَمِنْ رُزْقَاهُ مَنَ رِزْقًا حَسَنًا] ﴾ الآية [النحل : ٧٥] ثم قال : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ [هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ] ﴾ الآية [النحل : ٧٦] ، كما قال : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ الآية [الروم : ٢٨] ، وقال : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ﴾ الآية [الزمر : ٢٩] ، وقد قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾

[المعكبر: ٤٣] وفي القرآن أمثال كثيرة.

قال بعض السلف: إذا سمعت المثل في القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ قال قتادة: أى: يعلمون أنه كلام الرحمن، وأنه من عند الله. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾، كما قال في سورة المدثر: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَبِزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، وكذلك قال ههنا: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾.

قال ابن مسعود وغيره: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ يعنى: المنافقين، ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ يعنى: المؤمنين، فيزيد هؤلاء ضلالاً إلى ضلالهم لتكذيبهم بما علموه حقاً يقيناً، من المثل الذى ضربه الله لما ضربه له، وأنه لما ضربه له موافق، فذلك إضلال الله إياهم به ﴿وَيَهْدِي بِهِ﴾ يعنى المثل، كثيراً من أهل الإيمان والتصديق، فيزيدهم هدى إلى هداهم وإيماناً إلى إيمانهم، لتصديقهم بما قد علموه حقاً يقيناً أنه موافق لما ضربه الله له مثلاً وإقرارهم به، وذلك هداية من الله لهم به (١) ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ قال قتادة: هم المنافقون، فسقوا، فاضلهم الله على فسقهم. والفاسق فى اللغة: هو الخارج عن الطاعة. وتقول العرب: فسقت الرطبة: إذا خرجت من قشرتها؛ ولهذا يقال للفأرة: فويسقة، لخروجها عن جحرها للفساد. وثبت فى الصحيحين، عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «خمس فواسق يقتلن فى الحل والحرم: الغراب، والحداة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور».

فالفاسق يشمل الكافر والعاصى، ولكن فسق الكافر أشد وأفحش، والمراد من الآية الفاسق الكافر، والله أعلم، بدليل أنه وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وهذه الصفات صفات الكفار المبينة لصفات المؤمنين، كما قال تعالى فى سورة الرعد: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَنْبَاءُ. الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَتَّقُونَ الْمِثَاقَ. وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخْلِفُونَ سِوَى الْحَسَابِ﴾ الآيات، إلى أن قال: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ الْعَذَابُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ١٩ - ٢٥].

وقد اختلف أهل التفسير فى معنى العهد الذى وصف هؤلاء الفاسقين بنقضه، فقال بعضهم: هو وصية الله إلى خلقه وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته فى كتبه، وعلى لسان رسوله. ونقضهم ذلك وتركهم العمل به. وقال آخرون:

(١) هذا النص عن ابن مسعود وغيره، ثبت محرراً كثيراً فى المطبوعة، وقليل فى الأثرية، وصححه من الطبري (٥٦٧).

بل هي في كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم، وعهد الله الذي نقضوه: هو ما أخذه الله عليهم في التوراة من العمل بما فيها واتباع محمد ﷺ إذا بعث والتصديق به، وبما جاء به من عند ربهم، ونقضهم ذلك: هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته وإنكارهم ذلك، وكتمانهم علم ذلك عن الناس بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليبينه للناس ولا يكتُمونه، فأخبر تعالى أنهم نبذوه وراء ظهورهم، واشتروا به ثمناً قليلاً. وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله، وقول مقاتل بن حيان. وقال آخرون: بل عني بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق. وعهده إلى جميعهم في توحيد: ما وضع لهم من الأدلة الدالة على ربوبيته، وعهده إليهم في أمره ونهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التي لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتي بمثله الشاهدة لهم على صدقهم، قالوا: ونقضهم ذلك: تركهم الإقرار بما ثبتت لهم صحته بالأدلة وتكذيبهم الرسل والكتب مع علمهم أن ما أتوا به حق، وهو حسن.

وقال آخرون: العهد الذي ذكره تعالى هو العهد الذي أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم الذي وصف في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ الآيتين [الاعراف: ١٧٢، ١٧٣] ونقضهم ذلك تركهم الوفاء به. حكى هذه الأقوال ابن جرير في تفسيره.

وقوله: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ قيل: المراد به صلة الأرحام والقرابات، كما فسره قتادة كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢] ورجحه ابن جرير. وقيل: المراد أعم من ذلك فكل ما أمر الله بوصله وفعله قطعوه وتركوه. وقال مقاتل بن حيان في قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ قال: في الآخرة، وهذا كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

وقال ابن جرير: الخاسرون: جمع خاسر، وهم الناقصون أنفسهم حظوظهم بمعصيتهم الله - من رحمته، كما يخسر الرجل المال في تجارته بأن يوضع من رأس المال في بيعه، وكذلك المنافق والكافر خسر بحرمان الله إياه رحمته التي خلقها لعباده في القيامة أحوج ما كانوا إلى رحمته، يقال منه: خسر الرجل يخسر خسراً وخساراً.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

يقول تعالى محتجاً على وجوده وقدرته، وأنه الخالق المتصرف في عباده: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ أي: كيف تمجدون وجوده أو تعبدون معه غيره؟ ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ أي: قد كنتم عدماً فأخرجكم إلى الوجود، كما قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦]، وقال: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] والآيات في هذا كثيرة. وقال ابن عباس: ﴿كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾: أمواتا في أصلاب آبائكم، لم تكونوا شيئاً حتى خلقكم، ثم يميتكم مودة الحق، ثم يحييكم حين يبعثكم.

قال: وهى مثل قوله: ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا اِثْنَيْنِ وَاَحْيَيْنَا اِثْنَيْنِ ﴾ وهذا هو الصحيح ، وهو كقوله تعالى: ﴿ قُلِ اللّٰهُ يَخْبِكُمْ ثُمَّ يُعْيِيكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الحاثية: ٢٦] .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ﴿١٦﴾

لما ذكر تعالى دلالة من خلقهم وما يشاهدونه فى أنفسهم، ذكر دليلا آخر عما يشاهدونه من خلق السموات والأرض، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أى: قصد إلى السماء ، والاستواء ههنا مضمن معنى القصد والإقبال؛ لأنه عدى بلى ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ أى: فخلق السماء سبعا. والسماء ههنا اسم جنس، فلهذا قال: ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أى: وعلمه محيط بجميع ما خلق. كما قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] وتفصيل هذه الآية فى سورة حم السجدة وهو قوله: ﴿قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْفِرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَمْوَاطَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لِيُنْزِلَ فِيهَا مِنَ السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [نصفت: ٩ - ١٢] .

ففى هذا دلالة على أنه تعالى ابتداء بخلق الأرض أولا ، ثم خلق السموات سبعا ، وهذا شأن البناء أن يبدأ بعمارة أسافله ثم أعاليه بعد ذلك . فأما قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا . رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا . وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا . وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا . أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا . وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [التارعات: ٢٧ - ٣٢] - فقد قيل: إن ﴿ثُمَّ﴾ ههنا إنما هى لعطف الخبر على الخبر، لا لعطف الفعل على الفعل .

وقد ذكر ابن أبى حاتم وابن مردويه فى تفسير هذه الآية الحديث الذى رواه مسلم والنسائى فى التفسير - أيضاً - من رواية ابن جريج قال: أخبرنى إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة، عن أبى هريرة، قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر فيها يوم الإثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة من آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل» .

وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم، وقد تكلم عليه على بن المدينى والبخارى وغير واحد من الحفاظ، وجعلوه من كلام كعب، وأن أباه هريرة إنما سمعه من كلام كعب الأحبار، وإنما اشتبه على بعض الرواة فجعلوه مرفوعا، وقد حرر ذلك البيهقى (١) .

(١) الحديث فى صحيح مسلم (٢/ ٣٤٠) من طريق ابن جريج ، وكذلك رواه البيهقى فى الأسماء والصفات، ص ٢٧٥، وتعليل البخارى إياه ثابت فى التاريخ الكبير (١/ ١١٣، ٤١٤) فى ترجمة أيوب بن خالد ، حيث أشار إلى الحديث ، ثم قال : « وقال بعضهم: عن أبى هريرة عن كعب ، وهو أصح » . وأعله البيهقى بعد =

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٣٠﴾

يخبر تعالى بامتثاله على بنى آدم، بتتويجه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ﴾ أى: واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة، واقصص على قومك ذلك. حكى ابن جرير عن بعض أهل العربية - وهو أبو عبيدة - أنه زعم أن «إذ» ههنا زائدة، وأن تقدير الكلام: وقال ربك. ورده ابن جرير. قال القرطبي: وكذا رده جميع المفسرين حتى قال الزجاج: هذا اجترأ من أبي عبيدة.

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ أى: قوما يخلف بعضهم بعضا قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل، كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وقال: ﴿ وَيجعلكم خلفاء الأرض ﴾ [النمل: ٦٢]. وقال: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٠]. وقال: ﴿ فَيَخْلُقُ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ [مريم: ٥٩]. وليس المراد ههنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط، إذ لو كان كذلك لما حسن قول الملائكة: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ فإنهم إنما أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك، وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية فإن الله أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمإ مسنون، أو أنهم قاسوهم على من سبق، كما سنذكر أقوال المفسرين في ذلك.

وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبنى آدم، كما قد يتوهمه بعض المفسرين، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك، يقولون: يا ربنا، ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء؟ فإن كان المراد عبادتك، فنحن ﴿ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾، أى: نصلى لك كما سيأتى، أى: ولا يصدر منا شيء من ذلك، وهلا وقع الاختصار علينا؟ قال الله تعالى مجيبا لهم عن هذا السؤال: ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أى: إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف - على المفاصد التي ذكرتموها - ما لا تعلمون أنتم؛ فإني سأجعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل، ويوجد فيهم الصديقون والشهداء، والصالحون والعباد، والزهاد والأولياء، والأبرار والمقربون، والعلماء

= روايته، فقال: «ورغم بعض أهل العلم بالحديث أنه غير محفوظ، لمخالفته ما عليه أهل التفسير وأهل التواريخ. ورغم بعضهم أن إسماعيل بن أمية إنما أخذه عن إبراهيم بن أبي يحيى عن أيوب بن خالد، وإبراهيم غير محتج به». ثم روى بإسناده: أن محمد بن يحيى سأل على بن المدينى عن هذا الحديث؟ فقال: «ما أرى إسماعيل بن أمية أخذ هذا إلا من إبراهيم بن أبي يحيى». ثم قال البيهقي: «وقد تابعه على ذلك موسى بن عبيدة الربذى، عن أيوب بن خالد، إلا أن موسى بن عبيدة ضعيف، وروى عن بكر بن الشroud، عن إبراهيم بن أبي يحيى، عن صفوان بن سليم، عن أيوب بن خالد. وإسناده ضعيف». أقول: و«بكر بن الشroud»: قال فيه ابن معين: «ليس بثقة» - كما فى الكبير للبخارى (١/ ٢٩٠). والحديث سيذكره المؤلف الحافظ مرة أخرى، مع تعليقه، فى تفسير الآيات: (٩ - ١٢) من سورة فصلت، وسنشير إليه هناك، إن شاء الله.

العاملون والخاصعون، والمحبون له تبارك وتعالى المتبعون رسله، صلوات الله وسلامه عليهم. قال ابن جرير: وإنما معنى الخلافة التي ذكرها الله إنما هي خلافة قرن منهم قرنا . قال: والخليفة الفعيلة من قولك : خلف فلان فلانا في هذا الأمر: إذا قام مقامه فيه بعده، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤]. ومن ذلك قيل للسلطان الأعظم : خليفة ؛ لأنه خلف الذي كان قبله ، فقام بالأمر مقامه ، فكان منه خلفاً.

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال ابن جرير: التقديس: هو التعظيم والتطهير، ومنه قولهم: سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، يعنى بقولهم: «سُبُّوحٌ»، تنزيه له، وبقولهم: «قدوس»، طهارة وتعظيم له. ولذلك قيل للأرض: أرض مقدسة، يعنى بذلك المطهرة. فمعنى قول الملائكة إذا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، نزهك ونبرتك مما يضيفه إليك أهل الشرك بك ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ : ننسبك إلى ما هو من صفاتك ، من الطهارة من الأدناس وما أضاف إليك أهل الكفر بك.

﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال قتادة: فكان في علم الله أنه سيكون في تلك الخليقة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٢١﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢٢﴾ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنْفُسَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ ﴿٢٣﴾

هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة، بما اختصه به من علم أسماء كل شيء دونهم، وهذا كان بعد سجودهم له. وإنما قدم هذا الفصل على ذاك، لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة، حين سألوا عن ذلك، فأخبرهم تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون؛ ولهذا ذكر تعالى هذا المقام عقيب هذا ليعين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم (١)، فقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾. قال ابن عباس: هي هذه الأسماء التي يتعارف

(١) آيات القرآن الصريحة المتكاثرة ، والأحاديث الصحيحة المتواترة ، كلها قاطعة الدلالة على أن الله خلق آدم على صورته وهيئته التي توارثها عنه أبناؤه إلى اليوم ، والتي توارثها من سيكون من نسله إلى قيام الساعة . أدلة صحيحة صريحة ، لا تحتمل تأويلا ، ولا تقبل جدلا في دلالتها ، بما تدل به الألفاظ على المعاني . فمن عجب أن يأتي بعد ذلك من يتسبون إلى الإسلام ، ويسمون بأسماء المسلمين ، فيقبلوا نظرية التطور الإفريقية ، التي يقول دروين وأتباعه وأشباهه ، يقبلونها ويسلمون بها ويؤمنون ، إيمانهم بالقطعي من الدين ، بل أشد وأوثق . ثم يتأولون الدلائل القطعية الثبوت والدلالة ، من الكتاب والسنة ، فيحرفونها عن مواضعها ، كما فعل اليهود في دينهم من قبل . ثم لا يستحون أن ينكروا الأحاديث المتواترة المعنى في ذلك . ثم يدور كلامهم وأدبهم وعلومهم على حساب هذه النظرية التي لم تثبت قط ، والتي لا تقوم أمام النقد ، والتي تهافت تهافتاً شديداً . ثم يزعمون بعد ذلك أنهم مسلمون ، ويسمون أنفسهم علماء وهم مقلدون!! تعالى الله عما يفترون.

بها الناس: إنسان، ودابة، وسماء، وأرض، وسهل، وبحر، وجمل، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها . وقال مجاهد نحو ذلك . وكذلك روى عن سعيد بن جبير وقتادة وغيرهم من السلف: أنه علمه أسماء كل شيء . واختار ابن جرير أنه علمه أسماء الملائكة وأسماء الذرية؛ لأنه قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ وهذا عبارة عما يعقل . وهذا الذى رجح به ليس بلازم، فإنه لا ينفى أن يدخل معهم غيرهم، ويعبر عن الجميع بصيغة من يعقل للتغليب . كما قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥]. والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها: ذواتها وصفاتها وأفعالها؛ ولهذا روى البخارى فى تفسير هذه الآية فى كتاب التفسير من صحيحه عن أنس ، عن النبى ﷺ قال: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا؟ فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس، خلقتك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا » .

[وساق المؤلف الحديث بطوله . وذكر أنه رواه أيضا مسلم والنسائى وابن ماجه . ثم قال] : وجه إيراده ههنا والمقصود منه قوله ﷺ: «فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس خلقتك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء»، فدل هذا على أنه علمه أسماء جميع المخلوقات؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ يعنى: المسميات ﴿فَقَالَ أَتُبُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى لم أخلق خلقاً إلا كنتم أعلم منه، فأخبرونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . وقال ابن جرير: ومعنى ذلك: فقال: أتنبئونى بأسماء من عَرَضْتُهُ عليكم أيها الملائكة القائلون: أتعجل فى الأرض من يفسد فيها ويسفك الدماء، من غيرنا أم منا، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ إن كنتم صادقين فى قيلكم: أى إن جعلتُ خليفتى فى الأرض من غيركم عصانى ذريته وأفسدوا وسفكوا الدماء، وإن جعلتكم فيها أطعتمونى واتبعتم أمرى بالتعظيم لى والتقديس، فإذا كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم وأنتم تشاهدونهم، فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التى لم توجد أخرى أن تكونوا غير عالمين .

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ : هذا تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء ، وأن يعلموا شيئاً إلا ما علمهم الله تعالى؛ ولهذا قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أى: العليم بكل شيء، الحكيم فى خلقك وأمرك وفى تعليمك من تشاء ومنعك من تشاء، لك الحكمة فى ذلك، والعدل التام . روى ابن أبى حاتم: عن ابن عباس: « سبحان الله »، قال: تنزيه الله نفسه عن السوء . ثم قال عمر لعلى وأصحابه عنده: لا إله إلا الله، قد عرفناه ، فما « سبحان الله؟ » فقال له على: كلمة أحبها الله لنفسه، ورضيها، وأحب أن يقال .

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ : قال مجاهد : اسم الحمامة، والغراب، واسم كل شيء . وروى عن سعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، نحو ذلك . فلما ظهر

فضل آدم، عليه السلام، على الملائكة، عليهم السلام، في سرده ما علمه الله تعالى من أسماء الأشياء، قال الله تعالى للملائكة: ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ أى: أَلَمْ أَتَقَدَّمْ إِلَيْكُمْ أَنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ الظَّاهِرِ وَالْخَفِيِّ، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه: ٧]، وكما قال تعالى إخباراً عن الهدهد أنه قال لسليمان: ﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [النمل: ٢٥، ٢٦].

وقال ابن جرير: معنى قوله تعالى: ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ﴾ : وأعلم - مع علمي غيب السموات والأرض - ما تظهرونه بالستكم ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ وما كنتم تخفونه في أنفسكم، فلا يخفى على شيء، سواء عندى سرائركم، وعلايتكم. والذي أظهره بالاستتهم قولهم: ﴿ أَنْتَجَلُ فِيهَا مَنْ يَفْسُدُ فِيهَا ﴾ ، والذي كانوا يكتُمونه ما كان عليه منظوياً إبليس من الخلاف على الله فى أمره ، والتكبر عن طاعته . قال: وصح ذلك كما تقول العرب: قُتِلَ الْجَيْشُ وَهُزِمُوا، وإنما قتل الواحد أو البعض، وهزم الواحد أو البعض، فيخرج الخبر عن المهزوم منه والمقتول مخرج الخبر عن جميعهم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ ﴾ [الحجرات: ٤] ذكر أن الذى نادى إنما كان واحداً من بنى تميم، قال: وكذلك قوله: ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾

وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن بها على ذريته، حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم. وقد دل على ذلك - أيضاً - أحاديث كثيرة ، منها حديث الشفاعة المتقدم، وحديث موسى عليه السلام: «رَبِّ، أرْنِي آدم الذى أخرجنا ونفسه من الجنة»، فلما اجتمع به قال: «أنت آدم الذى خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته». وذكر الحديث كما سيأتى إن شاء الله.

والغرض أن الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم دخل إبليس فى خطابهم؛ لأنه - وإن لم يكن من عنصرتهم - إلا أنه كان قد تشبَّه بهم وتوسم بأفعالهم؛ فلهذا دخل فى الخطاب لهم، وذم فى مخالفة الأمر. وسنبسط المسألة إن شاء الله تعالى - عند قوله: ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ [الكهف: ٥٠]. وقال قتادة فى قوله: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ : فكانت الطاعة لله ، والسجدة لآدم، أكرم الله آدم أن أسجد له ملائكته. وقال بعض الناس: كان هذا سجود تحية وسلام وإكرام، كما قال تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبْوِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا وَقَالَ يَا آدَمُ هَذَا تَأْوِيلُ رَأْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا ﴾ [يوسف: ١٠٠] وقد كان هذا مشروعاً فى الأمم الماضية ولكنه نسخ فى ملتنا.

وقال قتادة فى قوله تعالى: ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ : حسد عدو الله إبليسُ آدمَ عليه السلام على ما أعطاه الله من الكرامة ، وقال : أنا نارى وهذا طينى . وكان

بدء الذنوب الكبير، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم عليه السلام .

﴿ وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٥) فَارْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٦﴾

يقول الله تعالى إخبارا عما أكرم به آدم، بعد أن أمر الملائكة بالسجود له، فسجدوا إلا إبليس: إنه أباحه الجنة يسكن منها حيث يشاء، ويأكل منها ما شاء ﴿ رَغَدًا ﴾ أى: هنيئاً واسعاً طيباً. وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه، عن أبي ذر، قال: قلت: يا رسول الله؛ أريت آدم، أنبيأ كان؟ قال: «نعم، نبيا رسولا، كلمه الله قبلا، فقال: ﴿ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾» (١). وقد اختلف فى الجنة التى أسكنها آدم: أهى فى السماء أم فى الأرض؟ فالأكثر على الأول، وسيأتى تقرير ذلك فى سورة الأعراف، إن شاء الله تعالى، وسياق الآية يقتضى أن حواء خلقت قبل دخول آدم الجنة. ويقال: إن خلق حواء كان بعد دخوله الجنة.

وأما قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ فهو اختبار من الله تعالى وامتحان لآدم. وقد اختلف فى هذه الشجرة: ما هى؟ [وذكر المؤلف الحافظ هنا الأقوال فى ذلك. ثم قال:] قال الإمام العلامة أبو جعفر ابن جرير، رحمه الله: والصواب فى ذلك أن يقال: إن الله عز وجل ثناؤه، نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة، دون سائر أشجارها، فأكلها منها، ولا علم

(١) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٥١/١) ونسبه للطبرانى وأبى الشيخ فى العظمة وابن مردويه. وذكره الهيمى فى مجمع الزوائد (١٩٨/٨)، وقال: «رواه الطبرانى فى الأوسط، وأحمد بنحوه فى حديث طويل، وفيه المسعودى، وقد اختلط». والظاهر أن لفظ الطبرانى مثل لفظ ابن مردويه الذى هنا. ولم يكشف لنا الهيمى عن إسناده. أما رواية أحمد، فذاك حديث آخر طويل، فى المسند (١٧٨/٥، ١٧٩ حلى)، عن أبى ذر. وفيه: «قلت: يا رسول الله، أى الأنبياء كان أول؟ قال: آدم، قلت: ونبى وكان؟ قال: نعم، نبى مكلم...» وهذا المطول ذكره الهيمى فى الزوائد (١٥٩/١، ١٦٠، و ٢١٠/٨)، ونسبه لأحمد، وأعله باختلاط المسعودى.. وهذا تعليل غير جيد، فإن أحمد رواه أولا عن وكيع عن المسعودى، ثم رواه ثانياً عن يزيد بن هارون عن المسعودى. والمسعودى: ثقة، ولكنه تغير قبل موته بسنة أو ستين. وقد صرح أحمد - كما فى التهذيب - بأن سماع وكيع منه قديم، يعنى قبل تغيره.

وهذا المعنى - سؤال أبى ذر عن آدم - رواه أيضاً أحمد فى المسند (٢٦٥/٥، ٢٦٦ حلى) من حديث أبى أمامة الباهلى، مطولاً. وفى إسناده على بن يزيد الالهانى، وهو ضعيف. ولكن رواه الحاكم (٢٦٢/٢) مختصراً، عن أبى أمامة: «أن رجلاً قال: يا رسول الله، أنبى كان آدم؟ قال: نعم، معلم مكلم...». وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبى. وهو كما قال.

وقوله فى الحديث - هنا - «قبلا» هو بكسر القاف وفتح الباء، ويجوز فتحهما وضمهما، أى: «عياناً ومقابلة»، لا من وراء حجاب، ومن غير أن يولى أمره أو كلامه أحداً من ملائكته، كما قال ابن الأثير. وسيذكر الحافظ ابن كثير بعض هذه الروايات وغيرها، فيما سيأتى فى تفسير الآية: (١٦٣) من سورة النساء. ولعلنا نشير لذلك هناك، إن شاء الله.

عندنا بأى شجرة كانت على التعيين؛ لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك فى القرآن ولا من السنة الصحيحة. وقد قيل: كانت شجرة البر، وقيل: كانت شجرة العنب، وقيل: كانت شجرة التين. وجائز أن تكون واحدة منها، وذلك علم، إذا علم لم ينفع العالم به علمه، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾: يصح أن يكون الضمير فى قوله: ﴿عَنْهَا﴾ عائداً إلى الجنة، فيكون معنى الكلام كما قال عاصم بن بهدلة، وهو ابن أبى النُّجُود: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾، أى: فنحاهما. ويصح أن يكون عائداً على أقرب المذكورين، وهو الشجرة، فيكون معنى الكلام كما قال الحسن وقتادة: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ أى: من قبيل الزلل، فعلى هذا يكون تقدير الكلام ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أى: بسببها، كما قال: ﴿يُؤَفِّكُ عَنْهُ مِنَ الْفِكَ﴾ [الذاريات: ٩] أى: يصرف بسببه من هو مأفوك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أى: من اللباس والمنزل والرحب والرزق الهنىء والراحة.

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أى: قرار وأرزاق وآجال ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أى: إلى وقت مؤقت ومقدار معين، ثم تقوم القيامة.

وعن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها» رواه مسلم والنسائى (١).

وقال فخر الدين: اعلم أن فى هذه الآيات تهديداً عظيماً عن كل المعاصى من وجوه: الأول: أن من تصور ما جرى على آدم بسبب إقدامه على هذه الزلة الصغيرة كان على وجل شديد من المعاصى، قال الشاعر:

﴿فَلَقْنِيْ أَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّجِيمُ﴾

قيل: إن هذه الكلمات مفسرة بقوله تعالى: ﴿فَلَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الاعراف: ٢٣]. وعن ابن عباس: ﴿فَلَقْنِيْ أَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾، قال: أى يارب، ألم تخلقنى بيدك؟ قال: بلى. قال: أى رب، ألم تنفخ فى من روحك؟ قال: بلى. قال: أرايت إن تبت وأصلحت أراجعى أنت إلى الجنة؟ قال: بلى. ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه (٢).

(١) وقد دأب الكتاب والأدباء فى عصرنا هذا على فرية أن آدم عليه السلام خدعته حواء حتى أكل من الشجرة!! يصطنعون قول الكاذبين المفتريين من أهل الكتاب، بما حرفوا وكذبوا. ثم اجتروا واجترأت الصحف الماجنة والمجلات الداعرة، على السخرية بآدم وحواء، وتصويرهما فى صور قبيحة منكرة، جرة منهم على الدين، واستهزاء بأول النبيين. وما كان لمسلم أن يفعل هذا أو يقوله. أعاذنا الله عما يقولون ويصنعون.

(٢) هذا الحديث ذكره ابن كثير من رواية ضعيفة، من روايات السدى بنحو هذا، ثم نسب للحاكم، فحررت لفظه من رواية الحاكم فى المستدرک (٥٤٥/٢) بشيء من الاختصار، وقد وافقه الذهبى على تصحيحه.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ أى : إنه يتوب على من تاب إليه وأتاب ، كقوله: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقوله: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوْءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠]، وقوله: ﴿ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ [الفرقان: ٧١]، وغير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى يغفر الذنوب ويتوب على من يتوب، وهذا من لطفه بخلقه ورحمته بعبيده، لا إله إلا هو التواب الرحيم.

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما أئذر به آدم وزوجته وإبليس حين أهبطهم من الجنة، والمراد الذرية: أنه سينزل الكتب، ويبعث الأنبياء والرسول . ﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ ﴾ أى : من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أى: فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا، كما قال فى سورة طه: ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ [طه: ١٢٣] قال ابن عباس: فلا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة . ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمًى ﴾ [طه: ١٢٤] كما قال ههنا: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أى: مخلدون فيها ، لا محيد لهم عنها ، ولا محيص . وقد روى ابن جرير عن أبى سعيد - واسمه سعد بن مالك بن سنان الخدرى - قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، لكن أقواماً أصابتهم النار بخطاياهم، أو بذنوبهم فأماتتهم إماتة، حتى إذا صاروا فحماً أذن فى الشفاعة». ورواه مسلم (١).

﴿ يَبْنَئُ إِسْرَءِيلَ أَدْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَلِئَلَّيْ فَآزْهَبُونِ ﴿٣٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَاقِبَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَأَنقُوتِ ﴿٣١﴾ ﴾

يقول تعالى آمرا بنى إسرائيل بالدخول فى الإسلام، ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام، ومُهيّجاً لهم بذكر أبيهم إسرائيل، وهو نبي الله يعقوب عليه السلام وتقديره: يا بنى العبد الصالح المطيع لله كونوا مثل أبيكم فى متابعة الحق، كما تقول: يابن الكريم، افعَل كذا. يابن الشجاع، بارز الأبطال. يابن العالم ، اطلب العلم ونحو ذلك. ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةٌ مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء: ٣] فإسرائيل هو يعقوب، بدليل ما رواه أبو داود الطيالسى: عن عبد الله بن عباس قال: حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ، فقال لهم:

(١) هذا لفظ الطبرى (٧٩٧) . وهو فى صحيح مسلم (٦٧/١، ٦٨) باطل من هذا ، وفصلنا تخريجه فى الطبرى.

«هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب؟». قالوا: اللهم نعم. فقال النبي ﷺ: «اللهم اشهد» .
وقوله تعالى : ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ : قال مجاهد : نعمة الله التي أنعم بها عليهم فيما سمى وفيما سوى ذلك ؛ فَجَرَّ لهم الحجر ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، ونجاهم من عبودية آل فرعون . وقال أبو العالية : نعمته : أن جعل منهم الأنبياء والرسل ، وأنزل عليهم الكتب . قلت : وهذا كقول موسى ، عليه السلام ، لهم : ﴿ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٠] يعنى فى زمانهم .

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ قال ابن عباس: بعهدى الذى أخذت فى أعناقكم للنبي محمد ﷺ إذا جاءكم - أنجز لكم ما وعدتكم عليه بتصديقه واتباعه ، بوضع ما كان عليكم من الإصر والأغلال التى كانت فى أعناقكم بذنوبكم التى كانت من أحداثكم . وقال أبو العالية : عهده إلى عباده : دينه الإسلام وأن يتبعوه . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَايَ فَأَرْهُبُونَ ﴾ أى : فاحشون . وقال ابن عباس : أى أنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النِّقَمَات التى قد عرفتم من المسخ وغيره . وهذا انتقال من التَّغْيِب إلى التَّهْيِيب ، فدعاهم إليه بالرغبة والرَّهْبَة ، لعلمهم يرجعون إلى الحق واتباع الرسول والانتعاظ بالقرآن وزواجه ، وامتنال أوامره ، وتصديق أخباره ، والله يهدى من يشاء إلى صراطه المستقيم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَأَمِينُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ ﴾ ﴿مُصَدِّقًا﴾ يعنى به: القرآن الذى أنزله على محمد النبي الأمى العربى بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً مشتملاً على الحق من الله تعالى ، مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل .

وقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرِيهِ ﴾ . قال ابن عباس : ولا تكونوا أول كافر به وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم . وقال أبو العالية : يقول : ولا تكونوا أول من كفر بمحمد ﷺ . وكذا قال الحسن ، والسدى ، والربيع بن أنس . واختار ابن جرير أن الضمير فى قوله : ﴿ بِهِ ﴾ عائذ على القرآن ، الذى تقدم ذكره فى قوله : ﴿ بِمَا أَنْزَلْتُ ﴾ . وكلا القولين صحيح ؛ لألھما متلازمان ، لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد ﷺ ، ومن كفر بمحمد ﷺ فقد كفر بالقرآن .

وأما قوله : ﴿ أَوَّلَ كَافِرِيهِ ﴾ فيعنى به أول من كفر به من بنى إسرائيل ؛ لأنه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بشر كثير ، وإنما المراد : أول من كفر به من بنى إسرائيل مباشرة ، فإن يهود المدينة أول بنى إسرائيل خطبوا بالقرآن ، فكفرهم به يستلزم أنهم أول من كفر به من جنسهم .

وقوله : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ يقول : لا تعتاضوا عن الإيمان بآياتى وتصديق رسولى بالدنيا وشهواتها ، فإنها قليلة فانية . وقوله : ﴿ وَإِذَايَ فَأَتَقُونَ ﴾ : روى ابن أبى حاتم : عن طلق ابن حبيب ، قال : التقوى أن تعمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله ، والتقوى أن تترك معصية الله مخافة عذاب الله على نور من الله ^(١) . ومعنى قوله : ﴿ وَإِذَايَ فَأَتَقُونَ ﴾ : أنه

(١) طلق بن حبيب العنزى : تابعى ثقة ، كان من أعبد أهل زمانه . مترجم فى التهذيب ، وترجمه أبو نعيم فى الحلية (٣/٦٣-٦٦) وروى معنى قوله هذا ، نحوه .

تعالى يتوعدهم فيما يعتمدونه من كتمان الحق وإظهار خلافه، ومخالفتهم الرسول، صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ وَلَا تَلْسُؤُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنْهُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى - ناهياً لليهود عما كانوا يعتمدونه، من تلبيس الحق بالباطل، وتمويهه به، وكتمانهم الحق وإظهارهم الباطل: ﴿ تَلْسُؤُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنْهُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾؛ فنهاهم عن الشئين معاً، وأمرهم بإظهار الحق والتصريح به؛ ولهذا قال ابن عباس: تخطوا . وقال: ﴿ وَتَكُنْهُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى: لا تكتُموا ما عندكم من المعرفة برسولى وبما جاء به، وأنتم تجدونه مكتوباً عندكم فيما تعلمون من الكتب التى بأيديكم . قلت: ﴿ وَتَكُنْهُوا ﴾ يحتمل أن يكون مجزوماً، ويجوز أن يكون منصوباً، أى: لا تجمعوا بين هذا وهذا كما يقال: لا تأكل السمك وتشرب اللبن .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ قال مقاتل: أمرهم أن يصلوا مع النبى ﷺ ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾: أمرهم أن يؤتوا الزكاة، أى: يدفعوها إلى النبى ﷺ . يقول: كونوا منهم ومعهم . وقوله تعالى: ﴿ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ أى: وكونوا مع المؤمنين فى أحسن أعمالهم، ومن أخص ذلك وأكملة الصلاة. وقد استدلل كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب الجماعة، وأبسط ذلك فى كتاب « الأحكام الكبير » إن شاء الله .

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٤٤﴾ ربع

يقول تعالى: كَيْفَ يَنْبَغُ بِكُمْ - يا معشر أهل الكتاب، وأنتم تأمرون الناس بالبر، وهو جماع الخير - أن تنسوا أنفسكم، فلا تأمروا بما تأمرون الناس به، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب، وتعلمون ما فيه على من قصر فى أوامر الله؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم؛ فتنبّهوا من رقدتكم، وتبصّروا من عمايتكم، وعن قتادة فى قوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ قال: كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه، وبالبر، ويخالفون، فعبرهم الله، عز وجل بذلك، فمن أمر بخير فليكن أشد الناس فيه مسارعة. وقال ابن عباس: ﴿ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أى: تتركون أنفسكم ﴿ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أى: تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة والعهد من التوراة، وتتركون أنفسكم، أى: وأنتم تكفرون بما فيها من عهدى إليكم فى تصديق رسولى، وتنقضون ميثاقى، وتحجّدون ما تعلمون من كتابى. وروى الطبرى عن أبى الدرداء قال: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقّت الناس فى ذات الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتاً (١) .

والغرض: أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع ونبههم على خطئهم في حق أنفسهم، حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه، وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له، بل على تركهم له، فإن الأمر بالمعروف معروف وهو واجب على العالم، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به، ولا يتخلف عنهم، كما قال شعيب، عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]. فكلُّ من الأمر بالمعروف وفعله واجب، ولا يسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولى العلماء من السلف والخلف. وذهب بعضهم إلى أن مرتكب المعاصى لا ينهى غيره عنها، وهذا ضعيف، وأضعف منه تمسكهم بهذه الآية؛ فإنه لا حجة لهم فيها. والصحيح أن العالم يأمر بالمعروف، وإن لم يفعله، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه. ولكنه - والحالة هذه - مذموم على ترك الطاعة وفعله المعصية، لعلمه بها ومخالفته على بصيرة، فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم؛ ولهذا جاءت الأحاديث فى الوعيد على ذلك، فروى الطبرانى فى الكبير: عن جندب بن عبد الله رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل العالم الذى يعلم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يضىء للناس ويحرق نفسه». هذا حديث غريب من هذا الوجه (١).

وروى أحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مرت ليلة أسرى بى على قوم تقرر ضفافهم بمقاريض من نار. قال: قلت: من هؤلاء؟ قالوا: خطباء أمتك من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون؟». ورواه عبد بن حميد فى مسنده، وتفسيره، وابن مردويه (٢). وروى الإمام أحمد: عن أبى وائل، قال: قيل لأسامة - وأنا رديفه - ألا تكلم عثمان؟ فقال: إنكم تُروْنَ أنى لا أكلمه إلا أسمعكم. إنى لا أكلمه فيما بينى وبينه ما دون أن أفتح أمراً - لا أحب أن أكون أول من افتتحه، والله لا أقول لرجل: إنك خير الناس. وإن كان على أميراً - بعد أن سمعت رسول الله ﷺ يقول، قالوا: وما سمعته يقول؟ قال: سمعته يقول: «يُجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى فى النار، فتندلق به أقتابه، فيدور بها فى النار كما يدور الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار، فيقولون: يا فلان ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتية، وأنهاكم عن المنكر وآتية». ورواه البخارى ومسلم (٣).

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَطُتُونَ أَنْفُسَهُمْ مَلَقُوا رَبَّهُمْ وَأَنْتُمْ إِلَيْهِ رَجِعُونَ﴾ ﴿٤٦﴾

(١) هو جزء من حديث ذكره الهيثمى فى الزوائد (١/ ١٨٤، ١٨٥) وقال: «رواه الطبرانى فى الكبير، ورجاله موثقون»، ثم ذكره نحوه (٦/ ٢٣١، ٢٣٢) من رواية الطبرانى، من وجهين آخرين فيما مقال.

(٢) مسند أحمد (١٢٢٣٧) (٣/ ١٢٠) حلى (وينحوه رواه ابن حبان فى صحيحه، رقم (٥٢) بتحقيقنا، وفصلنا تخريجه هناك.

(٣) هو فى المسند (٥/ ٢٠٥ حلى).

يقول تعالى أمراً عبيده، فيما يؤملون من خير الدنيا والآخرة، بالاستعانة بالصبر والصلاة، كما قال مقاتل بن حيان في تفسير هذه الآية: استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض، والصلاة.

فأما الصبر ف قيل: إنه الصيام، نص عليه مجاهد ، وعن جرير بن كليب، عن رجل من بنى سليم، عن النبي ﷺ، قال: «الصوم نصف الصبر» (١).

وقيل : المراد بالصبر الكف عن المعاصي ؛ ولهذا قرنه بأداء العبادات وأعمالها : فعل الصلاة . وروى ابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : الصبر صبران : صبر عند المصيبة حسن، وأحسن منه الصبر عن محارم الله (٢).

وأما قوله: «وَالصَّلَاةُ»: فإن الصلاة من أكبر العون على الثبات فى الأمر، كما قال تعالى: «اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ» الآية [العنكبوت: ٤٥].

وروى أحمد عن حذيفة بن اليمان: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى. ورواه أبو داود ، وقد رواه ابن جرير بلفظ كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة (٣).

وروى محمد بن نصر المروزي فى كتاب الصلاة عن حذيفة قال: رجعت إلى النبي ﷺ، ليلة الأحزاب وهو مشتمل فى شملة يصلى، وكان إذا حزبه أمر صلى ، وعن على قال: لقد رأيتنا ليلة بدر وما فىنا إلا نائم غير رسول الله ﷺ يصلى ويدعو حتى أصبح (٤).

وروى ابن جرير: أن ابن عباس نعى إليه أخوه قثم وهو فى سفر، فاسترجع، ثم تنحى عن الطريق، فأنافخ فصلى ركعتين أطال فىهما الجلوس، ثم قام يمشى إلى راحلته وهو يقول: «وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ» (٥).

وقال سنيّد، عن حجاج، عن ابن جرير: «وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ» قال: إنهما معونتان على رحمة الله .

(١) لم يخرججه المؤلف الحافظ ، وقد رواه أحمد فى المسند (٤/ ١٠٠ ، ٣٦٣/ ٥ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ حلى) . ورواه الدارمى (١٦٧/ ١) والترمذى (٢٦٥/ ٤) وقال « حديث حسن » .

وجرى - بضم الجيم وفتح الراء وتشديد الياء - بن لبيب السدوسى البصرى : تابعى ثقة ، مترجم فى التهذيب ، والكبير للبخارى (١ / ٢ / ٢٤٢ ، ٢٤٣) .

(٢) رجاله ثقات ، ولكن فيه انقطاع بين إسحاق بن سليمان وأبى سنان ، وهو يزيد بن أمية الدؤلى ، أحد كبار التابعين .

(٣) الحديث باللقظين رواه الطبرى (٨٤٩ ، ٨٥٠) . وفصلنا تخريجه هناك . ورواية أحمد هى فى المسند (٣٨٨/ ٥ حلى) ، ورواية أبى داود هى فى السنن (١٣١٩) .

(٤) هذا الحديث والذي قبله ليسا فى مخطوطة الأزهر . وإسنادهما صحيح .

(٥) هو فى الطبرى (٨٥٢) وإسناده صحيح .

والضمير فى قوله: ﴿ وَإِنَّهَا ﴾ عائد إلى الصلاة، نص عليه مجاهد، واختاره ابن جرير. ويحتمل أن يكون عائدا على ما دل عليه الكلام، وهو الوصية بذلك، كقوله تعالى فى قصة قارون: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ [القصص: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥] أى: وما يلقى هذه الوصية إلا الذين صبروا ﴿ وَمَا يُلْقَاهَا ﴾ أى: يؤتاها ويلهما ﴿ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾.

وعلى كل تقدير، فقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ﴾ أى: مشقة ثقيلة ﴿ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ أى: الخاضعين لطاعته، الخائفين سَطَوَاتِهِ، المصدقين بوعده ووعيده. وهذا يشبه ما جاء فى الحديث: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه». وقال ابن جرير: معنى الآية: واستعينوا - أيها الأحبار من أهل الكتاب - بحبس أنفسكم على طاعة الله وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر، المقربة من مَرْضَاىِ اللَّهِ، العظيمة إقامتها إلا على المتواضعين لله المستكينين لطاعته، المتذللين من مخافته. هكذا قال، والظاهر أن الآية وإن كانت خطاباً فى سياق إنذار بنى إسرائيل - فإنهم لم يقصدوا بها على سبيل التخصيص، وإنما هى عامة لهم، ولغيرهم. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ : هذا من تمام الكلام الذى قبله، أى: وإن الصلاة أو الوصاة لثقيلة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم، أى: محشورون إليه يوم القيامة، معروضون عليه، وأنهم إليه راجعون، أى: أمورهم راجعة إلى مشيئته، يحكم فيها ما يشاء بعدله، فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سَهَّلَ عليهم فعل الطاعات وترك المنكرات. فاما قوله: ﴿ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ فقال ابن جرير: العرب قد تسمى اليقين ظناً، والشك ظناً، نظير تسميتهم الظلمة سُدْفَةً، والضياء سُدْفَةً، والمغيث صارخاً، والمستغيث صارخاً، وما أشبه ذلك من الأسماء التى يسمى بها الشيء وضده. قال: والشواهد من أشعار العرب وكلامها على أن الظن فى معنى اليقين، أكثر من أن تحصر، ومنه قول الله تعالى: ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾ [الكهف: ٥٣]. وروى ابن جرير عن مجاهد، قال: كل ظن فى القرآن يقين، أى: ظننت وظنوا. وروى عنه أيضاً قال: كل ظن فى القرآن فهو علم. وسنده صحيح.

وفى الصحيح: «أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ألم أزوجك، ألم أكرمك، ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأدرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى. فيقول الله تعالى: أظننت أنك ملاقى؟ فيقول: لا. فيقول الله: اليوم أنساك كما نسيتنى». وسيأتى مبسوطاً عند قوله: ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة: ٦٧] إن شاء الله تعالى (١).

(١) لم يذكر المؤلف الحافظ شيئاً من ذلك عند تلك الآية، والحديث جزء من حديث طويل فى صحيح مسلم (٣٨٦/٢) عن أبى هريرة، ورواه أحمد مختصراً (١٠٣٨٣) (١٠٢/٢) (٤٩٢/٢) حلى.

﴿ يٰٓبَنِي إِسْرَٰءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

يذكرهم تعالى سآلف نعمة على آبائهم وأسلافهم، وما كان فضلهم به من إرسال الرسل منهم وإنزال الكتب عليهم. وعلى سائر الأمم من أهل زمانهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاكُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠] قال أبو العالية، في قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ قال: بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان في ذلك الزمان؛ فإن لكل زمان عالماً. وروى عن مجاهد، وقتادة، نحو ذلك. ويجب الحمل على هذا؛ لأن هذه الأمة أفضل منهم، لقوله تعالى خطاباً لهذه الأمة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وفي المساند والسنن عن معاوية بن حيدة القشيري، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله» (١). والأحاديث في هذا كثيرة تذكر عند قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

لما ذكرهم تعالى بنعمه أولاً، عطف على ذلك التحذير من حلول نقمة بهم يوم القيامة فقال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أى: لا يغني أحد عن أحد كما قال: ﴿وَلَا تَوْرَ وَازِرَةٌ وَزَرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقال: ﴿لِكُلِّ أُمَرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يَغْنِيهِ﴾ [عيس: ٣٧]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٌ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣] فهذه أبلغ المقامات: أن كلا من الوالد وولده لا يغني أحدهما عن الآخر شيئاً، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ يعني عن الكافرين، كما قال: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وكما قال عن أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِنَ شَافِعِينَ. وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]، وقوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أى: لا يقبل منها فداء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةُ الْأَرْضِ ذَبْحًا وَلَوْ أَقْبَدُوا بِهِ﴾ [آل عمران: ٩١]. وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَن تَعْدَلَ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الأنعام: ٧٠]، وقال: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٥]؛ فأخبر تعالى أنهم إن لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعث به، ووافوا الله يوم القيامة على ما هم عليه، فإنه لا ينفعهم قرابة قريب ولا شفاعة ذى جاه، ولا يقبل منهم فداء، ولو

(١) رواه بنحوه الترمذى (٨٢/٤، ٨٣) والحاكم (٨٤/٤) والطبرى - وخرجناه مفصلاً هناك (٨٧٣، ٧٦٢١،

يملأ الأرض ذهباً، كما قال تعالى: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَّ يَوْمَ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقال: ﴿لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ [إبراهيم: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أى: ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله، كما تقدم من أنه لا يعطف عليهم ذو قرابة ولا ذو جاه ولا يقبل منهم فداء. هذا كله من جانب التلطف، ولا لهم ناصر من أنفسهم، ولا من غيرهم، كما قال: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠] أى: إنه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فدية ولا شفاعة، ولا ينقذ أحداً من عذابه منقذ، ولا يجيره منه أحد، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨]. وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وِثْقَةً أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦]، وقال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ . بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٥، ٢٦]، وقال: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ [الاحقاف: ٢٨]. قال ابن جرير: وتأويل قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يعنى: أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر، كما لا يشفع لهم شافع، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية. بطلت هنالك المحاباة واضمحلت الرشى والشفاعات، وارتفع من القوم التعاون والتناصر، وصار الحكم إلى عدل الجبار الذى لا ينفع لديه الشفعاء والنصرء، فيجزى بالسيئة مثلها وبالחסنة أضعافها وذلك نظير قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَهُمْ إِنَّهُمْ مُسْتَوْلُونَ . مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ . بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٤ - ٢٦] .

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ﴾ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى : واذكروا يا بنى إسرائيل نعمتى عليكم ﴿إِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أى : خلصتكم منهم وأنقذتكم من أيديهم صحبة موسى عليه السلام وقد كانوا يسومونكم، أى: يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم سوء العذاب. وذلك أن فرعون - لعنه الله - كان قد رأى رؤيا هالته، رأى ناراً خرجت من بيت المقدس فدخلت دور القبط ببلاد مصر، إلا بيوت بنى إسرائيل، مضمونها أن زوال ملكه يكون على يد رجل من بنى إسرائيل، ويقال: بل تحدث سماره عنده بأن بنى إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم، يكون لهم به دولة ورفعة، وهكذا جاء فى حديث الفتون، كما سيأتى فى موضعه فى سورة طه، إن شاء الله (١). فعند ذلك أمر فرعون - لعنه الله - بقتل

(١) حديث الفتون قصة طويلة فى شأن موسى وفرعون وبنى إسرائيل، رواه النسائي فى السنن الكبرى، والطبرى وابن أبى حاتم وساقه المؤلف الحافظ بطوله، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَفَسَّكَ قُتُونًا﴾ - فى الآية (٤٠) من سورة طه - ثم قال هناك: «وهو موقوف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه. وكأنه تلقاه ابن عباس مما أبيع نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره، والله أعلم، وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزى يقول ذلك أيضاً».

وقد أعرضت عن هذه القصة - فيما أعرضت عنه من الإسرائيليات فلا أثبتها هناك إن شاء الله ؛ لتحقيقى أنها من الإسرائيليات، على ما رسمت فى هذا الكتاب . والحافظ المؤلف - رحمه الله - أشار إليها فى مواضع من تفسيره، فلن أذكر شيئاً من إشاراته - إن شاء الله - إلا ما اضطررت إليه، وبالله التوفيق.

كل ذكر يولد بعد ذلك من بنى إسرائيل، وأن تترك البنات، وأمر باستعمال بنى إسرائيل فى مشاق الأعمال وأراذلها. وههنا فسر العذاب بذبح الأبناء، وفى سورة إبراهيم عطف عليه، كما قال: ﴿يَسْأَلُونَكَ سَاءَ الْعَذَابِ وَيَدَّبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦٦]، وسيأتى تفصيل ذلك فى أول سورة القصص، إن شاء الله تعالى، وبه الثقة والمعونة والتأييد. و « فرعون » علم على كل من ملك مصر ، كافرأ من العماليق وغيرهم ، كما أن « قيصر » علم على كل من ملك الروم مع الشام كافرأ، « كسرى » لكل من ملك الفرس، و« تبع » لمن ملك اليمن كافرأ .

وقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قال ابن جرير: وفى الذى فعلنا بكم من إنجائنا إياكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون، بلاء لكم من ربكم عظيم. أى: نعمة عظيمة عليكم فى ذلك. وأصل البلاء: الاختبار، وقد يكون بالخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَنَبِّئُوكُم بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال: ﴿وَنَبِّئُهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨]. قال ابن جرير: وأكثر ما يقال فى الشر: بلوته أبلوه بلاءً، وفى الخير: [أبليته] (١) أبلية إبلاء وبلاء، قال زهير بن أبى سلمى:

جَزَىَ اللَّهُ بِالْإِحْسَانِ مَا فَعَلَا بِكُمْ وَأَبْلَاهُمَا خَيْرَ الْبَلَاءِ الَّذِى يَبْلُو

قال: فجمع بين اللغتين؛ لأنه أراد: فأنعم الله عليهما خير النعم التى يَخْتَبِرُ بها عباده.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ معناه: وبعد أن أنقذناكم من آل فرعون، وخرجتم مع موسى ﷺ خَرَجَ فرعون فى طلبكم، وفرقنا بكم البحر، كما أخبر تعالى عن ذلك مفصلاً كما سيأتى فى مواضعه، ومن أبسطها فى سورة الشعراء. ﴿فَأَنجَيْنَاكُمْ﴾ أى: خلصناكم منهم، وحجزنا بينكم وبينهم، وأغرقناهم وأنتم تنظرون؛ ليكون ذلك أشقى لصدوركم، وأبلغ فى إهانة عدوكم. وقد ورد أن هذا اليوم كان يوم عاشوراء، كما روى أحمد عن ابن عباس، قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا اليوم الذى تصومون؟». قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نحبى الله عز وجل فيه بنى إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى، عليه السلام. فقال رسول الله ﷺ: «أنا أحق بموسى منكم». فصامه رسول الله ﷺ، وأمر بصومه.

ورواه البخارى، ومسلم، والنسائى، وابن ماجه (٢).

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣)

يقول تعالى: واذكروا نعمتى عليكم فى عفوى عنكم، لَمَّا عبدتم العجل بعد ذهاب موسى

(١) الزيادة من الطبرى، تمامًا للنص، وليصح بها المعنى.

(٢) هو فى المسند (٢٦٤٤) بتحقيقنا.

لميقات ربه، عند انقضاء أمد المواعدة، وكانت أربعين يوماً، وهى المذكورة فى الأعراف، فى قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾ [الأعراف: ١٤٢] قيل: إنها ذو القعدة بكامله وعشر من ذى الحجة، وكان ذلك بعد خلاصهم من قوم فرعون وإنجائهم من البحر.

وقوله: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعنى: التوراة ﴿وَالْفُرْقَانَ﴾: وهو ما يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. وكان ذلك - أيضاً - بعد خروجهم من البحر، كما دل عليه سياق الكلام فى سورة الأعراف. ولقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِآيَاتِنَا لِلنَّاسِ وَهْدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلَ فَتَوَبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

هذه صفةُ توبته تعالى على بنى إسرائيل من عبادة العجل، قال الحسن البصرى : ذلك حين وقع فى قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع حين قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ الآية [الأعراف: ١٤٩]. قال: فذلك حين يقول موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلَ فَتَوَبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾: أى إلى خالقكم . وفى قوله ههنا: ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ تنبيه على عظم جرمهم، أى: فتوبوا إلى الذى خلقكم وقد عبدتم معه غيره.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾

يقول تعالى: واذكروا نعمتى عليكم فى بعثى لكم بعد الصعق، إذ سألتهم رؤيتى جهرة عياناً، مما لا استطاع لكم ولا لأمثالكم. ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ نار. ﴿وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ﴾ فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. وقال الربيع بن أنس: كان موتهم عقوبة لهم، فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم. وكذا قال قتادة.

﴿وَوَهَبْنَا عَلَىٰكُمْ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿٥٧﴾

لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النقم، شرع يذكرهم - أيضاً - بما أسبغ عليهم من النعم، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا عَلَىٰكُمْ الْغَمَامَ﴾ وهو جمع غمامة، سمى بذلك لأنه يَغْمُ السماء، أى: يوارىها ويسترها. وهو السحاب الأبيض، ظلَّلُوا به فى التيه ليقبهم حر الشمس. كما رواه النسائى وغيره عن ابن عباس، قال: ثم ظلل عليهم فى التيه بالغمام. وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ﴾: اختلفت

عبارات المفسرين فى المن: ما هو؟ فقال ابن عباس: كان المن ينزل عليهم على الأشجار، فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاؤوا. وقال مجاهد: المن: صمغة. وقال عكرمة: المن: شئ أنزله الله عليهم مثل الطل، يشبه الرُّبَّ الغليظ. وقال الربيع بن أنس: المن شراب كان ينزل عليهم مثل العسل، فيمزجونه بالماء ثم يشربونه.

والغرض أن عبارات المفسرين متقاربة فى شرح المن، فمنهم من فسرهُ بالطعام، ومنهم من فسرهُ بالشراب والظاهر، والله أعلم، أنه كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك، مما ليس لهم فيه عمل ولا كد، فالمن المشهور إن أكل وحده كان طعاماً وحلاوة، وإن مزج مع الماء صار شراباً طيباً، وإن ركب مع غيره صار نوعاً آخر، ولكن ليس هو المراد من الآية وحده؛ والدليل على ذلك ما رواه البخارى عن سعيد بن زيد رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين». ورواه الإمام أحمد، والجماعة، إلا أبا داود، وقال الترمذى: حسن صحيح^(١). وروى الترمذى عن أبى هريرة، قلل: قال رسول الله ﷺ: «العجوة من الجنة، وفيها شفاء من السم، والكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين». تفرد بإخراجه الترمذى، ثم قال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه من حديث محمد بن عمرو، إلا من حديث سعيد بن عامر^(٢).

[ثم خرجه المؤلف من روايات الترمذى والنسائى وابن ماجه ، من طريق شهر بن حوشب عن أبى هريرة . وهو فى المسند من رواية شهر مراراً ، منها (٧٩٨٩ ، ٨٠٣٨) . ثم قال الحافظ ابن كثير: وهذه الطريق منقطعة بين شهر بن حوشب وأبى هريرة فإنه لم يسمعه^(٣) منه، بدليل ما رواه النسائى عن شهر بن حوشب ، عن عبد الرحمن بن غنم ، عن أبى هريرة ، قال: خرج رسول الله ﷺ وهم يذكرون الكمأة ، وبعضهم يقول: جدرى الأرض ، فقال: « الكمأة من المن ، وماؤها شفاء للعين »^(٤) . وروى عن شهر بن حوشب عن أبى سعيد وجابر ، كما روى أحمد ، عن شهر بن حوشب ، عن جابر بن عبد الله وأبى سعيد الخدرى ، قالوا: قال رسول الله ﷺ : « الكمأة من المن ، وماؤها شفاء للعين ، والعجوة من الجنة ، وهى شفاء من السم »^(٥) .

[ثم ذكر المؤلف الحافظ - هنا - روايات كثيرة لهذا الحديث ، مطولة ومختصرة، عند النسائى وابن ماجه وابن مردويه ، من رواية شهر بن حوشب عن أبى سعيد وجابر . ومن روايته عن ابن عباس . ومن روايات آخر ثم قال] : فقد اختلف - كما ترى - فيه على شهر بن

(١) رواه أحمد فى المسند مراراً ، منها (١٦٢٥ ، ١٦٢٦) .

(٢) هو فى الترمذى (١٦٩ / ٣ ، ١٧٠) وإسناده صحيح . و « سعيد بن عامر » ثقة مأمون ، كما قال ابن معين .

(٣) فى المطبوعة : « لم يسمع منه ! » وهو خطأ ، صححناه من المخطوطة الأزهرية . وأيضاً فإن شهر بن حوشب سمع من أبى هريرة كثيراً . وإنما يريد الحافظ ابن كثير : أنه لم يسمع منه هذا الحديث بعينه ، كما هو ظاهر .

(٤) وهذه الزاوية ثابتة أيضاً فى المسند (٨٢٩٠) . (٥) وهو فى المسند أيضاً (١١٤٧٣) .

حوشب، ويحتمل عندى أنه حفظه ورواه من هذه الطرق كلها، وقد سمعه من بعض الصحابة وبلغه عن بعضهم، فإن الأسانيد إليه جيدة، وهو لا يعتمد الكذب، وأصل الحديث محفوظ عن رسول الله ﷺ، كما تقدم من رواية سعيد بن زيد . وأما « السلوى » فقال ابن عباس: السلوى طائر شبيه بالسَّمَانِي، كانوا يأكلون منه ، كذا قال مجاهد والشعبي وغيرهما .

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾: أمر بإباحة وإرشاد وامتنان . وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]، أى: أمرناهم بالأكل مما رزقناهم وأن يعبدوا، كما قال: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [سبا: ١٥] فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم، هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات والمعجزات القاطعات ، وخوارق العادات ، ومن ههنا تتبين فضيلة أصحاب محمد صلوات الله وسلامه عليه ورضى عنهم، على سائر أصحاب الأنبياء فى صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم، كما كانوا معه فى أسفاره وغزواته، منها عام تبوك، فى ذلك القيظ والحر الشديد والجهد، لم يسألوا خرق عادة، ولا إيجاد أمر، مع أن ذلك كان سهلا على الرسول ﷺ، ولكن لما أجهدهم الجوع سألوه فى تكثير طعامهم فجمعوا ما معهم، فجاء قدر مبرك الشاة، فدعا فيه، وأمرهم فملؤوا كل وعاء معهم . وكذا لما احتاجوا إلى الماء سأل الله تعالى، فجاءت سحابة فأمطرتهم، فشربوا وسقوا الإبل، وملؤوا أسقيتهم . ثم نظروا فإذا هى لم تجاوز العسكر . فهذا هو الاكمل فى الاتباع: المشى مع قدر الله، مع متابعة الرسول ﷺ .

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

يقول تعالى لانما لهم على نكولهم عن الجهاد ودخول الأرض المقدسة - التى هى ميراث لهم عن أبيهم إسرائيل - وقاتل من فيها من العمالق الكفرة، فنكلوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا، فرماهم الله فى التيه عقوبة لهم، كما ذكره تعالى فى سورة المائدة؛ ولهذا كان أصح القولين أن هذه البلدة هى بيت المقدس ، كما نص على ذلك السدى، والربيع بن أنس ، وقتادة ، وغيرهم . وقد قال الله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا﴾ [الآيات [المائدة: ٢١- ٢٤] . وقال آخرون: هى أريحا ، وهذا بعيد؛ لأنها ليست على طريقهم، وهم قاصدون بيت المقدس لا أريحا ، والصحيح الأول؛ أنها بيت المقدس . ولهذا لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون، عليه السلام، وفتحها الله عليهم عشية جمعة، وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلا حتى أمكن الفتح . وأما أريحا فقريه ليست مقصودة لبني إسرائيل، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب - باب البلد - ﴿سُجَّدًا﴾ أى: شكراً لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر، وردّ بلدهم إليهم وإنقاذهم من التيه والضلال . قال العوفي فى تفسيره، عن ابن عباس أنه كان يقول فى قوله: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾: أى ركعاً . وروى

ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ قال : ركعا من باب صغير . ورواه الحاكم وابن أبى حاتم . وعن عبد الله بن مسعود : قيل لهم ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ فدخلوا مقنعي رؤوسهم ، أى : رافعى رؤوسهم خلاف ما أمروا .

وقوله : ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ : قال ابن عباس : مغفرة ، استغفروا . وقال الحسن وقتادة : أى احطط عنا خطايانا . ﴿تَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ : هذا جواب الأمر ، أى : إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات ، وضاعفنا لكم الحسنات . وحاصل الأمر : أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول ، وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها ، والشكر على النعمة عندها والمبادرة إلى ذلك من المحبوب لله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [سورة النصر] . فسر بعض الصحابة بكثرة الذكر والاستغفار عند الفتح والنصر ، وفسره ابن عباس بأنه نعى إلى رسول الله ﷺ أجله فيها ، وأقره على ذلك عمر ، ولا منافاة بين أن يكون قد أمر بذلك ، ونعى إليه روحه الكريمة أيضاً ، ولهذا كان عليه السلام يظهر عليه الخضوع جداً عند النصر ، كما روى أنه كان يوم الفتح - فتح مكة - داخلاً إليها من الثنية العليا ، وإنه الخاضع لربه حتى إن عثنونه ليمس مؤرك رَحله ، يشكر الله على ذلك .

وقوله تعالى : ﴿قَبِلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله لبنى إسرائيل : ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ فبدلوا ، ودخلوا الباب يزحفون على أستاههم ، فقالوا : حبة فى شعرة » . وهذا حديث صحيح ، رواه البخارى والترمذى وقال : حسن صحيح (١) . وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق [من الحديث] (٢) أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل ، فأمروا أن يدخلوا سجداً ، فدخلوا يزحفون على أستاههم من قبل أستاههم رافعى رؤوسهم ، وأمروا أن يقولوا : حطة ، أى : احطط عنا ذنوبنا ، فاستهزؤوا فقالوا : حنطة فى شعيرة ! وهذا فى غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة ؛ ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم ، وهو خروجهم عن طاعته ؛ ولهذا قال : ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رَجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ . قال ابن عباس : كل شئ فى كتاب الله من «الرجز» يعنى به العذاب . وقال أبو العالية : الرجز الغضب . وقال سعيد بن جبیر : هو الطاعون . وروى ابن أبى حاتم والنسائى : عن سعد بن مالك ، وأسامة بن زيد ، وخزيمة بن ثابت رضى الله عنهم قالوا : قال رسول الله ﷺ : «الطاعون رجز عذاب ، عُدْب به من كان قبلكم» . وأصل الحديث فى الصحيحين : « إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها » الحديث . وروى ابن جرير عن أسامة بن زيد عن رسول الله ﷺ ، قال : «إن هذا الوجع والسقم رجز عُدْب به بعض الأمم قبلكم» . وهذا الحديث أصله مخرَج فى الصحيحين (٣) .

(١) البخارى (٦ / ٣١٢ ، ٨ / ١٢٥ ، ٢٢٨ فتح) ، ورواه أحمد فى المسند بنحوه (٨٠٩٥ ، ٨٢١٣) .

(٢) الزيادة من المخطوطة الأزهرية .

(٣) الطبرى (١٠٣٦) والحديث رواه أحمد فى المسند بنحوه مطولاً (٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ حلى) .

﴿ وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

يقول تعالى: واذكروا نعمتى عليكم فى إجابتى لنبيكم موسى ﷺ حين استسقى لكم، وتيسرى لكم الماء، وإخراجه لكم من حَجَرٍ يُحْمَلُ معكم، وتفجيرى الماء لكم منه من ثنتى عشرة عيناً لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوها، فكلوا من المن والسلوى، واشربوا من هذا الماء الذى أنبعته لكم بلا سعى منكم ولا كد، واعبدوا الذى سخر لكم ذلك. ﴿ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾: ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها. وهذه القصة شبيهة بالقصة المذكورة فى سورة الأعراف، ولكن تلك مكية، فلذلك كان الإخبار عنهم بضمير الغائب؛ لأن الله تعالى يقص ذلك على رسوله ﷺ عما فعل بهم. وأما فى هذه السورة، وهى البقرة فإنها مدنية؛ فلهذا كان الخطاب فيها متوجهاً إليهم. وأخبر هناك بقوله: ﴿ فَأَنْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ [الأعراف: ١٦٠] وهو أول الانفجار، وأخبر ههنا بما آل إليه الحال آخرأ وهو الانفجار، فناسب ذكر هذا ههنا، وذاك هناك، والله أعلم.

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَسْمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا أَلَّا يَكُونُ الَّذِي هُوَ آذَنٌ بِالَّذِي هُوَ حَيْرٌ أَلِيطُوا بِمَضْرَإٍ فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ ﴾

يقول تعالى: واذكروا نعمتى عليكم فى إنزالى عليكم المن والسلوى، طعاماً طيباً نافعاً هيناً سهلاً، واذكروا دُبركم وضجركم مما رزقتم، وسؤالكم موسى استبدال ذلك بالأطعمة الدنية من البقول ونحوها مما سألتهم. وقال الحسن البصرى: فبطروا ذلك ولم يصبروا عليه، وذكروا عيشهم الذى كانوا فيه، وكانوا قوماً أهل أعداس وبصل وبقل وفوم، فقالوا: ﴿ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا ﴾ فالبقول والقثاء والعدس والبصل كلها معروفة. وأما « الفوم » فقد اختلف السلف فى معناه، فوقع فى قراءة ابن مسعود « وثومها » بالثاء، وكذلك فسره مجاهد والربيع بن أنس، وسعيد بن جبير، وقال ابن جرير: فإن كان ذلك صحيحاً، فإنه من الحروف المبجلة كقولهم: « وقعوا فى عاثور شر، وعافور شر، وأثافى وأثائى، ومغافير ومغاثير ». وأشباه ذلك مما تقلب الفاء ثاء والباء فاء لتقارب مخرجيهما، والله أعلم. وقال آخرون: الفوم الحنطة، وهو البر الذى يعمل منه الخبز.

وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: الفوم الحنطة بلسان بنى هاشم، قالوا: وفى اللغة القديمة: « فولنا »، يعنى اختبزوا (١). وقال البخارى: وقال بعضهم: الحبوب التى تؤكل

(١) هذه الجملة أثبتت فى الأصول قبل كلام ابن جرير فى تبادل الفاء والباء. وليس ذاك بموضع لها، فقد يضطرب القارئ فى معناها، وإنما موضعها الحق هنا، فتقلناها إليه.

كلها فوم.

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ فيه تقريع لهم وتوبيخ على ما سألوا من هذه الأطعمة الدنية مع ما هم فيه من العيش الرغيد، والطعام الهني الطيب النافع.

وقوله تعالى: ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ هكذا هو مُتَوْنٌ مصروف مكتوب بالآلف في المصاحف الأئمة العثمانية، وهو قراءة الجمهور بالصرف. قال ابن جرير: ولا أستجيز القراءة بغير ذلك؛ لإجماع المصاحف على ذلك. وقال ابن عباس: ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ مصرًا من الأمصار، رواه ابن أبي حاتم عنه. وقال ابن جرير: وقع في قراءة أبي بن كعب وابن مسعود: «اهبطوا مصر»، من غير إجراء، يعنى من غير صرف. ثم روى عن أبي العالية، والربيع بن أنس: أنهما فسرا ذلك بمصر فرعون. وقال ابن جرير: ويحتمل أن يكون المراد مصر فرعون على قراءة الإجراء أيضاً. ويكون ذلك من باب الاتباع لكتابة المصحف، كما في قوله تعالى: ﴿ قَوَائِمًا قَوَائِمًا ﴾ [الإنسان: ١٥، ١٦]. ثم توقف في المراد ما هو: أمصر فرعون أم (١) مصر من الأمصار؟

وهذا الذى قاله فيه نظر، والحق أن المراد مصر من الأمصار كما روى عن ابن عباس وغيره، والمعنى على ذلك؛ لأن موسى ﷺ يقول لهم: هذا الذى سألتكم ليس بأمر عزيز، بل هو كثير فى أى بلد دخلتموه وجدتموه، فليس يساوى - مع دناءته وكثرته فى الأمصار - أن أسأل الله فيه؛ ولهذا قال: ﴿ أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ﴾ أى: ما طلبتم، ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر والاضروورية فيه، لم يجابوا إليه، والله أعلم.

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾

يقول تعالى: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾ أى: وضعت عليهم والزموا بها شرعاً وقدراً، أى: لا يزالون مستذلين، من وجدهم استذلهم وأهانهم، وضرب عليهم الصغار، وهم مع ذلك فى أنفسهم أذلاء مستكينون. قال الحسن: أذلهم الله فلا منعة لهم، وجعلهم تحت أقدام المسلمين. ولقد أدركتهم هذه الآية وإن المجوس لتجيهم الجزية.

وقوله: ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ قال الضحاك: استحقوا الغضب من الله، وقال ابن جرير: يعنى بقوله: ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾: انصرفوا ورجعوا، ولا يقال: «باء» إلا موصولاً: إما بخير وإما بشر، يقال منه: باء فلان بذنبه يباء به بواءً وبواء. ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ ﴾ [المائدة: ٢٩] يعنى: تنصرف متحملهما وترجع بهما، قد صارا عليك دونى. فمعنى الكلام إذاً: فرجعوا منصرفين متحملين غضب الله، قد صار عليهم من الله غضب،

(١) فى المطبوع من «عمدة التفسير» «أو» وأثبتنا الأصح لغة. (البار).

ووجب عليهم من الله سخط .

وقوله : ﴿ ذَلِكْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ يقول تعالى : هذا الذى جازيناهم به - من الذلة والمسكنة ، وإحلال الغضب بهم - بسبب استكبارهم عن اتباع الحق ، وكفرهم بآيات الله ، وإهانتهم حملة الشرع - وهم الأنبياء وأتباعهم - فانتقصوهم حتى أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم ، فلا كفر أعظم من هذا : إنهم كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياء الحق ؛ ولهذا جلاء فى الحديث المتفق على صحته أن رسول الله ﷺ قال : «الكبر بطر الحق ، وغمط الناس» . وروى الإمام أحمد : عن ابن مسعود قال : كنت لا أحجب عن النجوى ، ولا عن كذا ولا عن كذا ، فأتيت رسول الله ﷺ وعنده مالك بن مرارة الرهاوى ، فأدركته من آخر حديثه ، وهو يقول : يا رسول الله ، قد قُسم لى من الجمال ما ترى ، فما أحب أن أحداً من الناس فضّلنى بشراكين فما فوقهما أفليس ذلك هو البغى ؟ فقال : «لا ، ليس ذلك من البغى» ولكن البغى من بطر - أو قال : سفه - الحق وغمط الناس ^(١) . يعنى : رد الحق وانتقاص الناس ، والازدراء بهم والتعاضم عليهم . ولهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبه من الكفر بآيات الله وقتل أنبيائهم ، أحل الله بهم بأسه الذى لا يرد ، وكساهم ذلاً فى الدنيا موصولاً بذل الآخرة جزاءً وفقاً . وروى الإمام أحمد أيضاً عن عبد الله - يعنى ابن مسعود - أن رسول الله ﷺ قال : «أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتل نبياً ، أو قتل نبياً ، وإمام ضلالة ، ومثل من الممثلين» ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكْ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ : وهذه علة أخرى فى مجازاتهم بما جوزوا به : أنهم كانوا يعصون ويعتدون ، فالعصيان : فعل المناهى ، والاعتداء : المجاوزة فى حد المأذون فيه أو المأمور به . والله أعلم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ مِّنَ ءَٰمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ﴿١١﴾

لما بين تعالى حال من خالف أوامره وارتكب زواجه ، وتعدى فى فعل ما لا إذن فيه وانتهك المحارم ، وما أحلّ بهم من النكال - نبه تعالى على أن من أحسن من الأمم السالفة وأطاع ، فإن له جزاء الحسنى ، وكذلك الأمر إلى قيام الساعة ؛ كل من اتبع الرسول النبى الامى فله السعادة الأبدية ، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه ، ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : ٦٢] وكما تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار فى قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَتَخَفُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٠] . وروى ابن أبى حاتم عن مجاهد ، قال : قال سلمان : سألت النبى ﷺ عن أهل دين كنت معهم - فذكر من صلاتهم وعبادتهم -

(١) هو فى المسند (٣٦٤٤ ، ٤٠٥٨) .

(٢) المسند (٣٨٦٨) . وانظر : الترغيب والترهيب (١٧٦/٣) ومجمع الزوائد (١٨١/١) والدر المنثور (٤/ ١٧٤) .

فنزلت: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ الآية (١).

قلت: وهذا لا ينافي ما روى عن ابن عباس: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ قال: فأنزل الله بعد ذلك: ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥] . فإن هذا الذى قاله ابن عباس إخبار عن أنه لا يقبل من أحد طريقة ولا عملاً، إلا ما كان موافقاً لشريعة محمد ﷺ بعد أن بعثه بما بعث به، فاما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول فى زمانه فهو على هدى وسبيل ونجاة، فاليهود أتباع موسى ﷺ الذين كانوا يتحاكمون إلى التوراة فى زمانهم.

و «التهود»: من اليهودية وهى المودة أو التهود وهو التوبة؛ لقول موسى ﷺ: ﴿ إِنَّا هُنَا إِنَّا إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦] أى: تبنا، فكأنهم سموا بذلك فى الأصل لتوبتهم ومودتهم فى بعضهم لبعض. فلما بعث عيسى ﷺ وجب على بنى إسرائيل اتباعه والانقياد له، فأصحابه وأهل دينه هم النصارى، وسموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم، وقد يقال لهم: «أنصار» أيضاً، كما قال عيسى ﷺ: ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٥٢] وقيل: إنهم إنما سموا بذلك من أجل أنهم نزلوا أرضاً يقال لها ناصرة . والنصارى: جمع نصران، كنشأوى جمع نشوان، وسكارى جمع سكران، ويقال للمرأة: نصرانة . فلما بعث الله محمداً ﷺ خاتماً للنبيين، ورسولاً إلى بنى آدم على الإطلاق، وجب عليهم تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانكفاف عما عنه زجر. وهؤلاء هم المؤمنون حقاً. وسميت أمة محمد ﷺ مؤمنين لكثرة إيمانهم وشدة إيقانهم، ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضيه والغيوب الآتية.

وأما «الصابئون» فقد اختلف فيهم؛ فقال مجاهد: الصابئون قوم بين المجوس واليهود والنصارى، ليس لهم دين. وروى عن عطاء وسعيد بن جبير نحو ذلك. وقال أبو العالية، والسدى، وإسحاق بن راهويه وغيرهم: الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور . وقال عبد الرحمن بن زيد: الصابئون أهل دين من الأديان، كانوا بجزيرة الموصل يقولون: لا إله إلا الله. وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي إلا قول: لا إله إلا الله، قال: ولم يؤمنوا برسول، فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي ﷺ وأصحابه: هؤلاء الصابئون، يشبهونهم بهم، يعنى فى قول: لا إله إلا الله. وأظهر الأقوال، والله أعلم، قول مجاهد ومتابعيه، وذهب بن منبه: أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين، وإنما هم قوم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتفونه؛ ولهذا كان المشركون ينزبون من أسلم بالصابئى، أى: إنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَآذَرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ﴿١٢﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِمَّا بَعْدَ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٣﴾

يقول تعالى مذكراً بنى إسرائيل ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له واتباع رسله، وأخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق رفع الجبل على رؤوسهم ليقروا بما عاهدوا عليه، ويأخذوه بقوة وحزم وهمة وامتنال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١] فالطور هو الجبل، كما فسر به فى الأعراف، ونص على ذلك ابن عباس ، وغير واحد، وهذا ظاهر . وقال الحسن فى قوله: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾: يعنى التوراة . وقوله: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أى: بطاعة، بعمل بما فيه. ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ يقول: اقرؤوا ما فى التوراة واعملوا به .

وقوله : ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ يقول تعالى: ثم بعد هذا الميثاق المؤكد العظيم توليتم عنه وانشيتم ونقضتموه ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أى: توبته عليكم وإرساله النبيين والمرسلين إليكم ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ بنقضكم ذلك الميثاق فى الدنيا والآخرة .

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٦﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ يا معشر اليهود، ما حلّ من البأس بأهل القرية التى عصت أمر الله وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره، إذ كان مشروعاً لهم، فتحيلوا على اصطیاد الحيتان فى يوم السبت، بما وضعوه لها من الشصوص والحبال والبرك قبل يوم السبت، فلما جاءت يوم السبت على عادتها فى الكثرة، نشبت بتلك الحبال والحيل، فلم تخلص منها يوماً ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت. فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة، وهى أشبه شئ بالأناسى فى الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة. فكَذلك أعمال هؤلاء وحيلهم لما كانت مشابهة للحق فى الظاهر ومخالفة له فى الباطن، كان جزاؤهم من جنس عملهم. وهذه القصة مبسطة فى سورة الأعراف ، حيث يقول تعالى : ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣] القصة بكمالها .

وقوله تعالى : ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قال مجاهد : مسخت قلوبهم، ولم يسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله ﴿كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥] . وهو وقول غريب خلاف الظاهر من السياق فى هذا المقام وفى غيره، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ الآية [المائدة: ٦٠] . وقوله: ﴿خَاسِئِينَ﴾ قال: يعنى أذلة صاغرين. [ثم نقل المؤلف الحافظ آثاراً عن بعض الصحابة والتابعين فى مسخ هؤلاء المعتدين على صورة القردة ، وفى تفصيل قصتهم . ثم قال : قلت: والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأثمة بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد، رحمه الله، من أن مسخهم إنما كان معنوياً لا صورياً بل الصحيح أنه معنوى صورى، والله أعلم .

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا﴾: قال بعضهم: الضمير في ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ عائد على القردة، وقيل: على الحيتان، وقيل: على العقوبة، وقيل: على القرية؛ حكاه ابن جرير. والصحيح أن الضمير عائد على القرية، أى: فجعل الله هذه القرية - والمراد أهلها - بسبب اعتدائهم فى سبهم ﴿نَكَالًا﴾ أى: عاقبتهم عقوبة، فجعلناهم عبرة كما قال تعالى عن فرعون: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [النارعات: ٢٥]، وقوله: ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أى من القرى. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْيِ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الاحقاف: ٢٧]، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا تَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ الآية [الرعد: ٤١] على أحد الأقوال، فالمراد لما بين يديها وما خلفها فى المكان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال ابن عباس: الذين من بعدهم إلى يوم القيامة. قلت: المراد بالموعظة ههنا الزاجر، أى: جعلنا ما أحللنا بهؤلاء من البأس والنكال فى مقابلة ما ارتكبه من محارم الله، وما تحيلوا به من الحيل، فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم، كما روى الإمام أبو عبد الله بن بطة عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تتركبوا ما ارتكب اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل». وإسناده إسناده جيد، وباقي رجاله مشهورون على شرط الصحيح. والله أعلم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنَتَّخِذُهَا هُزُوًا قَالِ أَعُودُ بِاللَّهِ أَن أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

يقول تعالى: واذكروا - يا بنى إسرائيل - نعمتى عليكم فى خرق العادة لكم فى شأن البقرة، وبيان القاتل من هو؟ بسببها وإحياء الله المقتول، ونصه على من قتله منهم. [ثم ذكر ابن كثير هنا روايات مطولة، فيها بسط القصة - قصة البقرة - لا تصل للرواية، وليست موضع الثقة، ثم قال:]

وهذه السياقات عن عبيدة وأبى العالية والسدى وغيرهم، فيها اختلاف [ما] (١)، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بنى إسرائيل وهى مما يجوز نقلها، ولكن لا نصدق ولا نكذب، فلهذا لا نعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا، والله أعلم.

﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَيْكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِىَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِصٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ (١٨) ﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَيْكَ يَبْنَ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوْثُهَا تَسْرُ النَّظِيرِينَ﴾ (١٩) ﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَيْكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِىَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ (٢٠) ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَةَ فِيهَا قَالُوا آلَتَنَ جَنَّتْ بِالْحَقِّ فَذَبْجُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٢١)

أخبر تعالى عن تعنت بنى إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم . ولهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيقاً الله عليهم ، ولو أنهم ذبحوا أى بقرة كانت لوقعت الموضع عنهم ، كما قال ابن عباس وعبيدة وغير واحد ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم ، فقالوا : ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ﴾ ما هذه البقرة ؟ وأى شئ صفتها ؟ وروى ابن جرير : عن ابن عباس ، قال : لو أخذوا أدنى بقرة اكتفوا بها ، ولكنهم شددوا فشدد [الله] (١) عليهم . وإسناده صحيح ، وقد رواه غير واحد عن ابن عباس . وقال ابن جريج : قال لى عطاء : لو أخذوا أدنى بقرة كفتهم . قال ابن جريج : قال رسول الله ﷺ : « إنما أمروا بأدنى بقرة ، ولكنهم لما شددوا [على أنفسهم] (٢) شدد الله عليهم ؛ وإيم الله لو أنهم لم يستثنوا ما بينت لهم آخر الأبد » (٣) .

﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ﴾ أى : لا كبيرة هَرمة ولا صغيرة لم يُلَقِّحْهَا (٤) الفحل ، كما قاله ابن عباس وأبو العالية وغيرهما . ﴿ صَفْرَاءُ ﴾ [أى لونها أصفر] (٥) وعن الحسن قال : سوداء شديدة السواد . وهذا غريب ، والصحيح الأول ، ولهذا أكد صفرتها بأنه ﴿ فَاقِعٌ لَوْنُهَا ﴾ : صافية اللون .

وقوله : ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾ أى : لكثرتها ، فميز لنا هذه البقرة وصفها وحلها لنا ﴿ وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ ﴾ إذا بينتها لنا ﴿ لَمُهْتَدُونَ ﴾ إليها . وعن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لولا أن بنى إسرائيل قالوا : ﴿ وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ لما أعطوا ، ولكن استثنوا » ورواه ابن أبى حاتم - واللفظ له - وابن مردويه . وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، وأحسن أحواله أن يكون من كلام أبى هريرة (٦) .

﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ ﴾ أى : إنها ليست مذللة بالحرثة ولا معدة للسقى فى السانية ، بل هى مكرمة حسناء (٧) صبيحة ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ صبيحة لا عيب فيها ﴿ لَا شِيَةَ فِيهَا ﴾ أى : ليس فيها لون غير لونها .

(١) لفظ الجلالة زيادة من الأزهرية . وهو ثابت أيضاً فى الطبرى (١٢٣٥) .

(٢) الزيادة من الأزهرية . وهى ثابتة فى الطبرى (١٢٤٢) .

(٣) هذا الحديث - المرفوع - مرسل لا تقوم به حجة . وسيأتى معناه بعد قليل ، مرفوعاً من حديث أبى هريرة .

(٤) فى المخطوطة والمطبوعة : « لم يلحقها » . وهو خطأ واضح ، لا معنى له .

(٥) هذه الجملة من كلامى ، مضمون ما ذكره الحافظ من الآثار .

(٦) فى إسناده « سرور بن المغيرة » ، عن عباد بن منصور . وسرور بن المغيرة بن زاذان تكلم فيه الأردى .

والصواب أنه ثقة . ذكره ابن حبان فى الثقات . وترجمه البخارى فى الكبير (٢١٧/٢) وابن أبى حاتم

(٣٢٥/١/٢) ، فلم يذكر فى جرحاً . وقد ذكر الهيثمى هذا الحديث بنحوه ، مختصراً ، فى مجمع الزوائد (٦/

٣١٤) وقال : « رواه البزار . وفيه عباد بن منصور ، وهو ضعيف ، وبقيت رجاله ثقات » . والحق أن عباد بن

منصور ثقة ، ولكنه تغير حفظه أخيراً . فلعله وهم فى رفعه . ويكون الراجح وقفه على أبى هريرة ، كما قال

ابن كثير هنا .

(٧) السانية - بالنون : الدلو العظيمة وأدواتها . وتطلق أيضاً على الدابة نفسها . وفى المطبوعة « الساقية » بالقاف . وفى

المطبوعة أيضاً « حسنة » بدل « حسناء » . والتصويب فيهما من الأزهرية .

﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ : قال قتادة : الْآنَ بَيَّنْتَ لَنَا ، ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ : قال ابن عباس : كادوا ألا يفعلوا ، ولم يكن ذلك الذى أرادوا ، لأنهم أرادوا ألا يذبحوها . يعنى أنهم مع هذا البيان ، وهذه الأسئلة ، والأجوبة ، والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد ، وفى هذا ذم لهم ، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعتت ، فلهذا ما كادوا يذبحونها . قال ابن جرير : وقال آخرون : لم يكادوا أن يفعلوا ذلك خوف الفضيحة ، إن أطلع الله على قاتل القاتل الذى اختصموا فيه . ولم يسنده عن أحد ، ثم اختار أن الصواب فى ذلك : أنهم لم يكادوا يفعلوا ذلك لغلاء ثمنها ، وللفضيحة . وفى هذا نظر ، بل الصواب - والله أعلم - ما تقدم ، عن ابن عباس ، على ما وجهناه . وبالله التوفيق .

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءُتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَآلِمَاتِكُمُ الْيُسُفَىٰ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

قال البخارى : ﴿فَادَّارَءُتُمْ فِيهَا﴾ : اختلفتم . وهكذا قال مجاهد . ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ : قال مجاهد : ما تُكْتُمُونَ . ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا﴾ : هذا البعض أى شئ كان من أعضاء هذه البقرة فالمعجزة حاصلة به . وخرق العادة به كائن ، وقد كان معنا فى نفس الأمر ، فلو كان فى تعيينه لنا فائدة تعود علينا فى أمر الدين أو الدنيا لبينه الله تعالى لنا ، ولكن أبهمه ، ولم يجرى من طريق صحيح عن معصوم بيانه ، فنحن نبهمه كما أبهمه الله .

وقوله : ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَآلِمَاتِكُمُ الْيُسُفَىٰ﴾ أى : فضر به فحشى . ونَبَّه تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر القاتل . جعل تبارك وتعالى ذلك الصنع حجة لهم على المعاد ، وفاصلا ما كان بينهم من الخصومة والعناد (١) . والله تعالى قد ذكر فى هذه السورة ما خلقه من إحياء الموتى ، فى خمسة مواضع : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة : ٥٦] . وهذه القصة ، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، وقصة الذى مرَّ على قرية وهى خاوية على عروشها ، وقصة إبراهيم والطير الأربعة . ويُنبَّه تعالى بإحياء الأرض بعد موتها على إعادة الأجسام بعد صيرورتها رميما ، كما روى أبو داود الطيالسى : عن أبى رزِّين العُقَيْلى ، قال : قلت : يا رسول الله ، كيف يحيى الله الموتى ؟ قال : «أما مررت بوادٍ مُّمَحَلٍّ ، ثم مررت به خَضْرَاءُ؟» قال : بلى . قال : «كذلك النشور» . أو قال : «كذلك يحيى الله الموتى» (٢) . وشاهد هذا قوله تعالى : ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَيًّا فَهُمْ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ . لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس : ٣٣ - ٣٥] .

(١) فى الأهرية : «والفساد» بدل «والعناد» .

(٢) مسند الطيالسى (١٠٨٩) . ورواه الإمام أحمد فى المسند بنحوه (١٦٢٦١ ، ١٦٢٦٢ ، ١٦٢٦٥) . و«رزين» :

يفتح الراء وكسر الزاى . وأبو رزِّين : هو لقيط بن صبرة ، صحابى معروف .

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْهَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [٧٤]

يقول تعالى توبيخاً لبنى إسرائيل، وتقريعاً لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى، وإحيائه الموتى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ كله ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ التي لا تلين أبداً. ولهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]. قال العوفي - فى تفسيره - عن ابن عباس: فصارت قلوب بنى إسرائيل مع طول الامد قاسية بعيدة عن الموعظة بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات فهى فى قسوتها كالحجارة التى لا علاج للينها أو أشد قسوة من الحجارة، فإن من الحجارة ما تتفجر منها العيون الجارية بالأنهار، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء، وإن لم يكن جارياً، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله، وفيه إدراك لذلك بحسبه، كما قال: ﴿تَسْبَحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

تنبيه: اختلف علماء العربية فى معنى قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ - بعد الإجماع على استحالة كونها للشك - فقال بعضهم: «أو» ههنا بمعنى الواو، تقديره: فهى كالحجارة وأشد قسوة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطْعَمُهُمْ أَلْمًا أَوْ كُفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]. وقال آخرون: «أو» ههنا بمعنى بل، فتقديره: فهى كالحجارة بل أشد قسوة، وكقوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧] ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧] ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٩].

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة القلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسى». رواه الترمذى فى كتاب الزهد من جامعه وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم^(١).

﴿ أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَنْحَرِفُونَ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [٧٥] وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا

(١) الترمذى (٢٨٩/٣). وإبراهيم - راويه - هو ابن عبد الله بن الحارث بن حاطب الجمحى . ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال : « مستقيم الحديث » . وترجمه البخارى فى الكبير (٢٩٨/١/١) ، (٢٩٩) ، وذكر أن بعض رواياته مراسيل . وما هذا بجرح فيه . وترجمه ابن أبى حاتم (١١٠/١/١) ولم يذكر فيه جرحا . فالحديث صحيح الإسناد .

وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذُوا لَهُمْ سُلُوكًا مِمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أُولَٰئِكَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾

يقول تعالى: ﴿أَتَنْظُمُونَ﴾ أيها المؤمنون أن يؤمن لكم أى: يتقاد لكم بالطاعة، هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود، الذين شاهد آباؤهم من الآيات البينات ما شاهدوه، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ أى: يتأولونه على غير تأويله ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقِلُوا﴾ أى: فهموه على الجلية ومع هذا يخالفونه على بصيرة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله؟ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقُضِيهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [البقرة: ١٣]. قال ابن زيد فى قوله: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ قال: التوراة التى أنزلها الله عليهم يحرفونها، يجعلون الحلال فيها حراماً، والحرام فيها حلالاً، والحق فيها باطلاً، والباطل فيها حقاً؛ إذا جاءهم المحق برشوة أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب، فهو فيه محق، وإذا جاءهم أحد يسألهم شيئاً ليس فيه حق، ولا رشوة، ولا شيء، أمروه بالحق، فقال الله لهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]. عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ أى أن صاحبكم رسول الله، ولكنه إليكم خاصة. ﴿وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا﴾ لا تحدثوا العرب بهذا، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم، فكان منهم. فأنزل الله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذُوا لَهُمْ سُلُوكًا مِمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ أى: تقرون بأنه نبي، وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه، وهو يخبرهم أنه النبي الذي كنا نتنظر، ونجد فى كتابنا. اجدوه ولا تقروا به. يقول الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ﴿٧٨﴾ قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَقَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾

يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ﴾ أى: ومن أهل الكتاب، قاله مجاهد: و«الأميون» جمع أمى، وهو الرجل الذى لا يحسن الكتابة، وهو ظاهر فى قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ أى: لا يدرون ما فيه. ولهذا فى صفات النبي ﷺ أنه أمى؛ لأنه لم يكن يحسن الكتابة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَقْلُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ بِمِمْبِكَ إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] وقال عليه الصلاة والسلام: «إنا أمة أمية، لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا» الحديث (١).

(١) رواه أحمد فى المسند مراراً، منها: (٥٠١٧، ٥١٣٧) من حديث ابن عمر. ورواه الشيخان أيضاً. انظر: الفتح (٤/ ١٠٨، ١٠٩) وصحيح مسلم (١/ ٢٩٨، ٢٩٩).

أى: لا نفتقر فى عبادتنا ومواقبتها إلى كتاب ولا حساب ، وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ [الجمعة: ٢] .

قوله تعالى: ﴿ إِنْ آمَنَ ﴾: قال ابن عباس: قولاً يقولونه بأفواههم كذباً. وقال مجاهد: إن الأميين الذين وصفهم الله أنهم لا يفقهون من الكتاب - الذى أنزل الله على موسى - شيئاً، ولكنهم يَتَخَرَّصُونَ الكذب ويتخرصون الأباطيل كذباً وزوراً. و « التمنى » فى هذا الموضع: هو تخلق الكذب وتخرصه. ومنه الخبر المروى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه: « ما تغنيت ولا تمثيت ». يعنى ما تخرصت الباطل ولا اختلقت الكذب. وقال ابن عباس: ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ أى: ولا يدرون ما فيه، وهم يجدون نبوتك بالظن.

وقوله: ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ الآية: هؤلاء صنف آخر من اليهود، وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله، وأكل أموال الناس بالباطل. و « الويل »: الهلاك والدمار، وهى كلمة مشهورة فى اللغة. وعن ابن عباس: ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ قال: هم أحبار اليهود.

وروى البخارى عن ابن عباس أنه قال: يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذى أنزل الله على نبيه، أحدث أخبار الله تقرؤونه محضاً لم يُشَبَّ؟ وقد حدَّثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً؛ أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مُسَاءَلَتِهِمْ؟ ولا والله ما رأينا منهم أحداً قط سألكم عن الذى أنزل إليكم ^(١). وقال الحسن البصرى: الثمن القليل: الدنيا بحذافيرها.

وقوله: ﴿ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ أى: فويل لهم عما كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان، والافتراء، وويل لهم عما أكلوا به من السحت.

﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ قُلُوبُكُمْ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم، من أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، ثم ينبون منها، فرد الله عليهم ذلك بقوله: ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا ﴾ أى: بذلك؟ فإن كان قد وقع فهو لا يُخْلَفُ عهده. ولكن هذا ما جرى ولا كان. ولهذا أتى بـ « أم » التى بمعنى: بل، أى: بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه.

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن أبى هريرة ، قال: لما فتحت خيبر أهديت لرسول

(١) رواه البخارى فى ثلاثة مواضع (٥/٢١٥، ١٣/٢٨٢، ٤١٤ فتح). وقد ذكرناه فى مقدمتنا لهذا الكتاب، عند الكلام على الإسرائيليات، ص ١٧.

الله ﷺ شاة فيها سُم، فقال رسول الله ﷺ: «اجمعوا لى من كان من اليهود ههنا» فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أبوكم؟» قالوا: فلان. قال: «كذبتم، بل أبوكم فلان». فقالوا: صدقت وبررت، ثم قال لهم: «هل أنتم صادقى عن شىء إن سألتكم عنه؟». قالوا: نعم، يا أبا القاسم، وإن كذبتناك عرفت كذبنا كما عرفته فى أبينا. فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أهل النار؟» فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها. فقال لهم رسول الله ﷺ: «اخشؤا، والله لا نخلفكم فيها أبداً». ثم قال لهم رسول الله ﷺ: «هل أنتم صادقى عن شىء إن سألتكم عنه؟». قالوا: نعم يا أبا القاسم. فقال: «هل جعلتم فى هذه الشاة سمّاً». فقالوا: نعم. فقال: «فما حملكم على ذلك؟». فقالوا: أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرّك. ورواه أحمد، والبخارى، والنسائى، بنحوه (١).

﴿ بَكَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾

يقول تعالى: ليس الأمر كما تمنيتم، ولا كما تشتهون، بل الأمر: أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته، وهو من وافى يوم القيامة وليس له حسنة، بل جميع عمله سيئات - فهذا من أهل النار، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ - من العمل الموافق للشرعة - فهم من أهل الجنة. وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا. وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤]. ويذكر ههنا الحديث الذى رواه الإمام أحمد: عن عبد الله بن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه». وإن رسول الله ﷺ ضرب لهنّ مثلاً، كمثّل قوم نزلوا بأرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجىء بالعود، والرجل يجىء بالعود، حتى جمعوا سواداً، وأججوا ناراً، فأنضجوا ما قذفوا فيها (٢).

وقال ابن عباس: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: أى: من آمن بما كفرتم، وعمل بما تركتم من دينه، فلهم الجنة خالدين فيها. يخبرهم أن الثواب بالخير والشرّ مقيم على أهله أبداً، لا انقطاع له.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَيَا وَلَدَيْنَا إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ (٨٢)

يُذَكِّرُ تَبَارَكَ وتعالى بنى إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر، وأخذ ميثاقهم على ذلك، وأنهم تولوا عن ذلك كله، وأعرضوا قصداً وعمداً، وهم يعرفونه ويذكرونه، فأمرهم تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . وبهذا أمر جميع خلقه، ولذلك خلقهم كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها، وهو حق الله تعالى، أن يعبد وحده لا شريك له، ثم بعده حق المخلوقين، وأكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين، ولهذا يقرن الله تعالى بين حقه وحق الوالدين، كما قال تعالى : ﴿ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ [الزمن: ١٤] وقال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ الآية - إلى أن قال : ﴿ وَآتَٰ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٦] . وفى الصحيحين، عن ابن مسعود، قلت: يا رسول الله، أى العمل أفضل؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلت: ثم أى؟ قال: «بر الوالدين». قلت: ثم أى؟ قال: «الجهاد فى سبيل الله». ولهذا جاء فى الحديث الصحيح: أن رجلاً قال: يا رسول الله، من أبر؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أباك. ثم أدناك ثم أدناك» .

قال : ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ وهم الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء . ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ : الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهلهم، وسيأتى الكلام على هذه الأصناف عند آية النساء، التى أمرنا الله تعالى بها صريحاً فى قوله : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الآية [النساء: ٣٦] .

وقوله تعالى : ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أى: كلموهم طيباً، وليتوا لهم جانباً، ويدخل فى ذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالمعروف، كما قال الحسن البصرى فالحسن من القول: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحلم، ويعفو، ويصفح، ويقول للناس حسناً كما قال الله، وهو كل خلق حسن رضىه الله . وروى الإمام أحمد: عن أبى ذر، عن النبى ﷺ أنه قال: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، وإن لم تجدْ فالقَ أخاك بوجه منطلق» . وأخرجه مسلم، والترمذى وصححه .

وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حسناً، بعد ما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل، فجمع بين طرفى الإحسان: الفعلى والقولى. ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمُعِين من ذلك، وهو الصلاة والزكاة، فقال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله، أى: تركوه وراء ظهورهم، وأعرضوا عنه على عمد بعد العلم به، إلا القليل منهم، وقد أمر تعالى هذه الأمة بنظير ذلك فى سورة النساء، بقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجَنْبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦] فقامت هذه الأمة من ذلك بما لم تقم به أمة من الأمم قبلها، والله الحمد والمنة.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِلَهِمْ وَالْعُدُوانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تَقْتُلُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٨٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (٨٦)

يقول، تبارك وتعالى، منكراً على اليهود الذين كانوا فى زمان رسول الله ﷺ بالمدينة، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج ، وذلك أن الأوس والخزرج - وهم الأنصار - كانوا فى الجاهلية عباد أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير حلفاء الخزرج، وبنو قريظة حلفاء الأوس. فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهودى أعداءه، وقد يقتل اليهودى الآخر من الفريق الآخر، وذلك حرام عليهم فى دينهم ونص كتابه. ويخرجونهم من بيوتهم وينهبون ما فيها من الاثاث والامتنعة والاموال، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكوا الأسارى من الفريق المغلوب، عملاً بحكم التوراة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ أَفْتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ أى : لا يقتل بعضكم بعضاً، ولا يخرج من منزله، ولا يظهر عليهم، كما قال تعالى: ﴿ قُتِبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ ﴾ [البقرة: ٥٤] وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» (١).

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ أى: ثم أقررتكم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به. ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِلَهِمْ وَالْعُدُوانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تَقَاتِلُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾ : والذى أرشدت إليه الآية الكريمة ، ذم اليهود فى قيامهم بأمر التوراة التى يعتقدون صحتها، ومخالفة شرعها، مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة (٢) ، فلهذا لا يؤمنون على ما فيها ولا على نقلها، ولا يصدقون فيما

(١) رواه أحمد فى المسند بنحوه (٤ / ٢٧٠ حلى) ، وكذلك رواه مسلم (٢/ ٢٨٤) والبخارى بنحوه (١٠ / ٣٦٧ فتح) ، وذكره الطبرى فى تفسيره (١٤٦٣) معلقاً بغير إسناد.

(٢) وما يملأ النفس ألماً وحزناً أن صار أكثر الأمم التى تنسب للإسلام إلى هذا الوصف المكروه ، ووقعوا فى مثل هذا الذى ذم الله اليهود من أجله ، وجعل جزاء من يفعله خزيًا فى الحياة الدنيا وردا فى الآخرة إلى أشد العذاب. فترى أكثر الأمم المنتسبة للإسلام يعتقدون صحة القرآن ويشهدون بذلك ويعرفونه ، ويزعمون القيام بأمره - ثم هم يخالفونه فى التشريع فى شؤونهم المالية والجناثية والخلقية ، ولا يستحون أن يعلنوا أن تشريعه =

يكتُمونه من صفة رسول الله ﷺ ونعته، ومبعثه ومخرجه، ومهاجره، وغير ذلك من شؤونه، التي قد أخبرت بها الأنبياء قبله. واليهود عليهم لعائن الله يتكاثرون بينهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [أى: بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره] ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ جزاء على ما كتّموه من كتاب الله الذي بأيديهم ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (١). أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة [أى: استحبوها على الآخرة] (٢) واختاروها ﴿فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ [أى: لا يفتّر عنهم ساعة واحدة] ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [أى: وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدي، ولا يجيرهم منه].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (٨٧)

ينعت، تبارك وتعالى، بنى إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة، والاستكبار على الأنبياء، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم، فذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب - وهو التوراة - فحرفوها وبدلوها، وخالفوا أوامرها وأولوها. وأرسل الرسل والنبیین من بعده الذين يحكمون بشريعته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ الآية [المائدة: ٤٤]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ قال السدي، عن أبي مالك: أتبعنا. وقال غيره: أردفنا. والكل قريب، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ [المؤمنون: ٤٤] حتى ختم أنبياء بنى إسرائيل بعيسى ابن مريم، فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام، ولهذا أعطاه الله من البينات، وهى: المعجزات. ما يدلهم به على صدقه فيما جاءهم به. فاشتد تكذيب بنى إسرائيل له وحسدّهم وعنادهم لمخالفة التوراة فى البعض، كما قال تعالى إخباراً عن عيسى: ﴿وَلَأَحْلِلْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ٥٠]. فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء عليهم السلام أسوأ المعاملة، ففريقاً يكذبونه، وفريقاً يقتلونه، وما ذاك إلا لأنهم كانوا يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم ويلزمهم بأحكام التوراة التي قد تصرفوا فى مخالفتها، ولهذا كان يشق ذلك عليهم، فيكذبونهم، وربما قتلوا بعضهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى

= وتشريع رسول الله فى سنته لا يوافق هذا العصر ! ويجعلون من حقهم أن يشرعوا ما شاؤوا ، وافق الكتاب والسنة أم خالفه ! ويصطنعون قوانين أوربة الوثنية الملحدة، ويشربونها فى قلوبهم . يزعمونها أهدى وأنفع للناس مما أنزل إليهم من ربهم . ولا يتعظون بما أنذرهم به ربهم من المثل بالأمم قبلهم .

(١) قراءة حفص - المعروفة والتي فى أيدي الناس فى المصاحف : « تعملون » بالتاء، ولكن سياق الكلام يدل على أن الحافظ ابن كثير يقرؤها هنا بالياء ، وهى قراءة نافع وابن كثير وغيرهما من القراء العشر . وهى ثابتة بالياء فى المخطوطة الأزهرية . وانظر : النشر لابن الجزرى (٢/٢١١).

(٢) الزيادة من الأزهرية .

أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٨﴾

وروح القدس هو جبريل ، كما نص عليه ابن مسعود فى تفسير هذه الآية ، وتابعه على ذلك ابن عباس وغيره مع قوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤] وعن عائشة : إن رسول الله ﷺ وضع لحيان بن ثابت منبراً فى المسجد ، فكان ينافح عن رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله : « اللهم أيد حسان بروح القدس كما نافح عن نبيك » رواه البخارى تعليقا ، ورواه أبو داود والترمذى [موصولا] وقال الترمذى : حسن صحيح . وعن أبى هريرة : أن عمر بن الخطاب مر بحسان ، وهو ينشد الشعر فى المسجد ، فلحظ إليه ، فقال : قد كنت أنشد فيه ، وفيه من هو خير منك . ثم التفت إلى أبى هريرة ، فقال : أنشدك الله أسمعت رسول الله ﷺ يقول : أجب عني ، اللهم أيد بروح القدس ؟ . فقال : اللهم نعم . وفى بعض الروايات : أن رسول الله ﷺ قال لحسان : « اهجهم - أو : هاجهم - وجبريل معك » .

[ثم ذكر ابن كثير أقوالا أخر فى معنى « روح القدس » لا تقوم لها قائمة . ثم قال : قال ابن جرير : وأولى التأويلات فى ذلك بالصواب قول من قال : الروح فى هذا الموضع جبريل ، لأن الله ، عز وجل ، أخبر أنه أيد عيسى به ، كما أخبر فى قوله : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِكِ إِذْ أَيْدَتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ الآية [المائدة : ١١٠] . فذكر أنه أيد به ، فلو كان الروح الذى أيد به هو الإنجيل ، لكان قوله : ﴿ إِذْ أَيْدَتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ تكرير قول لا معنى له ، والله أعز أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به . قلت : ومن الدليل على أنه جبريل : ما تقدم فى أول السياق ؛ والله الحمد .

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

عن ابن عباس : ﴿ غُلْفٌ ﴾ أى : فى أكنة . وقال السدى : يقولون : عليها غلاف ، وهو الغطاء . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ غُلْفٌ ﴾ قال : يقول : قلبى فى غلاف فلا يخلص إليه ما تقول ، وقرأ : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ . وهذا هو الذى رجحه ابن جرير ، واستشهد بما روى ، عن حذيفة ، قال : القلوب أربعة . فذكر منها : وقلب أغلف مغضوب عليه ، وذاك قلب الكافر (١) . وعن ابن عباس قال : يقولون : قلوبنا غلف مملوءة ، لا نحتاج إلى علم محمد ، ولا غيره . وعلى هذا المعنى جاءت قراءة بعض الأنصار ، فيما حكاه ابن جرير : « وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ » بضم اللام ، أى : جمع غلاف ، أى : أوعية ، بمعنى أنهم ادعوا أن قلوبهم مملوءة بعلم لا يحتاجون معه إلى علم آخر . كما كانوا يمتنون بعلم التوراة . ولهذا قال تعالى : ﴿ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، أى : ليس الأمر كما ادعوا بل قلوبهم ملعونة مطبوع عليها ،

(١) رواه الطبرى موقوفا على حذيفة هكذا . وفى إسناده انقطاع ، وقد جاء معناه مرفوعا متصلا من حديث أبى سعيد الخدرى . رواه أحمد فى المسند (١١١٤٦) بإسناد صحيح . وقد فصلنا تخريجه فى الطبرى (١٤٩٧) .

كما قال في سورة النساء: ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٥٥] .

وقد اختلفوا في معنى قوله: ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ وقوله: ﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، فقال بعضهم: فقليل من يؤمن منهم . وقيل: فقليل إيمانهم . بمعنى أنهم يؤمنون بما جاءهم به موسى من أمر المعاد والثواب والعقاب ، ولكنه إيمان لا ينفعهم ؛ لأنه مغمور بما كفروا به من الذي جاءهم به محمد ﷺ . وقال بعضهم: إنهم كانوا غير مؤمنين بشيء ، وإنما قال: ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ وهم بالجميع كافرون ، كما تقول العرب: قلما رأيت مثل هذا قط . تريد: ما رأيت مثل هذا قط . حكاه ابن جرير ، والله أعلم .

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٨٩)

يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ يعني اليهود ﴿ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ وهو: القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ ﴿ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ﴾ يعني: من التوراة ، وقوله: ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى: وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم ، يقولون: إنه سيبيح نبي في آخر الزمان تقتلكم معه قتل عاد وإرم . وروى محمد بن إسحاق: عن ابن عباس: أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه . فلما بعثه الله من العرب كفروا به ، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه . فقال لهم معاذ بن جبل ، وبشر بن البراء بن معرور ، وداد بن سلمة: يا معشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك ، وتخبروننا بأنه مبعوث ، وتصفونه لنا بصفته . فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذي كنا نذكر لكم ، فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ﴾ الآية (١) .

﴿ يَسْمَا أَشْرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (٩٠)

(١) نقله الحافظ ابن حجر في الإصابة (١٦١ / ٢) في ترجمة « داود بن سلمة » - عن تفسير ابن أبي حاتم من طريق ابن إسحاق . ثم قال : « كذا رأيت في نسخة [يعني من تفسير ابن أبي حاتم] . ووقع في نسخة أخرى : فقال لهم معاذ وبشر بن البراء أخو بني سلمة . كذا ذكره الطبري من هذا الوجه ، فلعل الأول تصحيف » . ورواية الطبري هي في التفسير برقم (١٥٢٠) وليس فيها « وداد بن سلمة » ، بل فيها - كما قال ابن حجر: « أخو بني سلمة » . وكذلك هو في سيرة ابن هشام (٣٧٨ ، ٣٧٩ طبعة أوربة) عن ابن إسحاق . فترجع جداً أن ذكر « داود بن سلمة » خطأ من بعض الناسخين . وظهر أن ابن كثير نقل الحديث من نسخة من ابن أبي حاتم وقع فيها الغلط ، كالتى رآها بعده ابن حجر .

قال السدى: ﴿ بِسَمًا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ﴾ يقول: باعوا به أنفسهم، يعنى: بش ما اعتاضوا لأنفسهم ورضوا به وعدلوا إليه . وإنما حملهم على ذلك البغى والحسد والكراهية لـ ﴿ أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ ولا حسد أعظم من هذا. ﴿ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ ﴾ قال ابن عباس: فالغضب على الغضب: فغضبه عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وهى معهم، وغضب بكفرهم بهذا النبى الذى أحدث الله إليهم (١). قلت: ومعنى ﴿ بَاءُوا ﴾: استوجبوا، واستحقوا، واستقروا بغضب على غضب.

وقوله: ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾: لما كان كفرهم سببه البغى والحسد، ومنشأ ذلك التكبر - قبولوا بالإهانة والصغار فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠]. وقد روى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبى ﷺ قال: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر فى صور الناس، يعلوهم كل شئ من الصغار، حتى يدخلوا سجنًا فى جهنم، يقال له: بولس فتعلموهم نار الأنيار يسقون من طينة الخبال: عصارة أهل النار» (٢).

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَكَفَرُوا بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١١) ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (١٢)

ربع

يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ أى: لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب ﴿ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ أى: على محمد ﷺ ، صدقوه واتبعوه ﴿ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا ﴾ أى: يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة والإنجيل ولا نفر إلا بذلك، ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ﴾ يعنى: بما بعده ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ﴾ أى: وهم يعلمون أن ما أنزل على محمد ﷺ الحق ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ منصوب على الحال، أى: فى حال تصديقه لما معهم من التوراة والإنجيل، فالحجة قائمة عليهم بذلك، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٦] .

قال تعالى: ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى: إن كنتم صادقين فى دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم، فلم تقتلتم الأنبياء الذين جاؤوكم بتصديق التوراة التى بأيديكم والحكم بها وعدم نسخها، وأنتم تعلمون صدقهم؟ قتلتموهم بغياً وعناداً واستكباراً على رسل الله، فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء والآراء والتشهى، كما قال تعالى: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧] . وقال أبو جعفر بن جرير:

(١) خبر ابن عباس هذا محرف فى المطبوعة . وصححه من المخطوطة الأزهرية ، وهى موافقة للنص فى تفسير الطبرى (١٥٤٦).

(٢) المسند (٦٦٧٧) . وإسناده صحيح . وقد خرجناه وشرحناه هناك . و « بولس » : بضم الباء وفتح اللام وآخره سين . كما ضبطه المنذرى فى الترغيب (١٨/٤ ، ١٩) .

قل يا محمد ليهود بنى إسرائيل - [الذين] (١) إذا قلت لهم: آمنوا بما أنزل الله قالوا: ﴿ تُوْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ - : لم تقتلون - إن كنتم يا معشر اليهود مؤمنين بما أنزل الله عليكم - أنبياءه (٢)، وقد حرم الله فى الكتاب الذى أنزل عليكم قتلهم، بل أمركم فيه باتباعهم وطاعتهم وتصديقهم، وذلك من الله تكذيب لهم فى قولهم: ﴿ تُوْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ ، وتعير لهم .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى : بالآيات الواضحات والدلائل القاطعة على أنه رسول الله، وأنه لا إله إلا الله . والبيّنات هى : الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والعصا، واليد، وفلق البحر، وتظليلهم بالغمام، والمن والسلوى، والحجر، وغير ذلك من الآيات التى شاهدها ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ ﴾ أى : معبوداً من دون الله فى زمان موسى وآياته . وقوله : ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى : من بعد ما ذهب عنكم إلى الطور لمناجاة الله كما قال تعالى : ﴿ وَأَتَّخِذُ قَوْمَ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلْقِهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٍ ﴾ [الاعراف: ١٤٨] ، ﴿ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ فى هذا الصنيع الذى صنعتموه من عبادتكم العجل، وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا إِنَّ لِمَنْ يَرْحَمُنَا رَبَّنَا وَیَغْفِرُ لَنَا لَنَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الاعراف: ١٤٩] .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٢)

يعدد ، تبارك وتعالى، عليهم خطاهم ومخالفتهم للميثاق وعتوهم وإعراضهم عنه، حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه ثم خالفوه ؛ ولهذا [قال] (٣): ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ . وقد تقدم تفسير ذلك . ﴿ وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ قال قتادة : ﴿ بِكُفْرِهِمْ ﴾ أشربوا حبه ، حتى خلس ذلك إلى قلوبهم . وروى أحمد : عن أبى الدرداء، عن النبى ﷺ قال : « حُبُّ الشَّيْءِ يُعْمَى وَيُصَمُّ » . ورواه أبو داود (٤) .

وقوله : ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى : بئسما تعتمدونه فى قديم الدهر وحديثه، من كفركم بآيات الله ومخالفتكم الأنبياء، ثم اعتمادكم فى كفركم بمحمد ﷺ . وهذا أكبر ذنوبكم، وأشد الأمور عليكم ، إذ كفرتم بخاتم الرسل وسيد الأنبياء والمرسلين المبعوث إلى الناس أجمعين، فكيف تدعون لأنفسكم الإيمان وقد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة، من نفضكم الموائيق، وكفركم بآيات الله، وعبادتكم العجل من دون الله !؟

(١) الزيادة ضرورية ، من الطبرى (٢/ ٣٥٠) طبعنا .

(٢) من قوله : « يا معشر اليهود » إلى هنا - محرف جدا فى المطبوعة . وثبت فى الأزهرية على الصواب الموافق لنص الطبرى .

(٣) الزيادة من الأزهرية .

(٤) المسند (٥/ ١٩٤ ، ٦ / ٤٥٠ حلى) وأبو داود (٥١٣٠) .

﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ ﴾
 إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ
 ﴿٩٥﴾ وَلَنَجْذِثُنَّ أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوْمَئِذٍ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ
 سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَحَّزٍ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

عن ابن عباس : أى : ادعوا بالموت على أى الفريقين أكذب . فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ أى : بعلمهم بما عندهم من العلم بك ، والكفر بذلك ، ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقى على الأرض يهودى إلا مات . رواه الطبرى من طريق ابن إسحاق . وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال : لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه . وهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس . وروى ابن جرير عن ابن عباس ، أن النبى ﷺ قال : « لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ، ولرأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ، ولا مالا » . ورواه الإمام أحمد (١) . وهذا الذى فسر به ابن عباس الآية هو المتعين ، وهو الدعاء على أى الفريقين أكذب : منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة ، ونقله ابن جرير عن قتادة ، وأبى العالية ، والربيع بن أنس .

ونظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة الجمعة : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . قُلْ إِنْ الْمَوْتُ الَّذِي تُقِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَلَأَكُمْ ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجمعة: ٦- ٨] فهم - عليهم لعائن الله - لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وقالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ، دعوا إلى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم ، أو من المسلمين . فلما نكلوا عن ذلك علم كل أحد أنهم ظالمون ؛ لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك ، فلما تأخروا علم كذبهم . وهذا كما دعا رسول الله ﷺ ، وقد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم فى المناظرة ، وعتوهم وعنادهم إلى المباهلة ، فقال تعالى : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ٦١] فلما رأوا ذلك قال بعض القوم لبعض : والله لئن باهلتهم هذا النبى لا يبقى منكم عين تطرف . فعند ذلك جنحوا إلى السلم وبذل الجزية عن يد وهم صاغرون ، فضرى بها عليهم . وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح أميناً . ومثل هذا المعنى أو قريب منه قوله تعالى لنبيه ﷺ أن يقول للمشركين : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ [مريم: ٧٥] ، أى : من كان فى الضلالة منا أو منكم ، فزاده الله عما هو فيه ومد له ، واستدرجه ، كما سيأتى تقريره فى موضعه ، إن شاء الله (٢) .

(١) هو فى السند (٢٢٢٥ ، ٢٢٢٦) والطبرى (١٥٦٦) .

(٢) انظر : تفسير الآية (٦١) من سورة آل عمران ، والآية (٧٥) من سورة مريم .

وأما من فسر الآية على معنى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: فى دعواكم، فتمنوا الآن الموت. ولم يتعرض هؤلاء للمباهلة كما قرره طائفة من المتكلمين وغيرهم، ومال إليه ابن جرير - فهذا فيه نظر ؛ وذلك : أنه لا تظهر الحجة عليهم على هذا التأويل، إذ يقال: لا يلزم من كونهم يعتقدون أنهم صادقون فى دعواهم أنهم يتمنون الموت فإنه لا ملازمة بين وجود الصلاح وتمنى الموت، وكم من صالح لا يتمنى الموت، بل يود أن يعمر ليزداد خيراً وترتفع درجته فى الجنة ، كما جاء فى الحديث : « خيركم من طال عمره وحسن عمله »^(١) . ولهم مع ذلك أن يقولوا على هذا : فما أنتم تعتقدون - أيها المسلمون - أنكم أصحاب الجنة، وأنتم لا تتمنون فى حال الصحة الموت؛ فكيف تلزموننا بما لا نلزمكم ؟ وهذا كله إنما نشأ من تفسير الآية على هذا المعنى ، فأما على تفسير ابن عباس فلا يلزم عليه شئ من ذلك، بل قيل لهم كلام نصّف: إن كنتم تعتقدون أنكم أولياء الله من دون الناس، وأنكم أبناء الله وأحبّاءه، وأنكم أهل الجنة ومن عداكم من أهل النار، فباهلوا على ذلك وادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم، واعلموا أن المباهلة تستأصل الكاذب لا محالة. فلما تيقنوا ذلك وعرفوا صدقه نكلوا عن المباهلة لما يعلمون من كذبهم وافتراءهم وكتمانهم الحق من صفة الرسول ﷺ ونعته، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويتحققونه. فعلم كل أحد باطلهم، وخزيهم، وضلالهم وعنادهم - عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَمُنُّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ﴾ أى : على طول عمر، لما يعلمون من مآلهم السيئ وعاقبتهم عند الله الخاسرة؛ لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم. وما يحذرون واقع بهم لا محالة، حتى وهم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم. وهذا من باب عطف الخاص على العام. روى ابن أبى حاتم: عن ابن عباس: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ قال: الأعاجم. وكذا رواه الحاكم ، وقال: صحيح على شرطهما، ولم يخرجاه. قال : وقد اتفقا على سند تفسير الصحابي^(٢). وقال مجاهد : ﴿يُودُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعْمَرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: حبيت إليهم الخطيئة طول العمر. وعن ابن عباس: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعْمَرَ﴾ أى: ما هو بمنحيه من العذاب. وذلك أن المشرك لا يرجو بعثاً بعد الموت، فهو يحب طول الحياة وأن اليهودى قد عرف ما له فى الآخرة من الخزي بما صنع بما عنده من العلم^(٣). ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أى : خبير بصير بما يعمل عباده من خير وشر، وسيجازى كل عامل بعمله.

(١) انظر : شرح الترمذى (٢٦٤/٣).

(٢) يعنى : على أنه فى حكم المسند الرفوع . وهو فى المستدرک (٢٦٣/٢) .

(٣) هذا القول عن ابن عباس ، رواه الطبرى مفرقا (١٦٠٠ ، ١٥٩٠) .

وقوله : « بمنحيه » : بالحاء المهملة ، من التنحية . وهو الثابت فى الأزهرية والطبرى.

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٩٧) ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (٩٨)

قال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري رحمه الله: أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بنى إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولي لهم، ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله قالوا ذلك. فقال بعضهم: إنما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله ﷺ في أمر نبوته. وروى عن ابن عباس أنه قال: حضرت عصابة من اليهود رسول الله ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، حدثنا عن خلال نسألك عنهن، لا يعلمهن إلا نبي، فقال رسول الله ﷺ: «سلوا عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه، لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتتابعني على الإسلام». فقالوا: ذلك لك. فقال رسول الله ﷺ: «سلوني عما شئتم». فقالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن: أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى؟ وأخبرنا بهذا النبي الأمي في النوم (١)؟ ومن وليه من الملائكة؟ فقال النبي ﷺ: «عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعني؟» فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق. فقال: «نشدتكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن إسرائيل - يعقوب - مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه، فنذر الله نذراً لئن عافاه الله من سقمه ليحرم من أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحمان الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها؟». فقالوا: اللهم نعم. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اشهد عليهم، وأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وأن ماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله، وإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكراً بإذن الله، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله؟». قالوا: اللهم نعم. قال: «اللهم اشهد». [قال]: «وأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا ينام قلبه؟». قالوا: اللهم نعم. قال: «اللهم اشهد». قالوا: أنت الآن، فحدثنا من وليك من الملائكة؟ فعندها نجمعك أو نفارقك. قال: «فإن وليي جبريل، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه». قالوا: فعندها نفارقك، ولو كان وليك سواء من الملائكة تابعناك وصدقناك. قال: «فما يمنعكم أن تصدقوه؟» قالوا: إنه عدونا. فأنزل الله عز وجل: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ ﴾ إلى قوله: ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٣] فعندها باؤوا بغضب على غضب. وقد رواه الإمام أحمد في مسنده (٢) وعبد بن حميد في تفسيره.

(١) في ابن كثير - مخطوطاً ومطبوعاً: «في التوراة! ولا معنى لها هنا، والسياق ينفهما، وصححناه من الطبري (١٦٠٥)، والمسنَد (٢٥١٤)، وطبقات ابن سعد (١/١١٥، ١١٦).

(٢) رواه أحمد في المسند، مطولاً ومختصراً، بأسانيد صحاح (٢٥١٤، ٢٥١٥، ٢٤٧١، ٢٤٨٣). وذكر ابن كثير هنا رواية المسند (٢٤٨٣)، ونسبها أيضاً للترمذي والنسائي. وأعاد بعض رواياته عند تفسير الآية (٩٣) من سورة آل عمران.

وقال البخارى : قوله : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ ﴾ قال عكرمة : جبر ، وميك ، وسراف : عبد . وإيل : الله (١) . وحكاية البخارى عن عكرمة ما تقدم هو المشهور أن « إيل » هو الله . وكذا غير واحد من السلف ، ومن الناس من يقول : « إيل » عبارة عن عبد ، والكلمة الأخرى هى اسم الله ؛ لأن كلمة « إيل » لا تتغير فى الجميع ، فَوَزَانُهُ : عبد الله ، عبد الرحمن ، عبد الملك ، عبد القدوس ، عبد السلام ، عبد الكافى ، عبد الجليل . فـ « عبد » موجودة فى هذا كله ، واختلفت الأسماء المضاف إليها ، وكذلك جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ونحو ذلك ، وفى كلام غير العرب يقدمون المضاف إليه على المضاف ، والله أعلم . ثم قال ابن جرير : وقال آخرون : بل كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بين عمر بن الخطاب وبينهم فى أمر النبى ﷺ . [ثم ذكر ابن كثير خبرا فى ذلك مطولا ، من رواية الشعبى عن عمر ، نقله من تفسير الطبرى وابن أبى حاتم بإسناديهما . ثم أعلمهما بالانقطاع بين عمر والشعبى . وهو كما قال] .

وأما تفسير الآية فقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى : من عادى جبريل فليعلم أنه الروح الأمين الذى نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله بإذنه له فى ذلك ، فهو رسول من رسل الله ملكى . ومن عادى رسولا فقد عادى جميع الرسل ، كما أن من كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا . أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ [النساء : ١٥٠ ، ١٥١] فحكم عليهم بالكفر المحقق ، إذ آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعضهم ، وكذلك من عادى جبريل فإنه عادى الله ؛ لأن جبريل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه ، وإنما ينزل بأمر ربه ، كما قال : ﴿ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم : ٦٤] وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَنَزْلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٢ - ١٩٤] . وقد روى البخارى فى صحيحه ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب » (٢) . ولهذا غضب الله لجبريل على من عاداه ، فقال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ

(١) ضبطنا هذه الحروف على الأهرمية ، وعلى نص البخارى (٨ / ١٢٥ فتح) و (١٩ / ٦) من الطبعة السلطانية .
(٢) هكذا ساق ابن كثير - رحمه الله - الحديث ، والظاهر أنه كتبه من حفظه ، فوهم فيه فى موضعين : فالحديث حديث قدسى ، كما هو ظاهر . وهو فى البخارى (١١ / ٢٩٢ ، ٢٩٣ فتح) . ولفظه : « إن الله تعالى قال : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب » . فال مؤلف سها حين أثبت كلمة « بارزنى » بدل « آذنته » .
ومعنى الحديث ثابت أيضا من حديث عائشة ، رواه أحمد فى المسند (٦ / ٢٥٦) . ومن حديث معاذ ، رواه ابن ماجه (٣٩٨٩) . ومن آخر ، أشار إليها الحافظ فى الفتح .

وليس المراد بـ « الولى » ما اصطلاح الناس على فهمه خطأ أنهم طائفة معينة يسمون « الأولياء » ، فإن هذا دخل عليهم من اصطلاحات الصوفية ، ثم جرى اللفظ على الالسنة بهذا المعنى الذى لا أصل له . بل « لى » هو الله : هو كل مؤمن يتقى الله ويخافه ، ويعمل بما أمر ، ويتجنب ما نهى عنه - فيما استطاع . ولعلنا نزيد هذا المعنى بيانا عند تفسير قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ الآيتان (٦٢ ، ٦٣) من سورة يونس ، إن شاء الله .

نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿٩٧﴾ أَيْ: مِنَ الْكُتُبِ الْمَتَّقِدَةِ ﴿وَهَدَىٰ وَبَشَّرَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ: هَدَىٰ لِقُلُوبِهِمْ وَبَشَّرَ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِينَ آمَنُوا هَدَىٰ وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾، يَقُولُ تَعَالَى: مِنْ عَادَانِي وَمَلَائِكَتِي وَرُسُلِي - وَرُسُلُهُ تَشْمَلُ رُسُلَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْبَشَرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] - ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ وَهَذَا مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ، فَإِنَّهُمَا دَخَلَا فِي الْمَلَائِكَةِ، ثُمَّ عَمُومِ الرُّسُلِ، ثُمَّ خُصَّصَا بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّ السِّيَاقَ فِي الْإِنْتِصَارِ لَجِبْرِيلَ وَهُوَ السَّفِيرُ بَيْنَ اللَّهِ وَأَنْبِيَائِهِ، وَقُرْنَ مَعَهُ مِيكَالُ فِي اللَّفْظِ؛ لِأَنَّ الْيَهُودَ زَعَمُوا أَنَّ جِبْرِيلَ عَدُوَّهُمْ وَمِيكَالُ وَلِيَّهُمْ، فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ مِنْ عَادَى وَاحِدًا مِنْهُمَا فَقَدْ عَادَى الْآخَرَ وَعَادَى اللَّهُ أَيْضًا؛ لِأَنَّهُ - أَيْضًا - يَنْزِلُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بَعْضُ الْأَحْيَانِ، كَمَا قُرْنَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي ابْتِدَاءِ الْأَمْرِ، وَلَكِنْ جِبْرِيلُ أَكْثَرُ، وَهِيَ وَظِيفَتُهُ، وَمِيكَالُ مُوَكَّلٌ بِالنَّبَاتِ وَالْقَطْرِ، هَذَا بِالْهَدْيِ وَهَذَا بِالرِّزْقِ، كَمَا أَنَّ إِسْرَافِيلَ مُوَكَّلٌ بِالصُّوَرِ لِلنَّفْخِ لِلْبَعْثِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَإِسْرَافِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَاطْفِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^(١). وَفِي جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ لُغَاتٍ وَقِرَاءَاتٍ، تَذَكَّرَ فِي كُتُبِ اللُّغَةِ وَالْقِرَاءَاتِ، وَلَمْ نَطَوِّلْ كِتَابَنَا هَذَا بِسَرْدِ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَدُورَ فِيهِ الْمَعْنَى عَلَيْهِ، أَوْ يَرْجِعَ الْحُكْمُ فِي ذَلِكَ إِلَيْهِ، وَبِاللَّهِ الثِّقَةُ، وَهُوَ الْمُسْتَعَانُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾: فِيهِ إِيقَاعُ الْمُظْهَرِّ مَكَانَ الْمُضْمَرِّ حَيْثُ لَمْ يَقُلْ: فَإِنَّهُ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ. بَلْ قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾، وَإِنَّمَا أَظْهَرَ الْأَسْمَ هَهُنَا لِتَقْرِيرِ هَذَا الْمَعْنَى وَإِظْهَارِهِ، وَإِعْلَامِهِمْ أَنَّ مَنْ عَادَى أَوْلِيَاءَ اللَّهِ فَقَدْ عَادَى اللَّهَ، وَمَنْ عَادَى اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لَهُ، وَمَنْ كَانَ اللَّهُ عَدُوَّهُ فَقَدْ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾^(٩٨) أَوْ كَلَّمَا عَنْهُدَا عَهْدًا بَدَّدُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ بَدَّدُ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانَتْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٠﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَنٌ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنٌ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَنُوتَ وَمَرْوَتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَقًّا يَقُولَانِ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢/١٥٠) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ، وَكَذَلِكَ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٤/٢٣٧) وَابْنُ مَاجَةَ (١٣٥٧).

تَكْفُرُ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَآئِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَيْئَسَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾
وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَآتَقَوْا لِمُتُوبَةٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾

قال الإمام أبو جعفر بن جرير فى قوله تعالى : «وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴿١٠١﴾ أى : أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دلالات على نبوتك ، وتلك الآيات هى ما حواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود ، ومكنونات سرائر أخبارهم ، وأخبار أوائلهم من بنى إسرائيل ، والنبا عما تضمنته كتبهم التى لم يكن يعلمها إلا أخبارهم وعلمائهم ، وما حرفه أوائلهم وأواخرهم وبدلوه من أحكامهم ، التى كانت فى التوراة . فأطلع الله فى كتابه الذى أنزله إلى نبيه محمد ﷺ ؛ فكان فى ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف نفسه ، ولم يدعه إلى هلاكها الحسد والبغى ، إذ كان فى فطرة كل ذى فطرة صحيحة تصديق من أتى بمثل ما جاء به محمد ﷺ من الآيات البينات التى وَصَفَ ، من غير تعلم تعلمه من بشر ولا أخذ شيئاً منه عن آدمى . كما قال ابن عباس : «وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴿١٠١﴾ يقول : فأنت تتلوهم عليهم وتخبرهم به غدوة وعشية ، وبين ذلك ، وأنت عندهم أُمى لا تقرأ كتاباً ، وأنت تخبرهم بما فى أيديهم على وجهه . يقول الله : فى ذلك لهم عبرة وبيان ، وعليهم حجة لو كانوا يعلمون . وقال قتادة : «نُبَذَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ﴿١٠٢﴾ ، أى : نقضه فريق منهم . وقال ابن جرير : أصل النبذ : الطرح والإلقاء ، ومنه سُمى اللقيط : منبذاً ، ومنه سُمى النبيذ ، وهو التمر والزبيب إذا طرحا فى الماء .

قلت : فالقوم ذمهم الله بنبذهم العهد التى تقدم الله إليهم فى التمسك بها والقيام بحقها . ولهذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة ، الذى فى كتبهم نعتُهُ وَصَفَتْهُ وَأَخْبَارُهُ ، وقد أمروا فيها باتباعه ومؤازرته ومناصرته ، كما قال : «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿١٠٥٧﴾ الآية [الاعراف : ١٥٧] ، وقال ههنا : «وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴿١٠٥٨﴾ الآية . أى : طرَحَ طائفة منهم كتاب الله الذى بأيديهم ، مما فيه البشارة بمحمد ﷺ وراء ظهورهم ، أى : تركوها ، كأنهم لا يعلمون ما فيها ، وأقبلوا على تعلم السحر واتباعه . ولهذا أرادوا كيداً برسول الله ﷺ وسَحَرُوهُ فى مُشْطٍ وَمُشَاقَّةٍ وَجُفٍّ طُلُعَةَ ذَكَرٍ ، تحت راعونة بثر ذى أروان . وكان الذى تولى ذلك منهم رجل ، يقال له : لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ ، لعنه الله ؛ فأطلع الله على ذلك رسوله ﷺ ، وشفاه منه وأنقذه ، كما ثبت ذلك مبسوطاً فى الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين ، رضى الله عنها ، كما سيأتى بيانه (١) .

وروى ابن أبى حاتم : عن ابن عباس ، قال : كان آصف كاتب سليمان ، وكان يعلم الاسم الأعظم ، وكان يكتب كل شئ بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه ، فلما مات سليمان أخرجه الشياطين ، فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً ، وقالوا : هذا الذى كان سليمان يعمل بها .

(١) فى تفسير سورة الفلق ، إن شاء الله .

قال: فأكفره جهالُ الناس وسبّوه، ووقف علماؤهم فلم يزل جهالهم يسبونهُ، حتى أنزل الله على محمد ﷺ: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرَ سَلِيمًا وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ (١).

وروى ابن جرير: عن عمران بن الحارث (٢) قال: بينا نحن عند ابن عباس إذ جاء رجل فقال له: من أين جئت؟ قال: من العراق. قال: من أيّ؟ قال: من الكوفة. قال: فما الخبر؟ قال: تركتهم يتحدثون أن عليا خارج إليهم! ففزع، ثم قال: ما تقول؟ لا أبا لك؟! لو شعرنا ما نكحنا نساء، ولا قسمنا ميراثه، أما إنني سأحدثكم عن ذلك: إنه كانت الشياطين يسترقون السمع من السماء، فيجىء أحدهم بكلمة حق قد سمعها، فإذا جُرّبَ منه صدق كذب معها سبعين كذبة، قال: فَتُشْرِبُهَا قُلُوبُ النَّاسِ. فاطلع الله عليها سليمان عليه السلام، فدفعها تحت كرسيه. فلما توفي سليمان عليه السلام قام شيطانُ الطريق، فقال: أفلا أدلكم على كنز الممنع الذي لا كنز له مثله؟ تحت الكرسي. فأخرجوه، فقالوا: هذا سحر، فتناسخها الأُمم - حتى بقاياها ما يتحدث به أهل العراق، وأنزل الله عز وجل: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرَ سَلِيمًا وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ ورواه الحاكم (٣).

[ثم ذكر الحافظ ابن كثير أخبارا جمّة في هذا المعنى عن التابعين وغيرهم . ثم قال :
فهذه نبذة من أقوال أئمة السلف في هذا المقام، ولا يخفى ملخص القصة والجمع بين أطرافها،
وأنه لا تعارض بين السياقات على اللبيب الفهم، والله الهادي. فقله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو
الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ﴾ أي: واتبعت اليهود - الذين أوتوا الكتاب بعد إعراضهم عن كتاب الله
الذي بأيديهم ومخالفتهم لرسول الله محمد ﷺ - ما تتلو الشياطين، أي: ما ترويه وتخبر به
وتُحدثه الشياطين على ملك سليمان. وعده بـ «على»؛ لأنه ضمن «تتلو» : تكذب. وقال
ابن جرير: «على» ههنا بمعنى «في»، أي: تتلو في ملك سليمان . قلت: والتضمين أحسن
وأولى، والله أعلم.

وقول الحسن البصري، رحمه الله: «قد كان السحر قبل زمان سليمان بن داود» صحيح لا
شك فيه؛ لأن السحرة كانوا في زمان موسى، عليه السلام، وسليمان بن داود بعده، كما قال
تعالى: ﴿وَأَلِّمْنَا تَارًا إِلَى النَّارِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ الآية [البقرة: ٢٤٦]، ثم ذكر القصة بعدها،

(١) إسناده الذي نقله ابن كثير - وحذفناه - إسناده صحيح، وهذا موقوف من كلام ابن عباس . ونحن نقف فيه فلا
نقول شيئا . وقد أطال ابن كثير في نقل أخبار في هذا المعنى . رحمه الله وإيانا ، وغفر لنا وله .

(٢) في المطبوع من «عمدة التفسير» : «الحِثُّ» وهي هكذا في المخطوطة ، على عادة الكتابة قديما ، وإنا آثرنا
«الحارث» - وإن كان نطقهما واحدا - حتى لا يقع خطأ في تشكيلها ومن ثم نطقها . وقد راعينا ذلك في كل
الكتاب . (الباز) .

(٣) الخبر في الطبري (١٦٦٢)، وفي المستدرک للحاكم (٢/ ٢٦٥) . ولم يتكلم الحاكم عليه ، فلا أدري أهو هكذا ،
أم سقط كلامه من النسخ أو الطابع ؟ وكتب الذهبي في تلخيصه بعده : «صحيح» . وتصحيح الذهبي ثابت
أيضا في مخطوطة مختصره التي عندي ، ص ٢٧٢ ، وإسناده صحيح كما قال . ولكنه موقوف على ابن عباس .
فنقف فيه أيضا .

وفيها: ﴿ وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [البقرة: ٢٥١] . وقال قوم صالح - وهم قبل إبراهيم الخليل، عليه السلام ، لنبيهم صالح: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٣] .

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ : اختلف الناس في هذا المقام ، فذهب بعضهم إلى أن « ما » نافية ، أعنى التى فى قوله: ﴿ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ﴾ . وروى ابن جرير ، عن ابن عباس ، فى قوله: ﴿ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ يقول: لم ينزل الله السحر ، وعن الربيع بن أنس ، قال: ما أنزل الله عليهما السحر . قال ابن جرير: فتأويل الآية على هذا: واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان من السحر ، وما كفر سليمان ، ولا أنزل الله السحر على الملكين ، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ﴿ بَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ . فيكون قوله: ﴿ بَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ من المؤخر الذى معناه المقدم . قال: فإن قال لنا قائل: وكيف وجه تقديم ذلك؟ قيل: وجه تقديمه أن يقال: واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان من السحر ، وما كفر سليمان وما أنزل الله السحر على الملكين ، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ﴿ بَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ فيكون معنيا بالملكين: جبريل وميكائيل ، عليهما السلام؛ لأن سحرة اليهود - فيما ذكر - كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود ، فأكذبهم الله بذلك . وأخبر نبيه محمداً ﷺ أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر ، وبرأ سليمان ، عليه السلام ، مما نحلوه من السحر ، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين ، وأنها تُعَلِّمُ الناس ذلك ببابل ، وأن الذين يعلمونهم ذلك رجلان ، اسم أحدهما هاروت ، واسم الآخر ماروت ، فيكون « هاروت وماروت » على هذا التأويل ترجمة على « الناس » ، ورداً عليهم . هذا لفظه بحروفه .

ثم شرع ابن جرير فى رد هذا القول ، وأن « ما » بمعنى الذى ، وأطال القول فى ذلك ، وادعى أن هاروت وماروت ملكان أنزلهما الله إلى الأرض ، وأذن لهما فى تعليم السحر اختبأراً لعباده وامتحاناً ، بعد أن بين لعباده أن ذلك مما ينهى عنه على السنة الرسل ، وادعى أن هاروت وماروت مطيعان فى تعليم ذلك ؛ لأنهما امثالاً ما أمرا به . وهذا الذى سلكه غريب جداً ! وأغرب منه قول من زعم أن هاروت وماروت قبيلان من الجن ! وروى ابن أبى حاتم بإسناده . عن الضحاك بن مزاحم: أنه كان يقرؤها: ﴿ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ﴾ ويقول: هما علجان من أهل بابل ! وَوَجَّه أصحابُ هذا القول الإنزال بمعنى الخلق ، لا بمعنى الإيحاء ، فى قوله: ﴿ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ [الزمر: ٦] ، ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ [الحديد: ٢٥] ، ﴿ وَيُنَزِّلْ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ﴾ [غافر: ١٣] . وفى الحديث: « ما أنزل الله داء إلا أنزل له دواء » . وكما يقال: أنزل الله الخير والشر .

وذهب آخرون إلى الوقف على قوله: ﴿ يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ ، وروى ابن جرير: عن القاسم بن محمد ، وسأله رجل عن قول الله: ﴿ يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بَابِلَ

هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴿٩٩﴾ - فقال الرجل: يعلمان الناس السحر، ما أنزل عليهما، أو يعلمان الناس ما لم ينزل عليهما؟ فقال القاسم: ما أبالي أيتهما كانت. ثم روى أن القاسم قال في هذه القصة: لا أبالي أى ذلك كان، إنى آمنت به.

وذهب كثيرون من السلف إلى أنهما كانا ملكين من السماء ، وأنهما أنزلا إلى الأرض ، فكان من أمرهما ما كان. وقد ورد في ذلك حديث مرفوع رواه الإمام أحمد في مسنده كما سنورده إن شاء الله. وعلى هذا فيكون الجمع بين هذا وبين ما ورد من الدلائل على عصمة الملائكة: أن هذين سبق في علم الله لهما هذا، فيكون تخصيصاً لهما ، فلا تعارض حينئذ ، كما سبق في علمه من أمر إبليس ما سبق، وفي قول: إنه كان من الملائكة، لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ [طه: ١١٦]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك. مع أن شأن هاروت وماروت - على ما ذكر - أخف مما وقع من إبليس لعنه الله.

ذكر الحديث الوارد في ذلك - إن صح سنده ورفع - وبيان الكلام عليه:

روى الإمام أحمد بن حنبل، عن عبد الله بن عمر: أنه سمع نبي الله ﷺ يقول: «إن آدم - عليه السلام - لما أهبطه الله إلى الأرض قالت الملائكة: أى رب ، ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَتَحْنُ نَسِيجَ بَحْمَدِكَ وَتُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، قالوا: ربنا، نحن أطوع لك من بنى آدم. قال الله تعالى للملائكة: هلموا ملكين من الملائكة حتى نهبطهما إلى الأرض، فننظر كيف يعملان؟ قالوا: ربنا ، هاروت وماروت. فأهبطاً إلى الأرض ومثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر، فجاءتهما، فسألاها نفسها! فقالت: لا والله حتى تتكلما بهذه الكلمة من الإشراك! فقالا : والله لا نشرك بالله شيئاً أبداً فذهبت عنهما ، ثم رجعت بصبي تحمله ، فسألاها نفسها ! فقالت: لا والله حتى تقتلا هذا الصبي! فقالا: لا، والله لا تقتله أبداً. فذهبت ثم رجعت بقَدَحٍ خَمَرٍ تحمله، فسألاها نفسها! فقالت: لا والله حتى تشربا هذا الخمر. فشربا فسكرا، فوقعا عليها، وقتلا الصبي! فلما أفاقا قالت المرأة: والله ما تركتما شيئاً مما أبيتماه علىّ إلا قد فعلتماه حين سكرتما ! فخيروا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا». وهكذا رواه ابن حبان في صحيحه . وهذا حديث غريب من هذا الوجه، ورجاله كلهم ثقات من رجال الصحيحين، إلا موسى بن جبير ، وهو الأنصارى السلمى مولاهم المدينى الحذاء، رَوَى عن ابن عباس وأبى أمامة بن سهل بن حنيف ، ونافع ، وعبد الله بن كعب بن مالك . وروى عنه ابنه عبد السلام ، وبكر بن مضر، وزهير بن محمد، وسعيد بن سلمة، وعبد الله بن لهيعة، وعمرو بن الحارث، ويحيى بن أيوب. وروى له أبو داود، وابن ماجه، وذكره ابن أبى حاتم في كتاب الجرح والتعديل، ولم يحك فيه شيئاً من هذا ولا هذا، فهو مستور الحال، وقد تفرد به عن نافع مولى ابن عمر، عن ابن عمر عن النبي ﷺ. وروى له متابع من وجه آخر عن نافع.

[ثم ذكر ابن كثير روايتين من تفسيري ابن مردويه والطبري . ثم قال : وهذان - أيضا

غريبان جداً!! وأقرب ما فى هذا أنه من رواية عبد الله بن عمر، عن كعب الأحبار، لا عن النبى ﷺ . [ثم ذكر رواية من تفسير عبد الرزاق ، عن الثورى ، عن موسى بن عقبة ، عن سالم ، عن ابن عمر ، عن كعب الأحبار . وذكر أنه رواها أيضا الطبرى وابن أبى حاتم . ثم قال :] فهذا أصح وأثبت إلى عبد الله بن عمر من الإسنادين المتقدمين، وسالم أثبت فى أبيه من مولاه نافع . فدار الحديث ورجع إلى نقل كعب الأحبار، عن كتب بنى إسرائيل، والله أعلم (١) .

[ثم أطل ابن كثير بسرد روايات عن بعض الصحابة والتابعين فى هذا المعنى ، لا يكاد العقل يقبل شيئا منها - ثم قال:] وقد روى فى قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين، كمجاهد والسدى والحسن البصرى وقتادة وأبى العالية والزهرى والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم، وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين، وحاصلها راجع فى تفصيلها إلى أخبار بنى إسرائيل؛ إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى، وظاهر سياق القرآن لإجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فيها، فنحن نؤمن بما ورد فى القرآن على ما أراده الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال .

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ : عن ابن عباس، قال: فإذا أتاهما الآتى يريد السحر نهيأه أشد النهى، وقال له: إنما نحن فتنة فلا تكفر، وذلك أنهما علما الخير والشر والكفر والإيمان، فعرفا أن السحر من الكفر . قال: فإذا أبى عليهما أمرأه أن يأتى مكان كذا وكذا ، فإذا أتاه عاين الشيطان فَعَلَّمَهُ، فإذا عَلَّمَهُ خرج منه النور ، فنظر إليه ساطعاً فى السماء ، فيقول : يا حسرتاه ! ياويله ! ماذا صنع ؟! وعن الحسن البصرى أنه قال فى تفسير هذه الآية: نَعَمْ، أنزل المَلَكُانَ بالسحر، ليعلما الناس البلاء الذى أراد الله أن يبتلى به الناس، فأخِذَ عليهما الميثاق أن لا يعلما أحداً حتى يقولوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ . وأما الفتنة فهى المحنة والاختبار ، وكذلك قوله تعالى إخباراً عن موسى، عليه السلام، حيث قال: ﴿إِنْ

(١) حديث ابن عمر - المرفوع - الذى ذكره ابن كثير من رواية أحمد - هو فى المسند (٦١٧٨) . وقد نقلنا كلام ابن كثير الذى هنا فى تعليقه . وفصلنا القول فى ضعفه جداً . وأشرنا «إلى مخالفته الواضحة للعقل، لا من جهة عصمة الملائكة القطعية ، بل من ناحية أن الكوكب الذى نراه صغيراً فى عين الناظر قد يكون حجمه أضعاف حجم الكرة الأرضية بالآلاف المؤلفة من الأضعاف . فأنى يكون جسم المرأة الصغير إلى هذه الأجرام الفلكية الهائلة !! » . ونزيد هنا دليلاً على ضعف رواية المسند هذه : أن فى أولها أن قول الملائكة : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ . . . إلخ - كان بعد إهباط آدم إلى الأرض . وهو مخالف صراحة لنص الكتاب العزيز ، كما مضى فى الآيات (٣٠ - ٣٨) أن قولهم هذا كان قبل خلق آدم ، وقبل أمرهم بالسجود له . وأن إهباطه هو وحواء كان بعد أكلهما من الشجرة .

وقد بينا أيضاً وهى هذه الأخبار فيما علقنا به فى تفسير الطبرى على الحديث (١٦٨٨) .

وكنت على أن أحذف هذا الحديث أيضاً من هذا الكتاب (عمدة التفسير) - على ما شرطت فى المقدمة ، ص ١١ . ولكنى رأيت أن معناه يدور على ألسنة الناس ، وتجربى به أعلامهم ، وأنه يجب على البيان . فعملت الذى هو خير ، ثم نفيت سائر الروايات التى أطل الحافظ ابن كثير بذكرها ، وإن لم يقصر فى الكشف عن عوارها . رحمه الله .

هِيَ إِلَّا فِتْنَتَكَ ﴿١﴾ أى : ابتلاؤك واختبارك وامتحانك ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ [الأعراف : ١٥٥] . وقد استدل بعضهم بهذه الآية على تكفير من تعلم السحر ، ويستشهد له بالحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البزار : عن عبد الله ، قال : من أتى كاهناً أو ساحراً فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ . وإسناده جيد ، وله شواهد أخر (١) .

وقوله تعالى : ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ ﴿٢﴾ أى : فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر ما يتصرفون به فيما يتصرفون فيه من الأفاعيل المذمومة - ما إنهم ليَفَرِّقُونَ به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والاتلاف . وهذا من صنيع الشياطين ، كما روى مسلم عن جابر بن عبد الله ، عن النبي ﷺ ، قال : «إن الشيطان ليضع عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه فى الناس ، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة ، يجرى أحدهم فيقول : مازلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا . فيقول إبليس : لا والله ما صنعت شيئاً . ويجيء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله ، قال : فيقربه ويدنيه ويلتزمه ، ويقول : نعم أنت (٢) . وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر : بالخيل إلى الرجل (٣) أو المرأة من الآخر من سوء منظر ، أو خلق أو نحو ذلك أو عقد أو بغضة ، أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة . و « المرء » عبارة عن الرجل ، وتأتي « امرأة » ، ويشئى كل منهما ولا يجمعان ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ : قال سفيان الثوري : إلا بقضاء الله . وقال محمد بن إسحاق إلا بتخلية الله بينه وبين ما أراد . وقوله تعالى : ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا

(١) عبد الله : هو ابن مسعود . والحديث ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب (٤/ ٥٣) عنه بنحوه . وقال : « رواه البزار وأبو يعلى ، بإسناد جيد ، موقوفا » . ثم ذكره بعده - بنحوه أيضاً - وقال : « رواه الطبرانى فى الكبير ، ورواته ثقات » . وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٥/ ١١٨) . وقال : « رواه البزار ، ورجاله رجال الصحيح ، خلا هبيرة بن يريم ، وهو ثقة » .

وإسناد البزار - الذى ذكره ابن كثير هنا - ليس من رواية « هبيرة بن يريم » عن ابن مسعود . بل هو من رواية « همام » وهو ابن الحارث النخعى التابعى الكبير الثقة - عن ابن مسعود . فظاهر أن البزار رواه بإسنادين من الوجهين .

وهذا الحديث ، وإن كان موقوفا فى ظاهره ، فإن معناه الرفع يقيناً ؛ لأن حكم الصحابى بأن هذا العمل كفر - مما لا يقال بالرائى ولا يؤخذ باقياس . كما هو ظاهر .

(٢) الحديث فى مسلم (٢/ ٣٤٦) مع اختلاف قليل فى اللفظ ، لعله اختلاف نسخ . وقوله فى آخره : « نعم أنت ضبطه النووى فى شرحه (١٧/ ١٥٧) : « بكسر النون وإسكان العين ، وهى نعم - الموضوع للمدح » ، ولكن ضبط هنا فى المخطوطة الأزهرية بكسرة تحت النون ، أى كما ضبطه النووى - وبفتحة فوقها أيضاً ، وكب عليها « معاً » يعنى بالضبطين . فتكون « نعم » التى للجواب ، بسكون الميم . وهى جيدة المعنى هنا . كأنه يقول له : نعم ، أنت الذى أجدت فعلتك منهم .

(٣) الخيل - بفتح الحاء وسكون الياء : مصدر « خال الشيء يخاله خيلاً » أى : ظنه . وفى المطبوعة : « ما يخيل » وكأنه تصرف من ناسخ أو طابع . والأصل صحيح سليم المعنى .

يَنْفَعُهُمْ ﴿٩٩﴾ أى : يضرهم فى دينهم ، وليس له نفع يوازى ضرره . ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ أى : ولقد علم اليهود الذى استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسل لَمَنِ فعل فعلهم ذلك ، أنه ماله فى الآخرة من خلاق . قال ابن عباس : من نصيب .

وقوله تعالى : ﴿وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ : يقول تعالى : ولبس البديل ما استبدلوا به من السحر عوضاً عن الإيمان ، ومتابعة الرسل ، لو كان لهم علم بما وعظوا به ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ أى : ولو أنهم آمنوا بالله ورسله واتقوا المحارم ، لكان مثوبة الله على ذلك خيراً لهم مما استخاروا لأنفسهم ورضوا به ، كما قال تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص : ٨٠] . وقد يستدل بقوله : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ من ذهب إلى تكفير الساحر ، كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وقول طائفة من السلف . وقيل : بل لا يكفر ، ولكن حده ضرب عنقه ، لما رواه الشافعى وأحمد بن حنبل ، عن بَجَالَةَ بن عَبْدِ يَقُول : كتب عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه : أن اقتلوا كل ساحر وساحرة . قال : فقتلنا ثلاث سواحر . وقد أخرجه البخارى فى صحيحه أيضاً (١) . وهكذا صح أن حفصة أم المؤمنين سحرتها جارية لها ، فأمرت بها فقتلت . قال الإمام أحمد بن حنبل : صح عن ثلاثة من أصحاب النبى ﷺ فى قتل الساحر . وروى الترمذى عن جُنْدَب الأزدى أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «حد الساحر ضرباً بالسيف» . ثم قال : لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه . وإسماعيل بن مسلم يُضَعِّف فى الحديث ، والصحيح : عن الحسن عن جندب مرفوعاً . والله أعلم (٢) .

فصل : حكى أبو عبد الله الرازى فى تفسيره عن المعتزلة أنهم أنكروا وجود السحر ، قال : وربما كفروا من اعتقد وجوده . قال : وأما أهل السنة فقد جَوَزُوا أن يقدر الساحر أن يطير فى الهواء ، ويقلب الإنسان حماراً ، والحمار إنساناً ! إلا أنهم قالوا : إن الله يخلق الأشياء عندما يقول الساحر تلك الرقى والكلمات المُعَيَّنَة ، فأما أن يكون المؤثر فى ذلك هو الفلك والنجوم فلا ، خلافاً للفلاسفة والمنجمين والصابئة ، ثم استدل على وقوع السحر وأنه بخلق الله تعالى ، بقوله تعالى : ﴿وَمَا هُمْ بِضَّارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ومن الأخبار بأن رسول الله ﷺ سحر ، وأن

(١) هو جزء من حديث طويل ، فى المسند (١٦٥٧) ، والبخارى (١٨٤ / ٦) ، فتح (١٨٥) وتخريجه مفصل فى شرح المسند .

(٢) الحديث فى الترمذى (٣٣٨ / ٢) ، ورواه أيضاً الحاكم (٣٦٠ / ٤) وقال : « هذا حديث صحيح الإسناد ، وإن كان الشيخان تركا حديث إسماعيل بن مسلم فإنه غريب صحيح » . ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٨ / ١٣٦) وأعله بإسماعيل . و « إسماعيل بن مسلم المكي » : ليس ضعيفاً ، كما قال الترمذى والبيهقى . بل حديثه حسن ، ومن تكلم فيه فلإنما تكلم من قبل حفظه . وأثنى عليه جداً محمد بن عبد الله الأنصارى ، فرجحه على يونس بن عبيد ، وشهد له بحفظ الحديث - كما فى ترجمته فى طبقات ابن سعد (٣٤ / ٢ / ٧) . وقد حسن له الترمذى حديثاً آخر . وقال : « وقد تكلم الناس فى إسماعيل بن مسلم المكي من قبل حفظه » . انظر شرحنا للترمذى (٤٥٢ / ١ - ٤٥٤) .

السحر عَمِلَ فيه . [ثم قال الرازى] : إن العلم بالسحر ليس بقبیح ولا محظور: اتفق المحققون على ذلك؛ لأن العلم لذاته شريف ! وأيضاً لعموم قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩]؛ ولأن السحر لو لم يُعَلِّمْ لما أمكن الفرق بينه وبين المعجزة!، والعلم بكون المعجز مُعْجِزاً واجب، وما يتوقف الواجب عليه فهو واجب!! فهذا يقتضى أن يكون تحصيل العلم بالسحر واجباً، وما يكون واجباً فكيف يكون حراماً وقبيحاً؟!

هذا لفظه بحروفه فى هذه المسألة، وهذا الكلام فيه نظر من وجوه، أحدها: قوله: «العلم بالسحر ليس بقبیح». إن عنى به ليس بقبیح عقلاً، فمخالفة من المعتزلة يمتنعون هذا ، وإن عنى أنه ليس بقبیح شرعاً، ففى هذه الآية الكريمة تشييع لتعلم السحر، وفى الصحيح: «من أتى عرفاً أو كاهناً، فقد كفر بما أنزل على محمد». وفى السنن: «من عَقَدَ عَقْدَةً ونَفَثَ فيها فقد سحر». وقوله: «ولا محظور اتفق المحققون على ذلك». كيف لا يكون محظوراً مع ما ذكرناه من الآية والحديث؟! واتفاق المحققين يقتضى أن يكون قد نص على هذه المسألة أئمة العلماء أو أكثرهم، وأين نصوصهم على ذلك؟ ثم إدخاله على السحر فى عموم قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فيه نظراً لأن هذه الآية إنما دلت على مدح العالمين بالعلم الشرعى، وكَمِ قُلْتُ إن هذا منه؟ ثم تَرْقِيهِ إلى وجوب تَعَلُّمِهِ بأنه لا يحصل العلم بالمعجز إلا به - ضعيف بل فاسد؛ لأن أعظم معجزات رسولنا ، عليه الصلاة والسلام، هى القرآن العظيم، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. ثم إن العلم بأنه معجز لا يتوقف على علم السحر أصلاً، ثم من المعلوم بالضرورة أن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وعامتهم، كانوا يعلمون المعجز، ويفرقون بينه وبين غيره، ولم يكونوا يعلمون السحر ولا تَعَلَّمُوهُ ولا عَلَّمُوهُ ، والله أعلم.

[ثم نقل الحافظ ابن كثير عن الفخر الرازى فصلاً طويلاً فى أنواع السحر، لا نرى لذكره فائدة ، ولا طائل تحته ، إلا نوعين (١) مما ذكر . نرى من الفائدة إثباتهما ؛ لابتلاء كثير من الناس فى هذا العصر ببعض ما فيهما ، بما تركوا من علم الشريعة ، وبما اتبعوا من الهوى :

من السحر: الأعمال العجيبة التى تظهر من تركيب الآلات المركبة من النسب الهندسية، كفارس على فرس فى يده بوق، كلما مضت ساعة من النهار ضرب بالبوق، من غير أن يمسه أحد. ومنها الصور التى تُصَوِّرُهَا الرومُ والهند، حتى لا يفرق الناظر بينها وبين الإنسان، حتى يصورونها ضاحكة وباكية. إلى أن قال: فهذه الوجوه من لطيف أمور المخايل. قال: وكان سحر سحرة فرعون من هذا القبيل. قلت: يعنى ما قاله بعض المفسرين: إنهم عمدوا إلى تلك الحبال والعصى، فحشوها زُبْقاً فصارت تتلوى بسبب ما فيها من ذلك الزئبق، فيخيل إلى الرائي أنها تسعى باختيارها.

(١) ما أبواه الشيخ - رحمه الله - ثلاثة أنواع ، كما هو واضح . (الباز) .

قال الرازى: ومن هذا الباب تركيب صندوق الساعات، ويندرج فى هذا الباب علم جرّ الأثقال بالآلات الخفيفة. قال: وهذا فى الحقيقة لا ينبغى أن يعد من باب السحر؛ لأن لها أسباباً معلومة يقينية، من اطلع عليه قدر عليها. قلت: ومن هذا القبيل حيل النصارى على عامتهم، بما يُروْنهم إياه من الأنوار، كقضية قُمامة الكنيسة التى لهم ببلد المقدس، وما يحتالون به من إدخال النار خفية إلى الكنيسة، وإشعال ذلك القنديل بصنعة لطيفة تروج على العوام منهم، وأما الخواص فهم يعترفون بذلك، ولكن يتأولون أنهم يجمعون شمل أصحابهم على دينهم، فيرون ذلك سائغاً لهم. وفيه شبه للجهلة الأغبياء من متعبدى الكُرّامية، الذين يرون جواز وضع الأحاديث فى الترغيب والترهيب، فيدخلون فى عداد من قال رسول الله ﷺ فيهم: «من كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار». وقوله: «حدثوا عني ولا تكذبوا علىّ فإنه من يكذب علىّ يلج النار».

ثم ذكر ههنا حكاية عن بعض الرهبان، وهو: أنه سمع صوت طائر حزين الصوت ضعيف الحركة، فإذا سمعته الطيور ترقّ له فتذهب فتلقى فى وكّره من ثمر الزيتون، ليتبلغ به، فعَمَد هذا الراهبُ إلى صنعة طائر على شكله، وتوصل إلى أن جعله أجوف، فإذا دخلته الريح يسمع منه صوت كصوت ذلك الطائر، وانقطع فى صومعة ابتناها، وزعم أنها على قبر بعض صالحهم، وعلق ذلك الطائر فى مكان منها، فإذا كان زمان الزيتون فتح باباً من ناحية، فتدخل الريح إلى داخل هذه الصورة، فيُسَمَعُ صوتها كذلك الطائر فى شكله أيضاً، فتأتى الطيور فتحمل من الزيتون شيئاً كثيراً فلا ترى النصارى إلا ذلك الزيتون فى هذه الصومعة، ولا يدرون ما سببه!! ففتنهم بذلك، وأوهم أن هذا من كرامات صاحب هذا القبر، عليهم لعائن الله المتتابة إلى يوم القيامة.

ومن السحر: الاستعانة بخواص الأدوية يعنى فى الأطعمة والدهانات. قال: واعلم أنه لا سبيل إلى إنكار الخواص، فإن أثر المغناطيس مشاهد. قلت: يدخل فى هذا القبيل كثير ممن يدعى الفقر ويتحيل على جهلة الناس بهذه الخواص، مدعياً أنها أحوال له، من مخالطة النيران ومسك الحيات إلى غير ذلك من المحالات.

ومن السحر: تعليق القلب، وهو أن يدعى الساحرُ أنه عرف الاسم الأعظم، وأن الجن يطيعونه ويتقادون له فى أكثر الأمور، فإذا اتفق أن يكون السامع ضعيف العقل قليل التمييز، اعتقد أنه حق، وتعلق قلبه بذلك، وحصل فى نفسه نوع من الرهب والمخافة، فإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة، فحينئذ يتمكن الساحر أن يفعل ما يشاء. قلت: هذا النمط يقال له التنبلة، وإنما يروج على الضعفاء العقول من بنى آدم. وفى علم الفراسة ما يرشد إلى معرفة كامل العقل من ناقصه، فإذا كان المُتَنَبِّلُ حاذقاً فى علم الفراسة عرف من ينقاد له من الناس من غيره.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَا يَوْذُو الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ حَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾

نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين فى مقالهم وفعالهم، وذلك أن اليهود كانوا يُعَانُونَ من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقص - عليهم لعائن الله - فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا. يقولون: راعنا. يورون بالرعنوة، كما قال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦] وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم، بأنهم كانوا إذا سَلَمُوا إنما يقولون : السام عليكم . والسام هو : الموت . ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بـ «وعليكم». وإنه يستجاب لنا فيهم، ولا يستجاب لهم فينا. والغرض: أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلاً، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ . وروى الإمام أحمد: عن ابن عمر، رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت بين يدي الساعة بالسيف، حتى يُعبد الله وحده لا شريك له. وجعل رزقى تحت ظل رمحى، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمرى، ومن تشبه بقوم فهو منهم» (١). وروى أبو داود : « من تشبه بقوم فهو منهم » (٢). ففيه دلالة على النهى الشديد والتهديد والوعيد، على التشبه بالكفار فى أقوالهم وأفعالهم، ولباسهم وأعيادهم، وعبادتهم وغير ذلك من أمورهم التى لم تشرع لنا ولم تُقر عليها (٣).

وعن ابن عباس: ﴿رَاعِنًا﴾ أى: أرعنا سمعك. وعنه أيضا قال: كانوا يقولون للنبي ﷺ: أرعنا سمعك. وإنما ﴿رَاعِنًا﴾ كقولك: عاطنا (٤). وقال عطاء: كانت لغة يقولها الأنصار فنهى الله عنها. وقال الحسن: الراعن من القول: السخرى منه. نهاهم الله أن يسخروا من قول محمد ﷺ، وما يدعوههم إليه من الإسلام. وكذا روى عن ابن جُرَيْج أنه قال مثله. قال ابن جرير: والصواب من القول فى ذلك عندنا: أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبى ﷺ: راعنا؛ لأنها كلمة كرهها الله

(١) السند (٥١١٤، ٥١١٥، ٥٦٦٧). وهو فى مجمع الزوائد (٢٦٧/٥، ٦/ ٤٩). وذكره الحافظ فى الفتح (٦/ ٧٢) عن رواية المسند .

(٢) هذا جزء من الحديث السابق . وهو فى أبى داود (٤٠٣١) .

(٣) فانظر إلى ما يفعل المسلمون - بل المتسبون للإسلام - فى عصرنا، من التشبه بالكفار فى كل شىء، حتى ليريد الوقحاء من الكتاب أن يدخلوا شعائرهم أو ما يشبهها فى عبادتنا . وحتى ضربوا على أنفسهم الذلة والصغار، باصطناع تشريع أوربة الوثنية الملحدة فى قوانينهم الوضعية المجرمة الكافرة . أعاذنا الله من الفتن، وأعاد للمسلمين عقولهم ودينهم.

(٤) رواه الطبرى (١٧٣١) بإسناد ضعيف .

تعالى أن يقولوها لنبية ﷺ، نظير الذى ذكر عن النبى ﷺ أنه قال: «لا تقولوا للعنب الكرم، ولكن قولوا: الحبَّلة. ولا تقولوا: عبدى، ولكن قولوا: فئى» (١). وما أشبه ذلك.

وقوله تعالى: ﴿مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يبين تعالى بذلك شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين، الذين حذر تعالى من مشابهتهم للمؤمنين؛ ليقطع المودة بينهم وبينهم. وينبئ تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل، الذى شرعه لنبىهم محمد ﷺ، حيث يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٠٦) ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ ذُوْلِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (١٠٧)

قال ابن عباس: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾: ما نبدل من آية . وقال السدى: نسخها: قبضها . وقال ابن حاتم: يعنى: قبضها: رفعها، مثل قوله: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة . وقوله: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى لهما ثالثاً» . وقال ابن جرير: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾: ما ننقل من حكم آية إلى غيره فنبدله ونغيره، وذلك أن يُحوَّلَ الحلالُ حراماً، والحرام حلالاً، والمباح محظوراً، والمحظور مباحاً . ولا يكون ذلك إلا فى الأمر والنهى والحظر والإطلاق والمنع والإباحة . فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ . وأصل النسخ من نسخ الكتاب، وهو نقله من نسخة إلى أخرى غيرها، فكذاك معنى نسخ الحكم إلى غيره: إنما هو تحويله ونقل عبادة إلى غيرها . وسواء نسخ حكمها أو خطها ، وهى فى كلتا حالتها منسوخة . وأما علماء الأصول فاختلفت عباراتهم فى حد النسخ، والأمر فى ذلك قريب ؛ لأن معنى النسخ الشرعى معلوم عند العلماء . ولخص بعضهم: أنه رفع الحكم بدليل شرعى متأخر . فاندرج فى ذلك نسخ الأخف بالأثقل ، وعكسه ، والنسخ لا إلى بدل . وأما تفاصيل أحكام النسخ وذكر أنواعه وشروطه فمبسوط فى فن أصول الفقه .

وقوله تعالى: ﴿ أَوْ نُنَسِّهَا ﴾: فقرأ على وجهين : « نَسَّاهَا وَنُسَّهَا » . فأما من قرأها : « نُسَّاهَا » - بفتح النون والهمزة بعد السين - فمعناه: نؤخرها . قال ابن عباس: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنَسِّهَا ﴾ يقول: ما نبدل من آية ، أو نتركها لا نبدلها . وقال مجاهد عن أصحاب ابن مسعود: ﴿ أَوْ نُنَسِّهَا ﴾: ثبت خطها ونبدل حكمها . وقال أبو العالية : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنَسِّهَا ﴾ أى: نؤخرها عندنا . وأما على قراءة : ﴿ أَوْ نُنَسِّهَا ﴾ فقال قتادة : كان الله عز وجل ينسى نبيه ما يشاء، وينسخ ما يشاء .

(١) هذان حديثان ، ذكرهما الطبرى بدون إسناد (١٧٣٩ ، ١٧٤٠) . وأولهما رواه أحمد فى المسند (٨٥٠٩) عن أبى هريرة ، ورواه الشيخان وغيرهما . وثانيهما رواه الشيخان عن أبى هريرة أيضاً . انظر : الفتح (٥) ١٢٨ - ١٣١ (صحيح مسلم (٢ / ١٩٧) .

وروى ابن جرير: عن القاسم بن ربيعة قال: سمعت سعد بن أبي وقاص يقرأ: « مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسَاهَا » قال: قلت له: فإن سعيد بن المسيب يقرأ: « أَوْ نُنسَاهَا ». قال: فقال سعد: إن القرآن لم ينزل على المسيب ولا على آل المسيب، قال الله، جل ثناؤه: ﴿ سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ [الأعلى: ٦] ﴿ وَأَذْكُرُ رَيْكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف: ٢٤] . وكذا رواه عبد الرزاق، وأخرجه الحاكم وقال: على شرط الشيخين، ولم يخرجاه ^(١) . قال ابن أبي حاتم: وروى عن محمد بن كعب، وقتادة، وعكرمة، نحو قول سعيد.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس، قال : قال عمر : على أقضانا، وأبى أقرؤنا. وإنما لندع من قول أبى، وذلك أن أبيا يقول: ما أَدْع شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ ، والله يقول : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ . ورواه البخارى بنحوه (٢) .

وقوله: ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ أى: فى الحكم بالنسبة إلى مصلحة المكلفين، وقال أبو العالية: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ فلا نعمل بها، ﴿ أَوْ نُنسَاهَا ﴾ أى: نرجئها عندنا ، نأت بها أو نظيرها. وقال قتادة: ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ يقول: آية فيها تخفيف، فيها رخصة، فيها أمر، فيها نهى.

وقوله: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ : يرشد تعالى بهذا إلى أنه المتصرف فى خلقه بما يشاء، فله الخلق والأمر وهو المتصرف، فكما يخلقهم كما يشاء ، يسعد من يشاء، ويشقى من يشاء، ويصح من يشاء، ويمرض من يشاء، ويوفق من يشاء، ويخذل من يشاء، كذلك يحكم فى عباده بما يشاء، فيحل ما يشاء، ويحرم ما يشاء، ويبيح ما يشاء، ويحظر ما يشاء، وهو الذى يحكم ما يريد لا معقب لحكمه. ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون. ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ، فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التى يعلمها تعالى، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى. فالطاعة كل

(١) رواه الطبرى بثلاثة أسانيد (١٧٥٥ - ١٧٥٧) وأحدها من طريق عبد الرزاق ، وهو فى تفسير عبد الرزاق ، ص ١١٠ (مخطوط مصور عندى) . ورواية الحاكم فى المستدرک (٢ / ٢٤٢) .

والذى فى رواية تفسير عبد الرزاق ورواية الحاكم أن قراءة سعد بن أبى وقاص « أَوْ نُنسَاهَا » ، وقراءة ابن المسيب « أَوْ نُنسَاهَا » وهو الثابت فى مخطوطة مختصر المستدرک للذهبي ، ص ٢٦٥ . وهذا - عندى - هو الصواب، خلافاً لما ثبت فى طبعتنا للطبرى ومطبوعة ابن كثير ومخطوطة الأزهر - لأنه هو المناسب لسياق الكلام، لا يفهم على وجهه إلا به .

وقد نقل الحافظ ابن حجر فى الفتح (٨ / ١٢٧ ، ١٢٨) هذا الخبر ، فقال : « وأما قراءة من قرأ بضم أوله فمن النسيان ، وكذلك كان سعيد بن المسيب يقرؤها ، فأنكر عليه سعد بن أبى وقاص - أخرجه النسائى وصححه الحاكم . وكانت قراءة سعد « أَوْ نُنسَاهَا » بفتح الناء ، خطاباً للنبي ﷺ ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ . وهو يوافق ما رجحنا فى قراءة ابن المسيب . وأما قراءة سعد فلا تتجه على النحو الذى ضبطه الحافظ مع الاستدلال بالأية . وإنما تتجه على ما أثبتنا ، أنها « نُنسَاهَا » ، أى : تؤخرها .

(٢) هو فى المسند (٥ / ١١٣ حلى) ، والبخارى (٨ / ١٢٧ فتح) .

الطاعة فى امتثال أمره واتباع رسله فى تصديق ما أخبروا. وامتثال ما أمروا. وترك ما عنه زجروا. وفى هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ، لكفر اليهود وتزييف شبهتهم - لعنهم الله- فى دعوى استحالة النسخ إما عقلا، كما زعمه بعضهم جهلا وكفراً، وإما نقلا كما تخرصه آخرون منهم افتراء وإفكا.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: فتأويل الآية: ألم تعلم أن لى ملك السموات والأرض وسلطانهما دون غيرى، أحكم فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وأمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وأنهى عما أشاء، وأنسخ وأبدل وأغير من أحكامى التى أحكم بها فى عبادى بما أشاء إذا أشاء، [وأقر فيهما ما أشاء] ^(١). ثم قال: وهذا الخبر وإن كان من الله تعالى خطاباً لنبيه ﷺ على وجه الخبر عن عظمته - فإنه منه تكذيب لليهود الذين أنكروا نَسْخَ أحكام التوراة، وجحدوا نبوة عيسى ومحمد، عليهما الصلاة والسلام، لمجيئهما بما جاء به من عند الله بتغيير ما غير الله من حكم التوراة. فأخبرهم الله أن له ملك السموات والأرض وسلطانهما، وأن الخلق أهل مملكته وطاعته وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه، وأن له أمرهم بما يشاء، ونهيهم عما يشاء، ونسخ ما يشاء، وإقرار ما يشاء، وإنشاء ما يشاء من إقراره وأمره ونهيه.

قلت: الذى يحمل اليهود على البحث فى مسألة النسخ، إنما هو الكفر والعناد، فإنه ليس فى العقل ما يدل على امتناع النسخ فى أحكام الله تعالى؛ لأنه يحكم ما يشاء كما يفعل ما يريد، مع أنه قد وقع ذلك فى كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية، كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه، ثم حرم ذلك، وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات، ثم نسخ حل بعضها، وكان نكاح الأختين مباحاً لإسرائيل وبنيه، وقد حرم ذلك فى شريعة التوراة وما بعدها، وأشياء كثيرة يطول ذكرها، وهم يعترفون بذلك ويصدفون عنه! وما يجاب به عن هذه الأدلة بأجوبة لفظية، فلا يصرف الدلالة فى المعنى، إذ هو المقصود، كما فى كتبهم مشهوراً من البشارة بمحمد ﷺ والأمر باتباعه، فإنه يفيد وجوب متابعتة، عليه السلام، وأنه لا يقبل عمل إلا على شريعته. وسواء قيل: إن الشرائع المتقدمة مُغيَّاة إلى بعثته، عليه السلام، فلا يسمى ذلك نسخاً كقوله: ﴿ ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ [البقرة: ١٨٧] ، وقيل: إنها مطلقة، وإن شريعة محمد ﷺ نسختها، فعلى كل تقدير فوجوب متابعتة متعين لأنه جاء بكتاب هو آخر الكتب عهداً بالله تبارك وتعالى.

وقال أبو مسلم الأصبهاني المفسر: لم يقع شيء من ذلك فى القرآن! وقوله ضعيف مردود مرذول. وقد تعسف فى الأجوبة عما وقع من النسخ! فمن ذلك: قضية العدة بأربعة أشهر وعشر بعد الحول، لم يجب على ذلك بكلام مقبول، وقضية تحويل القبلة إلى الكعبة، عن بيت المقدس ولم يجب بشيء، ومن ذلك: نسخ مصابرة المسلم لعشرة من الكفرة إلى مصابرة

الاثنين، ومن ذلك نسخ وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ وغير ذلك، والله أعلم (١).

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (١٠٨)

نهى الله تعالى في هذه الآية الكريمة، عن كثرة سؤال النبي ﷺ عن الأشياء قبل كونها، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١] أى: وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم، ولا تسألوا عن الشيء قبل كونه؛ فلعله أن يحرم من أجل تلك المسألة. ولهذا جاء في الصحيح: «إِنْ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْماً مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يَحْرَمْ، فَحَرَمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ». ولما سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عن الرجل يجد مع امرأته رجلاً، فإن تكلم تكلم بأمر عظيم، وإن سكت سكت عن مثل ذلك؛ فكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها. ثم أنزل الله تعالى حكم الملاعة. ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة: أن رسول الله ﷺ كان ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال. وفي صحيح مسلم: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه». وهذا إنما قاله بعد ما أخبرهم أن الله كتب عليهم الحج. فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ ثلاثاً. ثم قال، عليه السلام: «لا، ولو قلت: نعم لوجبت، ولو وجبت لما استطعتم». ثم قال: «ذروني ما تركتكم» الحديث. وهكذا قال أنس بن مالك: نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ، فَكَانَ يَعْجِبُنَا أَنْ يَأْتِيَ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَيَسْأَلُهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ. وروى أبو يعلى الموصلي عن البراء بن عازب، قال: إن كان ليأتني على السنة أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن شيء فأنهيب منه، وإن كنا لتتمنى الإعراب (٢). وروى البزار: عن ابن عباس، قال: ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب محمد ﷺ؛ ما سألوه إلا عن اثنتي عشر مسألة، كلها في القرآن: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، و﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، و﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ [البقرة: ٢٢٠] يعنى: هذا وأشباهه (٣).

(١) رأى أبى مسلم الأصبهاني الرد عليه - لم يذكر في الأزهرية. وأثبتناه لجودته وإتقانه، ولما يتجه إليه كلام المجددين في هذا العصر!! للانتصار لهذا الرأي «الضعيف المردول»، اجتهدا منهم، زعموا!! وقد كتب أستاذنا السيد رشيد رضا بهامش هذا الموضع دفاعاً عن أبى مسلم ضعيفاً لا طائل تحته.

(٢) لم أجده في مجمع الزوائد. وإسناده صحيح.

(٣) رواه أيضاً الدارمي (١ / ٥٠، ٥١). وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١ / ١٥٨، ١٥٩)، ولكن عندهما «عن ثلاث عشرة مسألة». وقال الهيثمي: «رواه الطبراني في الكبير، وفيه عطاء بن السائب، وهو ثقة، ولكنه اختلط، وبقيّة رجاله ثقات». فلم ينسبه للبزار مع الطبراني، ولعله سهو منه. وإسناد الدارمي وإسناد البزار الذي نقله ابن كثير - هما من طريق «ابن فضيل عن عطاء». وابن فضيل سمع من عطاء بعد اختلاطه. فيكون هذا الإسناد حسناً.

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلَ ۚ أَىٰ: بل تريدون. أو هى على بابها فى الاستفهام، وهو إنكارى، وهو يعم المؤمنين والكافرين، فإنه، عليه السلام، رسول الله إلى الجميع، كما قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ [النساء: ١٥٣]. والمراد: أن الله ذم من سأل الرسول ﷺ عن شئ، على وجه التعنت والافتراء، كما سألت بنو إسرائيل موسى، عليه السلام، تعنتاً وتكديباً وعناداً، قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَّبِدْ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ ۚ أَى: ومن يشتر الكفر بالإيمان ﴾ ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۚ أَى: فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد لهم، إلى مخالفتهم وتكذيبهم والافتراء عليهم بالاستئلة التى لا يحتاجون إليها، على وجه التعنت والكفر، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَآحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۚ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ۚ ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۚ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَّجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طرائق الكفار من أهل الكتاب، ويعلمهم بعداوتهم لهم فى الباطن والظاهر وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين، مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم. ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو والاحتمال، حتى يأتى أمر الله من النصر والفتح. ويأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. ويحثهم على ذلك ويرغبهم فيه، كما روى محمد بن إسحاق، عن ابن عباس، قال: كان حبيب بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد يهود للعرب حسداً، إذ خصهم الله برسوله ﷺ، وكانا جاهدين فى رد الناس عن الإسلام ما استطاعا، فأنزل الله فيهما: ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ ۚ ﴾ الآية. ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ قال ابن عباس: من بعد ما أضاء لهم الحق، لم يجهلوا منه شيئاً، ولكن الحسد حملهم على الجحود، فعيروهم وبوخهم ولاهمهم أشد الملامة، وشرع لنبيه ﷺ وللمؤمنين ما هم عليه من التصديق والإيمان والإقرار بما أنزل عليهم وما أنزل من قبلهم، بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم. وقال أبو العالية: ما تبين لهم أن محمداً رسول الله يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل، فكفروا به حسداً وبغياً؛ إذ كان من غيرهم.

وقوله تعالى: ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۚ ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿ وَتَسْمَعُنَ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦]. قال ابن عباس فى قوله: ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۚ ﴾ نسخ ذلك قوله: ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ۚ ﴾ [التوبة: ٥]، وقوله: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ

مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ [التوبة: ٢٩] فَتَسَحَّ هذا عفوه عن المشركين . قتادة ، والسدى : إنها منسوخة بآية السيف ، ويرشد إلى ذلك أيضاً قوله : ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ . وروى ابن أبى حاتم : عن أسامة بن زيد قال : كان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب ، كما أمرهم الله ، ويصبرون على الأذى ، قال الله : ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وكان رسول الله ﷺ يتأول من العفو ما أمره الله به ، حتى أذن الله فيهم بقتل ، فقتل الله به من قتل من صناديد قريش . وإسناده صحيح ، ولم أره فى شيء من الكتب الستة ، ولكن له أصل فى الصحيحين عن أسامة بن زيد (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ يحثهم تعالى على الاشتغال بما ينفعهم وتعود عليهم عاقبته يوم القيامة ، من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، حتى يمكن لهم الله النصر فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر: ٥٢] ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ يعنى : أنه تعالى لا يغفل عن عمل عامل ، ولا يضيع لديه ، سواء كان خيراً أو شراً ، فإنه سيجازى كل عامل بعمله . وقال أبو جعفر بن جرير فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ : هذا الخبر من الله للذين خاطبهم بهذه الآيات من المؤمنين ، أنهم مهما فعلوا من خير أو شر ، سرا أو علانية - فهو به بصير لا يخفى عليه منه شيء ، فيجزئهم بالإحسان خيراً ، وبالإساءة مثلاً . وهذا الكلام وإن كان قد خرج مخرج الخبر ، فإن فيه وعداً ووعداً وأمرأ وزجراً . وذلك أنه أعلم القوم أنه بصير بجميع أعمالهم ليجدوا فى طاعته إذ كان ذلك مدخراً لهم عنده ، حتى يثيبهم عليه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ، وليحذروا معصيته . قال : وأما قوله : ﴿ بَصِيرٌ ﴾ فإنه « مبصر » صرف إلى « بصير » ، كما صرف « مبدع » إلى « بديع » ، و « مؤلم » إلى « أليم » ، والله أعلم .

﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

(١) هذا الحديث رواه ابن أبى حاتم عن أبيه عن أبى اليمان . وهو قطعة من حديث طويل ، رواه البخارى (٨ / ١٧٣ - ١٧٥ فتح) . ورواه مسلم أيضاً . ولكن ظن الحافظ ابن كثير أنه حديث مستقل ، فكاد ينفى أنه فى الكتب الستة ، ولكنه استدرك بعد ذلك فزاد الجملة الأخيرة : أن له أصلاً فى الصحيحين . وهذه الجملة ليست فى المخطوطة الأزهرية . وقد ذكره السيوطى فى الدر المنثور (١٠٧ / ١) مختصراً ، أطول قليلاً مما هنا ، ونسبه للصحيحين وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والبيهقى فى الدلائل ، وأجاد فى ذلك .

يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه، حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها، كما أخبر الله عنهم فى سورة المائدة أنهم قالوا: ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [المائدة: ١٨]. فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم، ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك، وكما تقدم من دعواهم أنه لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، ثم ينتقلون إلى الجنة. ورد عليهم تعالى فى ذلك، وهكذا قال لهم فى هذه الدعوى التى ادعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة، فقال: ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾. قال أبو العالية: أمانى تمنوها على الله بغير حق. وكذا قال قتادة. ثم قال تعالى: ﴿ قُلْ ﴾ أى: يا محمد، ﴿ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ قال أبو العالية ومجاهد حجتكم. وقال قتادة: بينتكم على ذلك. ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ كما تدعونه.

ثم قال تعالى: ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أى: من أخلص العمل لله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعِيَ ﴾ الآية [آل عمران: ٢٠]. ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أى: متبع فيه الرسول ﷺ. فإن للعمل المتقبل شرطين، أحدهما: أن يكون خالصاً لله وحده، والآخر: أن يكون صواباً موافقاً للشرعة. فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل؛ ولهذا قال ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد». رواه مسلم من حديث عائشة. فعمل الرهبان ومن شابههم - وإن فرض أنهم يخلصون فيه لله - فإنه لا يتقبل منهم، حتى يكون ذلك متابعاً للرسول محمد ﷺ، المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، وفيهم وأمثالهم، قال الله تعالى: ﴿ وَقَدْ مَنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَا مَبَاءَ مَثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ [النور: ٣٩]. روى عن أمير المؤمنين عمر أنه تأولها فى الرهبان. وأما إن كان العمل موافقاً للشرعة فى الصورة الظاهرة، ولكن لم يخلص عامله القصد لله، فهو أيضاً مردود على فاعله. وهذا حال المنافقين والمرائين، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالٍ يُرَاءَوْنَ النَّاسَ وَلَا يُذَكِّرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿ قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ. الَّذِينَ هُمْ يُرَاءَوْنَ. وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ [الماعون: ٤ - ٧]، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠]. وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾.

وقوله: ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾: ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور، وآمنهم بما يخافونه من المحذور ف ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ فيما يستقبلونه، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما مضى مما يتركونه، كما قال سعيد بن جبير: ف ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ يعنى: فى الآخرة ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ للموت.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾: يبين به تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاذيبهم وتعاذدهم. كما روى محمد بن إسحاق، عن ابن عباس، قال: لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ، أتتهم

أحبار يهود، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ، فقال رافع بن خريملة: ما أنتم على شيء، وكفر بعيسى وبالإنجيل. وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء. وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة. فانزل الله تعالى في ذلك من قولهما: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾. قال: إن كلا يتلو في كتابه تصديق من كفر به، أى: يكفر اليهود بعيسى وعندهم التوراة، فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى، وفى الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى، وما جاء من التوراة من عند الله، وكل يكفر بما فى يدي صاحبه. وقال مجاهد فى تفسير هذه الآية: قد كانت أوائل اليهود والنصارى على شيء. وظاهر سياق الآية يقتضى ذمهم فيما قالوه، مع علمهم بخلاف ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ أى: وهم يعلمون أن شريعة التوراة والإنجيل، كل منهما قد كانت مشروعة فى وقت، ولكن تجاحدوا فيما بينهم عناداً وكفراً ومقابلة للفاسد بالفاسد، كما تقدم عن ابن عباس .

وقوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾: يُبَيِّنُ بهذا جهل اليهود والنصارى فيما تقابلوا به من القول، وهذا من باب الإيماء والإشارة. وقد اختلف فيمن عنى بقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فقال الربيع بن أنس وقاتدة: قالت النصارى مثل قول اليهود وقيلهم. وقال السدى: فهم العرب، قالوا: ليس محمد على شيء. واختار ابن جرير أنها عامة تصلح للجميع، وليس ثم دليل قاطع يعين واحداً من هذه الأقوال، فالحمل على الجميع أولى، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أى: أنه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد، ويفصل بينهم بقضائه العدل الذى لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة. وهذه الآية كقوله تعالى فى سورة الحج: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [الحج: ١٧]، وكما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ [سبا: ٢٦] .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

اختلف المفسرون فى المراد من الذين منعوا مساجد الله وسعوا فى خرابها على قولين:

أحدهما: ما رواه العوفى فى تفسيره، عن ابن عباس قال: هم النصارى. وعن قتادة: هو بُخْتَنَصْرُ وأصحابه، خَرَّبَ بيت المقدس، وأعانه على ذلك النصارى.

القول الثانى: ما رواه ابن جرير: عن ابن زيد قال: هؤلاء المشركون حين حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية، وبين أن يدخل مكة حتى نحر هديه بذى طُوًى وهادنهم، وقال لهم: ما كان أحد يصدُّ عن هذا البيت، وقد كان الرجل يلقي قاتل أبيه وأخيه فلا يصدّه. فقالوا: لا يدخل علينا مَنْ قتل آبائنا يوم بدر وفينا باق. وروى ابن أبى حاتم: عن ابن عباس: أن قُرَيْشاً

منعوا النبي ﷺ الصلاة عند الكعبة فى المسجد الحرام، فأنزل الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾. ثم اختار ابن جرير القول الأول، واحتج بأن قريشاً لم تسع فى خراب الكعبة. وأما الروم فسعوا فى تخريب بيت المقدس.

قلت: والذى يظهر - والله أعلم - القول الثانى، كما قاله ابن زيد، وروى عن ابن عباس؛ لأن النصرارى إذ منعت اليهود الصلاة فى البيت المقدس، كان دينهم أقوم من دين اليهود، وكانوا أقرب منهم، ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولا إذ ذاك؛ لأنهم لعنوا من قبل على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. وأيضاً فإنه تعالى لما وجه الذم فى حق اليهود والنصارى، شرع فى ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول ﷺ وأصحابه من مكة، ومنعواهم من الصلاة فى المسجد الحرام، وأما اعتماده على أن قريشاً لم تسع فى خراب الكعبة، فأى خراب أعظم مما فعلوا؟! أخرجوا عنها رسول الله ﷺ وأصحابه، واستحذوا عليها بأصنامهم وأناداهم وشركهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُتَفَقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ . إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّوهُمْ فَتَضَيِّكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بَغِيرَ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَرَيُوا لَعَذَابَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ [الفتح: ٢٥]، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]، فإذا كان من هو كذلك مطروداً منها مصدوداً عنها، فأى خراب لها أعظم من ذلك؟! وليس المراد بعماريتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط، إنما عمارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعه فيها، ورفعها عن الدنس والشرك.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾: هذا خبر معناه الطلب، أى: لا تُمكنوا هؤلاء - إذا قدرتم عليهم - من دخولها إلا تحت الهدنة والجزية. ولهذا لما فتح رسول الله ﷺ مكة أمر من العام القابل فى سنة تسع أن ينادى برحاب منى: «ألا لا يحججن بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان، ومن كان له أجل فأجله إلى مدته». وهذا كان تصديقاً وعملاً بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾. وقيل: إن هذا بشارة من الله للمسلمين أنه سيظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد، وأنه يذل المشركين لهم حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم إلا خائفاً، يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل إن لم يسلم. وقد أنجز الله هذا الوعد كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام، وأوصى رسول الله ﷺ أن لا يبقى بجزيرة العرب دينان، وأن تجلى اليهود والنصارى منها، والله الحمد والمنة. وما ذاك إلا لتشريف أكتاف المسجد الحرام وتطهير البقعة

التي بعث الله فيها رسوله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً صلوات الله عليه . وهذا هو الخزي لهم في الدنيا؛ لأن الجزء من جنس العمل . فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام، صدوا عنه، وكما أجلوهم من مكة، أجلّوا عنها. ﴿ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ على ما انتهكوا من حرمة البيت، وامتهنوه من نصب الأصنام حوله، والدعاء إلى غير الله عنده والطواف به عرياً، وغير ذلك من أفاعيلهم التي يكرهها الله ورسوله .

وأما من فسّر بيت المقدس . فهذا لا ينفي أن يكون داخلاً في معنى عموم الآية فإن النصارى لما ظلموا بيت المقدس، بامتهان الصخرة التي كانت يصلون إليها اليهود، عوقبوا شرعاً وقَدَرًا بالذلة فيه، إلا في أحيان من الدهر امتحن بهم بيت المقدس وكذلك اليهود لما عصوا الله فيه أيضاً أعظم من عصيان النصارى كانت عقوبتهم أعظم، والله أعلم . وفسر هؤلاء الخزي في الدنيا بخروج المهدي . وفسره قتادة بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون . والصحيح: أن الخزي في الدنيا أعم من ذلك كله، وقد ورد الحديث بالاستعاذة من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ، فروى الإمام أحمد عن بُسر بن أرطاة، قال: كان رسول الله ﷺ يدعو: «اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة» . وهذا حديث حسن، وليس هو في شيء من الكتب الستة (١) .

﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِعَ عَلَيْهِ ﴾

وهذا - والله أعلم - فيه تسلية للرسول ﷺ وأصحابه الذين أخرجوا من مكة وفارقوا مسجدهم ومُصَلَّاهم، وقد كان رسول الله ﷺ يصلى بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه . فلما قدم المدينة وُجِهَ إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، ثم صرفه الله إلى الكعبة بعد، ولهذا يقول تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ .

روى أبو عبيد القاسم بن سلام، في كتاب الناسخ والمنسوخ: عن ابن عباس، قال: أول ما نسخ من القرآن - فيما ذكر لنا والله أعلم - شأن القبلية: قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾، فاستقبل رسول الله ﷺ فصلى نحو بيت المقدس، وترك البيت العتيق، ثم صرفه الله إلى بيته العتيق ونسخها، فقال: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ (٢) .

- (١) المسند (١٧٧/٥) ورواه البخارى في التاريخ الكبير (١٢٢/٢/١)، (١٢٣) بالإشارة إليه كعادته فيه . وذكر الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٨/١٠)، ونسبه لأحمد والطبراني، وقال: «رجال أحمد وأحد أسانيد الطبراني ثقات» .
(٢) إسناده صحيح . ورواه الحاكم في المستدرک (٢٦٧/٢) من طريق ابن جريج . وقال: «صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه بهذا السبابة» ووافقه الذهبي . ولكن سقط أول إسناده إلى ابن جريج من نسخة المستدرک، وموضعه هناك بياض . ورواه البيهقي في السنن الكبرى (١٢/٢) عن الحاكم، من طريق ابن جريج . فيستفاد أول إسناده الحاكم من سنن البيهقي - في موضع ذاك البياض . وذكره السيوطي في الدر المنثور (١٠٨/١)، وزاد نسبه لابن المنذر وابن أبي حاتم . ورواية ابن أبي حاتم أشار إليها ابن كثير - بعد هذه الرواية .

وقال ابن أبي حاتم - بعد روايته الأثر المتقدم ، عن ابن عباس ، فى نسخ القبلة ، عن عطاء ، عنه : وروى عن أبى العالية ، والحسن ، وعطاء الخراسانى ، وعكرمة ، وقتادة ، والسدى ، وزيد بن أسلم ، نحو ذلك .

وقال ابن جرير : وقال آخرون : بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض التوجه إلى الكعبة ، وإنما أنزلها تعالى ليعلم نبيه ﷺ وأصحابه أن لهم التوجه بوجوههم للصلاة ، حيث شاؤوا من نواحي المشرق والمغرب ؛ لأنهم لا يوجهون وجوهاً من ذلك وناحية إلا كان جل ثناؤه فى ذلك الوجه وتلك الناحية ؛ لأن له تعالى المشرق والمغرب ، وأنه لا يخلو منه مكان ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ [المجادلة : ٧] ، قالوا : ثم نسخ ذلك بالفرض الذى فَرَضَ عليهم التوجُّه إلى المسجد الحرام . هكذا قال ، وفى قوله : «وإنه تعالى لا يخلو منه مكان» : إن أراد علمه تعالى فصحيح ؛ فإن علمه تعالى محيط بجميع المعلومات ، وأما ذاته تعالى فلا تكون محصورة فى شىء من خلقه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً (١) .

قال ابن جرير : وقال آخرون : بل نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ إذناً من الله أن يصلى المتطوع حيث توجه من شرق أو غرب ، فى مسيره فى سفره ، وفى حال المسابقة وشدة الخوف . ثم روى عن ابن عمر : أنه كان يصلى حيث توجهت به راحلته . ويذكر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك ، ويتأول هذه الآية : ﴿ فَأَيُّمَا تَوَلَّوْا فَمُوجَّهٌ إِلَهُ ﴾ . ورواه مسلم والترمذى والنسائى وابن أبي حاتم وابن مَرْذُويَّه (٢) ، وأصله فى الصحيحين من حديث ابن عمر وعامر ابن ربيعة ، من غير ذكر الآية . وفى صحيح البخارى ، عن ابن عمر : أنه كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها . ثم قال : فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالاً قياماً على أقدامهم ، وركبانا مستقبلى القبلة وغير مستقبلها . قال نافع : ولا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبى ﷺ .

قال ابن جرير : وقال آخرون : بل نزلت هذه الآية فى قوم عُمِيَّتْ عليهم القبلة ، فلم يعرفوا شَطْرَهَا ، فصلوا على أنحاء مختلفة ، فقال الله تعالى : لى المشرق والمغرب فأين وليتم وجوهكم فهنا لك وجهى ، وهو قبلتكم فعليكم بذلك ، إنَّ صلاتكم ماضية [ثم ذكر حديثاً ضعيفاً رواه الطبرى فى هذا . وأبان ابن كثير عن ضعفه جداً] . وروى الترمذى عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « ما بين المشرق والمغرب قبلة » . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح (٣) . وقد روى عن غير واحد من الصحابة : « ما بين المشرق والمغرب قبلة » منهم عمر بن الخطاب ،

(١) لا يفهم من كلام الطبرى إلا الوجه الأول الصحيح . وقد صرح بذلك فى تفسير سورة المجادلة (٢٨ / ١٠ طبعة بولاق) . ولكن هذه الشبهة إنما جاءت بما غلب على الناس من اصطلاحات علماء الكلام المتأخرين ، حتى تكاد تخرج العربية عن دلالتها الصحيحة .

(٢) صحيح مسلم (١ / ١٩٥) ورواه أيضاً أحمد فى المسند (٤٧١٤ ، ٥٠٠١) .

(٣) الترمذى (١ / ٣٤٤) (٢ / ١٧٣) بشرحنا . ورواه ابن ماجه ، ونسبه السيوطى فى الدر المنثور (١ / ١٠٩) لابن أبى شيبة أيضاً .

وعلى ، وابن عباس . وقال ابن عمر : إذا جعلت المغرب عن يمينك والمشرق عن يسارك ، فما بينهما قبة ، إذا استقبلت القبلة (١) .

قال ابن جرير : ويحتمل : فأينما تولوا وجوهكم في دعائكم لى فهناك وجهى أستجيب لكم دعاءكم ، ثم روى عن مجاهد قال : لما نزلت : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] ، قالوا : إلى أين ؟ فنزلت : ﴿ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَهِيَ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ . قال ابن جرير : ويعنى بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ : يسع خلقه كلهم بالكفاية ، والإفضال والجود . وأما قوله : ﴿ عَلِيمٌ ﴾ فإنه يعنى : عليم بأعمالهم ، ما يغيب عنه منها شئ ، ولا تعزب عن علمه ، بل هو بجميعها عليم .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَّمْ يَلَمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمٍ قَدِينُونَ ﴾
﴿ ١١٦ ﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿ ١١٧ ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة (٢) ، والتي قبلها على الرد على النصارى - عليهم لعائن الله - وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركى العرب ، ممن جعل الملائكة بنات الله ، فأكذب الله جميعهم فى دعواهم وقولهم : إن لله ولدا ، فقال تعالى : ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ أى : تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً ﴿ بَلْ لَّمْ يَلَمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : ليس الأمر كما افتروا ، وإنما له ملك السموات والأرض ، وهو المتصرف فيهم ، وهو خالقهم ورازقهم ، ومُقدِّرهم ومسخرهم ، ومسيرهم ومصرفهم ، كما يشاء . والجميع عبيد له وملك له ، فكيف يكون له ولد منهم ؟ والولد إنما يكون متولداً من شيئين متناسين ، وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ، ولا مشارك فى عظمته وكبريائه ولا صاحبة له ، فكيف يكون له ولد؟! كما قال تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام : ١٠١] وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم : ٨٨ - ٩٥] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [سورة الإخلاص] .

فقرر تعالى فى هذه الآيات الكريمة أنه السيد العظيم ، الذى لا نظير له ولا شبيه له ، وأن

(١) وروى الحاكم (١ / ٢٠٥) عن ابن عمر ، أن النبى ﷺ قال : « ما بين المشرق والمغرب قبة » وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى . وكذلك رواه الدارقطنى والبيهقى .

وهذا اللفظ عام وخاص : عام لرفع الحرج عن تحرى يمين القبلة لمن هو ناء عنها ، يكفى أن يتجه نحو القبلة . وخاص بالجهات التى شمالى مكة وجنوبها ، كالمدينة واليمن . أما الجهات التى تكون شرق مكة فإنما يتجهون لجهة الغرب ، وما كان بين الشرق والغرب ، وبين الشمال والجنوب ، فإنهم يتجهون إلى الجهة التى تواجه مكة من قبلهم ، كما هو البديهى الذى لا يحتاج إلى دليل .
(٢) أى الآية (١١٧) . (الباز) .

جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة ، فكيف يكون له منها ولد؟! ولهذا روى البخارى عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ ، قال : « قال الله تعالى : كَذَّبْنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّائِي فَيَزْعَمُ أَنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّائِي فَقَوْلُهُ : لِي وَلَدٌ . فَسَبَّحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا » . انفرد به البخارى من هذا الوجه (١) . وروى ابن مردويه : عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله عز وجل : كَذَّبْنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَنْبَغْ لَهُ أَنْ يَكْذِبْنِي ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَنْبَغْ لَهُ أَنْ يَشْتَمَنِي ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّائِي فَقَوْلُهُ : لَنْ يَعِيدَنِي كَمَا بَدَأْنِي . وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ . وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّائِي فَقَوْلُهُ : اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا . وَأَنَا اللَّهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْوًا أَحَدٌ » (٢) . وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَدَى سَمْعِهِ مِنَ اللَّهِ ؛ إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا ، وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ » (٣) .

وقوله : « كُلُّهُ قَانُتُونٌ » قال عكرمة : مُقْرُونٌ له بالعبودية . وقال سعيد بن جبيرة : الإخلاص . وقال مجاهد : مطيعون . طاعة الكافر فى سجود ظله وهو كاره . وهذا القول عن مجاهد - وهو اختيار ابن جرير - يجمع الأقوال كلها ، وهو أن القنوت : هو الطاعة والاستكانة إلى الله ، وذلك شرعى وقدرى ، كما قال تعالى : « وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا هُمْ بِالْفُتُورِ وَالْأَصَالِ » [الرعد : ١٥] .

وقوله تعالى : « بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى : خالقهما على غير مثال سبق ، قاله مجاهد والسدى ، وهو مقتضى اللغة . ومنه يقال للشئ المحدث : بدعة . كما جاء فى الصحيح لمسلم : « فَإِنْ كُلُّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ » . والبدعة على قسمين ، تارة تكون بدعة شرعية ، كقوله : « فَإِنْ كُلُّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ » . وتارة تكون بدعة لغوية ، كقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، عن جمعه إياهم على صلاة التراويح واستمرارهم : نَعَمْتُ الْبَدْعَةُ هَذِهِ . وقال ابن جرير : « بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » مبدعهما . وإنما هو مُفْعِلٌ فَصْرٌ إِلَى فَعِيلٍ ، كما صرف المؤلم إلى الأليم ، والمسمع إلى السميع . ومعنى البديع : المنشئ والمحدث ما لم يسبقه إلى إنشاء مثله وإحداثه أحد . قال : ولذلك سُمِيَ الْمُبْتَدِعُ فى الدين مُبْتَدِعًا ؛ لِإِحْدَاثِهِ فِيهِ مَا لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَيْهِ غَيْرُهُ ، وكذلك كل محدث قولاً أو فعلاً لم يتقدمه فيه متقدم ، فإن العرب تسميه « مُبْتَدِعًا » . قال ابن جرير : فمعنى الكلام : فسبحان الله ، أنى يكون لله ولد ، وهو مالك ما فى السموات والأرض ، تشهد له جميعها - بدالاتها عليه - بالوحدانية ، وتقر له بالطاعة ، وهو بارئها وخالقها وموجدوها من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه . وهذا إعلام من الله عباده أن من يشهد له بذلك المسيح ،

(١) (٨ / ١٢٨ من الفتح) .

(٢) ورواه البخارى أيضاً (٨ / ٥٦٨) ونسبه السيوطى فى الدر المنثور (١ / ١٠٩) إليهما وإلى البيهقى فى الأسماء والصفات .

(٣) البخارى (١٣ / ٣٠٥ فتح) ، ومسلم (٢ / ٣٤٤) من حديث أبى موسى الأشعرى .

الذى أضافوا إلى الله بُنُوته؛ وإخبار منه لهم أن الذى ابتدع السموات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال، هو الذى ابتدع المسيح من غير والد بقدرته. وهذا من ابن جرير، رحمه الله ، كلام جيد وعبرة صحيحة.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾: يبين بذلك تعالى كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنه إذا قَدَّرَ أمراً وأراد كونه، فإنما يقول له: ﴿ كُنْ ﴾. أى: مرة واحدة، ﴿فَيَكُونُ﴾، أى: فيوجد على وفق ما أراد، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢] وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠] وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر: ٥٠]. وبَّه تعالى بذلك أيضاً على أنه خلق عيسى بكلمة: كُنْ، فكان كما أمره الله، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩] .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس، قال: قال رافع بن حرملة لرسول الله ﷺ: يا محمد، إن كنت رسولا من الله كما تقول، فقل لله فليُكَلِّمُنَا حتى نسمع كلامه! فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴾. وقال مجاهد : النصرارى تقول: وهو اختيار ابن جرير، قال: لأن السياق فيهم. وفي ذلك نظر. وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والسدى في تفسير هذه الآية: هذا قول كفار العرب و﴿ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ هم اليهود والنصارى. ويؤيد هذا القول، وأن القائلين ذلك هم مشركو العرب، قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ (١) [الأنعام: ١٢٤]. وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا مِثْلَ آبٍ أَوْ تُنْزِلَ عَلَيْنَا مِثْلَ بَلَدٍ . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤه قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَايِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢١]، وقوله: ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنشُورَةً ﴾ [المدثر: ٥٢] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركى العرب وعتوهم وعنادهم وسؤالهم ما لا حاجة لهم به، إنما هو الكفر والمعاندة، كما قال من قبلهم من الأمم الخالية من أهل الكتابين وغيرهم، كما قال تعالى:

(١) الآية (١٢٤) من سورة الأنعام . وآخرها من قوله : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ ﴾ لم يذكر في المطبوعة ، وهو ثابت في المخطوطة . وقوله : ﴿ رسالاته ﴾ بالجمع . هكذا ثبت فيها . وقراءة عبد الله بن كثير وحفص : ﴿ رسالته ﴾ بالافراد . وقرأ باقى القراء السبعة بالجمع .

﴿يَسْأَلُ أَهْلَ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

وقوله: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أى: أشبهت قلوب مشركى العرب قلوب مَنْ تقدمهم فى الكفر والعناد والعتو، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ . أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣] .

وقوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أى: قد وَضَحْنَا الدلالات على صدق الرسل بما لا يحتاج معها إلى سؤال آخر وزيادة أخرى، لمن أيقن وصدق واتبع الرسل، وفهم ما جاؤوا به من الله تبارك وتعالى . وأما من ختم الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة فأولئك الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] .

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾

روى ابن أبى حاتم: عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «أنزلت على: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾» قال: «بشيراً بالجنة، ونذيراً من النار» (١) .

وقوله: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾: قراءة أكثرهم: ﴿وَلَا تُسْأَلُ﴾ بضم التاء على الخبر . وقرأ آخرون: «وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ» بفتح التاء على النهي، أى: لا تسأل عن حالهم (٢) . وروى أحمد عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة؟ فقال: أجل، والله إنه لموصوف فى التوراة بصفته فى القرآن: «يأبها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأمينين، وأنت عبدى ورسولى، سميتك المتوكل، لا فظاً ولا غليظ ولا سحاب فى الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله . فيفتح به أعينا عمياً، وآذاناً صمًا، وقلوباً غلفاً» . انفرد بإخراجه البخارى، ورواه ابن مردويه (٣) .

(١) إسناده ليس بالقوى . فيه «عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الفزارى العزمى» : روى ابن أبى حاتم (٢ / ٢٨٢) عن أبيه قال : «ليس بقوى» . وفى لسان الميزان (٣ / ٤٢٨ ، ٤٢٩) أنه ضعفه الدارقطنى، وذكره ابن حبان فى الثقات . والغالب فى هذا الحديث أن يكون من كلام ابن عباس .

(٢) هذه قراءة نافع ، والأولى قراءة باقى السبعة ، ثم ذكر ابن كثير هنا حديثين مرسلين ضعيفين جدا ، من رواية عبد الرزاق ورواية الطبرى أن سبب نزول هذه الآية سؤال النبي ﷺ عما فعل أبواه ؟ ثم نقل عن القرطبى : أن الله أحيا أبويه حتى آمنا به . ثم قال ابن كثير : «والحديث المروى فى حياة أبويه عليه السلام - ليس فى شيء من الكتب الستة ولا غيرها . وإسناده ضعيف» . وهو كما قال . وما نقله عن القرطبى والرد عليه ليس فى المخطوطة الأهرية .

(٣) هو فى المسند (٦٦٢٢) ، وفى البخارى (٤ / ٢٨٧ ، ٢٨٨ فتح) ، وفى الأدب المفرد ، ص ٣٨ ، ٣٩ ، وطبقات ابن سعد (١ / ٨٨) . وذكره ابن كثير أيضا من رواية المسند هذه، عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الاحزاب، وزاد نسبته لابن أبى حاتم . وذكره أيضا عند تفسير الآية (١٥٧) من سورة الاعراف، من رواية الطبرى .

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِيتَهُمْ بِأَهْوَاءِهِمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١٢٠) ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ۖ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٢١)

قال ابن جرير: يعنى بقوله جل ثناؤه: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾: وليست اليهود - يا محمد - ولا النصارى براضية عنك أبداً، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ أى: قل يا محمد: إن هدى الله الذى بعثنى به هو الهدى، يعنى: هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل ﴿وَلَئِنَّ آتِيتَهُمْ بِأَهْوَاءِهِمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾: فيه تهديد ووعيد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى، بعد ما علموا من القرآن والسنة، عياداً بالله من ذلك، فإن الخطاب مع الرسول، والأمر لأمرته (١).

وقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾: عن قتادة: هم اليهود والنصارى. وهو قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير. وروى عن قتادة: هم أصحاب رسول الله ﷺ. وقال أبو العالية: قال ابن مسعود: والذى نفسى بيده، إن حق تلاوته أن يُحِلَّ حلاله

(١) عصم الله المسلمين، منذ أن هداهم الله للإسلام إلى قريب من عصرنا هذا - من أن يتبعوا ملة اليهود والنصارى، إلا ما يكون من حوادث فردية، أكثرها من المعاصى العملية. ثم ذل المسلمون لأعدائهم من اليهود والنصارى، فزادوا فى التشبه بهم قليلاً. ثم وجد من أهل العلم فيهم ومن أهل الرأى - من حاول أن يدافع عن الإسلام أسوأ دفاع، فصاروا يتقربون شيئاً فشيئاً لسادتهم، بتأويل القرآن والسنة، وتحريف معانيهما، ليقاربوا بين شريعتهم الطاهرة، وشرائع تلك الأمم الضالة والمغضوب عليها. بل ليقاربوا شريعتنا ونصوصنا الصريحة إلى عقائد الملحدين الوثنيين من أهل أوربة وأمريكا. فكان فى علمائنا وكتابتنا من ينكر الغيب أو أكثره، فيتأولون صفة الملائكة، ووصف الجن، وينكرون المعجزات النبوية عامة - لأنها لم ترد فى القرآن، زعموا! ثم يحرفون المعنى فيما ثبت منها فى القرآن أو السنة المتواترة. ثم كشفوا عن وجوههم ففرضوا على المسلمين قوانين أوربة الوثنية المجرمة الملعونة. ثم استباحوا أكثر المحرمات، يصرحون بإباحتها عن غير حياء ولا غيرة. ثم صاروا يبنزون الشرائع الإسلامية والأخلاق الكريمة التى هدانا الله إليها ورسوله - بالتقاليد وبالرجعية، لينفروا الناس منها. وقامت فى عصرنا هذا الدعوة سافرة وقحة إلى تغيير الشريعة النقية فى تعدد الزوجات والطلاق والموارث. بل إن بعض من يحمل شهادة العالمية من الأزهر كتب فى الصحف عن غير حياء: «أن الإسلام يحرم تعدد الزوجات»! وضعف الأزهر كله عن أن يضرب على يديه، خشية أن يغضب من وراءه ومن ينصره فى كفره وافترائه على الله. وحتى إن بعض الصحف القوية الماجنة الداعرة لتدعو إلى الزنا علناً، دون أن يردعها أحد. بل إن بعضهم ليصرح بمنع العلماء من الكتابة فى هذه المسائل «الاجتماعية» والصحف الأخرى لا ترضى أن تنشر لأحد من العلماء دفعاً لهذا الكفر البواح. بل إن نساءً ماجنات فاجرات ينشرن فى الصحف الدعوة السافرة إلى الفجور، بعد انتشار السفور. فلئن لم يدفع المسلمون - أو المتسبون للإسلام - هذه المنكرات عن دينهم وعلى بلادهم، ليسلطن الله عليه عدوهم، وليستأصلن شأفتهم، وليستبدلن بهم قومًا غيرهم، ثم لن يكونوا أمثالهم.

ويحرم حرامه ويقرأه كما أنزله الله ، ولا يحرف الكلم عن مواضعه ، ولا يتأول منه شيئاً على غير تأويله . وعن ابن عباس قال : يتبعونه حق اتباعه ، ثم قرأ : ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاها ﴾ [الشمس : ٢] ، يقول : اتبعها . وروى عن عطاء ، ومجاهد نحو ذلك .

وقوله : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ خبر عن ﴿ الَّذِينَ آمَنُواهُمْ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ أى : من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته - آمن بما أرسلتك به يا محمد ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ الآية [المائدة : ٦٦] . وقال : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنْ رَّبِّكُمْ ﴾ [المائدة : ٦٨] ، أى : إذا أقمتوها حق الإقامة ، وآمتم بها حق الإيمان ، وصدقت ما فيها من الأخبار بمبعث محمد ﷺ ونعته وصفته والأمر باتباعه ونصره ومؤازرته - قادكم ذلك إلى الحق واتباع الخير فى الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ الآية [الاعراف : ١٥٧] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ [الإسراء : ١٠٧ ، ١٠٨] أى : إن كان ما وعدنا به من شأن محمد ﷺ لواقعاً ، وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُواهُمْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [القصص : ٥٢ - ٥٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ٢٠] ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود : ١٧] . وفى الصحيح : «والذى نفسى بيده ، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة : يهودى ولا نصرانى ، ثم لا يؤمن بى ، إلا دخل النار» (١) .

﴿ يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنَّىٰ فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُكَ شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿

قد تقدم نظير هذه الآية فى صدر السورة (٢) ، وكررت ههنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبى الأمى الذى يجدون صفته فى كتبهم ونعته واسمه وأمره وأمته . يحذرهم من كتمان هذا ، وكتمان ما أنعم به عليهم ، وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم ، من النعم الدنيوية والدينية ، ولا يحسدوا بنى عمهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم . ولا يحملهم ذلك الحسد على مخالفته وتكذيبه ، والحيدة عن موافقته ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين .

(١) هو فى صحيح مسلم (١ / ٥٣ ، ٥٤) بنحوه ، من حديث أبى هريرة .

(٢) مضى فى الآية (٤٧) ص ١١٢ .

﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾

يقول تعالى مُنبِّهاً على شرف إبراهيم خليله، عليه السلام، وأن الله تعالى جعله إماماً للناس يقتدى به في التوحيد، حتى قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهي؛ ولهذا قال: ﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ ﴾ أى: واذكر - يا محمد - لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين يتتخلون ملة إبراهيم وليسوا عليها، وإنما الذى هو عليها مستقيم فأتت والذين معك من المؤمنين، اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم، أى: اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهي ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ أى: قام بهن كلهن، كما قال تعالى: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ [النجم: ٣٧]، أى: وفى جميع ما شرع له، فعمل به صلوات الله عليه، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧، ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿ بِكَلِمَاتٍ ﴾ أى: بشرائع وأوامر ونواه، فإن الكلمات تطلق، ويراد بها الكلمات القدريّة، كقوله تعالى عن مريم، عليها السلام: ﴿ وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَوَانِينِ ﴾ [التحریم: ١٢] . وتطلق ويراد بها الشرعية، كقوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥] (١)، أى: كلماته الشرعية. وهى إما خير صدق، وإما طلب عدل إن كان أمراً أو نهياً، ومن ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ أى: قام بهن: ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ أى: جزاء على ما فعل، كما قام بالأوامر وترك الزواجر، جعله الله للناس قدوة وإماماً يقتدى به، ويحتذى حذوه.

وقد اختلف فى تعيين الكلمات التى اختبر الله بها إبراهيم الخليل، عليه السلام. فروى عن ابن عباس فى ذلك روايات: فروى عنه: ابتلاه الله بالمناسك. ابتلاه الله بالطهارة: خمس فى الرأس، وخمس فى الجسد؛ فى الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرق الرأس. وفى الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، وتنف الإبط، وغسل أثر الغائط والبول بالماء (٢).

(١) قراءة حمزة والكسائى وعاصم - الذى حفص أحد رواته - « كلمة » بالافراد . وقرأ باقى العشرة « كلمات » بالجمع، وهى التى أثبتتها الحافظ المؤلف هنا وفسرها بمعنى الجمع . وكذلك ثبتت فى المخطوطة الأزهرية . وغيرت فى المطبوعة إلى « كلمة » على قراءة حفص المعروفة .

(٢) رواه الطبرى (١٩١٠)، والحاكم فى المستدرک (٢/٢٦٦) وقال: « صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى .

قلت: وقريب من هذا ما ثبت فى صحيح مسلم، عن عائشة ، قالت: قال رسول الله ﷺ: «عَشْرٌ من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظفار، وغسل البرأجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء» قال مصعب: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة. قال وكيع: انتقاص الماء، يعنى: الاستنجاء. وفى الصحيحين، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، قال: «الفطرة خمس: الختان، والاستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظافر ، ونتف الإبط». ولفظه لمسلم. وروى ابن أبى حاتم: عن ابن عباس: أنه كان يقول فى هذه الآية، قال: عَشْرٌ، ست فى الإنسان، وأربع فى المشاعر. فأما التى فى الإنسان: حلق العانة، ونتف الإبط، والختان. وكان ابن هبيرة يقول: هؤلاء الثلاثة واحدة. وتقليم الأظفار، وقص الشارب، والسواك، وغسل يوم الجمعة. والأربعة التى فى المشاعر: الطواف، والسعى بين الصفا والمروة، ورمى الجمار، والإفاضة (١). وعن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: ما ابتلى بهذا الدين أحد فقام به كله إلا إبراهيم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ قلت له: وما الكلمات التى ابتلى الله إبراهيم بهن فاتمهن؟ قال: الإسلام ثلاثون سهماً، منها عشر آيات فى براءة: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ إلى آخر الآية [التوبة: ١١٢]، وعشر آيات فى أول سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ و ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ وعشر آيات فى الأحزاب: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ [الآية: ٣٥] إلى آخر الآية ، فاتمهن كلهن، فكتبت له براءة. قال الله: ﴿وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧]. رواه الحاكم وابن جرير وابن أبى حاتم ، وهذا لفظ ابن أبى حاتم. وروى ابن أبى حاتم عن الحسن البصرى قال: ابتلاه بالكوكب فرضى عنه، وابتلاه بالقمر فرضى عنه، وابتلاه بالشمس فرضى عنه، وابتلاه بالهجرة فرضى عنه، وابتلاه بالختان فرضى عنه، وابتلاه بابنه فرضى عنه. [ثم نقل الحافظ ابن كثير روايات هنا من الطبرى ومن غيره ، عن مجاهد وعن غيره ، فيها آراء مختلفة . ثم قال] :

قال ابن جرير ما حاصله: أنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر، وجائز أن يكون بعض ذلك، ولا يجوز الجزم بشيء منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع. قال: ولم يصح فى ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذى يجب التسليم له. [ثم حكى كلاماً للطبرى ، فيه احتمال لترجيح ما روى عن مجاهد وبعض من تابعه. ثم قال ابن كثير] : والذى قاله أولاً [يعنى ابن جرير] - من أن الكلمات تشمل جميع ما ذكر - أقوى من هذا الذى جوزه من قول مجاهد ومن قال مثله ؛ لأن السياق يعطى غير ما قالوه، والله أعلم.

وقوله: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾: لما جعل الله إبراهيم إماماً، سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته، فأجيب إلى ذلك، وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون، وأنه لا ينالهم عهد الله، ولا يكونون أئمة فلا يقتدى بهم. والدليل على أنه أجيب إلى طلبه قوله تعالى فى سورة العنكبوت: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، فكل نبى أرسله

(١) إسناد ابن أبى حاتم - فى هذا - لابن عباس ، إسناد صحيح .

الله، وكل كتاب أنزله الله بعد إبراهيم، ففى ذريته صلوات الله وسلامه عليه.

وأما قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ فقال ابن عباس : يخبره أنه كائن فى ذريته ظالم لا ينال عهده ، ولا ينبغي أن يوليه شيئاً من أمره وإن كان من ذرية خليله ، ومحسن ستفخذ فيه دعوته، وتبلغ له فيه ما أراد من مسألتة[ونقل الحافظ أقوالا كثيرة متقاربة العنى . ثم قال]: فهذه أقوال مفسرى السلف فى هذه الآية على ما نقله ابن جرير، وابن أبى حاتم. واختار ابن جرير أن هذه الآية - وإن كانت ظاهرة فى الخبر أنه لا ينال عهد الله بالإمامة ظالماً - فيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل، عليه السلام، أنه سيوجد من ذريتك من هو ظالم لنفسه.

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَّثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمَّا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾

قال ابن عباس: قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَّثَابَةً لِلنَّاسِ ﴾ يقول: لا يقضون منه وطراً، يأتونه، ثم يرجعون إلى أهلهم، ثم يعودون إليه ﴿ وَأَمَّا ﴾ قال أبو العالية : أمناً من العدو، وأن يُحمَل فيه السلاح. وقد كانوا فى الجاهلية يُتَخَطَّفُ الناس من حولهم، وهم آمنون لا يُسَبَّون.

ومضمون ما فسر به الأئمة هذه الآية: أن الله تعالى يذكر شرف البيت، وما جعله موصوفاً به شرعاً وقدرأ، من كونه مثابة للناس، أى: جعله محلّاً تشتاق إليه الأرواح وتحن إليه، ولا تقضى منه وطراً، ولو ترددت إليه كل عام، استجابة من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم، عليه السلام، فى قوله: ﴿ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ إلى أن قال: ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَائِي ﴾ [إبراهيم: ٣٧-٤٠]. ويصفه تعالى بأنه جعله أمناً، من دخله أمن، ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان أمناً. فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان الرجل يلقي قاتل أبيه وأخيه فيه فلا يعرض له. كما وصفها فى سورة المائدة بقوله تعالى: ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْآيَةَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ ﴾ [المائدة: ٩٧]، أى: يدفع عنهم بسبب تعظيمها سوء، كما قال ابن عباس: لو لم يحج الناس هذا البيت لأطبق الله السماء على الأرض؛ وما هذا الشرف إلا لشرف بانيه أولاً وهو خليل الرحمن، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً ﴾ [الحج: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ . فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]. وفى هذه الآية الكريمة نبه على مقام إبراهيم مع الأمر بالصلاة عنده، فقال: ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾.

وقد اختلف المفسرون فى المراد بالمقام ما هو؟ فروى ابن أبى حاتم: عن ابن عباس: قال: مقام إبراهيم: الحرم كله. وروى عن مجاهد وعطاء مثل ذلك. وقال سعيد بن جبیر: الحجر مقام إبراهيم نبي الله، قد جعله الله رحمة، فكان يقوم عليه ويناوله إسماعيل الحجارة . وروى ابن أبى حاتم: عن جابر فى حديثه عن حجة النبی ﷺ قال: لما طاف النبی ﷺ، قال له عمر: هذا مقام أبينا إبراهيم؟ قال: « نعم ». قال: أفلا تتخذة مصلى؟ فأنزل الله، عز وجل: ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾. وروى ابن مردويه: عن عمر بن الخطاب، أنه مرَّ بمقام إبراهيم، فقال:

يا رسول الله ، أليس تقوم مقام خليل ربنا ؟ قال : « بلى » . قال : أفلا نتخذُه مصلى ؟ فلم يلبث إلا يسيراً حتى نزلت : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ . وروى البخارى عن أنس بن مالك قال : قال عمر بن الخطاب : وافقتُ ربى فى ثلاث ، أو وافقتنى ربى فى ثلاث ، قلت : يا رسول الله ، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ؟ فنزلت : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ . وقلت : يا رسول الله ، يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ؟ فأنزل الله آية الحجاب . قال : وبلغنى معاتبة النبى ﷺ بعض نساؤه ، فدخلت عليهن فقلت : إن انتهيتن أو لبيدكن الله رسوله خيراً منكن ، حتى أتت إحدى نساؤه ، فقالت : يا عمر ، أما فى رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت ؟! فأنزل الله : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ ﴾ الآية [التحریم : ٥] . ورواه الإمام أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه . وقال الترمذى : حسن صحيح . ورواه الإمام على بن المدينى ، وقال : هذا من صحيح الحديث (١) ، وروى مسلم عن ابن عمر ، عن عمر ، قال : وافقت ربى فى ثلاث : فى الحجاب ، وفى أسارى بدر ، وفى مقام إبراهيم (٢) . وروى أبو حاتم الرازى : عن أنس بن مالك ، قال : قال عمر بن الخطاب : وافقتنى ربى فى ثلاث - أو وافقت رب فى ثلاث - قلت : يا رسول الله ، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ؟ فنزلت : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ ، وقلت : يا رسول الله ، لو حجبت النساء ؟ فنزلت آية الحجاب . والثالثة : لما مات عبد الله بن أبى جاء رسول الله ﷺ ليصلى عليه . قلت : يا رسول الله ، تصلى على هذا الكافر المنافق ؟ فقال : « إيهأ عنك يا بن الخطاب » ، فنزلت : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ﴾ [التوبة : ٨٤] . وإسناده صحيح أيضاً ، ولا تعارض بين هذا ولا هذا ، بل الكل صحيح ، ومفهوم العدد إذا عارضه منطوق قدم عليه ، والله أعلم . وروى ابن جرير : عن جابر قال : استلم رسول الله ﷺ الركن ، فرمل ثلاثاً ، ومشى أربعاً ، ثم نَقَدَ إلى مقام إبراهيم ، فقرأ : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ . فجعل المقام بينه وبين البيت ، فصلى ركعتين . وهذا قطعة من الحديث الطويل الذى رواه مسلم فى صحيحه (٣) . وروى البخارى ، عن عمرو بن دينار ، قال : سمعت ابن عمر يقول : قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت سبعاً ، وصلى خلف المقام ركعتين .

فهذا كله مما يدل على أن المراد بالمقام إنما هو الحجرُ الذى كان إبراهيم ، عليه السلام ، يقوم عليه لبناء الكعبة ، لما ارتفع الجدار آتاه إسماعيل ، عليه السلام ، به ليقومَ فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار ، كلما كَمَلَ ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى ، يطوف حول الكعبة ، وهو واقف عليه ، كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التى تليها ، وهكذا ، حتى تم جدارات

(١) فتح البارى (٨ / ١٢٨) ، ومسند أحمد (١٥٧ ، ١٦٠ ، ٢٥٠) ، وذكره السيوطى فى الدر المنثور (١١٨ / ١) وخرجه من دواوين كثيرة .

(٢) صحيح مسلم (٢ / ٢٣٤) .

(٣) الطبرى (٣٠٠٣) . والحديث بطوله فى صحيح مسلم (١ / ٣٤٦ ، ٣٤٧) . وكذلك رواه أحمد فى المسند . (١٤٤٩٤) .

الكعبة، كما سيأتى بيانه فى قصة إبراهيم وإسماعيل فى بناء البيت، من رواية ابن عباس عند البخارى. وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه، ولم يزل هذا معروفاً تعرفه العرب فى جاهليتها ؛ ولهذا قال أبو طالب فى قصيدته اللامية المعروفة :

ومَوطئُ إبراهيم فى الصخر رطبة على قدميه حافياً غير ناعل

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضاً. كما روى ابن وهب عن أنس بن مالك ، قال: رأيت المقام فيه أثر أصابعه، عليه السلام، وأخْمَصَ قدميه، غير أنه أذهب مسح الناس بأيديهم. وروى ابن جرير: عن قتادة: إنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه. ولقد تكلفت هذه الأمة شيئاً ما تكلفته الأمم قبلها، ولقد ذُكِرَ لنا من رأى أثر عَقِيهِ وأصابعه فيه، فما زالت هذه الأمة يمسحونه حتى اخلوق وانمحي.

قلت: وقد كان المقام ملصقاً بجدار الكعبة قديماً، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلى الحجر بمنى الداخل من الباب فى البقعة المستقلة هناك، وكان الخليل، عليه السلام، لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك؛ ولهذا - والله أعلم - أمر بالصلاة هناك عند فراغ الطواف، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه، وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه أحد الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين، الذين أمرنا باتباعهم، وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله ﷺ: «اقتدوا بالَّذَيْنِ من بعدى أبى بكر وعمر». وهو الذى نزل القرآن بوفاقه فى الصلاة عنده؛ ولهذا لم ينكر ذلك أحد من الصحابة، رضى الله عنهم أجمعين. وروى الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى عن عائشة، أن المقام كان فى زمان رسول الله ﷺ، وزمان أبى بكر ملتصقاً بالبيت، ثم أخره عمر بن الخطاب، وإسناده صحيح.

﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهَرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَافِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۖ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَتِيسُ الْمَصِيرِ ۖ﴾ (١١٦) وَإِذْ رَفَعَ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾

قال الحسن البصرى: قوله: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ قال: أمرهما الله أن يطهرا من الأذى والنَّجَسِ ولا يصيبه من ذلك شيء. وقال ابن جريج: قلت لعطاء: ما عهده؟ قال: أمره. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ أى: أمرناه. كذا قال والظاهر أن هذا الحرف إنما عدَّى بـ «إلى»؛ لأنه فى معنى: تقدمنا وأوحينا (١). وقال

(١) هكذا ثبت فى المخطوطة والمطبوعة: «وأوحينا» بالخاء. ولقد يبدو لى أن صوابها «وأوصينا» بالصاد؛ لأن من معنى «العهد»: التقدم إلى المرء فى الشيء، ومن معناه أيضا: الوصية. انظر: اللسان وغيره من المعاجم.

مجاهد وسعيد بن جبّير: ﴿ طَهْرًا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ ﴾: إن ذلك من الاوثان والربّ (١) وقول الزور والرجس .

وأما قوله تعالى: ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ فالطواف بالبيت معروف، وعن سعيد بن جبّير أنه قال تعالى: ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ يعنى: من أتاه من غُربة؟ ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ المقيمين فيه. وهكذا روى عن قتادة، والربيع بن أنس: أنهما فسرا العاكفين بأهله المقيمين فيه، كما قال سعيد بن جبّير. وروى ابن أبى حاتم: عن ثابت، قال: قلت لعبد الله بن عُبَيْد بن عُمير: ما أرانى إلا مُكَلِّمَ الأمير أن أمنع الذين ينامون فى المسجد الحرام، فإنهم يجنبون ويُحدثون. قال: لا تفعل، فإن ابن عمر سئل عنهم، فقال: هم العاكفون. قلت: وقد ثبت فى الصحيح أن ابن عمر كان ينام فى مسجد الرسول ﷺ وهو عَزَب.

وأما قوله تعالى: ﴿وَالرُّكْعُ السُّجُودُ﴾: فقال ابن عباس: إذا كان مصلياً فهو من الركع السجود. وكذا قال عطاء وقتادة. وقال ابن جرير: فمعنى الآية: وأمرنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتي للطائفين. والتطهير الذى أمرهما به فى البيت هو تطهيره من الأصنام وعبادة الاوثان فيه ومن الشرك. ثم أورد سؤالا فقال: فإن قيل: فهل كان قبل بناء إبراهيم عند البيت شئ من ذلك الذى أمر بتطهيره منه؟ وأجاب بوجهين :

أحدهما: أنه أمرهما بتطهيره مما كان يعبد عنده زَمَان قوم نوح من الأصنام والوثان، ليكون ذلك سُنَّة لمن بعدهما، إذ كان الله تعالى قد جعل إبراهيم إماماً يقتدى به، كما قال عبد الرحمن بن زيد: ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي﴾ قال: من الأصنام التى يعبدون، التى كان المشركون يعظمونها. قلت: وهذا الجواب مُفَرَّغٌ على أنه كان يُعْبَدُ عنده أصنام قبل إبراهيم، عليه السلام، ويحتاج إثبات هذا إلى دليل عن المعصوم مُحَمَّدٍ.

الجواب الثانى: أنه أمرهما أن يخلصا بناءه الله وحده لا شريك له، فينباه مطهراً من الشرك والربّ، كما قال جل ثناؤه: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جَوْفٍ هَارٍ﴾ [التوبة: ١٠٩]. قال: فكَذَلِكَ قوله: ﴿وَعَهْدُنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِي﴾ أى: ابنيه على طهر من الشرك بى والرب.

وملخص هذا الجواب: أن الله تعالى أمر إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، أن ينبيا الكعبة على اسمه وحده لا شريك له، للطائفين به والعاكفين عنده، والمصلين إليه من الركع السجود، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكْعِ السُّجُودِ﴾ الآيات [الحج: ٢٦ - ٣٧]. والمراد من ذلك الرد على المشركين الذين كانوا يشركون بالله عند بيته، المؤسس على عبادته وحده لا شريك له، ثم مع ذلك يصدون أهله المؤمنين عنه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي

(١) «الرب» هنا: الشر والخوف . انظر: الطبرى (٣/ ٣٩) . وهذا هو الثابت فى الأزهريه وفى المطبوعة « والرفث » ! وهو تصحيف .

جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفِ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِنْحَادٍ يَظْلِمُ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ [الحج : ٢٥].

ثم ذكر أن البيت إنما أسس لمن يعبد الله وحده لا شريك له ، إما بطواف أو صلاة ، فذكر في سورة الحج أجزاءها الثلاثة : قيامها ، وركوعها ؛ وسجودها ، ولم يذكر العاكفين لأنه تقدم ﴿سَوَاءً الْعَاكِفِ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ وفي هذه الآية الكريمة ذكر الطائفين والعاكفين ، واكتفى بذكر الركوع والسجود عن القيام ؛ لأنه قد علم أنه لا يكون ركوع ولا سجود إلا بعد قيام . وفي ذلك - أيضاً - ردٌّ على من لا يحجه من أهل الكتابين : اليهود والنصارى ؛ لأنهم يعتقدون فضيلة إبراهيم الخليل وعظمته ، ويعلمون أنه بنى هذا البيت للطواف في الحج والعمرة ، وغير ذلك ، وللاعتكاف والصلاة عنده ، وهم لا يفعلون شيئاً من ذلك ، فكيف يكونون مقتدين بالخليل ، وهم لا يفعلون ما شرع الله له ؟! وقد حجَّ البيت موسى بن عمران وغيره من الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، كما أخبر بذلك المعصوم ، الذي لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيِي يُوحَى﴾ [النجم : ٤] . وتقدير الكلام إذا : ﴿وَعَهْدُنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أى : طهرا من الشرك والريب ، وابنيه خالصاً لله ، معقلاً للطائفين والعاكفين والركع السجود . وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية ، ومن قوله تعالى : ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْقُدُوسِ وَالْأَصْفَالِ﴾ [النور : ٣٦] ومن السنة من أحاديث كثيرة ، من الأمر بتطهيرها وتطيبها وغير ذلك ، من صيانتها من الأذى والتجاسات وما أشبه ذلك . ولهذا قال ، عليه السلام : «إِنَّمَا بُنِيَتِ الْمَسَاجِدُ لِمَا بُنِيَتْ لَهُ» (١) . وقد جَمَعْتُ في ذلك جزءاً على حدة ، والله الحمد والمنة .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ : روى الإمام أبو جعفر بن جرير : عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ بَيْتَ اللَّهِ وَآمَنَهُ ، وَإِنِّي حَرَمْتُ الْمَدِينَةَ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا ، فَلَا يُصَادُ صَيْدُهَا وَلَا يَقْطَعُ عِضَاهَا» ورواه مسلم والنسائي (٢) . وروى ابن جرير - أيضاً - : عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ عَبْدَ اللَّهِ وَخَلِيلَهُ ، وَإِنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ . وَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ ، وَإِنِّي حَرَمْتُ الْمَدِينَةَ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا ، عِضَاهَا وَصَيْدُهَا ، لَا يَحْمَلُ فِيهَا سِلَاحٌ لِقِتَالٍ ، وَلَا يَقْطَعُ مِنْهَا شَجَرَةٌ إِلَّا لَعْلَفَ بَعِيرٌ» . وهذه الطريق غريبة ، ليست في شيء من الكتب الستة (٣) ، وأصل الحديث في صحيح مسلم من وجه آخر ، عن أبي هريرة ، قال : كان الناس إذا رأوا أول الثمر ، جاؤوا به إلى رسول الله ﷺ ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال : «اللهم بارك لنا في ثمرنا ، وبارك

(١) رواه مسلم (١ / ١٥٧ ، ١٥٨) ، وابن ماجه (٧٦٥) ، كلاهما من حديث بريدة الأسلمي .

(٢) الطبري (٢٠٢٩) وإسناده صحيح ، ومسلم بنحوه (١ / ٣٨٥) . و « اللابتان » : هما الحرتان بجانبى المدينة ، وهى الأرض ذات الحجارة السود التى قد ألْبَسَتْهَا لكثرتها . و « العضاء » - بكسر العين وتخفيف الضاد المعجمة وآخرها هاء : كل شجر عظيم له شوك .

(٣) الطبري (٢٠٣٠) وإسناده صحيح ، ولم أجده أيضاً فى المسند ولا فى غيره مما استطعت الرجوع إليه من المراجع .

لنا فى مدينتنا، وبارك لنا فى صاعنا، وبارك لنا فى مُدُنَّا. اللهم إن إبراهيمَ عبدُك وخليلك ونبيك، وإنى عبدك ونبيك. وإنه دعاك لمكة، وإنى أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة، ومثله معه». ثم يدعو أصغرَ ولید ، فيعطيه ذلك الثمر (١). وروى ابن جرير عن رافع بن خديج ، قال : قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة، وإنى أحرم ما بين لابتيها». انفرد بإخراجه مسلم (٢).

[ثم ذكر المؤلف الحافظ أحاديث فى هذا المعنى عن أنس ، من الصحيحين . وعن عبد الله بن زيد بن عاصم ، منهما . وعن أبى سعيد ، من صحيح مسلم . ثم قال] : والأحاديث فى تحريم المدينة كثيرة ، وإنما أوردنا منها ما هو متعلق بتحريم إبراهيم عليه السلام ، لمكة ، لما فى ذلك فى مطابقة الآية الكريمة . وقد وردت أحاديث أخرى تدلُّ على أن الله تعالى حرم مكة قبل خلق السموات والأرض ، كما جاء فى الصحيحين ، عن عبد الله بن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة . وإنه لم يُحِلَّ القتال فيه لأحد قبلى ، ولم يحل لى إلا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة . لا يُعْضَدُ شوكة ولا ينفر صيده ، ولا تُلْتَقَطُ لُقْطَتُهُ إلا من عرفها ، ولا يختلى خلأها». فقال العباس : يا رسول الله ، إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم . فقال : «إلا الإذخر» وهذا لفظ مسلم (٣). ولهما عن أبى هريرة نحو من ذلك (٤).

فإذا علم هذا فلا منافاة بين هذه الأحاديث الدالة على أن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم ، عليه السلام ، حرمها ؛ لأن إبراهيم بلغ عن الله حكمه فيها وتحريمه إياها ، وأنها لم تزل بلداً حراماً عند الله قبل بناء إبراهيم ، عليه السلام ، لها ، كما أنه قد كان رسول الله ﷺ مكتوباً عند الله خاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل فى طيئته ، ومع هذا قال إبراهيم ، عليه السلام : ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ الآية . وقد أجاب الله دعاءه بما سبق فى علمه وقدره . ولهذا جاء فى الحديث أنهم قالوا : يا رسول الله ، أخبرنا عن بدء أمرك؟ فقال : «دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى ابن مريم ، ورأت أمى كأنه خرج منها نور أضاء له قصور الشام». أى : أخبرنا عن بدء ظهور أمرك . كما سيأتى قريباً ، إن شاء الله (٥).

وقوله : تعالى إخباراً عن الخليل أنه قال : ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ أى : من الخوف ، لا يرعب أهله ، وقد فعل الله ذلك شرعاً وقدرأ . كقوله تعالى : ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران : ٩٧] وقوله ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُحِطُّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت : ٦٧] إلى غير ذلك من

(١) صحيح مسلم (١ / ٣٨٧) من طريق مالك . وهو فى الموطأ ، ص ٨٨٥ .

(٢) الطبرى (٢٠٣١) ، وصحيح مسلم (١ / ٣٨٥) .

(٣) صحيح مسلم (١ / ٣٨٣) . وانظر : الطبرى وتخريجنا (٢٠٢٨) .

(٤) ثم ذكر المؤلف الحافظ حديثاً آخر بمعناها ، من حديث صفية بنت شيبة ، رواه ابن ماجه . وذكره البخارى فى الصحيح تعليقاً ، ثم حديثاً آخر بهذا المعنى ، من حديث أبى شريح العدوى ، رواه الشيخان .

(٥) عند تفسير الآية (١٣٩) من هذه السورة .

الآيات. وقد تقدمت الأحاديث فى تحريم القتال فيها. وقال فى هذه السورة: ﴿وَبِاجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ أى: اجعل هذه البقعة بلداً آمناً، وناسب هذا؛ لأنه قبل بناء الكعبة. وقال تعالى فى سورة إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥] وناسب هذا هناك لأنه، والله أعلم، كأنه وقع دعاء ثانياً بعد بناء البيت واستقرار أهله به، وبعد مولد إسحاق الذى هو أصغر سنّاً من إسماعيل بثلاث عشرة سنة؛ ولهذا قال فى آخر الدعاء: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأْتَتْهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾: قال أبى بن كعب: هو قول الله تعالى. وهذا قول مجاهد وعكرمة وهو الذى صوبه ابن جرير، رحمه الله. وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ. مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٣، ٢٤]، وقوله: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ. وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابٌ وَسُرُرٌ عَلَيْهَا يَتَكُونُونَ. وَزُخْرُفٌ وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥].

وقوله: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أى: ثم ألجئه بعد متاعه فى الدنيا وبسطننا عليه من ظلها - إلى عذاب النار وبئس المصير. ومعناه: أن الله تعالى يُنْظِرُهُمْ وَيُمَهِّلُهُمْ ثُمَّ يَأْخُذُهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ، كقوله تعالى: ﴿وَكَايِنٍ مِّنْ قُرْآنٍ أَمْلَيْتَ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ [الحج: ٤٨]، وفى الصحيحين: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله؛ إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيه» (١)، وفى الصحيح أيضاً: «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته». ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] (٢).

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾: فالقواعد: جمع قاعدة، وهى السارية والأساس، يقول تعالى: واذكر - يا محمد - لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، البيت، ورفعهما القواعد منه، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، فهما فى عمل صالح، وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما، كما روى ابن أبى حاتم، عن وهيب بن الورد (٣): أنه قرأ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ

(١) مضى فى ص ١٦٥ من حديث أبى موسى الأشعري .

(٢) رواه الشيخان والترمذى وابن ماجه ، من حديث أبى موسى . انظر : الفتح (٨ / ٢٦٧) .

(٣) وهيب بن الورد المكي : من كبار العباد الزاهدين ، من شيوخ عبد الله بن المبارك وفضيل بن عياض وعبد الرزاق . مات سنة ١٥٣ . مترجم فى التهذيب ، والكبير للبخارى (٤ / ١٧٧ / ٢) ، والجرح والتعديل لابن أبى حاتم (٢ / ٣٤) . وله ترجمة حافلة جيدة فى الحلية لأبى نعيم (٨ / ١٤٠ - ١٦١) .

وإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ ثُمَّ يَبْكِي ويقول: يا خليل الرحمن، ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مُشْفِقٌ أَنْ لَا يَقْبَلَ مِنْكَ. وهذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين الخالص في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ أى: يعطون ما أعطوا من الصدقات والتفقات والقربات ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، أى: خائفة ألا يتقبل منهم. وقد روى البخارى ههنا عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، عليهما السلام. اتخذت منطقاً لتعفى أثرها على سارة. ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل، وهى ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحه (١) فوق زَمْزَمَ فى أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسِقَاءٌ فيه ماء، ثم قَفَى إبراهيم، عليه السلام، منطلقاً. فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها. فقالت: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيئنا. ثم رجعت. فانطلق إبراهيم، حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات، ورفع يديه، قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نَفَدَ ما فى السقاء عَطِشَتْ وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال: يتلبط (٢) - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقربَ جبل فى الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً. فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرفَ درعها، ثم سعت سَعَى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى. ثم أتت المروة، فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً. ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس: قال النبى ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما». فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه، تريد نفسها، ثم تَسَمَّعَتْ فسمعت أيضاً. فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غَوَاثُ (٣) فإذا هِىَ بِالْمَلِكِ عند موضع زمزم، فبحث بعقبه - أو قال: بجناحه - حتى ظهر الماء، فجعلت تُحَوِّضُهُ، وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف. قال ابن عباس: قال النبى ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عيناً معيناً». قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافى الضيعة؛ فإن هاهنا بيتاً لله، يبنى (٤) هذا الغلامُ وأبوه، وإن الله، لا يضيع أهله. وكان البيت

(١) الدوحة : الشجرة الكبيرة .

(٢) يتلبط : يتمرغ ويضرب بنفسه الأرض .

(٣) « غواث » ضبطت فى اليونانية من البخارى (٤ / ١٤٣ من الطبعة السلطانية) بضم الغين وكسرهما، وعليها كلمة « صح » . وقال ابن الأثير فى النهاية : « الغواث بالفتح ، كالغياث بالكسر : من الإغاثة . وقد أغاثه يغيثه . وقد روى بالضم والكسر ، وهما أكثر ما يجىء فى الأصوات ، كالنباح والنداء . والفتح فيها شاذ » .

(٤) هكذا هو يحذف المفعول . وهو الثابت فى الأزهرية والموافق لما فى البخارى . وفى المطبوعة : « بينه » . وهو مخالف للرواية الثابتة .

مرتفعاً من الأرض كالراية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم - أو أهل بيت من جرهم - مقبلين من طريق كداء. فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً^(١)، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لَهْدُنَا بهذا الوادى وما فيه ماء. فأرسلوا جَرِيًّا^(٢) أو جَرِيَيْن، فإذا هم بالماء. فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا. قال: وأم إسماعيل عند الماء. فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء قالوا: نعم.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «ألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس. فنزلوا، وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم. حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام، وتعلم العربية منهم، وأنفسهم^(٣) وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجته امرأة منهم. وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل ليطالع تركته^(٤). فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه. فقالت: خرج يبتغي لنا. ثم سألتها عن عيشهم وهيتهم؟ فقالت: نحن بشرّ، نحن في ضيق وشدة. وشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك أقرني عليه السلام، وقولي له: يغير عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل، كأنه آنس شيئاً. فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسأل عنك، فأخبرته، وسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا في جهد وشدة. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غَيْرْ عتبة بباك. قال: ذاك أبى. وقد أمرني أن أفارقك، فالحقى بأهلك. وطلّقها وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده. فدخل على امرأته، فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيتهم. فقالت: نحن بخير وسعة. وأنت على الله، عز وجل. قال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شربكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء». قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لهم لدعا لهم فيه. قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقا». قال: «فإذا جاء زوجك فأقرني عليه السلام، ومريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل، قال: هل أتاكم من أحد؟

(١) بالعين المهملة والفاء، وهو الذى يحوم على الماء ويتردد ولا يمضى عنه. قاله الحافظ فى الفتح.

(٢) «الجرى» - بفتح الجيم وكسر الراء وتشديد الباء: الرسول، وقد يطلق على الوكيل وعلى الأجير. سمي بذلك لأنه يجرى مجرى مرسله أو موكله، أو لأنه يجرى مسرعاً فى حوائجه.

(٣) وأنفسهم - قال الحافظ فى الفتح «بفتح الفاء بلفظ أفعل التفضيل، من النفاسة. أى كثرت رغبتهم فيه». وفى النهاية: «أى»: أعجبهم وصار عندهم نفيساً. يقال: أنفسى فى كذا: أى رغبنى فيه.

وهذا الحديث صريح فى الدلالة التاريخية على أن العربية أقدم من إبراهيم وإسماعيل ولعلها أقدم من

السريانية، والتى هى - يقينا - أقدم من العبرية، التى هى لغة أبناء إسرائيل، الذى هو يعقوب حفيد إبراهيم.

بل لعل العربية الأولى هى أم هذه اللغات - التى تسمى «السامية» - كلها - خلافاً لمن جهل ذلك، فجعلوا كل

لفظة عربية توافق حرفاً من تلك اللغات معرباً عنها !!

(٤) بكسر الراء: أى يتفقد حال تركه هناك.

قالت: نعم، أنا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه ، فسألني عنك، فأخبرته، فسألني: كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير. قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبى، وأنت العتبة، أمرنى أن أمسكك. ثم لَبَثَ عنهم ما شاء الله، عز وجل، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يُبْرِى نَبْلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد. ثم قال: يا إسماعيل، إن الله أمرنى بأمر. قال: فاصنع ما أمرك ربك. قال: وتعيننى؟ قال: وأعنيك. قال: فإن الله أمرنى أن أبني ههنا بيتاً - وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها - قال: فعند ذلك رَفَعَا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبنى، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ، قال: «فجعلا بينان حتى يدورا حول البيت، وهما يقولان: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾». ورواه عبد بن حميد به مطولاً. ورواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، مختصراً. ورواه ابن مردويه من وجه آخر عن ابن عباس مطولاً.

[ثم ذكر المؤلف الحافظ حديثاً آخر فى معناه عن ابن عباس أيضاً ، من صحيح البخارى . ثم قال] : والعجب أن الحافظ أبا عبد الله الحاكم رواه فى المستدرک، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه . وقد رواه البخارى كما ترى !! [ثم ذكر أحاديث أخرى عن على وابن عباس ، وآثراً عن بعض التابعين . لم نر داعياً للإطالة بذكرها . ثم قال] : وقال البخارى، رحمه الله: قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ الآية: القواعد: أساسه واحدها: قاعدة. والقواعد من النساء: واحدها قاعدة. ثم روى عن عائشة زوج النبى ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «ألم تَرَى أن قومك حين بنوا البيت اقتصروا عن قواعد إبراهيم؟» فقلت: يا رسول الله، ألا تَرَدُّهَا على قواعد إبراهيم؟ قال: «لولا حدثان قومك بالكفر». فقال عبد الله ابن عمر: لئن كانت عائشة سَمِعَتْ هذا من رسول الله ﷺ ما أَرَى رَسُولَ الله ﷺ ترك استلام الرُّكْنَيْنِ اللَّذَيْنِ يَلِكَانِ الْحِجْرَ إِلَّا أن البيت لم يُتِمَّ على قواعد إبراهيم . ورواه مسلم والنسائى . وروى مسلم عن عائشة، عن النبى ﷺ قال: «لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية - أو قال: بكفر - لأنفقت كنز الكعبة فى سبيل الله، ولجعلت بابها بالأرض، ولأدخلت فيها الحجر».

وروى مسلم عن عبد الله بن الزبير قال: حدثتني خالتي - يعنى عائشة - قالت: قال النبى ﷺ: «يا عائشة، لولا قومك حديث عهد بشرك، لهدمت الكعبة، فالزقتها بالأرض، ولجعلت لها بابين: باباً شرقياً، وباباً غربياً، وزدتُ فيها ستة أذرع من الحجر؛ فإن قريشاً اقتصرتها حيث بنت الكعبة».

ذكر بناء قريش الكعبة بعد إبراهيم الخليل وقبل البعثة بخمسين سنين (١) :

وقد نَقَلَ معهم رسول الله فى الحجارة، وله من العمر خمس وثلاثون سنة صلوات الله

(١) وانظر أيضاً فى بناء الكعبة ما كتبه المؤلف فى تاريخه (١ / ١٦٣ - ١٦٦ ، و ٢ / ٢٩٨ - ٣٠٥) .

وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين . قال محمد بن إسحاق بن يسار فى السيرة : ولما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة ، اجتمعت قريش لبنان الكعبة ، وكانوا يَهْمُونَ بذلك ليسقفوها ، ويهايون هدمها ، وإنما كانت رَضَماً فوق القامة ، فأرادوا رفعها وتسقيفها ، وكان بمكة رجل قبضى ، فهِمَّ لهم فى أنفسهم بعض ما يصلحها . فلما أجمعوا أمرهم فى هدمها وبنائها ، قام أبو وهب ابن عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم ، فقال : يا معشر قريش ، لا تُدْخِلُوا فى بَنَائِهَا من كسبكم إلا طيباً ، لا يدخل فيها مهر بَغَى ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس . ثم إن قريشاً تَجَرَّأت الكعبة ، فكان شق الباب لبني عبد مناف وزهرة ، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم ، وكان ظهر الكعبة لبني جُمَحَ وسَهْمَ ، وكان شق الحجر لبني عبد الدار بن قصي ، ولبني أسد ابن عبد العزى بن قُصَي ، ولبني عدى بن كعب بن لؤى ، وهو الحَظِيم . حتى إذا انتهى الهدم إلى الأساس ، أساس إبراهيم ، عليه السلام ، أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنة آخذ بعضها بعضاً .

ثم إن القبائل من قريش جَمَعَت الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع على حدة ، ثم بنوها ، حتى بلغ البنيان موضع الركن - يعنى الحجر الأسود - فاختموا فيه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، حتى تحاوروا وتخالفوا ، وأعدوا للقتال . فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ، ثم تعاهدوا هم وبنو عدى بن كعب بن لؤى على الموت ، وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة ، فسموا : لعنة الدم . فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً . ثم إنهم اجتمعوا فى المسجد فتشاوروا وتناصفوا . فزعم بعض أهل الرواية : أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم - وكان عامئذ أسن قريش كلهم - قال : يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد ، يقضى بينكم فيه . ففعلوا ، فكان أول داخل رسول الله ﷺ . فلما رأوه قالوا : هذا الأمين رضينا ، هذا محمد ، فلما انتهى إليهم وأخبروه ، قال ﷺ : «هَلُمَّ إِلَيَّ ثوباً» فأتى به ، فأخذ الركن - يعنى الحجر الأسود - فوضعه فيه بيده ، ثم قال : «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم : «ارفعوه جميعاً» . ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعه ، وضعه هو بيده ﷺ ، ثم بنى عليه . وكانت قريش تسمى رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحى : الأمين . وكانت الكعبة على عهد النبى ﷺ ثمانية عشر ذراعاً ، وكانت تكسى القباطى ، ثم كُسِيت بعدُ البُرود ، وأول من كساها الديباج الحجاج بن يوسف (١) .

قلت : ولم تزل على بناء قريش حتى احترقت فى أول إمارة عبد الله بن الزبير بعد سنة ستين . وفى ولاية يزيد بن معاوية ، لما حاصروا ابن الزبير ، فحيثئذ نقضها ابن الزبير إلى الأرض وبنائها على قواعد إبراهيم ، عليه السلام ، وأدخل فيها الحجر وجعل لها باباً شرقياً وباباً غربياً ملصقين بالأرض ، كما سمع ذلك من خالته عائشة أم المؤمنين ، ولم تزل كذلك مدة

(١) كلام ابن إسحاق فى السيرة طويل . انظر : سيرة ابن هشام (ص ١٢٢ - ١٢٦ طبعة أوربة) . وقد اختصر الحافظ المؤلف هنا بعضه ، واختصرت أنا كثيراً منه ؛ اقتصر على الضرورى المناسب هنا .

إمارته حتى قتله الحجاج، فردها إلى ما كانت عليه بأمر عبد الملك بن مروان له بذلك، كما روى مسلم بن الحجاج في صحيحه: عن عطاء، قال: لما احترق البيت زمن يزيد بن معاوية حين غزاها أهل الشام، فكان من أمره ما كان، تركه ابن الزبير حتى قدم الناس الموسم يريد أن يُجرّتهم - أو يحزبهم - على أهل الشام، فلما صدر الناس قال: يا أيها الناس، أشيروا على في الكعبة، أنقضها ثم أبني بناءها أو أصلح ما وهى منها؟ قال ابن عباس: إنه قد خرق لى رأى فيها، أرى أن تُصلح ما وهى منها، وتدع بيتاً أسلم الناس عليه، وأحجاراً أسلم الناس عليها، وبعث عليها النبي ﷺ. فقال ابن الزبير: لو كان أحدهم احترق بيته ما رضى حتى يجده، فكيف بيت ربكم، عز وجل؛ إني مستخير ربى ثلاثاً ثم عازم على أمرى. فلما مضت ثلاث أجمع رأيه على أن ينقضها. فتحامها الناس أن يتزل بأول الناس يصعد فيه أمر من السماء، حتى صعد رجل، فالتقى منه حجارة، فلما لم يره الناس أصابه شيء تابعوا، فنقضوه حتى بلغوا به الأرض. فجعل ابن الزبير أعمدة فستر عليها الستور، حتى ارتفع بناؤه. وقال ابن الزبير: إني سمعت عائشة، رضى الله عنها، تقول: إن النبي ﷺ، قال: «لولا أن الناس حديث عهدهم بكفر، وليس عندي من النفقة ما يُقوينى على بنائه، لكنت أدخلت فيه من الحجر خمسة أذرع، ولجعلت له باباً يدخل الناس منه، وباباً يخرجون منه». قال: فأنا أجد ما أنفق، ولست أخاف الناس. قال: فزاد فيه خمسة أذرع من الحجر، حتى أبدى له أساً نظّر الناس إليه فبنى عليه البناء. وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعاً، فلما زاد فيه استقصه فزاد في طوله عشرة أذرع، وجعل له بابين: أحدهما يدخل منه، والآخر يخرج منه. فلما قُتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبد الملك يخبره بذلك، ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أس نظر إليه العدول من أهل مكة، فكتب إليه عبد الملك: إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير فى شيء، أما ما زاده فى طوله فأقره. وأما ما زاد فيه من الحجر فردّه إلى بنائه، وسد الباب الذى فتحه. فنقضه وأعادّه إلى بنائه .

وقد رواه النسائي عن عائشة بالمرفوع منه. ولم يذكر القصة، وقد كانت السنة إقرار ما فعله عبد الله بن الزبير، رضى الله عنه؛ لأنه هو الذى ودّه رسول الله ﷺ. ولكن خشى أن تنكره قلوب بعض الناس لحداثة عهدهم بالإسلام وقرب عهدهم من الكفر. ولكن خفيت هذه السنة على عبد الملك بن مروان، ولهذا لما تحقق ذلك عن عائشة أنها روت ذلك عن رسول الله ﷺ، قال: وددنا أنا تركناه وما تولى. فقد روى مسلم عن أبى قُرعة: أن عبد الملك بن مروان بينما هو يطوف بالبيت إذ قال: قاتل الله ابن الزبير حيث يكذب على أم المؤمنين! يقول: سمعتها تقول: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، لولا حدثان قومك بالكفر لنقضت الكعبة حتى أزيد فيها من الحجر، فإن قومك قصّروا فى البناء». فقال الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة: لا تقل هذا يا أمير المؤمنين، فأنا سمعت أم المؤمنين تحدث هذا. قال: لو كنت سمعته قبل أن أهدمه لتركته على ما بنى ابن الزبير. فهذا الحديث كالمقطوع به إلى عائشة أم المؤمنين، لأنه قد روى

عنها من طرق صحيحة متعددة عن الأسود بن يزيد، والحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن محمد بن أبي بكر الصديق، وعروة بن الزبير. فدل هذا على صواب ما فعله ابن الزبير. لو ترك لكان جيداً.

ولكن بعد ما ترك الأمر إلى هذا الحال، فقد كره بعض العلماء أن يغير عن حاله، كما ذكر عن أمير المؤمنين هارون الرشيد - أو أبيه المهدي : أنه سأل الإمام مالكا عن هدم الكعبة وردّها إلى ما فعله ابن الزبير؟ فقال له مالك: يا أمير المؤمنين، لا تجعل كعبة الله ملعبة للملوك، لا يشاء أحد أن يهدمها إلا هدمها. فترك ذلك الرشيد. نقله عياض والنواوى، ولا تزال - والله أعلم - هكذا إلى آخر الزمان، إلى أن يخرّبها ذو السويقتين من الحبشة، كما ثبت ذلك فى الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة». وعن عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «كأنى به أسود أفحج، يقلعها حجراً حجراً». رواه البخارى. وروى الإمام أحمد بن حنبل عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُخْرَبُ الكعبة ذو السويقتين من الحبشة، ويسلبها حلّيتها ويجردها من كسوتها. ولكأنى أنظر إليه أصيلع أفيدع يضرب عليها بِمِسْحَاتِهِ وَمِعْوَلِهِ»^(١). الفَدْعُ: زَيْغُ^(٢) بين القدم وعظم الساق. وهذا - والله أعلم - إنما يكون بعد خروج يأجوج ومأجوج، لما جاء فى صحيح البخارى عن أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله ﷺ: «لِيُحَجَّجَ الْبَيْتُ وَلِيُعْتَمَرَ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ».

وقوله تعالى حكاية لدعاء إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾: قال ابن جرير: يعينان بذلك: واجعلنا مستسلمين لأمرك، خاضعين لطاعتك، لا نشرك معك فى الطاعة أحداً سواك، ولا فى العبادة غيرك. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ قال السدى: يعينان العرب. قال ابن جرير: والصواب أنه يعم العرب وغيرهم؛ لأن من ذرية إبراهيم بنى إسرائيل، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الاعراف: ١٥٩]. قلت: وهذا الذى قاله ابن جرير لا ينفيه السدى؛ فإن تخصيصهم بذلك لا ينفى من عداهم، والسياق إنما هو فى العرب؛ ولهذا قال بعده: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ الآية، والمراد بذلك محمد ﷺ، وقد بعث فىهم كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢] ومع هذا لا ينفى رسالته إلى الأحمر والأسود، لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الاعراف: ١٥٨]، وغير ذلك من الأدلة القاطعة.

وهذا الدعاء من إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، كما أخبر الله تعالى عن عباده المتقين

(١) السند بتحقيقنا (٧٠٥٣) .

(٢) فى المطبوع من «عمدة التفسير»: «زيغ» بالعين المهملة، وهو خطأ، وأعتقد أنه من الطابع. راجع: القاموس المحيط، مادة «فدع». (الباز) .

المؤمنين ، فى قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتًا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٤] . وهذا القدر مرغوب فيه شرعاً ، فإن من تمام محبة عبادة الله تعالى أن يُحب أن يكون من صلِّبه من يعبد الله وحده لا شريك له ؛ ولهذا لما قال الله تعالى لإبراهيم ، عليه السلام : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ قال : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ وهو قوله : ﴿ وَاجْعَلْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم : ٣٥] . وقد ثبت فى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ أنه قال : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .

﴿ وَأَرْبَا مَنَاسِكَنَا ﴾ : قال عطاء : أخرجها لنا ، وعلمناها . وروى أبو داود الطيالسى ، عن ابن عباس ، قال : إن إبراهيم لما أرى المناسك ، عرض له الشيطان عند المسعى ، فسابقه إبراهيم ، ثم انطلق به جبريل حتى أتى به منى ، فقال : مُنَاحُ النَّاسِ هَذَا . فلما انتهى إلى جمرَةِ الْعَقْبَةِ تعرض له الشيطان ، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم أتى به الجمرَةِ الْوَسْطَى ، فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات ، حتى ذهب ، ثم أتى به الجمرَةِ الْقَصْوَى ، فعرض له الشيطان ، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، فأتى به جَمْعًا . فقال : هذا المشعر . ثم أتى به عرفة . [فقال : هذه عرفة] (١) . فقال له جبريل : أَعَرَفْتَ (٢) .

﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم - أن يبعث الله فيهم رسولا منهم ، أى من ذرية إبراهيم . وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قَدَرَ اللَّهِ السَّابِقَ فى تعيين محمد - صلوات الله وسلامه عليه - رسولا فى الأمين إليهم ، وإلى سائر الأعجميين ، من الإنس والجن ، كما روى الإمام أحمد : عن العرياض بن سارية قال : قال رسول الله ﷺ : « إني عند الله لخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل فى طيئته ، وسأنبئكم بأول ذلك : دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى بى ، ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات النبيين يَرَيْنَ » (٣) . وروى أيضا عن أبى أمامة قال : قلت : يا رسول الله ، ما كان أول يدْءِ أمرك؟ قال : « دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى بى ، ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام » (٤) .

(١) هذه الجملة ساقطة من المطبوع من « عمدة التفسير » ، وأثبتناها من المخطوطة الأزهرية . (الباز) .

(٢) هو قطعة من حديث طويل ، رواه الطيالسى فى مسنده (٢٦٩٧) ورواه أحمد فى المسند أيضا (٢٧٠٧ ، ٢٧٠٨) .

(٣) المسند (١٧٢١٧ ، ١٧٢١٨ ، ١٧٢٣٠) وأسانيده صحاح ، ورواه الطبرى (٢٠٧١ - ٢٠٧٣) . وفصلنا القول فى تخريجه هناك .

(٤) المسند (٥ / ٢٦٢ حلى) ورواه أيضا الطيالسى (١١٤٠) وكذلك رواه الطبرانى ، وابن مردويه ، والبيهقى - كما فى الدر المنثور (١ / ١٣٩) . وفى إسناده الفرج بن فضالة ، وهو ضعيف ، ولكنه يصلح شاهدا للحديث الذى قبله .

والمراد أن أول من نُوِّه بذكره وشهره في الناس، إبراهيم، عليه السلام. ولم يزل ذكره في الناس مذكوراً مشهوراً سائراً حتى أفصح باسمه خاتمُ أنبياء بني إسرائيل نسباً، وهو عيسى ابن مريم، عليه السلام، حيث قام في بني إسرائيل خطيباً، وقال: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الص: ٦]؛ ولهذا قال في هذا الحديث: «دعوة أبى إبراهيم، وبشرى عيسى ابن مريم».

وقوله: «ورأت أُمى أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام» - قيل: كان مناماً رآته حين حملت به، وقصته على قومها فشاع فيهم واشتهر بينهم، وكان ذلك توطئة. وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه ونبوته ببلاد الشام، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله، وبها ينزل عيسى ابن مريم إذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها. ولهذا جاء في الصحيحين: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك». وفي صحيح البخاري: «وهم بالشام».

وقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ يعني: القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ يعني: السنة، قاله الحسن، وقتادة، ومقاتل بن حيان، وأبو مالك وغيرهم. وقيل: الفهم في الدين. ولا منافاة. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ قال ابن عباس: يعني طاعة الله، والإخلاص. وقال محمد بن إسحاق: يعلمهم الخير فيفعلوه، والشر فيتقوه، ويخبرهم برضا الله عنهم إذا أطاعوه ليستكثروا من طاعته، ويجتنبوا ما يسخطه من معصيته. وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أى: العزيز الذى لا يعجزه شيء، وهو قادر على كل شيء، الحكيم فى أفعاله وأقواله، فيضع الأشياء فى محالها؛ لعلمه وحكمته وعدله.

﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّا لَأَنْتَ اللَّهُ أَصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلا تَمُوتُونَ إِنَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾
لَمَنِ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَى إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلا تَمُوتُونَ ﴿١٢٢﴾

يقول تبارك وتعالى رداً على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله، المخالف لملة إبراهيم الخليل، إمام الخنفاء، فإنه جرد توحيد ربه تبارك وتعالى، فلم يدع معه غيره، ولا أشرك به طرفه عين، وتبرأ من كل معبود سواه، وخالف فى ذلك سائر قومه، حتى تبرأ من أبيه، فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الانعام: ٧٨، ٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ. إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانَا لِلَّهِ حَنِيفًا وَتَمَّ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. شَاكِرًا لِنِعْمَةِ اجْتِبَاءِ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٢]، ولهذا وأمثاله قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أى: عن طريقته ومنهجه. فيخالفها ويرغب عنها ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أى:

ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال، حيث خالف طريق من اصطفى في الدنيا للهداية والرشاد ، من حَدَاثَةِ سَنَةِ إِلَى أَنْ اتَّخَذَهُ اللَّهُ خَلِيلًا ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الصَّالِحِينَ السَّعْدَاءِ فَتَرَكَ طَرِيقَهُ هَذَا وَمَسْلَكَهُ وَمَلَّتَهُ وَاتَّبَعَ طُرُقَ الضَّلَالَةِ وَالْغَى ، فَأَيُّ سَفْهِ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا؟! أَمْ أَى ظَلَمَ أَكْبَرَ مِنْ هَذَا؟! كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ . وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَقَتَادَةُ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْيَهُودِ؛ أَحَدَثُوا طَرِيقًا لَيْسَتْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَخَالَفُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ فِيمَا أَخَذُوهُ ، وَيَشْهَدُ لَصِحَّةِ هَذَا الْقَوْلِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧ ، ٦٨] .

وقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى: أمره الله بالإخلاص له والاستسلام والانقياد، فأجاب إلى ذلك شرعاً وقدرًا، وقوله: ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ ، أى: وصى بهذه الملة، وهى الإسلام لله لحرصهم عليها ومحبتهم لها حافظوا عليها إلى حين الوفاة ووصوا أبناءهم بها من بعدهم : ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أى: أحسنوا فى حال الحياة والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه . فَإِنَّ الْمَرْءَ يَمُوتُ غَالِبًا عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ ، وَيَبْعَثُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ . وَقَدْ أَجْرَى اللَّهُ الْكَرِيمُ عَادَتَهُ بِأَنْ مِنْ قَصْدِ الْخَيْرِ وَقُوْلُهُ وَيَسِّرْ عَلَيْهِ . وَمَنْ نَوَى صَالِحًا ثَبَّتَ عَلَيْهِ . وَهَذَا لَا يَعَارِضُ مَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا . وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا»^(١)؛ لَأنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ رَوَايَاتِ هَذَا الْحَدِيثِ: «فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ ، وَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ . وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى . وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى . وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ [الليل: ٥ - ١٠] ، (٢) .

﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهُكَ وَإِلَهُ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَكَ مُسْلِمُونَ ﴾^(١) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(٢)

يقول تعالى محتجاً على المشركين من العرب أبناء إسماعيل، وعلى الكفار من بنى

(١) هذا جزء من حديث رواه أحمد فى المسند (٣٦٢٤) ، من حديث ابن مسعود ، وكذلك رواه البخارى ومسلم وغيرهما . وهو الحديث الرابع من الأربعين النووية .

(٢) هذا جزء من حديث آخر ، عن سهل بن سعد ، وإنما اعتبره المؤلف الحافظ من بعض روايات الحديث الذى قبله - باعتبار المعنى ، لا باعتبار اتحاد الصحابى . وحديث سهل بن سعد رواه مسلم (٢ / ٢٩٩ ، ٣٠٠) مختصراً . ورواه البخارى (٦ / ٦٦) ، ومسلم (١ / ٤٣) مطولاً فى قصة .

إسرائيل - وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام - بأن يعقوب لما حضرته الوفاة وصى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال لهم: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ وهذا من باب التغليب لأن إسماعيل عمه. ﴿ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ أى: نُوحِّدُهُ بالالوهية، ولا نشرك به شيئاً غيره ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ أى: مطيعون خاضعون كما قال تعالى: ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٣] والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة، وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. والآيات فى هذا كثيرة والأحاديث، فمنها قوله ﷺ: «نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد» (١).

وقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ أى: مضت ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ أى: إن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيراً يعود نفعه عليكم، فإن لهم أعمالهم التى عملوها ولكم أعمالكم: ﴿ وَلَا تَسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

روى محمد بن إسحاق: عن ابن عباس، قال: قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله ﷺ: ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد. وقالت النصارى مثل ذلك. فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ﴾. وقوله: ﴿ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ أى: لا نريد ما دعوتونا إليه من اليهودية والنصرانية، بل نتبع ﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ أى: مستقيماً. وقال مجاهد: مخلصاً (٢).

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَآلِ إِسْحَاقَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلاً، وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملاً، ونص على أعيان من الرسل، وأجمل ذكر بقية الأنبياء، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم، بل يؤمنوا بهم كلهم، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم: ﴿ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضٍ وَنُكْفِرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا . أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴾ الآية [النساء: ١٥٠، ١٥١]. وروى البخارى: عن أبى هريرة، قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويُفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا

(١) هو مختصر من معنى حديث مطول، رواه أحمد فى المسند مرارا، منها (٨٢٣١ ، ٩٢٥٩ ، ٩٦٣٠ - ٩٦٣٢) من حديث أبى هريرة، ورواه الشيخان وغيرهما.

(٢) البخارى (٨ / ١٢٩ فتح).

أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ﴾ الآية (١). وقد روى مسلم وأبو داود والنسائي عن ابن عباس، قال، كان رسول الله ﷺ أكثر ما يصلي الركعتين اللتين قبل الفجر بـ ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ﴾ الآية، والأخرى بـ ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بَأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٢]. وقال الخليل بن أحمد وغيره: الأسباط في بني إسرائيل، كالقبائل في بني إسماعيل.

﴿ فَإِنِ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِ فَقَدْ ءَاهَدُوا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ فَإِنِ آمَنُوا ﴾ يعني: الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ﴿ بِمِثْلِ مَا آمَنَ بِهِ ﴾ أيها المؤمنون، من الإيمان بجميع كتب الله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴿ فَقَدْ آهَدُوا ﴾ أى: فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه: ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا ﴾ أى: عن الحق إلى الباطل، بعد قيام الحجة عليهم ﴿ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ﴾ أى: فسينصرك عليهم ويظفرك بهم ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾. روى ابن أبي حاتم: عن زياد بن يونس، حدثنا نافع بن أبي نعيم، قال: أرسل إلى بعض الخلفاء مصحف عثمان بن عفان ليصلحه. قال زياد: فقلت له: إن الناس ليقولون: إن مصحفه كان في حجره حين قُتل، فوقع الدم على ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾. فقال نافع: بصُرْتُ عيني بالدم على هذه الآية (٢).

وقوله: ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ﴾: قال ابن عباس: دين الله. وانتصاب ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ﴾: إما على الإغراء كقوله: ﴿ فُطِرَتِ اللَّهُ ﴾ [الروم: ٣٠] أى: الزموا ذلك عليكموه. وقال بعضهم: بدلا من قوله: ﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾. وقال سيويه: هو مصدر مؤكد انتصب عن قوله: ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ كقوله: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ ﴾ [المائدة: ٩٠، وفي غيرها].

﴿ قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَّا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا يَهُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾

يقول الله تعالى مرشداً نبيه صلوات الله وسلامه عليه إلى درء مجادلة المشركين: ﴿ قُلْ

(١) في المطبوع من «عمدة التفسير»: «بأننا» وكذا في الأهرية. وهي خطأ. وقد جاءت هذه اللفظة - «بأننا» - في المائدة: الآية (١١١) في قوله تعالى: ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بَأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾. (البار).

(٢) إسناده صحيح إلى نافع. ونافع: هو ابن عبد الرحمن بن أبي نعيم، أحد القراء السبعة المشهورين. والراوى عنه هو تلميذه في القراءة: زياد بن يونس الحضرمي الإسكندراني، أحد الأثبات الثقات. كان يلقب «سوسة العلم»، مات بمصر سنة ٢١١هـ.

أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ ؟ أَيْ : أَتُنَظَرُونَنَا فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ وَالْإِنْقِيَادِ ، وَاتِّبَاعِ أَوَامِرِهِ وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ ﴿ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ المتصرف فينا وفيكم ، المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له ؟ ﴿ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ أَيْ : نَحْنُ بَرَاءٌ مِنْكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ، وَأَنْتُمْ بَرَاءٌ مِنَّا ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ٤١] وقال تعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَاسَلْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ٢٠] . وقال تعالى إخباراً عن إبراهيم : ﴿ وَحَاجُّهُ قَوْمُهُ قَالِ أَتَحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٠] وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ الْآيَةِ [البقرة : ٢٥٨] . وقال في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ أَيْ : نَحْنُ بَرَاءٌ مِنْكُمْ كَمَا أَنْتُمْ بَرَاءٌ مِنَّا ، وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ، أَيْ فِي الْعِبَادَةِ وَالتَّوَجُّهِ .

ثم أنكر تعالى عليهم في دعواهم أن إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء والأسباط كانوا على ملتهم ، إما اليهودية وإما النصرانية ، فقال : ﴿ قُلْ أَلَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾ يعني : بل الله أعلم ، وقد أخبر أنهم لم يكونوا يهوداً ولا نصارى ، كما قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية والتي بعدها [آل عمران : ٦٧ ، ٦٨] .

وقوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ : قال الحسن البصري : كانوا يقرؤون في كتاب الله الذي أتاهم : إن الدين الإسلام ، وإن محمداً رسول الله ، وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا براءاً من اليهودية والنصرانية ، فشهد الله بذلك ، وأقروا به على أنفسهم لله ، فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك . وقوله : ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ : تهديد ووعد شديد ، أَيْ : عِلْمُهُ مُحِيطٌ بِعَمَلِكُمْ ، وَسَيَجْزِيكُمْ عَلَيْهِ . ثم قال تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ أَيْ : قَدْ مَضَتْ ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ أَيْ : لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴿ وَلَا تُسْأَلُونَ عَنْهَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وليس يغنى عنكم انتسابكم إليهم ، من غير متابعة منكم لهم ، ولا تغتروا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا مثلهم منقادين لأوامر الله واتباع رسله ، الذي بعث مبشرين ومنذرين ، فإنه من كفر بنبي واحد فقد كفر بسائر الرسل ، ولا سيما من كفر بسيد الأنبياء ، وخاتم المرسلين ورسول رب العالمين إلى جميع الإنس والجن من المكلفين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين .

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ﴿ كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكِبْرَةٌ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عَمَلَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالْكَاسِرِينَ لَرُءٌ وَفٍ رَحِيمٌ ﴾

قيل: المراد بالسفهاء ههنا: مشركو العرب. وقيل: أحبار يهود. وقيل: المنافقون، والآية عامة في هؤلاء كلهم، والله أعلم. وروى البخارى: عن البراء: أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم. فخرج رجل ممن كان صلى معه، فمر على أهل المسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة، فداروا كما هم قبل البيت. وكان الذى قد مات على القبلة قبل أن تحوّل قبل البيت رجلاً قتلوا لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾. ورواه مسلم (١).

وروى ابن أبى حاتم: عن البراء قال: كان رسول الله ﷺ قد صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، وكان يحب أن يؤجّه نحو الكعبة، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قال: فؤجّه نحو الكعبة. وقال السفهاء من الناس، وهم اليهود: ﴿وَمَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ فأنزل الله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢).

وقد جاء فى هذا الباب أحاديث كثيرة، وحاصل الأمر: أنه قد كان رسول الله ﷺ أمرَ باستقبال الصخرة من بيت المقدس، فكان بمكة يُصلّى بين الركنين، فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبلُ صخرة بيت المقدس، فلما هاجر إلى المدينة تَعَدَّرَ الجمعُ بينهما، فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس فاستمر الأمرُ على ذلك بضعة عشر شهراً، وكان يكثر الدعاء والابتهال أن يؤجّه إلى الكعبة، التى هى قبله إبراهيم، عليه السلام، فأجيب إلى ذلك، وأمر بالتوجه إلى البيت العتيق، فخطب رسولُ الله ﷺ الناس وأعلمهم بذلك. وكان أول صلاة صلاها إليها صلاة العصر، كما تقدم فى الصحيحين من رواية البراء. وأمّا أهل قُبَاء، فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر من اليوم الثانى، كما جاء فى الصحيحين، عن ابن عمر أنه قال: بينما الناس بقاء فى صلاة الصبح، إذ جاءهم آت فقال: إنّ رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها. وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة (٣). وفى هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به، وإن تقدم نزوله وإبلاغه؛ لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء، والله أعلم.

ولما وقع هذا حصل لبعض الناس - من أهل النفاق والريب وانحرمة من اليهود - ارتياب وزيف عن الهدى وتخييط وشك، وقالوا: ﴿وَمَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ أى: قالوا: ما

(١) البخارى (٨ / ١٣٠ فتح) ومسلم (١ / ١٤٨) ورواه أحمد (٤ / ٢٨٣ حلى). والبخارى أيضاً (١ / ٨٩ - ٩٠، ٤٢١، و ١٣ / ٢٠٢) وابن سعد فى الطبقات (١ / ٥٢) والطبرى (٢١٥٣، ٢٢٢٢).

(٢) إسناده صحيح.

(٣) البخارى (١ / ٤٢٤، و ٨ / ١٣١ فتح) ومسلم (١٨١)، ورواه أحمد فى المسند مراراً، منها: (٤٦٤٢، ٤٧٩٤، ٥٨٢٧، ٥٩٣٤).

لهؤلاء تارة يستقبلون كذا، وتارة يستقبلون كذا؟ فأنزل الله جوابهم فى قوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أى: الحكم والتصرف والأمر كله لله، وحيثما تولوا فثم وجه الله، و﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧] أى: الشأن كله فى امتثال أوامر الله، فحيثما وجهنا توجهنّا، فالطاعة فى امتثال أمره، ولو وجهنا فى كل يوم مرات إلى جهات متعددة، فنحن عبده وفى تصرفه وخُدمته، حيثما وجهنا توجهنّا، وهو تعالى له بعده ورسوله محمد - صلوات الله وسلامه عليه - وأمه عناية عظيمة؛ إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم، خليل الرحمن، وجعل توجههم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له، أشرف بيوت الله فى الأرض، إذ هى بناية إبراهيم الخليل، عليه السلام، ولهذا قال: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. وقد روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ - يعنى فى أهل الكتاب -: «إنهم لا يحسدونا على شيء كما يحسدونا على يوم الجمعة، التى هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى القبلة التى هداها الله لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين» (١).

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾: يقول تعالى: إنما حوّلناكم إلى قبلة إبراهيم، عليه السلام، واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم، لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم؛ لأن الجميع معترفون لكم بالفضل. والوسط هاهنا: الخيار والأجود، كما يقال فى قريش: أوسط العرب نسباً وداراً، أى: خيرها. وكان رسول الله ﷺ وسطاً فى قومه، أى: أشرفهم نسباً، ومنه «الصلاة الوسطى»، التى هى أفضل الصلوات، وهى العصر، كما ثبت فى الصحاح وغيرها، ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً خصّها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب، كما قال تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

وروى الإمام أحمد: عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم. فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أأتانا من نذير وما أأتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمه، قال: فذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾. قال: الوسط: العدل، فتدعون، فتشهدون له بالبلاغ، ثم أشهد عليكم. رواه البخارى والترمذى والنسائى وابن ماجه (٢). وروى الحاكم وابن مردويه - واللفظ له - من حديث مصعب بن ثابت، عن محمد بن كعب القرظى، عن جابر بن عبد الله، قال: شهد رسول الله ﷺ جنازة فى بنى سلمة، وكنت إلى جانب رسول الله ﷺ، فقال بعضهم:

(١) المسند (٦/ ١٣٤، ١٣٥ حلى) فى حديث طويل. وإسناده صحيح.

(٢) المسند (٣/ ١١٣٠) والبخارى (٦/ ٢٦٤، ٨/ ١٣٠، ١٣١، و١٣/ ٢٦٦)، ورواه الطبرى (٢١٧٩).

(٢١٨١). وذكره ابن كثير هنا من رواية أخرى لأحمد أيضاً، وهى فى المسند (١١٥٧٩).

والله - يا رسول الله - لنعم المرء كان، لقد كان عفيفاً مسلماً ، وكان، وأثنوا عليه خيراً. فقال رسول الله ﷺ: «أنت بما تقول؟». فقال الرجل: الله أعلم بالسرائر، فأما الذى بدا لنا منه فذاك. فقال النبی ﷺ: «وجبت». ثم شهد جنازة فى بنى حارثة، وكنتُ إلى جانب رسول الله ﷺ، فقال بعضهم: يا رسول الله، بش المرء كان، إن كان لفظاً غليظاً، فائتوا عليه شراً فقال رسول الله ﷺ لبعضهم: «أنت بالذى تقول». فقال الرجل: الله أعلم بالسرائر، فأما الذى بدا لنا منه فذاك. فقال رسول الله ﷺ: «وجبت». قال مصعب بن ثابت: فقال لنا عند ذلك محمد ابن كعب: صدق رسول الله ﷺ، ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرُّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه (١). وروى الإمام أحمد: عن أبى الأسود أنه قال: أتيت المدينة فوافقتها، وقد وقع بها مرض، فهم يموتون موتاً ذريعاً. فجلست إلى عمر بن الخطاب، فمرت به جنازة، فَأَتْنِي عَلَى صاحبها خير. فقال: وجبت وجبت. ثم مرُّ بأخرى فَأَتْنِي عَلَيْهَا شَرُّ، فقال عمر: وجبت. فقال أبو الأسود: ما وجبت يا أمير المؤمنين؟ قال: قلت كما قال رسول الله ﷺ: «أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة». قال: فقلنا. وثلاثة؟ قال: «وثلاثة». قال، فقلنا: واثنان؟ قال: «واثنان» ثم لم نسأله عن الواحد. وكذا رواه البخارى، والترمذى، والنسائى (٢). وروى ابن مردويه: عن أبى بكر بن أبى زهير الثقفى، عن أبيه، قال: سمعت رسول الله ﷺ بالنبأوة يقول: «يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم». قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: بالثناء الحسن والثناء السيئ، أنتم شهداء الله فى الأرض». ورواه الإمام أحمد وابن ماجه (٣).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرُّسُولَ مِنْ يَتَّقِلْبُ عَلَى عَقِبِهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾: يقول تعالى: إنما شرعنا لك - يا محمد - التوجه أولاً إلى بيت المقدس، ثم صرفناك عنه إلى الكعبة، ليظهر حال من يتبعك ويطيعك ويستقبل معك حيثما توجهت ﴿مِنْ يَتَّقِلْبُ عَلَى عَقِبِهِ﴾، أى: مُرْتَدًّا عن دينه ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ أى: هذه الفعلة، وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة، أى: وإن كان هذا لأمرًا عظيمًا فى النفوس، إلا على الذين هدى الله قلوبهم، وأيقنوا بتصديق الرسول، وأن كل ما جاء به فهو الحق الذى لا مرية فيه، وأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فله أن يكلف عباده بما شاء، وينسخ ما يشاء، وله الحكمة التامة والحجة البالغة فى جميع ذلك، بخلاف الذين فى قلوبهم مرض، فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكًا، كما يحصل للذين آمنوا إيقان وتصديق، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيْكُمُ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَأَدَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ

(١) المستدرک (١ / ٢٦٨) .

(٢) أبو الأسود هو الدؤلى . والحديث فى المسند برقم (١٣٩).

(٣) المسند (١٥٥٠٦) ، وابن ماجه (٤٢٢١) . وقال البوصيرى فى زوائد ابن ماجه: «إسناده صحيح ، رجاله ثقات ، وليس لأبى زهير - هذا - عند ابن ماجه سوى هذا الحديث . وليس له شيء فى بقية الكتب الستة» . أقول : وليس له فى مسند أحمد غيره أيضا . وقد أشار إليه البخارى فى الكنى رقم (٢٨٦) فى ترجمة أبى زهير .

يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴿ [التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥] وقال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت : ٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء : ٨٢] . ولهذا كان من ثَبَّتَ على تصديق الرسول ﷺ واتباعه في ذلك ، وتوجه حيث أمره الله من غير شك ولا ريب ، من سادات الصحابة . وقد ذهب بعضهم إلى أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم الذين صلّوا القبليتين . [وأشار المؤلف الحافظ إلى حديث ابن عمر في قصة أهل قباء الذي مضى من رواية الشيخين ص ١٩١ ثم قال] : ورواه الترمذى وعنده : أنهم كانوا ركوعاً ، فاستداروا كما هم إلى الكعبة ، وهم ركوع . وكذا رواه مسلم عن ثابت ، عن أنس ، مثله (١) . وهذا يدل على كمال طاعتهم لله ولرسوله ، وانقيادهم لأوامر الله عز وجل ، رضى الله عنهم أجمعين .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ أى : صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك لا يضيع ثوابها عند الله ، وفى الصحيح ، عن البراء ، قال : مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس فقال الناس : ما حالهم فى ذلك ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ . ورواه الترمذى عن ابن عباس وصححه (٢) . ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَعَوِّفٌ رَّحِيمٌ ﴾ . وفى الصحيح : أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبى قد فرق بينها وبين ولدها ، فجعلت كلّما وجدت صبياً من السبى أخذته فالصقته بصدرها ، وهى تدور على ولدها ، فلما وجدته ضمته إليها وألقتمه ثديها . فقال رسول الله ﷺ : «أترون هذه طارحة ولدها فى النار ، وهى تقدر على ألا تطرحه؟» قالوا : لا ، يا رسول الله . قال : «فوالله ، لله أرحم بعباده من هذه بولدها» (٣) .

﴿ قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَتَوَلَّىكَ قِبَلَهُ تَرْضَاهَا قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَفْعَلُونَ ﴾

قال ابن عباس : كان أول ما نسخ من القرآن القبلة ، وذلك : أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة ، وكان أكثر أهلها اليهود ، فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس ، ففرحت اليهود ، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً ، وكان يحب قبلة إبراهيم ، فكان يدعو إلى الله وينظر إلى السماء ، فأنزل الله : ﴿ قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ

(١) أما رواية الترمذى (٧٠ / ٤) فإنها مختصرة . فكان الحافظ المؤلف يشير إليها بالمعنى . وأما رواية مسلم من حديث أنس - فهى صحيحة (١٤٨ / ١) ولقد مضى أيضا ، ص ١٩١ من لفظ البخارى فى حديث البراء هذا المعنى نفسه : أنهم كانوا راكعين : « فداروا كما هم قبل البيت » .

(٢) انظر فى حديث البراء : البخارى (٨٩ / ١ ، ٩٠ ، و ١٣٠ / ٨ فتح) ، وفى حديث ابن عباس : الترمذى (٧٠ / ٤) .

(٣) رواه البخارى (١٠ / ٣٦٠ ، ٣٦١) ، ومسلم (٢ / ٣٢٤ ، ٣٢٥) كلاهما من حديث عمر بن الخطاب .

شَطْرَهُ ﴿ فَارْتَابَ مِنْ ذَلِكَ الْيَهُودُ ، وَقَالُوا : ﴿ مَا وَلَهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ وقال : ﴿ فَأَيُّمَا تَوَلَّوْا فَمِنْ وَجْهِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ١١٥] ، وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ ﴾ . وروى الحاكم ، عن يحيى بن قمطة قال : رأيت عبد الله بن عمرو جالساً في المسجد الحرام ، يلزأ الميزاب ، فتلا هذه الآية : ﴿ فَلتَوَلَّيْكُ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ قال : نحو ميزاب الكعبة . ثم قال : صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه . ورواه ابن أبي حاتم (١) وهذا قول أبي العالية ، ومجاهد ، وعكرمة ، وغيرهم . وكما تقدم في الحديث الآخر : « ما بين المشرق والمغرب قبله » (٢) . وروى النسائي عن أبي سعيد بن المعلّى قال : كنا نغذو إلى المسجد على عهد رسول الله ﷺ ، [فنمر على المسجد] (٣) فنصلى فيه ، فمررنا يوماً - ورسول الله ﷺ قاعد على المنبر - فقلت : لقد حدث أمر ، فجلست ، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلتَوَلَّيْكُ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ حتى فرغ من الآية . فقلت لصاحبي : تعال نركع ركعتين قبل أن ينزل رسول الله ﷺ ، فنكون أول من صلى ، فتوارينا فصليناهما . ثم نزل النبي ﷺ فصلى للناس الظهر يومئذ (٤) .

وقوله : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ : أمر تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض ، شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، ولا يستثنى من هذا شيء ، سوى النافلة في حال السفر ، فإنه يصليها حيثما توجه قلبه وقلبه نحو الكعبة . وكذا في حال المسابقة في القتال يصلى على كل حال ، وكذا من جهل جهة القبلة يصلى باجتهاده ، وإن كان مخطئاً في نفس الأمر ؛ لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ أى : واليهود - الذين أنكروا استقبالكم الكعبة وانصرفكم عن بيت المقدس - يعلمون أن الله تعالى سيوجهكم إليها ، بما في كتبهم عن أنبيائهم ، من النعت والصفة لرسول الله ﷺ وأمتّه ، وما خصه الله تعالى به وشرّفه من الشريعة الكاملة العظيمة ، ولكن أهل الكتاب يتكاثرون ذلك بينهم حسداً وكفراً وعناداً ؛ ولهذا يهددهم تعالى بقوله : ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

(١) المستدرک (٢ / ٢٦٩) ووافقه الذهبي على تصحيحه . وروى الحديث « يحيى بن قمطة » : تابعى ثقة . وأبوه « قمطة » بالقاف والميم والطاء ، كما في الطبري وتفسير عبد الرزاق (المخطوط) ومراجعة الترجمة . ولكن وقع في مطبوعة ابن كثير هنا « قطة » بدون الميم . وهو خطأ . وثبت على الصواب في مخطوطة الأزهر ، وكذلك ثبت على الصواب في مخطوطة مختصر الذهبي للمستدرک - التي عندى . والحديث رواه الطبري (٢٢٤٧) - (٢٢٤٩) بنحوه وقد فصلنا القول فيه هناك .

(٢) مضى ، ص ١٦٣ .

(٣) الزيادة من الأهرية .

(٤) هذان من السنن الكبرى للنسائي . وأما الذى فى السنن الصغرى (١ / ١١٩ ، ١٢٠) فإنه مختصر هكذا : « كنا نغذو إلى السوق على عهد رسول الله ﷺ فنمر على المسجد فنصلى فيه » . وأما هذا المطول ، فقد ذكره الهيثمى فى الزوائد (٢ / ١٢ ، ١٣) بنحوه ونسبه للبرار والطبرانى فى الكبير .

يخبر تعالى عن كُفْر اليهود وعنادهم ، ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول الله ﷺ ، وأنه لو أقام عليهم كل دليل على صحة ما جاءهم به ، لما اتبعوه وتركوا أهواءهم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٩٦ ، ٩٧] . ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَلَئِنْ آتَيْنَا الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ إخبار عن شدة متابعة الرسول ﷺ لما أمره الله تعالى به ، وأنه كما هم متمسكون بآرائهم وأهوائهم ، فهو أيضاً متمسك بأمر الله وطاعته واتباع مرضاته ، وأنه لا يتبع أهواءهم في جميع أحواله ، وما كان متوجهاً إلى بيت المقدس ؛ لأنها قبله اليهود ، وإنما ذلك عن أمر الله تعالى . ثم حذر تعالى من مخالفة الحق الذي يعلمه العالم إلى الهوى ؛ فإن العالم الحجة عليه أقوم من غيره . ولهذا قال مخاطباً للرسول ، والمراد الأمة : ﴿ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٤٥] .

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ ١٤٦ ﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿ ١٤٧ ﴾

يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول ﷺ كما يعرف أحدهم ولده ، والعرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا ، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال لرجل معه صغير : « ابنك هذا ؟ » قال : نعم يا رسول الله ، أشهد به . قال : « أما إنه لا يَجْنِي عليك ولا تَجْنِي عليه » (١) . ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق والإيقان العلمي ﴿ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ ﴾ أى : ليكتُمون الناس ما فى كتبهم من صفة النبى ﷺ ، ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ . ثم ثبت تعالى نبيه والمؤمنين وأخبرهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذى لا مرية فيه ولا شك ، فقال : ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ .

﴿ وَلِكُلِّ وُجْهٍ هُوَ مُوَلِّيًا فَاسْتَغْفِرُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿ ١٤٨ ﴾

قال أبو العالية : لليهودى وجهة هو مولياها ، وللنصراني وجهة هو مولياها ، وهذاكم - أنتم أيها الأمة - إلى القبلة التى هى القبلة . وروى عن مجاهد ، وعطاء ، نحو هذا . وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَغْفِرُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ٤٨] . وقال ههنا : ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، أى : هو قادر على جمعكم من الأرض ، وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم .

(١) رواه أحمد فى المسند (٧١٠٦) من حديث أبى رمثة . ورواه بعد ذلك بأسانيد كثيرة . وقد فصلنا القول فى تخريجه هناك .

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٤٩) ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمْنَعِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١٥٠)

هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام، من جميع أقطار الأرض. وقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أى: أهل الكتاب؛ فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة، فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها على المسلمين أو لئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم فى التوجه إلى بيت المقدس. وهذا أظهر. وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ يعنى: مشركى قريش. ووجه بعضهم حُجَّةُ الظلمة - وهى داحضة - أن قالوا: إن هذا الرجل يزعم أنه على دين إبراهيم: فإن كان توجهه إلى بيت المقدس على ملة إبراهيم، فلم يرجع عنه؟ والجواب: أن الله تعالى اختار له التوجه إلى بيت المقدس أولاً لما له تعالى فى ذلك من الحكمة، فأطاع ربه تعالى فى ذلك، ثم صرفه إلى قبلة إبراهيم - وهى الكعبة - فامتثل أمر الله فى ذلك أيضاً، فهو، صلوات الله وسلامه عليه، مطيع لله فى جميع أحواله، لا يخرج عن أمر الله طرفة عين، وأمتع تبع له.

وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ أى: لا تخشوا شبه الظلمة المتعتين، وأفردوا الخشية لى، فإنه تعالى هو أهل أن يخشى منه. وقوله: ﴿وَلَا تَمْنَعِي عَلَيْكُمْ﴾ عطف على: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أى: لأنتم نعمتى عليكم فيما شرعته لكم من استقبال الكعبة، لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوهاً ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أى: إلى ما ضلّت عنه الأمم هديناكم إليه، وخصصناكم به، ولهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وأفضلها.

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ (١٥١) ﴿ فَادْكُرُوا آذَانَكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ (١٥٢)

يذكر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ إليهم، يتلو عليهم آيات الله مبینات ويُزَكِّيهم، أى: يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنّس النفوس وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعلمهم الكتاب - وهو القرآن - والحكمة - وهى السنة (١) - ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون. فكانوا فى الجاهلية الجهلاء يُسْفَهُونَ بالقول الفرى (٢)، فانتقلوا

(١) تفسير الحكمة بالسنة هو الحق الصحيح، وهو الذى اختاره الإمام الشافعى، ونصره بأقوى الدلائل والحجج، انظر: كتاب الرسالة للشافعى بتحقيقنا، فى الفقرات (٢٤٥ - ٢٥٤).

(٢) الفرى - بكسر الفاء جمع فرية. ووصف «القول» - وهو مفرد - بالجمع، يوجه بأنه فى معنى الجمع؛ لأنه يصدق على الكلام الكثير والقليل. وفى المطبوعة: «بالعقول الغراء» !! وهو لا معنى له.

ببركة رسالته، ويُنْ سفارته، إلى حال الأولياء، وسجاياء العلماء فصاروا أعمق الناس علماً، وأبرهم قلوباً، وأقلهم تكلفاً، وأصدقهم لهجة. وقال تعالى : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٤]. وذم من لم يعرف قدر هذه النعمة، فقال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]. قال ابن عباس: يعنى محمداً ﷺ؛ ولهذا نَدَبَ الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكره وشكره، فقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾.

قال مجاهد فى قوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ﴾ يقول: كما فعلت فاذكرونى. وروى ابن أبى حاتم: عن مكحول الأزدى قال: قلت لابن عمر: أرأيت قاتل النفس وشارب الخمر والسارق والزانى يذكر الله؟، وقد قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾؟ قال: إذا ذكر الله هذا ذكره الله بلعنته، حتى يسكت (١). وعن سعيد بن جبیر: اذكرونى بطاعتى أذكركم بمغفرتى، وفى رواية: برحمتى. وفى الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى: من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، ومن ذكرنى فى ملاء ذكرته فى ملاء خير منه» (٢). روى الإمام أحمد: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: يا بن آدم، إن ذكرتنى فى نفسك ذكرتك فى نفسى، وإن ذكرتنى فى ملاء ذكرتك فى ملاء من الملائكة - أو قال: ملاء خير منهم - وإن دنوت منى شبراً دنوت منك ذراعاً، وإن دنوت منى ذراعاً دنوت منك باعاً، وإن أتيتنى تمشى أتيتك أهول». صحيح الإسناد: وأخرجه البخارى (٣).

وقوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾: أمر الله تعالى بشكره، ووعد على شكره بمزيد الخير، فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]. وروى الإمام أحمد: عن أبى رجاء العطاردى، قال: خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف من خز لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «من أنعم الله عليه نعمة فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه» (٤).

(١) إسناده صحيح ومكحول الأزدى - هذا: هو العتقى البصرى. وهو تابعى ثقة. وهو غير «مكحول الشامى» التابعى الكبير. وهذا الذى قال ابن عمر حق، ينطبق تماماً على ما يصنع أهل الفسق والمجون فى عصرنا، من ذكر الله - سبحانه وتعالى - فى مواطن فسقهم وفجورهم، وفى الأغاني الداعرة، والتمثيل الفاجر الذى يزعمونه تربية وتعليماً، وفى قصصهم المقترى، الذى يجعلونه أنه هو الأدب وحده أو يكادون، وفى تلاعبهم بالدين، بما يسمونه «القصائد الدينية» و«الابتهالات»، التى يتلاعب بها الجاهلون من القراء، يتغنون بها فى مواطن الخشوع وأوقات التخلّى للعبادة، حتى لبسوا على عامة الناس شعائر الإسلام. فكل أولئك يذكرون الله فيذكروهم الله بلعنته حتى يسكتوا.

(٢) رواه أحمد فى المسند (٧٤١٦) بنحوه، من حديث أبى هريرة. ورواه أيضاً الشيخان، كما بينا فى شرح المسند.

(٣) المسند (١٢٤٣٢).

(٤) المسند (٤٣٨/٤ حلى). ومعناه ثابت أيضاً من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، فى المسند (٦٧٠٨). و«المطرف» قال ابن الأثير: «بكسر الميم وفتحها وضمها: الثوب الذى فى طرفيه علمان. والميم زائدة».

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١٥٢) وَلَا نَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٣﴾

لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر شرع في بيان الصبر، والإرشاد إلى الاستعانة بالصبر والصلاة ، فإن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر عليها ، أو في نقمة فيصبر عليها؛ كما جاء في الحديث: «عجباً للمؤمن. لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له: إن أصابته سراء فشكر، كان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له» (١). وبين تعالى أن أجود ما يستعان به على تحمّل المصائب الصبر والصلاة، كما تقدم في قوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]. وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى (٢). والصبر صبران، فصبر على ترك المحارم والمآثم ، وصبر على فعل الطاعات والقربات، والثاني أكثر ثواباً لأنه المقصود .

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾: يخبر تعالى أن الشهداء في برزخهم أحياء يرزقون، كما جاء في صحيح مسلم: «أن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوى إلى قتاديل معلقة تحت العرش، فاطلع عليهم ربك اطلاعة، فقال: ماذا تبغون؟ فقالوا: يا ربنا، وأى شيء نبغى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ ثم عاد إليهم بمثل هذا، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا، قالوا: نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا، فنقاتل في سبيلك، حتى نقتل فيك مرة أخرى؛ لما يرون من ثواب الشهادة - فيقول الرب جلّ جلاله: إني كتبتُ أنهم إليها لا يرجعون» (٣). وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد، عن الإمام الشافعى، عن الإمام مالك، عن الزهرى، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «تَسْمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ تَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ» (٤). ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضاً، وإن كان الشهداء قد خصصوا بالذكر في القرآن، تشريفاً لهم وتكريماً وتعظيماً .

﴿ وَلَتَبْلُوَنَكُمْ فِي شَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ﴾ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٤﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٥﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَهْتَدُونَ ﴿١٥٦﴾

(١) رواه أحمد في المسند (٤ / ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، و ٦ / ١٥ ، ١٦ حلى) من حديث صهيب ، وكذلك رواه مسلم (٢ / ٣٩٢) .

(٢) عند الآية (٤٥) ص ١١٠ .

(٣) مسلم (٢ / ٩٨) بمعناه . وسيذكره المؤلف الحافظ بلفظ مسلم عند تفسير الآية (١٧٠) من سورة آل عمران، إن شاء الله . وقد رواه الطبري في التفسير (٨٢٠٦ - ٨٢٠٨) . وفصلنا القول في تخريجه هناك .

(٤) المسند (١٥٨٤٣) وسيذكره المؤلف الحافظ عند الآية (١٧٠) من آل عمران ، إن شاء الله . وقوله «تعلق» : هو بفتح أوله وضم ثالثة ، من باب « قتل » . قال ابن الأثير : « أى تأكل . وهو فى الأصل للإبل إذا أكلت العضاء . يقال : علقت تعلق علوقاً . فنقل إلى الطير » .

أخبر تعالى أنه يتلى عباده ، أى : يختبرهم ويمتحنهم ، كما قال تعالى : ﴿وَلَيَلْوَنَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَلَوْا أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] فتارة بالسرّاء ، وتارة بالضراء من خوف وجوع ، كما قال تعالى : ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ [النحل: ١١٢] فإن الجائع والخائف كلّ منهما يظهر ذلك عليه ؛ ولهذا قال : لباس الجوع والخوف . وقال هاهنا ﴿بِشْيءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ أى : بقليل من ذلك ﴿وَنَقَصَ مِنَ الْأَمْوَالِ﴾ أى : ذهب بعضها ﴿وَالْأَنْفُسِ﴾ كموت الأصحاب والأقارب والأحباب ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ أى : لا تَغْلُ الحقائق والمزارع كعادتها . كما قال بعض السلف : فكانت بعض النخيل لا تثمر غير واحدة . وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده ، فمن صَبَرَ أثابه ، ومن قنط أحلّ به عقابه . ولهذا قال : ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ .

ثم بيّن تعالى من الصابرون الذين شكرهم ، فقال : ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أى : تسَلَّوا بقولهم هذا عما أصابهم ، وعلموا أَنَّهُمْ مَلِكُ اللَّهِ يتصرف فى عبيده بما يشاء ، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرّة يوم القيامة ، فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده ، وأنهم إليه راجعون فى الدار الآخرة . ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك فقال : ﴿وَأُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أى : ثناء من الله عليهم ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ . قال سعيد بن جبیر : أى أَمَنَةٌ من العذاب ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْتَدُونَ﴾ : قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : نعمَ العدلان ونعمت العلاوة ﴿وَأُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ فهذان العدلان ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْتَدُونَ﴾ فهذه العلاوة ، وهى ما يوضع بين العدلين ، وهى زيادة فى الحمل ^(١) ، وكذلك هؤلاء ، أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضا . وقد ورد فى ثواب الاسترجاع ، وهو قول : ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ عند المصائب - أحاديث كثيرة . فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد : عن أم سلمة قالت : أتانى أبو سلمة يوماً من عند رسول الله ﷺ ، فقال : لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولاً سررتُ به . قال : « لا يصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ، ثم يقول : اللهم أجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيراً منها ، إلا فُعل ذلك به » . قالت أم سلمة : فحفظت ذلك منه ، فلما توفى أبو سلمة استرجعت وقلت : اللهم أجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيراً منه ، ثم رجعت إلى نفسى . فقلت : من أين لى خيراً من أبى سلمة ؟ فلما انقضت عدتى استأذن على رسول الله ﷺ - وأنا أدبغ إهاباً لى - فغسلت يدى من القَرَط ، وأذنت له ، فوضعت له وسادة آدم حشوها ليف ، فقعد عليها ، فخطبنى إلى نفسى ، فلما فرغ من مقالته قلت : يا رسول الله ، ما بى ألا يكون بك الرغبة ، ولكنى امرأة فى غيرة شديدة ، فأخاف أن ترى منى شيئاً يعذبنى الله به ، وأنا امرأة قد دخلتُ فى السن ، وأنا ذات عيال ، فقال : «أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله ، عز وجل ، عنك . وأما ما ذكرت من السن فقد أصابنى مثل الذى أصابك ، وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالى» . قالت : فقد سلّمتُ لرسول الله ﷺ . فتزوجها رسول الله ﷺ ،

(١) حديث عمر - هذا - رواه الحاكم فى المستدرک (٢/ ٢٧٠) وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى .
و «العدل» بكسر العين : نصف الحمل يكون على أحد جنبى البعير .

فقلت أم سلمة بعد: أبدلني الله بأبى سلمة خيراً منه، رسول الله ﷺ (١).

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٥٨)

روى الإمام أحمد: عن عروة، عن عائشة قال: قلت: أ رأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾ قلت: فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوف بهما؟ فقالت عائشة: بشما قلت يابن أختي إنها لو كانت على ما أولتها عليه كانت: فلا جناح عليه ألا يطوف بهما، ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهلّون لمناة الطاغية، التي كانوا يعبدونها عند المشلل. وكان من أهل لها يتخرج أن يطوف بالصفاء والمروة، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، إنا كنا نتخرج أن نطوف بالصفاء والمروة في الجاهلية؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾ قالت عائشة: ثم قد سنّ رسول الله ﷺ الطواف بهما، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما. أخرجاه في الصحيحين. وفي رواية عن الزهري أنه قال: فحدثت بهذا الحديث أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فقال: إن هذا العلم، ما كنت سمعته، ولقد سمعت رجلاً من أهل العلم يقولون: إن الناس - إلا من ذكرت عائشة - كانوا يقولون: إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية. وقال آخرون من الأنصار: إنما أمرنا بالطواف بالبيت، ولم نؤمر بالطواف بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ قال أبو بكر بن عبد الرحمن: فلعلها نزلت في هؤلاء وهؤلاء (٢). ورواه البخاري عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنساً عن الصفا والمروة؟ قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ (٣). وفي صحيح مسلم حديث جابر الطويل، وفيه: أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت، عاد إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من باب الصفا، وهو يقول: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ ثم قال: «أبدأ بما بدأ الله به». وفي رواية النسائي: «ابدؤوا بما بدأ الله به». وروى الإمام أحمد: عن حبيبة بنت أبي تجرأة، قالت: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة، والناس بين يديه، وهو وراءهم، وهو يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعي يدور به

(١) الحديث في المسند (١٦٤١٢). وقد روى مسلم نحو معناه، مختصراً من حديث أم سلمة (١ / ٢٥١). وذكره المؤلف الحافظ هنا، وحذفناه، إذ هو في معنى هذا. ثم ذكر حديثاً في الاسترجاع، رواه أحمد وابن ماجه، من حديث الحسين بن علي. وإسناده ضعيف جداً. ثم ذكر حديثاً في معنى الاسترجاع أيضاً من حديث أبي موسى، رواه أحمد والترمذي.

(٢) انظر: المسند (٦ / ١٤٤، ٢٢٧ حلي)، وفتح الباري (٣ / ٣٩٧ - ٤٠١)، وتفسير الطبري (٢٣٥٠، ٢٣٥١).

(٣) فتح الباري (٨ / ١٣٢)، والطبري (٢٣٣٩).

إزاره، وهو يقول: «اسعوا، فإن الله كتب عليكم السعي» (١). وقد استدلل بهذا الحديث على مذهب من يرى أن السعي بين الصفا والمروة ركن في الحج، كما هو مذهب الشافعي، ومن وافقه ورواية عن أحمد وهو المشهور عن مالك. وقيل: إنه واجب، وليس بركن. وقيل: بل مستحب، والقول الأول أرجح؛ لأنه عليه السلام طاف بينهما، وقال: «لتأخذوا عنى مناسككم». فكل ما فعله في حَجَّته تلك واجب لا بد من فعله في الحج، إلا ما خرج بدليل، والله أعلم.

فقد بين الله - تعالى - أن الطواف بين الصفا والمروة من شعائر الله، أى: مما شرع الله تعالى لإبراهيم في مناسك الحج، وقد تقدم في حديث ابن عباس: «أن أصل ذلك مأخوذ من طواف هاجر وتردادهما بين الصفا والمروة في طلب الماء لولدها، لما نَفَدَ ماؤها وزادها، حين تركهما إبراهيم - عليه السلام - هنالك ليس عندهما أحد من الناس، فلما خافت الضيعة على ولدها هنالك، ونفد ما عندها قامت تطلب الغوث من الله، عز وجل، فلم تزل تردد في هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة متذلة خائفة وجلّة مضطرة فقيرة إلى الله، عز وجل، حتى كشف الله كربتها، وأنس غربتها، وفرج شدتها، وأنبع لها زمزم التى ماؤها «طعام طعم، وشفاء سقم» (٢)، فالسعى بينهما ينبغى له أن يستحضر فقره وذله وحاجته إلى الله في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه، وأن يلتجئ إلى الله، عز وجل، ليُزج ما هو به من النقائص والعيوب، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم، وأن يثبت عليه إلى مماته، وأن يحولّه من حاله الذى هو عليه من الذنوب والمعاصي، إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة، كما فعل بهاجر - عليها السلام.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْمُهْذَبَاتِ مِنَ بَعْدِ مَا بُيِّنَتْهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاوْلَٰئِكَ أَنُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْقَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة والهدى النافع للقلوب، من بعد ما بينه الله - تعالى - لعباده في كتبه، التى أنزلها على رسله. قال أبو العالية: نزلت في أهل الكتاب، كتموا صفة محمد ﷺ. ثم أخبر أنهم يلعنهم كل شيء على صنيعهم ذلك، فكما أن العالم يستغفر له كل شيء، حتى الحوت في الماء والطير في الهواء، فهؤلاء بخلاف العلماء، فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون. وقد ورد في الحديث المسند من

(١) المسند (٦ / ٤٢١ ، ٤٢٢ حلى) وابن سعد (٨ / ١٨٠) ، والدر المنثور (١ / ١٦٠).

(٢) اقتباس من حديث: «زمزم طعام طعم وشفاء سقم». رواه ابن أبى شيبة والبرار من حديث أبى ذر - كما فى الجامع الصغير .

طرق يشد بعضها بعضاً، عن أبي هريرة، وغيره: أن رسول الله ﷺ قال: «من سُئِلَ عن علم، فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار»^(١). والذي في الصحيح عن أبي هريرة أنه قال: لولا آية في كتاب الله ما حدثتُ أحداً شيئاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾ الآية .

وروى ابن أبي حاتم: عن البراء بن عازب، قال: كنا مع النبي ﷺ في جنازة، فقال: «إن الكافر يُضْرَبُ ضربة بين عينيه، فيسمع ضربه كل دابة غير الثقلين، فتلعنه كل دابة سمعت صوته، فذلك قول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعُنُونَ﴾ يعني: دواب الأرض». ورواه ابن ماجه^(٢). وقد جاء في الحديث: «إن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر»^(٣)، وجاء في هذه الآية: أن كاتم العلم يلعنه الله والملائكة والناس أجمعون، واللاعنون أيضاً، وهم كل فصيح وأعجمي إما بلسان المقال، أو الحال أو لو كان له عقل أو يوم القيامة والله أعلم.

ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء من تاب إليه فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا﴾ أى: رجعوا عما كانوا فيه وأصلحوا أعمالهم وأحوالهم وبيَّنوا للناس ما كانوا كتموه ﴿فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. وفي هذا دلالة على أن الداعية إلى كفر، أو بدعة إذا تاب إلى الله تاب الله عليه. وقد ورد أن الأمم السابقة لم تكن التوبة تقبل من مثل هؤلاء منهم، ولكن هذا من شريعة نبي التوبة ونبي الرحمة صلوات الله وسلامه عليه.

ثم أخبر تعالى عن كفر به واستمر به الحال إلى مماته بأن ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ . خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: فى اللعنة البالغة لهم إلى يوم القيامة، ثم المصاحبة لهم فى نار جهنم التى ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ فيها، أى: لا ينقص عما هم فيه ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أى: لا يغير عنهم ساعة واحدة، ولا يفتر، بل هو متواصل دائم، فنعوذ بالله من ذلك.

﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّهُ وَجِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

يُخْبِرُ تعالى عن تفرده بالإلهية، وأنه لا شريك له ولا عدِيل له، بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذى لا إله إلا هو وأنه الرحمن الرحيم. وقد تقدم تفسير هذين الاسمين فى أول الفاتحة. وفى الحديث عن أسماء بنت يزيد بن السكن، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين: ﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ و ﴿أَلَمْ . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١، ٢]»^(٤). ثم ذكر الدليل على تفرده بالإلهية بتفردة بخلق السموات

(١) رواه أحمد فى المسند (٧٥٦١) من حديث أبى هريرة . وقد فصلنا تخريجه هناك . ورواه ابن حبان فى صحيحه (٩٥) بتحقيقنا . والحاكم فى المستدرک (١ / ١٠١) .

(٢) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (١٦٢/١) ونسبه لابن ماجه ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم . وهو فى ابن ماجه (٤٠٢١) مختصراً .

(٣) هو جزء من حديث رواه الترمذى (٣ / ٣٨٠ ، ٣٨١) عن أبى الدرداء . وذكر شارحه أنه رواه أيضاً أحمد ، والدارمى ، وأبو داود ، وابن ماجه .

(٤) رواه أحمد فى المسند (٦ / ٤٦١ حلى) بنحوه . ورواه أبو داود (١٤٩٦) وهذا لفظه . قال المنذرى: «وأخرجه الترمذى وابن ماجه . وقال الترمذى : حديث حسن » . وهو فى ابن ماجه (٣٨٥٥) .

والأرض وما فيهما، وما بين ذلك مما ذرأ وبرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته، فقال:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٦٤)

يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تلك في ارتفاعها واتساعها وكواكبها السيارة والثواب ودوران فلكها، وهذه الأرض في انخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه، لا يتأخر عنه لحظة، كما قال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] وتارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتقارضان، كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١] أي: يزيد من هذا في هذا، ومن هذا في هذا ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ أي: في تسخير البحر لحمل السفن من جانب إلى جانب لمعاش الناس، والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم، ونقل هذا إلى هؤلاء وما عند أولئك إلى هؤلاء ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأَيُّ لِهْمُ الْأَرْضِ الْعَمِيَّةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ . لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ . سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٣ - ٣٦]. ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي: على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه لا يخفى عليه شيء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦]. ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾ أي: تارة تأتي بالرحمة وتارة تأتي بالعذاب، تارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب، وتارة تسوقه، وتارة تجمععه، وتارة تفرقه، وتارة تصرفه، ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ يُسَخَّرُ إلى ما يشاء الله من الأراضى والأماكن، كما يصرفه تعالى: ﴿لَايَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: أن في هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَذْكُرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ (١٦٥)

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (١٦٦)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَكُنَّا لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (١٦٧)

يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا وما لهم في الدار الآخرة، حيث جعلوا له أنداداً، أى: أمثالا ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه، وهو الله لا إله إلا هو، ولا ضد له ولا ند له، ولا شريك معه. وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أى الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك».

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾: ولحبهم لله وتمام معرفتهم به، وتوقيرهم وتوحيدهم له، لا يشركون به شيئاً، بل يعبدونه وحده ويتكلمون عليه، ويلجؤون في جميع أمورهم إليه. ثم تَوَعَّدَ تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك، فقال: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوَى الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ أى: أن الحكم له وحده لا شريك له، وأن جميع الأشياء تحت قهره وغلبيه وسلطانه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ كما قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ. وَلَا يُوثِقُ وِثْقَهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦] يقول: لو علموا ما يعاينونه هنالك، وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم، لانتهوا عما هم فيه من الضلال.

ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم وتبرؤ المتبوعين من التابعين، فقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في الدار الدنيا، فتقول الملائكة: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣] ويقولون: ﴿سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبا: ٤١]. والجن أيضاً تباراً منهم، ويتصلون من عبادتهم لهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ. وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الاحقاف: ٥، ٦] وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا. كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]. وقال الخليل لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيُنَظَّرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمُ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [التكوير: ٢٥] ، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعْفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعْفُوا أَنْحَنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهَدْيِ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ. وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعْفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً وَأَسْرَأُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُعْزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبا: ٣١ - ٣٣] ، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢] .

وقوله: ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ أى: عاينوا عذاب الله، وتقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص ولم يجدوا عن النار معدلاً ولا مَصْرِفاً.

وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا﴾ أى: لو أن لنا عودة إلى الدار الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء ومن عبادتهم، فلا نلتفت إليهم، بل نوحدهم الله وحده بالعبادة؟!

وهم كاذبون في هذا، بل لو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه ، كما أخبر الله تعالى عنهم بذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ أى : تذهب وتضمحل كما قال الله تعالى : ﴿ وَقَدْ مَنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَا هَبَاءً مُنثَوْرًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] . وقال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ الآية [إبراهيم : ١٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ﴾ الآية [النور : ٣٩] ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ .

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوْا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

لما بين تعالى أنه لا إله إلا هو ، وأنه المستقل بالخلق ، شرع يبين أنه الرازق لجميع خلقه ، فذكر في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن ياكلوا مما فى الأرض فى حال كونه حلالا من الله طيباً ، أى : مستطاباً فى نفسه غير ضارّ للأبدان ولا للعقول . ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان ، وهى : طرائقه ومسالكه فيما أضل أتباعه فيه من تحريم البحائر والسوائب والوصائل ونحوها مما زينه لهم فى جاهليتهم ، كما فى حديث عياض بن حمار الذى فى صحيح مسلم ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «يقول الله تعالى : إن كل مال منحتة عبادى فهو لهم حلال» وفيه : «وإنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم» (١) .

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ قال قتادة والسدى : كل معصية لله فهى من خطوات الشيطان .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ : تنفير عنه وتحذير منه ، كما قال : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حُزْنَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر : ٦] ، وقال تعالى : ﴿ اتَّخِذُوهُ وَدِيئَةً أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف : ٥٠] .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أى : إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة ، وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه ، وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلا علم ، فيدخل فى هذا كل كافر وكل مبتدع أيضاً .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلَى نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْقُو بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾

(١) هو جزء من حديث فى مسلم (٢ / ٣٥٦ ، ٣٥٧) . وسيذكره ابن كثير مطولا من رواية الإمام أحمد عند تفسير الآية (١٩) من سورة المائدة ، والآية (٣٠) من سورة الروم .

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُوَلَاءِ الْكُفْرَةُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ﴾ على رسوله، واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل، قالوا في جواب ذلك: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا﴾ أى: وجدنا ﴿عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أى: من عبادة الأصنام والأنداد. قال الله تعالى منكراً عليهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ﴾ أى: الذين يقتدون بهم ويقتفون أثرهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أى: ليس لهم فهم ولا هداية. وروى ابن إسحاق عن ابن عباس: أنها نزلت فى طائفة من اليهود، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فقالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه آبائنا. فأنزل الله هذه الآية.

ثم ضرب لهم تعالى مثلاً، كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ [النحل: ٦٠]، فقال: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: فيما هم فيه من الغى والضلال والجهل - كالدواب السارحة التى لا تفقه ما يقال لها، بل إذا نعى بها راعيها، أى: دعاها إلى ما يرشدها - لا تفقه ما يقول ولا تفهمه، بل إنما تسمع صوته فقط. هكذا روى عن ابن عباس، وأبى العالية، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم نحو هذا. وقيل: إنما هذا مثل ضرب لهم فى دعائهم الأصنام التى لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئاً، اختاره ابن جرير، والأول أولى؛ لأن الأصنام لا تسمع شيئاً ولا تعقله ولا تبصره، ولا بطش لها ولا حياة فيها.

وقوله: ﴿صُمُّكُمْ عُمَى﴾ أى: صم عن سماع الحق، بكم لا يفقهون به، عمى عن رؤية طريقه ومسلكه ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أى: لا يعقلون شيئاً ولا يفهمونه، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَاءِ اللَّهُ يَضِلُّهُ وَمَن يَشَاءِ اللَّهُ يَهْدِهِ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْهِمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَن أَضْطَرَّ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بالاكل من طيبات ما رزقهم تعالى، وأن يشكروه تعالى على ذلك، إن كانوا عبيده. والاكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة، كما أن الاكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يارب، يارب ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذى بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟!» (١). ورواه مسلم فى صحيحه، والترمذى .

ولما امتن تعالى عليهم برزقه، وأرشدهم إلى الأكل من طيبه، ذكر أنه لم يُحرّم عليهم من

ذلك إلا الميتة، وهى التى تموت حَتَفَ أنفها من غير تذكية، وسواء كانت منخقة أو موقوذة أو مُتَرَدِّية أو نطيحة أو قد عدا عليها السَّبُعُ. وكذلك حرم عليهم لحم الخنزير، سواء ذُكِّيَ أو مات حَتَفَ أنفه، ويدخلُ شَحْمَه فى حكم لحمه، وحَرَّمَ عليهم ما أَهَلَ به لغير الله، وهو ما ذبح على غير اسمه تعالى من الأنصاب والأنداد والأزلام، ونحو ذلك مما كانت الجاهلية ينحرون له. ثم أباح تعالى تناول ذلك عند الضرورة والاحتياج إليها، عند فقد غيرها من الأطعمة، فقال: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أى: فى غير بغى ولا عدوان، وهو مجاوزة الحد ﴿فَلَا إثمَ عَلَيْهِ﴾ أى: فى أكل ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. قال قتادة: غير باغ فى الميتة، أى: فى أكله: أن يتعدى حلالا إلى حرام، وهو يجد عنه مندوحة.

مسألة: إذا وجد المضطر ميتة وطعام الغير بحيث لا قطع فيه ولا أذى - فإنه لا يحل له أكل الميتة بل يأكل طعام الغير بغير خلاف. فقد روى ابن ماجه عن عباد بن شرحبيل العبَّريّ قال: أصابنا عام مخمصة، فأتيت المدينة. فأتيت حائطاً [من حيطانها]، فأخذت سنبلاً ففركته وأكلته، وجعلت منه فى كسائى، فجاء صاحب الحائط فضربنى وأخذ ثوبى، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال للرجل: «ما أطعمته إذ كان جائعاً أو ساعباً، ولا علمته إذ كان جاهلاً!». فأمره فرد إليه ثوبه، وأمر له بوسق من طعام أو نصف وسق، وإسناد صحيح قوى جيد (١). وله شواهد كثيرة. من ذلك: حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده: سئل رسول الله ﷺ عن الثمر المعلق، فقال: «من أصاب منه من ذى حاجة بفيه غير متخذ خبنة، فلا شيء عليه» الحديث (٢). وعن مسروق قال: من اضطر فلم يأكل ولم يشرب، ثم مات دخل النار. وهذا يقتضى أن أكل الميتة للمضطر عزيمة لا رخصة. قال أبو الحسن الطبرى - المعروف بالكنيا الهراسى رفيق الغزالى فى الاشتغال: وهذا هو الصحيح عندنا؛ كالإفطار للمريض ونحو ذلك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعنى: اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ فى كتبهم التى بأيديهم، مما يشهد له بالرسالة والنبوة، فكتموا ذلك لثلاث تذهب

(١) هو فى ابن ماجه (٢٢٩٨) وصحناه من ابن ماجه، فقد كان محرراً فى المطبوعة، والزياتان من هناك. ورواه أحمد فى المسند (١٧٥٩٤) وأبو داود (٢٦٢٠) والنسائى (٣٠٩/٢) وذكره الحافظ فى الإصابة (٢٤/٤)، وصحح إسناده. و «الغبرى» بضم الغين المعجمة وفتح الباء الموحدة، نسبة إلى «بنى غير»، بطن من «بشكر».

(٢) هو من حديث رواه أحمد فى المسند بمعناه، مراراً، منها: (٦٦٨٣) وخرجناه هنا. و «الخبنة» - بضم الخاء المعجمة وسكون الموحدة: معطف الإزار وطرف الثوب. قال ابن الأثير: «أى لا يأخذ منه فى ثوبه».

رياستهم وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم إياهم، فخشوا - لعنهم الله - إن أظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم، فكنتموا ذلك إبقاء على ما كان يحصل لهم من ذلك، وهو نَزْرٌ يسير، فباعوا أنفسهم بذلك، واعتاضوا عن الهدى واتباع الحق وتصديق الرسول والإيمان بما جاء عن الله بذلك النزر اليسير . فخابوا وخسروا فى الدنيا والآخرة؛ أما فى الدنيا : فإن الله أظهر لعباده صِدْقَ رسوله، بما نصبه وجعله معه من الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات، فصدقه الذين كانوا يخافون أن يتبعوه، وصاروا عوناً له على قتالهم، وباؤوا بغضب على غضب، وذمهم الله فى كتابه فى غير ما موضع . فمن ذلك هذه الآية الكريمة : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وهو عرض الحياة الدنيا ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ أى : إنما يأكلون ما يأكلونه فى مقابلة كتمان الحق ناراً تَأْجِجُ فى بطونهم يوم القيامة . كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾ [النساء : ١٠] ، وفى الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : «الذى يأكل أو يشرب فى آنية الذهب والفضة، إنما يَجْرَجُ فى بطنه نار جهنم» (١) .

وقوله : ﴿وَلَا يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ : وذلك لأنه غضبان عليهم، لأنهم كتموا وقد علموا، فاستحقوا الغضب، فلا ينظر إليهم ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أى : يثنى عليهم ويمدحهم بل يعذبهم عذاباً أليماً .

ثم قال تعالى مخبراً عنهم : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ أى : اعتاضوا عن الهدى، وهو نشر ما فى كتبهم من صفة الرسول وذكر مبعثه والبشارة به من كتب الأنبياء واتباعه وتصديقه - استبدلوا عن ذلك واعتاضوا عنه بالضلالة، وهو تكذيبه والكفر به وكتمان صفاته فى كتبهم ﴿وَالْعَذَابُ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ أى : اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب، وهو ما تعاطوه من أسبابه المذكورة .

وقوله تعالى : ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ : يخبر تعالى أنهم فى عذاب شديد عظيم هائل، يتعجب من رأيهم فيها من صبرهم على ذلك، من شدة ما هم فيه من العذاب، والنكال، والأغلال عياداً بالله من ذلك . وقيل : أى فما أدومهم لعمل المعاصى التى تفضى بهم إلى النار .

وقوله : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أى : إنما استحقوا هذا العذاب الشديد لأن الله تعالى أنزل على رسوله محمد ﷺ وعلى الأنبياء قبله كتبه بتحقيق الحق وإبطال الباطل، وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزواً، فكتابهم يأمرهم بإظهار العلم ونشره، فخالفوه وكذبوه . وهذا الرسول الخاتم يدعوهم إلى الله تعالى، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وهم يكذبونه ويخالفونه ويجحدونه، ويكتمون صفته، فاستهزؤوا بآيات الله المنزلة على رسله؛ فلهذا استحقوا العذاب والنكال؛ ولهذا قال : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ .

ربع

﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ
بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ
هُمُ الْمُنْتَقُونَ﴾



اشتملت هذه الآية الكريمة ، على جمل عظيمة ، وقواعد عميقة ، وعقيدة مستقيمة ، كما
روى ابن أبي حاتم: عن مجاهد، عن أبي ذر: أنه سأل رسول الله ﷺ: ما الإيمان ؟ فتلا عليه :
﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ﴾ إلى آخر الآية . قال: ثم سأله أيضاً ، فتلاها عليه ، ثم سأله . فقال:
«إذا عملت حسنة أحبها قلبك ، وإذا عملت سيئة أبغضها قلبك» . وهذا منقطع ؛ لأن مجاهداً
لم يدرك أبا ذر؛ فإنه مات قديماً (١) .

وأما الكلام على تفسير هذه الآية ، فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولاً بالتوجه إلى بيت
المقدس ، ثم حوّلهم إلى الكعبة ، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين ،
فأنزل الله تعالى بيان حكمته في ذلك ، وهو أن المراد إنما هو طاعة الله ، عز وجل ، وامتنال
أوامره ، والتوجه حيثما وجه ، واتباع ما شرع ، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل ، وليس في
لزوم التوجه إلى جهة من المشرق أو المغرب بر ولا طاعة ، إن لم يكن عن أمر الله وشرعه ؛
ولهذا قال : ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية ،
كما قال في الأضاحي والهدايا : ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَافُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ تَقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ [الحج : ٣٧] .

وقال الثوري في هذه الآية : ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ الآية ، قال : هذه أنواع البر كلها .
وصدق رحمه الله ؛ فإن من اتصف بهذه الآية ، فقد دخل في عرى الإسلام كلها ، وأخذ بمجماع
الخير كله ، وهو الإيمان بالله وهو أنه لا إله إلا هو ، وصدق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين
الله ورسله ﴿وَالْكِتَابِ﴾ وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء ، حتى
ختمت بأشرفها ، وهو القرآن المهيم على ما قبله من الكتب ، الذي انتهى إليه كل خير ،
واشتمل على كل سعادة في الدنيا والآخرة ، ونسخ به كل ما سواه من الكتب قبله ، وآمن بأنبياء
الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

وقوله : ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ أى : أخرجه ، وهو مُحِبُّ له ، راغب فيه . نص على ذلك ابن
مسعود وسعيد بن جبير وغيرهما من السلف والخلف ، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي
هريرة مرفوعاً : «أفضل الصدقة أن تَصَدَّقَ وأنت صحيح شحيح ، تأمل الغنى ، وتخشى الفقر» .
وقد روى الحاكم في مستدركه ، عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى

(١) ورواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٢٧٢) وصححه على شرط الشيخين . واستدرك عليه الذهبي بأنه منقطع ،
وذكره السيوطي في الدر المنثور (١ / ١٦٩) ولم ينسبه لغير ابن أبي حاتم ، وقال : « وصححه » ! وأخشى أن
يكون سقط منه قوله : « والحاكم » .

حَبِّهِ: « أن تعطيه وأنت صحيح صحيح، تأمل العيش وتخشى الفقر». ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه .

قلت : وقد رواه وكيع عن الأعمش، وسفيان عن زبيد، عن مرة، عن ابن مسعود، موقوفاً، وهو أصح، والله أعلم (١). وقال تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴾ [الإنسان: ٨، ٩]. وقال تعالى: ﴿ لَنْ تَأْكُلُوا الْبَرَّ حَتَّىٰ تُفَقُّوا مِمَّا تَحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وقوله: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩] نمط آخر أرفع من هذا، وهو: أنهم آثروا بما هم مضطرون إليه، وهؤلاء أعطوا وأطعموا ما هم محبوبون له. وقوله: ﴿ ذَوِي الْقُرْبَىٰ ﴾ وهم: قرابات الرجل، وهم أولى من أعطى من الصدقة، كما ثبت في الحديث: «الصدقة على المساكين صدقة، وعلى ذوى الرحم ثنتان: صدقة وصلة» (٢). فهم أولى الناس بك وبرك وإعطائك. وقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهم في غير ما موضع من كتابه العزيز. «وَالْيَتَامَىٰ» هم: الذين لا كاسب لهم، وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب. «وَالْمَسْكِينُ» وهم: الذين لا يجدون ما يكفيهم في قوتهم وكسوتهم وسكناتهم، فيعطون ما تُسدُّ به حاجتهم وخلتهم. وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطواف الذى ترده التمرة والتمرثان واللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه، ولا يَفْطَنُ له فيَتَصَدَّقَ عليه». «وَأَبْنَى السَّبِيلِ» وهو: المسافر المجتاز الذى قد فرغت نفقته فيعطى ما يوصله إلى بلده، وكذا الذى يريد سفراً فى طاعة، فيعطى ما يكفيه فى ذهابه وإيابه، ويدخل فى ذلك الضيف، كما قال على ابن أبى طلحة، عن ابن عباس أنه قال: ابن السبيل هو الضيف الذى ينزل بالمسلمين، وكذا قال مجاهد، وسعيد ابن جبير، وغيرهم. «وَالسَّائِلِينَ» وهم: الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات، كما روى الإمام أحمد عن فاطمة بنت الحسين، عن أبيها حسين بن على، قال: قال رسول الله ﷺ: «للسائل حق وإن جاء على فرس». رواه أبو داود (٣). «وَفِي الرِّقَابِ» وهم: المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه فى كتابتهم. وسيأتى الكلام على كثير من هذه الأصناف فى آية الصدقات من براءة [الآية: ٦٠]، إن شاء الله تعالى.

وقوله: «وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ» أى: وأتم أفعال الصلاة فى أوقاتها بركوعها، وسجودها، وطمأنينتها، وخشوعها على الوجه الشرعى المرضى.

وقوله: «وَآتَى الزَّكَاةَ»: يُحْتَمَلُ أن يكون المراد به: زكاة النفس، وتخليصها من الأخلاق

(١) هذا ترجيح بالتحكم . وإسناده عند الحاكم (٢ / ٢٧٢) صحيح على شرط الشيخين ، وقد وافقه الذهبى على ذلك .

(٢) رواه أحمد فى المسند (١٦٢٩٦ ، ١٦٣٠٢ ، ١٦٣٠٣) ، والترمذى (٢ / ٢٢) وقال : « حديث حسن » ، والنسائى (١ / ٣٦١) ، وابن ماجه (١٨٤٤) كلهم من حديث سلمان بن عامر .

(٣) المسند (١٧٣٠) ، وأبو داود (١٦٦٥ ، ١٦٦٦) وسيذكره الحافظ ابن كثير مرة أخرى ، فى تفسير الآية (١٩) من سورة الذاريات .

الدنية الرذيلة، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠] ، وقول موسى لفرعون: ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى . وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات: ١٨، ١٩] ، وقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧] . ويحتمل أن يكون المراد زكاة المال، كما قاله سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان ويكون المذكور من إعطاء هذه الجهات والأصناف المذكورين إنما هو التطوع والبر والصلة .

وقوله: ﴿وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ ، كقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَقْضُونَ الْعِثَاقَ﴾ [الرعد: ٢٠] وعكس هذه الصفة النفاق، كما صح الحديث: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان». وفي الحديث الآخر: «إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» .

وقوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أى: فى حال الفقر، وهو البأساء، وفى حال المرض والأسقام، وهو الضراء. «وَحِينَ الْبَأْسِ» أى: فى ساحة القتال والتقاء الأعداء، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وغيرهم. وإنما نُصِبَ «وَالصَّابِرِينَ» على المدح والحث على الصبر فى هذه الأحوال لشدة وصعوبته، والله أعلم، وهو المستعان وعليه التكلان.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أى: هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدَّقوا فى إيمانهم؛ لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال، فهؤلاء هم الذين صدَّقوا ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات .

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتُبٌ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرِّ وَالْحَرِّ وَالْعَبْدِ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

يقول تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْعَدْلُ فِي الْقِصَاصِ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - حُرِّمَ بِحُرْمِ، وعبدكم بعبدكم، وأنثاكم بأنثاكم، ولا تتجاوزوا وتعتدوا، كما اعتدى من قبلكم وغيروا حكم الله فيهم، وسبب ذلك قريظة والنضير، كانت بنو النضير قد غزت قريظة فى الجاهلية وقهروهم، فكان إذا قتل النضرى القرطى لا يقتل به، بل يُفَادَى بمائة وسق من التمر، وإذا قتل القرطى النضرى قتل به، وإن فادوه فدوه بمائتى وسق من التمر ضعف دية القرطى، فأمر الله بالعدل فى القصاص، ولا يتبع سبيل المفسدين المحرفين المخالفين لأحكام الله فيهم، كفروا وبغياً، فقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرِّ وَالْحَرِّ وَالْعَبْدِ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ .

وقوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾: قال ابن عباس: فالعفو: أن يقبل الدية فى العمد، وكذا روى عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وغيرهم. ﴿وَأَدَاءٌ

إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴿١﴾ يعنى: من القاتل من غير ضرر ولا منك، يعنى المدافعة.

وروى الحاكم ، عن ابن عباس: ويؤدى المطلوب بإحسان (١). وكذا قال سعيد بن جبير، وأبو الشعثاء ، وقتادة، وغيرهم .

وقوله: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ يقول تعالى: إنما شرع لكم أخذ الدية فى العمد تخفيفاً من الله عليكم ورحمة بكم، مما كان محتوماً على الأمم قبلكم من القتل أو العفو، كما روى سعيد بن منصور عن ابن عباس، قال: كتب على بنى إسرائيل القصاص فى القتلى، ولم يكن فيهم العفو، فقال الله لهذه الأمة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَالْعَفْوُ: أن يقبل الدية فى العمد، ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ﴾ مما كتب على من كان قبلكم ﴿فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ وأخرجه ابن حبان فى صحيحه (٢) .

وقوله: ﴿فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: يقول تعالى: فمن قتل بعد أخذ الدية أو قبولها، فله عذاب من الله أليم موجه شديد. وهكذا روى عن ابن عباس، ومجاهد ، وقتادة، وغيرهم أنه هو الذى يقتل بعد أخذ الدية، كما قال روى أحمد عن أبى شريح الخزاعى: أن النبى ﷺ قال: «من أصيب بقتل أو خبل فإنه يختار إحدى ثلاث: إما أن يقتص، وإما أن يعفو، وإما أن يأخذ الدية؛ فإن أراد الرابعة فخذوا على يديه. ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالداً فيها» (٣). وعن سمرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أعافى رجلاً قتل بعد أخذ الدية» (٤) - يعنى: لا أقبل منه الدية ، بل أقتله .

وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ يقول تعالى: وفى شرع القصاص لكم - وهو قتل القاتل - حكمة عظيمة ، وهى بقاء المهج وصونها؛ لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه، فكان فى ذلك حياة للنفس.

وفى الكتب المتقدمة: القتل أنفَى للقتل. فجاءت هذه العبارة فى القرآن أفصح، وأبلغ، وأوجز: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾، قال أبو العالية: جعل الله القصاص حياة، فكم من رجل يريد أن يقتل ، فتمنعه مخافة أن يُقتل . وكذا روى عن مجاهد، وسعيد بن جبير ، وغيرهما.

(١) المستدرک (٢ / ٢٧٣) . وقال : « صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه » .

(٢) هو فى صحيح ابن حبان (٧ / ٤٩٠) (من مخطوطة الإحسان) . وقد رواه أيضا البخارى (١٢ / ١٨٣ فتح) ، ورواه الطبرى (٢٥٩٣) .

(٣) هو فى المسند (١٦٤٤٦) . وإسناده صحيح . ورواه البخارى فى التاريخ الكبير (٢ / ٢٠٤ ، ٢٠٥) ، فى ترجمة أبى شريح الخزاعى ، واسمه « خويلد بن عمرو » . وذكره السيوطى (١ / ١٧٣) ، وزاد نسبه لعبد الرزاق ، وابن أبى شبة ، وابن أبى حاتم ، والبيهقى . ورواه أيضا ابن ماجه (٢٦٢٣) . و « الخيل » - بفتح الخاء وسكون الباء : الجراح .

(٤) ذكره المؤلف الحافظ ، من رواية « سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن سمرة » ، ولم يبين مخرجه . ولم أجده بعد طول البحث ، إلا أن السيوطى ذكره (١ / ١٧٣) ، ونسبه لسمويه فى فوائده. وقد رواه الطبرى (٢٦٠٣) ، عن قتادة ، مرفوعاً مرسلًا .

﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يقول: يا أولى العقول والأفهام والنهى، لعلكم تنزجرون فتركون محارم الله ومآثمه، و «التقوى»: اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (١٨٠) ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٨١) ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسِرٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٨٢)

اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين. وقد كان ذلك واجباً - على أصح القولين - قبل نزول آية الموارث، فلما نزلت آية الفرائض نُسخَت هذه، وصارت الموارث المقدرة فريضة من الله، يأخذها أهلها حتماً من غير وصية ولا تحمل مئة الموصى، ولهذا جاء الحديث الذى فى السنن وغيرها عن عمرو بن عمرو بن خارجة قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب وهو يقول: «إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه، فلا وصية لوارث» (١). وروى الإمام أحمد: عن محمد ابن سيرين، قال: جلس ابن عباس فقرأ سورة البقرة حتى أتى هذه الآية: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ فقال: نُسخَت هذه الآية. ورواه الحاكم وقال: صحيح على شرطهما (٢).

وروى ابن أبى حاتم: عن ابن عباس، فى قوله: ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾: نسختها هذه الآية: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧] (٣).

(١) رواه أحمد فى المسند، مطولاً، بأسانيد (١٧٧٤٠ - ١٧٧٤٢، ١٧٧٤٤، ١٧٧٤٧، ١٧٧٥٠). ورواه الطيالسى (١٢١٧)، والترمذى (٣ / ١٩٠)، والنسائى (٢ / ١٢٨)، وابن ماجه (٢٧١٢)، وابن سعد فى الطبقات (٢ / ١ / ١٣١، ١٣٢) والدارمى (٢ / ٤١٩) - كلهم من حديث عمرو بن خارجة. بعضهم مختصراً، وأكثرهم مطولاً. وقال الترمذى: «حسن صحيح».

وقد ثبت أيضاً من حديث أبى أمامة الباهلى: رواه أحمد فى المسند (٥ / ٢٦٧ حلى) والطيالسى (١٢٢٧) وأبو داود (٢٨٧٠) والترمذى (١٨٩ / ٣) وابن ماجه (٢٧١٣) وابن الجارود ص ٤٢٤. وقال الترمذى: «حديث حسن».

وثبت أيضاً من حديث أنس: رواه ابن ماجه (٢٧١٤) وإسناده صحيح.

(٢) ظاهر الإطلاق أن يكون أحمد رواه فى المسند. ولكنى لم أجده فيه. وأرجح أن يكون فى كتاب آخر من كتب الإمام أحمد. وإسناده صحيح، وهو فى المستدرك (٢ / ٢٧٣) ووافقه الذهبى على تصحيحه. ورواه الطبرى (٢٦٥٢) من هذا الوجه. وانظر الحديث التالى لهذا.

(٣) إسناده عند ابن أبى حاتم إسناده صحيح. وقد روى البخارى (٥ / ٢٧٨، ٢٧٩) عن ابن عباس، قال: «كان المال للولد، وكانت الوصية للوالدين، ففسخ الله من ذلك ما أحب، فجعل الذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس، وجعل للمرأة الثمن والربع، وللزوجة الشطر والربع». ورواه الدارمى (٤١٩ / ٢، ٤٢٠) بالإسناد الذى رواه به البخارى، كلاهما عن شيخ واحد. وقال الحافظ فى الفتح: «وهو موقوف لفظاً، إلا أنه فى تفسيره إخبار بما كان من الحكم قبل نزول القرآن، فيكون فى حكم المرفوع بهذا التقرير». وأقول: بل هو مرفوع نصاً؛ لأنه إخبار عن الحكم بآية الوصية، ثم عن نسخها بآية الميراث فهو حكاية عما كان عليه الحكماء - المنسوخ والناسخ - فى عهد رسول الله ﷺ وحياته.

وروى أبو داود (٢٨٦٩) عن ابن عباس: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ فكانت الوصية كذلك، حتى نسختها آية الميراث. وإسناده صحيح.

ثم قال ابن أبي حاتم: وروى عن ابن عمر ، وأبى موسى ، وسعيد بن المسيّب ، والحسن ، ومجاهد ، وعطاء ، وسعيد بن جبّير ، ومحمد بن سيرين ، وعكرمة ، وزيد بن أسلم ، والربيع بن أنس ، وقتادة ، والسدى ، ومقاتل بن حيان ، وطاوس ، وإبراهيم النخعي ، وشريح ، والضحاك ، والزهرى: أن هذه الآية منسوخة نسختها آية الميراث.

والعجب من الرازى - رحمه الله - كيف حكى فى تفسيره الكبير عن أبى مسلم الأصفهاني: أن هذه الآية غير منسوخة ، وإنما هى مُفسّرة بآية الموارث ! ومعناه: كتب عليكم ما أوصى الله به من توريث الوالدين والأقربين ، من قوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١] قال: وهو قول أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء. قال: ومنهم من قال: إنها منسوخة فيمن يرث ، ثابتة فيمن لا يرث ، وهو مذهب ابن عباس ، والحسن ، ومسروق ، وطاوس ، والضحاك ، ومسلم بن يسار ، والعلاء بن زياد.

قلت: وبه قال أيضاً سعيد بن جبّير ، والربيع بن أنس ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان. ولكن على قول هؤلاء لا يسمى هذا نسخاً فى اصطلاحنا المتأخر؛ لأن آية الميراث إنما رفعت حكم بعض أفراد ما دل عليه عموم آية الوصاية ؛ لأن «الأقربين» أعم ممن يرث ومن لا يرث ، فرفع حكم من يرث بما عيّن له ، وبقي الآخر على ما دلت عليه الآية الأولى. وهذا إنما يتأتى على قول بعضهم: أن الوصاية فى ابتداء الإسلام إنما كانت تدبأ حتى نُسخت. فأما من يقول: إنها كانت واجبة وهو الظاهر من سياق الآية - فيتعين أن تكون منسوخة بآية الميراث ، كما قاله أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء؛ فإنّ وجوب الوصية للوالدين والأقربين الوارثين منسوخ بالإجماع. بل منهى عنه للحديث المتقدم: «إن الله قد أعطى كلّ ذى حق حقه فلا وصية لوارث»^(١). فأية الميراث حكم مستقل ، ووجوب من عند الله لأهل الفروض والعصبات ، رفع بها

(١) حديث « لا وصية لوارث » : صحيح بالأسانيد التى أشرنا إليها آنفاً ، لاشك فى صحته وإن تكلم بعض أهل العلم فى بعض أسانيده ، فإن هذه الأسانيد يشد بعضها بعضاً ، لا يشك فى ذلك من شدا شيئاً من العلم بالحديث والأسانيد .

والإمام الشافعى لم يصل إليه بإسناد صحيح متصل ، وإن كان قد ثبت عند غيره . ولكنه أثبت بطريق أقوى من الأسانيد المفاريد ، فقال فى كتاب (الرسالة) (٣٩٨ - ٤٠١) بتحقيقنا : « وجدنا أهل الفتيا ومن حفظنا عنه من أهل العلم بالمغازى ، من قرش وغيرهم - لا يختلفون فى أن النبى قال عام الفتح : « لا وصية لوارث ، ولا يقتل مؤمن بكافر » ، ويأثرون عن حفظوا عنه ممن لقوا من أهل العلم بالمغازى . فكان هذا نقل عامة عن عامة ، وكان أقوى فى بعض الأمر من نقل واحد عن واحد . وكذلك وجدنا أهل العلم عليه مجمعين . وروى بعض الشاميين حديثاً ليس مما يشته أهل الحديث ، فيه : أن بعض رجاله مجهولون . فروياه عن النبى منقطعاً . وإنما قبلناه بما وصفت من نقل أهل المغازى وإجماع العامة عليه - وإن كنا قد ذكرنا الحديث فيه - واعتمدنا على حديث أهل المغازى عاماً وإجماع الناس . »

فالشافعى جزم بتواتر الحديث ، وبالإجماع على حكمه . وهو كما قال ، رحمه الله .
وأما أهل عصرنا ، المتبعون للأهواء ، الأجراء على الدين وعلى الشريعة - فقد اصطنعوا قانوناً أجازوا فيه الوصية للوارث ، خروجاً على الشريعة ، يحادون الله ورسوله ، اصطنع لهم رجال يتسبون إلى العلم ، يلتمسون رضى عامة الناس عنهم ، لا يبالون أى يصدرون وأنى يردون . وحسابهم عند ربهم .

حُكْمُ هذه بالكلية. بقى الأقارب الذين لا ميراث لهم، يستحب له أن يُوصى لهم من الثلث، استثناساً بآية الوصية وشمولها، ولما ثبت فى الصحيحين، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما حق امرئ مسلم له شيء يوصى فيه، يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده». قال ابن عمر: ما مرت على ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلا وعندى وصيتى. والآيات والأحاديث بالأمر ببر الأقارب والإحسان إليهم، كثيرة جداً. وروى عبد بن حميد فى مسنده عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا بن آدم، ثنتان لم يكن لك واحدة منهما: جعلت لك نصيباً فى مالك حين أخذت بكظمك؛ لأظهرك به وأزكّيك، وصلاة عبادى عليك بعد انقضاء أجلك».

وقوله: «إِنْ تَرَكَ خَيْرًا» أى: مالا. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم. ثم منهم من قال: الوصية مشروعة سواء قلّ المال أو كثر كالورثة، ومنهم من قال: إنما يُوصى إذا ترك مالا جزئياً، ثم اختلفوا فى مقداره (١).

وقوله: «بِالْمَعْرُوفِ» أى: بالرفق والإحسان، كما روى ابن أبى حاتم عن الحسن، قوله: «كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ» فقال: نعم، الوصية حق، على كل مسلم أن يوصى إذا حضره الموت بالمعروف غير المنكر. والمراد بالمعروف: أن يوصى لأقربيه وصية لا تحجب بورثته، من غير إسراف ولا تقتير، كما ثبت فى الصحيحين أن سعداً قال: يا رسول الله، إن لى مالا ولا يرثنى إلا ابنة لى، أفأوصى بثلثى مالى؟ قال: «لا» قال: فبالشطر؟ قال: «لا» قال: فالثلث؟ قال: «الثلث، والثلث كثير؛ إنك أن تذرَ ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس». وفى صحيح البخارى: أن ابن عباس قال: لو أن الناس غَضُوا من الثلث إلى الربع فإن رسول الله ﷺ قال: «الثلث، والثلث كثير». وروى الإمام أحمد، عن حفظة بن حذيم بن حنيفة: أن جده حنيفة أوصى ليتيم فى حجره بمائة من الإبل، فشق ذلك على بنيه، فارتفعوا إلى رسول الله ﷺ. فقال حنيفة: إنى أوصيت ليتيم لى بمائة من الإبل، كنا نسلمها المطيبة. فقال النبى ﷺ: «لا، لا، لا. الصدقة: خمس، وإلا فعشر، وإلا فخمسة عشرة، وإلا فعشرون، وإلا فخمسة وعشرون، وإلا فثلاثون، وإلا فخمسة وثلاثون، فإن أكثرت فأربعون». وذكر الحديث بطوله (٢).

(١) ذكر الحافظ ابن كثير هنا روايات عن على أنه لم ير ثلاثمائة دينار أو أربعمائة مالا كثيراً يوصى فيه. وعن ابن عباس: «من لم يترك ستين ديناراً لم يترك خيراً». وعن طائفة: «ثمانين ديناراً». وعن قتادة: «كان يقال: ألفاً فما فوقها». والظاهر من إطلاق كلمة «خير»، وأن لم يرد فى الكتاب ولا السنة تحديد مقداره: أن تقديره يختلف باختلاف الأشخاص، واختلاف طبقاتهم وظروفهم، وباختلاف الأحوال المعيشية العامة، وباختلاف عدد الورثة قلة وكثرة. فرب قليل فى وقت، وبين قوم، كثير فى وقت آخر، وعند قوم آخرين.

(٢) هو فى المسند (٥ / ٦٧، ٦٨ حلى). وأشار إليه البخارى فى الكبير (٣٥٠ / ٢ / ١) كعادته فى الإشارة الموجزة. - فى ترجمة «حفظة بن حذيم». وذكره الهيمى فى مجمع الزوائد (٤ / ٢١٠، ٢١١) بطوله. وقال: «رواه أحمد، ورجاله ثقات». وذكره الحافظ فى الإصابة (٢ / ٤٢، ٤٣) عن رواية المسند. و «حذيم»: بكسر الحاء المهملة وسكون الذال المعجمة وفتح الياء التحتية وآخره ميم.

وقوله: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَأِنَّمَا إِنَّهُ عَلَى الَّذِينَ يُدْلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: يقول تعالى: فمن بدل الوصية وحرّفها، فغيرَ حكمها وزاد فيها أو نقص - ويدخل في ذلك الكتمان لها بطريق الأولى - ﴿فَأِنَّمَا إِنَّهُ عَلَى الَّذِينَ يُدْلُونَهُ﴾. قال ابن عباس وغير واحد: وقد وقع أجر الميت على الله، وتعلّق الإثم بالذين بدلوا ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أى: قد اطلع على ما أوصى به الميت، وهو عليم بذلك، وبما بدله الموصى إليهم.

وقوله: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصِيٍّ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾: قال ابن عباس، وغيره: الجَنَفُ: الخطأ. وهذا يشمل أنواع الخطأ كلها، بأن زاد وارثاً بواسطة أو وسيلة، كما إذا أوصى ببيعه الشيءَ القُلَانِيَّ محاباة، أو أوصى لابن ابنته ليزيدها، أو نحو ذلك من الوسائل، إما مخطئاً غير عامد، بل بطبعه وقُوّة شفقته من غير تبصر، أو متعمداً أثماً في ذلك، فللوصى - والحالة هذه - أن يصلح القضية، ويعدل في الوصية على الوجه الشرعى. ويعدل عن الذى أوصى به الميت إلى ما هو أقرب الأشياء إليه وأشبه الأمور به، جمعاً بين مقصود الموصى والطريق الشرعى. وهذا الإصلاح والتوفيق ليس من التبديل فى شيء. ولهذا عطف هذا - فبينه - على النهى لذلك، ليعلم أن هذا ليس من ذلك بسبيل، والله أعلم. وروى عبد الرزاق عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْخَيْرِ سَبْعِينَ سَنَةً، فَإِذَا أَوْصَى حَافٌ فِي وَصِيَّتِهِ، فَيُخْتَمَ لَهُ بِشَرِّ عَمَلِهِ، فَيَدْخُلُ النَّارَ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الشَّرِّ سَبْعِينَ سَنَةً، فَيُعَدَّلُ فِي وَصِيَّتِهِ، فَيُخْتَمَ لَهُ بِخَيْرِ عَمَلِهِ، فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ».

قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩] (١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٨٣) **أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونُ فِدْيَةً طَعَامٌ وَسَكِينٌ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴿١٨٤﴾

يقول تعالى مخاطباً للمؤمنين من هذه الأمة وأمرأ لهم بالصيام، وهو: الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية خالصة لله، عز وجل، لما فيه زكاة النفس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرديئة والأخلاق الرذيلة. وذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم، فلهم فيه أسوة، وليجتهد هؤلاء فى أداء هذا الفرض أكمل مما فعله أولئك، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ الآية [المائدة: ٤٨] ؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ

(١) لم أجده فى تفسير عبد الرزاق ، ولعله فى المصنف . وقد رواه أحمد فى المسند (٧٧٢٨) عن عبد الرزاق ، ورواه ابن ماجه (٢٧٠٤) عن أحمد بن الأزهر عن عبد الرزاق . ورواه بنحوه أبو داود (٢٨٦٧) والترمذى (١٨٧/٣ ، ١٨٨) . وسيذكره ابن كثير من رواية المسند فى تفسيره الآيتين (١٣ ، ١٤) من سورة النساء ، إن شاء الله .

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» لأن الصوم فيه تركية للبدن وتضييق لمسالك الشيطان؛ ولهذا ثبت في الصحيحين: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج» ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» (١) ثم بين مقدار الصوم، وأنه ليس في كل يوم، لئلا يشق على النفوس فتضعف عن حمله وأدائه، بل في أيام معدودات. وقد كان هذا في ابتداء الإسلام يصومون من كل شهر ثلاثة أيام، ثم نسخ ذلك بصوم شهر رمضان، كما سيأتي بيانه. وقد روى أن الصيام كان أولاً كما كان عليه الأمم قبلنا، من كل شهر ثلاثة أيام - عن معاذ، وابن مسعود، وابن عباس، وغيرهم . وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «صيام رمضان كتبه الله على الأمم قبلكم» في حديث طويل اختصر منه ذلك (٢).

ثم بين حكم الصيام على ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، فقال: «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ» أى: المريض والمسافر لا يصومان في حال المرض والسفر؛ لما في ذلك من المشقة عليهما، بل يفطران ويقضيان بعدة ذلك من أيام آخر. وأما الصحيح المقيم الذى يطبق الصيام، فقد كان مخيراً بين الصيام وبين الإطعام، إن شاء صام، وإن شاء أفطر، وأطعم عن كل يوم مسكيناً، فإن أطعم أكثر من مسكين عن كل يوم، فهو خير، وإن صام فهو أفضل من الإطعام، قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وغيرهم من السلف؛ ولهذا قال تعالى: «وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» .

وروى الإمام أحمد: عن معاذ بن جبل، قال: أحيلت الصلاة ثلاثة أحوال، وأحيل الصيام ثلاثة أحوال . . . وأما أحوال الصيام فإن رسول الله ﷺ قَدِمَ المدينة، فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، وصام عاشوراء، ثم إن الله فرض عليه الصيام، وأنزل الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ» إلى قوله: «وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ» فكان مَنْ شاء صام، ومن شاء أطعم مسكيناً، فأجزأ ذلك عنه. ثم إن الله عز وجل أنزل الآية الأخرى: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ» إلى قوله: «فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ» فثبت الله صيامه على المقيم الصحيح، ورخص فيه للمريض والمسافر، وثبت الإطعام للكبير الذى لا يستطيع

(١) رواه أحمد في المسند (٣٥٩٢) من حديث ابن مسعود . مطولا . ورواه أيضا أصحاب الكتب الستة ، كما فى المتنقى (٣٤١١) . وروى أحمد معناه أيضا من حديث عثمان (٤١١) .

(٢) الذى اختصره هو الحافظ ابن كثير . ورجاله رجال الصحيح ، إلا التابعى راويه عن ابن عمر ، وهو « أبو الربيع رجل من أهل المدينة » . وفى التابعين « أبو الربيع المدنى » : يروى عن أبى هريرة ، له حديث عنه فى المسند (٧٧١١) . وفهم أيضا « أبو الربيع » : يروى عن ابن عمر ، له عنه حديث فى المسند (٦١٩٥) ، ولكن لم يذكر أنه مدنى . والراجع عندى أنهما واحد . وقد ورد أيضا حديث آخر ، رواه البخارى فى الكبير (١ / ٢ / ٢٣٢ ، ٢٣٣) ، من رواية الحسن ، عن دغفل بن حنظلة ، عن النبى ﷺ ، قال : « كان على النصارى صوم رمضان . . . » - فى حديث طويل . وكذلك رواه ابن النحاس فى التناسخ والنسوخ ص ٢٠ . وذكره الهيثمى فى الزوائد (٣ / ١٣٩) . وقال : « رواه الطبرانى فى الأوسط مرفوعاً ، كما تراه ، ورواه فى الكبير موقوفاً على دغفل . ورجال إسنادهما رجال الصحيح » . ولكن البخارى أعله بأنه « لا يعرف سماع الحسن من دغفل ، ولا يعرف لدغفل إدراك النبى ﷺ » . انظر ترجمة « دغفل » ، بوزن « جعفر » - فى الإصابة والتهديب .

الصيام، فهذان حالان. قال: وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا، فإذا ناموا امتنعوا، ثم إن رجلا من الأنصار يقال له: صرمة، كان يعمل صائماً حتى أمسى، فجاء إلى أهله فصلى العشاء، ثم نام فلم يأكل ولم يشرب، حتى أصبح فأصبح صائماً، فرآه رسول الله ﷺ وقد جهد جهداً شديداً، فقال: ما لى أراك قد جَهدتَ جدّها شديداً؟ قال: يا رسول الله، إني عملتُ أمس فجئتُ حين جئتُ فالتقيتُ نفسي فتمتُ فأصبحت حين أصبحت صائماً. قال: وكان عمر قد أصاب من النساء بعد ما نام، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَحِلُّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾. وأخرجه أبو داود، والحاكم (١). وقد أخرج البخارى ومسلم عن عائشة أنها قالت: كان عاشوراء يصام، فلما نزل فرض رمضان كان من شاء صام ومن شاء أفطر. وروى البخارى عن ابن عمر وابن مسعود، مثله.

وقوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ كما قال معاذ: كان فى ابتداء الأمر: من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكيناً. وهكذا روى البخارى عن سلمة بن الأكوع أنه قال: لما نزلت: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ كان من أراد أن يُفطر يفتدى، حتى نزلت الآية التى بعدها فنسخها. وروى أيضاً عن ابن عمر، قال: هى منسوخة. وقال عبد الله [هو ابن مسعود] ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أى: يتجشمونه، قال عبد الله: فكان من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكيناً ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ﴾ يقول: أطعم مسكيناً آخر ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ فكانوا كذلك حتى نسختها: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾. وروى البخارى أيضاً: عن ابن عباس: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾. قال ابن عباس: ليست منسوخة، هو للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما، فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً. وروى أبو بكر ابن مردويه: عن ابن أبى ليلى، قال: دخلت على عطاء فى رمضان، وهو يأكل، فقال: قال ابن عباس: نزلت هذه الآية: [﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾]، فكان من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكيناً، ثم نزلت هذه الآية [(٢) فنسخت الأولى، إلا الكبير والفانى إن شاء أطعم عن كل يوم مسكيناً وأفطر.

فحاصل الأمر: أن النسخ ثابت فى حق الصحيح المقيم بإيجاب الصيام عليه، لقوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ وأما الشيخ الفانى الهرم الذى لا يستطيع الصيام فله أن يُفطر ولا قضاء عليه، لأنه ليست له حال يصير إليها يتمكن فيها من القضاء. ولكن هل يجب عليه إذا أفطر أن يطعم عن كل يوم مسكيناً إذا كان ذا جِدة؟ فيه قولان للعلماء، أحدهما: لا يجب عليه

(١) ساق الحافظ ابن كثير هنا الحديث بطوله، فاختصرنا منه أحوال الصلاة، اكتفاء بأحوال الصيام، والحديث - بطوله - فى المسند (٥/٢٤٦، ٢٤٧ حلى) وهو فى سنن أبى داود (٥٠٦، ٥٠٧). والذى رواه الحاكم منه هو أحوال الصيام (٢/٢٧٤) وصححه، ووافقه الذهبى. وروى الطبرى قطعة مختصرة منه فى شأن الصوم (٢٧٢٩). وفصلنا تخريجه هناك.

(٢) الزيادة من المخطوطة الأهرية، وسقطت من المطبوعة وحذفها خطأ واضح. وابن أبى ليلى: هو محمد بن عبد الرحمن، وهو حسن الحديث. وعطاء: هو ابن أبى رباح.

إطعام؛ لأنه ضعيف عنه لسنه، فلم يجب عليه فدية كالصبي؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وهو أحد قولى الشافعى. والثانى - وهو الصحيح، وعليه أكثر العلماء : أنه يجب عليه فدية عن كل يوم، كما فسره ابن عباس وغيره من السلف على قراءة من قرأ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يَطُوقُونَهُ﴾ أى: يتجشمونه، كما قاله ابن مسعود وغيره، وهو اختيار البخارى فإنه قال: وأما الشيخ الكبير إذا لم يطق الصيام، فقد أطعم أنس - بعد أن كبر عاماً أو عامين - عن كل يوم مسكيناً خبزاً ولحماً، وأفطر . وهذا الذى علقه البخارى قد أسنده الحافظ أبو يعلى الموصلى عن أيوب بن أبى تميمة، قال: ضعف أنس عن الصوم، فصنع جفنة من ثريد، فدعا ثلاثين مسكيناً فأطعمهم^(١). ورواه أيضاً عبد بن حميد . ومما يلتحق بهذا المعنى: الحامل والمرضع، إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما، ففيهما خلاف كثير بين العلماء، فمنهم من قال: يفطران ويفديان ويقضيان. وقيل: يفديان فقط، ولا قضاء. وقيل: يجب القضاء بلا فدية. وقيل: يفطران، ولا فدية ولا قضاء. وقد بسطنا هذه المسألة مستقصاة فى كتاب الصيام الذى أفردناه . والله الحمد والمنة.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُمْ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

مدح تعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور، بأن اختاره من يبينهن لإنزال القرآن العظيم فيه، وكما اختصه بذلك، قد ورد الحديث بأنه الشهر الذى كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء. فروى أحمد عن واثلة - يعنى ابن الأسقع - أن رسول الله ﷺ قال: «أنزلت صُحُف إبراهيم فى أول ليلة من رمضان. وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان»^(٢). أما الصحف والتوراة والزبور والإنجيل - فنزل كل منها على النبى الذى أنزل عليه جملة واحدة، وأما القرآن فأما نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا، وكان ذلك فى شهر رمضان، فى ليلة القدر منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر : ١] . وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مَبْرَكَةٍ﴾ [الدخان : ٣]، ثم نزل بعد مفراً بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ. هكذا روى من غير وجه، عن ابن عباس أنه سأل عتبة بن الأسود، فقال: وقع فى قلبى الشك : قول الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مَبْرَكَةٍ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وقد أنزل فى شوال، وفى ذى القعدة، وفى ذى الحجة، وفى المحرم، وصفر، وشهر ربيع ؟ فقال ابن عباس: إنه أنزل فى رمضان، فى ليلة القدر وفى ليلة مباركة جملة واحدة، ثم أنزل على مواقع النجوم ترتيباً فى الشهور والأيام. رواه ابن أبى حاتم وابن مردويه، وهذا لفظه . [وروى

(١) إسناده صحيح . وذكره الهيثمى فى الزوائد (٣ / ١٦٤) ، وقال : «رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح».

(٢) هو فى المسند (١٧٠٥١) (٤ / ١٠٧ حلى) وكذلك رواه الطبرى (٢٨١٤) .

نحوه عن ابن عباس من غير وجه [.

وقوله : ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ : هذا مدح للقرآن الذى أنزله الله هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقوه واتبعوه ﴿ وَبَيِّنَاتٍ ﴾ أى : ودلائل وحجج بيّنة واضحة جلية لمن فهمها وتدبرها دالة على صحة ما جاء به من الهدى النافى للضلال ، والرشد المخالف للغى ، ومفرقا بين الحق والباطل ، والحلال ، والحرام . وقد روى عن بعض السلف أنه كره أن يقال : إلا « شهر رمضان » ولا يقال : « رمضان » ، ورخص فيه ابن عباس وزيد بن ثابت . وقد انتصر البخارى ، رحمه الله ، فى كتابه لهذا فقال : « باب يقال رمضان » ، وساق أحاديث فى ذلك منها : « من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » ونحو ذلك (١) .

وقوله : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ : هذا إيجاب حتم على من شهد استهلال الشهر - أى كان مقيما فى البلد حين دخل شهر رمضان ، وهو صحيح فى بدنه - أن يصوم لا محالة . ونسخت هذه الآية الإباحة المتقدمة لمن كان صحيحا مقيما أن يفطر ويفدى بإطعام مسكين عن كل يوم ، كما تقدم بيانه . ولما حتم الصيام أعاد ذكر الرخصة للمريض وللمسافر فى الإفطار ، بشرط القضاء فقال : ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ معناه : ومن كان به مرض فى بدنه يشق عليه الصيام معه ، أو يؤذيه ، أو كان على سفر أى فى حال سفر - فله أن يفطر ، فإذا أفطر فعليه عدة ما أفطره فى السفر من الأيام ؛ ولهذا قال : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ أى : إنما رخص لكم فى الفطر فى حال المرض وفى السفر ، مع تختمه فى حق المقيم الصحيح ، تيسيرا عليكم ورحمة بكم . وهنا مسائل تتعلق بهذه الآية :

إحداها : أنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أن من كان مقيما فى أول الشهر ثم سافر فى أثناءه ، فليس له الإفطار بعذر السفر والحالة هذه ، وهذا القول غريب ! نقله ابن حزم فى المحلى ، عن جماعة من الصحابة والتابعين . وفيما حكاه عنهم نظر ، والله أعلم . فإنه قد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ أنه خرج فى شهر رمضان لغزوة الفتح ، فسار حتى بلغ الكديد ، ثم أفطر ، وأمر الناس بالفطر . أخرجه صاحبنا الصحيح .

الثانية : ذهب آخرون من الصحابة والتابعين إلى وجوب الإفطار فى السفر ، لقوله : ﴿ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ . والصحيح قول الجمهور ، أن الأمر فى ذلك على التخيير ، وليس بحتم ؛ لأنهم كانوا يخرجون مع رسول الله ﷺ فى شهر رمضان . قال : « فَمِنَّا الصائم ومنا المفطر ، فلم يعب الصائم على المفطر ، ولا المفطر على الصائم » (٢) . فلو كان الإفطار هو الواجب لأنكر عليهم الصيام ، بل الذى ثبت من فعل رسول الله ﷺ أنه كان فى مثل هذه الحالة صائما ، لما ثبت فى

(١) عبارة البخارى (٤ / ٩٦ فتح) : « باب ، هل يقال رمضان ، أو شهر رمضان ؟ ومن رأى كله واسعا . ثم أشار للحديث الذى هنا ، ثم رواه فى الباب الذى بعده (ص ٩٨ ، ٩٩) مطولا ، من حديث أبى هريرة .

(٢) ثبت من حديث أنس ، وأبى سعيد ، وجابر ، وعائشة . انظر : الفتح (٤ / ١٦٣) ، ومسلم (١ / ٣٠٨) ، (٣٠٩) .

الصحيحين عن أبي الدرداء قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حرٍّ شديد، حتى إن كان أحدنا يضع يده على رأسه [من شدة الحر، وما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبد الله ابن رواحة].

الثالثة: قالت طائفة منهم الشافعي: الصيام في السفر أفضل من الإفطار، لفعل النبي ﷺ كما تقدم، وقالت طائفة: بل الإفطار أفضل، أخذاً بالرخصة، ولما ثبت عن رسول الله ﷺ: أنه سئل عن الصوم في السفر، فقال: « من أفطر فحَسَنَ ، ومن صام فلا جناح عليه » (١). وقال في حديث آخر: « عليكم برخصة الله التي رخص لكم » (٢). وقالت طائفة: هما سواء لحديث عائشة: أن حمزة بن عمرو الأسلمي قال: يا رسول الله، إني كثير الصيام، أفأصوم في السفر؟ فقال: « إن شئت فصم، وإن شئت فافطر ». وهو في الصحيحين. وقيل: إن شق الصيام فالإفطار أفضل لحديث جابر: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً قد ظلَّلَ عليه، فقال: « ما هذا؟ » قالوا: صائم، فقال: « ليس من البر الصيام في السفر ». أخرجاه. فأما إن رغب عن السنة، ورأى أن الفطر مكروه إليه - فهذا يتعين عليه الإفطار، ويحرم عليه الصيام، والحالة هذه، لما جاء في مسند الإمام أحمد وغيره، عن ابن عمر وجابر، وغيرهما: من لم يقبل رُخْصَةَ الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة (٣).

الرابعة: القضاء، هل يجب متتابعاً أو يجوز فيه التفريق؟ فيه قولان: أحدهما: أنه يجب التابع؛ لأن القضاء يحكى الأداء. والثاني: لا يجب التابع، بل إن شاء فَرَّقْ، وإن شاء تابع. وهذا قول جمهور السلف والخلف، وعليه ثبتت الدلائل؛ لأن التابع إنما وجب في الشهر لضرورة أدائه في الشهر، فأما بعد انقضاء رمضان فالمراد صيام أيام عدة ما أفطر. ولهذا قال تعالى: ﴿ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ ثم قال: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾. روى الإمام أحمد عن أبي قتادة، عن الأعرابي الذي سمع النبي ﷺ يقول: « إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره » (٤).

وروى أحمد أيضاً: عن عُرْوَةَ الْفُقَيْمِيِّ، قال: كنا ننتظر النبي ﷺ فخرج [رجلاً] يَقْطُرُ رأسه من وضوء أو غسل، فصلى، فلما قضى الصلاة جعل الناس يسألونه: علينا حرج في كذا؟

(١) ثبت بمعناه من حديث حمزة بن عمرو الأسلمي . رواه مسلم (١ / ٣٧٠) ، والطبري (٢٨٩١) وفصلنا تخريجه هناك .

(٢) هذا اللفظ ورد في إحدى روايات مسلم لحديث جابر (١ / ٣٠٨) .

(٣) رواه أحمد في المسند (٥٣٩٢) عن ابن عمر ، بإسناد صحيح . ورواه أيضاً (١٧٥٢٣) من حديث عقبة بن عامر الجهني ، وإسناده صحيح . ولم أجده من حديث جابر .

(٤) هو في المسند (١٦٠٠٢) وذكره الهيثمي في الزوائد (٦١ / ١) مختصراً ، وقال : « رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح » . وانظر حديث محجن بن الأدرع الآتي .

فقال رسول الله ﷺ: «إن دين الله في يسر» ثلاثاً يقولها ورواه ابن مردويه (١). وروى الإمام أحمد: أيضاً عن أنس بن مالك قال: إن رسول الله ﷺ قال: «يسروا، ولا تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا». أخرجه في الصحيحين. وفي الصحيحين أيضاً: أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما إلى اليمن: «بشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، وتطاوعا ولا تختلفا». وفي السنن والمسند أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت بالحنيفية السمحة». وروى ابن مردويه عن مجحج بن الأدرع: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يصلي فترأه بصره ساعة، فقال: «أترأه يصلي صادقاً؟» قال: قلت: يا رسول الله، هذا أكثر أهل المدينة صلاة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تُسمِعهُ فتهلكه». وقال: «إن الله إنما أراد بهذه الأمة اليسر، ولم يرد بهم العسر» (٢).

ومعنى قوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ أي: إنما أرخص لكم في الإفطار للمرض والسفر ونحوهما من الأعذار لإرادته بكم اليسر، وإنما أمركم بالقضاء لتكملوا عدة شهركم.

وقوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ أي: ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم، كما قال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشْدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠] وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ أَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠] وقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ . وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩، ٤٠] ؛ ولهذا جاءت السنة باستحباب التسبيح، والتحميد، والتكبير بعد الصلوات المكتوبات. وقال ابن عباس: ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول الله ﷺ إلا بالتكبير (٣). وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: إذا قمتم بما أمركم الله من طاعته بأداء فرائضه، وترك محارمه، وحفظ حدوده، فلعلكم أن تكونوا من الشاكرين بذلك.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾

(١) هو في المسند (٥ / ٦٩ حلى) . ورواه أيضا البخارى فى الكبير (٤ / ١ / ٣٠ ، ٣١) وذكره الهيثمى فى الزوائد (١ / ٦١ ، ٦٢) ، وقال : « رواه أحمد ، والطبرانى فى الكبير ، وأبو يعلى . وفيه عاصم بن هلال : وثقه أبو حاتم ، وضعفه النسائى وغيره ، وغاضرة : لم يرو عنه غير عاصم » . أقول : والإسناد صحيح . فإن غاضرة بن عروة القميمى : ترجمه البخارى فى الكبير (٤ / ١ / ١٠٩) فلم يذكر فيه جرحاً . ولم يحلل البخارى الحديث حين رواه فى الكبير . وزيادة [رجلا] ودناها من المسند والمخطوطة الأهرية والكبير . وهى بكسر الجيم ، يعنى أن شعره لم يكن شديد الجعودة ولا شديد السبوطه ، أى بينهما .

(٢) أبعد الحافظ النجعة ، إذ ذكره من رواية ابن مردويه ! وهو فى المسند (٤ / ٣٣٨ ، و ٥ / ٣٢ حلى) . ولكن أخرجه فيه : « إن خير دينكم أيسره » ، مرتين . وإسناده فى المسند - صحيحان .

(٣) رواه أحمد فى المسند (١٩٣٣ ، ٣٤٧٨) ومسلم فى صحيحه (١ / ١٣٢ ، ١٣٣) .

روى الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غَزَاة فجعَلنا لا نَصعد شَرْقاً، ولا نَعْلو شَرْقاً، ولا نَهبط وادياً إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير. قال: فدنا منا فقال: «يا أيها الناس، اربُعُوا على أنفسكم؛ فإنَّكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً بصيراً، إن الذي تدعون أقربُ إلى أحدكم من عُنُق راحلته. يا عبد الله بن قيس، ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله». أخرجاه في الصحيحين، وبقيَّة الجماعة بنحوه (١). وروى الإمام أحمد أيضاً عن أنس أن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا دعاني» (٢). وروى أيضاً عن أبو هريرة: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله: أنا مع عبدي ما ذكرني، وتحركت بي شفتاه» (٣).

قلت: وهذا كقولهِ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وكقولهِ لموسى وهارون، عليهما السلام: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]. والمراد من هذا: أنه تعالى لا يخيب دعاء داع، ولا يشغله عنه شيء، بل هو سميع الدعاء. ففيه ترغيب في الدعاء، وأنه لا يضيع لديه تعالى، كما روى الإمام أحمد حدثنا يزيد، حدثنا رجل أنه سمع أبا عثمان - هو النهدي - يحدث عن سلمان الفارسي، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى ليستحيي أن ييسط العبد إليه يديه يسأله فيهما خيراً فيردَّهما خائبتين». ورواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه وقال الترمذي: حسن غريب. ورواه بعضهم، ولم يرفعه (٤). وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد: أن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجلَّ له دعوته، وإما أن يدَّخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها» قالوا: إذا نكث. قال: «الله أكثر» (٥). وروى عبد الله بن أحمد عن عبادة بن الصامت عن أن النبي ﷺ قال: «ما على ظهر الأرض من رجل مُسَلِّم يدعو الله، عز وجل، بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو كف عنه من السوء مثلها، ما لم يدعُ بإثم أو قطيعة رحم». ورواه الترمذي، وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه (٦). وروى الإمام مالك، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «يُسْتَجَاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول:

(١) هو في المسند (٤ / ٢٠٤ حلى).

(٢) هو في المسند (١٣٢٢٥) وذكره الهيثمي في الزوائد (١٠ / ١٤٨) وقال: «رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح». فَنسَى أن ينسبه للمسند، ورواه مسلم (٢ / ٣٠٩) بهذا اللفظ، من حديث أبي هريرة.

(٣) المسند (١٠٩٨٩) وأشار الحافظ ابن حجر في التهذيب (١٢ / ٤٤٨) إلى أنه رواه البخاري في الأدب المفرد، وذكره في الصحيح معلقاً، «وهو أحد الأحاديث المرفوعة التي لم يوصلها في الجامع».

(٤) المسند (٥ / ٤٣٨ حلى)، والترمذي (٤ / ٢٧٤)، وابن ماجه (٣٨٦٥)، بنحوه.

(٥) المسند (١١١٥٠) وذكره الهيثمي في الزوائد (١٠ / ١٤٨، ١٤٩)، وقال: «رواه أحمد، وأبو يعلى بنحوه، والبخاري، والطبراني في الأوسط. ورجال أحمد وأبو يعلى وأحد إسناده البزار - رجال الصحيح، غير على ابن على الرقاعي، وهو ثقة».

(٦) هو في المسند (٥ / ٣٢٩ حلى)، من زيادات عبد الله، والترمذي (٤ / ٢٧٩، ٢٨٠).

دعوتُ فلم يستجب لى. أخرجاه فى الصحيحين من حديث مالك، به. وهذا لفظ البخارى، رحمه الله، وأثابه الجنة. وروى مسلم عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال: «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدعْ بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل». قيل: يا رسول الله، ما الاستعجال؟ قال: «يقول: قد دعوتُ، وقد دعوتُ، فلم أرَ يستجاب لى، فيستحسر عند ذلك، ويدع الدعاء» (١). وروى الإمام أحمد عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل». قالوا: وكيف يستعجل؟ قال: «يقول: قد دعوت ربى فلم يستجب لى» (٢). وروى أحمد أيضا عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ قال: «القلوب أوعية، وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتهم الله أيها الناس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإنه لا يستجيب لعبد دعاء عن ظهر قلب غافل» (٣).

وفى ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء، متخللة بين أحكام الصيام - إرشاد إلى الاجتهاد فى الدعاء عند إكمال العدة، بل وعند كل فطر، كما رواه الإمام أبو داود الطيالسى عن عبد الله بن عمرو، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة». فكان عبد الله بن عمرو إذ أفطر دعا أهله، وولده ودعا (٤). وروى ابن ماجه عن عبد الله بن أبى مليكة، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال النبى ﷺ: «إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد». قال عبد الله بن أبى مليكة: سمعت عبد الله بن عمرو يقول إذا أفطر: اللهم إني أسألك برحمتك التى وسعت كل شيء أن تغفر لى (٥). وفى مسند الإمام أحمد، وسنن الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول: بعزتى لا نصرنك ولو بعد حين» (٦).

﴿أَحْلَلْ لَكُمْ يَتْلُوَ الصَّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ مِّنْ لِّبَاسٍ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عِلْمَ اللَّهِ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَحْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَاتَّقِنِ بُشْرُوهُمْ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى الْآتِلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَنْكُمُوهُ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾



(١) صحيح مسلم (٢ / ٣٢٠).
 (٢) المسند (١٣٠٤٠، ١٣٢٣١) ومجمع الزوائد (١٠ / ١٤٧) وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه، والبخارى، والطبرانى فى الأوسط. وفيه أبو هلال الراسى، وهو ثقة، وفيه خلاف، وبقية رجال أحمد وأبو يعلى رجال الصحيح».
 (٣) المسند (٦٦٥٥) والزوائد (١٠ / ١٤٨) وإسناده صحيح. (٤) مسند الطيالسى (٢٢٦٢).
 (٥) ابن ماجه (١٧٥٣) وإسناده صحيح، ورواه الحاكم فى المستدرک (١ / ٤٢٢).
 (٦) الترمذى (٤ / ٢٨٨) وقال: «حديث حسن» وابن ماجه (١٧٥٢) وهو فى المسند مطولا (٨٠٣٠).

هذه رُخْصَةٌ من الله تعالى للمسلمين، ورَفَعَ لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك، فمضى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة . فوجدوا من ذلك مَشَقَّةً كبيرة . « والرفث » هنا هو: الجماع . قاله ابن عباس، وعطاء، ومجاهد وغيرهم .

وقوله: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبَّير، وغيرهم : يعنى هن سَكَنَ لكم، وأنتم سكنن لهن . وقال الربيع بن أنس: هن لحاف لكم وأنتم لحاف لهن . وحاصله: أنَّ الرجل والمرأة كل منهما يخالط الآخر ويُمَاسَّه ويضاجعه، فناسب أن يُرَخَّصَ لهم في المجامعة في ليل رمضان، لئلا يشقَّ ذلك عليهم، ويخرجوا .

وكان السبب في نزول هذه الآية كما تقدم في حديث معاذ الطويل، عن البراء بن عازب قال: كان أصحاب النبي ﷺ إذا كان الرجل صائماً فنام قبل أن يفطر، لم يأكل إلى مثلها، وإن قيس بن صرمة الأنصارى كان صائماً، وكان يومه ذاك يعمل في أرضه، فلما حَضَرَ الإفطار أتى امرأته فقال: هل عندك طعام؟ قالت: لا، ولكن أنطلق فاطلب لك . فغلبته عينه فنام، وجاءت امرأته، فلما رآته نائماً قالت: خيبة لك! أمت؟ فلما انتصف النهار غشى عليه، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فترلت هذه الآية: ﴿ أَحِلُّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ ففرحوا بها فرحاً شديداً (١) .

ولفظ البخارى هنا (٢) عن البراء قال: لما نزل صومُ رمضان كانوا لا يقرَّبون النساء، رَمَضَانَ كُلَّهُ، وكان رجال يخونون أنفسهم، فأنزل الله: ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَقَّا عَنْكُمْ ﴾ . وقال ابن عباس : كان المسلمون في شهر رمضان إذا صلُّوا العشاء حَرَّمَ عليهم النساء والطعام إلى مثلها من القابلة، ثم إن أناساً من المسلمين أصابوا من النساء والطعام في شهر رمضان بعد العشاء، منهم عمر بن الخطاب، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَقَّا عَنْكُمْ فَلَا تَآخُذُوا بِهِنَّ ﴾ (٣) . وقال سعيد بن أبى عروبة، عن قيس بن سعد، عن عطاء بن أبى رباح، عن أبى هريرة في قول الله تعالى: ﴿ أَحِلُّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ قال: كَانَ المسلمون قبل أن تنزل هذه الآية إذا صلُّوا العشاء الآخرة حَرَّمَ عليهم الطعام والشراب والنساء حتى يفطروا، وإن عمر بن الخطاب أصاب أهله بعد صلاة العشاء، وإن صرمة بن قيس الأنصارى غلبته عينه بعد صلاة المغرب، فنام ولم يشبع من الطعام، ولم يستيقظ حتى صلى رسول الله ﷺ العشاء، فقام فأكل وشرب، فلما أصبح أتى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك، فأنزل

(١) حديث معاذ - الطويل - مضى في ص ٢١٨ ، ٢١٩ من هذا الجزء . وحديث البراء هذا رواه أحمد في المسند

(٤/ ٢٩٥ حلى) والبخارى (٤ / ١١١ ، ١١٢ فتح) ورواه الطبرى بنحوه (٢٩٣٩) وخرجناه هناك .

(٢) يعنى في كتاب التفسير من الصحيح (٨ / ١٣٦ فتح) .

(٣) رواه الطبرى (٢٩٤٠) ورواه ابن المنذر أيضا ، كما في الدر المنثور (١ / ١٩٧) .

الله عند ذلك : ﴿أَحِلُّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ يعنى بالرفث : مجامعة النساء ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ يعنى : تجامعون النساء ، وتأكلون وتشربون بعد العشاء ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ يعنى : جامعوهن ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يعنى : الولد ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ . فكان ذلك عفواً من الله ورحمة (١) . وهكذا روى عن مجاهد ، وعطاء ، وعكرمة ، والسدى ، وقتادة ، وغيرهم فى سبب نزول هذه الآية فى عمر بن الخطاب ومن صنع كما صنع ، وفى صِرْمَةَ بن قيس ؛ فأباح الجماع والطعام والشراب فى جميع الليل رحمة ورخصة ورفقاً .

وقوله : ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ : قال أبو هريرة ، وابن عباس ، وأنس ، وغيرهم : يعنى الولد . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى : الجماع .

وقوله : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ : أباح تعالى الأكل والشرب ، مع ما تقدم من إباحة الجماع ، فى أى الليل شاء الصائم إلى أن يتبين ضياء الصباح من سواد الليل ، وعبر عن ذلك بالخيط الأبيض من الخيط الأسود ، ورفع اللبس بقوله : ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ ، كما جاء فى الحديث الذى رواه البخارى : عن سهل بن سعد ، قال : أنزلت : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ ولم ينزل ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ وكان رجال إذا أرادوا الصوم ، ربط أحدهم فى رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود ، فلا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما ، فأنزل الله بعد : ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فعملوا أنما يعنى : الليل والنهار (٢) .

وروى الإمام أحمد : عن عدى بن حاتم قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ عمدت إلى عقالين ، أحدهما أسود والآخر أبيض ، قال : فجعلتهما تحت وسادتي ، قال : فجعلت أنظر إليهما فلا يتبين لى الأبيض من الأسود ولا الأبيض ، أمسكت ، فلما أصبحت غدوت على رسول الله ﷺ فأخبرته بالذى صنعت . فقال : « إِنَّ وَسَادَكَ إِذَا لَعْرِضَ ، إِنَّمَا ذَلِكَ بَيَاضُ النَّهَارِ وَسَوَادُ اللَّيْلِ » . أخرجاه فى الصحيحين (٣) .

ومعنى قوله : «إِنَّ وَسَادَكَ إِذَا لَعْرِضَ» أى : إن كان يسع لوضع الخيط الأسود والخيط الأبيض المرادين من هذه الآية تحتها ، فإنهما بياض النهار وسواد الليل - فيقتضى أن يكون بعرض المشرق والمغرب !! وجاء فى بعض اللفاظ : «إنك لعريض القفا» . ففسره بعضهم بالبلادة ، وهو ضعيف . بل يرجع إلى هذا ؛ لأنه إذا كان وساده عريضاً فقفاه أيضاً عريض ، والله أعلم .

وفى إباحته تعالى جواز الأكل إلى طلوع الفجر ، دليل على استحباب السحور ؛ لأنه

(١) هذا الحديث ثبت هكذا فى ابن كثير ، دون بيان من أخرجه . والإسناد من سعيد بن أبى عروة إلى أبى هريرة - صحيح . والظاهر من خطة ابن كثير أنه رواه الطبرى ، ولكن لم أجده فيه فى هذا الموضع . فإما هو فى موضع آخر ، وإما سقط من ناسخ الطبرى . ويؤيد أنه من رواية الطبرى أن السيوطى نقله فى الدر المنثور (١٩٧/١) ونسبه للطبرى فقط .

(٢) البخارى (٨ / ١٣٧ فتح) ، ورواه أيضا الطبرى (٢٩٩٠) وقد فصلنا تخريجه هناك .

(٣) المسند (٤ / ٣٧٧ حلى) .

من باب الرخصة، والأخذ بها محبوب ؛ ولهذا وردت السنة الثابتة عن رسول الله ﷺ بالحث على السحور ، ففي الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً». وفي صحيح مسلم، عن عمرو بن العاص رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ فَضَّلَ مَا بَيْنَ صَبَايَا وَصَبَايَا أَهْلِ الْكِتَابِ أَكَلَةُ السَّحَرِ». وروى الإمام أحمد: عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «السَّحُورُ أَكْلُهُ بَرَكَةٌ؛ فَلَا تَدَعُوهُ؛ وَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَجْرَعُ جُرْعَةً مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يَصَلُّونَ عَلَى الْمُتَسَحِّرِينَ» (١).

وقد ورد فى الترغيب فى السحور أحاديث كثيرة حتى ولو بجرعة من ماء، تشبهاً بالآكلين. ويستحب تأخيرها إلى وقت انفجار الفجر، كما جاء فى الصحيحين، عن أنس بن مالك، عن زيد بن ثابت، قال: تسحرنا مع رسول الله ﷺ، ثم قمنا إلى الصلاة. قال أنس: قلت لزيد: كم كان بين الأذان والسحور؟ قال: قدر خمسين آية. وقد ورد فى أحاديث كثيرة أن رسول الله ﷺ سمّاه «الْعَدَاءَ الْمُبَارَكَ»، وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد، والنسائى، وابن ماجه عن حذيفة بن اليمان قال: تسحرنا مع رسول الله ﷺ، وكان النهار إلا أن الشمس لم تطلع. وهو حديث تفرد به عاصم بن أبى النجود، قاله النسائى، وحمله على أن المراد قرب النهار، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢] أى: قاربين انقضاء العدة، فإذا إمساك أو ترك للفرق. وهذا الذى قاله هو المتعين حمل الحديث عليه: أنهم تسحروا ولم يتيقنوا طلوع الفجر، حتى إن بعضهم ظن طلوعه وبعضهم لم يتحقق ذلك. وقد روى عن طائفة كثيرة من السلف أنهم تسامحوا فى السحور عند مقاربة الفجر. روى مثل هذا عن أبى بكر، وعمر، وعلى، وابن مسعود، وحذيفة، وأبى هريرة، وابن عمر، وابن عباس، وزيد بن ثابت، وعن طائفة كثيرة من التابعين. وحكى ابن جرير فى تفسيره، عن بعضهم: أنه إنما يجب الإمساك من طلوع الشمس كما يجوز الإفطار بغروبها ! قلت: وهذا القول ما أظن أحداً من أهل العلم يستقر له قَدَمٌ عليه، لمخالفته نصّ القرآن فى قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾. وقد ورد فى الصحيحين، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يَمْنَعُكُمْ أَذَانُ بِلَالٍ عَنْ سَحُورِكُمْ، فَإِنَّهُ يَنَادِي بِلَيْلٍ، فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى تَسْمَعُوا أَذَانَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ فَإِنَّهُ لَا يُؤْذَنُ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ». لفظ البخارى . وروى الطبرى عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَمْنَعُكُمْ مِنْ سَحُورِكُمْ أَذَانُ بِلَالٍ وَلَا الْفَجْرُ الْمُسْتَطِيلُ، وَلَكِنَّ الْفَجْرَ الْمُسْتَطِيرَ فِي الْأَفْقِ» رواه مسلم (٢). وروى الطبرى عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ أَذَانُ بِلَالٍ عَنْ سَحُورِهِ - أَوْ قَالَ نَدَاءِ بِلَالٍ - فَإِنْ بَلَا لَا يُؤْذَنُ بِلَيْلٍ - ينادى - لينبه نائمكم وليرجع قائمكم، وليس الفجر أن يقول هكذا أو هكذا، حتى يقول هكذا» (٣).

(١) المسند (١١١٠٢) ومجمع الزوائد (٣ / ١٥٠) والترغيب والترهيب (٢ / ٩٤) وقال: «وإسناده قوى».

(٢) انظر: الطبرى (٢٩٩٦، ٢٩٩٧)، وما كتبه هناك، وصحيح مسلم (١ / ٣٠٢).

(٣) هذا الحديث نقله ابن كثير بإسنادين عن الطبرى. وقد سقط من نسخ الطبرى المخطوطة والمطبوعة التى رأينا. وهو حديث صحيح، رواه أيضاً مسلم فى صحيحه (١ / ٣٠١، ٣٠٢).

مسألة: ومن جعله تعالى الفجر غاية لإباحة الجماع والطعام والشراب لمن أراد الصيام - يُستدلّ على أنه من أصبح جنباً فليغتسل، وليتم صومه، ولا حرج عليه. وهذا مذهب الأئمة الأربعة وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً، لما رواه البخارى ومسلم من حديث عائشة وأم سلمة، أنهما قالتا: كان رسول الله ﷺ يصبح جنباً من جماع غير احتلام، ثم يغتسل ويصوم. وفى حديث أم سلمة عندهما: ثم لا يفطر ولا يقضى. وفى صحيح مسلم، عن عائشة: أن رجلاً قال: يا رسول الله، تُدركنى الصلاة وأنا جنب، فأصوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «وأنا تدركنى الصلاة وأنا جنب، فأصوم». فقال: لست مثلاً - يا رسول الله - قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. فقال: «والله إنى لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقى». فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا نودى للصلاة - صلاة الصبح - وأحدكم جنب فلا يصم يومئذ»، فإنه حديث جيد الإسناد على شرط الشيخين، وهو فى الصحيحين عن أبى هريرة، عن الفضل بن عباس عن النبى ﷺ، وفى سنن النسائى: عنه، عن أسامة بن زيد، والفضل بن عباس ولم يرفعه. فمن العلماء من علّل هذا الحديث بهذا، ومنهم من ذهب إليه، ويحكى هذا عن أبى هريرة، وسالم، وغيرهما، ومنهم من حمل حديث أبى هريرة على نفى الكمال «فلا صوم له» لحديث عائشة وأم سلمة الدالين على الجواز. وهذا المسلك أقرب الأقوال وأجمعها، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ يقتضى الإفطار عند غروب الشمس حكماً شرعياً، كما جاء فى الصحيحين، عن عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أقبل الليل من هاهنا وأدبر النهار من هاهنا، فقد أفطر الصائم». وعن سهل بن سعد الساعدى، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر» أخرجه أيضاً. وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ: «يقول الله، عز وجل: إن أحبّ عبادى إلى أعجلهم فطراً». ورواه الترمذى وقال: هذا حديث حسن غريب. وروى أحمد أيضاً: ليلى امرأة بشير بن الحصاصية، قالت: أردت أن أصوم يومين مواصلة، فمنعنى بشير وقال: إن رسول الله ﷺ نهى عنه. وقال: «يفعل ذلك النصارى، ولكن صوموا كما أمركم الله، وأتموا الصيام إلى الليل، فإذا كان الليل فافطروا» (١).

(١) بشير ابن الحصاصية : هو «بشير بن معبد» . وقيل فى اسم أبيه غير ذلك و « الحصاصية » - بفتح الحاء وتخفيف الصاد الأولى وكسر الثانية بعدها ياء تحتية مشددة : هى إحدى جداته ، نسب إليها . ولذلك تكتب «ابن» هنا بالالف .

والحديث فى المسند (٥ / ٢٢٥ حلى) . وذكره الهيثمى فى الزوائد (٣ / ١٥٨) ، وقال : « رواه أحمد والطبرانى فى الكبير . ولىلى : لم أجد من ذكرها ، وبقية رجاله رجال الصحيح » . ولىلى : معروفة ، مترجمة فى التهذيب والإصابة فى اسم « جهمة » ، كان هذا هو اسمها ، ويقال أن النبى ﷺ غيّر اسمها « لىلى » . وهى صحابية على الراجح . ولذلك ذكر الحافظ ابن حجر ، هذا الحديث فى الفتح (٤ / ١٧٦) من رواية ابن أبى حاتم . وقال : « أخرجه أحمد والطبرانى ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن أبى حاتم ، فى تفسيرهما ، بإسناد صحيح » .

ولهذا ورد في الأحاديث الصحيحة النهى عن الوصال، وهو أن يصل صوم يوم بيوم آخر، ولا يأكل بينهما شيئاً. فروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تواصلوا». قالوا: يا رسول الله، إنك تواصل؟ قال: «فإني لست مثلكم، إني أبيتُ يطعمني ربي ويسقيني». قال: فلم يتتوها عن الوصال، فواصل بهم النبي ﷺ يومين وليتين، ثم رأوا الهلال، فقال: «لو تأخر الهلال لزدتكم» كالمُنكَل بهم. وأخرجاه في الصحيحين. وكذلك أخرجاه النهى عن الوصال من حديث أنس وابن عمر، وعائشة. فقد ثبت النهى عنه من غير وجه، وثبت أنه من خصائص النبي ﷺ، وأنه كان يقوى على ذلك ويعان، والأظهر أن ذلك الطعام والشراب في حقه إنما كان معنوياً لا حسيّاً، وإلا فلا يكون مواصلاً مع الحسى، وأما من أحب أن يُمسك بعد غروب الشمس إلى وقت السحر فله ذلك، كما في حديث أبي سعيد الخدري، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تواصلوا، فأياكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر». قالوا: فإنك تواصل يا رسول الله؟ قال: «إني لست كهيتكم، إني أبيت لى مطعم يطعمني، وساق يسقيني». أخرجاه في الصحيحين أيضاً^(١). وروى الإمام أحمد: عن علي: أن النبي ﷺ كان يواصل من السحر إلى السحر^(٢). وقد روى ابن جرير، عن عبد الله بن الزبير وغيره من السلف، أنهم كانوا يواصلون الأيام المتعددة، وحمله منهم على أنهم كانوا يفعلون ذلك رياضة لأنفسهم، لا أنهم كانوا يفعلونه عبادة. والله أعلم. ويحتمل أنهم كانوا يفهمون من النهى أنه إرشاد، من باب الشفقة، فكان ابن الزبير وابنه عامر ومن سلك سبيلهم يتجشمون ذلك ويفعلونه، لأنهم كانوا يجدون قوة عليه. وقد ذكر عنهم أنهم كانوا أول ما يفطرون على السمن والصبر لثلاث تتخرق الأمعاء بالطعام أولاً. وقد روى عن ابن الزبير أنه كان يواصل سبعة أيام ويصبح في اليوم السابع أقواهم وأجلدهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَاسِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾: قال ابن عباس: هذا في الرجل يعتكف في المسجد في رمضان أو في غير رمضان، فحرم الله عليه أن ينكح النساء ليلاً أو نهاراً حتى يقضى اعتكافه. وهذا هو الأمر المتفق عليه عند العلماء: أن المعتكف يحرم عليه النساء ما دام معتكفاً في مسجده، ولو ذهب إلى منزله لحاجة لا بد له منها فلا يحل له أن يتلبث فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك، من قضاء الغائط، أو أكل، وليس له أن يقبل امرأته، ولا يضمها إليه، ولا يشتغل بشيء سوى اعتكافه، ولا يعود المريض، لكن يسأل عنه وهو مار في طريقه. والفقهاء المصنفون يتبعون كتاب الصيام بكتاب الاعتكاف، اقتداء بالقرآن العظيم، فإنه نبه على ذكر الاعتكاف بعد ذكر الصوم.

= وقوله: «وأتمو...» هو من لفظ الحديث، لا تلاوة للآية، وهذا ثبت في المخطوطة الأزهرية والمسند والزوائد. وفي المطبوعة «ثم أتموا» - على لفظ التلاوة. وهو تصرف من ناسخ أو طابع.

(١) البخارى (٤ / ١٧٧ فتح)، ورواه أيضاً أحمد فى المسند (١١٠٧٠، ١١٨٤٥) ورواه الطبرى (٣٠٣٤)، وقد وهم الحافظ ابن كثير - هنا - وهماً شديداً، إذ نسيه للصحيحين، فإنه على اليقين من أفراد البخارى. وقد نص على ذلك الحافظ ابن حجر فى الفتح (٢١٧/٤) فى آخر كتاب الصيام.

(٢) المسند (١١٩٤) وإسناده ضعيف، لضعف راويه: «عبد الأعلى بن عامر الثعلبى».

وفى ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام إرشاد وتنبه على الاعتكاف فى الصيام، أو فى آخر شهر الصيام، كما ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ: أنه كان يعتكف العشرَ الأخير من شهر رمضان، حتى توفاه الله، عز وجل. ثم اعتكف أزواجه من بعده. أخرجاه من حديث عائشة أم المؤمنين، وفى الصحيحين أن صفية بنت حبي كانت تزور النبی ﷺ وهو معتكف فى المسجد، فتحدثت عنده ساعة، ثم قامت لترجع إلى منزلها. وكان ذلك ليلاً - فقام النبی ﷺ ليمشى معها حتى تبلغ دارها، وكان منزلها فى دار أسامة بن زيد فى جانب المدينة، فلما كان ببعض الطريق لقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبی ﷺ أسرعَا - وفى رواية: تواریا - أى حياء من النبی ﷺ لكون أهله معه، فقال لهما النبی ﷺ: «على رسلكما إنها صفية بنت حبي» أى: لا تسرعا، واعلما أنها صفية بنت حبي، أى: زوجتى. فقالا: سبحان الله يارسول الله، فقال ﷺ: «إن الشيطان يعجرى من ابن آدم مجرى الدم، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئا» أو قال: «شرا». قال الشافعى: أراد، عليه السلام، أن يعلم أمته التبرى من التهمة فى محلها، لثلا يقعا فى محذور، وهما كانا أتقى الله أن يظنا بالنبي ﷺ شيئا. والله أعلم.

ثم المراد بالمباشرة: إنما هو الجماع ودواعيه من تقبيل، ومعانقة ونحو ذلك، فأما معاواة الشيء ونحوه فلا بأس به؛ فقد ثبت فى الصحيحين، عن عائشة، أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يدنى إلى رأسه فأرجله وأنا حائض، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان. قالت عائشة: ولقد كان المريضُ يكون فى البيت فما أسأل عنه إلا وأنا مارة.

وقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أى: هذا الذى بيناه، وفرضناه، وحددناه من الصيام، وأحكامه، وما أبحنا فيه وما حرّمنا، وذكرنا غاياته ورخصه وعزائمه - حدود الله، أى: شرعها الله وبينها بنفسه ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ أى: لا تجاوزوها، وتعتدوها. ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾ أى: كما بين الصيام وأحكامه وشرائعه وتفاصيله، كذلك يبين سائر الأحكام على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَقْنُونَ﴾ أى: يعرفون كيف يهتدون، وكيف يطيعون كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ١٩].

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَآ إِلَى الْحُكْمِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٨٨﴾

قال ابن عباس: هذا فى الرجل يكون عليه مال، وليس عليه فيه بيّنة، فيجحد المال ويخاصم إلى الحكم، وهو يعرف أن الحق عليه، وهو يعلم أنه آثم أكل حرام. وكذا روى عن مجاهد، وسعيد بن جبّير، وعكرمة، وغيرهم أنهم قالوا: لا تُخاصم وأنت تعلم أنك ظالم. وقد ورد فى الصحيحين عن أم سلمة: أنّ رسول الله ﷺ قال: «ألا إنما أنا بشرٌ، وإنما يأتينى الخصم فلعل بعضكم أن يكون الخن بحجته من بعض فأقضى له، فمن قضيت له بحق مسلم،

فإنما هي قطعة من نار، فَلْيَحْمِلْهَا، أو لِيَذَرْهَا^(١). فدلّت هذه الآية الكريمة، وهذا الحديث على أنّ حكم الحاكم لا يغير الشيء في نفس الأمر، فلا يُحَلّ في نفس الأمر حراماً هو حرام، ولا يحرم حلالاً هو حلال، وإنما هو ملزم في الظاهر، فإن طابق ما في نفس الأمر فذاك، وإلا فللحاكم أجره وعلى المحتال وزره؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْثِلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تعلمون بطلان ما تدعون وتروجون في كلامكم. قال قتادة: اعلم - يابن آدم - أنّ قضاء القاضي لا يُحلّ لك حراماً، ولا يُحقّ لك باطلاً، وإنما يقضى القاضي بنحو ما يرى ويشهد به الشهود، والقاضي بشر يخطئ ويصيب، واعلموا أنّ من قضى له ببطلان أنّ خصومته لم تنقُض حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة، فيقضى على المبطل للمحق بأجود مما قضى به للمبطل على المحق في الدنيا.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

ربع

﴿مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾. قال أبو العالية: جعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم، وعدة نسائهم، ومحلّ دينهم. وروى عن عطاء، والضحاك، وقتادة، وغيرهم نحو ذلك. وروى عبد الرزاق، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «جعل الله الأهلة مواقيت للناس. فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم فعُدّوا ثلاثين يوماً». ورواه الحاكم في مستدركه (٢)، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وقوله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾: روى البخارى عن البراء قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره، فأنزل الله ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾. وكذا رواه أبو داود الطيالسي، بنحوه (٣). وعن جابر قال: كانت قريش تدعى الحمس، وكانوا يدخلون من الأبواب في الإحرام، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الإحرام، فبينما رسول الله ﷺ في بستان إذ خرج من بابه، وخرج معه قطبة بن عامر الأنصارى، فقالوا: يا رسول الله، إن قطبة ابن عامر رجل تاجر، وإنه خرج معك من الباب. فقال له: «ما حملك على ما صنعت؟» قال: رأيتك فعلته ففعلت كما فعلت. فقال: «إني أحمس». قال له: فإن ديني دينك. فأنزل الله ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ

(١) كلمة «فاقضى له» ليست في الأثرية. وهي ثابتة بلفظها أو معناها في روايات هذا الحديث. واللفظ الذى

ساقه ابن كثير هنا أقرب إلى إحدى روايات مسلم (٢/ ٤٠). ولم أجده بالحرف فى سائر الروايات. والحديث فى

البخارى (٧٧/ ١٢، ٢٩٩، ٣٠٠، ١٣/ ١٣٩، ١٥١، ١٥٦، بنحوه). ولعله فى مواضع أخرى منه.

(٢) المستدرک (١/ ٤٢٣) ووافقه الذهبى على تصحيحه.

(٣) البخارى (٨/ ١٣٧) والطيالسى (٧١٧) والطبرى (٣٠٧٥، ٣٠٧٦).

أَبَوَيْهَا». رواه ابن أبي حاتم (١). وكذا روى عن مجاهد، والزهرى، وقتادة، وغيرهم.
وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أى: اتقوا الله فافعلوا ما أمركم به، واتركوا ما نهاكم عنه
﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ غدا إذا وقفت بين يديه، فيجزيك بأعمالكم على التمام، والكمال.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْسَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْمُعْسِدِينَ ﴿١٩١﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ
وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ
﴿١٩٢﴾ فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٣﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ
أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٤﴾﴾

قال أبو العالية فى قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ﴾ هذه أول آية نزلت فى
القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله، ويكف عمن كف عنه حتى
نزلت سورة براءة. وفى هذا نظر؛ لأن قوله: ﴿الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ﴾ إنما هو تهيج وإغراء بالأعداء
الذين همّتهم قتال الإسلام وأهله، أى: كما يقاتلونكم فاقتلوهم أنتم، كما قال: ﴿وَقَاتِلُوا
الْمُشْرِكِينَ كَمَا يَفْقَهُونَكُمْ كَمَا يَفْقَهُونَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]؛ ولهذا قال فى هذه الآية: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ
وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أى: لتكن همّتكم منبعثة على قتالهم، كما أن همّتهم منبعثة على
قتالكم، وعلى إخراجهم من بلادهم التى أخرجوكم منها، قصاصاً.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْدِينَ﴾ أى: قاتلوا فى سبيل الله ولا تعتدوا فى ذلك .
ويدخل فى ذلك ارتكاب المناهى - كما قال الحسن البصرى - من المثلة، والغلول، وقتل النساء
والصبيان والشيوخ الذين لا رأى لهم ولا قتال فيهم، والرهبان وأصحاب الصوامع، وتحريق
الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة، كما قال ذلك ابن عباس، وعمر بن عبد العزيز، ومقاتل
ابن حيان، وغيرهم. ولهذا جاء فى صحيح مسلم، عن بُريدة أنّ رسول الله ﷺ كان يقول:
«اغزوا فى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلّوا، ولا تغدّوا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا
وليداً» (٢). وعن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيوشه قال: «اخرجوا باسم
الله، قاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله، لا تعتدوا ولا تغلّوا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا الولدان ولا
أصحاب الصّوامع». رواه الإمام أحمد (٣). ولأبى داود، عن أنس مرفوعاً، نحوه. وفى الصحيحين
عن ابن عمر قال: وجدت امرأة فى بعض مغازى النّبى ﷺ مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ قتل

(١) رواه أيضاً الحاكم فى المستدرک (١ / ٤٨٣) وقال: «صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه» ووافقه
الذهبى. وذكر الحافظ ابن حجر فى الإصابة (٥ / ٢٤٢) أنه رواه أيضاً ابن خزيمة فى صحيحه .

(٢) هو جزء من حديث طويل فى المسند (٥ / ٣٥٨ حلى)، ومسلم (٢ / ٤٦) .

(٣) المسند (٢٧٢٨)، ومجمع الزوائد (٥ / ٣١٦، ٣١٧) .

النساء والصبيان. وروى الإمام أحمد: عن حذيفة قال : ضرب لنا رسول الله ﷺ أمثالا: واحداً، وثلاثة، وخمسة، وسبعة، وتسعة، وأحد عشر، فضرب لنا رسول الله ﷺ منها مثلاً وترك سائرهما، قال: «إن قوماً كانوا أهلَ ضَعْفٍ ومسكنة، قاتلهم أهلُ تجبّرٍ وعداء، فأظهر الله أهل الضعف عليهم، فعمدوا إلى عدوهم فاستعملوهم وسلطوهم فأسخطوا الله عليهم إلى يوم يلقونه». هذا حديث حسن الإسناد (١). ومعناه: أن هؤلاء الضعفاء لما قدروا على الأقوياء، فاعتدوا عليهم واستعملوهم فيما لا يليق بهم، أسخطوا الله عليهم بسبب هذا الاعتداء. والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً.

ولما كان الجهاد فيه إزهاق النفوس وقتل الرجال، نبّه تعالى على أن ما هم مشتملون عليه من الكفر بالله والشرك به والصد عن سبيله أبلغ وأشد وأعظم وأطم من القتل؛ ولهذا قال: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾. وقال أبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وغيرهم الشرك أشد من القتل.

وقوله: ﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ كما جاء في الصحيحين: «إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، ولم يحل لى إلا ساعة من نهار، وإنها ساعتي هذه حرّام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعَصَّدُ شجره، ولا يُخْتَلَى خلاه. فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم». يعنى بذلك - صلوات الله وسلامه عليه - قتاله أهلها يوم فتح مكة، فإنه فتحها عنوة، وقتلت رجال به عند الخندمة، وقيل: صلحاً؛ لقوله: «من أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن».

وقوله: ﴿حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ يقول تعالى: لا تقاتلوهم عند المسجد الحرام إلا أن يبدؤوكم بالقتال فيه، فلكم حينئذ قتالهم وقتلهم دفعاً للصائل، كما بايع النبي ﷺ أصحابه يوم الحديبية تحت الشجرة على القتال، لَمَّا تَأَلَّبت عليه بطون قريش ومن والاهم من ثقيف والأحابيش عامئذ، ثم كف الله القتال بينهم فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤]، وقال: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٍ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ تَطْوَئَهُمْ قَتْسِيكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ [الفتح: ٢٥].

(١) المسند (٥/٤٠٧ حلى). وفيه «عدد»، يدل «عداء». وأثبتنا ما في الأزهري هنا. وقوله «وسلطوهم»: هكذا ثبت هذا الحرف. وهو من «السلطة»، وهى القهر. والفعل منه فى المعاجم «سلطه الله - بتشديد اللام - فسلط عليهم». و «السلطة - أيضاً - والسلطة، بضم السين واللام»: حدة اللسان وطوله. والفعل منه لازم: «سلط» بضم اللام. فينبغى أن يكون هكذا الحرف هنا «سلطوهم» يفتح اللام. ويكون استعمالاً نادراً، من أحد هذين المعنيين: قهروهم، أو استطالوا عليهم بالاستهم. ولم أجده فى غير هذا الموضع. وهذا تخريجه فيما أرى.

وقوله: ﴿ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أى: فَإِنْ تَرَكُوا الْقِتَالَ فِي الْحَرَمِ، وَأُنَابُوا إِلَى الْإِسْلَامِ وَالتَّوْبَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ ذُنُوبَهُمْ، وَلَوْ كَانُوا قَدْ قَتَلُوا الْمُسْلِمِينَ فِي حَرَمِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَا يَتَعَاطَمُهُ ذَنْبٌ أَنْ يَغْفِرَهُ لِمَنْ تَابَ مِنْهُ إِلَيْهِ.

ثم أمر تعالى بقتال الكفار: ﴿ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ أى: شُرَكَاءُ. قاله ابن عباس، وغيره. ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ أى: يَكُونَ دِينُ اللَّهِ هُوَ الظَّاهِرُ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، قَالَ: سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ حِمَّةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، أَى ذَلِكَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَقَالَ: « مِنْ قَاتِلٍ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا فَهُوَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ». وَفِى الصَّحِيحِينَ: « أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّى دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ » (١).

وقوله: ﴿ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ يقول: فَإِنْ انْتَهَوْا عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الشُّرْكِ، وَقِتَالِ الْمُؤْمِنِينَ، فَكَفُّوا عَنْهُمْ، فَإِنْ مَنْ قَاتِلُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ ظَالِمٌ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ: لَا تَقَاتِلْ إِلَّا مَنْ قَاتَلَ. أَوْ يَكُونُ تَقْدِيرُهُ: فَإِنْ انْتَهَوْا فَقَدْ تَخَلَّصُوا مِنَ الظُّلْمِ، وَهُوَ الشُّرْكُ. فَلَا عُدْوَانَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ، وَالْمُرَادُ بِالْعُدْوَانِ هَاهُنَا الْمَعَاقِبَةُ وَالْمَقَاتِلَةُ، كَقَوْلِهِ: ﴿ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ [النحل: ١٢٦]. وَلِهَذَا قَالَ عِكْرَمَةُ وَقَتَادَةُ: الظَّالِمُ: الَّذِى أَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ: أَنَّهُ أَنَا هَاجِلَانِ فِي فِتْنَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ فَقَالَا: إِنْ النَّاسَ [قَدْ] صَنَعُوا وَأَنْتَ ابْنُ عُمَرَ وَصَاحِبُ النَّبِيِّ ﷺ، فَمَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَخْرُجَ؟ فَقَالَ: يَمْنَعُنِى أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ دَمَ أَخِي! قَالَا: أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾؟ فَقَالَ: قَاتَلْنَا حَتَّى لَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ وَكَانَ الدِّينُ لِلَّهِ، وَأَنْتُمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَقَاتِلُوا حَتَّى تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لغيرِ اللَّهِ (٢).

﴿ الشُّهْرُ الْحَرَامُ بِالشُّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْدَى عَلَيْكُمْ فَاَعْدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾

قال ابن عباس، وقَتَادَةُ وغيرهما لما سار رسولُ اللَّهِ ﷺ مُعْتَمِرًا فِي سَنَةِ سِتٍّ مِنَ الْهَجْرَةِ،

(١) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ . وَرَوَاهُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ مُرَارًا ، مِنْهَا : (٨٨٩١ ، ٩٤٦٩) . وَقَالَ السَّيُوطِيُّ فِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ : « وَهُوَ مُتَوَاتِرٌ » .

(٢) الْبُخَارِيُّ (٨ / ١٣٧) فَتَحَ) وَقَوْلُهُ : « قَدْ صَنَعُوا » زِيَادَةُ حَرْفٍ « قَدْ » مِنَ الْبُخَارِيِّ . وَ « صَنَعُوا » بَفَتْحِ الصَّادِ الْمُهْمَلَةِ وَالنُّونِ . وَهُوَ الثَّابِتُ فِي الْمَخْطُوطَةِ الْأَزْهَرِيَّةِ . وَهُوَ رِوَايَةُ الْكَشْمِيرِيِّ أَحَدِ رَوَاةِ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ . قَالَ الْحَافِظُ : « وَيَحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيرِ شَيْءٍ مَحْذُوفٍ ، أَى : صَنَعُوا مَا تَرَى مِنَ الْإِخْتِلَافِ » . وَرِوَايَةُ الْآكْثَرِ مِنْ رِوَاةِ الصَّحِيحِ « ضَمُّوا » : بِضَمِّ الضَّادِ وَتَشْدِيدِ الْيَاءِ التَّحْتِيَّةِ الْمَكْسُورَةِ . وَمَعْنَاهَا ظَاهِرٌ . وَيُرِيدُ ابْنُ عُمَرَ بِذَلِكَ قِتَالَهُمْ عَلَى الْمَلِكِ . كَمَا فِي حَدِيثِ آخَرٍ عَنْهُ فِي الْمُسْنَدِ (٥٦٩٠) : قَالَ : وَيَحْكُ! أَتُدْرِي مَا الْفِتْنَةُ؟! إِنَّمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُقَاتِلُ الْمُشْرِكِينَ ، وَكَانَ الدُّخُولُ فِي دِينِهِمْ فِتْنَةً ، وَلَيْسَ بِقِتَالِكُمْ عَلَى الْمَلِكِ .

وحَبَسَهُ المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت، وصدّوه بمن معه من المسلمين في ذى القعدة، وهو شهر حرام، حتى قاضاهم على الدخول من قافل، فدخلها في السنة الآتية، هو ومن كان معه من المسلمين، وأقصه الله منهم، فنزلت في ذلك هذه الآية: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾. وروى الإمام أحمد، عن جابر بن عبد الله، قال: لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلا أن يُغزى أو يُغزوا، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ^(١). وإسناده صحيح؛ ولهذا لما بلغ النبي ﷺ - وهو مُخَيَّمٌ بالحديبية - أن عثمان قتل - وكان قد بعثه في رسالة إلى المشركين - بايع أصحابه، وكانوا ألفاً وأربعمائة تحت الشجرة على قتال المشركين، فلما بلغه أن عثمان لم يقتل كفّ عن ذلك، وجنح إلى المسالمة والمصالحة، فكان ما كان. وكذلك لما فرغ من قتال هوازن يوم حنين وتحصن فلهم بالطائف، عدل إليها، فحاصرها ودخل ذو القعدة وهو محاصرها بالمنجنيق، واستمر عليها إلى كمال أربعين يوماً، كما ثبت في الصحيحين عن أنس. فلما كثر القتل في أصحابه انصرف عنها ولم تفتح، ثم كر راجعاً إلى مكة واعتمر من الجعرانة، حيث قسم غنائم حنين. وكانت عمرته هذه في ذى القعدة أيضاً عام ثمان، صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾: أمر بالعدل حتى في المشركين: كما قال: ﴿وَأَنْ عَاقِبْتُمْ فَمَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]. وقال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾: أمر لهم بطاعة الله وتقواه، وإخبار بأنه تعالى مع الذين اتقوا بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة.

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

روى البخارى وابن أبى حاتم عن حذيفة أن هذه الآية نزلت في النفقة^(٢). وعن أسلم أبى عمران قال: حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرّقه، ومعنا أبو أيوب الأنصارى، فقال ناس: ألقى بيده إلى التهلكة. فقال أبو أيوب: نحن أعلم بهذه الآية إنما نزلت فينا، صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه، فلما فشا الإسلام وظهر، اجتمعنا معشر الأنصار نجياً، فقلنا: قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونصره، حتى فشا الإسلام وكثر أهله، وكنا قد أثرناه على الأهلين والأموال والأولاد، وقد وضعت الحرب أوزارها، فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما. فنزل فينا: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾. فكانت التهلكة الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد. رواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، وعبد بن

(١) المسند (١٤٧٦٧) (٣ / ٣٤٥ حلى).

(٢) الفتح (٨ / ١٣٨). قال الحافظ: «أى فى ترك النفقة فى سبيل الله. وهذا الذى قاله حذيفة، جاء مفسراً فى حديث أبى أيوب». ثم ذكر الحديث الذى نقله ابن كثير هنا بعد هذا. ثم قال: «وصح عن ابن عباس وجماعة من التابعين - نحو ذلك فى تأويل هذه الآية».

حُمَيْد ، وابن أبي حاتم ، وابن جرير ، وابن مَرْدُويه ، أبو يعلى ، وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم فى مستدركه . وقال الترمذى : حسن صحيح غريب . وقال الحاكم : على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه (١) . وعن أبى إسحاق السَّبَّيى قال : قال رجل للبراء بن عازب : إن حملتُ على العدو وحدى فقتلوني أكنْتُ أَلْقَيْتُ بِيَدِي إِلَى التَّهْلُكَةِ؟ قال : لا ، قال الله لرسوله : ﴿ فَقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكُلْفُ إِلَّا نَفْسُكَ ﴾ [النساء : ٨٤] ، إنما هذا فى النفقة . رواه ابن مردويه وأخرجه الحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه . وقال ابن عباس : ﴿ وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ : ليس ذلك فى القتال ، إنما هو فى النفقة : أَنْ تُمَسِكَ بِيَدِكَ عَنِ النَّفَقَةِ فى سَبِيلِ اللَّهِ . ولا تلق بيدك إلى التهلكة .

ومضمون الآية : الأمرُ بالإنفاق فى سَبِيلِ اللَّهِ فى سائر وجوه القُرْبَاتِ ووجوه الطاعات ، وخاصةً صرفَ الأموال فى قتال الأعداء وبذلها فيما يَقْوَى به المسلمون على عدوهم ، والإخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده . ثم عطف بالأمر بالإحسان ، وهو أعلى مقامات الطاعة ، فقال : ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فَمَنْ تَمَنَّعَ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (١٩٦)

لما ذكر تعالى أحكام الصيام وعطفَ بذكر الجهاد ، شرَعَ فى بيان المناسك ، فأمرَ بإتمام الحج والعمرة ، وظاهر السياق إكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما ؛ ولهذا قال بعده : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ ﴾ أى : صُدَدْتُمْ عن الوصول إلى البيت ومنعتم من إتمامهما . ولهذا اتفق العلماء على أن الشروع فى الحج والعمرة مُلْزِمٌ ، سواء قيل بوجوب العمرة أو باستحبابها ، كما هما قولان للعلماء .

وقال على فى هذه الآية : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ : أَنْ تُحْرِمَ مِنْ دُورَةِ أَهْلِكِ . وكذلك قال ابن عباس ، وسعيد بن جبیر . وعن سفيان الثورى أنه قال فى هذه الآية : تمامها أن تحرم من أهلك ، لا تريد إلا الحج والعمرة ، وتهلّ من الميقات ليس أن تخرج لتجارة ولا حاجة ، حتى إذا كنت قريباً من مكة قلت : لو حججت أو اعتمرت ، وذلك يجرئ ، ولكن التمام أن تخرج له ، ولا تخرج لغيره .

(١) هو فى الطبرى (٣١٧٩ ، ٣١٨٠) وفصلنا تخريجه هناك . ورواية الحاكم فى المستدرک (٢ / ٢٧٥) ، ووافقه الذهبى على تصحيحه . وفى لفظ أبى داود (٢٥١٢) : « فالإلقاء بالأيدى إلى التهلكة : أن نقيم فى أموالنا ونصلحها وتدع الجهاد . قال أبو عمران : فلم يزل أبو أيوب يجاهد فى سبيل الله ، حتى دفن بالقسطنطينية » .

قد ثبت أن رسول الله ﷺ اعتمر أربع عُمَرٍ كلها في ذى القعدة: عمرة الحديبية في ذى القعدة سنة ست، وعمرة القضاء في ذى القعدة سنة سبع، وعمرة الجعرانة في ذى القعدة سنة ثمان، وعمرته التي مع حجته أحرم بهما معاً في ذى القعدة سنة عشر، ولا اعتمر قطّ في غير ذلك بعد هجرته، ولكن قال لأم هانئ: «عُمَرَةٌ في رمضان تعدل حجة معي». وما ذاك إلا لأنها كانت قد عزمت على الحج معه، عليه السلام، فاعتاقت عن ذلك بسبب الطهر، كما هو مبسوط في الحديث عند البخارى (١). وقد وردت أحاديث كثيرة من طرق متعددة، عن أنس وجماعة من الصحابة: أن رسول الله ﷺ جَمَعَ في إحرامه بحج وعمرة. وثبت عنه في الصحيح أنه قال لأصحابه: «من كان معه هَدْيٌ فليهل بحج وعمرة». وقال في الصحيح أيضاً: «دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة».

وقوله: ﴿فَإِنْ أَحْصَيْتُمْ مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾: ذكروا أن هذه الآية نزلت في سنة ست، أي عام الحديبية، حين حال المشركون بين رسول الله ﷺ وبين الوصول إلى البيت، وأنزل الله في ذلك سورة الفتح بكمالها، وأنزل لهم رُخْصَةً: أن يذبحوا ما معهم من الهدى وكان سبعين بدنة، وأن يتحللوا من إحرامهم، فعند ذلك أمرهم عليه السلام بأن يحلقوا رؤوسهم ويتحللوا. فلم يفعلوا انتظاراً للنسخ حتى خرج فحلق رأسه، ففعل الناس وكان منهم من قصّر رأسه ولم يحلقه، فلذلك قال ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ الْمُحَلِّقِينَ». قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ فقال في الثالثة: «والمقصرين». وقد كانوا اشتركوا في هديهم ذلك، كُلُّ سبعة في بدنة، وكانوا ألفاً وأربعمائة، وكان منزلهم بالحديبية خارج الحرم، وقيل: بل كانوا على طَرَفِ الحرم، فالله أعلم.

ولهذا اختلف العلماء هل يختص الحصر بالعدو، فلا يتحلل إلا من حصره عدو، لا مرض ولا غيره؟ على قولين: فروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، أنه قال: لا حَصْرَ إلا حَصْرُ العدو، فأما من أصابه مرض أو وجع أو ضلال فليس عليه شيء، إنما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾، فليس إلا من حَصْرٍ. قال: وروى عن ابن عمر، وطاوس، والزهرى، وزيد بن أسلم، نحو ذلك. والقول الثانى: أن الحصر أعم من أن يكون بعدو أو مرض أو ضلال - وهو التَّوَهُانُ عن

(١) سها المؤلف الحافظ رحمه الله، في ذكر أم هانئ، وفي سبب تأخر المرأة عن الحج. فإن الذى فى صحيح البخارى (٣ / ٤٨٠، ٤٨١ فتح)، من حديث ابن عباس: «لامرأة من الأنصار» نسي ابن جريج اسمها. وكذلك فى السند (٢٠٢٥) وصحيح مسلم (١ / ٣٥٧). وقد سماها حبيب المعلم فى روايته «أم سنان الأنصارية» - كما فى رواية البخارى (٤ / ٦٦، ٦٧)، ومسلم (١ / ٣٥٧، ٣٥٨). وقد ذكر الحافظ ابن حجر فى الفتح، فى الموضع الأول روايات آخر نحو هذه القصة لئساء أخريات، ليس فيهن «أم هانئ».

بل إني لم أجد ذكراً لأم هانئ فى شأن العمرة فى رمضان. فلم يذر لها رواية فى ذلك فى حصر أحاديثها فى ذخائر الموارث. وهو أطراف الكتب الستة والموطأ. ولا فى مجمع الزوائد، فى «باب العمرة فى رمضان» (٣ / ٢٨٠).

والسبب فى تأخر «أم سنان»: أنه كان لهم بغيران، ركب زوجها وابنها أحدهما، وبقي الآخر للسقى عليه، فلم تجد ما تركب.

الطريق (١) أو نحو ذلك . وروى الإمام أحمد: عن عكرمة، عن الحجاج بن عمرو الأنصاري، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كُسِرَ أو عَرِجَ فقد حل، وعليه حجة أخرى». قال: فذكرت ذلك لابن عباس وأبى هريرة فقالا: صدق. وأخرجه أصحاب الكتب الأربعة وابن أبي حاتم (٢). ثم قال ابن أبي حاتم: وروى عن ابن مسعود، وابن الزبير، وعلقمة، وسعيد بن المسيب، ومجاهد، أنهم قالوا: الإحصار من عدو، أو مرض، أو كسر. وقال الثوري: الإحصار من كل شيء آذاه. وثبت في الصحيحين عن عائشة: أن رسول الله ﷺ دَخَلَ على ضُبَاعَةَ بنت الزبير بن عبد المطلب، فقالت: يا رسول الله، إنى أريد الحج وأنا شاكية. فقال: «حُجِّي واشترطي: أَنْ مَحَلِّي حَيْثُ حَبَسْتِي». ورواه مسلم عن ابن عباس بمثله. فذهب من ذهب من العلماء إلى صحة الاشتراط في الحج لهذا الحديث. وقد علق الإمام محمد بن إدريس الشافعي القول بصحة هذا المذهب على صحة هذا الحديث. قال البيهقي وغيره من الحفاظ: فقد صح، والله الحمد.

وقوله: «فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ»: قال على بن أبي طالب: شاة. وكذا قال عطاء، ومجاهد، وقتادة وغيرهم، وهو مذهب الأئمة الأربعة.

وروى ابن أبي حاتم: عن عائشة وابن عمر: أنهما كانا لا يريان «مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ» إلا من الإبل والبقر. قال: وروى عن سالم، والقاسم، وعروة بن الزبير، وسعيد بن جبيرة - نحو ذلك.

قلت: والظاهر أن مستند هؤلاء فيما ذهبوا إليه قضية الحديبية، فإنه لم يُنْقَلْ عن أحد منهم أنه ذبح في تحله ذاك شاة، وإنما ذبحوا الإبل والبقر، ففي الصحيحين عن جابر قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الإبل والبقر كل سبعة منا في بدنة (٣).

وقال ابن عباس: إن كان موسراً فمن الإبل، وإلا فمن البقر، وإلا فمن الغنم. والدليل على صحة قول الجمهور فيما ذهبوا إليه من أجزاء ذبح الشاة في الإحصار: أن الله أوجب ذبح ما استيسر من الهدى، أى: مهما تيسر مما يسمى هدياً، والهدى من بهيمة الأنعام، وهى الإبل والبقر والغنم، كما قاله الحَبَرُ البحر ترجمان القرآن وابن عم رسول الله ﷺ. وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين، قالت: أهدى النبي ﷺ مرة غنماً.

(١) «التوهان»: بفتح التاء والواو. والفعل: «تاه يتوه ويتيه، توها» بفتح التاء وسكون الواو. وأما الوزن الذى هنا فإنما ذكروه فى البائى : «يها». ولكن ذكر ابن سيدة أن الفعل وإن كان يائى إلا أن ياءها واو «بدليل قولهم: ما أتوه».

(٢) المسند (١٥٧٩٦) (٣/ ٤٥٠ حلى)، وروى الطبري أيضاً (٣٣٢١، ٢٣٢٢) والحاكم (١ / ٤٧٠) وصححه هو والذهبي.

(٣) هذا الحديث ليس فى الأزهرية، وهو فى المتنقى (٢٦٨٧)، وقال: «متفق عليه». ووقع فى المطبوعة: «فى بقرة» بدل «فى بدنة» وهو خطأ.

وقوله: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَاتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وليس معطوفاً على قوله: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ كما زعمه ابن جرير، رحمه الله؛ لأن النبي ﷺ وأصحابه عام الحديبية لما حصرهم كفار قريش عن الدخول إلى الحرم، حلقوا وذبحوا هديهم خارج الحرم، فأما في حال الأمن والوصول إلى الحرم فلا يجوز الحلق ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ ويفرغ الناسك من أفعال الحج والعمرة، إن كان قارناً، أو من فعل أحدهما إن كان مُفَرِّداً أو متمتعاً، كما ثبت في الصحيحين عن حفصة أنها قالت: يا رسول الله، ما شأن الناس حلقوا من العمرة، ولم تحل أنت من عمرتك؟ فقال: «إِنِّي لَبَدْتُ رَأْسِي وَقَلَّدْتُ هَذَيْنِ، فَلَا أَحِلُّ حَتَّى أَنْحَرُ».

وقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ﴾: قال البخاري: عن عبد الله بن معقل، قال: فعدت إلى كعب بن عُجرة في هذا المسجد - يعني مسجد الكوفة - فسألته عن «فِدْيَةِ مَنْ صِيَامٍ»؟ فقال: حُمِلْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالْقَمْلُ يُتَنَاقَرُ عَلَى وَجْهِهِ. فقال: «مَا كُنْتُ أَرَى أَنْ الْجَهْدَ بَلَغَ بِكَ هَذَا، أَمَا تَجِدُ شَاءً؟» قلت: لا. قال: «صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ، لِكُلِّ مَسْكِينٍ نِصْفَ صَاعٍ مِنْ طَعَامٍ، وَاحْلِقْ رَأْسَكَ». فنزلت في خاصة، وهي لكم عامة (١). وعن ابن عباس في قوله: «فِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ»، قال: إذا كان «أَوْ» فَايَةً أَخَذْتَ أَجْزَأَ عَنْكَ. قال ابن أبي حاتم: وروى عن مجاهد، وعكرمة، وعطاء، وغيرهم نحو ذلك.

قلت: وهو مذهب الأئمة الأربعة وعامة العلماء أنه يُخَيَّرُ فِي هَذَا الْمَقَامِ، إِنْ شَاءَ صَامَ، وَإِنْ شَاءَ تَصَدَّقَ بِفَرْقٍ، وَهُوَ ثَلَاثَةُ أَصْحَ، لِكُلِّ مَسْكِينٍ نِصْفُ صَاعٍ، وَهُوَ مُدَّانٍ، وَإِنْ شَاءَ ذَبَحَ شَاةً وَتَصَدَّقَ بِهَا عَلَى الْفُقَرَاءِ، أَيْ ذَلِكَ فَعَلَ أَجْزَاهُ. ولما كان لفظ القرآن في بيان الرخصة [جاء] (٢) بِالْأَسْهَلِ فَالْأَسْهَلُ: «فِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ». وَلَمَّا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ كَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ بِذَلِكَ، أَرْشَدَهُ إِلَى الْأَفْضَلِ، فَالْأَفْضَلُ فَقَالَ: انْسُكْ شَاةً، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ، أَوْ صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ. فَكُلَّ حَسَنٍ فِي مَقَامِهِ. وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمُنَّةُ. وَقَالَ طَاوُسٌ: مَا كَانَ مِنْ دَمٍ أَوْ طَعَامٍ فِيْمَكَةِ، وَمَا كَانَ مِنْ صِيَامٍ فَحَيْثُ شَاءَ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ، وَالْحَسَنُ. وَقَالَ هُشَيْمٌ: أَخْبَرَنَا حُجَّاجٌ وَعَبْدُ الْمَلِكِ وَغَيْرُهُمَا عَنْ عَطَاءٍ: أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: مَا كَانَ مِنْ دَمٍ فِيْمَكَةِ، وَمَا كَانَ مِنْ طَعَامٍ وَصِيَامٍ فَحَيْثُ شَاءَ.

وقوله: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أَى: فَإِذَا تَمَكَّنْتُمْ مِنْ أَدَاءِ الْمَنَاسِكَ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُتَمَتِّعاً بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ، وَهُوَ يَشْمَلُ مِنْ أَحْرَمَ بِهِمَا، أَوْ أَحْرَمَ بِالْعُمْرَةِ أَوَّلًا، فَلَمَّا فَرِغَ مِنْهَا أَحْرَمَ بِالْحَجِّ وَهَذَا هُوَ التَّمَتُّعُ الْخَاصُّ، وَهُوَ الْمَعْرُوفُ فِي كَلَامِ

(١) حديث كعب بن عجرة - في هذا - صحيح ثابت في الدراوين ، من أوجه كثيرة . وقد رواه الطبري بشمانية وعشرين إسناداً (٣٣٣٣ - ٣٣٥٩ ، ٣٣٦٤ ، ٣٣٦٥) وقد فصلنا القول فيها هناك .

(٢) كلمة [جاء] زيادة من المخطوطة الأزهرية ، ولا يتم الكلام بدونها .

الفقهاء . والتمتع العام يشمل القسمين ، كما دلت عليه الأحاديثُ الصحاح ، فإنَّ من الرواة من يقول : تمتع رسول الله ﷺ . وآخر يقول : قرَن . ولا خلاف أنَّه ساق الهدى .

وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ أى : فليذبح ما قدر عليه من الهدى ، وأقله شاة ، وله أن يذبح البقر ؛ لأنَّ رسول الله ﷺ ذبح عن نسائه البقر (١) . وعن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ ذبح بقرة عن نسائه ، وكن متمتعات . رواه أبو بكر بن مَرْدَوِيهِ (٢) . وفى هذا دليل على مشروعية التمتع ، كما جاء فى الصحيحين عن عمران بن حصين قال : نزلت آية التمتع فى كتاب الله ، وفعلناها مع رسول الله ﷺ . ثم لم ينزل قرآن يُحرِّمُه ، ولم يَنْهَ عنها ، حتى مات . قال رجل برأيه ما شاء . قال البخارى : يقال : إنه عُمِرَ . وهذا الذى قاله البخارى قد جاء مصرحاً به أن عمر كان ينهى الناس عن التمتع ، ويقول : إن نأخذ بكتاب الله فإنَّ الله يأمر بالتمام . يعنى قوله : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ . وفى نفس الأمر لم يكن عمر ، ينهى عنها محرماً لها ، إنما كان ينهى عنها ليكثر قصد الناس للبيت حاجين ومعتمرين ، كما قد صرح به .

وقوله : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ : يقول تعالى : فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام فى الحج ، أى : فى أيام المناسك . قال العلماء : والأولى أن يصومها قبل يوم عرفة فى العشر ، قاله عطاء . أو من حين يحرم ، قاله ابن عباس وغيره ، لقوله : ﴿ فِي الْحَجِّ ﴾ ، ومنهم من يجوز صيامها من أول شوال ، قاله طاوس ومجاهد وغير واحد . وجوز الشعبي : صيام يوم عرفة وقبله يومين ، وكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جبَّير ، وغيرهم . وقال ابن عباس : إذا لم يجد هدياً فعليه صيام ثلاثة أيام فى الحج قبل يوم عرفة ، فإذا كان يوم عرفة الثالث فقد تم صومه وسبعة إذا رجع إلى أهله . فلو لم يصمها أو بعضها قبل العيد فهل يجوز أن يصومها فى أيام التشريق ؟ فيه قولان للعلماء ، وهما للإمام الشافعى أيضاً ، القديم منهما أنه يجوز له صيامها لقول عائشة وابن عمر فى صحيح البخارى : لم يَرَخَّصْ فى أيام التشريق أن يصمَّن إلا لمن لا يجد الهدى . وهو قول على وعكرمة ، والحسن البصرى ، وعروة بن الزبير ؛ وهو قول على والجديد من القولين : أنه لا يجوز صيامها أيام التشريق ، لما رواه مسلم عن نبیِّة الهدلى ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله » (٣) .

وقوله : ﴿ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ : فيه قولان : أحدهما : إذا رجعتُم إلى رحالكُم . ولهذا قال

(١) فى حديث متفق عليه . انظر : المتقى (٢٧٠٢) والفتح (٣ / ٤٣٩ ، ٤٤٠) .

(٢) هو ثابت صحيح عند أبى داود (١٧٥١) وابن ماجه (٣١٣٣) عن أبى هريرة : « ذبح رسول الله ﷺ عن اعتمر من نسائه فى حجة الوداع - بقرة بينهن » . وذكره الحافظ ابن حجر فى الفتح (٣ / ٤٤٠) ونسبه للنسائى ، وصححه الحاكم ، ولم أجده فى النسائى .

(٣) مسلم (١ / ٣١٤) . ورواه أيضاً أحمد فى المسند (٥ / ٧٥ حلى) . و « نبیِّة » بضم النون وفتح الباء الموحدة والشين المعجمة بينهما ياء تحتية ساكنة . وفى المطبوعة : « قتيبة ! » وهو تصحيف سخيف .

وهذا الحديث عام ، والرخصة فى صومها بحدیث عائشة وابن عمر - فى الرخصة لمن لم يجد الهدى - خاص . والخاص يحكم العام ويخصه .

مجاهد: هي رخصة إذا شاء صامها في الطريق. وكذا قال عطاء. والقول الثاني: إذا رجعتكم إلى أوطانكم؛ فروى عبد الرزاق عن ابن عمر قال: إذا رَجَعَ إلى أهله. وكذا روى عن سعيد ابن جبير، ومجاهد، وعطاء، وغيرهم. وحكى على ذلك أبو جعفر بن جرير الإجماع. وقد روى البخاري عن ابن عمر قال: تمتع رسول الله ﷺ في حَجَّةِ الوداع بالعمرة إلى الحج وأهدى فساق معه الهدى من ذى الحليفة، فأهل بالعمرة، ثم أهل بالحج وبدأ رسول الله ﷺ فأهل بالعمرة ثم أهل بالحج، فتمتع الناس مع النبي ﷺ بالعمرة إلى الحج. فكان من الناس من أهدى فساق الهدى، ومنهم من لم يهد. فلما قدم النبي ﷺ مكة قال للناس: «من كان منكم أهدى فإنه لا يحل لشيء حرم منه حتى يقضى حجه، ومن لم يكن منكم أهدى فليطف بالبيت وبالصفا والمروة، وليقصّر وليحلل، ثم ليهل بالحج، فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله». وذكر تمام الحديث. وهو مخرج في الصحيحين.

وقوله: ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ قيل: تأكيد، كما تقول العرب: رأيت بعيني، وسمعت بأذني، وكتبت بيدي. وقال الله تعالى: ﴿وَلَا طَائِرُ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨] وقال: ﴿وَلَا تَخْطُهُ بَيْمِينُكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وقال: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَا بِهِمْ مَقَاتَ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢]. وقيل: أى: مُجَزَّة عن الهدى.

وقوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: قال ابن جرير: اختلف أهل التأويل فيمن عني بقوله: ﴿لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بعد إجماع جميعهم على أن أهل الحرم معنيون به، وأنه لا متعة لهم، فقال بعضهم: عني بذلك أهل الحرم خاصة دون غيرهم. قال ابن عباس: هم أهل الحرم. وقال آخرون: هم أهل الحرم ومن بينه وبين المواقيت. واختار ابن جرير في ذلك مذهب الشافعي أنهم أهل الحرم، ومن كان منه على مسافة لا تقصر فيها الصلاة؛ لأن من كان كذلك يعدّ حاضراً لا مسافراً، والله أعلم. وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: فيما أمركم وما نهاكم ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أى: لمن خالف أمره، وارتكب ما عنه زجره.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾

اختلف أهل العربية في قوله: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ فقال بعضهم: الحج حج أشهر معلومات، فعلى هذا التقدير يكون الإحرام بالحج فيها أكمل من الإحرام به فيما عداها، وإن كان ذاك صحيحاً والقول بصحة الإحرام بالحج في جميع السنة مذهب مالك، وأبي حنيفة، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وبه يقول إبراهيم النخعي، والثوري، والليث بن سعد. واحتج لهم بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ النَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] وبأنه أحد النسكين. فصح الإحرام به في جميع السنة كالعمرة. وذهب الشافعي إلى أنه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره، فلو أحرم به قبلها لم يتعد إحرامه به، وهل يتعد عمرة؟ فيه

قولان عنه . والقول بأنه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره مَرَوَى عن ابن عباس، وجابر، وبه يقول عطاء، وطاوس، ومجاهد . والدليل عليه قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾، وظاهره التقدير الآخر الذى ذهب إليه النحاة، وهو: أن وقت الحج أشهر مَعْلُومَات، فخصصه بها من بين سائر شهور السنة، فدلّ على أنه لا يصح قبلها، كميقات الصلاة. وروى الشافعى، عن ابن عباس، أنه قال: لا ينبغي لأحد أن يُحْرِمَ بالحج إلا في شهور الحج، من أجل قول الله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾. وكذا رواه ابن أبى حاتم، وابن مردويه. وروى ابن خزيمة فى صحيحه عن ابن عباس، قال: لا يحرم بالحج إلا فى أشهر الحج، فإن من سنة الحج أن يحرم بالحج فى أشهر الحج. وإسناده صحيح، وقول الصحابى: «من السنة كذا» فى حكم المرفوع عند الأكثرين، ولا سيما قول ابن عباس تفسيراً للقرآن، وهو ترجمانه.

وقد ورد فيه حديث مرفوع، رواه ابن مردويه: عن جابر، عن النبى ﷺ أنه قال: «لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلا فى أشهر الحج». وإسناده لا بأس به. لكن رواه الشافعى، والبيهقى . بمعناه عن جابر موقوفًا ، وهو أصح وأثبت من المرفوع، ويبقى حيثنذ مذهب صحابى، يتقوى بقول ابن عباس: «من السنة أن لا يحرم بالحج إلا فى أشهره». والله أعلم.

وقوله: ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾: قال البخارى: قال ابن عمر: هى شوال، وذو القعدة، وعشر من ذى الحجة. وهذا الذى علقه البخارى بصيغة الجزم رواه ابن جرير موصولاً: بإسناد صحيح، رواه الحاكم أيضاً وقال: على شرط الشيخين . قلت: وهو مَرَوَى عن عُمَرُ، وعلى، وابن مسعود، وابن الزبير، وابن عباس، وعطاء، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم . وهو مذهب الشافعى، وأبى حنيفة، وأحمد بن حنبل، واختاره ابن جرير، قال: وصح إطلاق الجمع على شهرين وبعض الثالث للتغليب، كما تقول العرب: «رأيت العام، ورأيت اليوم». وإنما وقع ذلك فى بعض العام واليوم ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣] وإنما تعجل فى يوم ونصف. وقال الإمام مالك بن أنس والشافعى فى القديم: هى: شوال وذو القعدة وذو الحجة بكماله. وهو رواية عن ابن عمر أيضاً؛ فروى ابن جرير عن ابن عمر قال: شوال وذو القعدة وذو الحجة. وروى ابن أبى حاتم عن ابن جريج، قال: قلت لنافع: أسمعت عبد الله بن عمر يسمى شهور الحج؟ قال: نعم، كان عبد الله يسمى: «شوال وذو القعدة وذو الحجة». قال ابن جريج: وقال ذلك ابن شهاب، وعطاء، وجابر بن عبد الله صاحب النبى ﷺ، وإسناده صحيح إلى ابن جريج. وقد حكى هذا أيضاً عن طاوس، ومجاهد، وقتادة. وغيرهم. وفائدة مذهب مالك أنه إلى آخر ذى الحجة، بمعنى أنه مختص بالحج، فيكره الاعتمار فى بقية ذى الحجة، لا أنه يصح الحج بعد ليلة النحر. وروى ابن أبى حاتم عن عبد الله: الحج أشهر معلومات، ليس فيها عمرة. وإسناده صحيح. قال ابن جرير: إنما أراد من ذهب إلى أن أشهر الحج شوال وذو القعدة وذو الحجة - أن هذه الأشهر ليست أشهر العمرة، إنما هى للحج، وإن كان عمل الحج قد انقضى بانقضاء أيام منى، كما قال محمد بن سيرين: ما أحد من أهل العلم

يَشْكُ فِي أَنْ عَمْرَةَ فِي غَيْرِ أَشْهُرِ الْحَجِّ أَفْضَلُ مِنْ عَمْرَةَ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ . قلت: وقد ثبت عن عمر وعثمان، رضى الله عنهما، أنهما كانا يحببان الاعتمار في غير أشهر الحج، وينهيان عن ذلك في أشهر الحج، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَمَنْ قَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ أى: أوجب بإحرامه حجاً . فيه دلالة على لزوم الإحرام بالحج والمضى فيه . قال ابن جرير: أجمعوا على أن المراد من القَرْض هاهنا الإيجاب والإلزام وقال ابن عباس: ﴿فَمَنْ قَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ : من أحرم بحج أو عمرة . وقال عطاء: القرض الإحرام . قال ابن أبى حاتم: وروى عن ابن مسعود، وابن عباس، وابن الزبير، ومجاهد، وقتادة - نحو ذلك . وقال طاوس، والقاسم بن محمد: هو التلبية .

وقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ أى: من أحرم بالحج أو العمرة، فليجتنب الرفث، وهو الجماع، كما قال تعالى: ﴿أَحِلُّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وكذلك يحرم تعاطى دواعيه من المباشرة والتقبيل ونحو ذلك، وكذا التكلم به بحضرة النساء . روى ابن جرير: عن عبد الله ابن عمر قال: الرفثُ إثباتُ النساء، والتكلم بذلك للرجال والنساء إذا ذكروا ذلك بأفواههم . وروى ابن جرير عن أبى العالية، عن ابن عباس: أنه كان يحدو - وهو محرم - وهو يقول:

وَهَنْ يَمْشِينَ بَنَاتُ هَمِيسَا إِنَّ تَصَدَّقَ الطَّيْرُ نَنْكَ لَمِيسَا

قال أبو العالية فقلت: تَكَلَّمُ بِالرَفَثِ وَأَنْتَ مُحْرِمٌ؟! قال: إنما الرفث ما قيل عند النساء .

وروى ابن جرير أيضاً عن حصين بن قيس، قال: أصعدتُ مع ابن عباس فى الحاج، وكنت خليلاً له، فلما كان بعد إحرامنا قال ابن عباس، فأخذ بذنب بعيره فجعل يلويه ويرتجز، ويقول:

وَهَنْ يَمْشِينَ بَنَاتُ هَمِيسَا إِنَّ تَصَدَّقَ الطَّيْرُ نَنْكَ لَمِيسَا

قال: فقلت: أترفت وأنت محرم؟! فقال: إنما الرفث ما قيل عند النساء . وقال عطاء: الرفثُ: الجماع، وما دونه من قول الفحش، وكذا قال عمرو بن دينار . وقال عطاء: كانوا يكرهون العَرَابَةَ، وهو التعريض بذكر الجماع وهو مُحْرِمٌ (١) . وقال طاوس: هو أن تقول للمرأة: إذا حَلَلْتُ، أصبتك . وعن ابن عباس: الرفث: غشيان النساء والقُبْل والغَمْز، وأن يُعَرَّضَ لَهَا بالفحش من الكلام، ونحو ذلك .

وقوله: ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ قال ابن عباس: هى المعاصى . وكذا قال عطاء، ومجاهد، وسعيد بن جبَّير وغيرهم . وقال ابن عمر: الفسوق ما أصيبَ من معاصى الله به صَيِّداً أو غيره . وقال آخرون: الفسوق هاهنا السباب، روى عن ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، ومجاهد، وغيرهم . وقد يتمسك هؤلاء بما ثبت فى الصحيح: « سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر » . ولهذا

(١) « العرابة » - بكسر العين وفتحها مع تخفيف الراء، و « الإعراب » و « التعريب » و « الإعرابة » - ما قبح من الكلام، أو التصريح بالهجر من الكلام والفاحش منه .

رواه هاهنا الخبر أبو محمد بن أبي حاتم، عن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: « سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر » (١).

والذين قالوا: الفسوق هاهنا هو جميع المعاصي، الصواب معهم، كما نهى تعالى عن الظلم في الأشهر الحرم، وإن كان في جميع السنة منهياً عنه، إلا أنه في الأشهر الحرم أكد؛ ولهذا قال: ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [التوبة: ٣٦]، وقال في الحرم: ﴿ وَمَنْ يَزِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج: ٢٥]. واختار ابن جرير أن الفسوق هاهنا: هو ارتكاب ما نهى عنه في الإحرام، من قتل الصيد، ونحو ذلك، وما ذكرناه أولى، والله أعلم. وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ».

وقوله: ﴿ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ فيه قولان:

أحدهما: ولا مجادلة في وقت الحج وفي مناسكه، وقد بينه الله أتم بيان ووضحه أكمل إيضاح. كما قال مجاهد: قد بين الله أشهر الحج، فليس فيه جدال بين الناس. وعن ابن عباس: ﴿ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ قال: المرء في الحج. وقال مالك: الجدال في الحج - والله أعلم - أن قریشاً كانت تقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة، وكانت العرب، وغيرهم يقفون بعرفة، وكانوا يتجادلون، يقول هؤلاء: نحن أصوب. ويقول هؤلاء: نحن أصوب. فهذا فيما نرى، والله أعلم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كانوا يقفون مَوَاقِفَ مختلفة يتجادلون، كلهم يدعى أن موقفه موقف إبراهيم، فقطعه الله حين أعلم نبيه بالمناسك. وقال القاسم بن محمد أنه قال: الجِدَالُ في الحج أن يقول بعضهم: الحج غداً. ويقول بعضهم: اليوم. وقد اختار ابن جرير مضمون هذه الأقوال، وهو قطع النزاع في مناسك الحج، والله أعلم.

والقول الثاني: أن المراد بالجدال هاهنا: المخاصمة. روى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود قال: أن تمارى صاحبك حتى تغضبه. وكذلك قال ابن عباس. وكذا قال أبو العالية، وعطاء ومجاهد، وسعيد بن جبیر، وقتادة وغيرهم. وقال ابن عمر: الجدال في الحج: السباب والمنازعة. وقال ابن أبي حاتم وعن عكرمة: والجدال الغضب، أن تغضب عليك مسلماً، إلا أن تستعتب مملوكاً فتغضبه من غير أن تضربه، فلا بأس عليك، إن شاء الله.

قلت: ولو ضربه لكان جائزاً سائغاً. والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد: عن أسماء بنت أبي بكر قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ حُجَّاجاً، حتى إذا كنا بالعَرَجِ نَزَلَ رسول الله ﷺ، فجلست عائشة إلى جنب رسول الله، وجلست إلى جنب أبي. وكانت زمالة أبي بكر

(١) عبد الله: هو ابن مسعود. والحديث رواه أحمد في المسند (٣٦٤٧، ٣٩٠٣، ٣٩٥٧، ٤١٢٦) من حديثه. ورواه أيضاً الجماعة إلا أبا داود.

وزمالة رسول الله ﷺ واحدة مع غلام أبى بكر، فجلس أبو بكر ينتظره إلى أن يطلع عليه، فأطلع وليس معه بعيره، فقال: أين بعيرك؟ فقال: أضلته البارحة. فقال أبو بكر: بعير واحد تُضله؟! فطفق يضربه، ورسول الله ﷺ يتبسم ويقول: «انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع؟!». وهكذا أخرجه أبو داود، وابن ماجه (١)، ولكن يستفاد من قول النبي ﷺ عن أبى بكر: «انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع» - كهيئة الإنكار اللطيف - أن الأولى ترك ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ : لما نهاهم عن إتيان القبيح قولاً وفعلًا، حثهم على فعل الجميل، وأخبرهم أنه عالم به، وسجزيهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ : روى البخارى وأبو داود عن ابن عباس، قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون! فأنزل الله: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾. ورواه عبد بن حميد وابن حبان فى صحيحه (٢). وروى ابن جرير وابن مردويه عن ابن عمر، قال: كانوا إذا أحرموا - ومعهم أزوادهم - رموا بها، واستأنفوا زاداً آخر؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ فنهوا عن ذلك، وأمرُوا أن يتزودوا الدقيق والسويق والكعك. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والشعبى، والنخعى، وسالم بن عبد الله، وقتادة وغيرهم .

وقوله: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ : لما أمرهم بالزاد للسفر فى الدنيا أرشدهم إلى زاد الآخرة، وهو استصحاب التقوى إليها، كما قال: ﴿وَرِيثًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الاعراف: ٢٦]. لما ذكر اللباس الحسى تبه مرشداً إلى اللباس المعنوى، وهو الخشوع، والطاعة، والتقوى، وذكر أنه خير من هذا، وأنفع . وروى الحافظ الطبرانى: عن جرير بن عبد الله، عن النبي ﷺ قال : « من يتزود فى الدنيا ينفعه فى الآخرة » (٣) .

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يقول: واتقوا عقابى، ونكالى، وعذابى لمن خالفنى ولم ياتم بأمرى، ياذى العقول والافهام.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَقَةٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّاكِينَ﴾



(١) المسند (٦ / ٣٤٤ حلى) وهو فى أبى داود (٨١٨) عن أحمد بن حنبل . وهو فى ابن ماجه (٢٩٣٣) .
« الزمالة » - بكسر الزاى وتخفيف الميم : الركوب والأداة وما يكون مع المسافر فى سفره . وقوله : « فاطلع » -
هكذا ثبت بالهمزة فى أوله فى المخطوطة الأهرية والطبوعة . وفى المسند وأبى داود وابن ماجه : « فطلع » . وما
هنا صحيح جائز . ففى اللسان : « طلع الرجل على القوم ... وأطلع : هجم » .

(٢) البخارى (٣ / ٣٠٣ ، ٣٠٤) وأبو داود (١٧٣٠) ، ورواه أيضا النسائى ، وابن المنذر ، والبيهقى - كما فى الدر المنثور (١ / ٢٢٠) .

(٣) إسناده - الذى نقله الحافظ ابن كثير عن الطبرانى - إسناده صحيح ، رجاله ثقات .

روى البخارى: عن ابن عباس، قال: كانت عكاظ ومَجَنَّة، وذو المجاز أسواق الجاهلية، فتأثموا أن يتجروا فى المواسم، فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فى مواسم الحج (١).

وهكذا رواه عبد الرزاق، وسعيد بن منصور. وروى أبو داود، وغيره عن ابن عباس، قال: كانوا يَتَّقُونَ البيوع والتجارة فى الموسم، والحج، يقولون: أيام ذكر، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾. وروى ابن جرير: عن ابن عمر أنه سئل عن الرجل يحج ومعه تجارة؟ فقرأ ابن عمر: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

وهذا موقف، وهو قوى جيد (٢). وقد روى مرفوعاً، فروى أحمد: عن أبى أمامة التيمى، قال: قلت لابن عمر: إنا نُكْرَى، فهل لنا من حج، قال: أليس تطوفون بالبيت، وتأتون المَعْرَفَ، وترمون الجمار، وتحلقون رؤوسكم؟ قال: قلنا: بلى. فقال ابن عمر: جاء رجل إلى النبى ﷺ فسأله عن الذى سألتنى فلم يجبه، حتى نزل عليه جبريل بهذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾، فدعاه النبى ﷺ، فقال: «أنتم حجاج» [وكذلك رواه ابن أبى حاتم والطبرى، مرفوعاً] (٣). وروى ابن جرير: عن أبى صالح مولى عمر، قال: قلت: يا أمير المؤمنين، كنتم تتجرون فى الحج؟ قال: وهل كانت معاشهم إلا فى الحج؟! (٤).

وقوله تعالى: ﴿إِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ إنما صَرَفَ «عرفات» وإن كان علماً على مؤنث؛ لأنه فى الأصل جَمْعُ كمسلمات ومؤمنات، سُمى به بقعة معينة، فروعى فيه الأصل، فصرف. اختاره ابن جرير. وعرفة: موضع الموقف فى الحج، وهى عمدة أفعال الحج؛ ولهذا روى الإمام أحمد، وأهل السنن، بإسناد صحيح عن عبد الرحمن بن يعمر الديلى، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحج عرفات - ثلاثاً - فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر، فقد أدرك. وأيام منى ثلاثة، فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه» (٥).

ووقت الوقوف من الزوال يومَ عرفة إلى طُلُوع الفجر الثانى من يوم النحر؛ لأنَّ النبى ﷺ وقف فى حجة الوداع، بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس، وقال: «لتأخذوا عنى مناسككم». وقال فى هذا الحديث: «فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك» وهذا مذهب مالك، وأبى حنيفة، والشافعى رحمهم الله. وذهب الإمام أحمد إلى أن وقت الوقوف

(١) البخارى (٨ / ١٣٩). وفصلنا تخريجه فى الطبرى (٣٧٩١).

(٢) الطبرى (٣٧٧٠).

(٣) المسند (٦٤٣٤، ٦٤٣٥) والطبرى (٣٧٦٥). وقد ساقه ابن كثير من روايتى ابن أبى حاتم والطبرى. وهما بمعنى رواية المسند.

(٤) الطبرى (٣٧٨٨). وإسناده حسن.

(٥) المسند (٤ / ٣٠٩، ٣١٠، ٣٣٥ حلى) وأبو داود (١٩٤٩) والحاكم وصححه (٢ / ٢٧٨). و«عبد الرحمن بن يعمر» بفتح الياء التحتية والميم بينهما عين مهملة ساكنة. و«الديلى»: بكسر الدال.

من أول يوم عرفة . واحتجوا ، عن عروة بن مضر بن حارثة بن لام الطائي قال : أتيت رسول الله ﷺ بالمزدلفة ، حين خرج إلى الصلاة ، فقلت : يا رسول الله ، إني جئت من جبل طي ، أكملت راحلتى ، وأتعبت نفسى ، والله ما تركت من جبل (١) إلا وقفت عليه ، فهل لى من حج ؟ فقال رسول الله ﷺ : « من شهد صلاتنا هذه ، فوقف معنا حتى ندفع ، وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً ، فقد تم حجه ، وقضى تفعه » . رواه الإمام أحمد ، وأهل السنن ، وصححه الترمذى (٢) . وتسمى عرفات : المشعر الحلال ، والمشعر الأقصى ، وإلال - على وزن هلال - ويقال للجبل فى وسطها : جبل الرحمة .

وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال : كان أهل الجاهلية يقفون بعرفة حتى إذا كانت الشمس على رؤوس الجبال ، كأنها العمائم على رؤوس الرجال ، دفعوا ، فآخر رسول الله ﷺ الدفعة من عرفة حتى غربت الشمس . ورواه ابن مردويه ، وزاد : ثم وقف بالمزدلفة ، وصلى الفجر بغلّس ، حتى إذا أسفر كل شىء ، وكان فى الوقت الآخر ، دفع . وهذا حسن الإسناد . وعن المسور بن مخرمة قال : خطبنا رسول الله ﷺ ، وهو بعرفات ، فحمد الله وأثنى عليه . ثم قال : « أما بعد - وكان إذا خطب خطبة قال : أما بعد - فإن هذا اليوم الحج الأكبر ، ألا وإن أهل الشرك والأوثان كانوا يدفعون فى هذا اليوم قبل أن تطلع الشمس ، إذا كانت الشمس فى رؤوس الجبال ، كأنها عمائم الرجال فى وجوهها ، وإنا ندفع بعد أن تطلع الشمس ، مخالفاً هديتنا هدى أهل الشرك » . هكذا رواه ابن مردويه وهذا لفظه ، والحاكم . وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه . وقد صح وثبت بما ذكرناه سماع المسور من رسول الله ﷺ ، لا كما يتوهمه رعا أصحابنا أنه ممن له رؤية بلا سماع (٣) . وفى حديث جابر بن عبد الله الطويل ، الذى فى صحيح مسلم ، قال فيه : فلم يزل واقفاً - يعنى بعرفة - حتى غربت الشمس ، وبدت الصفرة قليلاً ، حتى غاب القرص ، وأردف أسامة خلفه ، ودفع رسول الله ﷺ وقد شق للقصواء الزمام ، حتى إن رأسها ليصيب مؤرك رحله ، ويقول بيده اليمنى : « أيها الناس ، السكينة السكينة » . كلما أتى حبلاً من الجبال أرخت لها قليلاً حتى تصعد ، حتى أتى المزدلفة فصلّى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ، ولم يسبح بينهما شيئاً ، ثم اضطجع حتى طلع الفجر فصلّى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة ، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة ، فدعا الله وكبره وهللّه ووحدّه ، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً ، فدفع قبل أن

(١) « الجبل » بفتح الحاء المهملة بعدها باء ساكنة : هو الرمل المجتمع الكثير العالى ، وجمعه جبال . انظر : اللسان ، مادة « جبل » (البار) .

(٢) السند (١٦٢٧٧ ، ١٦٢٧٨) (٣ / ١٥ حلى) وأبو داود (١٩٥٠) ، ورواه أيضاً البخارى فى التاريخ الكبير (٣١ / ١ / ٤) فى ترجمة عروة بن مضر . و « مضر » : بضم الميم وفتح الضاد المعجمة وتشديد الراء المكسورة .

(٣) المستدرک (٣ / ٥٢٣ ، ٥٢٤) ووافقه الذهبى على شرط الشيخين . وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٣ / ٢٥٥) بنحوه ، وقال : « رواه الطبرانى فى الكبير ، رجاله رجال الصحيح » .

تَطْلُعُ الشَّمْسُ . وفى الصحيحين، عن أسامة بن زيد، أنه سُئِلَ كيف كان يسير رسول الله ﷺ حين دَفَعَ؟ قال: «كان يسير العَنَقَ، فإذا وجد فَجْوَةً نَصَّ». والعنق: هو انبساط السير، والنَّصُّ فوقه. وقال عمرو بن ميمون: سألت عبد الله بن عمرو عن المشعر الحرام، فسكت حتى إذا هبطت أيدي رواحلنا بالمزدلفة قال: أين السائل عن المشعر الحرام؟ هذا المشعر الحرام (١). وروى عبد الرزاق: قال ابن عمر: المشعر الحرام المزدلفة كلها (٢).

قلت: والمشاعر هي المعالم الظاهرة، وإنما سميت المزدلفة المشعر الحرام؛ لأنها داخل الحرم، وهل الوقوف بها ركن في الحج لا يصح إلا به، كما ذهب إليه طائفة من السلف، وبعض أصحاب الشافعي، منهم: القفال، وابن خزيمة، لحديث عروة بن مضرس؟ أو واجب، كما هو أحد قولى الشافعي يجبر بدم؟ أو مستحب لا يجب بتركه شيء كما هو القول الآخر؟ في ذلك ثلاثة أقوال للعلماء، لبسطها موضع آخر غير هذا، والله أعلم.

وقوله: «وَأَذْكُرُهُ كَمَا هَدَاكُمْ»: تنبيه لهم على ما أنعم به عليهم، من الهداية والبيان والإرشاد إلى مشاعر الحج، على ما كان عليه إبراهيم الخليل، عليه السلام؛ ولهذا قال: «وَأَن كُنْتُمْ مِن قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ» قيل: من قبل هذا الهدى، وقيل: القرآن، وقيل: الرسول. والكل متقارب، ومتلازم، وصحيح.

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

«ثم» - هاهنا - لعطف خبر على خبر وترتيبه عليه، كأنه تعالى أمر الواقف بعرفات أن يَدْفَعَ إلى المزدلفة، ليذكر الله عند المشعر الحرام، وأمره أن يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات، كما كان جمهور الناس يصنعون، يقفون بها إلا قريشاً، فإنهم لم يكونوا يخرجون من الحرم، فيقفون في طرف الحرم عند أدنى الحل، ويقولون: نحن أهل الله في بلدته، وقُطَّان بيته. روى البخارى عن عائشة قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يُسمِّون الحُمْس، وكان سائر العرب يقفون بعرفات. فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يَأْتِيَ عرفات، ثم يقف بها ثم يَفِيضُ منها، فذلك قوله: «مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ» (٣). وكذا قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم. واختاره ابن جرير، وحكى عليه الإجماع. وروى الإمام أحمد، عن جبير بن مطعم، قال: أضللتُ بغيراً لى بعرفة، فذهبت أطلبه، فإذا النبی ﷺ واقف، قلت: إن هذا من الحُمْس، ما شأنه هاهنا؟ أخرجاه في الصحيحين. ثم روى البخارى

(١) رواه الطبري مطولا (٣٨٠٦، ٣٨٠٧) ونسبه السيوطي في الدر المنثور (١ / ٢٢٤) له، ولوكيع، وسفيان، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والأزرقي في تاريخ مكة، والبيهقي في السنن. وإسناده عند الطبري صحيحان.

(٢) إسناده صحيح جدا، ورواه الطبري (٣٨٠٤) وزاد السيوطي (١ / ٢٢٤) أنه رواه عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه.

(٣) البخارى (٨ / ١٣٩ فتح) ورواه أيضا مسلم (١ / ٣٤٨) والطبري (٣٨٣١).

عن ابن عباس ما يقتضى أن المراد بالإفاضة هاهنا هى الإفاضة من المزدلفة إلى منى لرمى الجمار. فإله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: كثيراً ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات؛ ولهذا ثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر ثلاثاً (١). وفى الصحيحين أنه ندب إلى التسييح والتحميد والتكبير، ثلاثاً وثلاثين، ثلاثاً وثلاثين. وقد روى ابن جرير هاهنا حديث العباس بن مرداس السلمى فى استغفاره، عليه السلام، لأمه عشيّة عرفة (٢).

وروى البخارى، عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربى، لا إله إلا أنت، خلقتنى وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شرّ ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علىّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لى، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. من قالها فى ليلة فمات فى ليلته دخل الجنة، ومن قالها فى يومه فمات دخل الجنة» (٣). وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمرو: أن أبا بكر قال: يا رسول الله، علّمنى دعاء أدعوه به فى صلاتى؟ فقال: «قل: اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى، إنك أنت الغفور الرحيم» (٤). والأحاديث فى الاستغفار كثيرة.

﴿فَإِذَا قُضِيَتْهُ مَنَاسِكُكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّكَاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا وَمَا لُمُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَدْ آدَبَ النَّارِ (١٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٠٢)﴾

يأمر تعالى بذكره والإكثار منه بعد قضاء المناسك وفراغها. وقوله: ﴿كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾: يختلفوا فى معناه، فقال عطاء: هو كقول الصبى: «أبى أمه»، يعنى: كما يلهج الصبى بذكر أبيه وأمه، فكَذَلِكَ أَنْتُمْ، فالهجو بذكر الله بعد قضاء النسك. وقال ابن عباس: كان أهل الجاهلية يقفون فى الموسم، فيقول الرجل منهم: كان أبى يطعم ويحمل الحمالات. ليس لهم ذكر غير فعّال آبائهم. فأنزل الله على محمد ﷺ: ﴿فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾. قال ابن أبى حاتم: وروى عن أنس بن مالك، وأبى وائل، وعطاء بن أبى رباح فى أحد قوليه، سعيد بن جبّير، ومجاهد، وغيرهم نحو ذلك. وهكذا حكاه ابن جرير أيضاً عن جماعة، والله

(١) مختصر من حديث فى صحيح مسلم (١ / ١٦٢) من حديث ثوبان.

(٢) الطبرى (٣٨٤٣) ورواه أيضاً عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند (١٦٢٧٦) (٤ / ١٤، ١٥ حلى) وابن ماجه (٣٠١٣) وفصلنا القول فيه فى تخريجات الطبرى.

(٣) الفتح (١١ / ٨٣، ٨٤) ورواه أيضاً أحمد فى المسند (١٧١٧٩) (٤ / ١٢٢ حلى).

(٤) الفتح (٢ / ٢٦٤، ٢٦٥، ١١ / ١١١، ١١٢) ومسلم (٣١٣ / ٢) ومسنّد أحمد، رقم (٨، ٢٨).

ووقع فى المطبوعة: «عبد الله بن عمر» وهو خطأ. صوابه أنه ابن عمرو بن العاص.

أعلم. والمقصود منه الحث على كثرة الذكر لله عز وجل، ولهذا كان انتصاب قوله: ﴿أَوْ أَشَدُّ ذِكْرًا﴾ على التمييز، تقديره: كذاكم آباءكم أو أشد منه ذكراً. و«أو» هاهنا لتحقيق المماثلة في الخبر، كقوله: ﴿فَبِئْسَ كَالْجِبَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وقوله: ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، «وَأَرْسَلْنَاهُ^(١) إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ» [الصافات: ١٤٧]، ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٩]. فليست هاهنا للشك قطعاً، وإنما هي لتحقيق الخبر عنه بأنه كذلك أو أزيد منه.

ثم إنه تعالى أرشد إلى دُعائه بعد كثرة ذكره، فإنه مظنة الإجابة، وذم من لا يسأله إلا في أمر دنياه، وهو معرض عن أخراه، فقال: ﴿فَمَنِ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ أى: من نصيب ولا حظ. وتضمن هذا الذم التنفير عن التشبه بمن هو كذلك. قال ابن عباس: كان قوم من الأعراب يجتثون إلى الموقف، فيقولون: اللهم اجعله عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن. لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً، فأنزل الله فيهم: ﴿فَمَنِ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ وكان يجيء بعدهم آخرون فيقولون: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فأنزل الله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. ولهذا مدح من يسأله للدنيا والأخرى، فقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فجمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا، وصرفت كل شر، فإن الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوى، من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هين، وثناء جميل، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين، ولا منافاة بينها، فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا. وأما الحسنة في الآخرة فاعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة، وأما النجاة من النار فهو يقتضى تيسير أسبابه في الدنيا، من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام.

ولهذا وردت السنة بالترغيب في هذا الدعاء. فروى البخارى: عن أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا، آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ». وروى ابن أبى حاتم: عن أبى طالب عبد السلام بن شداد قال: كنت عند أنس بن مالك، فقال له ثابت: إن إخوانك يحبون أن تدعو لهم. فقال: اللهم آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. وتحذثوا ساعة. حتى إذا أرادوا القيام، قال: يا أبا حمزة، إن إخوانك يريدون القيام فادع الله لهم فقال: تريدون أن أشق لكم الأمور، إذا آتاكم الله في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، ووقاكم عذاب النار فقد آتاكم الخير كله^(٢). وروى أحمد عن أنس، أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد صار مثل الفرخ. فقال له رسول الله ﷺ: «هل تدعو

(١) فى المطبوع من «عمدة التفسير» والمخطوطة الأزهرية: «فأرسلناه» وهو خطأ. (الباز).

(٢) إسناده صحيح. ورواه البخارى فى الأدب المفرد رقم (٦٣٣) مختصراً من وجه آخر، وفى الدر المنثور

(٢٣٣/١) أنه رواه أيضاً ابن أبى شيبة.

الله بشيء أو تسأله إياه؟ قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لى في الدنيا. فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله! لا تطيقه - أو لا تستطيعه - فهلا قلت: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾». قال: فدعا الله، فشفاه . انفراد بإخراجه مسلم (١).
وروى الإمام الشافعى عن عبد الله بن السائب: أنه سمع النبي ﷺ يقول فيما بين الركن اليمانى والركن الأسود: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. وروى الإمام الشافعى عن عبد الله بن السائب: أنه سمع النبي ﷺ يقول فيما بين الركن اليمانى والركن الأسود: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (٢). وروى الحاكم عن سعيد بن جبيرة قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: إنى أجرت نفسى من قوم على أن يحملونى، ووضعت لهم من أجرى على أن يدعوني أحج معهم، أفيجزى ذلك؟ فقال: أنت من الذين قال الله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. ثم قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه (٣).

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (١٠٢)

ربع

قال ابن عباس: «الأيام المعدودات» أيام التشريق، و«الأيام المعلومات» أيام العشر. وقال عكرمة: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ يعني: التكبير أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات: الله أكبر، الله أكبر. وروى الإمام أحمد: عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام، وهى أيام أكل وشرب» (٤). وروى أحمد أيضاً: عن نبيشة الهذلى قال: قال رسول الله ﷺ: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله». ورواه مسلم أيضاً (٥)، وتقدم حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلى: «وأيام منى ثلاثة، فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه» (٦). وروى ابن جرير: عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «أيام التشريق أيام طعم وذكر» (٧). وروى أيضاً عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن حذافة يطوف فى منى: «لا تصوموا هذه الأيام، فإنها أيام أكل وشرب، وذكر الله، عز وجل» (٨). وعن عائشة قالت: نهى رسول الله ﷺ عن

(١) المسند (١٢٠٧٤) (٣ / ١٠٧ حلى) ومسلم (٣٠٩ / ٢) ورواه أيضاً الطبرى (٣٨٧٧).

(٢) إسناده صحيح، ورواه أيضاً أبو داود والنسائى، ورواه الحاكم (٢٧٧ / ٢) وصححه، ووافقه الذهبى.

(٣) المستدرک (٢٧٧ / ٢) ووافقه الذهبى.

(٤) المسند (١٧٤٥١، ١٧٤٥٥) (٤ / ١٥٢ حلى)، وفى المطبوعة زيادة فى آخره: «وذكر الله»، وليس فى

الأزهري ولا فى المسند. ورواه أيضاً أبو داود (٢٤١٩) ورواه الترمذى وصححه النسائى، كما فى المنذرى.

(٥) مضى عند الآية (١٩٦).

(٦) مضى عند الآية (١٩٨).

(٧) الطبرى (٣٩١١) ورواه أحمد (٧١٣٤، ٩٠٠٨) وخرجهما، وإسناده صحيح.

(٨) الطبرى (٣٩١٢) والمسند (١٠٦٧٤، ١٠٩٣٠) وإسناده صحيح.

صوم أيام التشريق، قال: «هى أيام أكل وشرب وذكر الله» (١). وقال ابن عباس: الأيام المعدودات: أيام التشريق، أربعة أيام: يوم النحر، وثلاثة بعده. وروى عن ابن عمر، وابن الزبير، وأبى موسى، ومجاهد، وسعيد بن جبّير وقتادة وغيرهم - مثل ذلك. وقال على بن أبى طالب: هى ثلاثة، يوم النحر ويومان بعده، اذبح فى أيهنّ شئت، وأفضلها أولها. والقول الأول هو المشهور وعليه دل ظاهر الآية الكريمة، حيث قال: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِيْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِيْمَ عَلَيْهِ﴾ فدل على ثلاثة بعد النحر.

ولما ذكر الله تعالى النّفَر الأول والثانى، وهو تفرق الناس من موسم الحج إلى سائر الأقاليم والأفاق بعد اجتماعهم فى المشاعر والمواقف، قال: ﴿وَأَقْرَأُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَهَ تَحْشُرُونَ﴾، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٩] (٢).

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿١٠٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿١٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ ﴿١٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٠٧﴾﴾

قال السدى: نزلت فى الأخنس بن شريق الثقفى، جاء إلى رسول الله ﷺ، وأظهر الإسلام وفى باطنه خلاف ذلك (٣). وعن ابن عباس: أنها نزلت فى نفر من المنافقين تكلموا فى خبيب وأصحابه الذين قتلوا بالرجيع وعابوهم (٤). وقيل: بل ذلك عام فى المنافقين كلهم وفى المؤمنين كلهم. وهذا قول قتادة، ومجاهد، والربيع بن أنس، وغير واحد، وهو الصحيح.

وأما قوله: ﴿وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾: فقرأه ابن محيصن: «وَيُشْهَدُ اللَّهُ» بفتح الباء، وضم الجلالة «عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ» ومعناها: أن هذا وإن أظهر لكم الحيل، لكن الله يعلم من قلبه القبيح، كقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]. وقراءة الجمهور بضم الباء، ونصب الجلالة «وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ» ومعناه: أنه يظهر للناس الإسلام وبيارز الله بما فى قلبه من الكفر والنفاق، كقوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ الآية [النساء: ١٠٨] هذا معنى ما رواه ابن إسحاق، أو سعيد بن جبّير، عن ابن عباس. وقيل: معناه أنه إذا أظهر للناس الإسلام حلف وأشهد الله لهم: أن الذى فى قلبه موافق للسان. وهذا المعنى صحيح، وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير، وعزاه إلى ابن عباس، وحكاه عن مجاهد، والله أعلم.

(١) رواه الطبرى أيضا (٣٩١٣) وإسناده صحيح.

(٢) هذه الجملة، من أول قوله: «ولما ذكر الله» ليست فى المخطوطة الأزهرية.

(٣) الطبرى (٣٩٦٢، ٣٩٦٣).

(٤) الطبرى (٣٩٦١).

وقوله: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾: الألد في اللغة: الأعوج ﴿وَتُذَوِّبُهُ قَوْمًا لَّدَا﴾ [مريم: ٩٧] أى: عوجاً. وهكذا المنافق في حال خصومته، يكذب، ويَزُور عن الحق ولا يستقيم معه، بل يفترى ويفجر، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» (١). وروى البخارى، عن عائشة تَرْفَعُهُ قال: «إن أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخَصَم».

وقوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ أى: هو أعوج المقال، سيئُ الفعل، فذلك قوله، وهذا فعله: كلامه كذب، واعتقاده فاسد، وأفعاله قبيحة. والسعى هاهنا هو: القصد. كما قال إخباراً عن فرعون: ﴿ثُمَّ أَتْبَرَ يَسْعَى . فَحَشَرَ فَنَادَى . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى . فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى﴾ [النارعات: ٢٢-٢٦]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩] أى: اقصدا واعمدوا ناولين بذلك صلاة الجمعة، فإن السعى الحسى إلى الصلاة منهى عنه بالسنة النبوية: «إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة والوقار» (٢). فهذا المنافق ليس له همة إلا الفساد فى الأرض، وإهلاك الحرث، وهو: محل نماء الزروع والثمار والنسل، وهو: نتاج الحيوانات للذين لا قوام للناس إلا بهما. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ أى: لا يحب من هذه صفته، ولا من يصدر منه ذلك.

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ أى: إذا وعظ هذا الفاجر فى مقاله وفعله، وقيل له: اتق الله، وانزع عن قولك وفعلك، وارجع إلى الحق امتنع وأبى، وأخذته الحمية والغضب بالإثم، أى: بسبب ما اشتمل عليه من الآثام، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونُ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُمُّ بِشْرٍ مِّنْ ذَلِكَمُ النَّارِ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشَ الْمُصِيرِ﴾ [الحج: ٧٢]؛ ولهذا قال فى هذه الآية: ﴿فَعَسَىٰ جَهَنَّمَ وَلِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أى: هى كافيته عقوبة فى ذلك.

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ - لما أخبر عن المنافقين بصفاتهم الذميمة، ذَكَرَ صفات المؤمنين الحميدة، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾. قال ابن عباس، وأنس، وسعيد بن المسيب، وجماعة: نزلت فى صهيب بن سنان الرومى، وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة، منعه الناس أن يهاجر بماله، وإن أحب أن يتجرّد منه ويهاجر، فعَلَّ فتخلص منهم وأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية، فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة. فقالوا له: ربح البيع. فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم، وما ذاك؟ فأخبروه

(١) هو بالمعنى . ولفظ مسلم (٣٢/١) : «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا»... إلخ، من حديث عبد الله بن عمرو . وكذلك هو فى البخارى (١ / ٨٤ فتح) ، والمسند (٦٧٦٨ ، ٦٨٦٤) .

(٢) فى صحيح مسلم (١ / ١٦٧) بنحوه ، من حديث أبى هريرة .

أن الله أنزل فيه هذه الآية . ويروى أن رسول الله ﷺ قال له : « ربح البيع صهيب ، ربح البيع صهيب » (١) . وروى ابن مردويه : عن أبي عثمان النهدي ، عن صهيب قال : لما أردت الهجرة من مكة إلى النبي ﷺ قالت لى قريش : يا صهيب ، قدمت إلينا ولا مال لك ، وتخرج أنت ومالك ؟ والله لا يكون ذلك أبداً ! . فقلت لهم : أرايتم إن دفعت إليكم مالى تُخلّون عني ؟ قالوا : نعم . فدفعتم إليهم مالى ، فخلّوا عني ، فخرجت حتى قدمت المدينة . فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : « ربح صهيب ، ربح صهيب » مرتين (٢) .

وأما الأكثرون فحملوا ذلك على أنها نزلت في كل مجاهد في سبيل الله ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة : ١١١] . ولما حمل هشام بن عامر بين الصنفين ، أنكر عليه بعض الناس ، فردّ عليهم عمر ابن الخطاب وأبو هريرة وغيرهما ، وتلوا هذه الآية : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْهُ بَعْدَ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٩﴾

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين به المصدقين برسوله : أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه ، والعمل بجميع أوامره ، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وطاوس ، ﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ ﴾ يعني : الإسلام . وقال قتادة : المواعدة . وقوله : ﴿ كَافَّةً ﴾ : قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : جميعاً ، وقال مجاهد : أى اعملوا بجميع الاعمال ووجوه البر . ومن المفسرين من يجعل قوله : ﴿ كَافَّةً ﴾ حالا من الداخلين ، أى : ادخلوا في الإسلام كلكم . والصحيح الاول ، وهو أنهم أمروا كلهم أن يعملوا بجميع شعب الإيمان وشرائع الإسلام ، وهى كثيرة جداً ما استطاعوا منها (٣) . كما روى : ابن أبى حاتم : عن ابن عباس : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ - كذا قرأها بالنصب - يعنى مؤمنى أهل الكتاب ، فإنهم كانوا مع الإيمان بالله مستمسكين ببعض أمر التوراة والشرائع التى أنزلت فيهم ، فقال الله : ﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ ، يقول : ادخلوا فى شرائع دين محمد ﷺ ولا تدعوا منها شيئاً ، وحسبكم بالإيمان

(١) فى المستدرک (٣ / ٣٩٨) من حديث أنس نحو القصة ، ونزول الآية : « فلما رآه النبي ﷺ قال : « أبا يحيى ، ربح البيع » ، قال : وتلا عليه الآية » ثم قال الحاكم : « صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه » .
(٢) رواه ابن سعد فى الطبقات (٣ / ١ / ١٦٢) عن أبى عثمان النهدي قال : « بلغنى أن صهيباً ... إلخ » ، فذكر نحوه .

(٣) هذا هو الصحيح : أن الله سبحانه وتعالى أمر كل المؤمنين بالله « بالدخول فى العمل بشرائع الإسلام كلها » سواء من آمن من العرب وغيرهم ، ومن آمن من أهل الكتاب . كلهم مؤمنون ، وكلهم مأمور أن يعمل بجميع شرائع الإسلام . وهو الذى رجحه الطبرى أيضاً (٤ / ٢٥٦ ، ٢٥٧) .

بالتوراة وما فيها (١).

وقوله : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أى : اعملوا الطاعات ، واجتنبوا ما يأمركم به الشيطان ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ١٦٩] ، و﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر : ٦] ؛ ولهذا قال : ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ .

وقوله : ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أى : عدلتم عن الحق بعد ما قامت عليكم الحجة ، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أى : فى انتقامه ، لا يفوته هارب ، ولا يغلبه غالب . ﴿حَكِيمٌ﴾ فى أحكامه ونقضه وإبرامه .

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾

يقول تعالى مهذّباً للكافرين بمحمد صلوات الله وسلامه عليه : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ يعنى : يوم القيامة ، لفصل القضاء بين الأولين والآخرين ، فيجزى كلّ عامل بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ؛ ولهذا قال : ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ كما قال تعالى : ﴿كَلَّا إِذَا دُخِيتِ الْأَرْضُ دُخَاً دُخَاً . وَجَاءَ رِبْكُ وَالْمَلَكُ صَفَاً صَفَاً . وَجِيءَ يَوْمُئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر : ٢١ - ٢٣] ، وقال : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ الآية [الانعام : ١٥٨] . وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير هاهنا حديث الصور بطوله من أوله ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ . وهو حديث مشهور ساقه غير واحد من أصحاب المسانيد وغيرهم (٢) .

﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا يَتَذَكَّرُونَ وَمَنْ يَبْدُلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿رَبِّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَسَخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

(١) هذا الخبر نقله أيضا السيوطى (١ / ٢٤١) ولم ينسبه لغير ابن أبى حاتم . وإسناده ضعيف جداً ، فيه « محمد ابن عون الخراسانى » . وهو منكر الحديث ، كما قال البخارى . ومعناه صحيح - كما هو واضح . ولكن النكارة فيه فى النص على أن ابن عباس « كذا قرأها بالنصب » ! بما يوهم أن فيها قراءة أخرى . ولم أجد فيها قراءة غير النصب ، ولا فى القراءات الشاذة .

(٢) هو فى الطبرى (٣٩ - ٤٠) وهو حديث ضعيف جداً ، فى إسناده « إسماعيل بن رافع المدينى القاص » ، قال ابن معين : « ليس بشئ » وقال أبو حاتم : « هو منكر الحديث » . ثم قد رواه من طريق « رجل من الأنصار ، عن محمد بن كعب القرظى » . والرواوى المبهم لا تقوم به حجة . وقد ذكر الحافظ ابن كثير هنا قطعة من هذا الحديث ، فحذفناها ، على شرطنا .

ونحن على النهج الصحيح ، الذى كان عليه السلف الصالح : نؤمن بما ورد فى الصفات كما ورد ، من غير تشبيه ولا تمثيل ، ولا خروج عن معنى الكلام بالتأويل .

يقول تعالى - مُخْبِرًا عن بنى إسرائيل: كم قد شاهدوا مع موسى ﴿مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ أى: حجة قاطعة على صدقه فيما جاءهم به، كيده وعصاه وقلقه البحر وضربه الحجر، وما كان من تظليل الغمام عليهم فى شدة الحر، ومن إنزال المَنِّ والسلوى وغير ذلك من الآيات الدالات على وجود الفاعل المختار، وصدق من جرت هذه الخوارق على يديه، ومع هذا أعرض كثير منهم عنها، وبَدَلُوا نعمة الله كفرًا، أى: استبدلوا بالإيمان بها الكفر بها، والإعراض عنها. ﴿وَمَنْ يُدَلِّ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، كما قال إخباراً عن كفار قريش: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩] .

ثم أخبر تعالى عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذين رَضُوا بها واطمأنوا إليها، وجمعوا الأموال ومنعوها عَنْ مصارفها التى أمروا بها بما يُرْضَى الله عنهم، وسخروا من الذين آمنوا الذين أعرضوا عنها، وأنفقوا ما حصل لهم منها فى طاعة ربهم، وبذلوا ابتغاء وجه الله؛ فلهذا فازوا بالمقام الأسعد والخط الأوفر يوم معادهم، فكانوا فوق أولئك فى محشرهم ومنشرهم، ومسيرهم ومأواهم، فاستقروا فى الدرجات فى أعلى عِلَيْن، وخلد أولئك فى الدركات فى أسفل السافلين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أى: يرزق من يشاء من خلقه، ويعطيه عطاء كثيراً جزيلاً بلا حَصَر ولا تعداد فى الدنيا والآخرة، كما جاء فى الحديث: «ابن آدم، أَنْفَقَ أَنْفَقَ عَلَيْكَ» (١)، وقال النبى ﷺ: «أنفق بلال ولا تخش من ذى العرش إقلاقاً» (٢). وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبا: ٣٩]، وفى الصحيح أن ملكين ينزلان من السماء صَبِيحَةَ كل يوم، فيقول أحدهما: «اللهم أعط متفقاً خلفاً». ويقول الآخر: اللهم أعط مُمَسَّكاً تَلْفًا» (٣). وفى الصحيح: «يقول ابن آدم: مالى، مالى! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت، وما لبست فأبليت، وما تصدقت فأمضيت؟ وما سوى ذلك فذاهب وتاركة

(١) هو حديث قدسى: «يقول الله عز وجل: يا ابن آدم» - رواه أحمد فى المسند (٧٢٩٦) من حديث أبى هريرة . ورواه الشيخان ، ما فصلنا هناك .

(٢) ورد هذا اللفظ ضمن أحاديث فرواه الطبرانى والبخارى والبزار من حديث بلال ، وفى إسنادهما ضعف . ورواه البزار وأبو يعلى والطبرانى فى الكبير والأوسط ، من حديث أبى هريرة ، «وإسناده حسن» . قاله الهيثمى فى الزوائد (١٠ / ٢٤١) . وكذلك ذكر المنذرى فى الترغيب (٢ / ٤٠) حديث أبى هريرة «بإسناد حسن» ، ورواه أيضاً البزار والطبرانى فى الكبير ، من حديث ابن مسعود ، «بإسناد حسن» كما فى الترغيب . وخرجه العجلونى فى كشف الخفا (١ / ٢١٠ ، ٢١١) بتوسع . ووقع فى المطبوعة هنا «أنفق بلالا» ! ينصب «بلال» . ولكنه فى المخطوطة الأزهرية وسائر الروايات التى أشرنا إليها «بلال» بالبناء على الضم . وفى كشف الخفا أن السيوطى - حاول فى الاشياء والنظائر توجيهه «بأنه من الإتياع» ، وإن كان منادى مفرداً علماً - إلخ . وقال السيوطى فى جمع الهوامع (٢ / ١٥٨) فى جواز الضرورة فى النثر للتناسب والسجع - قال : «وقوله فيما رواه البزار فى مسنده وغيره : «أنفق بلالا ، ولا تخش من ذى العرش إقلاقاً» ، نون المنادى المعرفة ونصبه لمناسبة «إقلاقاً» . ووجه ، لو صحت الرواية بالنصب .

(٣) رواه البخارى (٤ / ٢٤١ فتح) ومسلم (١ / ٢٧٧) - من حديث أبى هريرة . ورواه أحمد من وجه آخر (٨٠٤٠) بنحوه . وانظر : مجمع الزوائد (١٠ / ٢٨) والترغيب (٢ / ٣٨) .

للناس» (١). وفى مسند الإمام أحمد عن النبى ﷺ أنه قال: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له» (٢).

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

روى ابن جرير: عن ابن عباس، قال: كان بين نوح و آدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلَفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين. قال: وكذلك هى فى قراءة عبد الله: «كان الناس أمة واحدة فاختلَفوا». ورواه الحاكم و قال: صحيح ولم يخرجاه (٣). وقال العوفى، عن ابن عباس: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً» يقول: كانوا كفاراً. والقول الأول عن ابن عباس أصح سنداً ومعنى؛ لأن الناس كانوا على ملة آدم، حتى عبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاً، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض. ولهذا قال: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أى: من بعد ما قامت عليهم الحجج وما حملهم على ذلك إلا البغى من بعضهم على بعض، ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. وروى عبد الرزاق عن أبى هريرة فى قوله: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ الآية قال: قال النبى ﷺ: «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة نحن أول الناس دخولاً الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتينا من بعدهم، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فهذا اليوم الذى اختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالتاس لنا فيه تبع، فغدا لليهود، وبعد غد للنصارى» (٤). وقال زيد بن أسلم، فاختلَفوا فى يوم الجمعة، فاتخذ اليهود يوم السبت، والنصارى يوم الأحد. فهدى الله أمة محمد

(١) رواه مسلم (٢ / ٢٨٣، ٣٨٤) من حديث عبد الله بن الشخير. وكذلك رواه الترمذى والنسائى، وروى مسلم أيضا عقبه نحوه بمعناه، من حديث أبى هريرة.

(٢) رواه أحمد فى المسند (٦ / ٧١ حلى) من حديث عائشة، بحذف قوله: «ومال من لا مال له». وذكره المنذرى فى الترغيب (٤ / ١٠٤)، وذكر رواية أحمد، وأن هذه الزيادة عند البيهقى. وقال: «وإسنادهما جيد». وذكر الهيثمى فى الزوائد (١٠ / ٢٨٨) رواية المسند، وقال: «ورجاله رجال الصحيح، غير دويد، وهو ثقة».

(٣) الطبرى (٤٠٤٨) والحاكم (٢ / ٥٤٦، ٥٤٧) وصححه على شرط البخارى، ووافقه الذهبى. وقراءة ابن مسعود: «فاختلَفوا» - لا نراها مقصودا بها التلاوة، إنما هى - فيما نرى والله أعلم - على سبيل التفسير والبيان.

(٤) تفسير عبد الرزاق، ص ٢٣. ورواه أحمد فى المسند (٧٦٩٢) عن عبد الرزاق، دون ذكر الآية فى أوله. وكذلك رواه الشيخان وغيرهما، ورواه الطبرى (٤٠٦٠) من طريق عبد الرزاق.

ﷺ ليوم الجمعة. واختلفوا في القبلة؛ فاستقبلت النصارى المشرق، واليهود بيت المقدس، فهدى الله أمة محمد للقبلة. واختلفوا في الصلاة؛ فمنهم من يركع ولا يسجد، ومنهم من يسجد ولا يركع، ومنهم من يصلى وهو يتكلم، ومنهم من يصلى وهو يمشى، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك. واختلفوا في الصيام، فمنهم من يصوم بعض النهار، ومنهم من يصوم عن بعض الطعام، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك. واختلفوا في إبراهيم، عليه السلام، فقالت اليهود: كان يهودياً، وقالت النصارى: كان نصرانياً، وجعله الله حنيفاً مسلماً، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك. واختلفوا في عيسى، عليه السلام، فكذبت به اليهود، وقالوا لأمه بهتاناً عظيماً، وجعلته النصارى إلهاً وولداً، وجعله الله روحه، وكلمته، فهدى الله أمة محمد ﷺ للحق من ذلك.

وقوله: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أى: بعلمه، بما هداهم له: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أى: مَنْ خَلَقَهُ ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أى: وله الحكم والحجة البالغة. وفى صحيح البخارى ومسلم عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلى يقول: «اللهم، رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم» (١). وفى الدعاء المأثور: اللهم، أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، ووفقنا لاجتنابه، ولا تجعله ملتبساً علينا فنضل، واجعلنا للمتقين إماماً.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (١١٤)

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ﴾ قبل أن تُبْتَلُوا وتختبروا وتمتحنوا، كما فعل بالذين من قبلكم من الأمم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ وهى: الأمراض؛ والاسقام، والآلام، والمصائب والنواب. ﴿وَزُلْزَلُوا﴾ خوفاً من الأعداء زلزالاً شديداً، وامتنحوا امتحاناً عظيماً، كما جاء فى الحديث الصحيح عن خباب بن الارت قال: قلنا: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ فقال: «إِنْ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانَ أَحَدُهُمْ يُوَضِّعُ الْمَنَشَارَ عَلَى مَفْرَقِ رَأْسِهِ فَيُخَلِّصُ إِلَى قَدَمَيْهِ، لَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا بَيْنَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، لَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ». ثم قال: «والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون» (٢).

(١) هكذا ثبت فى المطبوعة نسبة للبخارى ومسلم. والذى فى المخطوطة نسبت للبخارى فقط، وهو سهو من الحافظ ابن كثير رحمه الله. وقد مضى الحديث عند تفسير الآيتين (٩٧، ٩٨) دون عزو. وخرجناه هنا من صحيح مسلم (١ / ٢١٥)، والبخارى لم يروه، على اليقين.

(٢) رواه البخارى - دون مسلم - (٦ / ٤٥٦، ٧ / ١٢٦، ١٢ / ٢٨١ فتح)، وأحمد فى المسند (٥ / ١٠٩ - ١١١، ٦ / ٣٩٥ حلى)، وأبو داود (٢٦٤٩).

وقال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَحَسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت : ١ - ٣] . وقد حصل من هذا جانب عظيم للصحابة ، رضى الله عنهم ، فى يوم الأحزاب ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب : ١٠ - ١٢] . ولما سأل هرقلُ أبا سفيان : هل قاتلتموه؟ قال : نعم . قال : فكيف كانت الحرب بينكم؟ قال : سجالاً ، يدال علينا ونُدال عليه . قال : كذلك الرسل تبتلى ، ثم تكون لها العاقبة (١) .

وقوله : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أى : سبتهم . كما قال تعالى : ﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الزخرف : ٨] .

وقوله : ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴾ أى : يستفتحون على أعدائهم ، ويدعون بقرب الفرج والمخرج ، عند ضيق الحال والشدة . قال الله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ كما قال : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥ ، ٦] . وكما تكون الشدة ينزل من النصر مثلهما ؛ ولهذا قال : ﴿ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ .

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّهِ وَاللَّذِينَ فِي الْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ (١٥)

قال مقاتل : هذه الآية فى نفقة التطوع . ومعنى الآية : يسألك كيف ينفقون؟ قاله ابن عباس ومجاهد ، فبين لهم تعالى ذلك ، فقال : ﴿ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّهِ وَاللَّذِينَ فِي الْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ أى : اصرفوها فى هذه الوجوه . كما جاء فى الحديث : « أملك وأباك ، وأختك وأحاك ، ثم أدناك أدناك » (٢) . وتلا ميمون بن مهران هذه الآية ، ثم قال : هذه مواضع النفقة ما ذكر فيها طبلا ولا مزماراً ، ولا تصاوير الخشب ، ولا كسوة الحيطان .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ أى : مهما صدرَ منكم من فعل معروف ، فإن الله يعلمه ، وسيجزىكم على ذلك أوفر الجزاء ؛ فإنه لا يظلم أحداً مثقالَ ذرة .

﴿ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١٦)

هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين : أن يكفوا شرَّ الأعداء عن حوزة الإسلام .

(١) اقتباس من حديث طويل ، رواه البخارى (١ / ٣٠ - ٤١ فتح) من حديث أبى سفيان بن حرب .

(٢) هو جزء من حديث رواه أحمد فى المسند (٧١٠٥) من حديث أبى رمة . ورواه أيضاً (١٦٦٨٧) عند أبى

الشعثاء سليم بن أسود عن رجل من بنى يربوع .

وقال الزهري: الجهاد واجب على كل أحد، غزا أو قعد؛ فالقاعد عليه إذا استعين أن يعين، وإذا استغِيث أن يُغيث، وإذا استنْفَر أن ينفر، وإن لم يُحْتَجَّ إليه قعد. قلت: ولهذا ثبت في الصحيح: «من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو مات ميتة جاهلية»^(١). وقال عليه السلام يوم الفتح: «لا هجرة، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا»^(٢).

وقوله: ﴿وَهُوَ كُرَّةٌ لَكُمْ﴾ أي: شديد عليكم ومشقة. وهو كذلك، فإنه إما أن يُقْتَلَ أو يجرح مع مشقة السفر ومجالدّة الأعداء.

ثم قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي: لأن القتال يعقبه النصر والظفر على الأعداء، والاستيلاء على بلادهم، وأموالهم، وذرياتهم، وأولادهم. ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾: وهذا عام في الأمور كلها، قد يُحِبُّ المرءُ شيئاً، وليس له فيه خيرة ولا مصلحة. ومن ذلك القعود عن القتال، قد يعقبه استيلاء العدو على البلاد والحكم. ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: هو أعلم بعواقب الأمور منكم، وأخبر بما فيه صلاحكم في دنياكم وآخراكم؛ فاستجيبوا له، وانقادوا لأمره، لعلكم ترشدون.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطْعَمُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِمِيتٌ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾

روى ابن أبي حاتم عن جندب بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ بعث رهطاً، وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح فلما ذهب ينطلق، بكى صباة إلى رسول الله ﷺ، فجلس، فبعث عليهم مكانه عبد الله بن جحش، وكتب له كتاباً، وأمره ألا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا، وقال: لا تَكْرَهُنَّ أحداً على المسير معك من أصحابك. فلما قرأ الكتاب استرجع، وقال: سمعاً وطاعة لله ولرسوله. فخبرهم الخبر، وقرأ عليهم الكتاب، فرجع رجلاً، وبقي بقيتهم، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادى. فقال المشركون للمسلمين: قتلتم في الشهر الحرام! فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾

(١) رواه أحمد (٨٨٥٢) ومسلم (١٠٣ / ٢ ، ١٠٤) وأبو داود (٢٥٠٢) والنسائي (٥٣ / ٢ ، ٥٤) كلهم من

حديث أبي هريرة . وفي رواياتهم : « مات على شعبة من نفاق » .

(٢) رواه مسلم (٩٣ / ٢) من حديث عائشة .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْ تَبِعَهُمَا أَكْثَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْمَوْفُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿١٩٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الِئْتِمَنِ قُلْ إِصْلَاحٌ لَمْ خَيْرٌ وَلِنْ تَخَاطَبُواهُمْ فَأَخُونُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

روى الإمام أحمد: عن عمر أنه قال: لما نزل تحريم الخمر قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت هذه الآية التي في البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ فدعى عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التي في النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ [النساء: ٤٣]، فكان منادى رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى: ألا يقربن الصلاة سكران. فدعى عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التي في المائدة: ﴿قُدْعَى عَمْرٍ، فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَلَمَّا بَلَغَ: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]؟ قال عمر: انتهينا، انتهينا (٢). وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه. قال علي بن المديني: هذا الإسناد صالح وصححه الترمذي. وزاد ابن أبي حاتم - بعد قوله: انتهينا: «إنها تذهب المال وتذهب العقل». وسيأتي هذا الحديث أيضاً مع ما رواه أحمد من طريق أبي هريرة أيضاً - عند قوله في سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الآيات [المائدة: ٩٠-٩٢]. فقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾: أما الخمر فكما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: إنه كل ما خامر العقل. كما سيأتي بيانه في سورة المائدة، وكذا الميسر، وهو القمار.

وقوله: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْ تَبِعَهُمَا أَكْثَرُ مِنَ النَّاسِ﴾: أما إثمهما فهو في الدين، وأما المنافع فدنوية، من حيث إن فيها نفع البدن، وتهضم الطعام، وإخراج الفضلات، وتشحيد بعض الأذهان، ولذة الشدة المطربة التي فيها. وكذا بيعها والانتفاع بثمنها. وما كان يُقْمَشُ بعضهم من الميسر فينفقه على نفسه أو عياله (٣). ولكن هذه المصالح لا توازي مضرته ومفسدته الراجعة، لتعلقها

(١) إسناده ابن أبي حاتم إسناده صحيح. ورواه الطبري مطولاً - في حديثين (٤٠٨٤، ٤١٠٢). وأبهم أحد رواته. وذكره الهيثمي في الزوائد (١٩٨/٦). وقال «رواه الطبراني، ورجاله ثقات». وذكره السيوطي (٢٥٠/١). ونسبه لهؤلاء ولابن المنذر والبيهقي «بسنده صحيح».

ثم ذكر الحافظ ابن كثير روايات أخر، في سبب النزول. ثم ساق قصة سرية «عبد الله بن جحش» مفصلة، من سيرة ابن هشام. فمن شاء فليرجع إليها في تفسيره (٢٥٣/١ - ٢٥٥) (تجارية). وفي تاريخه (٢٤٨/٣، ٢٥٢) حيث ذكرها وذكر هذه الروايات.

(٢) المسند (٣٧٨).

(٣) القمش - بفتح القاف وسكون الميم - والتقميش: جمع الشيء من ههنا وههنا. والقماش - بضم القاف وتخفيف الميم: ما كان على وجه الأرض من فئات الأشياء، حتى يقال لرذالة الناس: قماش. عن اللسان.

بالعقل والدين، ولهذا قال: ﴿وَأْتِمُمُهَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهَا﴾؛ ولهذا كانت هذه الآية ممهدة لتحريم الخمر على البتات، ولم تكن مصرحة بل معرضة؛ ولهذا قال عمر، رضى الله عنه، لما قرئت عليه: اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً، حتى نزل التصريح بتحريمها فى سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١] .

وقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ﴾: قرئ بالنصب وبالرفع، وكلاهما حسن متجّه قريب. وقال ابن عباس: ﴿الْغَفْوُ﴾ ما يفضل عن أهلك. وكذا روى عن ابن عمر، ومجاهد، وقتادة وغير واحد. وروى ابن جرير عن أبى هريرة قال: قال رجل: يا رسول الله، عندى دينار؟ قال: «أنفقه على نفسك». قال: عندى آخر؟ قال: «أنفقه على أهلك». قال: عندى آخر؟ قال: «أنفقه على ولدك». قال: عندى آخر؟ قال: «فأنت أبصر». وقد رواه مسلم فى صحيحه (١). وأخرج مسلم أيضاً عن جابر: أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شئ فأهلك، فإن فضل شئ عن أهلك فلذى قرابتك، فإن فضل عن ذى قرابتك شئ فهكذا وهكذا» (٢). وعنده عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول» (٣). وفى الحديث أيضاً: «ابن آدم، إنك أن تبدل الفضل خير لك، وأن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف» (٤). ثم قد قيل: إنها منسوخة بآية الزكاة، كما رواه على بن أبى طلحة، والعمري عن ابن عباس، وقاله عطاء الخراسانى والسدى، وقيل: مبينة بآية الزكاة، قاله مجاهد وغيره، وهو أوجه.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ . فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أى: كما فصل لكم هذه الأحكام وبينها وأوضحها، كذلك يبين لكم سائر الآيات فى أحكامه ووعدته، ووعيده، لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة.

(١) الطبرى (٤١٧٠) ورواه أحمد فى المسند (٧٤١٣)، بزيادة فى أوله. وقد بينت هناك تخريجه فى أبى داود، والنسائى، والحاكم وصححه على شرط مسلم. ونسبه المنذرى فى الترغيب (٨١/٣) لصحيح ابن حبان. وقد وهم الحافظ ابن كثير رحمه الله، فى نسبه لصحيح مسلم، فإنه ليس فيه، على اليقين.

(٢) صحيح مسلم (١ / ٢٧٤)، بقصة فى أوله. وكذلك رواه أحمد فى المسند (١٤٣٢٣) ورواه الطبرى (٤١٧١) بنحوه، دون ذكر القصة.

(٣) هذا اللفظ فى صحيح مسلم (١ / ٢٨٢) من حديث حكيم بن حزام. وأما من حديث أبى هريرة فلا. وقد رواه أحمد، بنحوه (٧١٥٥) عن أبى هريرة. وفصلنا تخريجه هناك. وبيننا أنه من أفراد البخارى - دون مسلم - كما نص على ذلك الحافظ ابن حجر فى الفتح، فى آخر كتاب الزكاة (٣ / ٢٩٩) فوهم الحافظ ابن كثير رحمه الله.

(٤) رواه مسلم (١ / ٢٨٣) من حديث أبى أمامة. ورواه أحمد والترمذى، كما فى الفتح الكبير (٣ / ٣٧٦).

وقوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتُمْ ﴾ الآية : روى ابن جرير ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [الإسراء : ٣٤] و ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا ﴾ [النساء : ١٠] انطلق من كان عنده يتيم فعزّل طعامه من طعامه ، وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد ، فاشتد ذلك عليهم ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ ، فأنزل الله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم . وهكذا رواه أبو داود ، والنسائي ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والحاكم ^(١) . وهكذا ذكر غير واحد في سبب نزول هذه الآية كمجاهد ، وعطاء ، والشعبي .

فقوله : ﴿ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ﴾ أى : على حدة ﴿ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ أى : وإن خلطتم طعامكم بطعامهم وشرابكم بشرابهم ، فلا بأس عليكم ؛ لأنهم إخوانكم فى الدين ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾ أى : يعلم من قصده ونيته الإفساد أو الإصلاح .

وقوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أى : ولو شاء لضيق عليكم وأخرجكم ، ولكنه وسّع عليكم ، وخفف عنكم ، وأباح لكم مخالطتهم بالتي هي أحسن ، كما قال : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [الأنعام : ١٥٢] ، بل قد جوز الأكل منه للفقير بالمعروف ، إما بشرط ضمان البدن لمن أيسر ، أو مجاناً .

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ ۖ وَلَا أُمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ حَتَّىٰ مِنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَا أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ حَتَّىٰ مِنْ مُّشْرِكٍ وَلَا أَعْجَبَكُمْ ۚ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۚ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيَسِّرُ ٱلْيُسْرَىٰ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

هذا تحريم من الله عز وجل على المؤمنين أن يتزوجوا المشركات من عبدة الاوثان . ثم إن كان عمومها مراداً ، وأنه يدخل فيها كل مشركة من كتابية وثنية - فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله : ﴿ وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَاتِ وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَآبَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ﴾ [المائدة : ٥] . قال ابن عباس : استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب . وهكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وغيرهم . وقيل : بل المراد بذلك المشركون من عبدة الاوثان ، ولم يرد أهل الكتاب بالكلية ، والمعنى قريب من الأول ، والله أعلم .

فأما ما رواه ابن جرير عن عبد الله بن عباس قال : نهى رسول الله ﷺ عن أصناف النساء ، إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات ، وحرّم كل ذات دين غير الإسلام ، قال الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ

(١) الطبري (٤١٨٣) وأبو داود (٢٨٧١) والحاكم (١٠٣/٢) وقال : «صحيح ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي . ورواه أحمد مختصراً (٣٠٠٢) ، وكذلك رواه الحاكم (٢٧٨/٢) مرة أخرى ، وصححه ، ووافقه الذهبي .

يَكْفُرُ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ» [المائدة: ٥] . فهو حديث غريب جداً (١) . قال أبو جعفر بن جرير ، رحمه الله - بعد حكايته الإجماع على إباحة تزويج الكتابيات : وإنما كره عمر ذلك ، لثلاث يزهد الناس في المسلمات ، أو لغير ذلك من المعاني ، ثم روى عن شقيق قال : تزوج حذيفة يهودية ، فكتب إليه عمر : خلّ سبيلها ، فكتب إليه : أترجم أنها حرام فأخلّي سبيلها ؟ فقال : لا أزعّم أنها حرام ، ولكنني أخاف أن تعاطوا المومسات منهن . وإسناده صحيح (٢) . وروى ابن جرير عن عمر بن الخطاب قال : المسلم يتزوج النصرانية ، ولا يتزوج النصراني المسلمة . قال : وهذا أصح إسناداً من الأول (٣) . وروى عن الحسن ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «تزوج نساء أهل الكتاب ولا يتزوجون نساءنا» . ثم قال : وهذا الخبر - وإن كان في إسناده ما فيه - فالقول به لإجماع الجميع من الأمة [على صحة القول] به . كذا قال ابن جرير (٤) . وروى ابن أبي حاتم عن ابن عمر : أنه كره نكاح أهل الكتاب ، ويتأول : ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ . وقال البخاري : وقال ابن عمر : لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول : ربها عيسى .

وقوله : «وَلَأَمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ» : قال السدي : نزلت في عبد الله بن رواحة ، كانت له أمة سوداء ، فغضب عليها فلطمها ، ثم فزع ، فأتى رسول الله ﷺ ، فاخبره خبرها . فقال له : «ما هي ؟» قال : تصوم ، وتصلّي ، وتحسن الوضوء ، وتشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله . فقال : «يا أبا عبد الله ، هذه مؤمنة» . فقال : والذي بعثك بالحق لأعتقنها ولأتزوجنها . ففعل ، فظعن عليه ناس من المسلمين ، وقالوا : نكح أمة . وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين ، وينكحوهم رغبة في أحسابهم ، فأنزل الله : «وَلَأَمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ» «وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ» . روى عبد بن حميد عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال : « لا تنكحوا النساء لحسنهن ، فعسى حسنهن أن يرديهن ، ولا تنكحوهن على أموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن ، وانكحوهن على الدين ، فلأمة سوداء خرماء ذات دين أفضل» . والإفريقي ضعيف (٥) . وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال :

(١) الطبري (٤٢٢١) وإسناده صحيح . ولكن هذا المتن غريب جداً ، شاذ يخالف سائر الدلائل .
(٢) الطبري (٤٢٢٣) . وشقيق : هو ابن سلمة أبو وائل ، التابعي الكبير ، وكلمة «المومسات» حرفت في الطبري طبعة بولاق ومطبوعة ابن كثير والدر المنثور : «المؤمنات» . وهو تحريف قبيح . وثبت على الصواب في المخطوطة الأزهرية ، والبيهقي (٧ / ١٧٢) والخصاص (١ / ٣٣٣) والقرطبي (٣ / ٦٨) .
(٣) الطبري (٤٢٢٢) . وإسناده صحيح متصل . وكذلك رواه البيهقي في السنن الكبرى (٧ / ١٧٢) .
(٤) الزيادة من الطبري (٤ / ٢٦٧) . وحديث جابر هذا لم أجده في شيء من المراجع غير رواية الطبري هذه . وإسناده صحيح ، على الرغم من قول ابن جرير : « وإن كان في إسناده ما فيه » . وقد بينت في تخريج الطبري أنه لعله يشير إلى زعم من زعم أن الحسن لم يسمع من جابر ، والمعاصرة كافية ، وقد رجحت أيضاً أنه سمع منه .

(٥) إسناده صحيح . والإفريقي - الذي في إسناده : هو «عبد الرحمن بن زياد بن أنعم» وهو ثقة ، وقد أخطأ من ضعفه . وقد بينا القول في توثيقه في تخريجات الطبري (٢١٩٥) . والحديث رواه ابن ماجه (١٨٥٩) وزاد السيوطي في الدر المنثور (١ / ٢٥٧) نسبته لسعيد بن منصور والبيهقي . وذكره البوصيري في زوائد ابن ماجه أنه رواه أيضاً ابن حبان في صحيحه بإسناد آخر . و«الحرماء» المثقوبة الأذن . ووقع في المطبوعة : «جرداء» ! وهو خطأ .

«تتكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها ولجمالها، ولدينها؛ فاظفر بذات الدين تربت يداك». ولسلم عن جابر مثله^(١). وله، عن ابن عمرو: أن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة»^(٢).

وقوله: ﴿وَلَا تُكْهِنُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ أى: لا تزوجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات، كما قال تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [المتحنة: ١٠].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ أى: ولرجل مؤمن - ولو كان عبداً حبشياً - خير من مشرك، وإن كان رئيساً سرياً ﴿أَوَّلِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أى: معاشرتهم ومخالطتهم تبعث على حب الدنيا واقتنائها وإيثارها على الدار الآخرة، وعاقبة ذلك وخيمة ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ أى: بشره وما أمر به وما نهى عنه ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطْهَرِينَ﴾ ﴿١١٢﴾ نِسَاءُكُمْ حَرَّتُمْ لَكُمْ فَأْتُوا حُرَّتَكُمْ أَنْتُمْ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُّكَلَّفُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١١٣﴾

روى الإمام أحمد عن أنس: أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحابُ النبي ﷺ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ حتى فرغ من الآية. فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح». فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه! فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا: يا رسول الله، إن اليهود قالت كذا وكذا، أفلا نجامعهن؟! فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجدَ عليهما، فخرجا، فاستقبلهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ، فأرسل في آثارهما، فسقاهما، فعرفا أن لم يجدْ عليهما. ورواه مسلم.

فقوله: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ يعنى: فى الفَرْج، لقوله: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح»؛ ولهذا ذهب كثير من العلماء أو أكثرهم إلى أنه تجوز مباشرة الحائض فيما عدا الفرج. روى أبو داود عن عكرمة، عن بعض أزواج النبي ﷺ [أن النبي ﷺ] كان إذا أراد من الحائض شيئاً،

(١) صحيح مسلم (٤١٩/١).

(٢) صحيح مسلم (١ / ٤٢٠) وكذلك رواه أحمد فى المسند (٦٥٦٧) والنسائى (٧٢/٢، ٧٣) وابن ماجه (١٨٥٥) والصحابى راويه هو «عبد الله بن عمرو بن العاص». - وقع هنا فى المخطوطة والطبوعة: «ابن عمر» وهو خطأ الناسخين.

لقى على فرجها ثوباً^(١). وروى ابن جرير أن مسروقاً ركب إلى عائشة، فقال: السلام على النبي وعلى أهله. فقالت عائشة: مرحباً مرحباً. فأذنوا له فدخل، فقال: إني أريد أن أسألك عن شيء، وأنا أستحي. فقالت: إنما أنا أمك، وأنت ابني. فقال: ما للرجل من امرأته وهي حائض؟ فقالت: له كل شيء إلا فرجها^(٢). هذا قول ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وعكرمة. قلت: وتحل مضاجعتها ومواكلتها بلا خلاف. قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يأمرني فأغسل رأسه وأنا حائض، وكان يتكى في حجرى وأنا حائض، فيقرأ القرآن^(٣). وفي الصحيح عنها قالت: كنت أنعرق العرق وأنا حائض، فأعطيه النبي ﷺ، فيضع فمه في الموضع الذى وضعت فمى فيه، وأشرب الشراب فأناوله، فيضع فمه في الموضع الذى كنت أشرب^(٤).

وقال آخرون: إنما تحل له مباشرتها فيما عدا ما تحت الإزار، كما ثبت فى الصحيحين، عن ميمونة بنت الحارث الهلالية قالت: كان النبي ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه أمرها فانتزرت وهي حائض. وهذا لفظ البخارى. ولهما عن عائشة نحوه. فهذه الأحاديث وما شابهها حجة من ذهب إلى أنه يحل له ما فوق الإزار منها، وهو أحد القولين فى مذهب الشافعى رحمه الله، الذى رجحه كثير من العراقيين وغيرهم. ومأخذهم: أنه حريم الفرج، فهو حرام، لثلا يتوصل إلى تعاطى ما حرم الله عز وجل، الذى أجمع العلماء على تحريمه، وهو المباشرة فى الفرج. ثم من فعل ذلك فقد أثم، فيستغفر الله ويتوب إليه. وهل يلزمه مع ذلك كفارة أم لا؟ فيه قولان:

أحدهما: نعم، لما رواه الإمام أحمد، وأهل السنن، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ فى الذى يأتى امرأته وهي حائض: «يتصدق بدينار، أو نصف دينار». وفى لفظ للترمذى: «إذا كان دماً أحمر فدينار، وإن كان دماً أصفر فنصف دينار». وللإمام أحمد أيضاً، عنه: أن رسول الله ﷺ جعل فى الحائض تصاب، ديناراً فإن أصابها وقد أدبر الدم عنها ولم تغتسل، فنصف دينار^(٥). والقول الثانى: وهو الصحيح الجديد من مذهب الشافعى، وقول الجمهور: أنه لا شيء فى

(١) أبو داود (٢٧٢) ، وإسناده صحيح . والزيادة منه ومن المخطوطة الأزهرية .

(٢) الطبرى (٤٢٤٥) . وإسناده صحيح . وروى معناه عن عائشة ، قبله وبعده بأسانيد صحاح . وهذا - وإن كان موقوفاً لفظاً ، فهو مرفوع فى المعنى ؛ لأن الصحابى إذا حكى عما يحل ويحرم ، فالثقة به ألا يحكى ذلك إلا عمن يؤخذ عنه الحلال والحرام ، وهو معلم الخير ﷺ . إلا أن تدل دلائل على أن الصحابى يقوله من عند نفسه اجتهداً . ثم الرواية عن عائشة هنا قرائنها تدل على الرفع . فلم يكن مسروق ليتجشم سؤالها فى أدق شؤون النساء ، مما يستحى الرجل أن يواجه به المرأة - وخاصة بالنسبة لأمهات المؤمنين - إلا أن يكون ذلك ليعرف الحكم عن مصدر التحليل والتحريم ، لا ليعرف رأيها الخاص واجتهادها . والصحابة إذ ذاك كثيرون متوافرون .

(٣) هذا نقله الحافظ ابن كثير من مجموع حديثين ، رواهما مسلم (٩٦ / ١) .

(٤) رواه أبو داود (٢٥٩) . وكذلك رواه مسلم (٩٦ / ١) بنحوه . و « العرق » - بفتح العين وسكون الراء : العظم إذا أخذ عنه معظم اللحم وبقيت عليه بقية .

(٥) الروايتان فى المسند (٢٠٣٢ ، ٣٧٤٣) . وانظر شرحنا للترمذى (٢٤٤ / ١ - ٢٥٤) .

ذلك، بل يستغفر الله عز وجل، لأنه لم يصح عندهم رفع هذا الحديث، فإنه قد روى مرفوعاً كما تقدم وموقوفاً، وهو الصحيح عند كثير من أئمة الحديث، فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ تفسير لقوله: ﴿فَاعْزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ ونهى عن قربانهن بالجماع ما دام الحيض موجوداً، ومفهومه حله إذا انقطع.

وقوله: ﴿وَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ فيه نذب وإرشاد إلى غشيانهن بعد الاغتسال. وذهب ابن حزم إلى وجوب الجماع بعد كل حيضة! لقوله: ﴿وَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ وليس له في ذلك مستند، لأن هذا أمر بعد الخطر. وفيه أقوال لعلماء الأصول، منهم من يقول: إنه للوجوب كالمطلق. وهؤلاء يحتاجون إلى جواب ابن حزم، ومنهم من يقول: إنه للإباحة، ويجعلون تقدم النهي قرينة صارفة له عن الوجوب، وفيه نظر. والذي ينهض عليه الدليل أنه يُرَدُّ الحكم إلى ما كان عليه الأمر قبل النهي، فإن كان واجباً فواجب، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحَرَامُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]، أو مباحاً فمباح، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢]، ﴿وَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠] وعلى هذا القول تجتمع الأدلة، وهو الصحيح. وقد اتفق العلماء على أن المرأة إذا انقطع حيضها لا تحل حتى تغتسل بالماء أو تميم، إن تعذر ذلك عليها بشرطه، إلا أن أبا حنيفة يقول فيما إذا انقطع دمها لأكثر الحيض، وهو عشرة أيام عنده: إنها تحل بمجرد الانقطاع ولا تفتقر إلى غسل، والله أعلم. وقال ابن عباس: ﴿حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ أى: من الدم ﴿وَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ أى: بالماء. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وغيرهم.

وقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: يعنى الفَرْج. وفيه دلالة حيثئذ على تحريم الوطء في الدبر، كما سيأتى تقريره قريباً. وقال أبو رزين، وعكرمة، والضحاك وغير واحد: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ يعنى: طاهرات غير حيض، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ أى: من الذنب وإن تكرر غشيانه، ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أى: المنتزهين عن الأقدار والأذى، وهو ما نهوا عنه من إتيان الحائض، أو في غير المأثى.

وقوله: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس: الحَرْث موضع الولد ﴿فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ أى: كيف شئتم مقبلة ومدبرة فى صِمام واحد، كما ثبتت بذلك الأحاديث. روى البخارى: عن جابر قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول، فنزلت: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾. ورواه مسلم وأبو داود. وفى حديث معاوية بن حيدة القشيري، أنه قال: يا رسول الله، نسأؤنا ما نأتى منها وما نذر؟ قال: «حَرْثُك، ائت حَرْثُك أنى شئت، غير ألا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا فى البيت». الحديث، رواه أحمد، وأهل السنن. وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن سابط قال: دخلت على حفصة بنت عبد الرحمن ابن أبى بكر فقلت: إني سائلك عن أمر، وإنى أستحى أن أسألك. قالت: فلا تستحى يابن أخى. قال: عن إتيان النساء فى أدبارهن؟ قالت: حدثتني أم سلمة أن الأنصار كانوا [لا]

يُجِبُّونَ النساء، وكانت اليهود تقول: إنه من جَبَى امرأته كان ولده أحول، فلما قدم المهاجرون المدينة نكحوا في نساء الأنصار، فجبَّوهُنَّ، فأبَت امرأة أن تطيع زوجها وقالت: لن تفعل ذلك حتى آتى رسول الله ﷺ. فدخلت على أم سلمة فذكرت لها ذلك، فقالت: اجلسى حتى يأتى رسول الله ﷺ، فلما جاء رسول الله ﷺ استجيت الأنصارية أن تسأله، فخرجت، فحدثت أم سلمة رسول الله ﷺ فقال: « ادعى الأنصارية: » فدُعِيَتْ، فتلا عليها هذه الآية: « ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْى شِئْتُمْ ﴾ صاماً واحداً ». ورواه الترمذى وقال: حسن (١). وروى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، هلكت! قال: « ما الذى أهلكك؟ » قال: حولت رحلى الباردة! قال: فلم يرد عليه شيئاً. قال: فأوحى الله إلى رسول الله ﷺ هذه الآية: « ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْى شِئْتُمْ ﴾: أقبل وأدبر، واتق الدبر والحیضة ». ورواه الترمذى، وقال: حسن غريب (٢). وروى أبو داود عن ابن عباس قال: إن ابن عمر - والله يغفر له - وأهم، إنما كان أهل هذا الحى من الأنصار - وهم أهل وثن - مع أهل هذا الحى من يهود - وهم أهل كتاب - وكانوا يرون لهم فضلاً عليهم فى العلم، فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم، وكان من أمر أهل الكتاب لا يأتون النساء إلا على حرف، وذلك أستر ما تكون المرأة، فكان هذا الحى من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم، وكان هذا الحى من قريش يَشْرَحُونَ النساء شرحاً منكراً، ويتلذذون بهن مقبلات ومديبرات ومستلقيات. فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار، فذهب يصنع بها ذلك، فأنكرته عليه، وقالت: إنما كنا نُؤْتى على حرف، فاصنع ذلك وإلا فاجتنبى، فسرى أمرهما، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأنزل الله: « ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْى شِئْتُمْ ﴾: أى: مقبلات، ومديبرات، ومستلقيات - يعنى بذلك موضع الولد. تفرد به أبو داود (٣)، ويشهد له بالصحة ما تقدم من الأحاديث، ولا سيما رواية أم سلمة، فإنها مشابهة لهذا السياق. وقول ابن عباس: « إن ابن عمر - والله يغفر له - وأهم » كأنه يشير إلى ما رواه البخارى عن نافع قال: كان ابن عمر إذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه، فأخذت عليه يوماً فقرأ سورة البقرة، حتى انتهى إلى مكان قال: أتدرى فيم أنزلت؟ قلت: لا. قال: أنزلت فى كذا وكذا. ثم مضى. وروى ابن جرير:

(١) هو فى المسند (٦ / ٣٠٥ حلى) . وإسناده صحيح . ووقع فى المطبوعة محرراً جداً . وصححه من المخطوطة الأثرية والمسند . ولكن فى المخطوطة « أن الأنصار كانوا يجبون النساء » ، بسقوط حرف [لا] . وهو خطأ يفسد المعنى ، فزدنا الحرف من المسند . وأما رواية الترمذى ، فإنها فيه (٤ / ٧٥) مختصرة جداً وقال : « حديث حسن صحيح » . ورواه الطبرى (٤٣٤١ - ٤٣٤٥) مطولاً ومختصراً و « النتيجة » : أن يتكلم المرء على وجهه باركاً ، على هيئة الركوع أو السجود . يقال : « جى » بفتح الجيم والباء المشددة « يجى نجيبة » .

(٢) المسند (٢٧٠٣) والترمذى (٤ / ٧٥ ، ٧٦) والطبرى (٤٣٤٧) وصحيح ابن حبان (٦ / ٣٦٤ ، ٣٦٥) من مخطوطة الإحسان) وهو حديث صحيح .

(٣) أبو داود (٢١٦٤) . وإسناده صحيح ، ورواه الطبرى (٤٣٣٧ ، ٤٣٣٨) والحاكم (٢ / ١٩٥ ، ٢٧٩) والبيهقى (٧ / ١٩٥ ، ١٩٦) مطولاً ومختصراً . وصححه الحاكم ووافقه الذهبى ، وذكره المؤلف الحافظ هنا أيضاً من رواية الطبرى بنحوه . وقوله : « يشرحون النساء » : من « الشرح » - ثلاثى - وهو وطء المرأة نائمة على قفاها .

عن نافع قال: قرأت ذات يوم: ﴿ نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ ، فقال ابن عمر: أتدري فيم نزلت؟ قلت: لا. قال: نزلت في إتيان النساء في أدبارهن. وهذا محمول على ما تقدم، وهو: أنه يأتيها في قبلها من دبرها، لما رواه النسائي عن أبي النضر: أنه قال لنافع مولى ابن عمر: إنه قد أكثر عليك القول: أنك تقول عن ابن عمر: إنه أفتى أن يؤتى النساء في أدبارهن؟! قال: كذبوا على، ولكن سأحدثك كيف كان الأمر: إن ابن عمر: عرض المصحف يوماً وأنا عنده، حتى بلغ: ﴿ نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ : فقال: يا نافع، هل تعلم من أمر هذه الآية؟ قلت: لا. قال: إنا كنا معشر قريش نُجَبِي النساء، فلما دخلنا المدينة ونكحنا نساء الأنصار، أردنا منهن مثل ما كنا نريد فإذا هن قد كرهن ذلك وأعظمه، وكانت نساء الأنصار قد أخذن بحال اليهود، إنما يؤتين على جنوبهن، فأنزل الله: ﴿ نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ . وإسناده صحيح، وقد رواه ابن مردويه.

وقد روينا عن ابن عمر خلاف ذلك صريحاً، وأنه لا يباح ولا يحل كما سيأتي، وإن كان قد نسب هذا القول إلى طائفة من فقهاء المدينة وغيرهم، وعزاه بعضهم إلى الإمام مالك في كتاب السر، وأكثر الناس ينكر أن يصح ذلك عن الإمام مالك، رحمه الله. وقد وردت الأحاديث المروية من طرق متعددة بالزجر عن فعله وتعاطيه؛ فروى الحسن بن عرفة، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «استحيوا، إن الله لا يستحيى من الحق، لا يحل مأتى النساء في حشوشهن» (١). وروى أحمد عن خزيمة بن ثابت الخطمي: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يستحيى الله من الحق، لا يستحيى الله من الحق - ثلاثاً - لا تأتوا النساء في أعجازهن». ورواه النسائي، وابن ماجه من طرق، عن خزيمة بن ثابت. وفي إسناده اختلاف كثير (٢). وروى الترمذى، والنسائي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلاً أو امرأة في الدبر». ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب. وهكذا أخرجه ابن حبان في صحيحه. وصححه ابن حزم أيضاً. ولكن رواه النسائي أيضاً موقوفاً (٣).

(١) إسناده صحيح. وقد رواه الدارقطني أيضاً في سننه، (ص ٤١١) من طريق الحسن بن عرفة. وقد ذكره الحافظ ابن حجر في التلخيص (ص ٣٠٥) عن الدارقطني وابن شاهين. وفي مجمع الزوائد (٤/ ٢٩٩): «عن جابر بن عبد الله: أن النبي ﷺ نهى عن محاش النساء. رواه الطبراني، ورجاله ثقات». و«الحشوش» و«المحاش»: الأدبار - وأصل «الحش» - بضم الحاء وفتحها: النخل المجتمع، وكذلك «المحش». وكانوا يقضون حاجتهم في تلك المواضع. فكنى بالمحاش والحشوش عن الأدبار؛ لأنها مجتمع الغائط.

(٢) المسند (٥ / ٢١٥ حلى). وإسناده في هذا الموضع صحيح. وباقي أسانيد، في المسند (٥ / ٢١٣)، ٢١٤، ٢١٥، وابن ماجه (١٩٢٤)، والدارمي (٢ / ١٤٥)، والبيهقي (٧ / ١٩٦ - ١٩٨) وعندى أنه اختلاف لا يضر، فبعض الأسانيد صحاح، وما كان غير ذلك فلا يؤثر في صحة الصحيح. وقد وقع في إسناده الحديث في هذا الموضع من مطبوعة ابن كثير، وفي متنه - خطأ - صححناه من المخطوطة الأزهرية والمسند.

(٣) هو في صحيح ابن حبان (٦ / ٣٦٥، ٣٦٦ من مخطوطة الإحسان). ولفظه «أتى امرأة»، ليس فيه كلمة «رجلاً». ورواية النسائي التي أشار إليها الحافظ المؤلف هنا - هي من طريق وكيع. ولكن حكى ابن حبان أن وكيعاً رفعه أيضاً. والموقوف لا يعلل المرفوع.

وروى عبد بن حميد عن طاوس : أن رجلا سأل ابن عباس عن إتيان المرأة في دبرها فقال: تسألني عن الكفر! إسناده صحيح. وكذا رواه النسائي نحوه . وروى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن النبي ﷺ قال: «الذى يأتي امرأته في دبرها هي اللوطية الصغرى»^(١). وعن أبي الدرداء قال: وهل يفعل ذلك إلا كافر؟^(٢). وقد روى حديث عمرو ابن شعيب، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو، موقوفاً من قوله^(٣). وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الذى يأتي امرأته في دبرها لا ينظر الله إليه». وفي لفظ له: «ملعون من أتى امرأة في دبرها». ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه ، بنحوه^(٤). وروى الإمام أحمد، وأهل السنن عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها، أو كاهناً فصدقه، فقد كفر بما أنزل على محمد». وقال الترمذى: ضعف البخاري هذا الحديث. والذي قاله البخاري في حديث حكيم الأثرم عن أبي تيمية: لا يتابع في حديثه^(٥). وروى النسائي عن أبي هريرة قال: إتيان الرجال النساء في أدبارهن كفر . هكذا رواه النسائي عن أبي هريرة موقوفاً^(٦).

وقد ثبت عن ابن مسعود، وأبي الدرداء، وأبي هريرة، وابن عباس، وعبد الله بن عمرو - تحريم ذلك، وهو الثابت بلا شك عن عبد الله بن عمر ، أنه يحرمه . روى الدارمي عن سعيد ابن يسار أبي الحباب قال: قلت لابن عمر: ما تقول في الجوارى، أنحمض لهن؟ قال: وما التحميض؟ فذكر الدبر! فقال: وهل يفعل ذلك أحد من المسلمين؟! وإسناده صحيح^(٧). وهو

(١) المسند (٦٧٠٦، ٦٩٧، ٦٩٦٨) ورواه أيضا البزار ، والطبراني في الأوسط . وصححه المنذرى في الترغيب (٢٠٠ / ٣) ، والهشمي في الزوائد (٢٩٨ / ٤) .

(٢) هذه الرواية عن أبي الدرداء ، في المسند ، تابعة للحديث (٦٩٦٨) . وإسنادها صحيح . وهذا وإن كان موقوفاً لفظاً ، إلا أنه مرفوع حكماً ؛ لأن الصحابي لا يحكم على عمل بأنه كفر إلا أن يكون قد علمه من المعصوم المبلغ الرسالة عن ربه . فمثل هذا مما لا يقال بالرأى ولا القياس .

(٣) هكذا أعل الحافظ ابن كثير الحديث المرفوع بالرواية الموقوفة . وتبعه في ذلك الحافظ ابن حجر في التلخيص (ص ٣٠٦) . وهذا منهما ترجيح للموقوف على المرفوع دون دليل . والرفع زيادة من ثقة ، بل من ثقات . فهو مقبول صحيح .

(٤) المسند (٧٦٧٠، ٨٥١٣، ٩٧٣١، ١٠٢٠٩) . وقد فصلنا تخريجه في أولها ، وأسانيده صحاح .

(٥) المسند (٩٢٧٩ ، ١٠١٧٠) من طريق « حكيم الأثرم ، عن أبي تيمية الهبيمي ، عن أبي هريرة . وكذلك رواه البخاري في التاريخ الكبير (١٦ / ١ / ٢) من طريق حكيم الأثرم ثم قال : « هذا حديث لا يتابع عليه . ولا يعرف لأبي تيمية سماع من أبي هريرة » . وقد وقع هنا في المطبوعة : « والذي قاله البخاري في حديث الترمذى ! وفي المخطوطة : « في حديث حكيم الترمذى !! وكلاهما خطأ واضح ، والصواب ما أثبتنا ، بدلالة كلام البخاري نفسه .

(٦) هذا وإن كان موقوفاً لفظاً ، فهو مرفوع حكماً ، كما بينا في حديث أبي الدرداء آنفاً ، كما في الحاشية (٢) من هذه الصفحة . وقد جاء مرفوعاً أيضاً : ففى الزوائد (٢٩٩ / ٤) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من أتى النساء في أعجازهن فقد كفر » . رواه الطبراني ورجاله ثقات . وقد أشار الحافظ ابن كثير هنا إلى رواية أخرى مرفوعة ، وقال : « والموقوف أصح » .

(٧) سنن الدارمي (٢ / ٢٦٠ ، ٢٦١) .

نص صريح منه بتحريم ذلك، فكل ما ورد عنه مما يحتمل ويحتمل فهو مردود إلى هذا الحكم. وروى معن بن عيسى، عن مالك: أَنَّ ذَلِكَ حَرَامٌ ^(١). وروى أبو بكر النيسابوري سألت مالك ابن أنس، أنه سئل: ما تقول في إتيان النساء في أدبارهن؟ قال: ما أنتم قوم عرب! هل يكون الحرث إلا موضع الزرع؟! لا. تَعُدُّ الفرج. قلت: يا أبا عبد الله، إنهم يقولون: إنك تقول ذلك؟ قال: يكذبون على، يكذبون على. فهذا هو الثابت عنه، وهو قول أبي حنيفة، والشافعي، وأحمد بن حنبل وأصحابهم قاطبة. وهو قول سعيد بن المسيب، وأبي سلمة، وعكرمة، وطاوس، وعطاء، وسعيد بن جبيرة، وعروة بن الزبير، ومجاهد بن جبر، والحسن وغيرهم من السلف: أنهم أنكروا ذلك أشد الإنكار، ومنهم من يطلق على فعله الكفر، وهو مذهب جمهور العلماء.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَوَّاهُ لَأَنفُسِكُمْ﴾ أي: من فعل الطاعات، مع امتثال ما أنهاكم عنه من ترك المحرمات؛ ولهذا قال: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ﴾ أي: فيحاسبكم على أعمالكم جميعها. ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: المطيعين لله فيما أمرهم، التاركين ما عنه زجرهم.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلُّوا وَتُحِلُّوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١١١) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَوْرٌ حَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

يقول تعالى: لا تجعلوا أيمانكم بالله تعالى مانعة لكم من البر وصلة الرحم إذا حلفتكم على تركها، كقوله تعالى: ﴿وَلَا بَاطِلٌ أُوْتُوا الْفَضْلَ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢]، فالاستمرار على اليمين آثم لصاحبها من الخروج منها بالتكفير. كما روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والله لأن يلج أحدكم يمينه في أهله آثم له عند الله من أن يعطى كفارته التي افترض الله عليه» ورواه أحمد ومسلم ^(٢). وقال ابن عباس: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ قال: لا تجعل عرضة ليمينك ألا تصنع الخير، ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير. وهكذا قال مسروق، والشعبي، والنخعي، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وغيرهم. ويؤيد ما قاله هؤلاء الجمهور ما ثبت في الصحيحين، عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إني والله - إن شاء الله - لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها»، وثبت فيهما أيضاً أن رسول الله ﷺ قال لعبد الرحمن بن سمرة: «يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل

(١) في المخطوطة الأزهرية والمطبوعة «معمر بن عيسى» وهو خطأ واضح.

(٢) البخاري (١١ / ٤٥٢، ٤٥٣ فتح) والمسند (٨١٩٣) ومسلم (١٨ / ٢). ورواه أحمد أيضاً بنحوه (٧٧٢٩). وقوله: «لأن يلج» قال الحافظ: «بفتح اللام، وهي اللام المؤكدة للقسم. و يلج بكسر اللام ويجوز فتحها بعدها جيم، من اللجاج، وهو: أن يتمادى في الأمر ولو تبين له خطؤه». أقول: وهو من بابي «تعب» و «ضرب».

الإمارة ، فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها ، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك . وروى مسلم ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها ، فليكفر عن يمينه ، وليفعل الذي هو خير » . وروى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده أن رسول الله ﷺ قال : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فتركها كفارتها » . ورواه أبو داود - في حديث - بلفظك « ومن حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليدعها ، وليأت الذي هو خير ، فإن تركها كفارتها » . ثم قال أبو داود : والأحاديث عن النبي ﷺ كلها : « فليكفر عن يمينه » وهى الصحاح^(١) . وروى ابن جرير عن ابن جبير ، وسعيد بن المسيب ، ومسروق ، والشعبي - أنهم قالوا : لا يمين فى معصية ، ولا كفارة عليها .

وقوله : ﴿ لَا يُؤْخَذُكُمْ اللَّهُ بِاللُّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ أى : لا يعاقبكم ولا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللاغية ، وهى التى لا يقصدها الخالف ، بل تجرى على لسانه عادة من غير تعقيد ولا تأكيد ، كما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « من حلف فقال فى حلفه : واللات والعزى ، فليقل : لا إله إلا الله » فهذا قاله لقوم حديثى عهد بجاهلية ، قد أسلموا وألستهم قد ألفت ما كانت عليه من الخلف باللات من غير قصد ، فأمرُوا أن يتلفظوا بكلمة الإخلاص ، كما تلفظوا بتلك الكلمة من غير قصد ، لتكون هذه بهذه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ﴾ [المائدة : ٨٩] . وروى أبو داود عن عطاء : فى اللغو فى اليمين ، قال : قالت عائشة : إن رسول الله ﷺ قال : « هو كلام الرجل فى بيته : كـ : لا والله أو بلى والله » ثم ذكر أنه روى عن عائشة موقوفاً . ورواه ابن جرير ، عن عائشة : ﴿ لَا يُؤْخَذُكُمْ اللَّهُ بِاللُّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ [المائدة : ٨٩] قالت : لا والله ، بلى والله^(٢) . وروى عبد الرزاق : عن عائشة فى قوله : ﴿ لَا يُؤْخَذُكُمْ اللَّهُ بِاللُّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ قالت : هم القوم يتدارؤون فى الأمر ، فيقول هذا : لا والله ، وبلى والله ، وكلا والله يتدارؤون فى الأمر : لا تعقد عليه قلوبهم^(٣) . وقد قال ابن أبى حاتم : عن عائشة : أنها كانت تتأول هذه الآية وتقول : هو الشئ يحلف عليه أحدكم ، لا يريد منه إلا الصدق ، فيكون على غير ما حلف عليه . ثم حكى نحو ذلك عن أبى هريرة ، وسليمان بن يسار ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد - والحسن ، وزرارة بن أوفى ، ومكحول ، وطاوس ، وقتادة ، وغيرهم . وروى أبو داود عن سعيد بن المسيب : أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث ، فسأل أحدهما صاحبه القسمة فقال : إن عدت تسألنى عن القسمة ، فكل مالى فى رتاج الكعبة . فقال له عمر : إن الكعبة غنية عن مالك ، كفر عن يمينك وكلم أخاك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يمين عليك ، ولا نذر

(١) المسند (٦٧٣٦) أبو داود (٣٢٧٤) . (٢) أبو داود (٣٢٥٤) والطبرى (٤٣٧٧) .

(٣) تفسير عبد الرزاق (ص ٢٧) ، وإسناده صحيح ، ورواه الطبرى (٤٣٨٣) من طريق عبد الرزاق . و « تدارأ القوم الأمر » : اختلفوا فيه ، فتخاصموا وتدافعوا ، وتراجعوا القول بينهم .

فى معصية الرب عز وجل، ولا فى قطيعة الرحم، وفيما لا تملك « (١).

وقوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾: قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: هو أن يحلف على الشيء وهو يعلم أنه كاذب. قال مجاهد وغيره: وهى كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ الآية [المائدة: ٨٩]. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أى: غفور لعباده، حلِيم عنهم .

﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَبْعُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٦﴾

الإيلاء: الحلف، فإذا حلف الرجل ألا يجامع زوجته مدة، فلا يخلو: إما أن يكون أقل من أربعة أشهر، أو أكثر منها، فإن كانت أقل، فله أن ينتظر انقضاء المدة ثم يجامع امرأته، وعليها أن تصبر، وليس لها مطالبة بالفيتة فى هذه المدة، وهذا كما ثبت فى الصحيحين عن عائشة: أن رسول الله ألى من نسائه شهراً، فنزل لتسع وعشرين، وقال: «الشهر تسع وعشرون» ولهما عن عمر بن الخطاب نحوه . فاما إن زادت المدة على أربعة أشهر، فللزوجة مطالبة الزوج عند انقضاء أربعة أشهر: إما أن يقضى - أى: يجامع - وإما أن يطلق، فيجبره الحاكم على هذا أو هذا لثلاث يضر بها. ولهذا قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ أى: يحلفون على ترك الجماع من نسائهم، فيه دلالة على أن الإيلاء يختص بالزوجات دون الإماء كما هو مذهب الجمهور. ﴿تَبْعُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ أى: ينتظر الزوج أربعة أشهر من حين الحلف، ثم يوقف ويطالب بالفيتة أو الطلاق. ولهذا قال: ﴿إِنْ فَاءُوا﴾ أى: رجعوا إلى ما كانوا عليه، وهو كناية عن الجماع، قاله ابن عباس، وغير واحد، ومنهم ابن جرير رحمه الله ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أى: لما سلف من التقصير فى حقهن بسبب اليمين.

وقوله: ﴿إِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فيه دلالة لأحد قولى العلماء - وهو القديم عن الشافعى: أن المولى إذا فاء بعد الأربعة الأشهر أنه لا كفارة عليه. ويعتضد بما تقدم فى الحديث عند الآية التى قبلها، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فتركها كفارتها»، كما رواه أحمد وأبو داود والترمذى . والذى عليه الجمهور - وهو الجديد من مذهب الشافعى - أن عليه الكفارة لعموم وجوب التكفير على كل حالف، كما تقدم أيضاً فى الأحاديث الصحاح. والله أعلم. وقد ذكر الفقهاء وغيرهم - فى مناسبة تأجيل المولى بأربعة أشهر - الأثر الذى رواه الإمام مالك بن أنس، فى الموطأ، عن عبد الله بن دينار قال: خرج عمر بن الخطاب من الليل فسمع امرأة تقول:

(١) أبو داود (٣٢٧٧) . وزعم المنذرى أن ابن المسيب لم يسمع من عمر ، قال : « فهو منقطع » ! وتعبه الحافظ ابن القيم ، فقال : « قال الإمام أحمد وغيره من الأئمة : سعيد بن المسيب عن عمر - عندنا حجة . قال أحمد: إذا لم نقبل سعيداً عن عمر فمن نقبل ١٩ قد رأه وسمع » . وهو حديث صحيح ، رواه ابن حبان فى صحيحه (٦ / ٤٨٧ من مخطوطة الإحسان) ، ورواه الحاكم (٤ / ٣٠٠) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى .

تطاول هذا الليل واسودّ جانبه وأرقنى ألا خليل الأعبه
فوالله لـولا أنى أراقبه لحرك من هذا السرير جوانبه

فسأل عمر ابنته حفصة : كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت: ستة أشهر أو أربعة أشهر. فقال عمر: لا أحبس أحداً من الجيوش أكثر من ذلك. وقد روى هذا من طرق، وهو من المشهورات.

وقوله: ﴿وَأَنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾: فيه دلالة على أن الطلاق لا يقع بمجرد مضي الأربعة أشهر كقول الجمهور، وذهب آخرون إلى أنه يقع بمضي أربعة أشهر تطليقة، وهو مروي بأسانيد صحيحة عن عمر، وعثمان، وعلى، وابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وزيد بن ثابت، وبه يقول ابن سيرين، ومسروق والقاسم، وسالم وغيرهم. ثم قيل: إنها تطلق بمضي الأربعة أشهر طلقة رجعية؛ قاله سعيد بن المسيب، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، ومكحول، وربيعة، وغيرهم. وقيل: إنها تطلق طلقة بائنة، والذي عليه الجمهور: أنه يوقف فيطالب إما بهذا أو هذا، ولا يقع عليها بمجرد مضيها طلاق. وروى مالك، عن نافع، عن عبد الله بن عمر أنه قال: إذا ألى الرجل من امرأته لم يقع عليه طلاق وإن مضت أربعة أشهر، حتى يوقف، فإما أن يطلق، وأما أن يقف. وأخرجه البخاري. وروى الشافعي، عن سليمان ابن يسار قال: أدركت بضعة عشر من أصحاب النبي ﷺ كلهم يوقف المولى. وروى ابن جرير عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه قال: سألت اثني عشر رجلاً من الصحابة عن الرجل يولى من امرأته؟ فكلهم يقول: ليس عليه شيء حتى تمضي الأربعة الأشهر فيوقف، فإن فاء وإلا طلق. ورواه الدارقطني. وهو مذهب مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وأصحابهم، وهو اختيار ابن جرير أيضاً، وهو قول الليث، وإسحاق بن راهويه، وأبي عبيد، وأبي ثور، ودادود.

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِيهِ أَرْحَامَهُنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَهُمْ لَيْسَ أَهْلٌ بِرِذْوَانٍ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

هذا الأمر من الله سبحانه وتعالى للمطلقات - المدخول بهن من ذوات الأقراء - بأن يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء، أي: بأن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء؛ ثم تتزوج إن شاءت، وقد أخرج الأئمة الأربعة من هذا العموم الأمة إذا طُلِّقت، فإنها تعتدّ عندهم بقراءين، لأنها على النصف من الحرية، والقراءة لا يتبعض، فكُمِّلَ لها قرءان. وهكذا روى عن عمر بن الخطاب. قالوا: ولم يعرف بين الصحابة خلاف. وقال بعض السلف: بل عدتها كعدة الحرية لعموم الآية؛ ولأن هذا أمر جليلي، فكان الحرائر والإماء في هذا سواء. حكى هذا القول الشيخ أبو عمر بن عبد البر، عن محمد بن سيرين وبعض أهل الظاهر، وضعفه. وقد اختلف السلف والخلف والأئمة في المراد بالأقراء ما هو؟ على قولين:

أحدهما: أن المراد بها: الأطهار، وقال مالك في الموطأ عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة أنها قالت: انتقلت حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر (١)، حين دخلت في الدم من الحيضة الثالثة، [قال الزهري] (٢): فذكرت ذلك لعمره بنت عبد الرحمن، فقالت: صدق عروة. وقد جادلها في ذلك ناس فقالوا: إن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿ثَلَاثَةُ قُرُوءٍ﴾ فقالت عائشة: صدقتم، وتدرون ما الأقراء؟ إنما الأقراء: الأطهار. وقال مالك: عن ابن شهاب، سمعت أبا بكر بن عبد الرحمن يقول: ما أدركت أحداً من فقهاءنا إلا وهو يقول ذلك، يريد قول عائشة. وقال مالك: عن نافع، عن عبد الله بن عمر، أنه كان يقول: إذا طلق الرجل امرأته فدخلت في الدم من الحيضة الثالثة فقد برئت منه وبرئ منها. وقال مالك: وهو الأمر عندنا. وروى مثله عن ابن عباس وزيد بن ثابت، وسالم، والقاسم، وعروة، وأبي بكر بن عبد الرحمن، وقتادة، والزهري، وبقية الفقهاء السبعة، وغيرهم، وهو مذهب مالك، والشافعي وغير واحد وداود وأبي ثور، وهو رواية عن أحمد.

والقول الثاني: أن المراد بالأقراء: الحيض، فلا تنقضي الغدة حتى تطهر من الحيضة الثالثة، زاد آخرون: وتغتسل منها. قال الثوري: عن منصور، عن إبراهيم، عن علقمة قال: كنا عند عمر بن الخطاب، فجاءته امرأة فقالت: إن زوجي فارقني بواحدة أو اثنتين، فجاءني وقد نزعت ثيابي وأغلقت بابي. فقال عمر لعبد الله - يعني ابن مسعود: أراها امرأته، ما دون أن تحمل لها الصلاة. قال وأنا أرى ذلك. وهكذا روى عن أبي بكر الصديق، وعمر، وعثمان، وعلى، وأبي الدرداء، وعبادة بن الصامت، وأنس بن مالك، وابن مسعود، ومعاذ، وأبي بن كعب، وأبي موسى الأشعري، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وعلقمة، والأسود، وإبراهيم، ومجاهد، وعطاء، وطاوس، وسعيد بن جبیر، وعكرمة، ومحمد بن سيرين، والحسن، وقتادة، والشعبي، وغيرهم، أنهم قالوا: الأقراء: الحيض. وهذا مذهب أبي حنيفة وأصحابه، وأصح الروايتين عن الإمام أحمد بن حنبل، وحكى عنه الأثرم أنه قال: الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: الأقراء الحيض. وهو مذهب الثوري، والأوزاعي، وابن أبي ليلى، وابن شبرمة، والحسن بن صالح بن حبان، وأبي عبيد، وإسحاق بن راهويه. ويؤيد هذا ما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود والنسائي، من طريق المنذر بن المغيرة، عن عروة بن الزبير، عن فاطمة بنت أبي حبيش: أن رسول الله ﷺ قال لها: « دَعِيَ الصلاة أيام أقرائك ». فهذا لو صح لكان صريحاً في أن القرء هو الحيض، ولكن المنذر - هذا - قال فيه أبو حاتم: مجهول ليس بمشهور. وذكره ابن حبان في الثقات (٣).

(١) « انتقلت حفصة » بنصب « حفصة »، أي نقلتها. استعمل الفعل اللازم متعدداً.

(٢) الزيادة من المخطوطة الأزهرية. وهي في الموطأ (ص ٥٧٦، ٥٧٧) « قال ابن شهاب ». وابن شهاب هو الزهري.

(٣) هكذا قال أبو حاتم في المنذر بن المغيرة، كما روى عنه ابنه في الجرح والتعديل (٤ / ١ / ٢٤٢). ولكن ذكره ابن حبان في الثقات، كما قال الحافظ ابن كثير. وأريد على ذلك أنه ترجمه البخاري في الكبير (١ / ٤ / ٣٥٧)، فلم يذكر فيه جرحاً. فهو - عنده - معروف وثقة. وهذا كاف في قبول روايته وصحتها.

وقال ابن جرير: أصلُ القرء في كلام العرب: الوقت لمجيئ الشيء المعتاد مجيئه في وقت معلوم، ولإدبار الشيء المعتاد إدباره لوقت معلوم. وهذه العبارة تقتضى أن يكون مشتركاً بين هذا وهذا، وقد ذهب إليه بعض الأصوليين فالله أعلم. وهذا قول الأصمعي: أن القرء هو الوقت. وقال أبو عمرو بن العلاء: العرب تسمى الحيض: قُرْءاً، وتسمى الطهر: قرءاً، وتسمى الطهر والحيض جميعاً: قرءاً. وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر: لا يختلف أهل العلم بلسان العرب والفقهاء أن القرء يراد به الحيض ويراد به الطهر، وإنما اختلفوا في المراد من الآية ما هو على قولين.

وقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ أي: من حَبَلٍ أو حيض. قاله ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، وغير واحد. وقوله: ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: تهديد لهن على [قول] خلاف الحق (١). ودل هذا على أن المرجع في هذا إليهن؛ لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتين، وتتعدّر إقامة البيّنة غالباً على ذلك، فردّ الأمر إليهن، وتوَعَّدْنَ فيه، لثلا تخبر بغير الحق إما استعجالاً منها لانقضاء العدة، أو رغبة منها في تطويلها، لما لها في ذلك من المقاصد. فأمرت أن تخبر بالحق في ذلك من غير زيادة ولا نقصان.

وقوله: ﴿وَبَعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ أي: وزوجها الذي طلقها أحق بردها ما دامت في عدتها، إذا كان مراده بردها الإصلاح والخير. وهذا في الرجعيات. فأما المطلقات البوائن فلم يكن حال نزول هذه الآية مطلقة بائن، وإنما صار ذلك لما حُصروا في الطلقات الثلاث، فأما حال نزول هذه الآية فكان الرجل أحقّ برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة، فلما قصرُوا في الآية التي بعدها على ثلاث طلقات، صار للناس مطلقة بائن وغير بائن. وإذا تأملت هذا تبين لك ضعف ما سلكه بعض الأصوليين، من استشهادهم على مسألة عود الضمير: هل يكون مخصصاً لما تقدمه من لفظ العموم أم لا؟ - بهذه الآية الكريمة، فإن التمثيل بها غير مطابق لما ذكره، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: ولهن على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن، فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه بالمعروف، كما ثبت في صحيح مسلم، عن جابر، أن رسول الله ﷺ قال في خطبته، في حجة الوداع: «فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهنّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف». وفي حديث معاوية بن حيدة القشيري، أنه قال: يا رسول الله، ما حق زوجة أحدنا؟ قال: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت». وعن ابن عباس قال: إني لأحب أن أتزني للمرأة كما أحب أن تتزني لى المرأة؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم (٢).

وقوله: ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ أى: فى الفضيلة فى الخلق والخلق، والمنزلة، وطاعة الأمر، والإنفاق، والقيام بالمصالح، والفضل فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ [النساء: ٣٤]. وقوله: ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أى: عزيز فى انتقامه من عصاه وخالف أمره، حكيم فى أمره وشرعه وقدره.

﴿ أَلْطَلَقَ مَرَّتَانٍ فإِمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيعٍ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٢٩﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

هذه الآية الكريمة رافعة لما كان عليه الأمر فى ابتداء الإسلام، من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته، وإن طلقها مائة مرة ما دامت فى العدة، فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات قصرهم الله إلى ثلاث طلاقات، وأباح الرجعة فى المرة والثنتين، وأبانها بالكلية فى الثالثة، فقال: ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فإِمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيعٍ بِإِحْسَانٍ ﴾. روى أبو داود، عن ابن عباس: ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ ﴾ الآية: وذلك أن الرجل كان إذا طلق امرأته فهو أحق برجعتها، وإن طلقها ثلاثاً، فنسخ ذلك فقال: ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ ﴾ الآية. ورواه النسائي . وروى عبد بن حميد والطبرى وابن أبى حاتم عن هشام، عن أبيه. قال: كان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها ما يشاء ، ما دامت فى العدة ، وإن رجلا من الأنصار تغضب على امرأته فقال: والله لا أوويك ولا أفارقك! قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلقك فإذا دنا أجلك راجعتك، ثم أطلقك، فإذا دنا أجلك راجعتك. فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل: ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ ﴾ قال: فاستقبل الناس الطلاق، من كان طلق ومن لم يكن طلق. وقد رواه ابن مردويه، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة فذكره بنحو ما تقدم. ورواه الترمذى، موصولاً، ثم رواه مرسلًا. وقال: هذا أصح. ورواه الحاكم موصولاً وقال: صحيح الإسناد (١).

وقوله: ﴿ فإِمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيعٍ بِإِحْسَانٍ ﴾ أى: إذا طلقته واحدة أو اثنتين، فانت مخير فيها ما دامت عدتها باقية، بين أن تردها إليك ناوياً الإصلاح بها والإحسان إليها، وبين أن تركها حتى تنقضى عدتها، فتبين منك، وتطلق سراحها محسناً إليها، لا تظلمها من حقها شيئاً، ولا تضار بها.

(١) الحديث من رواية هشام بن عروة عن أبيه - رواية مرسلة . وهو فى الطبرى - مرسل - بإسنادين : (٤٧٧٩ ، ٤٧٨٠) ، والرواية الموصولة فى الترمذى (٢ / ٢١٩) والمستدرک (٢ / ٢٧٩ ، ٢٨٠) والبيهقى (٣٣٣ / ٧) وقد بينا صحته موصولاً ، فى تخريجات الطبرى .

وقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ أى: لا يحل لكم أن تضاعروهن وتضيّقوا عليهن، ليفتدين منكم بما أعطيتموهن من الأصدقة أو ببعضه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَغْلُواهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ [النساء: ١٩]، فأما إن وهبته المرأة شيئاً عن طيب نفس منها. فقد قال تعالى: ﴿فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: ٤]، وأما إذا تشاقت الزوجان، ولم تقم المرأة بحقوق الرجل وأبغضته ولم تقدر على معاشرته، فلها أن تفتدى منه بما أعطاهما، ولا حرج عليها فى بذلها، ولا عليه فى قبول ذلك منها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ الآية.

فأما إذا لم يكن لها عذر وسألت الافتداء منه، فقد روى الإمام أحمد عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «أيا امرأة سألت زوجها الطلاق فى غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة». وهكذا رواه أبو داود، وابن ماجه، وابن جرير (١). وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ: «المختلعات والمتزعات هن المنافقات» (٢).

ثم قد قال طائفة كثيرة من السلف وأئمة الخلف: إنه لا يجوز الخلع إلا أن يكون الشقاق والنشور من جانب المرأة، فيجوز للرجل حينئذ قبول الفدية، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ الآية. قالوا: فلم يشرع الخلع إلا فى هذه الحالة، فلا يجوز فى غيرها إلا بدليل، والأصل عدمه، وعن ذهب إلى هذا ابن عباس، وطاوس، وإبراهيم، وعطاء، والحسن، والجمهور. حتى قال مالك والأوزاعى: لو أخذ منها شيئاً وهو مضار لها وجب رده إليها، وكان الطلاق رجعياً. قال مالك: وهو الأمر الذى أدركت الناس عليه. وذهب الشافعى، رحمه الله، إلى أنه يجوز الخلع فى حال الشقاق، وعند الاتفاق بطريق الأولى والأخرى، وهذا قول جميع أصحابه قاطبة. وقد ذكر ابن جرير، أن هذه الآية نزلت فى شأن ثابت بن قيس بن شماس وامراته حبيبة بنت عبد الله بن أبى ابن سلول (٣). ولنذكر طرق حديثها، واختلاف ألفاظه: روى الإمام مالك عن حبيبة بنت سهل الأنصارى: أنها كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس، وأن رسول الله ﷺ خرج إلى الصبح فوجد حبيبة بنت سهل عند بابها فى الغلَس، فقال رسول الله ﷺ: «من هذه؟» قالت: أنا حبيبة بنت سهل. فقال: «ما شأنك؟» فقالت: لا أنا ولا ثابت بن قيس - لزوجها - فلما جاء زوجها ثابت بن قيس قال له رسول الله ﷺ: «هذه حبيبة بنت سهل قد ذكرت ما شاء الله أن تذكر». فقالت:

(١) المسند (٢٨٣/٥ حلى) وأبو داود (٢٢٢٦) وابن ماجه (٢٠٥٥) والطبرى (٤٨٤٤) والحاكم (٢٠٠ / ٢) والبيهقى (٣١٦/٧) وصححه الحاكم والذهبي. وفى الفتح (٣٥٤/٩) أنه «صححه ابن خزيمة وابن حبان».

(٢) المسند (٩٣٤٧). وهو حديث صحيح. وقد فصلنا القول فى صحته فى شرح حديث آخر فى المسند (٧١٣٨) (١٢/ ١١٤ - ١١٦).

(٣) هكذا قال الحافظ ابن كثير هنا! وأخشى أن يكون وهما منه. فإن الروايات فيها «حبيبة بنت سهل الأنصارى» و«جميلة بنت عبد الله بن أبى ابن سلول». كما يتضح مما سيأتى.

حبيبة : يا رسول الله ، كل ما أعطاني عندى . فقال رسول الله ﷺ : «خذ منها» . فأخذ منها وجلست فى أهلها . ورواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي من طريق مالك (١) . وروى البخارى عن ابن عباس : أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبى ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ، ما أعيبُ عليه فى خلق ولا دين ، ولكنى أكره الكفر فى الإسلام . قال رسول الله ﷺ : «أتردين عليه حديقته؟» قالت : نعم . قال رسول الله ﷺ : «أقبل الحديقة وطلقها تطليقة» . ورواه النسائي . وهكذا رواه البخارى من طرق عن ابن عباس . وفى بعضها أنها قالت : لا أطيقه ، يعنى : بغضاً . وهذا الحديث من أفراد البخارى من هذا الوجه (٢) . وروى أبو القاسم البغوى عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أن جميلة بنت سلول أتت النبى ﷺ فقالت : والله ما أعتب على ثابت بن قيس بن شماس فى دين ولا خلق ، ولكنى أكره الكفر فى الإسلام ، ولا أطيقه بغضاً . فقال النبى ﷺ : «تردين عليه ما ساق؟» قالت : نعم ، فأمره النبى ﷺ أن يأخذ منها ما ساق ولا يزداد . وقد رواه ابن مردويه وابن ماجه وهذا إسناد جيد مستقيم (٣) . وروى ابن ماجه : عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : كانت حبيبة بنت سهل تحت ثابت بن قيس بن شماس ، وكان رجلاً دميماً ، فقالت : يا رسول الله ، والله لولا مخافة الله إذا دخل على بسقتُ فى وجهه ! فقال رسول الله ﷺ : «أتردين عليه حديقته؟» قالت : نعم . فردت عليه حديقته . قال : ففرق بينهما رسول الله ﷺ (٤) .

وقد اختلف الأئمة ، رحمهم الله ، فى أنه : هل يجوز للرجل أن يفاديهما بأكثر مما أعطاهما؟ فذهب الجمهور إلى جواز ذلك ، لعموم قوله تعالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾ . وروى ابن جرير : وروى عن كثير مولى سمرة : أن عمر أتى بامرأة ناشز ، فأمر بها إلى بيت كثير الزبل ، ثم دعا بها فقال : كيف وجدت؟ ! فقالت : ما وجدت راحة منذ كنت عنده إلا هذه الليالى التى حبستنى ! فقال لزوجها : اخلعها ولو من قرطها . ورواه عبد الرزاق مثله ، وزاد : فحبسها له ثلاثة

(١) الموطأ (ص ٥٦٤) والمسند (٤٣٣/٦ ، ٤٣٤ حلى) ورواه الطبرى أيضاً (٤٨٠٩) من طريق مالك . وفصلنا تخريجه هنالك .

(٢) يعنى من أفراد دون مسلم . وهو فى البخارى (٩ / ٣٤٩ - ٣٥٤ فتح) ، ونص الحافظ فى الفتح (٩ / ٤٣٦) على أنه من أفراد دون مسلم .

(٣) ابن ماجه (٢٠٥٦) بإسناده نحوه . وروى الطبرى (٤٨١٠) نحو معناه ، عن عبد الله بن رباح ، عن جميلة بنت أبى ابن سلول . وإسناده صحيح .

(٤) ابن ماجه (٢٠٥٧) . وكذلك رواه الإمام أحمد ، ولكن لم يروه فى مسند «عبد الله بن عمرو بن العاص» . بل رواه فى مسند «سهل بن أبى حثمة» . رواه : (١٦١٣) (٤ / ٣) ، من طريق «حجاج بن عمرو بن شعيب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو» ، ومن طريق «الحجاج عن محمد بن سليمان بن أبى حثمة عن عمه سهل بن أبى حثمة» فذكر الحديث . وزاد فى آخره : «قال : فكان ذلك أول خلع كان فى الإسلام» . وذكره الهيثمى فى الزوائد (٥ / ٤ ، ٥) وقال : «رواه أحمد والبخارى والطبرانى . وفيه الحجاج بن أرتاة ، وهو دلس» . وقولها «بسقت» : هكذا ثبت بالسين فى الأهرية . وفى المطبوعة «بصقت» بالصاد . وفى المسند «بزقت» بالزاي - وكل ذلك صحيح لغة .

أيام (١). وقال البخارى: وأجاز عثمان الخلع دون عقاص رأسها. وروى عبد الرزاق عن الربيع بنت معوذ بن عفراء قالت: كان لى زوج يُقِلُّ على الخير إذا حضرنى، ويحرمنى إذا غاب عنى. قالت: فكانت منى زلة يوماً، فقلت له: أختلج منك بكل شيء أملكه؟ قال: نعم. قالت: ففعلت. قالت: فخاصم عمى معاذ بن عفراء إلى عثمان بن عفان، فأجاز الخلع، وأمره أن يأخذ عقاص رأسى فما دونه، أو قالت: ما دون عقاص الرأس (٢). ومعنى هذا: أنه يجوز أن يأخذ منها كل ما بيدها من قليل وكثير، ولا يترك لها سوى عقاص شعرها. وبه يقول ابن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وغيرهم. وهذا مذهب مالك، والليث، والشافعى، وأبى ثور، واختاره ابن جرير. وقال أصحاب أبى حنيفة: إن كان الإضرار من قبلها جاز أن يأخذ منها ما أعطاهما، ولا تجوز الزيادة عليه، فإن ازداد جاز فى القضاء. وإن كان الإضرار من جهته لم يجز أن يأخذ منها شيئاً، فإن أخذ جاز فى القضاء. وقال الإمام أحمد، وأبو عبيد، وإسحاق: لا يجوز أن يأخذ منها أكثر مما أعطاهما. وهذا قول سعيد بن المسيب، وعطاء، والزهرى، وغيرهم.

وقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أى: هذه الشرائع التى شرعها لكم هى حدوده، فلا تتجاوزوها. كما ثبت فى الحديث الصحيح: «إن الله حد حدوداً فلا تعتدوها، وفرض فرائض فلا تضيعوها، وحرم محارم فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان، فلا تسألوا عنها» (٣).

وقوله تعالى: ﴿إِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ أى: أنه إذا طلق الرجل امرأته طليقة ثالثة بعدما أرسل عليها الطلاق مرتين، فإنها تحرم عليه «حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ»، أى: حتى يطأها زوج آخر فى نكاح صحيح، فلو وطئها واطئ فى غير نكاح، ولو فى ملك يمين لم تحل للأول. فروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل كانت تحته امرأة فطلقها ثلاثاً فتزوجت بعده رجلاً، فطلقها قبل أن يدخل بها: أتحل لزوجها الأول؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا، حتى يكون الآخر قد ذاق من عسيلتها وذقت من عسيلته». ورواه ابن جرير. قلت: ومحمد بن دينار بن صندل أبو بكر الأزدي ثم الطاحى البصرى، ويقال له: ابن أبى الفرات: اختلفوا فيه، فمنهم من ضعفه، ومنهم من قواه وقبله وحسن له.

(١) الطبرى (٤٨٦٠ ، ٤٨٦١) والبيهقى (٧ / ٣١٥). وهو أثر منقطع؛ لأن كثير بن أبى كثير مولى سمرة: تابعى يروى عن صغار الصحابة، وروايته عن عمر مرسلة، كما فى التهذيب.

(٢) ورواه الطبرى (٤٨٧٠) من طريق عبد الرزاق. وإسناده صحيح، ورواه ابن سعد (٨ / ٣٢٨) بإسنادين صحيحين.

(٣) سيذكره الحافظ ابن كثير أيضاً عند تفسير الآية (١٠١) من سورة المائدة. وهو من حديث أبى ثعلبة الخشنى. وهو الحديث الثلاثون من الأربعين النووية. وقال النووى: «حديث حسن، رواه الدارقطنى وغيره». وذكر السيوطى فى زيادات الجامع الصغير أنه رواه الحاكم. انظر: الفتح الكبير (١ / ٣٣١).

وذكر أبو داود أنه تغير قبل موته، فالله أعلم (١). وروى ابن جرير: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ في المرأة يطلقها زوجها ثلاثاً فتزوج [زوجها] غيره، فيطلقها قبل أن يدخل بها، فيريد الأول أن يراجعها، قال: «لا، حتى يذوق الآخر عسلتها» (٢). وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت: دخلت امرأة رفاعة القرظي - وأنا وأبو بكر عند النبي ﷺ - فقالت: إن رفاعة طلقني البتة، وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجني، وإنما عنده مثل الهُدْبَةِ، وأخذت هُدْبَةً من جلبابها، وخالد بن سعيد بن العاص بالباب لم يؤذن له، فقال: يا أبا بكر، ألا تنهى هذه عما تجهر به بين يدي رسول الله ﷺ! فما زاد رسول الله ﷺ على التبسم، وقال رسول الله ﷺ: «كأنك تريد أن ترجعي إلى رفاعة؟! لا، حتى تذوق عسلته ويذوق عسلتك». ورواه البخاري. وفي حديث عبد الرزاق عند مسلم: أن رفاعة طلقها آخر ثلاث تطليقات. وقد رواه الجماعة إلا أبا داود (٣).

فصل: والمقصود من الزوج الثاني أن يكون راعياً في المرأة، قاصداً لدوام عشرتها، كما هو المشروع من التزويج، واشترط الإمام مالك مع ذلك أن يطأها الثاني وطأً مباحاً، فلو وطئها وهي محرمة أو صائمة أو معتكفة أو حائضاً أو نفساء أو والزوج صائم أو محرم أو معتكف - لم تحل للأول بهذا الوطء. وكذا لو كان الزوج الثاني ذمياً لم تحل للمسلم بكناحه؛ لأن أنكحة الكفار باطلة عنده (٤). واشترط الحسن البصري - فيما حكاه عنه الشيخ أبو عمر بن عبد البر:

(١) المسند (١٤٠٦٩) والطبري (٤٩٠٠) ورواية «محمد بن دينار الطاحي»: ثقة. قال ابن معين: «ليس به بأس». وقال أبو زرعة: «صدوق». وترجمه البخاري في الكبير (٧٧/١/١)، فلم يذكر فيه جرحاً. و«الطاحي»: بالطاء والحاء المهملتين، نسبة إلى «طاحية»: بطن من الأزدي. ووقع في المطبوعة «الطاني»! وهو خطأ. والحديث رواه أيضاً البيهقي (٣٧٥ / ٧) وذكره الهيثمي في الزوائد (٣٤٠ / ٤)، ونسبه لأحمد والبخاري وأبو يعلى والطبراني. وقال: ورجاله رجال الصحيح، خلا محمد بن دينار الطاحي. وقد وثقه أبو حاتم وأبو زرعة وابن حبان. وفيه كلام لا يضر.

وقد ذكر الحافظ ابن كثير قبل هذا الحديث - هنا - حديثاً في معناه، من طرق، عن ابن عمر، بأسانيد من المسند، ونسبه أيضاً للنسائي وابن ماجه والطبري. وفي أسانيد ضعف. وهو في المسند (٤٧٧٦، ٤٧٧٧، ٥٢٧٧، ٥٢٧٨، ٥٥٧١) وفي الطبري: (٤٩٠٢ - ٤٩٠٤).

والمراد بذوق العسلية: الجماع، تشبيهاً له بلذة العسل.

(٢) الطبري (٤٨٩٨، ٤٨٩٩) وزيادة [زوجها] من المخطوطة الأزهرية والطبري. وإسناد الحديث صحيح. إلا أن الحافظ ابن كثير أعله هنا بقوله: «وأبو الحارث غير معروف» - يريد التابعي رواه عن أبي هريرة. وهو «أبو الحارث الغفاري». ولكنه معروف، عرفه البخاري وابن أبي حاتم، فترجماً له ولم يذكر في جرحاً. ثم هو تابعي، وهم على الثقة حتى يستبين جرح واضح.

(٣) المسند (٦ / ٣٤ حلي) وصحيح مسلم (١ / ٤٠٧، ٤٠٨). وكذلك رواه عبد الرزاق في المصنف (٣ / ٣٠٥ مخطوط). ورواه الطبري (٤٨٩٣) من طريق عبد الرزاق. وقد ذكر الحافظ ابن كثير هنا، قبل هذا الحديث - روايات متعددة له، مطولة ومختصرة، من الصحيحين وغيرهما. و«عبد الرحمن بن الزبير» - بفتح الزاي وكسر الباء - صحابي معروف، من بني قريظة. مترجم في الإصابة وغيرها.

(٤) يعني فيما إذا كانت الذميمة زوجاً لمسلم قبل الذمى.

أن ينزل الزوج الثاني، وكأنه تمسك بما فهمه من قوله عليه السلام: «حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك»، ويلزم على هذا أن تنزل المرأة أيضا. وليس المراد بالعسيلة المنى لما رواه الإمام أحمد والنسائي، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إن العسيلة الجماع» (١).

فأما إذا كان الثاني إنما قصده أن يحلها للأول، فهذا هو المحلل الذي وردت الأحاديث بذهمه ولعنه، ومتى صرح بمقصوده في العقد بطل النكاح عند جمهور الأئمة. فروى الإمام أحمد، عن عبد الله قال: لعن رسول الله ﷺ الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة، والمحلل والمحلل له، وأكل الربا وموكله. ورواه الترمذي والنسائي (٢). ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. قال: والعمل على هذا عند أهل العلم من الصحابة، منهم: عمر، وعثمان، وابن عمر. وهو قول الفقهاء من التابعين، ويروى ذلك عن علي، وابن مسعود، وابن عباس. وروى ابن ماجه عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بالتيس المستعار؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «هو المحلل، لعن الله المحلل والمحلل له» (٣). وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له. ورواه أبو بكر بن أبي شيبة، والجزوجاني، والبيهقي، من طريق عبد الله بن جعفر القرشي. وقد وثقه أحمد بن حنبل، وعلى بن المديني، ويحيى بن معين وغيرهم. وأخرج له مسلم في صحيحه، عن عثمان بن محمد الأخنسي - وثقه ابن معين - عن سعيد المقبري، وهو متفق عليه (٤). وروى الحاكم عن نافع قال: جاء رجل إلى ابن عمر، فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثا، فتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه، ليحلها لأخيه: هل تحل للأول؟ فقال: لا، إلا نكاح رغبة، كنا نعد هذا سفاحا على عهد رسول الله ﷺ. ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه (٥). وهذه الصيغة مشعرة بالرفع. روى أبو بكر بن أبي شيبة، والجزوجاني، وحرب الكرماني، وأبو بكر الأثرم عن عمر أنه قال: لا أوتي بمحلل ولا محلل له إلا رجمتها. وروى البيهقي عن سليمان بن يسار: أن عثمان بن عفان رفع إليه رجل تزوج امرأة ليحلها لزوجها، ففرق بينهما. وكذا روى عن علي، وابن عباس، وغير واحد من الصحابة.

(١) المسند (٦ / ٦٢ حلي) بلفظ: «العسيلة هي الجماع»، ويظهر أن النسائي رواه في السنن الكبرى - فإنه ليس في السنن الصغرى. ولذلك ذكره الهيثمي في الزوائد (٤ / ٣٤١) وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى. وفيه أبو عبد الملك المكي، ولم أعرفه بغير هذا الحديث، وبقية رجاله رجال الصحيح».

(٢) المسند (٤٢٨٣، ٤٢٨٤، ٤٤٠٣).

(٣) ابن ماجه (١٩٣٦). وإسناده صحيح، ومن تكلم فيه خطأ، وقد بين ذلك الحافظ ابن كثير - هنا - مفصلا. ورواه الحاكم (٢ / ١٩٨، ١٩٩) بإسنادين، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٤) المسند (٨٢٧٠). وهو في الزوائد (٤ / ٢٦٧) وقال: «رواه أحمد والبخاري. وفيه عثمان بن محمد الأخنسي، وثقه ابن معين وابن حبان. وقال ابن المديني: له عن أبي هريرة أحاديث متأكدة». أقول: وليس هذا منها، بل هو حديث صحيح.

(٥) المستدرک (١٩٩/٢). ولكن الذي فيه: «صحيح على شرط الشيخين». ووافقه الذهبي، وهو كما قال. وهو - بمعناه - في مجمع الزوائد (٤/٢٦٧) وقال: «رواه الطبراني في الأوسط، ورجال رجال الصحيح».

وقوله: ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا ﴾ أى: الزوج الثانى بعد الدخول بها ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا ﴾ أى: المرأة والزوج الأول ﴿ إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ﴾ أى: يتعاشرا بالمعروف ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أى: شرائعه وأحكامه ﴿ يَبَيِّنُهَا ﴾ أى: يوضحها ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْتَنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُسْكِبُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَادْكُرُوا فِعْلَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

هذا أمر من الله عز وجل للرجال إذا طلق أحدهم المرأة طلاقاً له عليها فيه رجعة - أن يحسن فى أمرها إذا انقضت عدتها، ولم يبق منها إلا مقدار ما يمكنه فيه رجعتها، فإما أن يسكبها، أى: يرجعها إلى عصمة نكاحه بمعروف، وهو أن يشهد على رجعتها، وينوى عسرتها بالمعروف، أو يسرحها، أى: يتركها حتى تنقضى عدتها، ويخرجها من منزله بالتى هى أحسن، من غير شقاق ولا مخاصمة ولا تقايح، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُسْكِبُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتَدُوا ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغير واحد: كان الرجل يطلق المرأة، فإذا قاربت انقضاء العدة راجعها ضراراً، لئلا تذهب إلى غيره، ثم يطلقها فتعتد، فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق لتطول عليها العدة، فنهاهم الله عن ذلك، وتوعدهم عليه فقال: ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ أى: بمخالفته أمر الله تعالى .

وقوله: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا ﴾: روى ابن جرير عن أبى موسى: أن رسول الله ﷺ غضب على الأشعرين، فأتاه أبو موسى فقال: يا رسول الله، أغضبت على الأشعرين؟! فقال: يقول أحدكم: قد طلقت! قد راجعت، ليس هذا طلاق المسلمين، طلقوا المرأة فى قُبُلِ عدتها (١) . وقال مسروق: هو الذى يطلق فى غير كنهه، ويضار امرأته بطلاقها وارتجاعها، لتطول عليها العدة. وقال الحسن، وقتادة، وغيرهما: هو الرجل يطلق ويقول: كنت لاعباً! أو يعتق أو ينكح ويقول: كنت لاعباً! فأنزل الله: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا ﴾ فالزم الله بذلك. وروى ابن أبى حاتم عن عبادة بن الصامت قال: كان الرجل على عهد النبى ﷺ يقول للرجل زوجتك ابنتى ثم يقول: كنت لاعباً! ويقول: قد أعتقت، ويقول: كنت لاعباً! فأنزل الله: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا ﴾ فقال رسول الله ﷺ: « ثلاث من قالهن لاعباً أو غير لاعب، فهن جائزات عليه: الطلاق، والعتاق، والنكاح » (٢). والمشهور فى هذا الحديث الذى رواه أبو داود، والترمذى، وابن

(١) رواه الطبرى (٤٩٢٥) ، ورواه أيضا بنحوه (٤٩٢٦) . وإسناده صحيحان . وكذلك رواه البيهقى (٧/ ٣٢٣)، وروى ابن ماجه (٢٠١٧) نحوه بإسناد آخر صحيح ، ولفظه : « ما بال أقوام يلعبون بحدود الله؟ يقول أحدهم: قد طلقتك ! قد راجعتك ! قد طلقت ! » .
(٢) فى الدرر المشور (١ / ١٨٦) أنه رواه أيضا ابن المنذر .

ماجه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث جدُّهن جد ، وهزلهن جد : النكاح ، والطلاق ، والرجعة » . وقال الترمذى : حسن غريب (١) .

وقوله : ﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ ﴾ أى : فى إرساله الرسول بالهدى والبيئات إليكم ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ أى : السنة ﴿ يَعِظْكُمْ بِهِ ﴾ أى : يأمركم وينهاكم ويتوعدهم على ارتكاب المحارم ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى : فيما تاتون وفيما تذكرون ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى : فلا يخفى عليه شىء من أموركم السرية والجهرية ، وسيجازيكم على ذلك .

﴿ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا أَجَلُهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية فى الرجل يطلق امرأته طليقة أو طليقتين ، فتتقاضى عدتها ، ثم يبدو له أن يتزوجها وأن يراجعها ، وتريد المرأة ذلك ، فيمنعها أولياؤها من ذلك ، فنهى الله أن يمنعوها . وكذا قال مسروق ، وإبراهيم النخعى ، والزهري والضحاك : أنها نزلت فى ذلك . وهذا الذى قالوه ظاهر من الآية ، وفيها دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها ، وأنه لا بد فى النكاح من ولى ، كما قاله الترمذى وابن جرير عند هذه الآية ، كما جاء فى الحديث : « لا تزوج المرأة المرأة ، ولا تزوج المرأة نفسها ، فإن الزانية هى التى تزوج نفسها » (٢) . وفى الآخر : « لا نكاح إلا بولى مرشد ، وشاهدى عدل » (٣) . وفى هذه المسألة نزاع بين العلماء محرر فى موضعه من كتب الفروع .

وقد روى أن هذه الآية نزلت فى معقل بن يسار المزنى وأخته ، فروى الترمذى عن معقل ابن يسار : أنه زوج أخته رجلا من المسلمين ، على عهد رسول الله ﷺ ، فكانت عنده ما كانت ، ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت العدة ، فهويها وهويتها ، ثم خطبها مع الخطاب ، فقال له : بالكع ! أكرمتك بها وزوجتكها ، فطلقتها ! والله لا ترجع إليك أبداً ، آخر ما عليك ، قال : فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعْلِها ، فأنزل الله : ﴿ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا أَجَلُهُنَّ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فلما سمعها معقل قال : سَمِعْتُ لِرَبِّى وَطَاعَةً ثُمَّ دَعَا ، فقال : أزوجك وأكرمك ،

(١) ورواه أيضا الحاكم وصححه ، والبيهقى ، كما هو فى الدر المنثور .

(٢) رواه ابن ماجه (١٨٨٢) . وضعفه البوصيرى فى زوائده ، من أجل « جميل بن الحسن العتكى » شيخ ابن ماجه . والحق أنه ثقة ، وقد أخطأ من تكلم فيه . ووثقه ابن حبان وابن خزيمة وغيرهما . وأخرج له ابن خزيمة هذا الحديث ، كما فى نصب الراية (٣ / ١٨٨) . وكذلك رواه الدارقطنى (ص ٣٨٤) من طريقه . ثم هو لم ينفرد به ، فقد رواه الدارقطنى أيضا من طريق صحيح مرفوعاً ، ومن طرق أخرى موقوفاً . والموقوف يثبت صحة المرفوع ويؤيده . وكذلك رواه البيهقى (٧ / ١١٠) من طرق ، ومنها طريق ابن خزيمة .

(٣) رواه البيهقى (٧ / ١٢٦) من رواية الإمام الشافعى . وروى نحو معناه قبل ذلك من وجه آخر (ص ١٢٤) .

زاد ابن مردويه: وكفرت عن يميني^(١). وهكذا ذكر غير واحد من السلف: أن هذه الآية نزلت في معقل بن يسار وأخته. وقال السدي: نزلت في جابر بن عبد الله، وابنة عم له، والصحيح الأول، والله أعلم.

وقوله: ﴿ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ ﴾ أى: هذا الذى نهيناكم عنه من منع الولايا أن يتزوجن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف، ياتمر به ويتعظ به وينفعل له ﴿ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أى: يؤمن بشرع الله، ويخاف وعيد الله وعذابه فى الدار الآخرة، وما فيها

(١) الترمذى (٧٨/٤) وقال: «حديث حسن صحيح». وزيادة ابن مردويه، روى البيهقى معناها، فى روايته (٧ / ١٠٤): «فكفرت عن يميني فأنكحتها». والحديث رواه البخارى أيضاً مطولاً ومختصراً (٨ / ١٤٣، ٩ / ١٦٠، ١٦١). وذكره الحافظ ابن كثير هنا من الرواية المختصرة، مع إشارته لإسناده. ثم ذكر أنه رواه «أبو داود وابن ماجه وابن أبى حاتم وابن جرير».

وقال الترمذى - بعد روايته: «وفى هذا الحديث دلالة على أنه لا يجوز النكاح بغير ولى لأن أخت معقل بن يسار كانت ثيباً، فلو كان الأمر إليها دون وليها لزوجت نفسها، ولم تحتج إلى وليها معقل بن يسار كانت ثيباً، فلو كان الأمر إليها دون وليها لزوجت نفسها، ولم تحتج إلى وليها معقل بن يسار. وإنما خاطب الله فى هذه الآية الأولياء، فقال: ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكَحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ ﴾. ففى هذه الآية دلالة على أن الأمر إلى الأولياء فى التزوج مع رضاهن».

وقال الطبرى (٥ / ٢٦، ٢٧ من طبعتنا): «وفى هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة قول من قال: لا نكاح إلا بولى من العصبية. وذلك أن الله تعالى ذكره منع الولى من عضل المرأة إن أرادت النكاح ونهاه عن ذلك. فلو كان للمرأة إنكاح نفسها بغير إنكاح وليها إياها، أو كان لها تولية من أرادت توليته فى إنكاحها - لم يكن لنهى وليها عن عضلها معنى مفهوم؛ إذ كان لا سبيل له إلى عضلها. وذلك أنها إن كانت متى أرادت النكاح جاز لها إنكاح نفسها، أو إنكاح من توكله بإنكاحها - فلا عضل هنالك لها من أحد فينهى عاضلها عن عضلها». وهذا الذى قاله الترمذى وابن جرير - بديهى واضح من معنى الآية وفقهها. لا يخالف فى ذلك إلا جاهل، أو ذو هوى وعصبية جامحة.

ثم الذى لا يشك فيه أحد من أهل العلم بالحديث - أن حديث «لا نكاح إلا بولى»: حديث صحيح، ثابت بأسانيد تكاد تبلغ مبلغ التواتر المعنوى الموجب للقطع بمعناه. وهو قول الكافة من أهل العلم، الذى يؤيده الفقه فى القرآن. ولم يخالف فى ذلك - فيما نعلم - إلا فقهاء الحنفية ومن تابعهم وقلدهم. وقد كان لمتقدميهم بعض العذر، لعله لم يصل إليهم إذ ذاك بإسناد صحيح. أما متأخروهم، فقد ركبوا رؤوسهم وجرفتهم العصبية، فذهبوا يذهبون كل مذهب فى تضعيف الروايات أو تأويلها. دون حجة أو دون إنصاف. وما نحن أولاء - فى كثير من بلاد الإسلام، التى أخذت بمذهب الحنفية فى هذه المسألة - نرى آثار تدمير ما أخذوا به للأخلاق والآداب والأعراض، مما جعل أكثر أنكحة النساء اللاتى ينكحن دون أوليائهن، أو على الرغم منهن - أنكحة باطلة شرعا، تضعيع معها الأنساب الصحيحة.

وأنا أهيب بعلماء الإسلام وزعمائه، فى كل بلد وكل قطر، أن يعيدوا النظر فى هذه المسألة الخطيرة. وأن يرجعوا إلى ما أمر الله به ورسوله، من شرط الولى المرشد فى النكاح، حتى تنفاد كثيراً من الأخطار الخلقية والأدبية، التى يتعرض لها النساء، بجهلهن وتهورهن، وباصطناعهن الحرية الكاذبة، واتباعهن للأهواء. وخاصة الطبقة المنهارة منهن، طبقة المتعلمات - مما يملأ القلب أسفاً وحزناً. هذان الله لشرعة الإسلام، ووقانا سوء المقلب.

من الجزاء ﴿ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أى: اتباعكم شرع الله فى رد المولات إلى أزواجهن، وترك الحمية فى ذلك، أزكى لكم وأطهر لقلوبكم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ أى: من المصالح فيما يأمر به وينهى عنه ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى: الخيرة فيما تاتون ولا فيما تذررون.

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنَ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ قَسَرَ ضِعْوُ أَوْلَادِكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا بَيْنَكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَقْبُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

هذا إرشاد من الله تعالى للوالدات: أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة، وهى ستتان، فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك؛ ولهذا قال: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ﴾ وذهب أكثر الأئمة إلى أنه لا يحرم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين، فلو ارتضع المولود وعمره فوقهما لم يحرم. وروى الترمذى عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء فى الثدي، وكان قبل الفطام». وقال: هذا حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم: أن الرضاعة لا تحرم إلا ما كان دون الحولين، وما كان بعد الحولين الكاملين فإنه لا يحرم شيئاً. قلت: تفرد الترمذى برواية هذا الحديث، ورجاله على شرط الصحيحين (١)، ومعنى قوله: إلا ما كان فى الثدي، أى: فى محل الرضاعة قبل الحولين، كما جاء فى الحديث، الذى رواه أحمد، عن البراء بن عازب قال: لما مات إبراهيم ابن النبى ﷺ قال: «إن له مرضعاً». وهكذا أخرجه البخارى (٢)، وإنما قال، عليه السلام، ذلك؛ لأن ابنه إبراهيم، عليه السلام، مات وله سنة وعشرة أشهر، فقال: «إن له مرضعاً» يعنى: تكمل رضاعه، ويؤيده ما رواه الدارقطنى، من طريق الهيثم بن جميل، عن أنس بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحرم من الرضاع إلا ما كان فى الحولين»، ثم قال: لم يسنده عن ابن عيينة غير الهيثم بن جميل، وهو ثقة حافظ. قلت:

(١) الترمذى (٢ / ٢٠١). وذكر الحافظ ابن حجر فى بلوغ المرام أن الحاكم صححه أيضا.

(٢) هكذا قال الحافظ ابن كثير، وأخشى أن يكون وهم أو سهواً. فإن حديث البراء رواه البخارى (٣ / ١٩٤ فتح) دون قوله «إن ابنى مات فى الثدي». وكذلك رواه أحمد فى المسند مراراً وقد تبعت مسند البراء كله، فلم أجد فيه هذا الحرف. وحديث البراء من أفراد البخارى دون مسلم. وأما حرف «الثدى» - فإنه فى حديث آخر مطول، عن أنس، فى المسند (١٢١٢٨) (٣ / ١١٢ حلى) بلفظ: «إن إبراهيم ابنى، وإنه مات فى الثدي، فإن له ظئرين يكملان رضاعه فى الجنة». وهذا رواه مسلم (٢ / ٢١٣). ولم يروه البخارى.

وقد رواه الإمام مالك في الموطأ، عن ثور بن زيد، عن ابن عباس مرفوعاً (١). وروى أبو داود الطيالسي، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا رضاع بعد فصال، ولا يتم بعد احتلام»، وتام الدلالة من هذا الحديث في قوله تعالى: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]. وقال: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الحاف: ١٥].

والقول بأن الرضاعة لا تحرم بعد الحولين مروى عن علي، وابن عباس، وابن مسعود، وجابر، وأبي هريرة، وابن عمر، وأم سلمة، وسعيد بن المسيب، وعطاء، والجمهور. وهو مذهب الشافعي، وأحمد، وإسحاق، والثوري، وأبي يوسف، ومحمد، ومالك في رواية، وقال مالك: ولو فطم الصبي دون الحولين فأرضعته امرأة بعد فصاله لم يحرم؛ لأنه قد صار بمنزلة الطعام، وهو رواية عن الأوزاعي، وقد روى عن عمر وعلى أنهما قالوا: لا رضاع بعد فصال، فيحتمل أنهما أرادا الحولين كقول الجمهور، سواء فطم أو لم يفطم، ويحتمل أنهما أرادا الفعل، كقول مالك، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف، أي: بما جرت به عادة أمثالهن في بلدهن من غير إسراف ولا إقتار، بحسب قدرته في يساره وتوسطه وإقتاره، كما قال تعالى: ﴿لَيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]. قال الضحاك: إذا طلقَ زوجته وله منها ولد، فأرضعت له ولده، وجب على الوالد نفقتها وكسوتها بالمعروف.

وقوله: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾ أي: لا تدفعه عنها لتضر أباه بتريته، ولكن ليس لها دفعه إذا ولدته حتى تسقيه اللبن الذي لا يعيش بدون تناوله غالباً، ثم بعد هذا لها رفعه عنها إذا شاءت، ولكن إن كانت مضارة لأبيه فلا يحل لها ذلك، كما لا يحل له انتزاعه منها لمجرد الضرر لها. ولهذا قال: ﴿وَلَا مَوْلُودَ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ أي: بأن يريد أن ينتزع الولد منها إضراراً بها، قاله مجاهد، وقتادة، والضحاك، وغيرهم.

وقوله: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾. قيل: في عدم الضرر لقريبه، قاله مجاهد، والشعبي، والضحاك. وقيل: عليه مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على والدة الطفل، والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها، وهو قول الجمهور.

وقوله: ﴿فَإِن أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: فإن اتفقا والدا الطفل على فطامه قبل الحولين، ورأيا في ذلك مصلحة له، وتشاورا في ذلك، وأجمعا عليه، فلا جناح عليهما

(١) الدارقطني (ص ٤٩٨). وأما رواية مالك فهي في الموطأ (ص ٦٠٢): «مالك، عن ثور بن زيد الديلي، عن عبد الله بن عباس، أنه كان يقول: ما كان في الحولين، وإن كان مصة واحدة، فهو يحرم». وهذا إسناد منقطع بين ثور وابن عباس. ثم هو «موقوف» لا مرفوع. وأنا أرجح أن قوله هنا «مرفوعاً» - سبق قلم، أو خطأ من الناسخين. بدلالة قصد المغايرة بين إسناد الدارقطني المرفوع ورواية مالك الموقوفة.

فى ذلك، فيؤخذ منه: أن انفراد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكفى، ولا يجوز لواحد منهما أن يستبد بذلك من غير مشاورة الآخر، قاله الثورى وغيره، وهذا فيه احتياط للطفل، والزام للنظر فى أمره، وهو من رحمة الله بعباده، حيث حجر على الوالدين فى تربية طفلهما وأرشدتهما إلى ما يصلحه ويصلحهما كما قال فى سورة الطلاق: ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَارْضَعْنَ أَجُورَهُنَّ وَاتَّعَرَّوْا بِنُكْمٍ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمَ فَاسْتَزِجْ لَهُ أُخْرَىٰ ﴾ [الطلاق: ٦].

وقوله: ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَزِجُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أى: إذا اتفقت الوالدة والوالد على أن يتسلم منها الولد، إما لعذر منها، أو عذر له، فلا جناح عليها فى بذله، ولا عليه فى قبوله منها إذا سلمها أجرتها الماضية بالتى هى أحسن، واسترضع لولده غيرها بالأجرة بالمعروف. قاله غير واحد.

وقوله: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى: فى جميع أحوالكم ﴿ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أى: فلا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأقوالكم.

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٢٤)

هذا أمر من الله للنساء اللاتى يتوفى عنهن أزواجهن: أن يعتددن أربعة أشهر وعشر ليال، وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بهن بالإجماع، ومستنده فى غير المدخول بهن عموم الآية الكريمة، وهذا الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى: أن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة فمات عنها ولم يدخل بها، ولم يفرض لها؟ فترددوا إليه مراراً فى ذلك فقال: أقول فيها برأى، فإن يك صواباً فمن الله، وإن يك خطأ فمنى ومن الشيطان، والله ورسوله بريثان منه: لها الصداق كاملاً. وفى لفظ: لها صداق مثلها، لا وكس، ولا شطط، وعليها العدة، ولها الميراث. فقام معقل بن سنان الأشجعى فقال: سمعت رسول الله ﷺ قضى به فى برؤع بنت واشق. ففرح عبد الله بذلك فرحاً شديداً (١). ولا يخرج من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها، وهى حامل، فإن عدتها بوضع الحمل، ولو لم تمكث بعده سوى لحظة؛ لعموم قوله: ﴿ وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ٤]. وكان ابن عباس يرى: أن عليها أن تربص بأبعد الأجلين من الوضع، أو أربعة أشهر وعشر،

(١) جاء هذا الحديث بروايات كثيرة وأسانيد، والمعنى واحد. فرواه أحمد فى المسند (٤٠٩٩، ٤١٠٠، ٤٢٧٦ - ٤٢٧٨) فى مسند ابن مسعود. ورواه أيضاً (١٦٠٠٩) فى مسند معقل بن سنان، ورواه أبو داود (٢١١٤ - ٢١١٦) والترمذى (١٩٦/٢) والنسائى (٨٩/٢، ١١٣) وابن ماجه (١٨٩١) والحاكم (١٨٠/٢، ١٨١) مطولاً، وصححه على شرط مسلم، ومختصراً وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبى. وانظر: المتقى (٣٥٦٦). و «معقل بن سنان الأشجعى»: صحابى معروف. ووقع هنا فى المخطوطة والمطبوعة: «معقل بن يسار الأشجعى»! وهو خطأ بين مخالف للروايات. ثم إن «معقل بن يسار» صحابى آخر، وهو مزنى لا أشجعى.

للجمع بين الآيتين، وهذا مأخذ جيد ومسلك قوى، لولا ما ثبتت به السنة فى حديث سبيعة الأسلمية، المخرج فى الصحيحين من غير وجه (١).

وقوله: ﴿ فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ يستفاد من هذا وجوب الإحداد على المتوفى عنها زوجها مدة عدتها، لما ثبت فى الصحيحين، من غير وجه، عن أم حبيبة وزينب بنت جحش أم المؤمنين، أن رسول الله ﷺ قال: « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تُحد على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً. » وفى الصحيحين أيضاً، عن أم سلمة: أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن ابنتى توفى عنها زوجها، وقد اشتكت عينها، أفنكحلها؟ فقال: « لا ». كل ذلك يقول: « لا » مرتين أو ثلاثاً. ثم قال: « إنما هى أربعة أشهر وعشر، وقد كانت إحداكن فى الجاهلية تمكث سنة. » ومن هاهنا ذهب كثير من العلماء إلى أن هذه الآية ناسخة للآية التى بعدها، وهى قوله: ﴿ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِثْلَكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ الآية [البقرة: ٢٤٠]، كما قاله ابن عباس وغيره، وفى هذا نظر كما سيأتى تقريره. والغرض: أن الإحداد هو عبارة عن ترك الزينة من الطيب، وليس ما يدعوها إلى الأزواج من ثياب وحلى وغير ذلك. وهو واجب فى عدة الوفاة قولاً واحداً، ولا يجب فى عدة الرجعية قولاً واحداً، وهل يجب فى عدة البائن؟ فيه قولان. ويجب الإحداد على جميع الزوجات المتوفى عنهن أزواجهن، سواء فى ذلك الصغيرة والأيسة، والحرة والامة، والمسلمة والكافرة، لعموم الآية. وقال الثورى وأبو حنيفة وأصحابه: لا إحداد على الكافرة.

وقوله: ﴿ فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ ﴾ أى: انقضت عدتهن ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ قال الزهرى: أى: على أوليائها ﴿ فِيمَا فَعَلْنَ ﴾ يعنى: النساء اللاتى انقضت عدتهن. قال ابن عباس: إذا طلقت المرأة أو مات عنها زوجها، فإذا انقضت عدتها فلا جناح عليها أن تتزين وتتصنع وتعرض للتزويج، فذلك « المعروف ».

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْكُمْ سَتَذَكَّرُوهُنَّ وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجْلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (١٢٥)

يقول تعالى: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ أن تعرضوا بخطبة النساء فى عدتهن من وفاة أزواجهن من غير تصريح. قال ابن عباس: التعريض أن يقول: إنى أريد التزويج، وإنى أحب امرأة من أمرها ومن أمرها - يعرض لها بالقول بالمعروف - وفى رواية: إنى لا أريد أن أتزوج غيرك

(١) سيأتى تفصيل ذلك فى الآية (٤) من سورة الطلاق، إن شاء الله.

إن شاء الله ، ولوددت أنى وجدت امرأة صالحة ، ولا ينصب لها ما دامت فى عدتها (١) . وهكذا قال مجاهد ، وطاوس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وغير واحد من السلف والأئمة فى التعريض : إنه يجوز للمتوفى عنها زوجها من غير تصريح لها بالخطبة . وهكذا حكم المطلقة المبتوتة : يجوز التعريض لها ، كما قال النبى ﷺ لفاطمة بنت قيس ، حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات . فأمرها أن تعتد فى بيت ابن أم مكتوم ، وقال لها : « فإذا حللت فأذنينى » . فلما حلّت خطب عليها أسامة بن زيد مولاه ، فزوّجها إياه . فأما المطلقة الرجعية : فلا خلاف فى أنه لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها ولا التعريض لها ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ أَوْ أَكُنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ أى : أضمرتم فى أنفسكم خطبتنّ ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [القصص : ٦٩] ، وكقوله : ﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَمْتُمْ ﴾ [الممتحنة : ١] ؛ ولهذا قال : ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ ﴾ أى : فى أنفسكم ، فرفع الحرج عنكم فى ذلك ، ثم قال : ﴿ وَلَكِنْ لَا تَأْخُذْوهُنَّ سِرًّا ﴾ قال الحسن البصرى ، والنخعى وقتادة ، والضحاك ، وغيرهم : يعنى الزنا . وهو معنى رواية العوفى عن ابن عباس ، واختاره ابن جرير . وقال على ابن أبى طلحة ، عن أبى عباس : لا تفل لها : إنى عاشق ، وعاهدينى ألا تتزوجى غيرى ! ونحو هذا . وكذا روى عن سعيد بن جبير ، والشعبى ، ومجاهد ، وغيرهم : هو أن يأخذ ميثاقها ألا تتزوج غيره ، وقال ابن زيد : هو أن يتزوجها فى العدة سرّاً ، فإذا حلت أظهر ذلك . وقد يحتمل أن تكون الآية عامة فى جميع ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد وسعيد بن جبير : يعنى به : ما تقدم من إباحة التعريض . كقوله : إنى فىك لراغب ، ونحو ذلك .

وقوله : ﴿ وَلَا تَعْرِمُوا عَقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ﴾ يعنى : ولا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنقضى العدة . قال ابن عباس ، ومجاهد ، والشعبى ، وقتادة وغيرهم . وقد أجمع العلماء على أنه لا يصح العقد فى مدة العدة . وقوله : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾ توعدهم على ما يقع فى ضمائرهم من أمور النساء ، وأرشدهم إلى إضمار الخير دون الشر ، ثم لم يؤيسهم من رحمته ، ولم يقنطهم من عائدته ، فقال : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ .

﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُمْ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُمْ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾

أباح تبارك وتعالى طلاق المرأة بعد العقد عليها وقبل الدخول بها . قال ابن عباس ، وغيره المس : النكاح . بل ويجوز أن يطلقها قبل الدخول بها ، والفرض لها إن كانت مفوضة ، وإن

(١) « ولا ينصب لها » - بكر الصاد ، يقال : « نصب للشئ ينصب نصباً » : إذا قصده وتجرده ، وفى المطبوعة : « يتصب » وهو تحريف .

كان فى هذا انكسار لقلبيها ؛ ولهذا أمر تعالى بإمتاعها ، وهو تعويضها عما فاتها بشيء تعطاه من زوجها بحسب حاله ، على الموسع قدره وعلى المقتر قدره . وقال ابن عباس : متعة الطلاق أعلاه الخادم ، ودون ذلك الورق ، ودون ذلك الكسوة . ومتع الحسن بن على بعشرة آلاف ، ويروى أن المرأة قالت :

متاع قليل من حبيب مفارق

وقد اختلف العلماء أيضاً : هل تجب المتعة لكل مطلقة ؟ أو إنما تجب المتعة لغير المدخول بها التى لم يفرض لها ؟ على أقوال :

أحدها : أنه تجب المتعة لكل مطلقة ، لعموم قوله تعالى : ﴿وَالْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة : ٢٤١] ولقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ [الأحزاب : ٢٨] ، وقد كُنَّ مفروضاً لهن ومدخولاً بهن ، وهذا قول سعيد بن جببر ، والحسن البصرى . وهو أحد قولى الشافعى ، ومنهم من جعله الجديد الصحيح ، فالله أعلم .

والقول الثانى : أنها تجب للمطلقة إذا طلقت قبل المسيس ، وإن كانت مفروضاً لها ؛ لقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ [الأحزاب : ٤٩] ، قال سعيد بن المسيب : نسخت هذه الآية التى فى الأحزاب الآية التى فى البقرة . وقد روى البخارى فى صحيحه ، عن سهل بن سعد ، وأبى أسيد أنهما قالوا : تزوج رسول الله ﷺ أميمة بنت شراحيل ، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها ، فكانها كرهت ذلك ، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقين^(١) .

والقول الثالث : أن المتعة إنما تجب للمطلقة إذا لم يدخل بها ، ولم يفرض لها ، فإن كان قد دخل بها وجب لها مهر مثلها إذا كانت مفوضة ، وإن كان قد فرض لها وطلقها قبل الدخول ، وجب لها عليه شطره ، فإن دخل بها استقر الجميع ، وكان ذلك عوضاً لها عن المتعة ، وإنما المصابة التى لم يفرض لها ولم يدخل بها ، فهذه التى دلت هذه الآية الكريمة على وجوب متعتها . وهذا قول ابن عمر ، ومجاهد .

ومن العلماء : من استحباها لكل مطلقة ممن عدا المفوضة المفارقة قبل الدخول : وهذا ليس بمنكور ، وعليه تحمل آية التخيير فى الأحزاب ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ ، ﴿وَالْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة : ٢٤١] .

ومن العلماء من يقول : إنها مستحبة مطلقاً . وروى ابن أبى حاتم : عن أبى إسحاق ، عن

(١) هى « أميمة بنت النعمان بن شراحيل » ، نسبت هنا لجدها ، مترجمة فى الإصابة ، وأشار إلى هذا الحديث عند البخارى . ووقع فى المطبوعة « شرحبيل » وهو تحريف . وقوله : « رازقين » قال ابن الأثير : « الرازقية : ثياب كان يبيض » . وفى المطبوعة : « أزرقين » وهو تحريف .

الشعبي قال: ذكروا له المتعة، أيحبس فيها؟ فقرا: ﴿عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ﴾ قال الشعبي: والله ما رأيت أحدا حبس فيها، والله لو كانت واجبة لحبس فيها القضاة.

﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١٧)

وهذه الآية الكريمة بما يدل على اختصاص المتعة بما دلت عليه الآية الأولى، حيث إنما أوجب في هذه الآية نصف المهر المفروض، وإذا طلق الزوج قبل الدخول، فإنه لو كان ثم واجب آخر من متعة لبينها، لاسيما وقد قرنهما بما قبلها من اختصاص المتعة بتلك الآية، والله أعلم. وتشطير الصداق - والحالة هذه - أمر مجمع عليه بين العلماء، لاختلاف بينهم في ذلك، فإنه متى كان قد سمي لها صداقا ثم فارقتها قبل دخوله بها، فإنه يجب لها نصف ما سمي من الصداق، إلا أن عند الثلاثة أنه يجب جميع الصداق إذا خلا بها الزوج، وإن لم يدخل بها، وهو مذهب الشافعي في القديم، وبه حكم الخلفاء الراشدون، لكن روى الشافعي عن ابن عباس أنه قال: - في الرجل يتزوج المرأة فيخلو بها ولا يمسه ثم يطلقها : ليس لها إلا نصف الصداق؛ لأن الله يقول: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ قال الشافعي: بهذا أقول، وهو ظاهر الكتاب.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ أي: النساء عما وجب لها على زوجها من النصف، فلا يجب لها عليه شيء. قال ابن عباس: إلا أن تعفو الشيب فتدع حقها. وروى عن شريح، وسعيد بن المسيب، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم - نحو ذلك.

وقوله: ﴿أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ قال ابن أبي حاتم: ذكر عن ابن لهيعة، حدثني عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «ولي عقدة النكاح الزوج». وهكذا أسنده ابن مردويه من حديث عبد الله بن لهيعة به. وقد أسنده ابن جرير، عن ابن لهيعة، عن عمرو بن شعيب أن رسول الله ﷺ، فذكره، ولم يقل: عن أبيه، عن جده فإله أعلم (١). ثم روى ابن أبي حاتم، عن شريح قال: سألتني على بن أبي طالب عن الذي بيده عقدة النكاح. فقلت له: هو ولي المرأة. فقال على: لا، بل هو الزوج (٢)، ثم نقل سعيد بن المسيب وسعيد بن جبيرة ومجاهد والشعبي وغيرهم: أنه الزوج. قلت: وهذا هو الجديد من قولي الشافعي، ومذهب أبي حنيفة. وأصحابه، والثوري، واختاره ابن جرير. ومأخذ هذا القول: أن

(١) وهكذا ذكر البيهقي (٧/ ٢٥٠، ٢٥١) رواية ابن أبي لهيعة معلقة، كما صنع ابن أبي حاتم. ورواية الطبري (٥٣٥٥) - منقطعة، فهو حديث ضعيف بكل حال.

(٢) إسناده صحيح.

الذى بيده عقدة النكاح حقيقة: الزوج، فإن بيده عقدها وإبرامها ونقضها وانهدامها، وكما أنه لا يجوز للولى أن يهب شيئاً من مال المولى للغير، فكذلك فى الصداق.

وقوله: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾: قال ابن جرير: قال بعضهم: خوطب به الرجال، والنساء. وروى عن ابن عباس قال: أقربهما للتقوى الذى يعفو. وكذا روى عن الشعبي، وغيره، وقال مجاهد، والضحاك وغيرهم: الفضل هاهنا أن تعفو المرأة عن شطرها، أو إتمام الرجل الصداق لها. ولهذا قال: ﴿وَلَا تَسْأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أى: الإحسان، قاله سعيد. وقال الضحاك، وقتادة، والسدى: المعروف يعنى: لا تهملوه بينكم. وروى ابن مردويه: عن على بن أبى طالب، أن رسول الله ﷺ قال: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ عَضُوضٌ، يَعْضُ الْمُؤْمِنُ عَلَى مَا فِي يَدَيْهِ وَيَنْسَى الْفَضْلَ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسْأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، شرار يبيعون كل مضطر، وقد نهى رسول الله ﷺ عن بيع المضطر، وعن بيع الغرر، فإن كان عندك خير فعُدْ به على أخيك، ولا تزده هلاكاً إلى هلاكه، فإن المسلم أخو المسلم لا يَحْزُنُهُ ولا يَحْرِمُهُ» (١).

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فِرَاجًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمْنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات فى أوقاتها، وحفظ حدودها وأدائها، كما ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود قال: سألت رسول الله ﷺ: أى العمل أفضل؟ قال: « الصلاة على وقتها». قلت: ثم أى؟ قال: « الجهاد فى سبيل الله». قلت: ثم أى؟ قال: « بر الوالدين». قال: حدثنى بهن رسول الله ﷺ، ولو استزدته لزادنى.

وخص من بينها بمزيد التأكيد الصلاة الوسطى. وقد اختلف السلف والخلف فيها: أى صلاة هى؟ (٢).

فقيل: إنها الصبح. حكاه مالك فى الموطأ بلاغاً عن على، وابن عباس. وروى الطبرى عن أبى رجاء العطاردى قال: صليت خلف ابن عباس الفجر، ففقت فيها، ورفع يديه، ثم قال: هذه الصلاة الوسطى التى أمرنا أن نقوم فيها قانتين (٣). وروى أيضا عن أبى العالية قال:

(١) إسناده ابن مردويه فيه راويان لم أعرفهما. والحديث رواه الإمام أحمد فى المسند (٩٣٧) وأبو داود (٣٣٨٢) بإسناد آخر « عن شيخ من بنى تميم، قال: خطبنا على... » فذكر معناه. وإسناده صحيح، إلا جهالة التابعى رواه.

(٢) أطال الطبرى القول والرواية فى تفسير « الصلاة الوسطى » با لم نجد مستوعبا عند غيره. فروى ١١٣ خبرا، بين مرفوع وموقوف وأثر. وقد استوفينا تخريجها هناك والحمد لله (١٦٨/٥ - ٢٦٦). ثم رجح القول الصحيح: أنها صلاة العصر. والحافظ ابن كثير ساق هنا كثيرا من الروايات، رأينا أن نقتصر منها على أصحها سنداً وأوثقها فى الاستدلال للأقوال التى ذكرها. ثم ندع سائرهما، على شرطنا فى اختصار هذا (العمدة) عن ابن كثير.

(٣) الطبرى (٥٤٧٥). ورواه قبله وبعده بنحوه. ورواه أيضا الطحاوى والبيهقى، كما بينا هناك.

صليت خلف عبد الله بن قيس بالبصرة صلاة الغداة، فقلت لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ، إلى جانبى: ما الصلاة الوسطى؟ قال: هذه الصلاة (١). وروى أيضا عن جابر بن عبد الله قال: الصلاة الوسطى: صلاة الصبح (٢). وحكاها ابن أبي حاتم، عن ابن عمر، وأبى أمامة، وأنس، ومجاهد، وعكرمة، وغيرهم وهو الذى نص عليه الشافعى، محتجا بقوله: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾. والقنوت عنده فى صلاة الصبح ! ومنهم من قال: هى الوسطى باعتبار أنها لا تقصر، وهى بين صلاتين رباعيتين مقصورتين. وترد المغرب. وقيل: لأنها بين صلاتى ليل جهريتين .

وقيل: إنها صلاة الظهر. فروى أحمد عن زيد بن ثابت قال: كان رسول الله ﷺ يصلى الظهر بالهاجرة، ولم يكن يصلى صلاة أشد على أصحاب النبى، ﷺ، منها، فنزلت: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ وقال: «إن قبلها صلاتين وبعدها صلاتين»، ورواه أبو داود (٣). وروى ابن جرير، عن زيد بن ثابت، فى حديث رفعه قال: الصلاة الوسطى صلاة الظهر (٤). ومن روى عنه أنها الظهر: ابن عمر، وأبو سعيد، وعائشة على اختلاف عنهم. وهو قول عروة ابن الزبير، ورواية عن أبى حنيفة.

وقيل: إنها صلاة العصر. قال الترمذى والبيهقى: وهو قول أكثر علماء الصحابة وغيرهم، وقال ابن عبد البر: هو قول أكثر أهل الأثر. وقال الحافظ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطى فى كتابه المسمى: «كشف المغطى، فى تبيين الصلاة الوسطى»: وقد نصر فيه أنها العصر، وحكاها عن عمر، وعلى، وابن مسعود، وأبى أيوب، وعبد الله بن عمرو، وسمرة بن جندب، وأبى هريرة، وأبى سعيد، وحفصة، وأم حبيبة، وأم سلمة. وعن ابن عمر، وابن عباس، وعائشة على الصحيح عنهم. وبه قال النخعى، وزر بن حبيش، وسعيد بن جبيرة، وابن سيرين، والحسن، وقتادة، وغيرهم وهو مذهب أحمد بن حنبل. قال ابن المنذر: وهو الصحيح عن أبى حنيفة، وأبى يوسف، ومحمد، واختاره ابن حبيب المالكى، رحمهم الله. والدليل على ذلك ما رواه قال أحمد: عن على قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملأ الله قلوبهم وبيوتهم نارا». ثم صلاها بين العشاءين: المغرب

(١) الطبرى (٥٤٨٠). وإسناده صحيح . و « عبد الله بن قيس » : هو أبو موسى الأشعرى. والصحابى الذى سأله أبو العالية لم يذكر اسمه . وإبهام الصحابى لا يضر فى صحة الرواية .

(٢) الطبرى (٥٤٨٣) وإسناده صحيح .

(٣) المسند (١٨٣/٥ حلى) وأبو داود (٤١١) والطبرى (٥٤٥٩) . ورواه أيضا الطحاوى والبيهقى . وأسانيده صحاح .

(٤) هكذا رواه الطبرى (٥٤٥٠) مرفوعا، وإسناده صحيح ، وفى رفعه علة ، وذلك أنه رواه أحمد فى المسند (١٨٣/٥ حلى) والدارمى (٧٥/١) مطولا . وسياقه عندهما يدل - يقينا - على أن هذه الكلمة من كلام زيد ابن ثابت ، ليست من الحديث المرفوع ، وأن الراوى الذى اختصره وهم فاختأ . وقد بينا ذلك مفصلا فى تخریجات الطبرى .

والعشاء (١) . وأخرجه الشيخان، وأبو داود، والترمذى، والنسائى، وغير واحد من أصحاب المساند، والسنن، والصحاح من طرق يطول ذكرها. وحديث يوم الأحزاب، وشغل المشركين رسول الله ﷺ، وأصحابه عن أداء صلاة العصر يومئذ، مروى عن جماعة من الصحابة يطول ذكرهم، وإنما المقصود رواية من نص منهم فى روايته أن الصلاة الوسطى: هى صلاة العصر. وقد رواه مسلم أيضاً، من حديث ابن مسعود، والبراء بن عازب [ثم نقل المؤلف الحافظ أحاديث جمّة فى هذا، عن صحابة كثيرين . ثم قال:] فهذه نصوص فى المسألة لا تحتمل شيئاً، ويؤكد ذلك الأمر بالمحافظة عليها، وقوله ﷺ فى الحديث الصحيح، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: « من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله » (٢). وفى الصحيح أيضاً، عن بُريدة بن الحُصَيْب، عن النبى ﷺ قال: «بكروا بالصلاة فى يوم الغيم، فإنه من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله» (٣).

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد أيضاً عن أبى يونس مولى عائشة قال: أمرتنى عائشة أن أكتب لها مصحفاً، قالت: إذا بلغت هذه الآية: «حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى» فأذنى. فلما بلغت آذنتها، فأملت على: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين» قالت: سمعتها من رسول الله ﷺ وهكذا رواه مسلم (٤). وروى ابن جرير عن نافع، أن حفصة أمرت مولى لها أن يكتب لها مصحفاً فقالت: إذا بلغت هذه الآية: «حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى» فلا تكتبها حتى أمليها عليك كما سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها. فلما بلغها أمرته فكتبها: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين». قال نافع: فقرأت ذلك المصحف فرأيت فيه «الواو» (٥). وكذا روى ابن جرير، عن ابن عباس وعبيد بن عمير أنهما قرآ كذلك. وتقرير المعارضة أنه عطف صلاة العصر على الصلاة الوسطى بواو العطف التى تقتضى المغايرة، فدل ذلك على أنها غيرها. وأجيب عن ذلك بوجوه: أحدها: أن هذا إن روى على أنه خبر، فحديث على أصح وأصرح منه، وهذا يحتمل أن تكون

(١) هذه الرواية فى المسند (٦١٧ - ٩١١)، ورواه أيضاً بأسانيد كثيرة، تعرف من فهرسه . ورواه الطبرى (٥٤٢٦) كرواية المسند هذه، ورواه بأسانيد كثيرة، أشرنا إليها فى (٥٣٨٠).

(٢) رواه أحمد فى المسند مراراً، منها (٤٥٤٥). ورواه أصحاب الكتب الستة . ورواه الطبرى (٥٣٨٩) وعبد الرزاق فى المصنف (١ / ١٨١ مخطوط)، بزيادة رأى ابن عمر أنها الصلاة الوسطى . وإسناده صحيح على شرط الشيخين .

(٣) رواه أحمد فى المسند (٣٦١ / ٥ حلى). وابن ماجه (٦٩٤) والطبرى (٥٤٩٥) بنحوه - بأسانيد صحاح. وقد تساهل الحافظ ابن كثير فى نسبته بهذا اللفظ «للتصحيح». فإنه رواه البخارى (٢ / ٢٦، ٥٣)، ولكن فيه الأمر بالتكبير يوم الغيم من كلام بريدة، لا من الحديث المرفوع. وكلاهما صحيح: الموقف والمرفوع.

(٤) المسند (٦ / ٧٣، ١٧٨ حلى) والموطأ (ص ١٣٨، ١٣٩) ومسلم (١٧٤/١، ١٧٥). وانظر تفصيل تخريجه فى الطبرى (٥٤٦٧).

(٥) الطبرى (٥٤٦٢). وقد ذكر الحافظ ابن كثير - قبل هذا وبعده - روايات أخر لحديثى عائشة وحفصة، وتفصيل ذلك فى الطبرى.

الواو زائدة ، كما فى قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَسَاطِئِ السَّبِيلِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٥] ، ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٥] ، أو تكون لعطف الصفات لالعطف الذات ، كقوله : ﴿ وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ ﴾ [الاحزاب : ٤٠] ، وكقوله : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى . الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى . وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴾ [الاعلى : ٤] وأشبهه ذلك كثيرة .

وقد نص سيبويه شيخ النحاة على جواز قول القائل : مررت بأخيك وصاحبك ، ويكون الصاحب هو الأخ نفسه ، والله أعلم . وأما إن روى على أنه قرآن فإنه لم يتواتر ، فلا يثبت بمثل خبر الواحد قرآن ؛ ولهذا لم يثبت أمير المؤمنين عثمان بن عفان فى المصحف [الإمام] ، ولا قرأ بذلك أحد من القراء الذين ثبتت الحجة بقراءتهم ، لا من السبعة ولا غيرهم . ثم قد روى ما يدل على نسخ هذه التلاوة المذكورة فى هذا الحديث . فروى مسلم عن البراء بن عازب ، قال : نزلت : « حافظوا على الصلوات و صلاة العصر » فقرأناها على رسول الله ﷺ ما شاء الله ، ثم نسخها الله ، عز وجل ، فأنزل : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ ، فقال له - رجل - : أفهى العصر ؟ قال : قد حدثت كيف نزلت ، وكيف نسخها الله ، عز وجل (١) . فعلى هذا تكون هذه التلاوة ، وهى تلاوة الجادة ، ناسخة للفظ رواية عائشة وحفصة ، ولمعناها ، إن كانت الواو دالة على المغايرة ، وإلا فلفظها فقط ، والله أعلم . وقيل : إن الصلاة الوسطى هى صلاة المغرب . رواه ابن أبى حاتم عن ابن عباس . وفى إسنادة نظر . وقيل : إنها العشاء الآخرة ، اختاره الواحدى فى تفسيره . وقيل : هى واحدة من الخمس ، لا بعينها ، وأبهمت فيهن ، كما أبهمت ليلة القدر فى الحول أو الشهر أو العشر . وقيل : بل الصلاة الوسطى مجموع الصلوات الخمس ، رواه ابن أبى حاتم عن ابن عمر ، وفى صحته أيضاً نظر . والعجب أن هذا القول اختاره الشيخ أبو عمر بن عبد البر النمرى ، إمام ما وراء البحر ، وإنها لإحدى الكبير ، إذ اختار - مع اطلاعه وحفظه - ما لم يرقم عليه دليل من كتاب ولا سنة ولا أثر . وتوقف فيها آخرون لما تعارضت عندهم الأدلة ، ولم يظهر لهم وجه الترجيح . ولم يقع الإجماع على قول واحد . وكل هذه الأقوال فيها ضعف بالنسبة إلى التى قبلها ، وإنما المدار ومعتك النزاع فى الصبح والعصر . وقد ثبتت السنة بأنها العصر ، فتعين المصير إليها .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَاتِنِينَ ﴾ أى : خاشعين ذليلين مستكينين بين يديه ، وهذا الأمر مستلزم ترك الكلام فى الصلاة ، لمنافاته إياها ؛ ولهذا لما امتنع النبى ﷺ من الرد على ابن مسعود حين سلم عليه ، وهو فى الصلاة ، اعتذر إليه بذلك ، وقال : « إن فى الصلاة لشغلا » ، وفى صحيح مسلم أنه عليه السلام قال لمعاوية بن الحكم السلمي حين تكلم فى الصلاة : « إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس ، إنما هى التسبيح والتكبير وذكر الله » (٢) . وروى الإمام أحمد ، عن عمرو الشيبانى ، عن زيد بن أرقم قال : كان الرجل يكلم صاحبه فى عهد

(١) صحيح مسلم (١ / ١٧٥) والطبرى (٥٤٣٧) ، وتخرجه مفصل هناك .

(٢) مسلم (١ / ١٥١) فى حديث طويل ، ولفظه : « إنما هو التسبيح والتكبير » .

النبي ﷺ، فى الحاجة فى الصلاة، حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ فأمرنا بالسكوت. رواه الجماعة - سوى ابن ماجه (١).

وقد أشكل هذا الحديث على جماعة من العلماء، حيث ثبت عندهم أن تحريم الكلام فى الصلاة كان بمكة، قبل الهجرة إلى المدينة وبعد الهجرة إلى أرض الحبشة، كما دل على ذلك حديث ابن مسعود الذى فى الصحيح، قال: كنا نسلم على النبي ﷺ قبل أن نهجر إلى الحبشة وهو فى الصلاة، فيرد علينا، قال: فلما قدمنا سلمت عليه، فلم يرد على، فأخذنى ما قُربَ وما بُعدَ، فلما سلم قال: «إنى لم أرد عليك إلا أنى كنت فى الصلاة، وإن الله يحدث من أمره ما يشاء، وإن مما أحدث ألا تكلموا فى الصلاة». وقد كان ابن مسعود عن أسلم قديماً، وهاجر إلى الحبشة، ثم قدم منها إلى مكة مع من قدم، فهاجر إلى المدينة، وهذه الآية: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ مدنية بلا خلاف، فقال قائلون: إنما أراد زيد بن أرقم بقوله: «كان الرجل يكلم أخاه فى حاجته فى الصلاة» الإخبار عن جنس الكلام، واستدل على تحريم ذلك بهذه الآية بحسب ما فهمه منها، والله أعلم (٢).

وقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾: لما أمر تعالى عباده بالمحافظة على الصلوات، والقيام بحدودها، وشدد الأمر بتأكيدها - ذكر الحال التى يشتغل الشخص فيها عن أدائها على الوجه الأكمل، وهى حال القتال والتحام الحرب، فقال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ أى: فصلوا على أى حال كان، رجالا أو ركباناً، يعنى مستقبلى القبلة وغير مستقبلها كما قال مالك، عن نافع، عن ابن عمر: كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها. ثم قال: فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالا على أقدامهم، أو ركباناً، مستقبلى القبلة أو غير مستقبلها. قال نافع: لا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبي ﷺ. ورواه البخارى - وهذا لفظه - ومسلم. ولمسلم أيضاً، عن ابن عمر قال: فإن كان خوف أشد من ذلك فصل ركباً، أو قائماً تومئ إيماء. وفى حديث عبد الله بن أنيس الجهنى لما بعثه النبي ﷺ إلى خالد بن سفيان الهذلى ليقتله، وكان نحو عُرَّة - وعرفات، فلما واجهه حانت صلاة العصر، قال: فخشيت أن تفوتنى، فجعلت أصلى وأنا أومئ إيماء. الحديث بطوله رواه أحمد، وأبو داود بإسناد جيد (٣). وهذا من رخصة الله التى رخص لعباده، ووَضَعِ الْأَصَارَ وَالْأَغْلَالَ عَنْهُمْ. وقد

(١) المسند (٤ / ٣٦٨ حلى) ، والطبرى (٥٥٢٤) وتخريجه هناك .

(٢) تفسير « قانتين » - هذا - هو التفسير الصحيح ، الذى لا ينبغى لأحد أن يظن غيره . وهو نقض لما نسب للشافعى ، فيما مضى (ص ٣٤١) أنه احتج بهذه الآية الدلالة على أن الصلاة الوسطى هى الصبح ، بأن «القنوت عنده فى صلاة الصبح» ! وما أظن الشافعى يقول هذا ، وما هو من بابه كلامه . ولم أجده فيما رأيت من فيه . ولعله مما تعلل به بعض متأخرى أصحابه ، تزيداً فى العلم! و «القنوت» فى صلاة الصبح أو غيرها من الصلوات - له معنى خاص ، غير المعنى فى هذه الآية . ثم أظن أحد الشافعى أن يزعم أن الأمر بالقنوت فى هذه الآية خاص بصلاة الصبح ، فلا يطلب الخشوع ولا السكوت عن الكلام إلا فيها؟!

(٣) المسند (١٦١١٤ ، ١٦١١٥) وأبو داود (١٢٤٩) .

ذهب الإمام أحمد، فيما نص عليه، إلى أن صلاة الخوف تفعل في بعض الأحيان ركعة واحدة إذا تلاحم الجيشان، وعلى ذلك ينزل الحديث الذي رواه مسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير عن ابن عباس قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم، ﷺ، في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة^(١) وبه قال الحسن البصري، وقتادة، والضحاك، وغيرهم واختار هذا القول ابن جرير . وقال البخاري: «باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو» وقال الأوزاعي: إن كان تهيباً الفتح، ولم يقدروا على الصلاة، صلوا إيماء، كل امرئ لنفسه، فإن لم يقدروا على الإيماء أخرجوا الصلاة حتى ينكشف القتال أو يأمنوا، فيصلوا ركعتين، فإن لم يقدروا صلوا ركعة وسجدتين، فإن لم يقدروا لا يجزيهم التكبير ويؤخرونها حتى يأمنوا. وبه قال مكحول : وقال أنس بن مالك: حضرت مناهضة حصن تُسْتَر عند إضاءة الفجر، واشتد اشتعال القتال، فلم يقدروا على الصلاة، فلم نصل إلا بعد ارتفاع النهار، فصليناها، ونحن مع أبي موسى، ففتح لنا. قال أنس: وما يسرنى بتلك الصلاة الدنيا وما فيها. هذا لفظ البخاري^(٢). ثم استشهد على ذلك بحديث تأخيره ﷺ، صلاة العصر يوم الخندق لعذر المحاربة إلى غيبوبة الشمس، وبقوله ﷺ، بعد ذلك لأصحابه، لما جهزهم إلى بنى قريظة: «لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بنى قريظة»، فمنهم من أدركته الصلاة في الطريق فصلوا، وقالوا: لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل السير، ومنهم من أدركته فلم يصل إلى أن غربت الشمس في بنى قريظة، فلم يعنف واحداً من الفريقين^(٣). وهذا يدل على اختيار البخاري لهذا القول، والجمهور على خلافه، ويعولون على أن صلاة الخوف، على الصفة التي ورد به القرآن في سورة النساء، ووردت بها الأحاديث، لم تكن مشروعة في غزوة الخندق، وإنما شرعت بعد ذلك. وقد جاء مصرحاً بهذا في حديث أبي سعيد، وغيره، وأما مكحول، والأوزاعي، والبخاري فيجيبون بأن مشروعية صلاة الخوف بعد ذلك لا تنافي جوار ذلك؛ لأن هذا حال نادر خاص، فيجوز فيه مثل ماقلنا، بدليل صنيع الصحابة زمن عمر في فتح تستر، وقد اشتهر ولم ينكر، والله أعلم.

وقوله: ﴿ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ أي: أقيموا صلاتكم كما أمرتم، فأموا ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها وخشوعها وهجودها ﴿ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ أي: مثل ما أنعم عليكم وهداكم للإيمان وعلمكم ما ينفعكم في الدنيا والآخرة - فقابلوه بالشكر والذكر، كقوله بعد ذكر صلاة الخوف: ﴿ فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ [النساء: ١٠٣] وستأتي الأحاديث الواردة في صلاة الخوف وصفاتها في سورة النساء، عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ ﴾ الآية [النساء: ١٠٢].

(١) ورواه أحمد في المسند (٢١٧٧) والطبري (٥٥٦٩) .

(٢) الفتح (٢ / ٣٦١ - ٣٦٣) .

(٣) هو بمعناه ، من حديث ابن عمر - في البخاري (٢ / ٣٦٤ فتح) .

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٤٠﴾ وَلَا مُطْلَقَتْ مَتَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٤١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٤٢﴾ ﴾

قال الاكثرون: هذه الآية منسوخة بالتى قبلها، وهى قوله: ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ . روى البخارى عن ابن الزبير قال: قلت لعثمان بن عفان: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ﴾ قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها أو تدعها؟ قال: يابن أخى، لا غير شيئاً منه من مكانه (١). ومعنى هذا الإشكال الذى قاله ابن الزبير لعثمان: إذا كان حكمها قد نسخ بالأربعة الأشهر، فما الحكمة فى إبقاء رسمها مع زوال حكمها، وبقاء رسمها بعد التى نسختها يوهم بقاء حكمها؟ فأجابه أمير المؤمنين بأن هذا أمر توقيفى، وأنا وجدتها مثبتة فى المصحف كذلك بعدها، فأثبتها حيث وجدتها (٢).

وروى ابن أبى حاتم: عن ابن عباس، فى قوله: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ فكان للمتوفى عنها زوجها نفقتها وسكنائها فى الدار سنة، فنسختها آية الموارث، فجعل لهن الثمن أو الربع . وروى عن ابن عباس أيضاً قال: كان الرجل إذا مات وترك امرأته اعتدت سنة فى بيته، ينفق عليها من ماله، ثم أنزل الله بعد: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة: ٢٣٤]. فهذه عدة المتوفى عنها زوجها، إلا أن تكون حاملاً، فعدها أن تضع ما فى بطنها، وقال: ﴿ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّلُثُ مِمَّا تَرَكَتُمْ ﴾ [النساء: ١٢] فبين ميراث المرأة، وترك الوصية والنفقة (٣).

وقوله: ﴿ وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ ﴾ أى: يوصيكم الله بهن وصية، كقوله: ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ الآية [النساء: ١١] ، وقال: ﴿ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ ﴾ [النساء: ١٢]، وقيل: إنما انتصب على معنى: فلتوصوا بهن وصية. وقرأ آخرون «وصية» بالرفع على معنى: كتب عليكم وصية واختارها ابن جرير ولا يمتنع من ذلك، لقوله: ﴿ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ فأما إذا انقضت عدتهن بالأربعة أشهر والعشر، أو بوضع الحمل، واخترن الخروج والانتقال من ذلك المنزل - فإنهن لا يمتنعن من ذلك، لقوله: ﴿ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ ﴾ وهذا القول له اتجاه، وفى اللفظ مساعدة له، وقد اختاره جماعة، منهم: الإمام أبو العباس بن تيمية، ورده آخرون، منهم: الشيخ أبو عمر ابن عبد البر. وقول عطاء ومن تابعه على أن ذلك منسوخ بآية الميراث، إن أرادوا ما زاد على

(١) البخارى (٨ / ١٤٤ فتح) .

(٢) قال الحافظ فى الفتح : « وهذا الموضع مما وقع فيه الناسخ مقدما فى ترتيب التلاوة على المنسوخ » . ثم أشار إلى آيات أخر فى مثل هذا .

(٣) هذه الرواية والتى قبلها عن ابن عباس - ذكرهما السيوطى فى الدر المنثور (١ / ٢٨٩) فى سياق واحد ، ونسبه لابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس فى النسخ والمنسوخ .

الأربعة أشهر والعشر مُسَلَّم، وإن أرادوا أن سكنى الأربعة أشهر والعشر لا تحب في تركه الميت، فهذا محل خلاف بين الأئمة، وهما قولان للشافعي، وقد استدلوا على وجوب السكنى في منزل الزوج بما رواه مالك في موطنه عن زينب بنت كعب بن عَجْرَة: أن الفُرَيْعَة بنت مالك ابن سنان، وهى أخت أبى سعيد الخدرى، أخبرتها: أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله أن ترجع إلى أهلها في بنى خُدْرة، فإن زوجها خرج في طلب أعبد له أبقوا، حتى إذا كانوا بطرف القدوم لحقهم، فقتلوه. قالت: فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلى في بنى خُدْرة، فإن زوجى لم يتركنى في مسكن يملكه ولا نفقة قالت: فقال رسول الله ﷺ: «نعم» قالت: فانصرفت، حتى إذا كنت في الحجرة نادانى رسول الله ﷺ - أو أمر بى فنوديت له - فقال: «كيف قلت؟» فرددت عليه القصة التى ذكرت له من شأن زوجى. فقال: «اسكنى في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله» قالت: فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرأ. قالت: فلما كان عثمان بن عفان أرسل إلى، فسألنى عن ذلك، فأخبرته، فاتبعه، وقضى به. وكذا رواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن ماجة وقال الترمذى: حسن صحيح (١).

وقوله: ﴿وَالْمُطَلَّاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما نزل قوله: ﴿مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦] قال رجل: إن شئت أحسنت ففعلت، وإن شئت لم أفعل. فانزل الله هذه الآية ﴿وَالْمُطَلَّاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾. وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى وجوب المتعة لكل مطلقة، سواء كانت مفروضة، أو مفروضا لها أو مطلقة، قبل المسيس أو مدخولا بها، وهو قول عن الشافعى، وإليه ذهب سعيد ابن جبير، وغيره من السلف، واختاره ابن جرير. ومن لم يوجبها مطلقاً يخصص من هذا العموم بمفهوم. قوله: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّوْنٌ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ وأجاب الاولون: بأن هذا من باب ذكر بعض أفراد العموم، فلا تخصيص على المشهور المنصور، والله أعلم.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أى: فى إحلاله وتحريمه، وفروضه، وحدوده، فيما أمركم به ونهاكم عنه، بيته ووضحه وفسره، ولم يتركه مجملا فى وقت احتياجكم إليه ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أى: تفهمون، وتندبرون.

﴿الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾
﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٤٤) مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصِطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٤٥﴾

(١) الموطأ (ص ٥٩١). ورواه الشافعى عن مالك فى كتاب الرسالة بتحقيقنا ، رقم (١٢١٤) ، ورواه الطبرى مختصراً ومطولا (٥٠٩٠ ، ٥٥٨٩) ، وفصلنا تخريجه فى أولهما .

روى وكيع بن الجراح عن ابن عباس: قال: كانوا أربعة آلاف، خرجوا فراراً من الطاعون، قالوا: نأتى أرضاً ليس بها موت، حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا قال الله لهم: ﴿مُتُوا﴾ فماتوا، فمر عليهم نبي من الأنبياء، فدعا ربه أن يحييهم، فأحياهم، فذلك قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ الآية. وكان في إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أى: فيما يريهم من الآيات الباهرة والحجج والدلالات الدامغة، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أى: لا يقومون بشكر ما أنعم الله به عليهم في دينهم ودنياهم. وفي هذه القصة عبرة ودليل على أنه لن يغنى حذر من قدر، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فإن هؤلاء فروا من الوباء طلباً لطول الحياة، فعملوا بتفويض قصدهم، وجاءهم الموت سريعاً في آن واحد. ومن هذا القبيل الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس: أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام، حتى إذا كان بسرغ، لقيه أمراء الأجناد: أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام - فذكر الحديث - فجاءه عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيباً لبعض حاجته فقال: إن عندي من هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه» فحمد الله عمر ثم انصرف. وأخرجه في الصحيحين (١).

وقوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أى: كما أن الحذر لا يغنى من القدر، كذلك الفرار من الجهاد وتجنبه لا يقرب أجلاً، ولا يبعده، بل الأجل المحتوم والرزق المقسوم مقدر مقتن، لا يزداد فيه ولا ينقص منه، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِخْوَانُهُمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تظْلَمُونَ فَتِيلًا. أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٧، ٧٨]. وروينا عن أمير الجيوش، ومقدم العساكر، وحامى حوزة الإسلام، وسيف الله المسلول على أعدائه، أبى سليمان خالد بن الوليد، رضى الله عنه، أنه قال - وهو فى سياق الموت: لقد شهدت كذا كذا موقفاً، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه رمية أو طعنة أو ضربة، وها أنا ذا أموت على فراشى كما يموت العير فلا نامت عين الجبناء. يعنى: أنه يتألم لكونه ما مات قتيلًا فى الحرب، ويتأسف على ذلك، ويتألم أن يموت على فراشه.

وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾: يحث تعالى عباده على الإنفاق فى سبيل الله، وقد كرر تعالى هذه الآية فى كتابه العزيز فى غير موضع. وقوله: ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾: روى عن عمر وغيره من السلف: هو النفقة فى سبيل الله. وقيل: هو النفقة على العيال. وقوله: ﴿فَيضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾، كما قال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَبِيلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ﴾ الآية [البقرة: ٢٦١]. وسيأتى الكلام عليها. وروى الإمام أحمد

(١) هو هكذا مختصراً فى المسند (١٦٨٣) من طريق مالك، وهو فى الموطأ (ص ٨٩٤ - ٨٩٦) فى قصة مطولة.

عن أبي عثمان النهدي، قال: أتيت أبا هريرة فقلت له: إنه بلغني أنك تقول: إن الحسنة تضاعف ألف ألف حسنة؟ . قال: وما أعجبك من ذلك! لقد سمعته من النبي ﷺ يقول: «إن الله يضاعف الحسنة ألفي ألف حسنة». هذا حديث غريب، وعلى بن زيد بن جدعان عنده مناكير، لكن رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر (١) . وفي معنى هذا الحديث ما رواه الترمذي وغيره، من طريق عمرو بن دينار، عن سالم، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب [عن أبيه]، أن رسول الله ﷺ قال: «من دخل سوقاً من الأسواق، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد [يحيى ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير] وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة [وبنى له بيتاً في الجنة]» (٢).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَسْطُ﴾ أى: أنفقوا ولا تبالوا، فالله هو الرزاق، يضيق على من يشاء في الرزق، ويوسعه على آخرين، له الحكمة البالغة في ذلك ﴿وَالِيهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى: يوم القيامة.

(١) هو في المسند (٧٩٣٢) والطبرى (٩٥١٠) ، ورواه أحمد أيضاً أطول منه قليلاً (١٠٧٧٠) . و «على بن زيد بن جدعان» : ثقة ، كما بينا في المسند مراراً . ولم ينفرد به ، كما بين الحافظ ابن كثير هنا ، من رواية ابن أبي حاتم بإسناد صحيح . ثم هو سيذكره أيضاً عند تفسير الآية (٤٠) من سورة النساء ، عن روايتي المسند وابن أبي حاتم ، وعن رواية ثانية لابن أبي حاتم . وسيذكره مرة ثالثة عن تفسير الآية (٣٨) من سورة التوبة عن رواية ابن أبي حاتم الثانية .

(٢) ثبت هذا الحديث في المخطوطة الأهرية والمطبوعة - ناقص الإسناد ، ومختصر المتن ، وقال الحافظ ابن كثير بعده - «الحديث» . فرأيت إثباته كاملاً ، ليكون الكلام عليه أدق . والحديث في الترمذي (٢ / ٢٤٠) من طريق حماد بن زيد والمعتز بن سليمان ، عن عمرو بن دينار - هذا - بهذا الإسناد . وكذلك رواه الإمام أحمد في المسند (٣٢٧) من طريق حماد بن زيد . وكذلك رواه ابن ماجه (٢٢٢٥) من طريق حماد بن زيد . وعمرو بن دينار - هذا ليس هو «عمرو بن دينار المكي الإمام الحافظ» ، بل هو «عمرو بن دينار البصري الأعور» مولى آل الزبير بن شبيب . وقد بينه الثلاثة في رواياتهم ، فقال أحمد : «مولى آل الزبير» ، وقال الترمذي وابن ماجه : «قهرمان آل الزبير» . ولم يكن جيداً من الحافظ ابن كثير أن يحذف وصفه بهذا ، لثلا يتوهم أحد أنه المكي ، على الرغم من أن البصري - هذا - متأخر عن المكي . والبصري ضعيف جداً، قال أحمد : «ضعيف منكر الحديث» ، وقال ابن معين : «لا شيء» . ثم إن الحديث عندهم جميعاً ، من رواية «سالم» ، عن أبيه ، عن جده ، وفي رواية أحمد التصريح بأنه «عن عمر» . ولذلك ثبت في مسند «عمر» . فعن هذا أكملت أنا الإسناد هنا ، تصحيحاً لما ثبت خطأ في المخطوطة والمطبوعة ، مما يوهم أنه من حديث «عبد الله بن عمر» مباشرة .

وللحديث إسناد آخر جيد ، بل صحيح . فرواه الدارمي (٢ / ٢٩٣) عن يزيد بن هارون ، عن أزهري بن سنان ، عن محمد بن واسع ، عن سالم ، عن أبيه ، عن جده ، بنحوه . وكذلك رواه الترمذي (٤ / ٢٤٠) وقال: «هذا حديث غريب» . والحاكم (١ / ٥٣٨) وأبو نعيم في الحلية (٢ / ٣٥٥) - كلهم من طريق يزيد بن هارون . وقال أبو نعيم : «رواه سعيد بن سليمان» عن أزهري - مثله . تفرد به أزهري عن محمد . وحدث به الأئمة عن يزيد : أحمد بن حنبل وأبو خيثمة وطبقتهما . و «أزهري بن سنان» : ثقة . وقد ضعفه بعضهم من أجل هذا الحديث . والحق أنه ثقة ، وترجمه البخاري في الكبير (١ / ١ / ٤٦٠) وقد ذكر الحاكم متابعات وشواهد لروايته ، تحتاج إلى تحقيق وعندى أن بعضها صحيح .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّ لَهُمْ أَبْتِ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ ﴿٢٤٦﴾

وكان ذلك فى زمان داود، عليه السلام، وقد كان بين داود وموسى ما ينيف عن ألف سنة، والله أعلم [وقد أوحى الله إلى ذلك النبى من بنى إسرائيل] .

وأمره بالدعوة إليه وتوحيده، فدعا بنى إسرائيل فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً يقاتلون معه أعداءهم، وكان الملك أيضاً قد باد فيهم، فقال لهم النبى: فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكاً ألا تقاتلوا وتفوا بما التزمتم من القتال معه؟ ﴿ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا ﴾ أى: وقد أخذت منا البلاد، وسييت الاولاد؟ قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ أى: ما وفوا بما وعدوا، بل نكل عن الجهاد أكثرهم، والله عليم بهم .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُومَ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ﴿٢٤٧﴾

أى: لما طلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكاً منهم، فعين لهم طالوت، وكان رجلاً من أجنادهم، ولم يكن من بيت الملك ؛ لأن الملك كان فى سبط يهوذا، ولم يكن هذا من ذلك السبط، فلماذا قالوا: ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾ أى: كيف يكون ملكاً علينا ﴿ وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ﴾ أى: ثم هو مع هذا فقير، لا مال له يقوم بالملك .

وهذا اعتراض منهم على نبيهم وتعنت، وكان الأولى بهم طاعة وقول معروف ثم قد أجابهم النبى قائلا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أى: اختاره لكم من بينكم، والله أعلم به منكم . يقول: لست أنا الذى عينته من تلقاء نفسى، بل الله أمرنى به لما طلبتم منى ذلك ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ أى: وهو مع هذا أعلم منكم، وأنبل وأشكل منكم، وأشد قوة وصبراً فى الحرب ومعرفة بها، أى: أتم علماً وقامة منكم . ومن هاهنا ينبغى أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن وقوة شديدة فى بدنه ونفسه، ثم قال: ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُومَ مَن يَشَاءُ ﴾ أى: هو الحاكم الذى ما شاء فعل، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، لعلمه وحكمته ورأفته بخلقه؛ ولهذا قال: ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى: هو واسع الفضل يختص برحمته من يشاء، عليم بمن يستحق الملك بمن لا يستحقه .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٢٤٨)

يقول لهم نبيهم : إن علامة بركة ملك طالوت عليكم أن يرد الله عليكم التابوت الذي كان أخذ منكم ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ قيل : معناه : فيه وقار ، وجلالة . وقال ابن جريج : سألت عطاء عن قوله : ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ قال : ما تعرفون من آيات الله فتسكنون إليه . وكذا قال الحسن البصري .

وقوله : ﴿ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ ﴾ : روى ابن جرير : عن ابن عباس في هذه الآية قال : عصاه ورضاض الألواح . وكذا قال قتادة وغيره . وقوله : ﴿ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ : قال ابن عباس : جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض ، حتى وضعته بين يدي طالوت ، والناس ينظرون . وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُم ﴾ أي : على صدقي فيما جئتكم به من النبوة ، وفيما أمرتكم به من طاعة طالوت ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي : بالله واليوم الآخر .

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلْكُوا اللَّهَ كَمِ مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ يَّادُنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٢٤٩)

يقول تعالى - مخبراً عن طالوت ملك بني إسرائيل حين خرج في جنوده ومن أطاعه من ملا بني إسرائيل - أنه قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ ﴾ قال ابن عباس وغيره : وهو نهر بين الأردن وفلسطين ، يعني : نهر الشريعة المشهور ﴿ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ﴾ أي : فلا يصحني اليوم في هذا الوجه ، ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ أي : فلا بأس عليه ، قال الله تعالى : ﴿ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ قال ابن عباس : من اغترف منه بيده روى ، ومن شرب منه لم يرو . وقد روى ابن جرير عن البراء بن عازب قال : كنا نتحدث أن أصحاب محمد ﷺ الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر ، على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر ، وما جازه منه إلا مؤمن . ورواه البخاري . عن البراء ، بنحوه (١) . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ أي : استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثرتهم ، فشجعهم علماؤهم بأن وعد الله حق ، فإن النصر من عند الله ، ليس عن كثرة عدد ولا عدد . ولهذا قالوا : ﴿ كَمِ مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ يَّادُنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾
 وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ
 وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مَآ يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ
 بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٥١﴾
 تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥٢﴾

أى: لما واجه حزب الإيمان - وهم قليل - من أصحاب طالوت، لعدوهم أصحاب جالوت
 - وهم عدد كثير - ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ أى: أنزل علينا صبراً من عندك ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾
 أى: فى لقاء الأعداء، وجنبا الفرار والعجز ﴿ وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾.

قال الله تعالى: ﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى: غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ
 جَالُوتَ ﴾ ثم آل الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة؛ ولهذا قال
 تعالى: ﴿ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ الذى كان بيد طالوت ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ أى: النبوة ﴿ وَعَلَّمَهُ مَآ يَشَاءُ ﴾
 أى: بما يشاء الله من العلم الذى اختصه به ﷺ، ثم قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ
 بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ أى: لولاه يدفع عن قوم بآخرين - كما دفع عن بنى إسرائيل بمقاتلة طالوت
 وشجاعة داود - لهلكوا، كما قال: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهِجَمَتْ صَوَامِعُ وَبُعْ وَصَلَوَاتُ
 وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ الآية [الحج: ٤٠].

وقوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أى: مَنْ عليهم ورحمة بهم، يدفع عنهم ببعضهم
 بعضاً، وله الحكم والحكمة، والحجة على خلقه فى جميع أفعاله، وأقواله.

ثم قال تعالى: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أى: هذه آيات الله التى
 قصصناها عليك من أمر الذين ذكرناهم بالحق، أى: بالواقع الذى كان عليه الأمر، المطابق لما
 بأيدي أهل الكتاب من الحق، الذى يعلمه علماء بنى إسرائيل ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ يا محمد ﴿ لَمِنَ
 الْمُرْسَلِينَ ﴾ وهذا توكيد وتوطئة للقصص.

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ
 وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَحَلَّ الَّذِينَ مِنْ
 بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنْ أَخْلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ
 اللَّهُ مَا أَفْتَحَلَّ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ ﴿١٥٣﴾

يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى
 بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٥] ، وقال هاهنا: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ
 اللَّهُ ﴾ يعنى: موسى ومحمداً صلى الله عليهما وسلم، وكذلك آدم، كما ورد به الحديث المروى

فى صحيح ابن حبان، عن أبى ذر (١) ﴿ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ كما ثبت فى حديث الإسراء، حين رأى النبى ﷺ الأنبياء فى السموات بحسب تفاوت منازلهم عند الله عز وجل.

فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الثابت فى الصحيحين، عن أبى هريرة قال: استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال اليهودى فى قسم يقسمه: لا الذى اصطفى موسى على العالمين. فرفع المسلم يده فلطم بها وجه اليهودى فقال: أى خبيث، وعلى محمد ﷺ؟ فجاء اليهودى إلى رسول الله ﷺ، فاشتكى على المسلم، فقال رسول الله ﷺ: «لا تفضلونى على الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش، فلا أدرى أفاق قبلى، أم جُوزى بصعقة الطور؟ فلا تفضلونى على الأنبياء». وفى رواية: «لا تفضلوا بين الأنبياء». فالجواب من وجوه:

أحدها: أن هذا كان قبل أن يعلم بالترفضيل! وفى هذا نظر.

الثانى: أن هذا قاله من باب الهضم والتواضع.

الثالث: أن هذا نهى عن التفضيل فى مثل هذه الحال التى تحاكموا فيها عند التحاجم والتشاجر.

الرابع: لا تفضلوا بمجرد الآراء والعصية.

الخامس: ليس مقام التفضيل إليكم، وإنما هو إلى الله، عز وجل، وعليكم الانقياد والتسليم له، والإيمان به.

وقوله: ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ أى: الحجج والدلائل القاطعات على صحة ما جاء بنى إسرائيل به، من أنه عبد الله ورسوله إليهم ﴿ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ يعنى: أن الله أيد به جبريل عليه السلام، ثم قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا ﴾ أى: بل كل ذلك عن قضاء الله وقدره؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾.

﴿ يَتَّيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

يأمر تعالى [عباده] بالإتفاق مما رزقهم فى سبيله، سبيل الخير، ليدخروا ثواب ذلك عند ربهم ومليكتهم، وليبادروا إلى ذلك فى هذه الحياة الدنيا ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ ﴾ يعنى: يوم القيامة ﴿ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ ﴾ أى: لا يباع أحد من نفسه، ولا يفادى بمال لو بذله، ولو جاء بملء الأرض ذهباً، ولا تنفعه خلة أحد، يعنى: صداقته، بل ولا نسابته، كما قال: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي

(١) مضى من رواية ابن مردويه وغيره عند تفسير الآيتين (٣٥ ، ٣٦) من هذه السورة . وقد أفدنا من هذه الإشارة أنه فى صحيح ابن حبان . وسيأتى كاملاً من رواية المسند عند تفسير الآية (٢٥٥) من هذه السورة .

الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ [المؤمنون: ١٠١] ، ﴿وَلَا شَفَاعَةُ﴾ أى : ولا تنفعهم شفاعة الشافعين .

وقوله : ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ : مبتدأ محصور فى خبره ، أى : ولا ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذ كافراً . وقد روى ابن أبى حاتم ، عن عطية بن دينار أنه قال : الحمد لله الذى قال : ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ، ولم يقل : والظالمون هم الكافرون .

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿١٥٥﴾﴾

هذه آية الكرسي ، ولها شأن عظيم ، قد صح الحديث عن رسول الله ﷺ ، بأنها أفضل آية فى كتاب الله . روى الإمام أحمد : عن أبى بن كعب : أن النبى ﷺ سألته : «أى آية فى كتاب الله أعظم؟» قال : الله ورسوله أعلم . فرددها مراراً ، ثم قال أبى : آية الكرسي . قال : «لِيَهْنِكَ العلم أبا المنذر ، والذى نفسى بيده ، إن لها لساناً وشفعتين ، تقدس الملك عند ساق العرش» وقد رواه مسلم ، وليس عنده زيادة : «والذى نفسى بيده» إلى آخره (١) . وروى أبو يعلى عن أبى ابن كعب : أنه كان له جرن فيه تمر ، قال : فكان يتعاهده ، فوجده ينقص ، قال : فحرسه ذات ليلة ، فإذا هو بدابة شبيه الغلام المحتلم ، قال : فسلمت عليه فرد السلام . قال : فقلت : ما أنت ، جنى أم إنسى؟ قال : جنى . قلت : ناولنى يدك . قال : فناولنى ، فإذا يد كلب ، وشعر كلب . فقلت : هكذا خلقت الجن؟ قال : لقد علمت الجن ما فيهم أشد منى ، قلت : فما حملك على ما صنعت؟ قال : بلغنى أنك رجل تحب الصدقة ، فأحببنا أن نصيب من طعامك . قال : فقال له : فما الذى يجيرنا منك؟ قال : هذه الآية : آية الكرسي . ثم غدا إلى النبى ﷺ فآخبره ، فقال النبى ﷺ : «صدق الحديث» . وهكذا رواه الحاكم . وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٢) .

وروى الإمام أحمد : عن أنس بن مالك ، أن رسول الله ﷺ سأل رجلاً من صحابته ، فقال : «أى فلان ، هل تزوجت؟» قال : لا ، وليس عندى ما أتزوج به . قال : «أوليس معك : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ؟» قال : بلى . قال : «ربع القرآن . أليس معك : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ؟» قال : بلى . قال : «ربع القرآن . أليس معك : ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ ؟» قال : بلى . قال : «ربع القرآن أليس معك : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ؟» قال : بلى . قال : «ربع القرآن . أليس معك آية الكرسي : ﴿اللَّهُ

(١) المسند (٥ / ١٤١ ، ١٤٢ حلى) وصحيح مسلم (١ / ٢٢٣) ورواه أيضاً أبو داود وابن الضريس والحاكم والهروى فى الفضائل ، كما فى الدر المنثور (١ / ٣٢٢) .

(٢) زاد السيوطى فى الدر المنثور (١ / ٣٢٢) نسبته للنسائى وابن حبان والطبرانى وأبى نعيم والبيهقى - معا - فى الدلائل . وأفاد الحافظ المزى أن النسائى رواه فى كتاب اليوم والليلة .

لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » قال : بلى . قال : « ربيع القرآن » (١) . وروي الإمام أحمد ، عن أبي ذر ، رضى الله عنه ، قال : أتيت النبي ﷺ وهو فى المسجد ، فجلست . فقال : « يا أبا ذر ، هل صليت ؟ » قلت : لا . قال : « قم فصل » قال : فقممت فصليت ، ثم جلست . فقال : « يا أبا ذر ، تَعَوِّذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ » قال : قلت : يا رسول الله ، أو للإنس شياطين ؟ قال : « نعم » . قلت : يا رسول الله ، الصلاة ؟ قال : « خير موضوع ، من شاء أقل ، ومن شاء أكثر » . قال : قلت : يا رسول الله ، الصوم ؟ قال : « فرض مُجْزئ ، وعند الله مزيد » قلت : يا رسول الله ، فالصدقة ؟ قال : « أضعاف مضاعفة » . قلت : يا رسول الله ، فأيهما أفضل ؟ قال : « جهد من مُقِلٍّ ، أو سِرٍّ إلى فقير » قلت : يا رسول الله أى الأنبياء كان أول ؟ قال : « آدم » قلت : يا رسول الله ، ونبي كان ؟ قال : « نعم ، نبي مُكَلِّم » قلت : يا رسول الله ، كم المرسلون ؟ قال : « ثلثمائة وبضعة عشر ، جمًّا غفيراً » وقال مرة : « وخمسة عشر » قلت : يا رسول الله ، أى ما أنزل عليك أعظم ؟ قال : « آية الكرسي : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ » ورواه النسائي (٢) . وروى الإمام أحمد عن أبى أيوب : أنه كان فى سهوة له ، وكانت الغول تجيء فتأخذ ، فشكاها إلى النبي ﷺ : فقال : « فإذا رأيتهما فقل : بسم الله ، أجبى رسول الله » . قال : فجاءت ، فقال لها : فأخذها ، فقالت : إني لا أعود . فأرسلها ، فجاء ، فقال له النبي ﷺ : « ما فعل أسيرك ؟ » قال : أخذتها ، فقالت لى : إني لا أعود . فأرسلتها . فقال : « إنها عائدة » فأخذتها مرتين أو ثلاثاً ، كل ذلك تقول : لا أعود ، وأجىء إلى النبي ﷺ فيقول : « ما فعل أسيرك ؟ » فأقول : أخذتها . فتقول : لا أعود . فيقول : « إنها عائدة » فأخذها ، فقالت : أرسلنى وأعلمك شيئاً تقوله فلا يقربك شيء : آية الكرسي . فأتى النبي ﷺ فأخبره ، فقال : « صدقت ، وهى كذوب » . ورواه الترمذى . وقال : حسن غريب . والغول فى لغة العرب : الجان إذا تبدى فى الليل (٣) .

(١) المسند (١٣٣٤٢) وفى آخره : « قال : تزوج ، تزوج ، ثلاث مرات » . وزاد السيوطى (١ / ٣٢٣) نسبه لابن الضريس والهروى فى فضائله . وذكره الهيثمى فى الزوائد (١٤٧ / ٧) ، وقال : « رواه أحمد وسلمة ضعيف » . يعنى التابعى راويه عن أنس ، وهى « سلمة بن وردان » ، وضعفه أحمد وغيره ، ولكن قال أحمد ابن صالح : « هو عندى ثقة حسن الحديث » . ثم قد ترجمه البخارى فى الكبير (٧٨ / ٢ / ٧٩) ، وذكر أنه « سمع أنس بن مالك » ، ولم يذكر فيه جرحاً ، فهو - عنده - ثقة .

(٢) هو فى المسند (٥ / ١٧٨ حلى) ، عن وكيع . ثم (ص ١٧٩) ، عن يزيد بن هارون - كلاهما عن المسعودى . وقد مضت أجزاء منه عند تفسير الآيات (١٤ ، ١٥ ، ٣٥ ، ٣٦) . وبيننا تخريجه فى (١ / ١٣٤) . ونزيد هنا أن الحاكم روى قطعة منه (٢ / ٢٨٢) ، وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » . ووافقه الذهبى . ورواية النسائي (٢ / ٣١٩) مختصرة كما بينا فى (١ / ١٠٩) . ونقل أستاذنا السيد رشيد رضا - بهامش ابن كثير - أن ابن الجوزى عده فى الموضوعات ، وأن السيوطى حقق أنه ضعيف ، وأنهم انتقدوا على ابن حبان إخراجها فى صحيحه !! أقول : وقد أخطأ ابن الجوزى ، وأخطأ السيوطى ، وأخطأ ناقلو ابن حبان .

(٣) المسند (٥ / ٤٢٣ حلى) . والترمذى (٤ / ٤٣) ورواه الحاكم (٣ / ٤٥٩) - بعد روايتين عن ابن عباس وأبى أيوب ، ولم يذكر لفظه كاملاً - ثم قال : « هذه الأسانيد إذا جمع بينها صارت حديثاً مشهوراً » وقال الذهبى عن الرواية الأخيرة هذه - : « هذا أجود طرق الحديث » . وذكره المنذرى فى الترغيب (٢ / ٢٢٠) من رواية الترمذى . وزاد السيوطى (١ / ٣٢٣) نسبه لابن أبى شيبة وابن أبى الدنيا وأبى الشيخ والطبرانى وأبى نعيم . و « السهوة » - بفتح السين المهملة وسكون الهاء - هى الطاق فى الحائط يوضع فيها الشيء .

وقد ذكر البخارى هذه القصة، عن أبى هريرة، قال: وكلنى رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتانى آت فجعل يحثو من الطعام، فأخذته وقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: إنى محتاج، وعلى عيال، ولى حاجة شديدة. قال: فخليت عنه. فأصبحت، فقال النبى ﷺ: «يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟» قال: قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة وعيالا، فرحمته وخليت سبيله. قال: «أما إنه قد كذبك وسيعود» فعدت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ: «إنه سيعود» فرصدته فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ. قال: دعنى، فإنى محتاج، وعلى عيال، لا أعود. فرحمته وخليت سبيله، فأصبحت فقال لى رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟» قلت: يا رسول الله، شكا حاجة وعيالا فرحمته فخليت سبيله. قال: «أما إنه قد كذبك وسيعود» فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ. وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم أنك لا تعود، ثم تعود. فقال: دعنى أعلمك كلمات ينفعك الله بها. قلت: ما هن. قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ حتى تختتم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله، فأصبحت فقال لى رسول الله ﷺ: «ما فعل أسيرك البارحة؟» قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمنى كلمات ينفعنى الله بها، فخليت سبيله. قال: «ما هى؟» قال: قال لى: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختتم الآية: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وقال لى: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح - وكانوا أحرص شيء على الخير - فقال النبى ﷺ: «أما إنه صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب ثلاث ليال يا أبا هريرة؟» قلت: لا، قال: «ذاك شيطان». كذا رواه البخارى معلقا بصيغة الجزم. وقد رواه النسائى فى «اليوم والليلة». [ورواه ابن مردويه من وجه آخر، بسياق آخر قريب من هذا] (١). وقد تقدم لأبى بن كعب كائنة مثل هذه أيضاً، فهذه ثلاث وقائع. وروى أبو عبيد فى كتاب «الغريب»: عن الشعبى، عن عبد الله بن مسعود قال: خرج رجل من الإنس فلقبه رجل من الجن، فقال: هل لك أن تصارعنى، فإن صرعتنى علمتك آية إذا قرأتها حين تدخل بيتك لم يدخله شيطان؟ فصارعه، فصرعه، فقال: إنى أراك ضئيلا شخيلا كأن ذراعيك ذراعا كلب، أفهكذا أنتم أيها الجن. كلكم. أم أنت من بينهم؟ فقال: إنى بينهم لضليع، فعادونى، فصارعه، فصرعه الإنسى. فقال: تقرأ آية الكرسي، فإنه لا يقرؤها أحد إذا دخل بيته إلا خرج الشيطان، وله خبيخ كخبيخ الحمام. فقيل لابن مسعود: أهو عمر؟ فقال: من عسى أن يكون إلا عمر؟ قال أبو عبيد: الضئيل: النحيف الجسم، والخبيخ - بالخاء المعجمة، ويقال: بالخاء

(١) البخارى (٤ / ٣٩٦ - ٣٩٨ فتح). وقال ابن حجر: «وصله النسائى والإسماعيلى وأبو نعيم»، وزاد للسيوطى (١ / ٣٢٦) نسبته لابن الضريس. وذكر المنذرى فى الترغيب (١ / ٢١٢) أنه «رواه البخارى وابن خزيمة وغيرهما»

المهملة: الضراط (١) . وروى الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في هاتين الآيتين: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ و ﴿الْأَلَمَ. اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١، ٢] : «إن فيهما اسم الله الأعظم». وكذا رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه. وقال الترمذى: حسن صحيح (٢). وروى ابن مردويه عن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ دُبُر كل صلاة مكتوبة آية الكرسي، لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت».

وهكذا رواه النسائى فى «اليوم والليلة»، وأخرجه ابن حبان فى صحيحه، وإسناده على شرط البخارى، وقد زعم أبو الفرج بن الجوزى أنه حديث موضوع ، والله أعلم.

وهذه الآية مشتملة على عشر جمل مستقلة:

فقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إخبار بأنه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق، ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ أى: الحى فى نفسه الذى لا يموت أبداً المقيم لغيره، وكان عمر يقرأ: «الْقَيَّامُ»، فجميع الموجودات مفتقرة إليه، وهو غنى عنها، ولا قوام لها بدون أمره، كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥]، وقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ أى: لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت، شهيد على كل شىء، لا يغيب عنه شىء، ولا يخفى عليه خافية. ومن تمام القيومية أنه لا يعتريه سنة ولا نوم، فقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ﴾ أى لا تغلبه سنة، وهى الوسن والنعاس؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾؛ لأنه أقوى من السنة. وفى الصحيح عن أبى موسى قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل، وعمل الليل قبل عمل النهار، حجابه النور - أو النار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» (٣).

وقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: إخبار بأن الجميع عبيده وفى ملكه وتحت قهره

(١) إسناده عند أبى عبيد - صحيح . وكذلك رواه الدارمى (٢ / ٤٤٧ ، ٤٤٨) ، بإسناد صحيح ، وزاد السيوطى (٣٢٣ / ١) نسبته للطبرانى وأبى نعيم فى الدلائل والبيهقى . وذكره الهيثمى فى الزوائد (٩ / ٧٠ ، ٧١) بروايتين للطبرانى ، أولاهما عن أبى وائل عن ابن مسعود . وقال : « رجال الرواية الثانية رجال الصحيح ، إلا أن الشعبى لم يسمع من ابن مسعود . ورواة الطريق الأول فهم المسعودى ، وهو ثقة ولكنه اختلط ، فبان لنا صحة رواية المسعودى برواية الشعبى » . أقول : والشعبى عاصر ابن مسعود ، والمعاصرة كافية فى الاتصال لغير المدلس . والشعبى هو الشعبى . و « الشخصيت » : التحيف الجسم الدقيق .

(٢) مضى عند الآية (١٦٣) بنحوه ، وهذه الرواية فى المسند (٦ / ٤٦١ حلى) . وهو فى الترمذى (٤ / ٢٥٣) . وابن ماجه (٣٨٥٥) .

(٣) رواه أحمد فى المسند (٤٠٥ / ٤ حلى) ومسلم (١ / ٦٤) وابن ماجه (١٩٥) . وفى روايتهم : « بخمس كلمات » . وأما لفظ « بأربع » ففى روايتين آخرين فى مسلم . ورواه أحمد قبل ذلك (ص ٤٠١) دون ذكر العدد . قال القاضى عياض فى المشارق (٢ / ٢٠٣) فى معنى « سبحات وجهه » : « قيل : نور وجهه ، وقيل : جمال وجهه . ومعناه : جلاله وعظمته » .

وسلطانه، كقوله: ﴿إِنْ كُلٌّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥] .

وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ كقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]، وكقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨] وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه، عز وجل، أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة، كما في حديث الشفاعة: «أتى تحت العرش فأخبر ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقال: ارفع رأسك، وقل تسمع، واشفع تشفع» قال: «فيحُدُّ لِي حَدًّا فَأَدْخِلُهُم الْجَنَّةَ» (١).

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات: ماضيها وحاضرها ومستقبلها، كقوله إخباراً عن الملائكة: ﴿وَمَا تَنْتَظِرُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤] .

وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ أي: لا يطلع أحد من علم الله على شيء إلا بما أعلمه الله، عز وجل، وأطلععه عليه. ويحتمل أن يكون المراد: لا يطلعون على شيء من علم ذاته وصفاته إلا بما أطلعهم الله عليه، كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] .

وقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: روى ابن أبي حاتم وابن جرير: عن ابن عباس في قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ قال: علمه (٢) . قال ابن أبي حاتم: وروى عن سعيد بن جبير مثله. قال ابن جرير: وقال آخرون: الكرسي، موضع القدمين، ثم رواه عن أبي موسى، والسدي، والضحاك، ومسلم البطين. وروى شجاع بن مخلد عن ابن عباس قال: سئل النبي ﷺ عن قول الله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ قال: «كرسيه موضع قدميه، والعرش لا يقدر قدره إلا الله، عز وجل». كذا أورد هذا الحديث الحافظ أبو بكر بن مردويه، وهو غلط، وقد رواه وكيع في تفسيره: عن ابن عباس قال: الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر أحد قدره. وقد رواه الحاكم عن ابن عباس موقوفاً مثله، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه (٣) . وقد

(١) اقتباس من حديث طويل، رواه مسلم (١ / ٧١) من حديث أنس بن مالك .

(٢) الطبري (٥٧٨٧، ٥٧٨٨) وإسناده جيد، ولكنه شاذ بمرّة، مخالف للثابت الصحيح عن ابن عباس، كما سيأتي .

(٣) الحاكم (٢ / ٢٨٢) . ووافقه الذهبي على شرط الشيخين . وذكره قاضي القضاة ابن أبي العز في شرح الطحاوية (ص ٢١٧ بتحقيقنا) أنه رواه أيضاً ابن أبي شيبة في كتاب صفة العرش . وزاد السيوطي (١ / ٣٢٧) أنه رواه الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ والخطيب والبيهقي . ورواية الطبراني في مجمع الزوائد (٦ / ٣٢٣) ، وقال : « ورجاله رجال الصحيح » .

وهذا هو الصحيح الثابت عن ابن عباس . وأما الرواية السابقة عنه ، بتأويل الكرسي بالعلم - فهي رواية شاذة ، لا يقوم عليها دليل من كلام العرب . ولذلك رجح أبو منصور الأزهري الرواية الصحيحة عن ابن عباس ، وقال : « وهذه رواية اتفق أهل العلم على صحتها . ومن روى عنه في الكرسي أنه العلم ، فقد أبطل » وقد اختار الطبري القول الباطل ورجحه دون حجة قائمة . ورد عليه أخى السيد محمود محمد شاكر ردّاً قوياً نفساً . انظره في الطبري (٥ / ٤٠١) .

زعم بعض المتكلمين على علم الهيئة من الإسلاميين: أن الكرسي عندهم هو الفلك الثامن، وهو فلك الثوابت الذى فوقه الفلك التاسع، وهو الفلك الأثير، ويقال له: الأطلس. وقد رد ذلك عليهم آخرون. وروى ابن جرير من طريق جُوَيْر، عن [الضحاك] عن الحسن البصرى أنه كان يقول: الكرسي هو العرش^(١). والصحيح أن الكرسي غير العرش، والعرش أكبر منه، كما دلت على ذلك الآثار والأخبار .

وقوله: ﴿وَلَا يَتُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ أى: لا يثقله ولا يكرُّه حفظ السموات والأرض ومن فيهما ومن بينهما^(٢)، بل ذلك سهل عليه، يسير لديه، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء فلا يعزب عنه شيء، ولا يغيب عنه شيء، والأشياء كلها حقيرة بين يديه، متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه محتاجة فقيرة وهو الغنى الحميد، الفعال لما يريد، الذى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. وهو القاهر لكل شيء، الحسيب على كل شيء، الرقيب العلى العظيم لا إله غيره ولارب سواه، فقوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ كقوله: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى﴾^(٣) [الرعد: ٩]. وهذه الآيات وما فى معناها من الأحاديث الصحاح - الأجود فيها طريقة السلف الصالح: إمرارها كما جاءت، من غير تكليف ولا تشبيه.

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

يقول تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أى: لا تكرهوا أحداً على الدخول فى دين الإسلام، فإنه بين واضح جلى دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيد الدخول فى الدين مكرهاً مقسوراً. وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية فى قوم من الأنصار، وإن كان حكمها عاماً. فروى ابن جرير عن ابن عباس قال: كانت المرأة تكون مقلاتاً فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله، عز وجل: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾. وقد رواه أبو داود والنسائى نحوه. وقد رواه ابن أبى حاتم، وابن حبان فى صحيحه^(٤). وهكذا ذكر مجاهد، وسعيد بن جبير، والشعبى، والحسن البصرى، وغيرهم: أنها

(١) الطبرى (٥٧٩٥) والزبادة منه، وهى ضرورية فى الإسناد و «جوير بن سعيد الأزدى»: ضعيف جداً، فهذا القول - إذن - غير ثابت عن الحسن.

(٢) «كره الأمر، يكرهه - بضم الراء وكسرهما - كرثاً» و «أكرهه»: ساء واشتد عليه، وبلغ منه المشقة. ثلاثى ورباعى. وفى المطبوعة: «يكرثه»! وهو تخليط، صحته فى المخطوطة.

(٣) فى المطبوع من «عمدة التفسير» وكذا المخطوطة الأزهرية: «وهو الكبير المتعال». وهو خطأ. والآية بتمامها: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى﴾. (البار).

(٤) الطبرى (٥٨١٢، ٥٨١٣) وأبو داود (٢٦٨٢) وابن حبان (١٤٠ بتحقيقنا). و «المقلات» - بكسر الميم وسكون القاف: المرأة التى لا يعيش لها ولد. يقال: «أقلت المرأة إقلاتاً». ولا يقال ذلك للرجل.

نزلت في ذلك .

وقد ذهب طائفة كثيرة من العلماء : أن هذه محمولة على أهل الكتاب ، ومن دخل في دينهم قبل النسخ والتبديل إذا بذلوا الجزية . وقال آخرون : بل هي منسوخة بآية القتال ، فإنه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول في الدين الحنيف دين الإسلام ، فإن أبى أحد منهم الدخول ولم ينقد له وبذل الجزية ، قوتل حتى يقتل . وهذا معنى الإكراه . قال الله تعالى : ﴿سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بِأَنْفُسِكُمْ فَاقَاتِلُوهُمْ أَوْ يُسْلِمُوا﴾ [الفتح: ١٦] ، وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحریم: ٩] ، وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣] . وفي الصحيح : «عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل» (١) ، يعنى : الأسارى الذين يقدم بهم بلاد الإسلام في الوثاق والأغلال والقيود والأكبال ، ثم بعد ذلك يسلمون ، وتصلح أعمالهم وسرايرهم ، فيكونون من أهل الجنة .

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد : عن أنس : أن رسول الله ﷺ قال لرجل : «أسلم» قال : إنى أجدنى كارها . قال : «وإن كنت كارها» . فإنه صحيح ، ولكن ليس من هذا القبيل ، فإنه لم يكرهه النبى ﷺ على الإسلام ، بل دعاه إليه ، فأخبره أن نفسه ليست قابلة له ، بل هى كارهة ، فقال له : «أسلم» ، وإن كنت كارهاً ، فإن الله سيرزقك حسن النية والإخلاص » (٢) .

وقوله : ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ أى : من خلع الأنداد والأوثان ، وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله ، ووجد الله فعبده وحده ، وشهد أنه لا إله إلا هو ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ أى : فقد ثبت فى أمره واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم . وروى أبو القاسم البغوى عن عمر قال : إن الجبت : السحر ، والطاغوت : الشيطان ، وإن الشجاعة والجن غرائز تكون فى الرجال ، يقاتل الشجاع عمن لا يعرف ، ويفر الجبان عن أمه ، وإن كرم الرجل دينه ، وحسبه خلقه وإن كان فارسياً أو نبطياً . ورواه ابن جرير . وابن أبى حاتم . ومعنى قوله فى « الطاغوت » : أنه الشيطان ، قوى جداً ، فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية ، من عبادة الأوثان والتحاكم إليها والاستنصار بها .

وقوله : ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ أى : فقد استمسك من الدين بأقوى سبب ، وشبه ذلك بالعروة القوية التى لا تنقسم ، فهى فى نفسها محكمة مبرمة قوية ، وربطها قوى شديد ، ولهذا قال : ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ . قال مجاهد : ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ يعنى : الإيمان . وقال السدى : هو الإسلام ، وقال سعيد بن جبیر ، والضحاك : يعنى لا إله إلا الله . وعن أنس بن مالك : ﴿الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى﴾ : القرآن . وكل هذه الأقوال صحيحة ، ولا تنافى بينها . وقال معاذ ابن جبل ، فى قوله : ﴿لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ أى : لا

(١) المسند (٨٠٠٠) والبخارى (١٠١/٦ فتح) وابن حبان فى صحيحه (١٣٤) من حديث أبى هريرة .

(٢) المسند (١٢٠٨٦ ، ١٢٨٩٩) بإسنادين صحيحين .

انقطاع لها دون دخول الجنة . وقال مجاهد وسعيد بن جبیر : ﴿ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْقِصَامَ لَهَا ﴾ ثم قرأ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] . وروى الإمام أحمد عن ابن عون ، عن محمد - وهو ابن سيرين - عن قيس بن عباد قال : كنت في المسجد ، فجاء رجل في وجهه أثر من خشوع ، فدخل فصلى ركعتين أوجز فيهما ، فقال القوم : هذا رجل من أهل الجنة . فلما خرج اتبعته حتى دخل منزله ، فدخلت معه ، فحدثته ، فلما استأنس قلت له : إن القوم لما دخلت المسجد قالوا كذا وكذا . قال : سبحان الله ! ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم ، وسأحدثك لم : إنني رأيت رؤيا على عهد رسول الله ﷺ ، فقصصتها عليه : رأيت كأنني في روضة خضراء - قال ابن عون : فذكر من خضرتها وسعتها - وسطها عمود حديد ، أسفله في الأرض وأعلاه في السماء ، في أعلاه عروة ، فقبل لي : اصعد عليه . فقلت : لا أستطيع . فجاءني مَنْصَفٌ - قال ابن عون : هو الوصيف - فرفع ثيابي من خلفي ، فقال : اصعد . فصعدت حتى أخذت بالعروة ، فقال : استمسك بالعروة . فاستيقظت وإنها لفي يدي ، فأتيت رسول الله ﷺ فقصصتها عليه . فقال : «أما الروضة فروضة الإسلام ، وأما العمود فعمود الإسلام ، وأما العروة فهي العروة الوثقى ، أنت على الإسلام حتى تموت» . قال : وهو عبد الله بن سلام . أخرجاه في الصحيحين (١) .

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٢٥٧)

يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبيل السلام ، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب ، إلى نور الحق الواضح الجلي المبين السهل المنير ، وأن الكافرين إنما وليهم الشياطين تزين لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات ، ويخرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ . ولهذا وحد تعالى لفظ النور وجمع الظلمات ؛ لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة ، وكلها باطلة كما قال : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [الأنعام : ١] ، وقال تعالى : ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ ﴾ [المعارج : ٣٧] إلى غير ذلك من الآيات التي في لفظها إشعار بتفرّد الحق ، وانتشار الباطل وتفرقه وتشعبه .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبَدُ وَيُمَيِّتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمَيِّتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢٥٨)

هذا الذى حاج إبراهيم فى ربه هو ملك بابل : نمروذ بن كنعان . ومعنى قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ : أى : بقلبك يا محمد ﴿ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ أى : وجود ربه . وذلك أنه أنكر أن يكون ثم إله غيره ، كما قال بعده فرعون لملئه : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص : ٢٨] ، وما حمّله على هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة إلا تجبره ، وطول مدته فى الملك ؛ ولهذا قال : ﴿ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ وكأنه طلب من إبراهيم دليلاً على وجود الرب الذى يدعو إليه ، فقال إبراهيم : ﴿ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ ﴾ أى : الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها ، وعدمها بعد وجودها . وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة ؛ لأنها لم تحدث بنفسها ، فلا بد لها من موجد أوجدها وهو الرب الذى أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له . فعند ذلك قال الحاج - وهو النمروذ : ﴿ أَنَا أَخْبِى وَأُمِيتُ ﴾ . قال قتادة ، ومحمد بن إسحاق ، والسدى ، وغير واحد : وذلك أنى أوتى بالرجلين قد استحقا القتل ، فأمر بقتل أحدهما فيقتل ، وبالعفو عن الآخر فلا يقتل . فذلك معنى الإحياء والإماتة . والظاهر والله أعلم - أنه ما أراد هذا ؛ لأنه ليس جواباً لما قال إبراهيم ولا فى معناه ؛ لأنه مانع لوجود الصانع . وإنما أراد أن يدعى لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة ، ويوهم أنه الفاعل لذلك ، وأنه هو الذى يحيى ويميت ، كما اقتدى به فرعون فى قوله : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ ؛ ولهذا قال له إبراهيم لما ادعى هذه المكابرة : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِ بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ أى : إذا كنت كما تدعى من أنك تحيى وتميت - فالذى يحيى ويميت هو الذى يتصرف فى الوجود فى خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته ، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق ، فإن كنت إلهاً كما ادعيت - تحيى وتميت - فأت بها من المغرب !! فلما علم عجزه وانقطاعه ، وأنه لا يقدر على المكابرة فى هذا المقام بُهت ، أى : أخرس فلا يتكلم ، وقامت عليه الحجة . قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ أى : لا يلهيهم حجة ولا برهاناً ، بل حجبتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ، ولهم عذاب شديد .

وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين : أن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثانى انتقال من دليل إلى أوضح منه ! ومنهم من قد يطلق عبارة ردية (١) . وليس كما قالوه ، بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثانى ويبيّن بطلان ما ادعاه نمروذ فى الأول والثانى ، والله الحمد والمنة .

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِى هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَيْتُ قَالَ لَيْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَيْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى جِمَازِكَ وَانْجَعَلَتْ آيَةٌ لِلنَّاسِ وَالنَّاسُ ظَالِمُونَ ﴾

لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٥٩﴾

تقدم قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ وهو فى قوة قوله: هل رأيت مثل الذى حاج إبراهيم فى ربه؟ ولهذا عطف عليه بقوله: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾. اختلفوا فى هذا المار من هو؟ فروى ابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب أنه قال: هو عزيز (١). وحكاه ابن جرير، وابن أبى حاتم، عن ابن عباس، والحسن، وقاعدة، وغيرهم ، وهذا القول هو المشهور. وقال مجاهد بن جبير: هو رجل من بنى إسرائيل. وأما القرية: فالمشهور أنها بيت المقدس، مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها.

﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ ﴾ أى: ليس فيها أحد، من قولهم: خوت الدار تخوى وخوياً.

وقوله: ﴿ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ أى: ساقطة سقفها وجدرانها على عرصاتها، فوقف متفكراً فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة ، وقال: ﴿ أَتَى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ؟ وذلك لما رأى من دثورها وشدة خرابها ويعدها عن العود إلى ما كانت عليه، قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَاتَ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾ وعمرت البلدة بعد مضى سبعين سنة من موته، وتكامل ساكنوها وتراجعت بنو إسرائيل إليها. فلما بعثه الله، عز وجل، بعد موته كان أول شيء أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه كيف يحيى بدنه؟ فلما استقل سويا قال الله له - أى بواسطة الملك : ﴿ كَمْ لَيْتَ قَالَ لَيْتَ يَوْمًا ﴾ قالوا: وذلك أنه مات أول النهار، ثم بعثه الله فى آخر نهار، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم، فقال: ﴿ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَيْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ لم يتغير منه شيء ﴿ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ ﴾ أى: كيف يحييه الله، عز وجل، وأنت تنظر ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ أى: دليلاً على المعاد ﴿ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾ أى: نرفعها فتركب بعضها على بعض. وقد روى الحاكم عن زيد بن ثابت: أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾ بالزأى. ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٢). وقرئ: ﴿ نُشْزِرُهَا ﴾ أى: نحيتها، قاله مجاهد ﴿ ثُمَّ نَكْسُوهُمْ لَحْمًا ﴾ فعند ذلك لما تبين له هذا كله ﴿ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى: أنا عالم بهذا، وقد رأيت عياناً، فأنا أعلم أهل زمانى بذلك. وقرأ آخرون: « قال اعلم » ، على أنه أمر له بالعلم (٣).

(١) ورواه الحاكم (٢ / ٢٨٢) فى قصة ، موقوفاً من كلام على . وقال : « صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه » . ووافقه الذهبي .

(٢) المستدرك (٢ / ٢٣٤) . وتعقبه الذهبي بتضعيف أحد رواته ، فإن فى إسناده « إسماعيل بن قيس بن سعد بن زيد بن ثابت » وهو ضعيف جداً . قال البخارى فى الكبير (١ / ١ / ٣٧٠) . وكذا قال فى الضعفاء (ص ٤) . وقال ابن أبى حاتم (١ / ١ / ١٩٣) : « سألت أبى عنه ؟ فقال : ضعيف الحديث ، منكر الحديث ، يحدث بالناكير ، لا أعلم له حديثاً قائماً » . ولم يكن من شرطنا إثبات مثل هذا الحديث الواهى فى (عمدة التفسير) ، لولا أن جاء به الحافظ ابن كثير ليحكى به القراءة بالزأى ، ثم ينقل تصحيح الحاكم إياه ولا يعقب عليه . والقراءة بالزأى ثابتة بثبوت القطع فى القراءات السبع وغيرها . فقد قرأ بها ابن عامر وعاصم وحزمة والكسائى وخلف . وقرأ باقى الأربعة عشر بالراء مع ضم النون . فهما قراءتان صحيحتان متواترتان . لا يحتاج فى إثبات واحدة منهما إلى رواية حديث صحيح أو ضعيف .

(٣) «اعلم» - فعل أمر - هى قراءة حمزة والكسائى من السبعة ، واختارها الطبرى ورجحها من ناحية المعنى (٤٨٣/٥ ، ٤٨٤) .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُنحِي الْمَوْتُ قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنَ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام أسباباً، منها: أنه لما قال لنمروذ: ﴿ رَبِّي الَّذِي يُخَيِّ وَيُعِيمُ ﴾ أحب أن يترقى من علم اليقين في ذلك إلى عين اليقين، وأن يرى ذلك مشاهدة فقال: ﴿ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُنحِي الْمَوْتُ قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنَ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي ﴾ . فأما الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم، إذ قال: ﴿ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُنحِي الْمَوْتُ ﴾ قال: ﴿ قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنَ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي ﴾ وكذا رواه مسلم، فليس المراد ههنا بالشك ما قد يفهمه من لا علم عنده، بخلاف. وقد أوجب عن هذا الحديث بأجوبة، أحدها (١).

وقوله: ﴿ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾: اختلف المفسرون في هذه الأربعة: ما هي؟ وإن كان لا طائل تحت تعيينها، إذ لو كان في ذلك مهم لنص عليه القرآن. وقوله: ﴿ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ أى: قطعهن. قاله ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبو الأسود الدؤلي ، وغيرهم . ﴿ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أى: عزيز لا يغلبه شيء، ولا يمتنع منه شيء، وما شاء كان بلا ممانع لأنه العظيم القاهر لكل شيء ، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره . وروى ابن أبي حاتم عن ابن المنكدر ، أنه قال : التقى عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص، فقال ابن عباس لابن عمرو بن العاص: أى آية في القرآن أرجى عندك؟ فقال عبد الله بن عمرو: قول الله عز وجل: ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا ﴾ الآية، فقال ابن عباس: لكن أنا أقول: قول الله: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُنحِي الْمَوْتُ قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنَ قَالَ بَلَىٰ ﴾ فرضى من إبراهيم قوله: ﴿ بَلَىٰ ﴾ قال: فهذا لما يعترض في النفوس ويوسوس به الشيطان . وهكذا روى الحاكم مثله. ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه (٢).

(١) هنا بياض في المخطوطة الأزهرية والمطبوعة . لعل الحافظ ابن كثير تركه ليكتب الأقوال في ذلك ، ثم لم يفعل سهواً أو نسياناً ، وقد أفاض الحافظ ابن حجر في الفتح (٦ / ٢٩٤ ، ٢٩٥) في ذكر أقوال العلماء في ذلك . وأجود ذلك - عندي - قول ابن عطية ، أن « الحديث مبنى على نفى الشك ، والمراد بالشك فيه : الخواطر التي لا تثبت . وأما الشك المصطلح ، وهو التوقف بين الأمرين من غير مزية لأحدهما على الآخر ، فهو منفي عن الخليل قطعاً ؛ لأنه يبعد وقوعه من رسوخ الإيمان في قلبه ، فكيف بمن بلغ رتبة النبوة ؟ وأيضا : فإن السؤال لما وقع به « كيف » دل على حال شيء موجود مسرور عند السائل والمسؤول ، كما تقول : كيف علم فلان ، و « كيف » في الآية سؤال عن هيئة الإحياء ، لا عن نفس الإحياء ، فإنه ثابت مقرر . وقال غيره : « معناه : إذا لم نشك نحن فإبراهيم أولى ألا يشك ، أى : لو كان الشك متطرقا إلى الأنبياء لكتبت أنا أحق به منه ، وقد علمتم أني لم أشك فاعلموا أنه لم يشك ، وإنما قال ذلك تواضعا منه » .

(٢) الحاكم (١ / ٦٠) . والذي فيه أنه « على شرط الشيخين » . وتعبه الذهبي بأن فيه انقطاعا . والظاهر أنه يريد أن « محمد بن المنكدر » رواه لم يدرك « عبد الله بن عمرو » ! وهو خطأ ، لما في التهذيب : أن الترمذي سأل البخاري : « سمع محمد بن المنكدر من عائشة ؟ قال : نعم » . وعائشة أقدم موتاً من عبد الله ابن عمرو .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضائه، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، فقال: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ قال سعيد بن جبير: يعنى: فى طاعة الله. وقال مكحول: يعنى به: الإنفاق فى الجهاد، من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك. وقال ابن عباس: الجهاد والحج، يضعف الدرهم فيهما إلى سبعمائة ضعف؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ﴾. وهذا المثل أبلغ فى النفوس، من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينمىها الله، عز وجل، لأصحابها، كما ينمى الزرع لمن بذره فى الأرض الطيبة، وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف، فروى الإمام أحمد عن عياض بن غطيف قال: دخلنا على أبى عبيدة نعوذه من شكوى أصابه - وأمراته تُحَيِّفُ قاعدة عند رأسه - قلنا: كيف بات أبو عبيدة؟ قالت: والله لقد بات بأجر، قال أبو عبيدة: ما بت بأجر، وكان مقبلا بوجهه على الحائط، فأقبل على القوم بوجهه، وقال: ألا تسألونى عما قلت؟ قالوا: ما أعجبنا ما قلت فنسألك عنه! قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أنفق نفقة فاضلة فى سبيل الله فبسبعمائة، ومن أنفق على نفسه وأهله، أو عاد مريضاً أو مازاً أذى، فالحسنة بعشر أمثالها، والصوم جنة ما لم يخرقها، ومن ابتلاه الله، عز وجل، ببلاء فى جسده فهو له حِطَّةٌ».

وقد روى النسائي بعضه مرفوعاً وموقوفاً^(١). وروى أحمد أيضاً عن أبى مسعود: أن رجلاً تصدق بناقطة مخطومة فى سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لتأتين يوم القيامة بسبعمائة ناقطة مخطومة». ورواه مسلم والنسائي^(٢). وروى أحمد أيضاً عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى ما شاء الله، يقول الله: إلا الصوم، فإنه لى وأنا أجزي به، يدع طعامه وشرابه من أجلى، وللصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولخُلُوفُ فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. الصوم جنة، الصوم جنة». وكذا رواه مسلم^(٣). وقد تقدم حديث أبى عثمان النهدي، عن أبى هريرة فى تضعيف الحسنة إلى ألفى ألف حسنة^(٤). وروى ابن مردويه عن ابن عمر

(١) المسند (١٦٩٠) والنسائي (٣١١/١) ورواه أحمد أيضاً بنحوه (١٧٠٠ ، ١٧٠١) ورواه الحاكم (٢٦٥/٣) والبيهقى (٣ / ٣٧٤) . وأشار إليه البخارى فى الكبير (١١٣/١/٤) والصغير (ص ٩٤) والحافظ فى الفتح (١٠ / ٩٥) . وقوله : « أو ماز أذى » : أى نحاه وأزاله .

(٢) المسند (٥ / ٢٧٤ حلى) ومسلم (٩٩/٢) . وأبو مسعود : هو عقبه بن عمرو البدرى الأنصارى، ووقع فى المخطوطة الأزهرية والمطبوعة : « ابن مسعود » وهو خطأ .

(٣) المسند (٩٧١٢ ، ١٠١٧٨) ومسلم (١ / ٣١٦ ، ٣١٧) . ورواه أحمد أيضاً بنحوه (٧٥٩٦) .

(٤) عند الآية : (٢٤٥) من هذه السورة .

قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال النبي ﷺ: «رب زد أمتي» قال: فانزل الله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قال: «رب زد أمتي» قال: فانزل الله: ﴿إِنَّمَا يُؤَكِّمُ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. وقد رواه ابن حبان في صحيحه (١).

وقوله هاهنا: ﴿وَاللَّهُ يَضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أى: بحسب إخلاصه فى عمله ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أى: فضله واسع كثير أكثر من خلقه، عليم بمن يستحق ومن لا يستحق سبحانه ويحمده .

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ ﴿٦٧﴾ يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٦٨﴾

ربع

يمدح تعالى الذين ينفقون أموالهم فى سبيله، ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات منّا على من أعطوه، فلا يمتنون به على أحد، ولا يمتنون به لا بقول ولا فعل.

وقوله: ﴿وَلَا أَذًى﴾ أى: لا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروها يحبطون به ما سلف من الإحسان. ثم وعدهم تعالى الجزاء الجزيل على ذلك، فقال: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أى: ثوابهم على الله، لا على أحد سواه ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أى: فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أى: على ما خلفوه من الأولاد وما فاتهم من الحياة الدنيا وزهرتها، لا يأسفون عليها؛ لأنهم قد صاروا إلى ما هو خير لهم من ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أى: من كلمة طيبة ودعاء لمسلم ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أى: غفر عن ظلم قولى أو فعلى ﴿خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾. أى: عن خلقه. ﴿حَلِيمٌ﴾ أى: يحلم ويغفر ويصفح ويتجاوز عنهم.

وقد وردت الأحاديث بالنهى عن المن فى الصدقة، ففى صحيح مسلم، عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكّيهم، ولهم عذاب أليم: المنان بما أعطى، والمسبل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب» (٢). وروى ابن مردويه عن أبى الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة عاق، ولا منان، ولا مدمن خمر، ولا مكذب بقدر» وروى أحمد وابن ماجه نحوه (٣). ثم روى ابن مردويه، وابن حبان،

(١) هذا الحديث ذكره الحافظ ابن كثير أيضا عند تفسير الآية (٢٤٥) من هذه السورة، من رواية ابن أبى حاتم.

(٢) صحيح مسلم (١ / ٤١).

(٣) إسناده ابن مردويه إسناده صحيح، وكذلك إسناده أحمد فى المسند (٦ / ٤٤١ حلى)، ولكن ليس فيه: «ولا منان». وأما ابن ماجه - وإسناده صحيح أيضا - فإنه رواه (٣٣٧٦) مختصرا، فى «مدمن الخمر» فقط.

والحاكم، والنسائي عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، ومدمن الخمر، والمنان بما أعطى» (١)؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ فانحبر أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المن والأذى، فما يفي ثواب الصدقة بخطيئة المن والأذى.

ثم قال تعالى: ﴿كَأَلَدِي يُفَقُّ مَالَهُ وِثَاءُ النَّاسِ﴾ أى: لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى، كما تبطل صدقة من راعى بها الناس، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله وإنما قصده مدح الناس له أو شهرته بالصفات الجميلة، ليشكر بين الناس، أو يقال: إنه كريم ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

ثم ضرب تعالى مثل ذلك المرائي بإنفاقه فقال: ﴿فَعَمَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ وهو جمع صفوانة، ومنهم من يقول: الصفوان يستعمل مفرداً أيضاً، وهو الصفا، وهو الصخر الأملس ﴿عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابُهُ وَابِلٌ﴾ وهو المطر الشديد ﴿فَفَرَّكَ صَلْدًا﴾ أى: فترك الوابل ذلك الصفوان صلباً، أى: أملس يابساً، أى: لا شيء عليه من ذلك التراب، بل قد ذهب كله، أى: وكذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل عند الله، وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيَةً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَثَاءَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١٥)

وهذا مثل المؤمنين المنفقين ﴿أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ عنهم فى ذلك ﴿وَتَثْبِيَةً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أى: وهم متحققون مثبتون أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء، ونظير هذا فى المعنى قوله، عليه السلام، فى الحديث المتفق على صحته: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً...» أى: يؤمن أن الله شرعه، ويحتسب عند الله ثوابه.

وقوله: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ أى: كمثال بستان بربرة. وهو عند الجمهور: المكان المرتفع من الأرض. وزاد ابن عباس والضحاك: وتجرى فيه الأنهار. قال ابن جرير: وفى البروة ثلاث لغات هن ثلاث قراءات: بضم الراء، وبها قرأ عامة أهل المدينة والحجاز والعراق. وفتحها، وهى قراءة بعض أهل الشام والكوفة، ويقال: إنها لغة تميم. وكسر الراء، ويذكر أنها قراءة ابن عباس.

وقوله: ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ وهو المطر الشديد، كما تقدم، ﴿فَثَاءَتْ أَكْلَهَا﴾ أى: ثمرتها ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ أى: بالنسبة إلى غيرها من الجنان ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ﴾ قال الضحاك: هو الرذاذ،

(١) وهذا رواه أيضاً أحمد فى المسند (٦١٨٠) مطولاً، وإسناده صحيح. وفصلنا تخريجه هناك.

وهو اللين من المطر . أى : هذه الجنة بهذه الربوة لا تحمل أبداً ؛ لأنها إن لم يصبها وابل فطل ، وأيا ما كان فهو كفايتها ، وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبداً ، بل يتقبله الله ويكثره وينميه ، كل عامل بحسبه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أى : لا يخفى عليه من أعمال عباده شئ .

﴿ أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾

روى البخارى عن ابن عباس قال : قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب النبى ﷺ : فيمن ترون هذه الآية نزلت : ﴿ أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ ؟ قالوا : الله أعلم ! فغضب عمر فقال : قولوا : نعم أولاً نعلم . فقال ابن عباس : فى نفسى منها شئ يا أمير المؤمنين . فقال عمر : يا ابن أخى ، قل ولا تحقر نفسك . قال ابن عباس : ضربت مثلاً لعمل . قال عمر : أى عمل ؟ قال ابن عباس : [بعمل] . قال عمر : لرجل غنى يعمل بطاعة الله ، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصى حتى أغرق أعماله (١) . وهو من أفراد البخارى ، رحمه الله .

وفى هذا الحديث كفاية فى تفسير هذه الآية ، وتبين ما فيها من المثل : بعمل من أحسن العمل أولاً ، ثم بعد ذلك انعكس سيره ، فبدل الحسنات بالسيئات ، عياداً بالله من ذلك ، فأبطل بعمله الثانى ما أسلفه فيما تقدم من الصالح ، واحتاج إلى شئ من الأول فى أضيق الأحوال ، فلم يحصل [له] منه شئ ، وخانه أحوج ما كان إليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ ﴾ وهو الريح الشديد ﴿ لِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ﴾ أى : أحرق ثمارها وأباد أشجارها ، فأى حال يكون حاله ؟ وقد روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ضرب الله له مثلاً حسناً ، وكل أمثاله حسن ، قال : ﴿ أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ يقول : صنعه فى شببيته فأصابه الكبر وولده وذريته ضعاف عند آخر عمره ، فجاءه ﴿ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ ﴾ فاحترق بستانه ، فلم يكن عنده قوة أن يغرس مثله ، ولم يكن عند نسله خير يعودون به عليه ، وكذلك الكافر يوم القيامة ، إذا ردّ إلى الله ، عز وجل ، ليس له خير فيستعتب ، كما ليس لهذا قوة فيغرس مثل بستانه ، ولا يجده قدم لنفسه خيراً يعود عليه ، كما لم يغن عن هذا ولده ، وحرم أجره عند أفقر ما كان إليه ، كما حرم هذا جنته عند أفقر ما كان إليها عند كبره وضعف ذريته (٢) . وهكذا روى الحاكم : أن رسول الله ﷺ كان يقول فى دعائه :

(١) البخارى (٨ / ١٥١ فتح) . والزيادة منه ومن المخطوطة ، إلا أن الذى فى البخارى : « لعمل » باللام ، بدل « بعمل » . وكذلك رواه الطبرى (٦٠٩٦ ، ٦٠٩٧) ، وحذف هذه الزيادة خطأ من ناسخ أو طابع ؛ لأنه يوهم أن بيان العمل من كلام ابن عباس . والثابت فى كل الروايات أن ابن عباس ذكر العمل مجعلاً ، والذى بينه هو عمر بن الخطاب .

(٢) وكذلك رواه الطبرى (٦١٠١) بزيادة فى آخره . وذكره السيوطى (١ / ٣٤٠) ونسبه إليهما .

«اللهم اجعل أوسع رزقك على عند كبير سنى وانقضاء عمرى»^(١)؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أى: تعتبرون وتفهمون الأمثال والمعانى، وتزولونها على المراد منها، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَرْجَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْنِصُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإِنفاق - والمراد به الصدقة ههنا؛ قاله ابن عباس - من طيبات ما رزقهم من الأموال التى اكتسبوها ، ومن الثمار والزروع التى أنبتها لهم من الأرض. قال ابن عباس: أمرهم بالإِنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه، ونهاهم عن التصديق برذالة المال ودينه - وهو خبيثه - فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا﴾ أى: تقصدوا ﴿الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ﴾ أى: لو أعطيتموه ما أخذتموه، إلا أن تتغاضوا فيه، فالله أغنى عنه منكم، فلا تجعلوا لله ما تكرهون. وقيل: معناه: لا تعدلوا عن المال الحلال، وتقصدوا إلى الحرام، فنجعلوا نفقتكم منه. ويذكر ههنا الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذى نفسى بيده، لا يسلم عبداً حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه». قالوا: وما بوائقه يا نبي الله؟ قال: «عشمة وظلمه، ولا يكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار: إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»^(٢).

(١) نسيه السيوطى أيضا للحاكم من حديث عائشة . انظر : الفتح الكبير (١/ ٢٣١).

(٢) المسند (٣٦٧٢) وسيذكره الحافظ ابن كثير مرة أخرى ، عند تفسير الآية (١١٤) من سورة هود . وقد ضعفت إسناده فى شرح المسند ، من أجل راويه « الصباح بن محمد بن أبى حازم البجلي الأحمسى » . وقد غلا فيه ابن حبان ، فضعه جدا . ثم استبان لى خطأ هذا ، وأن « الصباح » ثقة ، والإسناد صحيح ؛ لأن البخارى ترجم للصباح هذا فى الكبير (٣١٤ / ٢ / ٢) ، فلم يذكر فيه جرحا . وإنما أشار لروايته موقوفا ، كما سيأتى . وكذلك ترجمه ابن أبى حاتم (٤٤١ / ٢) ، فلم يذكر فيه جرحا ، فهو ثقة عندهما ، ثم لم يذكره البخارى ولا النسائى فى الضعفاء .

والحديث رواه الحاكم (٤٤٧ / ٢ ، و ١٦٥ / ٤) - ولم يذكره كاملا فى الموضعين ، وقال فيهما : « صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه » . ووافقه الذهبى فى الموضعين . وذكره الهيثمى فى الزوائد (٥٣ / ١) ، و (٢٨٨ / ١٠) ، عن المسند ، وقال فى الموضع الأول : « إسناده بعضهم مستور ، وأكثرهم ثقات » ، وقال فى الثانى : « رجاله وثقوا ، وفى بعضهم خلاف » . ثم ذكره مرة ثالثة (٢٩٢ / ١٠) ، ونسى ذنبك الموضعين ! فقال : « رواه البزار ، =

والصحيح القول الأول؛ وروى ابن جرير عن البراء بن عازب في قول الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْغَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ الآية. قال: نزلت في الأنصار، كانت الأنصار إذا كان أيام جذاذ النخل، أخرجت من حيطانها [أقناء] البُسْر، فعلقوه على حبل بين الأسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ، فيأكل فقراء المهاجرين منه، فيعتمد الرجل منهم إلى الحشف، فيدخله مع أقناء البسر، يظن أن ذلك جائز، فانزل الله فيمن فعل ذلك: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْغَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾. ورواه ابن ماجه، وابن مردويه، والحاكم عن البراء، بنحوه. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه (١). [وروى ابن أبي حاتم عن البراء، نحوه، وزاد في آخره] قال: لو أن أحدكم أهدى له مثل ما أعطى ما أخذه إلا على إغماض وحياء، فكنا بعد ذلك يجرى الرجل منا بصالح ما عنده. وكذا رواه الترمذى، فذكر نحوه. ثم قال: هذا حديث حسن غريب. وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت: أتى رسول الله ﷺ بضب فلم يأكله ولم ينه عنه. قلت: يا رسول الله، نطعمه المساكين؟ قال: «لا تطعموهم مما لا تاكلون» (٢).

وعن البراء «وَلَسْتُمْ بِأَخِيذِهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ» يقول: لو كان لرجل على رجل، فاعطاه ذلك لم يأخذه؛ إلا أن يرى أنه قد نقصه من حقه. رواه ابن جرير (٣)، عن ابن عباس: «وَلَسْتُمْ بِأَخِيذِهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ» يقول: لو كان لكم على أحد حق، فجاءكم بحق دون حقكم لم تأخذوه بحساب الجيد حتى تنقصوه. قال: فذلك قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾. فكيف ترضون لى ما لا ترضون لأنفسكم، وحقى عليكم من أطيب أموالكم وأنفسه؟! رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، وزاد: وهو قوله: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] (٤).

وقوله: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ» أى: وإن أمركم بالصدقات وبالطيب منها فهو غنى

= وفيه من لم أعرفهم!! وتعقبه الحافظ ابن حجر، فكتب بهامشه: «كلهم معروف والآفة من الصباح».

وذكر الهيثمى أيضا (١٠ / ٩٠) أوله مع زيادة بعده، عن ابن مسعود موقوفا من كلامه. وقال: «رواه الطبرانى موقوفاً، ورجاله رجال الصحيح». وهذا الموقوف هو الذى أشار إليه البخارى فى الكبير، فقال: «وقال الثورى، عن زبيد، عن مرة، عن عبد الله - ولم يرفعه». وعندى أن الموقوف لا يكون تعليلا للمرفوع، بل يكون مؤيدا له. خصوصا إذا كان فى أشياء لا تؤخذ بالقياس، ولا تعرف بالرأى. ومع ذلك فإن الثورى رواه أيضا عن زبيد، عن مرة، عن ابن مسعود، مرفوعاً. وتابعه على ذلك حمزة الزيات، عن زبيد، كما رواه الحاكم (١/ ٣٣، ٣٤) بإسنادين، وصححه، ووافقه الذهبى، ولكنه لم يذكره كله، بل ذكره إلى قوله: «ولا يعطى الإيمان إلا من يحب». فصح أصل الحديث من هذه الوجوه، مرفوعاً وموقوفاً. والحمد لله.

(١) الطبرى (٦١٣٩). والزيادة منه ومن المخطوطة، والحاكم (٢/ ٢٨٥)، ولكن فيه: «على شرط مسلم» ووافقه الذهبى.

(٢) المسند (٦ / ١٠٥، ١٢٣، ١٤٤) بأسانيد صحاح. وذكره الهيثمى فى الزوائد (٣ / ١١٣)، ونسبه

للطبرانى فى الأوسط «ورجاله موثقون». فنسى أن ينسبه للمسند!

(٣) الطبرى (٦١٥١). (٤) الطبرى (٦١٥٢).

عنها، وما ذاك إلا ليساوى الغنى الفقير، كقوله: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ تَتَقَرَّى مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] وهو غنى عن جميع خلقه، وجميع خلقه فقراء إليه، وهو واسع الفضل لا ينفد ما لديه، فمن تصدق بصدقة من كسب طيب، فليعلم أن الله غنى واسع العطاء، كريم جواد، وسيجزيه بها ويضاعفها له أضعاافاً كثيرة، من يقرض غير عديم ولا ظلوم، وهو الحميد، أى: المحمود فى جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وقوله: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾: روى ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشيطان لكلمة بآدم، وللملك كلمة، فأما كلمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما كلمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان». ثم قرأ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً﴾ الآية. وهكذا رواه الترمذى والنسائى. وأخرجه ابن حبان فى صحيحه، وقد رواه أبو بكر بن مردويه عن عبد الله بن مسعود، مرفوعاً نحوه. ورواه أيضا عن ابن مسعود. فجعله من قوله، والله أعلم (١).

ومعنى قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ أى: يخوفكم الفقر، لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه فى مرضاة الله، ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ أى: مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق، يأمركم بالمعاصى والمآثم والمحارم ومخالفة الخلاق، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ﴾ أى: فى مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء ﴿وَفَضْلاً﴾ أى: فى مقابلة ما خوفكم الشيطان من الفقر ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ قال ابن عباس: يعنى المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله. وقال مجاهد: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾: ليست بالنبوة، ولكنه العلم والفقه والقرآن. وقال مالك: وإنه ليقع فى قلبى أن الحكمة هو الفقه فى دين الله، وأمرٌ يدخله الله فى القلوب من رحمته وفضله، وما بين ذلك: أنك تجدد الرجل عاقلاً فى أمر الدنيا ذا نظر فيها، وتجد آخر ضعيفاً فى أمر دنياه، عالماً بأمر دينه، بصيراً به، يؤتیه الله إياه ويحرمه هذا، فالحكمة: الفقه فى دين الله. والصحيح أن الحكمة - كما قاله الجمهور - لا تختص بالنبوة، بل هى أعم منها، وأعلاها النبوة، والرسالة أخص، ولكن

(١) وكذلك رواه الطبرى (٦١٧٠) ، وإسناده وإسناد ابن أبى حاتم صحيحان ، ثم رواه الطبرى بأسانيد أخر موقوفة (٦١٧١ - ٦١٧٦) والترمذى وابن كثير يشيران من طرف خفى إلى تعليل المرفوع بالروايات الموقوفة . وما هى بعلة بعد صحة الإسناد . ثم هو مما لا يعلم بالرأى ولا يدخله القياس ، فالوقوف لفظاً - فيه - مرفوع حكماً على اليقين . و « اللمة » - بفتح اللام وتشديد الميم - قال ابن الأثير : « الهمة والخطرة تقع فى القلب . أراد إلام الملك أو الشيطان به والقرب منه ، فما كان من خطرات الخير فهو من الملك ، وما كان من خطرات الشر فهو من الشيطان » .

لأتباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبع. وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها» وهكذا رواه البخاري، ومسلم، والنسائي، وابن ماجه (١).

وقوله: ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلَ الْآلِيَابِ﴾ أي: وما ينتفع بالموعظة والتذكار إلا من له لب وعقل يعي به الخطاب ومعنى الكلام.

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٢٧٠) **﴿إِنْ تَبَدُّوا لَاصِدَّتْ فَنِعْمَ هِيَ وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتُؤْتَوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾** (٢٧١)

يخبر تعالى بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذورات. وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعالمين لذلك ابتغاء وجهه ورجاء موعوده. وتوعد من لا يعمل بطاعته، بل خالف أمره وكذب خبره وعبد معه غيره، فقال: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أي: يوم القيامة ينقذونهم من عذاب الله ونقمته. وقوله: ﴿إِنْ تَبَدُّوا لَاصِدَّتْ فَنِعْمَ هِيَ﴾ أي: إن أظهرتموها فنعم شيء هي.

وقوله: ﴿وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتُؤْتَوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾: فيه دلالة على أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها؛ لأنه أبعد عن الرياء؛ إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة، من اقتداء الناس به - فيكون أفضل من هذه الحثيثة، وقال رسول الله ﷺ: «الجارح بالقرآن كالجارح بالصدقة والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة» (٢). والأصل أن الإسرار أفضل؛ لهذه الآية، ولما ثبت في الصحيحين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عاذل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع إليه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، ورجل دعت امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه». وفي الحديث المروي: «صدقة السر تطفئ غضب الرب، عز وجل» (٣). ثم إن الآية عامة في أن إخفاء الصدقة أفضل، سواء كانت مفروضة أو

(١) المسند (٤١٠٩) والبخاري (١٥١/١ - ١٥٣، ٢١٩/٣، ١٣/١٠٧، ٢٥٣ فتح) ومسلم (١/٢٢٤) وابن حبان في صحيحه (٩٠) بتحقيقنا.

(٢) رواه أحمد في المسند (١٧٤٤٠، ١٧٥١٧) وأبو داود (١٣٣٣) والترمذي (٤/٥٦) والنسائي (١/٢٤٥)، (٣٥٧) من حديث عقبة بن عامر. وأسانيدهم صحاح.

(٣) رواه الطبراني في الكبير والأوسط، ضمن حديث عن معاوية بن حيدة، ورواه في الكبير ضمن حديث عن أبي أمامة، وأسانيد جواد، وروى من أوجه أخر ضعاف. انظر: الزوائد (٣/١١٥).

مندوبة. لكن روى ابن جرير عن ابن عباس، في تفسير هذه الآية، قال: جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتهما، فقال: بسعين ضعفاً. وجعل صدقة الفريضة علانيتهما أفضل من سرها، فقال: بخمسة وعشرين ضعفاً (١).

وقوله: ﴿وَنُكْفِرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أى: بدل الصدقات، ولا سيما إذا كانت سراً يحصل لكم الخير في رفع الدرجات ونكفر عنكم السيئات. وقد قرئ: «ونكفر [عنكم] بالضم، وقرئ: بالجزم»، عطفاً على محل جواب الشرط (٢)، وهو قوله: ﴿فَنِعْمَ هِيَ﴾ كقوله: «فاصدق وأكون» ﴿وَإِنْ﴾ [النافقون: ١٠]. وقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أى: لا يخفى عليه من ذلك شيء، وسيجزىكم عليه.

بِيع ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسُكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (١٧٦) لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعْقُفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ قَابَتْ اللَّهُ بِهِمْ عَلَيْهِمْ ﴿١٧٧﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْأَيْدِ وَاللِّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٧٨)

روى النسائي عن ابن عباس قال: كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين، فسألوا، فرخص لهم، فنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسُكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (٣).

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، عن النبي ﷺ: أنه كان يأمر بالآ يتصدق إلا على أهل الإسلام، حتى نزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ إلى آخرها، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سأل من كل دين (٤). وسيأتي عند قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُ اللَّهُ مِنَ الَّذِينَ لَمْ يِقَاتِلُواكُمْ فِي الدِّينِ﴾ الآية [المتحنة: ٨] حديث أسماء بنت الصديق في ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسُكُمْ﴾ كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصلت: ٤٦، الجاثية:

(١) الطبري (٦١٩٧)، ورواه ابن أبي حاتم وابن المنذر، كما في الدر المنثور (١ / ٣٥٣).
(٢) الزيادة من المخطوطة. والقراءة التي أثبتها ابن كثير هنا «ونكفر» - بالنون، كما ثبت في المخطوطة، وهي التي فيها الخلاف بين رفع الراء وسكونها، فقرأ نافع وحزمة والكسائي وأبو جعفر وخلف بالنون وجزم الراء، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر ويعقوب بالنون ورفع الراء. وأما قراءة «ويكفر» - بالياء: فهي قراءة ابن عامر وحفص، وهي برفع الراء لا غير. انظر: القراءات الأربع عشر (ص ١٦٥).
(٣) إسناده صحيح. ورواه الطبري بنحوه بأسانيد صحاح (٦٢٠٢، ٦٢٠٤، ٦٢٠٥) والحاكم (٢ / ٢٨٥) وصححه ووافقه الذهبي. وزاد السيوطي (١ / ٣٥٧) نسبته لابن أبي حاتم وابن المنذر وغيرهما. وقوله: «يرضخوا» - الرضخ: العطية القليلة.
(٤) إسناده صحيح. وزاد السيوطي نسبته لابن مردويه والضياء في المختارة.

١٥] ونظائرهما في القرآن كثيرة.

وقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾: قال الحسن البصري: نفقة المؤمن لنفسه، ولا ينفق المؤمن - إذا أنفق - إلا ابتغاء وجه الله. وقال عطاء الخراساني: يعني إذا أعطيت لوجه الله، فلا عليك ما كان عمله. وهذا معنى حسن، وحاصله أن المتصدق إذا تصدق ابتغاء وجه الله فقد وقع أجره على الله، ولا عليه في نفس الأمر لمن أصاب: البرّ أو فاجر أو مستحق أو غيره، هو مثاب على قصده، ومستند هذا تمام الآية: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾، والحديث المخرج في الصحيحين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج فوضعها في يد زانية، فأصبح الناس يتحدثون: تُصدق على زانية! فقال: اللهم لك الحمد على زانية، لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج فوضعها في يد غنى، فأصبحوا يتحدثون: تُصدق الليلة على غنى! فقال: اللهم لك الحمد على غنى، لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تُصدق الليلة على سارق! فقال: اللهم لك الحمد على زانية، وعلى غنى، وعلى سارق، فأتى فقيل له: أما صدقتك فقد قبلت؛ وأما الزانية فلعلها أن تستعف بها عن زناها، ولعل الغنى يعتبر فينق مما أعطاه الله، ولعل السارق أن يستعف بها عن سرقة».

وقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني: المهاجرين الذين قد انقطعوا إلى الله وإلى رسوله، وسكنوا المدينة وليس لهم سبب يردون به على أنفسهم ما يغنيهم ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: سفرًا للتسبب في طلب المعاش. والضرب في الأرض: هو السفر؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ [النساء: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [الزمل: ٢٠].

وقوله: ﴿يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ أي: الجاهل بأمرهم وحالهم يحسبهم أغنياء، من تعففهم في لباسهم وحالهم ومقالهم. وفي هذا المعنى الحديث المتفق على صحته، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقمتان، والاكلة والاكلتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يَفْطَنُ له فَيُصَدِّقَ عليه، ولا يسأل الناس شيئاً». وقد رواه أحمد، من حديث ابن مسعود أيضاً (١).

وقوله: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ أي: بما يظهر لذوى الألباب من صفاتهم، كما قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]. وفي الحديث الذي في السنن: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله»، ثم قرأ: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ

(١) حديث أبي هريرة في المسند (٧٥٣٠، ٧٥٣١) وهو حديث متفق عليه. وأما حديث ابن مسعود فإنه في المسند (٣١٣٦، ٤٢٦٠)، ولكن إسناده ضعيف.

لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿١﴾ [الحجر: ٧٥].

وقوله: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أى: لا يُلحون فى المسألة ويكلفون الناس ما لا يحتاجون إليه، فإن من سأل وله ما يغنيه عن السؤال، فقد ألحف فى المسألة .

روى البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين الذى تردده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة واللقمتان ، إنما المسكين الذى يتعفف؛ أقرؤوا إن شئتم - يعنى قوله: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾» . ورواه مسلم النسائى بنحوه (٢) . وروى أحمد عن جعفر - وهو ابن عبد الله بن الحكم - عن رجل من مزينة، أنه قالت له أمه: ألا تتطلق فتسأل رسول الله ﷺ كما يسأله الناس؟ فانطلقت أسأله، فوجدته قائماً يخطب، وهو يقول: «ومن استعف أعفه الله، ومن استغنى أغناه الله، ومن يسأل الناس وله عدل خمس أواق فقد سأل الناس إلحافاً». فقلت بينى وبين نفسى: لناقة لى خير من خمس أواق، ولغلامه ناقة أخرى ، فهى خير من خمس أواق ، فرجعت ولم أسأل (٣) . وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا عبد الرحمن ابن أبى الرجال، عن عمارة بن غزية، عن عبد الرحمن بن أبى سعيد، عن أبيه قال: سرحتنى أُمى إلى رسول الله ﷺ، أسأله، فأتيته فقعدت، قال: فاستقبلنى فقال: «من استغنى أغناه الله، ومن استعف أعفه الله، ومن استكف كفاه الله، ومن سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف». قال: فقلت: ناقتى الياقوتة خير من أوقية. فرجعت ولم أسأله . وهكذا رواه أبو داود والنسائى، نحوه (٤) .

وقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ أى: لا يخفى عليه شئ منه، وسيجزى عليه أوفر الجزاء وأتمه يوم القيامة، أخرج ما يكونون إليه .

وقوله: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هذا مدح منه تعالى للمنفقين فى سبيله، وابتغاء مرضاته فى جميع الأوقات من ليل أو نهار، والأحوال من سر وجهار، حتى إن النفقة على الأهل تدخل فى ذلك أيضاً، كما ثبت فى الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال لسعد بن أبى وقاص - حين عاده مريضاً عام الفتح، وفى رواية عام حجة الوداع : «وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة، حتى ما تجعل فى فى امرأتك» (٥) . وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر وبهز قالوا: حدثنا شعبة، عن عدى بن ثابت قال: سمعت عبد الله بن يزيد الأنصارى، يحدث عن أبى مسعود، عن النبى ﷺ، أنه قال: «إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة يحسبها كانت له صدقة»

(١) سيأتى عند الآية (٧٥) من سورة الحجر، وأنه رواه الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم ، من حديث أبى سعيد .

(٢) البخارى (٨ / ١٥٢ فتح) ومسلم (١ / ٢٨٣) .

(٣) المسند (١٧٣-٣) والزوائد (٣ / ٩٥) وقال : « رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح » .

(٤) المسند (١١٠٧٥) . وإسناده صحيح ، ورواه الطبرى بنحوه من وجه آخر (٦٢٢٨) بإسناد آخر صحيح .

وكذلك رواه أحمد (١٤٢٢١ ، ١٤٢٢٢) .

(٥) هو فى البخارى مرارا بنحوه ، منها : (٣ / ١٣٢ فتح) ومسلم (٢ / ٨ ، ٩) من حديث سعد بن أبى وقاص .

أخرجاه (١).

وقوله: ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أى: يوم القيامة على ما فعلوا من الإنفاق فى الطاعات ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ تقدم تفسيره (٢).

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧٥﴾ ﴾

لما ذكر تعالى الأبرار المؤدين النفقات، المخرجين الزكوات، المتفضلين بالبر والصدقات لذوى الحاجات والقربات فى جميع الأحوال والأوقات - شرع فى ذكر أكلة الربا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشبهات، فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم وقيامهم منها إلى بعثهم ونشورهم ، فقال : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ أى : لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له؛ وذلك أنه يقوم قياماً منكراً. وقال ابن عباس: أكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يُخَنَّق. رواه ابن أبى حاتم (٣) ، قال: وروى عن عوف بن مالك، وسعيد بن جبير، وقتادة وغيرهم، نحو ذلك. وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: يقال يوم القيامة لأكل الربا: خذ سلاحك للحرب. وقرأ: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ قال: وذلك حين يقوم من قبره (٤).

وقوله: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ أى: إنما جوروا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله فى شرعه، وليس هذا قياساً منهم للربا على البيع؛ لأن المشركين لا يعترفون بمشروعية أصل البيع الذى شرعه الله فى القرآن، ولو كان هذا من باب القياس لقالوا: إنما الربا مثل البيع، وإنما قالوا: ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ أى: هو نظيره، فلم حرم هذا وأبيح هذا؟ وهذا اعتراض منهم على الشرع. أى هذا مثل هذا، وقد أحل هذا، وحرم هذا، ويحتمل أن يكون من تمام الكلام، رداً عليهم، أى: قالوا ما قالوه من الاعتراض، مع علمهم بتفريق الله بين هذا وهذا حكماً، وهو العلم الحكيم الذى لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو العالم بحقائق الأمور ومصالحها، وما ينفع عباده فيبيحه لهم، وما يضرهم فينهاهم عنه، وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها الطفل؛ ولهذا قال: ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ

(١) المسند (١٧١٧٨)، وزيادة [وهو] منه .

(٢) عند تفسير الآيات: (٣٨ ، ١١٢ ، ٢٦٢) من هذه السورة .

(٣) ورواه الطبرى (٦٢٤٢) . وإسناده صحيح ، وكذلك رواه ابن المنذر ، كما فى الدر المنثور (١ / ٣٦٤) .

(٤) الطبرى (٢٢٤١) . وإسناده صحيح ، وهذا الذى قبله - عندنا - من المرفوع حكماً ، وإن كان موقوفاً لفظاً ؛ لأنه مما لا يعلم بالرائى ، كما هو ظاهر يديهى .

وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ﴿ أَى : من بلغه نهى الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع إليه ، فله ما سلف من المعاملة ، لقوله : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ سَلَفٌ ﴾ [المائدة : ٩٥] وكما قال النبي ﷺ يوم فتح مكة : « وكل ربا فى الجاهلية موضوع تحت قدمى هاتين ، وأول ربا أضع ربا العباس » (١) ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة فى حال الجاهلية ، بل عفا عما سلف ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَهُ مَا سَلَفَ ﴾ : ما كان أكل من الربا قبل التحريم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ عَادَ ﴾ أَى : إلى الربا ففعله بعد بلوغه نهى الله عنه ، فقد استوجب العقوبة ، وقامت عليه الحجة ؛ ولهذا قال : ﴿ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ . وقد روى أبو داود عن جابر قال : لما نزلت : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ قال رسول الله ﷺ : « من لم يذر المخابرة ، فليؤذن بحرب من الله ورسوله » ورواه الحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه (٢) .

وإنما حرمت المخابرة وهى : المزاورة ببعض ما يخرج من الأرض ، والمزابنة وهى : اشتراء الرطب فى رؤوس النخل بالتمر على وجه الأرض ، والمحاولة وهى : اشتراء الحب فى سنبله فى الحقل بالحب على وجه الأرض - إنما حرمت هذه الأشياء وما شاكلها ، حسماً لمادة الربا ؛ لأنه لا يعلم التساوى بين الشيئين قبل الجفاف . ولهذا قال الفقهاء : الجهل بالمثالة كحقيقة المفاضلة . ومن هذا حرموا أشياء بما فهموا من تضيق المسالك المفضية إلى الربا ، والوسائل الموصلة إليه ، وتفاوت نظرهم بحسب ما وهب الله لكل منهم من العلم ، وقد قال تعالى : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِمْ ﴾ [يوسف : ٧٦] .

وباب الربا من أشكل الأبواب على كثير من أهل العلم ، وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه : ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ عهد إلينا فيهن عهداً تنتهى إليه : الجدد ، والكلالة ، وأبواب من أبواب الربا (٣) . يعنى بذلك بعض المسائل التى فيها شائبة الربا ، والشريعة شاهدة بأن كل حرام فالوسيلة إليه مثله ؛ لأن ما أفضى إلى الحرام حرام ، كما أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . وقد ثبت فى الصحيحين ، عن النعمان بن بشير ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الحلال بيّن وإن الحرام بين ، وبين ذلك أمور مشبهات ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول

(١) وهم المحافظ ابن كثير - رحمه الله - فإن هذا لم يكن يوم فتح مكة ، بل كان فى حجة الوداع ، فى خطبته ﷺ بعرفة . انظر فى ذلك حديث جابر الطويل فى المسند (١٤٤٩٢) وصحيح مسلم (١ / ٣٤٦ - ٣٤٨) وأبى داود (١٩٠٥) . وانظر أيضاً سيرة ابن سيد الناس (٢ / ٢٧٥) .

(٢) أبو داود (٣٤٠٦) والحاكم (٢ / ٢٨٥ ، ٢٨٦) ووافقه الذهبى . ولكن الآية ، لم تذكر فى رواية أبى داود .

(٣) البخارى (١٠ / ٤٣ فتح) ومسلم (٢ / ٤٠١ ، ٤٠٢) فى حديث عن عمر . وقال المحافظ ابن حجر : « لعله يشير إلى ربا الفضل ؛ لأن ربا النسيئة متفق عليه بين الصحابة . وسياق عمر يدل على أنه كان عنده نص فى بعض من أبواب الربا دون بعض ؛ فلهذا غنى معرفة البقية » .

الحمى يوشك أن يرتفع فيه « (١) . وفى السنن عن الحسن بن على قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» (٢). وفى الحديث الآخر: «الإثم ما حاك فى القلب وترددت فيه النفس، وكرهت أن يطلع عليه الناس». وفى رواية: «استفت قلبك، وإن أفتاك الناس وأفتوك» (٣) . وعن ابن عباس قال: آخر ما نزل على رسول الله ﷺ آية الربا. رواه البخارى (٤). وروى أحمد : أن عمر قال: من آخر ما نزل آية الربا، وإن رسول الله ﷺ قبض قبل أن يفسرها لنا، فدعوا الربا والرية (٥). وقد روى ابن ماجه عن عبد الله بن مسعود ، عن النبى ﷺ قال: «الربا ثلاثة وسبعون بابا» . ورواه الحاكم وزاد: «أيسرها [مثل] أن ينكح الرجل أمه ، وإن أربى الربا عَرَضُ الرجل المسلم» . وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه (٦). وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: «يأتى على الناس زمان يأكلون فيه الربا» قال: قيل له: الناس كلهم؟ قال: «من لم يأكله منهم ناله من غباره» . وكذا رواه أبو داود، والنسائى، وابن ماجه (٧) .

ومن هذا القبيل، [وهو] تحريم الوسائل المفضية إلى المحرمات - الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن عائشة قالت: لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة فى الربا ، خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد، فقراهُنَّ، فحرم التجارة فى الخمر. وقد أخرجه الجماعة سوى الترمذى (٨) .

قال بعض من تكلم على هذا الحديث من الأئمة: لما حُرِّم الربا ووسائله حُرِّم الخمر وما

(١) هو مختصر من الحديث السادس من الأربعين النووية .
(٢) وهو الحديث الحادى عشر من الأربعين النووية . وقال : « رواه النسائى والترمذى ، وقال : « حسن صحيح » . وهو جزء من حديث مطول فى المسند (١٧٢٣ ، ١٧٢٧) .

(٣) هذا الحديث والذى قبله جعلهما الحافظ ابن كثير حديثا واحدا بروايتين . ولكن يظهر أنه ذكره من حفظه . فالحديث رواه الدارمى (٢ / ٢٤٥ ، ٢٤٦) من حديث وابصة بن معبد ، أنه جاء يسأل عن البر والإثم ؟ وفيه : وقال : «استفت نفسك ، استفت قلبك يا وابصة - ثلاثا - البر : ما اطمانت إليه النفس ، واطمان إلى القلب ، والإثم : ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك » . ورواه أحمد (٤ / ٢٨٨ حلى) بنحوه بإسنادين . وروى مسلم (٢ / ٢٧٧) عن النواس بن سمعان ، أنه سأل عن البر والإثم ؟ فقال: «البر : حسن الخلق ، والإثم : ما حاك فى نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس» . وكذلك رواه أحمد عن النواس (١٧٧٠ ، ٩ - ١٧٧٠) . وقد جمع النووى حديثى النواس وابصة فى الأربعين فى الحديث (٢١) .

(٤) البخارى (٨ / ١٥٣ فتح) . ورواه الطبرى (٦٣١٠) بزيادة فى آخره .

(٥) المسند (٢٤٦ ، ٣٥٠) وابن ماجه (٢٢٧٦) والطبرى (٦٣٠٨) .

(٦) ابن ماجه (٢٢٧٥) والمستترك (٢ / ٢٧) . وزدنا منه كلمة [مثل] . ووافقه الذهبى على شرط الشيخين .
(٧) المسند (١٠٤١٥) وأبو داود (٣٣٣١) والنسائى (٢ / ٢١٢) وابن ماجه (٢٢٧٨) ورواه أيضا الحاكم (٢ / ١١) ، وقال : « قد اختلف أئمتنا فى سماع الحسن عن أبى هريرة ، فإن صح سماعه منه فهذا حديث صحيح » . وسماع الحسن من أبى هريرة صحيح ثابت . وقد بيناه مفصلا بدلالته فى شرح المسند (٧١٣٨) . وأيضا فإن الحديث الذى هنا رواه البخارى فى التاريخ الكبير (٢ / ١ / ٤٣٠) من هذا الوجه ، ولم يذكر له تعليلا ، ولو كان معلولا عنه لما ترك ذلك .

(٨) انظر : الفتح (٨ / ١٥٢) .

يفضى إليه من تجارة ونحو ذلك، كما قال، عليه السلام، فى الحديث المتفق عليه: «لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها وأكلوا أثمانها» (١). وفى حديث ابن مسعود وغيره مرفوعا: «لعن الله آكل الربا وموكله، وشاهديه وكاتبه» (٢). قالوا: وما يشهد عليه ويكتب إلا إذا أظهر فى صورة عقد شرعى ويكون داخله فاسداً، فلا اعتبار بمعناه لا بصورته؛ لأن الأعمال بالنيات (٣)، وفى الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» (٤). وقد صنّف الإمام العلامة أبو العباس بن تيمية كتاباً فى «إبطال التحليل» تضمن النهى عن تعاطى الوسائل المفضية إلى كل باطل، وقد كفى فى ذلك وشفى، فرحمه الله ورضى عنه (٥).

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٧﴾

يخبر تعالى أنه يمحق الربا، أى: يذهب، إما بأن يذهب بالكلية من يد صاحبه، أو يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به، بل يعذبه به فى الدنيا ويعاقبه عليه يوم القيامة. كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧]، وقال: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّيرَبُّوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ الآية (الروم: ٣٩). وقال ابن جرير فى قوله: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾: وهذا نظير الخبر

(١) رواه البخارى بنحوه (٤ / ٣٤٤ فتح) ومسلم (١ / ٤٦٤) من حديث عمر بن الخطاب. ورواه الجماعة من حديث جابر، كما فى التتقى (٢٧٧٧) وثبت أيضاً من حديث ابن عباس فى المسند (٢٢٢١) ومن حديث عبد الله بن عمر (٥٩٨٢)، ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص (٦٩٩٧) ومن حديث أبى هريرة فى البخارى (٤ / ٣٤٥ فتح) ومسلم (١ / ٤٦٤). و«جملوها» - بفتح الجيم والميم مخففة: أى أذابوها واستخرجوا دهنها.

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه، من حديث ابن مسعود. ورواه أحمد ومسلم من حديث جابر - كما فى الفتح الكبير (٣ / ١٣).

(٣) هذا كان حين كان الحكم فى بلاد الإسلام للإسلام، فكان من يريد العصيان والخروج يحتال بمظهر العمل الصحيح. أما الآن، وأكثر البلاد التى تنتسب للإسلام، وتسمى نفسها بلاداً إسلامية، ثم تحكم بتشريع آخر غير دين الإسلام، تشريع مقتبس عن القوانين الوثنية والنصرانية والأمم الملحدة - هؤلاء لا يحتاجون إلى الحيل الظهور بمظهر العمل الصحيح!! بل هم يكتبون العقود ظاهرة صريحة بالربا وبالعقود الباطلة فى دين الإسلام؛ لأنهم اتخذوا ديناً غيره، يخضوعهم ورضاهم بتشريع غير شرعته، فإن الإسلام قول وعمل، وسمع وطاعة. فلن يقبل من أحد أن يقول كلمة الإسلام ثم يخضع نفسه وأمته لشرعة أعدائه، ويضمر فى قلبه أنه بذلك يصنع الصواب، أو يختار ما فيه المصلحة، أو يلزم ما يناسب عصره! فيهدم بعمله ما يقوله بلسانه ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٦] فإننا لله وإنا إليه راجعون.

(٤) رواه أحمد (٧٨١٤) ومسلم (٢ / ٢٨٠) من حديث أبى هريرة.

(٥) طبع هذا الكتاب بمصر سنة ١٣٢٨، ضمن المجلد الثالث من مجموعة فتاوى شيخ الإسلام.

الذى روى عن عبد الله بن مسعود، أنه قال: «الربا وإن كثر فإلى قل». وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «إن الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قل» وقد رواه ابن ماجه بنحوه (١).

وهذا من باب المعاملة بتقيض المقصود، كما روى الإمام أحمد عن أبي يحيى - رجل من أهل مكة - عن فروخ مولى عثمان: أن عمر - وهو يومئذ أمير المؤمنين - خرج من المسجد، فرأى طعاماً مشوراً. فقال: ما هذا الطعام؟ فقالوا: طعام جلب إلينا. قال: بارك الله فيه وفيمن جلبه. قيل: يا أمير المؤمنين، إنه قد احتكر. قال: ومن احتكره؟ قالوا: فروخ مولى عثمان، وفلان مولى عمر. فأرسل إليهما فقال: ما حملكما على احتكار طعام المسلمين؟! قالوا: يا أمير المؤمنين، نشترى بأموالنا ونبيع، فقال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من احتكر على المسلمين طعامهم؛ ضربه الله بالإفلاس أو بجذام». فقال فروخ عند ذلك: أعاهد الله وأعاهدك ألا أعود فى طعام أبداً. وأما مولى عمر فقال: إنما نشترى بأموالنا ونبيع. قال أبو يحيى: فلقد رأيت مولى عمر مجذوماً. ورواه ابن ماجه ولفظه: «من احتكر على المسلمين طعامهم؛ ضربه الله بالإفلاس والجذام» (٢).

وقوله: ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾: قرئ بضم الياء والتخفيف، من «ربا الشيء يربو» و«أرباه يُربيه» أى: كثّره ونماه ينميه. وقرئ: «وَيُرْبِي» بالضم والتشديد، من التربية. وروى البخارى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله ليقبلها بيمينه، ثم يربها لصاحبه كما يربى أحدكم فُلُوهُ، حتى يكون مثل الجبل» ورواه مسلم والترمذى والنسائى والبيهقى. وقال الترمذى: حسن صحيح (٣). وروى الإمام أحمد عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليربى لأحدكم التمرة واللقمة، كما يربى أحدكم فُلُوهُ أو فصيلة، حتى يكون مثل أحد». تفرد به أحمد من هذا الوجه (٤).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ أى: لا يحب كفور القلب أثيم القول والفعل. ولا بد من مناسبة فى ختم هذه الآية بهذه الصفة، وهى أن المرابى لا يرضى بما قسم الله له من الحلال،

(١) المسند (٣٧٥٤) وابن ماجه (٢٢٧٩) ورواه الحاكم (٣٧ / ٢ ، ٣٧ / ٤ ، ٣١٨) وصححه ، ووافقه الذهبى .
و «القل» - بضم القاف وتشديد اللام : القلة ، كالذل والذلة .

(٢) المسند (١٣٥) وابن ماجه مختصراً (٢١٥٥) . وإسنادهما صحيحان .

(٣) البخارى (٢٢٠ / ٣ - ٢٢٢ ، ١٣ / ٣٥٢ فتح) ومسلم (١ / ٢٧٧) بنحوه ، ورواه أحمد فى المسند - بمعناه - مرارا . أولها: (٧٦٢٢) ، وفصلنا تخريجه هناك ، وكذلك رواه الطبرى (٦٢٥٣ ، ٦٢٥٤ ، ٦٢٥٦ ، ٦٢٥٧) .
و «العدل» - بفتح العين ، ويجوز كسرها ، وسكون الدال : المثل . و «القلو» - بفتح الفاء وضم اللام وتشديد الواو : المهر الصغير .

(٤) المسند (٦ / ٢٥١ حلى) ورواه الطبرى (٦٢٥٥) مطولا . وذكره الهيثمى (٣ / ١١١) مختصرا ، ونسبه للطبرانى فى الأوسط ، وقال: «ورجاله رجال الصحيح» . ونسب أن ينسبه للمسند ! ثم ذكره (٣ / ١١٢) مطولا ، وقال: «رواه البزار ، ورجاله ثقات» .

ولا يكتفى بما شرع له من الكسب المباح، فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل، بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جحود لما عليه من النعمة، ظلوم آثم يأكل أموال الناس بالباطل.

ثم قال تعالى مادحا للمؤمنين ببريهم، المطيعين أمره، المؤدين شكره، المحسنين إلى خلقه في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، مخبراً عما أعد لهم من الكرامة، وأنهم يوم القيامة من التبعات آمنون، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨)
فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتِغُوا فَتَكُنتُمْ أَزْوَاجًا لَا تَعْلَمُونَ
وَلَا تَعْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ
إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا
كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بتقواه، ناهياً لهم عما يقربهم إلى سخطه ويبعدهم عن رضاه، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: خافوه وراقبوه فيما تفعلون ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ أي: اتركوا مالكم على الناس من الزيادة على رؤوس الأموال، بعد هذا الإنذار ﴿إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: بما شرع الله لكم من تحليل البيع، وتحريم الربا وغير ذلك. وقد ذكر زيد بن أسلم، وابن جريج، ومقاتل، والسدي: أن هذا السياق نزل في بني عمرو بن عمير من ثقيف، وبني المغيرة من بني مخزوم، كان بينهم ربا في الجاهلية، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه، طلبت ثقيف أن تأخذهم منهم، فتشاؤروا، وقالت بنو المغيرة: لانؤدى الربا في الإسلام، فكتب في ذلك عتاب بن أسيد نائب مكة إلى رسول الله ﷺ، فترلت هذه الآية، فكتب بها رسول الله ﷺ إليه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فقالوا: نتوب إلى الله، ونذر ما بقى من الربا، فتركوه كلهم. وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، لمن استمر على تعاطي الربا بعد الإنذار، قال ابن عباس: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ﴾ أي: استيقنوا بحرب من الله ورسوله. وتقدم عن ابن عباس قال: يقال يوم القيامة لأكل الربا: خذ سلاحك للحرب. ثم قرأ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (١). وقال ابن عباس: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: فمن كان مقيماً على الربا لا يتزع عنه كان حقا على إمام المسلمين أن يستتيبه، فإن نزع وإلا ضرب عنقه (٢). وروى ابن أبي حاتم عن الحسن وابن سيرين، أنهما قالوا: والله إن هؤلاء الصيارفة لأكلت الربا، وإنهم قد أذنوا بحرب من الله ورسوله، ولو كان على الناس إمام عادل لاستتابهم، فإن تابوا وإلا وضع فيهم السلاح (٣). وقال

(١) مضى عند الآية : (٢٧٥) من هذه السورة .

(٢) رواه الطبري (٦٢٦١) ، وزاد السيوطي (١ / ٢٦٦) نسبه لابن المنذر وابن أبي حاتم .

(٣) إسناده ابن أبي حاتم - في هذا - صحيح إلى الحسن وابن سيرين .

قتادة : أوعدهم الله بالقتل كما تسمعون ، وجعلهم بهرجاً أين ما أتوا ، فإياكم ومخالطة هذه البيوع من الربا ؛ فإن الله قد أوسع الحلال وأطابه ، فلا يُلجئنكم إلى معصيته فاقة . رواه ابن أبي حاتم (١) .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَيْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ ﴾ أي : بأخذ الزيادة ﴿ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ أي : بوضع رؤوس الأموال أيضاً ، بل لكم ما بذلت من غير زيادة عليه ولا نقص منه . وروى ابن أبي حاتم عن سليمان [بن عمرو] بن الأحوص عن أبيه قال : خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع فقال : « ألا إن كل ربا كان في الجاهلية موضوع عنكم كله ، لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظْلَمُونَ ، وأول ربا موضوع ربا العباس بن عبد المطلب كله » (٢) .

وقوله : ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ : يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذى لا يجد وفاء ، فقال : ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ﴾ لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حل عليه الدين : إما أن تقضى وإما أن تبرى . ثم يندب إلى الوضع عنه ، ويعد على ذلك الخير والثواب الجزيل ، فقال : ﴿ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(١) لم يذكر الحافظ ابن كثير إسناده ، ولكن روى الطبرى (٦٢٦٤) - أوله إلى قوله : « وجعلهم بهرجاً أينما ثقفوا » يدل «أتوا» . وإسناده إلى قتادة إسناده صحيح . و « البهرج » - بفتح الباء والراء بينهما هاء ساكنة : الشيء المباح . ويهرج دمه : أهله وأبطله .

(٢) إسناده صحيح . ولكن وقع لابن كثير فى نسخة ابن أبي حاتم : « عن سليمان بن الأحوص ، عن أبيه » . وهو إما سهو من الناسخ ، أو تساهل من بعض الرواة ، نسبة إلى جده ، والحديث حديث « عمرو بن الأحوص » ، رواه عنه ابنه سليمان .

والحديث رواه الترمذى (١١٤/٤ ، ١١٥) مطولاً ، وابن ماجه (٣٠٥٥) مطولاً أيضاً ، وأبو داود (٣٣٣٤) مختصراً - كلهم من حديث « سليمان بن عمرو بن الأحوص ، عن أبيه » . وقال الترمذى : « حسن صحيح » . وها هو ذا القرآن الكريم يحرم الربا كله أشد التحريم ، ويفسره التفسير الواضح الذى لا يحتمل تأويلاً : أنه ما زاد على رأس المال ، وتؤكد الأحاديث الصحاح فى التحريم والتفسير ، ويتوعد الله أكل الربا أشد الوعيد بالحرب من الله ورسوله ، يتوعد أكل الكثير والقليل ، بل يتوعد أكل « ما بقى من الربا » ، ليشمل أقل القليل . وها هى ذى أقوال الصحابة والتابعين ، فى استتابة المرابين ، ثم وجوب قتلهم إن لم يتوبوا عنه - فقهاً منهم دقيقاً لمعنى الآية فى إعلام المرابين بالحرب . هذا فيمن يفعل دون مجاهرة باستحلال الربا ، أما المستحل ما حرم الله فى كتابه وعلى لسان رسوله ، المعلوم تحريمه من الدين بالضرورة ، فلا يشك مسلم من عامة المسلمين فى أنه مرتد خارج من الإسلام ، مباح الدم بالردة عن الإسلام ، لا يأكل الربا والإصرار عليه فقط . فانظروا - أيها المسلمون إن كنتم مسلمين - إلى بلاد الإسلام فى كافة أقطار الأرض إلا قليلاً ، وقد ضربت عليها القوانين الكافرة الملعونة ، المقتبسة من قوانين أوربة الوثنية الملعونة ، التى استباحت الربا استباحة صريحة بألفاظها وروحها ، والتى يتلاعب فيها واضعوها بالالفاظ ، بتسمية «الربا» : « فائدة » . حتى لقد رأينا ممن يتسب إلى الإسلام من رجال هذه القوانين ومن غيرهم ممن لا يفقهون - من يجادل عن هذه الفائدة ، ويرمى علماء الإسلام بالجهل والجمود ، إن لم يقبلوا منهم هذه المحاولات لإباحة الربا .

أيها المسلمون ، إن الله لم يتوعد فى القرآن بالحرب على معصية من المعاصى غير الربا ، فانظروا إلى أنفسكم وأممكم ودينكم ، ولن يغلب الله غالب .

أى : وأن تركوا رأس المال بالكليّة وتضعوه عن المدين . وقد وردت الأحاديث من طرق متعددة عن النبي ﷺ ، بذلك ، فروى الإمام أحمد عن بريدة قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة » . قال : ثم سمعته يقول : « من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة » . قلت : سمعتك - يا رسول الله - تقول : « من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة » . ثم سمعتك تقول : « من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة » ؟ ! قال : « له بكل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدين ، فإذا حل الدين فأنظره ، فله بكل يوم مثله صدقة » ^(١) . وروى أحمد أن أبا قتادة كان له دين على رجل ، وكان يأتيه يتقاضاه ، فيختبئ منه ، فجاء ذات يوم فخرج صبي فسأله عنه ، فقال : نعم ، هو في البيت يأكل خزيرة فنذاه فقال : يا فاذن ، اخرج ، فقد أخبرتك أنك ههنا فخرج إليه ، فقال : ما يغيبك عني ؟ فقال : إني معسر ، وليس عندي . قال : الله إنك معسر ؟ قال : نعم . فبكى أبو قتادة ، ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من نفّس عن غريمه - أو محا عنه - كان في ظل العرش يوم القيامة » ورواه مسلم ^(٢) .

وروى أبو يعلى عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « أتى الله بعدد من عبيده يوم القيامة ، قال : ماذا عملت لى في الدنيا ؟ فقال : ما عملت لك يارب مثقال ذرة في الدنيا أرجوك بها ، قالها ثلاث مرات ، قال العبد عند آخرها : يارب ، إنك أعطيتني فضل مال ، وكنت رجلاً أبايع الناس وكان من خلقي الجواز ، فكنت أيسر على الموسر ، وأنظر المعسر . قال : فيقول الله ، عز وجل : أنا أحق من ييسر ، ادخل الجنة » . وقد أخرجه البخارى ، ومسلم ، وابن ماجه . زاد مسلم : وعقبة بن عامر وأبى مسعود البدرى عن النبي ﷺ ، بنحوه ^(٣) . وروى أحمد عن أبى

(١) المسند (٥ / ٣٦٠ حلى) وهو في الزوائد (٤ / ١٣٥) ، وقال : « رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح » .
(٢) المسند (٥ / ٣٠٨ حلى) . وإسناده صحيح . وأما رواية مسلم (١ / ٤٦٠) ، فإنها مقتصرة على المرفوع بنحوه ، ومن وجه آخر . و « الخزيرة » - بالخاء والزاي المعجمتين وبعد الياء راء : لحم يقطع صغاراً ويصب عليه ماء كثير ، فإذا نضج ذر عليه الدقيق . وقوله : « ليس عندي » - اسم « ليس » محذوف للعلم به . وهذا هو الثابت في المخطوطة الأزهرية والمسند . وفي المطبوعة زيادة « شيء » ! وأخشى أن تكون تصرفاً من ناسخ أو طابع .
(٣) البخارى (٤ / ٢٦١ ، ٥ / ٤٤ ، ٦ / ٣٥٩ فتح) ، ومسلم (١ / ٤٥٩ ، ٤٦٠) . ورواه أيضاً أحمد بنحوه (٥ / ٤٠٧ حلى) .

تنبيه مهم : قال الحافظ ابن كثير - هنا - : « ولفظ البخارى » . ثم لم يكتب لفظه وترك بياضاً . ثبت ذلك في المخطوطة الأزهرية وطبعة بولاق . وأبان ذلك أستاذنا السيد رشيد رضا بهامش طبعته (٢ / ٦٧) ، وأشار للموضع الأول من روايات البخارى . وهذا عمل سليم دقيق .

ثم جاء مصححو ابن كثير في الطبعة التجارية (١ / ٣٣٢) ففهموا إشارة السيد رشيد خطأ ، فنقلوا من البخارى (٤ / ٢٦٢) حديث أبى هريرة مرفوعاً : « كان تاجر يداين الناس ، فإذا رأى معسراً قال لفتيانه : تجاوزوا عنه لعل الله أن يتجاوز عنا ، فتجاوز الله عنه » . وهو حديث صحيح ، رواه أيضاً أحمد (٧٥٦٩) ومسلم (١ / ٤٦٠) . ونقلوه عن البخارى بإسناده على طريقة ابن كثير ، دون بيان أنه زيادة من عندهم ! فكان هذا العمل تزييفاً ، فوق أنه ينسب عن جهل شديد ! فحديث أبى هريرة لا يكون لفظاً آخر لحديث حذيفة عند من يققه شيئاً من العلم بالحديث . وهو عمل يناهى الأمانة والصدق . ثم هو - فوق ذلك - افتراء على الحافظ ابن كثير ، يومه القارئ بادئ ذى بدء أن ابن كثير يسقط مثل هذه السقطة الشنيعة !! وحاشاه من ذلك ..

الْيَسَّرَ ، أن رسول الله ﷺ قال : «من أنظر معسراً أو وضع عنه ؛ أظله الله ، عز وجل ، في ظله يوم لا ظل إلا ظله » . وقد أخرجه مسلم (١) .

ثم قال تعالى يعظ عباده ويذكرهم زوال الدنيا وفناء ما فيها من الأموال وغيرها، وإتيان الآخرة والرجوع إليه تعالى ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا، ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر ، ويحذرهم عقوبته ، فقال : ﴿ وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَلَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ . وقد روى أن هذه الآية آخر آية نزلت من القرآن العظيم . وقد روى ابن مردويه عن ابن عباس ، قال : آخر آية نزلت : ﴿ وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ ورواه النسائي بنحوه (٢) .

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنُكُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْمَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْمَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلٍ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَلَعُوا فَإِنَّهُ فَسُقُؤُكُمْ بِكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

هذه الآية الكريمة أطول آية في القرآن العظيم ، وقد روى ابن جرير عن سعيد بن المسيب : أنه بلغه : أن أحدث القرآن بالعرش آية الدين (٣) . وروى الإمام أحمد : عن ابن عباس أنه قال : لما نزلت آية الدين قال رسول الله ﷺ : «إن أول من جحد آدم ، عليه السلام ، أن الله لما خلق آدم ، مسح ظهره فأخرج منه ما هو ذارئ إلى يوم القيامة ، فجعل يعرض ذريته عليه ، فرأى فيهم رجلاً يزهر ، فقال : أى رب ، من هذا؟ قال : هو ابنك داود . قال : أى رب ، كم عمره؟ قال : ستون عاماً ، قال : رب زد فى عمره . قال : لا ، إلا أن أزيده من عمرك . وكان عمر آدم ألف سنة ، فزاده أربعين عاماً ، فكتب عليه بذلك كتاباً وأشهد عليه الملائكة ، فلما احتضر آدم وأتته الملائكة قال : إنه قد بقى من عمري أربعون عاماً ، فقيل له : إنك قد وهبتها لابنك داود . قال : ما فعلت . فأبرز الله عليه الكتاب ، وأشهد عليه الملائكة » . وكذا رواه ابن أبى حاتم . هذا حديث

(١) المسند (١٥٥٨٧) . وأما رواية مسلم فإنها أثناء قصة طويلة ، من وجه آخر (٢ / ٣٩٤) .
(٢) يريد فى السنن الكبرى . ورواه الطبرى أيضا (٦٣١١) بنحوه ، بإسناد صحيح . وذكره الحافظ فى الفتح (٨ / ١٥٣) من رواية الطبرى فقط ، والهيثمى فى الزوائد (٦ / ٣٢٤) ، ونسبه « للطبرانى بإسنادين ، رجال أحدهما ثقات » . وزاد السيوطى (١ / ٣٦٩ ، ٣٧٠) نسبته لأبى عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر وغيرهم .
(٣) إسناده إلى سعيد بن المسيب صحيح ، ولكنه حديث مرسل لم يذكر فيه صحابى .

غريب جداً، وعلى بن زيد بن جُدعان في أحاديثه نكارة. وقد رواه الحاكم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، فذكره بنحوه (١).

فقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاتَّكِبُوهُ﴾. هذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها، ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها، وأضبط للشاهد فيها، وقد نبه على هذا في آخر الآية حيث قال: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا﴾. وعن ابن عباس، قال: أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى أن الله أحله وأذن فيه، ثم قرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. رواه البخاري. وثبت في الصحيحين عن ابن عباس، قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يُسَلِّفُونَ في الثمار الستين والثلاث، فقال رسول الله ﷺ: «من أسلف فليسلف في كيل معلوم، ووزن معلوم، إلى أجل معلوم».

وقوله: ﴿فَاتَّكِبُوهُ﴾: أمر منه تعالى بالكتابة للتوثقة والحفظ، فإن قيل: فقد ثبت في الصحيحين، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب»، فما الجمع بينه وبين الأمر بالكتابة؟ فالجواب: أن الدين من حيث هو غير مفتقر إلى كتابة أصلاً؛ لأن كتاب الله قد سهل الله ويسر حفظه على الناس، والسنن أيضاً محفوظة عن رسول الله ﷺ، والذي أمر بكتابه إنما هو أشياء جزئية تقع بين الناس، فأمرُوا أمر إرشاد لا أمر إيجاب.

وقوله: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ أي: بالقسط والحق، ولا يَجُرُّ في كتابته على أحد، ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان.

وقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾ أي: ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سُئِلَ أن يكتب للناس، ولا ضرورة عليه في ذلك، فكما علمه الله ما لم يكن يعلم، فَلْيَتَصَدَّقْ على غيره ممن لا يحسن الكتابة وليكتب، كما جاء في الحديث: «إن من الصدقة أن تعين صانعاً أو تصنع لأخرق» (٢). وقال مجاهد وعطاء: واجب على الكاتب أن يكتب.

وقوله: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ أي: وليملل المدين على الكاتب ما في ذمته

(١) حديث ابن عباس في المسند (٢٧٠، ٢٧١٣)، وكذلك رواه الطيالسي (٢٦٩١). وعلى بن زيد بن جُدعان ثقة. وليس في هذا الحديث نكارة كما زعم ابن كثير. وقد رجحت صحته برواية معناه من حديث أبي هريرة عند الحاكم، وهو في المستدرک (٥٨٥/٢، ٥٨٦) وصححه، وهو كما قال. وقد ذكره الحافظ ابن كثير في التاريخ، مطولاً، من صحيح ابن حبان، من حديث أبي هريرة أيضاً، وقوله: «يظهر»: أي يضيء وجهه حسناً.

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، ولكن معناه ثابت ضمن حديثين في السؤال عن أفضل الأعمال؟ وفيهما: «تعين صانعاً، أو تصنع لأخرق». رواه أحمد في المسند (٩٠٢٦) من حديث أبي هريرة. ورواهما أحمد (١٥٠/٥) حلي (والبخاري (١٠٥/٥) فتح) ومسلم (٣٦/١) - ثلاثهم من حديث أبي ذر. وفي رواية مسلم: «صانعاً» بدل «صانعاً». والمعنى قريب. و«الأخرق»: الجاهل الذي لا يتقن ما يعمل، أو الأحمق الذي ليس في يديه صناعة يكسب بها.

من الدين، وليتق الله في ذلك، ﴿وَلَا يَخْشَ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أي: لا يكتم منه شيئاً، ﴿إِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ مِنْهَا﴾ محجوراً عليه بتبذير ونحوه، ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ أي: صغيراً أو مجنوناً «أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْمَلَ هُوَ» إما لعي أو جهل بموضع صواب ذلك من خطئه. ﴿فَلْيَمْلِكْ وَلِيَهُ بِالْعَدْلِ﴾.

وقوله: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾، أمر بالإشهاد مع الكتابة لزيادة الثقة، ﴿إِن لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾، وهذا إنما يكون في الأموال وما يقصد به المال، وإنما أقيمت المرأتان مقام الرجل لنقصان عقل المرأة، كما روى مسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «يا معشر النساء، تصدقن وأكثرن الاستغفار، فإني رأيتكن أكثر أهل النار»، فقالت امرأة منهن جَزَلَةٌ: وما لنا - يا رسول الله - أكثر أهل النار؟ قال: «تَكْثُرُنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرُنَ الْعَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أُغْلِبَ لَذَى لُبٍ مِنْكُنَّ». قالت: يا رسول الله، ما نقصان العقل والدين؟ قال: «أما نقصان عقلها فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي لا تصلي، وتفطر في رمضان، فهذا نقصان الدين» (١).

وقوله: ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾: فيه دلالة على اشتراط العدالة في الشهود، وهذا مقيد، حكم به الشافعي على كل مطلق في القرآن، من الأمر بالإشهاد من غير اشتراط. وقد استدل من رد المستور بهذه الآية [الدالة] على أن يكون الشاهد عدلاً مرضياً. وقوله: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ يعني: المرأتين إذا نسيت الشهادة ﴿فَتَذْكُرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ أي: يحصل لها ذكرى بما وقع به الإشهاد، ولهذا قرأ آخرون: «فَتَذْكُرُ» (٢) بالتشديد من التذكار. ومن قال: إن شهادتها معها تجعلها كشهادة ذكر فقد أبعد، والصحيح الأول، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾: قيل: معناه: إذا دعوا للتحمل فعليهم الإجابة، وهو قول قتادة والربيع بن أنس. وهذا كقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾، ومن هاهنا استفيد أن تحمّل الشهادة فرض كفاية. وقيل - وهو مذهب الجمهور - المراد بقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ للداء، لحقيقة قوله: ﴿الشُّهَدَاءُ﴾، والشاهد حقيقة فيمن تحمّل، فإذا دعى لأدائها فعليهم الإجابة إذا تعينت وإلا فهو فرض كفاية، والله أعلم. وقال مجاهد وأبو مجلز، وغير واحد: إذا دعيت لتشهد فأنت بالخيار، وإذا شهدت فدعيت فأجب. وقد ثبت في صحيح مسلم والسنن، عن زيد بن خالد: أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها» (٣). فأما الحديث الآخر في الصحيحين: «ألا أخبركم بشر

(١) هذا اللفظ هو لفظ حديث ابن عمر، في مسلم (١ / ٣٥)، وكذلك رواه أحمد (٥٣٤٣). ثم روى مسلم بإسناد آخر إلى أبي هريرة، وقال: «بمثل معنى حديث ابن عمر». يريد المعنى الإجمالي للحديث، لا لفظه ولا سياقه. وحديث أبي هريرة بسياق آخر ولفظ أطول، وهو في المسند (٨٨٤٩). فلم يكن صنيع ابن كثير دقيقاً حين نسب هذا اللفظ لأبي هريرة دون بيان.

(٢) قراءة ابن كثير المكي وأبي عمرو - بسكون الذاو وكسر الكاف مخففة. وقرأ باقي السبعة بفتح الذاو وتشديد الكاف المكسورة، وهي قراءة حفص.

(٣) صحيح مسلم (٢ / ٤).

الشهداء؟ الذين يشهدون قبل أن يُستشهدوا»، وكذا قوله: «ثم يأتى قوم تسبق أيمانهم شهادتهم، وتسبق شهادتهم أيمانهم». وفى رواية: «ثم يأتى قوم يشهدون ولا يُستشهدون»^(١). وهؤلاء شهود الزور. وقد روى عن ابن عباس والحسن البصرى: أنها تعم الحالين: التحمل والاداء.

وقوله: ﴿وَلَا تَسْمُوا أَنْ تَكْتُبُوا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾: هذا من تمام الإرشاد، وهو الأمر بكتابة الحق صغيراً كان أو كبيراً، فقال: ﴿وَلَا تَسْمُوا﴾ أى: لا تملوا أن تكتبوا الحق على أى حال كان من القلة والكثرة. وقوله: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ أى: هذا الذى أمرناكم به من الكتابة للحق إذا كان مؤجلاً هو ﴿أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أى: أعدل ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾ أى: أثبت للشاهد إذا وضع خطه ثم رآه تذكر به الشهادة، لاحتمال أنه لو لم يكتبه أن ينساه، كما هو الواقع غالباً ﴿وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾: وأقرب إلى عدم الريبة، بل ترجعون عند التنازع إلى الكتاب الذى كتبتموه، فيفصل بينكم بلا ريبة.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ أى: إذا كان البيع بالحاضر يدا بيد، فلا بأس بعدم الكتابة لانتفاء المحذور فى تركها. فاما الإشهاد على البيع، فقد قال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾، روى ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قول الله: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ يعنى: أشهدوا على حقكم إذا كان فيه أجل أو لم يكن، فأشهدوا على حقكم على كل حال. قال: وروى عن جابر بن زيد، ومجاهد نحو ذلك. وقال الشعبى والحسن: هذا الأمر منسوخ بقوله: ﴿إِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِنَ أَمَانَتَهُ﴾. وهذا الأمر محمول عند الجمهور على الإرشاد والندب، لا على الوجوب. والدليل على ذلك حديث خزيمه ابن ثابت الأنصارى، وقد رواه الإمام أحمد عن عمارة بن خزيمة الأنصارى، أن عمه حدثه - وهو من أصحاب النبى ﷺ - أن النبى ﷺ ابتاع فرساً من أعرابى، فاستبعه النبى ﷺ ليقتضيه ثمن فرسه، فأسرع النبى ﷺ وأبطأ الأعرابى، ففطق رجال يعترضون الأعرابى فيساومونه بالفرس، ولا يشعرون أن النبى ﷺ ابتاعه، حتى زاد بعضهم الأعرابى فى السوم على ثمن الفرس الذى ابتاعه النبى ﷺ، فتأدى الأعرابى النبى ﷺ فقال: إن كنت مبتاعاً هذا الفرس فابتعته، وإلا بعته، فقام النبى ﷺ حين سمع نداء الأعرابى، قال: «أوليس قد ابتعته منك؟!» قال الأعرابى: لا، والله ما بعتك. فقال النبى ﷺ: «بل قد ابتعته منك». ففطق الناس يلودون بالنبى ﷺ والأعرابى وهما يتراجعان، ففطق الأعرابى يقول: هَلُمَّ شهيداً يشهد أنى بايعتك. فمن

(١) هى ثلاثة أحاديث: أما أولها: «ألا أخبركم بشر الشهداء» إلخ - فقد نسبها الحافظ ابن كثير للصحيحين، ولم أجده فيها ولا فى غيرهما بهذا اللفظ، وإن كان معناه صحيحاً فى ذاته. وثانيهما: رواه البخارى (١٩١/فتح) ومسلم (٢٧١/٢) بنحوه عن ابن مسعود. ولفظ البخارى: «ثم يجىء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته». ورواه أحمد فى المسند مراراً، منها: (٤١٣٠). والثالث رواه أيضاً البخارى (١٩٠ / ٥) ومسلم (٢٧١ / ٢) بنحوه، من حديث عمران بن حصين. وفى روايات ابن كثير هنا تساهل. والظاهر أنه ذكرها من حفظه.

جاء من المسلمين قال للأعرابي: ويلك! إن النبي ﷺ لم يكن يقول إلا حقاً. حتى جاء خزيمه، فاستمع لمراجعة النبي ﷺ ومراجعة الأعرابي [فطفق الأعرابي] يقول: هلم شهيداً يشهد أني بايعتك!. قال خزيمه: أنا أشهد أنك قد بايعته. فأقبل النبي ﷺ على خزيمه فقال: «بم تشهد؟» فقال: بتصديقك يا رسول الله. فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمه بشهادة رجلين. وهكذا رواه أبو داود والنسائي نحوه (١).

ولكن الاحتياط هو الإشهاد، لما رواه الإمامان الحافظ أبو بكر بن مردويه والحاكم عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم: رجل له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، ورجل دفع مال يتيم قبل أن يبلغ، ورجل أقرض رجلاً مالا فلم يُشْهده». قال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

(١) المسند (٥ / ٢١٥ ، ٢١٦ حلى) . وأبو داود (٣٦٠٧) والنسائي (٢ / ٢٢٩) والحاكم (٢ / ١٧ ، ١٨) . وإسناده صحيح كالشمس . والصحابي المبهم ، عم عمارة وأخو خزيمه بن ثابت : لا يضر عدم معرفة اسمه . وكذلك رواه ابن سعد في الطبقات (٤ / ٢ / ٩٠ ، ٩١) . وقد روى عمارة بن خزيمه بن ثابت في الحديث - بنحوه - عن أبيه أيضاً . رواه الطبراني «ورجاله كلهم ثقات» ، كما في مجمع الزوائد (٩ / ٣٢٠) . وذكره الحافظ في الفتح (٨ / ٣٩٩) ، من رواية الطبراني وابن شاهين . ورواه الحاكم أيضاً (٢ / ١٨) . وقد صنع أستاذنا السيد رشيد رضا - هنا - شيئاً لم يكن الظن به أن يصنعه . وما أدري كيف صدر هذا منه! فإنه أراد أن يتأول الحديث بما يخرج به عن معناه ، وينفي خصوصية خزيمه بأن شهادته بشهادة رجلين! فذكر قول رسول الله ﷺ لخزيمه - في رواية الطبراني - : «بم تشهد ولم تكن حاضراً؟» ونقل عن ابن التين أن النبي قال لخزيمه : «لا تعد» . وهو قد نقل هاتين الكلمتين من فتح الباري يقيناً ، لأن مجمع الزوائد لم يكن طبع إذ ذاك ، ولأن لفظ الطبراني في الزوائد : «ما حملك على الشهادة ولم تكن حاضراً»! ثم قال كلمتين لا يجدران بمثله ، بل لا يجدران برجل يقدر السنة قدرها . فقال : «وفي قول العلماء أنه ﷺ جعل شهادة خزيمه شهادة رجلين نظر»! ثم قال بعد تأويل الحديث : «فتخرجه على حكم الحاكم بما علمه يقيناً أولى من تخريجه بحكم شاهد واحد أقيم مقام شاهدين ، خصوصية له خصص بها حكم القرآن!! فأنكر نص الحديث صريحاً ، وجعله من «قول العلماء» ، وجعل خصوصية خزيمه من تخريجهم ! والحديث أمامه صريح في نص المسند الذي نقله ابن كثير هنا: «فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمه شهادة رجلين» . وكذلك هو بهذا المعنى - أمامه - في رواية الطبراني التي نقلها الحافظ في الفتح : «فقال النبي ﷺ : من شهد له خزيمه أو عليه فحسه» . فالنص فيهما صريح بأن رسول الله ﷺ هو الذي خص حذيفة بهذه الخصوصية وجعل شهادته بشهادة رجلين . ولم يكن هذا اختراعاً اخترعه العلماء ، ولم يكن تخريباً لهم يصلح عرضة للرد والنقد . بل إن كلمة ابن التين التي نقلها واستند عليها - نقلها وهو يعلم أنها لا أصل لها ، لأنه إنما نقلها عن الحافظ في الفتح (٨ / ٣٩٩) ، ونص كلامه : «رغم ابن التين أن النبي ﷺ قال لخزيمه لما جعل شهادته شهادتين : لا تعد ، أي تشهد على ما لم تشاهده . انتهى . وهذه الزيادة لم أقف عليها» . وكفى في نفيها أن لم يجدها الحافظ ابن حجر ، ثم لم يجدها أحد بعده . وأكثر من هذا أن الموضع الذي نقل منه من الفتح - هو في شرح حديث زيد بن ثابت في نسخة المصاحف ، الذي فيه أن لم يجد آية من سورة الأحزاب ، وهي (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) - «مع أحد إلا مع خزيمه الأنصاري ، الذي جعل رسول الله ﷺ ، شهادته شهادة رجلين» . وهذا نص صريح من صحابي آخر، اتصل به العمل : أنه أخذ بشهادة خزيمه وحده ، إيماناً بهذه الخصوصية له مما يدل على أنها كانت معروفة للصحابة ، مشهورة لديهم . وهي خصوصية لا تزال معروفة مشهورة ، ولا أعلم أحداً من أهل العلم تشكك في صحتها قبل السيد رشيد رضا ، رحمه الله وإيانا ، وغفر لنا وله .

وقوله: ﴿وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾: قيل: معناه: لا يضار الكاتب ولا الشاهد، فيكتب هذا خلاف ما يملئ، ويشهد هذا بخلاف ما سمع أو يكتهما بالكلية، وهو قول الحسن وقتادة وغيرهما. وقيل: معناه: لا يضر بهما، روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في هذه الآية قال: يأتي الرجل فيدعوهم إلى الكتاب والشهادة، فيقولان: إنا على حاجة، فيقول: إنكما قد أمرتما أن تحببا. فليس له أن يضارهما. ثم قال: وروى عن عكرمة، ومجاهد، وطاوس وغيرهم نحو ذلك (١).

وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ عَلِيمُونَ﴾: أي: إن خالفتم ما أمرتم به، وفعلتم ما نهيتهم عنه، فإنه فسق كائن بكم، أي: لازم لكم لا تحيدون عنه ولا تنفكون منه.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: أي: خافوه وراقبوه، واتبعوا أمره واتركوا زجره، ﴿وَعَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، وكقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد: ٢٨].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: أي: هو عالم بحقائق الأمور ومصالحها وعواقبها، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء، بل علمه محيط بجميع الكائنات.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمَ بَعْضًا فليؤدِّ الَّذِي أَوْثِنَ أَمَنَتَهُ وَلْيَسْقِ اللَّهَ رَبُّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ عِندَ اللَّهِ قَلْبُهُ مُرْتَابٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾

يقول تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ﴾: أي: مسافرين وتدايتتم إلى أجل مسمى ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ يكتب لكم. قال ابن عباس: أو وجدوه ولم يجد قرطاساً أو دواة أو قلماً ﴿فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾ أي: فليكن بدل الكتابة رهان مقبوضة في يد صاحب الحق، وقد استدل بقوله: ﴿فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾، على أن الرهن لا يلزم إلا بالقبض، كما هو مذهب الشافعي والجمهور، واستدل بها آخرون على أنه لابد أن يكون الرهن مقبوضاً في يد المرتهن، وهو رواية عن الإمام أحمد، وذهب إليه طائفة. واستدل آخرون من السلف بهذه الآية على أنه لا يكون الرهن مشروعاً إلا في السفر، قاله مجاهد وغيره، وقد ثبت في الصحيحين، عن أنس، أن رسول الله ﷺ تَرَفَّقَ وَدَرَعَهُ مرهونة عند يهودى على ثلاثين وسقاً من شعير، رهنها قوتاً لأهله.

وقوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمَ بَعْضًا فليؤدِّ الَّذِي أَوْثِنَ أَمَنَتَهُ﴾: روى ابن أبي حاتم - بإسناد جيد - عن أبي سعيد الخدري أنه قال: هذه نسخت ما قبلها، وقال الشعبي: إذا اتّمت بَعْضُكُمْ بَعْضًا فلا بأس ألا تكتبوا أو لا تشهدوا.

وقوله: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ يعنى: المؤمن، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن، عن سَمُرَةَ: أن رسول الله ﷺ قال: «على اليد ما أخذت حتى تؤديه» (١). وقوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ أى: لا تخفوها وتغلوها ولا تظهروها. قال ابن عباس وغيره: شهادة الزور من أكبر الكبائر، وكتمانها كذلك. ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾، قال السدى: يعنى: فاجر قلبه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ [المائدة: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٨١)

يخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وما بينهن، وأنه المطلع على ما فيهن، لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر، وإن دقت وخفيت، وأخبر أنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه فى صدورهم كما قال: ﴿قُلْ إِنْ تُخَفُّوهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُدْوَهِهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩]، وقال: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ﴾ [طه: ٧]، والآيات فى ذلك كثيرة جداً، وقد أخبر فى هذه بمزيد على العلم، وهو: المحاسبة على ذلك، ولهذا لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة، رضى الله عنهم، وخافوا منها، ومن محاسبة الله لهم على جليل الأعمال وحقيرتها، وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم.

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة، قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ، ثم جثوا على الركب، وقالوا: يا رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطبق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزل عليك هذه الآية ولا نطيقها. فقال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير». فلما أقر بها القوم وذلت بها ألسنتهم، أنزل الله فى أثرها: ﴿أَمَّا الرُّسُلُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانُكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾. فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله: ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تَأْخُذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَهْطَأْنَا﴾، إلى آخرها.

(١) المسند (٥ / ٨ حلى) وأبو داود (٣٥٦١) والترمذى (٢ / ٢٥٢) وقال: «حديث حسن». وفى بعض نسخه: «صحيح».

ورواه مسلم منفرداً به عن أبي هريرة، فذكر مثله، ولفظه: «فلما فعلوا ذلك نسخها الله، فأنزل الله: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نُسِيْنَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ قال: نعم، ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ قال: نعم، ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ قال: نعم، ﴿ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ قال: نعم (١). وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخَافُكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء، قال: فقال رسول الله، ﷺ: «قولوا: سمعنا وأطعنا وسلمنا». فللقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾، إلى قوله: ﴿ فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾. وهكذا رواه مسلم وزاد: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نُسِيْنَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ قال: قد فعلت ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ قال: قد فعلت، ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ قال: قد فعلت ﴿ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا ﴾ قال: قد فعلت (٢).

[ثم ذكر الحافظ ابن كثير هنا رواية أخرى عن ابن عباس ، من المسند (٣٠٧١) ، وروايتين عنه من الطبري : (٦٤٥٩ ، ٦٤٦٢) ، ثم قال :

فهذه طرق صحيحة عن ابن عباس، وقد ثبت عن ابن عمر كما ثبت عن ابن عباس، فروى البخاري عن مَرَّوان الأصغر، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ - أحسبه ابن عمر - ﴿ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ ﴾ قال: نسختها الآية التي بعدها. وهكذا روى عن علي، وابن مسعود، والشعبي، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، وقتادة: أنها منسوخة بالتي بعدها.

وقد ثبت بما رواه الجماعة في كتبهم الستة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لى عن أمتى ما حدثت به أنفسها، ما لم تكلم أو تعمل». وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكذبوها سيئة، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكذبوها حسنة، فإن عملها فاكذبوها عسراً».

وروى ابن جرير عن الحسن البصري أنه قال: هي مُحْكَمَةٌ لم تنسخ. واختار ابن جرير ذلك، واحتج على أنه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة، وأنه تعالى قد يحاسب ويغفر، وقد يحاسب ويعاقب - بالحديث الذي رواه عن صفوان بن مُحَرَّز، قال: بينا نحن نطوف بالبيت مع عبد الله بن عمر، وهو يطوف، إذ عرض له رجل فقال: يا بن عمر، ما سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يدنو المؤمن من ربه، عز وجل، حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه فيقول: هل تعرف كذا؟ فيقول: رب أعرف - مرتين - حتى إذا بلغ به ما شاء الله أن يبلغ قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم». قال:

(١) المسند (٩٣٣٣) وصحيح مسلم (٤٦/١، ٤٧)، ورواه أيضا ابن حبان (١٣٩) بتحقيقنا، والطبري (٦٤٥٦).

(٢) المسند (٢٠٧٠) وصحيح مسلم (٤٧/١) والطبري (٦٤٥٧) والحاكم (٢/٢٨٦، ٢٨٧).

« فيعطى صحيفة حسنة - أو كتابه - يمينه ، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الأشهاد : ﴿ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ » [هود : ٤١٨] . وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وغيرهما (١) . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن أمية قالت : سألت عائشة عن هذه الآية : ﴿ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخَافُكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ فقالت : ما سألتني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ عنها فقال : « هذه متابعة الله العبد ، وما يصيبه من الحمى ، والنكبة ، والبضاعة يضعها في يد كفه ، فيفتقد لها فيفزع لها ، ثم يجدها في ضبته ، حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر » . وكذا رواه الترمذی ، وابن جرير ، وقال الترمذی : غريب . قلت : وعلى بن زيد بن جُدعان ضعيف ، يغرب في رواياته ، وهو يروى هذا الحديث عن امرأة أبيه : أم محمد أمية بنت عبد الله ، عن عائشة ، وليس لها عنها في الكتب سواء (٢) .

﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (١٨٥) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿ (١٨٦)

ذكر الأحاديث الواردة في فضل هاتين الآيتين الكريمتين نفعنا الله بهما (٣) :

روى البخارى عن أبى مسعود ، عن النبى ﷺ قال : « من قرأ بالآيتين » ، وحدثنا أبو نعيم ، حدثنا سفيان ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عن عبد الرحمن بن يزيد ، عن أبى مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كَفَتْهُ » . وقد أخرجه بقية الجماعة والإمام أحمد (٤) عن أبى ذر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش ، لم يعطهن نبى قبلى » . وقد رواه ابن مردويه (٥) .

(١) الطبرى (٦٤٩٧) ورواه أيضا أحمد فى المسند (٥٤٣٦ ، ٥٨٢٥) ، وتخريجه مفصل فى الكتاين .
(٢) الترمذی (٤ / ٧٨ ، ٧٩) والطبرى (٦٤٩٥) . ورواه أيضا الطيالسى (١٥٨٤) وأحمد فى المسند (٢١٨ / ٦) حلى . وفصلنا تخريجه وصحته فى الطبرى . وقوله : « متابعة الله العبد » يعنى : ما يصيب الإنسان مما يؤله ، يتابعه الله به ليكفر عنه من ذنوبه ، وهذا هو الثابت فى المسند والطبرى . وثبت هنا فى المخطوطة والمطبوعة : « مباحة » ! وهو تصحيف . وقوله : « فى ضبته » : هكذا ثبت بلفظ التأنيث فى المخطوطة . والضبن - بكسر الضاد وسكون الباء الموحدة : ما بين الإبط والكشح .

(٣) ذكر الحافظ ابن كثير هنا عشرة أحاديث وطرقها وأسانيدنا . اقتصرنا منها على ثلاثة أحاديث ، هى أصحها إن شاء الله .

(٤) البخارى (٩ / ٥٠ ، ٨٢ فتح) ومسلم (١ / ٢٢٢) والمسند (١٧١٣٦) . و « أبو مسعود » : هو البدرى ، عقبة بن عمرو الأنصارى .

(٥) المسند (٥ / ١٥١ ، ١٨٠ حلى) بأربعة أسانيد ، اثنان منهما برجال الصحيح . وهو فى الزوائد (٦ / ٣١٢) .

وروى مسلم عن عبد الله، قال: لما أُسْرِيَ برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدره المنتهى، وهى فى السماء السادسة إليها ينتهى ما يَعْرَجُ [به] من الأرض فَيَقْبُضُ منها، وإليها ينتهى ما يُهْبِطُ [به] من فوقها فَيَقْبُضُ منها، قال: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم: ١٦]، قال: فرأى من ذهب. قال: وأعطى رسول الله ﷺ ثلاثاً: أعطى الصلوات الخمس، وأعطى خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً الْمُفَحِّمَاتُ (١).

ف قوله تعالى: ﴿أَمَّا الرُّسُلُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾: إخبار عن النبى ﷺ بذلك. وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ عطف على ﴿الرُّسُلُ﴾، ثم أخبر عن الجميع فقال: ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكَيْبِهِ وَرُسُلَهُ لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾، فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره، ولا رب سواه. ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء، لا يفرقون بين أحد منهم، فيؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض، بل الجميع عندهم صادقون بارون راشدون مهديون هادون إلى سبيل الخير، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله، حتى نسخ الجميع بشرع محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، الذى تقوم الساعة على شريعته، ولا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين.

وقوله: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أى: سمعنا قولك يا ربنا، وفهمناه، وقمنا به، وامتلنا العمل بمقتضاه، ﴿غُفْرَانِكَ رَبَّنَا﴾ سؤال للغفر والرحمة. روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قول الله: ﴿أَمَّا الرُّسُلُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، إلى قوله: ﴿غُفْرَانِكَ رَبَّنَا﴾ قال: قد غفرت لكم (٢)، ﴿وَالَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أى: إليك المرجع والمآب يوم يقوم الحساب.

وقوله: ﴿لَا يَكِلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أى: لا يكلف أحداً فوق طاقته، وهذا من لطفه تعالى بخلقه ورافته بهم وإحسانه إليهم، وهذه هى الناسخة الرافعة لما كان أشفق منه الصحابة، فى قوله: ﴿وَلَنْ تَبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ أى: هو وإن حاسب وسأل لكن لا يعذب إلا بما يملك الشخص دفعه، فأما ما لا يملك دفعه - من وسوسة النفس وحديثها - فهذا لا يكلف به الإنسان، وكرهية الوسوسة السيئة من الإيمان.

(١) عبد الله: هو ابن مسعود. والحديث فى صحيح مسلم (١ / ٦٢ ، ٦٣). ورواه أيضاً أحمد (٣٦٦٥). وذكره ابن كثير ثانياً فى أحاديث الإسراء، عند تفسير الآية الأولى منها. ثم ذكره ثالثاً عند تفسير الآية (١٦) من سورة النجم. ووقع فى المطبوعة «السماء السابعة». وهو خطأ، صوابه من المخطوطة والمسنود وصحيح مسلم. و«المفحّمات» - بكسر الحاء: الذنوب العظام التى تقتحم أصحابها فى النار، أى تلقيهم فيها. وذكر ابن كثير آخر الأحاديث العشرة. حديث ابن عباس فى شأن نزولهما ونزول الفاتحة. وقد مضى عند سورة الفاتحة.

(٢) هو مختصر من حديث مطول، رواه الطبرى (٦٥٤٠) هكذا موقوفاً على ابن عباس. وهو وإن كان موقوفاً لفظاً فإنه مرفوع حكماً. ثم قد رواه الطبرى أيضاً (٦٥٣٤) مرفوعاً لفظاً، بإسناد صحيح. وقد مضى معناه أيضاً من حديثى أبى هريرة وابن عباس عند الآية (٢٨٤) من هذه السورة عن المسند وصحيح مسلم.

وقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أى: من خير، ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ أى: من شر، وذلك فى الأعمال التى تدخل تحت التكليف . ثم قال تعالى مرشداً عباده إلى سؤاله، وقد تكفل لهم بالإجابة، كما أرشدهم وعلمهم أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نُسِينَا﴾ أى: إن تركنا فرضاً على جهة النسيان، أو فعلنا حراماً كذلك ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أى: الصواب فى العمل، جهلاً منا بوجهه الشرعى. وقد تقدم فى صحيح مسلم لحديث أبى هريرة: «قال الله: نعم» ولحديث ابن عباس، قال الله: «قد فعلت». وروى ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والطبرانى عن ابن عباس. قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه». وقد روى من طُرُقٍ آخرَ وأعله أحمد وأبو حاتم (١) ، والله أعلم.

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ أى: لا تكلفنا من الأعمال الشاقة - وإن أطقناها - كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والأصار التى كانت عليهم، التى بعثت نبيك محمداً ﷺ نبي الرحمة بوضعه فى شرعه الذى أرسلته به، من الدين الخفيف السهل السمح. وقد ثبت فى صحيح مسلم، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: نعم». وعن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: قد فعلت». وجاء الحديث من طرق، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة» (٢).

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ أى: من التكليف والمصائب والبلاء، لا تبتلينا بما لا قبل لنا به.

وقوله: ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ أى: فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا، ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ أى: فيما بيننا وبين عبادك، فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة، ﴿وَارْحَمْنَا﴾ أى: فيما يُستقبل، فلا توقعنا - بتوفيقك - فى ذنب آخر، ولهذا قالوا: إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء: أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه، وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم، وأن يعصمه فلا يوقعه فى نظيره. وقد تقدم فى الحديث أن الله قال: «نعم». وفى الحديث الآخر: «قال الله: قد فعلت».

وقوله: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ أى: أنت ولينا وناصرنا، وعليك توكلنا، وأنت المستعان، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك، ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أى: الذين جحدوا دينك، وأنكروا وحدانيتك، ورسالة نبيك، وعبدوا غيرك، وأشركوا معك من عبادك، فانصرنا عليهم،

(١) الظاهر أن العلة التى فيه ؛ الانقطاع فى إسناد ابن ماجه، ولكن إسنادى ابن حبان والطبرانى متصلان صحيحان . وكذلك رواه الحاكم (١٩٨/٢) بنحوه ، بالإسناد المتصل ، وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى .
(٢) من حديث رواه أحمد فى المسند (٦ / ١١٦ ، ٢٣٣ حلى) عن عائشة ، مرفوعاً : « لتعلم يهود أن فى ديننا فسحة ، إني أرسلت بحنيفة سمحة » قال ذلك فى شأن الحبشة ولعبهم فى المسجد ونظر عائشة إليهم . وإسناده صحيح . وانظر كشف الخفا (١ / ٢١٧) .

واجعل لنا العاقبة عليهم فى الدنيا والآخرة، قال الله: « نعم » . وفى الحديث الذى رواه مسلم، عن ابن عباس: « قال الله: قد فعلت ». وروى ابن جرير أن معاذاً كان إذا فرغ من هذه السورة «فَانصُرْنَا» (١) عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» قال: آمين (٢).

(وتم تفسير سورة البقرة والحمد لله رب العالمين)

(١) فى المطبوع من « عمدة التفسير » وكذا المخطوطة : « وانصُرْنَا » وهو خطأ بين . (الباز) .
(٢) الطبرى (٦٥٤٢) ورواه أيضا أبو عبيد ، وابن أبى شيبه وابن المنذر ، كما فى الدر المنثور (١ / ٣٧٨) .

بسم الله الرحمن الرحيم وما توفيقى إلا بالله (١)

تفسير سورة آل عمران

وهى مدنية؛ لأن صدرها إلى ثلاث وثمانين آية منها نزلت فى وفد فجران، وكان قدومهم فى سنة تسع من الهجرة، كما سيأتى بيان ذلك عند تفسير آية المباهلة منها، إن شاء الله تعالى (٢)، وقد ذكرنا ما ورد فى فضلها مع سورة البقرة أول البقرة (٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿١﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٢﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٣﴾﴾

وقد ذكرنا الحديث الوارد فى أن اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ عند تفسير آية الكرسي (٤)، وتقدم الكلام على قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ فى أول سورة البقرة، بما أغنى عن إعادته، وتقدم الكلام على قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ فى تفسير آية الكرسي (٥).

وقوله تعالى: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ يعنى: نزل عليك القرآن - يا محمد - ﴿بِالْحَقِّ﴾ أى: لا شك فيه ولا ريب، بل هو منزل من عند الله عز وجل، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون، وكفى بالله شهيداً. وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى: من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد الله الأنبياء، فهى تصدقه بما أخبر به وبشرت، فى قديم الزمان، وهو يصدقها؛ لأنه طابق ما أخبر به وبشرت، من الوعد من الله بإرسال محمد ﷺ، [وإنزال القرآن العظيم عليه].

وقوله: ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ﴾ أى: على موسى بن عمران ﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾ أى: على عيسى ابن مريم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أى: من قبل هذا القرآن ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ أى: فى زمانهما ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ وهو الفارق بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والغبى والرشاد، بما يذكره الله تعالى من الحجج والبيّنات، والدلائل الواضحات، والبراهين القاطعات، ويبينه ويوضحه ويفسره ويقرّره، ويرشد إليه وينبه عليه - من ذلك. وقال قتادة والربيع بن أنس: الفرقان ههنا القرآن. واختار ابن جرير أنه مصدر ههنا؛ لتقدم ذكر القرآن فى قوله: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ وهو القرآن.

(١) هذا أول المجلد الثانى من المخطوطة الأرمينية.

(٢) ص ٧٣.

(٣) الآية: ٦١.

(٤) ص ٣١١.

وقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أى : جحدوا بها وأنكروها ، وردّوها بالباطل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أى : يوم القيامة ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أى : منيع الجنب عظيم السلطان ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ أى : ممن كذب بآياته ، وخالف رسله الكرام ، وأنبياءه العظام .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾

يخبر تعالى أنه يعلم غيب السموات والأرض ، لا يخفى عليه شيء من ذلك ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أى : يخلقكم فى الأرحام كما يشاء ، من ذكر وأنثى ، وحسن وقبيح ، وشقى وسعيد ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أى : هو الذى خلق ، وهو المستحق للإلهية وحده لا شريك له ، وله العزة التى لا ترام ، والحكمة والأحكام . وهذه الآية فيها تعريض بل تصريح بأن عيسى ابن مريم عبد مخلوق ، كما خلق الله سائر البشر ؛ لأن الله صوّره فى الرحم وخلق ، كما يشاء ، فكيف يكون إلهاً كما زعمته النصارى - عليهم لعائن الله - وقد تقلب فى الأحشاء ، وتنقل من حال إلى حال ؟! كما قال تعالى : ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثَ﴾ [الزمر : ٦] .

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكِمُكَ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَمِيعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ ﴿٩﴾

يخبر تعالى أن فى القرآن آيات محكمات ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ ، أى : بينات واضحات الدلالة ، لا التباس فيها على أحد ، ومنه آيات آخر فيها اشتباه فى الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم ، فمن ردّ ما اشتبه عليه إلى الواضح منه ، وحكّم محكمه على متشابهه عنده ، فقد اهتدى . ومن عكس انعكس ؛ ولهذا قال : ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أى : أصله الذى يرجع إليه عند الاشتباه ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ أى : تحتل دلالتها موافقة المحكم ، وقد تحتل شيئا آخر من حيث اللفظ والتركيب ، لا من حيث المراد .

وقد اختلفوا فى المحكم والمتشابه ، فروى عن السلف عبارات كثيرة ، فقال ابن عباس المحكمات ناسخه ، وحلاله وحرامه ، وحدوده وفرائضه ، وما يؤمن به ويعمل به . وعن ابن عباس أيضاً أنه قال : المحكمات [فى] قوله تعالى : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام : ١٥١] والآيتان بعدها ، وقوله تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء : ٢٣] إلى ثلاث آيات بعدها . رواه ابن

أبى حاتم. وحكاه عن سعيد بن جبير. وعن سعيد بن جبير أيضا: ﴿ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [يقول: أصل الكتاب، وإنما سماهن] أم الكتاب؛ لأنهن مكتوبات في جميع الكتب. وقيل في التشابهات: [إنهن] المنسوخة، والمقدم والمؤخر، والأمثال فيه، والأقسام، وما يؤمن به ولا يعمل به. رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس. وقيل: هي الحروف المقطعة في أوائل السور، قاله مقاتل. وعن مجاهد: التشابهات يصدق بعضها بعضاً. وهذا إنما هو في تفسير قوله: ﴿كِتَابًا مُّشَابِهًا مَّثَانِي﴾ [الزمر: ٢٣]. هناك ذكروا: أن المشابه هو الكلام الذى يكون فى سياق واحد، والثانى هو الكلام فى شيئين متقابلين كصفة الجنة وصفة النار، وذكر حال الأبرار وحال الفجار، ونحو ذلك. فأما هاهنا فالمتشابه: هو الذى يقابل المحكم.

وأحسن ما قيل فيه الذى قدمناه، وهو الذى نص عليه محمد بن إسحاق حيث قال: ﴿مِنَ آيَاتِ مُّحْكَمَاتٍ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾: فيهن حجة الرب، وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس لهن تصريف ولا تحريف عما وُضِعَ عليه. قال: والمتشابهات فى الصدق، لهن تصريف وتحريف وتأويل، ابتلى الله فيهن العباد، كما ابتلاهم فى الحلال والحرام، ألا يُصرفن إلى الباطل، ولا يحرقن عن الحق.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أى: ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ أى: إنما يأخذون منه بالمشابه الذى يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة، وينزلوه عليها، لاحتمال لفظه لما يصرفونه، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه؛ لأنه دامغ لهم وحجة عليهم، ولهذا قال: ﴿وَإِنِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أى: الإضلال لاتباعهم، إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهذا حجة عليهم لا لهم، كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى [هو] ﴿رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَوُجِّعَ مِنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] ^(١)، وتركوا الاحتجاج بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩]، ويقول: ﴿إِنْ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرحة بأنه خلق من مخلوقات الله، وعبد، ورسول من رسل الله.

وقوله: ﴿وَإِنِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ أى: تحريفه على ما يريدون. وقال مقاتل والسدى: يبتغون أن يعلموا ما يكون وما عواقب الأشياء من القرآن. وقد روى الإمام أحمد، عن عائشة قالت: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُّشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ إلى قوله: ﴿أَوَّلُو الْأَنْبَابِ﴾ - «فإذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عني الله فأحذروهم» ^(٢).

(١) وقع هنا فى المخطوطة والمطبوعة «روح الله» بدل «رسول الله». وهو سبق قلم من الحافظ المؤلف. فليس فى القرآن أبداً وصف عيسى بلفظ «روح الله». ولذلك غيرنا هذا الخطأ إلى الصواب الذى فى الكتاب العزيز.

(٢) نسب الحافظ المؤلف هنا إلى كثير من طرقه فى الدواوين، وساق بعض ألفاظهم، والمعنى واحد، وسنشير إلى أماكنه فيما عندنا منها: وهو فى المسند (٦/ ٤٨ حلى)، ورواه الطيالسى (١٤٣٢، ١٤٣٣) والبخارى (٨/ ١٥٧ - ١٥٩ فتح) ومسلم (٣/ ٣٠٣، ٣٠٤) وأبو داود (٤٥٩٨) والترمذى (٤/ ٨٠) وابن ماجه (٤٧) وابن حبان فى صحيحه (٧٢، ٧٥) بتحقيقنا، والطبرى (٦٦٠٥ - ٦٦١٥). ورواه أيضا عبد الرزاق، ومحمد بن يحيى العبدى.

وورى الإمام أحمد: عن أبي أمامة ، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ﴾ قال: «هم الخوارج»، وفي قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] قال: «هم الخوارج». ورواه ابن مردويه . وهذا الحديث أقل أقسامه أن يكون موقوفاً من كلام الصحابي، ومعناه صحيح؛ فإن أول بدعة وقعت في الإسلام فتنة الخوارج، وكان مبدؤهم بسبب الدنيا حين قسم النبي ﷺ غنائم حنين، فكانهم رأوا في عقولهم الفاسدة أنه لم يعدل في القسمة! ففاجؤوه بهذه المقالة، فقال قائلهم - وهو ذو الحُويصرة بقر الله خاصرته : اعدل فإنك لم تعدل! فقال له رسول الله ﷺ: ﴿ لَقَدْ خَبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلْ ، أَيَأْمَنُنِي عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَلَا تَأْمَنُونِي؟! ﴾ . فلما قفا الرجل استأذن عمر بن الخطاب - وفي رواية: خالد بن الوليد - في قتله، فقال: «دَعُهُ فَإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضَنْضِي هَذَا - أَيْ: مِنْ جَنْسِهِ - قَوْمٌ يَحْقِرُ أَحَدَكُمْ صَلَاتِهِ مَعَ صَلَاتِهِمْ، [وصيامه مع صيامهم] ، وقراءته مع قراءتهم، يَمَرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمَرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فإِنَّمَا لَقَيْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنْ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ» (١). ثم كان ظهورهم أيام علي بن أبي طالب، وقتلهم بالنَّهْرَوان، ثم تشعبت منهم شعوب وقبائل وآراء وأهواء ومقالات ونحل كثيرة منتشرة، ثم انبعثت القدرية، ثم المعتزلة، ثم الجهمية، وغير ذلك من البدع التي أخبر عنها الصادق المصدوق ﷺ في قوله: ﴿ وَتَسْتَفْتِرُقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً ﴾ قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «من كان على ما أنا عليه وأصحابي». أخرجه الحاكم (٢).

وقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾: اختلف القراء في الوقف ههنا، فقيل: على الجلالة، كما تقدم عن ابن عباس أنه قال: التفسير على أربعة أنحاء: فتفسير لا يعذر أحد في فهمه، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم، وتفسير لا يعلمه إلا الله (٣). ويروي هذا القول عن عائشة، وعروة، وأبي الشعثاء، وغيرهم. وروى عبد الرزاق: كان ابن عباس يقرأ: «وما يعلم تأويله إلا الله»، ويقول الراسخون آمنا به» (٤). وكذا رواه ابن جرير، عن عمر ابن عبد العزيز، ومالك بن أنس: أنهم يؤمنون به ولا يعلمون تأويله. وحكى ابن جرير أن في قراءة عبد الله بن مسعود: «إن تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به». وكذا عن أبي بن كعب. واختار ابن جرير هذا القول.

ومنهم من يقف على قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، وتبعهم كثير من المفسرين وأهل

(١) الأحاديث في معناه كثيرة يطول ذكرها . فانظر مثلاً : صحيح مسلم (١ / ٢٩١ - ٢٩٥) والمسند (٦١٦) وابن حبان (٢٤) .

(٢) المستدرک (١ / ١٢٨ ، ١٢٩) من حديث عبد الله بن عمرو ، مع اختلاف قليل في اللفظ .

(٣) مضى بنحوه في المقدمة من رواية الطبري .

(٤) إسناده صحيح ، وهي قراءة تفسيرية ، ليست على سبيل التلاوة . ولذلك حذف منها قوله : «في العلم» وهذا هو الثابت في ابن كثير مخطوطا ومطبوعا ، وكذلك في الطبري (٦٦٢٧) في روايته من طريق عبد الرزاق ، ولكن أخى السيد محمود زادها هناك ، على اعتبار أنها قراءة .

الأصول، وقالوا: الخطاب بما لا يفهم بعيد. وقد روى عن ابن عباس أنه قال: أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله. وقال مجاهد: والراسخون في العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به. وكذا قال الربيع بن أنس. وقال محمد بن جعفر بن الزبير: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ الذي أراد ما أراد ﴿إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ ثم ردوا تأويل المتشابه على ما عرفوا من تأويل المحكمة التي لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد، فانسق بقولهم الكتاب، وصدق بعضه بعضاً، فنفذت الحجة، وظهر به العذر، وزاح به الباطل، ودفع به الكفر. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ دعا لابن عباس فقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» (١).

ومن العلماء من فصل في هذا المقام، فقال: التأويل يطلق ويراد به في القرآن معنيان، أحدهما: التأويل بمعنى حقيقة الشيء، وما يؤول أمره إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبْوِيهَ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا وَقَالَ يَا آدَمُ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَاكَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠]، وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ [الاعراف: ٥٣] أى: حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد، فإن أريد بالتأويل هذا، فالوقف على الجلالة؛ لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه على الجلية إلا الله عز وجل، ويكون قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ مبتدأ، و﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ خبره. وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر - وهو التفسير والتعبير والبيان عن الشيء كقوله تعالى: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ [يوسف: ٣٦] أى: بتفسيره - فإن أريد به هذا المعنى، فالوقف على: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار، وإن لم يحيطوا علماً بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ حالاً منهم، وساغ هذا، وهو أن يكون من المعطوف دون المعطوف عليه، كقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ الآية [الحشر: ٨ - ١٠]، وكقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] أى: وجاءت الملائكة صفوفاً صفوفاً.

وقوله إخباراً عنهم أنهم ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ أى: بالمتشابه ﴿كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا﴾ أى: الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق، وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له؛ لأن الجميع من عند الله، وليس شيء من عند الله بمختلف ولا متضاد، كقوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أى: إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها أولو العقول السليمة والفهوم المستقيمة. وروى الإمام أحمد: عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: سمع رسول الله ﷺ قوماً يتدارؤون فقال: «إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما نزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضاً، فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه» ورواه ابن مردويه (٢). وروى أبو يعلى عن أبي سلمة قال: لا أعلمه إلا عن أبي

(١) المسند (٢٣٩٧) من حديث ابن عباس، وقد مضى في المقدمة. وانظر فتح الباري (١/ ١٥٥).

(٢) المسند (٦٧٤١).

هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «نزل القرآن على سبعة أحرف، والمرأ في القرآن كفر - قالها ثلاثاً - ما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه». وإسناده صحيح، ولكن فيه علة بسبب قول الراوى: «لا أعلمه إلا عن أبى هريرة» (١). وروى ابن المنذر عن نافع بن يزيد قال: يقال: الراسخون في العلم المتواضعون لله، المتذللون لله في مرضاته، لا يتعاضمون من فوقهم، ولا يحقرون من دونهم.

ثم قال تعالى عنهم مخبراً أنهم دعوا ربهم قائلين: «رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا» أى: لا تمْلها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم، ودينك القويم «وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ» [أى: من عندك] (٢) «رَحْمَةً» ثبت بها قلوبنا، وتجمع بها شملنا، وتزيدنا بها إيماناً وإيقاناً «إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ». وروى الإمام أحمد عن شهر ابن حوشب قال: سمعت أم سلمة تحدث أن رسول الله ﷺ كان يكثر في دعائه أن يقول: «اللهم مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك» قالت: قلت: يا رسول الله، أو إن القلوب لتقلب؟ قال: «نعم، ما من خلق الله من بنى آدم من بشر إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع الله، فإن شاء الله عز وجل أقامه، وإن شاء الله أزاغه». فنسأل الله ربنا ألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة، إنه هو الوهاب. قالت: قلت: يا رسول الله، ألا تعلمنى دعوة أدعو بها لنفسي؟ قال: «بلى، قولى: اللهم رب محمد النبى، اغفر لى ذنبى، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مضلات الفتن ما أحيتنا ثم رواه أحمد مختصراً، بدون قوله: «نسأل الله ربنا» إلخ - من رواية شهر بن حوشب أيضاً، قال: «قلت لأم سلمة: يا أم المؤمنين، ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك؟...» (٣). وروى ابن مردويه عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك»، قلت: يا رسول الله، ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء؟ فقال: «ليس من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن، إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه، أما تسمعين قوله: «رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ»». غريب من هذا الوجه، ولكن أصله ثابت في الصحيحين، وغيرهما من طرق كثيرة بدون زيادة ذكر هذه

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٧٣) بتحقيقنا، عن أبى يعلى بإسناده. ورواه أيضاً أحمد في المسند (٧٩٧٦)، وكذلك رواه الطبري برقم (٧). وفصلنا تخريجه في تلك الكتب. وهو حديث صحيح؛ لثبوته من غير هذا الشك.

(٢) الزيادة من المخطوطة الأزهرية.

(٣) المسند (٣٠١/٦، ٣٠٢، ٣١٥، حلى). وإسناده صحيحان. وقد اضطرت لإثبات الحديث من المسند؛ لأن الحافظ ابن كثير ذكره هنا بأسانيد، عن ابن أبى حاتم وابن جرير، وابن مردويه، واختلطت عليه الأسانيد، فجعلها أسانيد لحديث واحد رواه ابن أبى حاتم مختصراً، من حديث شهر بن حوشب «عن أم سلمة وهى أسماء بنت يزيد بن السكن». ولكن الصحيح أن شهراً رواه مختصراً عن أسماء - وهى صحابية، كنيته: أم سلمة - ورواه أيضاً مطولاً ومختصراً عن أم سلمة أم المؤمنين. فدخل على ابن كثير إسناده فى إسناده، أو أسانيد فى أسانيد. وانظر تفصيل ذلك فى الطبرى (٦٦٥٠ - ٦٦٥٢، ٦٦٥٨).

الآية الكريمة وروى عبد الرزاق عن أبي عبد الله الصنابحي، أنه صلى وراء أبي بكر الصديق المغرب، فقرأ أبو بكر في الركعتين الأوليين بأم القرآن وسورتين من قصار المفصل، وقرأ في الركعة الثالثة، قال: فدنوت منه حتى إن ثيابي لتكاد تمس ثيابه، فسمعتة يقرأ بأم القرآن وهذه الآية: ﴿ رَبَّنَا لَا تُرْغِ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (١).

وقوله: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ أى: يقولون فى دعائهم: إنك - يا ربنا - ستجمع بين خلقك يوم معادهم، وتفصل بينهم وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه، وتحجزى كلا بعمله، وما كان عليه فى الدنيا من خير وشر.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾ ﴿١٠﴾ كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾

يخبر تعالى عن الكفار أنهم وقود النار، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢]، وليس ما أوتوه فى الدنيا من الأموال والأولاد بنافع لهم عند الله، ولا بمنجيتهم من عذابه وأليم عقابه، [بل] كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُغْنِيكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿لَا يَغْنُوكَ تَقْلُبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧] كما قال ههنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: بآيات الله وكذبوا رسله، وخالفوا كتابه، ولم يتفمعوا بوحىه إلى أنبيائه ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ أى: خطبها الذى تسجر به وتوقد به، كقوله: ﴿إِنكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. وروى ابن أبى حاتم عن أم الفضل أم عبد الله بن عباس قالت: بينما نحن بمكة قام رسول الله ﷺ من الليل، فنادى: «هل بلغت؟»، اللهم هل بلغت؟ « ثلاثاً، فقام عمر بن الخطاب فقال: نعم. ثم أصبح فقال النبى ﷺ: «ليظهرن الإسلام حتى يرد الكفر إلى مواطنه، ولتنخوضن البحار بالإسلام، وليأتين على الناس زمان يتعلمون القرآن ويُقرئونه، ثم يقولون: قد قرأنا وعلمنا، فمن هذا الذى هو خير منا؟! فهل فى أولئك من خير؟» قالوا: يا رسول الله، فمن أولئك؟ قال: «أولئك منكم وأولئك هم وقود النار». ورواه ابن مردويه بنحوه (٢).

وقوله: ﴿ كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ قال ابن عباس: كصنيع آل فرعون. وكذا روى عن عكرمة، ومجاهد، وغير واحد، ومنهم من يقول: كسنة آل فرعون، وكفعل آل فرعون وكشبه آل فرعون، والألفاظ متقاربة. والدأب - بالتسكين، والتحريك أيضاً كنهْر ونهر: هو الصنع والحال والشأن والأمر والعادة، كما يقال: لا يزال هذا دأبى ودأبك. والمعنى فى الآية: أن الكافرين لا تغنى

(١) رواه عبد الرزاق عن مالك، وهو فى الموطأ (ص ٧٩) .

(٢) إسناده ابن أبى حاتم إسناده صحيح .

عنهم الأموال ولا الأولاد، بل يهلكون ويعذبون، كما جرى لآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين للرسول فيما جاؤوا به من آيات الله وحججه. ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أى: شديد الأخذ باليم العذاب، لا يمتنع منه أحد، ولا يفوته شيء بل هو الفعال لما يريد، الذى قد غلب كل شيء، لا إله غيره، ولا رب سواه.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾
 ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ الْمُكَذِّبِينَ الَّتِي تَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرَىٰ كَافِرًا يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ لَكُ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾

يقول تعالى: قل يا محمد للكافرين: ﴿سُتَغْلَبُونَ﴾ أى: فى الدنيا، ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ أى: يوم القيامة ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾. وقد ذكر محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة؛ أن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ورجع إلى المدينة، جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع وقال: «يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً». فقالوا: يا محمد، لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفرأ من قريش كانوا أغمارأ لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا ! فأنزل الله فى [مثل] ذلك من قولهم: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ إلى قوله: ﴿لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾. وقد رواه ابن إسحاق أيضاً، عن ابن عباس فذكره؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أى: قد كان لكم - أيها اليهود القاتلون ما قتلتم - ﴿آيَةٌ﴾ أى: دلالة على أن الله معز دينه، وناصر رسوله، ومظهر كلمته، ومُعَلِّ امره ﴿فِي فِتْنَيْنِ﴾ أى: طائفتين ﴿الَّتِي تَقْتُلُونَ﴾ أى: للقتال ﴿فِتْنَةً تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم المسلمون، ﴿وَأَخْرَىٰ كَافِرًا﴾ وهم مشركو قريش يوم بدر.

وقوله: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ﴾ قال بعض العلماء - فيما حكاه ابن جرير: يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثلهم فى العدد رأى أعينهم، أى: جعل الله ذلك فيما رآه سبباً لنصرة الإسلام عليهم. وهذا لا إشكال عليه إلا من جهة واحدة، وهى أن المشركين بعثوا عمر بن سعد يومئذ قبل القتال يحذر لهم المسلمين، فأخبرهم بأنهم ثلاثمائة، يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا. وهكذا كان الأمر، كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، ثم لما وقع القتال أمدتهم الله بألف من خواص الملائكة وساداتهم. والقول الثانى: أن المعنى فى قوله: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ﴾ أى: ترى الفتن المسلمة الفتن الكافرة مثلهم، أى: ضعفهم فى العدد، ومع هذا نصرهم الله عليهم. وهذا لا إشكال فيه على ما روى عن ابن عباس أن المؤمنين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا، والمشركين كانوا ستمائة وستة وعشرين. وكان هذا القول مأخوذ من ظاهر هذه الآية، ولكنه خلاف المشهور عند أهل التواريخ والسير وأيام الناس، وخلاف المعروف عند الجمهور من أن المشركين كانوا ما بين تسعمائة إلى ألف كما رواه محمد بن إسحاق، وغيره . وعلى كل تقدير فقد كانوا ثلاثة أمثال المسلمين، وعلى هذا فيشكل هذا القول والله أعلم. لكن

وجه ابن جرير هذا، وجعله صحيحاً كما تقول: عندى ألف وأنا محتاج إلى مثليها، وتكون محتاجاً إلى ثلاثة آلاف، كذا قال. وعلى هذا فلا إشكال.

لكن بقى سؤال آخر وهو وارد على القولين، وهو أن يقال: ما الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى فى قصة بدر: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٤]؟ فالجواب: أن هذا كان فى حال، والآخر كان فى حال أخرى، كما روى عن ابن مسعود فى قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ التَّفَاتِ﴾ الآية، قال: هذا يوم بدر. وقد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يُضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلاً واحداً، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾. فعندما عاين كل الفريقين الآخر رأى المسلمون المشركين مثليهم، أى: أكثر منهم بالضعف، ليتوكلوا ويتوجهوا ويطلبوا الإعانة من ربهم، عز وجل. ورأى المشركون المؤمنين كذلك ليحصل لهم الربع والخوف والجزع والهلع، ثم لما حصل التصاف والتقى الفريقان قلل الله هؤلاء فى أعين هؤلاء، وهؤلاء فى أعين هؤلاء، ليقدم كل منهما على الآخر.

﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أى: ليفرق بين الحق والباطل، فيظهر كلمة الإيمان على الكفر والطغيان، ويعز المؤمنين ويذل الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وقال ههنا: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أى: إن فى ذلك لمعتبراً لمن له بصيرة وفهم، ليهتدى به إلى حكم الله وأفعاله، وقدره الجارى بنصر عباده المؤمنين فى هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

﴿زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِئَةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثُ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿قُلْ أَوْفَيْتُكُمْ بِعَهْدِي مِنْ ذَلِكَ لِيُذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ ﴿١٥﴾

يخبر تعالى عما زين للناس فى هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين، فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد، كما ثبت فى الصحيح أنه، عليه السلام، قال: ﴿مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضُرُّ عَلَى الرَّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ (١). فإما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد، فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه، كما وردت الأحاديث بالترغيب فى التزويج والاستكثار منه، ﴿وَأَنَّ خَيْرَ الْأُمَمِ كَانَ أَكْثَرُهَا نِسَاءً﴾ (٢)، وقوله، عليه السلام: ﴿الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِهَا

(١) رواه أحمد فى المسند (٥ / ٢٠٠، ٢١٠ حلى)، والبخارى (٩ / ١١٨ فتح) ومسلم (٢ / ٣٢٠) - كله من حديث أسامة بن زيد.
(٢) من حديث ابن عباس. رواه أحمد (٢٠٤٨، ٢١٧٩، ٣٥٠٧) والبخارى (٩ / ٩٩ فتح) والحاكم (٢ / ١٦٠).

المرأة الصالحة ، إن نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّهُ ، وَإِنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا حَفَظَتْهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ (١) ، وقوله في الحديث الآخر : «حُبِّبَ إِلَيَّ النِّسَاءُ وَالطَّيِّبُ ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» (٢).

محمد ﷺ ممن يعبد الله وحده لا شريك له ، فهذا محمود ممدوح ، كما ثبت في الحديث : «تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوُلُودَ ، فَإِنِّي مُكَاثِّرُ بِكُمْ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٣) . وحب المال - كذلك - تارة يكون للفخر والخيلاء والتكبر على الضعفاء ، والتجبر على الفقراء ، فهذا مذموم ، وتارة يكون للنفقة في القربات وصلة الأرحام والقربات ووجوه البر والطاعات ، فهذا ممدوح محسود عليه شرعاً . وقد اختلف المفسرون في مقدار القنطار على أقوال ، وحاصلها : أنه المال الجزيل ، كما قاله الضحاك وغيره ، وقيل : ألف دينار . وقيل : ألف ومائتا دينار . وقيل : اثنا عشر ألفاً . وقيل : أربعون ألفاً . وقيل : ستون ألفاً . وقيل غير ذلك .

وحب الخيل على ثلاثة أقسام ، تارة يكون ربطها أصحابها معدةً لسبيل الله ، متى احتاجوا إليها غزواً عليها ، فهؤلاء يثابون . وتارة تربط فخراً ونِوَاءً لأهل الإسلام ، فهذه على صاحبها وزر . وتارة للتعفف واقتناء نسلها ولم ينسَ حق الله في رقابها ، فهذه لصاحبها ستر ، كما سيأتي الحديث بذلك عند قوله تعالى : ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

وأما «الْمُسَوِّمَةُ» فمن ابن عباس : المسومة الراعية ، والطَّهْمَةُ الحسان ، وكذا روى عن مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وغيرهم . وقال مكحول : المسومة : الغرَّة والتحميل . وقيل غير ذلك . روى الإمام أحمد : عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : «لَيْسَ مِنْ فَرَسٍ عَرَبِيٍّ إِلَّا يُؤَدِّنُ لَهُ مَعَ كُلِّ فَجْرٍ يَدْعُو بِدَعْوَتَيْنِ ، يَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ خَوَّلْتَنِي مِنْ خَوَّلَتْنِي مِنْ بَنِي آدَمَ ، فَاجْعَلْنِي مِنْ أَحَبِّ مَالِهِ وَأَهْلِهِ إِلَيْهِ ، أَوْ أَحَبِّ أَهْلِهِ وَمَالِهِ إِلَيْهِ» (٤) .

وقوله : «وَالْأَنْعَامُ» يعني : الإبل والبقر والغنم «وَالْعَرَثُ» يعني : الأرض المتخذة للغراس

(١) لم أجده حديثاً واحداً بهذا اللفظ . ويظهر أن الحافظ ابن كثير كتبه من حفظه . فاوله «الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة» - مضى في ص ٣١٥ من هذا الجزء ، وأنه رواه أحمد ومسلم وغيرهما من حديث عبد الله ابن عمرو . وياقيه رواه أحمد (٧١٤٥) «عن أبي هريرة سئل رسول الله ﷺ : أي النساء خير؟ قال : الذي تسره إذا نظر ، وتطيعه إذا أمر ، ولا تخالفه فيما يكره ، في نفسها وماله» . ورواه النسائي (٢ / ٧٢) والحاكم (٢ / ١٦١ ، ١٦٢) ، وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي . وروى أبو داود (١٦٦٤) نحوه بمعناه ، ضمن حديث لابن عباس ، وذكر المنذرى أنه رواه ابن مردويه والحاكم وصححه على شرط الشيخين . وسيدكره الحافظ المؤلف عند تفسير (٣٤ ، ٣٥) من سورة التوبة .

(٢) من حديث أنس ، رواه أحمد (١٢٣٢٠ ، ١٣٠٨٩ ، ١٤٠٨٢) والنسائي (٢ / ١٥٦) والحاكم (٢ / ١٦٠) ، وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي .

(٣) جزء من حديث ، عن معقل بن يسار ، رواه أبو داود (٢٠٥٠) والنسائي (٢ / ٧١) والحاكم (٢ / ١٦٢) وصححه . ولكن ليس عندهم كلمة : «يوم القيامة» .

(٤) المسند (٥ / ١٧٠ حلى) والنسائي (٢ / ١٢١) . ورواه أحمد قبل ذلك مطولاً بإسناد آخر ، وكلا الإسنادين صحيح .

والزراعة. روى الإمام أحمد: عن سويد بن هبيرة، عن النبي ﷺ قال: «خَيْرُ مَالٍ امْرِئٍ لَهُ مُهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ ، أَوْ سِكَّةٌ مَأْبُورَةٌ» (١) ، المأْمُورَةُ الكثيرة النسل، والسِّكَّةُ: النخل المصطف، والمأْبُورَةُ: الملقحة.

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: إنما هذا زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَأَبِ﴾ أي: حسن المرجع والثواب. ﴿قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ﴾ أي: قل يا محمد للناس : أخبركم بخير مما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من زهرتها ونعيمها، الذي هو زائل لا محالة ؟ ثم أخبر عن ذلك، فقال: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: تنخرق بين جوانبها وأرجائها الأنهار، من أنواع الأشربة؛ من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها أبد الأبد، لا ييغون عنها حولا ، ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي: من الدُّنْس، والخبث، والأذى، والحیض، والنفاس، وغير ذلك مما يعتري نساء الدنيا ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: يحل عليهم رضوانه، فلا يَسْخَطُ عليهم بعده أبدا؛ ولهذا قال في الآية الأخرى التي في براءة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] أي: أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم، ثم قال: ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ﴾ أي: يعطى كُلا بحسب ما يستحقه من العطاء.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾
﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾

يصف تعالى عباده المتقين الذين وعدهم الثواب الجزيل. فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آتْنَا بِكَ وَكِتَابِكَ وَبِرَسُولِكَ﴾ ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي بإيماننا بك وبما شرعته لنا فاغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا من أمرنا بفضلك ورحمتك ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. ثم قال: ﴿الصَّابِرِينَ﴾ أي: في قيامهم بالطاعات وتركهم المحرمات ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ فيما أخبروا به من إيمانهم بما يلتزمون من الأعمال الشاقة ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ والقنوت: الطاعة والخضوع ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ أي: من أموالهم في جميع ما أمروا به من الطاعات، وصلة الأرحام والقربات، وسد الخَلَات، ومواساة ذوى الحاجات ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ دل على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار. وثبت في الصحيحين وغيرهما من المساند والسنن، من غير وجه، عن جماعة من الصحابة، أن رسول الله ﷺ قال: «يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ فيقول: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيهِ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَاسْتَجِيبَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟» الحديث (٢). وقد أفرد الحافظ

(١) المسند (١٥٩١٠) . وهو في مجمع الزوائد (٥/ ٢٥٨) ، وقال : « رواه أحمد والطبراني ، ورجاله ثقات ».

(٢) منها حديث أبي هريرة بهذا المعنى . رواه أحمد في المسند (٥٥٠٠ ، ٧٥٨٢ ، ٧٦١١ ، ٧٧٧٩) والبخاري (٣/ ٢٥ ، ٢٦ فتح) ومسلم (١/ ٢١٠) وغيرهم . وحديث ابن مسعود رواه أحمد (٣٦٧٣) . وانظر كتاب التوحيد لإمام الأئمة ابن خزيمة (ص ٨٣ - ٩٥) وشرحا للترمذي (٢ / ٣٠٧ - ٣٠٩) ومجمع الزوائد (١٥٣ / ١٠٠ - ١٥٥) .

الدارقطني في ذلك جزءاً على حدة ، فرواه من طرق متعددة .

وفي الصحيحين، عن عائشة قالت: من كل الليل قد أوتر رسول الله ﷺ، من أوله وأوسطه وآخره، فأنتهى وتره إلى السحر. وكان عبد الله بن عمر يصلي من الليل، ثم يقول: يا نافع، هل جاء السحر؟ فإذا قال: نعم، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح. رواه ابن أبي حاتم.

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْسِنَةٌ وَأَعْيُنٌ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ أَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِمَا كَفَرُوا وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَنِيًّا يَبْنُهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجَّكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾

شهد تعالى - وكفى به شهيدا، وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم، وأصدق القائلين - ﴿أَلَهُ إِلَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى: المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق، وأن الجميع عبيده وخلقه، والفقراء إليه، وهو الغنى عما سواه كما قال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ الآية [النساء: ١٦٦]. ثم قرن شهادة ملائكته وأولى العلم بشهادته فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ وهذه خصوصية عظيمة للعلماء فى هذا المقام ﴿قَانِمًا بِالْقِسْطِ﴾ منصوب على الحال، وهو فى جميع الأحوال كذلك ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تأكيد لما سبق ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذى لا يرام جنباه عظمة وكبرياء، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

وقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ إخبار من الله تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به فى كل حين، حتى ختموا بمحمد ﷺ، الذى سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ، فمن لقي الله بعد بعثة محمد ﷺ بدين على غير شريعته، فليس بمقبل. كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. وقال فى هذه الآية - مخبراً بانحصار الدين المتقبل عنده فى الإسلام: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾. وذكر ابن جرير أن ابن عباس قرأ: «شهد الله إنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قانما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم». أن الدين عند الله الإسلام» بفتح «أن الدين عند الله الإسلام» أى: شهد هو وملائكته وأولو العلم من البشر بأن الدين عند الله الإسلام. والجمهور قرؤوها بالكسر على الخبر، وكلا المعنيين صحيح. ولكن هذا على قول الجمهور أظهر والله أعلم (١).

(١) ولكن هذه القراءة المنسوبة لابن عباس لم يروها الطبرى بإسناده، بل صرح بأنها غير معلومة «برواية صحيحة ولا سقيمة» الطبرى (٦ / ٢٦٨).

ثم أخبر تعالى أن الذين أوتوا الكتاب الأول إنما اختلفوا بعد ما قامت عليهم الحجة ، بإرسال الرسل إليهم ، وإنزال الكتب عليهم ، فقال : ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَقِيَّتِهِمْ ﴾ أى : بغى بعضهم على بعض ، فاختلّفوا فى الحق لتحاسدهم وتباغضهم وتدابرههم ، فحمل بعضهم بغض البعض الآخر على مخالفته فى جميع أقواله وأفعاله ، وإن كانت حقا ، ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أى : من جحد ما أنزل الله فى كتابه ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ فإن الله سيجازيه على ذلك ، ويحاسبه على تكذيبه ، ويعاقبه على مخالفته كتابه .

ثم قال تعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ ﴾ أى : جادلوك فى التوحيد ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ أى : فقل أخلصت عبادتى لله وحده ، لا شريك له ولا ند له ولا ولد له ولا صاحبة له ، ﴿ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ على دينى ، يقولون كمقالتى ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ وَسَبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

ثم قال تعالى أمراً لعبده ورسوله محمد ﷺ أن يدعو إلى طريقته ودينه ، والدخول فى شرعه وما بعثه الله به - الكتابيين من الملتين والأمينين من المشركين فقال : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَاسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ أى : والله عليه حسابهم وإليه مرجعهم ومآبهم ، وهو الذى يهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وله الحكمة فى ذلك ، والحجة البالغة ، ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ ﴾ أى : هو عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة ، وهو الذى ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٣] ، وما ذاك إلا لحكمته ورحمته . وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته ﷺ ، إلى جميع الخلق ، كما هو معلوم من دينه ضرورة ، وكما دل عليه الكتاب والسنة فى غير ما آية وحديث ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، وقال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] وفى الصحيحين وغيرهما ، مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة ، أنه بعث كتبه ﷺ يدعو إلى الله ملوك الآفاق ، وطوائف بنى آدم من عربهم وعجمهم ، كتابيهم وأمميهم ، امتثالاً لأمر الله له بذلك . وعن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ أنه قال : ﴿ وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودَى وَلَا نَصْرَانَى ، وَمَاتَ وَلَمْ يُوْمِنْ بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ﴾ رواه مسلم .

وقال ﷺ : ﴿ بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً ﴾ . وروى الإمام أحمد عن أنس : أن غلاماً يهودياً كان يضع للنبى ﷺ وضوءه ويناوله نعليه ، فمرض ، فأتاه النبى ﷺ فدخل عليه وأبوه قاعد عند رأسه ، فقال له النبى

(١) من حديث رواه أحمد (٤ / ٤١٦ حلى) من حديث أبى موسى الأشعرى ، وآخر فى المسند أيضاً (٥ / ١٤٥) من حديث أبى ذر . ومعناه ثابت ضمن حديث جابر ، رواه مسلم (١ / ١٤٧) ، وآخر عن ابن عباس رواه أحمد (٢٢٥٦ ، ٢٧٤٢) .

ﷺ: « يَا فُلَانُ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَظَرَّ إِلَى أَبِيهِ، فَسَكَتَ أَبُوهُ، فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَظَرَّ إِلَى أَبِيهِ، فَقَالَ أَبُوهُ: أَطْعَمَ أَبَا الْقَاسِمِ، فَقَالَ الْغُلَامُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَخْرَجَهُ بِي مِنَ النَّارِ أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ (١) ». إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ ﴿١٢﴾

هذا ذم من الله تعالى لأهل الكتاب فيما ارتكبه من المآثم والمحارم فى تكذيبهم بآيات الله قديماً وحديثاً، التى بلغتهم إياها الرسل، استكباراً عليهم وعناداً لهم، وتعاضماً على الحق واستنكافاً عن اتباعه، ومع هذا قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلغوهم عن الله شرعه، بغير سبب ولا جريمة منهم إليهم، إلا لكونهم دعوهم إلى الحق ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ وهذا هو غاية الكبر، كما قال النبي ﷺ: «الْكِبَرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ» (٢). ولهذا لما أن تكبروا عن الحق واستكبروا على الخلق، قابلهم الله على ذلك بالذلة والصغار فى الدنيا، والعذاب المهين فى الآخرة، فقال: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى: موجه مهين ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فُرْقَانُ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَّقْدُودَاتٍ وَغَرَمٌ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ﴿١٥﴾

يقول تعالى منكرأ على اليهود والنصارى، المتمسكين فيما يزعمون بكتابتهم للذين بأيديهم، وهما التوراة والإنجيل، وإذا دُعُوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما، من اتباع محمد ﷺ - تولَّوا وهم معرضون عنهما . وهذا فى غاية ما يكون من ذمهم، والتنويه بذكرهم بالمخالفة والعناد. ثم قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَّقْدُودَاتٍ ﴾ أى: إنما حملهم وجبرأهم على مخالفة الحق افتراؤهم على الله فيما ادعوه لأنفسهم أنهم إنما يعذبون فى النار سبعة أيام، عن كل ألف سنة فى الدنيا يوماً. وقد تقدم تفسير ذلك

(١) المسند (٢٨٢١) والبخارى بنحوه (٣ / ١٧٦ فتح) .

(٢) رواه مسلم (١ / ٣٧) فى حديث عن ابن مسعود ، وبنحوه رواه أحمد (٣٦٤٤ ، ٣٧٨٩ ، ٤٠٥٨) والترمذى (٣ / ١٤٤ - ١٤٥) والحاكم (١ / ٢٦) ورواه أيضا أبو داود (٤٠٩٢) بنحوه ، فى حديث عن أبى هريرة . وقد مضى دون تخريج . و « غمط الناس » : الاستهانة بهم واستحقارهم .

فى سورة البقرة (١). ثم قال: ﴿وَعَرَّوْهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أى: ثبَّتهم على دينهم الباطل ما خدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلا أياما معدودات، وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم وافتعلوه، ولم ينزل الله به سلطانا قال الله تعالى متهددا لهم ومتوعدا: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَانِمْ لِيَوْمٍ لَا رَبَّ فِيهِ﴾ أى: كيف يكون حالهم وقد افتروا على الله وكذبوا رسله وقتلوا أنبياءه والعلماء من قومهم، الأمرين بالمعروف والنهي عن المنكر، والله تعالى سائلهم عن ذلك كله، ومحاسبهم عليه، ومجازيهم به؛ ولهذا قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَانِمْ لِيَوْمٍ لَا رَبَّ فِيهِ﴾: لا شك فى وقوعه وكونه ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦١﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِعِزِّ حِسَابِ ﴿٦٢﴾﴾

يقول تعالى: ﴿قُلِ﴾ يا محمد، معظما لربك ، وشاكراً له ومفوضاً إليه ومتوكلاً عليه: ﴿اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ﴾، أى: لك الملك كله ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾، أى: أنت المعطى، وأنت المانع، وأنت الذى ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن. وفى هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة؛ لأن الله حول النبوة من بنى إسرائيل إلى النبو العربى القرشى المكى الأُمى خاتم الأنبياء على الإطلاق، ورسول الله إلى جميع الثقيلين الإنس والجن، الذى جمع الله فيه محاسن من كان قبله، وخصه بخصائص لم يُعْطَهَا نبياً من الأنبياء ولا رسولا من الرسل، فى العلم بالله وشرعيته وإطلاعه على الغيوب الماضية والآتية، وكشفه عن حقائق الآخرة ونشر أُمته فى الآفاق، فى مشارق الأرض ومغاربها، وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان، والشرائع، فصلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين، ما تعاقب الليل والنهار. ولهذا قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ﴾ الآية، أى: أنت المتصرف فى خلقك، الفعال لما تريد، كما رد تبارك وتعالى على من يتحكم عليه فى أمره، حيث قال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. قال الله تعالى رداً عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ [نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ الآية [الزخرف: ٣٢] أى: نحن نتصرف فى خلقنا كما نريد، بلا مانع ولا مدافع، ولنا الحكمة والحجة فى ذلك، وهكذا نعطي النبوة لمن نريد، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ﴾ (٢) [الأنعام: ١٢٤] ، وقال تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

(١) يعنى عند تفسير الآية رقم : ٨٠ .

(٢) قراءة ابن كثير المكى وحفص عن عاصم : (رسالته) بالافراد . وقرأ باقى السبعة : (رسالاته) بالجمع ، وهى التى ثبتت فى المخطوطة فى هذا الموضع .

وقوله : ﴿تُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾ أى : تأخذ من طول هذا فتزيده فى قصر هذا. فيعتدلان ، ثم تأخذ من هذا فى هذا فيتفاوتان ، ثم يعتدلان . وهكذا فى فصول السنة : ربيعاً وصيفاً وخريفاً وشتاء .

وقوله : ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أى : تخرج الحبة من الزرع والزرع من الحبة ، والنخلة من النواة والنواة من النخلة ، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ، والدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة ، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أى : تعطى من شئت من المال ما لا يعبده ولا يقدر على إحصائه ، وتقرر على آخرين ، لما لك فى ذلك من الحكمة والإرادة والمشية .

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (١٨)

نهى الله ، تبارك وتعالى ، عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين ، وأن يتخذوهم أولياء يسرُّون إليهم بالمودة من دون المؤمنين ، ثم توعد على ذلك فقال : ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أى : ومن يرتكب نهى الله فى هذا فقد برئ من الله ، كما ، وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلْيُؤَدُّونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء : ١٤٤] ، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ﴾ إلى أن قال : ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المتحنة : ١] وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُمْ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة : ٥١] .

وقال - بعد ذكر موالاته المؤمنين للمؤمنين والمهاجرين والأنصار والأعراب : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَقَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال : ٧٣] .

وقوله : ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا﴾ أى : [إلا] من خاف فى بعض البلدان أو الأوقات من شرهم ، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته ، كما حكاه البخارى عن أبى الدرداء أنه قال : «إِنَّا لَنَكْشُرُ فِي وَجْهِهِ أَقْوَامٌ وَقُلُوبُنَا تَلْعَنُهُمْ» (١) . وقال ابن عباس : ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان ، وكذا قال أبو العالية ، وغيره . ويؤيد ما قاله قول الله تعالى : ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل : ١٠٦] . وقال البخارى : قال الحسن : التقية إلى يوم القيامة .

ثم قال تعالى : ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أى : يحذركم نقمته ، أى مخالفته وسطوته فى عذابه لمن والى أعداءه وعادى أولياءه . ثم قال تعالى : ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أى : إليه المرجع والمنقلب ،

(١) « نكشر » - يسكون الكاف وكسر الشين ، من الثلاثى : من انكشر - يسكون الشين - وهو : ظهور الأسنان للضحك . وكأشبهه : إذا ضحك فى وجهه وبأسطه . قاله ابن الأثير .

فيجازى كل عامل بعمله. روي ابن أبي حاتم: عن عمرو بن ميمون قال: قام فينا معاذ بن جبل فقال: يا بني أود، إني رسولُ رسولِ الله إليكم، تعلمون أن المعاد إلى الجنة أو إلى النار^(١).

﴿ قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُتُّوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾

يخبر تبارك وتعالى عباده أنه يعلم السرائر والضمائر والظواهر، وأنه لا يخفى عليه منهم خافية، بل علمه محيط بهم في سائر الأحوال والآتات واللحظات وجميع الاوقات، وبجميع ما في السموات والأرض، لا يغيب عنه مثقال ذرة، ولا أصغر من ذلك في جميع أقطار الأرض والبحار والجبال، وهو ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى: وقدرته نافذة في جميع ذلك.

وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته، وألا يرتكبوا ما نهى عنه وما ييغضه منهم، فإنه عالم بجميع أمورهم، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة، وإن أنظر من أنظر منهم، فإنه يهل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾، يعنى: يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير وشر كما قال تعالى: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، فما رأى من أعماله حسنا سره ذلك وأفرحه، وما رأى من قبيح ساءه وغازله، وود لو أنه تبرأ منه، وأن يكون بينهما أمد بعيد، كما يقول لشیطانہ الذی کان مقترناً به فی الدنیا، وهو الذی جرّاه علی فعل السوء: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْبَسُ الْقَرْنِ﴾ [الزخرف: ٣٨].

ثم قال تعالى - مؤكدا ومهددا ومتوعدا: ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أى: يخوفكم عقابه، ثم قال - مرجحاً لعباده لثلا يأسوا من رحمته ويقنطوا من لطفه: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾. قال الحسن البصرى: من رافته بهم حذرهم نفسه. وقال غيره: أى رحيم بخلقه، يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ودينه القويم، وأن يتبعوا رسوله الكريم.

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣٠) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣١﴾

هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدى والدين النبوى في جميع أقواله وأفعاله، كما

(١) في المطبوعة: «عن ميمون بن مهران»! وفي المخطوطة الأثرية: «عن عمرو بن ميمون بن مهران»!! وهو تخليط. فإن «ميمون بن مهران» ليس من «بنى أود». ثم هو لم يدرك معاذ. وابنه: «عمرو بن ميمون» أبعد من ذلك. والصواب ما أثبتناه: «عن عمرو بن ميمون» وهو الأودى، وهو تابعى كبير مخضرم، أدرك الجاهلية، ولم يلق النبی ﷺ، وروى عن كبار الصحابة.

ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» (١) ولهذا قال: «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ» أى: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض العلماء الحكماء: ليس الشأن أن تُحِبَّ، إنما الشأن أن تُحَبَّ .

ثم قال: «وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» أى: باتباعكم للرسول ﷺ يحصل لكم هذا كله ببركة سفارته. ثم قال آمراً لكل أحد من خاص وعام: «قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا» أى: خالفوا عن أمره «فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ» فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه يحب الله ويتقرب إليه، حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم الرسل، ورسول الله إلى جميع الثقليين الجن والإنس، الذي لو كان الأنبياء - بل المرسلون، بل أولو العزم منهم - في زمانه لما وسعهم إلا اتباعه، والدخول في طاعته، واتباع شريعته، كما سيأتى تقريره عند قوله: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ» الآية [آل عمران: ٨١] إن شاء الله تعالى.

﴿ ٢٢ ﴾ رِيع **﴿ ٢٤ ﴾** ذُرِّيَّةٌ مِمَّنْ بَعَثَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلَيْهِمُ

يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض، فاصطفى آدم، عليه السلام، خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأسكنه الجنة ثم أهبطه منها، لما له في ذلك من الحكمة. واصطفى نوحاً، عليه السلام، وجعله أول رسول إلى أهل الأرض، لما عبد الناس الأوثان، وأشركوا في دين الله ما لم ينزل به سلطاناً، وانتقم له لما طالت مدته بين ظهرائي قومه، يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً، سرا وجهاراً، فلم يزداهم ذلك إلا فراراً، فدعا عليهم، فأغرقهم الله عن آخرهم، ولم يَنْجُ منهم إلا من اتبعه على دينه الذي بعثه الله به. واصطفى آل إبراهيم، ومنهم: سيد البشر وخاتم الأنبياء على الإطلاق محمد ﷺ، وآل عمران، والمراد بعمران هذا: هو والد مريم بنت عمران، أم عيسى ابن مريم، عليهم السلام. فعيى، عليه السلام، من ذرية إبراهيم، كما سيأتى بيانه في سورة الأنعام، إن شاء الله وبه الثقة.

﴿ ٢٥ ﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿ ٢٦ ﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ ٢٧ ﴾

امراة عمران هذه [هى] أم مريم عليها السلام ، قال ابن إسحاق : كانت امرأة لا تحمل ، فاشتته الولد ، فدعت الله تعالى أن يهبها ولدا ، فاستجاب الله دعاءها ، فلما تحققت الحمل نذرت أن يكون ﴿مُحَرَّرًا﴾ أى : خالصا مفرغا للعبادة ، ولخدمة بيت المقدس ، فقالت : ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ، أى : السميع لدعائى ، العليم بنبئى ، ولم تكن تعلم ما فى بطنها أذكرا أم أنثى ؟ ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ . قرئ برفع التاء على أنها تاء المتكلم ، وأن ذلك من تمام قولها ، وقرئ بتسكين التاء على أنه من قول الله عز وجل ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ أى : فى القوة والجلد فى العبادة وخدمة المسجد الأقصى ﴿وَأَنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ فيه دليل على جواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق ؛ لأنه شرع من قبلنا ، وقد حكى مقررًا ، وبذلك ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ حيث قال : «وُلِدَ لِي اللَّيْلَةُ وَلَدَ سَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ» . أخرجاه (١) .

وقوله إخبارًا عن أم مريم أنها قالت : ﴿وَأَنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ .

أى : عوذتها بالله ، عز وجل ، من شر الشيطان ، وعوذت ذريتها ، وهو ولدها عيسى ، عليه السلام . فاستجاب الله لها ذلك كما روى الشيخان عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا مَسَّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ ، فَيَسْتَهْلُ صَارِخًا مِنْ مَسِّهِ إِيَّاهُ ، إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا» . ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : ﴿وَأَنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٢) .

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنَزَّيْمُ أَنَّ لَكَ هَذَا قَالَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

يخبر ربنا أنه تقبلها من أمها نذيرة ، وأنه «أَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا» أى : جعلها شكلًا مليحًا ومنظرًا بهيجًا ، ويسر لها أسباب القبول ، وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم العلم والخير والدين . فلهذا قال : ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [وفى قراءة : ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾] بتشديد الفاء ونصب زكريا على المفعولية ، أى جعله كافلا لها (٣) . قال ابن إسحاق : وما ذاك إلا أنها كانت يتيمة . وإنما قدر الله كون زكريا كافلا لسعادتها ، لتقتبس منه علما جما نافعا وعملا صالحا ؛ ولأنه كان زوج خالتها ، على ما ذكره ابن إسحاق وابن جرير . وقيل : زوج أختها ، كما ورد فى الصحيح :

(١) أى البخارى ومسلم . وهذه الكلمة جزء من حديث أنس ، فى صحيح مسلم (٢ / ٢١٣) . والحديث رواه البخارى أيضا (٣ / ١٣٨ - ١٤٠) ، ولكن ليس فى روايته هذه الكلمة . ونص الحافظ فى الفتح على أنها زيادة عند مسلم .

(٢) البخارى (٨ / ١٥٩ فتح) ومسلم (٢ / ٢٢٤) والمسند (٧١٨٢ ، ٧٦٩٤) والطبرى (٦٨٨٤ - ٦٨٩٢) بنحوه .

(٣) التشديد قراءة الكوفيين من السبعة ، وقرأ باقى السبعة بتخفيف الفاء ، فيكون «زكريا» فاعلا مرفوعا . والزيادة هنا من المخطوطة . وهى تدل على أن الحافظ ابن كثير ذكرها بقراءة التخفيف ، ثم حكى قراءة التشديد .

﴿فَإِذَا بَيَّحَىٰ وَعِيسَىٰ، وَهَمَّا ابْنَا الْخَالَةَ﴾، وقد يُطلق على ما ذكره ابن إسحاق ذلك أيضاً توسعاً، فعلى هذا كانت في حضنة خالتها.

ثم أخبر تعالى عن سيادتها وجلالتها في محل عبادتها، فقال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير وغيرهم يعنى وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف. وفيه دلالة على كرامات الأولياء. وفي السنة لهذا نظائر كثيرة. فإذا رأى زكريا هذا عندها ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّنِي لَكَ هَذَا﴾ أى يقول: من أين لك هذا؟ ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ﴿٢٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٣٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَادَّكُرَ رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٣١﴾

لما رأى زكريا، عليه السلام، أن الله تعالى يرزق مريم، عليها السلام، فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء - طمع حينئذ في الولد، وكان شيخا كبيرا قد ضعف ووهم منه العظم، واشتعل رأسه شيبا، وكانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقرا، لكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه نداء خفيا، وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾ أى: من عندك ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أى: ولدا صالحا ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾. قال الله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ أى: خاطبته الملائكة شفاها خطاباً أسمعت، وهو قائم يصلى في محراب عبادته، ومحل خلوته، ومجلس مناجاته، وصلاته. ثم أخبر تعالى عما بشرته به الملائكة: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾، أى: بولد يوجد لك من صلبك اسمه «يحيى».

وقوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ عن ابن عباس والحسن وقتادة وعكرمة ومجاهد، وغيرهم: أى: بعيسى ابن مريم (١).

وقوله: ﴿وَسَيِّدًا﴾: قال أبو العالية، وقتادة، وسعيد بن جبير، وغيرهم: الحكيم، وقال قتادة: سيداً في العلم والعبادة. وقال ابن عباس، والثوري، والضحاك: السيد الحكيم المتقى. وقال مجاهد وغيره: هو الكريم على الله عز وجل وقوله: ﴿وَحَصُورًا﴾ روى عن ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وغيرهم أنهم قالوا: هو الذى لا يأتى

(١) يعنى أن عيسى خلق بكلمة من الله، قال له: «كن» فكان. كما سيأتى فى تفسير ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾، ص ٣٧٢. وقد أحال الحافظ ابن كثير هناك على هذا الموضع، ولكنه لم يذكره هنا صراحة، كما ترى.

النساء (١). وقد قال القاضى عياض فى كتابه الشفاء: اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان ﴿حَصُورًا﴾ ليس كما قاله بعضهم: إنه كان هيوأ، أو لا ذَكَرَ له، بل قد أنكر هذا حُذَّاقُ المفسرين ونقاد العلماء، وقالوا: هذه نقيصة وعيب ولا تليق بالأنبياء، عليهم السلام، وإنما معناه: أنه معصوم من الذنوب، أى لا يأتىها كأنه حصور عنها، وقيل: مانعا نفسه من الشهوات. وقيل: ليست له شهوة فى النساء. وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل فى كونها موجودة ثم يمنعها: إما بمجاهدة كعيسى أو بكفاية من الله، عز وجل، كيحيى، عليه السلام. ثم هى فى حق من قَدَّرَ عليها وقام بالواجب فيها ولم تشغله عن ربه درجة عليا، وهى درجة نبينا ﷺ الذى لم يشغله كثرتهم عن عبادة ربه، بل زاده ذلك عبادة، بتحصيلتهن وقيامه عليهن، واكتسابه لهن، وهدايته إياهن. بل قد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو، وإن كانت من حظوظ دنيا غيره، فقال: «حَبَّبَ إِلَىَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ». هذا لفظه. والمقصود: أن مدح يحيى بأنه حصور ليس أنه لا يأتى النساء، بل معناه كما قاله هو وغيره: أنه حصور من الفواحش والقاذورات، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإيلادهن، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال: ﴿هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ كانه قال: ولداً له ذرية ونسل وعقب، والله سبحانه وتعالى أعلم.

قوله: ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ هذه بشارة ثانية بنبوته يحيى بعد البشارة بولادته، وهى أعلى من الأولى كقوله لأم موسى: ﴿إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصاص: ٧] فلما تحققت زكريا، عليه السلام، هذه البشارة أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ﴾ أى الملك: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أى: هكذا أمر الله عظيم، لا يعجزه شئ ولا يتعاطمه أمر ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أى: علامة أستدل بها على وجود الولد منى ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تَكَلَّمَ النَّاسُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ أى: إشارة لا تستطيع النطق، مع أنك سوى صحيح، كما فى قوله: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠] ثم أمر بكثرة الذكر والشكر والتسبيح فى هذه الحال، فقال: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّعْثِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾. وسيأتى طرف آخر فى بسط هذا المقام فى أول سورة مريم، إن شاء الله تعالى.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٤٤﴾ يَمْرُؤُا أَقْنِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٥﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَتَمَهُمُ إِلَهُهُمُ يَكْفُلُ مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿٤٦﴾

هذا إخبار من الله تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم، عليها السلام، عن أمر الله لهم

(١) ثم ذكر الحافظ ابن كثير هنا - نقلا عن ابن أبى حاتم - حديثا مرفوعا فى هذا المعنى، وصفه بأنه «غريب جدا». ثم نقل مثله موقوفا على عبد الله بن عمرو بن العاص. ثم قال: «فهذا موقوف»، وهو أصح إسنادا من المرفوع، بل وفى صحة المرفوع نظرا. هذا ما ثبت فى المخطوطة. وفى المطبوعة زيادة رواية مرفوعة عن عبد الله بن عمرو، من تفسير ابن المنذر، وأخرى مرفوعة أيضا، من رواية ابن أبى حاتم، من حديث أبى هريرة.

بذلك : أن الله قد اصطفاه ، أى : اختارها لكثرة عبادتها وزهادتها وشرفها وطهرها من الأكدار والوسواس ، واصطفاه ثانياً مرة بعد مرة لجلالاتها على نساء العالمين . روى عبد الرزاق : عن سعيد بن المسيب فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ . قال : كان أبو هريرة يحدث عن رسول الله ﷺ : « خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبَنِ الْإِبِلَ نِسَاءُ قُرَيْشٍ ، أَحْنَاهُ عَلَى وَلَدٍ فِي صَغَرِهِ ، وَأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ ، وَلَمْ تَرَكَبْ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ بَعِيراً قَطُّ » (١) . وعن على ابن أبى طالب : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ » . أخرجه فى الصحيحين (٢) . وروى الترمذى : عن أنس ، أن رسول الله ﷺ قال : « حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ، وَأَسِيَّةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ » تفرد به الترمذى وصححه (٣) . وروى البخارى عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : « كَمَلُ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ ، وَلَمْ يَكْمَلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَسِيَّةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ » . ورواه الجماعة إلا أبى داود ، واللفظ للبخارى (٤) .

ثم أخبر تعالى عن الملائكة : أنهم أمروها بكثرة العبادة والخشوع والخضوع والسجود والركوع والدؤوب فى العمل ، لما يريد الله بها من الأمر الذى قدره الله وقضاه ، مما فيه محنة لها ورفعته فى الدارين ، بما أظهر الله تعالى فيها من قدرته العظيمة ، حيث خلق منها ولداً من غير أب ، فقال تعالى : ﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ . أما القنوت : فهو الطاعة فى خشوع ، كما قال تعالى : ﴿ بَلِّغْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾ [البقرة : ١١٦] .

ثم قال تعالى لرسوله - بعدما أطلعه على جليلة الأمر : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ أى : نقصه عليك ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ أى : ما كنت عندهم يا محمد فتخبر عنهم معانته عما جرى ، بل أطلعك الله على ذلك كأنك كنت حاضراً وشاهداً لما كان من أمرهم حين اقترحوا فى شأن مريم أيهم يكفلها ، وذلك لرغبتهم فى الأجر .

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿ ٤٦ ﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿ ٤٧ ﴾

- (١) ورواه أحمد (٧٦٣٧) عن عبد الرزاق ، بقصة فى أوله ، ولم يذكر الآية . وكذلك رواه مسلم (٢ / ٢٧٠) من طريق عبد الرزاق . وقوله : « ولم تركب مريم ... » - هو من كلام أبى هريرة ، لا من الحديث المرفوع ، كما بين ذلك صريحاً فى رواية أحمد ورواية أخرى لمسلم قبل هذه . وانظر تفسير الطبرى (٧٠٢٨ ، ٧٠٢٩) .
- (٢) ورواه أحمد (٦٤٠ ، ٩٣٨) والطبرى (٧٠٢٦) . وفصلنا تخريجها فيهما .
- (٣) ورواه أيضاً أحمد (١٢٤١٨) والحاكم (٣ / ١٩٧ - ١٩٨) .
- (٤) البخارى (٣٠ / ٣٢١ فتح) ، ورواه الطبرى (٧٠٣١) بزيادة خديجة وفاطمة ، ولم يذكر عائشة .

هذه بشارة من الملائكة لمريم، عليها السلام، بأن سيوجد منها ولد عظيم، له شأن كبير. قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ أى: بولد يكون وجوده بكلمة من الله، أى: بقوله له: «كن» فيكون، وهذا تفسير قوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩] كما ذكره الجمهور على ما سبق بيانه (١). «اسمهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ» أى يكون مشهوراً بهذا فى الدنيا، يعرفه المؤمنون بذلك. وسمى المسيح، قال بعض السلف: لكثرة سياحته. وقيل: لأنه كان مسيح القدمين: لا أخمص لهما (٢). وقيل: لأنه كان إذا مسح أحداً من ذى العاهات برئ بإذن الله تعالى. وقوله: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ نسبة له إلى أمه، حيث لا أب له ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أى: له وجاهة ومكانة عند الله فى الدنيا، بما يوحى الله إليه من الشريعة، وينزله عليه من الكتاب، وغير ذلك مما منحه به. وفى الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه، فيقبل منه، أسوة بإخوانه من أولى العزم، صلوات الله عليهم.

وقوله: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أى: يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فى حال صغره، معجزة وآية، وحال كهولته حين يوحى الله إليه [بذلك] ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أى: فى قوله وعمله، له علم صحيح وعمل صالح. فلما سمعت بشارة الملائكة لها بذلك، عن الله، عز وجل، قالت فى مناجاتها: ﴿رَبِّ أُنْثَىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾، تقول: كيف يوجد هذا الولد منى وأنا لست بذات زوج ولا من عزمى أن أتزوج، ولست بغيا؟! حاش لله. فقال لها الملك - عن الله، عز وجل، فى جواب هذا السؤال: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أى: هكذا أمر الله عظيم، لا يعجزه شيء. وصرح هاهنا بقوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ ولم يقل: «يفعل» كما فى قصة زكريا، بل نص هاهنا على أنه يخلق، لئلا يبقى لمبطل شبهة، وأكد ذلك بقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أى: فلا يتأخر شيئاً، بل يوجد عقيب الأمر بلا مهلة، كقوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، أى: إنما نأمر مرة [واحدة] لا مثنوية فيها، فيكون ذلك الشيء سريعاً كلمح بالبصر.

﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾ (٣) ﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُم مِّنَ الطَّيْرِ طَيْرًا فَافْتَحُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُزْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْقَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُتْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأُحْدِلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ رَفِيعُ دَرَجَاتٍ﴾ ﴿وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ ﴿٥١﴾

(١) لم يصرح ابن كثير بذلك هناك، ص ٣٦٩، كما بينا من قبل.

(٢) «الأخمص» - بفتح الهمزة والميم بينهما خاء معجمة: باطن القدم وما رق من أسفلها وتحافى عن الأرض.

(٣) قرأ نافع وعاصم: «ويُعَلِّمُهُ» بالياء، وهى قراءة حفص أحد رواة عاصم. وقرأ باقى السبعة: «ونعلمه» بالنون، وهى الثابتة فى المخطوطة الأرمينية.

يقول تعالى - مخبراً عن تمام بشارة الملائكة لمريم بابنها عيسى ، عليه السلام - أن الله يعلمه **«الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ»** . الظاهر أن المراد بالكتاب هاهنا : الكتابة . والحكمة تقدم تفسيرها فى سورة البقرة (١) . **«وَالْتَوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ»** ، فالتوراة: هو الكتاب الذى أنزله الله على موسى بن عمران . والإنجيل: الذى أنزل الله على عيسى عليهما السلام ، وقد كان عيسى عليه السلام ، يحفظ هذا وهذا .

وقوله : **«وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ»** [أى : يجعله رسولاً إلى بنى إسرائيل] (٢) ، قائلاً لهم : **«أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ»** وكذلك كان يفعل : يصور من الطين شكل طير ، ثم ينفخ فيه ، فيطير عياناً بإذن الله ، عز وجل ، الذى جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله .

«وَأُتِرَىٰ الْأَكْمَهُ» قيل : هو الذى يبصر نهاراً ولا يبصر ليلاً . وقيل بالعكس . وقيل : هو الذى يولد أعمى . وهو أشبه ؛ لأنه أبلغ فى المعجزة وأقوى فى التحدى **«وَالْأَبْرَصَ»** معروف . **«وَأُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ»** قال كثير من العلماء : بعث الله كل نبي من الأنبياء بمعجزة تناسب أهل زمانه ، فكان الغالب على زمان موسى ، عليه السلام ، السحر وتعظيم السحرة . فبعثه الله بمعجزات بَهَرَتِ الأبصار وحيرت كل سَحَّار ، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام ، وصاروا من الأبرار . وأما عيسى ، عليه السلام ، فبعث فى زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة ، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه ، إلا أن يكون مؤيداً من الذى شرع الشريعة . فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجمادات ؟ أو على مداواة الأكمه ، والأبرص ؟ وبعث من هو فى قبره رهين إلى يوم التناد ؟ وكذلك محمد ﷺ بعثه فى زمن الفصحاء والبلغاء ونحارير الشعراء (٣) ، فاتاهم بكتاب من الله ، عز وجل ، لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة من مثله - لم يستطيعوا أبداً ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، وما ذاك إلا لأن كلام الرب لا يشبهه كلام الخلق أبداً .

وقوله : **«وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ»** أى : أخبركم بما أكل أحدكم الآن ، وما هو مدخر له فى بيته لغده **«إِنَّ فِي ذَلِكَ»** أى : فى ذلك كله **«لَايَةً لَّكُمْ»** أى : على صدقى فيما جئتكم به **«إِنْ كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيِّ مِنَ التَّوْرَةِ»** أى : مقررّاً لها ومثبتاً **«وَلَأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ»** ، فيه دلالة على أن عيسى ، عليه السلام ، نسخ بعض شريعة التوراة ، وهو الصحيح من القولين ، ومن العلماء من قال : لم ينسخ منها شيئاً ، وإنما أحلّ لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه فأخطؤوا ، فكشف لهم عن المغطى فى ذلك ، كما قال فى الآية الأخرى : **«وَلَأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي**

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٩) والآية (١٥١) . ويتعين أن تكون الحكمة هنا بمعنى الفهم فى الدين .

(٢) الزيادة من المخطوطة الأهرمية . وحذفها خطأ .

(٣) « النحارير » بالنون والحاء المهملة وراءين : جمع « نحير » بكسر النون . وهو الحاذق الماهر العاقل المتقن البصير فى كل شئ . وفى المطبوعة بدلها : « تجاريد » ! وهو غاية فى السخف . والصواب من المخطوطة .

تَخْتَلِفُونَ فِيهِ [الزخرف : ٦٣] والله أعلم .

ثم قال : ﴿ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أى : بحجة ودلالة على صدقى فيما أقول لكم ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ أى : أنا وأنتم سواء فى العبودية له والخضوع والاستكانة إليه ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ .

رَبِّع ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿ ٥٢ ﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿ ٥٣ ﴾ وَمَكْرُؤًا مِمَّا كَرِهَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمُنْكَرِينَ ﴿ ٥٤ ﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى ﴾ أى : استشعر منهم التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال قال : ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ ، قال مجاهد : أى من يتبعنى إلى الله ؟ والظاهر أنه أراد : من أنصارى فى الدعوة إلى الله . كما كان النبی ﷺ يقول فى مواسم الحج ، قبل أن يهاجر : « مَنْ رَجُلٌ يُؤْوِينِي حَتَّى أَبْلُغَ كَلَامَ رَبِّي ، فَإِنَّ قَرِيضًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أَبْلُغَ كَلَامَ رَبِّي » حتى وجد الأنصار فأووه ونصروه ، وهاجر إليهم فواسوه ، ومنعوه من الأسود والأحمر . وهكذا عيسى ابن مريم ، انتدب له طائفة من بنى إسرائيل فآمنوا به وآزره ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه . ولهذا قال تعالى مخبراً عنهم : ﴿ قَالَ الْخَوَارِثُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ : الخواريون ، قيل : كانوا قَصَّارِينَ وقيل : سموا بذلك لياض ثيابهم ، وقيل : صيادين . والصحيح أن الخواري الناصر ، كما ثبت فى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ لما ندب الناس يوم الأحزاب ، فانتدب الزبير ، ثم ندهم فانتدب الزبير ، فقال : « إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارَى وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرِ » (١) . وروى ابن أبى حاتم : عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ، قال : مع أمة محمد ﷺ . وإسناده جيد .

ثم قال تعالى مخبراً عن بنى إسرائيل فيما هموا به من الفتك بعيسى ، عليه السلام ، وإرادته بالسوء والصلب ، حين ثمالوا عليه وَوَشَوْا به إلى ملك ذلك الزمان ، وكان كافراً ، [فَأَنهَوْا إليه] أن هاهنا رجلا يضل الناس ويصدهم عن طاعة الملك ، وَيُفْسِدُ الرعايا (٢) ، ويفرق بين الأب وابنه ، إلى غير ذلك مما تقلدوه فى رقابهم ورموه به من الكذب ، وأنه ولد زانية ! حتى استثاروا غضب الملك ، فبعث فى طلبه من يأخذه ويصلبه وَيُكَلِّلُ به ، فلما أحاطوا بمنزله وظنوا أنهم قد ظفروا به ، نجاه الله من بينهم ، ورفع من رَوْزَتِهِ ذلك البيت إلى السماء ، وألقى الله شبهه على رجل كان عنده فى المنزل ، فلما دخل أولئك اعتقدوه فى ظلمة الليل عيسى ، فأخذوه

(١) انظر المسند (٦٨١ ، ٧٩٩) من حديث على ، و (١٤٤٢٧ ، ١٤٦٨٧) من حديث جابر وكذلك البخارى من حديثه (١٣ / ٢٠٣ - ٢٠٤ فتح) .

(٢) يفسد الرعايا : بتشديد النون المكسورة : يفرقهم ويجعلهم أفعالا ، أى : فرقا مختلفين . وفى المطبوعة : « يفسد » بالسين بدل النون .

وأهانوه [وصلبوه] ، ووضعوا على رأسه الشوك . وكان هذا من مكر الله بهم ، فإنه نجى نبيه ورفعهم من بين أظهرهم ، وتركهم فى ضلالهم يعمهون ، يعتقدون أنهم قد ظفروا بطلبتهم ، وأسكن الله فى قلوبهم قسوة وعنادا للحق ملازما لهم ، وأورثهم ذلة لا تفارقهم إلى يوم التناد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَكُرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ .

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ارْفُاعُكَ إِلَىَّ وَمَطِّهْرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾

اختلف المفسرون فى قوله تعالى : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ فقال قتادة وغيره : هذا من المقدم المؤخر ، وتقديره : إني رافعك إلى ومتوفيك ، يعنى بعد ذلك . وقال ابن عباس : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ أى : بميتك . قال ابن إسحاق : والنصارى يزعمون أن الله توفاه سبع ساعات ثم أحياه ! وقال مطر الوراق : إني متوفيك من الدنيا وليس بوفاة موت ، وكذا قال ابن جريج : تَوَفَّيْهُ هو رفعه .

وقال الاكثرون : المراد بالوفاة هاهنا : النوم ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾ [الانعام : ٦٠] ، وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الزمر : ٤٢] ، وكان رسول الله ﷺ يقول - إذا قام من النوم - : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ » (١) ، وقال الله تعالى : ﴿ وَبُكَرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا . وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَلْأَلْبُومِينَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ١٥٦ - ١٥٩] والضمير فى قوله : ﴿ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ عائد على عيسى ، عليه السلام ، أى : وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننَّ بعيسى [قبل موت عيسى] ، وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة ، على ما سيأتى بيانه (٢) ، فحيثنذ يؤمن به أهل الكتاب كلهم ؛ لأنه يضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام (٣) .

(١) من حديث رواه البخارى (١١ / ٩٦ ، ٩٧ فتح) ، من حديث حذيفة .

(٢) عند تفسير الآية (١٥٩) من سورة النساء .

(٣) وهو القول الصحيح المتعين . وصححه الطبرى ، وقال : « معنى ذلك : إني قابضك من الأرض ورافعك إلى . لتواتر الأخبار عن رسول الله ﷺ أن قال : ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الدجال ، ثم يمكث فى الأرض مدة - ذكرها - اختلفت الرواية فى مبلغها - ثم يموت فيصلب عليه المسلمون ويدفونه » . ثم قال : « ومعلوم أنه لو كان قد أماته الله عز وجل ، لم يكن بالذى يميته مينة أخرى ، فيجمع عليه ميتتين » . انظر الطبرى (٦ / ٤٥٨ ، ٤٦٠) (طبعنا بدار المعارف) .

وقوله تعالى: ﴿وَمُطَهَّرَكُمْ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: برفعى إليك إلى السماء ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، وهكذا وقع؛ فإن المسيح، عليه السلام، لما رفعه الله إلى السماء تفرقت أصحابه شيعاً بعده؛ فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته، ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله، وآخرون قالوا: هو الله. وآخرون قالوا: هو ثالث ثلاثة. وقد حكى الله مقالاتهم فى القرآن، ورد على كل فريق، فاستمروا كذلك كذلك قريباً من ثلاثمائة سنة، ثم نبع لهم ملك من ملوك اليونان، يقال له: قسطنطين، فدخل فى دين النصرانية، قيل: حيلة ليفسده، فإنه كان فيلسوفاً، وقيل: جهلاً منه، إلا أنه بدل لهم دين المسيح وحرفه، وزاد فيه ونقص منه، ووضعت له القوانين والأمانة الكبيرة - التى هى الخيانة الحقة - وأحل فى زمانه لحم الخنزير، وصلوا [له] إلى المشرق، وصوروا له الكنائس، وزادوا فى صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه، فيما يزعمون. وصار دين المسيح دين قسطنطين، إلا أنه بنى لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والديارات ما يزيد على اثنى عشر ألف معبد، وبنى المدينة المنسوبة إليه، واتبعه الطائفة الملكية منهم. وهم فى هذا كله قاهرون لليهود، أيديهم عليهم؛ لأنهم أقرب إلى الحق منهم، وإن كان الجميع كفاراً، عليهم لعائن الله.

فلما بعث الله محمداً ﷺ، فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق - كانوا هم أتباع كل نبي على وجه الأرض - إذ قد صدقوا الرسول النبى الأمى، خاتم الرسل، وسيد ولد آدم، الذى دعاهم إلى التصديق بجميع الحق، فكانوا أولى بكل نبي من أمته، الذين يزعمون أنهم على ملته وطريقته، مع ما قد حرقوا وبدلوا.

ثم لو لم يكن شئ من ذلك لكان قد نسخ الله شريعة جميع الرسل بما بعث به محمداً ﷺ من الدين الحق، الذى لا يغير ولا يبدل إلى قيام الساعة، ولا يزال قائماً منصوراً ظاهراً على كل دين. فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها، واحتازوا جميع الممالك، ودانت لهم جميع الدول، وكسروا كسرى، وقصروا قيصر (١)، وسلبوهما كنوزهما، وأنفقت فى سبيل الله، كما أخبرهم بذلك نبيهم عن ربهم، عز وجل، فى قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ الآية [النور: ٥٥] ولهذا لما كانوا هم المؤمنون بالمسيح حقاً سلبوا النصراني بلاد الشام وأجلوهم إلى الروم، فلهجوا إلى مدينتهم القسطنطينية، ولا يزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة. وقد أخبر الصادق المصدوق أمته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية، ويستفيؤون ما فيها من الأموال، ويقتلون الروم مقتلة عظيمة جداً، لم ير الناس مثلاً ولا يرون بعدها نظيرها (٢)، وقد جمعت فى هذا جزءاً مفرداً. ولهذا

(١) يريد: قسروه، أى غلبوه وقهروه، من «القسر»، فأبدل السين صاداً، وهما يتبادلان فى كثير من الكلام. انظر: اللسان (٦ / ٤٠٩).

(٢) فتح القسطنطينية المبشر به فى الحديث - سيكون فى مستقبل قريب أو بعيد، يعلمه الله عز وجل. وهو الفتح =

قال تعالى: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ. فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذُّهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾، وكذلك فعل تعالى بمن كفر بالمسيح من اليهود، أو غلا فيه أو أطراه من النصارى؛ عَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَأَخَذَ الْأَمْوَالَ وَإِزَالَهَ الْأَيْدِيَ عَنِ الْمَمَالِكِ، وَفِي الدَّارِ الْآخِرَةِ عَذَابُهُمْ أَشَدُّ وَأَشَقُّ ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤]. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾، أَيْ: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فِي الدُّنْيَا بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْجَنَّاتِ الْعَالِيَاتِ ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ أَيْ: هَذَا الَّذِي قَصَصْنَاهُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ فِي أَمْرِ عِيسَى وَمَبْدَأِ مِيلَادِهِ وَكَيْفِيَةِ أَمْرِهِ، هُوَ مِمَّا قَالَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَأَوْحَاهُ إِلَيْكَ وَأَنْزَلَهُ عَلَيْكَ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، فَلَا مَرِيَّةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ مَرْيَمَ: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ. مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٤، ٣٥] وَهَاهُنَا قَالَ تَعَالَى:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾
 ﴿٥١﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٥٢﴾ فَمَنْ حَاجَبَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ أَمْرِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥٤﴾ فَإِنْ قَوْلُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ﴾ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى حَيْثُ خَلَقَهُ مِنْ غَيْرِ أَبِي ﴿كَمَثَلِ آدَمَ﴾ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَهُ مِنْ غَيْرِ أَبِي وَلَا أُمٍّ، بَلْ ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وَالَّذِي خَلَقَ آدَمَ قَادِرٌ عَلَى خَلْقِ عِيسَى بِالطَّرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخِرَى، وَإِنْ جَازَ ادِّعَاءُ الْبَنُوَّةِ فِي عِيسَى بِكَوْنِهِ مَخْلُوقًا مِنْ غَيْرِ أَبِي، فَجَوَّازَ ذَلِكَ فِي آدَمَ بِالطَّرِيقِ الْأَوَّلَى، وَمَعْلُومٌ بِالِاتِّفَاقِ أَنَّ ذَلِكَ بَاطِلٌ، فَدَعَا فِي عِيسَى أَشَدَّ بَطْلَانًا وَأَظْهَرَ فُسَادًا. وَلَكِنَّ الرَّبَّ، عَزَّ وَجَلَّ، أَرَادَ أَنْ يَظْهَرَ قُدْرَتَهُ لَخَلْقِهِ، حِينَ خَلَقَ آدَمَ لَا مِنْ ذَكَرٍ وَلَا مِنْ أُنْثَى؛ وَخَلَقَ حَوَاءَ مِنْ ذَكَرٍ بِلَا أُنْثَى، وَخَلَقَ عِيسَى مِنْ أُنْثَى بِلَا ذَكَرٍ كَمَا خَلَقَ بَقِيَّةَ الْبَرِيَّةِ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ مَرْيَمَ: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١]، وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أَيْ: هَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْحَقُّ فِي عِيسَى، الَّذِي لَا مَحِيدَ عَنْهُ وَلَا صَحِيحَ سِوَاهُ، وَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ..

= الصحيح لها ، حين يعود المسلمون إلى دينهم الذي أعرضوا عنه ، وأما فتح الترك الذي كان قبل عصرنا هذا ، فإنه كان تمهيدا للفتح الأعظم . ثم هي قد خرجت بعد ذلك من أيدي المسلمين ، منذ أعلنت حكومتهم هناك أنها حكومة غير إسلامية وغير دينية ، وعاهدت الكفار أعداء الإسلام ، وحكمت أمتها بأحكام القوانين الوثنية الكافرة . وسيعود الفتح الإسلامي لها ، إن شاء الله كما بشر رسول الله .

ثم قال تعالى - أمرا رسوله ﷺ أن يُبَاهِلَ مَنْ عَانَدَ الْحَقَّ فِي أَمْرِ عِيسَى بعد ظهور البيان: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ أى: نحضرهم فى حال المباهلة ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أى: نلتعن ﴿فَتَجْعَلْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، أى: منا أو منكم.

وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها - من أول السورة إلى هنا - فى وفد نجران: أن النصراني حين قدموا فجعلوا يُحَاجُّونَ فى عيسى، ويزعمون فيه ما يزعمون من البنية والإلهية، فأنزل الله صَدَرَ هذه السورة ردًّا عليهم. وروى البخارى: عن حذيفة قال: جاء العاقبُ والسيدُ صاحباً نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعنا، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تَفْعَلْ، فوالله إن كان نبيا فلاعنا لا نفلح نحن ولا عقبتنا من بعدنا. قالوا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابتعث معنا رجلا أميناً، ولا تبتعث معنا إلا أميناً. فقال: «لَا بُعْثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلًا أَمِينًا، حَقٌّ أَمِينٌ»، فاستشرف لها أصحابُ رسول الله ﷺ، فقال: «قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ» فلما قام قال رسول الله ﷺ: «هَذَا أَمِينٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ». ورواه مسلم، والترمذى، والنسائى، وابن ماجة بنحوه (١). وقد رواه أحمد، والنسائى، وابن ماجة، عن ابن مسعود، بنحوه (٢).

وروى الإمام أحمد: عن ابن عباس، قال: قال أبو جهل: إن رأيتُ محمداً يصلى عند الكعبة لأتينه حتى أطأ على عنقه. قال: فقال: «لو فعل لأخَذْتَهُ الْمَلَائِكَةُ عَيْنًا، ولو أن اليهود تمَنَّوْا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجَعُوا لَا يَجِدُونَ مَالًا وَلَا أَهْلًا». وقد رواه الترمذى، وقال الترمذى: حسن صحيح (٣).

والغرض: أن وفودهم كان فى سنة تسع؛ لأن الزهرى قال: كان أهل نجران أول من أذى الجزية إلى رسول الله ﷺ، وآية الجزية إنما أنزلت بعد الفتح، وهى قوله تعالى: ﴿فَاتْلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] (٤).

وروى ابن مردويه عن الشعبى، عن جابر قال: قدم على النبى ﷺ العاقب والطيب، فدعاهما إلى الملاعنة فواعدها على أن يلاعنا الغداة. قال: فغدا رسول الله ﷺ، فأخذ بيد على وفاطمة والحسن والحسين، ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيبا، وأقرأ له بالخراج، قال: فقال

(١) البخارى (٨ / ٧٣ ، ٧٤ فتح) ومسلم (٢ / ٢٤١) مختصرا، وكذلك رواه أحمد مختصرا (٥ / ٣٨٥ ، ٣٩٨ حلى).

(٢) المسند (٣٩٣٠) مطولا.

(٣) المسند (٢٢٢٥ ، ٢٢٢٦). وفى المطبوعة هنا زيادة نسبتها للبخارى، وليست فى المخطوطة. والبخارى لم يروه كاملا، إنما روى منه ما يتعلق بأبى جهل (٨ / ٥٥٧)، وهى رواية مختصرة، رواها أحمد أيضا (٣٤٨٣).

(٤) ذكر الحافظ ابن كثير - فى تفسير هذه الآيات - قصة وفد نجران مفصلة، من سيرة ابن إسحاق، ومن رواية ابن مردويه، ومن دلائل النبوة للبيهقى. فمن شاء التفصيل فليرجع إليه (١ / ٣٦٨ - ٣٧٠ الطبعة التجارية) وإلى تاريخه الكبير: البداية والنهاية (٥ / ٥٢ - ٥٦) وطبقات ابن سعد (٢ / ٨٤ ، ٨٥).

رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ لَوْ قَالَ: لَا، لَأَمْطَرَ عَلَيْهِمُ الْوَادِي نَارًا» قال جابر: وفيهم نزلت ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾. قال جابر: «أَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ»: رسول الله ﷺ وعلى بن أبي طالب ﴿وَأَبْنَاكُمْ﴾: الحسن والحسين ﴿وَنِسَاءَنَا﴾: فاطمة. وهكذا رواه الحاكم بمعناه، ثم قال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. هكذا قال: وقد رواه أبو داود الطيالسي، عن الشعبي مرسلًا، وهذا أصح، وقد روى عن ابن عباس والبراء نحو ذلك.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ أى: هذا الذى قصصناه عليك يا محمد فى شأن عيسى هو الحق الذى لا مَعْدِلَ عنه ولا مَجِيد ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. فَإِنْ تَوَلَّوْا: أى: عن هذا إلى غيره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أى: من عدل عن الحق إلى الباطل فهو المفسد والله عليم به، وسيجزيه على ذلك شر الجزاء، وهو القادر، الذى لا يفوته شيء سبحانه ويحمده ونعوذ به من حلول نقمه.

﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن جرى مجراهم ﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ﴾ والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما قال هاهنا. ثم وصفها بقوله: ﴿سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أى: عدل ونصف، نستوى نحن وأنتم فيها. ثم فسرها بقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ لا وثَن، ولا صنم، ولا صليب ولا طاغوت، ولا نار، ولا شيء. بل نُفَرِّدَ العبادة لله وحده لا شريك له. وهذه دعوة جميع الرسل، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال ابن جُرَيْج: يعنى: يطيع بعضنا بعضا فى معصية الله.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أى: فإن تولوا عن هذا النَّصَف وهذه الدعوة فأشهدوهم أنتم على استمراركم على الإسلام الذى شرعه الله لكم. وقد روى البخارى، عن أبى سفيان، فى قصته حين دخل على قيصر، وكان ذلك بعد صَلَاحِ الْحُدَيْبِيَّةِ وقبل الفتح، أنه قال: ثم جىء بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه، فإذا فيه: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هِرَقْلٍ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى. أَمَّا بَعْدُ، فَاسْلَمْ تَسْلِمًا، واسْلَمْ يَوْمَكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَلَا مَعْلَكَ عَلَيَّ إِثْمَ الْارِيسِيِّينَ، وَ«يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ».

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغير واحد: أن صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران، وقال الزهري: هم أول من بذل الجزية. ولا خلاف أن آية الجزية نزلت بعد الفتح، فما الجمع بين كتابة هذه الآية قبل الفتح إلى هرقل في جملة الكتاب، وبين ما ذكره محمد بن إسحاق والزهري؟ والجواب من وجوه:

أحدها: يحتمل أن هذه الآية نزلت مرتين، مرة قبل الحديبية، ومرة بعد الفتح.

الثاني: يحتمل أن صدر سورة آل عمران نزل في وفد نجران إلى عند هذه الآية، وتكون هذه الآية نزلت قبل ذلك، ويكون قول ابن إسحاق: «إلى بضع وثمانين آية» ليس بمحفوظ، لدلالة حديث أبي سفيان.

الثالث: يحتمل أن قدوم وفد نجران كان قبل الحديبية، وأن الذي بذلوه مصلحة عن المباهلة لا على وجه الجزية، بل يكون من باب المهادنة والمصالحة، ووافق نزول آية الجزية بعد ذلك على وفق ذلك، كما جاء فرض الخمس والأربعة الأخماس وفق ما فعله عبد الله بن جحش في تلك السرية قبل بدر، ثم نزلت فريضة القسّم على وفق ذلك.

الرابع: يحتمل أن رسول الله ﷺ لما أمر بكتب هذا الكلام في كتابه إلى هرقل وإن لم يكن أنزل بعد، ثم نزل القرآن موافقة له ﷺ كما نزل بموافقة عمر بن الخطاب في الحجاب وفي الأسارى، وفي عدم الصلاة على المنافقين، وفي قوله: «وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى» [البقرة: ١٢٥]، وفي قوله: «عَسَى رَبُّهُ أَنْ يُلَاقَكُمْ أَنْ تُدْعُوا أَوْ يُلَاقَكُمْ أَنْ تُدْعُوا» [التحریم: ٥].

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٥﴾ هَاتِنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾﴾

ينكر تعالى على اليهود والنصارى في محاجتهم في إبراهيم الخليل، ودعوى كل طائفة منهم أنه كان منهم، كما روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال: اجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا عنده، رالت الأخبار: ما كان إبراهيم إلا يهوديا. وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانيا. فأنزل الله تعالى: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ». أى: كيف تدعون، أيها اليهود، أنه كان يهوديا، وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى؟، وكيف تدعون، أيها النصارى، أنه كان نصرانيا، وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر؟! ولهذا قال: «أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

ثم قال: «مَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا

تَعْلَمُونَ ﴿ هَذَا إِنكَارٌ عَلَىٰ مَنْ يَحَاجُّ فِيمَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ ، فَإِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى تَحَاجُّوا فِي إِبْرَاهِيمَ بِلَا عِلْمٍ ، وَلَوْ تَحَاجُّوا فِيمَا بَأْيَدِيهِمْ مِنْهُ عِلْمٌ مَّا يَتَعَلَّقُ بِأَدْيَانِهِمْ الَّتِي شَرَعَتْ لَهُمْ إِلَى حِينٍ بَعَثَ مُحَمَّدٌ ﷺ لَكُنْ أَوَّلَىٰ بِهِمْ ، وَإِنَّمَا تَكَلَّمُوا فِيمَا لَمْ يَعْلَمُوا ، فَانْكُرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ ، وَأَمَرَهُمْ بِرَدِّ مَا لَا عِلْمَ لَهُمْ بِهِ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، الَّذِي يَعْلَمُ الْأُمُورَ عَلَى حَقَائِقِهَا وَجَلِيَّاتِهَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ أى : مُتَحَفِّظًا عَنِ الشَّرِكِ قَاصِدًا إِلَى الْإِيمَانِ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ . وهذه الآية كالتى تقدمت فى سورة البقرة : ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة : ١٣٥] .

ثم قال تعالى : ﴿إِنْ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول تعالى : أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه ، وهذا النبى - يعنى محمداً ﷺ - والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن بعدهم . روى سعيد بن منصور : عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وَلَاةً مِنَ النَّبِيِّينَ ، وَإِنَّ وَلِيَّيَ مِنْهُمْ أَبَى وَخَلِيلَ رَبِّى عَزَّ وَجَلَّ» . ثم قرأ : ﴿إِنْ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ الآية . ورواه الترمذى والبزار . ورواه وكيع فى تفسيره عن ابن مسعود بنحوه (١) . وقوله : ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى : ولى جميع المؤمنين برسله .

﴿وَدَّتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٦٩﴾ يَتَّهَلَّ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَتَّهَلَّ الْكِتَابُ لِمَ تَلْسِنُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَءَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرُهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُعَاجِلْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

يخبر تعالى عن حسد اليهود للمؤمنين وبغيتهم إياهم الإضلال ، وأخبر أن وبَّال ذلك إنما يعود على أنفسهم ، وهم لا يشعرون أنهم مذكور بهم .

ثم قال تعالى منكراً عليهم : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أى : تعلمون صدقها وتحققون حقها ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسِنُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى :

(١) ورواه أحمد (٣٨٠٠) عن وكيع . ورواه أيضا الطبرى (٧٢١٦ ، ٧٢١٧) والحاكم (٢ / ٢٩٢) وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى .

تكتُمون ما فى كتبكم من صفة محمد ﷺ وأنتم تعرفون ذلك وتتحققونه . ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ هذه مكيدة أرادوها ليَلْبَسُوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وهو أنهم اشتَرَوْا بينهم أن يظهرُوا الإيمان أول النهار ويصَلُّوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجُهلة من الناس: إنما رَدَّهم إلى دينهم اطلاعُهُم على نقيصة وعيب فى دين المسلمين، ولهذا قالوا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. وقال ابن عباس: قالت طائفة من أهل الكتاب: إذا لقيتم أصحاب محمد أول النهار فآمنوا، وإذا كان آخره فصلُّوا صلاتكم، لعلهم يقولون: هؤلاء أهل الكتاب وهم أعلم منا. وهكذا روى عن قتادة .

وقوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ أى: لا تطمئنوا وتظهروا سركم وما عندكم إلا لمن اتبع دينكم ولا تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين، فيؤمنوا به ويحتجوا به عليكم؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ أى: هو الذى يهدى قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان، بما ينزله على عبده ورسوله محمد ﷺ من الآيات البينات، والدلائل القاطعات، والحجج الواضحات، وإن كنتم - أيها اليهود - ما بأيديكم من صفة محمد النبى الأمى فى كتبكم التى نقلتموها عن الأنبياء الأقدمين .

وقوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ يقولون: لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين، فيتعلموه منكم، ويساوونكم فيه، ويمتازون به عليكم لشدة الإيمان به، أو يحاجوكم به عند الله، أى: يتخذوه حجة عليكم بما فى أيديكم، فتقوم به وتتركب الحجة فى الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ أى: الأمور كلها تحت تصرفه، وهو المعطى المانع، يَمُنَّ على من يشاء بالإيمان والعلم والتصور التام، ويضل من يشاء ويُعمى بصره وبصيرته، ويختم على قلبه وسمعه، ويجعل على بصره غشاوة، وله الحجة والحكمة . ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . يَخْتَصِرُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أى: اختصكم - أيها المؤمنون - من الفضل بما لا يُحَد ولا يُوصَف، بما شَرَف به نبيكم محمداً ﷺ على سائر الأنبياء وهذاكم به لأحمد الشرائع .

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنَ إِن تَأْمَنُهُ بِقِطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنَ إِن تَأْمَنُهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُوتِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بلى مَن أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَآتَقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٦﴾

ربع

يخبر تعالى عن اليهود بأن فيهم الخونة، ويحذر المؤمنين من الاغترار بهم، فإن منهم ﴿مَنَ إِن تَأْمَنُهُ بِقِطَارٍ﴾ أى: من المال ﴿يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ﴾ أى: وما دونه بطريق الاولى أن يؤديه إليك ﴿وَمِنْهُمْ مَنَ إِن تَأْمَنُهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ أى: بالمطالبة والملازمة والإلحاح فى استخلاص

حَقَّكَ، وَإِذَا كَانَ هَذَا صَنِيعَهُ فِي الدِّينَارِ فَمَا فَوْقَهُ أُولَىٰ الْآيُودِيَةِ إِلَيْكَ .

ومناسب أن يكون ها هنا الحديث الذي علقه البخارى فى غير موضع من صحيحه، ومن أحسنها سياقه فى كتاب الكفالة عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ: أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلًا مِنْ بَنَى إِسْرَائِيلَ سَأَلَ بَعْضَ بَنَى إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسَلِّفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ، فَقَالَ: اتَّيْتُ بِالشُّهَدَاءِ أَشْهَدُهُمْ. فَقَالَ: كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا. قَالَ: اتَّيْتُ بِالْكَفِيلِ. قَالَ: كَفَىٰ بِاللَّهِ كَفِيلًا. قَالَ: صَدَقْتَ. فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَىٰ أَجَلٍ مَّسْمُومٍ، فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ فَقَضَىٰ حَاجَتَهُ، ثُمَّ التَّمَسَّ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا يَقْدَمُ عَلَيْهِ لِلْأَجَلِ الَّذِي أَجَلُهُ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا، فَأَخَذَ خَشَبَةً فَتَقَرَّهَا فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ، وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَىٰ صَاحِبِهِ، ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا، ثُمَّ أَتَىٰ بِهَا إِلَىٰ الْبَحْرِ، فَقَالَ: اَللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي اسْتَسَلَّفْتُ فَلَانًا أَلْفَ دِينَارٍ فَسَأَلَنِي كَفِيلًا، فَقُلْتُ: كَفَىٰ بِاللَّهِ كَفِيلًا [فَرَضَىٰ بِكَ]. وَسَأَلَنِي شَهِيدًا، فَقُلْتُ: كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا. فَرَضَىٰ بِكَ، وَإِنِّي جَهِدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ، وَإِنِّي اسْتَوْدَعْتُكَهَا. فَرَمَىٰ بِهَا فِي الْبَحْرِ حَتَّىٰ وَلَجَتْ فِيهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا يَخْرُجُ إِلَىٰ بَلَدِهِ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ لِيَنْظُرَ لَعَلَّ مَرْكَبًا يَجِيئُهُ بِمَالِهِ، فَإِذَا بِالْخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ، فَأَخَذَهَا لِأَهْلِهِ حَطْبًا، فَلَمَّا كَسَرَهَا وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّحِيفَةَ، ثُمَّ قَدَّمَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ تَسَلَّفَ مِنْهُ، فَأَتَاهُ بِالْأَلْفِ دِينَارٍ، وَقَالَ: وَاللَّهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لَاتِيكَ بِمَالِكَ، فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ. قَالَ: هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَىٰ شَيْءٍ؟ قَالَ: أَلَمْ أَخْبِرَكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ هَذَا؟ قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَدَّىٰ عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ فِي الْخَشَبَةِ، فَاَنْصَرَفَ بِالْأَلْفِ دِينَارٍ رَاشِدًا. هكذا رواه البخارى فى موضعه معلقاً بصيغة الجزم، وأسنده فى بعض المواضع من الصحيح. ورواه الإمام أحمد ورواه البزار عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ بنحوه (١).

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنِ سَبِيلٌ﴾ أى: إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَىٰ جُحُودِ الْحَقِّ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: لَيْسَ عَلَيْنَا فِي دِينِنَا حَرَجٌ فِي أَكْلِ أَمْوَالِ الْأُمِّيْنِ، وَهُمْ الْعَرَبُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْلَاهَا لَنَا!. قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أى: وقد اختلفوا هذه المقالة، واتفقوا بهذه الضلالة، فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ أَكْلَ الْأَمْوَالِ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَإِنَّمَا هُمْ قَوْمٌ بُهَّتْ. روى عبد الرزاق: عن صَعَصَعَةَ بْنِ يَزِيدٍ: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ، قَالَ: [إِنَّا] نُصِيبُ فِي الْغَزْوِ مِنْ أَمْوَالِ أَهْلِ الذِّمَّةِ الدِّجَاجَةَ وَالشَّاةَ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَتَقُولُونَ مَاذَا؟ قَالَ: نَقُولُ: لَيْسَ عَلَيْنَا بِذَلِكَ بَأْسٌ. قال: هذا كما قال أهل الكتاب: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنِ سَبِيلٌ﴾ إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا يطيب أنفسهم (٢).

(١) البخارى (٤ / ٣٨٥ ، ٣٨٦ فتح) والمسند (٨٥٧١) وروايته موصولة . ونسبه الحافظ فى الفتح أيضا للنسائى ، والبخارى فى الأدب المفرد ، وابن حبان فى صحيحه .

(٢) رواه الطبرى (٧٧٧٤) من طريق عبد الرزاق ، وإسناده صحيح . وزيادة [أنا] من المطبوعة والطبرى . و « صعصعة ابن يزيد » : تابعى ثقة ، ترجمه البخارى فى الكبير (٣٢٢ / ٢ / ٣٢١ ، ٣٢٢) وابن أبى حاتم (١ / ٢ / ٤٤٦) وأشار البخارى إلى حديثه هذا إشارة موجزة ، كعادته . ويقال فيه : « صعصعة بن زيد » ، وبين البخارى أن الصواب « بن يزيد » . وذكر ابن حبان فى الثقات (ص ٢٢٥ مخطوط مصور) ، ولم يذكر خلافا فى اسم أبيه . ووقع فى ابن كثير مخطوطا ومطبوعا - « عن أبى صعصعة » ! وهو خطأ صرف .

ثم قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ﴾ أي: لكن من أوفى بعهدكم يا أهل الكتاب، الذي عاهدكم الله عليه، من الإيمان بمحمد ﷺ إذا بُعِثَ كما أخذ العهد والميثاق على الأنبياء وأممهم بذلك، واتفق محارم الله واتبع طاعته وشرعته التي بعث بها خاتم الرسل وسيد البشر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْفِتْنَةِ وَلَا يُرَكِّبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

يقول تعالى: إن الذين يعتاضون عما عاهدوا الله عليه، من اتباع محمد ﷺ، وذكر صفته للناس وبيان أمره، وعن إيمانهم الكاذبة الفاجرة الآثمة - بالأثمان القليلة الزهيدة، وهي عروض هذه الدنيا الفانية الزائلة، و﴿أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: لا نصيب لهم فيها، ولا حظ لهم منها ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: برحم منه لهم، يعني: لا يكلمهم الله كلام لطف بهم، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة ﴿وَلَا يُرَكِّبُهُمْ﴾ أي: من الذنوب والأدناس، بل يأمر بهم إلى النار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية الكريمة فلنذكر منها ما تيسر:

روى الإمام أحمد: عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُرَكِّبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» قلت: يا رسول الله، من هم؟ خابوا وخسروا. قال: وأعاده رسول الله ﷺ ثلاث مرات قال: «المُسْبِلُ، وَالمُنْفِقُ سِلْعَتُهُ بِالْحَلْفِ الكَاذِبِ، وَالْمُنَانُ». ورواه مسلم، وأهل السنن (١). وروى الإمام أحمد عن عدي - هو ابن عميرة الكندي - قال: خاصم رجل من كندة يقال له: امرؤ القيس بن عامر رجلاً من حضرموت إلى رسول الله ﷺ في أرض، فقضى على الحضرمي بالبينة، فلم يكن له بينة، فقضى على امرئ القيس باليمين. فقال الحضرمي: [إن] أمكنته من اليمين يارسول الله ذهبت - ورب الكعبة - أرضي. فقال النبي ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ لِيَقْتَطَعَ بِهَا مَالَ أَحَدٍ لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ» وتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾. فقال امرؤ القيس: ماذا لمن تركها يا رسول الله؟ فقال: «الجنة» قال: فاشهد أني قد تركتها له كلها. ورواه النسائي (٢).

وروى أحمد عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لِيَقْتَطَعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ». فقال الأشعث: في والله كان ذلك، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدي، فقدمته إلى رسول الله ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ: «أَلَكْ بَيْتَةٌ؟» قلت: لا، فقال لليهودي: «احلف» فقلت: يارسول الله، إذا يحلف فيذهب مالي. فانزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى آخر الآية.

(١) المسند (٥ / ١٤٨ حلى) . وقد مضى من رواية مسلم .

(٢) المسند (٤ / ١٩١ ، ١٩٢ حلى) . وتفصيل تخريجه في الطبرى (٧٢٨٠) . وزيادة [إن] من المسند .

أخرجاه (١). وروى ابن أبي حاتم : عن عبد الله بن أبي أوفى : أن رجلا أقام سلعة له في السوق، فحلف بالله لقد أعطى بها ما لم يعطه، ليوقع فيها رجلا من المسلمين، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ورواه البخارى . وروى الإمام أحمد أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم، ولا يزكّيهم، ولكم عذاب أليم: رجل منع ابن السبيل فضل ماء عنده، ورجل حلف على سلعة بعد العصر - يعنى كاذبًا - ورجل بايع إمامًا، فإن أعطاه وفى له، وإن لم يعطه لم يف له». ورواه أبو داود، والترمذى ، وقال الترمذى : حسن صحيح (٢).

﴿وَلَا مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونُ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

يخبر تعالى عن اليهود، عليهم لعائن الله، أن منهم فريقا يحرفون الكلم عن مواضعه ويبدلون كلام الله، ويزيلونه عن المراد، ليؤهموا الجهلة أنه في كتاب الله كذلك، وينسبونه إلى الله، وهو كذب على الله، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافترخوا في ذلك كله، ولهذا قال: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. وقال مجاهد والشعبي وغيرهما: ﴿يَلُونُ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾: يحرفونه. وقال وهب بن منبه: إن التوراة والإنجيل كما أنزلهما الله لم يغير منهما حرف، ولكنهم يضلّون بالتحريف والتأويل، وكتب كانوا يكتبونها من عند أنفسهم، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، فأما كتب الله فإنها محفوظة ولا تحوّل. رواه ابن أبي حاتم، فإن عنى وهب ما بأيديهم من ذلك، فلا شك أنه قد دخلها التبديل والتحريف والزيادة والنقص، وأما تعريب ذلك المشاهد بالعربية ففيه خطأ كبير، وزيادات كثيرة ونقصان، وهم فاحش. وهو من باب تفسير المعبر المعرب، وفهم كثير منهم - بل أكثرهم، بل جميعهم - فاسد. وأما إن عنى كتب الله التي هي كتبه عنده، فتلك - كما قال - محفوظة لم يدخلها شيء.

﴿مَا كَانَ لِيَشِيرَ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّجُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّاعَيْنَ بَمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (٧٦) وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَالِيَّةَ وَالنَّيِّعَتَيْنِ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

روى ابن إسحاق عن ابن عباس، قال: قال أبو رافع القرظي، حين اجتمعت الاحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران، عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرئيس:

(١) المسند (٣٥٩٧) والبخارى (٥٣/٥، ٢٠٦ فتح) ومسلم (١/٣٩ - ٥٠) والطبرى (٧٢٧٩).

(٢) المسند (١٠٢٣١). ورواه أيضا أطول من ذلك (٧٤٣٥).

أَوَ ذَاكَ تَرِيدُ مِنَّا يَا مُحَمَّدُ، وَإِلَيْهِ تَدْعُونَا؟ أَوْ كَمَا قَالَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَعْبُدَ غَيْرَ اللَّهِ، أَوْ أَنْ نَأْمُرَ بِعِبَادَةٍ غَيْرِهِ، مَا بِذَلِكَ بَعَثَنِي، وَلَا بِذَلِكَ أَمَرَنِي». أَوْ كَمَا قَالَ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمَا: ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

فَقَوْلُهُ: ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَيْ: مَا يَنْبَغِي لِشَيْءٍ أَنْ يَأْتِيَ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ: اعْبُدُونِي مِنْ دُونِ اللَّهِ. أَيْ: مَعَ اللَّهِ، وَإِذَا كَانَ هَذَا لَا يَصْلَحُ لِنَبِيٍّ وَلَا لِمُرْسَلٍ، فَلَا يَصْلَحُ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ غَيْرِهِمْ بِطَرِيقِ الْأُولَى وَالْآخَرَى؛ وَلِهَذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: لَا يَنْبَغِي هَذَا لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَأْمُرَ النَّاسَ بِعِبَادَتِهِ. قَالَ: ذَلِكَ أَنَّ الْقَوْمَ كَانَ يَعْبُدُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا - يَعْنِي أَهْلَ الْكِتَابِ - كَانُوا يَتَعَبَّدُونَ لِأَحْبَارِهِمْ وَرَهْبَانِهِمْ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] وَفِي الْمُسْنَدِ، وَالتِّرْمِذِيُّ - كَمَا سَيَأْتِي - أَنَّ عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا عَبْدُوهُمْ. قَالَ: «بَلَى، إِنَّهُمْ أَحَلُّوا لَهُمُ الْحَرَامَ وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ، فَاتَّبَعُوهُمْ، فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ» (١). فَالْجَهْلَةُ مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرَّهْبَانِ وَمَشَائِخِ الضَّلَالِ يَدْخُلُونَ فِي هَذَا الذَّمِّ وَالتَّوْبِيخِ، بِخِلَافِ الرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ، فَإِنَّمَا يَأْمُرُونَ بِمَا يَأْمُرُ اللَّهُ بِهِ وَبِلِغَتِهِمْ إِيَّاهُ رُسُلُهُ الْكَرَامَ. وَإِنَّمَا يَنْهَوْنَهُمْ عَمَّا نَهَاَهُمُ اللَّهُ عَنْهُ وَبِلِغَتِهِمْ إِيَّاهُ رُسُلُهُ الْكَرَامَ، فَالرُّسُلُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، هُمْ السَّفَرَاءُ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ فِي آدَاءِ مَا حَمَلُوهُ مِنَ الرِّسَالَةِ وَإِبْلَاجِ الْأَمَانَةِ، فَقَامُوا بِذَلِكَ أَنْتُمْ الْقِيَامَ، وَنَصَحُوا الْخَلْقَ، وَبَلَّغُوهُمْ الْحَقَّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أَيْ: وَلَكِنْ يَقُولُ الرَّسُولُ لِلنَّاسِ: كُونُوا رَبَّانِيِّينَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: أَيْ حُكَمَاءَ عُلَمَاءَ حُلَمَاءَ. وَقَالَ الْحَسَنُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: فَقَهَاءَ.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾: حَقٌّ عَلَى مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ أَنْ يَكُونَ فَقِيهًا: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: تَفْهَمُونَ مَعْنَاهُ. وَقُرِئَ «تُعَلِّمُونَ» بِالتَّشْدِيدِ مِنَ التَّعْلِيمِ (٢) «وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ»: تَحْفَظُونَ الْفَافَظَةَ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ أَيْ: وَلَا يَأْمُرُكُمْ بِعِبَادَةِ أَحَدٍ غَيْرِ اللَّهِ، لَا نَبِيٍّ مَرْسَلٍ وَلَا مَلِكٍ مُقَرَّبٍ ﴿يَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أَيْ: لَا يَفْعَلْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ مِنْ دَعَا إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ دَعَا إِلَى الْكُفْرِ، وَالْأَنْبِيَاءُ إِنَّمَا يَأْمُرُونَ بِالْإِيمَانِ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُولٍ إِلَّا نُوْحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رُسُلًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وَقَالَ: ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وَقَالَ إِخْبَارًا

(١) سَيَأْتِي عِنْدَ تَفْسِيرِ الْآيَةِ: (٣١) مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ.

(٢) قِرَاءَةُ التَّشْدِيدِ هَذِهِ - هِيَ قِرَاءَةُ ابْنِ عَامِرٍ وَعَاصِمٍ وَالْكَسَائِيِّ، وَالْقِرَاءَةُ الْأُولَى - بِفَتْحِ التَّاءِ وَسُكُونِ الْعَيْنِ وَفَتْحِ اللَّامِ - هِيَ قِرَاءَةُ بَاقِي السَّبْعَةِ وَغَيْرِهِمْ.

عن الملائكة: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَذِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٢٩].

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم، عليه السلام، إلى عيسى، عليه السلام، لهما أتى الله أحدهم من كتاب وحكمة، وبلغ أى مبلغ، ثم جاءه رسول من بعده، ليؤمنن به ولينصرنه، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته؛ ولهذا قال تعالى وتقدس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ أى: لهما أعطيتكم من كتاب وحكمة ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ قال ابن عباس، ومجاهد: يعنى عهدى.

﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ. فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أى: عن هذا العهد والميثاق ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. قال على بن أبى طالب وابن عمه ابن عباس: ما بعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته: لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه. وقال طاووس، والحسن البصرى، وقتادة: أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضا. وهذا لا يضاد ما قاله على وابن عباس ولا ينفى، بل يستلزمه ويقضيه. فالرسول محمد خاتم الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليه، دائما إلى يوم الدين، وهو الإمام الأعظم، الذى لو وجد فى أى عصر وجد لكان هو الواجب الطاعة المقدم على الأنبياء كلهم؛ ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا بيت المقدس، وكذلك هو الشفيع فى يوم الحشر فى إتيان الرب لفصل القضاء، وهو المقام المحمود الذى لا يليق إلا له، والذى يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين، حتى تنتهى النبوة إليه، فيكون هو المخصوص به.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٢﴾ قُلْ ءَأَمِنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٣﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾

يقول تعالى منكراً على من أراد دينا سوى دين الله، الذى أنزل به كتبه وأرسل به رسله، وهو عبادته وحده لا شريك له، الذى ﴿لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: استسلم له من

ففيهما طوعا وكرها ، كما قال تعالى : ﴿وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًاۗلَهُمُ الْاَعْدٰۤى وَالْاَصْحَآءُ﴾ [الرعد : ١٥] . وقال تعالى : ﴿اَوَلَمْ يَرَوْا اِلٰى مَا خَلَقَ اللّٰهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّۡ ظِلَالُهٗ عَنِ الْيَمِيْنِ وَالشَّمَالِ سٰجِدًاۙ لِلّٰهِ وَهُمْ دَاخِرُوْنَ . وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَآئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُوْنَ . يَخَافُوْنَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُوْنَ مَا يُؤْمَرُوْنَ﴾ [النحل : ٤٨ - ٥٠] . فالؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله ، والكافر مستسلم لله كرها ، فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم ، الذي لا يُخَالَف ولا يمانع . ﴿وَاللّٰهُ يَرْجِعُوْنَ﴾ أى : يوم المَعَاد ، فيجازى كلا بعمله .

ثم قال تعالى : ﴿قُلْ اٰمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا اُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ يعنى : القرآن ﴿وَمَا اُنْزِلَ عَلٰى اِبْرٰهِيْمَ وَاِسْمَاعِيْلَ وَاِسْحٰقَ وَيَعْقُوْبَ﴾ أى : من الصحف والوحى ﴿وَالْاَسْبَاطَ﴾ وهم بطون بنى إسرائيل المشبعة من أولاد إسرائيل - هو يعقوب - الاثنى عشر ﴿وَمَا اُوْتِيَ مُوسٰى وَعِيسٰى﴾ يعنى : بذلك التوراة والإنجيل ﴿وَالنَّبِیُّوْنَ مِّنْ رَبِّهِمْ﴾ وهذا يعم جميع الانبياء جملة ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ اَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ يعنى : بل نؤمن بجميعهم ﴿وَلَنَعْنِ لَهُ مُسْلِمُوْنَ﴾ : فالؤمنون من هذه الامة يؤمنون بكل نبي أرسل ، وبكل كتاب أنزل ، لا يكفرون بشيء من ذلك بل هم مُصَدِّقُونَ بما أنزل من عند الله ، وبكل نبي بعثه الله .

ثم قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْاِسْلَامِ دِيْنًا فَلَنْ يُّقْبَلَ مِنْهُ﴾ أى : من سلك طريقاً سوى ما شرّعه الله فلن يقبل منه ﴿وَهُوَ لِى الْاٰخِرَةِ مِنَ الْخٰسِرِيْنَ﴾ كما قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ اَمْرًا فَهُوَ رَدٌّ» (١) . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : «تَجِىءُ الْاَعْمَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَتَجِىءُ الصَّلَاةُ فَتَقُوْلُ : يَا رَبِّ ، اَنَا الصَّلَاةُ . فَيَقُوْلُ : اِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ . وَتَجِىءُ الصَّدَقَةُ فَتَقُوْلُ : يَا رَبِّ ، اَنَا الصَّدَقَةُ . فَيَقُوْلُ : اِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ . ثُمَّ يَجِىءُ الصِّيَامُ فَيَقُوْلُ : يَا رَبِّ اَنَا الصِّيَامُ . فَيَقُوْلُ : اِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ . ثُمَّ تَجِىءُ الْاَعْمَالُ ، كُلُّ ذَلِكَ يَقُوْلُ اللّٰهُ تَعَالٰى : اِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ ، ثُمَّ يَجِىءُ الْاِسْلَامُ فَيَقُوْلُ : يَا رَبِّ ، اَنْتَ السَّلَامُ وَاَنَا الْاِسْلَامُ . فَيَقُوْلُ اللّٰهُ : اِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ ، بِكَ الْيَوْمَ اَخَذْتُ وَبِكَ اَعْطٰى ، قَالَ اللّٰهُ فِى كِتَابِهِ : ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْاِسْلَامِ دِيْنًا فَلَنْ يُّقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ لِى الْاٰخِرَةِ مِنَ الْخٰسِرِيْنَ﴾ . « . تفرد به أحمد (٢) .

﴿ كَيْفَ يَهْدِ اللّٰهُ قَوْمًا كَفَرُوْاۙ بَعْدَ اِيْمَانِهِمْ وَشَهِدُوْۤا اَنَّ الرّٰسُوْلَ حَقٌّ وَّجَآءَهُمُ الْبَيِّنٰتُ وَاللّٰهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْظٰلِمِيْنَ ﴿٨٦﴾ اَوَلَيْكَ جَزَاؤُهُمْ اَنَّ عَلَيْنٰهُمْ لَعْنَةُ اللّٰهِ وَالْمَلَآئِكَةِ وَالنَّاسِ اَجْمَعِيْنَ ﴿٨٧﴾ خٰلِدِيْنَ فِيْهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْظُرُوْنَ ﴿٨٨﴾ اِلَّا الَّذِيْنَ تَابُوْۤا مِنْۢ بَعْدِ ذٰلِكَ وَاَصْلَحُوْۤا فَاِنَّ اللّٰهَ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾

(١) مضى فى ص ٣٦٧ من هذا الجزء ، من حديث عائشة .

(٢) المسند (٨٧٢٧) وهو فى الزوائد (٣٤٥/١٠) ، وزاد نسبه لآبى يعلى والطبرانى فى الأوسط . وقال : «وفيه عباد ابن راشد، وثقه أبو حاتم وغيره، وضعفه جماعة ، وبقيّة رجال أحمد رجال الصحيح » . وقد أعله عبد الله ابن الإمام أحمد عقب روايته فى المسند ، فقال : « عباد بن راشد ثقة ، ولكن الحسن لم يسمع من أبى هريرة » . وقد بينت صحة هذا الحديث ، ورددت على تعليل عبد الله فى شرح حديث المسند (٧١٣٨) (٧١٣/١٢) (١١٤) .

روى ابن جرير عن ابن عباس قال: كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك، ثم ندم، فأرسل إلى قومه: أن سألوا لى رسول الله ﷺ: هل لى من توبة؟ قال: فنزلت: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فأرسل إليه قومه فأسلم. وهكذا رواه النسائى، وابن حبان، والحاكم، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه (١).

ف قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أى: قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاءهم به الرسول، ووضح لهم الأمر، ثم ارتدوا إلى ظلمة الشرك، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعد ما تلبسوا به من العماية؟! ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. ثم قال: ﴿أَوَلَيْكَ جَزَاؤُهُمْ أَنْ عَلَيهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أى: يلعنهم الله ويلعنهم خلقه ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: فى اللعنة ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أى: لا يُفْتَر عنهم العذاب ولا يُخَفَّف عنهم ساعة واحدة.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهذا من لطفه وبره ورأفته ورحمته وعائدته على خلقه: أن من تاب إليه تاب عليه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ مِنَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ اقْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ تَصْرِينٍ﴾ (٢)

يقول تعالى متوعداً ومتهدداً لمن كفر بعد إيمانه ثم ازداد كفراً، أى: استمر عليه إلى الممات، ومخبراً بأنهم لن تقبل لهم توبة عند الممات، كما قال: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨]. ولهذا قال هاهنا: ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أى: الخارجون عن المنهج الحق إلى طريق الغى. روى أبو بكر البزار عن ابن عباس؛ أن قوماً أسلموا ثم ارتدوا، ثم أسلموا ثم ارتدوا، فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾. وإسناده جيد.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ مِنَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ اقْتَدَى بِهِ﴾ أى: من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبداً، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهباً فيما يراه قربة، كما سئل النبى ﷺ عن عبد الله بن جُدعان - وكان يُقرى الضيف، ويُكُّ العانى، ويُطعم الطعام -: هل ينفعه ذلك؟ فقال: «لا، إنه لم يقل يوماً من الدهر: رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين» (٢).

(١) الطبرى (٧٣٦٠) والحاكم (١٤٢/٢) ووافقه الذهبى على تصحيحه. ورواه أحمد أيضاً فى المسند (٢٢١٨) وإسناده صحيح.

(٢) رواه أحمد فى المسند (٩٣/٦) حلى) من حديث عائشة، وكذلك رواه مسلم (٧٨/١) ورواه أيضاً من حديثها (١٢٠/٦) بإسناد آخر صحيح.

وكذلك لو اقتدى بملء الأرض أيضاً ذهباً ما قبل منه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وقال: ﴿لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ﴾ [إبراهيم: ٣١]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦]؛ ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ فعطف ﴿وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ على الأول، فدل على أنه غيره، وما ذكرناه أحسن من أن يقال: إن الواو زائدة، والله أعلم. ويقتضى ذلك ألا يتقدم من عذاب الله شيء، ولو كان قد أنفق مثل الأرض ذهباً، ولو اقتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهباً، بوزن جبالها وتلالها وترباتها ورمالها وسهولها ووعورها وبرها وبحرها. وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ؟» قَالَ: «فَيَقُولُ: نَعَمْ.» قَالَ: «فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ أَبِيكَ أَدَمَ الْأَشْرَكَ بِي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي.» وأخرجه البخاري، ومسلم (١).

ولهذا قال: ﴿أَوَلَيْكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ أي: وما لهم من أحد يُقَدِّمُهم من عذاب الله، ولا يجيرهم من اليم عقابه.

﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ ﴿٩٢﴾

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: كان أبو طلحة أكثر أنصارى بالمدينة مالا، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء - وكانت مُستقبلة المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب - قال أنس: فلما نزلت: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله يقول: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إلي بيرحاء، وإنها صدقة لله، أرجو برها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. فقال النبي ﷺ: «بِئْسَ بَيْعٌ، ذَاكَ مَالٌ رَابِعٌ، ذَاكَ مَالٌ رَابِعٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ، وَأَنَا أَرَى أَنْ تُجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ.» فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله. فقسّمها أبو طلحة في أقاربه وبنى عمه. أخرجه (٢). وفي الصحيحين أن عمر قال: يا رسول الله، لم أصب مالا قط هو أنفُسُ عندى من سهمى الذى هو بخير، فما تأمرنى به؟ قال: «حَبَسِ الْأَصْلَ، وَسَبَّلِ الثَّمَرَةَ» (٣).

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

الجزء ٤

(١) المسند (١٢٣١٦).

(٢) المسند (١٢٤٦٥) من طريق مالك. وهو فى الموطأ (٩٩٥، ٩٩٦) ورواه الطبري مختصرا (٧٣٩٤، ٧٣٩٥).

وفصلنا تخريجه هناك.

(٣) انظر: المسند (٥٩٤٧، ٦٤٦٠) من حديث ابن عمر.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ فقالوا: حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي؟ [فذكر الحديث ، وفيه أنهم قالوا] : أخبرنا أى الطعام حرم إسرائيل على نفسه؟ [وأن رسول الله ﷺ قال لهم] : « أنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى: هل تعلمون أن إسرائيل مريض مريضاً شديداً وطال سقمه ، فنذر الله نذراً ، لكن شفاه الله من سقمه ليحرّم أحب الشراب إليه وأحب الطعام إليه ، وكان أحب الطعام إليه لحمان الإبل ، وأحب الشراب إليه ألبانها ؟ » فقالوا: اللهم نعم . قال: «اللهم اشهد عليهم» (١).

وقوله: «من قبل أن تنزل التوراة» أى: حرم ذلك على نفسه من قبل أن تنزل التوراة. قلت: ولهذا السياق بعد ما تقدم مناسبتان:

إحداهما: أن إسرائيل ، عليه السلام ، حرم أحب الأشياء إليه وتركها لله ، وكان هذا سائغاً فى شريعتهم ، فله مناسبة بعد قوله: «لَنْ تَأْكُلُوا الْبَرَّ حَتَّى تُفَقُّوا مِمَّا تُحِبُّونَ». فهذا هو المشروع عندنا وهو الإنفاق فى طاعة الله عما يحبه العبد ويشتيه ، كما قال: «وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ» [البقرة: ١٧٧]. وقال تعالى: «وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ» [الإنسان: ٨].

المناسبة الثانية: لما تقدّم السياق فى الرد على النصارى ، واعتقادهم الباطل فى المسيح وتبيين زيف ما ذهبوا إليه . وظهور الحق واليقين فى أمر عيسى وأمه ، وكيف خلقه الله بقدرته ومشيته ، وبعثه إلى بنى إسرائيل يدعو إلى عبادة ربه تعالى - شرع فى الرد على اليهود ، قبّحهم الله ، وبيان أن النسخ الذى أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع ، فإن الله ، عز وجل ، قد نصّ فى كتابهم التوراة: أن نوحا ، عليه السلام ، لما خرج من السفينة أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها ، ثم بعد هذا حرم إسرائيل على نفسه لحمان الإبل وألبانها ، فاتبعه بنوه فى ذلك ، وجاءت التوراة بتحريم ذلك ، وأشياء آخر زيادة على ذلك . وكان الله ، عز وجل ، قد أذن لأدم فى تزويج بناته من بنيه ، وقد حرم ذلك بعد ذلك . وكان التسرّى على الزوجة مباحا فى شريعة إبراهيم عليه السلام ، وقد فعله الخليل فى هاجر لما تسرّى بها على سارة ، وقد حرم مثل هذا فى التوراة عليهم . وكذلك كان الجمع بين الأختين سائغاً ، وقد فعله يعقوب ، عليه السلام ، جمع بين الأختين ، ثم حرم ذلك عليهم فى التوراة . وهذا كله منصوص عليه فى التوراة عندهم ، فهذا هو النسخ بعينه ، فكذلك فليكن ما شرعه الله للمسيح ، عليه السلام ، فى إحلاله بعض ما حرم فى التوراة ، فما بالهم لم يتبعوه؟! بل كذبوه وخالفوه!! وكذلك ما بعث الله به محمداً ﷺ من الدين القويم ، والصراط المستقيم ، وملة أبيه إبراهيم فما بالهم لا يؤمنون؟! ولهذا قال تعالى: «كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنْزَلَ التَّوْرَةُ» أى: كان حلالاً لهم جميع الأطعمة

(١) ساق الحافظ ابن كثير - هنا - الحديث (٢٥١٤) من السند ، بطوله ، ثم ذكره برواية أخرى من المسند (٢٤٨٣) ، وذكر أن هذا الأخير رواه الترمذى والنسائى بنحوه . وقد اقتصرنا على موضع الشاهد المناسب للآية من أولهما؛ لأن الحديث مضى مطولاً عند تفسير الآية : ٩٧ من سورة البقرة من رواية الطبرى . وأشرنا هناك إلى هذا الموضع .

قبل نزول التوراة إلا ما حرّمه إسرائيل، ثم قال: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ فإنها ناطقة بما قلناه ﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أى: فمن كذّب على الله وادّعى أنه شرع لهم السبت والتمسك بالتوراة دائماً، وأنه لم يبعث نبياً آخر يدعو إلى الله بالبراهين والحجج بعد هذا الذي بيّنه من وقوع النسخ وظهور ما ذكرنا - ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ أى: قل يا محمد: صدق فيما أخبر به وفيما شرعه فى القرآن ﴿فَأَتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أى: اتبعوا ملة إبراهيم التى شرعها الله فى القرآن على لسان محمد ﷺ، فإنه الحق الذى لا شك فيه ولا مرية، وهى الطريقة التى لم يأت نبي بأكمل منها ولا أبين ولا أوضح ولا أتم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٦]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (١١) فيه مَآيَتُ بَيِّنَاتٍ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (١٧)

يُخْبِرُ تعالى أن أول بيت وُضع للناس، أى: لعموم الناس، لعبادتهم ونُسكهم، يَطُوفُونَ بِهِ وَيُصَلُّونَ إِلَيْهِ وَيَعْتَكِفُونَ عِنْدَهُ ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ يعنى: الكعبة التى بناها إبراهيم الخليل، الذى يَزْعُمُ كل من طائفتى النصارى واليهود أنهم على دينه ومنهجه، ولا يَحْجُونَ إلى البيت الذى بناه عن أمر الله له فى ذلك ونادى الناس إلى حجه. ولهذا قال: ﴿مُبَارَكًا﴾ أى وُضع مباركاً ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾.

وقد روى الإمام أحمد عن أبى ذر، قال: قلت: يا رسول الله، أى مَسْجِدٍ وُضع أولُ؟ قال: «المَسْجِدُ الْحَرَامُ». قلت: ثم أى؟ قال: «المَسْجِدُ الْأَقْصَى». قلت: كم بينهما؟ قال: «أَرْبَعُونَ سَنَةً». قلت: ثم أى؟ قال: «ثُمَّ حَيْثُ أَدْرَكْتَ الصَّلَاةَ فَصَلِّ، فَكُلُّهَا مَسْجِدٌ». وأخرجه البخارى، ومسلم (١). وروى ابن أبى حاتم عن على فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ قال: كانت البيوت قبله، ولكنه كان أول بيت وضع لعبادة الله (٢). وعن خالد بن عرّة قال: قام رجل إلى على فقال: ألا تُحدّثنى عن البيت: أهو أول بيت وُضع فى

(١) المسند (٥ / ١٥٠ حلى) والبخارى (٦ / ٢٩٠ - ٢٩٢، ٣٣٢، ٣٣٣ فتح) ومسلم (١ / ١٤٦) وروى الطبرى (٧٤٣٤) قطعة من أوله.

(٢) إسناد ابن أبى حاتم فيه «مجالد بن سعيد». وهو حسن الحديث. ولكن الحافظ ابن حجر ذكر هذا الأثر عن على، فى الفتح (٦ / ٢٩٠) وقال: «أخرجه إسحاق بن راهويه وابن أبى حاتم وغيرهما بإسناد صحيح». فلعن له إسناداً آخر. أو لعن الحافظ ذهب إلى تصحيح رواية مجالد.

الأرض؟ قال: لا، ولكنه أول بيت وضع فيه البركة، مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً (١). وزعم السُّدِّيُّ أنه أولُ بيت وضع على وجه الأرض مطلقاً! والصحيح قولُ عليّ.

وقوله تعالى: ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ بكَّة: من أسماء مكة على المشهور، قيل: سُمِّيَتْ بذلك لأنها تَبَكَّ أعناق الظلمة والجبابرة، بمعنى: ييكون بها ويخضعون عندها. وقيل: لأن الناس يَتَبَكَّون فيها، أى: يزدحمون. وعن ابن عباس قال: مكَّة من الفجِّ إلى التنعيم، وبكَّة من البيت إلى البطحاء. وقال إبراهيم: بكَّة: البيت والمسجد. وكذا قال الزهرى. وقال عكرمة: البيت وما حوله بكَّة، وما وراء ذلك مكة. وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة [منها]: مكة، وبكة، والبيت العتيق، والبيت الحرام، والبلد الأمين، وأم القرى، والقادس؛ لأنها تطهر من الذنوب، والمقدسة، والبلدة، والكعبة.

وقوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ أى: دلالات ظاهرة أنه من بناء إبراهيم، وأن الله تعالى عَظَّمَهُ وشرفه. ثم قال تعالى: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ يعنى: الذى لَمَّا ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجدران، حيث كان يقف عليه ويناوله ولده إسماعيل، وقد كان ملصقاً بجدار البيت، حتى أخره عُمَرُ بن الخطاب، فى إمارته إلى ناحية الشرق، بحيث يتمكن الطَّوَّاف، ولا يُشَوِّشُونَ على المصلين عنده بعد الطواف؛ لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]. وقد قدمنا الأحاديث فى ذلك، فأغنى عن إعادتها هاهنا، والله الحمد والمنة. وقال ابن عباس فى قوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ أى: فمنهنَّ مقام إبراهيم والمشاعر. وقال مجاهد: أثر قدميه فى المقام آية بيّنة. وكذا روى عن عُمَرُ بن عبد العزيز، والحسن، وقتادة، وغيرهم.

وقوله: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ يعنى: حَرَمُ مكة إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء، وكذلك كان الأمر فى حال الجاهلية، كما قال الحسن البصرى وغيره: كان الرجل يَقْتُلُ فيضَعُ فى عنقه صوفة ويدخل الحرم فيلقاه ابنُ المقتول فلا يُهَيِّجُهُ حتى يخرج. وقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ. الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قریش: ٣، ٤] وحتى إنه من جُمْلَةِ تحريمها حرمة اصطياد صيدها وتنفيذه عن أوكاره، وحرمة قطع شجرها وقُلْع حَشِيشِهَا، كما ثبتت الأحاديث والآثار فى ذلك عن جماعة من الصحابة مرفوعاً وموقوفاً: فى الصحيحين، واللفظ لمسلم، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «لَاهْجَرَةَ وَلَكِنْ جِهَادَ وَنِيَّة، وَإِذَا اسْتَفْرَغْتُمْ فَأَنْفِرُوا»، وقال يوم فتح مكة: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمُ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا فِى سَاعَةٍ مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْصَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُنْفَرُ صَيْدُهُ، وَلَا يَلْتَقِطُ لُقْطَتُهُ إِلَّا مِنْ عَرَفْهَا،

(١) إسناده صحيح، وهو جزء من خير مطول، رواه الطبرى مطولاً ومختصراً (٢٠٥٨ - ٢٠٦٠، ٧٤٢٢، ٧٤٢٣). وقد ذكره الحافظ ابن كثير مطولاً، وحذفناه وأشرنا إليه فيما مضى عند تفسير الآيات (١٢٥ - ١٢٨) من سورة البقرة.

ولا يُخْتَلَى خَلَاها ، فقال العباس : يا رسول الله ، إلا الإذخر ، فإنه لقينهم ولبيوتهم ، فقال : «إلا الإذخر» (١) . ولهما عن أبي هريرة ، مثله أو نحوه . ولهما واللفظ لمسلم أيضاً عن أبي شريح العدوي أنه قال لعمر بن سعيد ، وهو يبعث البعوث إلى مكة : ائذن لي أيها الأمير أن أحدثك قولاً قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح ، سمعته أذنأي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به ، إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال : «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس ، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا ، ولا يعصد بها شجرة ، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا له : إن الله أذن لنبيه ولم يأذن لكم ، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد الغائب » فقيل لأبي شريح : ما قال لك عمرو ؟ قال : أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح ، إن الحرم لا يعيذ عاصيا ولا قاراً يدم ولا فاراً بخربة (٢) . وعن جابر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لا يحل لأحدكم أن يحمل السلاح بمكة » رواه مسلم . وعن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول ، وهو واقف بالحزورة في سوق مكة : «والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت » . رواه الإمام أحمد ، وهذا لفظه ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه . وقال الترمذي : حسن صحيح (٣) ، وكذا صحح من حديث ابن عباس نحوه . وروى أحمد عن أبي هريرة ، نحوه .

وقوله : «وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حَيُّ الْقَيُّومِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» هذه آية وجوب الحج عند الجمهور . وقيل : بلى هي قوله : «وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ» [البقرة : ١٩٦] والأول أظهر . وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام ودعائمه وقواعده ، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعاً ضرورياً ، وإنما يجب على المكلف في العمر مرة واحدة بالنص والإجماع . روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : «أيها الناس ، قد فرض عليكم الحج فحجوا » . فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت ، حتى قالها ثلاثاً . فقال رسول الله ﷺ : «لَوْ قُلْتُ : نَعَمْ ، لَوَجِبَتْ ، وَلَكِنْ اسْتَطَعْتُمْ » . ثم قال : «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ

(١) مسلم (١ / ٣٨٣) وكذلك رواه البخاري (٦ / ٢٠٢ ، ٢٠٣ فتح) . وقد مضى منه قوله : « إن هذا البلد حرمه الله ... » إلخ عند تفسير الآية : ١٢٥ .

(٢) مسلم (١ / ٣٨٣ ، ٣٨٤) ورواه أحمد في المسند (١٦٤٤٤ ، ١٦٤٤٨) مطولاً ومختصراً . ورواه البخاري (١ / ١٧٦ ، ١٧٧ ، ٤ / ٣٥ ، ٣٩ فتح) . وروى الطبري بعضه (٢٠٢٧) . وقوله : « ولا فاراً بخربة » : بالخاء المعجمة والراء المفتوحين . قال ابن الأثير : « الخربة أصلها العيب ، والمراد بها هنا : الذي يفر بشيء يريد أن ينفرد به ويغلب عليه ، مما لا تميزه الشريعة » .

(٣) المسند (٤ / ٣٠٥ حلي) . وسيذكره الحافظ ابن كثير مرة أخرى ، عند تفسير الآية : ٧ من سورة الشورى . و«الحزورة » ضبطها ياقوت وابن الأثير - بفتح الحاء المهملة وسكون الزاي ثم واو فراء مفتوحين . قال ياقوت : « قال الدارقطني : كذا صوابه ، والمحدثون يفتحون الزاي ويشدون الواو ، وهو تصحيف » . وقال ابن الأثير : « قال الشافعي : الناس يشدون «الحزورة» و«الحديبية» - وهما مخففتان » . وقال ياقوت : « كانت الحزورة سوق مكة ، وقد دخلت في المسجد لما زيد فيه » .

سُؤَالِهِمْ وَأَخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَإِذَا أَمَرْتُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ». ورواه مسلم نحوه (١). وعن ابن عباس قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ». فقام الأقرع بن حابس فقال: يا رسول الله، أفي كل عام؟ قال: «لَوْ قُلْتُمْهَا، لَوَجِبَتْ، وَلَوْ وَجِبَتْ لَمْ تَعْمَلُوا بِهَا، وَلَكِنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْمَلُوا بِهَا؛ الْحَجُّ مَرَّةً، فَمَنْ زَادَ فَهُوَ تَطَوُّعٌ». رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجة، والحاكم (٢) وروى من حديث أسامة زيد.

وفى الصحيحين عن جابر، عن سُرَاقَةَ بن مالك قال: يا رسول الله، مُتَّعَنَا هَذِهِ لِعَامِنَا هَذَا أَمْ لِلْأَبَدِ؟ قال: «لَا، بَلْ لِلْأَبَدِ». وفى رواية: «بَلْ لِلْأَبَدِ أَبَدٌ» (٣). وفى مسند الإمام أحمد، وسنن أبي داود، من حديث أبي واقد الليثي، أن رسول الله ﷺ قال لنسائه فى حجته: «هَذِهِ ثُمَّ ظُهُورُ الْحَصْرِ» (٤) يعنى: ثم الزَّمنَ ظُهُورُ الْحَصْرِ، ولا تخرجن من البيوت (٥).

وأما الاستطاعة فآقسام: تارة يكون الشخص مستطيعا بنفسه، وتارة بغيره، كما هو مقرر فى كتب الأحكام. وروى الحاكم عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ سئل عن قول الله عز وجل: «مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» فقيل: ما السبيل؟ قال: «الزَّادُ وَالرَّاحِلَةُ». ثم قال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه (٦). وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعَجَّلُوا إِلَى الْحَجِّ - يعنى الفريضة - فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَا يَدْرِي مَا يَعْزُضُ لَهُ». وروى عنه أيضا مرفوعا «مَنْ أَرَادَ الْحَجَّ فَلْيَتَعَجَّلْ». ورواه أبو داود (٧).

وقوله: «وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ» قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: أى ومن جحد فريضة الحج فقد كفر، والله غنى عنه. روى أبو بكر الإسماعيلي الحافظ عن عمر بن الخطاب قال: من أطاق الحج فلم يحج، فسواء عليه مات يهوديا أو نصرانيا. وإسناده صحيح إلى

(١) المسند (١٠٦١٥) وصحيح مسلم (١/٣٧٩).

(٢) المسند مارا، أولها: (٢٣٠٤) وخرجناه هناك. وهو عند الحاكم (٢/٢٩٣) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٣) هو جزء من حديث لجابر بن عبد الله، فيه: «أَنْ سُرَاقَةَ بن مالك...». فى البخارى (٤/٤٨٤، ٤٨٥ فتح). ومسلم (١/٣٤٤، ٣٤٥).

(٤) المسند (٥/٢١٨، ٢١٩ حلى). وأبو داود (١٧٢٢). وأسانيده صحيح. ورواه أحمد أيضا، بإسناد صحيح، من حديث أبي هريرة (٩٧٦٤).

(٥) فإذا كان هذا فى النهى عن الحج بعد حجة الفريضة، على أن الحج من أعلى القربات عند الله - فما بالك بما يصنع النساء المتسبات للإسلام فى هذا العصر، من التنقل فى البلاد، حتى ليخرجن سافرات عاصيات ماجنات إلى بلاد الكفر، وحدثن دون محرم، أو مع زوج أو محرم كأنه لا وجود له! فأين الرجال! أين الرجال!؟

(٦) رواه الحاكم (١/٤٤١، ٤٤٢) بإسنادين، صحيح أولهما على شرط الشيخين، وثانيهما على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٧) الأولى فى المسند (٢٨٦٩) وفى إسناده ضعف. والثانى فيه: (١٩٧٣) بإسناد صحيح. وانظر المسند أيضا (١٨٣٣)، (١٨٣٤).

عمر^(١) وروى سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ فِي سُنَنِهِ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ قَالَ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أُبْعَثَ رَجُلًا إِلَى هَذِهِ الْأَمْصَارِ فَيَنْظُرُوا كُلُّ مَنْ كَانَ لَهُ جِدَّةٌ فَلَمْ يَحْجِجْ، فَيَضْرِبُوا عَلَيْهِمُ الْجَزِيَّةَ، مَا هُمْ بِمُسْلِمِينَ، مَا هُمْ بِمُسْلِمِينَ.

﴿ قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنَ ءَامَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾

هذا تعنيف من الله تعالى لكفّرة أهل الكتاب، على عنادهم للحق، وكفرهم بآيات الله، وصدّهم عن سبيله مَنْ أَرَادَهُ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِجَهْدِهِمْ وَطَاقَتِهِمْ، مع علمهم بأن ما جاء به الرسول حق من الله، بما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين، والسادة المرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وما بشرُوا به ونوّهُوا، من ذِكرِ النّبي الأميّ الهاشمي العربي المكيّ، سيد ولد آدم، وخاتم الأنبياء، ورسول رب الأرض والسماء. وقد توعدهم الله تعالى على ذلك بأنه شهيد على صنيعهم ذلك بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء، ومقابلتهم الرسول المبشر بالكذب والجحود والعناد، وأخبر تعالى أنه ليس بغافل عما يعملون، أي: وسيجزئهم على ذلك يوم لا ينفعهم مال ولا بنون.

﴿ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا قَرِيبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أن يطيعوا طائفة من أهل الكتاب، الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، وما منّهم به من إرسال رسوله، كما قال تعالى: ﴿وَدَكْثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٩] وهكذا قال هاهنا: ﴿إِن تَطِيعُوا قَرِيبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ ثم قال: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ يعني: أن الكفر بعيد منكم وحاشاكم منه؛ فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلا ونهاراً، وهو يتلوها عليكم ويبلغها إليكم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨]. وكما جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: «أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَعْجَبُ إِلَيْكُمْ إِيْمَانًا؟» قالوا: الملائكة. قال: «وَكَيْفَ لَا يُؤْمِنُونَ [وَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟]» وذكرُوا الأنبياء، قال: «وَكَيْفَ لَا يُؤْمِنُونَ [وَالْوَحْيُ يَنْزِلُ

(١) وهذا - وإن كان موقوفاً لفظاً - فإنه من المرفوع حكماً، كما هو ظاهر؛ لأن عمر لا يجزم بمثل هذا من قبل نفسه. وذلك الظن به، إن شاء الله.

عَلَيْهِمْ؟ قالوا: فنحن. قال: «وَكَيْفَ لَا تُؤْمِنُونَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ؟!». قالوا: فأى الناس أعجب إيمانًا؟ قال: « قَوْمٌ يَجِيئُونَ مِنْ بَعْدِكُمْ يَجِدُونَ صُحُفًا يُؤْمِنُونَ بِمَا فِيهَا ». وقد ذكرت سند هذا الحديث والكلام عليه فى أول شرح البخارى ، والله الحمد (١).

ثم قال تعالى: «وَمَنْ يَتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» أى: ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العُمدة فى الهداية، والعُدَّة فى مباحدة الغواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد، وخصول المراد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

روى ابن أبى حاتم عن عبد الله - هو ابن مسعود - «اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ» قال: أن يطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر. وهذا إسناد صحيح موقوف . وكذا رواه الحاكم وقد رواه ابن مردويه عن ابن مسعود ، بنحوه مرفوعا. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. كذا قال. والأظهر أنه موقوف ، والله أعلم (٢).

وقد ذهب سعيد بن جبّير وقتادة، ومقاتل وغيرهم إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» [التغابن: ١٦]. وقال ابن عباس فى: لم تنسخ، ولكن «حَقَّ تُقَاتِهِ» أن يجاهدوا فى سبيله حق جهاده، ولا تأخذهم فى الله لومة لائم، ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم.

(١) هذا الحديث ذكره الحافظ ابن كثير ، فيما مضى من التفسير (٧٤١ ، ٧٥) بإسناده من جزء الحسن بن عرقه ، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . وأعله بأن فى إسناده «المغيرة بن قيس البصرى» ، وأن أبا حاتم قال فيه : « منكر الحديث » . ثم أشار هناك إلى رواية للحاكم عن عمر ، بمثله أو نحوه . وأعله بأن فى إسناده «محمد بن حميد ، وفيه ضعف» . وذكره الحافظ ابن كثير أيضاً - دون إسناده أو تخريج - فى اختصار علوم الحديث (ص ١٤٣ بشرحنا : الباعث الحثيث) محتجاً به على صحة الوجادة . وخرجه السيوطى فى تدريب الراوى (ص ١٤٩ ، ١٥٠) ، ونقلنا تخريجه فى (الباعث الحثيث ص ١٤٥) . ومجموع طرقه يدل على صحته . والمغيرة بن قيس البصرى: غلا فيه أبو حاتم . والحق أنه ثقة ، فقد ترجمه البخارى فى الكبير (٤ / ٣٢٦) فلم يذكر فيه جرحاً ، وذكر ابن حبان فى الثقات ، كما نقل الحافظ ابن حجر فى لسان الميزان (٧٩/٦) . ولم نذكر حديثه هذا هناك (٩٨/١) ، اكتفاء بحديث فى معناه صحيح ، من حديث أبى جمعة الأنصارى . والزيادة التى رداها فى لفظ الحديث هنا - هى من اختصار علوم الحديث . وهى ثابتة بنحوها فى الرواية السابقة . وهى ضرورية ، لا يستقيم سياق الكلام بدونها . وقد سقطت فى المخطوطة والمطبوعة هنا .

(٢) هكذا نسب الحافظ ابن كثير الرواية المرفوعة للحاكم ، ولكن الرواية التى يشير إليها هى فى المستدرک (٢ / ٢٩٤) موقوفة غير مرفوعة ، وكذلك ثبت فى مخطوطة مختصرة للذهبي، إلا أن يكون الحاكم رواه فى موضع آخر مرفوعاً، وما أظنه .

وقوله : ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أى : حافظوا على الإسلام فى حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه ، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شىء مات عليه ، ومن مات على شىء بُعث عليه ، فعياًذاً بالله من خلاف ذلك . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ» وَلَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزُّقُومِ قَطِرَتْ لَامْرَتٌ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ عِشَّتَهُمْ فَكَيْفَ بِمَنْ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ إِلَّا الزُّقُومُ . وهكذا رواه الترمذى ، والنسائى ، وابن ماجة ، وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم وقال الترمذى : حسن صحيح . وقال الحاكم : على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه (١) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزْحَرَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ ، فَلْتَدْرِكَهُ مُنِيَّتُهُ ، وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَيَأْتِي إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ» (٢) . وروى الإمام أحمد عن جابر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث : «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» . ورواه مسلم .

وقوله : ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ قيل : ﴿بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ أى : بعهد الله ، كما قال فى الآية بعدها : ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا ثَقَفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحِجْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران : ١١٢] أى بعهد وذمة . وقيل : ﴿بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ﴾ يعنى : القرآن . وقد ورد فى ذلك حديث خاص بهذا المعنى ، فروى الطبرى عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : «كِتَابُ اللَّهِ ، هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَمْدُودُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ» (٣) .

وقوله : ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ : أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة . وقد وردت الأحاديث المتعددة بالنهى عن التفرق والأمر بالاجتماع والاتلاف ، كما فى صحيح مسلم عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : «إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا ، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا ، يَرْضَى لَكُمْ : أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَأَنْ تُتَاصِحُوا مِنْ وَلَاءِ اللَّهِ أَمْرُكُمْ» وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا : قِيلَ وَقَالَ ، وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ ، وَإِضَاعَةُ الْمَالِ . وقد ضمنت لهم العصمة ، عند اتفاقهم ، من الخطأ ، كما وردت بذلك الأحاديث المتعددة أيضاً ، وخيف عليهم الافتراق ، والاختلاف ، وقد وقع ذلك فى هذه الأمة فافترقوا على ثلاث وسبعين فرقة ، منها فرقة ناجية إلى الجنة ومُسْلِمَةٌ من عذاب النار ، وهم الذين على ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه .

(١) المسند (٢٧٣٥) والحاكم (٢/ ٢٩٤) ووافقه الذهبى . ووقع متن الحديث فى المطبوعة مخالفاً للمخطوطة ولرواية المسند ، وأثبتناه على الصواب ، وسيذكره الحافظ ابن كثير مرة أخرى عند تفسير الآية (٦٦) من سورة الصافات .
(٢) المسند (٦٨٠٧) . وهو مختصر من حديث مطول بالإسناد نفسه (٦٧٩٣) وإسناد آخر (٦٥٠٣) ورواه مسلم مطولاً (٨٧/ ٢ ، ٨٨) وسيذكره ابن كثير عند تفسير الآية (١٨٥) من هذه السورة ، من رواية وكيع فى تفسيره ، ثم أشار لرواية المسند .

(٣) الطبرى (٧٥٧٢) . وإسناده ضعيف ، كما فصلنا هناك ، ولكن المعنى صحيح ثابت . فروى ابن حبان فى صحيحه (١٢٣) بتحقيقنا ، عن زيد بن أرقم - مرفوعاً : «إِنِّي تَارَكْتُ فِيكُمْ كِتَابَ اللَّهِ ، هُوَ حَبْلُ اللَّهِ ، مِنْ أَتْبَعِهِ كَانَ عَلَى الْهَدْيِ ، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى الضَّلَالَةِ» . وقد رواه مسلم مطولاً (٢/ ٢٣٨) .

وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِيَعْتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج، فإنه كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، وعداوة شديدة وضغائن، وإحن وذحول طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام فدخل فيه من دخل منهم - صاروا إخوانا متحابين بجلال الله، متواصلين في ذات الله، متعاونين على البر والتقوى، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصَرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ. وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٢] وكانوا على شفا حفرة من النار بسبب كفرهم، فابعدهم الله منها: أَنْ هَذَا هُمْ لِلإِيمَانِ. وقد امتن عليهم بذلك رسول الله ﷺ يوم قَسَمَ غَنَائِمَ حُنَيْنٍ، فَعَتَبَ مِنْ عَتَبَ مِنْهُمْ لَمَّا فَضَّلَ عَلَيْهِمْ فِي الْقِسْمَةِ بِمَا أَرَاهُ اللَّهُ، فخطبهم فقال: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي؟ وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي؟ وَعَالَةً فَاغْنَاكُمْ اللَّهُ بِي؟» فكلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله آمن.

﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلِلَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ (١٠٩)

يقول تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ أى: متصبة للقيام بأمر الله، فى الدعوة إلى الخير، والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ قال الضحاك: هم خاصة الصحابة وخاصة الرواة، يعنى: المجاهدين والعلماء. والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ». وفى رواية: «وَلَيْسَ رَأَى ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةَ خَرْدَلٍ» (١).

وروى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان، أن النبى ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ

(١) وهم الحفاظ ابن كثير هنا وهما شديدا . فحديث « من رأى منكم منكرا » إلخ - هو حديث أبى سعيد الخدرى، كما أثبتنا . ولكن الذى قاله ابن كثير هنا : « عن أبى هريرة » . وهو خطأ على اليقين . والحديث فى صحيح مسلم (٢٩/١) مطولا ، وكذلك رواه الإمام أحمد ، مطولا ومختصرا فى مسند أبى سعيد (١١٠٨٩) ، (١١٦٧) . ثم قوله : « وفى رواية : وليس وراء ذلك » إلخ - لم يكن رواية فى حديث أبى سعيد ، كما يوهم ظاهر كلامه . بل هو جزء من حديث مطول عن ابن مسعود ، رواه مسلم عقب حديث أبى سعيد . فليس لأبى هريرة رواية فى هذا ولا ذاك .

بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لِيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُهُمْ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ». ورواه الترمذى، وابن ماجه، وقال الترمذى: حسن. والاحاديث فى هذا الباب كثيرة. مع الآيات الكريمة كما سيأتى تفسيرها فى أماكنها.

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ ﴾. ينهى هذه الأمة أن تكون كالأمم الماضين فى تفرقهم واختلافهم، وتركهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع قيام الحجة عليهم . وروى الإمام أحمد عن أبى عامر عبد الله بن لُحى قال: حججنا مع معاوية بن أبى سفيان، فلما قدمنا مكة قام حين صلى الظهر فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى ثَلَاثِينَ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً - يعنى الأهواء - كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ، وَإِنَّهُ سَيَخْرُجُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ، كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ، لَا يَبْقَى مِنْهُ عَرَقٌ وَلَا مَقْصِلٌ إِلَّا دَخَلَهُ». والله - يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ - لَنْ لَمْ تَقُومُوا بِمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّكُمْ ﷺ لَتَغَيِّرَكُمْ مِنَ النَّاسِ أُخْرَى إِلَّا يَقُومَ بِهِ». وهكذا رواه أبو داود، وقد روى هذا الحديث من طرق.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ يعنى: يوم القيامة، حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة، قاله ابن عباس.

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۖ ﴾: قال الحسن البصرى: وهم المنافقون: ﴿فَلَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وهذا الوصف يعنى كل كافر ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يعنى: الجنة، ماكنون فيها أبدا لا ييغون عنها حولا. وقد روى الترمذى عن أبى غالب قال: رأى أبو أمامة رؤوسا منصوبة على درج مسجد دمشق، فقال أبو أمامة: كلاب النار، شر قتلى تحت أديم السماء، خير قتلى من قتلوه، ثم قرأ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ إلى آخر الآية. قلت لأبى أمامة: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: لو لم أسمعته إلا مرة أو مرتين أو ثلاثا أو أربعاً - حتى عد سبعا - ما حدثتكموه. ثم قال: هذا حديث حسن: وقد رواه ابن ماجه، وأخرجه أحمد بنحوه .

ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ أى: هذه آيات الله وحججه وبياناته ﴿تَنْتَلُوها عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿بِالْحَقِّ﴾ أى: تكشف ما الأمر عليه فى الدنيا والآخرة ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ أى: ليس بظالم لهم بل هو الحكيم العدل الذى لا يجور؛ لأنه القادر على كل شىء، العالم بكل شىء، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحدا من خلقه؛ ولهذا قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: الجميع ملك له وعبيد له ﴿وَالِلَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أى: هو المتصرف فى الدنيا والآخرة، الحاكم فى الدنيا والآخرة.

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلَ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١) لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتِلُوكُمْ يُولُوكُمُ الْأَذْيَارَ ثُمَّ لَا يَضُرُّوكَ (٢) ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفْقُوا إِلَّا يَحْبِلُ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٌ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (٣)

يخبر تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم فقال: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾. روى البخارى عن أبى هريرة: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ قال: خير الناس للناس، تاتون بهم فى السلاسل فى أعناقهم حتى يدخلوا فى الإسلام (١). وهكذا قال ابن عباس ، ومُجاهد ، وعكرمة ، وغيرهم : يعنى: خير الناس للناس. والمعنى: أنهم خيرُ الأمم وأنفع الناس للناس؛ ولهذا قال: ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾.

وروى الإمام أحمد عن دُرَّة بنت أبى لهب، قالت: قام رجل إلى النبى ﷺ وهو على المنبر، فقال: يا رسول الله، أئى الناس خير؟ فقال: «خيرُ الناسِ أقرؤهم وأتقاهم لله، وأمرهم بالمعروف، وأنهارهم عن المنكر، وأوصلهم للرحم» (٢). وروى أحمد ، والنسائى والحاكم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾، قال: هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة (٣).

والصحيح أن هذه الآية عامة فى جميع الأمة، كل قرْن بحسبه، وخير قرونهم: الذين بُعثَ فيهم رسول الله ﷺ، ثم الذين يكونهم، ثم الذين يلونهم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ أى: خياراً ﴿ لِيَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾. وروى الإمام أحمد، والترمذى، وابن ماجة، والحاكم عن معاوية بن حنيفة ، قال: قال رسول الله ﷺ: « أَنْتُمْ تَوْفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً ، أَنْتُمْ خَيْرُهَا ، وَآكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ». وهو حديث مشهور ، وقد حسَّنه الترمذى (٤). ويروى من حديث معاذ بن جبل ، وأبى سعيد ، نحوه (٥).

(١) البخارى (١٦٩/٨ فتح) ، وهو موقوف لفظاً ، ولكنه مرفوع حكماً . وقد رواه - بنحوه - البخارى مرفوعاً أيضاً (١٠١/٦ فتح) ، وكذلك رواه أحمد فى المسند (٨٠٠٠) وابن حبان فى صحيحه (١٣٤) مرفوعاً .
(٢) المسند (٤٣٢/٦ حلى) . وهو من رواية « زوج دُرَّة بنت أبى لهب » عنها . ولم يذكر اسمه ، ولكن عرف أنه « دحية بن خليفة الكلبي » كما يبين من ترجمتها فى ابن سعد (٣٤/٨) والإصابة (٧٦/٨ ، ٧٧) وإسناد الحديث صحيح .

(٣) المسند (٢٤٦٣ ، ٢٩٢٨ ، ٢٩٨٩ ، ٣٣٣١) والحاكم (٢/٢٩٤) وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى ، ونسبه الحافظ فى الفتح (١٦٩/٨) لعبد الرزاق وأحمد والنسائى والحاكم « بإسناد جيد » .
(٤) مضى عند تفسير الآية : ٤٧ من سورة البقرة
(٥) حديث أبى سعيد ، ضمن حديث مطول فى المسند (١١٦٠٩) .

ولما حازت هذه الأمة قَصَبَ السَّبَقِ إلى الخيرات بنبيها محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه أشرف خلق الله، وأكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرع عظيم لم يُعطه نبياً قبله ولا رسولا من الرسل . فالعمل على منهاجه وسبيله، يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه، كما روى الإمام أحمد عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيَتْ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ». فقلنا: يا رسول الله، ما هو؟ قال: «نُصِرْتُ بِالرَّغْبِ وَأُعْطِيَتْ مَفَاتِيحُ الْأَرْضِ، وَسُمِّيْتُ أَحْمَدَ، وَجُعِلَ التُّرَابُ لِي طَهْورًا، وَجُعِلَتْ أُمَّتِي خَيْرَ الْأُمَمِ». تفرد به أحمد من هذا الوجه، وإسناده حسن^(١).

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: أكثرنا الحديث عند رسول الله ﷺ ذات ليلة، ثم غَدَرْنَا إِلَيْهِ فَقَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأَنْبِيَاءُ اللَّيْلَةَ بِأَمَمِهَا، فَجَعَلَ النَّبِيُّ يَمُرُّ وَمَعَهُ الثَّلَاثَةُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الْعَصَابَةُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ النَّفَرُ، وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّى مَرَّ عَلَى مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَعَهُ كَبْكَبَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَعْجَبُونِي، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ فَقِيلَ: هَذَا أَخُوكَ مُوسَى، مَعَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ» [قال]: «فَقُلْتُ: فَأَيْنَ أُمَّتِي؟ فَقِيلَ: انْظُرْ عَنْ يَمِينِكَ. فَتَنَظَّرْتُ فَإِذَا الظَّرَابُ قَدْ سُدَّ بِوُجُوهِ الرِّجَالِ، [ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ عَنْ يَسَارِكَ. فَتَنَظَّرْتُ، فَإِذَا الْأَفُقُ قَدْ سُدَّ بِوُجُوهِ الرِّجَالِ] فَقِيلَ لِي: أَرْضَيْتَ؟ فَقُلْتُ: «رَضِيتُ يَا رَبِّ، [رَضِيتُ يَا رَبِّ]». قال: «فَقِيلَ لِي: إِنْ مَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ». فقال النبي ﷺ: «فَدَاكُمْ أَبِي وَأُمِّي، إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنَ السَّبْعِينَ أَلْفًا فَافْعَلُوا، فَإِنْ قَصَرْتُمْ فَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الظَّرَابِ، فَإِنْ قَصَرْتُمْ فَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْأَفُقِ، فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ ثُمَّ أَنَا سَاءَ يَتَهَاوُسُونَ». فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله - يا رسول الله - أن يجعلني من السبعين، فدعا له . فقام رجل آخر فقال: ادع الله - يا رسول الله - أن يجعلني منهم فقال: «قَدْ سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةُ». قال: ثم تحدثنا فقلنا: من تَرَوْنَ هَؤُلَاءِ السَّبْعِينَ أَلْفَ؟ قوم ولدوا في الإسلام لم يَشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا حَتَّى مَاتُوا؟ فبلغ ذلك النَّبِيَّ ﷺ فقال: «هُمْ الَّذِينَ لَا يَكْتُونُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَطْطِيرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». وإسناده صحيح، تفرد به أحمد ولم يخرجوه^(٢). وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ وَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا، تُضَيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةُ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ». قال أبو هريرة: فقام عكاشة بن محصن الأسدي يرفع نمرَةً، عليه فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ». ثم قام رجل من الأنصار فقال: [يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم] فقال: «سَبَقَكَ بِهَا

(١) المسند (٧٦٣) . وحسنه أيضا الحافظ في الفتح (١٦٩/ ٨) . وعندى أن إسناده صحيح .

(٢) المسند (٢٨٠٦ - ٣٩٨٧ - ٣٩٨٩ ، ٤٠٠٠) ورواه الحاكم (٤/ ٥٧٧ ، ٥٧٨) وصححه ووافقه الذهبي . وهو في مجمع الزوائد (١٠/ ٤٠٥ ، ٤٠٦) وقال : « وأحد أسانيد أحمد والبخاري رجاله رجال الصحيح » . وأشار إليه الحافظ في الفتح (١١/ ٣٥٢) عند أحمد والبخاري « بسند صحيح » . وقد صححتنا لفظ الحديث هنا من رواية المسند والمخطوطة الأهرية . والزيادات من المسند . و« الككبكية » بضم الكافين وفتحهما : الجماعة المتضامنة من الناس . و« الظراب » - بكسر الظاء المعجمة وتخفيف الراء : الجبال الصغار .

عكاشة^(١).

وروى مسلم عن حُصَيْن بن عبد الرحمن قال: كنت عند سعيد بن جبيرة فقال: أيكم رأى الكوكب الذى انقضَّ البارحة؟ قلتُ: أنا. ثم قلتُ: أما إنى لم أكن فى صلاة، ولكنى لدغْتُ. قال: فما صنعت؟ قلتُ: استرقيْتُ. قال: فما حملك على ذلك؟ قلتُ: حديث حدثناه الشعبي. قال: وما حدثكم الشعبي؟ قلتُ: حدثنا عن بُرَيْدَةَ^(٢) بن الحُصَيْب الأسلمى أنه قال: لا رُقِيَّةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ. فقال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابنُ عباس عن النبى ﷺ قال: «عُرِضَتْ عَلَى الْأُمَمِ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رَفَعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمْتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْأَفْقِ. فَتَنَظَرْتُ، [فَتَنَظَرْتُ] فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ إِلَى الْأَفْقِ الْآخَرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَلَا عَذَابٍ. ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسَ فِي أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحَّبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وَلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا الَّذِي تَخَوْضُونَ فِيهِ؟» فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: «هُمْ الَّذِينَ لَا يَرْقُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». فَقَامَ عَكَاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: ادْعِ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ مِنْهُمْ قَوْمًا: «أَنْتَ مِنْهُمْ». ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: ادْعِ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ مِنْهُمْ. قَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةُ». وَأَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ^(٣). وَثَبِتَ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» فَكَبَرْنَا. ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» فَكَبَرْنَا. ثُمَّ قَالَ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ»^(٤). وَرَوَى عَبْدِ الرَّزَّاقِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «نَحْنُ الْآخَرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ أَوَّلُ النَّاسِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، بِيَدِ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، وَأُوتِيَانَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَهَدَانَا اللَّهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ، فَهَذَا الْيَوْمَ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ، النَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ، غَدًا لِلْيَهُودِ، وَلِلنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ» رَوَاهُ الْبَخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مَرْفُوعًا بِنَحْوِهِ^(٥).

(١) المسند (٨٠٠٣) والبخارى (٢٣٤/١٠ ، ٣٥٨/١١ ، ٣٥٩ فتح) ومسلم (٧٨/١) .

(٢) فى المطبوع من «عمدة التفسير»: «بريدة» بيامين بينهما راء، ولا شك أنه خطأ من الطابع. (الباز) .

(٣) مسلم (٧٨/٢ ، ٧٩) . وزيادة [فنظرت] من صحيح مسلم . وفى المطبوعة هنا زيادة «ولا يكتون» ، وليست فى مسلم ولا فى المخطوطة، ولكنها ثابتة فى المسند ، والحديث فيه: (٢٤٤٨ ، ٢٤٤٩) . وأشرنا هناك لمواضعه فى البخارى .

(٤) هو مختصر من حديث فى صحيح مسلم (٧٩/١) ، وينحوه رواه أحمد (٣٦٦١ ، ٤١٦٦ ، ٤٢٥١) والبخارى (٣٣٥/١١ ، ٣٣٦ ، ٤٦٠) .

(٥) هو فى تفسير عبد الرزاق (ص ٢٣ ، ٢٤) ورواه أحمد (٧٦٩٣) عن عبد الرزاق . وليس فيه: «نحن أول الناس دخولا الجنة» . وهو فى مسلم (٢٣٤/١) بأسانيد وألفاظ متقارب المعنى ، وكذلك رواه أحمد مرارا ، منها: (٧٣٠٨ ، ٧٣٩٣ ، ٧٣٩٥ ، ٧٦٩٢ ، ٨١٠٠) ومضى من رواية أخرى عن عبد الرزاق (ص ٨٣) . وقد ذكر الحافظ ابن كثير فى تفسير هذه الآية أحاديث كثيرة فى هذا المعنى، وفيما أثبتنا منها كفاية والحمد لله .

فهذه الأحاديث فى معنى قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ فمن اتصف من هذه الامة بهذه الصفات دخل معهم فى هذا المدح ، ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله : ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة : ٧٩] . ولهذا لما مدح الله تعالى هذه الامة على هذه الصفات ، شرع فى ذم أهل الكتاب وتأنيبهم ، فقال : ﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ أى : بما أنزل على محمد ﷺ ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أى : قليل منهم من يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم ، وأكثرهم على الضلالة والكفر والفسق والعصيان .

ثم قال تعالى مخبراً عباده المؤمنين ومبشراً لهم أن النصر والظفر لهم على أهل الكتاب الكفرة الملحدين ، فقال : ﴿ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ الْأُدْبَارُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴾ . وهكذا وقع ، فإنهم يوم خيبر أذلهم الله وأرغم آنافهم ، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة ، كلهم أذلهم الله ، وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة فى غير ما موطن ، وسلبوهم ملك الشام أبد الأبدىن ودهر الداهرين ، ولا تزال عصاة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم كذلك ، ويحكم ، بشرع محمد ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ولا يقبل إلا الإسلام .

ثم قال تعالى : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا تَقِفُوا إِلَّا بِحِجْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحِجْلٍ مِنَ النَّاسِ ﴾ أى : ألزمهم الله الذلة والصغار أينما كانوا فلا يأمنون ﴿ إِلَّا بِحِجْلٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى : بذمة من الله ، وهو عقد الذمة لهم وضرب الجزية عليهم ، وإلزامهم أحكام الملة ﴿ وَحِجْلٍ مِنَ النَّاسِ ﴾ أى : أمان منهم ولهم ، كما فى المهادن والمعاهد والأسير إذا أمته واحد من المسلمين . وقال ابن عباس : أى : بعهد من الله وعهد من الناس ، وهكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وغيرهم .

وقوله : ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى : ألزموا فالتزموا بغضب من الله ، وهم يستحقونه ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ﴾ أى : ألزموها قدراً وشرعاً . ولهذا قال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ ، أى : إنما حملهم على ذلك الكبر والبغى والحسد ، فاعقبتهم ذلك الذلة والصغار والمسكنة أبداً ، متصلاً بذلة الآخرة ، ثم قال : ﴿ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ أى : إنما حملهم على الكفر بآيات الله وقتل رسل الله وقبضوا لذلك - أنهم كانوا يكثرون العصيان لأوامر الله ، والغشيان لمعاصى الله ، والاعتداء فى شرع الله ، فعياًداً بالله من ذلك ، والله المستعان .

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ ﴿ ١١٧ ﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿ ١١٨ ﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿ ١١٩ ﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُقْبَلَ عَنْهُمْ

أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَدُهُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾
مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ
ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: أخر رسول الله ﷺ صلاة العشاء، ثم خرج إلى المسجد، فإذا الناس ينتظرون الصلاة، فقال: «أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم». قال: فنزلت هذه الآيات: «ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة» حتى بلغ: «والله عليهم بالفتن» (١).

والمشهور عند كثير من المفسرين - كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره، ورواه العوفي عن ابن عباس: أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأسد ابن عبيد وثعلبة بن سعية وغيرهم (٢)، أى: لا يستوى من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب وهؤلاء الذين أسلموا، ولهذا قال تعالى: «ليسوا سواء» أى: ليسوا كلهم على حد سواء، بل منهم المؤمن ومنهم المجرم، ولهذا قال تعالى: «من أهل الكتاب أمة قائمة» أى: قائمة بأمر الله، مطيعة لشرع الله متبعة نبي الله، «قائمة» بمعنى مستقيمة «يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون» أى: يقومون الليل، ويكثرون التهجد، ويتلون القرآن فى صلواتهم «يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأوتيت من الصالحين». وهؤلاء هم المذكورون فى آخر السورة: «وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليك وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشتركون بآيات الله فمما قليل أُولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب» [الآية ١٩٩] وهكذا قال

(١) المسند (٣٧٦٠) وإسناده صحيح - ورواه أيضاً الطبرى (٧٦٦١، ٧٦٦٢) وفى الزوائد (٣١٢/١) أنه رواه أيضاً أبو يعلى والبخارى والطبرانى فى الكبير.

(٢) «سعية»: بفتح السين وسكون العين المهملتين بعدهما ياء تحتية ساكنة. ووقع فى المخطوطة والمطبوعة «شعبة»! وهو تصحيف، كما حققت ضبطه فى الأصمعيات، (ص ٨٠، ٨١).

و«سعية» - هذا - والد ثعلبة: هو «سعية بن الغريض بن عادي، شاعر يهودى لم يدرك الإسلام وهو أخو السموأل بن عادي، الشاعر المشهور، وله ولد آخر أسلم أيضاً، وهو «أسد بن سعية» وقد أثبتناه فى شرح الأصمعيات «أسيد» بزيادة الياء، وهو خطأ، تبعنا فيه خطأ الذهبى فى المشتبه.

فائدة: تختلف عبارات الصحابة، وعبارات الرواة - فى أسباب نزول الآيات، ونجد أحاديث صحاحاً وروايات قوية، عن حوادث متعددة، ووقائع متباينة، يحكى كل منها سبباً لنزول آية معينة.

والرأى الراجح عندنا للجمع فى مثل هذه الحالات - وقد سبقنا إليه غيرنا من أهل العلم: أن يكون المراد أن الآية منطبقة على هذه الحادثة، داخلية الحادثة فى عموم لفظها ومعناها، دون تقييد ذلك بسبب معين، قد يكون حادثة أخرى، وفى بعض الأحيان تكون الآية قد تليت لمناسبة معينة يحضرها أحد الصحابة، فيظن أن هذه المناسبة هى سبب النزول، فيحكى ما شهد، دون ما لم يشهد، ولم يتصل به علمه من قبل، ويكون الجميع صحيحاً، والرواة صادقين. وهذا أحسن ما نرى فى ذلك، ولعله الصواب، إن شاء الله.

هاهنا: ﴿وَمَا تَقْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ نَكْفُرَهُ﴾ أى: لا يضيع عند الله بل يجزيكم به أوفر الجزاء (١) ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ أى: لا يخفى عليه عمل عامل، ولا يضيع لديه أجر من أحسن عملا.

ثم قال تعالى مخبراً عن الكفرة المشركين بأنه ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ۚ أَىٰ لَا تَرَدُّ عَنْهُمْ بَأْسُ اللَّهِ وَلَا عَذَابُهُ إِذَا أَرَادَهُ بِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ثم ضرب مثلاً لما ينفقه الكفار في هذه الدار، فقال تعالى : ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَي : بَرْدٌ شَدِيدٌ، قاله ابن عباس، وعِكْرَمَةُ، وسعيد بن جبّير وغيرهم. وعن ابن عباس أيضاً ومجاهد : أَي : نار . وهو يرجع إلى الأول ، فإن البرد الشديد سيّما الجليد يحرق الزروع والشمار، كما يحرق الشيء بالنار ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ أَي : فأحرقتها، يعنى بذلك السَّفْعَةُ (٢) إذا نزلت على حَرْثٍ قد آن جدّاهُ أو حصّاه فدمرته وأعدمت ما فيه من ثمر أو زرع، فذهبت به وأفسدته، فعدمه صاحبه أحوج ما كان إليه . فكذلك الكفار : يحقّ الله ثواب أعمالهم في هذه الدنيا وثمرتها كما أذهب ثمرة هذا الحَرْثِ بذنوب صاحبه . وكذلك هؤلاء بتوهمها على غير أصل وعلى غير أساس ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ .

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا
عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن
كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٨﴾ هَٰئِنتُمْ أَوْلَاءُ مُحِبِّيهِمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقَاكُمْ
قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَٰلِيَكُمْ الْأُنَامِلَ مِنَ الْقَيْظِ قُلْ مَوْتُوٓا يَغِيظُكُمُ ۖ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ ﴿١٩﴾ إِن تَمَسَّكْتُمُ حَسَنَةً سَنُوْهُمُ ۖ وَإِن تَبْصُرْهُمْ سِنَّةً يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن
تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۖ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾

يقول تبارك وتعالى ناهياً عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة، أى: يُطْلَعُونَهُمْ عَلَى سِرَائِرِهِمْ وَمَا يَضْمُرُونَهُ لِأَعْدَائِهِمْ، وَالْمَنَافِقُونَ بِجَهْدِهِمْ وَبَطَانَتِهِمْ لَا يَأْلُونَ الْمُؤْمِنِينَ حَبَالًا، أى: يَسْعَوْنَ فِي مَخَالَفَتِهِمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ بِكُلِّ مُمْكِنٍ، وَمَا يَسْتَطِيعُونَ مِنَ الْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ، وَيُودُونَ مَا يُغْنِي الْمُؤْمِنِينَ وَيُحَرِّجُهُمْ وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ.

وقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ أى: من غيركم من أهل الأديان، وبطانة الرجل: هم

(١) « يفعلوا » و« يكفروه » - قراءة حفص وحمزة والكسائي وخلف والأعمش - بياء الغائب فيهما . وقرأ باقي القراءة الأربعة عشر « تفعلوا » و« تكفروه » - بقاء الخطاب . فأثبتتهما في الآيات بالياء ، اتباعاً للثابت في المصحف الذي بأيدي الناس . وأثبتتهما هنا - أثناء التفسير - بقاء الخطاب، كما ثبت في المخطوطة ، وبدلالة تفسير الحافظ ابن كثير بقوله « بل يجزيكم » . أما المطبوعة فلأنها غيرتها إلى « يجزيهم » !

(٢) « السفعة » - بفتح السين وتقديم الفاء بعدها عين مهملة : من قولهم : « سفعت النار والشمس والسموم سفعا » : غيرت لون بشرته وسودته . و« السوافع » : لوافح السموم . وفي المطبوعة : « السفعة » بتقديم العين . وهو تصحيف ، صوابه في المخطوطة .

خاصة أهله الذين يطلعون على داخل أمره . وقد روى البخارى ، والنسائى ، وغيرهما ، عن أبى سعيد ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ وَلَا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ إِلَّا كَانَتْ لَهُ بَطَانَتَانِ : بَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحْضُهُ عَلَيْهِ ، وَبَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالسُّوءِ وَتَحْضُهُ عَلَيْهِ ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ » . ورواه النسائى عن أبى هريرة ، مرفوعا ، بنحوه (١) . وروى ابن أبى حاتم : قيل لعمر بن الخطاب : إن هاهنا غلاما من أهل الحيرة ، حافظ كاتب ، فلو اتخذته كاتباً؟ قال : قد اتخذت إذا بطانة من دون المؤمنين . ففي هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم فى الكتابة ، التى فيها استطالة على المسلمين وإطلاع على دواخل أمورهم التى يخشى أن يقشوها إلى الأعداء من أهل الحرب (٢) ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿لَا يَأْتِيَنَّكُمْ خَبَلًا وَدُومًا عَنِمٌ﴾ .

وروى أبو يعلى عن الأزهر بن راشد قال : كانوا يأتون أنسا ، فإذا حدثهم بحديث لا يدرون ما هو ، أتوا الحسن - يعنى البصرى - فيفسره لهم . قال : فحدث ذات يوم عن النبى ﷺ أنه قال : «لَا تَسْتَضِيؤُوا بِنَارِ الْمُشْرِكِينَ ، وَلَا تَنْقُشُوا فِي خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبِيًّا» . فلم يدروا ما هو ؟ فاتوا الحسن فقالوا له : إن أنسا حدثنا أن رسول الله ﷺ قال : «لَا تَسْتَضِيؤُوا بِنَارِ الْمُشْرِكِينَ وَلَا تَنْقُشُوا فِي خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبِيًّا؟» . فقال الحسن : أما قوله : «لَا تَنْقُشُوا فِي خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبِيًّا» : محمد ﷺ . وأما قوله : «لَا تَسْتَضِيؤُوا بِنَارِ الْمُشْرِكِينَ» يقول : لا تستشيروا المشركين فى أموركم . ثم قال الحسن : تصديق ذلك فى كتاب الله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ﴾ . هكذا رواه أبو يعلى ، وقد رواه أحمد والنسائى مثله ، من غير ذكر تفسير الحسن البصرى (٣) .

وهذا التفسير فيه نظر ، ومعناه ظاهر : «لَا تَنْقُشُوا فِي خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبِيًّا» أى : بخط عربى ، لثلاث يشابه نقش خاتم النبى ﷺ ، فإنه كان نقشه : «محمد رسول الله» ؛ ولهذا جاء فى الحديث الصحيح أنه نهى أن ينقش أحد على نقشه . وأما الاستضاءة بنار المشركين ، فمعناه : لا تقاربوهم فى المنازل بحيث تكونون معهم فى بلادهم ، بل تباعدوا منهم وهاجروا من بلادهم ، فحمل الحديث على ما قاله الحسن ، رحمه الله ، والاستشهاد عليه بالآية - فيه نظر ، والله أعلم .

ثم قال : «قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ» أى : قد لاح على صفحات وجوههم ، وفلتت ألسنتهم من العداوة ، مع ما هم مشتملون عليه فى صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله ، ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل ، ولهذا قال : «قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ» .

(١) حديث أبى سعيد فى البخارى (١٣/١٦٤ ، ١٦٥ فتح) ، ورواه أيضاً أحمد فى المسند (١١٣٦٢ ، ١١٨٥٧) . وحديث أبى هريرة فى المسند (٧٢٣٨ ، ٧٨٧٤) وذكره البخارى معلقا عقب حديث أبى سعيد . وفى رواية أبى هريرة زيادة : « وهو مع التى تغلب عليه منهما » .

(٢) وقد ابتلى المسلمون بهذا بلاء شديدا وشاع فيهم ، ورأوا من خطره ما فيه عبرة لمن يعتبر . وأنى هذا ؟

(٣) ورواه الطبرى أيضا مع تفسير الحسن : (٧٦٨٥) . وأما رواية الإمام أحمد فإنها فى المسند (١١٩٧٨) . ورواه البخارى أيضا فى الكبير (٤٥٥/١/١) دون كلام الحسن . وفسر قوله : « عربيا » وقال : « يقول : لا تكتبوا مثل خاتم النبى : « محمد رسول الله » .

هَآ أَنتُمْ أَوْلَىٰ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴿١٢١﴾ أَى : أنتم - أيها المؤمنون - تحبون المنافقين بما يظهرون لكم من الإيمان، فتحبونهم على ذلك وهم لا يحبونكم، لا باطنا ولا ظاهرا ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أَى : ليس عندكم فى شىء منه شك ولا ريب، وهم عندهم الشك والريب والحيرة. وعن ابن عباس: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أَى : بكتابتكم وكتابتهم، وبما مضى من الكتب قبل ذلك، وهم يكفرون بكتابتكم، فأنتم أحق بالبغضاء لهم، منهم لكم. رواه ابن جرير. ﴿وَإِذَا لَقَوُكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ والآنامل: أطراف الأصابع، وقيل : هى الأصابع .

وهذا شأن المنافقين يُظهرون للمؤمنين الإيمان والمودة، وهم فى الباطن بخلاف ذلك من كل وجه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ وذلك أشد الغيظ والحق، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أَى : مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ويغيظكم ذلك منهم، فاعلموا أن الله متم نعمته على عباده المؤمنين ومكمل دينه، ومُعلٍ كلمته ومظهر دينه، فموتوا أنتم بغيظكم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أَى : هو عليم بما تنطوى عليه ضمائركم، وتكنه سرائركم من البغضاء والحسد والغل للمؤمنين، وهو مجازيكم عليه فى الدنيا بأن يريكم خلاف ما تؤملون، وفى الآخرة بالعذاب الشديد فى النار التى أنتم خالدون فيها، فلا خروج لكم منها .

ثم قال: ﴿إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً تَسْرُهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾. وهذه الحال دال على شدة العداوة منهم للمؤمنين وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب، ونصر وتأييد، وكثروا وعزّ أنصارهم، ساء ذلك المنافقين، وإن أصاب المسلمين سنة - أَى : جذب - أو أدبل عليهم الأعداء، لما لله تعالى فى ذلك من الحكمة، كما جرى يوم أحد، فرح المنافقون بذلك، قال الله تعالى مخاطبا عباده المؤمنين: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَفْعَلُونَ مُحِيطٌ﴾، يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفُجَّار، باستعمال الصبر والتقوى، والتوكل على الله الذى هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. ولا يقع شىء فى الوجود إلا بتقديره ومشيته، ومن توكل عليه كفاه.

ثم شرع تعالى فى ذكر قصة أحد، وما كان فيها من الاختبار لعباده المؤمنين، والتميز بين المؤمنين والمنافقين، وبيان صبر الصابرين، فقال تعالى:

﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾
 إِذْ هَمَّتْ طَلَافِقَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ
 وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

المراد بهذه الواقعة يوم أحد عند الجمهور، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسدى، وغير واحد. وعن الحسن البصرى: المراد بذلك يوم الأحزاب! . رواه ابن جرير، وهو غريب

لا يُعَوَّلُ عليه . وكانت وقعة أحد يوم السبت من شوال سنة ثلاث من الهجرة (١) . وكان سببها أن المشركين حين قُتل من قتل من أشrafهم يوم بدر ، وسَلَمَت العير بما فيها من التجارة التي كانت مع أبي سفيان ، [فلما رجع قفلهم (٢)] قال أبناء من قُتل ، ورؤساء من بقى لأبي سفيان : أرصد هذه الأموال لقتال محمد ، فأنفقوها في ذلك ، وجمعوا الجموع والأحاييش وأقبلوا في قريب من ثلاثة آلاف ، حتى نزلوا قريباً من أحد تلقاء المدينة ، فصلى رسول الله ﷺ يوم الجمعة ، فلما فرغ منها صلى على رجل من بنى النجار ، يقال له : مالك بن عمرو ، واستشار الناس : أخرج إليهم أم يمكث بالمدينة ؟ فأشار عبد الله بن أبي بالمقام بالمدينة ، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوها قاتلهم الرجال في وجوههم ، ورامهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائين . وأشار آخرون من الصحابة - ممن لم يشهد بدر - بالخروج إليهم ، فدخل رسول الله ﷺ فلبس لامته وخرج عليهم ، وقد ندم بعضهم وقالوا : لعننا استكرهنا رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله ، إن شئت أن نمكث ؟ فقال رسول الله ﷺ : « مَا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ إِذَا لَيْسَ لَامَتُهُ أَنْ يَرْجِعَ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ لَهُ » . فسار ، عليه السلام ، في ألف من أصحابه ، فلما كانوا بالشوط (٣) رجع عبد الله بن أبي بثلاث الجيش مغضباً ؛ لكونه لم يرجع إلى قوله ، وقال هو وأصحابه : لو نعلم اليوم قتالاً لا تبعناكم ، ولكننا لا نراكم تقاتلون اليوم . واستمر رسول الله ﷺ سائراً حتى نزل الشعب من أحد في عذوة الوادي . وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال : « لَا يُقَاتِلَنَّ أَحَدٌ حَتَّى نَأْمُرَهُ بِالْقِتَالِ » . ونهيا رسول الله ﷺ للقتال وهو في سبعمئة من أصحابه ، وأمر على الرماة عبد الله بن جبير أخا بني عمرو بن عوف ، والرماة يومئذ خمسون رجلاً ، فقال لهم : « انْضَحُوا الْخَيْلَ عَنَّا ، وَلَا نُؤْتِيَنَّ مِنْ قَبْلِكُمْ . وَالزُّمُوا مَكَانَكُمْ إِنْ كَانَتْ النُّوْبَةُ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطِفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ » . وظاهر رسول الله ﷺ بين درعين ، وأعطى اللواء مُصَنَّب بن عُمَيْر أخا بني عبد الدار . وأجاز رسول الله ﷺ بعض الغلمان يومئذ وأرجأ آخرين ، حتى أمضاهم يوم الخندق بعد هذا اليوم بقریب من ستين . ونهيات قریش وهم ثلاثة آلاف ، ومعهم مائة فرس قد جنبوها ، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد ابن الوليد : وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل ، ودفعوا إلى بني عبد الدار اللواء . ثم كان بين الفريقين ما سيأتى تفصيله في مواضعه [عند هذه الآيات] إن شاء الله تعالى .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ أى : تنزلهم منازل وتجعلهم ميمنة وميسرة وحيث أمرتهم ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى : سميع لما تقولون ، عليم بضمائرهم .

(١) نقل الحافظ قولين : أنها كانت في ١١ شوال ، والآخر : في النصف من شوال . والثابت في كتاب التوفيقات الإلهامية أن أول شوال سنة ٣ - كان يوم أحد . فيكون يوم السبت هو يوم ١٤ منه .

وانظر تفصيل الأخبار عن غزوة أحد في (البداية والنهاية لابن كثير ٩/ ٤ - ٦١) .

(٢) الزيادة من المخطوطة الأزهرية . و « القفل » - بالقاف والفاء المفتوحتين : اسم جمع للقافل ، من القفول ، وهو الرجوع من الغزو .

(٣) « الشوط » - بفتح الشين وسكون الواو : بستان بين المدينة وأحد .

وقد أورد ابن جرير هاهنا سؤالاً، حاصله: كيف يقولون: إن النبي ﷺ خرج إلى أحد يوم الجمعة بعد الصلاة، وقد قال الله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾؟ ثم كان جوابه عنه: أن غدوه ليبيوهم مقاعد، إنما كان يوم السبت أول النهار.

وقوله: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، روى البخارى عن جابر بن عبد الله قال: فينا نزلت: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ قال: نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة، وما نحب أنها لم تنزل، لقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾. رواه مسلم (١). وكذا قال غير واحد من السلف: إنهم بنو حارثة وبنو سلمة.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ أى: يوم بدر، وكان فى يوم الجمعة، وافق السابع عشر من شهر رمضان، من سنة اثنتين من الهجرة، وهو يوم الفرقان الذى أعز الله فيه الإسلام وأهله، ودمغ فيه الشرك وخرب محله، مع قلة عدد المسلمين يومئذ، فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فيهم فرسان وسبعون بعيراً، والباقيون مشاة، ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه، وكان العدو يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف فى سوابغ الحديد والبيض، والعدة الكاملة والخيول المسومة والحلى الزائد، فأعز الله رسوله، وأظهر وحيه وتنزيله، وبيض وجهه النبي وقبيله، وأخزى الشيطان وجيله. ولهذا قال تعالى - مُمْتَنًا على عباده المؤمنين وحزبه المتقين: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أى: قليل عددكم ليعلموا أن النصر إنما هو من عند الله، لا بكثرة العدد والعدد؛ ولهذا قال فى الآية الأخرى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ. ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ. ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٥ - ٢٧].

وروى الإمام أحمد عن عياض الأشعري قال: شهدتُ اليرموك وعلينا خمسة أمراء: أبو عبيدة، ويزيد بن أبى سفيان، وابن حسنة، وخالد بن الوليد، وعياض. وقال عمر: إذا كان قتال فعليكم أبو عبيدة. قال: فكتبنا إليه: إنه قد جاش إلينا الموت، واستمددناه، فكتب إلينا: إنه قد جاءنى كتابكم تَسْتَمِدُّونَنِي، وإنى أدلكم على من هو أعز نصراً، وأحصن جنداً: الله عز وجل، فاستنصروه، فإن محمداً ﷺ قد نُصِرَ يومَ بدر فى أقل من عدتكم، فإذا جاءكم كتابى فقاتلوهم ولا تراجعونى. قال: فقاتلناهم فهزمناهم أربعَ فرائس، قال: وأصبنا أموالاً، فتشاورنا، فأشار علينا عياض أن نُعْطِيَ عن كل ذى رأس عشرة. قال: وقال أبو عبيدة: من يراهنى؟ فقال شاب: أنا، إن لم تغضب. قال: فسبقه، فرأيت عقيصتى أبى عبيدة تنقُزُان وهو خلفه على فرس عُرَى إسناده صحيح. وقد أخرجه ابن حبان فى صحيحه بنحوه، واختاره الحافظ

(١) « بنو سلمة » بفتح السين وكسر اللام . وليس فى العرب غيرهم بكسر اللام . وسائر الأسماء بفتح اللام .

الضياء المقدسى فى كتابه^(١). وبَدَر مَحَلَّة بين مكة والمدينة، تُعرف ببثرها، منسوبة إلى رجل حفرها يقال له: «بدر بن النارين». قال الشعبي: بدر بثر لرجل يسمى بدرًا. وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ أى: تقومون بطاعته.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آَلَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ ^(١٢٤) بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آَلَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ^(١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنُظْمِنَ قُلُوبَكُمْ بِهِ. وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ^(١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ^(١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ^(١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ^(١٢٩)

اختلف المفسرون فى الوعد: هل كان يوم بَدَر أو يوم أحد؟ على قولين: أحدهما: أن قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ﴾. روى هذا عن الحسن البصرى، والشعبى، وغيرهما. واختاره ابن جرير.

فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية - على هذا القول - وبين قوله فى قصة بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ. وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِنُظْمِنَ بِهِ قُلُوبَكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٩، ١٠]؟ فالجواب: أن التنصيص على الآلف هاهنا لا ينافى الثلاثة الآلاف فما فوقها، لقوله: ﴿مُرْدِفِينَ﴾، بمعنى يَرْدِفُهُمْ غيرهم ويتبعهم الوف آخر مثلهم^(٢). وهذا السياق شبيه بهذا السياق فى سورة آل عمران. فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر، والله أعلم.

القول الثانى : أن هذا الوعد متعلق بقوله: ﴿وَإِذْ عَدُوَّتْ مِنْ أَهْلِكَ تَبَوَّأَ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾، وذلك يوم أحد. وهو قول مجاهد، وعكرمة، والزهرى، وموسى بن عتبة وغيرهم. لكن قالوا: لم يحصل الإمداد بالخمسة الآلاف؛ لأن المسلمين فروا يومئذ - زاد عكرمة: ولا بالثلاثة الآلاف؛ لقوله: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾، فلم يصبروا، بل فروا، فلم يمدوا بملك واحد.

وقوله: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾، يعنى: تصبروا على مُصَابَرَةِ عَدُوِّكُمْ وتقومون وتطيعون أمرى. وقوله: ﴿وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا﴾، قال الحسن، وقتادة، والربيع، والسدى: أى من

(١) المسند (٣٤٤). و«عياض» أحد الأمراء الخمسة: هو عياض بن غنم الفهرى. وهو غير «عياض الأشعرى» التابعى راوى الحديث وقوله: «جاش إلينا الموت»: أى تدفق وقاض. وقوله: «يراهنى» بتشديد النون: أصلها «يراهنتى».

(٢) (مردفين): قرأها نافع وأبو جعفر ويعقوب - بفتح الدال: اسم مفعول، أى: مردفين بغيرهم. وقرأها باقى الأربعة عشر بكسر الدال: اسم فاعل، أى مردفين مثلهم. وتفسير ابن كثير إياها هنا على معنى فتح الدال.

وجهم هذا. وقال مجاهد، وعكرمة : أى من غضبهم هذا. وقوله : ﴿يُعِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ أى : معلمين بالسِّمَاءِ. وروى ابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب قال : كان سِيَمَاءَ الملائكة يوم بدر الصوف الأبيض ، وكان سيماهم أيضا فى نواصى خيلهم .

وقوله : ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ أى : وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالها إلا بشارة لكم وتطيبيا لقلوبكم وتطمينا ، وإلا فإنما النصر من عند الله ، الذى لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم ، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم ، كما قال تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال : ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ . وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَافًا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤ - ٦] . ولهذا قال هاهنا ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ أى : هو ذو العزة التى لا تُرام ، والحكمة فى قدره والإحكام .

ثم قال تعالى : ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهُمْ﴾ أى : يخزيهم ويردهم بغیظهم لم ينالوا منكم ما أرادوا ؛ ولهذا قال : ﴿أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيَقْبَلُوا﴾ أى : يرجعوا «خَائِينَ» أى : لم يحصلوا على ما أمَّلُوا .

ثم اعترض بجملة دَلَّتْ على أَنَّ الحُكْمَ فى الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له ، فقال : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أى : بل الأمر كله إلى ، كما قال : ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] وقال : ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] . وقال : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَن أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] .

ثم ذكر تعالى بقية الأقسام فقال : ﴿أَوْ يُتَوَبَّ عَلَيْهِمْ﴾ أى : مما هم فيه من الكفر فيهديهم بعد الضلالة «أَوْ يُعَذِّبُهُمْ» أى : فى الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم ؛ ولهذا قال : ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أى : يستحقون ذلك .

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «اللهم العن فلانا ، اللهم العن الحارث بن هشام ، اللهم العن سهيل بن عمرو ، اللهم العن صفوان بن أمية» . فنزلت هذه الآية : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ، فتنب عليهم كلهم (١) . وروى البخارى عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد - أو يدعو لأحد - قَنَتَ بعد الركوع ، وربما قال - إذا قال : «سمع الله لمن حمده ، ربنا لك الحمد» : «اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ ، وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ ، وَعِيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ ، وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَى مُضَرٍّ ، وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسَنَى يَوْسُفَ» . يجهر بذلك ،

(١) المسند (٥٦٧٤) . وهو حديث صحيح . ورواه أحمد مرارا من أوجه عن ابن عمر - وفى بعض رواياته أن ذلك كان بعد الرفع من الركوع فى الركعة الثانية من صلاة الفجر . ورواه البخارى من طرق عن ابن عمر . وذكر الحافظ ابن كثير هنا بعض رواياته من المسند والبخارى وانظر المسند (٥٨١٢ ، ٦٣٤٩ ، ٦٣٥٠) والفتح (٢٨١/٧ ، ٢٦٣/١٣ ، ٢٦٤) .

وكان يقول - فى بعض صلاته فى صلاة الفجر - : «اللهم العن فلانا وفلانا» لأحياء من أحياء العرب، حتى أنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية (١). وروى الإمام أحمد: عن أنس، أن النبى ﷺ كَسَرَتْ رَبَاعِيَّتَهُ يَوْمَ أَحُدَ، وَشَجَّ فِي [جَبْهَتِهِ] (٢) حتى سال الدم على وجهه، فقال: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هَذَا بَيْنَهُمْ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ، عَزَّ وَجَلَّ». فانزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَلَا إِلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾. انفرد به مسلم (٣).

ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: الجميع ملك له، وأهلها عبيد بين يديه ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أى: هو المتصرف فلا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ الَّتِي كَسَبْتُمْ مَضْغَفَةً﴾ وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَأَتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالضَّعِيفِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُ مَّغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِمَا أَجْرُ الْعَمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطى الربا واكله أضاعفا مضاعفة، كما كانوا فى الجاهلية يقولون - إذا حلَّ أجل الدين: إما أن تقضى وإما أن ترمى، فإن قضاءه وإلا زاده فى المدة وزاده الآخر فى القدر، وهكذا كل عام، فرمى تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفاً (٤).

(١) البخارى (٨/ ١٧٠، ١٧١ فتح). ورواه أحمد فى المسند مراراً، مطولاً ومختصراً، منها (٧٢٥٩، ٧٤٥٨) ورواه مسلم (١/ ١٨٧).

(٢) فى المطبوع من «عمدة التفسير» وكذا المخطوطة الأهرية «جبهته»، وما أثبتناه من المسند (٣/ ٩٩)، وعند مسلم (١٧٩١): «رأسه». (البار).

(٣) المسند (١١٩٨٠) ومسلم (٢/ ٦٧) ورواه الطبري (٧٨٠٥ - ٧٨٠٨). وتفصيل تخريجه فيه. و«الرابعة» - بورن «ثمانية»: الأسنان الأربعة التى تلى الشاي. وقد جمع الحافظ ابن حجر فى الفتح (٨/ ١٧١) بين هذا الحديث وحديث ابن عمر بأنه ﷺ دعا على المذكورين بعد ذلك فى صلاته، فترلت الآية فى الأمرين معا. وذلك كله فى أحد.

(٤) والمتلاعبون بالدين من أهل عصرنا، وأولياؤهم من عابدى التشريع الوثنى الأجنبى - بل التشريع اليهودى فى الربا - يلعبون بالقرآن، ويزعمون أن هذه الآية تدل على أن الربا المحرم هو «الأضاعاف المضاعفة» ! ليجزوا ما بقى من أنواع الربا، على ما ترضاه أهواؤهم وأهواء سادتهم، ويتركوا الآية الصريحة: ﴿وَأَن يَتِمَّ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩] - انظر ما مضى عند تفسير الآية (٢٧٥) من سورة البقرة. فكانوا فى تلاعبهم بتأول هذه الآيات الصريحة أسوأ حالاً ممن «يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ» [آل عمران: ٧] - «فأولئك الذين سمى الله، فاحذروهم».

وأمر تعالى عباده بالتقوى لعلهم يفلحون في الأولى والأخرى، ثم توعدهم بالنار وحذرهم منها، فقال: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

ثم ندبهم إلى المبادرة إلى فعل الخيرات والمصارعة إلى نيل القربات، فقال: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أى: كما أعدت النار للكافرين. وقد قيل: إن معنى قوله: ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾: تنبيهها على اتساع طولها، كما قال فى صفة فرش الجنة: ﴿بَطَانَتُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤] أى: فما ظنك بالظواهر؟ وقيل: بل عرضها كطولها؛ لأنها قبة تحت العرش، والشئ المُقَبَّب المستدير عَرْضُهُ كطولهِ. وقد دل على ذلك ما ثبت فى الصحيح: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الْفَرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَنْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وَسَقْفُهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ» (١). وهذه الآية كقوله تعالى فى سورة الحديد: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [رقم ٢١].

وقد رويانا فى مسند الإمام أحمد: أَنَّ هِرَقْلَ كَتَبَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ: إِنَّكَ دَعَوْتَنِي إِلَى جَنَّةِ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، فَأَيْنَ النَّارُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «سُبْحَانَ اللَّهِ! فَأَيْنَ اللَّيْلُ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ؟!». وقد رواه ابن جرير (٢). وروى الطبرى عن يزيد بن الأصم: أَنَّ رجلاً من أهل الكتاب قال: يقولون: ﴿جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، فَأَيْنَ النَّارُ؟ فقال ابن عباس: أين يكون الليل إذا جاء النهار؟، وأين يكون النهار إذا جاء الليل؟ وقد روى هذا مرفوعاً، فروى البزار عن أبى هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أَرَأَيْتَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ فَأَيْنَ النَّارُ؟ قال: «أَرَأَيْتَ اللَّيْلَ إِذَا جَاءَ لَبَسَ كُلُّ شَيْءٍ، فَأَيْنَ النَّهَارُ؟» قال: حيث شاء الله. قال: «وَكَذَلِكَ النَّارُ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ» (٣). وهذا يحتمل معنيين:

أحدهما: أَنَّ يكون المعنى فى ذلك: أَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ عَدَمِ مَشَاهِدَتِنَا اللَّيْلَ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ أَنَّ يكون فى مكان، وإن كنا لا نعلمه، وكذلك النار تكون حيث يشاء الله عز وجل، وهذا أظهر كما تقدم فى حديث أبى هريرة.

الثانى: أَنَّ يكون المعنى: أَنَّ النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب، فَإِنَّ اللَّيْلَ يكون

(١) البخارى (٩/ ٦ ، ١٠ ، ٣٤٩/ ١٣ ، ٣٥٠ فتح) ، عن أبى هريرة ، مع اختلاف قليل فى اللفظ . وهو مما انفرد به البخارى عن مسلم ، كما نص على ذلك الحافظ (٦/ ١٣٥) .

(٢) هو جزء من حديث طويل ، عن التنوخى رسول هرقل ، فى المسند (١٥٧١٩) . ونقله الحافظ ابن كثير فى التاريخ (٥/ ١٥ ، ١٦) ، عن رواية المسند ، كاملاً . ثم قال : « هذا حديث غريب ، وإسناده لا بأس به . تفرد به أحمد » . ورواية الطبرى مختصرة (٧٨٣١) .

(٣) حديث ابن عباس - الموقوف - رواه عنه ابن خالته « يزيد بن الأصم بن عبيد » التابعى الثقة . وهو فى الطبرى (٧٨٣٦) وإسناده صحيح . وحديث أبى هريرة - المرفوع - رواه عنه « يزيد بن الأصم » أيضاً . وإسناد البزار صحيح . وذكره الهشمى فى الزوائد (٦/ ٣٢٧) ، وقال : « رواه البزار ، ورجاله رجال الصحيح » ورواه أيضاً بنحوه ابن حبان فى صحيحه (١٠٣ بتحقيقنا) . ورواه الحاكم (١/ ٣٦) وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى .

من الجانب الآخر^(١) ، فكذلك الجنة في أعلى عليين فوق السموات تحت العرش، وعرضها كما قال الله، عز وجل: ﴿كَعْرُضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١] ، والنار في أسفل سافلين. فلا تنافي بين كونها كعرض السماء والأرض، وبين وجود النار، والله أعلم.

ثم ذكر تعالى صفة أهل الجنة، فقال: ﴿الَّذِينَ يُفْقُونَ فِي السَّاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ أى: فى الشدة والرخاء، والمنشط والمكره، والصحة والمرض، وفى جميع الأحوال، كما قال: ﴿الَّذِينَ يُفْقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة: ٢٧٤]. والمعنى: أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى والإنفاق فى مراضيه، والإحسان إلى خلقه من قرباتهم وغيرهم بأنواع البر.

وقوله: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أى: إذا ثار بهم الغيظ كظموه، بمعنى: كتموه فلم يعملوه، وعفا مع ذلك عمن أساء إليه. وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، قال: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ ، وَلَكِنَّ الشَّدِيدَ الَّذِى يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ». وقد رواه الشيخان^(٢). وروى الإمام أحمد - فى حديث - عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا تَعُدُّونَ فِيكُمْ الصُّرْعَةُ؟» قلنا: الذى لا تَصْرَعُهُ الرِّجَالُ، قال: قال: «لَا، وَلَكِنَّ الَّذِى يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»^(٣). وروى الإمام أحمد عن جارية بن قدامة السعدى؛ أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، قل لى قولاً ينفعنى وأقال على، لعلى أعيه. فقال رسول الله ﷺ: «لَا تَغْضَبْ». فأعاد عليه حتى أعاد عليه مراراً، كل ذلك يقول: «لَا تَغْضَبْ» انفرد به أحمد^(٤). وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِراً أَوْ وَضَعَ لَهُ وَقَاهُ اللَّهُ مِنْ قَبْحِ جَهَنَّمَ، أَلَا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزَنٌ بَرَبَوَةٌ - ثلاثاً - أَلَا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِشَهْوَةٍ وَالسَّعِيدُ مَنْ وَقَى الْفِتْنَ، وَمَا مِنْ جُرْعَةٍ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ جُرْعَةٍ غِيْظٍ يَكْظُمُهَا عَبْدٌ، مَا كَظَمَهَا عَبْدٌ لَّهِ إِلَّا مَلَأَ اللَّهُ جَوْفَهُ إِيْمَانًا». انفرد به أحمد، وإسناده حسن ليس فيه مجروح، ومثله حسن^(٥). وروى ابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا تَجَرَّعَ عَبْدٌ مِنْ جُرْعَةٍ أَفْضَلَ أَجْرًا مِنْ جُرْعَةٍ غِيْظٍ كَظَمَهَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ» ورواه ابن جرير وابن ماجه^(٦).

(١) هذا أحد الدلائل على أن كروية الأرض كانت معروفة لعلماء الإسلام ، قبل أن تخطر ببال الإفرنج ومن يشابعهم . ليخزى الله المستهترين بالطعن فى علوم الإسلام وعلمائه . جهلا منهم وتقليداً .

(٢) المسند (٧٢١٨) والبخارى (٤٣١/١٠ فتح) ومسلم (٢/ ٢٨٩ ، ٢٩٠) . و « الصرعة » - بضم الصاد وفتح الراء: البالغ فى الصراع ، الذى لا يغلب فيه .

(٣) من حديث مطول فى المسند (٣٦٢٦) ساقه الحافظ ابن كثير كاملاً . واقتصرنا على موضع الشاهد منه . والبخارى روى قطعة من أوله . ومسلم روى باقى (٢/ ٢٨٩) . ورواه البخارى كاملاً فى الأدب المفرد ، قم (١٥٣ - ١٥٥) .

(٤) المسند (٣٤/٥ حلى) . و « جارية » بالجم والياء . وفى المطبوعة : « حارة » وهو تصحيف . وأشار ابن حجر فى الإصابة فى ترجمته إلى أن الحديث رواه ابن حبان فى صحيحه .

(٥) المسند (٣٠١٧) .

(٦) هو حديث صحيح . ورواه أحمد فى المسند (٦١١٤ ، ٦١١٦) . والعجب من الحافظ ابن كثير ألا ينسبه للمسند !

قوله: ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ﴾ أى: لا يعملون غضبهم فى الناس، بل يكفون عنهم شرهم، ويحتسبون ذلك عند الله عز وجل.

ثم قال: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أى: مع كف الشر يعفون عمن ظلمهم فى أنفسهم، فلا يبقى فى أنفسهم موجدة على أحد، وهذا أكمل الأحوال، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. فهذا من مقامات الإحسان. وفى الحديث: «ثلاث أقسمُ عليهن: ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزاً، ومن تواضع لله رفعه الله» (١).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ أى: إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار.

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «إن رجلاً أذنب ذنباً، فقال: رب، إني أذنبت ذنباً فاغفره. فقال الله: عبدى عمل ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدى، ثم عمل ذنباً آخر فقال: رب، إني عملت ذنباً فاغفره لى. فقال عز وجل: علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدى، ثم عمل ذنباً آخر فقال: رب، إني عملت ذنباً فاغفره. فقال عز وجل: عبدى علم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، أشهدكم أنى قد غفرت لعبدى، فليعمل ما شاء». أخرجاه فى الصحيح بنحوه (٢). وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، قلنا: يا رسول الله، [إنا] إذا رأيناك رقت قلوبنا، وكنا من أهل الآخرة، وإذا فارقتك أعجبتنا الدنيا وشئمتنا النساء والأولاد، فقال: «لَوْ أَنَّكُمْ تَكُونُونَ عَلَى كُلِّ حَالٍ، عَلَى الْحَالِ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا عِنْدِي، لَصَافَحْتُكُمْ الْمَلَائِكَةَ بِكُفِّهِمْ، وَلَزَارَتْكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ، وَلَوْ لَمْ تَذُنُّوا لَجَاءَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُذُنُّونَ كَيْ يُغْفَرَ لَهُمْ». قلنا: يا رسول الله، حدثنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: «لَبَنَةٌ ذَهَبٌ، وَلَبَنَةٌ فِضَّةٌ، وَمَلَأَها الْمَسْكُ الْأَذْفَرُ، وَحَصَبُها الْوَلُّوُ وَالْيَاقُوتُ، وَتُرَابُها الزَّعْفَرَانُ، مَنْ يَدْخُلُها يَنْعَمُ لَا يَبَاسُ، وَيَخْلُدُ لَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ، ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حَتَّى يَفْطَرَ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ تُحْمَلُ عَلَى الْغَمَامِ وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ». ورواه الترمذى، وابن ماجه (٣).

(١) رواه أحمد (٧٢٠٥) ومسلم (٢/٢٨٥) والترمذى (٣/١٥٥) من حديث أبى هريرة. وصححه الترمذى، ولكن أوله عندهم: «ما نقصت صدقة من مال». وليس عندهم قوله: «ثلاث أقسم عليهن».

(٢) المسند (٧٩٣٥) والبخارى (١٣/٣٩٢، ٣٩٣ فتح) ومسلم (٢/٣٢٦). والثابت هنا عمل الذنب أربع مرات، وهو الثابت فى المخطوطة الأزهرية (٢/١١٥)، وكذلك ثبت بهذه الزيادة ليست فى أصول المسند الثلاثة، ولا فى الصحيحين ونقل الحافظ ابن كثير فى موضعين فى كتابين يرجح أن هذه الزيادة ثابتة فى أصول صحيحة من المسند.

(٣) المسند (٨٠٣٠)، والزيادة منه. وفصلنا تخريجه هناك، وقد مضى آخره: «ثلاثة لا ترد دعوتهم...» عند تفسير الآية (١٨٦) من سورة البقرة.

ويتأكد الوضوء وصلاة ركعتين عند التوبة، لما رواه الإمام أحمد عن علي قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعتني الله بما شاء منه، وإذا حدثني عنه غيره استحلقتُهُ، فإذا حلفت لي صدقته، وإن أبا بكر حدثني، وصدق أبو بكر: أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا فَيَتَوَضَّأُ وَيُحْسِنُ الْوُضُوءَ، فَيُصَلِّيَ رَكَعَتَيْنِ فَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا غُفِرَ لَهُ». وكذا رواه علي بن المديني، والحميدي وأبو بكر بن أبي شيبة، وأهل السنن، وابن حبان في صحيحه والبخاري والدارقطني، وقال الترمذي: هو حديث حسن^(١). وهو من رواية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، عن خليفة النبي أبي بكر، رضى الله عنهما. وما يشهد لصحة هذا الحديث ما رواه مسلم في صحيحه، عن عمر عن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبَلِّغُ - أَوْ: يَسْبِغُ - الْوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِلَّا فَتَحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ». وفي الصحيحين عن عثمان بن عفان، أنه توضأ لهم وضوء النبي ﷺ، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وَضُوءِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ لَا يَحْدِثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ». فقد ثبت هذا الحديث من رواية الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، عن سيد الأولين والآخرين ورسول رب العالمين، كما دل عليه الكتاب المبين، من أن الاستغفار من الذنب ينفع العاصين. وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «قَالَ إِبْلِيسُ: يَا رَبُّ، وَعَزَّتْكَ لَا أَزَالُ أَغْوِي بَنِي آدَمَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ. فَقَالَ اللَّهُ: وَعَزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي»^(٢).

وقوله: «وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ» أي: لا يغفرها أحد سواه، كما روى الإمام أحمد عن الأسود بن سريع؛ أن النبي ﷺ أتى بأسير فقال: اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد. فقال النبي ﷺ: «عَرَفَ الْحَقُّ لَاهِلَهُ»^(٣).

وقوله: «وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ» أي: تابوا من ذنوبهم، ورجعوا إلى الله عن قريب، ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها غير مقلعين عنها، ولو تكرّر منهم الذنب تابوا عنه، كما قال روى أبو يعلى عن مولى لأبي بكر، عن أبي بكر، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَصْرَ مَنْ اسْتَغْفَرَ وَإِنْ عَادَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً». ورواه أبو داود، والترمذي، والبخاري وقول ابن المديني والترمذي: ليس إسناده هذا الحديث بذلك، فالظاهر أنه لأجل جهالة مولى أبي بكر، ولكن جهالة مثله لا تضر؛ لأنه تابعي كبير، ويكفيه نسبه إلى أبي بكر، فهو حديث حسن،

(١) بل هو حديث صحيح. ورواه أيضا ابن خزيمة في صحيحه، كما ذكره ابن حجر في التهذيب (١/٢٦٧)، (٢٦٨) وهو الحديث رقم (٢) في المسند. ورواه الطبري (٧٨٥٣، ٧٨٥٤).

(٢) المسند (١١٢٥٧، ١١٢٦٤، ١١٣٨٧، ١١٧٥٢)، وهو في الزوائد (١٠/٢٠٧) ونسبه أيضا للطبراني وأبو يعلى. وقال: «وَأَحَدُ إِسْنَادِي أَحْمَدَ رَجَالَهُ رَجَالُ الصَّحِيحِ». وكذلك أحد إسنادي أبي يعلى.

(٣) المسند (١٥٦٥١)، وإسناده صحيح. والأسود بن سريع: هو التميمي السعدي، الشاعر المشهور، وهو صحابي معروف.

والله أعلم^(١).

وقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: قال مجاهد وعبد الله بن عبيد بن عمير: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أن من تاب تاب الله عليه. وهذا كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وكقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] ونظائر هذا كثيرة جدا. وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال - وهو على المنبر -: «ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يَغْفَرَ لَكُمْ، وَإِلَّا لَأَقْمَعَ الْقَوْلَ، وَإِلَّا لِلْمُصْرِئِينَ الَّذِينَ يُصِرُونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ». تفرد به أحمد (٢).

ثم قال تعالى - بعد وصفهم بما وصفهم به : ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ﴾ أى: جزاؤهم على هذه الصفات «مُغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» أى: من أنواع المشروبات «خَالِدِينَ فِيهَا» أى: ماكنين فيها «وَنِعَمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ» يمدح تعالى الجنة.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾
 ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ
 الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ
 وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمُ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ
 لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ
 حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ ﴿١٤٢﴾
 وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

يقول تعالى مخاطبا عباده المؤمنين الذين أصيبوا يوم أحد، وقُتل منهم سبعون: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ أى: قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء، ثم كانت العاقبة لهم والدائرة على الكافرين ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾.

ثم قال: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ يعنى: القرآن فيه بيان للأمور على جليتها، وكيف كان الأمم الأقدمون مع أعدائهم «وَهُدًى» يعنى: القرآن فيه خبرٌ ما قبلكم وهدى لقلوبكم، و«مَوْعِظَةٌ» أى: زاجر عن المحارم والمآثم.

(١) ورواه الطبري أيضا (٧٨٦٣).

(٢) المسند (٦٥٤١، ٦٥٤٢، ٧٠٤١) وأسانيده صحاح . ورواه البخارى فى الأدب المفرد (٣٨٠) . و «أقمار» : جمع «قمع» بكسر القاف وفتح الميم . وهو المعروف الذى تملأ به المائعات فى رؤوس الأدانى الضيقة . قال ابن الأثير : «شبه أسمع الذين يستمعون القول ولا يعون ويحفظونه ولا يعملون به - بالأقمار التى لا تعى شيئا مما يفرغ فيها ، فكانه يمر عليها مجازا، كما يمر الشراب فى الأقمار اجتيازاً» .

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾
 ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَجْدٍ قَتَلَ مَعَهُ رِيتُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَقَالَتْ لَهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد، وقيل من قتل منهم، نادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قُتل. ورجع ابن قميئة إلى المشركين فقال لهم: قتلتم محمداً! وإنما كان قد ضرب رسول الله ﷺ، فشجّه في رأسه، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس واعتقدوا أن رسول الله قد قُتل، وجوزوا عليه ذلك، كما قد قصّ الله عن كثير من الأنبياء، عليهم السلام، فحصل ومن ضعف وتأخر عن القتال، ففي ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي: له أسوة بهم في الرسالة وفي جوار القتال عليه.

ثم قال تعالى منكرًا على من حصل له ضعف: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ أي: رجعتُم القهقري ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: الذين قاموا بطاعته، وقاتلوا عن دينه، واتبعوا رسوله حيا وميتا. كذلك ثبت في الصحاح والسنن والمساند، وغيرها من كتب الإسلام من طرق متعددة تفيد القطع: أن الصديق - رضى الله عنه - تلا هذه الآية لما مات رسول الله ﷺ. وروى البخارى عن الزهري: أخبرنى أبو سلمة؛ أنّ عائشة أخبرته أن أبا بكر، أقبل على فرس من مسكنه بالسُّنخ حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فتميم رسول الله ﷺ وهو مغشى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه وقبله وبكى، ثم قال: بأبى أنت وأمى. والله لا يجمع الله عليك موتتين؛ أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها. وقال الزهري: وحدثنى أبو سلمة عن ابن عباس، أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس فقال: اجلس يا عمر، قال أبو بكر: أما بعد، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ إلى قوله: ﴿الشَّاكِرِينَ﴾ قال: فوالله لكان الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلاها الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها. وأخبرنى سعيد بن المسيّب أن عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ففقرت حتى

ما تقلنى رجلاى ، وحتى هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ (١) .

وقوله : ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ أى : لا يموت أحد إلا بقدر الله ، وحتى يستوفى المدة التى ضربهها الله له ؛ ولهذا قال : ﴿كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ ، كقوله : ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١] ، وكقوله : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ [الانعام: ٢] . وهذه الآية فيها تشجيع للجبناء وترغيب لهم فى القتال ، فإن الإقدام والإحجام لا يَنْقُصُ من العمر ولا يزيد فيه كما روى ابن أبى حاتم عن حبيب بن صهبان ، قال : قال رجل من المسلمين - وهو حُجْر بن عَدَى : ما يمنعكم أن تعبروا إلى هؤلاء العدو ، هذه النطفة؟! - يعنى دجلة - ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾ ، ثم أقحم فرسه دجلة فلما أقحم أقحم الناس فلما رأهم العدو قالوا : ديوان ، فهربوا (٢) .

وقوله : ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أى : من كان عمله للدنيا فقط نال منها ما قَدَّرَهُ اللهُ له ، ولم يكن له فى الآخرة نصيب ، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها مع ما قسم له فى الدنيا كما قال تعالى : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠] ، وقال تعالى : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَذْهُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨ ، ١٩] وهكذا قال هاهنا : ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ أى : سنعطيه من فضلنا ورحمتنا فى الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم .

ثم قال تعالى - مسلماً للمسلمين عما كان وقع فى نفوسهم يوم أحد - : ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ (٣) ، قيل : معناه : كم من نبي قتل وقتل معه ربيون من أصحابه كثير . وهذا القول هو اختيار ابن جرير ، فإنه قال : وأما الذين قرؤوا : ﴿قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ فإنهم قالوا : إنما عنى بالقتل النبى وبعض من معه من الربيين دون جميعهم ، وإنما نفى الوهن والضعف عن بقى من الربيين عن لم يقتل . قال : ومن قرأ ﴿قَاتَلَ﴾ فإنه اختار ذلك لأنه قال : لو قتلوا لم

(١) هكذا ساقه البخارى حديثاً واحداً (٨ / ١١٠ ، ١١١ فتح) واختصره ابن كثير قليلا . وهو فى حقيقته ثلاثة أحاديث رواها الزهرى : اثنان منها عن أبى سلمة عن عائشة ، وعن أبى سلمة عن ابن عباس ، والثالث عن ابن المسيب عن عمر .

(٢) حبيب بن صهبان أبو مالك الأسدى : تابعى كبير ثقة . روى عن عمر وغيره . وثقة ابن سعد (٦ / ١١٥) ، وغيره . و « صهبان » : بضم الصاد المهملة وسكون الهاء . ووقع فى المخطوطة « ضبيان » ، وفى المطبوعة « ظبيان » ! وكلاهما تصحيف . وهذه الحادثة كانت فى فتح المدائن سنة ١٦ . وقد رواها الطبرى فى تاريخه بنحو معناها (٤ / ١٧٢ ، ١٧٣) بإسنادين . وفيه : « عن حبيب بن صهبان أبى مالك » ، قال : لما عبر المسلمون يوم لمدائن دجلة ، فنظروا إليهم يعبرون ، جعلوا يقولون بالفارسية : ديوان آمد . وقال بعضهم لبعض : والله ما تقاتلون الإنسان ، وما تقاتلون إلا الجن ! فانهزموا . وذكرها ابن كثير فى التاريخ مختصرة (٧ / ٦٤) . وكلمة « ديوان » - معناها : الشيطان . انظر العرب للجوالقى ، (ص ١٥ طبع دار الكتب المصرية بتحقيقنا) .

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن محيصن واليزيدى (قتل) بضم القاف وكسر التاء . وهى القراءة التى فسر عليها الحافظ ابن كثير هنا ثم حكى بعد ذلك القراءة الأخرى (قاتل) ، وهى قراء باقى القراء الأربعة عشر ، وعليها قراءة حفص المروفة .

يكن لقوله : ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ وجه معروف ؛ لأنهم يستحيل أن يوصفوا بأنهم لم يهنوا ولم يضعفوا بعد ما قتلوا. ثم اختار قراءة من قرأ ﴿قُتِلَ مَعَهُ رَيْبُونٌ كَثِيرٌ﴾ (١) ؛ لأن الله عاتب بهذه الآيات والتي قبلها من انهزم يوم أحد، وتركوا القتال لما سمعوا الصائح يصيح : «بأن محمداً قد قتل . فغذلهم الله على فرارهم وتركهم القتال فقال لهم : ﴿أَلَا إِن مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ أيها المؤمنون ارتددتم عن دينكم ﴿انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ ؟ وقيل : وكم من نبي قُتل بين يديه من أصحابه ريبون كثير .

وعن ابن مسعود ﴿رَيْبُونٌ كَثِيرٌ﴾ ، أى : ألوف . وقال ابن عباس ، ومجاهد وسعيد بن جبيرة وغيرهم : الريبون : الجموع الكثيرة . وقال الحسن : أى : علماء كثير ، وعنه أيضاً : علماء صبر أبرار أتقياء . وحكى ابن جرير ، عن بعض نحاة البصرة : هم الذين يعبدون الرب ، عز وجل ، قال : ورد بعضهم عليه فقال : لو كان كذلك لليل (الريبون) ، بفتح الراء . وقال ابن زيد : الريبون : الاتباع ، والرعية ، والربانيون : الولاة .

﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال قتادة والربيع بن أنس : ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ بقتل نبيهم ﴿وَمَا اسْتَكَنُوا﴾ ، يقول : فما ارتدوا عن بصيرتهم (٢) ولا عن دينهم ، أن قاتلوا على ما قاتل عليه نبي الله حتى لحقوا بالله . ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ . وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أى : لم يكن لهم هجى إلا ذلك (٣) . ﴿فَاتَّاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ أى : النصر والظفر والعاقبة ﴿وَوَحَّشَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ﴾ أى : جمع لهم ذلك مع هذا ، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

﴿يَتَّيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِأَذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أَمَرَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ فَأَتْبِكُمْ غَمًّا لِيَكِيلًا تَحَرَّنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

ربع

(١) انظر الطبرى (٧/ ٢٦٤ ، ٢٦٥ طبعنا) .

(٢) فى المطبوعة : « عن نصرتهم » وهو خطأ ، والصواب من المخطوطة الأزهريه . وانظر الطبرى (٧ / ٢٧٠) .

(٣) أى : لم يكن دأبهم وشأنهم وكلامهم إلا ذلك . وهى بكسر الهاء وتشديد الجيم المكسورة وآخرها ألف مقصورة .

فلما واجهوهم كان الظفر والنصر أول النهار للإسلام، فلما حصل ما حصل - من عصيان الرُّمّة وفشل بعض المقاتلة، تأخر الوعد الذي كان مشروطاً بالثبات والطاعة (١)؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أى: أول النهار ﴿إِذْ تَحْسُونَهُمْ﴾ أى: تقتلونهم ﴿بِأَذْنِهِ﴾ أى: بتسليطه إياكم عليهم ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ قال ابن عباس: الفشل الجبن ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَعَصَيْتُمْ﴾ كما وقع للرّمّة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ وهو الظفر بهم، ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ وهم الذين رغبوا فى المغنم حين رأوا الهزيمة ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ثم أدا لهم عليكم (٢) ليختبركم ويمتحنكم ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ أى: غفر لكم ذلك الصنيع، وذلك - والله أعلم - لكثرة عدد العدو وعددهم، وقلة عدد المسلمين وعددهم ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، روى الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال: ما نصر الله فى موطن كما نصر يوم أحد. فأنكرنا ذلك! فقال ابن عباس: بينى وبين من أنكر ذلك كتاب الله، إن الله يقول فى يوم أحد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِأَذْنِهِ﴾، يقول ابن عباس: والحس: القتل. ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، وإنما عنى بهذا الرّمّة، وذلك: أن النبى ﷺ أقامهم فى موضع، ثم قال: «احموا ظهورنا، فإن رأيتُمونا نقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتُمونا قد غنمنا فلا تشركونا». فلما غنم النبى ﷺ وأباحوا عسكر المشركين أكبت الرّمّة جميعا فى العسكر ينهبون، ولقد التقت صفوف أصحاب رسول الله ﷺ، فهُم هكذا - وشبك بين يديه - وانتشبا، فلما أخل الرّمّة تلك الخلة التى كانوا فيها، دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب رسول الله ﷺ، فضرب بعضهم بعضا والتبسوا، وقتل من المسلمين ناس كثير، وقد كان لرسول الله ﷺ وأصحابه أول النهار، حتى قُتل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة، وجال المسلمون جولة نحو الجبل ولم يبلغوا - حيث يقول الناس - الغار، إنما كانوا تحت المهراس، وصاح الشيطان: قُتل محمد! فلم يشك فيه أنه حق، فما زلنا كذلك ما نشك أنه حق، حتى طلع رسول الله ﷺ بين السعدين، نعرفه بتكفئه إذا مشى، قال: ففرحنا حتى كأنه لم يصبنا ما أصابنا، قال: فرقى نحونا وهو يقول: «اشتد غضبُ الله على قوم دموا وجهَ رسول الله». ويقول مرة أخرى: [اللهم إنه] ليس لهم أن يعلنونا. حتى انتهى إلينا، فمكث ساعة، فإذا أبو سفيان يصيح فى أسفل الجبل: اعل هبل، مرتين - يعنى آلهته - أين ابن أبى كبشة؟ أين ابن أبى قحافة؟ أين ابن الخطاب؟ فقال عمر: يا رسول الله، ألا أجيبه؟ قال: «بلى» قال: فلما قال: اعل هبل. قال عمر: الله أعلى وأجل.

فقال أبو سفيان: إنه قد أنعمتَ عينها فعَالَ عنها، فقال: أين ابن أبى كبشة؟ أين ابن أبى قحافة؟ أين ابن الخطاب؟ فقال عمر: هذا رسول الله، وهذا أبو بكر، وها أنا ذا عمر. قال: فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، الأيام دُول، وإن الحرب سجال. قال: فقال عمر: لا سواء،

(١) انظر ما مضى عند تفسير الآيات : (١٢٤ - ١٢٩) .

(٢) فى المطبوعة : « ثم أدا لكم عليهم » ؛ وهو تخطيط نقيض للمراد . والصواب من المخطوطة .

قتلنا في الجنة وقتلاكم في النار. قال: إنكم لتزعمون ذلك، لقد خَبِنَا إذن وخَسِرْنَا ثم قال أبو سفيان: إنكم ستجدون في قتلاكم مَثْلَةً ، ولم يكن ذلك عن رأى سَرَاتِنَا. قال: ثم أدرَكْتَهُ حَمِيَّةُ الجاهلية فقال: أما إنه إن كان ذلك لم نَكْرَهُه. هذا حديث غريب، وسياق عجيب، وهو من مراسلات ابن عباس، فإنه لم يشهد أحدًا ولا أبوه. وقد أخرجه الحاكم وابن أبي حاتم والبيهقي في دلائل النبوة، ولبعضه شواهد في الصحاح وغيرها^(١)، فروى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: إن النساء كن يوم أحد، خلف المسلمين، يُجْهَزْنَ على جَرْحَى المشركين، فلو حَلَقَتْ يومئذ رجوت أن أبر: أنه ليس أحد منا يريد الدنيا، حتى أنزل الله: ﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَّفَكُمْ عَنْهُمْ لِيْتَلِيَكُمْ ﴾ فلما خالف أصحاب النبي ﷺ وعَصَوْا ما أمروا به، أفرد رسول الله ﷺ في تسعة: سبعة من الأنصار، ورجلين من قريش، وهو عاشرهم، فلما رَهَقُوهُ قال: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا رَدَّهْمُ عَنَّا». قال: فقام رجل من الأنصار فقاتل ساعة حتى قتل، فلما رَهَقُوهُ أيضًا قال: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا رَدَّهْمُ عَنَّا». فلم يزل يقول ذا حتى قُتِلَ السبعة، فقال رسول الله ﷺ لصاحبه: «مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا». فجاء أبو سفيان فقال: اعلِّ هَبْلًا فقال رسول الله ﷺ: «قُولُوا: اللَّهُ أَغْلَى وَأَجَلُّ». فقالوا: الله أعلى وأجل. فقال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم فقال رسول الله ﷺ: قُولُوا: «اللَّهُ مَوْلَانَا، وَالْكَافِرُونَ لَا مَوْلَى لَهُمْ». ثم قال أبو سفيان: يومٌ بيومٌ بَدْرٌ، يومٌ علينا ويومٌ لنا ، ويومٌ نُسَاءٌ ويومٌ نُسَرٌ. حَنْظَلَةٌ بحَنْظَلَةٍ، وفلان بفلان، فقال رسول الله ﷺ: «لَا سَوَاءَ. أَمَّا قَتَلْنَا فَأَحْيَاءُ يَرْزُقُونَ، وَقَتَلَكُمُ فِي النَّارِ يُعَذِّبُونَ». قال أبو سفيان: قد كانت في القوم مَثْلَةٌ، وإنْ كَانَتْ لَعَنَ غَيْرَ مَلَأَ مِنَّا، مَا أَمَرْتُ وَلَا نَهَيْتُ، وَلَا أَحْبَبْتُ وَلَا كَرِهْتُ، وَلَا سَأَنْى وَلَا سَرَنْى. قال: فنظروا فإذا حمزةٌ قد بَقِرَ بَطْنُهُ، وأخذتْ هُنْدُ كَبَدَهُ فلاكَتْهَا فلم تستطع أن تأكلها، فقال رسول الله ﷺ: «أَكَلْتُ شَيْئًا؟» قالوا: لا. قال: «مَا كَانَ اللَّهُ لِيُدْخِلَ شَيْئًا مِنْ حِمْزَةٍ فِي النَّارِ». قال: فوضع رسول الله ﷺ حمزةَ فَصَلَّى عليه، وَجِئَ برجل من الأنصار فَوُضِعَ إلى جنبه فَصَلَّى عليه، فَرَفَعَ الأنصارى وَتَرِكَ حمزةَ، ثم جِئَ بآخر فوضعه إلى جنب حمزة فصلى عليه، ثم رَفَعَ وَتَرِكَ حمزةَ ، حتى صَلَّى عليه يومئذ سبعين صلاة . تفرد به أحمد أيضًا^(٢).

(١) المسند (٢٦٠٩). وقد صححنا نصه منه ومن المخطوطة الأهرية . وذكره الحافظ ابن كثير في التاريخ أيضًا (٢٤/٢٥) ، وقال: « وهذا حديث غريب ، وهو من مراسلات ابن عباس ، وله شواهد من وجوه كثيرة » . وإسناده صحيح ، وقد صححه الحاكم (٢/ ٢٩٦ ، ٢٩٧) ، ووافقه الذهبي . وظاهر سياقه قد يومهم أن ابن عباس شهد الوقعة ، وليس مرادًا على اليقين ، فإنه كان إذا ذاك طفلًا مع أبيه بمكة . وسامعوه حين تحدث به ، ومنهم عبيد الله بن عبد الله بن عتبة - يعرفون ذلك لا يشكون فيه - فهو من مراسيله كما قال ابن كثير . بل الراجح أنه حدث به عن أحد من الصحابة عن شهداء ، فأسقط بعض الرواة اسمه . ولكن بقيت الدلالة عليه في نص الحديث ، مثل قوله « فما رُلْنَا كذلك » ، « فرقى نحونا » وغيرهما . فهو عن أحد الصحابة الذين كانوا على الحبل تحت المهراس . وقد أشار إليه الحافظ في الفتح (٧/ ٢٧٠) .

(٢) المسند (٤٤١٤) . ونقله ابن كثير في التاريخ أيضًا (٤/ ٤٠ ، ٤١) وقال : « تفرد به أحمد ، وهذا إسناد فيه ضعف من جهة عطاء بن السائب » . وكذلك قال صاحب الزوائد (٦/ ١٠٩ ، ١١٠) : « وفيه عطاء بن السائب ، وقد اختلط » . وهذا التعليل منهما غير جيد ؛ لأن حماد بن سلمة - رواه - سمع من عطاء قديمًا قبل اختلاطه .

وروى البخارى عن البراء قال: لقينا المشركين يومئذ، وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرماة، وأمر عليهم عبد الله بن جبير وقال: «لَا تَبْرَحُوا إِن رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلَا تَبْرَحُوا، وَإِن رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلَا تُعِينُونَا». فلما لقيناهم هربوا، حتى رأينا النساء يشتدْنَ في الجبل، رفَعْنَ عن سَوْقِهِنَّ، وقد بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة. فقال عبد الله بن جبير: عهد إلى النبي ﷺ ألا تَبْرَحُوا. فأبوا، فلما أبوا صَرَفَ وجوههم، فأصِيبَ سبعون قتيلاً، وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: «لَا تُجِيبُوهُ». فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقال: «لَا تُجِيبُوهُ». فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال له: إن هؤلاء قُتِلُوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا. فلم يملك عُمَرُ نفسه فقال: كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، قد أبقي الله لك ما يخرُيك. فقال أبو سفيان: اعلِ هُبْلُ! فقال النبي ﷺ: «أجِيبُوهُ». قالوا: ما نقول؟ قال: «قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ». فقال أبو سفيان: لنا العُزَى ولا عُزَى لَكُمْ! فقال النبي ﷺ: «أجِيبُوهُ». قالوا: ما نقول؟ قال: «قُولُوا: اللَّهُ مُوَلَّاتَانَا، وَلَا مَوْلَى لَكُمْ». قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سِجَالٌ، ونجدون مثلاً لم أمر بها ولم تسوْنِي (١).

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ وروى البخارى عن أنس بن مالك : أن عمه - يعنى أنس ابن النضر - غاب عن بدر فقال: غِبْتُ عن أول قتال النبي ﷺ، لَئِنْ أَشْهَدَنِي اللَّهُ مع رسول الله ﷺ لِيرَيْنَ اللَّهُ مَا أَجَدُّ، فلقى يومَ أحدٍ، فهُزِمَ الناسُ، فقال: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَدُ لِيكَ مَا صَنَعَ هَؤُلَاءِ - يعنى المسلمين - وأبرأ إليك مما جاء به المشركون ، فتقدم بسيفه فلقى سعد بن مُعَاذٍ فقال: أَيْنَ يَا سَعْدُ؟ إِنِّي أَجِدُ رِيحَ الْجَنَّةِ دُونَ أَحَدٍ. فمَضَى فُقُتِلَ، فما عُرِفَ حتى عَرَفَتْهُ أخته ببنانه بشامة أو بشابه، وبه بضع وثمانون من طَعْنَةٍ وَضَرْبَةٍ وَرَمِيَةِ بَسْهَمٍ وأخرجه مسلم بنحوه (٢).

وقوله: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ أى: صرفكم عنهم إذا تصعدون ، أى: فى الجبل هارين من أعدائكم ﴿وَلَا تَلَوْنَّ عَلَى أَحَدٍ﴾ أى: وأنتم لا تلوون على أحد من الدهش والخوف والرعب ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ﴾ أى: وهو قد خلفتموه وراء ظهركم يدعوكم إلى تَرْكِ الْفِرَارِ من الأعداء، وإلى الرجعة والعودة والكره. وثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « اِشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ فَعَلُوا بِرَسُولِ اللَّهِ - وهو حينئذ يشير إلى رابعيته - اِشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى رَجُلٍ يَقْتُلُهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (٣). وأخرج البخارى عن ابن عباس قال: اشتد غضب الله على من قتله رسول الله ﷺ بيده فى سبيل الله، اشتد غضب الله على قوم دَمَوْا وجه رسول الله ﷺ. وقال ابن إسحاق: أصيبت رباعية رسول الله ﷺ وشج فى وجنته، وكُلِّمَتْ شَفَتُهُ، وكان الذى أصابه عتبة بن أبى وقاص.

(٢) الفتح (٧ / ٢٧٤) .

(١) فتح البارى (٧ / ٢٦٩ - ٢٧٢) .

(٣) الفتح (٧ / ٢٨٦) ومسلم (٢ / ٦٧) . وهو فى الحقيقة حديثان ، من صحيفة همام بن منبه عن أبى هريرة ، فى المسند (٨١٩٨ ، ٨١٩٨ م) .

قال الواقدي : والثَّابِتُ عندنا أن الذي دُمِيَ وَجَتِي رسول الله ﷺ ابن قَمَيْثَةَ ، والذي رَمَى شفته وأصاب رباعيته عتبة بن أبي وقاص . وقد ثبت في الصحيحين عن سهل بن سعد أنه سئل عن جُرْحِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فقال : جُرْحُ وجهه رسول الله ﷺ ؟ وَكُسِرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ ، وَهُسِمَتِ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ ، فَكَانَتْ فَاطِمَةُ [بنت رسول الله ﷺ] تَغْسِلُ الدَّمَ ، وَكَانَ عَلَى يَسْكَبِ عَلَيْهِ بِالْمِجْنِ ، فَلَمَّا رَأَتْ فَاطِمَةُ أَنَّ الْمَاءَ لَا يَزِيدُ الدَّمَ إِلَّا كَثْرَةً ، أَخَذَتْ قِطْعَةً مِنْ حَصِيرٍ فَأَحْرَقَتْهَا ، حَتَّى إِذَا صَارَتْ رَمَادًا أَلْصَقَتْهُ بِالْجُرْحِ ، فَاسْتَمْسَكَ الدَّمَ .

وقوله : ﴿فَأَنَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ أى : فجازاكم غَمًّا على غَمٍّ كما تقول العرب : نزلت ببنى فلان ، ونزلت على بنى فلان . وقال ابن جرير : وكذا قوله : ﴿وَلَا صَلْبَكُمْ لِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه : ٧١] أى : على جذوع النخل . قال ابن عباس : الغم الأول : بسبب الهزيمة وحين قيل : قتل محمد ﷺ ، والثانى : حين علاهم المشركون فوق الجبل ، وقال النبى ﷺ : «اللَّهُمَّ لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَعْلُونَا» . وعن عبد الرحمن ابن عوف : الغم الأول : بسبب الهزيمة ، والثانى : حين قيل : قُتِلَ مُحَمَّدٌ ﷺ ، كان ذلك عندهم أشد وأعظم من الهزيمة رواهما ابن مردويه ، قال ابن جرير : وأولى هذه الأقوال بالصواب قولُ من قال : فأنابكم بغمكم - أيها المؤمنون - بحرمان الله إياكم غنيمَةَ المشركين والظفر بهم والنصرَ عليهم ، وما أصابكم من القتل والجراح يومئذ - بعد الذى كان قد أراكم فى كل ذلك ما تحبون - بمعصيتكم ربكم ، وخلافكم أمر نبيكم ﷺ ، غم ظنكم أن نبيكم قد قتل ، وميل العدو عليكم بعد فلولكم منهم (١) .

وقوله : ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ أى : على ما فاتكم من الغنيمة بعدوكم ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ من القتل والجراح ، قاله ابن عباس وغيره ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ .

﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنٌ نَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾

(١) يعنى بعد هزيمتكم وفراكم منهم . وهذا هو الذى فى المخطوطة الأزهرية . وفى المطبوعة : «ونبؤكم منهم» ! وهو تصرف غير سديد من الطابع . والذى أثبتنا هو الموافق لما فى الطبرى (٨ / ٣١٣) .

يقول تعالى مُمْتَنَّا عَلَى عِبَادِهِ فِيمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّكِينَةِ وَالْأَمْنَةِ، وهو النعاس الذي غشيهم وهم مستلثموا السلاح في حال هَمَّهُمْ وَغَمَّهُمْ^(١)، والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان، كما قال في سورة الأنفال، في قصة بدر: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ الآية [الأنفال: ١١]. وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود قال: النعاس في القتال من الله، وفي الصلاة من الشيطان^(٢).

وروى البخاري عن أبي طلحة قال: غَشَيْنَا النعاس ونحن في مَصَافِنَا يوم أحد. قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه، ويسقط وآخذه. وقد رواه الترمذي والنسائي والحاكم بنحو معناه. والطائفة الأخرى: المنافقون ليس لهم هَمٌّ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ، أجبن قوم وأرعته، وأخذله للحق ﴿يُظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أهل شك وريب في الله، عز وجل. فإن الله عز وجل يقول: ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةٌ نَّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنْكُمْ﴾ يعني: أهل الإيمان واليقين والثبات والتوكل الصادق، وهم الجازمون بأن الله عز وجل سينصر رسوله ويُنْجِزَ له مأموله، ولهذا قال: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ يعني: لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف ﴿يُظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَّنَ يَقْلِبَ الرَّسُولَ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنَّ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢] وهكذا هؤلاء، اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة، وأن الإسلام قد باد وأهلك! هذا شأن أهل الريب والشك: إذا حصل أمر من الأمور القطيعة، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة. ثم أخبر تعالى عنهم أنهم ﴿يَقُولُونَ﴾ في تلك الحال: ﴿هَلْ لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ؟﴾ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾، ثم فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ أي: يسرون هذه المقالة عن رسول الله ﷺ. وعن عبد الله بن الزبير قال: قال الزبير: لقد رأيته مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا، أرسل الله علينا النوم، فما منا من رجل إلا ذقته في صدره، قال: فوالله إني لأسمع قول مُعْتَبَ بن قُشَيْرٍ، ما أسمعته إلا كالحلم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾. فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل الله: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ لقول مُعْتَبَ. رواه ابن أبي حاتم^(٣).

قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي: هذا قدر مقدر من الله عز وجل، وحكم حتم لازم لا يحاد عنه، ولا مناص منه.

(١) «مستلثموا السلاح»: من قولهم: «استلام الرجل»: لبس «الامة» - بفتح اللام وسكون الهمزة - وهي الدرع، وقيل: السلاح مطلقا. وفي المطبوعة: «مشتلمون السلاح»! وهو تصحيف قبيح. والصواب من المخطوطة. وقد وثقها كاتب النسخة فوضع تحت السين من كلمة «مستلثموا» ثلاث نقط، توكيدا لإهمالها؛ لتلا تقرا بالمعجمة.

(٢) إسناده صحيح. وهو - وإن كان موقوفا على ابن مسعود لفظا - فإنه يعتبر مرفوعا حكما.

(٣) إسناده صحيح.

وقوله: ﴿وَلِيَتْلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أى: يختبركم بما جرى عليكم ، ليميز الخبيث من الطيب، ويظهر أمر المؤمن والمنافق للناس فى الأقوال والأفعال ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: بما يختلج فى الصدور من السرائر والضمائر.

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ أى: ببعض ذنوبهم السالفة، كما قال بعض السلف: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾، أى: عما كان منهم من الفرار ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أى: يغفر الذنب ويحلّم عن خلقه، ويتجاوز عنهم، روى الإمام أحمد عن عاصم، عن شقيق، قال: لقي عبد الرحمن بن عوف الوليد بن عقبة، فقال له الوليد: ما لى أراك جفوت أمير المؤمنين عثمان؟ فقال له عبد الرحمن: أبلغه أنى لم أفر يوم عَيْنَيْنِ قال عاصم: يقول يوم أحد - ولم أتخلف عن بدر، ولم أترك سنة عمر! قال: فانطلق فخبّر بذلك عثمان، قال: فقال: أما قوله: إني لم أفر يوم عَيْنَيْنِ - فكيف يعيرنى بذلك وقد عفا الله عنه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ ١؟ وأما قوله: إني تخلفت يوم بدر - فإني كنت أمرض رقية بنت رسول الله ﷺ حتى ماتت، وقد ضرب لى رسول الله ﷺ بسهم، ومن ضرب له رسول الله ﷺ بسهم فقد شهد. وأما قوله: إني تركت سنة عمر - فإني لا أطيقها ولا هو، فاته فحدثه بذلك (١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار فى اعتقادهم الفاسد، الدال عليه قولهم عن إخوانهم الذين ماتوا فى الأسفار وفى الحروب: لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم. فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ أى: عن إخوانهم ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: سافروا للتجارة ونحوها ﴿أَوْ كَانُوا غُزًى﴾ أى: فى الغزو ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا﴾ أى: فى

(١) المسند (٤٩٠) . وإسناده صحيح . وعاصم: هو ابن أبى النجود . ووقع فى متن الحديث تحريف فى المطبوعة ، صححه من المسند والمخطوطة ، وذكره الهيمى فى الزوائد (٧ / ٢٢٦ ، ٨٣ / ٩ ، ٨٤) . وزاد نسيته لأبى يعلى والطبرانى والبيهاقى . « عَيْنَيْنِ » - بلفظ تنثية العين: جبل من جبال أحد . ولذلك يقال له: « يوم أحد » و « يوم عَيْنَيْنِ » . ووقع فى المطبوعة: « حين » ! وهو: تصحيف عجيب . وثبت على الضواب فى المخطوطة والمسند . وقد أجاب ابن عمر عن عثمان بمثل ذلك ، إذ أراد رجل من أهل مصر أن يغمز عثمان . وحديثه فى المسند (٥٧٧٢) . والبخارى (٧ / ٤٨ ، ٤٩ فتح) .

البلد ﴿مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ أى : ما ماتوا فى السفر ولا قتلوا فى الغزو .

وقوله : ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أى : خلق هذا الاعتقاد فى نفوسهم ليزدادوا حسرة على موتهم وقتلهم . ثم قال تعالى ردا عليهم : ﴿وَاللَّهُ يُخَيِّ وَيُمِيتُ﴾ أى : بيده الخلق وإليه يرجع الأمر ، ولا يحيا أحد ولا يموت إلا بمشيئته وقدره ، ولا يزداد فى عُمر أحد ولا ينقص منه إلا بقضائه وقدره ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أى : وعلمه وبصره نافذ فى جميع خلقه ، لا يخفى عليه من أمورهم شيء .

وقوله : ﴿وَلَقَدْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَغْفِرَةً مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ تضمن هذا أن القتل فى سبيل الله ، والموت أيضا ، وسيلة إلى نيل رحمة الله وعفوه ورضوانه ، وذلك خير من البقاء فى الدنيا وجمع حطامها الفانى .

ثم أخبر بأن كل من مات أو قتل فمصيره ومرجه إلى الله ، عز وجل ، فيجزيه بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، فقال : ﴿وَلَقَدْ مِتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لِلَّهِ تَحْشَرُونَ﴾ .

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ اللَّهُ بِدَلِيلٍ لَكَ لَتَأْتِيَنَّكَ آيَاتُ اللَّهِ وَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾
فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾
إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا لَهُ مِنْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾

يقول تعالى مخاطبا رسوله ﷺ ، ممثنا عليه وعلى المؤمنين ، فيما ألان به قلبه على أمته ، المتبعين لأمره ، التاركين لزجره ، وأطاب لهم لفظه : ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ اللَّهُ بِدَلِيلٍ لَكَ لَتَأْتِيَنَّكَ آيَاتُ اللَّهِ وَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أى : أى شيء جعلك الله لهم لينا لولا رحمة الله بك وبهم . قال قتادة : يقول : فبرحمة من الله لت لهم . و«ما» صلة ، والعرب تصلها بالمعرفة كقوله : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ [النساء : ١٥٥] ، المائدة : ١٣ ، وبالنكرة كقوله : ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [المؤمنون : ٤٠] وهكذا هاهنا : ﴿فَبِمَا رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ اللَّهُ بِدَلِيلٍ لَكَ لَتَأْتِيَنَّكَ آيَاتُ اللَّهِ وَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أى : برحمة من الله . وقال الحسن البصري : هذا خلق محمد ﷺ بعثه الله به . وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

ثم قال تعالى : ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ الفظ : الغليظ ، والمراد به هاهنا :

غليظ الكلام؛ لقوله بعد ذلك: ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ أى: لو كنت سيئَ الكلام قاسى القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك، وألان جانبك لهم تأليفا لقلوبهم، كما قال عبد الله بن عمرو: إنه رأى صفة رسول الله ﷺ فى الكتب المتقدمة: أنه ليس بفظاً، ولا غليظ، ولا سَخَاب فى الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح (١) .

ولهذا قال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، ولذلك كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه فى الأمر إذا حَدَثَ، تطيباً لقلوبهم؛ ليكونوا أنشط لهم فيما يفعلونه شاوَرهم يوم بدر فى الذهاب إلى العير، فقالوا: يا رسول الله، لو استعرضت بنا عُرْضَ البحر لقطعناه معك، ولو سرت بنا إلى بَرْكِ الْعَمَاد لسرنا معك، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب، فنحن معك وبين يديك وعن يمينك وعن شمالك (٢) .

وشاورهم - أيضا - أين يكون المنزل؟ حتى أشار المنذر بن عمرو [المُنْعِقَ ليموت]، بالتقدم أمام القوم (٣) ، وشاورهم فى أحد فى أن يقعد فى المدينة أو يخرج إلى العدو، فأشار جمهورهم بالخروج إليهم، فخرج إليهم. وشاورهم يوم الخندق فى مصالحة الأحزاب بثلاث ثمار المدينة عامئذ، فأبى عليه ذلك السعدان: سعد بن معاذ وسعد بن عُبَادَة، فترك ذلك. وشاورهم يوم الحُدَيْبِيَّة فى أن يميل على دَرَارَى المشركين، فقال له الصديق: إنا لم نجئ لقتال أحد، وإنما جئنا معتمرين، فأجابه إلى ما قال. وقال عليه السلام فى قصة الإفك: «أَشِيرُوا عَلَى مَعْشَرِ الْمُسْلِمِينَ فِي قَوْمِ أَبْنَاءِ أَهْلِي وَرَمُوهُمْ، وَإِنَّمَا اللَّهُ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي مِنْ سُوءٍ، وَأَبْنَاهُمْ بِمَنْ - وَاللَّهِ - مَا عَلِمْتُ [عَلَيْهِ] (٤) إِلَّا خَيْرًا». واستشار عليا وأسامة فى فراق عائشة. فكان يشاورهم فى الحروب ونحوها. وقد اختلف الفقهاء: هل كان ذلك واجبا عليه أو من باب الندب تطيبا لقلوبهم؟ على قولين.

وقد روى الحاكم عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ قال: أبو بكر وعمر، ثم قال:

(١) إشارة إلى حديث المسند (٦٦٢٢) . وقد مضى كاملا عند تفسير الآيات (١١٩ - ١٢٠) وبيننا هناك أنه رواه البخارى أيضا .

(٢) هذا الحديث رواه الحافظ ابن كثير من حفظه بالمعنى ، لم يذكره على سبيل رواية معينة . فسطره الاول ثابت معناه من حديث أنس، فى المسند (١٢٠٤٧، ١٢٩٨٦، ١٣٣٣٠، ١٣٧٣٩) . وشرطه الآخر ثابت معناه من حديث ابن مسعود ، فى المسند (٣٦٩٨، ٤٠٧٠، ٤٣٧٦) . وتفصيل ذلك فى تاريخ ابن كثير (٣/ ٢٦٢ - ٢٦٤) و « برك الغماد » : موضع باليمن . ويجوز فتح الباء وكسرها ، وضم الغين وكسرها .

(٣) « المنعِق » : بضم الميم وسكون العين وكسر النون . والمنذر هذا : من الخزرج ، شهد بدراً وأحدًا . وقتل شهيداً يوم بئر معونة . قال ابن سعد (٣/ ٢ / ١٠٠ ، ١٠١) : « وقال رسول الله ﷺ : أعتق المنذر ليموت . ويقول : مشى إلى الموت وهو يعرفه » .

(٤) هو جزء من حديث طويل ، رواه البخارى (٤٧٥٠) ومسلم (٥٨ التوبة) والترمذى (٣١٨٠) . وهو فى المسند (٥٩/ ٦) . وكلمة [عليه] ليست فى المطبوع من « عمدة التفسير » وكذا المخطوطة الأزهرية ، وأثبتناها من مصادر التخريج (الباز) .

صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (١). وقد روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن غنم ، أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر وعمر: «لو اجتمعتما في مشورة ما خالفكما» (٢).. وروى ابن ماجه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «المُستشارُ مؤتمنٌ». ورواه أبو داود والترمذى ، وحسنه والنسائى بأبسط من هذا (٣). ثم روى ابن ماجه عن أبى مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «المُستشارُ مؤتمنٌ». تفرد به (٤).

وقوله: ﴿إِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: إذا شاورتهم في الأمر وعزمت عليه فتوكل على الله فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

- (١) الحاكم (٧٠ / ٣) ووافقه الذهبي على شرط الشيخين .

- (٢) المسند (٢٢٧/٤ حلي) . وإسناده صحيح .

- (٣) ابن ماجه (٣٧٤٥) والترمذى (٤ / ٢٥ ، ٢٦) ، ولم يذكر تحسينه الذى نقله الحافظ ابن كثير . ولكن رواه

- الترمذی - من هذا الوجه - قبل ذلك، ضمن قصة مطولة (٢٧٤/٣ - ٢٧٦)، وقال: «حسن صحيح غريب».

- (٤) ابن ماجه (٣٧٤٦) . وقال البوصيرى : فى روائده : « إسناده حديث أبى مسعود صحيح ، رجاله ثقات » .

- وكذلك رواه أحمد في المسند (٢٧٤/٥ حلى) . وأبو مسعود : هو البدرى الأنصارى . ووقع هنا فى

- المخطوطة والمطبوعة « ابن مسعود » . وهو خطأ واضح .

وهذه الآية: ﴿وَأَوْفِرْ لَهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ ، والآية الأخرى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى : ٣٨] ، اتخذهما

اللاعبون بالدين في هذا العصر - من العلماء وغيرهم - عدتهم في التضييل بالتأويل ، ليواطوا صنع الإفرنج في

منهج النظام الدستوري الذي يزعمونه ، والذي يخدعون الناس بتسميته « النظام الديمقراطي » ! فاصطنع هؤلاء

اللاعبون شعاراً من هاتين الآيتين ، يخذعون به الشعوب الإسلامية أو المتسببة للإسلام . يقولون كلمة حق يراد

بها الباطل : يقولون : « الإسلام يأمر بالشورى » ، ونحو ذلك من الألفاظ .

وَحَقًّا إِنَّ الْإِسْلَامَ يَأْمُرُ بِالشُّرَى ، وَلَكِنْ أَى شُورَى يَأْمُرُ بِهَا الْإِسْلَامُ ؟ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ لِرَسُولِهِ ﷺ :

﴿وَأُورِثَهُمُ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ومعنى الآية واضح صريح ، لا يحتاج إلى تفسير ، ولا يحتمل

التأويل . فهو أمر للرسول ﷺ ، ثم لمن يكون ولى الأمر من بعده : أن يستعرض آراء أصحابه الذين يراهم

موضع الرأي، الذى هم أولو الأحلام والنهى ، فى المسائل التى تكون موضع تبادل لأراء وموضع الاجتهاد فى

التطبيق . ثم يختار من بينها ما يراه حقا أو صوابا أو مصلحة ، فيعزم على إنفاذه غير متقيد برأى فريق معين ، ولا

برای عدد محدود، لا برای اکثریة، ولا برای اقلیة، فإذا عزم توکل علی الله، وأنفذ العزم علی ما ارتآه.

ومن المفهوم البديهي الذي لا يحتاج إلى دليل : أن الذين أمر الرسول بمشاورتهم - ويأتسى به فيه من يلي

الأمر من بعده - هم الرجال الصالحون القائمون على حدود الله ، المتقون لله ، المقيمو الصلاة ، المؤدو الزكاة ،

المجاهدون في سبيل الله، الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «لبنى منكم أولو الأحلام والنهى». ليسوا هم

الملاحدين ، ولا المحاربين لدين الله ، ولا الفجار الذين لا يتورعون عن منكر ، ولا الذين يزعمون أن لهم أن

يضعوا شرائع وقوانين تخالف دين الله، وتهدم شريعة الإسلام . هؤلاء وأولئك - من بين كافر وفاسق -

موضعهم الصحيح تحت السيف أو السوط ، لا موضع الاستشارة وتبادل الآراء .

والآية الأخرى ، آية سورة الشورى - كتمثل هذه الآية وضوحاً وبياناً صراحة : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا

الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ [الشورى: ٣٨]. ثم هي ما كانت خاصة بطرق لحكم وأنظمة

الدولة . إنما هي في خلق المؤمنين الطائعين المتبعين أمر ربهم أن من خلقهم أن يتشاوروا في شؤونهم الخاصة

وعامة، ليكون ديدنهم التعاون والتساند في شأنهم كله .
ومجال القول ذو سعة . وفيما قلنا عبرة وعظة وكفاية ، إن شاء الله .

وقوله: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ وهذا كما تقدم من قوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، ثم أمرهم بالتوكل عليه فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُلَ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: ما ينبغي لنبي أن يخون. وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: فقدوا قطيفة يوم بدر، فقالوا: لعل رسول الله ﷺ أخذها، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُلَ﴾ أى : يخون. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا حصية، حدثنا مِقْسَمٌ حدثنى ابن عباس أن هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُلَ﴾ نزلت فى قطيفة حمراء فُقدت يوم بدر، فقال بعض الناس: أخذها. قال فأكثروا فى ذلك، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُلَ وَمَنْ يَقُلْ يَأْتِ بِمَا غُلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. ورواه أبو داود، والترمذى والطبرى. وقال الترمذى: حسن غريب. ورواه بعضهم مرسلًا. وروى من غير وجه عن ابن عباس نحو ما تقدم. وهذه تبرة له، صلوات الله وسلامه عليه، عن جميع وجوه الخيانة فى أداء الأمانة وقسم الغنيمة وغير ذلك.

وقرأ الحسن البصرى وطاوس، ومجاهد، والضحاك: ﴿أَنْ يَقُلَ﴾ بضم الياء أى: يخان. وحكى عن بعضهم أنه فسر هذه القراءة بمعنى: يَتَّهِمُ بالخيانة (١).

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقُلْ يَأْتِ بِمَا غُلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد. وقد وردت السنة بالنهى عن ذلك أيضا فى أحاديث متعددة : روى الإمام أحمد عن أبى مالك الأشجعى، عن النبى ﷺ قال: «أَعْظَمُ الْغُلُولِ عِنْدَ اللَّهِ ذِرَاعٌ مِنَ الْأَرْضِ: تَجْدُونَ الرَّجُلَيْنِ جَارَيْنِ فِي الْأَرْضِ - أَوْ فِي الدَّارِ - فَيَقْطَعُ أَحَدُهُمَا مِنْ حَظِّ صَاحِبِهِ ذِرَاعًا، فَإِذَا اقْتَطَعَهُ طَوَّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ إِلَى [يَوْمِ الْقِيَامَةِ]» (٢). وروى أيضا عن المُسْتَوْدِ بْنِ شَدَّادٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ وَلِيَ لَنَا عَمَلًا وَلَيْسَ لَهُ مِثْرٌ فَلْيَتَّخِذْ مِثْرًا، أَوْ لَيْسَتْ لَهُ زَوْجَةٌ فَلْيَتَزَوَّجْ، أَوْ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَلْيَتَّخِذْ خَادِمًا، أَوْ لَيْسَ لَهُ دَابَّةٌ فَلْيَتَّخِذْ دَابَّةً، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ غَالٌ» ورواه أبو داود بنحوه (٣). وروى ابن جرير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ «لَا أَعْرِفَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ شَاةً لَهَا ثَغَاءٌ، يُنَادِي: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ بَلَغْتُكَ. وَلَا أَعْرِفَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ جَمَلًا لَهُ رِغَاءٌ، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ بَلَغْتُكَ.» [وَلَا أَعْرِفَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ فَرَسًا لَهُ حِمَحِمَةٌ، يُنَادِي: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ بَلَغْتُكَ.] وَلَا أَعْرِفَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ فِشْعًا مِنْ أَدَمٍ، يُنَادِي: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ

(١) القراءة الأولى - بفتح الياء - قراءة ابن كثير وأبى عمرو وعاصم ، والقراءة الثانية - بضم الياء - قراءة باقى السبعة .

(٢) المسند (١٧٣٢١) . وإسناده صحيح .

(٣) المسند (٢٢٩/٤) حلى (وأبو داود (٢٩٤٥) والمنذرى (٢٨٢٥) .

بَلَّغْتُكَ». ولم يروه أحدٌ من أصحاب الكتب الستة (١). وروى الإمام أحمد عن أبي حميد الساعدي قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد يقال له: ابن اللثية على الصدقة، فجاء فقال: هذا لكم وهذا أهدي لى! فقام رسول الله ﷺ على المنبر فقال: «مَا بَالُ الْعَامِلِ تُبْعَثُ فَيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أَهْدَى لى؟! أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَيَنْظُرُ أَيُّهُدَى إِلَيْهِ أَمْ لَا؟! وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَا يَأْتِي أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْهَا بِشَيْءٍ إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خَوَارٌ، أَوْ شَاةٌ تَبْعَرُ» ثم رفع يديه حتى رأينا غُفْرَةَ إِبْطِيهِ ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ ؟» ثلاثاً أخرجه (٢). وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة، قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوماً. ذكر الغُلُولَ فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، ثُمَّ قَالَ: «لَا الْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اغْنِنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. [لَا الْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهَا حَمْحَمَةٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اغْنِنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لَا الْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رَقَاعٌ تَخْفَقُ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اغْنِنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لَا الْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اغْنِنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ » أخرجه (٣). وروى الإمام أحمد عن عدي بن عُميرة الكندي قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأْيُهَا النَّاسُ، مَنْ عَمِلَ لَنَا مِنْكُمْ عَمَلًا، فَكُتِمْنَا مَخِيطًا فَمَا فَوْقَهُ فَهُوَ غُلٌّ يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». قال: فقام رجل من الأنصار أسود، كَانِي أَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقْبِلْ عَنِّي عَمَلِك. قال: «وَمَا ذَاكَ؟» قال: سمعتك تقول كذا وكذا. قال: «وَأَنَا أَقُولُ ذَاكَ الْآنَ: مَنْ اسْتَعْمَلَنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَلْيَجِيءْ بِقَلْبِلِهِ وَكَثِيرِهِ، فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَخَذَهُ. وَمَا نَهِيَ عَنْهُ انْتَهَى». وكذا رواه مسلم، وأبو داود (٤). وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «رُدُّوا الْخِيَاطَ وَالْمَخِيطَ، فَإِنَّ الْغُلُولَ عَارٌ وَنَارٌ وَشَنَارٌ عَلَى أَهْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ» (٥). وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال: لما كان يومٌ خَيْرٌ

(١) الطبري (٨١٥٨) وإسناده صحيح . ولم يروه أيضا الإمام أحمد في المسند . والزيادة من المخطوطة الأهرية والطبري . وقوله : « لا أعرفن » : كلمة تقال عند التهديد والوعيد والزرع الشديد . وثبتت في المطبوع : « لا أعرفن ! » وهو خطأ . و « الثغاء » : صوت الشاة . و « الرغاء » : صوت الإبل . و « القشع » - بكسر القاف وسكون الشين العجمة - هو الجلد الخلق . و « الآدم » : جمع آدم . وهو الجسد . وثبت في المطبوعة « قسما من آدم » ! وهو تخطيط .

(٢) المسند (٤٢٣/٥ ، ٤٢٤ حلى) والبخارى (١٤٤/١٣ - ١٤٦ فتح) ومسلم (٨٣/٢ ، ٨٤) ورواه الطبري أيضا (٨١٥٩ - ٨١٦١) .

(٣) المسند (٩٤٩٩) . والزيادة منه ومن المخطوطة الأهرية . وفي المسند زيادة أخرى لم يذكرها ابن كثير ، وهو في البخارى (١٢٩/٦ فتح) ومسلم (٨٣/٢) . ورواه أيضا الطبري (٨١٥٥ - ٨١٥٧) .

(٤) المسند (١٩٢/٤ حلى) ومسلم (٨٤/٢ ، ٨٥) .

(٥) هكذا ذكره الحفاظ ابن كثير ، دون نسبة ، وهو - بمعناه - جزء من حديث طويل ، رواه أحمد في المسند (٦٧٢٩) ، وإسناده صحيح . وفصلنا تخريجه هناك وفي الاستدراك (٣٠/١٣) .

أقبل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: فلان شهيد، وفلان شهيد. حتى أتوا على رجل فقالوا: فلان شهيد، فقال رسول الله ﷺ: «كَلَّا، إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ فِي بُرْدَةٍ غَلَّهَا - أَوْ عَبَاءَةٌ». ثم قال رسول الله ﷺ: « اذْهَبْ فَتَادِ فِي النَّاسِ: إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ ». قال: فنأدبت: إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون. وكذا رواه مسلم، والترمذي. وقال الترمذي: حسن صحيح (١).

وروى أبو داود عن عبد الله بن عمرو، قال: كان رسول الله ﷺ إذا غنم غنيمة أمر بلالا فينادي في الناس، فَيَجِئُونَ بِغَنَائِمِهِمْ، فيخمسه ويقسمه، فجاء رجل يوما بعد النداء بزمام من شعر فقال: يا رسول الله، هذا كان مما أصبنا من الغنيمة. فقال: «أَسَمِعْتَ بِلَالًا يُنَادِي ثَلَاثًا؟»، قال: نعم. قال: «فَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَجِيءَ بِهِ؟» فاعتذر إليه، فقال: «كَلَّا، أَنْتَ تَجِيءُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَنْ أَقْبِلَهُ مِنْكَ» (٢).

وقوله: «أَقَمْنِ اتَّبِعِ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَهُ جَهَنَّمُ وَبَشِ الْمَصِيرُ» أي: لا يستوى من اتبع رضوان الله فيما شرعه، فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه. وأجبر من وبيل عقابه، ومن استحق غضب الله وألزم به، فلا محيد له عنه، وماواه يوم القيامة جهنم وبش المصير. وهذه الآية لها نظائر كثيرة في القرآن كقوله تعالى: «أَقَمْنِ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى» [الرعد: ١٩] وقوله: «أَقَمْنِ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ» [القصص: ٦١].

ثم قال: «هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ». قال الحسن البصري ومحمد بن إسحاق: يعنى: أهل الخير وأهل الشر درجات، وقال أبو عبيدة والكسائي: منازل، يعنى: يتفاوتون في منازلهم ودرجاتهم في الجنة ودرجاتهم في النار، كما قال تعالى: «وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا» الآية [الانعام: ١٣٢]؛ ولهذا قال: «وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ» أي: وسيؤفيهم إياها، لا يظلمهم خيرا ولا يزيدهم شرا، بل يجازى كلا بعمله.

وقوله: «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ» أي: من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به، كما قال تعالى: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا» [الروم: ٢١] أي: من جنسكم، وقال تعالى: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ» [الكهف: ١١٠]، وقال تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ»

(١) المسند (٢٠٣، ٣٢٨) ومسلم (٤٣/١).

(٢) أبو داود (٢٧١٢). ورواه أيضا أحمد في المسند (٦٩٩٦) وابن حبان في صحيحه (١٤٧/٧) من مخطوطة الإحسان (والحاكم (١٣٩/٢) وصححه. ووقع اسم الصحابي في مختصر المنذرى (٢٥٩٧)، والمستدرک «عبد الله بن عمر». وهو خطأ، وثبت على الصواب في أبي داود ومخطوط الذهبى باختصار المستدرک. ثم قد سها الحافظ ابن كثير - هنا - فذكر اسم الصحابي «سمرة بن جندب»! هكذا ثبت في المخطوطة والمطبوعة ولعل الحافظ كتبه من حفظه - رحمه الله.

[الفرقان: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فهذا أبلغ في الامتنان أن يكون الرسول إليهم منهم، بحيث يمكنهم مخاطبته ومراجعته في فهم الكلام عنه، ولهذا قال: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ يعنى: القرآن ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أى: يأمهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ليزكوا نفوسهم وتطهر من الدنس والخبث الذى كانوا متلبسين به فى حال شركهم وجاهليتهم ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ يعنى: القرآن والسنة ﴿وَأِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أى: من قبل هذا الرسول ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أى: لفى غى وجهل ظاهر جلى بين لكل أحد.

﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١١٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنْ اللَّهُ وَلَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٦) وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْ فَنَقِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ يَأْقُوهُمْ مِمَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١١٧) الَّذِينَ قَالُوا لِأَخْوَاهِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١٨)

يقول تعالى: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ﴾: وهى ما أصيب منهم يوم أحد من قتل السبعين منهم ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾. يعنى: يوم بدر، فإنهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلًا وأمسروا سبعين أسيرًا ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ أى: من أين جرى علينا هذا؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾. روى ابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم أحد من العام المقبل، عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون، وقر أصحاب رسول الله ﷺ عنه، وكُسرت رباعيته وهُشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ بأخذكم الفداء. وهكذا رواه الإمام أحمد ولكن بأطول منه (١)، وكذا قال الحسن البصرى. وقال محمد بن إسحاق، وابن جريج، والربيع بن أنس، والسدى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ أى: بسبب عصيانكم لرسول الله ﷺ حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتهم، يعنى بذلك الرماة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى: ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنْ اللَّهُ﴾ أى: فراركم بين يدى عدوكم وقتلهم لجماعة منكم وجراحهم لآخرين - كان بقضاء الله وقدره، وله الحكمة فى ذلك. [وقوله]: ﴿وَلَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا ﴿وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْ فَنَقِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ يعنى بذلك أصحاب عبد الله بن أبى بن سلول الذين

(١) هو جزء من حديث طويل فى المسند (٢٠٨). وسيذكره الحافظ ابن كثير عند تفسير الآيتين (٩، ١٠) من سورة الأنفال، وينسبه لمسلم وغيره.

رجعوا معه فى أثناء الطريق، فاتبعهم من اتبعهم من المؤمنين يحرضونهم على الإياب والقتال والمساعدة؛ ولهذا قال: ﴿أَوْ اذْقُوا﴾. قال ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبیر يعنى كثروا سواد المسلمين. فتعللوا قائلين: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَانَاكُمْ﴾ قال مجاهد: يعنون: لو نعلم أنكم تلقون حربا لجئناكم، ولكن لا تلقون قتالا.

[روى ابن إسحاق عن جماعة من التابعين، قالوا:] خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - يعنى حين خرج إلى أحد - فى ألف رجل من أصحابه، حتى إذا كان بالشُّوط - بين أحد والمدينة - انحاز عنه عبد الله بن أبى ابن سلول بثلاث الناس، فقال: أطاعهم فخرج وعصانى! ووالله ما ندرى علام تقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس!! فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه من أهل النفاق وأهل الريب، واتبعهم عبد الله بن عمرو ابن حَرَام أخو بنى سلمة، يقول: يا قوم، أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عندما حضر من عدوكم، قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولكننا لا نرى أن يكون قتال. فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم، قال: أبعدكم الله أعداء الله، فسيُغنى الله عنكم. ومضى رسول الله ﷺ (١).

قال الله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمًا أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾: استدلوا به على أن الشخص قد تقلب به الأحوال، فيكون فى حال أقرب إلى الكفر، وفى حال أقرب إلى الإيمان.

ثم قال: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يعنى: أنهم يقولون القول ولا يعتقدون صحته، ومنه قولهم هذا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَانَاكُمْ﴾ فإنهم يتحققون أن جندا من المشركين قد جاءوا من بلاد بعيدة، يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب من سراتهم يوم بدر، وهم أضعاف المسلمين - أنه كائن بينهم قتال لا محالة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِلْإِسْرَائِيلِيِّينَ وَقَعْدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ أى: لو سمعوا من مشورتنا عليهم فى القعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل. قال الله تعالى: ﴿قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: إن كان القعود يَسْلَمُ به الشخص من القتل والموت، فينبغى، أنكم لا تموتون، والموت لا بد آت إليكم ولو كنتم فى بروج مُشَيَّدة، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين قال مجاهد، عن جابر بن عبد الله: نزلت هذه الآية فى عبد الله بن أبى ابن سلول.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ

أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرَ عَظِيمٍ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٢﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ دِيَارِهِمْ فَأَتَىٰ خِيْلَانُ الْأَنْصَارِ الْمَدِينَةَ وَفِيهَا يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿١٧٣﴾ فَاتَّخَذُوا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُرِّيَّتَهُمْ عَمَلًا كَبِيرًا ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّمَا كُنْتُمْ مَوَدَّةَ بَيْنٍ بَيْنَ يَدَيْهِمْ فَفَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ فَجَعَلَهُمْ عَصَىٰ لِيَأْخُذَ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَالْطَّافِلِينَ ﴿١٧٥﴾

يخبر تعالى عن الشهداء بأنهم وإن قتلوا في هذه الدار فإن أرواحهم حية مرزوقة في دار القرار. روى ابن جرير عن ابن إسحاق بن أبي طلحة : حدثني أنس بن مالك في أصحاب رسول الله ﷺ الذين أرسلهم نبي الله ﷺ إلى أهل بئر معونة ، قال : لا أدري أربعين أو سبعين . وعلى ذلك الماء عامر بن الطفيل الجعفرى ، فخرج أولئك النفر من أصحاب رسول الله ﷺ ، حتى أتوا غارا مشرفا على الماء فقعدوا فيه ، ثم قال بعضهم لبعض : أيكم يبلغ رسالة رسول الله ﷺ [أهل هذا الماء ؟ فقال - أراه ابن ملحان الأنصارى - : أنا أبليغ رسالة رسول الله ﷺ] . فخرج حتى أتى حواء منهم فاختبأ أمام البيوت ، ثم قال : يا أهل بئر معونة ، إني رسول الله إليكم : أنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، فأمنوا بالله ورسوله . فخرج إليه رجل من كسر البيت برمح فضربه في جنبه حتى خرج من الشق الآخر . فقال : الله أكبر ، فزئت ورب الكعبة . فاتبعوا أثره حتى أتوا أصحابه في الغار فقتلهم أجمعين عامر بن الطفيل . وقال ابن إسحاق : حدثني أنس بن مالك : أن الله أنزل فيهم قرآنا : (بَلِّغُوا عَنَّا قَوْمَنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا وَرَضِينَا عَنْهُ) ، ثم نسخت فرفعت بعد ما قرأناه زمنا وأنزل الله : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (١) . وقد روى مسلم عن مسروق قال : إنا سألنا عبد الله عن هذه الآية : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ فقال : أما إنا قد سألنا عن ذلك ؟ فقال : « أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربهم اطلالة فقال : هل تستهون شيئا ؟ فقالوا : أى شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا : يارب ، نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أن ليس لهم حاجة

(١) هذا الحديث رواه الطبري في التفسير (٨٢٢٤) ، والتاريخ (٣٦/٣) بإسناد واحد . وإسناده صحيح . وثبت لفظه في مخطوطة ابن كثير ناقصا ، وكذلك في طبعة بولاق . والزيادة التي هنا رادها السيد رشيد رضا رحمه الله من تفسير الطبري ، وبين ذلك بهامش طبعته . وهى ثابتة في التاريخ أيضا ، وقوله « حتى أتى حواء منهم » - « الحواء » بكسر الحاء وتخفيف الواو : جماعة بيوت الناس إذا تدانت ، وهى من الوبر . وقد ثبت بهذا اللفظ في تاريخ الطبري ، وهو أقرب للرسم الثابت في مخطوطة ابن كثير . وفى تفسير الطبري « حيا منهم » ، وهو مقارب أيضا وفى مطبوعة ابن كثير « حول بينهم » ! وهو تصحيف .

وهذه القصة بهذا السياق لم أجدها عند غير الطبري . ولكن معناها ثابت في روايات كثيرة عن أنس . انظر المسند (١٢٤٢٩ ، ١٣٢٢٨ ، ١٤١١٩) والبحارى (٢٩٧/٧ - ٢٩٩) وطبقات ابن سعد (٧١/٢ - ٧٢) . وتفصيل القصة في تاريخ ابن كثير (٧٤/٤ - ٧٤) .

تُرَكُّوا»^(١). وقد روى نحوه من حديث أنس وأبي سعيد . وروى الإمام أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : «مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ، لَهَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ، يَسْرُهَا أَنْ تَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا إِلَّا الشَّهِيدَ ، فَإِنَّهُ يَسْرُهُ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى مِمَّا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ» تفرد به مسلم ^(٢) . وروى البخارى عن جابر قال : لما قُتِلَ أبى جعلت أبكى وأكشفت الثوب عن وجهه ، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهونى ، والنبي ﷺ لم يَنْهَ ، فقال النبي ﷺ : «لَا تَبْكِيه - أَوْ : مَا تَبْكِيه - مَا زَالَتْ الْمَلَائِكَةُ تَظْلُهُ بِأَجْنَحَتِهَا حَتَّى رَفَعَ» . ورواه مسلم والنسائي بنحوه . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : «لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأَحَدٍ جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خَضِرٍ ، تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ ، وَتَأْكُلُ مِنْ ثَمَارِهَا وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلٍ مِنْ ذَهَبٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ ، فَلَمَّا وَجَدُوا طَيْبَ مَا كُلُّهُمْ وَمَشْرَبُهُمْ ، وَحَسَنَ مَنَقَلِبِهِمْ قَالُوا : يَا لَيْتَ إِخْوَانَنَا يَعْلَمُونَ مَا صَنَعَ اللَّهُ لَنَا ، لئَلَّا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ ، وَلَا يَنْكَلُوا عَنِ الْحَرْبِ» فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ . فَانزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ : «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ» وما بعدها» ورواه ابن جرير وأبو داود والحاكم ^(٣) . روى الإمام أحمد عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : «الشَّهَدَاءُ عَلَى بَارِقٍ ، نَهْرٍ بِيَابِ الْجَنَّةِ ، فِي قُبَّةٍ خَضِرَاءَ ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بَكْرَةً وَعَشِيًّا» تفرد به أحمد ، وإسناده جيد ، ورواه الطبري ^(٤) .

وكان الشهداء أقسام : منهم من تسرح أرواحهم في الجنة ، ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة ، وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النهر ، فيجتمعون هنالك ، ويغذى عليهم برزقهم هناك ويراوح ، والله أعلم .

وقد روينا في مسند الإمام أحمد حديثا فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضا فيها ، وتأكل من ثمارها ، وترى ما فيها من النضرة والسرور ، وتشاهد ما أعدّه الله لها من الكرامة . وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم ، اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة ؛ فإن الإمام أحمد رواه عن محمد بن إدريس الشافعي ، عن مالك بن أنس الأصبحي ، عن الزهري ، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَلْقَى فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ ، حَتَّى يُرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ» ^(٥) . قوله : «يلقى» ، أى : يأكل . وفى هذا الحديث : أن روح المؤمن تكون على شكل طائر في الجنة . وأما

(١) صحيح مسلم (٩٨/٢) . وعبد الله : هو ابن مسعود . وقد مضى بمعناه عند تفسير الآيتين (١٥٣ ، ١٥٤) من سورة البقرة منسوبا لمسلم .

(٢) المسند (١٢٣٠٠) ومسلم (٩٦/٢) .

(٣) المسند (٢٣٨٨ ، ٢٣٨٩) وأبو داود (٢٥٢٠) والطبري (٨٢٠٥) والحاكم (٢٩٧/٢ ، ٢٩٨) وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي .

(٤) المسند (٢٣٩٠) والطبري (٢٣٢٣) ٨٢٠٩ - ٨٢١٣) ورواه أيضا ابن حبان في صحيحه (٦٩/٧) مخطوطة

الإحسان) والحاكم (٧٤/٢) وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي .

(٥) مضى هذا الحديث عند تفسير الآيتين : (١٥٣ ، ١٥٤) من سورة البقرة .

أرواح الشهداء، فكما تقدم فى حواصل طير خضر، فهى كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين، فإنها تطير بأنفسها، فنسأل الله الكريم المتأن أن يمتتنا على الإيمان.

وقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. أى: الشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله أحياء عند الله، وهم فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة، ويستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم فى سبيل الله: أنهم يقدمون عليهم، وأنهم لا يخافون مما أمامهم ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم نسأل الله الجنة. وقد ثبت فى الصحيحين عن أنس فى قصة أصحاب بئر معونة السبعين من الأنصار، الذين قتلوا فى غداة واحدة: وقنت رسول الله ﷺ يدعو على الذين قتلوهم، يدعو عليهم ويلعنهم، قال أنس: ونزل فيه قرآن قرأه حتى رفع: «أَنْ بَلَّغُوا عَنَّا قَوْمَنَا أَنَّا لَقِينَا رَبَّنَا قَرْضَىٰ عَنَّا وَأَرْضَانَا».

ثم قال: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: قال محمد بن إسحاق: استبشروا وسرّوا لما عاينوا من وفاء الموعود وجزيل الثواب. وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم، سواء الشهداء وغيرهم، وكلما ذكر الله فضلا ذكر به الأنبياء وثوابا أعطاهم، إلا ذكر ما أعطى الله المؤمنين من بعدهم.

وقوله: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾: هذا كان يوم «حمراء الأسد»، وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين كروا راجعين إلى بلادهم، فلما استمروا فى سيرهم تَنَدَّمُوا لم لا تَمُومُوا على أهل المدينة وجعلوها الفيضلة! فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليرعيتهم ويريهم أن بهم قوة وجلدا، ولم يأذن لأحد سوى من حضر الوقعة يوم أحد، سوى جابر بن عبد الله - لما سنذكره - فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والإثخان، طاعة لله ولرسوله ﷺ. وقال محمد بن إسحاق: كان يوم أحد يوم السبت للنصف من شوال، فلما كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال، أذن مؤذن رسول الله ﷺ فى الناس بطلب العدو، وأذن مؤذنه ألا يخرج من معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس. فكلمه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام، فقال: يا رسول الله، إن أبى كان خلقتنى على أخوات لى سبع، وقال: يا بُنى، إنه لا ينبغى لى ولا لك أن تترك هؤلاء النسوة لا رجل فىهن، ولست بالذى أوثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسى، فتخلف على أخواتك، فتخلفت عليهن، فأذن له رسول الله ﷺ، فخرج معه. وإنما خرج رسول الله ﷺ مرهبا للعدو، وليبلغهم أنه خرج فى طلبهم ليظنوا به قوة، وأن الذى أصابهم لم يؤمنهم عن عدوهم. قال ابن إسحاق: فحدثنى عبد الله بن خزيمة بن زيد بن ثابت، عن أبى السائب مولى عائشة بنت عثمان؛ أن رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ من بنى عبد الأشهل - كان شهد أحدا - قال: شهدنا أحدا مع رسول الله ﷺ أنا وأخ لى، فرجعنا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج فى طلب العدو، قلت لأخى - أو قال: أنفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ والله ما لنا من دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله ﷺ، وكنت أيسر جراحا منه،

فكان إذا غلب حملته عُبَّة، ومشى عُبَّة حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون. وروى البخارى عن عائشة: «الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ»، قالت لعروة: يا ابن أختى، كان أبواك منهم الزبير وأبو بكر، لما أصاب نبي الله ﷺ ما أصاب يوم أحد، وانصرف عنه المشركون، خاف أن يرجعوا، فقال: «مَنْ يَرْجِعْ فِي أَثَرِهِمْ؟» فانتدب منهم سبعون رجلا، فيهم أبو بكر والزبير ورواه الحاكم ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. كذا قال! ورواه ابن ماجه وسعيد بن منصور وأبو بكر الحميدى (١).

وقوله: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» أى: الذين توعدتهم الناس بالجموع وخوفوهم بكثرة الأعداء، فما اكثرثوا لذلك، بل توكلوا على الله واستعانوا به «وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ». وروى البخارى عن ابن عباس: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»: قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: «إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» ورواه النسائى. والعجب أن الحاكم رواه ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه! (٢).

وقد روى الإمام أحمد عن عوف بن مالك: أن النبی ﷺ قضى بين رجلين، فقال المقضى عليه لما أدبر: حسبى الله ونعم الوكيل. فقال النبی ﷺ: «رُدُّوا عَلَى الرَّجُلِ». فقال: «ما قلت؟». قال: قلت: حسبى الله ونعم الوكيل. فقال النبی ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ». وكذا رواه أبو داود والنسائى بنحوه (٣). وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقُرْنِ قَدْ أَلْتَمَ الْقُرْنَ وَحَنَى جَبْهَتُهُ، يَسْتَمِعُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ». فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فما نقول؟ قال: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا». وقد روى هذا من غير وجه، وهو حديث جيد (٤). وروينا عن أم المؤمنين عائشة وزينب بنت جحش أنهما تفاخرتا، فقالت زينب: زوجنى الله وزوجكن أهاليكن. وقالت عائشة: نزلت براءتى من السماء فى القرآن. فَسَلَّمَتْ لَهَا زَيْنَبُ، ثُمَّ قَالَتْ: كَيْفَ قُلْتَ حِينَ رَكِبْتَ رَاحِلَةَ صَفْوَانَ بْنِ الْمَعْطَلِ؟ فقالت: قلت: حسبى الله ونعم الوكيل، فقالت زينب: قلت كلمة المؤمنين.

ولهذا قال تعالى: «فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهِنَّ سُوءٌ» أى: لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم ورد عنهم بأس من أراد كيدهم، فرجعوا إلى بلدهم «بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ

(١) البخارى (٢٨٧/٧ فتح) والحاكم (٢٩٨/٢). ورواه أيضا الطبرى بنحوه: (٨٢٣٩، ٨٢٤١).

(٢) الفتح (١٧٢/٨) والحاكم (٢٩٨/٢). والعجب أيضا أن الذهبى لم يتعقب فى استدراكه هذا الحديث، وهو فى صحيح البخارى!

(٣) المسند (٦/٢٤، ٢٥ حلى) وإسناده صحيح. ورواه أيضا المزى فى تهذيب الكمال. (ص ٥٧١ مخطوط مصور) بإسناده.

(٤) المسند (٣٠١٠) وسيذكره الحافظ ابن كثير عند تفسير الآية: ٨ من سورة المائدة، من رواية ابن أبى حاتم. ورواه الحاكم (٥٥٩/٤).

يَمْسَهُمْ سُوءٌ ﴿١٧٦﴾ مَا أَضْمَرَ لَهُمْ عَدُوَّهُمْ ﴿١٧٧﴾ وَاتَّبِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٨﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أى: يخوفكم أوليائه، ويوهمكم أنهم ذوو بأس وذوو شدة، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى: فإذا سول لكم فأوهمكم فتوكلوا على والجؤوا إلى، فانا كافيكم وناصرکم عليهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾، إلى قوله: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٦-٣٨]، وقال: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، وقال: ﴿أَوَلَيْكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢].

﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَمِّلُ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثَمِّلُ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْتَخُلُونَ بِمَاءِ أَنفُسِهِمْ أَنَّ اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿١٨٠﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾، وذلك من شدة حرصه على الناس كان يحزنه مبادرة الكفار إلى المخالفة والعناد والشقاق، فقال تعالى: لا يحزنك ذلك ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ أى: حكمته فيهم أنه يريد بمشيئته وقدرته ألا يجعل لهم نصيبا فى الآخرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى مخبرا عن ذلك إخبارا مقررأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أى: استبدلوا هذا بهذا ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أى: ولكن يضرون أنفسهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَمِّلُ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثَمِّلُ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، كقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّاءٍ طَيِّبٍ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]، وكقوله: ﴿قَدْ زُيِّنَ لَكُمْ فِي الْحَدِيثِ سِتُّ مِائَةِ مِائَةٍ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤]، وكقوله: ﴿فَلَا تَعْجَبْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وَتَزْهَقْ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ [التوبة: ٥٥].

ثم قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي: لأبد أن يعقد سببا من المحنة، يظهر فيه وليه، ويفتضح فيه عدوه. يعرف به المؤمن الصابر، والمنافق الفاجر. يعنى بذلك يوم أحد الذى امتحن الله به المؤمنين، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وطاعتهم لله ولرسوله ﷺ، وهتك به ستر المنافقين، فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ولرسوله. قال مجاهد: ميز بينهم يوم أحد. وقال قتادة: ميز بينهم بالجهاد والهجرة.

ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ أي: أنتم لا تعلمون غيب الله فى خلقه حتى يتميز لكم المؤمن من المنافق، لولا ما يعقده من الأسباب الكاشفة عن ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، كقوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا. إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

ثم قال: ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي: أطيعوا الله ورسوله واتبعوه فيما شرعه لكم ﴿وَلَا تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَتَّخِلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ أي: لا يحسبن البخیل أن جمعه المال ينفعه، بل هو مضرة عليه فى دينه - وربما كان - وفى دنياه. ثم أخبر بمآل أمر ماله يوم القيامة فقال: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، روى البخارى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مِثْلَ لَهُ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَانِ، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَأْخُذُ بِلَهْزَمَتَيْهِ - يعنى بشدقيه - يقول: أنا مَالِكٌ، أنا كَنْزُكَ» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَتَّخِلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ إلى آخر الآية. تفرد به البخارى دون مسلم ورواه ابن حبان (١).

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر، عن النبى ﷺ قال: «إِنَّ الَّذِي لَا يُؤَدِّي زَكَاةَ مَالِهِ يُمَثَّلُ اللَّهُ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَانِ، ثُمَّ يُلْزِمُهُ يَطَوَّقُهُ، يَقُولُ: أَنَا كَنْزُكَ، أَنَا كَنْزُكَ» ورواه النسائى (٢). وروى الإمام أحمد عن عبد الله، عن النبى ﷺ؛ قال: «مَا مِنْ عَبْدٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاةَ مَالِهِ إِلَّا جُعِلَ لَهُ شُجَاعٌ أَقْرَعَ يَتَّبِعُهُ، يَفِرُّ مِنْهُ وَهُوَ يَتَّبِعُهُ فَيَقُولُ: أَنَا كَنْزُكَ». ثم قرأ عبد الله مصداقه من كتاب الله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه، وقال

(١) البخارى (١٧٣/٨) ورواه أيضا (٣/٢١٤، ٢١٥). ومعناه ثابت عن أبى هريرة، فى المسند من أوجه كثيرة، منها: (٧٧٤٢، ٨١٧٠، ٨٦٤٦، ٨٩٢٠). ووهم المنذرى فى الترغيب (١/٢٦٩)، إذ نسب لصحيح مسلم «والشجاع»: الحية الذكر.

(٢) المسند (٥٧٢٩) والنسائى (١/٣٤٣) وإسناداهما صحيحان.

الترمذى : حسن صحيح . رواه الحاكم ورواه ابن جرير من غير وجه ، عن ابن مسعود ، موقوفاً (١) .

وروى الحافظ أبو يعلى عن ثوبان ، عن النبي ﷺ ، قال : «مَنْ تَرَكَ بَعْدَهُ كَنْزًا مِثْلَ لَهُ شُجَاعًا أَقْرَعَ [يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ، لَهُ زَيْبَتَانِ ، يَتَّبِعُهُ فَيَقُولُ : مَنْ أَنْتَ؟ وَبِلَيْكِ ١٩ . فَيَقُولُ : أَنَا كَنْزُكَ الَّذِي خَلَقْتَ بَعْدَكَ ، فَلَا يَزَالُ يَتَّبِعُهُ حَتَّى يُلْقِمَهُ يَدَهُ فَيَقْضِمَهَا ، ثُمَّ يَتَّبِعُهُ سَائِرَ جَسَدِهِ .» إسناده جيد قوى ولم يخرجوه .

وقوله : «وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» أى : فأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فإن الأمور كلها مرجعها إلى الله عز وجل . فقدموا لكم من أموالكم ما ينفعكم يوم معادكم «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» أى : بنياتكم وضما تكم .

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاكُمْ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ بِلْبِئْسَتْ وَإِلَّاذَى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبِئْسَتْ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤) ﴿

عن ابن عباس قال : دخل أبو بكر الصديق ، بيت المدراس ، فوجد من يهود أناسا كثيرا قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له : فنحاص ، وكان من علمائهم وأخبارهم ، ومعه خبر يقال له : أشيع . فقال أبو بكر : ويحك يا فنحاص ، اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله ، قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة والإنجيل ، فقال فنحاص : والله - يا أبا بكر - ما بنا إلى الله من حاجة من فقر ، وإنه إلينا لفقير ! ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ! وإننا عنه لأغنياء ، ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ! ينهاكم عن الربا ! فغضب أبو بكر ، فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً ، وقال : والذى نفسى بيده ، لولا الذى بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله ، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين ، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، أبصر ما صنع بى صاحبك ! فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر : «مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟» فقال : يا رسول الله ، إن عدو الله قد قال قولا عظيماً ، زعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء ! فلما قال ذلك غضب الله مما قال ، فضربت وجهه ، فجحد ذلك فنحاص وقال : ما قلت ذلك ، فأنزل الله فيما قال فنحاص رداً وتصديقاً لأبى

(١) المسند (٣٥٧٧) والترمذى (٨٥/٤) والحاكم (٢/٢٩٨ ، ٢٩٩) ولكن روايته موقوفة ، خلافاً لما يوهمه كلام الحافظ ابن كثير هنا . والطبرى (٨٢٨٥ - ٨٢٨٩ ، ٨٢٩٢) ، ورواه ابن خزيمة فى صحيحه ، كما فى الترغيب . (٢٦٨/١) .

بكر: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ الآية. رواه ابن أبي حاتم (١).

وقوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ تهديد ووعيد؛ ولهذا قرنه تعالى بقوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أى: هذا قولهم فى الله، وهذه معاملتهم لرسول الله، وسيجزئهم الله على ذلك شرّ الجزاء؛ ولهذا قال: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أى: يقال لهم ذلك تقريباً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً.

وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ يقول تعالى تكذيباً أيضاً لهؤلاء الذين زعموا أن الله عهد إليهم فى كتبهم ألا يؤمنوا برسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته فقبلت منه أن تنزل نار من السماء تأكلها. قال الله تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ قِبَلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى: بالحجج والبراهين ﴿وَالَّذِي قُلْتُمْ﴾ أى: وبنار تأكل القرايين المتقبلة ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ أى: فلم قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنكم تتبعون الحق وتنقادون للرسول !؟.

ثم قال تعالى مسلماً لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّ كَذِبُكَ فَقَدْ كُذِّبَ رَسُولٌ مِّنْ قِبَلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أى: لا يوهنك تكذيب هؤلاء لك، فلك أسوة من قبلك من الرسل الذين كذبوا مع ما جاؤوا به من البينات، وهى الحجج والبراهين القاطعة ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وهى الكتب المتلقاة من السماء، كالصحف المنزلة على المرسلين ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أى: البين الواضح الجلى.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَن زُحِرَ عَنِ النَّكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾
 ﴿١٨٥﴾ ﴿تَتَّبَلُّونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ نَصَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾
 ﴿١٨٦﴾

يخبر تعالى إخباراً عاماً، يعم جميع الخليفة - بأن كل نفس ذائقة الموت، كقوله: ﴿كُلُّ مَن عَلَيْهَا فَاَن. وَيَقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ فهو تعالى وحده هو الحى الذى لا يموت، والإنس والجن يموتون، وكذلك الملائكة وحملة العرش، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء، فيكون آخرأ كما كان أولاً. وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس، فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت، فإذا انقضت المدة وقرغت النطفة التى قدر الله وجودها من صلب آدم، وانتهت البرية -: أقام الله القيامة، وجازى الخلائق بأعمالها، جليلها وحقيرها، كثيرها وقليلها، كبيرها وصغيرها، فلا يظلم أحداً مثقال ذرة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

(١) رواه أيضا الطبرى (٨٣٠٠) وإسناده جيد أو صحيح. وزاد السيوطى فى الدر المنثور (٢/ ١٠٥، ١٠٦) نسبه لابن المنذر.

وقوله: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ أى: من جُنِبَ النار ونجا منها وأدخل الجنة، فقد فاز كل الفوز. وروى ابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَوْضِعُ سَوَاطِئِ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، اقْرَؤُوا إِن شِئْتُمْ: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾». هذا الحديث ثابت فى الصحيحين من غير هذا الوجه بدون هذه الزيادة، وقد رواه بهذه الزيادة ابن حبان والحاكم (١). وتقدم ما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَزْحَرَ عَنِ النَّارِ وَأَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَدْرِكْهُ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَيَأْتِ إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ» (٢).

وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ تصغيراً لشأن الدنيا، وتحقيراً لأمورها، وأنها دنية فانية قليلة زائلة، كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُوْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]، وقال: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [القصص: ٦٠]، وفى الحديث: «والله ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يغمس أحدكم إصبعه فى اليم، فلينظر بهم ترجع إليه» (٣).

وقوله: ﴿لَيَبْلُغُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ كقوله: ﴿وَلَيَبْلُغَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ. الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦] أى: لا بد أن يبتلى المؤمن فى شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله، ويبتلى المرء على قدر دينه، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى البلاء ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً﴾، يقول تعالى للمؤمنين عند مقدمهم المدينة قبل وقعة بدر، مسلماً لهم عما نالهم من الأذى من أهل الكتاب والمشركين، وأمرهم بالصبر والصفح والعفو حتى يفرج الله، فقال: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ﴾.

روى البخارى عن أسامة بن زيد: أن رسول الله ﷺ ركب على حمار، عليه قطيفة فدكية، وأردف أسامة بن زيد وراءه، يعود سعد بن عباد فى بنى الحارث بن الخزرج، قبل وقعة بدر، قال: حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبى ابن سلول، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبى، فإذا فى المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين، عبدة الأوثان واليهود والمسلمين، وفى المجلس عبد الله بن رواح، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبد الله بن أبى أنفه بردائه وقال: «لَا تُعْبِرُوا عَلَيْنَا. فسلم رسول الله ﷺ، ثم وقف، فنزل فدعاهم إلى الله عز وجل، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبى: أيها المرء، إنه لا أحسن مما تقول، إن كان حقاً، فلا تؤذنا

(١) وكذلك رواه أحمد فى المسند (٩٦٤٩) والترمذى (٨٥/٤) والطبرى (٨٣١٥) وهو فى المستدرک (٢/٢٩٩) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبى.

(٢) مضى عند تفسير الآيتين: (١٠٢، ١٠٣) من سورة آل عمران.

(٣) رواه أحمد فى المسند (٢٢٩/٤) حلى، من حديث المستورد بن شداد الفهرى. وبنحوه رواه مسلم (٣٥٥/٢) من حديثه.

به في مجالسنا، ارجع إلى رحلك، فمن جاءك فاقصص عليه. فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله، فأعشنا به في مجالسنا، فإننا نحب ذلك. فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتشاورون، فلم يزل النبي ﷺ يُخفضهم حتى سكتوا، ثم ركب النبي ﷺ دابته، فسار حتى دخل على سعد بن عباد، فقال له النبي ﷺ: «يا سعد، ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب؟ - يريد عبد الله بن أبي - قال كذا وكذا». فقال سعد: يا رسول الله، اعف عنه واصفح، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اصططح أهل هذه البحيرة على أن يتوجه فيعصبوه بالعصاة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شرفاً بذلك، فذلك الذي فعل به ما رأيت، فعفا عنه رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، قال الله تعالى: ﴿وَلْتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَرَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ الآية [البقرة: ١٠٩]، وكان النبي ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله له فيهم، فلما غزا رسول الله ﷺ بدرًا، قتل الله به صناديد كفار قريش، قال عبد الله بن أبي ابن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه، فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام، فبايعوا وأسلموا^(١).

فكان من قام بحق، أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر، فلا بد أن يؤدي، فما له دواء إلا الصبر في الله، والاستعانة بالله، والرجوع إلى الله.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (١٨٧) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَاوَا وَيَجْهَلُونَ أَنَّ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩)

هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب، الذين أخذ عليهم العهد على السنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأن ينهوا بذكره في الناس ليكونوا على أهبة من أمره، فإذا أرسله الله تابعوه، فكتموا ذلك، وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف، والحظ الدنيوي السخيف، فبئس الصفقة صفقتهم، وبئست البيعة بيعتهم.

(١) البخاري (١٧٣/٨ - ١٧٥ فتح). وقوله: «على قطيف فدية»: أي كساء غليظ منسوب إلى فديك - بفتح الفاء والدال، وهي بلد مشهور قريب من المدينة. وقوله: «البحيرة»: بالتصغير في بعض روايات البخاري، كما ثبت هنا. وفي بعضها: «البحرة» بالتكبير. قال الحافظ: وهذا اللفظ يطلق على القرية وعلى البلد، والمراد به هنا: «المدينة المنورة». وقوله: «شرق» - بفتح الشين المعجمة وكسر الراء، أي: غص به. وهو كناية عن الحسد.

وفى هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم ، ويسلك بهم مسلكهم ، فعلى العلماء أن يبدلوا ما بأيديهم من العلم النافع ، الدال على العمل الصالح ، ولا يكتسبوا منه شيئاً ، فقد ورد فى الحديث المروى من طرق متعددة عن النبى ﷺ أنه قال : «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار» (١) .

وقوله تعالى : ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ الآية ، يعنى بذلك : المرائين المتكبرين بما لم يعطوا ، كما جاء فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ : «من ادعى دعوى كاذبة لينكثر بها لم يزد الله إلا قلّة» (٢) . وفى الصحيح : «المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور» (٣) . وروى الإمام أحمد عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف : أن مروان قال : اذهب يا رافع - لبوابه - إلى ابن عباس ، فقل : لئن كان كل امرئ مثاً فرح بما أتى ، وأحب أن يحمد بما لم يفعل - معذباً ، لتعذبن أجمعين ؟ فقال ابن عباس : ما لكم وهذه ؟ إنما نزلت هذه فى أهل الكتاب ، ثم تلا ابن عباس : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ الآية ، وتلا ابن عباس : ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ . وقال ابن عباس : سألهم النبى ﷺ عن شىء ، فكتموه إياه وأخبروه بغيره ، فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه ، واستحمدوا بذلك إليه ، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم ما سألهم عنه . وهكذا رواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائى ، وابن أبى حاتم ، وابن خزيمة ، والحاكم ، وابن مردويه (٤) . وروى البخارى عن أبى سعيد الخدرى : أن رجلاً من المنافقين فى عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو وتخلّفوا عنه ، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ ، فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتدروا إليه وحلفوا وأحيا أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فنزلت : ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ ورواه مسلم بنحوه (٥) .

وقوله : ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّاهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ يقرأ بالتاء على مخاطبة المفرد ، وبالياء على الإخبار عنهم ، أى : لا يحسبوا أنهم ناجون من العذاب ، بل لا بد لهم منه ؛ ولهذا قال : ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

(١) المسند (٧٥٦١) من حديث أبى هريرة . وقد مضى عند تفسير الآية : (٥٩) من سورة البقرة وانظر : المقاصد الحسنة للسخاوى (١١٣٥) .

(٢) هو جزء من حديث رواه مسلم (٤٢/١) ، من حديث ثابت بن الضحاك . وقد تساهل الحافظ ابن كثير فى نسبة هذه الفقرة للصحيحين . فإن البخارى روى أصل الحديث مراراً ، منها : (٣٨٩/١٠ ، ٤٢٨ ، ٤٦٨/١١ ، ٤٦٩ فتح) ، ولم يرو هذه الفقرة أصلاً ، كما نص الحافظ ابن حجر فى الموضع الأخير على أنها من زيادات مسلم . وكذلك روى الإمام أحمد أصل الحديث (١٦٤٥٦ ، ١٦٤٦٣) ، ولم يرو هذه الجملة .

(٣) رواه الشيخان وأحمد وأبو داود ، من حديث أسماء بنت أبى بكر . ورواه مسلم أيضاً من حديث عائشة - كما فى الفتوح الكبير (٢٥٣/٣) . وهو فى صحيح مسلم فى حديثيهما (١٦٧/٢) .

(٤) المسند (٢٧١٢) والبخارى (١٧٥/٨) ، ١٧٦ فتح) .

(٥) البخارى (١٧٥/٨) فتح) .

ثم قال : ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى : هو مالك كل شيء ، والقادر على كل شيء ، فلا يعجزه شيء ، فهابوه ولا تخالفوه ، واحذروا نقمته وغضبه ، فإنه العظيم الذى لا أعظم منه ، القدير الذى لا أقدر منه .

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾
 ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا
 إِنَّكَ مَن تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا
 مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا
 سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ
 الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿١٩٤﴾

معنى الآية : أنه يقول تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى : هذه فى ارتفاعها واتساعها ، وهذه فى انخفاضها وكثافتها واتضاعها ، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارات ، وثوابت وبحار ، وجبال وقفار وأشجار ونبات وزروع وثمار ، وحيوان ومعادن ومنافع ، مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أى : تعاقبهما وتَقَارُضُهما الطول والقصر ، فطرة يطول هذا ويقصر هذا ، ثم يعتدلان ، ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذى كان قصيرا ، ويقصر الذى كان طويلا ، وكل ذلك تقدير العزيز الحكيم ، ولهذا قال : ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أى : العقول التامة الذكية التى تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها ، وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون الذين قال الله فيهم : ﴿وَكَايِنِ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ . وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف : ١٠٥ ، ١٠٦] .

ثم وصف تعالى أولى الألباب فقال : ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ كما ثبت فى صحيح البخارى عن عمران بن حصين ، أن رسول الله ﷺ قال : «صل قائما ، فإن لم تستطع فقاعدا ، فإن لم تستطع فعلى جنب» (١) ، أى : لا يقطعون ذكره فى جميع أحوالهم بسرائرهم وضمايرهم والستهم ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى : يفهمون ما فيهما من الحكم الدالة على عظمة الخالق وقدرته ، وعلمه وحكمته ، واختياره ورحمته .

وقد ذم الله تعالى مَنْ لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته ، فقال : ﴿وَكَايِنِ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ . وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف : ١٠٥ ، ١٠٦] ، ومدح عباده المؤمنين : ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ

(١) البخارى (٤٨٣/٢ ، ٤٨٤ فتح) . والثابت فى المخطوطة الأهرية هو ما أثبتنا نسبه للبخارى فقط . وفى المطبوعة نسبه للصحيحين ، وهو خطأ يقينا ، فقد نص الحافظ فى الفتح (٤٨٦/٢) على أنه من أفراد البخارى دون مسلم . وكذلك نسب للبخارى وحده فى ذخائر المواريث والجامع الصغير .

وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَائِلِينَ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا أَمْ بَلْ نَرْهَوُكَ عَنْ عِبَادَتِكَ﴾. ثم نزهوه عن العبث وخلق الباطل فقالوا: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أى: عَنْ أَنْ تَخْلُقَ شَيْئًا بَاطِلًا ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أى: يَا مَنْ خَلَقَ الْخَلْقَ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ يَا مَنْ هُوَ مُنَزَّهٌ عَنِ النِّقَاصِ وَالْعَيْبِ وَالْعَبَثِ، قِنَا مِنْ عَذَابِ النَّارِ بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ وَبِقِصَصِنَا لِأَعْمَالِ تَرْضَى بِهَا عَنْنَا، وَوَقِنَا لِعَمَلٍ صَالِحٍ تَهْدِينَا بِهِ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَتَجِيرُنَا بِهِ مِنْ عَذَابِكَ الْآلِيمِ.

ثم قالوا: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ أى: أَهْنَتْهُ وَأَظْهَرْتَ خَزْيَهُ لِأَهْلِ الْجَمْعِ ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أى: يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا مُجِيرَ لَهُمْ مِنْكَ، وَلَا مُجِيدَ لَهُمْ عَمَّا أَرَدْتَ بِهِمْ ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ أى: دَاعِيَا يَدْعُو إِلَى الْإِيمَانِ، وَهُوَ الرَّسُولُ ﷺ ﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَأَمَّا﴾ أى: يَقُولُ: ﴿آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَأَمَّا﴾ أى: فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَاتَّبِعْنَاهُ ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أى: بِإِيمَانِنَا وَاتِّبَاعِنَا نَبِيَّكَ ، أَيْ: اسْتَرْهَا ﴿وَكُفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ أى: فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ﴿وَوَفِّقْنَا مَعَ الْآبِرَارِ﴾ أى: الْحَقِّقْنَا بِالصَّالِحِينَ ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ: عَلَى الْإِيمَانِ بِرُسُلِكَ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِكَ. وَهَذَا أَظْهَرَ. ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى: عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ ﴿إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ أى: لَا بَدَّ مِنَ الْمِيعَادِ الَّذِي أَخْبَرْتَ عَنْهُ رُسُلُكَ، وَهُوَ الْقِيَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيْكَ. وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَاتِ الْعَشْرَ مِنْ آخِرِ آلِ عِمْرَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ لَتَهْجِدَهُ، فَرَوَى الْبُخَارِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: بَتَّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ، فَتَحَدَّثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ أَهْلِهِ سَاعَةً، ثُمَّ رَقَدَ، فَلَمَّا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ قَعَدَ فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ، ثُمَّ قَامَ فَتَوَضَّأَ وَاسْتَنَ. فَصَلَّى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً. ثُمَّ أَذَّنَ بِلَالٍ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى بِالنَّاسِ الصُّبْحَ وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ (١).

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أَتَى بِبَعْضِكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَأَلَّيْنِ هَاجِرُوا وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَوَدُّوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ بَاجِرٍ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾

يقول تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أى: فَأَجَابَهُمْ رَبُّهُمْ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

وداعٍ دعا: يَا مَنْ يَجِيبُ إِلَى النَّدَى فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبٌ (٢)

روى سعيد بن منصور عن أم سلمة أنها قالت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا تَسْمَعْ اللَّهُ ذَكَرَ النِّسَاءِ فِي الْهَجْرَةِ بِشَيْءٍ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أَتَى﴾ إِلَى

(١) البخارى (١٧٦/٨، ١٧٧ فتح)، ورواه فى مواضع آخر، ورواه مسلم (١/ ٢١١ - ٢١٤) من طرق متعددة، ورواه أحمد فى المسند مرارا، منها: (٢١٦٤، ٢٣٧٢).

(٢) هو لكعب بن سعد الغنوى، من الأصمعية (١٤) بتحقيقنا. وذكره الطبرى فى التفسير مرارا، منها: (١/ ٣٢٠، ٤٤٨/ ٧) بتحقيقنا.

آخر الآية. وقالت الأنصار: هي أول ظعينة قدمت علينا. ورواه الحاكم ثم قال: صحيح على شرط البخارى، ولم يخرجاه (١).

ومعنى الآية: أن المؤمنين ذوى الألباب لما سألوا - مما تقدم ذكره - فاستجاب لهم ربهم - عقيب ذلك بقاء التعقيب، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أَجِيبْ دُعَاةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقوله: ﴿أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلٌ عَامِلٍ مِنْكُمْ مَّنْ ذَكَرَ أَوْ أَتَى﴾ هذا تفسير للإجابة، أى: قال لهم مُجِيباً لهم: أنه لا يضيع عمل عامل لديه، بل يُوفَى كل عامل بقسط عمله، من ذكر أو أتى.

وقوله: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أى: جميعكم فى ثوابى سواء ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ أى: تركوا دار الشرك وأتوا إلى دار الإيمان وفارقوا الأحباب والخلان والإخوان والجيران ﴿وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ أى: ضايقتهم المشركون بالأذى حتى ألجؤوهم إلى الخروج من بين أظهرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَأَوْذُوا فِي سَبِيلِي﴾ أى: إنما كان ذنبهم إلى الناس أنهم آمنوا بالله وحده، كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَيَأْتُوا بِاللَّهِ رِبْكَمُ﴾ [المتحنة: ١]. وقال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

وقوله: ﴿وَقَاتِلُوا وَقُتِلُوا﴾ وهذا أعلى المقامات أن يقاتل فى سبيل الله، فيُعَقَّر جَوَادُه، ويعفَّر وجهه بدمه وترابه، وقد ثبت فى الصحيح أن رجلاً قال: يا رسول الله، أرايت إن قُتلت فى سبيل الله صابراً مُحْتَسِباً مُقْبِلاً غير مُدْبِر، أيكفّر الله عني خطاياي؟ قال: «نعم» ثم قال: «كيف قلت؟» : فأعاد عليه ما قال، فقال: «نعم، إلا الدين»، قاله لى جبريل آنفاً (٢). ولهذا قال تعالى: ﴿لَا تُكْفِرُونَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَآ دُخْلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أى: تجرى فى خلالها الأنهار من أنواع المشارب، من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن وغير ذلك، مما لا عَيْنَ رَأَتْ، ولا أذن سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلب بشر.

وقوله: ﴿ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أضافه إليه ونسبه إليه ليدل على أنه عظيم؛ لأن العظيم الكريم لا يعطى إلا جزئياً كثيراً. وقوله: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ أى: عنده حُسْنُ الجزاء لمن عمل صالحاً.

﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْهَادِ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبَرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾

(١) المستدرک (٢/ ٣٠٠) ورواه الطبري أيضا بنحوه (٨٣٦٧ - ٨٣٦٩). وفصلنا تخريجه هناك.

(٢) رواه مسلم مطولا (٩٧/٢)، (٩٨) من حديث أبى قتادة. ورواه أيضا أحمد فى المسند (٣٠٣/٥)، (٣٠٤) حلى) والترمذى (٣٥/٣)، (٣٦) والنسائى (٦٢/٢). وذكره المنذرى فى الترغيب (١٨٩/٢)، (١٩٠). وفى المطبوعة:

«وقد ثبت فى الصحيحين» وهو خطأ، صوابه من المخطوطة، ويؤيده أنه لم يروه البخارى.

يقول تعالى: لا تنظروا إلى ما هؤلاء الكفار مترفون فيه، من النعمة والغبطة والسرور، فعما قليل يزول هذا كله عنهم، ويصبحون مرتين بأعمالهم السيئة، فإنما تمد لهم فيما هم فيه استدراجا، وجميع ما هم فيه ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ [غافر: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ. مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠]، وقال تعالى: ﴿نَمَتَّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿فَمَهَلٌ الْكَافِرِينَ أَهْنُ لَهُمْ رَوْيدًا﴾ [الطارق: ١٧]، أى: قليلا، وقال تعالى: ﴿أَقْمِنْ وَعْدَنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَا يَفِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١]، وهكذا لما ذكر حال الكفار فى الدنيا وذكر مآلهم إلى النار - قال بعده: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزِلًا﴾ [أى: ضياقة] ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِعَايِنَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾
إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ **يَتَاتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا**
وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان، وبما أنزل على محمد، مع ما هم يؤمنون به من الكتب المتقدمة، وأنهم خاشعون لله، أى: مطيعون له خاضعون متذللون بين يديه ﴿لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أى: لا يكتمون ما بأيديهم من البشارات بمحمد ﷺ، وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفتهم، سواء كانوا هوداً أو نصارى. وقد قال تعالى فى سورة القصص: ﴿الَّذِينَ آمَنَّا مِنْ الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ. وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ. أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ الآية [القصص: ٥٢ - ٥٤]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنَّا مِنْ الْكِتَابِ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ الآية [البقرة: ١٢١]، وقال: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَىٰ أُمَمٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الاعراف: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَمٌ قَانِئَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا. وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا. وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ بَيْنَهُمْ خُشوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩]، وهذه الصفات توجد فى اليهود، ولكن قليلا، كما وجد فى عبد الله بن سلام وأمثاله ممن آمن من أجبار اليهود، ولم يبلغوا عشرة أنفس، وأما النصارى فكثير منهم مهتدون وينقادون للحق، كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودُ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيسِينَ وَرَهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ. وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ. وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ. فَأْتَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي

مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴿٨٢﴾ الآية [المائدة: ٨٢ - ٨٥]، وهكذا قال هاهنا: ﴿أَوَلَيْكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنْ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. وثبت في الصحيحين أن النجاشي لما مات نَعَاهُ النَّبِيُّ ﷺ إلى أصحابه، وقال: «إِنْ أَخَا لَكُمْ بِالْحَبْشَةِ قَدْ مَاتَ فَصَلُّوا عَلَيْهِ». فخرج إلى الصحراء، فَصَفَّهُمْ، وَصَلَّى عَلَيْهِ. وروى ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أنس بن مالك قال: لما تُوفِّي النجاشي قال رسولُ الله ﷺ: «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ». فقال بعض الناس: يأمرنا أن نستغفر لعلج مات بأرض الحبشة. فنزلت: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ الآية (١). وروى الحاكم عن عبد الله بن الزبير قال: نزل بالنجاشي عَدُوٌّ مِنْ أَرْضِهِمْ، فَجَاءَ الْمُهَاجِرُونَ فَقَالُوا: إِنَّا نَحِبُ أَنْ نَخْرُجَ إِلَيْهِمْ حَتَّى نَقَاتِلَ مَعَكَ، وَتَرَى جَرَأَتَنَا، وَنَجْزِيكَ بِمَا صَنَعْتَ بِنَا. فقال: لا، دَاءٌ بِنَصْرَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرٌ مِنْ دَوَاءِ بِنَصْرَةِ النَّاسِ. قال: وفيه نزلت: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ الآية، ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه (٢). وقد ثبت في الصحيحين، عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ» فذكر منهم: «وَرَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِي».

وقوله: ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أى: لا يكتُمون ما بأيديهم من العلم، كما فعله الطائفة المردولة منهم، بل يبذلون ذلك مجاناً؛ ولهذا قال: ﴿أَوَلَيْكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنْ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. قال مجاهد: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يعنى: سريع الإحصاء.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ قال الحسن البصري: أمروا أن يصبروا على دينهم الذى ارتضاه الله لهم، وهو الإسلام، فلا يدعوه لسراء ولا لضرأ ولا لشدَّة ولا لرخاء، حتى يموتوا مسلمين، وأن يصابروا الأعداء. وكذا قال غير واحد من علماء السلف.

وأما المراقبة فهى المداومة فى مكان العبادة والثبات. وقيل: انتظار الصلاة بعد الصلاة، قاله ابن عباس وسهل بن حنيف، ومحمد بن كعب القرظى، وغيرهم. وروى ابن أبي حاتم هاهنا الحديث الذى رواه مسلم والنسائى عن أبى هريرة، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِمَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ» (٣).

وقيل: المراد بالمراقبة هاهنا مراقبة الغزو فى نحر العدو، وحفظ ثُغُور الإسلام وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حَوْزَةِ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وقد وردت الأخبار بالترغيب فى ذلك، وذكر كثرة الثواب فيه، فروى البخارى فى صحيحه عن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

(١) ذكره الهيثمى فى الزوائد (٣٨/٣) بنحو معناه، وقال: «رواه البزار والطبرانى فى الأوسط، ورجال الطبرانى ثقات».

(٢) المستدرک (٢/٣٠٠) ووافقه الذهبى على تصحيحه.

(٣) مسلم (٨٦/١) ورواه أحمد فى المستدرک مرارا، بنحوه، منها: (٧٢٠٨، ٧٧١٥، ٨٠٠٨) ورواه أيضاً الطبرى (٨٣٩٧، ٨٣٩٨). وفصلنا تخريجه فى الكتايب.

«رَبَّاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا». وروى مسلم عن سلمان الفارسي، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رَبَّاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأَجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْقَتْلَانِ». وروى الإمام أحمد عن فضالة بن عبيد عن رسول الله ﷺ قال: «كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ، إِلَّا الَّذِي مَاتَ مُرَبَّاطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يَنْمُو لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَأْمَنُ فِتْنَةَ الْقَبْرِ». وهكذا رواه أبو داود، والترمذي. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه ابن حبان في صحيحه أيضاً^(١). وروى البخاري عن أبي هريرة، قال: قال النبي ﷺ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهَمِ وَعَبْدُ الْحَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رِزْقِي، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخَطَ، تَعَسَّ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ أَخَذَ بَعْنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغَبَّرَةً قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنَ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَعْ»^(٢).

وقوله: «وَاتَّقُوا اللَّهَ» أي: في جميع أموركم وأحوالكم، كما قال النبي ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتَّبِعِ السَّبِيلَ الْحَسَنَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقِ حَسَنٍ»^(٣). «لَعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ» أي: في الدنيا والآخرة.

آخر تفسير سورة آل عمران، والله الحمد والمنة

نسأله الموت على الكتاب والسنة

(١) المسند (٦ / ٢٠٠ حلى) والترمذي بشرح المباركفوري (٢/٣).

(٢) البخاري (٦١/٦، ٦٢ فتح). وقوله: «وانتكس»: أي عاوده المرض. وقوله: «وإذا شيك فلا انتقش»: قال الحافظ في الفتح: «شيك: بكسر المعجمة وسكون التحتانية بعدها كاف. وانتقش: بالقاف والمعجمة. والمعنى: إذا أصابته الشربة فلا وجد من يخرجها منه بالمنقاش. تقول: نقشت الشوك، إذا استخرجته». وقوله: «إن كان في الحراسة»: إلخ - قال ابن الجوزي: «المعبر: أنه خامل الذكر، لا يقصد السمو، فإن اتفق له السير سار. فكأنه قال: إن كان في الحراسة استمر فيها، وإن كان في الساقة استمر فيها». وقد ذكر الحافظ ابن كثير في فضل الرباط أحاديث كثيرة، اقتصرنا على أصحابها. وفيه الكفاية، إن شاء الله.

(٣) هو الحديث الثامن عشر من الأربعين النووية، وهو من حديث أبي ذر ومعاذ. رواه الترمذي، وقال: حديث حسن، وفي بعض النسخ: حسن صحيح، كما قال النووي رحمه الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النساء

قال ابن عباس: نزلت سورة النساء بالمدينة. وكذا رَوَى ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير، وزيد بن ثابت. وروى الحاكم عن عبد الله بن مسعود، قال: إن في سورة النساء لخمس آيات ما يَسُرُّنى أن لى بها الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآية، و﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الآية، و﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، و﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾ الآية، [و﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾] (١). ثم قال: هذا إسناد صحيح إن كان عبد الرحمن سمع من أبيه، فقد اختلف في ذلك (٢). وروى الحاكم عن ابن عباس قال: سلونى عن سورة النساء، فإنى قرأت القرآن وأنا صغير. ثم قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه (٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾

يقول تعالى أمراً خلقه بتقواه، وهى عبادته وحده لا شريك له، ومنبهاً لهم على قدرته التى خلقهم بها من نفس واحدة، وهى آدم، عليه السلام «وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا» وهى حواء، عليها السلام، خلقت من ضلعه الأيسر. وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: خُلِّقَتِ الْمَرْأَةُ مِنَ الرَّجُلِ، فجعل نَهْمَهَا فى الرجل، وخلق الرجل من الأرض، فجعل نهمته فى الأرض، فاحبسوا نساءكم (٤). وفى الحديث الصحيح: «إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ، وَإِنْ أَعْوَجَ شَيْءٌ فِي الضِّلْعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبَ تَقِيْمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ اسْتَمْتَعَتْ بِهَا اسْتَمْتَعَتْ بِهَا وَفِيهَا عِوَجٌ» (٥).

(١) سقطت هذه الآية من المطبوع من «عمدة التفسير» وكذا من المخطوطة الأزهرية وأثبتناها من عند الحاكم فى المستدرک . (الباز) .

(٢) الحاكم (٣٠٥/٢). وعبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود: سمع من أبيه، كما هو الراجح الذى رجحه البخارى فى التاريخ الصغير (ص ٤٠)، وكما جزم به ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل (٢/٢٤٨)، بل لم يحك قولاً غيره. وقد رجحنا ذلك أيضاً فى شرح المسند (٣٦٩٠، ٣٨٣٥).

(٣) الحاكم (٣٠١/٢) ووافقه الذهبى.

(٤) إسناد ابن أبى حاتم إسناده صحيح. وزاد السيوطى فى الدر المنثور (١١٦/٢) نسبته لابن المنذر، والبيهقى فى الشعب.

(٥) من حديث رواه مسلم (٤٢١/١) وبنحوه رواه البخارى (٦/٢٦١، ٢٦٢) ورواه أحمد مختصراً (٩٥٢٠، ٩٧٩٤، ١٠٨٦٨) كلهم من حديث أبى هريرة.

وقوله: ﴿وَبَثُّ مِنْهُمَا رَجُلًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ أى: وذراً منهما، أى: من آدم وحواء رجلاً كثيراً ونساء، ونشرهم فى أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وصفاتهم، واللوانهم ولغاتهم، ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر.

ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: واتقوا الله بطاعتكم إياه، قال إبراهيم ومجاهد والحسن: ﴿الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ أى: كما يقال: أسألك بالله وبالرحم. وقال الضحاك: واتقوا الله الذى به تعاقدون وتعاهدون، واتقوا الأرحام أن تقطعوها، ولكن بروها وصلوها، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وغير واحد.

وقرأ بعضهم: ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ بالخفض على العطف على الضمير فى ﴿بِهِ﴾، أى: تساءلون بالله وبالأرحام، كما قال مجاهد وغيره.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ أى: هو مراقب لجميع أعمالكم وأحوالكم كما قال: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩]. وفى الحديث الصحيح: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» (١). وهذا إرشاد وأمر بمراقبة الرقيب؛ ولهذا ذكر تعالى أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة؛ ليعطف بعضهم على بعض، ويحننهم على ضعفائهم، وقد ثبت فى صحيح مسلم، من حديث جرير بن عبد الله البجلي؛ أن رسول الله ﷺ حين قدم عليه أولئك النفر من مضر - وهم مُجْتَابُو النَّمَار - أى من عُرِيَهُمْ وفَقَرَهُمْ - قام فَحَظَبَ الناس بعد صلاة الظهر فقال فى خطبته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ حتى ختم الآية ، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْتَرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الحشر: ١٨] ثم حَضَّهُمْ على الصدقة فقال: «تَصَدَّقْ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ صَاعِ بُرَّةٍ، مِنْ صَاعِ تَمْرَةٍ» وذكر تمام الحديث (٢).

﴿وَمَا أَتُوا أَلْيَنَ أَمْوَالِهِمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْحَبِثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَنَى فَانْكُحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنً وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعْوِلُوا ﴿١﴾ وَمَا أَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَتَيْنِ نَحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَاكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴿٢﴾

يأمر تعالى بدفع أموال اليتامى إليهم إذا بلغوا الحلم كاملة موفرة، وينهى عن أكلها وضمتها إلى أموالهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَبَدَّلُوا النِّجَابَ بِالطَّيِّبِ﴾. وقال سعيد بن جبير: لا تبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم، يقول: لا تبذروا أموالكم الحلال وتأكلوا أموالهم الحرام.

(١) اللفظ المعروف فى حديث سؤالات جبريل ، من حديث عمر بن الخطاب ، أن جبريل سأل فقال : « فأخبرنى عن الإحسان ؟ قال : أن تعبد لله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » رواه مسلم (١٧/١) . وانظر المسند (١٨٤) ، والاستدراك عليه رقم (١٤٠٩) . وأما اللفظ الذى هنا ، فقد رواه أبو نعيم فى الحلية (٢٠٢/٨) ، (٢٠٣) من حديث زيد ابن أرقم .

(٢) من حديث طويل فى صحيح مسلم (٢٧٨/١) ، (٢٧٩) .

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهما: أى لا تخلطوها فتأكلوها جميعا. وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ حُبًّا كَبِيرًا﴾ قال ابن عباس: أى إثماً كبيراً عظيماً. وهكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وغيرهم مثل قول ابن عباس. والمعنى: إن أكلكم أموالهم مع أموالكم إثم عظيم وخطأ كبير، فاجتنبوه.

وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ﴾ أى: إذا كان تحت حجر أحدكم يتيمة وخاف ألا يعطيها مهر مثلها، فليعدل إلى ما سواها من النساء، فإنهن كثير، ولم يضيق الله عليه. وروى البخارى عن عروة بن الزبير: أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾؟ قالت: يا ابن أختي، هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها تشركه فى ماله ويعجبها مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط فى صداقها فيعطىها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا بهن أعلى ستهن فى الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن. قال عروة: قالت عائشة: وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية؟ فأنزل الله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ قالت عائشة: وقول الله فى الآية الأخرى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧]: رغبة أحدكم عن يتيمة حين تكون قليلة المال والجمال. فنهوا أن ينكحوا من رغبا فى ماله وجماله فى يتامى النساء إلا بالقسط، من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال^(١).

وقوله: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ أى: انكحوا ما شئتم من النساء سواهن، إن شاء أحدكم ثنتين، وإن شاء ثلاثا، وإن شاء أربعا، كما قال تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا أُولِي أَجْنَحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [فاطر: ١] أى: منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ولا ينفى ما عدا ذلك فى الملائكة لدلالة الدليل عليه، بخلاف قصر الرجال على أربع، من هذه الآية، كما قاله ابن عباس وجمهور العلماء؛ لأن المقام مقام امتنان وإباحة، فلو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لذكره. قال الشافعى: وقد دلت سنة رسول الله ﷺ - المبينة عن الله - أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة. وهذا الذى قاله الشافعى، مجمع عليه بين العلماء، إلا ما حكى عن طائفة من الشيعة: أنه يجوز الجمع بين أكثر من أربع إلى تسع. وقال بعضهم: بلا حصر. وقد يتمسك بعضهم بفعل رسول الله ﷺ فى جمعه بين أكثر من أربع إلى تسع كما ثبت فى الصحيحين وهذا عند العلماء من خصائصه دون غيره من الأمة، لما سنذكره. فروى الإمام أحمد عن ابن عمر: أن غيلان بن سلمة الثقفى أسلم وتخته عشرة نسوة، فقال له النبى ﷺ: «اختر منهن أربعا». فلما كان فى عهد عمر طلق نساءه، وقسم ماله بين بنيه، فبلغ ذلك عمر فقال: إني لأظن الشيطان فيما يسترق من السمع سمع بموتك فغذفه فى نفسك، ولعلك أن لا تمكث إلا قليلا. وإيم الله لتراجعن نساءك، ولترجعن فى

(١) البخارى (٨/ ١٧٩، ١٨٠ فتح). ورواه الطبرى بنحوه، مطولا ومختصرا، بسبعة أسانيد (٨٤٥٦ - ٨٤٦١، ٨٤٧٧).

مالك، أو لأورثهن منك، ولأمرن بقبرك فيرجم، كما رجم قبر أبي رغال. ورواه الشافعي والترمذي وابن ماجه والدارقطني والبيهقي وغيرهم مثله إلى قوله: « اختر منهن أربعاً ». وباقي الحديث فى قصة عمر من أفراد أحمد، وهى زيادة حسنة . وإسناد الحديث الذى قدمناه من مسند الإمام أحمد رجاله ثقات على شرط الصحيحين ^(١). فوجه الدلالة أنه لو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لسوغ له رسول الله ﷺ سائرهن فى بقاء العشرة وقد أسلمن معه، فلما أمره بإمسك أربع وفراق سائرهن، دل على أنه لا يجوز الجمع بين أكثر من أربع بحال، وإذا كان هذا فى الدوام، ففى الاستئناف بطريق الأولى والأحرى، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

وقوله: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ أى: فإن خشيتم من تعداد النساء ألا تعدلوا بينهن، كما قال تعالى: ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ [النساء: ١٢٩] - فمن خاف من ذلك فيقتصر على واحدة، أو على الجوارى السراى، فإنه لا يجب قسّم بينهن، ولكن يستحب، فمن فعل فحسن، ومن لا فلا حرج ^(٢).

(١) المسند (٤٦٣١) ورواه أحمد قبل ذلك مختصراً، كرواية الباقرين (٤٦٠٩). وقد ذكر الحافظ ابن كثير هنا تعليل البخارى إياه، ورد عليه رداً قوياً جداً. وفصلنا القول فى تخريجه وتعليقه، فى المسند فى الموضوعين، وفى الاستدراكات (١٣٢٩، ١٣٣٩، ١٥٦٧، ١٩٢٤، ٢٤٢٢، ٢٦٨٩، ٣٨٥٣).

فى تعدد الزوجات

(٢) نبتت فى عصرنا هذا الذى نحيا فيه نابتة إفرنجية العقل، نصرانية العاطفة، رباحهم الإفرنج فى ديارنا وديارهم، وأرضعوهوم عقائدهم، صريحة تارة، وممزوجة تارات، حتى لبسوا عليهم تفكيرهم، وغلبوهم على فطرتهم الإسلامية، فصار هجّيراهم وديندهم أن يتكروا تعدد الزوجات، وأن يروه عملاً بشعاً غير مستساغ فى نظرهم! فمنهم من يصرح، ومنهم من يجمع، وجاراهم فى ذلك بعض من ينتسب إلى العلم من أهل الأزهر، المتسبين للدين والذين كان من واجهم أن يدفعوا عنه، وأن يعرفوا الجاهلين حقائق الشريعة.

فقام من علماء الأزهر من يهد لهؤلاء الإفرنجيين العقيدة والتربية - للحدّ من تعدد الزوجات، زعموا!! ولم يدرك هؤلاء العلماء أن الذين يحاولون استرضاءهم لا يريدون أن يزيلوا كل أثر لتعدد الزوجات فى بلاد الإسلام، وأنهم لا يرضون عنهم إلا أن جاروهم فى تحريره ومنعه جملة وتفصيلاً، وأنهم يأبون أن يوجد على أى وجه من الوجوه؛ لأنه منكر بشع فى نظر سادتهم الخواجات!!

وزاد الأمر وطمّ، حتى سمعنا أن حكومة من الحكومات التى تنتسب للإسلام وضعت فى بلادها قانوناً منعت فيه تعدد الزوجات جملةً، بل صرحت تلك الحكومة باللفظ المنكر: أن تعدد الزوجات - عندهم - صار حراماً. ولم يعرف رجال تلك الحكومة أنهم بهذا اللفظ الجريء المحرم صاروا مرتدين خارجين من دين الإسلام، تجرى عليهم وعلى من يرضى عن عملهم كل أحكام الردّة المعروفة التى يعرفها كل مسلم، بل لعنهم يعرفون ويدخلون فى الكفر والردة عامدين عالمين.

بل إن أحد الرجال الذين ابتلى الأزهر بانتسابهم إلى علمائه، تجرأ مرة وكتب بالقول الصريح أن الإسلام يحرم تعدد الزوجات، جراً على الله، وافتراء على دينه الذى فُرض أن يكون هو من حفظته القائمين على نصره!!

واجترأ بعض من يعرف القراءة والكتابة - من الرجال والنسوان - فجعلوا أنفسهم مجتهدين فى الدين!! يستنبطون الأحكام، ويفتون فى الحلال والحرام، ويسبون علماء الإسلام إذا أرادوا أن يعلموهم ويقفوه عند =

وقوله: ﴿ذَلِكَ أَتَى الْأُتُورَ﴾ قال بعضهم: أدنى ألا تكثر عائلتكم. قاله زيد بن أسلم

= حدّهم . وأكثر هؤلاء الأجرياء ، من الرجال والنساء ، لا يعرفون كيف يتوضؤون ولا كيف يصلون ، بل لا يعرفون كيف يتطهرون ، ولكنهم فى مسألة تعدد الزوجات مجتهدون !!
بل لقد رأينا بعض من يخوض منهم فيما لا يعلم ، يستدل بآيات القرآن بالمعنى ؛ لأنه لا يعرف اللفظ القرآنى !!

وعن صنيعهم هذا الإجرامى ، وعن جرأتهم هذه المنكرة ، وعن كفرهم البواح دخل فى الأمر غير المسلمين ، وكتبوا آراءهم مجتهدين !! كسابقيهم ، يستنبطون من القرآن وهم لا يؤمنون به ، ليخدعوا المسلمين ويضلّوهم عن دينهم . حتى إن أحد الكتاب غير المسلمين كتب فى إحدى الصحف اليومية - التى ظاهر أمرها أن أصحابها مسلمون - كتب مقالا بعنوان « تعدد الزوجات وصمة »! فشم بهذه الجراءة الشريعة الإسلامية ، وشم جميع المسلمين من بدء الإسلام إلى الآن ! ولم نجد أحداً حرك فى ذلك ساكتاً . مع أن اليقين أن لو كان العكس ، وإن لو تحجراً كاتب مسلم على شتم شريعة ذلك الكاتب ، لقامت الدنيا وقعدت . ولكن المسلمين مؤدبون .

وبعد : فإن أول ما اصطنعوا من ذلك : أن اصطنعوا الشفقة على الأسرة وعلى الأبناء خاصة ! وزعموا أن تعدد الزوجات سبب لكثرة المتشردين من الأطفال ! بأن أكثر هؤلاء من آباء فقراء تزوجوا أكثر من واحدة ! وهم فى ذلك كاذبون ، والإحصاءات التى يستندون إليها هى التى تكذبهم . فأرادوا أن يشرعوا قانوناً يحرم تعدد الزوجات على الفقير ، ويأذنون به للغنى القادر !! فكان هذا سوءا سوءات : أن يجعلوا هذا التشريع الإسلامى السامى وفقاً على الأغنياء !

ثم لم ينفذ هذا ولم يستطيعوا إصداره ، فاتجهوا وجهة أخرى يتلاعبون فيها بالقرآن : فزعموا أن إباحة التعدد مشروطة بشرط العدل ، وأن الله سبحانه أخبر بأن العدل غير مستطاع ، فهذه أمانة تحرّمه عندهم !! إذ قصرُوا استدلالهم على بعض الآية وتركوا باقيها : ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ وتركوا باقيها : ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمِثْقَلِ﴾ . فكانوا كالدّين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض !

ثم ذهبوا يتلاعبون بالالفاظ ، وبعض القواعد الأصولية ، فسمّوا تعدد الزوجات « مباحاً » ! وأن لولى الأمر أن يقيد بعض المباحات بما يرى من القيود للمصلحة !

وهم يعلمون أنهم فى هذا كله ضالون مضلّون . فما كان تعدد الزوجات مما يطلق عليه لفظ « المباح » بالمعنى العلمى الدقيق: أى المسكوت عنه ، الذى لم يرد نص بتحليله أو تحرّمه ، وهو الذى قال فيه رسول الله ﷺ : « ما أحل الله فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو » . بل إن القرآن نصّ صراحة على تحليله ، بل جاء إحلالة بصيغة الأمر ، التى أصلها للوجوب : ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ .

وإنما انصرف فيها الأمر من الوجوب إلى التحليل بقوله : ﴿ مَا طَابَ لَكُمْ ﴾ . ثم هم يعلمون - علم اليقين - أنه حلال بكل معنى كلمة « حلال » ، بنص القرآن ، وبالعامل المتواتر الواضح الذى لا شك فيه ، منذ عهد النبى ﷺ وأصحابه إلى اليوم ، ولكنهم قوم يقترون !

وشرط العدل فى هذه الآية ﴿فَإِنْ حَفِظْتُمْ أَتَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ - شرط شخصى لا تشريعى ، أعنى: أنه شرط مرجعه لشخص المكلف ، لا يدخل تحت سلطان التشريع والقضاء . ، فإن الله قد أذن للرجل - بصيغة الأمر - أن يتزوج ما طاب له من النساء ، دون قيد بإذن القاضى أو بإذن القانون أو بإذن ولى الأمر أو غيره ، وأمره أنه إذا خاف - فى نفسه - ألا يعدل بين الزوجات أن يقتصر على واحدة . وبالبداية أن ليس لأحد سلطان على قلب المرید الزواج ، حتى يستطيع أن يعرف ما فى دخيلة نفسه من خوف الجور أو عدم خوفه ، بل ترك الله ذلك لتقديره فى ضميره وحده . ثم علّمه الله سبحانه أنه على الحقيقة لا يستطيع إقامة ميزان العدل بين الزوجات =

وسفيان بن عيينة والشافعي ، وهذا مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ أى : فقراً ﴿ فَسَوْفَ

= إقامة تامة لا يدخلها ميل ، فأمره ألا يميل « كل الميل فيذر بعض زوجاته كالمعلقة » . فاكتمى ربه منه - فى طاعة أمره بالعدل - أن يعمل منه بما استطاع ، ورفع عنه ما لم يستطع .

وهذا العدل المأمور به مما يتغير بتغير الظروف ، ومما يذهب ويحيى بما يدخل فى نفس المكلف . ولذلك لا يعقل أن يكون شرطاً فى صحة العقد . بل هو شرط نفسى متعلق بنفس المكلف ويتصرفه فى كل وقت بحسبه : فرب رجل عزم على الزواج المتعدد ، وهو مصرّ فى قلبه على عدم العدل ، ثم لم ينفذ ما كان مصرّاً عليه ، وعدل بين أزواجه . فهذا لا يستطيع أحد يعقل الشرائع أن يدعى أنه خالف أمر ربه . إذ أنه أطاع الله بالعدل ، وعزيمته فى قلبه من قبل لا أثر لها فى صحة العقد أو بطلانه - بدهائه - خصوصاً وأن النصوص كلها صريحة فى أن الله لا يؤاخذ العبد بما حدث به نفسه ، ما لم يعمل به أو يتكلم .

ورب رجل تزوج زوجة أخرى عازماً فى نفسه على العدل ، ثم لم يفعل ، فهذا قد ارتكب الإثم بترك العدل ومخالفة أمر ربه . ولكن لا يستطيع أحد يعقل الشرائع أن يدعى أن هذا الجور المحرم منه قد أثر على أصل العقد بالزوجة الأخرى ، فقله من الحلّ والجواز إلى الحرمة والبطلان . إنما إثمه على نفسه فيما لم يعدل ، ويجب عيه طاعة ربه فى إقامة العدل ، وهذا شئ بديهي لا يخالف فيه من يفقه الدين والتشريع .

والقوم أصحاب هوى ركب عقولهم ، لا أصحاب علم ولا أصحاب استدلال ، يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويلعبون بالدلائل الشرعية من الكتاب والسنة ما وسعهم اللعب .

فمن الأعيهم : أن يستدلوا بقصة على بن أبى طالب ، حين خطب بنت أبى جهل فى حياة فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وأن رسول الله ﷺ حين استؤذن فى ذلك قال : « فلا آذن ، ثم لا آذن ، ثم لا آذن ، إلا أن يريد ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم ، فإنما هى بضعة منى ، يربىنى ما أرابها ، ويؤذنى ما أذاها » ، ولم يسوقوا لفظ الحديث ، إنما خصوا القصة تلخيصاً مريباً ! ليستدلوا بها على أن النبى ﷺ يمنع تعدد الزوجات ، بل صرح بعضهم بالاستدلال بهذه القصة على ما يزعم من التحريم ! لعباً بالدين ، واقتراءً على الله ورسوله . ثم تركوا باقى القصة ، الذى يدمغ افتراءهم - ولا أقول استدلالهم - وهو قول رسول الله ﷺ فى الحادثة نفسها : « وإنى لست أحرم حلالاً ، ولا أحل حراماً ، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله مكاناً واحداً أبداً » .

واللفظان الكريمان رواهما الشيخان : البخارى ومسلم . انظر البخارى (٢٨٦/٩ ، ٢٨٧ ، ١٤٩/٦ فتح) . ومسلم (٢/٢٤٧ ، ٢٤٨) .

فهذا رسول الله ، المبلغ عن الله ، والذى كلمته الفصل فى بيان الحلال والحرام ، يصرح باللفظ العربى المبين - فى أدق حادث يمس أحب الناس إليه ، وهى ابنته الكريمة السيدة الزهراء - بأنه لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً ، ولكنه ينكر أن تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله فى عصمة رجل واحد .

وعندى وفى فهمى : أنه ﷺ لم يمنع علياً من الجمع بين بنته وبنت أبى جهل بوصفه رسولاً مبلغاً عن ربه حكماً تشريعياً ، بدلالة تصريحه بأنه لا يحرم حلالاً ولا يحل حراماً ، وإنما منعه منعاً شخصياً بوصفه رئيس الأسرة التى منها على ابن عمه وفاطمة ابنته ، بدلالة أن أسرة بنت أبى جهل هى التى جاءت تستأذنه فيما طلب إليهم على رضى الله عنه . وكلمة رئيس الأسرة مطاعة من غير شك ، خصوصاً إذا كان ذلك الرئيس هو سيد قریش ، وسيد العرب ، وسيد الخلق أجمعين ﷺ .

وليس بالقوم استدلال أو تحرر لما يدل عليه الكتاب والسنة ، ولا هم من أهل ذلك ولا يستطيعونه . إنما بهم الهوى إلى شئ معين ، يتلمسون له العلل التى قد تدخل على الجاهل والغافل .

بل إن فى فلتات أقلامهم ما يكشف عن خبيثتهم ، ويفضح ما يكون فى ضمائرهم . ومن أمثلة ذلك : أن موظفاً كبيراً فى إحدى وزاراتنا كتب مذكرة أضفى عليها الصفة الرسمية ، ونشرت فى الصحف منذ بضع سنين ، وضع نفسه فيها موضع المجتهدين ، لا فى التشريع الإسلامى وحده ، بل فى جميع الشرائع والقوانين !! فاجترأ على أن يعقد موازنة بين الدين الإسلامى فى إحلاله تعدد الزوجات ، وبين =

يُعَذِّبُكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴿٢٨﴾ [التوبة: ٢٨] . تقول العرب: عال الرجل يعيل عيلةً ، إذا افتقر . ولكن فى هذا

= الأديان الأخرى - زعم !! - وبين قوانين الأمم حتى الوثنية منها ! ولم يجد فى وجهه من الحياء ما يمنعه من الإيحاء بتفضيل النصرانية التى تحرم تعدد الزوجات ، ومن ورائها التشريعات الأخرى التى تسيرها بل يكاد قوله الصريح ينبئ عن هذا التفضيل !!

ونسى أنه بذلك خرج من الإسلام بالكفر البواح ، على الرغم من أن اسمه يدل على أنه ولد على فراش رجل مسلم ، إلى ما يدل عليه كلامه من جهله بدين النصارى ، حتى عقد هذه المفاضلة !! فإن اليقين الذى لا شك فيه : أن سيدنا عيسى عليه السلام لم يحرم تعدد الزوجات الحلال فى التوراة التى جاء هو مصدقاً لها . بنص القرآن الكريم ، وإنما حرمه بعض البابوات بعد عصر سيدنا عيسى بأكثر من ثمانمائة سنة على اليقين ، بما جعل هؤلاء لأنفسهم حق التحليل والتحريم ، الذى نعه الله عليهم فى الكتاب الكريم : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ، والذى فسره رسول الله ﷺ ، حين استفسر منه عدى بن حاتم الطائى - الذى كان نصرانياً وأسلم - إذ سمع هذه الآية فقال : إنهم لم يعبدوهم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « بلى ، إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم » ، انظر ما يأتى فى تفسير الآية (٣١) من سورة التوبة ، إن شاء الله .

فيا أيها المسلمون :

لا يستجربنكم الشيطان ، ولا يخدعنكم أتباعه وأتباع عابديه ، فتستخفوا بهذه الفاحشة التى يريدون أن يذيعوها فيكم ، وبهذا الكفر الصريح الذى يريدون أن يوقعوكم فيه . فليست المسألة مسألة تقييد مباح أو منعه ، كما يريدون أن يوهموكم . وإنما هى مسألة فى صميم العقيدة : أتُصرون على إسلامكم وعلى التشريع الذى أنزله الله إليكم وأمركم بطاعته فى شأنكم كله ؟ أم تعرضون عنهما - والعياذ بالله - فتتروا فى حماة الكفر ، وتعرضوا لسخط الله ورسوله ؟ هذا هو الأمر على حقيقته .

إن هؤلاء القوم - الذين يدعونكم إلى منع تعدد الزوجات - لا يتورع أكثرهم عن اتخاذ العدد الجم من المشيقات والأخذان ، وأمرهم معروف مشهور ، بل إن بعضهم لا يستحي من إذاعة مبادئه وقادواته فى الصحف والكتب . ثم يرفع علم الاجتهاد فى الشريعة والدين ، ويترى بالإسلام والمسلمين .

إن الله حين أحل تعدد الزوجات - بالنص الصريح فى القرآن - أحله فى شريعته الباقية على الدهر ، فى كل زمان وكل عصر ، وهو سبحانه يعلم ما كان وما سيكون ، فلم يعزب عن علمه - عز وجل - ما وقع من الأحداث فى هذا العصر ، ولا ما سيقع فيما يكون من العصور القادمة ، . ولو كان هذا الحكم مما يتغير بتغير الزمان - كما يزعم الملحدون الهدامون - لنص على ذلك فى كتابه أو فى سنة رسوله : ﴿ قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهُ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات : ١٦] .

والإسلام برىء من الرهبانية ، وبرىء من الكهنوت ، فلا يملك أحد أن ينسخ حكماً أحكمه الله فى كتابه أو فى سنة رسوله ، ولا يملك أحد أن يحرم شيئاً أحله الله ، ولا أن يحل شيئاً حرمه الله . لا يملك ذلك خليفة ولا ملك ، ولا أمير ولا وزير ، بل لا يملك ذلك جمهور الأمة ، سواء بإجماع أم بأكثرية . الواجب عليهم جميعاً الخضوع لحكم الله ، والسمع والطاعة .

اسمعوا قول الله : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذْبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِفَتْرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل : ١١٦ ، ١١٧] .

وقوله سبحانه : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَدْنَى أَنْ تَقُولُوا ﴾ [يونس : ٥٩] .

ألا فلتعلمن أن كل من حاول تحريم تعدد الزوجات أو منعه ، أو تقييده بقيود لم ترد فى الكتاب ولا فى السنة ، فإنما يفتري على الله الكذب .

ألا فلتعلمن أن « كل امرئ حسيب نفسه » ، فينظر امرؤ لنفسه أنى يصدر وأنى يرد . وقد أبلغت . والحمد لله رب العالمين .

التفسير ها هنا نظر؛ لأنه كما يخشى كثرة العائلة من تعداد الحرائر، كذلك يخشى من تعداد السرارى أيضا. والصحيح قول الجمهور: ﴿ذَلِكَ أَذْنَىٰ الْأَتْعُولِ﴾ أى: لا تجوروا. يقال: عال فى الحكم: إذا قَسَطَ وظلم وجار. وقد روى ابن أبى حاتم، وابن مردويه، ابن حبان فى صحيحه عن عائشة عن النبى ﷺ: ﴿ذَلِكَ أَذْنَىٰ الْأَتْعُولِ﴾ قال: «لا تجوروا». قال ابن أبى حاتم: قال أبى: هذا حديث خطأ، والصحيح: عن عائشة موقوف. وروى عن ابن عباس، وعائشة، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وغيرهم أنهم قالوا: لا تميلوا .

وقوله: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ قال ابن عباس: يعنى بالنحلة: المهر. وقالت عائشة: نحلة: فريضة. وقال ابن زيد: النحلة فى كلام العرب: الواجب، يقول: لا تنكحها إلا بشيء واجب لها، وليس ينبغى لأحد بعد النبى ﷺ أن ينكح امرأة إلا بصداق واجب، ولا ينبغى أن تسمية تسمية الصداق كذبا بغير حق. ومضمون كلامهم: أن الرجل يجب عليه دفع الصداق إلى المرأة حَتَمًا، وأن يكون طيب النفس بذلك، كما يمنح المنيحة ويعطى النحلة طيباً بها، كذلك يجب أن يعطى المرأة صداقها طيباً بذلك، فإن طابت هى له به بعد تسميته أو عن شيء منه ، فليأكله حللاً طيباً؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنْ طَبِخَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنَاءً مَّرِيئًا﴾ .

﴿وَلَا تَوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ وَأَبْلَوْا الِئْتِمَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا

ينهى تعالى عن تَمَكِين السفهاء من التصرف فى الأموال التى جعلها الله للناس قياما، أى: تقوم بها معاشهم من التجارات وغيرها. ومن ها هنا يُؤْخَذُ الحجر على السفهاء، وهم أقسام: فتارة يكون الحجرُ للصغر؛ فإن الصغير مسلوب العبارة، وتارة يكون الحجرُ للجنون، وتارة لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين، وتارة يكون الحجر للمفلس، وهو ما إذا أحاطت الديون برجل وضاق ماله عن وفائها، فإذا سأل الغُرماء الحاكم الحجرَ عليه حَجَرَ عليه. قال ابن عباس فى قوله: ﴿وَلَا تَوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ قال: هم بَنُوكَ والنساء، وكذا قال ابن مسعود، والحكم بن عتيبة، والحسن، والضحاك: هم النساء والصبيان. وقال سعيد بن جبیر: هم اليتامى. وقال مجاهد وعكرمة وقتادة: هم النساء.

وقوله: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قال ابن عباس يقول: لا تَعْمَدَ إلى مالك وما خَوَّلَكَ الله، وجعله معيشة، فتعطيه امرأتك أو بَنِيكَ، ثم تنظر إلى ما فى أيديهم، ولكن أَمْسِكْ مالك وأصلحْه، وكن أنت الذى تنفق عليهم من كسوتهم ومؤنتهم ورزقهم.

وروى ابن جرير عن أبى موسى قال: «ثلاثة يدعون الله فلا يستجيب لهم: رجل كانت له

امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، ورجل أعطى ماله سفيها، وقد قال: «وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ»، ورجل كان له على رجل دين فلم يشهد عليه ^(١). وقال مجاهد: «وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا»: يعنى فى البر والصلة. وهذه الآية الكريمة انتظمت الإحسان إلى العائلة، ومن تحت الحجر بالفعل، من الإنفاق فى الكسوى والأرزاق ^(٢) والكلام الطيب، وتحسين الأخلاق.

وقوله تعالى: «وَابْتَغُوا الْيَتَامَى» أى اختبروهم «حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ»، قال مجاهد: يعنى: الحُلُم. قال الجمهور من العلماء: البلوغ فى الغلام تارة يكون بالحُلُم، وهو أن يرى فى منامه ما ينزل به الماء الدافق الذى يكون منه الولد. وقد روى أبو داود عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب، قال: حفظت من رسول الله ﷺ: «لَا يَتِمُّ بَعْدَ احْتِلَامٍ، وَلَا صُمَاتٍ يَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ» ^(٣). وفى الحديث الآخر عن عائشة وغيرها من الصحابة، عن النبي ﷺ قال: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ، وَعَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيْقَ» ^(٤) أو يستكمل خمس عشرة سنة ^(٥)، وأخذوا ذلك من الحديث الثابت فى الصحيحين عن ابن عمر قال: عُرِضَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ أَحَدٍ وَأَنَا ابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةَ، فَلَمْ يَجْزِنِي، وَعُرِضَتْ عَلَيْهِ يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَأَنَا ابْنُ خَمْسِ عَشْرَةَ فَأَجَازَنِي، فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ - لَمَّا بَلَغَهُ هَذَا الْحَدِيثُ: إِنَّ هَذَا الْفَرْقَ بَيْنَ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ.

واختلفوا فى إنبات الشعر الحشن حول الفرج، وهو الشَّعْرَةُ، هل يدل على بلوغ أم لا؟ والصحيح أنها بلوغ لأن هذا أمر جليل يستوى فيه الناس، ثم قد دلت السنة على ذلك فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد، عن عَطِيَّةَ الْقُرَظِيِّ، قال: عُرِضْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ قُرَيْظَةَ، فَكَانَ مِنْ أَتَبَتْ قَتْلَ، وَمَنْ لَمْ يُنَبِّتْ خُلَى سَبِيلَهُ، فَكَتَتْ فِيمَنْ لَمْ يُنَبِّتْ، فَخُلَى سَبِيلِي ^(٦).

(١) الطبرى (٨٥٤٤)، وإسناده صحيح، ورواه الحاكم (٣٠٢/٢) بإسناد آخر مرفوعا، وقال: «صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، لتوقيف أصحاب شعبة هذا الحديث على أبى موسى» ووافقه الذهبى، وعندى أنهما صحيحان، والرفع زيادة من ثقة، فهى مقبولة. ثم إن هذا الموقف من الواضح أنه مما لا يدرك بالرائى، فهو مرفوع حكما. والسيوطى فى الدر المنثور (١٢٠/٢، ١٢١)، زاد نسبة المرفوع لليهقى فى الشعب، والموقوف لابن أبى شيبه وابن المنذر.

(٢) فى المخطوطة الأزهرية: «والإنفاق» وهكذا جاءت فى عمدة التفسير المطبوع، وما أثبتناه من النسخة المطبوعة من تفسير ابن كثير، تحقيق: سامى بن السلامة. (الباز).

(٣) أبو داود (٢٨٧٣). وإسناده صحيح.

(٤) هو بمعناه ثابت عن عمر وعلى، عند أحمد وأبى داود والحاكم. وعن على عند الترمذى وابن ماجه والحاكم وعن عائشة عند أحمد وأبى داود والنسائى وابن ماجه والحاكم. انظر الفتح الكبير (١٣٥/٢).

(٥) قوله: «أو يستكمل خمسة عشر سنة» - هو من كلام الحافظ ابن كثير، عطفًا على قوله قبل ذلك - حكاية عن جمهور العلماء -: «البلوغ فى الغلام تارة يكون بالحلم». وهذا هو الثابت فى المخطوطة الأزهرية، وهو الذى يستقيم به سياق الكلام. وكذلك ثبت فى طبعة المنار، إلا أنه أدخله فى لفظ الحديث، بعد قوله: «حتى يفيق»! فاختل نظام الكلام، ودخل فى الحديث ما ليس من لفظه.

(٦) المسند (٤ / ٣١٠ حلى).

وقد أخرجهم أهل السنن الأربعة بنحوه، وقال الترمذى: حسن صحيح. وإنما كان كذلك؛ لأن سعد بن معاذ كان قد حكم فيهم بقتل المقاتلة وسبى الذرية.

وقوله: ﴿فَإِنْ آتَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾. قال سعيد بن جبير: يعنى: صلاحاً فى دينهم وحفظاً لأموالهم. وكذا روى عن ابن عباس، والحسن البصرى، وغير واحد من الأئمة. وهكذا قال الفقهاء: متى بلغ الغلام مصلحاً لدينه وماله، انفك الحجر عنه، فيسلم إليه ماله الذى تحت يد وليه.

وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾: ينهى تعالى عن أكل أموال اليتامى من غير حاجة ضرورية إسرافاً ومبادرة قبل بلوغهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾: من كان فى غنىة عن مال اليتيم فليستعفف عنه، ولا ياكل منه شيئاً ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾. روى البخارى عن عائشة: أنها نزلت فى والى اليتيم إذا كان فقيراً، أنه ياكل منه مكان قيامه عليه بمعروف (١). وروى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: ليس لى مال ولى يتيم؟ فقال: «كُلْ من مال يتيمك غير مُسْرِفٍ ولا مُبَذِّرٍ ولا متأثِّلٍ مالا، ومن غير أن تقى مالك - أو قال: تفدى مالك - بماله» (٢). ورواه ابن أبى حاتم وأبو داود والنسائى وابن ماجه بنحوه. وروى ابن حبان فى صحيحه، وابن مردويه عن جابر: أن رجلاً قال: يا رسول الله، فيما أضرب يتيمى؟ قال: ما كنت ضارباً منه ولدك، غير واق مالك بماله، ولا متأثِّل منه.

وقوله: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ يعنى: بعد بلوغهم الحلم وإيناس الرشد، فحيثئذ سلموهم أموالهم، فإذا دفعتم إليهم أموالهم ﴿فَلْيَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾، وهذا أمر الله تعالى للأولياء: أن يشهدوا على الأيتام إذا بلغوا الحلم وسلموا إليهم أموالهم؛ لئلا يقع من بعضهم جُحود وإنكار لما قبضه وتسلمه.

ثم قال: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أى: وكفى بالله محاسباً وشهيداً وراقياً على الأولياء فى حال نظرهم للأيتام، وحال تسليمهم للأموال: هل هى كاملة موفرة، أو منقوصة مَبْخُوسَة مدخلة، مروج حسابها، مدلس أمورها؟ الله عالم بذلك كله. ولهذا ثبت فى صحيح مسلم، أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر، إني أراك ضعيفاً، وإنى أحب لك ما أحب لنفسى، لا تأمرن على اثنين، ولا تكين مال يتيم» (٣).

(١) البخارى (٨ / ١٨١ فتح).

(٢) المسند (٧٠٢٢). وإسناده صحيح. وقوله: «ولا متأثِّل»: بتشديد التاء المثلثة المكسورة، أى: غير جامع.

(٣) صحيح مسلم (٨١ / ٢).

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ (٧) وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةُ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٨) وَلِيَخْشَى الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضَعِيفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِهِمْ ظُلْمًا إِنَّمَا يَكُونُ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠)

قال سعيد بن جبير وقتادة: كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار، ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئا، فأنزل الله: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ أى: الجميع فيه سواء فى حكم الله تعالى، يستون فى أصل الزاوة وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم، بما يدلى به إلى الميت من قرابة، أو زوجية، أو ولاء. فإنه لُحمة كلحمة النسب.

وقوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةُ﴾ الآية، قيل: المراد: وإذا حضر قسمة الميراث ذوو القربى ممن ليس بوارث واليتامى والمساكين فلْيَرْزُقْ لَهُمْ من التركة نصيب، وأن ذلك كان واجبا فى ابتداء الإسلام. وقيل: مستحب. واختلفوا: هل هو منسوخ أم لا؟ على قولين: فروى البخارى عن ابن عباس قال: هى مُحْكَمَةٌ، وليست بمنسوخة. وكذلك روى ابن جرير عنه نحوه. وعن مجاهد قال: هى واجبة على أهل الميراث، ما طابت به أنفسهم. وهكذا روى عن ابن مسعود، وأبى موسى، وغيرهم.

وذهب بعضهم إلى أن ذلك أمر بالوصية لهم فروى عبد الرزاق: أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر قسم ميراث أبيه عبد الرحمن وعائشة حية، فلم يدع فى الدار مسكينا ولا ذا قرابة إلا أعطاه من ميراث أبيه. وتلا: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةُ أُولُو الْقُرْبَىٰ﴾. قال القاسم: فذكرت ذلك لابن عباس؟ فقال: ما أصاب، ليس ذلك له، إنما ذلك إلى الوصية، وإنما هذه الآية فى الوصية، يريد: الميت يوصى لهم (١).

وذهب بعضهم إن هذه الآية منسوخة بالكلية. فروى ابن مردويه عن ابن عباس فى هذه الآية: كان ذلك قبل أن تنزل الفرائض، فأنزل الله بعد ذلك الفرائض، فأعطى كل ذى حق حقه، فجعلت الصدقة فيما سَمَى المتوفى. وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس نحوه. وروى أيضا عن سعيد بن المسيب أنه قال: إنها منسوخة، كانت قبل الفرائض، كان ما ترك الرجل من مال أعطى منه اليتيم والفقير والمساكين وذوى القربى إذا حضر القسمة، ثم نسخ بعد ذلك، نسختها المواريث، فألحق الله بكل ذى حق حقه، وصارت الوصية من ماله، يوصى بها لذوى

(١) هو فى تفسير عبد الرزاق (ج ٣٨ - مخطوط مصور). وذكر ابن كثير هنا أنه رواه ابن أبى حاتم من طريق عبد الرزاق. وقد رواه أيضا الطبرى (٨٦٨١) بنحوه.

قرايته حيث يشاء .

وهكذا روى عن عكرمة ، وأبى الشعثاء ، والقاسم بن محمد ، وغيرهم ، أنهم قالوا : إنها منسوخة . وهذا مذهب جمهور الفقهاء : الأئمة الأربعة وأصحابهم .

والمعنى : أنه إذا حضر هؤلاء الفقراء من القرابة الذين لا يرثون ، واليتامى والمساكين قسمة مال جزيل ، فإن أنفسهم تشوف إلى شيء منه ، إذا رأوا هذا يأخذ وهذا يأخذ ، وهم يائسون لا شيء يعطون ، فأمر الله تعالى - وهو الرؤوف الرحيم - أن يرضخ لهم شيء من الوسط يكون برا بهم ، وصدقة عليهم ، وإحسانا إليهم ، وجبرا لكسرهم ، كما قال تعالى : ﴿ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [الأنعام : ١٤١] . وذم الذين ينقلون المال خفية ؛ خشية أن يطلع عليهم المحاويج وذوو الفاقة ، كما أخبر عن أصحاب الجنة : ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ [القلم : ١٧] ، أى : بليل ، وقال : ﴿ فَانْظُرُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ . أَنْ لَا يَدْخُلَهَا يَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴾ [القلم : ٢٣ ، ٢٤] فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ، فمن جحد حق الله عليه عاقبه فى أعز ما يملكه ؛ ولهذا جاء فى الحديث : « ما خالطت الصدقة مالا إلا أفسدته » (١) . أى : منعها يكون سبب محاق ذلك المال بالكلية .

وقوله : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ الآية ، قال ابن عباس : هذا فى الرجل يحضره الموت ، فيسمعه الرجل يوصى بوصية تضر بورثته ، فأمر الله تعالى الذى يسمعه أن يتقى الله ، ويوفقه ويسدده للصواب ، ولينظر لورثته كما كان يحب أن يصنع بورثته إذا خشى عليهم الضيعة . وهكذا قال مجاهد وغير واحد ، وثبت فى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ لما دخل على سعد بن أبى وقاص يعودده قال : يا رسول الله ، إني ذو مال ولا يرثني إلا ابنة ، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال : « لا » . قال : فالشطر؟ قال : « لا » . قال : فالثلث؟ قال : « الثلث ، والثلث كثير » . ثم قال رسول الله ﷺ : « إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عائلة يتكففون الناس » . وفى الصحيح أن ابن عباس قال : لو أن الناس غصصوا من الثلث إلى الربع ، فإن رسول الله ﷺ قال : « الثلث ، والثلث كثير » .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى : فى مباشرة أموال اليتامى ولا يأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا . حكاه ابن جرير عن ابن عباس : وهو قول حسن ، يتأيد بما بعده من التهديد فى أكل مال اليتامى ظلما ، أى : كما تحب أن تعامل ذريتك من بعدك ، فعامل الناس فى ذرياتهم إذا وليتهم . ثم أعلمهم أن من أكل مال يتيم ظلما فإنما يأكل فى بطنه نارا ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ . أى : إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب ، فإنما يأكلون نارا تتأجج فى بطونهم يوم القيامة . وفى الصحيحين عن أبى هريرة ، أن

(١) رواه البخارى فى التاريخ الكبير (١/١/١٨٠) فى ترجمة « محمد بن عثمان بن صفوان الجمحى » . وإسناده صحيح ، ولفظه : « إلا أهلكته » . و« محمد بن عثمان » - هذا : ثقة ، لم يذكر فيه البخارى جرحا ، وذكره ابن حبان فى الثقات . وذكره السيوطى فى الجامع الصغير ، كلفظ البخارى ، ونسبه لابن سعد والبيهقى . وذكر شارحه المناوى أنه حديث ضعيف ؛ لأجل محمد بن عثمان ، ولكن الحق ما ذكرناه أنه ثقة .

رسول الله ﷺ قال : « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ » قيل : يا رسول الله ، وما هن ؟ قال : « الشَّرْكُ بِاللَّهِ ، وَالسُّحْرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ » . وروى ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أُحْرِجُ مَالَ الضَّعِيفِينَ : الْمَرْأَةَ وَالْيَتِيمَ » (١) . أى : أوصيكم باجتنب مالهما .

وتقدم فى سورة البقرة ، عن ابن عباس قال : لما أنزل الله : « إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا » الآية ، انطلق من كان عنده يتيماً ، فعزّل طعامه من طعامه ، وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله أو يفسد ، فاشتد ذلك عليهم ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ ، فأنزل الله : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ » الآية [البقرة : ٢٢٠] ، فخلطوا طعامهم ، بطعامهم وشرابهم بشرابهم (٢) .

﴿ يَوْمِئِذٍ اللَّهُ فِيْ أَوَّلِدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ آبَاؤُهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٌ وَأَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَلَّهَ إِنْ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾

هذه الآية الكريمة والتي بعدها والآية التي هى خاتمة هذه السورة هن آيات علم الفرائض . وهو مستنبط من هذه الآيات الثلاث ، ومن الأحاديث الواردة فى ذلك مما هى كالتفسير لذلك . ولنذكر منها ما هو متعلق بتفسير ذلك ، وأما تقرير المسائل ونصب الخلاف والأدلة ، والحجاج بين الأئمة ، فموضعه كتب « الأحكام » والله المستعان .

وقد ورد الترغيب فى تعلم الفرائض ، وهذه الفرائض الخاصة من أهم ذلك . وقد روى أبو داود وابن ماجه عن عبد الله بن عمرو ، مرفوعاً : « الْعِلْمُ ثَلَاثَةٌ ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ فَضْلٌ : آيَةٌ مُحْكَمَةٌ ، أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ ، أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ » (٣) . وروى البخارى عن جابر بن عبد الله قال : عادنى رسول الله ﷺ وأبو بكر فى بنى سلمة ماشين ، فوجدنى النبی ﷺ لا أعقل شيئاً ، فدعا بماء فتوضأ منه ، ثم رش على ، فأفقت ، فقلت : ما تأمرنى أن أصنع فى مالى يا رسول الله ؟ فنزلت : « يَوْمِئِذٍ اللَّهُ فِيْ أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ » . ورواه الجماعة كلهم (٤) .

(١) إسناده ابن مردويه صحيح . ولم أجد هذا الحديث فى أى مرجع آخر ، فيستفاد من هذا الموضع .

(٢) مضى عند تفسير الآيتين : (٢١٩ ، ٢٢٠) من سورة البقرة .

(٣) أبو داود (٢٨٨٥) وابن ماجه (٥٤) . ورواه أيضاً الحاکم (٣٣٢ / ٤) ، ولم يتكلم عليه . وضعفه الذهبى ، وعندى أن إسناده صحيح .

(٤) البخارى (١٨٢ / ٨ فتح) . ورواه أيضاً الطبرى (٨٧٣٠ ، ٨٧٣١) وفصلنا تخريجه هناك .

وروى الإمام أحمد عن جابر قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قُتل أبوهما معك في أحد شهيدا، وإن عمهما، أخذ مالهما، فلم يدع لهما مالا، ولا يُنكحان إلا ولهما مال. قال: فقال: «يَقْضِي اللَّهُ فِي ذَلِكَ». قال: فنزلت آية الميراث، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال: «أَعْطِ ابْنَتِي سَعْدَ الثَّلَاثِينَ، وَأُمَّهُمَا الثُّمْنَ، وما بقي فهو لك». وقد رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه (١). والظاهر أن حديث جابر الأول إنما نزل بسببه الآية الأخيرة من هذه السورة كما سيأتي، فإنه إنما كان له إذ ذاك أخوات، ولم يكن له بنات، وإنما كان يورث كلاله، ولكن ذكرنا الحديث هاهنا تبعا للبخارى، رحمه الله، فإنه ذكره هاهنا. والحديث الثاني عن جابر أشبه بنزول هذه الآية، والله أعلم (٢).

فقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِي﴾ أي: يأمركم بالعدل فيهم، فإن أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكور دون الإناث، فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم في أصل الميراث، وفاوت بين الصنفين، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين؛ وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤنة النفقة والكلفة ومعاناة التجارة والتكسب وتجشّم المشقة، فناسب أن يُعْطَى ضِعْفُ ما تأخذه الأنثى.

وقد استنبط بعض الأذكياء من قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِي﴾ أنه تعالى أرحم بخلقه من الوالد بولده، حيث وصّى الوالدين بأولادهم، فعلم أنه أرحم بهم منهم، كما جاء في الحديث الصحيح: «وقد رأى امرأة من السبي تدور على ولدها، فلما وجدته أخذته فألصقته بصدّرها وأرضعته. فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أَتَرُونَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلِدهَا فِي النَّارِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فَوَاللَّهِ أَرْحَمُ بَعْبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوَكْدِهَا» (٣). وروى البخارى عن ابن عباس قال: كان المال للولد، وكانت الوصية للوالدين، فَنَسَخَ اللهُ مِنْ ذَلِكَ مَا أَحَبَّ، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس والثلث، وجعل للزوجة الثمن والربع، وللزوج الشطر والربع (٤).

وقوله: ﴿إِنْ كُنْ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾. قال بعض الناس: قوله: ﴿فَوْقَ﴾ زائدة وتقديره: فإن كنّ نساء اثنتين، كما في قوله: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْقَابِ﴾ [الأنفال: ١٢]! وهذا غير مُسَلَّم لا هنا ولا هناك؛ فإنه ليس في القرآن شيء زائد لا فائدة فيه، وهذا ممتنع، ثم قوله: ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ لو كان المراد ما قالوه لقال: فلهما ثلثا ما ترك. وإنما استفيد كون الثلثين للبتين من

(١) المسند (١٤٨٥٤). وذكره الحافظ في الفتح (٨/ ١٨٣) وزاد أنه صححه الحاكم.

(٢) وهذا هو الصحيح الذي يفهم من مجموع الروايات، وإن حاول الحافظ في الفتح الجمع بينها بشيء من التكلف.

(٣) هو في الصحيحين بمعناه، من حديث عمر بن الخطاب. وقد مضى تخريجه عند تفسير الآيات: (١٤٢ - ١٤٤) من سورة البقرة.

(٤) البخارى (٥/ ٢٧٨، ٢٧٩، ١٩/ ١٢ فتح).

حكم الأختين فى الآية الأخيرة، فإنه تعالى حكم فيها للأختين بالثلثين. وإذا ورث الأختان الثلثين فلأن يرث البنتان الثلثين بطريق الأولى والأخرى. وقد تقدم فى حديث جابر أن رسول الله ﷺ حكم لابنتى سعد بن الربيع بالثلثين (١)، فدل الكتاب والسنة على ذلك. وأيضاً فإنه قال: ﴿وَأِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾. فلو كان للبتين النصف أيضاً لنص عليه، فلما حكم به للواحدة على انفرادها دل على أن البتتين فى حكم الثلاث والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلِلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ إلى آخره، الأبوان لهما فى الإرث أحوال:

أحدها: أن يجتمعا مع الأولاد، فيفرض لكل واحد منهما السدس، فإن لم يكن للميت إلا بنت واحدة، فرض لها النصف، وللأبوين لكل واحد منهما السدس، وأخذ الأب السدس الآخر بالتعصيب، فيجمع له - والحالة هذه - بين الفرض والتعصيب.

الحال الثانى: أن ينفرد الأبوان بالميراث، فيفرض للأم الثلث - والحالة هذه - ويأخذ الأب الباقي بالتعصيب المحض، ويكون قد أخذ ضعفى ما فرض للأم، وهو الثلثان، فلو كان معهما زوج أو زوجة أخذ الزوج النصف والزوجة الربع. ثم اختلف العلماء: ماذا تأخذ الأم بعد ذلك؟ على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها تأخذ ثلث الباقي فى المسألتين؛ لأن الباقي كأنه جميع الميراث بالنسبة إليهما. وقد جعل الله لها نصف ما جعل للأب فتأخذ ثلث الباقي ويأخذ الباقي ثلثيه. وهو قول عمر وعثمان، وأصح الروايتين عن على. وبه يقول ابن مسعود وزيد بن ثابت، وهو قول الفقهاء السبعة، والأئمة الأربعة، وجمهور العلماء.

الثانى: أنها تأخذ ثلث جميع المال لعموم قوله: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾، فإن الآية أعم من أن يكون معها زوج أو زوجة أو لا. وهو قول ابن عباس. وروى عن على، ومعاذ بن جبل، نحوه. وبه يقول شريح وداود الظاهري، واختاره أبو الحسين محمد ابن عبد الله بن اللبان البصرى فى كتابه «الإيجاز فى علم الفرائض». وهذا فيه نظر، بل هو ضعيف؛ لأن ظاهر الآية إنما هو إذا استبد بجميع التركة، فأما فى هذه المسألة فيأخذ الزوج أو الزوجة الفرض، ويبقى الباقي كأنه جميع التركة، فتأخذ ثلثه.

القول الثالث: أنها تأخذ ثلث جميع المال فى مسألة الزوجة، فإنها تأخذ الربع وهو ثلاثة من اثنى عشر، وتأخذ الأم الثلث وهو أربعة، فيبقى خمسة للأب. وأما فى مسألة الزوج فتأخذ ثلث الباقي؛ لثلاث تأخذ أكثر من الأب لو أخذت ثلث المال، فتكون المسألة من ستة: للزوج النصف ثلاثة، وللأم ثلث ما بقى وهو سهم، وللأب الباقي بعد ذلك وهو سهمان! ويحكى هذا عن ابن سيرين، وهو قول مركب من القولين الأولين، موافق كلاً منهما فى صورة! وهو ضعيف أيضاً. والصحيح الأول، والله أعلم.

الحال الثالث من أحوال الأبوين: وهو اجتماعهما مع الإخوة سواء كانوا من الأبوين، أو من الأب، أو من الأم، فإنهم لا يرثون مع الأب شيئاً، ولكنهم مع ذلك يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس، فيفرض لها مع وجودهم السدس، فإن لم يكن وارث سواها وسوى الأب أخذ الأب الباقي. وحكم الأخوين فيما ذكرناه كحكم الإخوة عند الجمهور.

وقوله: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾: أضروا بالأم ولا يرثون، ولا يحجبها الأخ الواحد من الثلث ويحجبها ما فوق ذلك، وكان أهل العلم يرون أنهم إنما حجبا أمهم من الثلث أن أباهم يلى إنكاحهم ونفقتة عليهم دون أمهم. وهذا كلام حسن. لكن روى عن ابن عباس بإسناد صحيح: أنه كان يرى أن السدس الذى حجبه عن أمهم يكون لهم، وهذا قول شاذ، رواه ابن جرير ثم قال: وهذا قول مخالف لجميع الأمة.

وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ زَيْنٍ﴾: أجمع العلماء سلفاً وخلفاً: أن الدين مقدم على الوصية، وذلك عند إمعان النظر يفهم من فَحْوَى الآية الكريمة. وقد روى الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه وأصحاب التفاسير عن على بن أبى طالب قال: إنكم تقرؤون ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ زَيْنٍ﴾ وإن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية، وإن أعيان بنى الأم يتوارثون دون بنى العلات، يرث الرجل أخاه لأبيه وأمه دون أخيه لأبيه. ثم قال الترمذى: لا نعرفه إلا من حديث الحارث الأعور، وقد تكلم فيه بعض أهل العلم. قلت: لكن كان حافظاً للفرائض معتنياً بها وبالحساب، والله أعلم (١).

وقوله: ﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ أى: إنما فرضنا للأباء وللأبناء، وساوينا بين الكل فى أصل الميراث، على خلاف ما كان عليه الأمر فى الجاهلية، وعلى خلاف ما كان عليه الأمر فى ابتداء الإسلام من كون المال للولد وللأبوين الوصية، كما تقدم عن ابن عباس، إنما نسخ الله ذلك إلى هذا، ففرض لهؤلاء ولهؤلاء بحسبهم؛ لأن الإنسان قد يأتيه النفع الدنيوى - أو الأخرى أو هما - من أبيه ما لا يأتيه من ابنه، وقد يكون بالعكس؛ فلهذا قال: ﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ أى: إن النفع متوقع ومرجو من هذا، كما هو متوقع ومرجو من الآخر؛ فلهذا فرضنا لهذا ولهذا، وساوينا بين القسمين فى أصل الميراث، والله أعلم. وقوله: ﴿فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أى: هذا الذى ذكرناه - من تفصيل الميراث، وإعطاء بعض الورثة أكثر من بعض - هو فرض من الله الله حكم به وقضاه، وهو العليم الحكيم، الذى يضع الأشياء فى محالها، ويعطى كلا ما يستحقه بحسبه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

(١) الحارث هذا: هو ابن عبد الله الأعور، وهو تابعى ضعيف الحديث. وانظر: المسند (٥٩٥، ١٠٩١،

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْصِيَتْ بِهَا أَوْ دَيْنٌ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْصِيَتْ بِهَا أَوْ دَيْنٌ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْصِيَتْ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى: ولكم - أيها الرجال - نصف ما ترك أزواجكم إذا متن عن غير ولد، فإن كان لهن ولد فلكنم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين. وقد تقدم أن الدين مقدم على الوصية، وبعده الوصية ثم الميراث، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء، وحكم أولاد البنين وإن سفلوا حكم أولاد الصلب. ثم قال: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ﴾ إلى آخره، وسواء في الربع أو الثمن الزوجة والزوجتان الاثنتان والثلاث والأربع يشتركن فيه. وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ﴾ إلخ، الكلام عليه كما تقدم.

وقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً﴾ الكلالة: مشتقة من الإكليل، وهو الذي يحيط بالرأس من جوانبه، والمراد هنا: من يرثه من حواشيه لا أصوله ولا فروعه، كما روى الشعبي عن أبي بكر الصديق: أنه سئل عن الكلالة؟ فقال: أقول فيها برأى، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريثان منه، الكلالة: من لا ولد له ولا والد. فلما ولي عمر قال: إني لأستحي أن أخالف أبا بكر في رأى رآه. رواه ابن جرير وغيره.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: كنت آخر الناس عهداً بعمر، فسمعت يقول: القول ما قلت، قلت: وما قلت؟ قال الكلالة: من لا ولد له ولا والد (١). وهكذا قال وابن مسعود، وصح من غير وجه عن ابن عباس، وزيد بن ثابت، وبه يقول الشعبي والنخعي، وغيرهم وبه يقول أهل المدينة والكوفة والبصرة. وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة وجمهور السلف والخلف، بل جميعهم. وقد حكى الإجماع عليه غير واحد، وورد فيه حديث مرفوع. قال ابن اللبان: وقد روى عن ابن عباس ما يخالف ذلك، وهو: أنه من لا ولد له. والصحيح عنه الأول، ولعل الراوى ما فهم عنه ما أراد.

وقوله: ﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ﴾ أى: من أم، كذا فسرها أبو بكر الصديق فيما رواه قتادة عنه، ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ إخوة الأم يخالفون بقية الورثة من

(١) إسناده ابن أبي حاتم إسناده صحيح. وهذا الأثر رواه الطبري في التفسير (٨٧٦٧)، ولكن سقط منه من آخره قوله: «ولا والد» وعندى أن هذا خطأ من ناسخ الطبري؛ لأنه ذكره ضمن الروايات التي رواها عن ابن عباس: «من لا ولد له ولا والد». ورواه البيهقي أيضاً (٢٢٥ / ٦) ناقصاً كرواية الطبري. ولكنه وقع له هكذا، ثم يعقب عليه بما يدل على إنكاره! فهو معذور في إنكاره، إذ وقعت له الرواية الناقصة ولم تقع له الرواية التامة.

وجوه ، أحدها: أنهم يرثون مع من أدلوا به وهى الأم . الثانى : أن ذكرهم وأنثاهم سواء .
الثالث: أنهم لا يرثون إلا إذا كان ميتهم يورث كلاله ، فلا يرثون مع أب ، ولا جد ، ولا ولد ،
ولا ولد ابن . الرابع: أنهم لا يزدادون على الثلث ، وإن كثر ذكورهم وإنثاهم .

واختلف العلماء فى المسألة المشتركة ، وهى: زوج ، وأم أو جدة ، واثان من ولد الأم وواحد
أو أكثر من ولد الأبوين ؟ فعلى قول الجمهور: للزوج النصف ، وللأم أو الجدة السدس ، ولولد
الأم الثلث ، ويشاركهم فيه ولد الأب والأم بما بينهم من القدر المشترك وهو إخوة الأم .

وقد وقعت هذه المسألة فى زمن أمير المؤمنين عمر ، فأعطى الزوج النصف ، والأم السدس ،
وجعل الثلث لأولاد الأم ، فقال له أولاد الأبوين: يا أمير المؤمنين ، هب أن أبانا كان حمارا!
السنا من أم واحدة ؟ فشرك بينهم . صح التشريك عنه وعن أمير المؤمنين عثمان ، وهو إحدى
الروايتين عن ابن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وابن عباس . وبه يقول سعيد بن المسيب ، وشريح
القاضى ، وعمر بن عبد العزيز ، والثورى ، وغيرهم . وهو مذهب مالك والشافعى ، وإسحاق بن
راهويه .

وكان على بن أبى طالب لا يشرك بينهم ، بل يجعل الثلث لأولاد الأم ، ولا شىء لأولاد
الأبوين ، والحالة هذه ، لأنهم عصبه . وهذا قول أبى بن كعب وأبى موسى الأشعرى ، وهو
المشهور عن ابن عباس ، وهو مذهب الشعبى وابن أبى ليلى ، وأبى حنيفة ، وأبى يوسف ، ومحمد
والإمام أحمد ، ويحيى بن آدم ، وداد بن على الظاهرى وغيرهم ، واختاره ابن اللبان الفرضى ،
فى كتابه «الإيجاز» .

وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ أى: لتكون وصيته على العدل ، لا على
الإضرار والجور والخياف ، بأن يحرم بعض الورثة ، أو ينقصه ، أو يزيده على ما قدر الله له من
الفريضة ، فمتى سعى فى ذلك كان كمن ضاد الله فى حكمته وقسمته . وروى الطبرى عن ابن
عباس ، موقوفا: «الضرار فى الوصية من الكبائر» وكذا رواه النسائى وابن أبى حاتم ، عن ابن
عباس موقوفا (١) . ولهذا اختلف الأئمة فى الإقرار للوارث: هل هو صحيح أم لا؟ على قولين:
أحدهما: لا يصح لأنه مظنة التهمة . وقد ثبت فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال:
«إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه ، فلا وصية لوارث» (٢) . وهذا مذهب أبى حنيفة ومالك ،
وأحمد بن حنبل ، والقول القديم للشافعى ، وذهب فى الجديد إلى أنه يصح الإقرار . وهو مذهب
طاوس ، وعطاء ، والحسن ، وعمر بن عبد العزيز . وهو اختيار أبى عبد الله البخارى فى صحيحه .

(١) الطبرى (٨٧٨٣ - ٨٧٨٧) . وكذلك رواه البيهقى (٢٧١/٦) ورواه الطبرى (٨٧٨٨) والبيهقى وابن أبى حاتم -
فيما نقله - عنه ابن كثير هنا - مرفوعا . وإسناده ضعيف جدا . والصحيح أنه موقوف على ابن عباس ، ولكنه
موقوف لفظا ، وهو - عندنا - مرفوع حكما ، إذ لا يقول هذا ابن عباس ، ولا يجزم بأنه من الكبائر - من قبل
نفسه .

(٢) مضى عند تفسير الآيات : (١٧٨ - ١٨٢) من سورة البقرة ، من حديث عمرو بن خارجة .

واحتج بأن رافع بن خديج أوصى ألا تُكشَفَ الفَرَازِيَّةُ عما أُغْلِقَ عليه بابها . قال : وقال بعض الناس : لا يجوز إقراره لسوء الظن بالورثة ، وقد قال النبي ﷺ : « إياكم والظن ، فإن الظنُّ أكذبُ الحديثِ » . وقال الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا » [النساء : ٥٨] فلم يخص وارثاً ولا غيره . انتهى ما ذكره . فمتى كان الإقرار صحيحاً مطابقاً لما فى نفس الأمر جرى فيه هذا الخلاف ، ومتى كان حيلةً ووسيلةً إلى زيادة بعض الورثة ونقصان بعضهم ، فهو حرام بالإجماع وينص هذه الآية الكريمة «غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ» .

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١٣) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾

أى : هذه الفرائض والمقادير التى جعلها الله للورثة بحسب قُرْبهم من الميت واحتياجهم إليه وفقدهم له عند عدمه - هى حدود الله ، فلا تعتدوها ولا تجاوزوها ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أى : فيها ، فلم يزد بعض الورثة ولم ينقص بعضاً بحيلة ووسيلة ، بل تركهم على حكم الله وفريضته وقسمته ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ أى : لكونه غير ما حكم الله به وضاد الله فى حكمه (١) . وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله وحكم به ، ولهذا يجازيه بالإهانة فى العذاب الاليم المقيم .

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ الرَّجُلُ لَيَعْمَلْ بِعَمَلِ أَهْلِ الْخَيْرِ سَبْعِينَ سَنَةً ، فَإِذَا أَوْصَى حَافٍ فِي وَصِيَّتِهِ ، فَيُخْتَمَ لَهُ بِشَرِّ عَمَلِهِ ، فَيَدْخُلُ النَّارَ ؛ وَإِنْ الرَّجُلُ لَيَعْمَلْ بِعَمَلِ أَهْلِ الشَّرِّ سَبْعِينَ سَنَةً ، فَيَعْدِلُ فِي وَصِيَّتِهِ ، فَيُخْتَمَ لَهُ بِخَيْرِ عَمَلِهِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ » . قال : ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (٢) . ورواه أبو داود والترمذى وابن ماجه ، بنحوه . وسياق الإمام أحمد أتم وأكمل .

(١) هذا الوعيد الشديد هو لمن تعدى حدود الله فى الوصية والميراث وإعطاء كل ذى حق حقه ، وخالف عن أمر ربه ، وظن أنه يعمل ما يراه - بعقله القاصر أو بهواه - ما فيه مصلحة لورثته ، أعنى أن هذا فى المخالفة العملية التى لا تتصل بالعقيدة ، كما هو ظاهر من سياق الآيات الربانية . أما الخارجون على شريعة الله وحدوده ، الذين يطالبون بمساواة المرأة بالرجل فى الميراث - من الجمعيات النسائية الفاجرة المتهتكة ، ومن الرجال أو أشباه الرجال ، الذين يروجون لهذه الدعوة ، ويتملقون النسوة فيما يصدرن ويردن - فلإنما هم خارجون من الإسلام خروج المرتدين ، لاتصال ذلك بأصل العقيدة ، وإنكار التشريع الإسلامى ، فيجب على كل مسلم أن يقاومهم ما استطاع ، وأن يدفع شرهم عن دينه وعن أمته .

(٢) المسند (٧٧٢٨) . وقد مضى عند تفسير الآيات : (١٨٠ - ١٨٤) من سورة البقرة ، وخرجناه وأشرنا إلى هذا الموضع هناك .

﴿وَالَّتِي يَأْتِيكِ الْفَحِشَةُ مِنْ نِسَائِكَ فَأَسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ۝١٥﴾
وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِنَّ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ۝١٦﴾

كان الحكم في ابتداء الإسلام : أن المرأة إذا زنت فثبت زناها بالبينّة العادلة، حُبست في بيت فلا تُمكن من الخروج منه إلى أن تموت؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّتِي يَأْتِيَا الْفَاحِشَةَ﴾ يعني: الزنا «مِنْ نِسَائِكُمْ فَأَسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا» فالسبيل الذي جعله الله : هو الناسخ لذلك. قال ابن عباس: كان الحكم كذلك، حتى أنزل الله سورة النور ، فنسخها بالجلد، أو الرجم. وهو أمر متفق عليه. روى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي أثر عليه وكرب لذلك وترّيد وجهه، فأنزل الله عز وجل عليه ذات يوم، فلما سُرِّي عنه قال: «خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا: الثَّيْبُ بِالثَّيْبِ، وَالْبِكْرُ بِالْبِكْرِ، الثَّيْبُ جِلْدُ مِائَةٍ، وَرَجْمٌ بِالْحِجَارَةِ، وَالْبِكْرُ جِلْدُ مِائَةٍ ثُمَّ نَفَى سَنَةً». وقد رواه مسلم وأصحاب السنن : قال الترمذی: هذا حديث حسن صحيح وكذا. رواه أبو داود الطيالسي (١). وقد ذهب الإمام أحمد بن حنبل إلى القول بمقتضى هذا الحديث، وهو الجمع بين الجلد والرجم في حق الثيب الزاني، وذهب الجمهور إلى أن الثيب الزاني إنما يُرجم فقط من غير جلد، قالوا: لأن النبي ﷺ رَجَمَ مَاعِزًا وَالْغَامِدِيَّةَ وَالْيَهُودِيَّينَ، وَلَمْ يَجْلِدْهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْجِلْدَ لَيْسَ بِحَتْمٍ، بَلْ هُوَ مَنْسُوخٌ عَلَى قَوْلِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا﴾ أى: والذنان يفعلان الفاحشة فأذوهما. قال ابن عباس وسعيد بن جبیر وغيرهما: أى بالشتم والتعير، والضرب بالنعال، وكان الحكم كذلك حتى نسخهُ الله بالجلد أو الرجم. وقال عكرمة، وعطاء، والحسن، وعبد الله بن كثير: نزلت في الرجل والمرأة إذا زنيا. وقال مجاهد: نزلت في الرجلين إذا فعلا، لا يكتفى، وكأنه يريد اللواط، والله أعلم. وقد روى أهل السنن عن ابن عباس مرفوعا، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَأَيْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلًا قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ» (٢).

وقوله: ﴿فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا﴾ أى: أقبلوا ونزعًا عما كانا عليه، وصَلَّحت أعمالهما وحسنت «فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا» أى: لا تُعْنَوْهُمَا بكلام قبيح بعد ذلك؛ لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾. وقد ثبت في الصحيحين: «إِذَا زَنَّتْ أَمَةٌ أَحَدَكُمْ فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ وَلَا يُثْرَبْ عَلَيْهَا» (٣) أى: لا يُعْيَرُهَا بما صَنَعَتْ بعد الحد، الذي هو كفارة لما صَنَعَتْ.

(١) المسند (٣١٨/٥ حلى) . ورواه أيضا قبل ذلك (ص ٣١٣ ، ٣١٧) . وهو في الطيالسي (٥٨٤) ، ورواه الشافعي في الرسالة (٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٦٨٦) بتحقيقنا . ورواه الطبري (٨٨٠٥ - ٨٨٠٧ ، ٨٨١٠ ، ٨٨١١) . وفصلنا تحريجه هناك .

(٢) ورواه أحمد في المسند (٢٧٣٢) . وإسناده صحيح .

(٣) مختصر من حديث رواه البخاري مرارا ، من حديث أبي هريرة ، منها: (٤/ ٣٥٠ فتح) ومسلم (٣٧/٢ ، ٣٨) بأسانيد . ورواه أيضا أحمد في المسند (٧٣٨٩) .

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْتَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾

يقول تعالى: إنما يتقبل الله التوبة من عمل السوء بجهالة، ثم يتوب ولو قبل معاينة الملك لقبض روحه قَبْلَ الْغَرْغَرَةِ. قال مجاهد وغير واحد: كل من عصى الله خطأ أو عمداً فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب. وروى عبد الرزاق: عن قتادة قال: اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فرأوا أن كل شيء عصى به فهو جهالة، عمداً كان أو غيره (١). وقال عن ابن عباس ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴾ قال: ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت، وقال الحسن البصري: ما لم يُغْرِغْ. وقال عكرمة: الدنيا كلها قريب.

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: ﴿ إِنْ اللَّهُ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرِغْ ﴾. ورواه الترمذى وابن ماجة. وقال الترمذى: حسن غريب (٢). ووقع في سنن ابن ماجة: عن عبد الله بن عمرو. وهو وهم، إنما هو عبد الله بن عمر بن الخطاب. وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن اليلمانى قال: اجتمع أربعة من أصحاب النبي ﷺ، فقال أحدهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿ إِنْ اللَّهُ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ يَوْمَ ﴾. فقال الآخر: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿ إِنْ اللَّهُ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ يَوْمَ ﴾. فقال الثالث: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿ إِنْ اللَّهُ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِضَحْوَةٍ ﴾. قال الرابع: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿ إِنْ اللَّهُ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرِغْ بِنَفْسِهِ ﴾ (٣). وقد رواه سعيد بن منصور عن عبد الرحمن بن اليلمانى، فذكر قريباً منه.

فقد دلت هذه الأحاديث على أن من تاب إلى الله عز وجل وهو يرجو الحياة، فإن توبته مقبولة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾. وأما متى وقع الإياب من الحياة، وعاین الملك، وحسرت الروح في الحلق، وضاق بها الصدر، وبلغت الحلقوم، وغرغرت النفس صاعدة في الغلاصم - فلا توبة متقبلة حيثئذ، ولات حين مناص؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ﴾ وهذا كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا

(١) هو في تفسير عبد الرزاق (ص ٣٩). وكذلك رواه الطبري من طريقه (٨٨٣٣).

(٢) المسند (٦١٦٠، ٦٤٠٨). ورواه أيضا الحاكم (٤/ ٢٥٧) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) المسند (١٥٥٦٥)، وإسناده صحيح. «عبد الرحمن بن اليلمانى»: تابعى ثقة. ووقع في المطبوعة: «بن السلماني»! وهو تحريف. والحديث رواه الحاكم (٤/ ٢٥٧ - ٢٥٩) بأسانيد صحاح. وذكر الهيثمى في الزوائد (١٠/ ١٩٧) وقال: «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، غير عبد الرحمن، وهو ثقة».

رَأَوْا بِأَسَنَاءَ قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ﴿الْآيَتَيْنِ﴾ [غافر: ٨٤ ، ٨٥] ، وكما حكم تعالى بعدم توبة أهل الأرض إذا عاينوا الشمس طالعة من مغربها كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ الآية [الأنعام: ١٥٨] .

وقوله : ﴿وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ . يعنى : أن الكافر إذا مات على كفره وشركه ، لا ينفعه ندمه ولا توبته ، ولا يقبل منه فدية ولو بملء الأرض . قال ابن عباس ، وأبو العالية ، والربيع ابن أنس : ﴿وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ قالوا : نزلت فى أهل الشرك . وروى الإمام أحمد عن أبى ذر : أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله يقبل توبة عبده - أو يغفر لعبده - ما لم يقع الحجاب» . قيل : وما وقوع الحجاب ؟ قال : «تخرج النفسُ وهى مُشْرِكَةٌ» (١) ؛ ولهذا قال : ﴿أُولَئِكَ أَعْدَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أى : موجعا شديدا مقيما .

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَقْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١١﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتِهِنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِنَّمَا مُبَيَّنًا ﴿١٢﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٣﴾ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّكُمْ كَانُمْ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿١٤﴾﴾

روى البخارى عن ابن عباس : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ قال : كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته ، إن شاء بعضهم تزوجها ، وإن شاؤوا زَوَّجُوهَا ، وإن شاؤوا لم يزَوَّجُوهَا ، فهم أحق بها من أهلها ، فنزلت هذه الآية فى ذلك . ورواه أبو داود ، والنسائى ، وابن مردويه ، وابن أبى حاتم (٢) .

وروى الطبرى عن عكرمة قال : نزلت فى كُبَيْشَةَ بنت مَعْن بن عاصم من الأوس ، توفى عنها أبو قيس بن الأسلت ، فجنح عليها ابنه ، فجاءت رسول الله ﷺ ، فقالت : يارسول الله ، لا أنا ورثت زوجى ، ولا أنا تركت فأنكح ، فنزلت هذه الآية (٣) . وقال مجاهد فى الآية : كان الرجل يكون فى حجره اليتيمة هو يلى أمرها ، فيحبسها رجاء أن تموت امرأته ، فيتزوجها أو يزوجه ابنه . رواه ابن أبى حاتم . ثم قال : وروى عن الشعبي ، وعطاء بن أبى رباح ، وأبى مجلز ، والضحاك ، والزهرى ، وعطاء الخراسانى ، ومقاتل بن حيان - نحو ذلك . قلت : فالآية

(١) المسند (٥ / ١٧٤ حلى) وإسناده صحيح . ورواه أيضا البخارى من الكبير (١ / ٢٢ ، ١٦١ ، ١٦٢) والحاكم (٤ / ٢٥٧) وصححه ، ووافقه الذهبى . وهو فى مجمع الزوائد (١٠ / ١٩٨) وزاد نسبه للبخارى .

(٢) البخارى (٨ / ١٨٤ - ١٨٦ فتح) . ورواه الطبرى (٨٨٦٩) .

(٣) الطبرى فى خير طويل (٨٨٧٣) . وقوله : «جنح عليها» : أى بسط عليها جناحه أو كنفه ومال عليها . يعنى : أنه مال عليها ليحول بينها وبين الناس .

تعم ما كان يفعله أهل الجاهلية، وما ذكره مجاهد ومن وافقه، وكل ما كان فيه نوع من ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذُنَّ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ أى: لا تضاروهن فى العشرة: لتترك لك ما أصدقته أو بعضه، أو حقاً من حقوقها عليك، أو شيئاً من ذلك على وجه القهر لها والاضطهاد.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ﴾ قال ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وسعيد ابن جبيرة، ومجاهد، وغيرهم: يعنى بذلك الزنا، يعنى: إذا زنت فلنك أن تسترجع منها الصداق الذى أعطيتها وتضاجرها حتى تتركه لك وتخالعها، كما قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ (١) [البقرة: ٢٢٩]. وقال ابن عباس، وعكرمة، والضحاك: الفاحشة المبينة: النشور والعصيان. واختار ابن جرير أنه يعم ذلك كله: الزنا، والعصيان، والنشور، وبذاء اللسان، وغير ذلك. يعنى: أن هذا كله يُبيح مضاجرتها حتى تُبرئه من حقها أو بعضه ويفارقها، وهذا جيد، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أى: طيبوا أقوالكم لهن، وحسنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم، كما تحب ذلك منها، فافعل أنت بها مثله، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وقال رسول الله ﷺ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي» (٢).

وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة دائم البشر، يداعب أهله، ويتلطّف بهم، ويوسعهم نفقته، ويضاحك نساءه، حتى إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين، يتودّد إليها بذلك. قالت: سَأَبَقَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَبَقْتُهُ، وذلك قبل أن أحمل اللحم، ثم سَابَقْتُهُ بعد ما حملت اللحم فسبقتني، فقال: «هَذِهِ بَنُوكَ» (٣) ويجتمع نساؤه كل ليلة فى بيت التى يبيت عندها رسول الله ﷺ، فياكل معهن العشاء فى بعض الأحيان، ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها. وكان ينام مع المرأة من نساته فى شعار واحد، يَضَعُ عن كَتِفِهِ الرِّدَاءَ وينام بالإزار، وكان إذا صَلَّى العشاء يدخل منزله يَسْمُرُ مع أهله قليلا قبل أن ينام، يؤانسهم بذلك ﷺ وقد قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أى: فعسى أن يكون صبركم مع إمساكم لهن مع كراهتهن - فيه خير كثير لكم فى الدنيا والآخرة. كما قال ابن عباس فى هذه الآية: هو أن يعطف عليها، فيرزق منها ولداً، ويكون فى ذلك الولد خير

(١) انظر ما مضى عند تفسير الآيتين: (٢٢٩، ٢٣٠).

(٢) رواه الترمذى (٣٦٧/٤) من حديث عائشة، وقال: «حديث حسن صحيح». ورواه ابن ماجه (١٩٧٧) من حديث ابن عباس، وإسناده صحيح.

(٣) من حديث رواه أبو داود (٢٥٧٨) بنحوه. قال المنذرى: «وأخرجه النسائى وابن ماجه».

كثير، وفي الحديث الصحيح: «لَا يَفْرَكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ سَخَطَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرُ» (١).
وقوله: «وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا اتَّخَذُوهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينٌ» أى: إذا أراد أحدكم أن يفارق امرأة ويستبدل مكانها غيرها، فلا يأخذن مما كان أصدق الأولى شيئاً، ولو كان قنطاراً من مال.

وفي هذه الآية دلالة على جواز الإصداق بالمال الجزيل، وقد كان عمر بن الخطاب نهى عن كثرة الإصداق، ثم رجع عن ذلك، كما قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا سلمة بن علقمة، عن محمد بن سيرين، قال: نُبِتَتْ عَنْ أَبِي الْعَجْفَاءِ السُّلَمِيِّ قَالَ: سمعت عمر بن الخطاب يقول: أَلَا لَا تَغْلُوا فِي صَدَاقِ النِّسَاءِ، فَإِنِهَا لَوْ كَانَتْ مَكْرُمَةً فِي الدُّنْيَا أَوْ تَقْوَى عِنْدَ اللَّهِ كَانَتْ أَوْلَاكُمْ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ، مَا أَصْدَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِهِ، وَلَا أَصْدَقَتْ امْرَأَةً مِنْ بَنَاتِهِ أَكْثَرَ مِنْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أُوقِيَّةً، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لِيَبْتَلِيَ بِصَدَقَةِ امْرَأَتِهِ حَتَّى يَكُونَ لَهَا عِدَاوَةٌ فِي نَفْسِهِ، وَحَتَّى يَقُولَ: كَلِّفْتُ إِلَيْكَ عِلْقَ الْقَرْبَةِ. ورواه أهل السنن، وقال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح (٢). وروى أبو يعلى عن مسروق، قال: ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله ﷺ ثم قال: أيها الناس، ما إكثاركم فى صدق النساء؟ وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه وإنما الصدقات فيما بينهم أربعمئة درهم فما دون ذلك. ولو كان الإكثار فى ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها. فلا أعرفن ما زاد رجل فى صداق امرأة على أربعمئة درهم. قال: ثم نزل، فاعترضته امرأة من قريش، فقالت: يا أمير المؤمنين، نهيت الناس أن يزيدوا النساء فى صداقهن على أربعمئة درهم؟ قال: نعم. فقالت: أما سمعت ما أنزل الله فى القرآن؟ قال: وأى ذلك؟ فقالت: أما سمعت الله يقول: «وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا» الآية [النساء: ٢٠]. قال: فقال: اللهم غَفْرًا، كُلُّ النَّاسِ أَفْقُهُ مِنْ عَمْرِ. ثم رجع فركب المنبر فقال: أيها الناس، إنى كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء فى صداقهن على أربعمئة درهم، فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب. قال أبو يعلى: وأظنه قال: فمن طابت نفسه فليفعل. إسناده جيد قوى (٣).

ولهذا قال منكراً: «وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ» أى: وكيف تأخذون الصداق من المرأة وقد أفضيت إليها وأفضت إليك؟ قال ابن عباس، ومجاهد، والسدى، وغير واحد: يعنى بذلك الجماع. وقد ثبت فى الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال للمتلاعنين بعد فراغهما من تلاعهما: «اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ. فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ؟» قالها ثلاثاً. فقال الرجل: يا رسول الله، مالى؟ - يعنى: ما أصدقها - قال: «لَا مَالُ لَكَ. إِنْ كُنْتَ صَدَقْتَ فَهُوَ بِمَا

(١) رواه مسلم (١/ ٤٢١) من حديث أبى هريرة. وقوله: «لَا يَفْرَكُ» - بفتح الراء - أى لا يبغضها بغضاً يؤدى إلى تركها.

(٢) المسند (٢٨٥، ٢٨٧، ٣٤٠) ورواه الحاكم (٢/ ١٧٥، ١٧٦) وصححه، ووافقه الذهبى. وقوله: «علق القرية»: هو بفتح العين واللام، وهو جبل القرية الذى تعلق به. يريد: تحملت لأجلك كل شئ حتى علق القرية.

(٣) وهو فى مجمع الزوائد (٤/ ٢٨٣، ٢٨٤).

استحللت من فرجها، وإن كنت كذبت عليها فهو أبعد لك منها». وفي سنن أبي داود وغيره عن بصرة بن أكثم : أنه تزوج امرأة بكرأ في خدرها، فإذا هي حامل من الزنا، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له. ففضى لها بالصداق وفرق بينهما، وأمر بجلدها، وقال: «الولد عبد لك والصداق في مقابلة البضع» (١).

وقوله: «وَأَخَذَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا»: روى عن ابن عباس ومجاهد، وسعيد بن جبير: أن المراد بذلك العقد. وعن ابن عباس قال: إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. قال ابن أبي حاتم: وروى عن عكرمة، ومجاهد، والحسن، وقتادة وغيرهم نحو ذلك. وفي صحيح مسلم، عن جابر في خطبة حجة الوداع: أن النبي ﷺ قال فيها: «واستوصوا بالنساء خيراً، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله».

وقوله: «وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا» يُحَرِّم تعالى زوجات الآباء تكرمة لهم، وإعظاماً واحتراماً أن توطأ من بعده، حتى إنها لتحرم على الابن بمجرد العقد عليها، وهذا أمر مجمع عليه. وقد زعم السهيلي أن نكاح نساء الآباء كان معمولاً به في الجاهلية؛ ولهذا قال: «إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ». كما قال: «وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ». قال: وقد فعل ذلك كنانة بن خزيمة، تزوج بامرأة أبيه، فأولدها ابنه النضر بن كنانة، قال: وقد قال ﷺ: «وُلِدْتُ مِنْ نِكَاحٍ لَا مِنْ سِفَاحٍ». قال: فدل على أنه كان سائغاً لهم ذلك، فإن أراد أنهم كانوا يعدونه نكاحاً، فقد روى ابن جرير عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يُحَرِّمون ما حَرَّمَ الله، إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين، فأنزل الله: «وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ» «وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ» (٢). وهكذا قال عطاء وقتادة. ولكن فيما نقله السهيلي من قصة كنانة نظر، والله أعلم. وعلى كل تقدير فهو حرام في هذه الأمة، مُبَشَّع غاية التبشع، ولهذا قال: «إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا». قال: «وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ» [الأنعام: ١٥١]، وقال: «وَلَا تَقْرُبُوا الزَّوْجَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا» [الإسراء: ٣٢]. فزاد هاهنا: «وَمَقْتًا» أى: بُغْضاً، أى هو أمر كبير في نفسه، ويؤدى إلى مقت الابن أباه بعد أن يتزوج بامراته، فإن الغالب أن من تزوج بامرأة يبغض من كان زوجها قبله؛ ولهذا حرمت أمهات المؤمنين على الأمة؛ لأنهن أمهات، لكونهن زوجات النبي ﷺ، وهو كالأب، بل حقه أعظم من حق الآباء بالإجماع، بل حبه مقدم على حب النفوس صلوات الله وسلامه عليه.

وقال عطاء بن أبي رباح في قوله: «وَمَقْتًا» أى: يمقت الله عليه «وَسَاءَ سَبِيلًا» أى: وبئس طريقاً لمن سلكه من الناس، فمن تعاطاه بعد هذا فقد ارتد عن دينه، فيقتل، ويصير ماله فيثاً لبيت المال. كما روى الإمام أحمد، عن البراء بن عازب، قال: مرَّ بى عمى الحارث بن عمرو، ومعه لواء قد عقده له النبي ﷺ فقلت له: أى عم، أين بعثك النبي ﷺ؟ قال: بعثنى إلى

(١) أبو داود (٢١٣١، ٢١٣٢) بمعناه، وقد سها الحافظ ابن كثير هنا، فذكر الصحابي باسم «بصرة ابن أبي بصرة وهو خطأ، فإن هذا صحابي آخر ليس صاحب القصة. وما ذكرنا هو الثابت في أبي داود، وكتب الرجال، ووقع في المطبوعة: «نضرة بن أبي نضرة»! وهو خطأ إلى خطأ.

(٢) الطبرى (٨٩٣٨) وإسناده صحيح. ورواه أيضاً ابن المنذر، كما في الدر المنثور (١٣٤/٢).

رجل تزوج امرأة أبيه فأمرني أن أضرب عنقه^(١).

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهُنَّ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبُكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَخَالَاتُكُمُ اللَّاتِي أُبْنِيَ عَلَيْكُمْ الَّذِينَ مِّنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٢٣) ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِجْلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ^٢ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (٢٤)

الجزء

٥

هذه الآية الكريمة هي آية تحريم المحارم من النسب، وما يتبعه من الرضاع والمحارم بالصهر، قال ابن أبي حاتم: وقد استدلل جمهور العلماء على تحريم المخلوقة من ماء الزانى عليه بعموم قوله: ﴿ وَبَنَاتُكُمْ ﴾؛ فإنها بنت فتدخل في العموم، كما هو مذهب أبي حنيفة، ومالك، وأحمد ابن حنبل. وقد حكى عن الشافعي شيء في إباحتها؛ لأنها ليست بنتاً شرعية، فكما لم تدخل في قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ الْإُنثَى ﴾، فإنها لا تراث بالإجماع، فكذلك لا تدخل في هذه الآية، والله أعلم.

وقوله: ﴿ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ ﴾ أى كما يحرم عليك أمك التي

(١) المسند (٢٩٢ / ٤ حلى) . ورواه أبو داود (٤٤٥٧) وفيه : « فأمرني أن أضرب عنقه وأخذ ماله » . والإسنادان صحيحان .

وهذا حكم الله وحكم رسوله فيمن ركب هذه الفحشاء المستبعدة . فانظروا ماذا جنت علينا القوانين الوثنية؟ تزوج رجل امرأة شابة ، وكان له ابن شاب لا يخاف الله ، ولا يرقب في خلق ولا عرض إلا واذمة . فزنا بامرأة أبيه ، ثم شعر المجرمان بأن الرجل كاد يكشف ما ركبوا من فجور . فتآمرا وقتلاه . وثبتت هذه الوقائع . وقد استحق هذان الفاجران القتل ، بجريمة الفجور بين المحارم ، واستحقا القتل مرة أخرى بقتل الأب والزوج عمداً . ولكن هذه القوانين أفسدت على الناس عقولهم وفطرتهم الإسلامية ، بل فطرتهم الآدمية . فحكمت على هذين الفاسقين القاتلين بالتعزير ! ببضع سنين من الأشغال الشاقة ! دون نظر إلى الجريمة الخلقية البشعة ، ودون نظر إلى القتل العمد ، وخاصة قتل الأب الوالد . وكان التعليل لنقل الحد من القتل إلى التعزير أعجب ! بتصوير الرجل القاتل المظلوم - المعتدى على دمه وعرضه - بصورة المخطئ المتسبب في هاتين الجريمتين ! بزعم أنه رجل كبير السن تزوج امرأة فتية ! بما وضعه المشرون وأتباعهم في نفوس المتسبين للإسلام ، من إنكار زواج الكبير بالصغيرة ، قصداً إلى المساس بالمقام الأعلى . ولا أحب أن أقول أكثر من هذا ، ولكني أقول : إنه لا يشك مسلم - عالماً كان أو عامياً - أن هذا لا يصدر عن مسلم ، وأن المسلم الذي يقوله أو يرضى به يخرج من الإسلام إلى حماة الكفر والردة . والعياذ بالله .

ولدتك، كذلك يحرم عليك أمك التي أرضعتك؛ ولهذا روى البخارى ومسلم فى الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة»، وفى لفظ لمسلم: «يَحْرُمُ مِنَ الرضاعة ما يَحْرُمُ مِنَ النَسَبِ».

ثم اختلف الأئمة فى عدد الرضعات المحرمة، فذهب ذاهبون إلى أنه يحرم مجرد الرضاع لعموم هذه الآية. وهذا قول مالك، ويحكى عن ابن عمر، وإليه ذهب سعيد بن المسيّب، وعروة بن الزبير، والزُّهْرِي. وقال آخرون: لا يحرم أقل من ثلاث رضعات لما ثبت فى صحيح مسلم عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُحْرَمُ المصّةُ والمصتان». وعن أم الفضل قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا تُحْرَمُ الرضعةُ أو الرضعتان، المصّةُ أو المصتان»، وفى لفظ آخر: «لا تحرم الإملاجة والإملاجتان» رواه مسلم^(١). ومن ذهب إلى هذا القول الإمام أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبو عبيد، وأبو ثور. وهو مروي عن علي، وعائشة، وأم الفضل، وابن الزبير، وسليمان ابن يسار، وسعيد بن جبيرة. وقال آخرون: لا يحرم أقل من خمس رضعات، لما ثبت فى صحيح مسلم عن عائشة، قالت: كان فيما أنزل من القرآن: عشر رضعات معلومات يحرم من. ثم نسخن بخمس معلومات، فتوفى رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن^(٢). وروى عبد الرزاق، عن عائشة نحو ذلك. وفى حديث سهلة بنت سهيل: أن رسول الله ﷺ أمرها أن تُرضع سالماً مولى أبى حذيفة خمس رضعات^(٣)، وكانت عائشة تأمر من يريد أن يدخل عليها أن يرضع خمس رضعات. وبهذا قال الشافعى وأصحابه. ثم ليعلم أنه لا بد أن تكون الرضاعة فى سن الصغر دون الحولين على قول الجمهور. وقد قدمنا الكلام على هذه المسألة فى سورة البقرة^(٤).

ثم اختلفوا: هل يحرم لبن الفحل، كما هو قول جمهور الأئمة الأربعة وغيرهم؟ أو إنما يختص الرضاع بالأم فقط، ولا ينتشر إلى ناحية الأب كما هو قول لبعض السلف؟ على قولين. وقوله: «وَأُمّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ»: أما أم المرأة فإنها تحرم بمجرد العقد على بنتها، سواء دخل بها أو لم يدخل بها. وأما الربيبة - وهى بنت المرأة - فلا تحرم بمجرد العقد على أمها، حتى يدخل بها، فإن طلق الأم قبل الدخول بها جاز له أن يتزوج بنتها، ولهذا قال: «وَرَبَائِبُكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ» فى تزويجهن، فهذا خاص بالربائب وحدهن. وقد فهم بعضهم عود الضمير إلى الأمهات والربائب، فقال: لا تحرم واحدة من الأم ولا البنت بمجرد العقد على الأخرى حتى يدخل بها؛ لقوله: «فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ». وروى ابن جرير عن علي، فى رجل تزوج امرأة فطلقها قبل أن يدخل بها،

(١) صحيح مسلم (٤١٤/١)، (٤١٥).

(٢) هذا مختصر من حديث رواه مسلم (٤١٥/١)، (٤١٦). وانظر الفتح (٩/١١٣ - ١١٥، ١٢٥ - ١٢٩).

(٤) انظر ما مضى عند تفسير الآية: (٢٣٣) من سورة البقرة.

أيتزوج أمها؟ قال: هي بمنزلة الربيبة (١). وروى عن زيد بن ثابت قال: إذا طلق الرجل امرأته قبل أن يدخل بها فلا بأس أن يتزوج أمها (٢). القول مروى عن علي ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير، ومجاهد، وابن جبير، وابن عباس، وقد توقف فيه معاوية، وذهب إليه من الشافعية أبو الحسن أحمد بن محمد الصابوني.

وجمهور العلماء على أن الربيبة لا تحرم بالعقد على الأم ، بخلاف الأم فإنها تحرم بمجرد العقد. وهذا هو مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة، وجمهور الخلف والسلف .

وقد قيل بأنه لا تحرم الربيبة إلا إذا كانت في حجر الرجل، فإذا لم تكن كذلك فلا تحرم. وروى ابن أبي حاتم عن مالك بن أوس بن الحدثان قال: كانت عندى امرأة فتوفيت، وقد ولدت لى، فوجدت عليها، فلقينى على بن أبى طالب ، فقال: مالك؟ قلت: توفيت المرأة. فقال على: لها ابنة؟ قلت: نعم، وهى بالطائف، قال: كانت فى حجرى؟ قلت: لا، هى بالطائف قال: فانكحها. قلت: فأين قول الله: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ﴾؟ قال: إنها لم تكن فى حجرى، إنما ذلك إذا كانت فى حجرى وإسناده قوى ثابت إلى على بن أبى طالب، على شرط مسلم، وهو قول غريب جداً، وإلى هذا ذهب داود بن على الظاهرى وأصحابه. وحكاه أبو القاسم الرافعى عن مالك واختاره ابن حزم، وحكى لى شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي: أنه عرّض هذا على الشيخ الإمام تقي الدين ابن تيمية، فاستشكله، وتوقف فى ذلك، والله أعلم (٣).

وأما الربيبة فى ملك اليمين فقد قال ابن عبد البر: لا خلاف بين العلماء أنه لا يحل لأحد أن يوطأ امرأة وابنتها من ملك اليمين، لأن الله حرم ذلك فى النكاح، قال: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمْ﴾ وملك اليمين عندهم تبع للنكاح، إلا ما روى عن ابن عمر وابن عباس، وليس على ذلك أحد من أئمة الفتوى ولا من تبعهم. وقال ابن جرير: وفى إجماع الجميع على أن خلوة الرجل بامرأته لا يحرم ابنتها عليه إذا طلقها قبل مسيسها ومباشرتها وقبل النظر إلى فرجها بشهوة، ما يدل على أن معنى ذلك : هو الوصول إليها بالجماع.

وقوله: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ أى: وحُرمت عليكم زوجات أبنائكم الذين ولدتموهم من أصلابكم، يحترز بذلك عن الادعاء الذين كانوا يتبنونهم فى الجاهلية، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لَكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ الآية [الأحزاب: ٣٧]. وروى ابن أبى حاتم عن الحسن بن محمد أن هؤلاء الآيات مبهمات: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ﴾ «أُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ» (٤) ثم قال: وروى عن طاوس وإبراهيم والزهرى ومكحول نحو ذلك.

(١) الطبرى (٨٩٥١ ، ٨٩٥٢) بإسناد جيد .

(٢) الطبرى (٨٩٥٣ ، ٨٩٥٤) بإسناد صحيح .

(٣) انظر المحلى لابن حزم (٩ / ٥٢٧ - ٥٣٢) .

(٤) الحسن بن محمد : من ثقات التابعين . وأبوه هو « محمد بن على بن أبى طالب » - المعروف بابن الحنفية .

قلت: معنى مبهمات: أى عامة فى المدخول بها وغير المدخول ، فتحرم بمجرد العقد عليها ، وهذا متفق عليه . فإن قيل : فمن أين تحرم امرأة ابنه من الرضاعة ، كما هو قول الجمهور ، ومن الناس من يحكيه إجماعاً ، وليس من صلبه ؟ فالجواب : من قوله ﷺ : « يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ » (١) .

وقوله : ﴿ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ أى : وحرم عليكم الجمع بين الأخنتين معاً فى التزويج ، وكذا فى ملك اليمين ، إلا ما كان منكم فى جاهليتكم . فقد عفونا عنه وغفرناه . فدل على أنه لا مثنية فيما يستقبل لأنه استثنى فيما سلف ، كما قال : ﴿ لَا يَذَوِّقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ﴾ [الدخان: ٥٦] ، فدل على أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً . وقد أجمع العلماء من الصحابة والتابعين والأئمة قديماً وحديثاً : على أنه يحرم الجمع بين الأخنتين فى النكاح . ومن أسلم وتحتة أختان خيرٌ ، فيمسك أحدهما ويطلق الأخرى لا محالة . روى الإمام أحمد عن فيروز ، قال : أسلمت وعندى امرأتان أختان ، فأمرنى النبى ﷺ أن أطلق إحداهما . وأخرجه أبو داود والترمذى ، وابن ماجه ، وفى لفظ للترمذى : فقال النبى ﷺ : « اختر أيتهما شئت » . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن (٢) . وفيروز : هو الديلمي ، وكان من جملة الأمراء باليمن الذين ولّوا قتل الأسود العنسى المنتبئ لعنه الله .

وأما الجمع بين الأخنتين فى ملك اليمين فحرام أيضاً لعموم الآية ، وروى ابن أبى حاتم عن ابن مسعود: أنه سئل عن الرجل يجمع بين الأخنتين ، فكرهه ، فقال له - يعنى السائل - : يقول الله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ ؟! فقال له ابن مسعود : وبغيرك مما ملكت يمينك !! وهذا هو المشهور عن الجمهور : الأئمة الأربعة وغيرهم ، وإن كان بعض السلف قد توقف فى ذلك . روى الإمام مالك ، عن ابن شهاب ، عن قبيصة بن ذؤيب : أن رجلاً سأل عثمان بن عفان عن الأخنتين فى ملك اليمين ، هل يجمع بينهما؟ قال عثمان : أحلتهما آية وحرمتها آية ، فأما أنا فلا أحب أن أصنع ذلك ، فخرج من عنده فلقي رجلاً من أصحاب النبى ﷺ ، فسأله عن ذلك ؟ فقال : لو كان لى من الأمر شيء ثم وجدت أحداً فعل ذلك لجعلته نكالا . قال مالك : وبلغنى عن الزبير ابن العوام مثل ذلك (٣) . وروى ابن عبد البر عن إياس بن عامر ، قال : سألت على بن أبى طالب فقلت : إن لى أختين مما ملكت يميني ، اتخذت إحداهما سرية ، فولدت لى أولاداً ، ثم رغبت فى الأخرى ، فما أصنع ؟ فقال على : تعتق التى كنت تظاً ثم تظاً ، الأخرى . قلت : فإن

(١) رواه أحمد والشيخان وغيرهم من حديث عائشة . ورواه زحيد ومسلم وغيرهما من حديث ابن عباس ، كما فى الفتح الكبير (٣/ ٤١٥) .

وانظر : حديث ابن عباس فى المسند (٢٤٩٠ ، ٢٤٩١ ، ٢٦٣٣) .

(٢) المسند (٤/ ٢٣٢ حلى) . وانظر الإصابة (٥/ ٢١٤) .

(٣) الموطأ (ص ٥٣٨ ، ٥٣٩) . وقول عثمان : « فأما أنا فلا أحب أن أصنع ذلك » - هو الصواب الثابت فى الموطأ وشرحه . ووقع بدله - هنا - فى المخطوطة والمطبوعة : « وما كنت لأمنع ذلك » ! وهو تخليط من الناسخين .

ناساً يقولون: بل تُزَوِّجُهَا ثُمَّ تَطَأُ الْآخَرَى؟ فقال على: أرايت إن طلقها زوجها أو مات عنها أليس ترجع إليك؟ لأن تعتقها أسلم لك. ثم أخذ على يدي فقال لى: إنه يَحْرُمُ عليك مما ملكت يمينك ما يحرم عليك فى كتاب الله عز وجل من الحرائر إلا العدد - أو قال: إلا الأربع - وَيَحْرُمُ عليك من الرضاع ما حرم عليك فى كتاب الله من النسب. ثم قال أبو عمر [بن عبد البر] : هذا الحديث رُحِّلَ، لو لم يصب من أقصى المغرب أو الشرق إلى مكة غيره لما خابت رحلته (١). وروى ابن مردويه عن ابن عباس ، قال : وكانت الجاهلية يحرمون ما تُحَرِّمون إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين، فلما جاء الإسلام أنزل الله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ وقال ابن عبد البر : وجماعة الفقهاء متفقون على أنه لا يحل الجمع بين الأختين بملك اليمين فى الوطء ، كما لا يحل ذلك فى النكاح. وقد أجمع المسلمون على أن معنى قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ إلى آخر الآية: أن النكاح وملك اليمين فى هؤلاء كلهن سواء، فكذاك يجب أن يكون نظراً وقياساً الجمع بين الأختين وأمّهات النساء والريائب. وكذلك هو عند جمهورهم، وهم الحجة المحجوج بها من خالفها وشذ عنها.

وقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أى: وحرم عليكم الأجنبية المحصنات ومن المزوجات ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يعنى: إلا ما ملكتموهن بالسبى، فإنه يحل لكم وطوهن إذا استبرأتموهن، فإن الآية نزلت فى ذلك. روى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى قال: أصبنا سبياً من سبى أوطاس، ولهن أزواج، فكرهنا أن نفع عليهن ولهن أزواج، فسألنا النبي ﷺ ؟ فنزلت هذه الآية: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: فاستحللنا بها فروجهن وروى عبد الرزاق ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى (٢).

وقد ذهب جماعة من السلف إلى أن بيع الأمة يكون طلاقاً من زوجها، أخذوا بعموم هذه الآية. وقد خالفهم الجمهور قديماً وحديثاً، فأروا أن بيع الأمة ليس طلاقاً لها ؛ لأن المشترى نائب عن البائع، والبائع كان قد أخرج عن ملكه هذه المنفعة وباعها مسلوبة عنها، واعتمدوا فى ذلك على حديث بريرة المخرج فى الصحيحين وغيرهما، فإن عائشة أم المؤمنين اشترتها وأعتقتها، ولم يفسخ نكاحها من زوجها، بل خيرها النبي ﷺ بين الفسخ والبقاء، فاختارت الفسخ، وقصتها مشهورة، فلو كان بيع الأمة طلاقاً - كما قاله هؤلاء - ما خيرها النبي ﷺ، فلما خيرها دل على بقاء النكاح، وأن المراد من الآية المبيعات فقط، والله أعلم.

وقوله: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أى: هذا التحريم كتاب كتبه الله عليكم، فالزموا كتابه، ولا تخرجوا عن حدوده، والزموا شرعه وما فرضه. وقوله: ﴿وَأَحِلُّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ أى: ما عدا من

(١) قول ابن عبد البر: «رحلة رجل»: هو بضم الراء وسكون الحاء، أى: الوجه الذى يأخذ فيه ويريده. تقول: «أنتم رحلتى» - بضم الراء: أى الذين أرتحل إليهم. وقوله: «لما خابت رحلته»: هو بكسر الراء، أى: ارتحاله.

(٢) المسند (١١٧١٤، ١١٨٢٠، ١١٨٢١)، وكذلك رواه الطبرى (٨٩٦٧ - ٨٩٧١). وفصلنا تخريجه هناك.

ذكرن من المحارم هن لكم حلال ، قاله عطاء وغيره . وقوله : ﴿ أَنْ تَتَفَوَّاهُمْ بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ﴾ أى : تحصلوا بأموالكم من الزوجات إلى أربع أو السراى ما شئتم بالطريق الشرعى ؛ ولهذا قال : ﴿ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ أى : كما تستمتعون بهن فآتوهن مهورهن فى مقابلة ذلك ، كقوله : ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ [النساء : ٢١] ، وكقوله : ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ [النساء : ٤] ، وكقوله : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا ﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

وقد استدلل بعموم هذه الآية على نكاح المتعة ، ولا شك أنه كان مشروعاً فى ابتداء الإسلام ، ثم نسخ بعد ذلك . وقد ذهب الشافعى وطائفة من العلماء إلى أنه أبيع ثم نسخ ، ثم أبيع ثم نسخ ، مرتين . وقال آخرون أكثر من ذلك ، وقال آخرون : إنما أبيع مرة ، ثم نسخ ولم يبع بعد ذلك . وقد روى عن ابن عباس وطائفة من الصحابة القول بإباحتها للضرورة ، وهو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل والعمدة ما ثبت فى الصحيحين ، عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب قال : نهى النبى ﷺ عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر . وفى صحيح مسلم عن سبرة بن معبد الجهنى أنه غزا مع رسول الله ﷺ فتح مكة ، فقال : «يا أيها الناس ، إني كنت أذنت لكم فى الاستمتاع من النساء ، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة ، فمن كان عنده منهن شئ فليخل سبيله ، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً » وفى رواية لمسلم : « فى حجة الوداع » (١) .

وقوله : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَايْتُمْ مِنْ بَيْنِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ فَرِيضَةً ﴾ : أى : إذا فرضت لها صداقاً فأبرأتك منه ، أو عن شئ منه فلا جناح عليك ولا عليها فى ذلك . وقال ابن عباس : التراضى أن يؤفقا صداقها ثم يخيرها ، يعنى : فى المقام أو الفراق .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ مناسب ذكر هذين الوصفين بعد شرع هذه المحرمات .

﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْنَتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفُوحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَحْشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

يقول تعالى : ومن لم يجد ﴿طَوْلًا﴾ أى : سعة وقدره ﴿أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أى : الحرائر . العفاف . ﴿فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْنَتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أى : فتزوجوا من الإماء المؤمنات

(١) صحيح مسلم (١/٣٩٥ ، ٣٩٦) والمسند (١٥٤١٠ ، ١٥٤١٣ ، ١٥٤١٤) .

اللاتى يملكن المؤمنين . ثم اعترض بقوله : ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ أى : هو العالم بحقائق الأمور وسرائرها ، وإنما لكم أيها الناس الظاهر من الأمور .

ثم قال : ﴿فَأَنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ فدلّ على أن السيد هو ولى أمته ، لا تزوج إلا بإذنه ، وكذلك هو ولى عبده ، ليس لعبده أن يتزوج إلا بإذنه ، كما جاء فى الحديث : «إيما عبد تزوّج بغير إذن مّوآليه فهو عاهر» أى : زان (١) . فإن كان مالك الأمة امرأة زوّجها من يزوج المرأة بإذنها ؛ لما جاء فى الحديث : «لا تزوّج المرأة [المرأة] ، ولا المرأة نفسها ، فإن الزانية هى التى تزوج نفسها» (٢) .

وقوله : ﴿وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أى : وادفعوا مهورهن بالمعروف ، أى : عن طيب نفس منكم ، ولا تبخسوا منه شيئاً استهانة بهن ؛ لكونهن إماء مملوكات .

وقوله : ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾ أى : عفاف عن الزنا لا يتعاطينه ؛ ولهذا قال : ﴿غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾ ، وهن الزوانى اللاتى لا يمتنعن من أحد أرادهن بالفاحشة . وقوله : ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ قال ابن عباس يعنى : أخلاء .

وكذا روى عن أبى هريرة ، ومجاهد ، والشعبى ، وغيرهم أخلاء . وقال الضحاك : ذات الخليل الواحد ، المقرّة به ، نهى الله عن ذلك ، يعنى تزويجها ما دامت كذلك .

وقوله : ﴿فَإِذَا أَحْصَيْنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ : اختلف القراء فى «أَحْصَيْنَ» : فقرأ بعضهم بضم الهمزة وكسر الصاد ، مبنى لما لم يسم فاعله . وقُرى بفتح الهمزة والصاد فعل لازم (٣) ثم قيل : معنى القراءتين واحد . واختلفوا فيه على قولين : أحدهما : أن المراد بالإحصان هاهنا الإسلام . وقيل : المراد به هاهنا : التزويج . وقيل : معنى القراءتين متباين . فمن قرأ «أَحْصَيْنَ» بضم الهمزة ، فمراده التزويج ، ومن قرأ بفتحها ، فمراده الإسلام . اختاره ابن جرير فى تفسيره ، وقرره ونصره .

والأظهر - والله أعلم - أن المراد بالإحصان هاهنا التزويج ؛ لأن سياق الآية يدل عليه ، حيث يقول سبحانه وتعالى : ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَعِنَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيَاتِكُمْ﴾ . والآية الكريمة سياقها فى الفتيات المؤمنات ، فتعيّن أن المراد بقوله : ﴿فَإِذَا أَحْصَيْنَ﴾ أى : تزوجن ، كما فسرّه ابن عباس ومن تبعه .

وقوله : ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ أى : إنما يباح نكاح الإماء بالشروط المتقدمة لمن خاف

(١) المسند (١٤٢٦١ ، ١٥٠٩١ ، ١٥١٥٣) وأبو داود (٢٠٧٨) والترمذى (١٨١/٢ ، ١٨٢) كلهم من حديث جابر . قال الترمذى : «حسن صحيح» .

(٢) مضى عند تفسير الآية : ٢٣٢ من سورة البقرة تصحيحه من رواية ابن ماجه ، وابن خزيمة وغيرهما وسهونا هناك أن تذكر أنه من حديث أبى هريرة ، فيصح هناك .

(٣) هى قراءة أبى بكر وحزمة والكسائى . وضم الهمزة قراءة باقى السبعة .

على نفسه الوقوع فى الزنا، وشق عليه الصبر عن الجماع، وعنت بسبب ذلك كله، فله حيثئذ أن يتزوج بالأمة، وإن ترك تزوجها، وجاهد نفسه فى الكف عن الزنا، فهو خير له؛ لأنه إذا تزوجها جاء أولاده أرقاء لسيدها إلا أن يكون الزوج عربيا، فلا تكون أولاده منها أرقاء فى قول قديم للشافعى، ولهذا قال: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. ومن هذه الآية الكريمة استدل جمهور العلماء، فى جواز نكاح الإماء، على أنه لا بد من عدم الطول لنكاح الحرائر ومن خوف العنت؛ لما فى نكاحهن من مفسدة رقى الأولاد، ولما فيهن من الدناءة فى العدول عن الحرائر إليهن. وخالف الجمهور أبو حنيفة وأصحابه فى اشتراط الأمرين، فقالوا: متى لم يكن الرجل مزوجا بحرة جاز له نكاح الأمة، سواء كان واجداً لطول حرة أم لا، وسواء خاف العنت أم لا! وعمدنتهم فيما ذهبوا إليه قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥] أى: العفاف، وهو يعم الحرائر والإماء، وهذه الآية عامة أيضا ظاهرة فى الدلالة على ما قاله الجمهور، والله أعلم.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي بَيْنَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿١٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿١٨﴾

يخبر تعالى أنه يريد أن يبين لكم - أيها المؤمنون - ما أحل لكم وحرم عليكم، مما تقدم ذكره فى هذه السورة وغيرها، ﴿وَيُذْهِبُ عَنْكُمْ الرِّجْسَ الَّذِي بَيْنَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يعنى: طرائقهم الحميدة واتباع شرائعهم التى يحجبها ويرضاها ﴿وَيَتُوبُ عَلَيْكُمْ﴾ أى: من الإثم والمحارم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى: فى شرعه وقدره وأفعاله وأقواله.

وقوله: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ أى: يريد اتباع الشياطين من اليهود والنصارى والزناة ﴿أَنْ تَمِيلُوا﴾ عن الحق إلى الباطل ﴿مَيْلًا عَظِيمًا﴾. يريد الله أن يخفف عنكم، أى: فى شرائع وأوامره ونواهيه وما يقدره لكم، ولهذا أباح الإماء بشروطه، كما قال مجاهد وغيره ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ فناسبه التخفيف؛ لضعفه فى نفسه، وضعف عزمه وهيمته. وروى ابن أبى حاتم عن طاوس: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ أى: فى أمر النساء. وقال وكيع: يذهب عقله عندهن.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ﴿١٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٢٠﴾ إِنْ تَحْتَسِبُوا كِبَاءَ مَا نُهُونَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٢١﴾

بهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضا بالباطل، أى: بأنواع

المكاسب التي هي غير شرعية، كأنواع الربا والقمار، وما جرى مجرى ذلك من سائر صنوف الحيل، وإن ظهرت في قالب الحكم الشرعي مما يعلم الله أن متعاطيها إنما يريد الحيلة على الربا، حتى روى ابن جرير عن ابن عباس - في الرجل يشتري من الرجل الثوب فيقول: إن رضيته أخذته وإلا رددت معه درهما - قال: هو الذي قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ (١).

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ قرئ: «تجارة» بالرفع وبالنصب، وهو استثناء منقطع، كأنه يقول: لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال، لكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراض من البائع والمشتري فافعلوها وتسببوا بها في تحصيل الأموال. كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وكقوله: ﴿لَا يَدْرُقُونَ فِيهَا الْمُوتَ إِلَّا الْمَوْتَةُ الْأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦].

ومن هذه الآية الكريمة احتج الشافعي على أنه لا يصح البيع إلا بالقبول؛ لأنه يدل على التراضي نصاً، بخلاف المعاطاة فإنها قد لا تدل على الرضا ولا بد، وخالف الجمهور في ذلك: مالك وأبو حنيفة وأحمد وأصحابهم، فرأوا أن الأقوال كما تدل على التراضي، وكذلك الأفعال تدل في بعض المحال قطعاً، فصحبوا بيع المعاطاة في المحقرات، وفيما يعده الناس بيعاً، وهو احتياط نظر من محققى المذهب، والله أعلم. ومن تمام التراضي إثبات خيار المجلس، كما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا» (٢). وفي لفظ البخاري: «إذا تباع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا» (٣). وذهب إلى القول بمقتضى هذا الحديث أحمد والشافعي، وأصحابهما، وجمهور السلف والخلف.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أى: بارتكاب محارم الله وتعاطي معاصيه وأكل أموالكم بينكم بالباطل «إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا» أى: فيما أمركم به، ونهاكم عنه.

وروى الإمام أحمد عن عمرو بن العاص، أنه قال - لما بعثه النبي ﷺ عام ذات السلاسل - قال: احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فاشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيمنت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح، قال: فلما قدمت على رسول الله ﷺ ذكرت ذلك له، فقال: «يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب؟» قال: قلت: يا رسول الله، إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فاشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فذكرت قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ

(١) الطبري (٩١٤٢) وإسناده صحيح، ورواه قبله (٩١٤١) بنحوه. وإسناده صحيح أيضاً. ورواه قبل ذلك بمعناه (٣٠٦٥) عند الآية (١٨٨) من سورة البقرة، ولكنه هناك من كلام عكرمة دون ذكر ابن عباس.

(٢) المسند مراراً، منها: (٤٤٨٤)، (٤٥٦) من حديث ابن عمر. ورواه الطبري (٩١٦٤). هو بأصح الأسانيد، وقد فصلنا تخريجه في الكتابين.

(٣) البخاري (٢٧٩/٤ فتح) من حديث ابن عمر، وكذلك رواه مسلم (٤٤٧/١) وأحمد في المسند (٦٠٠٦) بهذا اللفظ، فلا وجه لتخصيص البخاري به.

يَكُم رَحِيمًا ، فتيمنت ثم صليت . فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئا . ورواه أبو داود (١) .
وروى ابن مردويه - هنا - عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ ، يَجَأُ بِهَا بَطْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، خَالِدًا مُخْلَدًا فِيهَا أَبَدًا ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِسِمْ (٢) ، فَسِمَهُ فِي يَدِهِ ، يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، خَالِدًا مُخْلَدًا فِيهَا أَبَدًا ، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ ، فَهُوَ مُتَرَدٍّ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، خَالِدًا مُخْلَدًا فِيهَا أَبَدًا . » وهذا الحديث ثابت في الصحيحين (٣) ، وعن ثابت بن الضحاك ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُدَّ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . » وقد أخرجه الجماعة في كتبهم (٤) . وفي الصحيحين عن جندب بن عبد الله البجلي قال : قال رسول الله ﷺ : « كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ بِهِ جُرْحٌ ، فَاخَذَ سَكِينًا نَحَرَ بِهَا يَدَهُ ، فَمَا رَقَا الدَّمُ حَتَّى مَاتَ ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : عَبْدِي بَادَرَنِي بِنَفْسِهِ ، حَرَمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ » (٥) .

ولهذا قال الله تعالى : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدُوًّا وَظُلْمًا » أى : ومن يتعاطى ما نهاه الله عنه متعديا فيه ظلما فى تعاطيه ، أى : عالما بتحريمه متجاسرا على انتهاكه « فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا » وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، فليحذر منه كل عاقل لبيب ممن ألقى السمع وهو شهيد .

وقوله : « إِنْ تَجْتَبِئُوا كِبَائِرَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا » أى : إذا اجتنبتم كبائر الآثام التى نهيتم عنها ، كفرتنا عنكم صغائر الذنوب ، وأدخلناكم الجنة ؛ ولهذا قال : « وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا » . وروى الطبرى عن أنس ، قال : لم أرَ مثل الذى بلغنا عن ربنا ، لم نخرج له عن كل أهل ومال . ثم سكت هنية ، ثم قال : والله لقد كلفنا ربنا أهون من ذلك : لقد تجاوز لنا عما دون الكبائر ، فما لنا ولها ؟ ثم تلا : « إِنْ تَجْتَبِئُوا كِبَائِرَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا » (٦) .

- (١) المسند (٤/ ٢٠٣ ، ٢٠٤ حلى) وأبو داود (٣٣٤ ، ٣٣٥) .
- (٢) فى المطبوع من (عمدة التفسير) والمخطوطة الأهرية : « بِسَمِّ تَرْدَى بِهِ » ، فقوله : « تَرْدَى بِهِ » ريدت سهوا ، فهى ليست فى المسند أو فى الصحيحين وانظر البخارى (٥٧٧٨) ومسلم (١٠٩) . (الباز) .
- (٣) ورواه أحمد فى المسند (٧٤٤١) . وفصلنا تخريجه هناك .
- (٤) هو جزء من حديث فى المسند (١٦٤٥٦ ، ١٦٤٦٣) والبخارى (٣/ ١٨٠ ، ١٠/ ٣٨٩ ، ٤٢٨ ، ١١/ ٤٦٨ ، ٤٦٩ فتح) ومسلم (٤٢/١) .
- (٥) البخارى (٣/ ١٨٠ ، ٦/ ٣٦٢ فتح) ومسلم (١/ ٤٣) والمسند (٤/ ٣١٢ حلى) بنحوه .
- (٦) هذا الأثر عن أنس ، فى الطبرى (٩٢٣١) ، وإسناده صحيح . وقد ذكره الحافظ ابن كثير من رواية الطبرى فى أواخر الكلام فى الكبائر . وذكره هنا من رواية البزار ، وقع فيه تخليط فى الإسناد ، وفى المطبوعة : « عن أنس روفعه » ، وكلمة « رفعه » غير واضحة فى المخطوطة . والظاهر أنها تخليط أيضاً من الناسخين ، لأن الهشيمى ذكر رواية البزار فى مجمع الزوائد (٧/ ٣ ، ٤) . وليس فيها « رفعه » . ثم إسناد البزار ضعيف . فقدما رواية الطبرى إلى هذا الموضع . وقد ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٢/ ١٤٥) من رواية ابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن جرير ، ولم يذكره من رواية البزار ولم يشر إليها .

وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة، فلنذكر منها ما تيسر^(١): فروى الصرى عن أبي هريرة وأبى سعيد قالا : حَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ» - ثلاث مرات - ثُمَّ أَكَبَّ، فَأَكَبَ كُلُّ رَجُلٍ مَنَا يَبْكِي، لَا نَدْرِي عَلَى مَاذَا حَلَفَ عَلَيْهِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَفِي وَجْهِهِ الْبُشْرَى ، فَكَانَ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ، فَقَالَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يُصَلِّي الصَّلَاةَ الْخَمْسَ، وَيَصُومُ رَمَضَانَ، وَيُخْرِجُ الزَّكَاةَ، وَيَجْتَنِبُ الْكِبَائِرَ السَّبعَ، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ لَهُ: ادْخُلْ بِسَلَامٍ». وهكذا رواه النسائي، والحاكم وابن حبان في صحيحه، ثم قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه^(٢).

وتفسير هذه السبع: ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ» قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَالسَّحَرُ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ»^(٣). فالنص على هذه السبع بأنهن كباير لا ينفي ما عداهن، إلا عند من يقول بمفهوم اللقب، وهو ضعيف عند عدم القرينة، ولا سيما عند قيام الدليل بالمنطوق على عدم المفهوم^(٤)، كما سنورده من الأحاديث المتضمنة من الكباير غير هذه السبع، فمن ذلك ما رواه الحاكم عن عمير بن عمير بن قتادة: أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع: «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ الْمُصَلُّونَ مِنْ يُقِيمُ الصَّلَاةَ الْخَمْسَ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْهِ، وَيُصُومُ رَمَضَانَ وَيَحْتَسِبُ صَوْمَهُ، يَرَى أَنَّهُ عَلَيْهِ حَقٌّ، وَيُعْطَى زَكَاةً مَالَهُ يَحْتَسِبُهَا، وَيَجْتَنِبُ الْكِبَائِرَ الَّتِي نَهَى اللَّهُ عَنْهَا». ثم إن رجلاً سألَه فقال: يا رسول الله، ما الكباير؟ فقال: «تَسَعٌ: الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَقَتْلُ نَفْسٍ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَفِرَارُ يَوْمِ الزَّحْفِ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَةِ، وَعَقْقُ الْوَالِدَيْنِ الْمُسْلِمِينَ، وَالسَّحَرُ، وَاسْتِحْلَالُ الْبَيْتِ الْقُدْسِ قَبْلَكُمْ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا، ثُمَّ لَا يَمُوتُ رَجُلٌ لَا يَعْمَلُ هَؤُلَاءِ الْكِبَائِرَ، وَيُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ، إِلَّا كَانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي دَارٍ مَصْنَعَهَا مِنْ ذَهَبٍ». هكذا رواه الحاكم مطولاً، وقد أخرجه أبو داود والنسائي مختصراً. وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديثه مبسوطاً ثم قال الحاكم: رجاله كلهم محتج بهم في الصحيحين إلا عبد الحميد بن سنان. قلت: وهو حجازي لا يعرف إلا بهذا الحديث، وقد ذكره ابن حبان في كتاب الثقات، وقال البخاري: في حديثه نظر^(٥).

(١) ذكر الحافظ ابن كثير هنا أحاديث وآثاراً كثيرة، اكتفينا منها بما سنذكر، إن شاء الله.

(٢) الطبري (٩١٨٥). وتفصيل تخريجه هناك.

(٣) البخاري (٢٩٤/٥، ١٢ / ١٦٠ فتح)، وهنا أفاض الحافظ في شرحه، ومسلم (٣٧٧/١).

(٤) هذا ليس من مفهوم اللقب، بل هو مفهوم العدد، ومن أجاب بأن مفهوم العدد ليس بحجة - فجوابه ضعيف، كما قال الحافظ في الفتح، وذكر جوابين آخرين أقرب إلى القبول: أحدهما: أنه أعلمهم أولاً بهذه السبع، ثم أعلمهم بما زاد، فيجب الأخذ بالزائد، وثانيهما: أن الاختصار وقع بحسب المقام بالنسبة للسائل، أو من وقعت له واقعة، أو نحو ذلك.

(٥) الحاكم (٥٩/١)، وتعبه الذهبي بأن «عبد الحميد بن سنان» مجهول! ثم رواه مرة أخرى (٢٥٩/٤ / ٢٦٠) وصححه، ووافقه الذهبي ولم يتعبه. ورواه الطبري (١٩٨٩) بإسناد آخر فيه رجل ضعيف وفيه انقطاع، ولم يذكر لفظه كاملاً. وفصلنا القول فيه هناك.

عن طَيْسَلَةَ بن مَيَّاس قال: كنت مع النّجّادات، فأصبت ذنوباً لا أراها إلا من الكبائر، فقلت ابن عمّرفقلت له: إني أصبت ذنوباً لا أراها إلا من الكبائر. قال: ما هي؟ قلت: أصبت كذا وكذا؟ قال: ليس من الكبائر. قلت: وأصبت كذا وكذا؟ قال: ليس من الكبائر، قال: لشيء لم يسمه طَيْسَلَةُ (١) - قال: هي تسع، وسأعدهن عليك: الإشرāk بالله، وقتل النفس بغير حلّها، والفرار من الزحف، وقذف المحصنة، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم ظلماً، وإلحاد في المسجد الحرام، والذي يستسحر، وبكاء الوالدين من العقوق. قال طيسلة لما رأى ابن عمر فرّقى. قال: أخاف النار أن تدخلها؟ قلت: نعم. قال: وتحب أن تدخل الجنة؟ قلت: نعم. قال: أحى والدك؟ قلت: عندى أمى. قال: فوالله لئن أنت ألئت لها الكلام، وأطعمتها الطعام، لتدخلن الجنة ما اجتنبت الموجبات (٢). وروى الإمام أحمد عن أبى أيوب قال: قال رسول الله ﷺ: «من عبّد الله لا يُشركُ به شيئاً، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وصام رمضان، واجتنب الكبائر، فله الجنة - أو دخل الجنة -» فسأله رجل: ما الكبائر؟ فقال: «الشرك بالله، وقتل نفس مسلمة، والفرار يوم الزحف» ورواه النسائي (٣). وروى الإمام أحمد عن أنس ابن مالك قال: ذكر رسول الله ﷺ الكبائر - أو سئل عن الكبائر - فقال: «الشرك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين». وقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى. قال: «وقول الزور - أو شهادة الزور». وأخرجه الشيخان (٤). وروى الشيخان عن أبى بكره قال: قال النبى ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟»، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشرāk بالله، وعقوق الوالدين» وكان متكئاً فجلس فقال: «ألا وشهادة الزور، ألا وقول الزور». فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت (٥). وفى الصحيحين، عن عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أى الذنب أعظم؟ - وفى رواية: أكبر - قال: «أن تجعل لله ندا وهو خالقك». قلت: ثم أى؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك». قلت: ثم أى؟ قال: «أن تزانى حليّة جارك»، ثم قرأ: «وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ» إلى قوله: «إِلَّا مَنْ تَابَ» [الفرقان: ٦٨] (٦). وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو، عن النبى ﷺ أنه قال: «أكبر الكبائر الإشرāk بالله، وعقوق

(١) يعنى أن هذه الذنوب التى أشار إليها طيسلة - لم يبينها ولم يسمها .

(٢) الطبرى (٩١٨٧) وإسناده صحيح . وروى البخارى فى الأدب المفرد ، رقم (٨) بإسناد صحيح ، مختصراً قليلاً . وأشار إليه الحافظ فى الفتح (١٦١/١٢) موجزاً ، وزاد نسبته لعبد الرزاق ، والخرائطى فى مساوى الأخلاق ، وإسماعيل القاضى فى أحكام القرآن «مرفوعاً وموقوفاً» .

(٣) المسند (٥ / ٤١٣ ، ٤١٤ حلى) بإسنادين صحيحين . ورواه أيضاً الطبرى (٩٢٢٤) بإسناد آخر صحيح ، ونسبه السيوطى (١٤٦/٢) أيضاً لابن المنذر وابن حبان والحاكم «وصححه» .

(٤) المسند (١٢٣٦٣) . ورواه أيضاً الطبرى (٩٢١٩ ، ٩٢٢٠ ، ٩٢٢١) . وفصلنا تخريجه هناك .

(٥) أبو بكره : هو الثقفى ، نفع بن الحارث . ووقع هنا فى المخطوطة والمطبوعة : «أبى بكر» وهو خطأ . والحديث رواه أيضاً أحمد (٥ / ٣٦ ، ٣٨ حلى) ثلاث مرات .

(٦) ورواه الطبرى (٩٢٢٧ ، ٩٢٢٨) وأحمد مراراً ، منها : (٣٦١٢ ، ٤٢٢٣) . وتفصيل التخرىج فى الكتابين .

والوالدين ، أو قُتِلَ النَّفْس - شعبة الشاك - واليمين الغموس » ورواه البخارى والترمذى والنسائى^(١). وروى البخارى عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: « من أكبر الكبائر أن يَلْعَنَ الرجلُ والديه ». قالوا: وكيف يَلْعَنُ الرجلُ والديه؟ قال: « يَسُبُّ الرجلُ أبا الرجل فيسبُّ أباه، ويسبُّ أمه فيسبُّ أمه ». ورواه مسلم بنحوه. وقال الترمذى: صحيح^(٢). وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: « سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ »^(٣). وروى أبو داود عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: « [إن] من أكبر الكبائر استطالة الرجل فى عَرْضِ رجلٍ مسلم بغير حق، ومن الكبائر السَّبَّانُ بالسَّبة ». ورواه ابن أبى حاتم وابن مردويه^(٤). وروى ابن أبى حاتم عن أبى قتادة العدوى، قال: قرئ علينا كتابُ عمر: من الكبائر جمع بين الصلاتين - يعنى بغير عذر - والفرارُ من الزَّحْفِ، والنَّهْبَةِ. وهذا إسناد صحيح: والغرض: أنه إذا كان الوعيد فيمن جمع بين الصلاتين كالظهر والعصر، تقدما أو تأخيرا، وكذا المغرب والعشاء، مما من شأنه أن يجمع بسبب من الأسباب الشرعية، فإذا تعاطاه أحد بغير شيء من تلك الأسباب يكون مرتكبا كبيرة، فما ظنك بمن يترك الصلاة بالكليّة؟! ولهذا روى مسلم فى صحيحه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: « بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة »^(٥) وفى السنن عنه، عليه السلام، أنه قال: « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر »^(٦). وروى الإمام أحمد عن سلمة بن قيس الأشجعى قال: قال رسول الله ﷺ فى حجة الوداع: « ألا إنهن أربع: لا تشركوا بالله شيئا، ولا تقتلوا النفس التى حَرَّمَ الله إلا بالحق، ولا تَزْنُوا، ولا تسرقوا ». قال: فما أنا بأشَحَّ عليهن منى، إذ سمعتهن من رسول الله ﷺ. رواه النسائى وابن مردويه^(٧). وروى ابن جرير عن الحسن: أن ناسا سألوا عبد الله بن عمرو بمصر فقالوا: نرى أشياء من كتاب الله عز وجل، أمر أن يُعْمَلَ بها، لا يعمل بها، فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين فى ذلك، فقدم وقدموا معه، فلقى عمر، فقال: متى قدمت؟ فقال: منذ كذا وكذا، قال: أبلأذن قدمت؟ قال: فلا أدرى كيف رد عليه؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن ناسا لقونى بمصر فقالوا: إنا نرى أشياء فى كتاب الله عز وجل، أمر أن يعمل بها فلا يعمل بها، فأحبوا أن يلقوك فى ذلك؟ قال: فاجمعهم لى. قال: فجمعتهم له - قال ابن عون: أظنه قال: فى بهو - فأخذ أدناهم رجلا فقال: أنشدك بالله

(١) المسند (٦٨٨٤) ورواه الطبرى (٩٢٢٢، ٩٢٢٣) وتخريجه فيهما .

(٢) ورواه أحمد (٦٥٢٩، ٦٨٤٠، ٧٠٢٩) .

(٣) رواه الجماعة إلا أبا داود، من حديث ابن مسعود . وقد مضى عند تفسير الآية : (١٩٧) من سورة البقرة .

(٤) أبو داود (٤٨٧٧) [إن] منه . وإسناده صحيح .

(٥) مسلم (٣٦/١) من حديث جابر ، بلفظ : « بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » .

(٦) رواه الترمذى (٣٦٠/٣) من حديث بريدة ، وقال : « حسن صحيح غريب » . وقال شارحه : « وأخرجه

أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم ، وقال : « صحيح ولا تعرف له علة » .

(٧) المسند (٣٣٩/٤ ، ٣٤٠ حلى) . وإسناده صحيح ، والظاهر أنه يريد برواية النسائى أنه فى السنن الكبرى .

وقد ذكره الهيثمى فى الزوائد (١٠٤/١) وقصر جدا إذ لم ينسبه للمسند ، بل قال: « رواه الطبرانى فى الكبير ،

ورجاله ثقات » .

ويحق الإسلام عليك، أقرأت القرآن كله؟ قال: نعم. قال: فهل أحصيته في نفسك؟ فقال: اللهم لا! قال: ولو قال نعم لخصمه. قال: فهل أحصيته في بصرك؟ فهل أحصيته في لفظك؟ هل أحصيته في أترك؟ ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم. قال: فثكلت عمر أمه! أنكلّفونه أن يقيم الناس على كتاب الله؟! قد علم ربنا أنه ستكون لنا سيئات. قال: وتلا: ﴿إِنْ تَجِتُّوا كِبَائِرَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ ثم قال: هل علم أهل المدينة - أو قال: هل علم أحد - بما قدمتم؟ قالوا: لا. قال: لو علموا لَوَعظْتُ بكم. إسناد صحيح ومتن حسن، وإن كان من رواية الحسن عن عمر، وفيها انقطاع، إلا أن مثل هذا اشتهر فتكفى شهرته^(١). وروى ابن أبي حاتم عن طاوس قال: قلت لابن عباس: ما السبع الكبائر؟ قال: هنّ إلى السبعين أقرب منها إلى السبع. ورواه ابن جرير^(٢). وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: الكبائر: كل ما وعد الله عليه النار كبيرة. وكذا قال سعيد بن جبيرة، والحسن البصري. وروى أيضا عن أبي الوليد قال: سألت ابن عباس عن الكبائر؟ قال: كل شيء عصى الله فيه فهو كبيرة.

وقد اختلف علماء الأصول والفروع في حد الكبيرة، فمن قائل: هي ما عليه حدٌ في الشرع. ومنهم من قال: هي ما عليه وعيد لخصوصه من الكتاب والسنة. وقيل غير ذلك.

قال أبو القاسم عبد الكريم بن محمد الرافعي، في كتابه «الشرح الكبير» في كتاب الشهادات منه: ثم اختلف الصحابة فمن بعدهم في الكبائر، وفي الفرق بينها وبين الصغائر؟ وللأصحاب في تفسير الكبيرة وجوه: أنها المعصية الموجبة للحد. والثاني: أنها المعصية التي يلحق صاحبها الوعيد الشديد بنص كتاب أو سنة. وهذا أكثر ما يوجد لهم، وهو إلى الأول أميل، لكن الثاني أوفق لما ذكروه عند تفصيل الكبائر. والثالث: قال إمام الحرمين في «الإرشاد» وغيره: كل جريمة تنبئ بقلّة اكتراث مرتكبها بالدين ورقة الديانة، فهي مبطلّة للعدالة. والرابع: ذكر القاضي أبو سعيد الهروي أن الكبيرة: كل فعلٍ نصّ الكتاب على تحريمه، وكل معصية توجب في جنسها حداً من قتل أو غيره، وترك كل فريضة مأمور بها على الفور، والكذب في الشهادة، والرواية، واليمين. هذا ما ذكروه على سبيل الضبط.

ثم قال: وفصل القاضي الروياني فقال: الكبائر سبع: قتل النفس بغير الحق، والزنا، واللواط، وشرب الخمر، والسرقه، وأخذ المال غصباً، والقذف. وزاد في «الشامل» على السبع المذكورة: شهادة الزور. وأضاف إليها صاحب العدة: أكل الربا، والإفطار في رمضان بلا عذر، واليمين الفاجرة، وقطع الرحم، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف، وأكل مال اليتيم، والخيانة في الكيل والوزن، وتقديم الصلاة على وقتها، وتأخيرها عن وقتها بلا عذر، وضرب المسلم بلا حق، والكذب على النبي ﷺ عمداً، وسب أصحابه، وكتمان الشهادة بلا عذر، وأخذ الرشوة، والقيادة بين الرجال والنساء، والسعاية عند السلطان، ومنع الزكاة، وترك الأمر

(١) الطبري (٩٢٣٠).

(٢) الطبري (٩٢٠٨) وإسناده وإسناد ابن أبي حاتم صحيحان.

بالمعروف والنهي عن المنكر مع القدرة، ونسيان القرآن بعد تعلمه، وإحراق الحيوان بالنار، وامتناع المرأة من زوجها بلا سبب، والياس من رحمة الله، والأمن من مكر الله، ويقال: الوقعة في أهل العلم وحملة القرآن. ومما يعد من الكبائر: الظهار، وأكل لحم الخنزير والميتة إلا عن ضرورة. ثم قال الرافعي: وللتوقف مجال في بعض هذه الخصال.

قلت : وقد صنف الناس في الكبائر مصنفات ، منها ما جمعه شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي ، بلغ نحو من سبعين كبيرة ، وإذا قيل : إن الكبيرة ما توعد عليها الشارع بالنار بخصوصها ، كما قال ابن عباس ، وغيره ، وتَّبِعَ ذلك ، اجتمع منه شيء كثير . وإذا قيل : كل ما نهى الله عنه - فكثير جداً ، والله أعلم (١) .

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يُكَلِّ شَيْءٌ عَلِيمًا ﴾



(١) « كتاب الكبائر » للحافظ الذهبي مطبوع بمصر ، سنة ١٣٥٦ ، في نحو ٢٤٠ صفحة . وطبعته كثيرة التحريف ، عن مخطوطات غير موثقة (*) . وقد أبلغ فيه عدد الكبائر إلى ٧٠ ، بكثير من التوسع والتساهل ، إن لم يكن من الغلو ، وقد قال في روائل الكتاب ، ص : ٧ - « والذي يتجه ويقوم عليه الدليل : أن من ارتكب شيئاً من هذه العظائم ، مما فيه حد في الدنيا ، كالقتل والزنا والسرقة ، أو جاء فيه وعيد في الآخرة ، من عذاب أو غضب أو تهديد ، أو لعن فاعله على لسان نبينا محمد ﷺ - فإنه كبيرة ، ولا بد من تسليم أن بعض الكبائر أكبر من بعض ، ألا ترى أنه ﷺ عد الشرك بالله من الكبائر ؟ مع أن مرتكبه مخلد في النار ولا يغفر له أبداً ، ومع هذا التوسع الشديد في تعريف الكبيرة - فإنه لم يتحرر فيما أورده صحة الأحاديث التي يستدل بها ! بل يذكر الضعيف والواهي الذي ضعفه لا يحتمل ، ويذكر أحاديث دون أن يعزوها أو يبين مخرجها أو درجتها ! خلافاً لما يظن برجل حافظ كبير مثله ، رحمه الله .

ثم جاء بعده بأكثر من ٢٠٠ سنة، ابن حجر الهيثمي المكي المصري - وهو غير الحافظ ابن حجر العسقلاني - فزاد غلواً وتوسعاً ، وصنع كتاباً كبيراً ، سماه « الزواجر عن اقتراف الكبائر » - بلغ فيه بعدد الكبائر إلى ٤٦٧ كبيرة ! كأنه أدخل كل منتهى عنه في تعريف الكبيرة !! وقد طبع هذا الكتاب مراراً بمصر ، وأول طبعاته - فيما أعلم - طبعة بولاق سنة ١٢٨٤ ، في نحو ٦٠٠ صفحة .

ولعل أقرب ما رأيت إلى التحقيق العلمي - في نظري - وهو ما صنع الحافظ ابن حجر في الفتح (١٦٠) ، إذ جمع كثيراً من الأحاديث في بيان الكبائر ، ثم حرر ما صنع فقال : « فهذا جميع ما وقفت عليه ، مما ورد التصريح بأنه من الكبائر أو من أكبر الكبائر ، صحيحاً وضعيفاً ، ومرفوعاً وموقوفاً ، وقد تتبعته غاية التبع ، وفي بعضه ما ورد خاصاً ويدخل في عموم غيره » ، ثم قال : « والمعتمد من كل ذلك ما ورد مرفوعاً بغير تداخل ، من وجه صحيح . وهي السبعة المذكورة في حديث الباب [يعني حديث أبي هريرة : اجتنبوا السبع الموبقات . وقد مضى في ص ٤٩٠] والانتقال عن الهجرة ، والزنا ، والسرقة ، والعقوق ، واليمين الغموس ، والإلحاد في الحرم ، وشرب الخمر ، وشهاد الزور ، والنميمة ، وترك التزهد من البول ، والغلول ، ونكث الصفة ، وفراق الجماعة ، فتلك عشرون خصلة ، وتفاوت مراتبها ، والمجمع على عده من ذلك أقوى من المختلف لا ما عضده القرآن أو الإجماع ، فيلتحق بما فوقه » .

(*) قمنا بفضل الله بتحقيقه على نسخة خطية بخط الحافظ الذهبي ، لتفادي هذه التحريفات ، ونحسب أنها أصح نسخة لهذا الكتاب . وقد نشرته دار الوفاء سنة ١٤١٨هـ / ١٩٩٨ م . (الباز) .

وروى الإمام أحمد عن أم سلمة أنها قالت : يا رسول الله ، تغزو الرجال ولا تغزو ، ولنا نصف الميراث؟ فأنزل الله : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ . ورواه الترمذى وقال : غريب . ورواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير ، وابن مردويه ، والحاكم (١) .

وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : أتت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت : يا نبي الله ، للذكر مثل حظ الأنثيين ، وشهادة امرأتين برجل ، أفنحن فى العمل هكذا ، إن عملت امرأة حسنة؟ كتبت لها نصف حسنة . فأنزل الله هذه الآية : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا﴾ ، «فإنه عدل منى ، وأنا صنعت» (٢) . وعن ابن عباس قال ولا يتمنى الرجل فيقول : «ليت أن لى مال فلان وأهله!» فهى الله عن ذلك ، ولكن ليسأل الله من فضله (٣) . وقال الحسن ومحمد بن سيرين وعطاء والضحاك نحو هذا ، وهو الظاهر من الآية ، ولا يرد على هذا ما ثبت فى الصحيح : «لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته فى الحق ، فيقول رجل : لو أن لى مثل ما لفلان لعملت مثله» (٤) . فهما فى الأجر سواء ، فإن هذا شئ غير ما نهى عنه الآية ، وذلك أن الحديث حص على تمنى مثل نعمة هذا ، والآية نهى عن تمنى عين نعمة هذا ، فقال : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أى : فى الأمور الدنيوية ، وكذا الدينية أيضا ، لحديث أم سلمة ، وابن عباس .

ثم قال : «لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ» أى : كل له جزاء على عمله بحسبه ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . وهو قول ابن جرير . وقيل : المراد بذلك فى الميراث ، أى : كل يرث بحسبه . رواه الترمذى عن ابن عباس .

ثم أرشدهم إلى ما يصلحهم فقال : ﴿وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ولا تمنوا ما فضلنا به بعضكم على بعض ، فإن هذا أمر محتوم ، أى : إن التمنى لا يجدى شيئا ، ولكن سلونى من فضلى أعطكم ؛ فإنى كريم وهاب . وقد روى الترمذى ، وابن مردويه عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «سلوا الله من فضله ؛ فإن الله يحب أن يسأل ، وإن أفضل العبادة انتظار الفرج» وروى ابن مردويه نحوه ، من حديث ابن عباس .

(١) المسند (٦ / ٣٢٢ حلى) . والترمذى (٤ / ٨٨) والحاكم (٢ / ٣٠٥ ، ٣٠٦) ورواه الطبرى (٩٢٣٦ ، ٩٢٣٧ ، ٩٢٤١) . وفصلنا تخريجه فى (٩٢٤١) ، وبيننا أنه حديث صحيح متصل .

وهذا الحديث يرد على الكذابين المقترين - فى عصرنا - الذين يحرضون على أن تشيع الفاحشة بين المؤمنين ، فيخرجون المرأة عن خدرها ، وعن صونها وسترها الذى أمر الله به ، فيدخلونها فى نظام الجند ، عارية الأذرع والأفخاذ ، بارزة المقدمة والمؤخرة ، مهتكة فاجرة !! يرمون بذلك - فى الحقيقة - إلى الترفيه الملعون عن الجنود الشبان ، المحرومين من النساء فى الجندية ، تشبها بفجور اليهود والإفرنج ، عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة . (٢) إسناد هذا الحديث عند ابن أبى حاتم إسناد صحيح . ولم أجده فى مصدر آخر ، ولم ينسبه السيوطى فى الدر المنثور (٢ / ١٤٩) لغير ابن أبى حاتم .

(٣) أثر ابن عباس - هذا - رواه الطبرى (٩٢٣٨) ، ورواه ابن المنذر وابن أبى حاتم كما فى الدر المنثور (٢ / ١٤٩) . (٤) من حديث رواه أحمد (١٠٢١٨ ، ١٠٢١٩) والبخارى (٩ / ٦٥ ، ٦٦ ، ١٣ / ٤١٩) كلاهما عن أبى هريرة ، وقوله هنا عقب الحديث : « فهما فى الأجر سواء » - صنيع الحافظ ابن كثير قد يوهم أنه من باقى الحديث . ولكن لم أجد هذه الكلمة فيما رأيت من رواياته .

ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أى: هو عليم بمن يستحق الدنيا فيعطيه منها، وبمن يستحق الفقر فيفقره، وعلیم بمن يستحق الآخرة فيقيضه لأعمالها، وبمن يستحق الخذلان فيخذله عن تعاطي الخير وأسبابه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيْبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ (١)

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر، وغيرهم: ﴿مَوَالِي﴾ أى: ورثة. وعن ابن عباس فى رواية: أى عَصَبَة. قال ابن جریر: والعرب تسمى ابن العم مولى، ويعنى بقوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾: من تركه والديه وأقربيه من الميراث، فتأويل الكلام: ولكلکم - أيها الناس - جعلنا عَصَبَة يرثونه مما ترك والداه وأقربوه من ميراثهم له.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ (١) أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيْبَهُمْ﴾ أى: والذين تحالفتم بالآيمان المؤكدة - أنتم وهم - فآتوهم نصيبهم من الميراث، كما وعدتموهم فى الآيمان المغلظة، إن الله شاهد بينكم فى تلك العهود والمعاقبات. وقد كان هذا فى ابتداء الإسلام، ثم نسخ بعد ذلك، وأمرُوا أن يوفوا لمن عاقدوا، ولا يَنْشِثُوا بعد نزول هذه الآية معاقدة. روى البخارى عن ابن عباس: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي﴾ قال: ورثة، ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجرون الأنصارى، دون ذوى رحمهم؛ للأخوة التى آخى النبى ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي﴾ نُسَخَتْ، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيْبَهُمْ﴾ من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث ويوصى له (٢). ورواه ابن أبى حاتم عن ابن عباس، بنحوه. وروى ابن أبى حاتم أيضا عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيْبَهُمْ﴾ فكان الرجل قبل الإسلام يعاقد الرجل، يقول: ترثنى وأرثك وكان الأحياء يتحالفون، فقال رسول الله ﷺ: «كُلُّ حِلْفٍ كَانَ فى الجاهلية أو عَقْدٌ أَدْرَكَهُ الإسلامُ، فلا يَزِيدُهُ الإسلامُ إلا شِدَّةً، ولا عَقْدٌ ولا حِلْفٌ فى الإسلام». فنسختها هذه الآية: ﴿وَأَوْثَرُوا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فى كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥] (٣). ثم قال: وروى عن سعيد بن المسيّب، ومجاهد، وعطاء، والحسن، وسعيد بن جبیر، وقتادة، وغيرهم: أنهم قالوا: هم الحلفاء. وروى أحمد وابن جرير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حِلْفَ فى الإسلام، وكلُّ حِلْفٍ كَانَ فى الجاهلية فلم يَزِدْهُ الإسلامُ إلا

(١) «عاقدت»: رسمت بالالف فى المخطوطتين - هنا وفى رأس الآية، وفيما يأتى. فهى القراءة التى أثبتتها الحافظ المؤلف. وفى قراءة حفص «عقدت» بدون الف، وهى قراءة عاصم وحزمة والكسائى. وبالألف قراءة باقى السبعة. وقال الطبرى (٨ / ٢٧٢): «إنهما قراءتان معروفتان مستفيضتان فى قراءة أمصار المسلمين، بمعنى واحد».

(٢) البخارى (٨ / ١٨٦، ١٨٧ فتح) ورواه الطبرى مقطعا (٩٢٧٥، ٩٢٧٧)، ولم يذكر فى آخر الثانية قوله: «ويوصى له».

(٣) إسناد ابن أبى حاتم إسناده صحيح. ونسبه السيوطى (٢ / ١٥٠) لابن المنذر أيضا.

شدة، وما يَسْرُئُ أن لى حُمَرَ النِّعَمِ وَأَنى نَقَضْتُ الحِلْفَ الذى كان فى دار النَّدْوَةِ» هذا لفظ ابن جرير (١). وروى ابن جرير عن عبد الرحمن بن عوف ، أن رسول الله ﷺ قال: «شهدتُ حِلْفَ الْمُطَبِّينَ، وأنا غُلَامٌ مع عُمُومَتى، فما أحب أن لى حُمَرَ النِّعَمِ وأنا أنكثُهُ». قال الزهرى: قال رسول الله ﷺ: «لم يُصِبِ الإسلامُ حِلْفًا إلا زاده شِدَّةً». قال: «ولا حِلْفٌ فى الإسلام». وقد ألف النبى ﷺ بين قريش والأنصار ورواه الإمام أحمد (٢). وروى الطبرى . عن قيس بن عاصم: أنه سأل النبى ﷺ عن الحلف قال: فقال: «ما كان من حِلْفٍ فى الجاهلية فَمَسَكُوا به، ولا حلف فى الإسلام» ورواه أحمد (٣). وروى الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حِلْفَ فى الإسلام، وأما حلف كان فى الجاهلية لم يَزِدْهُ الإسلامُ إلا شِدَّةً». ورواه مسلم وأبو داود والنسائى والطبرى (٤). فالصحيح أنهم كانوا فى ابتداء الإسلام يتوارثون بالحلف ، ثم نسخ وبقي تأثير الحلف بعد ذلك ، وإن كانوا قد أمروا أن يوفوا بالعقود والعهود، والحلف الذى كانوا قد تعاقده قبل ذلك تقدم فى حديث جبير بن مطعم وغيره من الصحابة: لا حلف فى الإسلام، وأما حلف كان فى الجاهلية لم يَزِدْهُ الإسلامُ إلا شدة. وهذا نص فى الرد على من ذهب إلى التوارث بالحلف اليوم، كما هو مذهب أبى حنيفة وأصحابه، ورواية عن أحمد بن حنبل.

والصحيح قول الجمهور ومالك والشافعى وأحمد فى المشهور عنه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي﴾ أى: ورثة من أقربائه من أبويه وأقربيه، هم يرثونه دون سائر الناس، كما ثبت فى الصحيحين، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أَلْحَقُوا الفَرائِضَ بأهلها، فما بَقِيَ فهو لأولى رَجُلٍ ذَكَرَ» أى: اقسمو الميراث على أصحاب الفرائض الذين ذكرهم الله فى آيتى الفرائض، فما بقى بعد ذلك فأعطوه العَصْبَةَ، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَاقَدْتَ أَيْمَانَكُمْ﴾ أى: قبل نزول هذه الآية ﴿فَأَتَوْهُمْ نَصِيحَهُمْ﴾ ، أى: من الميراث ، فأما حلف عُقِدَ بعد ذلك فلا تأثير له.

وقد قيل: إن هذه الآية نسخت الحلف فى المستقبل، وحكم الماضى أيضا، فلا توارث به. وعن على بن أبى طلحة عن ابن عباس: قوله: ﴿وَالَّذِينَ عَاقَدْتَ أَيْمَانَكُمْ﴾ قال: كان الرجل يعاقد الرجل، أيهما مات ورثه الآخر، فأنزل الله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَانِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ [الاحزاب: ٦]. يقول: إلا أن يوصوا لأوليائهم الذين عاقدوا وصية فهو لهم جائز من ثلث مال الميت، وذلك هو المعروف (٥).

(١) المسند (٢٩١١، ٤٦/٣٠) مختصرا . والطبرى (٩٢٨٩) مختصرا أيضا، و(٩٢٩٠) مطولا . وأسانيدهما صحيح.

(٢) الطبرى (٩٢٩٦) والمسند (١٦٥٥) .

(٣) الطبرى (٩٢٩٢) والمسند (٥/ ٦١ حلى) . وإسناداهما صحيحان .

(٤) المسند (١٦٨٣٢) ومسلم (٢٧٠/٢) والطبرى (٩٢٩٥) . وتفصيل تخريجه فيه .

(٥) رواه الطبرى (٩٢٦٨) . ونسبه السيوطى (١٤٩/٢ ، ١٥٠) أيضا لابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس فى الناسخ والنسخ وابن مردويه .

وهكذا نص غير واحد من السلف: أنها منسوخة بقوله: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾.

وقال سعيد بن جبير: ﴿فَاتَّوَهُمْ نَصِيْبُهُمْ﴾ أى: من الميراث. قال: وعاقده أبو بكر مولى فورثه. رواه ابن جرير. وقال ابن المسيب: نزلت هذه الآية فى الذين كانوا يتبنون رجلا غير أبنائهم، يورثونهم، فأنزل الله فيهم، فجعل لهم نصيبا فى الوصية، ورد الميراث إلى الموالى فى ذى الرحم والعصبة، وأبى الله للمدعين ميراثا ممن ادعاهم وتبناهم، ولكن جعل لهم نصيبا من الوصية. رواه ابن جرير.

وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿فَاتَّوَهُمْ نَصِيْبُهُمْ﴾ أى: من النصرة والنصيحة والمعونة، لا أن المراد: فاتوهم نصيبهم من الميراث - حتى تكون الآية منسوخة، ولا أن ذلك كان حكما ثم نسخ، بل إنما دلت الآية على الوفاء بالخلف المعقود على النصرة والنصيحة فقط، فهى محكمة لا منسوخة. وهذا الذى قاله فيه نظر، فإن من الخلف ما كان على المناصرة والمعاونة، ومنه ما كان على الإرث، كما حكاه غير واحد من السلف، وكما قال ابن عباس: كان المهاجرى يرث الأنصارى دون قراباته وذوى رحمه، حتى نسخ ذلك، فكيف يقول: إن هذه الآية محكمة غير منسوخة؟! والله أعلم^(١).

(١) انظر الطبرى (٨ / ٢٨٨ ، ٢٨٩) ، وتعليق أخى السيد محمود محمد شاكر . وقد احتج الطبرى لما ذهب إليه ، بأن الآية إذا اختلف أهل العلم : أم منسوخة هي أم غير منسوخة - لم يجز القضاء بالنسخ إلا « بحجة يجب التسليم لها » . ويريد بالحجة : ظاهر القرآن أو سنة صحيحة عن رسول الله ﷺ .

وهذا كلام صحيح سليم ، ولكن ألم يأت فى هذه الآية - بعينها - حجة على النسخ يجب التسليم لها ؟ بلى ، قد ورد : فإن الأحاديث الثلاثة عن ابن عباس ، التى روى أولها البخارى وابن أبى حاتم ، وروى ثانيها ابن أبى حاتم وابن المنذر ، وروى ثالثها الطبرى وغيره صريحت فى الإخبار عن النسخ ، والإخبار عما كان قبل نزول هذه الآية وقبل نزول آية سورة الأحزاب ، التى نصها : ﴿الَّذِينَ أُولُوا بِأَلْفَاظٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولَئِكَ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَقُولُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب : ٦] . ولم يكن كلام ابن عباس فى هذا اجتهدا من قبل نفسه وهو يحكى ما كان قبل نزول كل من الآيتين . ومثل هذا هو عند أهل العلم بالحديث من نوع الحديث المرفوع ، بل هو مرفوع فعلا ؛ لأنه يخبر عما كان على عهد رسول الله ﷺ من الأحكام ، وعما جد بعد ذلك فى عهده من أحكام آخر .

كل ما فى الأمر أن حديث ابن عباس - الأول - فيه شيء من الاختصار أو الاقتصار ، بينه التفصيل فى حديثه الآخرين . ولذلك قال الحافظ ابن حجر ، عند قول ابن عباس فى رواية البخارى : « فلما نزلت » ولكل جعلنا موالى « نسخت » - قال ابن حجر « هكذا وقع فى هذه الرواية : أن ناسخ ميراث الحليف هذه الآية . وروى الطبرى من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس ، قال : كان الرجل يعاقده الرجل ، فإذا مات ورثه الآخر ، فأنزل الله : ﴿ وَأُولَئِكَ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَقُولُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا ﴾ ، يقول : إلا أن توصوا لأوليائكم الذين قد عاقدتم . ومن طريق قتادة : كان الرجل يعاقده الرجل فى الجاهلية ، فيقول : دمسى دمك وترثنى وأرثك ، فلما جاء الإسلام أمروا أن يؤتوهم نصيبهم من الميراث ، وهو السدس ، ثم نسخ ذلك بالميراث فقال : ﴿ وَأُولَئِكَ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ . ومن طرق شتى عن جماعة من العلماء كذلك . وهذا هو المعتمد . ويحتمل أن يكون النسخ وقع مرتين : الأولى : حيث كان المعاهد يرث وحده دون العصبة ، فنزلت « ولكل » وهى آية الباب [يريد : الباب فى صحيح البخارى] ، =

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالَّذِينَ حَقِظْتَ إِلَيْهِمْ يَافِقُوا إِلَى اللَّهِ وَالَّذِينَ تَخَافُونَ سُوءَ مُرُورِهِمْ فَأَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَإِنْ أَنْفَقْتُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾

يقول تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ أى: الرجل قَيِّمٌ على المرأة، أى: هو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها ومؤدبها إذا عوجت. ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أى: لأن الرجال أفضل من النساء، والرجل خير من المرأة؛ ولهذا كانت النبوة مختصة بالرجال، وكذلك الملك الأعظم؛ لقوله ﷺ: «لَنْ يُفْلَحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ» رواه البخارى من حديث أبى بكره (١). وكذا منصب القضاء وغير ذلك. ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أى: من المهور والنفقات والكلف التى أوجبها الله عليهم لهن فى كتابه وسنة نبيه ﷺ، فالرجل أفضل من المرأة فى نفسه، وله الفضل عليها والإفضال، فناسب أن يكون قَيِّمًا عليها، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهَا دَرَجَةٌ وَاللَّهُ

= فصاروا جميعاً يرثون ، وعلى هذا يتنزل حديث ابن عباس . ثم نسخ ذلك آية الأحزاب ، وخص الميراث بالعصبة ، وبقي للمعاقد النصر والإرفاد ونحوها . وعلى هذا يتنزل بقية الآثار . وقد تعرض له ابن عباس فى حديثه أيضاً ، لكن لم يذكر الناسخ الثانى [يعنى فى رواية البخارى] ، ولا بد منه . وهذا تحقيق جيد رفيع من الحافظ ابن حجر . والناسخ الثانى ذكره ابن عباس أيضاً فى الروایتين الآخرين ، الداليتين على أن الرواية الأولى - رواية البخارى - فيها اختصار .

ثم إن ظاهر الآية يدل على ذلك أيضاً ، ولا يصح تأويلها على ما رجحه ابن جرير من أنها غير منسوخة . إذ هو يجعل معناها على المعنى الذى جاء فى رواية ابن عباس الأولى - رواية البخارى : « ثم قال » والذين عاقدت إيمانك فأتوهم نصيبهم » من النصر والرفادة والنصيحة . وهذا المعنى لا يصلح قط أن يناسب سياق الكلام ، ولا المعنى الوضعى للفظ العربى ، أعنى أنه لا يصلح أن يكون معنى سبق له الكلام ابتداء ، فما كان « النصر والرفادة والنصيحة » مما يدل عليها كلمة « نصيب » ، وإن دخلت تحت موضوعه بنحو من المجاز والتوسع ، أما أن تكون معنى أصلياً لكلمة « نصيب » فلا . انظر إلى السياق ، إذا كان اللفظ يدل على هذا المعنى فسيكون سياق الكلام : والذين حالفتموهم وعاهدتموهم فأتوهم نصيبهم من النصر والرفادة والنصيحة ! أهذا كلام يساق مساق الكلام الصحيح؟! وهل كانوا يقسمون بين الورثة - مما ترك الوالدان والأقربون - النصر والرفادة والنصيحة ، حتى يؤتوا أحلافهم نصيبهم منها؟!

إنى لا أشك أن حديث ابن عباس الأول - رواية البخارى - فيه شيء من الاختصار ، أبان عنه الروایتان الأخريان ، وهو الذى أشار إليه الحافظ ابن حجر بقوله فى آخر كلامه عن ذلك الحديث: « لكن لم يذكر الناسخ الثانى ، ولا بد منه » .

ويكون معنى حديث ابن عباس ، بما يجتمع من رواياته : أن قوله : « والذين عقدت إيمانك فأتوهم نصيبهم » يعنى نصيبهم من الميراث ، فجاءت آية الأحزاب : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أُولِيَانِكُمْ مَعْرُوفًا ﴾ فذهب الميراث ، وبقي أن يفعلوا لهم المعروف ، من الوصية ، « ومن النصر والرفادة والنصيحة » . وذلك هو المعروف الذى بقى لهم بعد ذهاب الميراث .

فقد أصاب ابن كثير ، وأخطأ ابن جرير ، رحمهما الله .

(١) البخارى (٨ / ٩٧ ، ٤٥ / ١٣ ، ٤٦) . ورواه أيضاً أحمد والترمذى والنسائى ، كما فى الفتح الكبير .

عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿البقرة: ٢٢٨﴾ (١).

وقوله: ﴿فَالصَّالِحَاتُ﴾ أى: من النساء ﴿قَانِتَاتٌ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: يعنى مطيعات لأزواجهن ﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ قال السدى وغيره: أى تحفظ زوجها فى غيبته فى نفسها وماله.
وقوله: ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ أى: المحفوظ من حفظه.

روى ابن جرير عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ النساءِ امرأةٌ إذا نظَرْتَ إليها سَرَّتَكَ، وإذا أَمَرَتْها أَطَاعَتْكَ، وإذا غَبَتْ عنها حَفَظْتَكَ فى نَفْسِها ومَالِها». ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ إلى آخرها. ورواه ابن أبى حاتم (٢).

وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن عوف قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صَلَّتْ المرأةُ حَمَسَها، وصامت شهرها، وحفظت فَرْجَها، وأطاعت زوجها، قِيلَ لها: ادْخُلِي الجنةَ من أىِّ الأبوابِ شِئْتَ». تفرد به أحمد (٣).

﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ أى: والنساء اللاتى تتخوفون أن ينشزن على أزواجهن. والنشوز: هو الارتفاع، فالمرأة الناشز: هى المرتفعة على زوجها، التاركة لأمره، الْمُعْرِضَةُ عنه، الْمُبْغِضَةُ له. فمتى ظهر له منها أمارات النشوز فليعظها وليخوفها عقابَ الله فى عصيانه، فإن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته، وحرم عليها معصيته لما له عليها من الفضل والإفضال. وقد قال رسول الله ﷺ: «لو كُنْتُ أَمْرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لِأَمْرِ الْمَرْأَةِ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِها، مِنْ عَظَمِ حَقِّها عَلَيْها» (٤) وروى البخارى، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ عَلَيْهِ، لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ». ورواه مسلم بمعناه (٥)؛ ولهذا

(١) أما النساء فى عصرنا، فقد ملاهن الكبر والغرور والطغيان، بما بث أعداؤنا المشركون والمستعمرون فى نفوسهن، بالتعليم المتهتك الفاسق. فزعمن لأنفسهن حق المساواة بالرجال فى كل شيء! فى ظاهر أمرهن، وهن على الحقيقة مستعليات طاغيات، يردن أن يحكمن الرجال فى الدار وخارج الدار، وأن يعتدين على التشريع الإسلامى، حتى فيما كان فيه النصوص الصريحة من الكتاب والسنة. بل يردن أن يكن حاكمات فعلا، يتولين من شؤون الرجال ما ليس لهن، وأن يخرجن على ما أمر الله به ورسوله. بل يكفرن بأن الرجال قوامون على النساء، ويكفرن بأنه «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»، حتى طمعن فى مناصب القضاء وغيرها، وساعدن الرجال الذين هم أشباه الرجال. ولم يخش هؤلاء ولا أولئك ما وراء ذلك من فساد وانهايار، ثم من سخط الله وشديد عقابه.

(٢) الطبرى (٩٣٢٨). ورواه أيضا الطيالسى فى مسنده، برقم (٢٣٢٥) ورواه أحمد مختصرا بنحوه، بدون ذكر تلاوة الآية (٧٤١٥). وكذلك رواه الحاكم (١٦١/٢) والنسائى (٧٢/٢).

(٣) المسند (١٦٦١).

(٤) هو بمعناه ثابت عن قيس بن سعد، عند أبى داود (٢١٤٠) والحاكم (١٨٧/٢) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبى. وعن أبى هريرة عند الترمذى (٢٠٣/٢، ٢٠٤). وعن عائشة، عند أحمد (٧٦/٦ حلى)، وابن ماجه (١٨٥٢). وعن معاذ، عند أحمد (٢٢٧/٥، ٢٢٨). وعن عبد الله بن أبى أوفى، عند أحمد (٣٨١/٤) وابن ماجه (١٨٥٣) وعند ابن حبان، كما فى زوائد ابن ماجه.

(٥) البخارى (٢٢٦/٦، ٢٥٨/٩ فتح) ومسلم (٤٠٩/١).

قال تعالى : ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ﴾ .

وقوله : ﴿وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ ابن عباس : الهجر : ألا يجامعها ، ويضاجعها على فراشها ويوليها ظهره . وكذا قال غير واحد ، وزاد آخرون - منهم : السدى ، والضحاك ، وعكرمة ولا يكلمها مع ذلك ولا يحدثها . وفي السنن والمسند عن معاوية بن حيدة القشيري أنه قال : يا رسول الله ، ما حق امرأة أهدنا عليه ؟ قال : «أن تطعمها إذا طَعِمْتَ ، وتكسوها إذا اكْتَسَيْتَ ، ولا تضرب الوجه ولا تقبح ، ولا تهجر إلا في البيت» (١) .

وقوله : ﴿وَأَضْرِبُوهُنَّ﴾ أى : إذا لم يرتدعن بالموعظة ولا بالهجران ، فلکم أن تضربوهن ضربا غير مبرح ، كما ثبت فى صحيح مسلم عن جابر عن النبى ﷺ : أنه قال فى حجة الوداع : «وَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ ، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَاظٌ ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَلَا يُؤْطِنَنَّ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ ، وَلَهُنَّ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ» (٢) . وكذا قال ابن عباس وغير واحد : ضربا غير مبرح . قال الحسن البصرى : يعنى غير مؤثر . قال الفقهاء : هو ألا يكسر فيها عضوا ولا يؤثر شيئا . ابن عباس : يهجرها فى المضجع ، فإن أقبلت وإلا فقد أذن الله لك أن تضربها ضربا غير مبرح ، ولا تكسر لها عظما ، فإن أقبلت وإلا فقد أحل الله لك منها الفدية . وعن إياس بن عبد الله بن أبى ذباب قال : قال النبى ﷺ : «لَا تُضْرِبُوا إِمَاءَ اللَّهِ» . فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال : ذثر النساء على أزواجهن . فرخص رسول الله ﷺ فى ضربهن ، فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشكون أزواجهن ، فقال رسول الله ﷺ : «لَقَدْ أَطَافَ بِآلِ مُحَمَّدٍ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ ، لَيْسَ أَوْلَتْكَ بِخِيَارِكُمْ» رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه (٣) . وروى الإمام أحمد عن الأشعث بن قيس ، قال : ضفتُ عمر ، فتناول امرأته فضربها ، وقال : يا أشعث ، احفظ عني ثلاثا حفظتهن عن رسول الله ﷺ : لَا تَسْأَلُ الرَّجُلَ فِيمَ ضَرَبَ امْرَأَتَهُ ، وَلَا تَنَّمِ إِلَّا عَلَى وِثْرِ ، ونسى الثالثة . وكذا رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه (٤) .

(١) هو جزء من حديث طويل رواه أحمد مطولا ومختصرا مرارا (٤ / ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤ / ٥ ، ٥ / ٥ حلى) وأبو داود (٢١٤٢ - ٢١٤٤) والطبرى (٩٣٧٢ - ٩٣٧٤) وتفصيل تخريجه فيه .

(٢) انظر : صحيح مسلم (١ / ٣٤٧) .

(٣) أبو داود (٢١٤٦) . ورواه البخارى فى الكبير (١ / ١ / ٤٤٠) موجزا بالإشارة ، فى ترجمة «إياس بن عبد الله ابن أبى ذباب» ، وقال : «ولا يعرف لإياس صحبة» يريد أنه يكون حديثا مرسلا ولكن جزم ابن أبى حاتم (١ / ٢٨٠) بأن له صحبة . وهو الذى رجحه الحافظ فى التهذيب «وأبو ذباب» بضم الذال المعجمة وياءين موحدين . ووقع فى المطبوعة «ذئاب» وهو تصحيف . وقوله : «ذثر النساء» - بفتح الذال المعجم وكسر الهمزة ، أى : نشزن عليهم واجترأ . قال الخطابى : «معناه سوء الخلق والجرأة على الأزواج . والذائر : المغتاز على خصمه ، المستعد للشر» .

(٤) المسند (١٢٢) وأبو داود (٢١٤٧) مختصرا ، ورواه أيضا الحاكم (٤ / ١٧٥) ، وذكر الخصلة الثالثة : «ولا تسأله عن يعتمد من إخوانه ولا يعتمدهم» وصححه ، ووافقه الذهبى .

وقوله : ﴿فَإِنْ أَطَعْتُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ أى : إذا أطاعت المرأة زوجها فى جميع ما يريد منها ، مما أباحه الله له منها ، فلا سبيل له عليها بعد ذلك ، وليس له ضربها ولا هجرانها .
وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب ، فإن الله العلى الكبير وليهن ، وهو منتقم من ظلمهن وبغى عليهن .

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾

ذكر الحال الأول ، وهو إذا كان النفور والنشوز من الزوجة ، ثم ذكر الحال الثانى وهو : إذا كان النفور من الزوجين ، فقال تعالى : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ . وقال الفقهاء : إذا وقع الشقاق بين الزوجين ، أسكنهما الحاكم إلى جنب ثقة ، ينظر فى أمرهما ، ويمنع الظالم منهما من الظلم ، فإن تفاقم أمرهما وطالت خصومتها ، بعث الحاكم ثقة من أهل المرأة ، وثقة من قوم الرجل ، ليجتمعا وينظرا فى أمرهما ، ويفعلا ما فيه المصلحة فيما يريانه من التفريق أو التوفيق . وتَشَوَّفُ الشارع إلى التوفيق ؛ ولهذا قال : ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ .

وقال ابن عباس : أمر الله ، عز وجل ، أن يبعثوا رجلا صالحا من أهل الرجل ، ورجلا مثله من أهل المرأة ، فينظران : أيهما المسئء ؟ فإن كان الرجل هو المسئء ، حجبا عنه امرأته وقصره على النفقة ، وإن كانت المرأة هى المسيئة ، قصروها على زوجها ومنعوها النفقة . فإن اجتمع رأيهما على أن يفرقا أو يجمعا ، فأمرهما جائز . فإن رأيا أن يجمعا ، فرضى أحد الزوجين وكره ذلك الآخر ، ثم مات أحدهما ، فإن الذى رضى يرث الذى كره ، ولا يرث الكاره الراضى . رواه ابن أبى حاتم وابن جرير (١) . وروى عبد الرزاق أن عَقِيل بن أبى طالب تزَوَّجَ فاطمة بنت عتبة ابن ربيعة فقالت : تصير لى وأنفق عليك . فكان إذا دخل عليها قالت : أين عتبة بن ربيعة وشيبة ابن ربيعة ؟ قال : على يسارك فى النار إذا دخلت ! فشدت عليها ثيابها فجاءت عثمان ، فذكرت له ذلك ، فضحك وأرسل ابن عباس ومعاوية ، فقال ابن عباس : لأفِرِّقَنَّ بينهما . فقال معاوية : ما كنت لأفرك بين شيخين من بنى عبد مناف ، فأتياهما فوجدهما قد أغلقا عليهما أبوابهما ، فرجعا (٢) . روى أيضا عن عبيدة قال : شهدت عليا وجاءته امرأة وزوجها ، مع كل واحد منهما فتأم من الناس ، فأخرج هؤلاء حكما وهؤلاء حكما ، فقال على للحكَمَيْنِ : أتدريان ما عليكما ؟ إن عليكما [إن رأيتما أن تفرقا فرقتما ، و [إن رأيتما أن تجمعا ، جمعتما . فقالت المرأة : رضيت بكتاب الله لى وعلى . وقال الزوج : أما الفرقة فلا . فقال على : كذبت ، والله لا تبرح

(١) الطبرى (٩٤١٨) . وقوله : « قصره » - بالصاد ، أى : ألزمه إياه قهرا . وأصلها من « القسر » السين .

وهما تبادلان كثيرا ، وانظر مثل ذلك فيما مضى عند تفسير الآيات (٥٥ - ٥٨) من سورة آل عمران .

(٢) ورواه الشافعى فى الام (١٧٧ / ٥) والبيهقى (٣٠٦ / ٧) ورواه الطبرى (٩٤٢٧) بنحوه مختصرا .

حتى ترضى بكتاب الله، عز وجل، لك وعليك. رواه ابن أبي حاتم، ورواه ابن جرير مثله^(١).
وهذا مذهب جمهور العلماء: أن الحكمين^(٢) إليهما الجمع والتفرقة، حتى قال إبراهيم النخعي: إن شاء الحكمان أن يفرقا بينهما بطلقة أو بطلقتين أو ثلاث فعلا. وهو رواية عن مالك.

وقال الحسن البصري: الحكمان يحكمان في الجمع ولا يحكمان في التفريق، وكذا قال قتادة، وزيد بن أسلم. وبه قال أحمد بن حنبل، وأبو ثور، وداد، وماخذهم قوله تعالى: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ ولم يذكر التفريق. وأما إذا كانا وكيلين من جهة الزوجين، فإنه يُنفَّذُ حكمهما في الجمع والتفرقة بلا خلاف.

وقد اختلف الأئمة في الحكمين: هل هما منصوبان من عند الحاكم، فيحكمان وإن لم يرض الزوجان؟ أو هما وكيلان من جهة الزوجين؟ على قولين: فالجمهور على الأول؛ لقوله تعالى: ﴿فَابْتَغُوا حُكْمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحُكْمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ فسامها حَكَمين، ومن شأن الحكم أن يحكم بغير رضا المحكوم عليه، وهذا ظاهر الآية، والجديد من مذهب الشافعي، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه. الثاني منهما: بقول على، رضى الله عنه، للزوج - حين قال: أما الفرقة فلا - فقال: كذبت، حتى تقر بما أقرت به، قالوا: فلو كانا حاكمين لما افتقر إلى إقرار الزوج، والله أعلم.

قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر: وأجمع العلماء على أن الحكمين - إذا اختلف قولهما - فلا عبرة بقول الآخر، وأجمعوا على أن قولهما نافذ في الجمع وإن لم يוכלهما الزوجان، واختلفوا: هل ينفذ قولهما في التفرقة؟ ثم حكى عن الجمهور: أنه ينفذ قولهما فيها أيضا.

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾

يأمر تعالى بعبادته وحده لا شريك له؛ فإنه هو الخالق الرازق المتفضل على خلقه في جميع الأنات والحالات، فهو المستحق منهم أن يوحدوه، ولا يشركوا به شيئا من مخلوقاته، كما قال النبي ﷺ لمعاذ: «أتدري ما حقُّ الله على العباد؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «أن يعبدوه ولا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»، ثم قال: «أتدري ما حقُّ العبادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟ أَلَا

(١) تفسير عبد الرزاق (ص ٤٢، ٤٣) والزيادة منه، وقد سقطت من المطبوعة والمخطوطتين خطأ. ورواه أيضا الشافعي في الأم (١٧٧/٥) والطبري (٩٤٠٧ - ٩٤٠٩) والبيهقي (٣٠٥/٧، ٣٠٦). وقال الشافعي (ص ١٧٨): «حديث على ثابت عندنا».

(٢) في المطبوعة: «وقد أجمع العلماء على أن الحكمين» - إلخ. وهو خطأ واضح، إذ سيحكي المؤلف الحافظ الخلاف في ذلك. وأثبتنا الصواب من المخطوطتين.

يُعَذِّبُهُمْ» (١). ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين، فإن الله، سبحانه، جعلهما سببا لخروجك من العدم إلى الوجود، وكثيرا ما يقرنُ الله، سبحانه، بين عبادته والإحسان إلى الوالدين، كقوله: ﴿إِنْ أَشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، وكقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

ثم عطف على الإحسان إلى الوالدين الإحسان إلى القرابات من الرجال والنساء، كما جاء في الحديث: «الصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ» (٢).

ثم قال: ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ وذلك لأنهم قد فقدوا من يقوم بمصالحهم، ومن ينفق عليهم، فأمر الله بالإحسان إليهم والحنو عليهم.

ثم قال: ﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾ وهم المحاويج من ذوى الحاجات الذين لا يجدون من يقوم بكفائتهم، فأمر الله سبحانه بمساعدتهم بما تتم به كفائتهم وتزول به ضرورتهم. وسيأتى الكلام على الفقير والمسكين فى سورة براءة (٣).

وقوله: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾. قال ابن عباس: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ يعنى: الذى بينك وبينه قرابة ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ الذى ليس بينك وبينه قرابة. وكذا روى عن عكرمة، ومجاهد، وقتادة وغيرهم. وقال نَوْفَ الْبِكَالَى فى قوله: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ يعنى: الجار المسلم ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ يعنى: اليهودى والنصرانى. رواه ابن أبى حاتم. وقد وردت الأحاديث بالوصايا بالجار (٤). فروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه». وأخرجه فى الصحيحين (٥). وروى أحمد أيضا عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن النبى ﷺ أنه قال: «خيرُ الأصحابِ عندَ الله خيرُهم لصاحبه، وخيرُ الجيرانِ عندَ الله خيرهم لجاره». ورواه الترمذى وقال حسن غريب (٦). وروى الإمام أحمد عن المقداد بن الأسود قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «ما تقولون فى الزنا؟» قالوا: حرمةُ الله ورسوله، هو حرام إلى يوم القيامة. فقال رسول الله ﷺ: «لأن يَزْنَى

(١) رواه البخارى (١٣ / ٣٠٠ فتح) ومسلم (١ / ٢٥ ، ٢٦) والترمذى (٣ / ٣٦٩) وابن ماجه (٤٢٩٦) كلهم من حديث معاذ بن جبل .

(٢) مضى عند تفسير الآيات : (١٧٤ - ١٧٦) من سورة البقرة تخريجه من المسند والترمذى والنسائى وابن ماجه - كلهم من حديث سلمان بن عامر .

(٣) عند الآية : (٦٠) منها .

(٤) ذكر المؤلف الحافظ هنا أحاديث كثيرة ، اكتفينا منها بما أثبتنا .

(٥) المسند (٥٥٧٧) . ورواه أحمد أيضا (٦٤٩٦) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص . ورواه أيضا من حديث أبى هريرة (٧٥١٤ ، ٨٠٣٢ ، ٩٧٤٤ ، ٩٩١٢ ، ١٠٦٨٦) .

(٦) المسند (٦٥٦٦) والترمذى (٣ / ١٢٩) ورواه الحاكم (١ / ٤٤٣ ، ١٠١ / ٢ ، ١٦٤ / ٤) وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى . وذكره المنذرى فى الترغيب (٣ / ٢٣٧ ، ٤٦ / ٤) ونسبه أيضا لابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهما .

الرَّجُلُ بَعَثَ نِسْوَةً، أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِهِ. قَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي السَّرَقَةِ؟ قَالُوا: حَرَّمَهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَهِيَ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. قَالَ: «لَأَنْ يَسْرِقَ الرَّجُلُ مِنْ عَشْرَةِ آيَاتٍ، أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ جَارِهِ». تفرد به أحمد^(١)، وله شاهد في الصحيحين من حديث ابن مسعود: قلت: يا رسول الله، أيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نَدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ». قلتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ». قلتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ»^(٢). وروى الإمام أحمد عن عائشة؛ أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت: «إِنْ لِي جَارَيْنِ، فَلِأَيِّ إِيْهِمَا أَهْدِي؟ قَالَ: «إِلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكَ أَبَا». ورواه البخاري.

وقوله: «وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ» عن علي وابن مسعود قالا: هي المرأة. وقال ابن أبي حاتم: وروى عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، النخعي، والحسن، وسعيد بن جبيرة - في إحدى الروايات - نحو ذلك. وقال ابن عباس وجماعة: هو الرفيق في السفر. وقال سعيد بن جبيرة: هو الرفيق الصالح. وقال زيد بن أسلم: هو جلسك في الحضر، ورفيقك في السفر.

وأما «ابن السبيل» فعن ابن عباس وجماعة هو: الضيف. وقال مجاهد وغيره: هو الذي يمر عليك مجتازاً في السفر. وهذا أظهر. وإن كان مراد القائل بالضيف: المار في الطريق، فهما سواء. وسيأتي الكلام على أبناء السبيل في سورة براءة، وبالله الثقة وعليه التكلان.

وقوله: «وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» وصية بالأرقاء؛ لأن الرفيق ضعيف الحيلة^(٣)، أسير في أيدي الناس، ولهذا ثبت أن رسول الله ﷺ جعل يُوصِي أُمَّتَهُ فِي مَرَضِ الْمَوْتِ يَقُولُ: «الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ». فجعل يُرَدِّدُهَا حَتَّى مَا يَفِيضُ بِهَا لِسَانَهُ^(٤). وروى الإمام أحمد عن المقدام ابن معد يكرب قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَطْعَمْتَ نَفْسَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، [وَمَا أَطْعَمْتَ وَلَدَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ]، وَمَا أَطْعَمْتَ زَوْجَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَطْعَمْتَ خَادِمَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ». ورواه النسائي، وإسناده صحيح، والله الحمد^(٥). وعن عبد الله بن عمرو أنه قال لِقَهْرْمَانَ لَهُ:

(١) المسند (٦ / ٨ حلى) . ورواه أيضا البخاري في الأدب المفرد ، رقم (١٠٣) وإسنادهما صحيحان . وذكره المنذرى في الترغيب (٣ / ٢٣٣) ونسبه لأحمد « ورواته ثقات » ، والطبراني في الكبير والأوسط . وفي الزوائد (٨ / ١٦٨) : « رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ وَالْأَوْسَطِ ، وَرَجَالُهُ ثَقَاتٌ » .
(٢) البخاري (٨ / ١٢٤ فتح) ، وفي مواضع كثيرة ، ومسلم (١ / ٣٦ ، ٣٧) . وقد مضى بأطول من هذا عند تفسير الآيات : (٢٩ - ٣١) من سورة النساء .

(٣) هكذا ثبت في المطبوعة . وفي المخطوطتين : « ضعيف الجنبه » - واضحة الرسم والنقط : بالجيم والنون والياء الموحدة ولم أستطع أن أجِدَ لها توجيهاً أو تصحيحاً . واتفق المخطوطتان عليها عجيب ! وقد تكون مصحفة عن « الحية » - بكسر الحاء المهملة بعدها ياء تحية ثم باء موحدة - وهى الهم والحزن . وهى أيضاً الحاجة والمسكنة ، ولكن توجيهاها فيه تكلف شديد وعسر . فرجحت إثبات ما فى المطبوعة ، لأنه واضح المعنى صحيحه .

(٤) من حديث رواه أحمد (١٢١٩٥) من حديث أنس . وذكره المؤلف الحافظ فى التاريخ (٥ / ٢٣٨) من رواية أحمد ، ونسبه أيضاً للنسائي وابن ماجه . وذكره بنحوه أيضاً (٢٣٨ ، ٢٣٩) من حديث أم سلمة . ونسبه ليعقوب بن سفيان والنسائي وابن ماجه .

(٥) المسند (١٧٢٤٥) . والزيادة منه .

هل أعطيت الرقيق قوتهم؟ قال: لا. قال: فانطلق فأعطهم؛ فإن رسول الله ﷺ قال: «كفى المرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوتهم». رواه مسلم^(١). وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «للمملوك طعامه وكسوته، ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق». رواه مسلم أيضاً^(٢). وعنه، عن النبي ﷺ قال: «إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه، فإن لم يجلسه معه، فليناوله لقمةً أو لقمتين أو أكلةً أو أكلتين، فإنه وكى حره وعلاجه». أخرجاه ولفظه للبخارى. وعن أبي ذر، عن النبي ﷺ قال: «هم إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه ما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم، فأعينوهم». أخرجاه^(٣).

وقوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً» أى: مختالاً فى نفسه، معجباً متكبراً، فخوراً على الناس، يرى أنه خير منهم، فهو فى نفسه كبير، وهو عند الله حقير، وعند الناس بغض.

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (٧) ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ (٨) ﴿وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ (٩)

يقول تعالى ذاماً للذين يبخلون بأموالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله به - من بر الوالدين، والإحسان إلى الأقارب واليتامى والمساكين، والجار ذى القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب، وابن السبيل، وما ملكت أيمانهم من الأرقاء - ولا يدفعون حق الله فيها، ويأمرون الناس بالبخل أيضاً. وقد قال رسول الله ﷺ: «وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ الْبُخْلِ؟»^(٤). وقال: «ياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقطعية فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا»^(٥).

وقوله: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فالبخيل جحود لنعمة الله، لا تظهر عليه ولا تبين، لا فى أكله ولا فى ملبسه، ولا فى إعطائه وبذله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ. وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات: ٦، ٧] أى: بحاله وشمائله، ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨] وقال

(١) صحيح مسلم (١/ ٢٧٤). وانظر المسند (٦٤٩٥، ٦٨٤٢).

(٢) مسلم (٢/ ٢١). ورواه أيضاً أحمد (٧٣٥٨، ٧٣٥٩).

(٣) «الحقول» - يفتح الحاء المعجمة والواو: حشم الرجل وأتباعه. وهو مأخوذ من «التحويل»: التملك. وقيل: من الرعاية. قاله ابن الأثير.

(٤) رواه البخارى فى الأدب المفرد (٢٩٦) مرفوعاً ضمن حديث عن جابر. ورواه الحاكم (٣/ ٢١٩) مرفوعاً ضمن حديث آخر عن أبى هريرة، ورواه البخارى فى الصحيح، ضمن حديث آخر موقوفاً على أبى بكر الصديق، من حديث جابر (٦/ ١٧٢، ٨/ ٧٥ فتح). وانظر الإصابة (١/ ١٥٥، ٤/ ٢٩٠، ٢٩١).

(٥) هو جزء من حديث طويل، رواه أحمد (٦٤٨٧) بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. وروى هذا الجزء أبو داود (١٦٩٨).

ها هنا : ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ، ولهذا توعدهم بقوله : ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ . والكفر هو الستر والتغطية ، فالبخيل يستر نعمة الله عليه ويكتمها ويجعلها ، فهو كافر لنعم الله عليه . وفى الحديث : «إن الله إذا أنعم نعمة على عبد أحب أن يظهر أثرها عليه» (١) . وفى الدعاء النبوى : «واجعلنا شاكرين لنعمتك ، مشنين بها ، قابليها وأتمها علينا» (٢) .

وقد حمل بعضُ السلف هذه الآية على بخل اليهود بإظهار العلم الذى عندهم ، من صفة النبى ﷺ وكتمانهم ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ . رواه ابن إسحاق عن ابن عباس . وقاله مجاهد وغير واحد .

ولا شك أن الآية محتملة لذلك ، والظاهر أن السياق فى البخل بالمال ، وإن كان البخل بالعلم داخلا فى ذلك بطريق الأولى ؛ فإن سياق الكلام فى الإنفاق على الأقارب والضعفاء ، وكذا الآية التى بعدها ، وهى قوله : ﴿وَالَّذِينَ يُتَّقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ فذكر المسكين المذمومين وهم البخلاء ، ثم ذكر الباذلين المرائين الذين يقصدون بإعطائهم السمعة وأن يمدحوا بالكرم ، ولا يريدون بذلك وجه الله ، وفى الحديث الذى فيه الثلاثة الذين هم أول من تُسَجَّرُ بهم النار ، وهم : العالم والغزى والمنفق ، المراءون بأعمالهم ، يقول صاحب المال : ما تركت من شيء تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت فى سبيلك . فيقول الله : كذبت ؛ إنما أردت أن يقال : جواد فقد قيل (٣) . أى : فقد أخذت جزاءك فى الدنيا وهو الذى أردت بفعلك . وفى الحديث : أن رسول الله ﷺ قال لعدي : «إن أباك أراد أمراً فبلغه» (٤) . وفى حديث آخر : أن رسول الله ﷺ سئل عن عبد الله بن جُدعان : هل ينفعه إنفاقه ، وإعتاقه ؟ فقال : «لا ، إنه لم يقل يوماً من الدهر : رب اغفر لى خطيئتي يوم الدين» (٥) .

ولهذا قال : ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية ، أى : إنما حملهم على صنيعهم هذا القبيح وعدولهم عن فعل الطاعة على وجهها الشيطان ؛ فإنه سَوَّلَ لهم وأملى لهم ، وقارنهم فحسَنَ لهم القَبائح ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا قَرِينًا﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ أى : وأى شيء

(١) معناه ثابت صحيح من حديث عبد الله بن عمرو ، فى المسند (٦٧٠٨) . والترمذى (٢٥ / ٤) والحاكم (١٣٥ / ٤) . ورواه أحمد والطبرانى والبيهقى ، من حديث عمران بن حصين . قال فى الزوائد (١٣٢ / ٥) : « ورجال أحمد ثقات » .

(٢) من الدعاء المشهور بعد التشهد . رواه أبو داود (٩٦٩) . وذكره المنذرى أنه رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه ، وصححه الترمذى .

(٣) من حديث طويل عن أبى هريرة ، رواه مسلم والترمذى والنسائى وابن حبان . انظر : الترغيب (١ / ٢٩) .

(٤) من حديث رواه أحمد فى المسند (٣٧٩ / ٤) حلى : بلفظ : « قلت : يا رسول الله ، إن أبى كان يصل الرحم ويفعل ويفعل ، فهل له فى ذلك ، يعنى من أجر ؟ قال : إن أبال طلب أمراً فأصابه » . ورواه قبل ذلك (ص ٢٥٨) ، وأسانيده صحاح .

(٥) مضى عند تفسير الآيتين : (٩٠ ، ٩١) من سورة آل عمران وأنه رواه أحمد ومسلم من حديث عائشة .

يكرههم لو سلكوا الطريق الحميدة، وعدّلوا عن الرياء إلى الإخلاص والإيمان بالله، رجاء موعوده في الدار الآخرة لمن أحسن عملاً، وأنفقوا مما رزقهم الله في الوجوه التي يحبها الله ويرضاها ؟

وقوله : ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ أي : وهو عليم بنياتهم الصالحة والفاصلة، وعليم بمن يستحق التوفيق منهم ، فيوفقه ويلهمه رشده ويقضيه لعمل صالح يرضى به عنه، وبمن يستحق الخذلان والطرده عن جنبه الأعظم الإلهي، الذي من طُرِدَ عن بابه، فقد خاب وخسرَ في الدنيا والآخرة، عياذاً بالله من ذلك .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَعْفُهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾
 ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ
 يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ سَوَّيْنَاهُمُ الْأَرْضَ لَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾

يخبر تعالى أنه لا يظلم عبداً من عباده يوم القيامة مثقال حبة خردل ولا مثقال ذرة، بل يوفيها ويضاعفها له إن كانت حسنة، كما قال تعالى : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الانباء : ٤٧] وقال تعالى مخبراً عن لقمان أنه قال : ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَفَرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان : ١٦] . وقال تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ يُصَدِّرُ النَّاسَ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ . فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ . وفي الصحيحين، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة الطويل، وفيه : فيقول الله عز وجل : «ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان، فأخرجوه من النار - وفي لفظ: أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار - فيخرجون خلقاً كثيراً » ثم يقول أبو سعيد : اقرؤوا إن شئتم : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآية (١) . وروى أحمد عن أبي عثمان النهدي قال : أتيت أبا هريرة فقلت له : بلغني أنك تقول : إن الحسنة تضاعف ألف ألف حسنة؟ قال : وما أعجبك من ذلك؟ فوالله لقد سمعت النبي ﷺ يقول : «إن الله ليضاعف الحسنة ألفي ألف حسنة» ورواه ابن أبي حاتم (٢) .

وقوله : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ . يقول تعالى - مخبراً عن هول يوم القيامة وشدة أمره وشأنه : فكيف يكون الأمر والحال يوم القيامة حين يجيء من كل أمة بشهيد - يعني الأنبياء عليهم السلام؟ كما قال تعالى : ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر : ٦٩] . وقال تعالى : ﴿يَوْمَ نَبِّئُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى

(١) انظر المسند (١١١٤٤ ، ١١٩٢٢) والبخارى (١٣ / ٣٥٨ - ٣٦١ فتح) ومسلم (١ / ٦٦ ، ٦٧) . وتفصيل تخريجه في الطبري (٩٥٠٦ ، ٩٥٠٧) .

(٢) مضى هذا الحديث وتخريجه عند تفسير الآيات : (٢٤٣ - ٢٤٥) من سورة البقرة ، وأشرنا إلى هذا الموضع هناك .

لِلْمُسْلِمِينَ» [النحل: ٨٩]. وروى البخارى عن عبد الله بن مسعود قال: قال لى رسول الله ﷺ: «اقرأ على» قلت: يا رسول الله، اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «نعم، إني أحب أن أسمع من غيرى» فقرأت سورة النساء، حتى أتيت إلى هذه الآية: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا» قال: «حسبك الآن» فإذا عينا تَذَرِفَان. ورواه أحمد ومسلم أيضاً. وقد روى من طرق متعددة عن ابن مسعود، فهو مقطوع به عنه (١). وروى ابن أبى حاتم عن فضيل بن سليمان، حدثنا يونس بن محمد بن فضالة الأنصارى، عن أبيه - قال: وكان أبى ممن صحب النبى ﷺ: أن النبى ﷺ أتاهم فى بنى ظفر، فجلس على الصخرة التى فى بنى ظفر اليوم، ومعه ابن مسعود ومعاذ بن جبل وناس من أصحابه، فأمر النبى ﷺ قارئاً فقراً، فأتى على هذه الآية: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا». فبكى رسول الله ﷺ حتى اضطرب لحياه وجنباه، فقال: «يا رب، هذا شهدت على من أنا بين ظهريه، فكيف بمن لم أراه؟» (٢). وروى ابن جرير عن عبد الله - هو ابن مسعود - «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ» قال: قال رسول الله ﷺ: «شاهد عليهم ما دمت فيهم، فإذا توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم» (٣).

وقوله: «يَوْمَئِذٍ يُوَدِّعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَا الرَّسُولُ لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ» أى: لو انشقت وبلعتهم، مما يرون من أحوال الموقف، وما يحل بهم من الخزي والفضيحة والتوبيخ، كقوله: «يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا» [النبا: ٤٠].

وقوله: «وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا» أخبر عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه، ولا يكتُمون منه شيئاً. وروى ابن جرير عن سعيد بن جبيرة قال: جاء رجل ابن عباس فقال: سمعتُ الله، عز وجل، يقول - يعنى إخباراً عن المشركين يوم القيامة أنهم قالوا -: «وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ» [الأنعام: ٢٣]، وقال فى الآية الأخرى: «وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا»؟ فقال ابنُ العباس: أما قوله: «وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ» - فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهلُ الإسلام قالوا: تعالوا فلنُجِدْ، فقالوا: «وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ». فحتم الله على أفواههم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم «وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا» (٤).

(١) البخارى (٩ / ٨١ فتح) والمسند (٣٥٥٠، ٣٥٥١، ٣٦٠٦، ٤١١٨) وانظر: الطبرى (٩٥١٩).

(٢) إسناده ابن أبى حاتم إسناده صحيح. وكذلك رواه البخارى فى التاريخ الكبير (١ / ١ / ١٦) موجزاً، كعادته، بإسناده صحيح. وذكر الحافظ فى الإصابة (٦ / ٥٠) أنه رواه أيضاً البغوى وابن شاهين عن البغوى و«محمد بن فضالة»: هو «محمد بن أنس بن فضالة» على الصحيح الذى جرى عليه البخارى ورجحه الحافظ. ورواه ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل (٣ / ٢٠٧) فجعلهما اثنين.

(٣) الطبرى (٩٥١٨). وإسناده صحيح.

(٤) الطبرى (٩٥٢٠). وإسناده صحيح. ورواه بعد ذلك: (٩٥٢١، ٩٥٢٢) بإسنادين آخرين بمعناه. وذكرهما ابن كثير هنا، فاكفينا بهذا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْمَاءِ بِغُلَامٍ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن فعل الصلاة في حال السكر، الذى لا يدرى معه المصلى ما يقول، وعن قربان محلها - وهى المساجد - للجنب، إلا أن يكون مجتازا من باب إلى باب من غير مكث . وقد كان هذا قبل تحريم الخمر، كما دل الحديث الذى ذكرناه فى سورة البقرة، عند قوله : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ الآية [البقرة: ٢١٩]؛ فإن رسول الله ﷺ تلاها على عمر، فقال: اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا. فلما نزلت هذه الآية، تلاها عليه، فقال: اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا. فكانوا لا يشربون الخمر فى أوقات الصلوات حتى نزلت : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ إلى قوله : ﴿فَقُلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١] فقال عمر: انتهينا، انتهينا (١). وفى رواية أبى داود زيادة : فكان نادى رسول الله ﷺ إذا قامت الصلاة ينادى: ألا يَقْرِنُ الصَّلَاةَ سكران. لفظ أبى داود. وذكروا فى سبب نزول هذه الآية : ما رواه ابن أبى حاتم عن سعد قال: نزلت فى أربع آيات: صنع رجل من الأنصار طعاما، فدعا أناسا من المهاجرين وأناسا من الأنصار، فاكلنا وشربنا حتى سكرنا، ثم افتخرنا، فرفع رجل لحى بغير ففزر به أنف سعد، فكان سعد مَفْزُور الأنف، وذلك قبل أن تحرم الخمر، فنزلت : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ﴾ الآية. والحديث بطوله عند مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجه (٢).

سبب آخر: روى ابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما، فدعانا وسقانا من الخمر، فأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة فقدموا فلاناً - قال: فقرا: قل يا أيها الكافرون، ما أعبد ما تعبدون، ونحن نعبد ما تعبدون!! . فأنزل الله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ ورواه الترمذى، وقال: حسن صحيح.

وقد رواه ابن جرير عن على؛ أنه كان هو وعبد الرحمن ورجل آخر شربوا الخمر، فصلى

(١) مضى عند تفسير الآيتين : (٢١٩ ، ٢٢٠) من سورة البقرة .

(٢) هو جزء من حديث مطول . وابن أبى حاتم رواه من طريق الطيالسى . وهو فى مسند الطيالسى (٢٠٨) وفيه : أن هذه الحادثة سبب نزول آية ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ﴾ ، وسبب نزول الآية الأخرى ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ ولكن رواية أحمد فى المسند (١٥٦٧ ، ١٦١٤) ومسلم (٢٣٩/ ٢ ، ٢٤٠) فيهما الاختصار على الآية الثانية فقط . و«لحى البعير» : هو العظم الذى تنبت فيه الأسنان . وقوله : «فزر أنفه» - بالفاء والزى وآخره راء : أى شقه ، و«المفزور» المشقوق .

بهم عبد الرحمن فقرأ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ فخلط فيها، فنزلت: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾. رواه أبو داود والنسائي^(١).

وقال الضحَّاكُ فى الآية: لم يعن بها سُكْرَ الخمر، إنما عنى بها سُكْرُ النوم !. رواه ابن جرير وابن أبى حاتم.

ثم قال ابن جرير: والصواب: أن المراد سُكْرُ الشراب. قال: ولم يتوجه النهى إلى السُّكران الذى لا يفهم الخطاب؛ لأن ذاك فى حكم المجنون، وإنما خُوطِبَ بالنهى الثَّمَل الذى يفهم التكليف.

هذا حاصل ما قاله. وقد ذكره غير واحد من الأصوليين، وهو أن الخطاب يتوجه إلى من يفهم الكلام، دون السكران الذى لا يدرك ما يقال له؛ فإن الفهم شرط التكليف. وقد يحتمل أن يكون المراد التعريض بالنهى عن السُّكْر بالكلية؛ لكونهم مأمورين بالصلاة فى الخمسة الأوقات من الليل والنهار، فلا يتمكن شارب الخمر من أداء الصلاة فى أوقاتها دائماً، والله أعلم. وعلى هذا فيكون كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وهو الأمر لهم بالتأهب للموت على الإسلام والمداومة على الطاعة لأجل ذلك.

وقوله: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ هذا أحسن ما يقال فى حد السكران: أنه الذى لا يدرك ما يقول، فإن المخدور فيه تخطيط فى القراءة وعدم تدبره وخشوعه فيها، وقد روى الإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نعى أحدكم وهو يصلى، فليصرف ولينم حتى يعلم ما يقول». انفرد بإخراجه البخارى دون مسلم، ورواه النسائي^(٢) وفى بعض ألفاظ الحديث: فلعله يذهب يستغفر فيسب نفسه^(٣).

وقوله: ﴿وَلَا جُنَا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾. روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: لا تدخلوا المسجد وأنتم جنب إلا عابري سبيل، قال: تمر به مرأً ولا تجلس. ثم قال: وروى عن عبد الله بن مسعود، وأنس، وسعيد بن المسيب، ومجاهد، وقتادة، نحو ذلك. وروى ابن جرير عن يزيد بن أبى حبيب عن قول الله عز وجل: ﴿وَلَا جُنَا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾: أن رجلاً من الأنصار كانت أبوابهم فى المسجد، فكانت تصيبهم جنابة ولا ماء عندهم، فيريدون الماء، ولا يجدون مراً إلا فى المسجد، فأنزل الله: ﴿وَلَا جُنَا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾^(٤).

(١) الطبرى (٩٥٢٤).

(٢) هذا هو الثابت فى الطبوعة. وفى المخطوطتين: «انفرد بإخراجه مسلم». وهو خطأ يقيناً. فإن الحديث رواه البخارى (٢٧٢/١ فتح) بنحوه. ولم يروه مسلم على الجزم. وقد صرح الحافظ فى الفتح (٣٠٩/١) بذلك. والحديث فى المسند (١٢٤٧٣، ١٢٥٤٧). ورواه أيضاً بإسنادين آخرين (١١٩٩٦، ١٣١٤٦).

(٣) لم أجد هذا اللفظ من حديث أنس، بل هو جزء من حديث عائشة، رواه البخارى (٢٧١/١ فتح) ومسلم (٢١٨/١).

(٤) الطبرى (٩٥٦٧). وهذا حديث مرسل؛ لأن يزيد بن أبى حبيب تابعى. ولم أجدّه موصولاً. وذكره السيوطى (١٦٦ / ٢)، ولم ينسبه لغير الطبرى.

ويشهد لصحة ما قاله يزيد بن أبي حبيب، رحمه الله، ما ثبت في صحيح البخارى: أن رسول الله ﷺ قال: «سُدُّوا كُلَّ خَوْخَةٍ فِي الْمَسْجِدِ إِلَّا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ». وهذا قاله في آخر حياته ﷺ، علما منه أن أبا بكر، سبلى الأمر بعده، ويحتاج إلى الدخول في المسجد كثيرا للأمر المهمة فيما يصلح للمسلمين، فأمر بسد الأبواب الشارعة إلى المسجد إلا بابه، رضى الله عنه. ومن روى: «إِلَّا بَابَ عَلِيٍّ» كما وقع في بعض السنن، فهو خطأ، والصحيح ما ثبت في الصحيح. ومن هذه الآية احتج كثير من الأئمة على أنه يحرم على الجنب اللبث في المسجد، ويجوز له المرور، وكذا الحائض والنفساء أيضاً في معناه؛ إلا أن بعضهم قال: يمنع مرورهما لاحتمال التلويث. ومنهم من قال: إن أمنت كل واحدة منهما التلويث في حال المرور جاز لهما المرور وإلا فلا. وقد ثبت في صحيح مسلم عن عائشة، قالت: قال لى رسول الله ﷺ: «ناولينى الخُمرة من المسجد» فقلت: إني حائض. فقال: «إِنْ حَيْضَتُكَ لَيْسَتْ فِي يَدِكَ». وله عن أبي هريرة مثله. وفيه دلالة على جواز مرور الحائض في المسجد، والنفساء في معناها، والله أعلم. وروى ابن أبي حاتم عن علي: «وَلَا جَنَابًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ». قال: لا يقرب الصلاة، إلا أن يكون مسافرا تصيبه الجنابة، فلا يجد الماء فيصلى حتى يجد الماء (١). قال: وروى عن ابن عباس في إحدى الروايات، وسعيد بن جبیر، والضَّحَّاك، نحو ذلك. وقد روى ابن جرير معناه عن علي وعن ابن عباس. ويُستشهد لهذا القول بالحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «الصَّعِيدُ الطَّيِّبُ طَهُورٌ مُسْلِمٌ، وَإِنْ لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ عَشْرَ حَجَجٍ، فَإِذَا وَجَدَ الْمَاءَ فَاْمْسَسْهُ بِشِرْكَ فَإِنْ ذَلِكَ خَيْرٌ» (٢).

ثم قال ابن جرير - بعد حكايته القولين -: «وَالأَوَّلَى قول من قال: «وَلَا جَنَابًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ»: إلا مجتازى طريق فيه. وذلك أنه قد بين حكم المسافر إذا عدم الماء وهو جنب في قوله: «وَلَوْ أَنَّ كُنْتُمْ مُرَضًى أَوْ عَلَى سَفَرٍ» [المائدة: ٦٦] إلى آخره. فكان معلوما بذلك أن قوله: «وَلَا جَنَابًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا» لو كان معنيا به المسافر، لم يكن لإعادة ذكره في قوله: «وَلَوْ أَنَّ كُنْتُمْ مُرَضًى أَوْ عَلَى سَفَرٍ» - معنى مفهوم، وقد مضى ذكر حكمه قبل ذلك؛ فإذا كان ذلك كذلك، فتاويل الآية: يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا المساجد للصلاة مصلين فيها وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون، ولا تقربوها أيضا جنبا حتى تغتسلوا، إلا عابري سبيل. قال: والعابر السبيل: المجتاز مرًا وقطعا. يقال منه: عبرت هذا الطريق فأنا أعبره عبرا وعبورا» ومنه قيل: «عبر فلان النهر» إذا قطعه وجاوزه. ومنه يقال للناقة القوية على الأسفار: هي عَبرُ أسفار؛

(١) ورواه الطبري عن علي، بنحوه (٩٥٣٧، ٩٥٤٠). وقوله: «فيصلى حتى يجد الماء» - يعنى: فيتيمم ويصلى، كما هو واضح، وكما يدل عليه روايتنا الطبرى.

(٢) هو حديث صحيح. ورواه الحاكم أيضا وصححه (١٧٦/ ١، ١٧٧). وقد فصلنا القول في تخريجه وتصحيحه في شرحنا للترمذى، رقم (١٢٤) ورواه أيضا البزار من حديث أبي هريرة، كما سيأتى. وروى معناه الطبرانى في الأوسط، في قصة لأبى ذر، من حديث أبي هريرة أيضا. وذكره الهيثمى (٢٦١/ ١) وقال: «ورجاله رجال الصحيح».

لقوتها على قطع الأسفار.

وهذا الذى نصره هو قول الجمهور، وهو الظاهر من الآية، وكأنه تعالى نهى عن تعاطى الصلاة على هيئة ناقصة تناقض مقصودها، وعن الدخول إلى محلها على هيئة ناقصة، وهى الجنابة المباعدة للصلاة ولمحلها أيضا، والله أعلم.

وقوله: ﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ دليل لما ذهب إليه الأئمة الثلاثة - أبو حنيفة ومالك والشافعى: أنه يحرم على الجنب المكث فى المسجد حتى يغتسل أو يتيمم، إن عدم الماء، أو لم يقدر على استعماله بطريقه. وذهب الإمام أحمد إلى أنه متى توضأ الجنب جاز له المكث فى المسجد، لما روى هو وسعيد بن منصور فى سننه بسند صحيح على شرط مسلم: أن الصحابة كانوا يفعلون ذلك (١).

وقوله: ﴿وَأَنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أما المرض المبيح للتيمم: فهو الذى يخاف معه من استعمال الماء فوات عضو أو شئنه أو تطويل البرء. ومن العلماء من جَوَزَ التيمم بمجرد المرض لعموم الآية. والسفر معروف، ولا فرق فيه بين الطويل والقصير.

﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ الغائط: هو المكان المظلم من الأرض، كنى بذلك عن التغوط، وهو الحدث الأصغر.

وأما قوله: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ فقرأ: «لَمَسْتُمْ» و«لامستم» واختلف المفسرون والأئمة فى معنى ذلك، على قولين: أحدهما: أن ذلك كناية عن الجماع، لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَلْقَوْهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ تَلَقَّيْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْدُونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩]. روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ قال: الجماع (٢). وروى عن على، وأبى بن كعب والشعبي، وقتادة، وغيرهم - نحو ذلك. وروى ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: ذكروا اللمس، فقال ناس من الموالى: ليس بالجماع. وقال ناس من العرب: اللمس الجماع. قال: فلقيت ابن عباس فقلت له: إن ناسا من الموالى والعرب اختلفوا فى اللمس، فقالت الموالى: ليس بالجماع. وقالت العرب: الجماع. قال: فمن أى الفريقين كنت؟ قلت: كنت من الموالى. قال: غلب فريق الموالى. إن المس واللمس والمباشرة: الجماع، ولكن الله يكنى ما شاء بما شاء (٣).

ثم رواه ابن جرير عن بعض من حكاه ابن أبى حاتم عنهم. ثم قال ابن جرير: وقال

(١) ولكن هذا من فعل بعض الصحابة، اجتهاداً منهم وتأولا. فهو أثر موقوف عليهم. وهو يخالف نص الآية على المعنى الصحيح الذى رجحه الطبرى، وارتضاه الحافظ ابن كثير. فلا حجة لقول الصحابى أو عمله إذا خالف النص من الكتاب أو السنة، ويكون منه اجتهاد يعذر صاحبه، ولكن لا يكون حجة على أحد.

(٢) إسناده ابن أبى حاتم إسناده صحيح. (٣) الطبرى (٩٥٨١، ٩٥٨٢) بإسنادين صحيحين.

آخرون: عنى الله تعالى بذلك كل من لمس، بيد أو بغيرها من أعضاء الإنسان، وأوجبوا الوضوء على كل من مس بشيء من جسده شيئاً من جسده مفضياً إليه. ثم روى عن عبد الله ابن مسعود قال: اللمس ما دون الجماع^(١). وقد روى من طرق متعددة عن ابن مسعود بمثله. قال ابن أبي حاتم: وروى عن ابن عمر، وعبيدة، وأبى عثمان النهدي وأبى عبيدة - يعنى ابن عبد الله بن مسعود - وعامر والشَّعْبِي، وغيرهم - نحو ذلك. وروى ابن جرير : أن ابن عمر كان يتوضأ من قبله المرأة ، ويرى فيها الوضوء ، ويقول : هى من اللماس^(٢).

قلت: وروى مالك، عن الزهري، عن سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه أنه كان يقول: قبله الرجل امرأته وجسده بيده من الملامسة، فمن قبل امرأته أو جسدها بيده، فعليه الوضوء^(٣).

والقول بوجوب الوضوء من المس هو قول الشافعى وأصحابه ومالك والمشهور عن أحمد ابن حنبل، رحمهم الله. قال ناصروه: قد قرئ فى هذه الآية ﴿لَا مَسَّكُمْ﴾ و﴿لَسْتُمْ﴾، واللمس يطلق فى الشرع على الجلوس باليد قال تعالى : ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٧]، أى جسوه. وقال ﷺ لما عَزَّ - حين أقر بالزنا يُعرض له بالرجوع عن الإقرار : «لعلك قبلت أو لمست». وفى الحديث الصحيح: «واليد زناها للمس». وقالت عائشة، قَلَّ يوم إلا ورسول الله ﷺ يطوف علينا، فيقبل ويلمس. ومنه ما ثبت فى الصحيحين: أنه ﷺ نهى عن بيع الملامسة. وهو يرجع إلى الجلوس باليد على كلا التفسيرين، قالوا: ويطلق فى اللغة على الجلوس باليد، كما يطلق على الجماع .

واستأنسوا أيضا بالحديث الذى رواه أحمد عن عبد الرحمن ابن أبى ليلى، عن معاذ قال: أتى رسول الله ﷺ رجلٌ فقال: يا رسول الله، ما تقول فى رجل لقي امرأة لا يعرفها، فليس يأتى الرجل من امرأته شيئاً إلا قد أتاها منها، غير أنه لم يجامعها؟ قال: فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤] قال: فقال له رسول الله ﷺ: «توضئه ثم صل». قال معاذ: فقلت: يا رسول الله، أله خاصة أم للمؤمنين عامة؟ قال: «بل للمؤمنين عامة». ورواه الترمذى ، وقال: ليس بمتمصل. ورواه النسائى عن عبد الرحمن بن أبى ليلى مرسلًا. قالوا: فأمره بالوضوء؛ لأنه لمس المرأة ولم يجامعها. وأجيب : بأنه منقطع بين أبى ليلى ومعاذ، فإنه لم يلقه، ثم يحتمل أنه إنما أمره بالوضوء والصلاة للتوبة، كما تقدم فى حديث الصديق : «ما من عبد يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلى ركعتين إلا غفر الله له» الحديث^(٤).

ثم قال ابن جرير : وأولى القولين فى ذلك بالصواب قول من قال: عنى الله بقوله: ﴿أَوْ

(١) الطبرى (٨ / ٩٦٠) وإسناده صحيح . (٢) الطبرى (٩٦١٧) وإسناده صحيح .

(٣) الموطأ (ص ٤٣) وهو من أصح الأسانيد .

(٤) مضى عند تفسير الآيات : (١٣٠ - ١٣٦) من سورة آل عمران .

لَا مَسْئَمَ لِّلنِّسَاءِ ﴿١﴾ الْجَمَاعَ دُونَ غَيْرِهِ مِنْ مَعَانِي اللَّمَسِ؛ لَصَحَّةِ الْخَبَرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : أَنَّهُ قَبْلَ بَعْضِ نِسَائِهِ ثُمَّ صَلَّى وَلَمْ يَتَوَضَّأْ، ثُمَّ رَوَى عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَوَضَّأُ ثُمَّ يَقْبَلُ، ثُمَّ يَصَلِّي وَلَا يَتَوَضَّأُ. ثُمَّ رَوَى عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ بَعْضِ نِسَائِهِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ وَلَمْ يَتَوَضَّأْ، قُلْتُ: مَنْ هِيَ إِلَّا أَنْتِ؟ فَضَحَكَتْ. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ مَاجَهَ (١). قَالَ أَبُو دَاوُدَ: رَوَى عَنْ الثَّوْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ: مَا حَدَّثَنَا حَبِيبٌ إِلَّا عَنْ عُرْوَةَ الْمَزْنِيِّ. وَقَالَ يَحْيَى الْقَطَّانُ لِرَجُلٍ: احْكُ عَنِّي أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ شَبَهَ لَا شَيْءَ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: سَمِعْتُ الْبُخَارِيَّ يُضْعِفُ هَذَا الْحَدِيثَ وَقَالَ: حَبِيبُ بْنُ أَبِي ثَابِتٍ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ عُرْوَةَ. وَقَدْ وَقَعَ فِي رِوَايَةِ ابْنِ مَاجَهَ: عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ عَائِشَةَ. وَأَبْلَغَ مِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ، مِنْ حَدِيثِ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ، وَهَذَا نَصٌّ فِي كَوْنِهِ عُرْوَةَ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَيَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ: «مَنْ هِيَ إِلَّا أَنْتِ، فَضَحَكَتْ» (٢).

وقوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ استنبط كثير من الفقهاء من هذه الآية: أنه لا يجوز التيمم لعادم الماء إلا بعد طلب الماء، فمتى طلبه فلم يجده جاز له حينئذ التيمم. وقد ذكروا كيفية الطلب في كتب الفروع، وفي الصحيحين، من حديث عمران بن حصين: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً معترلاً لم يصل في القوم، فقال: «يا فلان، ما منعك أن تصلى مع القوم؟ ألسنت برجل مسلم؟» قال: بلى يا رسول الله، ولكن أصابتني جنابة ولا ماء. قال: «عليك بالصعيد، فإنه يكفيك».

ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ فالتيمم في اللغة: هو القصد. والصعيد قيل: هو كل ما صعد على وجه الأرض، فيدخل فيه التراب، والرمل، والشجر، والحجر، والنبات، وهو قول مالك. وقيل: ما كان من جنس التراب، كالرمل والزرنخ، والنورة، وهذا مذهب أبي حنيفة. وقيل: هو التراب فقط، وهو قول الشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهما، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿فَتَصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف: ٤٠]، أى: تراباً أملس طيباً، وبما ثبت في صحيح مسلم، عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء» وفي لفظ: «وجعل ترابها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء». قالوا: فخصص الطهورية بالتراب في مقام الامتنان، فلو كان غيره يقوم مقامه لذكره معه.

والطيب هاهنا قيل: الحلال. وقيل: الذى ليس بنجس. كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن

(١) الطبرى (٩٦٢٩ ، ٩٦٣٠).

(٢) حديث عائشة هذا رواه الترمذى ، رقم (٨٦) بشرحنا . وقد فصلنا القول فى تخريجه وتعليقه ، وحققنا صحته ، وحققنا القول الصحيح : أن اللمس لا ينقض الوضوء ، وأن الآية هنا إنما هى كناية عن الجماع - فى شرحنا للترمذى (١/ ١٣٣ - ١٤٢) . ولذلك حذفنا هنا ما ذكره الحافظ ابن كثير بعد هذا من الروايات .

إلا ابن ماجه عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «الصعيد الطيب طهور المسلم، وإن لم يجد الماء عشر حجج، فإذا وجدته، فليمسحه بشرته، فإن ذلك خير له». وقال الترمذى: حسن صحيح: وصححه ابن حبان أيضا، ورواه الحافظ البزار فى مسنده عن أبى هريرة، وصححه الحافظ أبو الحسن القطان (١). وقال ابن عباس: أطيب الصعيد تراب الحرث. رواه ابن أبى حاتم، ورفعہ ابن مَرْدَوِيه.

وقوله: «فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ»: التيمم بدل عن الوضوء فى التطهر به، لا أنه بدل منه فى جميع أعضائه، بل يكفى مسح الوجه واليدين فقط بالإجماع، ولكن اختلف الأئمة فى كيفية التيمم على أقوال:

أحدها - وهو مذهب الشافعى فى الجديد: أنه يجب أن يمسح الوجه واليدين إلى المرفقين بضربتين؛ لأن لفظ اليدين يطلق على ما يبلغ المنكبين، وعلى ما يبلغ المرفقين، كما فى آية الوضوء، ويطلق ويراد بهما ما يبلغ الكفان، كما فى آية السرقة: «فَأَقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا» [المائدة: ٣٨]. قالوا: وحمل ما أطلقناه على ما قيد فى آية الوضوء أولى، لجامع الطهورية. وذكر بعضهم ما رواه الدارقطنى، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «التيمم ضربتان: ضربة للوجه، وضربة لليدين إلى المرفقين». ولكن لا يصح؛ لأن فى أسانيده ضعفاء لا يثبت الحديث به. وروى أبو داود عن ابن عمر - فى حديث: أن رسول الله ﷺ ضرب بيديه على الخائط ومسح بهما وجهه، ثم ضرب ضربة أخرى فمسح ذراعيه. ولكن فى إسناده محمد بن ثابت العبدى، وقد ضعفه بعض الحفاظ، ورواه غيره من الثقات فوقوه على فعل ابن عمر، قال البخارى وأبو زرعة وابن عدى: هو الصواب. وقال البيهقى: رَفَعَ هذا الحديث منكر. واحتج الشافعى بما رواه عن إبراهيم بن محمد عن أبى الحويرث عبد الرحمن بن معاوية، عن الأعرج، عن ابن الصمة: أن رسول الله ﷺ تيمم فمسح وجهه وذراعيه (٢).

والقول الثانى: أنه يجب مسح الوجه واليدين إلى الكفين بضربتين، وهو القول القديم للشافعى.

(١) حديث أبى هريرة مضت الإشارة إليه ص ٥١٢. وقد ذكره الهيثمى فى الزوائد (١/ ٢٦١)، وقال: «ورجاله رجال الصحيح».

(٢) الأم (١/ ٤٢). ومسند الشافعى بترتيب الشيخ عابد السندى (١/ ٤٤) برقم (١٣٠) ورواه البيهقى (١/ ٢٠٥) من طريق الشافعى بهذا الإسناد، بلفظ أطول من هذا «ابن الصمة»: هو أبو الجهم بن الحارث بن الصمة. وأعل البيهقى هذه الرواية بأن الأعرج «لم يسمعه من ابن الصمة، وإنما سمعه من عمير مولى ابن عباس عن ابن الصمة». وبأن إبراهيم بن محمد بن أبى يحيى الأسلمى وأبا الحويرث عبد الرحمن بن معاوية - «قد اختلف الحفاظ فى عدالتهما». وأصل حديث أبى جهم - هذا - صحيح بلفظ: «فمسح بوجهه ويديه»، كما فى رواية - البخارى (١/ ٣٧٤، ٣٧٥ فتح). ولكن خطأ رواية إبراهيم بن محمد - هذه - فى قوله: «وذراعيه». وقد فصلنا القول فى تخريجه وما وقع فى بعض رواياته من خطأ - فى تخريجات الطبرى (٩٦٦٨). ووقع فى المخطوطتين والمطبوعة «عن أبى الحويرث عن عبد الرحمن بن معاوية»! وهو خطأ من الناسخين. فإن عبد الرحمن بن معاوية هو «أبو الحويرث»، هذه كنيته.

والثالث: أنه يكفي مسح الوجه والكفين بضربة واحدة؛ وروى الإمام أحمد عن ابن عبد الرحمن بن أبزي، أن رجلا أتى عمر فقال: إني أجبت فلم أجد ماء؟ فقال عمر: لا تصل. فقال عمار: أما تذكر يا أمير المؤمنين - إذ أنا وأنت في سرية فأجنبنا فلم نجد ماء، فأما أنت فلم تصل، وأما أنا فتمسكت في التراب فصليت، فلما أتينا النبي ﷺ ذكرت ذلك له، فقال: «إنما كان يكفيك». وضرب النبي ﷺ بيده الأرض، ثم نفخ فيها ومسح بها وجهه وكفيه^(١).

وروى أحمد عن شقيق قال: كنت قاعدا مع عبد الله وأبي موسى فقال أبو موسى لعبد الله: لو أن رجلا لم يجد الماء لم يصل؟ فقال عبد الله: لا. فقال أبو موسى: أما تذكر إذ قال عمار لعمر: ألا تذكر إذ بعثنى رسول الله ﷺ وإياك في إبل، فأصابتنى جنابة، فتمرغت في التراب، فلما رجعت إلى رسول الله ﷺ أخبرته، فضحك رسول الله ﷺ وقال: «إنما كان يكفيك أن تقول هكذا»، وضرب بكفيه إلى الأرض، ثم مسح كفيه جميعا، ومسح وجهه مسحة واحدة بضربة واحدة؟ فقال عبد الله: لا جرم، ما رأيت عمر قنع بذلك؟! قال: فقال له أبو موسى: فكيف بهذه الآية في سورة النساء: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾؟ قال: فما درى عبد الله ما يقول، وقال: لو رخصنا لهم في التيمم لأوشك أحدهم إذا برد الماء على جلده أن يتيمم^(٢).

وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: في الدين الذي شرعه لكم ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾^(٣). فهذا أباح التيمم، إذا لم تجدوا الماء أن تعدلوا إلى التيمم بالصعيد والتيمم نعمة عليكم لعلكم تشكرون.

ولهذا كانت هذه الأمة مخصوصة بمشروعية التيمم دون سائر الأمم، كما ثبت في الصحيحين، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيَتْ خُمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتَهُ الصَّلَاةَ فَلْيَصِلْ - وَفِي لَفْظٍ: فَعِنْدَهُ مَسْجِدُهُ وَطَهُورُهُ - وَأَحْلَتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةُ، وَكَانَ يَبْعَثُ النَّبِيُّ إِلَى قَوْمِهِ وَيَبْعَثُ إِلَى النَّاسِ كَافَةً». وفي حديث حذيفة عند مسلم: «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض مسجدا، وتربتها طهورا إذا لم نجد الماء»^(٤).

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ أي:

(١) المسند (٤/ ٢٦٥ حلى). ورواه البخارى (١/ ٣٧٥ - ٣٧٧ فتح) ومسلم (١/ ١١٠). وفصلنا تخريجه في الطبرى (٩٦٥٧).

(٢) المسند (٤/ ٢٦٥ حلى). ووقع فيه في المطبوعة هنا تخطيط، صححناه من المخطوطتين ومن المسند، ورواه البخارى (١/ ٣٨٦ فتح) ومسلم (١/ ١١٠) والطبرى (٩٦٧١ بنحوه). وفصلنا تخريجه فيه.

(٣) ما أدرى: أسها الحافظ ابن كثير هنا، فأدخل تفسير بعض آية التيمم التي في المائدة (الآية: ٦) - هنا؟ أم قصد إلى استكمال المعنى؟ ولكنه بكل حال لم ينبه إلى ذلك.

(٤) صحيح مسلم (١٤٧/١). وقد مضى هذا الحديث (ص ٦١٣).

ومن عفوه عنكم وغفره لكم (١) : أن شرع لكم التيمم، وأباح لكم فعل الصلاة به إذا فقدتم الماء، توسعة عليكم ورخصة لكم، وذلك أن هذه الآية الكريمة فيها تنزيه الصلاة أن تفعل على هيئة ناقصة : من سَكُرَ حتى يصحو المكلف ويعقل ما يقول، أو جنابة حتى يغسل، أو حدث حتى يتوضأ، إلا أن يكون مريضاً أو عادماً للماء، فإن الله، عز وجل، قد أَرخص في التيمم والحالة هذه، رحمة بعباده ورأفة بهم، وتوسعة عليهم، والله الحمد والمنة.

ذكر سبب نزول مشروعية التيمم:

وإنما ذكرنا ذلك هاهنا؛ لأن هذه الآية التي في النساء متقدمة النزول على آية المائدة، وبيانه: أن هذه نزلت قبل تحريم الخمر، والخمر إنما حرم بعد أحد، يقال: في محاصرة النبي ﷺ لبنى النضير بعد أحد بيسير، وأما المائدة فإنها من أواخر ما نزل، ولا سيما صدرها، فناسب أن يذكر السبب هنا، وبالله الثقة. روى البخارى عن عائشة قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، حتى إذا كنا في بالبيداء - أو بذات الجيش - انقطع عقد لى، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه، وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فأتى الناس إلى أبى بكر فقالوا: ألا ترى إلى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله ﷺ وبالناس (٢)، وليسوا على ماء وليس معهم ماء؟ فجاء أبو بكر، ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام، فقال: حبست رسول الله ﷺ والناس، وليسوا على ماء وليس معهم ماء؟ قالت عائشة: فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعن بيده في خاصرتي، ولا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي، فقام رسول الله ﷺ حين أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم فتيتموا، فقال أسيد بن الحضير: ما هى بأول بركتكم يا آل أبى بكر. قالت: فبعثنا البعير الذى كنت عليه، فوجدنا العقد تحته . ورواه مسلم (٣).

وروى الإمام أحمد عن عمار بن ياسر؛ أن رسول الله ﷺ عرس بأولات الجيش ومعه عائشة زوجته، فانقطع عقد لها من جَزَع ظَفَار، فحبس الناس ابتغاء عقدها ذلك وحتى أضاء الفجر، وليس مع الناس ماء، فأنزل الله على رسوله رخصة التطهر بالصعيد الطيب، فقام المسلمون مع رسول الله ﷺ، فضربوا بأيديهم الأرض، ثم رفعوا أيديهم ولم ينفضوا من التراب شيئاً، فمسحوا بها وجوههم وأيديهم إلى المناكب، ومن بطون أيديهم إلى الآباط (٤).

(١) « الغفر » - بفتح فسكون : مصدر ، كالمغفرة والغفران .

(٢) قوله : « وبالناس » : سقط في المطبوع من « عمدة التفسير » ، وهذا بلا شك - من أخطاء الطباعة .

(٣) البخارى (١/ ٣٦٥ - ٣٦٨ فتح) . ورواه أحمد (٦ / ١٧٩ حلى) والطبرى (٩٦٤١) . وفصلنا تخريجه فيه .

(٤) المسند (٤ / ٢٦٣ ، ٢٦٤) ، وإسناده صحيح . ورواه الطبرى (٩٦٧٠) بإسناد غير متصل . وقد بينا صحته وطريقه الموصولة هناك .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشَرُّونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴾
 ﴿ ٤٤ ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿ ٤٥ ﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ
 الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيْئًا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي
 الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا
 يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿ ٤٦ ﴾

يخبر تبارك تعالى عن اليهود - عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة - أنهم يشترون
 الضلالة بالهدى، ويُعرضون عما أنزل الله على رسوله، ويتركون ما بأيديهم من العلم عن
 الأنبياء الأقدمين، في صفة محمد ﷺ، ليشتروا به ثمنًا قليلًا من حطام الدنيا ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا
 السَّبِيلَ﴾ أى: يودون لو تكفرون بما أنزل عليكم - أيها المؤمنون - وتركوا ما أنتم عليه من
 الهدى والعلم النافع ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ أى: هو يعلم بهم ويحذرهم منهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا
 وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ أى: كفى به وليا لمن لجأ إليه، ونصيرًا لمن استنصره.

ثم قال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ «من» هذه لبيان الجنس كقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ
 الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠].

وقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أى: يتأولون الكلام على غير تأويله، ويفسرونه بغير
 مراد الله، عز وجل، قصدا منهم وافتراء ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أى: سمعنا ما قلته يا محمد ولا
 نطيعك فيه. هكذا فسرهم مجاهد وابن زيد، وهو المراد، وهذا أبلغ فى كفرهم وعنادهم، أنهم
 يتولون عن كتاب الله بعد ما عقلوه، وهم يعلمون ما عليهم فى ذلك من الإثم والعقوبة.

وقولهم: ﴿وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾ أى: اسمع ما نقول، لا سمعت. وقال مجاهد والحسن:
 واسمع غير مقبول منك. وهذا استهزاء منهم واستهتار، عليهم لعنة الله. ﴿وَرَاعِنَا لَيْئًا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا
 فِي الَّذِينَ﴾ أى: يوهمون أنهم يقولون: راعنا سمعك بقولهم: «راعنا»، وإنما يريدون الرعونة.
 وقد تقدم الكلام فى هذا (١).

ولهذا قال تعالى عن هؤلاء اليهود الذين يريدون بكلامهم خلاف ما يظهرونه: ﴿لَيْئًا
 بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ﴾ يعنى: بسبهم النبى ﷺ.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ
 بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى: قلوبهم مطرودة عن الخير مبعدة منه، فلا يدخلها من الإيمان
 شئ نافع لهم وقد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨] (٢) والمقصود:
 أنهم لا يؤمنون إيمانًا نافعًا.

(١) عند تفسير الآيتين: (١٠٤، ١٠٥) من سورة البقرة.

(٢) عند تفسير الآيتين: (٨٨، ٨٩) من سورة البقرة.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى - أمرا أهل الكتاب بالإيمان بما نزل على عبده ورسوله محمد ﷺ من الكتاب العظيم، الذى فيه تصديق الأخبار التى بأيديهم من البشارات، ومتهددا لهم أن يفعلوا، بقوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾. قال بعضهم: طمسها: هو ردها إلى الأدبار، وجعل أبصارهم من ورائهم. ويحتمل أن يكون المراد: من قبل أن نطمس وجوها فلا يبقى لها سمع ولا بصر ولا أثر، ونردها مع ذلك إلى ناحية الأدبار. وقال ابن عباس: طمسها: أن تعمى ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾، يقول: نجعل وجوههم من قبل أعقيتهم، فيمشون القهقرى، ونجعل لأحدهم عينين من قفاه. وكذا قال قتادة. وهذا أبلغ فى العقوبة والنكال، وهو مثل ضربه الله لهم فى صرفهم عن الحق وردهم إلى الباطل ورجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سبل الضلالة يَهْرَعُونَ ويمشون القهقرى على أدبارهم، وهذا كما قال بعضهم فى قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ. وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ [يس: ٨، ٩]: أن هذا مثل ضربه الله لهم فى ضلالهم ومنعهم عن الهدى. قال مجاهد: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا﴾ يقول: عن صراط الحق ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾ أى: فى الضلالة.

وقوله: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ يعنى: الذين اعتدوا فى سببهم بالحيلة على الاصطياد، وقد مسحوا قردة وخنازير، وسيأتى بسط قصتهم فى سورة الأعراف (١).

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أى: إذا أمر بأمر، فإنه لا يخالف ولا يمانع.

ثم أخبر تعالى: أنه ﴿لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ أى: لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ أى: من الذنوب ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أى: من عباده. وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة، فلنذكر منها ما تيسر:

روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدواوين عند الله ثلاثة؛ ديوان لا يعبأ الله به شيئا، وديوان لا يترك الله منه شيئا، وديوان لا يغفره الله. فأما الديوان الذى لا يغفره الله، فالشرك بالله، قال الله عز وجل: ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢]. وأما الديوان الذى لا يعبأ الله به شيئا، فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه، من صوم يوم تركه، أو صلاة تركها؛ فإن الله يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء. وأما الديوان الذى لا يترك الله منه

(١) فى الآية (١٦٣) منها .

من هذا الوجه^(١). وروى الإمام أحمد عن ضمضم بن جَوْس اليمامي قال: قال لى أبو هريرة: يا يمامى، لا تقولن لرجل: والله لا يغفر الله لك. أو لا يدخلك الجنة أبدا. قلت: يا أبا هريرة، إن هذه كلمة يقولها أحدنا لأخيه وصاحبه إذا غضب قال: فلا تقلها، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كان فى بنى إسرائيل رجلان كان أحدهما مجتهداً فى العبادة، وكان الآخر مسرفاً على نفسه، وفكانا متآخيين، وكان المجتهد لا يزال يرى الآخر على ذنب، فيقول: يا هذا، أقصر. فيقول: خلنى وربى، أبعثت على رقيباً؟! قال: إلى أن رآه يوماً على ذنب استعظمه، فقال له: ويحك! أقصر قال: خلنى وربى، أبعثت على رقيباً؟ فقال: والله لا يغفر الله لك - أو لا يدخلك الله الجنة أبداً - قال: فبعث الله إليهما ملكاً فقبض أرواحهما واجتمعا عنده، فقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتى. وقال للآخر: أكنت بى عالماً؟ أكنت على ما فى يدى قادراً؟ اذهبوا به إلى النار. قال: فوالذى نفس أبى القاسم بيده لتكلم بكلمة أو بقت دنياه وآخرته». ورواه أبو داود^(٢).

وقوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ كقوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وثبت فى الصحيحين، عن ابن مسعود أنه قال: قلت: يا رسول الله، أى الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» وذكر تمام الحديث^(٣).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُورُونَ أَنفُسَهُمْ بِاللَّهِ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يَظْلَمُونَ قَتِيلًا﴾ ﴿١٩﴾ أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّنْفُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ ﴿٥٢﴾

قال الحسن وقادة: نزلت هذه الآية - وهى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُورُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ - فى اليهود والنصارى، حين قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾. زاد ابن زيد: وفى قولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١]. وقال مجاهد: كانوا يقدمون الصبيان أمامهم فى الدعاء والصلاة يؤمنونهم، ويزعمون أنهم لا ذنب لهم. روى ذلك ابن جرير. وروى ابن أبى حاتم

(١) لكن رواه أحمد من أوجه أخر: (١٤٥٤٠، ١٤٧٦٥، ١٥٠٧٦، ١٥٢٦٣). وكذلك رواه مسلم (١/ ٣٨). ورواه أحمد أيضا ضمن حديث مطول (١٥٢٧٣).

(٢) المسند (٨٢٧٥) وإسناده صحيح. ورواية أبى داود (٤٩٠١) مختصرة. وأعله المنذرى بأحد الرواة فى أبى داود، وفاته إسناده المسند الذى خلا من ذلك الراوى - على أنه ثقة أيضا. و «ضمضم»: بفتح الضادين المعجمتين بينهما ميم ساكنة. و «جوس»: بفتح الجيم وسكون الواو ثم سين مهملة، ووقع فى المطبوعة بالمعجمة، وهو تصحيف. و «اليمامى»: بالميم. ووقع فى اللخطوطين والمطبوعة: «اليمانى» بالنون، وهو تصحيف. ووقع أيضا فى متن الحديث أغلاط فى الأصول هنا، صححناه من المسند.

(٣) مضى عند تفسير الآيات: (٢٩ - ٣١) من سورة النساء.

عن ابن عباس قال: كانت اليهود يقدمون صبيانهم يصلون بهم، ويقربون قربانهم ويزعمون أنهم لا خطايا لهم ولا ذنوب. وكذبوا. قال الله تعالى: «إِنِّي لَا أَطْهِّرُ ذَا ذَنْبٍ بآخر لا ذنب له»، وأنزل الله: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ» (١). ثم قال: وروى عن مجاهد، وأبى مالك، والسدي، وعكرمة، والضحاك - نحو ذلك.

وقيل: نزلت في ذم التمداح والتزكية. وفي صحيح مسلم، عن المقداد بن الأسود قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نحشو في وجوه المداحين التراب. وفي الصحيحين عن أبي بكر: أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يثنى على رجل، فقال: «ويحك. قطعت عنقَ صاحيك !». ثم قال: «إن كان أحدكم مادحا صاحبه لا محالة، فليقل: أحسبه، ولا يزكى على الله أحدا» (٢). وروى الإمام أحمد عن معبد الجهني قال: كان معاوية قلما يحدث عن النبي ﷺ، قال: وكان قلما يكاد أن يدع يوم الجمعة هؤلاء الكلمات أن يحدث بهن عن النبي ﷺ، يقول: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، وإن هذا المال حلو خضر، فمن يأخذه بحقه يبارك له فيه، وإياكم والتمادح فإنه الذبح». وروى ابن ماجة منه: «إياكم والتمادح فإنه الذبح». ومعبد هذا: هو ابن عبد الله بن عويم البصري القدرى (٣). وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود قال: إن الرجل ليغدو بدينه، ثم يرجع وما معه منه شيء، يلقي الرجل ليس يملك له ضرا ولا نفعاً فيقول له: والله إنك لذيت وذيت، فلعله أن يرجع ولم يحل من حاجته بشيء وقد أسخط الله [عليه]. ثم قرأ: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ» الآية (٤).

وسبأتى الكلام على ذلك مطولا، عند قوله تعالى: «فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى» [النجم: ٣٢]. ولهذا قال تعالى: «بَلِ اللَّهُ يَزَكِي مَنْ يَشَاءُ» أي: المرجع في ذلك إلى الله، عز وجل، لأنه عالم بحقائق الأمور وغوامضها.

ثم قال تعالى: «وَلَا يُظْلَمُونَ فَيَلَا» أي: ولا يترك لأحد من الأجر ما يوازن مقدار الفتيل. قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد من السلف: هو ما يكون في شق النواة. وعن ابن عباس: هو ما فتلت بين أصابعك. وكلا القولين متقارب.

وقوله: «انْظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ» أي: في تزكيتهم أنفسهم ودعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقولهم: «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى» [البقرة: ١١١]، وقولهم: «لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً» [البقرة: ٨٠]، واتكالهم على أعمال آبائهم الصالحة، وقد حكم الله أن أعمال الآباء لا تجزى عن الأبناء شيئا، في قوله: «تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ

(١) إسناده صحيح . ولم ينسبه السيوطي (٢ / ١٧٠) لغير ابن أبي حاتم .

(٢) سبأتى هذا الحديث أيضا عند الآية (٣٢) من سورة النجم .

(٣) المسند (٨ / ١٦٩٠ ، ١٦٩١٧) وابن ماجة (٣٧٤٣) . «و معبد الجهني» : على أنه أول من تكلم في القدر ، ولكنه ثقة ، وثقه ابن معين . وقال أبو حاتم : «كان صدوقا في الحديث» .

(٤) الطبري (٩٧٤٤) . وهو موقوف جيد الإسناد .

عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» [البقرة: ١٤١]. ثم قال: «وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا» أى: وكفى بصنيعهم هذا كذبا وافتراء ظاهرا.

وقوله: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيًّا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ»، أما «الجبت»: فرورى ابن إسحاق عن عمر بن الخطاب أنه قال: «الجبت»: السحر، و«الطاغوت»: الشيطان. وهكذا روى عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جببر، وغيرهم. وقيل: الجبت: الشيطان. وقال الجوهري فى «الصحيح»: «الجبت» كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك، وفى الحديث: «الطيرة والعيافة والطَّرْق من الجبت». وهذا الحديث الذى ذكره، رواه الإمام أحمد عن قبيصة بن مخارق أنه سمع النبي ﷺ قال: «إن العيافة والطَّرْق والطيرة من الجبت» وقال عوف: «العيافة»: زجر الطير، و«الطَّرْق»: الخط، يخط فى الأرض، و«الجبت» قال الحسن: إنه الشيطان. وهكذا رواه أبو داود والنسائى وابن أبى حاتم (١). وقد تقدم الكلام على «الطاغوت» فى سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هاهنا (٢).

وقوله: «وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا» أى: يفضلون الكفار على المسلمين بجهلهم، وقلة دينهم، وكفرهم بكتاب الله الذى بأيديهم. وقد روى ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: جاء حى بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة، فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم، فآخبرونا عنا وعن محمد؟ فقالوا: ما أنتم وما محمد؟ فقالوا: نحن نصل الأرحام، وننحر الكوماء، ونسقى الماء على اللبن، ونفك العنأة، ونسقى الحجيج - ومحمد صنبور، قطع أرحامنا، واتبعه سراق الحجيج من غفار، فنحن خير أم هو؟ فقالوا: أنتم خير وأهدى سبيلا. فأنزل الله: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيًّا» الآية. وقد روى هذا من غير وجه، عن ابن عباس وجماعة من السلف (٣). وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت قريش: ألا ترى هذا الصنبور المنبتر من قومه؟ يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج، وأهل السدانة، وأهل السقاية؟ قال: أنتم خير. قال: فنزلت فيهم: «إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَثَرُ» [الكوثر: ٣]، ونزل: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيًّا مِنَ الْكِتَابِ» إلى «نَصِيرًا» (٤).

(١) المسند (٥ / ٦٠ حلى).

(٣) حديث عكرمة هذا حديث مرسل. وكذلك نسبة السيوطى (١٧١/٢) إلى «سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم، مرسلا». وذكره قبله من رواية «الطبرانى والبيهقى فى الدلائل»، عن عكرمة عن ابن عباس. وذكره الهشمى فى الزوائد (٧ / ٥، ٦) من رواية الطبرانى، وقال: «وفيه يونس بن سليمان الجمال، ولم أعرفه، وبقيه رجاله رجال الصحيح». وانظر الحديث الذى عقب هذا. و«الكوما» - يفتح الكاف - : الناقة العظيمة السنام. و«الصنبور» - بضم الصاد المهملة وسكن النون - أصله: نخلة تخرج من أصل النخلة الأخرى من غير أن تغرس، ثم قيل: رجل صنبور، أى: فرد ضعيف ذليل لا أهل له ولا عقب. يريدون: أن رسول الله ﷺ لا عقب له ولا أخ فإذا مات انقطع ذكره! وكذبوا وأخزاهم الله.

(٤) هكذا ذكره المؤلف الحافظ من رواية الإمام أحمد، وكذلك نسبة إليه السيوطى (١٧١/٢). ولكنى لم أجده فى المسند فى مسند ابن عباس، على اليقين بعد التبع التام. فلعله فى كتاب آخر من كتب الإمام أحمد. ورواه أيضا الطبرى (٩٧٨٦). وزاد السيوطى نسبته لابن المنذر وابن أبى حاتم. وسيذكره الحافظ ابن كثير - بنحوه - فى تفسير سورة الكوثر من رواية البزار، وقال: «وهو إسناد صحيح». وذكره السيوطى فى تفسيرها (٦ / ٤٠٣) من رواية «البزار وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه».

وروى ابن إسحاق عن ابن عباس قال: كان الذين حَزَبُوا الأحزاب من قريش وغطفان وبنى قريظة حَيٍّ بن أخطب وسلامُ بن أبي الحَقِيق وأبو رافع، والربيع بن أبي الحَقِيق، وأبو عامر، ووَخُوح بن عامر، وهُوذة بن قيس. فأما وَخُوح وأبو عامر وهُوذة فمن بنى وائل، وكان سائرهم من بنى النضير، فلما قدموا على قريش قالوا هؤلاء أجبار يهود وأهل العلم بالكتب الأول، فاسألوهم: أدينكم خير أم دين محمد؟ فسألوهم؟ فقالوا: دينكم خير من دينه، وأنتم أهدي منه ومن اتبعه! فانزل الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيًّا مِنَ الْكِتَابِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُم مُلْكًا عَظِيمًا﴾ (١). وهذا لعن لهم، وإخبار بأنهم لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين، وإنما قالوا لهم ذلك ليستيلوهم إلى نصرتهم، وقد أجابوهم، وجاؤوا معهم يوم الأحزاب، حتى حفر النبي ﷺ وأصحابه حول المدينة الخندق، فكفى الله شهرهم ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَظِيمِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾

يقول تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾؟! وهذا استفهام إنكار، أى: ليس لهم نصيب من الملك. ثم وصفهم بالبخل فقال: ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ أى: لأنهم لو كان لهم نصيب فى الملك والتصرف لما أعطوا أحدا من الناس - ولا سيما محمد ﷺ - شيئا، ولا ما يملأ «النقير»، وهو النقطة التى فى النواة، فى قول ابن عباس والأكثرين.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ [الأنعام: ١٠٠] أى: خوف أن يذهب ما بأيديكم، مع أنه لا يتصور نفاذه، وإنما هو من بخلكم وشحكم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَرُورًا﴾ [الأنعام: ١٠٠] أى: بخيلا.

ثم قال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعنى بذلك: حسدهم النبي ﷺ على ما رزقه الله من النبوة العظيمة، ومنعهم من تصديقهم إياه حسدهم له؛ لكونه من العرب وليس من بنى إسرائيل.

قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ أى: فقد جعلنا فى أسباط بنى إسرائيل - الذين هم من ذرية إبراهيم - النبوة، وأنزلنا عليهم الكتب، وحكموا فيهم بالسنن - وهى الحكمة - وجعلنا منهم الملوك، ومع هذا ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ﴾ أى: بهذا الإيتاء وهذا الإنعام ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ أى: كفر به وأعرض عنه، وسعى فى صد الناس عنه،

وهو منهم ومن جنسهم، من بنى إسرائيل، فقد اختلفوا عليهم، فكيف بك يا محمد ولست من بنى إسرائيل؟ وقال مجاهد: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ أى: بمحمد ﷺ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾، فالكفرة منهم أشد تكذيبا لك، وأبعد عما جتتهم به من الهدى، والحق المبين. ولهذا قال متوعدا لهم: ﴿وَكَفَىٰ بِهِمْ سَعِيرًا﴾ أى: وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم ومخالفتهم كتب الله ورسله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّمَا تَضَيَّتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَنَّهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾

يخبر تعالى عما يعاقب به فى نار جهنم من كفر بآياته وصدّ عن رسله، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ الآية، أى ندخلهم فيها دخولا يحيط بجميع أجزائهم. ثم أخبر عن دوام عقوبتهم ونكالهم، فقال: ﴿كَلَّمَا تَضَيَّتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَنَّهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾. وروى الإمام أحمد عن ابن عمر، عن النبى ﷺ قال: «يُعْظَمُ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ، حَتَّىٰ إِنْ بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِ أَحَدِهِمْ إِلَىٰ عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ، وَإِنْ غُلِظَ جُلْدُهُ سَبْعُونَ ذِرَاعًا، وَإِنْ ضَرَسَهُ مِثْلُ أَحَدٍ، تَفَرَّدَ بِهِ أَحَدٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ» (١).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾: هذا إخبار عن مآل السعداء فى جنات عدن، التى تجرى فيها الأنهار فى جميع فجاجها ومحالها وأرجائها حيث شاؤوا وأين أرادوا، وهم خالدون فيها أبدا، لا يحولون ولا يزولون، ولا ييغون عنها حولا. وقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أى: من الحيض والنفاس والأذى. والأخلاق الرذيلة، والصفات الناقصة. وقوله: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ أى: ظلا عميقا كثيرا غزيرا طيبا أنيقا. روى ابن جرير عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجْرَةً يَسِيرُ الرَّكَّابُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا، شَجَرَةُ الْخُلْدِ» (٢).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾

يخبر تعالى أنه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها، وفى حديث سمرّة، أن رسول الله ﷺ

ربع

(١) المسند (٤٨٠٠)، وإسناده جيد. وزاد فى مجمع الزوائد (٣٩١/١٠) نسبته للطبرانى فى الكبير والأوسط.
(٢) الطبرى (٩٨٣٨). وكذلك رواه أحمد (٩٨٧٠، ٩٩٥١). وأصل الحديث ثابت من أوجه كثيرة عن أبى هريرة، فى المسند والصحيحين وغيرها، دون زيادة «شجرة الخلد». انظر المسند (٧٤٨٩).

قال: «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك». رواه الإمام أحمد وأهل السنن^(١)، وهذا يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان، من حقوق الله، عز وجل، على عباده، من الصلوات والزكوات، والكفارات والنذور والصيام، وغير ذلك، مما هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض : كالودائع وغير ذلك مما يأتون به بعضهم على بعض من غير اطلاع بيّنة على ذلك. فأمر الله، عز وجل، بأدائها، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة، كما ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لتؤدّن الحقوق إلى أهلها، حتى يقتص للشارة الجماء من القرناء»^(٢). وروى ابن أبي حاتم عن زاذان، عن ابن مسعود قال: إن الشهادة تكفر كل ذنب إلا الأمانة، يؤتى بالرجل يوم القيامة - وإن كان قُتل في سبيل الله - فيقال: أدّ أمانتك. فيقول: وأني أؤديها وقد ذهبت الدنيا؟! فتمثل له الأمانة في قعر جهنم، فيهوى إليها، فيحملها على عاتقه. قال: فتتزل عن عاتقه، فيهوى على أثرها أيد الأبدن. قال زاذان: فأتيت البراء فحدثته، فقال: صدق أخى: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا»^(٣).

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في شأن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، واسم أبي طلحة: «عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قُصَي بن كلاب» القرشي العبدري، حاجب الكعبة المعظمة، وهو ابن عم شيبه بن عثمان بن أبي طلحة، الذي صارت الحجابة في نسله إلى اليوم، أسلم عثمان هذا في الهدنة بين صلح الحديبية وفتح مكة، هو وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وأما «عمه عثمان بن أبي طلحة»، فكان معه لواء المشركين يوم أحد، وقتل يومئذ كافراً. وإنما نبهنا على هذا النسب؛ لأن كثيراً من المفسرين قد يشبه عليهم هذا بهذا^(٤). وسبب نزولها فيه : لما أخذ منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة يوم الفتح، ثم رده عليه. وروى ابن إسحاق في غزوة الفتح عن صَفِيّة بنت شيبه؛ أن رسول الله ﷺ لما نزل بمكة واطمأن الناس، خرج حتى جاء إلى البيت، فطاف به سبعا على راحلته،

(١) هكذا قال الحافظ ابن كثير . وأرى أنه وهم رحمه الله . فإنني لم أجده من حديث سمرة قط ، لا في المسند ولا في غيره . ولكن رواه أبو داود (٣٥٣٥) والترمذي (٢ / ٢٥١ ، ٢٥٢) والدارمي (٢ / ٢٦٤) والحاكم (٢ / ٤٦) - كلهم من حديث أبي هريرة . قال الترمذي : « حسن غريب » وصححه الحاكم على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي . وروى الحاكم عقبه شاهداً له من حديث أنس . ورواه أحمد في المسند (١٥٤٩١) وأبو داود (٣٥٣٤) من حديث رجل من الصحابة ، وفي إسنادهما راوٍ مهم لم يسم . نعم رواه الطبري (٩٨٥٠) من حديث الحسن - مرسل . وذكره السيوطي (١٧٥ / ٢) عن رواية الحسن ، ولم ينسبها لغير الطبري . ثم ذكره من حديث أبي هريرة الذي ذكرناه ، وزاد نسبه لليهقي في الشعب .

(٢) رواه أحمد في المسند (٧٢٠٣ ، ٧٩٨٣ ، ٨٢٧١) ومسلم (٢ / ٢٨٣ ، ٢٨٤) كلاهما من حديث أبي هريرة .

(٣) إسناده ابن أبي حاتم صحيح . وزاد السيوطي (٢ / ١٧٥) نسبه لعبد الرزاق وابن أبي شيبه وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في الشعب . وهذا وإن كان موقوفاً لفظاً على ابن مسعود والبراء ، فإنه مرفوع حكماً ؛ لأنه مما لا يعرف بالرأى .

(٤) انظر : نسب قريش للمصعب (ص ٢٥١ - ٢٥٣) وجمهرة الأنساب لابن حزم (ص ١١٨) .

يستلم الركن بمحجن في يده، فلما قضى طوافه، دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففتحت له، فدخلها، فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها، ثم وقف على باب الكعبة وقد استكف له الناس في المسجد.

قال ابن إسحاق: فحدثني بعض أهل العلم: أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة فقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يُدعى، فهو تحت قدمي هاتين إلا سداة البيت وسقاية الحاج». وذكر بقية الحديث في خطبة النبي ﷺ يومئذ، إلى أن قال: ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد، فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية، صلى الله عليك. فقال رسول الله ﷺ: «أين عثمان بن طلحة؟» فدعى له، فقال له: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم وفاء وبر» (١). وهذا من المشهورات أن هذه الآية نزلت في ذلك، وسواء كانت نزلت في ذلك أو لا، فحكمها عام؛ ولهذا قال ابن عباس ومحمد ابن الحنفية: هي للبر والفاجر، أي: هي أمر لكل أحد.

وقوله: «وَإِذَا حُكِّمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ» أمر منه تعالى بالحكم بالعدل بين الناس؛ ولهذا قال محمد بن كعب وزيد بن أسلم وشهر بن حوشب: إن هذه الآية إنما نزلت في الأمراء، يعنى الحكام بين الناس. وفي الحديث: «إن الله مع الحاكم ما لم يجر، فإذا جار وكله الله إلى نفسه» (٢). وفي الأثر: «عدل يوم عبادة أربعين سنة» (٣).

وقوله: «إِنَّ اللَّهَ نِعْمَ بِعَظْمِكُمْ بِهِ» أي: يأمركم به من أداء الامانات، والحكم بالعدل بين الناس، وغير ذلك من أوامره وشرائعه الكاملة العظيمة الشاملة. وقوله: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا» أي: سميعا لأقوالكم، بصيرا بأفعالكم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾

وروى البخارى عن ابن عباس: «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ»، قال: نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدى؛ إذ بعثه النبي ﷺ في سرية (٤). وهكذا أخرجه بقية

(١) سيرة ابن هشام (ص ٨٢٠، ٨٢١) من طبعة أوربة.

(٢) رواه الترمذى (٢٧٧/٢) وابن ماجه (٢٣١٢) والحاكم (٩٣/٤) - كلهم من حديث عبد الله بن أبي أوفى بنجوه. وقال الترمذى: «غريب» وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وعنده كلهم بلفظ «القاضى» بدل «الحاكم». ولفظ الحاكم: «فإذا جار تبرأ الله منه». ولفظ الترمذى: «فإذا جار تخلى عنه ولزمه الشيطان». وروى ابن حبان في صحيحه شطره الأول فقط (٧/٢١٥ مخطوطة الإحسان).

(٣) هذا أثر لا أدري ما هو؟

(٤) البخارى (٨/١٩٠، ١٩١ فتح) والمسند (٣١٢٤)، وهو حديث مختصر. قال الحافظ: «كذا ذكره مختصرا». والمعنى: نزلت في قصة عبد الله بن حذافة، أي: المقصود منها في قصته قوله: «فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ» الآية. والقصة مفصلة في الحديث التالى لهذا، من حديث علي.

الجماعة إلا ابن ماجه. وروى الإمام أحمد عن علي قال: بعث رسول الله ﷺ سرية، واستعمل عليهم رجلا من الأنصار، فلما خرجوا وجد عليهم في شيء. قال: فقال لهم: اليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: اجمعوا لى خطبا، ثم دعا بنار فأضرمها فيه، ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنها. قال: فقال لهم شاب منهم: إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار، فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها. قال: فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال لهم: «لو دخلتموها ما خرجتم منها أبدا؛ إنما الطاعة في المعروف». أخرجاه في الصحيحين (١). وروى أبو داود عن عبد الله بن عمر، عن رسول الله ﷺ قال: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة». أخرجاه (٢). وعن عبادة بن الصامت قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله. قال: «إلا أن تروا كفرا بواحا، عندكم فيه من الله براهان». أخرجاه (٣). وفي الحديث الآخر، عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «اسمعوا وأطيعوا، وإن أمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة». رواه البخاري (٤). وعن أبي هريرة قال: أوصاني خليلي أن أسمع وأطيع، وإن كان عبدا حبشيا مجذع الأطراف. رواه مسلم (٥). وعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدى، وسيكون خلفاء فيكثرون». قالوا: يا رسول الله، فما تأمرنا؟ قال: «أوفوا ببيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم». أخرجاه (٦). وعن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى من أميره شيئا فكرهه فليصبر؛ فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت إلا مات ميتة جاهلية». أخرجاه (٧). وعن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من خلع يدا من طاعة، لقى الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية». رواه مسلم (٨).

(١) المسند (٦٢٢). ورواه أيضا مطولا ومختصرا (٧٢٤، ١٠١٨). والقصة مفصلة أيضا في المسند (١١٦٦٢) من حديث أبي سعيد الخدري، وفيه التصريح بأن أمير السرية كان عبد الله بن حذافة، كما أشار ابن عباس في روايته الموجزة آنفا.

(٢) ورواه أحمد في المسند (٤٦٦٨، ٦٢٧٨). وشرحناه في أولهما شرحا مسهيا، ورواه أيضا الطبري (٩٨٧٧، ٩٨٧٨).

(٣) البخاري (٥/١٣، ٦ فتح) ومسلم (٨٦/٢، ٨٧) مرارا. ورواه أحمد في المسند (٥/٣١٤، ٣٢١ حلي). وقوله: «بواحا»: بفتح الباء الموحدة وتخفيف الواو، أى: ظاهرا باديا.

(٤) البخاري (٢/١٥٦، ١٥٧، ١٣/١٠٨، ١٠٩ فتح).

(٥) هكذا كتب الحافظ ابن كثير هنا. وهو وهم، لعله كتبه من حفظه. فالحديث رواه مسلم (٨٥/٢) من حديث أبي ذر، لا من حديث أبي هريرة.

(٦) البخاري (٦/٣٥٩، ٣٦٠) ومسلم (٨٧/٢) والمسند (٧٩٤٧).

(٧) ورواه أحمد (٢٤٨٧، ٢٧٠٢، ٢٨٢٦، ٢٨٢٧).

(٨) صحيح مسلم (٨٩١٢). ورواه أحمد مرارا، منها: (٥٣٨٦).

وروى مسلم أيضا، عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال: دخلت المسجد، فإذا عبد الله ابن عمرو بن العاص جالس في ظل الكعبة، والناس حوله مجتمعون عليه، فأتيتهم فجلستُ إليه، فقال: كنا مع رسول الله ﷺ في سقر، فترلنا منزلا فمنا من يصلح خبائه، ومنا من ينتضل، ومنا من هو في جشره، إذ نادى منادى رسول الله ﷺ: الصلاة جامعة. فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن هذه الأمة جعلت عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها، وتجيء فتن يرقق بعضها بعضا، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه هذه، فمن أحب أن يرحز عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه، ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر». قال: فدنوت منه فقلت: أنشدك الله أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيديه وقال: سمعته أذنأى، ووعاه قلبي، فقلت له: هذا ابن عمك معاوية يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، ونقتل أنفسنا، والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩] قال: فسكت ساعة ثم قال: أطعه في طاعة الله، واعصه في معصية الله (١). والأحاديث في هذا كثيرة.

وقال ابن عباس: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ يعني: أهل الفقه والدين. وكذا قال مجاهد، وعطاء، والحسن البصري، وأبو العالية: يعني: العلماء. والظاهر - والله أعلم - أن الآية عامة في كل أولى الأمر من الأمراء والعلماء، كما تقدم. قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِنَّمِ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتِ﴾ [المائدة: ٦٣]. وقال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وفي الحديث الصحيح المتفق على صحته، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى، ومن عصى أميرى فقد عصانى» (٢).

فهذه أوامر بطاعة العلماء والأمراء، ولهذا قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ أى: اتبعوا كتابه ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أى: خذوا بسلته ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ أى: فيما أمروكم به من طاعة الله لا فى

(١) صحيح مسلم (٢ / ٨٧ ، ٨٨) . ورواه أحمد (٣ / ٦٥٠) ورواه أيضا مختصرا قليلا (٦٧٩٣) . وقوله : « ومننا من هو فى جشره » - بفتح الجيم وسكون الشين المهملة : يعنى الدواب التى ترعى وتبيت مكانها . وقوله : « يرقق بعضها بعضا » - هو بضم الياء ، وفتح الراء وقافين أولاهما مشددة مكسورة ، أى : يصير بعضها رقيقا ، أى خفيفا ؛ لعظم ما بعده ، فالثانى يجعل الأول رقيقا .

(٢) البخارى (١٣ / ٩٩) ومسلم (٢ / ٨٥) والمسند (٧٦٤٣) . ورواه أحمد مرارا أيضا ، منها : (٧٣٣٠ ، ٧٤٢٨) والطبرى (٩٨٥١) وسياى عند تفسير الآيتين : (٨٠ ، ٨١) .

معصية الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله، كما تقدم في الحديث الصحيح: «إنما الطاعة في المعروف» (١). وروى الإمام أحمد عن عمران بن حصين، عن النبي ﷺ قال: «لا طاعة في معصية الله» (٢).

وقوله: ﴿إِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ قال مجاهد وغير واحد من السلف: أى: إلى كتاب الله وسنة رسوله. وهذا أمر من الله، عز وجل، بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع فى ذلك إلى الكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، فما حكم به كتاب الله وسنة رسوله وشهدا له بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أى: ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله، فتحاكموا إليها فيما شجر بينكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. فدل على أن من لم يتحاكم فى مجال النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما فى ذلك، فليس مؤمنا بالله ولا باليوم الآخر.

وقوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أى: التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله. والرجوع فى فصل النزاع إليهما خير ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أى: وأحسن عاقبة ومآلا، كما قاله السدى وغير واحد. وقال مجاهد: وأحسن جزاء. وهو قريب.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٢﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٣﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٤﴾﴾

هذا إنكار من الله، عز وجل، على من يدعى الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم فى فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله، كما ذكر فى سبب نزول هذه الآية: أنها فى رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما، فجعل اليهودى يقول: بينى وبينك محمد. وذاك يقول: بينى وبينك كعب بن الأشرف. وقيل: فى جماعة من المنافقين، ممن أظهروا الإسلام، أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية. وقيل غير ذلك، والآية أعم من ذلك كله، فإنها دامة لمن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت هنا؛ ولهذا قال: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾. إلى آخرها.

(١) رواه أحمد والشيخان من حديث على، كما مضى (ص ٤٦٨).

(٢) المسند (٤/ ٤٢٦) حلى. « وإسناده صحيح ».

وقوله : ﴿يَعْدُونَكَ صُدُودًا﴾ أى : يعرضون عنك إعراضا كالمتكبرين عن ذلك ، كما قال تعالى عن المشركين : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾ [لقمان : ٢١] ، هؤلاء وهؤلاء بخلاف المؤمنين ، الذين قال الله فيهم : ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور : ٥١] .

ثم قال تعالى فى ذم المنافقين : ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أى : فكيف بهم إذا ساقتهم المقادير ، إليك فى مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم ، واحتاجوا إليك فى ذلك ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ أى : يعتذرون إليك ويحلفون : ما أردنا بذهابنا إلى غيرك ، وتحاكمنا إلى عدك إلا الإحسان والتوفيق ، أى : المدارة والمصانعة ، لا اعتقادا منا صحة تلك الحكومة ، كما أخبرنا تعالى عنهم فى قوله : ﴿فَقَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرَأُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة : ٥٢] .

وقد قال الطبرانى عن ابن عباس . قال : كان أبو برة الأسلمى كاهنا يقضى بين اليهود فيما يتنافرون فيه ، فتنافر إليه ناس من المسلمين فأنزل الله عز وجل : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ إلى قوله : ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ (١) .

ثم قال تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أى : هذا الضرب من الناس هم المنافقون ، والله يعلم ما فى قلوبهم وسيجزىهم على ذلك ، فإنه لا تخفى عليه خافية . فاكثف به - يا محمد - فيهم ، فإنه عالم بظواهرهم وبواطنهم ؛ ولهذا قال له : ﴿فَاعْزِضْ عَنْهُمْ﴾ أى : لا تعنفهم على ما فى قلوبهم ﴿وَعِظْهُمْ﴾ أى : وانهم على ما فى قلوبهم من النفاق وسرائر الشر ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِغًا﴾ أى : وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رادع لهم .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ ﴿١٤﴾ فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ﴿١٥﴾

يقول تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ أى : فُرِضت طاعته على من أرسله إليهم . وقوله : ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قال مجاهد : أى لا يطيع أحد إلا بإذنى . يعنى : لا يطيعهم إلا من وقفته لذلك ، كقوله : ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ [آل عمران : ١٥٢] أى : عن أمره وقدره ومشيتته ، وتسليطه إياكم عليهم .

وقوله : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا﴾

(١) إسناده الطبرانى إسناده صحيح . ونقله الهيثمى فى الزوائد (٦/ ٧) عن الطبرانى ، وقال : « ورجاله رجال الصحيح » . وذكره السيوطى (٢/ ١٧٨) عن ابن أبى حاتم والطبرانى « بسند صحيح » .

رُحِيمًا: يرشد تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول ﷺ فيستغفروا الله عنده، ويسألوه أن يستغفر لهم، فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم، ولهذا قال: ﴿لَوْ جَدُّوا اللَّهَ تَوَابًا رُحِيمًا﴾.

وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة: أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنا وظاهرا؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أى: إذا حكموك بطيعونك فى بواطنهم فلا يجدون فى أنفسهم حرجا مما حكمت به، وينقادون له فى الظاهر والباطن، فيسلمون لذلك تسليما كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة، كما ورد فى الحديث: «والذى نفسى بيده، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به» (١).

وروى البخارى عن عُرْوَةَ قال: خاصم الزبير رجلا فى شَرِيحٍ من الحرَّة، فقال النبى ﷺ: «اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك» فقال الأنصارى: يا رسول الله، أن كان ابن عمك؟! فتلون وجه رسول الله ﷺ، ثم قال: «اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر، ثم أرسل الماء إلى جارك»، واستوعى النبى ﷺ للزبير حَقَّةً فى صريح الحكم، حين أحفظه الأنصارى، وكان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة. قال الزبير: فما أحسب هذه الآية إلا نزلت فى ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾. وصورته صورة الإرسال، وهو متصل فى المعنى. وقد رواه الإمام أحمد من هذا الوجه فصرح بالإرسال، فروى عن عروة بن الزبير: أن الزبير كان يحدث: أنه كان يخاصم رجلا من الأنصار - قد شهد بدرا - إلى النبى ﷺ فى شراج الحرَّة، كانا يسقيان بها كلاهما، فقال النبى ﷺ للزبير: «اسق ثم أرسل إلى جارك». فغضب الأنصارى وقال: يا رسول الله، أن كان ابن عمك؟! فتلون وجه رسول الله ﷺ، ثم قال: «اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر». فاستوعى النبى ﷺ للزبير حقه، وكان النبى ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير برأى أراد فيه سعة له وللأنصارى، فلما أحفظ الأنصارى رسول الله ﷺ استوعى النبى ﷺ للزبير حقه فى صريح الحكم، قال عروة: فقال الزبير: والله ما أحسب هذه الآية نزلت إلا فى ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾. هكذا رواه الإمام أحمد، وهو منقطع بين عروة وبين أبيه الزبير؛ فإنه لم يسمع منه، والذي يقطع به أنه سمعه من أخيه عبد الله، فإن

(١) هو الحديث الحادى والأربعون من الأربعين النووية، ولكن ليس فى أوله: «والذى نفسى بيده» من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. قال النووى: حديث حسن صحيح. رويناه فى كتاب الحجة بإسناد صحيح يريد «كتاب الحجة» لأبى الفتح المقدسى. وذكره ابن رجب (ص ٢٨١، ٢٨٢) أنه رواه أيضا الحافظ أبو نعيم فى «كتاب الأربعين» التى شرط فيها الصحة. وأنه رواه أيضا الطبرانى. ثم أطال القول فى تعليقه. وعندى أن تعليقه غير جيد، وأن الحديث صحيح.

ابن أبي حاتم رواه كذلك عن عروة بن الزبير حدثه، أن عبد الله بن الزبير حدثه، عن الزبير ابن العوام - فذكر الحديث بنحوه . وهكذا رواه النسائي، ورواه أحمد والجماعة كلهم. وجعله أصحاب الأطراف في مسند عبد الله بن الزبير، وكذا ساقه الإمام أحمد في مسند عبد الله بن الزبير، والله أعلم^(١).

(١) حديث البخارى عن عروة بن الزبير ، هو فى الصحيح (٨ / ١٩١ فتح) . وحديث الإمام أحمد ، هو فى المسند (١٤١٩) فى مسند الزبير بن العوام . وحديث ابن أبى حاتم - الذى ذكر الحافظ ابن كثير أنه رواه الإمام أحمد أيضاً فى مسند عبد الله بن الزبير - هو فى المسند (١٦١٨٥) . وكذلك رواه ابن حبان فى صحيحه ، رقم (٢٣) بتحقيقنا . وكذلك رواه الطبرى (٩٩١٢) ، من رواية عروة ، عن أخيه عبد الله بن الزبير . ثم رواه (٩٩١٣) كرواية البخارى الأولى . وظاهر رواية البخارى الأولى أن صورتها صورة الإرسال ، كما قال ابن كثير . وأما رواية الإمام أحمد (١٤١٩) التى حكم ابن كثير بانقطاعها ، فإنها عندنا متصلة ؛ لأن عروة بن الزبير سمع من أبيه الزبير بن العوام ، كما قال مسلم بن الحجاج : « حج عروة مع عثمان ، وحفظ عن أبيه فمن دونه من الصحابة » ، وقد ثبت فى حديث آخر فى المسند (١٤١٨) أنه صرح بالسماع من أبيه ، فجزم ابن كثير بأنه لم يسمع منه - غير سديد . والحديث حديث الزبير ، رواه عنه ابنه : عبد الله وعروة . والظاهر أن عروة سمعه من أبيه ، ومن أخيه عن أبيه . وقد أفاض الحافظ ابن حجر فى الفتح فى بيان صحة الحديث واتصاله (٥ / ٢٦ ، ٢٧) . وبيننا ذلك أيضاً مفصلاً فى تعليقاتنا على الخراج ليجى بن آدم (٣٣٧) وعلى المسند ، وعلى ابن حبان ، وعلى الطبرى - بما أغنى عن إعادة هنا .

وهاهى ذى الآيات فى هذه السورة، من الآية (٥٩) إلى آخر الآية (٦٥) - واضحة الدلالة ، صريحة اللفظ ، لا تحتاج إلى طول شرح ، ولا تحتمل التلاعب بالتأويل . يأمرنا الله سبحانه فيها بطاعته وطاعة رسوله ، وأولى الأمر منا ، أى من المسلمين . ويأمرنا إذا تنازعنا فى شىء واختلفنا أن نرده إلى حكم الله فى كتابه وحكم رسوله فى سنته . ويقول فى ذلك : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ . فیرشدنا سبحانه وتعالى إلى أن طاعته وطاعة رسوله فى شأن الناس كلهم ، وفيما يعرض لهم ثم قضايا وخلاف ونزاع - شرط فى الإيمان بالله واليوم الآخر . وكما قال الحافظ ابن كثير آنفاً (ص ٤٧٠) : « تدل على أن من لم يتحاكم فى محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما فى ذلك - فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر » . ثم يرينا الله سبحانه حكمه فى الذين يزعمون أنهم يؤمنون برسوله محمد ﷺ وبما أنزل إليه، ثم يريدون ﴿ أَنْ يَتَّخِذُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ﴾ ، فيحكم بأنهم منافقون ، لأنهم إذا دعوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، صدوا عنه صدوداً . والنفاق شر أنواع الكفر . ثم يعلمنا الله سبحانه أنه لم يرسل رسوله عبثاً ، وإنما أرسلهم ليطيعهم الناس بإذن الله . ثم يقسم ربنا تبارك وتعالى بنفسه الكريمة المقدسة : أن الناس لا يكونون مؤمنين حتى يتحكموا فى شأنهم كله إلى رسوله محمد ﷺ ، وحتى يرضوا بحكمه طائعين خاضعين ، لا يجدون فى حكمه حرجاً فى أنفسهم ، وحتى يسلموا فى دخيلة قلوبهم إلى حكم الله ورسوله تسليماً كاملاً ، لا ينافقون به المؤمنون ، ولا يخضعون فى قبوله لقوة حاكم أو غيره ، بل يرضون به مهما يلقوا فى ذلك من مشقة أو مؤنة . وأنهم إن لم يفعلوا لم يكونوا مؤمنين قط ، بل دخلوا فى عداد الكافرين والمنافقين .

فانظروا أيها المسلمون ، فى جميع البلاد الإسلامية أو البلاد التى تنتسب للإسلام ، فى أقطار الأرض - إلى ما صنع بكم أعداؤكم المشركون والمستعمرون : إذ ضربوا على المسلمين قوانين ضالة مدمرة للأخلاق والآداب والأديان ، قوانين إفرنجية وثنية ، لم تكن على شريعة ولا دين ، بل بنيت على قواعد وضعها رجل كافر وثنى ، أبى أن يؤمن برسول عصره - عيسى عليه السلام - وأصر على وثنيته ، إلى ما كان من فسقه وفجوره وتهتكه ! هذا هو جوستينيان ، أبو القوانين وواضع أسسها فيما يزعمون ، والذى لم يستح رجل من كبار رجال مصر =

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ﴾
 ﴿ ٦٦ ﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَكُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيئًا ﴿ ٦٧ ﴾ وَلَهُدَيْتَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿ ٦٨ ﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿ ٦٩ ﴾ ذَلِكَ
 الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿ ٧٠ ﴾

= المتسيين - ظلمًا وزورًا - إلى الإسلام ، أن يترجم قواعد ذلك الرجل الفاسق الوثني ، ويسمى « مدونة جوستينيان » ! سخرية وهزءًا بـ « مدونة مالك » ، إحدى موسوعات الفقه الإسلامي المبني على الكتاب والسنة ، والمنسوبة إلى إمام دار الهجرة . فانظروا إلى مبلغ ذلك الرجل من السخف ، بل من الوقاحة والاستهتار !
 هذه القوانين التي فرضها على المسلمين أعداء الإسلام السافرو العداوة ، هي في حقيقتها دين آخر جعلوه دينًا للمسلمين بدلًا من دينهم النقي السامي ، لأنهم أوجبوا عليهم طاعتها ، وغرسوا في قلوبهم حبها وتقديسها والعصية لها . حتى لقد تجرّى على الألسنة والأقلام كثيرًا كلمات « تقديس القانون » « قدسية القضاء » « حرم المحكمة » ، وأمثال ذلك من الكلمات التي يابون أن توصف بها الشريعة الإسلامية وآراء الفقهاء الإسلاميين . بل هم حيثئذ يصفونها بكلمات « الرجعية » « الجمود » « الكهنوت » « شريعة الغاب » إلى أمثال ما ترى من المنكرات في الصحف والمجلات والكتب العصرية ، التي يكتبها أتباع أولئك الوثنيين !
 ثم صاروا يطلقون على هذه القوانين ودراساتها كلمة « الفقه » و« الفقيه » و« التشريع » و« المشرع » ، وما إلى ذلك من الكلمات التي يطلقها علماء الإسلام على الشريعة وعلماؤها . وينحدرون فيتجروّن على الموازنة بين دين الإسلام وشريعته وبين دينهم المقتري الجديد !!

ثم نقوا شريعتهم الإسلامية عن كل شيء ، وصرح كثير منهم في كثير من أحكامها القطعية الثبوت والدلالة بأنها لا تناسب هذا العصر ، وأنها شرعت لقوم بدائيين غير متمدين ، فلا تصلح لهذا العصر الإنفرنجي الوثني !! خصوصًا في الحدود المنصوصة في الكتاب والعقوبات الثابتة في السنة .

فقرى الرجل المنتسب للإسلام ، التمسك به في ظاهر أمره ، المشرب قلبه هذه القوانين الوثنية ، يتعصب لها مالا يتعصب لدينه . بل يجتهد ليتبرأ من العصية للإسلام ، خشية أن يرمى بالجمود والرجعية ! ثم هو يصلى كما يصلى المسلمون ، ويصوم كما يصوم المسلمون ، وقد يحج كما يحج المسلمون . فإذا ما انتصب لإقامة القانون ، لبسه شيطان الدين الجديد ، فقام له قومة الأسد يحمى عرينه ، ونفى عن عقله كل ما عرف من دينه الأصلي ! ورأى أن هذه القوانين ألصق بقلبه ، وأقرب إلى نفسه ! هذا في المستمسك منهم بدين الإسلام ، وهم الأقل . دع عنك أكثرهم .

وقد ربي لنا المستعمرون من هذا النوع طبقات ، أرضعوه لبان هذه القوانين ، حتى صار منهم فئات عالية الثقافة ، واسعة المعرفة - في هذا اللون من الدين الجديد ، الذي نسخوا به شريعتهم . ونبغت فيهم نوابغ يفخرون بها على رجال القانون في أوربة ، فصار للمسلمين من أئمة الكفر ، ما لم يتبل به الإسلام في أي دور من أدوار الجهل بالدين في بعض العصور .

وصار هذا الدين الجديد هو القواعد الأساسية التي يتحاكم إليها المسلمون في أكثر بلاد الإسلام ويحكمون بها . سواء منها ما وافق في بعض أحكامه شيئًا من أحكام الشريعة وما خالفها . وكله باطل وخروج ، لأن ما وافق الشريعة إنما وافقها مصادفة ، لا اتباعًا لها ، ولا طاعة لأمر الله وأمر رسوله . فالموافق والمخالف كلاهما مرتكس في حماة الضلالة ، يقود صاحبه إلى النار . لا يجوز لمسلم أن يخضع له أو يرضى به .

وقد نزيد هذا المعنى بيانًا ، عند كلام الحافظ ابن كثير في تفسير الآية : (٥٠) من سورة المائدة ، إن شاء

يخبر تعالى عن أكثر الناس أنهم لو أمروا بما هم مرتكبونه من المناهى لما فعلوه؛ لأن طابعهم الرديئة مجبولة على مخالفة الأمر، وهذا من علمه - تبارك وتعالى - بما لم يكن لو كان فكيف كان يكون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية .

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ أى: ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به، وتركوا ما ينهون عنه ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أى: من مخالفة الأمر وارتكاب النهى ﴿وَأَشَدُّ تَنبِيْهُنَّ﴾ ، قال السدى: أى: وأشد تصديقا ﴿وَإِذَا لَاتِيَانَهُمْ مِنْ لَدُنَّا﴾ أى: من عندنا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعنى: الجنة ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أى: فى الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ أى: من عمل بما أمره الله به ورسوله، وترك ما نهاه الله عنه ورسوله، فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته، ويجعله مرافقا للأنبياء ثم لمن بعدهم فى الرتبة، وهم الصديقون، ثم الشهداء، ثم عموم المؤمنين، وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم.

ثم أثنى عليهم تعالى فقال: ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾. وروى البخارى عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من نبي يمرض إلا خير بين الدنيا والآخرة» وكان فى شكواه الذى قبض فيه، فأخذته بحة شديدة، فسمعتة يقول: «مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ» فعلمت أنه خير. وكذا رواه مسلم (١). وهذا معنى قوله ﷺ فى الحديث الآخر: «اللهم الرفيق الأعلى» ثلاثا: ثم قضى، عليه أفضل الصلاة والتسليم (٢).

وسبب نزول هذه الآية الكريمة : ما روى ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل من الأنصار إلى النبی ﷺ وهو محزون، فقال له النبی ﷺ : «يا فلان ، مالى أراك محزوناً ؟ » فقال : يا رسول الله ، شئ فكرت فيه ، قال : «ما هو؟» قال : نحن نغدو عليك ونروح، ننظر إلى وجهك ونجالسك، غداً ترفع مع النبيين فلا نصل إليك . فلم يرد عليه النبي ﷺ عليه شيئاً، فاتاه جبريل بهذه الآية: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ الآية . فبعث النبي ﷺ فبشره . وقد روى هذا الأثر مرسلًا عن مسروق، وعن عكرمة، وعامر الشَّعْبِي، وقتادة، وعن الربيع بن أنس، وهو من أحسنها سنداً (٣). وروى ابن مردويه عن عائشة قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنك لأحب إلى من نفسى، وأحب إلى من أهلى، وأحب إلى من ولدى، وإنى لأكون فى البيت فأذكرك فما أصبر حتى أتيك فانظر إليك، وإذا ذكرت موتى وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإن دخلت

(١) البخارى (٨/ ١٩٢ فتح) ومسلم (٢/ ٢٤٥، ٢٤٦).

(٢) انظر صحيح مسلم (٢/ ٢٤٦).

(٣) حديث سعيد بن جبير - مرسلًا - هو فى الطبرى (٩٩٢٤). وكذلك المرسلات التى أشار إليها الحافظ ابن كثير ورواها الطبرى عند ذلك الموضع.

الجنة خشيت ألا أراك. فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزلت عليه: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾. وهكذا رواه الحافظ أبو عبد الله المقدسى فى كتابه: «صفة الجنة»، ثم قال: لا أرى بإسناده بأساً. والله أعلم (١). وثبت فى صحيح مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمى، أنه قال: كنت أبيت عند النبي ﷺ فأتيت به بوضوئه وحاجته، فقال لى: «سَلْ». فقلت: يا رسول الله، أسألك مرافقتك فى الجنة. فقال: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟» قلت: هو ذاك. قال: «فَاعْنِى عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ» (٢).

وروى الإمام أحمد عن عمرو بن مرة الجهني قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، شهدت أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله، وصليت الخمس، وأديت زكاة مالى، وصمت شهر رمضان؟ فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ كَانَ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَكَذَا - وَنُصِبَ لِصَبْعِهِ - مَا لَمْ يَعْثُ وَالِدِيهِ» تفرد به أحمد (٣). وروى الترمذى عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الْأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ». ثم قال: هذا حديث حسن (٤).

وأعظم من هذا كله بشارة ما ثبت فى الصحاح والمسانيد وغيرهما، من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة: أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم؟ فقال: «المرء مع من أحب» قال أنس: فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث. وفى رواية عن أنس أنه قال: إني لأحب رسول الله ﷺ، وأحب أبا بكر وعمر، رضى الله عنهما، وأرجو أن يعثنى الله معهم وإن لم أعمل كعملهم (٥).

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ أى: من عند الله برحمته، هو الذى أهلهم لذلك، لا بأعمالهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ أى: هو عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق.

(١) رواه أيضا أبو نعيم فى الحلية (١٢٥/ ٨) عن الطبرانى بإسناده. ونسبه السيوطى (١٨٢/ ٢) لهما أيضا. وذكره الهيثمى فى الزوائد (٧/ ٧) وقال: «رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط، ورجاله رجال الصحيح، غير عبد الله بن عمران العابدى، وهو ثقة». وهذا الحديث مع اعتضاده بالمرسل الماضى عن سعيد بن جبير، وبالمرسلات الأخر التى أشار إليها ابن كثير ورواها الطبرى - يكون حديثا صحيحا لغيره، إن لم يكن صحيحا لصحة إسناده.

(٢) مسلم (١٤٠/ ١). وفى الحديث قصة مطولة، ورواه أحمد وجه آخر (١٦٦٥١، ١٦٦٥٢).

(٣) خفى على مكانه من المسند. وذكره السيوطى (١٨٢/ ٢) ولم ينسبه لغيره. وذكره الهيثمى فى الزوائد (١٤٧/ ٨) وقال: «رواه أحمد، والطبرانى بإسنادين، ورجاله أحد إسنادى الطبرانى رجال الصحيح». وذكره قبل ذلك (٤٦/ ١) بنحو مختصرا، وقال: «رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح، خلا شيخى البزار، وأرجو إسناده أنه إسناده حسن أو صحيح».

(٤) الترمذى (٢٢٧/ ٢). ورواه أيضا الدارمى (٢٤٧/ ٢).

(٥) من حديث طويل فى البخارى (٧/ ٤٠ فتح).

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ (٧١) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُبْلِغَنَّ فَإِنْ أَصَبْتُمْ مُصِيبَةً قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ فَلْيَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

ربع

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم، وهذا يستلزم التأهب لهم ، بإعداد الأسلحة والعُدَد، وتكثير العَدَد بالنفير في سبيله ﴿ثُبَاتٍ﴾ أى: جماعة بعد جماعة، وفرقة بعد فرقة، وسرية بعد سرية، والثبات: جمع ثُبَّة، وقد تجمع الثبة على ثُبِين ﴿أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ يعنى: كلكم. وكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، وقنادة، وغيرهم .

وقوله: ﴿وَأَنَّ مِنْكُمْ لَمَن لِّيُبْلِغَنَّ﴾ قال مجاهد وغير واحد: نزلت فى المنافقين، وقال مقاتل ابن حيان: ﴿لِّيُبْلِغَنَّ﴾ أى: ليتخلفن عن الجهاد. ويحتمل أن يكون المراد أنه يتباطأ هو فى نفسه، ويبطئ غيره عن الجهاد، كما كان عبد الله بن أبى بن سلول - قبحه الله - يفعل، يتأخر عن الجهاد، ويُبْطِئ الناس عن الخروج فيه. وهذا قول ابن جُرَيْج وابن جَرِير؛ ولهذا قال تعالى إخبارا عن المنافق أنه يقول إذا تأخر عن الجهاد: ﴿فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ أى: قتل وشهادة وغلب العدو لكم، لما لله فى ذلك من الحكمة ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ أى: إذ لم أحضر معهم وقعة القتال، يعد ذلك من نعم الله عليه!، ولم يدر ما فاته من الأجر فى الصبر أو الشهادة إن قتل ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أى: نصر وظفر وغنمة ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ أى: كأنه ليس من أهل دينكم ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أى: بأن يضرب لى بسهم معهم فأحصل عليه. وهو أكبر قصده وغاية مراده.

ثم قال تعالى: ﴿فَلْيَقَاتِلْ﴾ أى: المؤمن النافر ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أى: يبيعون دينهم بعرض قليل من الدنيا، وما ذلك إلا لكفرهم وعدم إيمانهم^(١).

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أى: كل من

(١) «شرى» و«اشترى»: يأتیان بمعنى باع، أى: أعطى شيئاً وأخذ بدله. ويأتیان بمعنى «اشترى» المعروف على السنة الناس، أى: أخذ شيئاً وأعطى بدله. فهما من الأضداد، يستعمل كل منهما فى المعنيين المتقابلين. والحافظ ابن كثير فسر «يشرون» فى هذه الآية، بالمعنى الثانى: أنهم يأخذون الحياة الدنيا ويختارونها بدلا من الآخرة. وبذلك جعل «الذين» مفعولا لقوله «فليقاتل»، وبين أن الفاعل محذوف، قدره بقوله «المؤمن النافر». أى: يجب على المؤمن الذى ينفر إلى القتال أن يقاتل الكفار الذين يختارون الحياة الدنيا على الآخرة «ويبيعون دينهم بعرض قليل من الدنيا». وغير ابن كثير فسر الآية على المعنى الآخر، «يشرون»، أى: يبيعون. فيكون المعنى: يجب على المؤمنين الذين يبيعون الحياة الدنيا ويختارون عليها الآخرة - أن يقاتلوا ويكون المفعول محذوفاً للعلم به، أى فليقاتل المؤمنون الكافرين. وكلا المعنيين صحيح جائز. ولكن الذى اختاره ابن كثير أعلى وأدق.

قاتل في سبيل الله - سواء قتل أو غلب - فله عند الله مثوبة عظيمة وأجر جزيل ، كما ثبت في الصحيحين : « تكفل الله للمجاهد في سبيله ، إن توفاه أن يدخله الجنة ، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة » (١) .

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَتَلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾

يحرص تعالى عباده المؤمنين على الجهاد في سبيله ، وعلى السعى في استنقاذ المستضعفين بمكة ، من الرجال والنساء والصبيان المتبرمين من المقام بها ؛ ولهذا قال تعالى : « الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ » يعنى : مكة ، كقوله : « وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ » [محمد : ١٣] .

ثم وصفها بقوله : « الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا » أى : سخر لنا من عندك وليا وناصرا . روى البخارى عن ابن عباس قال : كنت أنا وأمى من المستضعفين . وروى عن ابن أبى مليكة أن ابن عباس تلا : « إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ » قال : كنت أنا وأمى عن عَدَرَ الله عز وجل .

ثم قال تعالى : « الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ » أى : المؤمنون يقاتلون فى طاعة الله ورضوانه ، والكافرون يقاتلون فى طاعة الشيطان . ثم هيَّج تعالى المؤمنين على قتال أعدائه بقوله : « فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا » .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْ لَا أَخْرَجْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

كان المؤمنون في ابتداء الإسلام - وهم بمكة - مأمورين بالصلاة والزكاة وإن لم تكن ذات النُّصَب، لكن كانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة، منها: قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم، ومنها كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام وأشرف بقاع الأرض، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء لائقاً. فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة، لما صارت لهم دار ومنعة وأنصار، ومع هذا لما أمروا بما كانوا يودونه جَزَع بعضهم منه وخافوا من مواجهة الناس خوفاً شديداً ﴿وَقَالُوا إِنَّا لَمُ كَتَبْتُ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: لولا أخرت فرضه إلى مدة أخرى، فإن فيه سفك الدماء، ويؤثم الابناء، وتأثم النساء، وهذه الآية في معنى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُنَزِّلُ سُورَةً إِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ. طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ إِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٠، ٢١]. روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة، فقالوا: يا نبي الله، كنا في عزٍّ ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة! قال: «إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم». فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال، فكفوا. فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ الآية. ورواه النسائي، والحاكم، وابن مردويه^(١).

وقوله: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ أي: آخرة المتقي خير من دنياه ﴿وَلَا تظَلُمُونَ فَتِيلًا﴾ أي: من أعمالكم بل توفونها أتم الجزاء. وهذه تسلية لهم عن الدنيا، وترغيب لهم في الآخرة، وتحريض لهم على الجهاد.

وقوله: ﴿أَيُّمًا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ أي: أنتم صاثرون إلى الموت لا محالة، ولا ينجو منه أحد منكم، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. وَيَقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]. والمقصود: أن كل أحد صائر إلى الموت لا محالة، ولا ينجيه من ذلك شيء، وسواء جاهد أو لم يجاهد، فإن له أجلاً محتوماً، وأمداً مقسوماً، كما قال خالد بن الوليد حين جاءه الموت على فراشه: لقد شهدت كذا وكذا موقفاً، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه جرح من طعنة أو رمية، وما أنا أموت على فراشي! فلا نامت أعين الجبناء^(٢).

وقوله: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ أي: حصينة منيعة عالية رفيعة. أي: لا يغنى حذر وتحصن من الموت، كما قال زهير بن أبي سلمى:

(١) الحاكم (٣٠٧/٢) بنحوه، وصححه على شرط البخاري ووافقه الذهبي. ورواه أيضاً الطبري (٩٩٥١) والبيهقي في السنن الكبرى (١١/٩).

(٢) مضى هذا الأثر عن خالد عند تفسير الآيات: (٢٤٣ - ٢٤٥) من سورة البقرة.

ومن هاب أسباب المنايا يَنْتَهُ ولو رام أسباب السماء بُسْلَمَ

ثم قيل: «الْمُشِيدَةُ» هي الْمَشِيدَةُ كما قال: ﴿وَقَصْرٌ مُّشِيدٌ﴾ [الحج: ٤٥] وقيل: بل بينهما فرق، وهو أن الْمُشِيدَةَ بالتشديد، هي: المطولة، وبالتخفيف هي: المزينة بالشَّيد وهو الجص.

وقوله: ﴿وَأَن تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ﴾ أي: خصب ورزق من ثمار وزروع وأولاد ونحو ذلك. هذا معنى قول ابن عباس وأبي العالية والسدي ﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: قحط وجذب ونقص في الثمار والزروع أو موت أولاد أو نتاج أو غير ذلك. كما يقوله أبو العالية والسدي. ﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: من قبلك وبسبب اتباعنا لك واقتدائنا بدينك. كما قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الاعراف: ١٣١]. وكما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فَِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١]. وهكذا قال هؤلاء المنافقون الذين دخلوا في الإسلام ظاهرا وهم كارهون له في نفس الأمر؛ ولهذا إذا أصابهم شر إنما يسندونه إلى اتباعهم للنبي ﷺ ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: الجميع بقضاء الله وقدره، وهو نافذ في البر والفاجر، والمؤمن والكافر.

ثم قال تعالى منكراً على هؤلاء القائلين هذه المقالة الصادرة عن شك وريب، وقلة فهم وعلم، وكثرة جهل وظلم: ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾.

ثم قال تعالى - مخاطباً للرسول، والمراد جنس الإنسان ليحصل الجواب: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ أي: من فضل الله ومنه ولطفه ورحمته ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ أي: فمن قبلك، ومن عملك أنت، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]. قال قتادة: ﴿فَمِنَ نَفْسِكَ﴾: عقوبة لك يا ابن آدم بذنبك. قال: وذكر لنا أن النبي ﷺ قال: «لا يصيب رجلاً خدش عود، ولا عشرة قدم، ولا اختلاج عرق، إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر». وهذا الذي أرسله قتادة قد روى متصلاً في الصحيح: «والذي نفسى بيده، لا يصيب المؤمن همٌّ ولا حزنٌ، ولا نصبٌ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياها» (١). وروى ابن أبي حاتم عن مطرف بن عبد الله قال: ما تريدون من القدر؟ أما تكفيكم الآية التي في سورة النساء: ﴿وَأَن تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: من نفسك؟! والله ما وكلوا إلى القدر وقد أمرُوا وإليه يصيرون. وهذا كلام مبين قوى، في الرد على القدرية والجبرية أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ أي: تبلغهم شرائع الله، وما يحبه ويرضاه، وما

(١) أثر قتادة رواه الطبري (٩٩٦٩). وذكره السيوطي (٢ / ١٨٥) أنه رواه أيضاً عبد بن حميد. وأما الحديث المتصل، فإنني لم أجده بهذا اللفظ تماماً. ولكن معناه ثابت في الصحيحين من حديث عائشة، ومن حديث أبي هريرة وأبي سعيد. انظر البخاري (١٠ / ٨٩ - ٩١ فتح) ومسلم (٢ / ٢٨٢) والمسند (١٤ / ٨٠).

يكرهه ويأباه ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أى: على أنه أرسلك، وهو شهيد أيضا بينك وبينهم، وعالم بما تبلغهم إياه، وبما يردون عليك من الحق كفراً أو عناداً.

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾
 ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾
 ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله محمد ﷺ بأن من أطاعه فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله، وما ذاك إلا لأنه ما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحى يوحى. روى ابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعنى فقد أطاع الله، ومن عصانى فقد عصى الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعنى، ومن عصى الأمير فقد عصانى». وهذا الحديث ثابت فى الصحيحين (١).

وقوله: ﴿وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ أى: لا عليك منه، إن عليك إلا البلاغ، فمن تبعك سعد ونجا، وكان لك من الأجر نظير ما حصل له، ومن تولى عنك خاب وخسر، وليس عليك من أمره شيء، كما جاء فى الحديث: «من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه» (٢).

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ يخبر تعالى عن المنافقين بأنهم يظهرون الموافقة والطاعة ﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ أى: خرجوا وتواروا عنك ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ أى: استسروا ليلاً فيما بينهم بغير ما أظهروه. فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ﴾ أى: يعلمه ويكتبه عليهم بما يأمر به حفظته الكاتبين، الذين هم موكلون بالعباد. والمعنى فى هذا التهديد: أنه تعالى أخبر بأنه عالم بما يضمرونه ويسرونه فيما بينهم، وما يتفقون عليه ليلاً، من مخالفة الرسول وعصيانه، وإن كانوا قد أظهروا له الطاعة والموافقة، وسيجزئهم على ذلك. كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرُّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٤٧].

وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أى: اصفح عنهم واحلم عليهم، ولا تؤاخذهم، ولا تكشف أمورهم للناس، ولا تحف منهم أيضاً ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أى: كفى به ولياً وناصراً ومعيناً لمن توكل عليه وأتاب إليه.

(١) مضى عند تفسير الآية : (٥٩) من سورة النساء .

(٢) هو جزء من حديث رواه أبو داود مرتين بإسناد صحيح (١٠٩٧ ، ٢١١٩) من حديث عبد الله بن مسعود . وزاد فى آخره : « ولا يضر الله شيئاً » .

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾
 ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾

يقول تعالى أمراً عباده بتدبر القرآن، ونهايا لهم عن الإعراض عنه، وعن تفهم معانيه المحكمة والفاظه البليغة، ومخبراً لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب، ولا تضاد ولا تعارض؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد، فهو حق من حق؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ ثم قال: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ ﴾ أى: لو كان مفتعلاً مختلفاً، كما يقوله من يقوله من جهلة المشركين والمتناقضين فى بواطنهم ﴿ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا ﴾ أى: اضطراباً وتضاداً ﴿ كَثِيرًا ﴾ أى: وهذا سالم من الاختلاف، فهو من عند الله. كما قال تعالى مخبراً عن الراسخين فى العلم حيث قالوا: ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران: ٧] أى: محكمه ومتشابهه حق؛ فلماذا ردوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا، والذين فى قلوبهم زيغ ردّوا المحكم إلى المتشابه فغروا؛ ولهذا مدح تعالى الراسخين وذم الزائغين.

روى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: لقد جلست أنا وأخى مجلساً ما أحب أن لى به حُمر النعم، أقبلت أنا وأخى وإذا مشيخة من صحابة رسول الله ﷺ على باب من أبوابه، فكرهنا أن نفرق بينهم، فجلسنا حجرة، إذ ذكروا آية من القرآن، فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله ﷺ مُغَضَّباً حتى احمر وجهه، يرميهم بالتراب، ويقول: «مهلاً يا قوم، بهذا أهلكتم الأمم من قبلكم، باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتب بعضها ببعض، إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً، بل يصدق بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه» ورواه أيضاً أحمد وابن ماجه مختصراً (١). وروى أحمد عن أبى عمران الجونى قال: كتب إلى عبد الله بن ربّاح، يحدث عن عبد الله بن عمرو قال: هجرت إلى رسول الله ﷺ يوماً، فإنا لجلوس إذ اختلف اثنان فى آية، فارتفعت أصواتهما، فقال: «إنما هلك الأمم قبلكم باختلافهم فى الكتاب». ورواه مسلم والنسائى (٢).

وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها، فيخبر بها ويفشيها وينشرها، وقد لا يكون لها صحة. وقد روى مسلم عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «كفى بالمرء كذباً أن يُحدّث بكل ما سمع». وكذا رواه أبو داود (٣).

(١) الرواية الأولى المطولة فى المسند (٦٧٠٢). والرواية المختصرة فى المسند (٦٦٦٨) وابن ماجه (٨٥). وأسانيدهما كلها صحاح.

وقوله: «فجلسنا حجرة»: هى بفتح الحاء المهملة وسكون الجيم وفتح الراء، أى: ناحية منفردين.

(٢) المسند (٦٨٠١) ومسلم (٣٠٤/٢). وانظر أيضاً المسند (٦٨٤٥، ٦٨٤٦).

(٣) مسلم (٥/١). ورواه ابن حبان فى صحيحه بنحوه (٢٩) بتحقيقنا، وفصلنا تخريجه هناك.

وفى الصحيحين عن المغيرة بن شعبة: أن رسول الله ﷺ نهى عن قيل وقال ، أى: الذى يكثر من الحديث عما يقول الناس من غير تثبت ، ولا تدبر ، ولا تبين . وفى سنن أبى داود أن رسول الله ﷺ قال: «بئس مطية الرجل: زعموا» (١). وفى الصحيح: «من حدث بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين» (٢).

ويذكر هاهنا حديث عمر بن الخطاب المتفق على صحته ، حين بلغه أن رسول الله ﷺ طلق نساءه ، فجاء من منزله حتى دخل المسجد فوجد الناس يقولون ذلك ، فلم يصبر حتى استأذن على رسول الله ﷺ فاستفهمه: أطلقت نساءك؟ قال: «لا». فقلت: الله أكبر. وذكر الحديث بطوله. وعند مسلم: فقلت: أطلقتهن؟ فقال: «لا». فقامت على باب المسجد فنادت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه. ونزلت هذه الآية: «وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يَسْتَبْطُونَهُ مِنْهُمْ» فكنت أنا استببط ذلك الأمر (٣).

ومعنى: «يَسْتَبْطُونَهُ» أى: يستخرجونه من معادنه ، يقال: استببط الرجل العين ، إذا حفرها واستخرجها من قرارها . قوله: «لَا تَبْعُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا» قال ابن عباس: يعنى المؤمنين .

﴿ فَتَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ﴾ (٨٤) مَن يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيمًا (٨٥) وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِنَحْوِهِ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿ (٨٧)

يأمر تعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ أن يياشر القتال بنفسه ، ومن نكل عليه فلا عليه منه ؛ ولهذا قال: «لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ». روى ابن أبى حاتم عن أبى إسحاق قال: سألت البراء بن عازب عن الرجل يلقى المائة من العدو ، فيقاتل ، أ يكون ممن قال الله فيه : «وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ» ؟ [البقرة: ١٩٥] قال: قد قال الله تعالى: «فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ». ورواه الإمام أحمد ، عن سليمان بن داود ، عن أبى بكر بن عيَّاش ، عن أبى إسحاق قال: قلت للبراء: الرجل يحمل على المشركين ، أ هو ممن ألقى بيده إلى التهلكة؟ قال: لا ، إن الله بعث رسوله ﷺ وقال: «فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ» إنما ذلك فى النفقة . وكذا رواه

(١) أبو داود (٤٩٧٢) من حديث أبى مسعود أو حذيفة ، على الشك .

(٢) مسلم (٥ / ١) من حديث سمرة بن جندب والمغيرة بن شعبة . ورواه ابن حبان فى صحيحه (٢٨) بتحقيقنا من حديث سمرة فقط .

(٣) إشارة إلى حديث طويل ، صحيح ثابت ، رواه الشيخان وغيرهما . وانظر المسند ، رقم (٢٢٢) .

ابن مردويه (١).

وقوله: ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: على القتال وورغهم فيه وشجعهم عليه كما قال لهم ﷺ يوم بدر، وهو يسوى الصفوف: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» (٢). وقد وردت أحاديث كثيرة فى الترغيب فى ذلك، فمن ذلك ما رواه البخارى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، هاجر فى سبيل الله أو جلس فى أرضه التى ولد فيها» قالوا: يا رسول الله، أفلا نبشر الناس بذلك؟ فقال: «إن فى الجنة مائة درجة، أعدّها الله للمجاهدين فى سبيل الله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة. وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة» (٣). ورؤى من حديث معاذ وأبى الدرداء وعُبادة نحو ذلك. وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا سعيد، من رضى بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً نبياً، وجبت له الجنة». قال: فعجب لها أبو سعيد فقال: أعدّها علىّ يا رسول الله. ففعل. ثم قال رسول الله ﷺ: «وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة فى الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء إلى الأرض». قال: وما هى يا رسول الله؟ قال: «الجهاد فى سبيل الله». رواه مسلم (٤).

وقوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسِ الدِّينِ كَفَرُوا﴾ أى: بتحريضك إياهم على القتال تنبعت همهم على مناجزة الأعداء، ومدافعتهم عن حوزة الإسلام وأهله، ومقاومتهم ومصابرتهم.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ أى: هو قادر عليهم فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

وقوله: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾ أى: من سعى فى أمر، فترتب عليه خير، كان له نصيب من ذلك ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾ أى: يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذى ترتب على سعيه ونيتته، كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: «اشفعوا تؤجروا، ويقضى الله على لسان نبىه ما شاء» (٥). وقال مجاهد بن جبر: نزلت هذه الآية فى شفاعات الناس بعضهم لبعض. وقال الحسن البصرى: قال الله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ﴾ ولم يقل: من يُشَفِّع.

(١) أسانيد عند أحمد وابن أبى حاتم وابن مردويه - أسانيد صحاح . وهو فى المسند (٤ / ٢٨١ حلى) . وذكره الهيثمى فى الزوائد (٥ / ٣٣٨) عن المسند ، وقال: «ورجاله رجال الصحيح ، غير سليمان بن داود الهاشمى ، وهو ثقة» .

(٢) من حديث رواه مسلم ١٠١ / ٢ ، عن أنس بن مالك .

(٣) البخارى (٦ / ٩ ، ١٠ فتح) . ورواه أيضاً (١٣ / ٣٤٩ ، ٣٥٠) . وثبت فى الأصول المخطوطة والمطبوعة هنا : «وأتى الزكاة» بين الصلاة والصيام . وهذا الحرف لم يروه البخارى فى هذا الحديث يقيناً ، كما فصل ذلك الحافظ ابن حجر ، فلذلك حذفناه ، ولعل الحافظ ابن كثير ذكره من حفظه ، فدخلت عليه رواية فى رواية .

(٤) مسلم (٢ / ٩٧) . (٥) رواه البخارى (٣ / ٢٣٨ فتح) ومسلم (٢ / ٢٩٣) .

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّتَبِعًا﴾ قال ابن عباس، وعطاء، وقتادة أى : حفيظا. وقال مجاهد: شهيدا. وفى رواية عنه: حسيبا. وقال ابن جبير، والسدى، وابن زيد: قديرا. وقال عبد الله بن كثير: المقيت: المواظب وقال الضحاك: المقيت: الرزاق (١).

وقوله: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوْهَا﴾ أى : إذا سلم عليكم المسلمُ فردوا عليه أفضل مما سلم، أو ردوا عليه بمثل ما سلم ، فالزيادة مندوبة، والمماثلة مفروضة. روى ابن جرير عن سلمان الفارسي قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله. فقال: «وعليكم السلام ورحمة الله». ثم أتى آخر فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله. فقال له رسول الله ﷺ: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته». ثم جاء آخر فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فقال له: «وعليك». فقال له الرجل: يا نبي الله، بأبى أنت وأمى، أذاك فلان وفلان فسلمنا عليك فرددت عليهما أكثر مما رددت على. فقال: «إنك لم تدع لنا شيئا، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوْهَا﴾ فرددناها عليك» رواه ابن أبى حاتم معلقا، وراه ابن مردويه من طريق عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه، فذكره مثله . ولم أره فى المسند . والله أعلم (٢) . وفى هذا الحديث دلالة على أنه لا زيادة فى السلام على هذه الصفة: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» ، إذ لو شرع أكثر من ذلك، لزاده رسول الله ﷺ . وروى الإمام أحمد عن عمران بن حصين؛ أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: السلام عليكم. فرد عليه، ثم جلس، فقال: «عشر». ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله. فرد عليه، ثم جلس، فقال: «عشرون». ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فرد عليه، ثم جلس، فقال: «ثلاثون». رواه أبو داود والترمذى والنسائى والبزار؟ قال الترمذى : حسن غريب . وقال البزار : قد روى هذا عن النبي ﷺ من وجوه، هذا أحسنها إسنادا (٣). وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: من عليك من خلق الله، فاردد عليه، وإن كان مجوسيا؛ ذلك بأن الله يقول: ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوْهَا﴾ (٤).

فأما أهل الذمة فلا يُبدؤون بالسلام ولا يزدون، بل يرد عليهم بما ثبت فى الصحيحين، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم: السام عليك!!

(١) الذى رجح الطبرى أنه الصواب : أن معنى «المقيت» : التقدير . انظره (٨ / ٥٨٤) . والظاهر أن سائر المعانى المروية ترجع إلى هذا المعنى بالتأمل الدقيق .

(٢) الطبرى (١٠٠٤٤) . وفصلنا تخريجه هناك ، وهو ليس فى المسند ، كما قال الحافظ ابن كثير . وذكره السيوطى (٢ / ١٨٨) أنه رواه أحمد فى كتاب الزهد . وزاد فى نسبه أيضا أنه رواه ابن المنذر والطبرانى ، وذكر أنه «بسنده حسن» . وهو فى الزوائد (٨ / ٣٣) عن رواية الطبرانى ، ومجموع أسانيده وما قيل فيها تدل على أنه حديث حسن على الأقل .

(٣) المسند (٤ / ٤٣٩ ، ٤٤٠ حلى) . وإسناده صحيح على شرط الشيخين .

(٤) ورواه الطبرى (١٠٠٣٩)، وإسناده وإسناد ابن أبى حاتم صحيحان . ورواه البخارى فى الأدب المفرد (١١٠٧) ، ونقظه : «ردوا السلام على من كان ، يهوديا أو نصرانيا أو مجوسيا ، ذلك بأن الله يقول . . .» وإسناده صحيح أيضا . ونسبه السيوطى (٢ / ١٨٨) أيضا لابن أبى شيبه وابن أبى الدنيا وابن المنذر .

فقل: «وعليك». وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتموهم في طريق فاضطربوهم إلى أضيقتهم». وقال الحسن البصري: السلام تطوع، والرد فريضة. وهذا الذي قاله هو قول العلماء قاطبة: أن الرد واجب على من سلم عليه، فيأثم إن لم يفعل؛ لأنه خالف أمر الله في قوله: ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنِ مَنِهَا أَوْ رُدُّوْهَا﴾.

وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إخبار بتوحيده وتفرده بالإلهية لجميع المخلوقات، وتضمن قسما، لقوله: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. وهذه اللام موطئة للقسم، فقله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر وقسم أنه سيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيجازى كل عامل بعمله. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ أى: لا أحد أصدق منه في حديثه وخبره، ووعدته ووعدته، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ ﴿٨٨﴾ وَدُّوا أَنْ تُكَفِّرُوا كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهْجُرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَنْخِذُوا مِنْهُمْ وَرِثًا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يَقْتُلُوكُمْ قَوْمُهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَتَلُوكُمْ فَإِنْ آعَزَلُوكُمْ فَلَمْ يَقْتُلُوكُمْ وَالْقَوَالُ إِلَيْكُمْ السَّلَامُ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ الْعَٰخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَىٰ الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ ﴿٩١﴾

يقول تعالى منكر على المؤمنين في اختلافهم في المنافقين على قولين. واختلف في سبب ذلك، فروى الإمام أحمد عن زيد بن ثابت: أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين: فرقة تقول: نقتلهم. وفرقة تقول: لا. فانزل الله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إنها طيبة، وإنها تنفى الخبث كما ينفى الكبير خبث الحديد». أخرجاه في الصحيحين (١). وقد ذكر ابن إسحاق في وقعة أحد: أن عبد الله بن أبي ابن سلول رجع يومئذ بثلاث الجيش، رجع بثلاثمائة وبقي النبي ﷺ في سبعائة.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ﴾ أى: ردهم وأوقعهم في الخطأ ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ أى: بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول واتباعهم الباطل ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أى: لا طريق له إلى الهدى ولا مخلص له إليه.

ثم قال: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ أى: هم يودون لكم الضلالة لتستولوا أئتم وإياهم فيها، وما ذاك إلا لشدة عداوتهم وبغضهم لكم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أى: تركوا الهجرة، ابن عباس. وقال السدى: أظهروا كفرهم ﴿فَتُخَذُوا مِنْهُمْ أَقْلُومُهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أى: لا توالوهم ولا تستنصروا بهم على الأعداء ما داموا كذلك.

ثم استثنى الله، سبحانه، من هؤلاء فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ أى: إلا الذين لجؤوا وتحيزوا إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة أو عقد ذمة، فاجعلوا حكمهم كحكمهم. وهذا قول السدى، وابن زيد، وابن جرير. وقد روى ابن أبى حاتم عن على بن زيد بن جُدعان، عن الحسن: أن سراقه بن مالك المدلجى حدثهم قال: لما ظهر - يعنى النبى ﷺ - على أهل بدر وأحد، وأسلم من حولهم، قال سراقه: بلغنى أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي - بنى مدلج - فأتيته فقلت: أنشدك النعمة. فقالوا: صه. فقال النبى ﷺ: «دعوه، ما تريد؟». قال: بلغنى أنك تريد أن تبعث إلى قومي، وأنا أريد أن توادعهم، فإن أسلم قومك أسلموا ودخلوا فى الإسلام، وإن لم يسلموا لم تخشُ قلوب قومك عليهم. فأخذ رسول الله ﷺ بيد خالد بن الوليد، فقال: «أذهب معه فافعل ما يريد». فصالحهم خالد على ألا يعينوا على رسول الله ﷺ، وإن أسلمت قريش أسلموا معهم. فأنزل الله: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾. ورواه ابن مردويه وقال: فأنزل الله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾، فكان من وصل إليهم كانوا معهم على عهدهم^(١). وهذا أنسب لسياق الكلام. وفى صحيح البخارى فى قصة صلح الحديبية: فكان من أحب أن يدخل فى صلح قريش وعهدهم، ومن أحب أن يدخل فى صلح محمد وأصحابه وعهدهم.

وقوله: ﴿أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتٌ مِنْهُم أَوْ يَقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾: هؤلاء قوم آخرون من المُسْتَثْنَيْنِ عن الأمر بقتالهم، وهم الذين يجيئون إلى المصاف، وهم حَصْرَةٌ صدورهم، أى: ضيقة صدورهم مبغضين أن يقاتلوكم، ولا يهون عليهم أيضا أن يقاتلوا قومهم معكم، بل هم لا لكم ولا عليكم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾ أى: من لطفه بكم أن كفهم عنكم ﴿فَإِنِ اعْتَزَلْتُمْ فَلَهُمُ الْيَقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمُ السَّلَامُ﴾ أى: المسألة ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ أى: فليس لكم

(١) نسبة السيوطى أيضاً (٢ / ١٩١) لابن أبى شيبة وأبى نعيم فى الدلائل، وإسناد ابن أبى حاتم إلى الحسن إسناد صحيح، إلا أن الكلام فى سماع الحسن من سراقه بن مالك. ففى المراسيل لابن أبى حاتم (ص ١٥) عن على بن المدبني، قال: «روى الحسن بن أبى الحسن عن سراقه حدثهم، من رواية على بن زيد بن جُدعان، وهو إسناد ينبو عنه القلب: أن يكون الحسن سمع من سراقه، إلا أن يكون معنى حديثهم: حدث الناس، فهذا أشبه». ثم روى عن عبد الله بن أحمد قال: «سئل أبى: سمع الحسن من سراقه؟ قال: لا، هذا على بن زيد يرويه، كأنه لم يفتح به». وهذا مبنى على الرواية أن سراقه مات سنة ٢٤. ولكن فى رواية أخرى أنه مات بعد مقتل عثمان، أى بعد سنة ٣٥. فإن يكن ذلك يكن سماعه منه محتملاً جداً، إذ أنه كان إذ ذاك ميمراً، ففى الثقات لابن حبان أن الحسن احتلم سنة ٣٧، والثابت أنه مات سنة ١١٠ عن ٨٨ سنة، فكانه ولد سنة ٢٢. ويؤيد سماعه منه تصريحه هنا بأن سراقه «حدثهم».

أن تقتلوهم، ما دامت حالهم كذلك، وهؤلاء كالجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بنى هاشم مع المشركين، فحضروا القتال وهم كارهون، كالعباس ونحوه، ولهذا نهى النبي ﷺ يومئذ عن قتل العباس وعبر بأسره.

وقوله: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾: هؤلاء فى الصورة الظاهرة كمن تقدمهم، ولكن نية هؤلاء غير نية أولئك، فإن هؤلاء قوم منافقون يظهرون للنبي ﷺ ولأصحابه الإسلام؛ ليأمنوا بذلك عندهم على دمائهم وأموالهم وذرائعهم، ويصانعون الكفار فى الباطن، فيعبدون معهم ما يعبدون، ليأمنوا بذلك عندهم، وهم فى الباطن مع أولئك، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَاوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾ [البقرة: ١٤]. وقال هاهنا: ﴿كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ أى: انهمكوا فيها. وقال السدى: والفتنة هاهنا: الشرك. وحكى ابن جرير، عن مجاهد: أنها نزلت فى قوم من أهل مكة، كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياء، ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون فى الأوثان، يتبعون بذلك أن يأمنوا هاهنا وهاهنا، فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْزِلُوا عَنْكُمْ يُلَاقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ أى: عن القتال ﴿فَخَذَرُوهُمْ وَأَقْلَبُوهُمْ حَيْثُ تَقَفْتُمُوهُمْ﴾ أى: أين لقيتموهم ﴿وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أى: بينا واضحا.

﴿وَمَا كَانُوا لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانُوا مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُمْ أَنْفُسُكُمْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٩٢) وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (٩٣)

يقول تعالى: ليس لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بوجه من الوجوه، كما ثبت فى الصحيحين، عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والشيب الزانى، والتارك لدينه المفارق للجماعة». ثم إذا وقع شيء من هذه الثلاث، فليس لأحد من آحاد الرعية أن يقتله، وإنما ذلك إلى الإمام أو نائبه.

وقوله: ﴿الْأَخْطَاُ﴾ قالوا: هو استثناء منقطع. واختلف فى سبب نزول هذه الآية، فقال مجاهد وغير واحد: نزلت فى عياش بن أبى ربيعة أخى أبى جهل لأمه - وهى أسماء بنت مخزبة - وذلك أنه قتل رجلا كان يعذبه مع أخيه على الإسلام، وهو الحارث بن يزيد العامرى، فاضمر له عياش السوء، فأسلم ذلك الرجل وهاجر، وعياش لا يشعر، فلما كان يوم الفتح رآه، فظن أنه على دينه، فحمل عليه فقتله. فأنزل الله هذه الآية.

وقوله : «وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَدِيَّةٌ مُسْلِمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ» هذان واجبان في قتل الخطأ، أحدهما: الكفارة لما ارتكبه من الذنب العظيم، وإن كان خطأ، ومن شرطها أن تكون عتق رقبة مؤمنة فلا تجزئ الكافرة . وحكى ابن جرير، عن ابن عباس، والشعبي، والنخعي، والحسن البصري أنهم قالوا: لا يجزئ الصغير حتى يكون قاصداً للإيمان. واختار ابن جرير أنه إن كان مولوداً بين أبوين مسلمين أجزأ، وإلا فلا. والذي عليه الجمهور: أنه متى كان مسلماً صح عتقه عن الكفارة، سواء كان صغيراً أو كبيراً. روى الإمام أحمد عن رجل من الأنصار؛ أنه جاء بأمة سوداء، فقال: يا رسول الله، إن على رقبة مؤمنة، فإن كنت ترى هذه مؤمنة أعتقتها. فقال لها رسول الله ﷺ: «أتشهدين أن لا إله إلا الله؟» قالت: نعم. قال: «أتشهدين أنى رسول الله؟» قالت: نعم. قال: «أتؤمنين بالبعث بعد الموت؟» قالت: نعم، قال: «أعتقتها». وهذا إسناد صحيح، وجهالة الصحابي لا تضر^(١). وفي موطأ الإمام مالك، ومسندي الشافعي وأحمد، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود والنسائي، عن معاوية بن الحكم: أنه لما جاء بتلك الجارية السوداء قال لها رسول الله ﷺ: «أين الله؟» قالت: في السماء. قال: «من أنا؟». قالت: أنت رسول الله. قال: «أعتقتها فإنها مؤمنة»^(٢).

وقوله : «وَدِيَّةٌ مُسْلِمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ» هو الواجب فيما بين القاتل وأهل القتيل، عوضاً لهم عما فاتهم من قريبهم. وهذه الدية إنما تجب أحماساً، كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن ابن مسعود، قال: قضى رسول الله ﷺ في دية الخطأ: عشرين بنت مخاض، وعشرين بنى مخاض ذكورا، وعشرين بنت لبون، وعشرين جذاعاً، وعشرين حقة. لفظ النسائي، قال الترمذي: لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وقد روى عن عبد الله موقوفاً^(٣). وقيل: تجب أرباعاً. وهذه الدية إنما تجب على عاقلة القاتل، لا فى ماله، قال الشافعي: لم أعلم مخالفاً أن رسول الله ﷺ قضى بالدية على العاقلة، وهو أكثر من حديث الخاصة. وهذا الذى أشار إليه، رحمه الله، قد ثبت فى غير ما حديث، فمن ذلك: ما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة قال: اقتلت امرأتان من هذيل، فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما فى بطنها، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ، فقضى أن دية جنيها غرة، عبد أو أمة، وقضى بدية المرأة على عاقلتها. وهذا يقتضى

(١) المسند (١٥٨٠٨). ورواه أيضاً إمام الأئمة ابن خزيمة فى كتاب التوحيد، (ص ٨٢). وهو حديث صحيح متصل. وذكره الهيثمى فى الزوائد (١/ ٢٣، ٤/ ٢٤٤)، وقال فى الموضعين: «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح». ورواه مالك فى الموطأ، (ص ٧٧٧) مرسلًا. وقد ثبت وصله بروايتى أحمد وابن خزيمة. وثبت معناه أيضاً من حديث أبى هريرة، فى المسند (٧٨٩٣)، وإسناده صحيح. وأشرنا إلى هذا هناك.

(٢) هو جزء من حديث طويل فى صحيح مسلم (١/ ١٥١). وقد مضى جزء آخر منه (٢/ ١٤٠) منسوباً لصحيح مسلم فقط. وقد أطلق الحافظ ابن كثير هنا أن حادثة الرجل من الأنصار فى الحديث السابق - هى حادثة معاوية بن الحكم نفسها، فقال: «لما جاء بتلك الجارية السوداء»! وفى هذا نظر، لأن معاوية بن الحكم السلمى: من بنى سليم - بضم السين - وبنو سليم ليسوا من الأنصار يقيناً، ففى كلامه هذا تساهل. وتعدد الحادتين أقرب إلى الصواب.

(٣) المسند مختصراً ومطولاً: (٣٦٣٥، ٤٣٠٣) والنسائي (٢/ ٢٤٨) والترمذي (٢/ ٣٠٢، ٣٠٣).

أن حكم عمد الخطأ حكم الخطأ المحض في وجوب الدية، لكن هذا تجب فيه الدية أثلاثاً كالعمد، لشبهه به. وفي صحيح البخارى، عن عبد الله بن عمر قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بنى جذيمة، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا. فجعلوا يقولون: صباناً صباناً! فجعل خالد يقتلهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فرفع يديه وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد». وبعث علياً فودى قتلاهم وما أتلف من أموالهم، حتى ميلغة الكلب (١). وهذا يؤخذ منه أن خطأ الإمام أو نائبه يكون في بيت المال.

وقوله: «إِلَّا أَنْ يَصُدَّقُوا» أى: فتجب فيه الدية مسلمة إلى أهله إلا أن يتصدقوا بها فلا تجب.

وقوله: «فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُمْ مِنْكُمْ فَرَقَوْهُ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً» أى: إذا كان القاتل مؤمناً، ولكن أولياؤه من الكفار أهل حرب، فلا دية لهم، وعلى قاتله تحرير رقبة مؤمنة لا غير.

وقوله: «وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ» الآية، أى: فإن كان القاتل أولياؤه أهل ذمة أو هدنة، فلهم دية قتلهم، فإن كان مؤمناً فدية كاملة، وكذا إن كان كافراً أيضاً عند طائفة من العلماء. وقيل: يجب في الكافر نصف دية المسلم، وقيل: ثلثها، ويجب أيضاً على القاتل تحرير رقبة مؤمنة

«فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَابَعَيْنِ» أى: لا إفطار بينهما، بل يسرد صومهما إلى آخرهما،

(١) حديث ابن عمر رواه البخارى في موضعين اثنين فقط (٨ / ٤٥ ، ٤٦ ، ١٣ / ١٥٨ فتح) ورواه أحمد (٦٣٨٢) والنسائي (٢ / ٣٠٨). وآخره عندهم كلهم: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد». وهو عندهم بأطول مما هنا قليلاً. ولكن قوله: «ويعت علياً» إلخ - ليس من حديث ابن عمر على اليقين، ولا يوجد في شيء من رواياته. بل هو تلخيص بالمعنى من رواية ابن إسحاق في السيرة عن حكيم بن حكيم عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين - وهو أبو جعفر الباقر - مرسلًا، لأن الباقر تابعى معروف. فهذه الرواية للملخصة عن حديث مرسل، وهم الحافظ ابن كثير، فأدرجها في حديث ابن عمر الصحيح المتصل، وليست منه! والغالب أنه كتب من حفظه، فاختصر حديث ابن عمر وأدرج فيه ملخصاً لرواية أخرى غير متصلة. ولذلك فصلنا حديث ابن عمر المتصل عن رواية الباقر المرسل. وقد استيقنا من ذلك، لأن الروايات لحديث ابن عمر في البخارى والمسنود والنسائي ليس فيها هذه الزيادة، ولأن الحافظ ابن حجر أشار إليها في الفتح (٨ / ٤٦) وذكر أنها من رواية الباقر، ولم ينسبها لغيره. بل إن الحافظ ابن كثير نفسه، نقل في التاريخ (٤ / ٣١٢ - ٣١٤) رواية ابن إسحاق عن حكيم عن الباقر - مطولة، ثم نقل حديث ابن عمر من رواية المسند (٦٣٨٢) على الصواب، ثم ذكر أنه رواه البخارى والنسائي، وانظر رواية ابن إسحاق أيضاً في سيرة ابن هشام (ص ٨٣٣ - ٨٣٩). و«بنو جذيمة»: بفتح الجيم وكسر الذال المعجمة. ووقع في المطبوعة مصحفاً. وضبط في النهاية لابن الأثير بالقلم بوضع ضمة فوق الجيم وفتح فوق الذال! وهو تصحيف أيضاً. وقوله: «صباناً»: أصل معناه: خرجنا من دين إلى دين، وكانت قريش تقول لكل من أسلم: «صباً» - تريد الذم. فلما سمع خالد من بنى جذيمة ذلك ظنهم أنهم يريدون هذا المعنى، فلم يعرف أنهم أخطؤوا لفظاً وأصابوا معنى. فلذلك قتلهم متاولاً. وقوله في الرواية الأخيرة المدرجة: «ميلغة الكلب»: بكسر الميم، وهى الإناء الذى يبلغ فيه الكلب. يعنى أنه أعطاهم قيمة كل ما ذهب منهم، حتى الشيء الضئيل.

فإن أظطر من غير عذر - من مرض أو حيض أو نفاس - استأنف . واختلفوا في السفر: هل يقطع أم لا؟ على قولين .

وقوله: ﴿تَوْبَةُ مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أى: هذه توبة القاتل خطأ، إذا لم يجد العتق صام شهرين متتابعين . واختلفوا فيمن لا يستطيع الصيام: هل يجب عليه إطعام ستين مسكينا، كما في كفارة الظهار؟ على قولين: أحدهما: نعم . كما هو منصوص عليه في كفارة الظهار، وإنما لم يذكر هاهنا؛ لأن هذا مقام تهديد وتخويف وتحذير ، فلا يناسب أن يذكر فيه الإطعام ، لما فيه من التسهيل والترخيص . والقول الثانى: لا يعدل إلى الطعام؛ لأنه لو كان واجبا لما أخر بيانه عن وقت الحاجة .

ثم لما بين تعالى حكم القتل الخطأ، شرع في بيان حكم القتل العمد، فقال: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ ، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم، الذى هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله، حيث يقول، سبحانه، في سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ الآية [الفرقان: ٦٨] . وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١] .

والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جدا . من ذلك: ما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء» . وفى الحديث الآخر الذى رواه أبو داود عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال المؤمن مُعْنَقًا صالحا ما لم يصب دما حراما، فإذا أصاب دما حراما بَلَحَ» (١) . وفى حديث آخر: «لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم» (٢) . وقد كان ابن عباس ، رضى الله عنهما، يرى أنه لا توبة للقاتل عمدا المؤمن . وروى البخارى عن سعيد بن جبير قال: [آية] اختلف فيها أهل الكوفة، فَرَحَلْتُ إلى ابن عباس فسألته عنها ؟ فقال: نزلت هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ ، هى آخر ما نزل ، وما نسخها شيء ورواه مسلم والنسائى وأبو داود (٣) . وروى ابن جرير عن سالم بن أبى الجعد قال: كنا عند ابن عباس بعد ما كُف بصره، فأثاه رجل

(١) هو من حديث طويل رواه أبو داود (٤٢٧٠) عن أم الدرداء ، وعن عبادة بن الصامت . وقوله : « معنقا » : بضم الميم وسكون العين وكسر النون وآخر قاف ، أى: سريع السير خفيف الظهر . وقوله : « بلح » : بفتح الباء وتشديد اللام المفتوحة وآخره حاء مهملة ، أى : أعيا فى السير وانقطع .
(٢) رواه الترمذى (٣٠٦ / ٢) والنسائى (١٦٣ / ٢) من حديث عبد الله بن عمرو ، مرفوعا وموقوفا . ورواه ابن ماجه (٢٦١٩) من حديث البراء بن عازب مرفوعا ، وصحح البوصيرى إسناده . ورواه النسائى أيضا (١٦٣ / ٢) بنحوه ، من حديث بريدة . وإسناده صحيح .

(٣) البخارى (٨ / ١٩٣ ، ١٩٤ فتح) . وكلمة [آية] سقطت من الأصول المخطوطة والمطبوعة ، وزدناها من البخارى .

فناداه: يا عبد الله بن عباس، ما ترى في رجل قتل مؤمنا متعمدا؟ فقال: ﴿جَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾. قال: أفرأيت إن تاب وعمل صالحا ثم اهتدى؟! قال ابن عباس: ثكلته أمه! وأناى له التوبة والهدى؟ والذي نفسى بيده، لقد سمعت نبيكم ﷺ يقول: «ثكلته أمه، قاتل مؤمنا متعمدا، جاء يوم القيامة آخذه يمينه أو بشماله، تَشَخَّب أوداجه، في قُبُل عرش الرحمن، يلزم قاتله بيده الأخرى، يقول: يارب، سل هذا فيم قتلنى؟ وايم الذى نفس عبد الله بيده، لقد أنزلت هذه الآية، فما نسختها من آية حتى قبض نبيكم ﷺ، وما نزل بعدها من برهان. وقد رواه أحمد والنسائي وابن ماجه (١). وقد روى هذا عن ابن عباس من طرق كثيرة.

ومن ذهب إلى أنه لا توبة له من السلف: زيد بن ثابت، وأبو هريرة، وعبد الله بن عمرو، وأبوسلمة بن عبد الرحمن، وعبيد بن عمير، والحسن، وقناة، والضحاك، نقله ابن أبى حاتم.

وفى الباب أحاديث كثيرة: فمن ذلك ما رواه ابن مردويه عن عبد الله بن مسعود، عن النبى ﷺ قال: «يجىء المقتول متعلقا بقاتله يوم القيامة، آخذًا رأسه بيده الأخرى فيقول: يا رب، سل هذا فيم قتلنى؟» قال: «فيقول: قتلته لتكون العزة لك. فيقول: فإنها لى». قال: «ويجىء آخر متعلقا بقاتله، فيقول: رب، سل هذا فيم قتلنى؟» قال: «فيقول قتلته لتكون العزة لفلان». قال: «فإنها ليست له فيبوء بإثمه». قال: «فيهوى فى النار سبعين خريفا». ورواه النسائي (٢). وروى الإمام أحمد عن معاوية، سمعت النبى ﷺ يقول: «كل ذنب عسى الله أن يغفره، إلا الرجل يموت كافرا، أو الرجل يقتل مؤمنا متعمدا». رواه النسائي (٣). وروى الإمام أحمد عن عقبة بن مالك الليثى قال: بعث رسول الله ﷺ سرية، فأغارت على قوم، فشد من القوم رجل، فاتبعه رجل من السرية شاهرا سيفه، فقال الشاد من القوم: إنى مسلم. فلم ينظر فيما قال، فقتله، فَنَمَى الحديث إلى رسول الله ﷺ، فقال فيه قولاً شديداً، فبلغ القاتل. فبينما رسول الله ﷺ يخطب، إذ قال القاتل: والله ما قال الذى قال إلا تعودا من القتل. قال: فأعرض رسول الله ﷺ عنه وعن قبله من الناس، وأخذ فى خطبته، ثم قال أيضا: يا رسول الله، ما قال الذى قال إلا تعودا من القتل، فأعرض عنه وعن قبله من الناس، وأخذ فى خطبته، ثم لم يصبر، فقال الثالثة: والله - يا رسول الله - ما قال الذى قال إلا تعودا من القتل. فأقبل عليه رسول الله ﷺ تُعَرِّفُ المساءة فى وجهه، فقال: «إن الله أبى على من قتل مؤمنا» ثلاثاً. ورواه النسائي (٤).

(١) الطبرى (١٠١٨٨)، وإسناده صحيح. ورواه أيضا مطولا ومختصرا (١٠١٨٩ - ١٠١٩١)، والمستند مطولا ومختصرا (١٩٤١، ٢١٤٢، ٢٦٨٣) بأسانيد صحاح.

(٢) النسائي (١٦٤/٢). وإسناده صحيح.

(٣) مضى عند تفسير الآيتين: (٤٧، ٤٨) من سورة النساء.

(٤) المسند (٥/٢٨٨، ٢٨٩ حلى)، وذكره الهيثمى فى الزوائد (١/٢٦، ٢٧) وقال: «رواه الطبرانى فى الكبير وأحمد وأبو يعلى، ورجاله ثقات كلهم»، وهو كما قال. وهذا يدل على أن نسبة الحفاظ ابن كثير إياه للنسائي إنما يريد به السنن الكبرى، ولم نجهده فى السنن الصغرى.

والذى عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها: أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله عز وجل، فإن تاب وأتاب وخشع وخضع، وعمل عملاً صالحاً، بدل الله سيئاته حسنات، وعوض المقتول من ظلامته وأرضاه عن طلابته.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا. إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨، ٦٩]، وهذا خبر لا يجوز نسخه. وحمله على المشركين، وحمل هذه الآية على المؤمنين خلاف الظاهر، ويحتاج حمله إلى دليل، والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. وهذا عام في جميع الذنوب، من كفر وشرك، وشك ونفاق، وقتل وفسق، وغير ذلك: كل من تاب من أى ذلك تاب الله عليه.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]. فهذه الآية عامة في جميع الذنوب ما عدا الشرك، وهى مذكورة فى هذه السورة الكريمة بعد هذه الآية وقبلها، لتقوية الرجاء، والله أعلم. وثبت فى الصحيحين خبر الإسرايلى الذى قتل مائة نفس، ثم سأل عالماً: هل لى من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟! ثم أرشده إلى بلد يعبد الله فيه، فهاجر إليه، فمات فى الطريق، فقبضته ملائكة الرحمة. وإن كان هذا فى بنى إسرائيل، فلأن يكون فى هذه الأمة التوبة مقبولة بطريق الأولى والأخرى؛ لأن الله وضع عنا الأغلال والأصار التى كانت عليهم، وبعث نبينا بالحنيفية السمحة. فأما الآية الكريمة، وهى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ الآية، فقد قال أبو هريرة وجماعة من السلف: هذا جزاؤه إن جازاه، وقد رواه ابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعاً، ولكن لا يصح. ومعنى هذه الصيغة: أن هذا جزاؤه إن جوزى عليه، وكذا كل وعيد على ذنب، لكن قد يكون كذلك معارض من أعمال صالحة تمنع وصول ذلك الجزاء إليه، على قولى أصحاب الموازنة أو الإحباط. وهذا أحسن ما يسلك فى باب الوعيد، والله أعلم بالصواب. وبتقدير دخول القاتل فى النار، إما على قول ابن عباس ومن وافقه أنه لا توبة له، أو على قول الجمهور حيث لا عمل له صالحاً ينجو به، فليس بمخلد فيها أبداً، بل الخلود هو المكث الطويل. وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ: أنه يخرج من النار من كان فى قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان. وأما حديث معاوية: «كل ذنب عسى الله أن يغفره، إلا الرجل يموت كافراً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً»، فـ«عسى» للترجى، فإذا انتفى الترجى فى هاتين الصورتين لا ينتفى وقوع ذلك فى أحدهما، وهو القتل؛ لما ذكرنا من الأدلة. وأما من مات كافراً؛ فالنص أنه لا يُغفر له البتة، وأما مطالبة المقتول القاتل يوم القيامة، فإنه حق من حقوق الأدميين وهى لا تسقط بالتوبة، ولا فرق بين المقتول والمسروق منه، والمغصوب منه والمقذوف وسائر حقوق الأدميين، فإن الإجماع منعقد على أنها لا تسقط بالتوبة،

ولابد من أداؤها إليهم في صحة التوبة، فإن تعذر ذلك فلا بد من الطلابة يوم القيامة، لكن لا يلزم من وقوع الطلابة وقوع المجازاة، وقد يكون للمقاتل أعمال صالحة تصرف إلى المقتول أو بعضها، ثم يفضل له أجر يدخل به الجنة، أو يعوض الله المقتول من فضله بما يشاء، من قصور الجنة ونعيمها، ورفع درجته فيها، ونحو ذلك، والله أعلم.

ثم للقتل العمد أحكام في الدنيا وأحكام في الآخرة، فأما الدنيا فتسلط أولياء المقتول عليه، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣]، ثم هم مخيروا بين أن يقتلوا، أو يعفوا، أو يأخذوا دية مغلظة أثلاثا: ثلاثون حقة، وثلاثون جذعة، وأربعون خلفة، كما هو مقرر في كتب الأحكام.

واختلف الأئمة: هل تجب عليه كفارة عتق رقبة، أو صيام شهرين متتابعين، أو إطعام؟ على أحد القولين، كما تقدم في كفارة الخطأ؟ على قولين: فالشافعي وأصحابه وطائفة من العلماء يقولون: نعم، يجب عليه؛ لأنه إذا وجبت عليه الكفارة في الخطأ فلأن تجب في العمد أولى. وطرّدوا هذا في كفارة اليمين الغموس، واعتضدوا بقضاء الصلاة المتروكة عمداً، كما أجمعوا على ذلك في الخطأ. وقال أصحاب الإمام أحمد وآخرون: قتل العمد أعظم من أن يكفر، فلا كفارة فيه، وكذا اليمين الغموس، ولا سبيل لهم إلى الفرق بين هاتين الصورتين وبين الصلاة المتروكة عمداً، فإنهم يقولون: بوجوب قضائها وإن تركت عمداً.

وقد احتج من ذهب إلى وجوب الكفارة في قتل العمد بما رواه الإمام أحمد عن واثلة بن الأسقع قال: أتى النبي ﷺ نفر من بنى سليم، فقالوا: إن صاحباً لنا قد أوجب. قال: «فليعتق رقبة، يفدى الله بكل عضو منها عضواً منه من النار» ورواه أبو داود والنسائي (١).

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ كَفَرَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: مر رجل من بنى سليم بنفر من أصحاب النبي ﷺ يرعى غنماً له، فسلم عليهم فقالوا: لا يسلم علينا إلا ليتعوذ منا. فعمدوا إليه فقتلوه، وأتوا بغنمه النبي ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ ورواه الترمذی، وقال: حسن صحيح. والحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وابن جرير (٢).

(١) المسند (١٧٠٥٢) وأبو داود، بنحوه (٢٩٦٤). ورواه أحمد أيضاً قبل ذلك بنحوه (١٦٠٧٧، ١٦٠٧٩). وإسناده صحيح.

(٢) المسند (٢٠٢٣). ورواه أيضاً (٢٤٦٢، ٢٩٨٨) والترمذی (٩٠ / ٤) والحاكم (٢٣٥ / ٢) ووافقه الذهبي على تصحيحه، والطبري (١٠٢١٧). ورواه البخاري (١٩٤ / ٨) فتح مختصراً بنحوه، وفيه تفسير ابن عباس «عرض الحياة الدنيا» بأنه «تلك الغنيمة». ورواه سعيد بن منصور أيضاً، بنحوه مختصراً، دون تفسير ابن عباس.

الله ﷺ إلى إصم، فخرجت في نفر من المسلمين، فيهم: أبو قتادة الحارث بن ربیع، ومُحَلَّم بن جثامة بن قيس، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إصم مر بنا عامر بن الأضبط الأشجعي، على قعود له، معه مُتَيْع ووطب من لبن، فلما مر بنا سلم علينا، فأمسكنا عنه، وحمل عليه محلم بن جثامة فقتله، لشيء كان بينه وبينه، وأخذ بعيره ومُتَيْع، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ وأخبرناه الخبر، نزل فينا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿خَيْرًا﴾. تفرد به أحمد (١). وروى ابن جرير عن ابن عمر قال: بعث رسول الله ﷺ مُحَلَّم بن جثامة مبعثاً، فلقبهم عامر بن الأضبط، فحياهم بتحية الإسلام وكانت بينهم حنة في الجاهلية، فرماه محلم بسهم فقتله، فجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ، فتكلم فيه عيينة والأقرع، فقال الأقرع: يا رسول الله، سرُّ اليوم وغير غدا. فقال عيينة: لا والله، حتى تذوق نساؤه من الثكل ما ذاق نساؤي. فجاء محلم في بردين، فجلس بين يدي رسول الله ﷺ ليستغفر له، فقال رسول الله ﷺ: «لا غفر الله لك». فقام وهو يتلقى دموه ببرديه، فما مضت له سابعة حتى مات، ودفنوه، ولفظته الأرض، فجاءوا إلى النبي ﷺ فذكروا ذلك له، فقال: «إن الأرض تقبل من هو شر من صاحبكم، ولكن الله أراد أن يعظكم» ثم طرحوه في جبل، وألقوا عليه الحجارة، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ الآية (٢). وروى البزار عن ابن عباس قال: بعث

(١) المسند (٦ / ١١ حلى). ورواه أيضا الطبري (١٠٢١٢)، وذكره الهيثمي في الزوائد (٨ / ٧) وقال: «رواه أحمد والطبراني، ورجاله ثقات». ورواه ابن سعد بنحوه، بإسناد آخر (٤ / ٢٢ / ٢٣). وذكره أيضا (٢ / ٩٦)، وزاد السيوطي (٢ / ١٩٩، ٢٠٠) نسبه لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبى نعيم والبيهقي في الدلائل.

(٢) الطبري (١٠٢١١). وذكره السيوطي (٢ / ٢٠٠) مختصراً، ولم ينسبه لغير الطبري. وفي إسناد الطبري ضعف، لأن شيخه «سفيان بن وكيع» تكلموا فيه من قبل حفظه وعدم ضبطه. ولكن حديث عبد الله بن أبي حذرر، صحيح له. وله شاهد آخر صحيح: فقد نقل الهيثمي في الزوائد (١ / ٢٧) نحو هذه القصة: «عن جندب بن سفيان - رجل من بجيلة - قال: إني لعند رسول الله ﷺ حين جاء بشير من سريره، فأخبره بالنصر الذي نصر الله سريره وبالفتح الذي فتح الله لهم، وقال: يا رسول الله، بينا نحن نطلب القوم وقد هزمهم الله تعالى، إذ سحقت رجلاً بالسيف، فواقعه وهو يسعى وهو يقول إني مسلم، إني مسلم، قال: فقتلته؟ فقال: يا رسول الله، إنما تعوذ، قال: فهلا شققت عن قلبه فنظرت أصادق هو أم كاذب؟ قال: لو شققت عن قلبه ما كان علمي! هل قلبه إلا بضعة من لحم؟ قال: لا ما في قلبه تعلم، ولا لسانه صدقت، قال: يا رسول الله، استغفر لي، قال: لا أستغفر لك، فمات ذلك الرجل فدفنوه، فأصبح على وجه الأرض، ثم دفنوه فأصبح على وجه الأرض، ثلاث مرات، فلما رأوا ذلك استحيوا وخزوا مما لقي، فاحتملوه فآلقوه في شعب من تلك الشعاب». قال الهيثمي: «رواه الطبراني في الكبير وأبو يعلى، وفي إسناده عبد الحميد بن بهرام وشهر بن حوشب، وقد اختلف في الاحتجاج بهما». أقول: وكلاهما ثقة. وقال الهيثمي أيضاً: «قلت: هو في الصحيح باختصار». أقول: يشير بذلك إلى وقعة أخرى رواها مسلم (١ / ٣٩، ٤٠) من حديث جندب أيضاً، ولكن تلك الوقعة يظن جندب أنها مع أسامة بن زيد، ولم يذكر موت ذاك القتال. أما هذه القصة - التي من رواية ابن عمر ومن رواية جندب، والتي فيها موت القتال ولفظ الأرض إياه - فقد روى ابن ماجه (٣٩٣٠) نحوها من حديث عمران بن حصين أيضاً. بإسنادين صحيحين. فقد تأيدت من أوجه مختلفة يقوى بعضها بعضاً. وقد مضى ما يؤيد أكثر معناها أيضاً (ص ٦٥٨) من حديث عقبة بن مالك.

رسول الله ﷺ سرية، فيها المقداد بن الأسود، فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا، وبقي رجل له مال كثير لم يبرح، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله. وأهوى إليه المقداد فقتله، فقال له رجل من أصحابه: أقتلت رجلاً شهد أن لا إله إلا الله؟! والله لأذكرن ذلك للنبي ﷺ. فلما قدموا على رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله، إن رجلاً شهد أن لا إله إلا الله، فقتله المقداد. فقال: «ادعوا لى المقداد. يا مقداد، أقتلت رجلاً يقول: لا إله إلا الله؟ فكيف لك بلا إله إلا الله غدا؟». قال: فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَائِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾ فقال رسول الله ﷺ للمقداد: «كان رجل مؤمن يخفى إيمانه مع قوم كفار، فأظهر إيمانه، فقتلته، وكذلك كنت تخفى إيمانك بمكة قبل» (١).

وقوله: ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَائِمٌ كَثِيرَةٌ﴾ أى: خير مما رغبتم فيه من عرض الحياة الدنيا الذى حملكم على قتل مثل هذا الذى ألقى إليكم السلام، وأظهر لكم الإيمان، فتغافلتم عنه، واتهمتموه بالمصانعة والتقية؛ لتبتغوا عرض الحياة الدنيا، فما عند الله من الرزق الحلال خير لكم من مال هذا.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أى: قد كنتم من قبل هذه الحال كهذا الذى يُسر إيمانه ويخفيه من قومه، كما تقدم فى الحديث المرفوع آنفاً، وكما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية [الأنفال: ٢٦]، وهذا مذهب سعيد بن جبیر، واختيار ابن جرير. وقوله: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ تأكيد لما تقدم. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قال سعيد بن جبیر: هذا تهديد ووعيد.

﴿لَا يَسْتَوِ الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٩٥) دَرَجَتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٦﴾

(١) ذكره الهيثمى فى الزوائد (٨ / ٩) وقال : « رواه البزار ، وإسناده جيد » . وقد روى البخارى (١٢ / ١٦٨ فتح) - بعضه مختصراً تعليقاً ، فقال الحافظ : « وهذا التعليق وصله البزار والدارقطنى فى الأفراد والطبرانى فى الكبير » . وكذلك نسب له السيوطى (٢ / ٢٠٠) . وأشار إليه الحافظ فى الفتح قبل ذلك (٨ / ١٩٤) منسوباً للبزار فقط . وأشار إليه فى التهذيب بإيجاز (٢ / ٣٣) . وأشار إليه فيه مفصلاً (٢ / ٩٤ ، ٩٥) فى ترجمة « جعفر بن سلمة » ، فأشار لرواية البخارى المعلقة ، ثم قال : « ووصله البزار والطبرانى والدارقطنى فى الأفراد - كلهم من طريق جعفر بن سلمة هذا عن المقدمى . وقال البزار : لا نعلمه يروى عن ابن عباس إلا من هذا الوجه ، ولا له عنه إلا هذا الطريق . وقال الدارقطنى : تفرد به حبيب بن أبى عمرة ، وتفرد به عنه المقدمى . قلت [القائل ابن حجر] : وإنما تفرد المقدمى بوصله ، وإلا فقد أخرجه الطبرى فى التفسير والحديث بن أبى أسامة فى مسنده ، من طريق سفيان الثورى عن حبيب عن سعيد بن جبیر - مرسلًا ، لم يذكر ابن عباس » . وهو يشير إلى رواية الطبرى (١٠٢٢٤) . ووقع فى مطبوعة التهذيب : « الطبرانى » ، وهو خطأ مطبعى يقيناً . وثبت على الصواب فى الفتح (١٢ / ١٦٨) .

روى البخارى عن البراء قال: لما نزلت : ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال النبي ﷺ : « ادع فلانا » فجاءه ومعه الدواة واللوح والكتف ، فقال : « اكتب : لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله » وخلف النبي ﷺ ابن أم مكتوم ، فقال : يا رسول الله ، أنا ضير فتزلت مكانها : ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (١) . وروى البخارى عن سهل بن سعد الساعدي : أنه رأى مروان بن الحكم فى المسجد ، قال : فأقبلتُ حتى جلستُ إلى جنبه ، فأخبرنا : أن زيد بن ثابت أخبره : أن رسول الله ﷺ أُملى على : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله » . فجاء ابن أم مكتوم ، وهو يملئها على ، قال : يا رسول الله ، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت - وكان أعمى - فأنزل الله على رسوله ﷺ ، وفخذه على فخذي ، فثقلتُ على حتى خفت أن تُرض فخذي ، ثم سُرى عنه ، فأنزل الله : ﴿غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ﴾ . تفرد به البخارى دون مسلم (٢) ، وقد روى من وجه آخر عند الإمام أحمد عن خارجة بن زيد قال : قال زيد بن ثابت : إني قاعد إلى جنب النبي ﷺ ، إذ أُوحى إليه ، وغشيتة السكينة ، قال : فرفع فخذه على فخذي حين غشيتة السكينة . قال زيد : فلا والله ما وجدت شيئاً قط أثقل من فخذ رسول الله ﷺ ، ثم سُرى عنه فقال : « اكتب يا زيد » . فآخذتُ كتفا ، فقال : « اكتب : لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون » إلى قوله : ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ . فكتبت ذلك فى كتف ، فقام حين سمعها ابن أم مكتوم - وكان رجلاً أعمى - فقام حين سمع فضيلة المجاهدين ، قال : يا رسول الله ، وكيف بمن لا يستطيع الجهاد ممن هو أعمى ، وأشبه ذلك؟ قال زيد : فوالله ما قضى كلامه - أو ما هو إلا أن قضى كلامه - غشيت النبي ﷺ السكينة ، ف وقعت فخذه على فخذي ، فوجدت من ثقلها كما وجدت فى المرة الأولى ، ثم سُرى عنه ، فقال : « اقرأ » . فقرأت عليه : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون » فقال النبي ﷺ : « ﴿غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ﴾ » قال زيد : فآلحقتها ، فوالله كأنى أنظر إلى ملحقها عند صدع كان فى الكتف . ورواه أبو داود نحوه (٣) .

وروى عبد الرزاق عن قبيصة بن ذؤيب ، عن زيد بن ثابت قال : كنت أكتب لرسول الله ﷺ [فقال : « اكتب : لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله »] ، فجاء عبد الله بن أم مكتوم فقال : يا رسول الله ، إني أحب الجهاد فى سبيل الله ، ولكن بى من الزمانة ما قد ترى ، ذهب بصرى . قال زيد : فثقلت فخذ رسول الله ﷺ على فخذي ، حتى خشيت أن ترضها ، ثم سُرى عنه ، ثم قال : « اكتب : ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ﴾ »

(١) البخارى (٨ / ١٩٦) . ورواه البخارى وغيره من أوجه كثيرة عن البراء ، بنحوه . وهو فى الطبرى بسبعة أسانيد : (١٠٢٣٣ - ١٠٢٣٧ ، ١٠٢٤٨ ، ١٠٢٤٩) . وقد فصلنا القول فى تخريجه هناك .

(٢) البخارى (٨ / ١٩٥ ، ١٩٦) ، وكذلك رواه الطبرى (١٠٢٣٩) . وفصلنا تخريجه هناك .

(٣) المسند (٥ / ١٩٠ ، ١٩١ حلى) . بإسنادين صحيحين . ورواه الحاكم (٢ / ٨١ ، ٨٢) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى .

وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٩٥﴾. ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير^(١) وابن عباس أخبره: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عن بدر، والخارجون إلى بدر. انفرد به البخارى دون مسلم . وقد رواه الترمذى وزاد : لما نزلت غزوة بدر قال عبد الله بن جحش وابن أم مكتوم : إنا أعميان يا رسول الله ، فهل لنا رخصة؟ فنزلت : ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ وفضل الله المجاهدين على القاعدين درجة ، فهؤلاء القاعدون غير أولى الضرر ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِنْهُ﴾ على القاعدين من المؤمنين غير أولى الضرر. هذا لفظ الترمذى، ثم قال: حسن غريب من هذا الوجه^(٢).

فقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كان مطلقاً، فلما نزل بوحى سريع: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ صار ذلك مخرجاً لذوى الأعذار المبيحة لترك الجهاد - من العمى والعرج والمرض - عن مساواتهم للمجاهدين فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم.

ثم أخبر تعالى بفضيلة المجاهدين على القاعدين، قال ابن عباس: غير أولى الضرر. وكذا ينبغى أن يكون، كما ثبت فى صحيح البخارى عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم من مسير، ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه» قالوا: وهم بالمدينة يا رسول الله؟ قال: «نعم حبسهم العذر» ورواه أحمد وأبو داود^(٣).

وقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ أى: الجنة والجزاء الجزيل. وفيه دلالة على أن الجهاد ليس بفرض عين، بل هو فرض على الكفاية.

ثم قال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، ثم أخبر تعالى بما فضلهم به من الدرجات، فى غرف الجنان العاليات، ومغفرة الذنوب والزلات، وأحوال الرحمة والبركات، إحساناً منه وتكريماً؛ ولهذا قال: ﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى، أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة

(١) تفسير عبد الرزاق (ص ٤٨ مخطوط مصور) والطبرى (١٠٢٣٠) من طريق عبد الرزاق . وكذلك رواه أحمد (٥ / ١٨٤ حلى) ، عن عبد الرزاق . والزيادة التى أثبتناها هنا ثابتة عندهم وفى مطبوعة ابن كثير . ولكنها ساقطة فى المخطوطتين .

(٢) رواية البخارى المختصرة ، فى الفتح (٨ / ١٩٦ ، ١٩٧) . ورواية الترمذى المطولة ، فى الترمذى (٤ / ٩١) . ورواها الطبرى (١٠٢٤٢) . وعنده «أبو أحمد بن جحش» - بدل «عبد الله بن جحش» . وهو الصواب ، لأن عبد الله بن جحش لم يكن أعمى وقد قتل شهيداً فى غزوة أحد . والأعمى هو «أبو أحمد» أخوه ، واسمه «عبد» بدون إضافة ، وقيل أيضاً «عبد الله» ، فلو صح لم تكن رواية الترمذى خطأ . وأبو أحمد هذا كان من السابقين الأولين . قال ابن إسحاق : «كان ضريباً ، يطوف بمكة أعلاها وأسفلها بغير قائد» .

(٣) البخارى (٨ / ٩٦ فتح) .

مائة درجة، أعدھا الله للمجاهدين فی سبیلہ، ما بین کل درجتین كما بین السماء والأرض» (١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ وَمَنْ يَهِاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمُوتْ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾

ربع

روى البخارى عن محمد بن عبد الرحمن أبى الأسود قال: قُطِعَ على أهل المدينة بعث، فاكتمت فيه، فلقيتُ عكرمة مولى ابن عباس فأخبرته، فنهاني عن ذلك أشد النهى، قال: أخبرني ابن عباس: أن ناسا من المسلمين كانوا مع المشركين، يكثر سواد المشركين على رسول الله ﷺ، يأتى السهم يُرمى به، فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب عنقه فيقتل، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ (٢). وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم، قال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا، فاستغفروا لهم، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية، قال: فكتب إلى من بقى من المسلمين بهذه الآية: لا عذر لهم. قال: فخرجوا، فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٨] (٣). فنزلت هذا الآية الكريمة عامة فى كل من أقام بين ظهرائى المشركين وهو قادر على الهجرة، وليس متمكنا من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه مرتكب حراما بالإجماع، وبنص هذه الآية، حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أى: بترك الهجرة ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ أى: لم مكثتم هاهنا وتركتم الهجرة؟ ﴿قَالُوا كُنَّا

(١) وهم الحفاظ ابن كثير فى نسبة هذا للصحيحين من حديث أبى سعيد. وقد ذكره السيوطى (٢/ ٢٠٥)، ونسبه لعبد بن حميد وابن أبى حاتم فقط. وهذا اللفظ رواه البخارى (٦/ ٩، ١٠، ١٣/ ٣٤٩، ٣٥٠ فتح)، ضمن حديث لأبى هريرة. وهو من أفراد البخارى، كما نص عليه الحفاظ فى الفتح (٦/ ١٣٥). وقد مضى حديث أبى هريرة كاملا، نسبة ابن كثير هناك للبخارى، على الصواب عند تفسير الآيات: (٨٤ - ٨٧) من سورة النساء. وروى مسلم ٩٧/ ٢ حديثا لأبى سعيد، فيه معنى هذا الحديث، ولكنه بسياق آخر. وقد مضى عند تفسير الآيات: (٨٤ - ٨٨) من سورة النساء.

(٢) البخارى (٨/ ١٩٧، ١٩٨). و «التب»: بضم التاء الأولى وكسر الثانية بالبناء للمجهول. ورواه أيضا الطبرى (١٠٢٦١، ١٠٢٦٢).

(٣) ورواه الطبرى (١٠٢٦٠)، وإسناده عندهما صحيح. وزاد السيوطى (٢/ ٢٠٥) نسبه لابن المنذر وابن مردويه والبيهقى. وذكره الهيثمى فى الزوائد (٧/ ٩، ١٠)، وقال: «رواه البزار، رجاله رجال الصحيح، غير محمد بن شريك، وهو ثقة».

مُسْتَظْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴿١﴾ أَيْ: لَا نَقْدِرُ عَلَى الْخُرُوجِ مِنَ الْبَلَدِ، وَلَا الذَّهَابِ فِي الْأَرْضِ ﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. وروى أبو داود عن سمرة بن جندب: أما بعد، قال رسول الله ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله» (١).

وقوله: ﴿إِلَّا الْمُسْتَظْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ هذا عذر من الله تعالى لهؤلاء في ترك الهجرة، وذلك أنهم لا يقدرون على التخلص من أيدي المشركين، ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق، ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾. قال مجاهد، وعكرمة، والسدي: يعنى طريقا.

وقوله: ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ أَيْ: يتجاوز عنهم بتركهم الهجرة، ﴿وَعَسَى﴾ من الله موجبة ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا غَفُورًا﴾ (٢). روى البخارى عن أبى هريرة قال: بينا رسول الله ﷺ يصلى العشاء إذ قال: «سمع الله لمن حمده». ثم قال قبل أن يسجد: «اللهم أنج عياش بن أبى ربيعة، اللهم نج سلمة بن هشام، اللهم نج الوليد بن الوليد، اللهم نج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف» (٣).

وقوله: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافَعًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾: هذا تحريض على الهجرة، وترغيب في مفارقة المشركين، وأن المؤمن حيثما ذهب وجد عنهم مندوحة وملجأ يتحصن فيه، و«المراغم»: مصدر، تقول العرب: راغم فلان قومه مراغما ومراغمة، وقال ابن عباس: «المراغم»: التحول من أرض إلى أرض. وقال مجاهد: يعنى: متزحزحا عما يكره. والظاهر - والله أعلم - أن المراغم: هو التمتع الذى يتحصن به، ويراعم به الأعداء. قوله: ﴿وَسَعَةً﴾ يعنى: الرزق. قاله غير واحد.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أَيْ: ومن خرج من منزله بنية الهجرة، فمات فى أثناء الطريق، فقد حصل له عند الله ثواب من هاجر، كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما من الصحاح والمسانيد والسنن عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».

(١) أبو داود (٢٧٨٧).

(٢) وقع سهواً فى المطبوعة من «عمدة التفسير»: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ وهو خطأ واضح. (الباز).

(٣) البخارى (١٩٨/٨ فتح). وقد وقع فى متن البخارى المطبوع بهامش الفتح فى هذا الموضع «عن أبى سلمة» -

فقط - دون ذكر «عن أبى هريرة»! وهو خطأ من الناسخين فى نسخة المتن التى طبع عنها هذا الموضع.

وثبت على الصواب فى سائر نسخ البخارى الصحيحة الموثوق بها. انظر الطبعة السلطانية (٤٨/٦)، (٤٩).

والحديث حديث أبى هريرة معروف. وأبو سلمة بن عبد الرحمن تابعى يرويه عن أبى هريرة.

ثم ذكر ابن كثير هنا حديث ابن عباس فى أنه وأمه كانا من المستضعفين - من روايتى عبد الرزاق والبخارى.

وقد مضى عند تفسير الآيتين: (٧٥، ٧٦) من سورة النساء.

وهذا عام في الهجرة وفي كل الأعمال . ومنه الحديث الثابت في الصحيحين ، في الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً . ثم أكمل بذلك العابد المائة ، ثم سأل عالماً : هل له من توبة؟ فقال : ومن يَحُولُ بينك وبين التوبة؟ ثم أرشده إلى أن يتحول من بلده إلى بلد أخرى يعبد الله فيه ، فلما ارتحل من بلده مهاجراً إلى البلد الأخرى ، أدركه الموت في أثناء الطريق ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقال هؤلاء : إنه جاء تائباً . وقال هؤلاء : إنه لم يَصِلْ بَعْدُ . فأمرُوا أن يقيسوا ما بين الأرضين ، فإلى أيهما كان أقرب فهو منها ، فأمر الله هذه أن تقترب من هذه ، وهذه أن تبعد ، فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشيراً ، فقبضته ملائكة الرحمة . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عتيك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من خرج من بيته مجاهداً في سبيل الله - ثم قال بأصابعه هؤلاء الثلاث : الوسطى والسبابة والإبهام ، فجمعهن وقال : وأين المجاهدون ؟ - فخرَّ عن دابته فمات فقد وقع أجره على الله ، أو لدغته دابة فمات ، فقد وقع أجره على الله ، أو مات حتف أنفه ، فقد وقع أجره على الله - يعني بحتف أنفه على فراشه ، والله إنها للكلمة ما سمعتها من أحد من العرب قبل رسول الله ﷺ - ومن قتل قَعَصاً فقد استوجب المآب » (١) . وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : خرج ضَمْرَةُ ابن جندب إلى رسول الله ﷺ ، فمات في الطريق قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ ، فنزلت : « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ » الآية (٢) .

﴿ وَإِذَا ضَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ (١٠١)

يقول تعالى : « وَإِذَا ضَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ » أى : سافرتُم في البلاد ، كما قال تعالى : « عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ » الآية [المزمل : ٢٠] .

وقوله : « فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ » أى : تخففوا فيها ، إما من كميتها بأن تجعل الرابعة ثنائية ، كما فهمه الجمهور من هذه الآية ، واستدلوا بها على قصر الصلاة في السفر ، على اختلافهم في ذلك : فمن قائل : لا بد أن يكون سفر طاعة ، من جهاد ، أو حج ، أو عمرة ،

(١) المسند (١٦٤٨٥) ، ورواه الحاكم (٨٨ / ٢) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » . ووافقه الذهبي . وهو في مجمع الزوائد (٥ / ٢٧٦ ، ٢٧٧) ، ونسبه لأحمد والطبراني وذكره الحافظ في الإصابة (٤ / ١٠١) ، ونسبه لأحمد والبخاري في التاريخ وابن أبي خيثمة وابن شاهين والطبراني ، ونسبه السيوطي (٢ / ٢٠٩) لابن سعد أيضاً . وكان متن الحديث ناقصاً ومحرّفاً في المطبوعة ، فصححناه من المخطوطتين والمسند . و « القعص » - يفتح القاف وسكون العين المهملة : أن يضرب الإنسان فيموت مكانه . وأراد بوجوب المآب : حسن المرجع بعد الموت .

(٢) إسناده صحيح . ورواه الطبري (١٠٢٩٤) ينحوه ، بإسناد آخر صحيح . وذكره الهيثمي في الزوائد (٧ / ١٠) بلفظ أطول قليلاً ، وقال : « رواه أبو يعلى ، ورجاله ثقات » . ونسبه السيوطي (٢ / ٢٠٧) لأبي يعلى وابن أبي حاتم والطبراني « بسند رجاله ثقات » ، ثم لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم « من وجه آخر » .

أو طلب علم، أو زيارة، أو غير ذلك، كما هو مروى عن ابن عمر وعطاء، ويحكى عن مالك فى رواية عنه نحوه، لظاهر قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

ومن قائل: لا يشترط سفر القرية، بل لابد أن يكون مباحا، لقوله: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣]، فما أباح له تناول الميتة مع اضطراره إلا بشرط ألا يكون عاصيا بسفره. وهذا قول الشافعى وأحمد وغيرهما من الأئمة.

ومن قائل: يكفي مطلق السفر، سواء كان مباحا أو محظورا، حتى لو خرج لقطع الطريق وإخافة السبيل، ترخص، لوجود مطلق السفر. وهذا قول أبى حنيفة، والثورى وداود، لعموم الآية وخالفهم الجمهور. وأما قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فقد يكون هذا خرج مخرج الغالب حال نزول هذه الآية، فإن فى مبدأ الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة، بل ما كانوا ينهضون إلا إلى غزو عام، أو فى سرية خاصة، وسائر الأحياء حرب الإسلام وأهله، والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب أو على حادثة فلا مفهوم له، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا قِتَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣]، وكقوله تعالى: ﴿وَرَبَائِكُمْ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ الآية [النساء: ٢٣]. وروى الإمام أحمد عن يعلى بن أمية قال: سألت عمر بن الخطاب، قلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقد أمن الناس؟ فقال لى عمر: عجبت مما عجبت منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته». رواه مسلم وأهل السنن. وقال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح. وقال على بن المدينى: هذا حديث صحيح من حديث عمر، ولا يحفظ إلا من هذا الوجه، ورجاله معروفون^(١). وروى ابن أبى شيبة: عن أبى حنظلة الحذاء قال: سألت ابن عمر عن صلاة السفر؟ فقال: ركعتان. فقلت: أين قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ونحن آمنون؟ قال: سنة رسول الله ﷺ^(٢). وروى ابن أبى شيبة عن ابن عباس قال: صلينا مع رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة، ونحن آمنون، لا نخاف بينهما، ركعتين ركعتين ورواه الترمذى والنسائى. قال الترمذى: صحيح^(٣). وروى البخارى عن أنس قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة، فكان يصلى ركعتين ركعتين، حتى رجعنا إلى المدينة. قلت: أقمتكم بمكة شيئا؟ قال: أقمتنا بها عشرا أخرجه الجماعة. وروى الإمام أحمد عن حارثة بن وهب الخزاعى قال: صليت مع النبى ﷺ الظهر والعصر بمنى - أكثر ما كان الناس وآمنه - ركعتين. ورواه الجماعة سوى ابن ماجه^(٤). وروى البخارى ومسلم عن عبدالله بن عمر قال: صليت مع رسول الله ﷺ ركعتين، وأبى بكر وعمر، ومع عثمان صدرا من إمارته، ثم أتمها. وكذا رواه مسلم من حديث يحيى بن

(١) المسند (١٧٤).

(٢) إسناده صحيح. ورواه أحمد (٦١٩٤). ورواه بنحوه مرارا، منها: (٤٧٠٤، ٥٢١٣).

(٣) ورواه أحمد (١٨٥٢، ١٩٩٥، ٣٣١٧) والترمذى بشرحا (٤٥٧).

(٤) المسند (٤/ ٣٠٦ حلى).

سعيد القطان، به . وروى البخارى عن عبد الرحمن بن يزيد قال: صلى بنا عثمان بن عفان بمنى أربع ركعات، فقليل فى ذلك لعبد الله بن مسعود ؟ فاسترجع، ثم قال: صليت مع رسول الله ﷺ بمنى ركعتين، وصليت مع أبى بكر بمنى ركعتين، وصليت مع عمر بن الخطاب بمنى ركعتين، فليت حظى من أربع ركعات ركعتان متبيلتان. وأخرجه مسلم .

فهذه الأحاديث دالة صريحا على أن القصر ليس من شرطه وجود الخوف؛ ولهذا قال من قال من العلماء: إن المراد من القصر هاهنا إنما هو قصر الكيفية لا الكمية . وهو قول مجاهد، والضحاك، والسدى كما سيأتى بيانه، واعتضدوا أيضا بما رواه الإمام مالك، عن عائشة، أنها قالت: فرضت الصلاة ركعتين ركعتين فى السفر والحضر، فأقرت صلاة السفر؛ وزيد فى صلاة الحضر . وقد روى هذا الحديث البخارى، ومسلم، وأبو داود، والنسائى . قالوا: فإذا كان أصل الصلاة فى السفر هى الثنتين، فكيف يكون المراد بالقصر هاهنا قصر الكمية؟ لأن ما هو الأصل لا يقال فيه: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ . وأصرح من ذلك دلالة على هذا، ما رواه الإمام أحمد عن عمر، قال: صلاة السفر ركعتان، وصلاة الأضحى ركعتان، وصلاة الفطر ركعتان، وصلاة الجمعة ركعتان، تمام غير قصر، على لسان محمد ﷺ ورواه النسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه . وإسناده على شرط مسلم^(١) . وقد روى مسلم، وأبو داود، والنسائى، وابن ماجه، عن عبد الله بن عباس قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم محمد ﷺ فى الحضر أربعاً، وفى السفر ركعتين، وفى الخوف ركعة^(٢) .

فهذا ثابت عن ابن عباس، ولا ينافى ما تقدم عن عائشة لأنها أخبرت أن أصل الصلاة ركعتان، ولكن زيد فى صلاة الحضر، فلما استقر ذلك صح أن يقال: إن فرض صلاة الحضر أربع، كما قاله ابن عباس، والله أعلم . لكن اتفق حديث ابن عباس وعائشة على أن صلاة السفر ركعتان، وأنها تامة غير مقصورة، كما هو مصرح به فى حديث عمر، وإذا كان كذلك، فيكون المراد بقوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ قصر الكيفية كما فى صلاة الخوف؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ .

ولهذا قال بعدها: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ الآية، فبين المقصود من القصر هاهنا وذكر صفته وكيفية؛ ولهذا لما اعتضد البخارى «كتاب صلاة الخوف» صدره بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا

(١) المسند (٢٥٧) . وقد ذهبنا هناك إلى ضعف إسناده ، بعلة انقطاعه ، بأن عبد الرحمن بن أبى لىلى لم يسمع من عمر . ثم بينا صحته من وجه آخر ، بروايتى ابن ماجه وابن حزم اللتين فيهما : « عن عبد الرحمن بن أبى لىلى عن كعب بن عجرة عن عمر » . ولكن الحافظ ابن كثير ذهب هنا إلى صحة رواية المسند ، بثبوت سماع ابن أبى لىلى من عمر . وقد استدركنا ذلك فى المسند ، بنقل كلام ابن كثير فى الاستدراك (١٨١٣) . فصح الحديث من الوجهين، والحمد لله .

(٢) ورواه أحمد (٢١٢٤ ، ٢١٧٧) ومسلم (١٩٢/١) وأبو داود (١٢٤٧) والنسائى (٢٢٨/١) وابن ماجه (١٠٦٨) . وقد مضى عند آية صلاة الخوف (٢٣٩) من سورة البقرة . وانظر بعض تخريجه فى الطبرى (٥٥٦٩) .

ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴿١٠٢﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ . وهكذا قال الضحاك ذاك عند القتال، يصلى الرجل الراكب تكبيرتين حيث كان وجهه . وروى ابن جرير عن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد: أنه قال لعبد الله بن عمر: إنا نجد في كتاب الله قصر صلاة الخوف، ولا نجد قصر صلاة المسافر؟ فقال عبد الله : إنا وجدنا نبينا ﷺ يعمل عملا عملنا به^(١) . فقد سمي صلاة الخوف مقصورة، وحمل الآية عليها، لا على قصر صلاة المسافر، وأقره ابن عمر على ذلك ، واحتج على قصر الصلاة في السفر بفعل الشارع لا بنص القرآن .

وأصرح من هذا ما رواه ابن جرير عن سِمَاك الحنفي: سألت ابن عمر عن صلاة السفر ؟ فقال: ركعتان تمام غير قصر، إنما القصر صلاة المخافة . فقلت: وما صلاة المخافة؟ فقال: يصلى الإمام بطائفة ركعة، ثم يجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء، ويجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء، فيصلى بهم ركعة، فيكون للإمام ركعتان، ولكل طائفة ركعة ركعة^(٢) .

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْتَقِمَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَالدَّيْنِ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠١﴾﴾

صلاة الخوف أنواع كثيرة، فإن العدو تارة يكون تجاه القبلة، وتارة يكون في غير صَوْبِهَا، والصلاة تكون رباعية، وتارة تكون ثلاثية بالمغرب، وتارة تكون ثنائية، كالصبح وصلاة السفر، ثم تارة يصلون جماعة، وتارة يلتحم الحرب فلا يقدر على الجماعة، بل يصلون فرادى مستقبلى القبلة وغير مستقبلها، ورجالا وركبانا، ولهم أن يمشوا والحالة هذه، ويضربوا الضرب المتتابع في متن الصلاة .

ومن العلماء من قال: يصلون والحالة هذه ركعة واحدة؛ لحديث ابن عباس المتقدم، وبه قال أحمد بن حنبل . قال المنذرى في الحواشي: وبه قال عطاء ، وجابر ، والحسن ، ومجاهد ، والحكم، وقتادة، وحمام . وإليه ذهب طاوس والضحاك . وقد حكى أبو عاصم العادى ، عن محمد بن نصر المروزي؛ أنه يرى ردّ الصبح إلى ركعة في الخوف ، وإليه ذهب ابن حزم أيضاً . وقال إسحاق بن راهويه: أما عند المسابقة فيجزيك ركعة واحدة، تومئ بها إيماء، فإن لم تقدر

(١) الطبرى (١٠٣١٨) ، وإسناده هنا منقطع . وكذلك رواه أحمد (٥٣٣٣) من طريق مالك بإسناد منقطع ، لكنه ثابت موصولا في المسند (٥٦٨٣ ، ٦٣٥٣) .

(٢) الطبرى (١٠٣٢٧) ، وإسناده صحيح .

فسجدة واحدة؛ لأنها ذكر الله. وقال آخرون: تكفى تكبيرة واحدة. فلعله أراد ركعة واحدة، كما قاله الإمام أحمد بن حنبل وأصحابه، ولكن الذين حكوه إنما حكوه على ظاهره فى الاجتزاء بتكبيرة واحدة، كما هو مذهب إسحاق بن راهويه، وإليه ذهب الأمير عبد الوهاب بن بُخت المكي، حتى قال: فإن لم يقدر على التكبيرة فلا يتركها فى نفسه، يعنى بالنية، رواه سعيد بن منصور فى سننه عن إسماعيل ابن عيَّاش، عن شعيب بن دينار، عنه، قاله أعلم^(١).

ومن العلماء من أباح تأخير الصلاة لعذر القتال والمناجزة، كما أخر النبی ﷺ يوم الأحزاب الظهر والعصر، فصلاهما بعد الغروب، ثم صلى بعدهما المغرب ثم العشاء. وكما قال بعدها - يوم بنى قريظة، حين جهز إليهم الجيش -: «لا يصلين أحدٌ منكم العصر إلا فى بنى قريظة»، فأدركتهم الصلاة فى أثناء الطريق، فقال منهم قائلون: لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيلَ المسير، ولم يرد منا تأخير الصلاة عن وقتها، فصلوا الصلاة لوقتها فى الطريق. وأخر آخرون منهم صلاة العصر، فصلوها فى بنى قريظة بعد الغروب، ولم يُعْتَفَ رسول الله ﷺ أحداً من الفريقين. وقد تكلمنا على هذا فى كتاب السيرة، وبيننا أن الذين صلوا العصر لوقتها أقرب إلى إصابة الحق فى نفس الأمر، وإن كان الآخرون معذورين أيضاً، والحجة هاهنا فى عذرهم فى تأخير الصلاة لأجل الجهاد والمبادرة إلى حصار الناكثين للعهد، من الطائفة الملعونة اليهود^(٢). وأما الجمهور فقالوا: هذا كله منسوخ بصلاة الخوف، فإنها لم تكن نزلت بعد، فلما نزلت نسخ تأخير الصلاة لذلك. والعجب - كل العجب - أن المِزْنى، وأبا يوسف القاضى، وإبراهيم بن إسماعيل بن عُلَيَّة ذهبوا إلى أن صلاة الخوف منسوخة بتأخيرها، عليه الصلاة والسلام، الصلاة يوم الخندق! وهذا غريب جداً!! وقد ثبتت الأحاديث بعد الخندق بصلاة الخوف.

فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ أى: إذا صليت بهم إماماً فى صلاة الخوف، وهذه حالة غير الأولى، فإن تلك قصرها إلى ركعة، كما دل عليه الحديث، فرادى ورجالا وركبانا، مستقبلى القبلة وغير مستقبلها، ثم ذكر حال الاجتماع والالتزام بإمام واحد. وما أحسن ما استدل به من ذهب إلى وجوب الجماعة من هذه الآية الكريمة، حيث اغتفرت أفعال كثيرة لأجل الجماعة، فلولا أنها واجبة لما ساغ ذلك، وأما من استدل بهذه الآية على أن صلاة الخوف منسوخة بعد النبی ﷺ لقوله: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ﴾ فبعده تفوت هذه الصفة، فإنه استدلال ضعيف، ويَرِدُ عليه مثل قول مانعى الزكاة، الذين احتجوا بقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] قالوا: فنحن لا ندفع زكائنا بعده

(١) عبد الوهاب بن بخت - بفتح الباء وسكون الحاء وآخره تاء مثناة: كان من أمراء الحروب المجاهدين، مولى آل مروان. وهو من شيوخ مالك، وقال مالك: «كان كثير الحج والعمرة والغزو، حتى استشهد»، قتل مقدما فى نحر العدو سنة ١١٣. وشعيب بن دينار - الراوى عنه - هو شعيب بن أبى حمزة الثقة الحافظ.

(٢) انظر: تاريخ ابن كثير (٤/ ١١٦ - ١١٨).

ﷺ إلى أحد، بل نخرجها نحن بأيدينا على من نراه، ولا ندفعها إلا إلى من صلاته، أى: دعاؤه، سكن لنا ! ومع هذا ردَّ عليهم الصحابة وأبوا عليهم هذا الاستدلال، وأجبروهم على أداء الزكاة، وقاتلوا من منعها منهم.

ولنذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة أولاً قبل ذكر صفتها: فروى الإمام أحمد عن أبي عياش الزُّرَقِي ، قال: كنا مع رسول الله ﷺ بعُسفان، فاستقبلنا المشركون، عليهم خالد ابن الوليد، وهم بيننا وبين القبلة، فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر، فقالوا: لقد كانوا على حال لو أصبنا غرَّتْهم. ثم قالوا: تأتى عليهم الآن صلاة هى أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم. قال: فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾. قال: فحضرت، فأمرهم رسول الله ﷺ فأخذوا السلاح، قال: ففصنا خلفه صفين، قال: ثم ركع فركعنا جميعاً، ثم رفع فرفعنا جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ بالصف الذى يليه، والآخرين قيام يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون فسجدوا فى مكانهم ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، وجاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، ثم ركع فركعوا جميعاً، ثم رفع فرفعوا جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ والصف الذى يليه، والآخرين قيام يحرسونهم، فلما جلسوا جلس الآخرون فسجدوا، ثم سلم عليهم، ثم انصرف. قال: فصلّاها رسول الله ﷺ مرتين: مرة بعسفان، ومرة بأرض بنى سليم^(١). ورواه أبو داود والنسائي، وإسناده صحيح، وله شواهد كثيرة، فمن ذلك ما رواه البخارى عن ابن عباس قال: قام النبي ﷺ وقام الناس معه، فكبر وكبروا معه، وركع وركع ناس منهم، ثم سجد وسجدوا معه، ثم قام للثانية فقام الذين سجدوا، وحرسوا إخوانهم، وأنت الطائفة الأخرى فركعوا وسجدوا معه، والناس كلهم فى الصلاة، ولكن يحرس بعضهم بعضاً.

وروى الإمام أحمد عن سليمان بن قيس اليشكرى، عن جابر بن عبد الله قال: قاتل رسول الله ﷺ محارب بن خَصَفَةَ، فجاء رجل منهم يقال له: «غُورْتُ بن الحارث» حتى قام على رسول الله ﷺ بالسيف، فقال: من يمنعك منى؟ قال: «الله»، فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ فقال: «ومن يمنعك منى؟» قال: كن خير آخذ. قال: «أتشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله؟» قال: لا، ولكنى أعاهدك ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلى سبيله، فأتى قومه فقال: جئتكم من عند خير الناس. فلما حضرت الصلاة صلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف، فكان الناس طائفتين: طائفة بإزاء العدو، وطائفة صلوا مع رسول الله ﷺ. فصلّى بالطائفة الذين معه ركعتين، وانصرفوا، فكانوا مكان الطائفة الذين كانوا بإزاء العدو، ثم انصرف الذين كانوا بإزاء العدو فصلوا مع رسول الله ﷺ ركعتين، فكان لرسول الله ﷺ أربع

(١) المسند (١٦٦٥٣، ١٦٦٥٤) وأبو داود (١٢٣٦) والطبرى (١٠٣٢٣، ١٠٣٢٤) والحاكم (١/ ٣٣٧) وصححه، ووافقه الذهبي.

ركعات، وللقوم ركعتين ركعتين. تفرد به من هذا الوجه^(١). وروى ابن أبي حاتم عن يزيد الفقير قال: سألت جابر بن عبد الله عن الركعتين في السفر: أقصرهما؟ قال: الركعتان في السفر تمام، إنما القصر واحدة عند القتال، بينما نحن مع رسول الله ﷺ في قتال إذ أقيمت الصلاة، فقام رسول الله ﷺ فصف طائفة، وطائفة وجهها قبل العدو، فصل بهم ركعة وسجد بهم سجدتين، ثم الذين خلفوا انطلقوا إلى أولئك فقاموا مقامهم ومكانهم نحو ذا، وجاء أولئك فقاموا خلف رسول الله ﷺ فصلى بهم ركعة وسجد بهم سجدتين، ثم إن رسول الله ﷺ جلس وسلم، وسلم الذين خلفه، وسلم أولئك، فكانت لرسول الله ﷺ ركعتين، وللقوم ركعة ركعة، ثم قرأ: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾. وروى الإمام أحمد عن يزيد الفقير، عن جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ صلى بهم صلاة الخوف، فقام صف بين يديه، وصف خلفه، فصلى بالذين خلفه ركعة وسجدتين، ثم تقدم هؤلاء حتى قاموا في مقام أصحابهم، وجاء أولئك حتى قاموا مقام هؤلاء، فصلى بهم رسول الله ﷺ ركعة وسجدتين، ثم سلم. فكانت للنبي ﷺ ركعتين ولهم ركعة. ورواه النسائي^(٢)، ولهذا الحديث طرق عن جابر، وهو في صحيح مسلم من وجه آخر بلفظ آخر، وقد رواه عن جابر جماعة كثيرون في الصحيح والسنن والمسند^(٣). وروى ابن أبي حاتم عن ابن عمر، قال: هي صلاة الخوف، صلى رسول الله ﷺ بإحدى الطائفتين ركعة، والطائفة الأخرى مقبلة على العدو، وأقبلت الطائفة الأخرى التي كانت مقبلة على العدو فصلى بهم رسول الله ﷺ ركعة أخرى، ثم سلم بهم، ثم قامت كل طائفة منهم فصلت ركعة ركعة. وهذا الحديث رواه الجماعة في كتبهم^(٤) ولهذا الحديث طرق كثيرة عن جماعة من الصحابة.

وأما الأمر بحمل السلاح في صلاة الخوف، فمحمول عند طائفة من العلماء على الوجوب، لظاهر الآية، وهو أحد قولي الشافعي: ويدل عليه قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخَذُوا حِذْرَكُمْ﴾ أي: بحيث تكونون على أهبة إذا احتجتم إليها لبستموها بلا كلفة ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾

(١) المسند (١٥٢٥٢). ورواه أيضا من هذا الوجه (١٤٩٨٧). وكذلك رواه الطبري (١٠٣٢٥) من هذا الوجه، بنحوه. وانظر الإصابة (١٩١/٥، ١٩٢) وتاريخ ابن كثير (٨٤/٤، ٨٥) والفتح (٣٢١/٧ - ٣٢٥).
(٢) المسند (١٤٢٢٩). وكذلك رواه الطبري (١٠٣٤٠) من هذا الوجه.
(٣) ورواه أحمد (١٤٤٨٨) عن عطاء عن جابر، (١٥٠٧٩) عن أبي الزبير عن جابر. وكذلك رواه مسلم من هذين الوجهين (٢٣١/١). ورواه أحمد أيضا (١٤٩٨٦) عن أبي سلمة عن جابر.
(٤) المسند (٦٣٥١) ومسلم (٢٣٠/١). ولكنهما لم يذكرَا الآية في أول الحديث.

يأمر الله تعالى بكثرة الذكر عقيب صلاة الخوف، وإن كان مشروعاً مرغبا فيه أيضاً بعد غيرها، ولكن هاهنا أكد لما وقع فيها من التخفيف في أركانها، ومن الرخصة في الذهاب فيها والإياب وغير ذلك، مما ليس يوجد في غيرها، كما قال تعالى في الأشهر الحرم: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، وإن كان هذا منهيًا عنه في غيرها، ولكن فيها أكد لشدة حرمتها وعظمتها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ أي: في سائر أحوالكم. ثم قال: ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ﴾ أي: فإذا أمتم وزهد الخوف، وحصلت الطمأنينة ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: فأقيموا وأقيموها كما أمرتم بحدودها، وخشوعها، وركوعها، وسجودها، وجميع شؤونها.

وقوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ قال ابن عباس: أي مفروضاً. وقال ابن مسعود (١): إن للصلاة وقتاً كوقت الحج. وكذا روى عن مجاهد وسالم بن عبد الله وغيرهما. وقال زيد بن أسلم: ﴿مَوْقُوتًا﴾: منجماً، كلما مضى نجم، جاءتهم، يعني: كلما مضى وقت جاء وقت.

وقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ أي: لا تضعفوا في طلب عدوكم، بل جدوا فيهم وقاتلوهم، واقعدوا لهم كل مرصد: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ أي: كما يصيبكم الجراح والقتل، كذلك يحصل لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ثم قال: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ أي: أنتم وإياهم سواء فيما يصيبكم وإياهم من الجراح والآلام، ولكن أنتم ترجون من الله المثوبة والنصر والتأييد، وهم لا يرجون شيئاً من ذلك، فأنتم أولى بالجهاد منهم، وأشد رغبة في إقامة كلمة الله وإعلانها ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: هو أعلم وأحكم فيما يقدره ويقضيه، وينفذه ويمضيه، من أحكامه الكونية والشرعية، وهو المحمود على كل حال.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ (١٠٥) وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَاتًا أَشِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَتَأْتُمْ هَوَآءَ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾

يقول تعالى مخاطباً لرسوله محمد ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي: هو حق من الله، وهو يتضمن الحق في خبره وظله.

(١) وقع سهواً في المطبوع من عمدة التفسير « وقال أيضاً » - أي ابن عباس - بدل « وقال ابن مسعود » ، والمثبت هو الموافق للمخطوطة . (الباز) .

وقوله: ﴿لَتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ احتج به من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان ﷺ له أن يحكم بالاجتهاد بهذه الآية، وبما ثبت في الصحيحين عن أم سلمة؛ أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بباب حجرته، فخرج إليهم فقال: «ألا إنما أنا بشر، وإنما أقتضى بنحو مما أسمع، ولعل أحدكم أن يكون الحن بحجته من بعض، فأقتضى له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من نار فليحملها أو ليذرها» (١). وروى الإمام أحمد عن أم سلمة قالت: جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ﷺ في مواريث بينهما قد درست، ليس عندهما بينة، فقال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إلي، وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم أن يكون الحن بحجته من بعض، وإنما أقتضى بينكم على نحو مما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه؛ فإنما أقطع له قطعة من النار، يأتي بها إسظاماً في عنقه يوم القيامة». فبكى الرجلان وقال كل منهما: حقى لأخى. فقال رسول الله ﷺ: «أما إذ قلتما فاذها فاقسما، ثم توخيا الحق بينكما، ثم استهما، ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه». وقد رواه أبو داود. وزاد: «إني إنما أقتضى بينكما برأى فيما لم ينزل على فيه» (٢).

وقوله: ﴿يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ الآية، هذا إنكار على المنافقين في كونهم يستحفون بقبائحهم من الناس لئلا ينكروا عليهم، ويجاهرون الله بها لأنه مطلع على سرائرهم وعالم بما في ضمائرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ تهديد لهم ووعيد.

ثم قال: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى: هب أن هؤلاء انتصروا في الدنيا بما أبدوه أو أبدى لهم عند الحكام الذين يحكمون بالظاهر - وهم متعبدون بذلك - فماذا يكون صنيعهم يوم القيامة بين يدى الله، عز وجل، الذى يعلم السر وأخفى؟ ومن ذا الذى يتوكل لهم يومئذ فى ترويج دعواهم؟ أى: لا أحد يكون يومئذ لهم وكيلًا، ولهذا قال: ﴿أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَحْدِ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾
 ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١١١) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيًّا فَقَدْ آخَضَ أَخْلَصَ بِهِنَّ وَإِنَّمَا مِثْلُنَا ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلَوْكَ وَمَا يُضِلُّهُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (١١٢)

(١) البخارى (٥/ ٧٧، و١٢/ ٢٩٩، و٣٠٠، و١٣/ ١٣٩، و١٥١، و١٥٢، و١٥٦ فتح) ومسلم (٢/ ٤٠) كلاهما بنحوه.

(٢) المسند (٦/ ٣٢٠ حلى). ورواه أبو داود بإسنادين مختصرا (٣٥٨٤، ٣٥٨٥). والزيادة التى هنا فى آخرهما. و «الإسظام» بكسر الهمزة وسكون السين - و «السطام» - بكسر السين: الحديد التى تحرك بها النار وتسر.

يخير، تعالى، عن كرمه وجوده: أن كل من تاب إليه تاب عليه من أى ذنب كان، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

قال ابن عباس: أخبر الله عباده بحلمه وعفوه وكرمه وسعة رحمته، ومغفرته، فمن أذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيراً ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال. رواه ابن جرير (١). وروى ابن جرير أيضاً عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: كان بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم ذنباً أصبح قد كُتِبَ كفارة ذلك الذنب على بابهِ، وإذا أصاب البول منه شيئاً قرضه بالمقراض. فقال رجل: لقد أتى الله بنى إسرائيل خيراً! فقال عبد الله: ما آتاكم الله خيراً مما آتاهم، جعل الماء لكم طهوراً، وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥] وقال: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٢). وروى أيضاً عن حبيب بن أبى ثابت قال: جاءت امرأة إلى عبد الله بن مغفل، فسألته عن امرأة فَجَرَتْ فحبلت، فلما ولدت قتلت ولدها؟ قال عبد الله بن مغفل: ما لها؟ لها النار، فانصرفت وهي تبكى، فدعاها ثم قال: ما أرى أمرك إلا أحد أمرين: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. قال: فمسحت عينها، ثم مضت (٣). وروى الإمام أحمد عن علي، قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً ينفعنى الله بما شاء أن ينفعنى عنه. وحدثني أبو بكر - وصدق أبو بكر - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يذنب ذنباً ثم يتوضأ فيصلى ركعتين، ثم يستغفر الله لذلك الذنب إلا غفر له». وقرأ هاتين الآيتين: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ الآية، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ الآية (٤).

وقوله: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ الآية: [فاطر: ١٨] يعنى: أنه لا يجنى أحد على

(١) الطبرى (١٠٤٢٤).

(٢) الطبرى (١٠٤٢٢)، وإسناده صحيح. وزاد السيوطى (٢/ ٢١٩) نسبته لعبد بن حميد والطبرانى والبيهقى فى الشعب. وذكره الهيثمى فى الزوائد (٧/ ١١) من رواية الطبرانى، وقال: «ورجاله رجال الصحيح، إلا أن ابن سيرين ما أظنه سمع من ابن مسعود». وابن سيرين أصغر من أن يدرك ابن مسعود. ولكن إسناده الطبرى هو من رواية أبى وائل عن ابن مسعود، فهو متصل صحيح، وهو من غير الوجه الذى رواه عنه الطبرانى، كما هو ظاهر.

(٣) الطبرى (١٠٤٢٣). وإسناده صحيح أيضاً. قال أخى السيد محمود شاكر: «وهذا الخبر من محاسن الأخبار الدالة على الفقيه وبصره بأمور دينه، ونصيحته للناس فى أمور دينهم». أقول: ولم يكن عبد الله بن مغفل ولا حبيب بن أبى ثابت قاذفين فى حكاية هذا الخبر؛ لأنهما لم يعينا شخص المرأة. ثم لم يكن عبد الله بن مغفل فى سلطان الحكم حتى يقيم عليها الحد إذ اعترفت له. بل كان شقيقاً ناصحاً لها فى أمر دينها. وهكذا شأن العلماء الكلمة، رضى الله عنهم.

(٤) المسند (٤٧). وقد مضى أيضاً عند تفسير الآيات: (١٣٠ - ١٣٦) من سورة آل عمران. عن رواية المسند، رقم (٢). ومضت الإشارة إليه أيضاً عند تفسير الآية: (٤٣) من سورة النساء.

أحد، وإنما على كل نفس ما عملت، لا يحمل عنها غيرها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أى: من علمه وحكمته، وعدله ورحمته كان ذلك.

ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ هذا التقرير وهذا التوبيخ عام فى كل من هذه صفته . ثم قال :

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ وَمَا يُضْلُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾.

ثم امتن عليه بتأييده إياه فى جميع الأحوال، وعصمته له، وما أنزل عليه من الكتاب، وهو القرآن، والحكمة، وهى السنة: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ أى: قبل نزول ذلك عليك، كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣] ، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١١٤) وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُؤْتِيهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥)

يقول تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾ يعنى: كلام الناس ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ أى: إلا نجوى من قال ذلك كما جاء فى الحديث الذى رواه ابن مردويه عن أم حبيبة قالت: قال رسول الله ﷺ: «كلام ابن آدم كله عليه لا له، ما خلا أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو ذكر الله عز وجل»، فقال سفيان [وهو الثورى] : أو ما سمعت الله يقول فى كتابه: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ ؟ فهو هذا بعينه، أو ما سمعت الله يقول: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨] ؟ فهو هذا بعينه، أو ما سمعت الله يقول فى كتابه: ﴿وَالْعَصْرُ. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ [سورة العصر] ؟ ، فهو هذا بعينه . وقد روى هذا الحديث الترمذى وابن ماجه، ولم يذكر أقوال الثورى ، ثم قال الترمذى: حديث غريب . وروى الإمام أحمد عن أم كلثوم بنت عقبة : أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس فَيَنْعَمَ خيرا - أو يقول خيرا » وقالت: لم أسمعه يرخص فى شيء مما الناس إلا فى ثلاث: فى الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها. وكانت أم كلثوم بنت عقبة من المهاجرات اللاتى بايعن رسول الله ﷺ.

وقد رواه الجماعة، سوى ابن ماجه، نحوه (١).

وروى الإمام أحمد عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة، والصيام، والصدقة؟» قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: «إصلاح ذات البين» قال: «فساد ذات البين هي الخالقة». ورواه أبو داود والترمذى، وقال الترمذى: حسن صحيح (٢).

ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أى: مخلصاً فى ذلك، محتسباً ثواب ذلك عند الله عز وجل ﴿فَمَوْفٍ نُّؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أى: ثواباً جزيلاً كثيراً واسعاً.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى﴾ أى: ومن سلك غير طريق الشريعة التى جاء بها الرسول ﷺ، فصار فى شق والشرع فى شق، وذلك عن عمد منه بعدما ظهر له الحق وتبين له واتضح له.

وقوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا ملازم للصفة الأولى، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع، وقد تكون لما أجمعت عليه الأمة المحمدية، فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً، فإنه قد ضمنت لهم العصمة فى اجتماعهم من الخطأ، تشريعاً لهم وتعظيماً لنبيهم. وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة فى ذلك، قد ذكرنا منها طرفاً صالحاً فى كتاب «أحاديث الأصول» (٣)، ومن العلماء من ادعى تواتر معناها، والذى عول عليه الشافعى، فى الاحتجاج على كون الإجماع حجة تحرم مخالفته هذه الآية الكريمة، بعد التروى والفكر الطويل. وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها، وإن كان بعضهم قد استشكل ذلك واستبعد الدلالة منها على ذلك.

ولهذا توعد تعالى على ذلك بقوله: ﴿نُؤَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أى: إذا سلك هذه الطريق جازيناه على ذلك، بأن نحسنها فى صدره ونزينها له - استدراجاً له - كما قال تعالى: ﴿فَلَدُّنِي وَمَنْ يَكْذِبْ بِهِذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. وقوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]. وجعل النار مصيره فى الآخرة، لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ. مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣]. وقال: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣].

(٢) المسند (٤٤٤، ٤٤٥ حلى).

(١) المسند (٦/ ٤٠٣ حلى).

(٣) كتاب «أحاديث الأصول» - هذا - ليس عندنا علم به، وأى كتاب هو؟ ولم نجد له ذكراً فى شيء من المراجع. وللحافظ ابن كثير كتاب صغير، فى تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب، اسمه «تحفة الطالب». وعندى نسخة مصورة عن مخطوط منه. وما أظنه يشير إليه؛ لأن ما ذكره فيه عن هذه المسألة لا يزيد على نصف صفحة متوسطة (ص ٧، ٨). والظاهر أن كتاب «أحاديث الأصول» كتاب آخر أكبر منه.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [١١٦] **﴿ إِنَّ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَاوْا إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴾** [١١٧] **﴿ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا تُخَذِّلْنِي مِنْ عِبَادِكَ نُصِيْبًا مَفْرُوضًا ﴾** [١١٨] **﴿ وَلَا أَضِلَّهُمْ وَلَا مُتَّبِعِيَهُمْ وَلَا مُرْتَبِعِيَهُمْ فَلْيَتَّبِعْنِي أَذَاتِ الْأَنْعَامِ وَلَا مِرْيَمُ فَلْيَغْفِرْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴾** [١١٩] **﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾** [١٢٠] **﴿ أُولَئِكَ مَاؤُنْهْمُ جَهَنَّمُ وَلَا يَحْدُونُ عَنْهَا بِحَيْصًا ﴾** [١٢١] **﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾** [١٢٢]

قد يقدم الكلام على هذه الآية الكريمة ، وهى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [الآية : النساء : ٤٨] ، وذكرنا ما يتعلق بها من الأحاديث فى صدر هذه السورة .

وقد روى الترمذى عن على أنه قال : ما فى القرآن آية أحب إلى من هذه الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ، ثم قال : حسن غريب (١) .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ أى : فقد سلك غير الطريق الحق ، وضل عن الهدى وبعد عن الصواب ، وأهلك نفسه وخسرهما فى الدنيا والآخرة ، وفاته سعادة الدنيا والآخرة .

وقوله : ﴿ إِنَّ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَاوْا ﴾ قال ابن أبى حاتم عن أبى بن كعب : ﴿ إِنَّ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَاوْا ﴾ قال : مع كل صنم جنية (٢) . وروى أيضا عن عائشة : ﴿ إِنَّ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَاوْا ﴾ قالت : أوثانا . وروى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، وعروة بن الزبير ، ومجاهد ، وغيرهم نحو ذلك .

وقوله : ﴿ إِنَّ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴾ أى : هو الذى أمرهم بذلك وحسنه وزينه لهم ، وهم إنما يعبدون إبليس فى نفس الأمر ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [يس : ٦٠] . وقال تعالى إخباراً عن الملائكة : أنهم يقولون يوم القيامة عن المشركين الذين ادعوا عبادتهم فى الدنيا : ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ : ٤١] .

وقوله : ﴿ لَعَنَهُ اللَّهُ ﴾ أى : طرده وأبعده من رحمته ، وأخرجه من جواره وقال : ﴿ لَا تُخَذِّلْنِي مِنْ عِبَادِكَ نُصِيْبًا مَفْرُوضًا ﴾ أى : مُعَيَّنًا مَقْدَرًا معلوماً . ﴿ وَلَا أَضِلَّهُمْ ﴾ أى : عن الحق ﴿ وَلَا مُتَّبِعِيَهُمْ ﴾ أى : أزين لهم ترك التوبة ، وأعدهم الأمانى ، وأمرهم بالتسوية والتأخير ، وأغرهم من أنفسهم . وقوله :

(١) الترمذى (٩٤ / ٤) .

(٢) ورواه عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند (٥ / ١٣٥ حلى) . وذكره الهيثمى فى الزوائد (٧ / ١٢) وقال : « رجاله رجال الصحيح » . وزاد السيوطى (٢ / ٢٢٢) نسبه لابن المنذر والضياء فى المختارة .

﴿وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيُقَيِّرَنَّ أَذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ قال قتادة والسدى وغيرهما: يعنى تشقيقها ، وجعلها سمة وعلامة للبحيرة والسائبة . ﴿وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيُقَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: يعنى بذلك خصى الدواب . وكذا روى عن ابن عمر ، وأنس ، وسعيد بن المسيب ، وغيرهم . وقد وردَ في حديث النهي عن ذلك . وقال الحسن البصرى: يعنى بذلك الوشم . وفى الصحيح عن ابن مسعود أنه قال : « لعن الله الواشمات والمستوشمات ، والنامصات والمتمنصات ، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله ، عز وجل » ثم قال: ألا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو فى كتاب الله ، عز وجل ، يعنى قوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] (١) . وقال ابن عباس - فى رواية عنه - ومجاهد ، وعكرمة والنخعى ، والحسن ، وقتادة ، وغيرهم فى قوله: ﴿وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيُقَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ يعنى: دين الله ، عز وجل . وهذا كقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] على قول من جعل ذلك أمراً ، أى: لا تبدلوا فطرة الله ، ودعوا الناس على فطرتهم ، كما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، وينصرانه ، ويمجسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تجدون بها من جدعاء؟ » (٢) وفى صحيح مسلم ، عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: « قال الله عز وجل: إني خلقت عبادى حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم » (٣) .

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ أى: فقد خسر الدنيا والآخرة ، وتلك خسارة لا جبر لها ، ولا استدراك لفاتها .

وقوله: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُعْيِيهِمْ﴾ وهذا إخبار عن الواقع ؛ فإن الشيطان يعد أوليائه ويمنيهم بأنهم هم الفائزون فى الدنيا والآخرة ، وقد كذب وافترى فى ذلك ؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ ، كما قال تعالى مخبراً عن إبليس يوم المعاد: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢] .

(١) رواه أحمد بنحوه مطولاً (٤١٢٩) . وكذلك البخارى (٤٨٣/٨ ، ٤٨٤ فتح) ، وفى مواضع أخر ، ومسلم (٢) / (١٦٦) . وسيذكره الحافظ ابن كثير عند تفسير الآية (٧) من سورة الحشر ، عن رواية المسند . و « النامصة » : التى تتنف الشعر من وجهها . و « المتنصة » : التى تأمر من يفعل بها ذلك . و « المتفلجة للحسن » : التى تصنع فرجة فى أسنانها بين الثنايا والرباعيات ، رغبة فى التحسين والتجميل .

(٢) المسند (٧١٨١ ، ٧٦٩٨) وصحيح ابن حبان بنحقيقنا (١٣٠) والبخارى (١٩٦/٣ - ٢٠٠ فتح) ، وفى مواضع أخر ، ومسلم (٣٠١/٢) . وسيذكره ابن كثير مرة أخرى عن روايتى الشيخين ، عند تفسير الآية : (٣٠) من سورة الروم . و « الجمعاء » : السليمة من العيوب المجتمعة الأعضاء الكاملتها . و « الجدعاء » : المقطوعة الأطراف أو بعضها .

(٣) هو جزء من حديث طويل فى صحيح مسلم (٣٥٦/٢ ، ٣٥٧) . وقد مضى عند تفسير الآية : (١٦٨) من سورة البقرة . ورواه أحمد فى المسند (١٧٥٥٦) . « فاجتالتهم » : أى استخفتهم فجالوا معهم فى الضلال . و « اجتال الشيء » : إذ ذهب به وساقه .

وقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ أى: المستحسنون له فيما وعدهم ومنّاهم ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أى: مصيرهم ومآلهم: يوم حسابهم ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أى: ليس لهم عنها مندوحة ولا مصرف، ولا خلاص ولا مناص.

ثم ذكر تعالى حال السعداء الأتقياء، وما لهم فى مآلهم من الكرامة التامة، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: صدّقت قلوبهم وعملت جوارحهم بما أمروا به من الخيرات، وتركوا ما نهوا عنه من المنكرات ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أى: يصرفونها حيث شاءوا وأين شاءوا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أى: بلا زوال ولا انتقال ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ أى: هذا وعد من الله، ووعد الله معلوم حقيقة أنه واقع لا محالة، ولهذا أكده بالمصدر الدال على تحقيق الخبر، وهو قوله: ﴿حَقًّا﴾. ثم قال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ أى: لا أحد أصدق منه قولاً وخبراً، لا إله إلا هو، ولا رب سواه. وكان رسول الله ﷺ يقول: «إِن أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كَلَامُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ» (١).

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (١٢٥) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ (١٢٦)

قال قتادة: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلَ الْكِتَابِ افْتَخَرُوا، فَقَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ: نَبِينَا قَبْلَ نَبِيِّكُمْ، وَكِتَابُنَا قَبْلَ كِتَابِكُمْ، فَنَحْنُ أَوْلَى بِاللَّهِ مِنْكُمْ. وقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم نبينا، خاتم النبيين، وكتابنا يقضى على الكتب التي كانت قبله، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾. فأفالج الله حجة المسلمين على من ناوَاهم من أهل الأديان (٢). وكذا روى عن السدى، ومسروق، والضحاك وأبى صالح، وغيرهم.

والمعنى فى هذه الآية: أَنَّ الدِّينَ لَيْسَ بِالتَّحْلِى وَلَا بِالتَّمْنَى، وَلَكِنْ مَا وَفَّرَ فِي الْقُلُوبِ

(١) هو جزء من حديث رواه النسائى (١/ ٢٣٤) من حديث جابر، بلفظ: «إِن أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَأَحْسَنُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ» - إلخ. ورواه أحمد (١٤٣٨٥) بلفظ: «وَأَن أَفْضَلَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ» مع اختلاف فى آخره. ورواه مسلم (١/ ٢٣٧) وابن حبان فى صحيحه، رقم (٩) بتحقيقنا، بلفظ: «إِن خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ». ولم أجد اللفظ الذى هنا: «إِن أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ».

(٢) رواه الطبرى (١-٤٩٣) وهو مرسل. وإسناد الطبرى إلى قتادة إسناد صحيح. ورواه أيضا عبد بن حميد وابن المنذر، كما فى الدر المنثور (٢/ ٢٢٥).

وصدقته الأعمال ، وليس كُلُّ من ادعى شيئاً حصل له بمجرد دعواه ، ولا كل من قال إنه هو الحق سمع قوله بمجرد ذلك ، حتى يكون له من الله برهان ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ أى : ليس لكم ولا لهم النجاة بمجرد التمنى ، بل العبرة بطاعة الله سبحانه ، واتباع ما شرعه علين السنة الرسل الكرام ؛ ولهذا قال بعده : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ كقوله : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] .

وقد روى أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على كثير من الصحابة . فروى الإمام أحمد عن أبى بكر أنه قال : يا رسول الله ، كيف الفلاح بعد هذه الآية : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ فكل سوء عملناه جزينا به ؟ فقال النبى ﷺ : « غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ، أَلَسْتَ تَمْرُضُ ؟ أَلَسْتَ تَنْصَبُ ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ ؟ أَلَسْتَ تُصَيِّكُ اللَّوَاءَ ؟ » قال : بلى . قال : « فهو ما تُجْزَوْنَ بِهِ » ورواه سعيد بن منصور وابن حبان فى صحيحه والحاكم ^(١) . وروى ابن مردويه عن مسروق قال : قال أبو بكر الصديق : يا رسول الله ، ما أشد هذه الآية : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ ! فقال رسول الله ﷺ : « المصائب والأمراض والأحزان فى الدنيا جزاء » ^(٢) . وروى سعيد بن منصور عن عبيد بن عمير ، عن عائشة : أن رجلا تلا هذه الآية : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ فقال : إنا لنُجْزَى بكل ما عملنا ؟ هلكننا إذن . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « نعم ، يُجْزَى به المؤمن فى الدنيا ، فى نفسه ، فى جسده ، فيما يؤذيه » ^(٣) . وروى ابن أبى حاتم عن ابن أبى مليكة ، عن عائشة قالت : قلت : يا رسول الله ، إني لأعلم أشد آية فى القرآن . فقال : « ما هى يا عائشة ؟ » قلت : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ فقال : « هو ما يصيب العبد المؤمن حتى النكبة يَنكُبُهَا » ورواه أبو داود وابن جرير ^(٤) . وروى أبو داود الطيالسى عن أمية أنها سألت عائشة عن هذه الآية : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ فقالت : ما سألتنى عن هذه الآية أحد منذ سألتُ عنها رسول الله ﷺ ، فقال :

(١) المسند (٦٨ - ٧١) وابن حبان (٤ / ٥٠٢) مخطوطة الإحسان المصورة) والحاكم (٣ / ٧٤ ، ٧٥) وصححه ووافقه الذهبى . ورواه أيضا الطبرى (١٠٥٢٣ - ١٠٥٢٨) . وزاد السيوطى (٢ / ٢٢٦) نسبته لابن المنذر وابن السنى والبيهقى فى الشعب . وفى إسناده انقطاع بين التابعى أبى بكر بن أبى زهير الثقفى - رواه عن أبى بكر الصديق - وبين أبى بكر . ولكن الشواهد الآتية تؤيد صحته . وانظر شرح الطحاوية بتحقيقنا (ص ٢٦٣) .
« اللوَاء » - بفتح اللام والواو بينهما همزة ساكنة وبالد : المشقة والشدة .

(٢) ورواه الطبرى (١٠٥٢٩) بلفظ : « إن المصيبة فى الدنيا جزاء » . وذكره السيوطى (٢ / ٢٢٦ ، ٢٢٧) بمثل لفظ ابن مردويه ، ونسبه لسعيد بن منصور وهناد وابن جرير ، وأبى نعيم فى الحلية وابن مردويه « عن مسروق » ولكن الذى وقع فى نسخ الطبرى بحذف « عن مسروق » . والراجح عندى أنه سقط سهوا من الناسخين . وهو فى الحلية (١١٩/٨) على الصواب .

(٣) إسناده صحيح . ورواه أحمد فى المسند (٦ / ٦٥ ، ٦٦ حلى) . ورواه البخارى فى التاريخ الكبير (٤ / ٢ / ٣٧١) مختصرا . وهو فى مجمع الزوائد (٧ / ١٢) وقال : « رواه أحمد وأبو يعلى ، ورجالهما رجال الصحيح »

وزاد السيوطى (٢ / ٢٢٧) نسبته لابن جرير والبيهقى فى شعب الإيمان « بسند صحيح » . ولم أجده فى الطبرى .
(٤) إسناده صحيح . وهو فى الطبرى (١٠٥٣٢) . ورواية أسى داود (٩٣ / ٣٠) أطول قليلا . ورواه الطبرى بأطول منه (١٠٥٣١) ، وقد فضل أخى السيد محمود شاکر تخريجه هناك .

«يا عائشة، هذه متابعة الله للعبد، مما يصيبه من الحمى والنكبة والشوكة، حتى البضاعة يضعها في كُمه فيفزع لها، فيجدها في جيبه، حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبرُّ الأحمر من الكبر»^(١). وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا كثرت ذنوب العبد، ولم يكن له ما يكفرها [من العمل]، ابتلاه الله بالحزن ليكفرها عنه»^(٢). وروى سعيد ابن منصور، عن أبي هريرة، قال: لما نزلت: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ شقَّ ذلك على المسلمين، فقال لهم رسول الله ﷺ: «سَدُّوا وقاربوا، فإن في كل ما يصاب به المسلم كفارة، حتى الشوكة يُشَاكها، والنكبة يَنْكُبُها». وهكذا رواه أحمد، ومسلم والترمذي والنسائي^(٣). وعن أبي سعيد وأبي هريرة: أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «ما يصيب المؤمن من نصب ولا وَصَب ولا سَقَم ولا حَزَن، حتى الهم يُهمُّه، إلا كُفِّر الله من سيئاته» أخرجاه^(٤). وروى أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: قال رجل لرسول الله ﷺ: رأيت هذه الأمراض التي تصيبنا؟ ما لنا بها؟ قال: «كفارات». قال أبي: وإن قلَّت؟ قال: «حتى الشوكة فما فوقها» قال: فدعا أبي على نفسه أنه لا يفارقه الوَعَك حتى يموت، في ألا يشغله عن حج ولا عمرة، ولا جهاد في سبيل الله، ولا صلاة مكتوبة في جماعة، فما مسه إنسان حتى وجد حره، حتى مات. تفرد به أحمد^(٥). وروى ابن جرير عن الحسن: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾، قال: الكافر، ثم قرأ: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ﴾ [سبا: ١٧]^(٦). وهكذا روى عن ابن عباس، وسعيد بن جبيرة: أنهما فسرا السوء هاهنا بالشرك أيضاً.

وقوله: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ قال ابن عباس: إلا أن يتوب فيتوب الله عليه. رواه ابن أبي حاتم. والصحيح أن ذلك عامٌ في جميع الأعمال، لما تقدم من الأحاديث، وهذا اختيار ابن جرير، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ لما ذكر الجزاء على السيئات، وأنه لا بد أن يأخذ مستحقها من العبد إما في الدنيا - وهو الأجود له - وإما في الآخرة - والعياذ بالله من ذلك، ونسأله العافية في الدنيا والآخرة، والصفح والعفو والمسامحة - شرع في بيان إحسانه وكرمه ورحمته في قبول الأعمال الصالحة من عباده ذكراً نهم

(١) مسند الطيالسي (١٥٨٤). وقد رواه الطبري في تفسير هذه الآية، برقم (١٠٥٣١). ورواه قبل ذلك برقم

(٦٤٩٥)، وفصلنا تخريجه فيه وقد مضى عند تفسير الآية: (٢٨٤) من سورة البقرة.

(٢) المسند (١٥٧/ ٦)، وزدنا منه قوله: [من العمل]. وذكره الهيثمي في الزوائد دون هذه الزيادة (١٠ / ١٩٢) وقال: «رواه أحمد والبخاري، وإسناده حسن».

(٣) المسند (٧٣٨٠)، وفصلنا تخريجه هناك. ورواه أيضا الطبري (١٠٥٢٠) من هذا الوجه، بنحوه. وكذلك رواه البيهقي (٣٧٣/ ٣). وزاد السيوطي (٢٢٧/ ٢) نسبه لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن مردويه.

(٤) البخاري (٩٢/ ١٠) فتح (٢٨٢/ ٢) ومسلم (٢٨٢/ ٢). ورواه أيضا أحمد (٨٠١٤) والبيهقي (٣٧٣/ ٣).

(٥) المسند (١١٢٠١). وهو في الزوائد (٣٠١/ ٢، ٣٠٢) وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى، ورجاله ثقات».

(٦) الطبري (١٠٥١١).

وإنائهم، بشرط الإيمان، وأنه سيدخلهم الجنة ولا يظلمهم من حسناتهم ولا مقدار النقيير، وهو النقرة التي في ظهر نواة التمرة.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أى: أخلص العمل لربه، عز وجل، فعمل إيماناً واحتساباً ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أى: اتبع فى عمله ما شرعه الله له، وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق، وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما، أى: يكون خالصاً صواباً، والخالص . أن يكون لله . والصواب: أن يكون متابعاً للشرية . فيصح ظاهره بالمطابقة، وباطنه بالإخلاص، فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد. فمن فقد الإخلاص كان منافقاً، وهم الذين يراؤون الناس، ومن فقد المطابقة كان ضالاً جاهلاً. ومتى جمعهما فهو عمل المؤمنين ﴿الَّذِينَ يُتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنُ مَا عَمِلُوا وَيُتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦] (١)؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾، وهم محمد وأتباعه إلى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣] والخيف: هو المائل عن الشرك قصداً، أى تاركاً له عن بصيرة، ومقبل على الحق بكلية، لا يصده عنه صاد، ولا يرده عنه راد.

وقوله: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ وهذا من باب الترغيب فى اتباعه؛ لأنه إمام يقتدى به، حيث وصل إلى غاية ما يتقرب به العباد له، فإنه انتهى إلى درجة الخلّة التى هى أرفع مقامات المحبة، وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه، كما وصفه به فى قوله: ﴿وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧] قال كثير من علماء من السلف: أى قام بجميع ما أمر به ووفى كل مقام من مقامات العبادة، فكان لا يشغله أمر جليل عن حقير، ولا كبير عن صغير. وقال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٢].

وإنما سُمّي خليل الله لشدة محبة ربه، عز وجل، له، لما قام له من الطاعة التى يحبها ويرضاها؛ ولهذا ثبت فى الصحيحين، عن أبى سعيد الخدرى: أن رسول الله ﷺ لما خطبهم فى آخر خطبة خطبها قال: «أما بعد، أيها الناس، فلو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر بن أبى قحافة خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله». وجاء من طريق جندب ابن عبد الله البجلي، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن مسعود، عن النبى ﷺ قال:

(١) قراءة حفص وحزمة والكسائي: «تقبل» و«تجاوز» بالنون، ونصب «أحسن». وقرأ باقى السبعة: «يتقبل» و«يتجاوز» بضم الياء بالبناء لما لم يسم فاعله، ورفع «أحسن» نائب فاعل. وهذه القراءة هى المناسبة للاقتباس هنا، كما هو ظاهر. وثبت الحرفان هنا بالياء فى المطبوعة والمخطوطتين.

«إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا ، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا» (١).

وقوله : «وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» أى : الجميع ملكه وعبيده وخلقه ، وهو المتصرف فى جميع ذلك ، لا راد لما قضى ، ولا معقب لما حكم ، ولا يسأل عما يفعل ، لعظمته وقدرته وعدله ، وحكمته ولطفه ورحمته .

وقوله : «وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا» أى : علمه نافذ فى جميع ذلك ، لا تخفى عليه خافية من عباده ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، ولا تخفى عليه ذرة لما تراءى للنواظر وما توارى .

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَنَصَّىٰ النِّسَاءَ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَرَّغِبُونَ أَنْ تُنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّبَاكِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلنِّسَاءِ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ (١٧)

روى البخارى عن عائشة رضى الله عنها : «وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ» إلى قوله : «وَرَرَّغِبُونَ أَنْ تُنكِحُوهُنَّ» قالت عائشة : هو الرجل يكون عنده اليتيمة ، هو وليها ووارثها ، قد شركته فى ماله ، حتى فى العَدَق ، فيرغب أن ينكحها ، ويكره أن يزوجه رجلًا ، فيشركه فى ماله بما شركته ، فيعضلها ، فنزلت هذه الآية ورواه مسلم . وروى ابن أبى حاتم عن عائشة قالت : ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهن ، فأنزل الله : «وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ» الآية ، قالت : والذى ذكر الله أنه يتلى عليه فى الكتاب الآية الأولى التى قال الله : «وَأَنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ» [النساء : ٣] . وبهذا الإسناد ، عن عائشة قالت : وقول الله عز وجل : «وَرَرَّغِبُونَ أَنْ تُنكِحُوهُنَّ» رغبة أحدكم عن يتيمة التى تكون فى حجره حين تكون قليلة المال والجمال ، فنهوا أن ينكحوا ما رغبوا فى مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط ، من أجل رغبتهن عنهن . وأصله ثابت فى الصحيحين (٢) .

(١) حديث أبى سعيد الخدرى فى الصحيحين ليس فيه قوله : «ولكن صاحبكم خليل الله» . انظر البخارى (٧ / ١٠ ، ١١ فتح) . ومسلم (٢ / ٢٣٠) . ولكن ثبت فى حديث ابن مسعود ، فى المسند (٣٥٨٠) - مرفوعاً : «إنى أبرأ إلى كل خليل من خلته ، ولو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا ، وإن صاحبكم خليل الله» . ورواه مسلم (٢ / ٢٣١) والترمذى (٣٠٨ / ٤) . وفى حديث جندب بن عبد الله : «إنى أبرأ إلى الله أن يكون لى منكم خليل ، فإن الله قد اتخذنى خليلًا ، كما اتخذ إبراهيم عليه السلام خليلًا ، ولو كنت متخذًا من أمتى خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا» . رواه مسلم (١ / ١٤٩) . وانظر أيضا فتح البارى (٧ / ١٥) .

(٢) حديث عائشة - من رواية البخارى - فى الفتح (٨ / ١٩٩) . وقد مضى بأطول من هذا عند تفسير الآيات : (٢ - ٤) من سورة النساء . من رواية البخارى أيضا . وحديثه - من رواية ابن أبى حاتم - إسنادهما صحيح . وهما فى معنى حديثهما الماضى من رواية البخارى وقد روى الطبرى حديثها هذا بالفاظ كثيرة مطولة ومختصرة ، فى مناسبة الآية السابقة ، وفى مناسبة هذه الآية ، بالأرقام (٨٤٥٦ - ٨٤٦١ ، ٨٤٧٧ ، ١٠٥٤٠ ، ١٠٥٥٤ ، ١٠٥٥٥ ، ١٠٥٦١) . وتفصيل تخريجه فى تلك المواضع من الطبرى .

والمقصود: أن الرجل إذا كان في حجره يتيمة يحل له تزويجها، فتارة يرغب أن يتزوجها، فأمره الله أن يمهرها أسوة أمثالها من النساء، فإن لم يفعل فليعدل إلى غيرها من النساء، فقد وسع الله عز وجل. وهذا المعنى في الآية الأولى التي في أول السورة. وتارة لا يكون للرجل فيها رغبة، لدمامتها عنده، أو في نفس الأمر، فهناك الله عز وجل أن يعضلها عن الأزواج، خشية أن يشركوه في ماله الذي بينه وبينها، كما قال ابن عباس في الآية، وهى في قوله: ﴿فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾ الآية، فكان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة، فيلقى عليها ثوبه، فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً، فإن كانت جميلة وهويها تزوجها وأكل مالها، وإن كانت دمية منعها الرجال أبداً حتى تموت، فإذا ماتت ورثها. فحرم الله ذلك ونهى عنه.

وقال في قوله: ﴿وَالْمُسْتَظْفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾: كانوا في الجاهلية لا يورثون الصغار ولا البنات، وذلك قوله: ﴿لَا تُوْثِقُهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾، فنهى الله عن ذلك، وبين لكل ذى سهم سهمه، فقال: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَى﴾ [النساء: ١١] صغيراً أو كبيراً. وكذا قال سعيد بن جبير وغيره. قال سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَأَنْ تَقْرَمُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾: كما إذا كانت ذات جمال ومال نكحتها واستأثرت بها، كذلك إذا لم تكن ذات مال ولا جمال فانكحها واستأثرت بها. وقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً﴾ تهيباً على فعل الخيرات وامثالاً للأوامر، وإن الله عز وجل عالم بجميع ذلك، وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمه.

﴿وَإِنْ أَمْرُ أَرْوَأَ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١٢٨) وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْيَمِينِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا (١٢٩) وَإِنْ يَفْرَقَا يَغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠)

يقول تعالى مخبراً ومشرعاً عن الزوجين: تارة في حال نفور الرجل عن المرأة، وتارة في حال اتفاه معهما، وتارة في حال فراقه لها.

فالحالة الأولى: ما إذا خافت المرأة من زوجها أن ينفر عنها، أو يعرض عنها، فلها أن تسقط حقها أو بعضه، من نفقة أو كسوة، أو مبيت، أو غير ذلك من الحقوق عليه، وله أن يقبل ذلك منها، فلا جناح عليها في بذلها ذلك له، ولا عليه في قبوله منها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ (١) ثم قال: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ أى: من الفراق. وقوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ

(١) «يصلحا»: بفتح الياء وتشديد الصاد المفتوحة، وأصلها «يتصالحا». وقراءة حفص «يصلحا»: بضم الياء وسكون الصاد، وهى قراءة الكوفيين. وأثبتنا ما ثبت في المخطوطتين، وهى قراءة باقى القراء السبعة، لأنها هى التى أثبتها ابن كثير فى تفسيره. والمراد فىهما واحد.

الْأَنْفُسُ الشُّعْ» أى الصلح عند المُشَاحَّة خير من الفراق (١)؛ ولهذا لما كبرت سودة بنت زمعة عزم رسول الله ﷺ على فراقها، فصالحته على أن يمسكها، وترك يومها لعائشة، فقبل ذلك منها وأبقاها على ذلك. فقد روى الطيالسي عن ابن عباس قال: خَشِيتُ سَوْدَةَ أَنْ يَطْلُقَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فقالت: يا رسول الله، لا تطلقني، واجعل يومى لعائشة. ففعل، ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ الآية، قال ابن عباس: فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز. ورواه الترمذى، عن محمد بن المثني، عن أبى داود الطيالسي، به. وقال: حسن غريب (٢). وفى الصحيحين، عن عائشة قالت: لما كبرت سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة، فكان النبي ﷺ يقسم لها بيوم سودة. وروى الحاكم عن عروة، عن عائشة: أنها قالت له: يا بن أختي، كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض فى مكثه عندنا، وكان قلَّ يوم إلا وهو يطوف علينا، فيدنو من كل امرأة من غير مَسِيس، حتى يبلغ إلى من هو يومها فيبيت عندها، ولقد قالت سودة بنت زمعة - حين أسنت وقرت أن يفارقها رسول الله ﷺ - : يا رسول الله، يومى هذا لعائشة. فقبل ذلك رسول الله ﷺ. قالت عائشة: ففى ذلك أنزل الله: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾. ورواه أبوداود وابن مردويه، نحوه. قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٣). وروى البخارى عن عائشة: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ قالت: الرجل تكون عنده المرأة، ليس بمسكتك منها، يريد أن يفارقها، فتقول: أجعلك من شأنى فى حل. فنزلت هذه الآية (٤). وروى ابن أبى حاتم عن خالد بن عرعر قال: جاء رجل إلى على بن أبى طالب، فسأله عن قول الله عز وجل: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ قال على: يكون الرجل عنده المرأة، فتنبو عيناه عنها من دماستها، أو كبرها، أو سوء خلقها، أو قذذها، فتكره فراقه، فإن وضعت له من مهرها شيئاً حل له، وإن جعلت له من أيامها فلا حرج. ورواه أبو داود الطيالسي، وابن جرير (٥). وكذا فسرها ابن عباس، وعبيدة السلماني، ومجاهد، والشَّعْبِي، وسعيد بن جبَّير، وقتادة، وغير واحد من السلف والأئمة، ولا أعلم فى ذلك خلافاً فى أن المراد بهذه الآية هذا، والله أعلم. وروى الشافعى عن ابن المسيَّب: أن بنت محمد بن مسلمة كانت عند رافع بن خديج، فكره منها أمراً إما كبراً أو غيره، فأراد طلاقها، فقالت: لا تطلقني، واقسم لى ما بدا لك. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِنْ

(١) «الشع»: حرص النفس على ما ملكت وبخلها به. ومنه «المشاحة»، وهى: تنازع الخصم على أمر يبادر كل منهم إليه ويحرص عليه حذر فوته. ولكن تفسير ابن كثير لهذه الآية «وأحضرت الأنفس الشح» ليس تفسيراً لمعنى الجملة، بل هو نتيجة لسباق الكلام. والمعنى الصحيح، هو ما ذكره الطبرى (٩/ ٢٧٩): «وأحضرت أنفس النساء الشح على أنصباتهن من أنفس أزواجهن وأموالهن». ثم قال (ص ٢٨٢): «والشح: الإفراط فى الحرص على الشيء، وهو فى هذا الموضع: إفراط حرص المرأة على نصيبها من أيامها من زوجها ونفقتها». (٢) الطيالسي (٢٦٨٣) والترمذى (٩٤/ ٩٥) وإسنادهما صحيح. والذى فى الترمذى أنه قال: «حديث حسن صحيح غريب».

(٣) الحاكم (١٨٦/ ٢) ووافقه الذهبى على تصحيحه، وأبو داود (٢١٣٥).

(٤) البخارى (٨/ ١٩٩ فتح). ورواه الطبرى بنحوه (١٠٥٨٥، ١٠٥٨٦).

(٥) الطبرى (١٠٥٧٥ - ١٠٥٧٨) وأسانيده صحاح.

امْرَأَةً خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا» الآية . وقد رواه الحاكم بأطول من هذا السياق (١).

وقوله : «وَالصُّلْحُ خَيْرٌ» قال ابن عباس : يعنى التخيير ، أن تخيير الزوج لها بين الإقامة والفراق ، خير من تمادى الزوج على أثره غيرها عليها . والظاهر من الآية أن صلحهما على ترك بعض حقها للزوج ، وقبول الزوج ذلك ، خير من المفارقة بالكلية ، كما أمسك النبي ﷺ سودة بنت زمعة على أن تركت يومها لعائشة ، ولم يفارقها بل تركها من جملة نساءه ، وفعله ذلك لتأسى به أمته فى مشروعية ذلك وجوازه ، فهو أفضل فى حقه عليه الصلاة والسلام . ولما كان الوفاق أحب إلى الله من الفراق قال : «وَالصُّلْحُ خَيْرٌ» ، بل الطلاق بغض إلىه ، سبحانه وتعالى ؛ ولهذا جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود وابن ماجه عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «أبغض الحلال إلى الله الطلاق» (٢).

وقوله : «وَأَنْ تَحْسِنُوا وَتَقْرَأُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا» : وإن تتجشموا مشقة الصبر على من تكرهون منهن ، وتقسموا لهن أسوة أمثالهن ، فإن الله عالم بذلك ، وسيجزىكم على ذلك أوفر الجزاء .

وقوله تعالى : «وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ» أى : لن تستطيعوا أيها الناس أن تساوا بين النساء من جميع الوجوه ، فإنه وإن وقع القسم الصورى : ليلة وليلة ، فلا بد من التفاوت فى المحبة والشهوة والجماع ، كما قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن البصرى ، وغيرهم . كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن . عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يقسم بين نساءه فيعدل ، ثم يقول : «اللهم هذا قَسَمِي فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك» يعنى : القلب . لفظ أبى داود ، وإسناده صحيح (٣).

وقوله : «فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ» أى : فإذا ملتم إلى واحدة منهن فلا تبالغوا فى الميل بالكلية «فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ» أى : فتبقى الأخرى معلّقة . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جببر ، والحسن ، وغيرهم : معناه : لا ذات زوج ولا مطلقة (٤) . وروى الطيالسى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما ، جاء يوم القيامة وأحد شِقَّتَيْهِ ساقط» . ورواه الإمام أحمد وأهل السنن (٥).

(١) حديث الشافعى مختصر ، وظاهره الإرسال . وهو فى المستدرک (٢ / ٣٠٨ ، ٣٠٩) مطولا موصولا ، وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى .

(٢) أبو داود (٢١٧٨) وابن ماجه (٢٠١٨) ، وإسناده ابن ماجه ضعيف . ورواه أبو داود قبل ذلك مرسلا . وصرح المنذرى بأن الموصول غريب ، وأن المشهور فى ذلك المرسى ، ففى صحته نظر كثير .

(٣) أبو داود (٢١٣٤) والترمذى (١٩٥/٢) . وقوله : « يعنى القلب » من كلام أبى داود . ورواه الحاكم (٢ / ١٨٧) وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى .

(٤) انظر ما قلنا فيما مضى « فى تعدد الزوجات عند تفسير الآيات : (٢ - ٤) من سورة النساء .

(٥) مسند الطيالسى (٢٤٥٤) ومسند أحمد (٧٩٢٣) . وقد فصلنا تخريجه هناك .

وقوله: ﴿وَأَنْ تَصْلَحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أى: وإن أصلحتم فى أموركم، وقسمتم بالعدل فيما تملكون، واتقيتم الله فى جميع الأحوال، غفر الله لكم ما كان من ميل إلى بعض النساء دون بعض.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنْ يَتَفَرَّقَا يَغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾ وهذه هى الحالة الثالثة، وهى حالة الفراق، وقد أخبر الله تعالى أنهما إذا تفرقا فإن الله يغنيه عنها ويغنيها عنه، بأن يعوضه الله من هو خير له منها، ويعوضها عنه بمن هو خير لها منه ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ أى: واسع الفضل عظيم المن، حكيما فى جميع أفعاله وأقداره وشرعه.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه الحاكم فيهما؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ أى: وصيناكم بما وصيناهم به، من تقوى الله، عز وجل، بعبادته وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿وَأِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾، كما قال تعالى إخبارا عن موسى أنه قال لقومه: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]، وقال: ﴿تَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَأَسْتَفْتَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦] أى: غنى عن عباده، ﴿حَمِيدٌ﴾ أى: محمود فى جميع ما يقدره ويشرعه.

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أى: هو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب الشهيد على كل شىء.

وقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ أى: هو قادر على إذهابكم وتبديلكم بغيركم إذا عصيتموه، كما قال: ﴿وَأَنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]. وقال بعض السلف: ما أهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره. وقال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ١٩، ٢٠] أى: ما هو عليه بممتنع.

وقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أى: يا من ليس همه إلا الدنيا، اعلم أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة، وإذا سألته من هذه وهذه أعطاك وأغناك وأثارك، كما قال

تعالى : ﴿فَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة : ٢٠٠ - ٢٠١] ، وقال تعالى : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى : ٢٠] ، وقال تعالى : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا . كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا . انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء : ١٨ - ٢١] .

وقد زعم ابن جرير أَنَّ المعنى فى هذه الآية : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ أى : من المنافقين الذين أظهروا الإيمان لأجل ذلك ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا﴾ وهو ما حصل لهم من المغانم وغيرها مع المسلمين . وقوله : ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ أى : وعنده ثواب الآخرة ، وهو ما ادخره لهم من العقوبة فى نار جهنم . وجعلها كقوله : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نُوفٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يَخْسِرُونَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود : ١٥ ، ١٦] . ولا شك أن هذه الآية معناها ظاهر ، وأما تفسيره الآية الأولى بهذا ففيه نظر ؛ فإن قوله : ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ ظاهر فى حضور الخير فى الدنيا والآخرة ، أى : بيده هذا وهذا ، فلا يقتصر قاصر الهمة على السعى للدنيا فقط ، بل لتكن همته سامية إلى نيل المطالب العالية فى الدنيا والآخرة ، فإن مرجع ذلك كله إلى الذى بيده الضر والنفع ، وهو الله الذى لا إله إلا هو ، الذى قد قسم السعادة والشقاوة بين الناس فى الدنيا والآخرة ، وعدل بينهم فيما علمه فيهم ، ممن يستحق هذا ، وممن يستحق هذا ؛ ولهذا قال : ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَعَرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١٢٥)

يامر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط ، أى : بالعدل ، فلا يعدلوا عنه يمينا ولا شمالا ، ولا تأخذهم فى الله لومة لائم ، ولا يصرفهم عنه صارف ، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه .

وقوله : ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ كما قال : ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ أى : ليكون أدوها ابتغاء وجه الله ، فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقا ، خالية عن التحريف والتبديل والكتمان ؛ ولهذا قال : ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ أى : أشهد الحق ولو عاد ضررها عليك (١) ، وإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه ، وإن كان مضره عليك ، فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجا ومخرجا من كل أمر يضيق عليه .

(١) أى : ضرر الشهادة . وفى المطبوعة : « ضرره » كان الضمير عائد على « الحق » . وأثبتنا ما فى المخطوطين ، وهو أجود .

وقوله: ﴿أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ أى: وإن كانت الشهادة على والديك أو قرابتك، فلا تراعهن فيها، بل اشهد بالحق وإن عاد ضررها عليهم، فإن الحق حاكم على كل أحد. وقوله: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أى: لا تراعه لغناه، ولا تشفق عليه لفقره، والله يتولاهما، بل هو أولى بهما منك، وأعلم بما فيه صلاحهما.

وقوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ أى: فلا يحملنكم الهوى والعصية وبغضة الناس إليكم، على ترك العدل فى أموركم وشؤونكم، بل الزموا العدل على أى حال كان، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]. ومن هذا قول عبد الله بن رواحة، لما بعثه النبي ﷺ يَخْرُصُ على أهل خيبر ثمارهم وزرعهم، فأرادوا أن يُرْشُوهُ ليرفق بهم، فقال: والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلى، ولأنتم أبغض إلى من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملنى حُبى إياه وبغضى لكم على ألا أعدل فيكم. فقالوا: «بهذا قامت السموات والأرض». وسيأتى الحديث مسندا فى سورة المائدة، إن شاء الله تعالى.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا﴾ قال مجاهد وغير واحد من السلف: ﴿تَلَوُّوا﴾ أى: تحرفوا الشهادة وتغيروها، و«اللى» هو: التحريف وتعمد الكذب، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ مِنْهُمْ لَفِرْقًا يَلَوُّونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٧٨] الآية. و«الإعراض» هو: كتمان الشهادة وتركها، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ أَتَمَّ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣]. وقال النبي ﷺ: «خير الشهداء الذى يأتى بشهادته قبل أن يُسألها» (١). ولهذا توعدهم الله بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أى: وسيجازيكم بذلك.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ
وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالدخول فى جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ودعائمه، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل وتقديره وتثبيتته والاستمرار عليه. كما يقول المؤمن فى كل صلاة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] أى: بصِّرنا فيه، وزدنا هدى، وثبتنا عليه. فأمرهم بالإيمان به وبرسوله، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ [الحديد: ٢٨].

وقوله: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ يعنى: القرآن ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ وهذا جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة، وقال فى القرآن: ﴿نَزَّلَ﴾؛ لأنه نزل متفرقا منجما على الوقائع، بحسب ما يحتاج إليه العباد فى معاشهم ومعادهم، وأما الكتب المتقدمة فكانت تنزل جملة واحدة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ

(١) رواه ابن ماجه (٢٣٦٤) بنحوه، من حديث زيد بن خالد الجهنى. ورواه مسلم (٤٢/ ٢) من حديثه، بمعناه، وقد مضى عند تفسير الآية: (٢٨٢) من سورة البقرة.

وَكُتِبَ عَلَيْهِ وَرُسُلُهُ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٧﴾ أى: فقد خرج عن طريق الهدى، وبعد عن القصد كل البعد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَغُوتْ عَنْهُمْ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ أَنْتُمْ إِذَا مَثَلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

يخبر تعالى عن دخل في الإيمان ثم رجع عنه، ثم عاد فيه ثم رجع، واستمر على ضلاله وازداد حتى مات، فإنه لا توبة بعد موته، ولا يغفر الله له، ولا يجعل له مما هو فيه فرجا ولا مخرجا، ولا طريقا إلى الهدى، ولهذا قال: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾. روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا﴾ قال: تضافوا على كفرهم حتى ماتوا. وكذا قال مجاهد. وروى ابن أبي حاتم عن علي، أنه قال: يستتاب المرتد، ثلاثا، ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾.

ثم قال: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يعنى: أن المنافقين من هذه الصفة، فإنهم آمنوا ثم كفروا، فطبع على قلوبهم. ثم وصفهم بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، بمعنى: أنهم معهم فى الحقيقة، يوالونهم ويسرون إليهم بالمودة، ويقولون لهم إذا خلوا بهم: إنما نحن معكم، إنما نحن مستهزئون، أى بالمؤمنين فى إظهارنا لهم الموافقة. قال الله تعالى منكرأ عليهم فيما سلكوه من موالاة الكافرين: ﴿أَيَّتَنُوتُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ؟﴾

ثم أخبر تعالى بأن العزة كلها له وحده لا شريك له، ولمن جعلها له. كما قال فى الآية الأخرى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

والمقصود من هذا: التهيج على طلب العزة من جناب الله، والالتجاء إلى عبوديته، والانتظام فى جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة فى هذه الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد.

ومناسب أن يُذَكَّرَ هاهنا الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن أبى ريحانة أن النبى ﷺ قال: «من انتسب إلى تسعة آباء كفار، يريد بهم عزاً وفخراً، فهو عاشرهم فى النار». تفرد به أحمد. وأبو ريحانة هذا: هو أزدى، ويقال: أنصارى. واسمه: شمعون، بالمعجمة، فيما قاله البخارى، وقال غيره: بالمهمله (١)، والله أعلم.

(١) المسند (١٧٢٧٨). ورواه أيضا البخارى فى الكبير (٣٥٣/ ٢/ ١). وذكره الهيثمى فى الزوائد (٨٥/ ٨) وقال: «رواه أحمد والطبرانى فى الكبير والأوسط وأبو يعلى، ورجال أحمد ثقات».

وقوله : ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ﴾ أى : إذا ارتكبت النهى بعد وصوله إليكم ، ورضيت بالجلوس معهم فى المكان الذى يكفر فيه بآيات الله ويستهزأ ويتنقص بها ، وأقررتهم على ذلك - فقد شاركتهم فى الذى هم فيه . فلهذا قال تعالى : ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ﴾ فى المأثم ، كما جاء فى الحديث : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يُدَار عليها الخمر» (١) . والذى أحيل عليه فى هذه الآية من النهى فى ذلك ، هو قوله تعالى فى سورة الأنعام ، وهى مكة : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِئَنَّ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام : ٦٨] .

وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ أى : كما اشتركوا فى الكفر ، كذلك يشارك الله بينهم فى الخلود فى نار جهنم أبداً ، وجمع بينهم فى دار العقوبة والنكال ، والقيود والأغلال ، وشرب الحميم والغسلين لا الزلال .

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ يَكُمُ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾

يخبر تعالى عن المنافقين : أنهم يتربصون بالمؤمنين دوائر السوء ، بمعنى ينتظرون زوال دولتهم ، وظهور الكفرة عليهم ، وذهاب ملتهم ﴿إِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أى : نصر وتأييد وظفر وغنيمة ﴿قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ أى : يتوددون إلى المؤمنين بهذه المقالة ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ أى : إدالة على المؤمنين فى بعض الأحيان ، كما وقع يوم أحد ، فإن الرسل تبلى ثم يكون لها العاقبة ﴿قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى : ساعدناكم فى الباطن ، وما ألواناهم خبالاً وتخديلاً ، حتى انتصرتهم عليهم . وقال السدى : ﴿نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ﴾ : نغلب عليكم ، كقوله : ﴿اسْتَحِذْ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ [المجادلة : ١٩] ، وهذا أيضاً تودد منهم إليهم ، فإنهم كانوا يصانعون هؤلاء وهؤلاء ؛ ليحظوا عندهم ويأمنوا كيدهم ، وما ذاك إلا لضعف إيمانهم ، وقلة إيقانهم .

قال الله تعالى : ﴿قَالَهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أى : بما يعلمه منكم - أيها المنافقون - من البواطن الرديئة ، فلا تغتروا بحريان الأحكام الشرعية عليكم ظاهراً فى الحياة الدنيا ، لما له فى ذلك من الحكمة ، فيوم القيامة لا تنفعكم ظواهركم ، بل هو يوم تبلى فيه السرائر ويحصل ما فى الصدور .

وقوله : ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ روى عبد الرزاق عن يسع الكندى ، قال :

(١) جزء من حديث رواه أحمد (١٤٧٠٤) والترمذى (٤ / ٢٠) كلاهما من حديث جابر . قال الترمذى : « حسن غريب » .

جاء رجل إلى علي بن أبي طالب، فقال: كيف هذه الآية: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾؟ فقال علي: أدته أدته، ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾^(١). وكذا يروى قال: ذاك يوم القيامة. وكذا روى عن أبي مالك الأشجعي: يعني يوم القيامة. وقال السدي: ﴿سَبِيلًا﴾ أى: حجة^(٢).

ويحتمل أن يكون المراد: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أى: فى الدنيا، بأن يُسَلِّطُوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية، وإن حصل لهم ظفر فى بعض الأحيان على بعض الناس، فإن العاقبة للمتقين فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]. وعلى هذا فيكون ردأ على المنافقين فيما أملوه ورجوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين، خوفاً على أنفسهم منهم إذا هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم، كما قال تعالى: ﴿فَقَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فُتُصِحُّوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢].

وقد استدل كثير من الفقهاء بهذه الآية الكريمة على أصح قولى العلماء، وهو المنع من بيع العبد المسلم للكافر، لما فى صحة إتياعه من التسليط له عليه والإذلال، ومن قال منهم بالصحة يأمره بإزالة ملكه عنه فى الحال؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٤٢﴾ مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ ﴿١٤٣﴾

قد تقدم فى أول سورة البقرة قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٩] وقال هاهنا: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾. ولا شك أن الله تعالى لا يخادع، فإنه العالم بالسرائر والضمائر، ولكن المنافقين - لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم - يعتقدون أن أمرهم كما راج عند الناس وجرّت عليهم أحكام الشريعة ظاهراً، فكذلك يكون حكمهم عند الله يوم القيامة، وأن أمرهم يروج عنده، كما أخبر تعالى عنهم أنهم يوم القيامة يحلفون له: أنهم كانوا على الاستقامة والسداد، ويعتقدون أن ذلك نافع لهم عنده، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَعِثُّهُمْ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨].

(١) فى تفسير عبد الرزاق (ص ٥١) ، وإسناده صحيح . ورواه الطبرى (١٠٧١٤ - ١٠٧١٦) بأسانيد صحاح . ورواه الحاكم (٣٠٩ / ٢) وصححه ، ووافقه الذهبى . وزاد السيوطى (٢ / ٢٣٥) نسبته للفرىابى وعبد بن حميد وابن المنذر . و« يسع » : بضم الباء فى أوله وفتح السين وسكون الباء الثانية وآخره عين مهملة . ووقع فى المطبوعة والمستدرک : « سبع » ! وهو تصحيف .

(٢) هذه الروايات الثلاث رواها الطبرى (١٠٧١٩ ، ١٠٧١٨ ، ١٠٧٢٠) .

وقوله: ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ أى: هو الذى يستدرجهم فى طغيانهم وضلالهم، ويخدلهم عن الحق والوصول إليه فى الدنيا، وكذلك فى القيامة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْظِرْنَا نَقْبِسَ مِنْ تَوْرِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ . يُنَادُوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ . فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ بَنَسَ الْمَاصِرُ﴾ [الحديد: ١٣ - ١٥]. وقد ورد فى الحديث: «مَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهَ بِهِ، وَمَنْ رَأَى رَأَى اللَّهَ بِهِ» (١).

وقوله: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالً﴾ الآية: هذه صفة المنافقين فى أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها، وهى الصلاة. إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها؛ لأنهم لا نية لهم فيها، ولا إيمان لهم بها ولا خشية، ولا يعقلون معناها، كما روى ابن مردويه، عن ابن عباس قال: يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة وهو كسلان، ولكن يقوم إليها طلق الوجه، عظيم الرغبة، شديد الفرح، فإنه يناجى الله، وإن الله أمامه يغفر له ويجيبه إذا دعاه، ثم يتلو ابن عباس هذه الآية: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالً﴾. وروى من غير هذا الوجه، عن ابن عباس، نحوه.

فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالً﴾ هذه صفة ظواهرهم، كما قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالً﴾ [التوبة: ٥٤]. ثم ذكر تعالى صفة بواطنهم الفاسدة، فقال: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ أى: لا إخلاص لهم ولا معاملة مع الله، بل إنما يشهدون الصلاة تقية من الناس ومصانعة لهم؛ ولهذا يتخلفون كثيراً عن الصلاة التى لا يُرَوْنَ غالباً فيها كصلاة العشاء وقت العتمة، وصلاة الصبح فى وقت العكس، كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوًا»، ولقد هممت أن أمر بالصلاة فتقام، ثم أمر رجلاً يصلى بالناس، ثم أنطلق معى برجال، معهم حُزَمٌ من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة، فأحرق عليهم بيوتهم بالنار».

وفى رواية: «والذى نفسى بيده، لو علم أحدهم أنه يجد عرقاً سمياً أو مَرَمَاتين حسنتين، لشهد الصلاة، ولولا ما فى البيوت من النساء والذرية لحرقت عليهم بيوتهم بالنار» (٢).

(١) رواه مسلم (٣٩٠ / ٢) من حديث ابن عباس . ورواه البخارى بنحوه (٢٨٨ / ١١) ومسلم (٣٩٠ / ٢) كلاهما من حديث جندب بن عبد الله . ورواه أحمد والبخارى والطبرانى - بأسانيد حسنة - من حديث أبى بكره ، كما فى الزوائد (٢٢٣ / ١٠) ، (٢٢٢ / ٢٢٣) .

(٢) اللفظ الأول رواه - بنحوه - أحمد (٩٤٨٢) ومسلم (١٨٠ / ١) . وبعضه مع بعض اللفظ الثانى رواه البخارى (١٠٤ / ١٠٨ - فتح) . وأما قوله فى اللفظ الثانى « ولولا ما فى البيوت » - إلخ - فقد رواه أحمد (٨٧٨٢) بلفظ: «لولا ما فى البيوت من النساء والذرية لأقمت صلاة العشاء، وأمرت فتانين يحرقون ما فى البيوت بالنار» . وكل ذلك من حديث أبى هريرة . وقد استوفى الحافظ فى الفتح شرحه واختلاف رواياته . ولعل الحافظ ابن كثير هنا كتب فى حفظه ، فدخلت ألفاظ الروايات بعضها فى بعض . وانظر كثيراً من رواياته فى المسند (٧٣٢٤ ، ٨١٣٤ ، ٨٢٣٩ ، ٨٨٧٧ ، ٨٨٩٠ ، ٩٣٧٢ ، ١٠٨٨٩) . و«العرق» - بفتح العين وسكون الراء : العظم إذا أخذ منه معظم اللحم . و«المرامة» - بكسر الميم الأولى ، وقد فتحت : ما بين ظلفى الشاة من اللحم . يريد به حقاتره .

وقوله: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى: فى صلاتهم لا يخشعون ولا يدرون ما يقولون، بل هم فى صلاتهم ساهون لاهون، وعما يراد بهم من الخير معرضون. وقد روى الإمام مالك عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق: يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرنى الشيطان، قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً». ورواه مسلم، والترمذى، والنسائى وقال الترمذى: حسن صحيح (١).

وقوله: ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ يعنى: المنافقين، محيرين بين الإيمان والكفر، فلا هم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً، ولا مع الكافرين ظاهراً وباطناً، بل ظواهرهم مع المؤمنين، وبواطنهم مع الكافرين. ومنهم من يعتريه الشك، فتارة يميل إلى هؤلاء، وتارة يميل إلى أولئك ﴿كَلِمًا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوَا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ الآية [البقرة: ٢٠]. وروى ابن جرير عن ابن عمر، عن النبى ﷺ قال: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تَعرُّ إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة، لا تدرى أيهما تتبّع». تفرد به مسلم (٢). وروى ابن أبى حاتم عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: مثل المؤمن والمنافق والكافر: مثل ثلاثة نفر انتهوا إلى واد، فدفع أحدهم فعبر، ثم وقع الآخر، حتى إذا أتى على نصف الوادى ناداه الذى على شفير الوادى: ويلك! أين تذهب؟ إلى الهلكة! ارجع عودك على بدئك، وناداه الذى عبر: هَلُمَّ إلى النجاة. فجعل ينظر إلى هذا مرة وإلى هذا مرة، قال: فجاءه سبل فأغرقه، فالذى عبر: هو المؤمن، والذى غرق: المنافق ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ والذى مكث: الكافر (٣). وروى ابن جرير عن قتادة: ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ يقول: ليسوا بمؤمنين مخلصين ولا مشركين مصرحين بالشرك. قال: وذكر لنا: أن نبى الله ﷺ كان يضرب مثلاً للمؤمن وللمنافق وللکافر، كمثل رهط ثلاثة دَفَعُوا إلى نهر، فوقع المؤمن فقطع، ثم وقع المنافق حتى إذا كاد يصل إلى المؤمن ناداه الكافر أن: هَلُمَّ إلىّ، فإنى أخشى عليك! وناداه المؤمن أن: هَلُمَّ إلىّ، فإنى عندى وعندى؛ يُحصى له ما عنده. فما زال المنافق يتردد بينهما حتى أتى آذى فغرقه. وإن المنافق لم يزل فى شك وشبهة، حتى أتى عليه الموت وهو كذلك (٤).

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أى: ومن صرفه عن طريق الهدى ﴿فَلَنْ

(١) الموطأ (ص ٢٢٠) ومسلم (١/ ١٧٣) بنحوه .

(٢) الطبرى (١٠٧٢٨ - ١٠٧٣٠) ومسلم (٢/ ٣٣٩) . ورواه أحمد مطولاً ومختصراً (٤٨٧٢)، ٥٠٧٩ ، ٥٣٥٩ ، ٥٥٤٦ ، ٥٦١٠ ، ٥٧٩٠ ، ٦٢٩٨) . وقد ساق الحافظ ابن كثير هنا بعض طرقه من المسند . و« الشاة العائرة » : هى المترددة بين قطيعين لا تدرى أيهما تتبّع .

(٣) إسناد ابن أبى حاتم صحيح . ولم ينسبه السيوطى (٢/ ٢٣٦) لغيره . وهذا وإن كان موقوفاً لفظاً ، إلا أنه يحتمل أن يكون مرفوعاً معنى . ويقويه حديث قتادة الآتى بعده من رواية الطبرى ، فإنه مرفوع، ولكنه مرسل . فكلاهما شاهد للآخر يؤيده .

(٤) الطبرى (١٠٧٣٢) ، وإسناده صحيح إلى قتادة ، ولكنه مرسل يعضده الموقف على ابن مسعود الذى قبله . و« الآذى » بالمد وتشديد الياء : الموج الشديد .

تَجِدْ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ۖ فَإِنَّهُ ﴿مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ والمنافقون الذين أضلهم عن سبيل النجاة فلا هادى لهم، ولا منقذ لهم مما هم فيه، فإنه تعالى لا مُعَقِّبَ لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يُسألون .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُوا أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، يعنى: مصاحبتهم ومصادقتهم ومناصحتهم وإسرار المودة إليهم، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم، كما قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨] أى: يحذركم عقوبته فى ارتكابكم نهيهِ. ولهذا قال هاهنا: ﴿أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أى: حجة عليكم فى عقوبته إياكم. روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قوله: ﴿سُلْطَانًا مُبِينًا﴾: كل سلطان فى القرآن حجة. وإسناده صحيح. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وغيرهم .

ثم أخبر تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ أى: يوم القيامة، جزاء على كفرهم الغليظ. قال ابن عباس: ﴿فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ أى: فى أسفل النار. وقال غيره: النار دركات، كما أن الجنة درجات. وروى ابن أبى حاتم عن أبى هريرة: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ قال: الدرك الأسفل بيوت لها أبواب تطبق عليهم، فتوقد من تحتهم ومن فوقهم (١). ﴿وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ أى: ينقذهم مما هم فيه، ويخرجهم من أليم العذاب.

ثم أخبر تعالى أن من تاب منهم فى الدنيا تاب عليه، وقَبِلَ ندمه، إذا أخلص فى توبته وأصلح عمله، واعتصم بربه فى جميع أمره، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ أى: بَدَّلُوا الرياء بالإخلاص، فينفعهم العمل الصالح وإن قلَّ. وروى ابن أبى حاتم عن معاذ بن جبل: أن رسول الله ﷺ قال: «أَخْلَصْ دِينَكَ، يَكْفِكَ الْقَلِيلُ مِنَ الْعَمَلِ» (٢). ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: فى زمرة يوم القيامة ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

ثم قال مخبراً عن غناه عما سواه، وأنه إنما يعذب العباد بذنوبهم، فقال: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ أى: أصلحتم العمل وآمنتُم بالله ورسوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ أى: من شكر شكر له، ومن آمن قلبه به علمه، وجازاه على ذلك أوفر الجزاء.

(١) هذا موقوف، وإسناده ابن أبى حاتم إلى أبى هريرة صحيح .

(٢) زاد السيوطى (٢/ ٢٣٦) نسبته لابن أبى الدنيا فى كتاب الإخلاص والحاكم «صححه» والبيهقى فى الشعب .

﴿ لَا يَحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ [١٤٨] **إِنْ بُدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا** [١٤٩]

قال عن ابن عباس - في الآية - يقول: لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد، إلا أن يكون مظلوماً، فإنه قد أرحص له أن يدعو على من ظلمه، وذلك قوله: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾، وإن صبر فهو خير له (١). وروى أبو داود عن عائشة قالت: سُرِقَ لها شيء، فجعلت تدعو عليه، فقال النبي ﷺ: «لَا تُسَبِّحِي عَنْهُ» (٢).

وقال الحسن البصري: لا يدع عليه، وليقل: اللهم أعني عليه، واستخرج حقي منه.

وقال عبد الكريم بن مالك الجزري - في هذه الآية: هو الرجل يشتمك فتشتمه، ولكن إن افترى عليك فلا تفتري عليه؛ لقوله: ﴿وَلَمَنْ اتَّصَرَ بِعَدُوِّهِ فَلَا تَلْمِزْهُ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١].

وروى أبو داود عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «الْمُسْتَبَانُ مَا قَالَا، فعلى البادئ منهما، ما لم يعتد المظلوم» (٣). وقد روى الجماعة سوى النسائي والترمذي عن عقبة بن عامر قال: قلنا: يا رسول الله، إنك تبعثنا فننزل بقوم فلا يقرُّونا، فما ترى في ذلك؟ فقال: «إذا نزلتم بقوم فأمرُّوا لكم بما ينبغي للضيف، فاقبلوا منهم، وإن لم يفعلوا فخذوا منهم حقَّ الضيف الذي ينبغي لهم» (٤). وروى الإمام أحمد عن المقدم أبي كريمة، عن النبي ﷺ أنه قال: «أَيُّمَا مُسْلِمٍ ضَافَ قَوْمًا، فَأَصْبَحَ الضَّيْفُ مُحْرَمًا، فَإِنْ حَقَّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ نَصْرُهُ حَتَّى يَأْخُذَ بِقَرَى لَيْلَتِهِ مِنْ زَرْعِهِ وَمَالِهِ». تفرد به أحمد من هذا الوجه (٥)، وروى أحمد أيضاً عن المقدم أبي كريمة، سمع رسول الله ﷺ يقول: «لَيْلَةُ الضَّيْفِ وَاجِبَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، فَإِنْ أَصْبَحَ بِفَنَائِهِ مُحْرَمًا كَانَ دَيْنًا لَهُ عَلَيْهِ، فَإِنْ شَاءَ اقْتَضَاهُ وَإِنْ شَاءَ تَرَكَهُ». ورواه أبو داود (٦).

ومن هذه الأحاديث وأمثالها ذهب أحمد وغيره إلى وجوب الضيافة، ومن هذا القبيل

(١) رواه الطبري (١٠٧٤٩). وكذلك ابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور (٢/ ٢٣٧).

(٢) أبو دود (١٤٩٧)، وإسناده صحيح. وقوله: «لَا تُسَبِّحِي عَنْهُ»: بضم التاء وفتح السين وكسر الباء الموحدة المشددة وبالحاء المعجمة، قال الخطابي: «معناه: لا تخففي عنه بدعاتك».

(٣) أبو داود (٤٨٩٤). ورواه أحمد (٧٢٠٤) ومسلم (٢/ ٢٨٥).

(٤) المسند (١٧٤١٦) والبخاري (٥/ ٧٧ - ٧٨ فتح) ومسلم (٢/ ٤٥).

(٥) المسند (١٧٢٤٤، ١٧٢٦٣، ١٧٢٦٤). وأسانيده صحاح. وذكره الهيثمي في الزوائد (٨/ ١٧٥) بلفظ مختصر عن ألفاظ المسند، وقال: «رواه أحمد، ورجاله ثقات» وقد سها الحافظ ابن كثير في دعواه أنه تفرد به أحمد من هذا الوجه - يعنى عن الكتب الستة - وقلده الهيثمي في ذكره في الزوائد. فإن هذا الحديث رواه أبو داود (٣٧٥١) من الوجه الذي رواه منه أحمد. و«المقدم أبو كريمة»: هو المقدم بن معد يكرب، و«أبو كريمة» كنيته. ووقع في المطبوعة - في هذا الحديث والذي بعده - «عن المقدم بن أبي كريمة»! وهو خطأ صرف. وثبت على الصواب في المخطوطتين.

(٦) المسند (١٧٢٣٨، ١٧٢٦١، ١٨٢٦٢، ١٧٢٦٨) وأبو داود (٣٧٥٠) وأسانيده صحاح.

الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البزار عن أبى هريرة؛ أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال: إن لى جارا يؤذنى، فقال له: «أخرج متاعك فضعه على الطريق». فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق، فجعل كل من مر به قال: مالك؟ قال: جارى يؤذنى. فيقول: اللهم عنه، اللهم أخزه. قال: فقال الرجل: ارجع إلى منزلك، وقال: لا أوديك أبداً. ورواه أبو داود (١).

وقوله: ﴿إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تَخَفُوا أَوْ تَعَفُّوا عَنْ سُوءِ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أى: إن تظهروا - أيها الناس - خيراً، أو أخفيتموه، أو عفوتهم عن أساء إليكم، فإن ذلك مما يقربكم عند الله، ويجزل ثوابكم لديه، فإن من صفاته تعالى أن يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم. ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾؛ ولهذا ورد فى الحديث الصحيح: «ما نقص مال من صدقة، ولا زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، ومن تواضع لله رفعه» (٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝١٥١ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١٥٢﴾

يتوعد تبارك وتعالى الكافرين به ويرسله من اليهود والنصارى، حيث فرّقوا بين الله ورسله فى الإيمان، فآمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض، بمجرد التشهى والعادة، وما ألفوا عليه آباءهم، لا عن دليل قادم إلى ذلك، فإنه لا سبيل لهم إلى ذلك بل بمجرد الهوى والعصية. فاليهود - عليهم لعائن الله - آمنوا بالأنبياء إلا عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، والنصارى آمنوا بالأنبياء وكفروا بخاتمهم وأشرفهم محمد ﷺ، والسامرة لا يؤمنون بنبى بعد يوشع خليفة موسى بن عمران، والمجوس يقال: إنهم كانوا يؤمنون بنبى لهم يقال له: زرادشت، ثم كفروا بشرعه، فرفع من بين أظهرهم، والله أعلم.

والمقصود: أن من كفر بنبى من الأنبياء، فقد كفر بسائر الأنبياء، فإن الإيمان واجب بكل نبى بعثه الله إلى أهل الأرض، فمن رد نبوته للحسد أو العصبية أو التشهى، تبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيماناً شرعياً، إنما هو عن غرض وهوى وعصبية؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ فَوَسَّمْهُمْ بِهِمُ الْكُفْرَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أى: فى الإيمان ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أى: طريقاً ومسلكاً. ثم أخبر تعالى عنهم، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ أى: كفرهم محقق لا محالة بمن ادعوا

(١) أبو داود (٥٣٥١) بنحوه. ورواه البخارى فى الأدب المفرد، رقم (١٢٤). وأسانيد الحديث صحاح. وهذا الحديث ليس فى المسند، بعد التبع التام لمسند أبى هريرة.

(٢) رواه أحمد (٧٢٠٥) ومسلم (٢/ ٢٨٥) من حديث أبى هريرة. وقد مضى تخريجه عند تفسير الآيات:

(١٣٠ - ١٣٦) من سورة آل عمران.

الإيمان به؛ لأنه ليس شرعياً، إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله لآمنوا بنظيره، وبمن هو أوضح دليلاً وأقوى برهاناً منه، لو نظروا حق النظر فى نبوته.

وقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أى: كما استهانوا بمن كفروا به، لعدم نظرهم فيما جاءهم به من الله، وإعراضهم عنه وإقبالهم على جمع حطام الدنيا، مما لا ضرورة بهم إليه، وإما بكفرهم به بعد علمهم بنبوته، كما كان يفعله كثير من أحوار اليهود فى زمان رسول الله ﷺ، حيث حسدوه على ما آتاه الله من النبوة العظيمة، وخالفوه وكذبوه وعادوه وقتلوه، فسلط الله عليهم الذل الدنيوى الموصول بالذل الآخروى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١] فى الدنيا والآخرة. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ يعنى بذلك: أمة محمد ﷺ، فإنهم يؤمنون بكل كتاب أنزله الله وبكل نبي بعثه الله، كما قال تعالى: ﴿آمَنَ الرُّسُلُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٨٥]. ثم أخبر تعالى بأنه قد أعد لهم الجزاء الجزيل والثواب الجليل والعطاء الجميل، فقال: ﴿أُولَئِكَ سَوْفَ نُؤْتِيهِمْ أَجُورَهُمْ﴾ (١) على ما آمنوا بالله ورسوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أى: لذنوبهم، أى: إن كان لبعضهم ذنوب.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ أَلْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا بِمُوسَى سُلْطَنًا مُبِينًا ﴿١٥٤﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ لَّهُمْ أَدْخَلُوا الْبَابَ مَحْجَرًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِثْقَلًا غَلِيظًا ﴿١٥٥﴾﴾

قال محمد بن كعب القرظى، والسدى، وقتادة، سأل اليهود رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة. قال ابن جريج: سألوه أن ينزل عليهم صحفاً من الله مكتوبة إلى فلان وفلان، بتصديقه فيما جاءهم به! وهذا إنما قالوه على سبيل التعنت والعناد والكفر والإلحاد، كما سأل كفار قريش قبلهم نظير ذلك، كما هو مذكور فى سورة «سبحان»: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ الآيات [الإسراء: ٩٠-٩٣]. ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ أى: بطغيانهم وبغيهم، وعتوهم وعنادهم. وهذا مفسر فى سورة «البقرة» حيث يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا يَا مُوسَى إِنَّ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ. ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥، ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أى: من بعد ما رأوا من الآيات

(١) «نؤتيهم»: رسمت فى المخطوطتين بالنون، فأثبتناه كذلك. وهى قراءة القراء السبعة، ما عدا حفص عن عاصم، فإنه قرأها: «يؤتيهم» بالياء. وهى الثابتة فى المصحف الذى بأيدي أكثر الناس.

الباهرة والأدلة القاهرة على يد موسى، عليه السلام، في بلاد مصر وما كان من إهلاك عدو الله فرعون وجميع جنوده في اليم، فما جاوزوه إلا يسيراً حتى أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، فقالوا لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ الآيتين [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩]. ثم ذكر تعالى قصة اتخاذهم العجل مبسوطة في سورة «الأعراف»، وفي سورة «طه» بعد ذهاب موسى إلى مناجاة الله، عز وجل، ثم لما رجع وكان ما كان، جعل الله توبتهم من الذي صنعوه وابتدعوه: أن يقتل من لم يعبد العجل منهم من عبده، فجعل بعضهم يقتل بعضاً فقال الله عز وجل: ﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثَاقِهِمْ﴾، وذلك حين امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة، وظهر منهم إباء عما جاءهم به موسى، عليه السلام - رفع الله على رؤوسهم جبلاً، ثم ألزموا فالتزموا وسجدوا، وجعلوا ينظرون إلى فوق رؤوسهم خشية أن يسقط عليهم! كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُنَّا الْجِبَلِ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٧١]. ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي: فخالفوا ما أمروا به من القول والفعل، فإنهم أمروا أن يدخلوا باب بيت المقدس سجداً، وهم يقولون: حطة. أي: حط اللهم عنا ذنوبنا في تركنا الجهاد ونكولنا عنه، حتى تهنا في التيه أربعين سنة. فدخلوا يزحفون على أستاههم، وهم يقولون: حنطة في شعرة!! ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ أي: وصيناهم بحفظ السبت وال التزام. ما حرم الله عليهم، ما دام مشروعاً لهم ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أي: شديداً، فخالفوا وعصوا وتحيلوا على ارتكاب مناهي الله، عز وجل، كما هو مبسوط في سورة الأعراف عند قوله: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣ - ١٦٦] الآيات.

﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِثْقَهُمْ وَكُفِّرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٥٥﴾ وَيَكْفُرِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بِهَتْنًا عَظِيماً ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ ﴿١٥٩﴾

وهذه من الذنوب التي ارتكبوها، مما أوجب لعنتهم وطردهم وإبعادهم عن الهدى، وهو نقضهم المواثيق والعهود التي أخذت عليهم، ﴿وَكُفِّرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، أي: حججه وبراهينه، والمعجزات التي شاهدوها على أيدي الأنبياء، عليهم السلام. وقوله: ﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، وذلك لكثرة إجرامهم واجترائهم على أنبياء الله، فإنهم قتلوا جمّاً غفيراً من الأنبياء عليهم السلام. ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبّير، وقتادة، وغير واحد:

أى فى غطاء . وهذا كقول المشركين : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ الآية [فصلت: ٥] . وقد تقدم نظيره فى سورة البقرة (١) .

قال الله تعالى : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى : مَرَدَتْ قلوبهم على الكفر والطغيان وقلة الإيمان ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾ قال ابن عباس : يعنى أنهم رموها بالزنا . وكذا قال السدى ، ومحمد بن إسحاق وغير واحد . وهو ظاهر من الآية : أنهم رموها وابنها بالعظام ، فجعلوها زانية ، قد حملت بولدها من ذلك ! فعليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة . وقولهم : ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ أى : هذا الذى يدعى لنفسه هذا المنصب قتلناه . وهذا منهم من باب التهكم والاستهزاء ، كقول المشركين : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر: ٦] .

وكان من خبر اليهود - عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه : أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات والهدى ، حسدوه على ما آتاه الله من النبوة والمعجزات الباهرات ، التى كان يبرئ بها الأكفم والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله ، ويصور من الطين طائراً ثم ينفخ فيه فيكون طائراً يشاهد طيرانه بإذن الله ، عز وجل ، إلى غير ذلك من المعجزات التى أكرمها الله بها وأجراها على يديه ، ومع هذا كذبوه وخالفوه ، وسَعَوْا فى آذاه بكل ما أمكنهم ، حتى جعل نبي الله عيسى ، عليه السلام ، لا يسكنهم فى بلدة ، بل يكثر السباحة هو وأمه ، عليهما السلام ، ثم لم يقنعهم ذلك حتى سَعَوْا إلى ملك دمشق فى ذلك الزمان - وكان رجلاً مشركاً من عبدة الكواكب ، وكان يقال لأهل ملته : اليونان - وأنهبوا إليه : أن يبيت المقدس رجلاً يفتن الناس ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه . فغضب الملك من هذا ، وكتب إلى نائبه بالقدس أن يحتاط على هذا المذكور ، وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه ، ويكف آذاه عن الناس . فلما وصل الكتاب امثال متولّى البلد ذلك ، وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذى فيه عيسى ، عليه السلام ، وهو فى جماعة من أصحابه ، اثنا عشر أو ثلاثة عشر - وقيل : سبعة عشر نفرًا ، فحاصروه هنالك . فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه ، أو خروجه عليهم قال لأصحابه : أيكم يلقى عليه شبهى ، وهو رفيقى فى الجنة؟ فانتدب لذلك شابٌ منهم ، فقال : أنت هو ، وألقى الله عليه شبه عيسى ، حتى كأنه هو ، وفُتِحَتْ رَوَازِنُ من سقف البيت ، وأخذت عيسى عليه السلام سنةً من النوم ، فرفع إلى السماء وهو كذلك ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ارْأَيْكَ رَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [آل عمران: ٥٥] . فلما رفع خرج أولئك النفر ، فلما رأى أولئك ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى ، فأخذوه فى الليل وصلبوه ، ووضعوا الشوك على رأسه ، وأظهر اليهود أنهم سَعَوْا فى صلبه وتبجحوا بذلك ، وسلم لهم طوائف من النصرارى ذلك ، لجهلهم وقلة عقلهم ، ما عدا من كان فى البيت مع المسيح ، فإنهم شاهدوا رفعه ، وأما الباقون فإنهم ظنوا كما ظن اليهود أن المصلوب هو المسيح ابن مريم .

وهذا كله من امتحان الله عباده؛ لما له فى ذلك من الحكمة البالغة، وقد أوضح الله الأمر وجلاله وبينه وأظهره فى القرآن العظيم، الذى أنزله على رسوله الكريم، المؤيد بالمعجزات والبيانات والدلائل الواضحات، فقال تعالى - وهو أصدق القائلين، ورب العالمين، المطلع على السرائر والضمائر، الذى يعلم السر فى السموات والأرض، العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون - . ﴿وَمَا قَتْلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أى: رأوا شبهه فظنوه إياه؛ ولهذا قال: ﴿وَرَأَى الَّذِينَ اِخْتَلَفُوا فِيهِ لَبَّى شَكَّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ يعنى بذلك: من ادعى قتله من اليهود، ومن سلّمه من جهال النصارى، كلهم فى شك من ذلك وحيرة وضلال وسُعر^(١). ولهذا قال: ﴿وَمَا قَتْلُوهُ يَقِينًا﴾ أى: وما قتلوه متيقنين أنه هو، بل شاكين متوهمين ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أى منيع الجنب لا يرام جنبه، ولا يضام من لاذ ببابه ﴿حَكِيمًا﴾ أى: فى جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور التى يخلقها وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، والسلطان العظيم، والأمر القديم.

وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء، خرج على أصحابه - وفى البيت اثنا عشر رجلا من الخواريين - يعنى: فخرج عليهم من عين فى البيت، ورأسه يقطر ماء، فقال: إن منكم من يكفر بى اثنى عشر مرة، بعد أن آمن بى. قال: ثم قال: أياكم يُلقَى عليه شبهى، فيقتل مكانى ويكون معى فى درجتى؟ فقام شاب من أحدثهم سنا، فقال له: اجلس. ثم أعاد عليهم فقام ذلك الشاب، فقال: اجلس. ثم أعاد عليهم، فقام الشاب، فقال: أنا. فقال: أنت هو ذاك. فألقى عليه شبه عيسى. ورفع عيسى من رَوْزَنَةِ فى البيت إلى السماء. قال: وجاء الطلب من اليهود، فأخذوا الشبه فقتلوه، ثم صلبوه، وكفر به بعضهم اثنى عشر مرة، بعد أن آمن به، واختلفوا ثلاث فرق، فقالت طائفة: كان الله فىنا ما شاء ثم صعد إلى السماء! وهؤلاء اليعقوبية، وقالت فرقة: كان فىنا ابن الله ما شاء، ثم رفعه الله إليه! وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فىنا عبد الله ورسوله ما شاء، ثم رفعه الله إليه. وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة، فقتلوا، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ. وإسناده صحيح إلى ابن عباس، ورواه النسائى بنحوه. وكذا ذكر غير واحد من السلف أنه قال لهم: أياكم يُلقَى عليه فيقتل مكانى، وهو رفيقى فى الجنة؟ (٢).

(١) «السر»: الجنون.

(٢) القصة التى رواها ابن أبى حاتم عن ابن عباس، ذكرها السيوطى (٢/ ٢٣٨)، وزاد نسبتها لعبد بن حميد وابن مردويه. وصيغتها وسياقها تضعها موضع الشك فى صحة نسبتها لابن عباس - وإن كان إسنادها إليه صحيحا - وليس عليها ضوء كلام ذلك العصر الزاهر، عصر الصحابة. ولعلها من أوهام المنهال بن عمرو الأسدى، راوينا عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. بل إنها لا تكاد ترتفع إلى مرتبة الإسرائيليات التى تنسب إلى اليهود - لعنهم الله - يقولون غير هذا.

فهذه القصة، والقصة التى قبلها، التى ساقها الحافظ ابن كثير من قبل نفسه، والتى لخصها من القصص المملوءة به كتب التفسير عن وهب بن منبه وأمثاله - ليس لواحدة منهما سند صحيح من القرآن أو السنة الثابتة. =

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ قال ابن جرير: اختلف أهل التأويل فى معنى ذلك، فقال بعضهم: يعنى بعيسى ﴿ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ يعنى: قبل موت عيسى . يُوجِه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال، فتصير الملل كلها واحدة، وهى ملة الإسلام الحنيفية، دين إبراهيم، عليه السلام . ثم روى عن ابن عباس: ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ قال: قبل موت عيسى ابن مريم . عليه السلام (١) . وكذا قال أبو مالك ، والحسن ، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد . هذا القول هو الحق، كما سنبينه بعد بالدليل القاطع، إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان .

قال ابن جرير: وقال آخرون: يعنى بذلك: ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ ﴾ بعيسى قبل موت الكتابى . ذكر من كان يُوجِه ذلك إلى أنه إذا عاين علم الحق من الباطل؛ لأن كل من نزل به الموت لم تخرج نفسه حتى يتبين له الحق من الباطل فى دينه . [ثم نقل الحافظ ابن كثير روايات من الطبرى ، عن ابن عباس ، بهذا المعنى ، نذكر منها] : عن ابن عباس: ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ قال: هى فى قراءة أبى: « قبل موتهم » ليس يهودى يموت أبداً حتى يؤمن بعيسى . قيل لابن عباس: أرايت إن خرّ من فوق بيت؟ قال: يتكلم به فى الهوى . فقيل: أرايت إن ضربت عنق أحد منهم؟ قال: يُلْجَلَج بها لسانه (٢) . وكذا روى أبو داود الطيالسى عن ابن عباس . فهذه كلها أسانيد صحيحة إلى ابن عباس (٣) ، وكذا صحّ عن مجاهد، وعكرمة، ومحمد بن سيرين .

قال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بمحمد ﷺ قبل موت الكتابى . [ثم روى ذلك عن عكرمة] . ثم قال ابن جرير: وأولى هذه الأقوال بالصحة القول الأول، وهو أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى، عليه السلام، إلا آمن به قبل موته، أى قبل موت عيسى، عليه السلام، ولا شك أن هذا الذى قاله ابن جرير، هو الصحيح؛ لأنه المقصود من سياق الآى فى تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه، وتسليم من سلّم لهم من النصارى الجهلة ذلك، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك، وإنما شبه لهم، فقتلوا الشبيه وهم لا يتبينون ذلك، ثم إنه رفعه إليه، وإنه باق حى، وإنه

= ثم إن كلا منهما متناقضة مع نفسها ومع الأخرى . فإن نفر الذين كانوا مع عيسى عليه السلام فى البيت سمعوه - كما تقول القصة - يقول لهم : « أياكم يلقي عليه شبهى وهو رفيقى فى الجنة ؟ » . وسمعوا أحدهم اختار هذه المنزلة - كما تقول القصة - فكيف يزعمون بعد ذلك أنه هو المصلوب المقتول موافقة لزعم أعدائهم اليهود ؟! كما نقد أبو جعفر الطبرى - لله دره - أمثال هذه الحكايات . انظر تفسير الطبرى (٩ / ٣٧٤ - ٣٧٦) . فالذى نؤمن به موقن : هو ما أخبرنا الله به فى كتابه نصا ، أنهم ﴿ مَا قُلُوهُ وَمَا صَلُّوهُ وَلَكِنْ شَبَّ لَهُمْ ﴾ الآية ١٥٧ - دون أن ندخل فى تفصيل كيف شبه لهم ، وعلى من من الناس ألقى شبهه ؟ فهذا التفصيل لم تكلف الإيمان به ، إذ لم يعلمنا الله ولا رسوله بشيء من ذلك التفصيل . والله الهادى إلى سواء السبيل .

(١) الطبرى (١٠٧٩٤) . وإسناده صحيح . (٢) الطبرى (١٠٨١٤) . وإسناده صحيح .

(٣) وقد تناقضت الروايات الصحيحة عنه واختلفت ، كما ترى !

سينزل قبل يوم القيامة، كما دلت عليه الأحاديث المتواترة - التى سنوردها إن شاء الله قريباً - فيقتل مسيح الضلالة، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية - يعنى: لا يقبلها من أحد من أهل الأديان، بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف - فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ، ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أى: قبل موت عيسى، الذى زعم اليهود ومن وافقهم من النصارى أنه قتل وصلب.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أى: بأعمالهم التى شاهدوها منهم قبل رفعه إلى السماء وبعد نزوله إلى الأرض. فاما من فسر هذه الآية بأن المعنى: أن كل كتابى لا يموت حتى يؤمن بعيسى أو بمحمد، عليهما السلام، فهذا هو الواقع، وذلك: أن كل أحد عند احتضاره يتجلى له ما كان جاهلاً به، فيؤمن به، ولكن لا يكون ذلك إيماناً نافعاً له، إذا كان قد شاهد الملك، كما قال تعالى فى أول هذه السورة: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا﴾ الآية [النساء: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكْ يَنْفَعَهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥] وهذا يدل على ضعف ما احتج به ابن جرير فى رد هذا القول، حيث قال: ولو كان المراد بهذه الآية هذا، لكان كل من آمن بمحمد أو بالمسيح، ممن كفر بهما - يكون على دينهما، وحينئذ لا يرثه أقرباؤه من أهل دينه؛ لأنه قد أخبر الصادق أنه يؤمن به قبل موته (١). فهذا ليس بجيد؛ إذ لا يلزم من إيمانه فى حالة لا ينفعه إيمانه أنه يصير بذلك مسلماً، ألا ترى إلى قول ابن عباس: «ولو تردى من شاهق أو ضرب بسيف أو اقترسه سبع، فإنه لا بد أن يؤمن بعيسى»! فالإيمان فى مثل هذه الحال ليس بنافع، ولا ينقل صاحبه عن كفره لما قدمنا، والله أعلم.

ومن تأمل هذا جيداً وأمعن النظر، اتضح له أن هذا، وإن كان هو الواقع، لكن لا يلزم منه أن يكون المراد بهذه الآية هذا، بل المراد بها ما ذكرناه من تقرير وجود عيسى، عليه السلام، وبقاء حياته فى السماء، وأنه سينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة؛ ليكذب هؤلاء وهؤلاء من اليهود والنصارى، الذين تباينت أقوالهم فيه وتضادّت، وتعاكست وتناقضت، وخلت عن الحق، ففرط هؤلاء اليهود وأفرط هؤلاء النصارى: تنقّصه اليهود بما رموه به وأمه من العظائم، وأطراه النصارى بحيث ادعوا فيه بما ليس فيه، فرفعوه فى مقابلة أولئك عن مقام النبوة إلى مقام الربوبية، تعالى الله عما يقول هؤلاء وهؤلاء علواً كبيراً، وتنزه وتقدّس، لا إله إلا هو.

ذكر الأحاديث الواردة فى نزول عيسى ابن مريم إلى الأرض من السماء، فى آخر الزمان قبل يوم القيامة، وأنه يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له:

قال البخارى، رحمه الله، فى كتاب ذكر الأنبياء، من صحيحه المثلث بالقبول: (نزول

عيسى ابن مريم - عليه السلام): ثم روى عن أبي هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخَنزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيُفِضَ الْمَالَ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا». ثم يقول أبو هريرة: «واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَأَنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾». ورواه مسلم وأخرجه الشيخان من طرق متعددة (١). ورواه ابن مردويه بنحوه .

وزاد فى آخره كلام أبى هريرة : « قَبْلَ مَوْتِهِ » : موت عيسى ابن مريم ، ثم يعيدها أبو هريرة ثلاث مرات . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : «لِيُهْلَنَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَفَجِّ الرُّوحَاءِ بِالْحَجِّ أَوْ الْعِمْرَةِ أَوْ لِيَشْنِيَهُمَا جَمِيعًا» ورواه مسلم (٢). وروى أحمد عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الخنزير، ويمحو الصليب، وتجمع له الصلاة، ويعطى المال حتى لا يقبل، ويضع الخراج، وينزل الروحاء فيحج منها أو يعتمر، أو يجمعهما». قال: وتلا أبو هريرة: «﴿وَأَنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ الآية . فزعم حنظلة : أن أبا هريرة قال: يؤمن به قبل موت عيسى، فلا أدري : هذا كله حديث النبى ﷺ أو شئ قاله أبو هريرة ؟. ورواه ابن أبى حاتم (٣). وروى البخارى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف بكم إذا نزل فيكم المسيح ابن مريم، وإمامكم منكم؟» ورواه الإمام أحمد ومسلم (٤). وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة ؛ أن النبى ﷺ قال: «الأنبياء إخوة لِعَلَّاتٍ أمهاتهم شتى ودينهم واحد، وإنى أولى الناس بعيسى ابن مريم؛ لأنه لم يكن بينى وبينه نبي، وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه: رجل مربع إلى الحمرة والبياض، عليه ثوبان ممصران، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بَلَلٌ، فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويدعو الناس إلى الإسلام، ويهلك الله فى زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك الله فى زمانه المسيح الدجال، ثم تقع الأمانة على الأرض، حتى ترتع الأسود مع الإبل، والتمار مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم، فيمكث أربعين سنة، ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون». ورواه أبو داود، وابن جرير - ولم يورد عند هذه الآية سواء (٥). وروى البخارى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا

(١) البخارى (٦ / ٣٥٥ - ٣٥٧ ، ٤ / ٣٤٣ ، ٥ / ٨٦ فتح) ومسلم (١ / ٥٤) . ورواه أحمد - مطولا ومختصرا (٧٢٦٧ ، ٧٦٦٥ ، ٧٨٩٠ ، ١٠٩٥٧) ومرارا غيرها .

وانظر الطبرى (٧١٤٤ ، ٧١٤٥ ، ١٠٨٣٠) .

(٢) المسند (٧٢٧١) ومسلم (١ / ٣٥٦ ، ٣٥٧) . (٣) المسند (٧٨٩٠) .

(٤) البخارى (٦ / ٣٥٧ ، ٣٥٨ فتح) والمسند (٧٦٦٦) ومسلم (١ / ٥٤) .

(٥) المسند (٩٢٥٩) . ورواه أيضا (٩٦٣٠ ، ٩٦٣١ ، ٩٦٣٢) والطبرى (١٠٨٣٠) . وأسانيد صحاح . ورواه الحاكم

(٢ / ٥٩٥) ، وصححه ، ووافقه الذهبى . وفصلنا تخريجه فى الطبرى (٧١٤٥) حيث روى نحوه بإسناد آخر

ضعيف . وقوله : « إخوة لعلات » - بفتح العين المهملة وتشديد اللام : أى أمهاتهم مختلفة وأبوهم واحد . وأراد أن إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة . والثياب المصرة - بفتح الصاد المشددة : هى التى فيها صفة خفيفة .

والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد» (١). وروى مسلم عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق - أو بدابق - فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم. فيقول المسلمون: لا والله، لا نخلى بينكم وبين إخواننا. فيقاتلونهم، فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً، ويُقْتَلُ ثلثهم أفضل الشهداء عند الله، ويفتح الثلث، لا يفتنون أبداً، فيفتحون قسطنطينية، فينما هم يقسمون الغنائم قد علّقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم. فيخرجون، وذلك باطل. فإذا جاؤوا الشام خرج، فينما هم يُعدّون للقتال: يسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة، فينزل عيسى ابن مريم، فأمرهم، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده، فيريهم دمه في حربته» (٢).

وروى أحمد: عن ابن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: «لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم وموسى وعيسى، عليهم السلام، فتذكروا أمر الساعة، فردوا أمرهم إلى إبراهيم، فقال: لا علم لى بها. فردوا أمرهم إلى موسى، فقال: لا علم لى بها. فردوا أمرهم إلى عيسى، فقال: أما وَجَبَتْهَا فلا يعلم بها أحد إلا الله، وفيما عهد إلى ربى - عز وجل - أن الدجال خارج ومعى قضيبان، فإذا رآنى ذاب كما يذوب الرصاص، قال: فيهلكه الله إذا رآنى حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم، إن تحتى كافراً فتعال فاقتله، قال: فيهلكهم الله، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم، فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيطؤون بلادهم، فلا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرّون على ماء إلا شربوه، قال: ثم يرجع الناس يشكونهم، فادعوا الله عليهم، فيهلكهم ويميتهم، حتى تَجْوى الأرض من نتن ريحهم، وينزل الله المطر، فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم فى البحر، ففيما عهد إلى ربى - عز وجل : أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المتيم، لا يدرى أهلها متى تفجؤهم بولادها ليلاً أو نهاراً». ورواه ابن ماجة (٣).

وروى الإمام أحمد عن أبي نضرة قال: أتينا عثمان بن أبى العاص فى يوم الجمعة؛ لنعرض عليه مصحفاً لنا على مصحفه، فلما حضرت الجمعة أمرنا فاغتسلنا، ثم أتينا بطيب فتطينا، ثم جئنا المسجد، فجلسنا إلى رجل، فحدثنا عن الدجال. ثم جاء عثمان بن أبى العاص فقمنا

(١) البخارى (٦ / ٣٥٤ فتح) . ورواه الحاكم (٢ / ٥٩٢) من الطريق التى رواه منها البخارى ! فوهم فى استدراكه .

(٢) مسلم (٢ / ٣٦٥) . و« دابق » : قرية قرب حلب . و« الأعماق » : قال ياقوت : « جاء بلفظ الجمع ، والمراد به العمق [يفتح العين وسكون الميم] ، وهو كورة قرب دابق بين حلب وأنطاكية . » ونحو ذلك قال النووى فى شرحه (١٨ / ٢١) : « موضعان بالشام يقرب حلب » . فما جاء بهامش مسلم طبعة الأستانة (٨ / ١٧٦) ، من أن « الأعماق اسم موضع من أطراف المدينة » و« دابق موضع سوق المدينة » - تخليط عجيب !!

(٣) المسند (٣٥٥٦) وابن ماجة (٤٠٨١) ، وإسنادهما صحيحان . ورواه الحاكم (٤ / ٤٨٨ ، ٤٤٩ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦) وصححه ووافقه الذهبى . وسيذكره الحافظ ابن كثير مرة أخرى فى أحاديث الإسراء ، فى أول السورة .

إليه، فجلسنا، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون للمسلمين ثلاثة أمصار: مصر بملتقى البحرين، ومصر بالحيرة، ومصر بالشام. ففرق الناس ثلاث فزعات، فيخرج الدجال في أعراض الناس، فيَهْزِمُ من قبل المشرق، فأول مصر يرده المصّر الذي بملتقى البحرين، فيصير أهلهم ثلاث فرق: فرقة تُقيم تقول: نُشَامُهُ ننظر ما هو؟ وفرقة تلحق بالأعراب، وفرقة تلحق بالمصّر الذي يليهم. ومع الدجال سبعون ألفاً عليهم السيّجان، وأكثر من معه اليهود والنساء،] ثم يأتي المصّر الذي يليه، فيصير أهله ثلاث فرق: فرقة تقول: نشامه وننظر ما هو؟ وفرقة تلحق بالأعراب، وفرقة تلحق بالمصّر الذي يليهم بغرب الشام]، وينحاز المسلمون إلى عقبة أفيق فيبعثون سرّحاً لهم، فيصاب سرّحهم، فيشتد ذلك عليهم، وتصيبهم مجاعة شديدة وجهد شديد، حتى إن أحدهم ليحرق وترَ قَوْسِهِ فيأكله، وبينما هم كذلك إذ نادى مناد من السّحر (١): يا أيها الناس، أتاكم الغوث - ثلاثاً - فيقول بعضهم لبعض: إن هذا لَصَوْتُ رجل شبعان، وينزل عيسى ابن مريم، عليه السلام، عند صلاة الفجر، فيقول له أميرهم: يا رُوحَ الله، تَقَدَّمْ صلّ. فيقول: هذه الأمة أمراء، بعضهم على بعض. فيتقدم أميرهم فيصلّى، فإذا قضى صلاته أخذ عيسى حَرَبَتَهُ، فيذهب نحو الدّجال، فإذا رآه الدجال ذاب كما يذوب الرصاص، فيضع حَرَبَتَهُ بين ثنودتيه، فيقتله ويهزم أصحابه، فليس يومئذ شيء يوارى منهم أحداً، حتى إن الشجرة تقول: يامؤمن، هذا كافر! ويقول الحجر: يا مؤمن، هذا كافر!». تفرد به أحمد من هذا الوجه (٢).

وروى مسلم عن النّوّاس بن سَمْعَانَ قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فحفّض فيه ورقّع، حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحلنا إليه عرف ذلك فينا، فقال: «ما شأنكم؟» قلنا: يا رسول الله، ذكرت الدجال فحفّضت فيه ورقّعت حتى ظنناه في طائفة النخل، قال: «غير الدجال أخوفني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حَجِيجُهُ دونكم، وإن يَخْرُجْ ولست فيكم فامرؤ حَجِيجٌ نفسه، والله خليفتي على كل مسلم: إنه شابٌ قَطَطٌ عينه طافية، كَأَنِّي أَشْبَهُهُ بَعْدَ الْعَزَى بن قَطَنٍ، من أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارجٌ خَلَّةً بين الشام والعراق، فعاثَ يَمِيناً وعاثَ شَمَالاً. يا عباد الله، فاثبتوا»: قلنا: يا رسول الله، وما لَبَنُهُ في الأرض؟ قال: «أربعون يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم».

(١) في المطبوع من «عمدة التفسير»: «الشجر»، وفي المخطوطة الأزهرية: «البحر»، وما أثبتناه من المسند. (البار).

(٢) المسند (٤/ ٢١٦، ٢١٧ حلى). وهو في مجمع الزوائد (٧/ ٣٤٢)، وقال: «رواه أحمد والطبراني، وفيه على بن زيد، وفيه ضعف وقد وثق، وبقية رجالهما رجال الصحيح». والزيادة التي أثبتناها في متن الحديث - من المسند ومجمع الزوائد. وقوله: «وفرقة تقول: نشامه» - بتشديد الميم، من الشم. أي: نخبره وننظر ما عنده. قال ابن الأثير: «يقال: شامت فلاناً، إذا قاربته وتعرفت ما عنده بالاختيار والكشف. وهي مفاعلة من الشم، كأنك تشم ما عنده ويشم ما عندك لتعملاً بمقتضى ذلك». و «عقبة أفيق» - بضم الهمزة وفتح الفاء: بالقرب من حوران. قال ياقوت: «تنزل في هذه العقبة إلى الغور، وهو الأردن، وهي عقبة طويلة نحو ميلين».

[قلنا: يا رسول الله وذلك اليوم الذى كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: «لا، اقدروا له قدره»]. قلنا: يا رسول الله، وما إسرعه فى الأرض؟ قال: «كالغيث استدبرته الريح، فيأتى على قوم فيدعوهم، فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذُرَى، وأسبغه ضُرُوعاً، وأمده خواصر، ثم يأتى القوم فيدعوهم، فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون مُمَحْلِينَ ليس بأيديهم شيء من أموالهم. ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجى كنوزك. فتنبه بكنوزها كيعاسيب النحل. ثم يدعو رجلاً ممتلاً شباباً، فيضربه بالسيف، فيقطعه جزلتين رَمِيَّة الغرض، ثم يدعو فيُقْبَلُ ويتهلل وجهه يضحك. فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم، عليه السلام، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مَهْرودَتَيْن، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قَطَر، وإذا رفعه تحدّر منه جُمَان كاللؤلؤ، ولا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونَفْسُهُ ينتهى حيث ينتهى طَرَفُهُ، فيطلبه حتى يدركه بباب لُدّ، فيقتله.

ثم يأتى عيسى [ابن مريم]، عليه السلام، قوماً قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم فى الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله، عز وجل، إلى عيسى: إني قد أخرجت عبداً لى لا يدان لأحد بقتالهم، فحرّز عبادى إلى الطور. ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طَبْرِيَّة، فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء. ويُحْصَرُ نبي الله عيسى وأصحابه، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النَّعْفَ فى رقابهم فيصبحون فَرَسَى كموت نفس واحدة. ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون فى الأرض موضع شبر إلا ملأه زَهْمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيراً كأعناق البَعَث، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله. ثم يرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلَقَةِ، ثم يقال للأرض: أخرجى ثَمَرَكَ ورُدّى بركتك. فيومئذ تأكل العُصَابَةُ من الرمانة، ويستظلون بقحفها، ويبارك الله فى الرُّسُلِ حتى إن اللُّقْحَةَ من الإبل لتكفى الفئام من الناس، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة، فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يَتَهَارَجُونَ فيها تَهَارَجَ الحُمُرِ، فعليهم تقوم الساعة». ورواه الإمام أحمد وأهل السنن. وسنذكره أيضاً من طريق أحمد، عند قوله تعالى فى سورة الأنبياء: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ [الأنبياء: ٩٦] (١).

وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو - وجاءه رجل فقال -: ما هذا الحديث الذى تُحدث به؟ تقول: إن الساعة تقوم إلى كذا وكذا؟ فقال: سبحان الله! - أو: لا إله إلا الله! أو كلمة نحوها - لقد هممت ألا أحدث أحداً شيئاً أبداً، إنما قلت: إنكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً، يُحَرِّقُ

البيت، ويكون ويكون. ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال في أمتي، فيمكث أربعين، لا أدرى أربعين يوماً، أو أربعين شهراً، أو أربعين عاماً - فيبعث الله عيسى ابن مريم، كأنه عروة بن مسعود، فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان - إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل في كبَد جبل لَدَخَلَتْه عليه حتى تَقْبُضَهُ» قال: سمعتها من رسول الله ﷺ، قال: «فيبقى شرار الناس في خَفَّة الطير وأحلام السباع، لا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكراً، فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دارٌ رزقهم، حسن عيشهم. ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى لِنَبَأٍ ورفِعَ لِنَبَأٍ، قال: وأول من يسمعه رجل يَلُوط حوض إبله، قال: فَيَصْعَقُ وَيَصْعَقُ النَّاسُ. ثم يرسل الله - أو قال: ينزل الله - مطراً كأنه الطَّل - أو قال: الظل، فتنبت منه أجساد الناس، ﴿ثُمَّ نَفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]. ثم يقال: يا أيها الناس، هلموا إلى ربكم، ﴿وَقِفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْتُرُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]. «ثم يقال: أخرجوا بَعَثَ النار. فيقال: من كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين». قال: فذلك يوم ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيعًا﴾ [الزمل: ١٧]، وذلك ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢]. ورواه النسائي في تفسيره (١).

وروى الإمام أحمد عن مُجَمِّع بن جارية، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقتل ابنُ مريم المسيح الدجال بباب لُدٍّ - أو: إلى جانب لُدٍّ». وعن عبد الله بن عبيد الله بن ثعلبة، عن عبد الرحمن ابن يزيد عن عمه مُجَمِّع بن جارية، عن رسول الله ﷺ قال: «يقتل ابن مريم الدجال بباب لُدٍّ». ورواه الترمذي، وقال: «حديث صحيح» (٢). قال: وفي الباب عن عمران ابن حصين، ونافع بن عتبة، وأبى بَرَزَةَ، وحذيفة بن أسيد، وأبى هريرة، وكَيْسَانَ، وعثمان بن أبى العاص، وجابر، وأبى أمامة، وابن مسعود، وعبد الله بن عمرو، وسُمْرَةُ بن جُنْدَب، والنواس بن سمعان، وعمرو بن عوف، وحذيفة بن اليمان، رضى الله عنهم.

ومراده برواية هؤلاء ما فيه ذكر الدجال. وقتل عيسى ابن مريم، عليه السلام، له. فأما أحاديث ذكر الدجال فقط فكثيرة جداً، وهى أكثر من أن تحصى؛ لانتشارها وكثرة روايتها فى الصحاح والحسان والمسانيد، وغير ذلك. وروى الإمام أحمد عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدُّخَانُ، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، ونزول عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خُسُوف: خُسُفٌ بالشرق، وخُسُفٌ بالمغرب، وخُسُفٌ بجزيرة

(١) مسلم (٢/ ٣٧٨، ٣٧٩). ورواه أحمد (٦٥٥٥). وسيذكره الحافظ ابن كثير عن رواية المسند - فى تفسير الآية (٦٨) من سورة الزمر.

(٢) المسند (١٥٥٣٥) والترمذي (٢٣٩/ ٣). و «مجمع»: بضم الميم الأولى وفتح الجيم وتشديد الميم الثانية المكسورة وآخره عين مهملة. و «جارية»: بالجيم والياء التحتية.

العرب. ونار تخرج من قعر عَدَن، تسوق - أو تحشر - الناس، تبيت معهم حيث باتوا، وتقبل معهم حيث قالوا». ورواه مسلم وأهل السنن (١).

فهذه أحاديث متواترة عن رسول الله ﷺ من رواية أبي هريرة، وابن مسعود، وعثمان بن أبي العاص، وأبي أمامة، والنواس بن سمعان، وعبد الله بن عمرو بن العاص، ومُجمَع بن جارية، وأبي سَريجة حذيفة بن أسيد، رضى الله عنهم. وفيها دلالة على صفة نزوله ومكانه، من أنه بالشَّام، بل بدمشق، عند المنارة الشرقية، وأن ذلك يكون عند إقامة الصلاة للصبح. وقد بنيت هذه الأعصار، فى سنة إحدى وأربعين وسبعمائة منارة للجامع الأموى بيضاء، من حجارة منحوتة، عوضاً عن المنارة التى هدمت بسبب الحريق المنسوب إلى صنيع النصارى - عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة - وكان أكثر عمارتها من أموالهم، وقويت الظنون أنها هى التى ينزل عليها المسيح عيسى ابن مريم، عليه السلام، فيقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية، فلا يقبل إلا الإسلام كما تقدم فى الصحيحين، وهذا إخبار من النبى ﷺ بذلك، وتقرير وتشريع له على ذلك فى ذلك الزمان، حيث تتزاح عللهم، وترتفع شبههم من أنفسهم؛ ولهذا كلهم يدخلون فى دين الإسلام مُتَابِعَةً لعيسى، عليه السلام، وعلى يديه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَعَلَّمُ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١] وقرئ: «لَعَلَّمُ» بالتحريك، أى أمارة ودليل على اقتراب الساعة، وذلك لأنه ينزل بعد خروج المسيح الدجال، فيقتله الله على يديه، ويبعث الله فى أيامه يأجوج ومأجوج، فيهلكهم الله ببركة دعائه، وقد قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُجِّعَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ. وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ الآية [الأنبياء: ٩٦، ٩٧] (٢).

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ قال قتادة: يشهد عليهم أنه قد بلغهم الرسالة من الله، وأقر بالعبودية لله، عز وجل، وهذا كقوله تعالى فى آخر سورة المائدة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ آتَيْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحَقَّ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٦ - ١١٨].

﴿فَيُظَاهِرُ مِنْ الذِّينِ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَذَلُوهُ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾
 ﴿لَكِنَّ الرَّاْسِحُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

(١) المسند (١٦٢١٣) ومسلم (٣٦٦/ ٢)، (٣٦٧).

(٢) ثم ذكر المؤلف الحفاظ هنا أحاديث تحت عنوان: «صفة عيسى عليه السلام». لم نر حاجة لإثباتها. ومن شاء فليرجع إليها فى تفسيره، وفى تاريخه (٢/ ٩٦ - ١٠١).

يخبر تعالى أنه بسبب ظلم اليهود بما ارتكبه من الذنوب العظيمة، حَرَّمَ عليهم طيبات كان أحلها لهم. وهذا التحريم قد يكون قدرياً، بمعنى: أنه تعالى قيضهم لأن تأولوا في كتابهم، وحرّفوا وبدلوا أشياء كانت حلالاً لهم، فحرموها على أنفسهم، تشديداً منهم على أنفسهم وتضييقاً وتنطعا. ويحتمل أن يكون شرعياً، بمعنى: أنه تعالى حَرَّمَ عليهم في التوراة أشياء كانت حلالاً لهم قبل ذلك، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالاً لِّبَنِي إِسْرَآئِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَآئِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾. [آل عمران: ٩٣]. وقد قدمنا الكلام على هذه الآية، وأن المراد: أن الجميع من الأطعمة كانت حلالاً لهم، من قبل أن تنزل التوراة ما عدا ما كان حرام إسرائيل على نفسه من لحوم الإبل والبانها (١). ثم إنه تعالى حرم أشياء كثيرة في التوراة، كما قال في سورة الأنعام: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦] أى: إنما حرمنا عليهم ذلك؛ لأنهم يستحقون ذلك، بسبب بغْيهم وطغيانهم ومخالفتهم رسولهم واختلافهم عليه. ولهذا قال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ أى: صدوا الناس وصدوا أنفسهم عن اتباع الحق. وهذه سَجِيَّة لهم متصفون بها من قديم الدهر وحديثه؛ ولهذا كانوا أعداء الرسل، وقتلوا خلقاً من الأنبياء، وكذبوا عيسى ومحمداً، صلوات الله وسلامه عليهما.

وقوله: ﴿وَآخِذْهُمْ الرَّبَّاءُ وَقَدْ نَهَوْا عَنْهُ﴾ أى: أن الله قد نهاهم عن الربا فتناولوه وأخذوه، واحتالوا عليه بأنواع من الخيل وصنوف من الشبه، وأكلوا أموال الناس بالباطل. قال الله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾.

ثم قال تعالى: ﴿لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ أى: الثابتون في الدين لهم قدم راسخة في العلم النافع. وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة آل عمران (٢). ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ عطف على الراسخين، وخبره ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾. قال ابن عباس: أنزلت في عبد الله ابن سلام، وثعلبة بن سَعْيَة، وزيد بن سَعْيَة وأسَد بن عُبَيْد، الذين دخلوا في الإسلام، وصدقوا بما أرسل الله به محمداً ﷺ.

وقوله: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ هكذا هو في جميع المصاحف الاثمة، وكذا هو في مصحف أبيّ ابن كعب. وذكر ابن جرير أنها في مصحف ابن مسعود: «والمقيمون الصلاة»، قال: والصحيح قراءة الجميع. ثم ردّ على من زعم أن ذلك من غلط الكاتب، ثم ذكر اختلاف الناس، فقال بعضهم: هو منصوب على المدح، كما جاء في قوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، قال: وهذا سائغ في كلام العرب، كما قال الشاعر:

(١) مضى عند تفسير الآية : (٩٣) من سورة آل عمران .

(٢) يعنى بيان الراسخين فى العلم . وقد مضى عند تفسير الآية : (٧) .

لَا يَبْعَدَنَّ قَوْمِي الَّذِينَ هُمْ أَسَدُ الْعِدَاءِ وَآفَةُ الْجَزْرِ
وَالطَّيِّبُونَ مَعَاقِدَ الْأُزْرِ وَالنَّازِلِينَ بِكُلِّ مُعْتَرِكٍ

وقال آخرون: هو مخفوض عطفًا على قوله: ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعنى: وبالْمُقِيمِينَ الصلاة. وكأنه يقول: وبإقامة الصلاة، أى: يعترفون بوجوبها وكتابتها عليهم، أو أن المراد بالمُقِيمِينَ الصلاة الملائكة، وهذا اختيار ابن جرير، يعنى: يؤمنون بما أنزل إليك، وما أنزل من قبلك، وبالملائكة. وفي هذا نظر (١)، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ يحتمل أن يكون المراد: زكاة الأموال، ويحتمل زكاة النفوس، ويحتمل الأمرين، والله أعلم. ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أى: يصدقون بآته لا إله إلا الله، ويؤمنون بالبعث بعد الموت، والجزء على الأعمال خيرها وشرها. وقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ هو الخبر عما تقدم ﴿سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعنى: الجنة.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ دَاوُدَ زَبُورًا ۚ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ۚ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١٦٥)

روى ابن إسحاق عن ابن عباس قال: قال سكين وعدى بن زيد: يا محمد، ما تعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى! فأنزل الله في ذلك من قولهما: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ إلى آخر الآيات (٢). ذكر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله محمد ﷺ كما أوحى إلى غيره من الأنبياء المتقدمين. ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ والزبور: اسم الكتاب الذى أوحاه الله إلى داود، عليه السلام.

وقوله: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ أى: من قبل هذه الآية، يعنى: فى السور المكية وغيرها. وهذه تسمية الأنبياء الذين نص الله على أسمائهم فى القرآن، وهم: آدم، وإدريس، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وأيوب، وشعيب، وموسى، وهارون، ويونس، وداود، وسليمان، وإلياس، وأليسع، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين، وسيدهم محمد ﷺ.

(١) انظر الطبرى (٩ / ٣٩٧ - ٣٩٩). وانظر فيه آية ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِهِدْمِهِمْ﴾ (٣ / ٣٥٢ - ٣٥٤). والبيتان اللذان ذكرهما الحافظ ابن كثير هنا - نقلًا عن الطبرى فى هذا الموضع - لم يذكرهما فيه ولا فى الموضع السابق. فلعلهما سقطا من هذا الموضع من ناسخى النسخ التى وقعت إلينا من تفسير الطبرى.

(٢) سكين - بضم السين - بن أبى سكين وعدى بن زيد - هما من بنى قينقاع، من الأعداء من يهود. وهذا الخبر ثابت فى سيرة ابن هشام. ورواه الطبرى (١٠٨٤٠) من طريق ابن إسحاق.

وقوله: ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ أى: خلقنا آخرين لم يذكرنا فى القرآن. وقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ وهذا تشریف لموسى، عليه السلام، بهذه الصفة؛ ولهذا يقال له: الكلیم. وقد روى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن مسیح بن حاتم، حدثنا عبد الجبار بن عبد الله قال: جاء رجل إلى أبى بكر بن عیاش فقال: سمعت رجلاً یقرأ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (١) فقال أبو بكر: ما قرأ هذا إلا كافر! قرأت على الأعمش، وقرأ الأعمش على ابن وثاب، وقرأ یحیی بن وثاب على أبى عبد الرحمن السلمی، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمی، على أبى طالب، وقرأ على بن أبى طالب على رسول الله ﷺ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾.

وإنما اشتد غضب أبى بكر بن عیاش، رحمه الله، على من قرأ كذلك؛ لأنه حَرَفَ لفظ القرآن ومعناه، وكأن هذا من المعتزلة الذين ينكرون أن يكون الله كلم موسى، عليه السلام، أو يكلم أحداً من خلقه، كما روينا عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ: ﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾ فقال له: يا ابن اللخناء! كيف تصنع بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]؟! يعنى: أن هذا لا يحتمل التحريف ولا التأويل.

وقوله: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أى: يبشرون من أطاع الله واتبع رضوانه بالخيرات، وينذرون من خالف أمره وكذب رسله بالعقاب والعذاب.

وقوله: ﴿لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أى: أنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والندارة، وبين ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه؛ لئلا يبقى لمعتذر عذر، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَا أَهْلُكُمْ بِعَذَابٍ مِّنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَبِئْسَ مَا كُنَّا فِيهِ﴾ [طه: ١٣٤]، وكذا قوله: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَبِئْسَ مَا كُنَّا فِيهِ﴾ [القصص: ٤٧]. وقد ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل، من أجل ذلك مدح نفسه، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين» وفى لفظ آخر: «من أجل ذلك أرسل رسله، وأنزل كتبه» (٢).

﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (١١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاصْطَادُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (١٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ (١٣) ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (١٤) ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَتَأْمَنُوا خَيْرَ الْكُفْرِ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٥)

(١) يعنى بفتح الهاء من لفظ الجلالة .

(٢) انظر المسند (٣٦١٦، ٤١٥٣) وصحيح مسلم (٣٢٦/٢) .

لما تضمن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ إلى آخر السياق - إثبات نبوته ﷺ، والرد على من أنكر نبوته من المشركين وأهل الكتاب، قال الله تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ أى: وإن كفر به من كفر به ممن كذبك وخالفك، فالله يشهد لك بأنك رسوله الذى أنزل عليه الكتاب، وهو: القرآن العظيم الذى ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]؛ ولهذا قال: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ أى: فيه علمه الذى أراد أن يطلع العباد عليه، من البينات والهدى والفرقان وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضى والمستقبل، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة، التى لا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب، إلا أن يُعلمه الله به، كما قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]. وروى ابن أبى حاتم عن عطاء بن السائب قال: أقرأنى أبو عبد الرحمن السلمى القرآن، وكان إذا قرأ عليه أحدنا القرآن قال: قد أخذت علم الله، فليس أحد اليوم أفضل منك إلا بعمل، ثم يقرأ قوله: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ أى: بصدق ما جاءك وأوحى إليك وأنزل عليك، مع شهادة الله تعالى لك بذلك ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾. عن ابن عباس قال: دخل على رسول الله ﷺ جماعة من اليهود، فقال لهم: «إنى لأعلم - والله - إنكم لتعلمون أنى رسول الله». فقالوا: ما نعلم ذلك. فأنزل الله عز وجل: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (١).

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أى: كفروا فى أنفسهم، فلم يتبعوا الحق، وسعوا فى صد الناس عن اتباعه والاعتداء به، قد خرجوا عن الحق وضلوا عنه، وبعدوا منه بعداً عظيماً شاسعاً. ثم أخبر تعالى عن حكمه فى الكافرين بآياته وكتابه ورسوله الظالمين لأنفسهم بذلك، وبالصد عن سبيله وارتكاب مآثمه وانتهاك محارمه، بأنه لا يغفر لهم ولا يهديهم ﴿طَرِيقًا﴾ أى: سبيلاً إلى الخير ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ وهذا استثناء منقطع ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ أى: قد جاءكم محمد - صلوات الله وسلامه عليه - بالهدى ودين الحق، والبيان الشافى من الله، عز وجل، فأمنوا بما جاءكم به واتبعوه يكن خيراً لكم. ثم قال: ﴿وَأَنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: فهو غنى عنكم وعن إيمانكم، ولا يتضرر بكفرانكم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]. وقال هاهنا: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ أى: بمن يستحق منكم الهداية فيهديه، وبمن يستحق الغواية فيغويه ﴿حَكِيمًا﴾ أى: فى أقواله وأفعاله

وشرعه وقدره .

﴿يَتَأَهَّلَ الْكَتَبَ لَا تَقْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (١٧١)

ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير فى النصارى، فإنهم تجاوزوا الحد فى عيسى، حتى رفعوه فوق المنزلة التى أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلها من دون الله يعبدونه كما يعبدونه، بل قد غلوا فى أتباعه وأشياعه، ممن زعم أنه على دينه، فادَّعَوْا فيهم العصمة واتبعوهم فى كل ما قالوه، سواء كان حقاً أو باطلاً، أو ضلالاً أو رشاداً، أو صحيحاً أو كذباً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. وروى الإمام أحمد عن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تُطْرُونِي كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد الله ورسوله». وقال على بن المدينى: هذا حديث صحيح مسند . ورواه البخارى (١) . وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك: أن رجلاً قال: يا محمد، يا سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا. فقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، عليكم بقولكم، ولا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنى الله عز وجل». تفرد به من هذا الوجه (٢).

وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أى: لا تفتروا عليه وتجعلوا له صاحبة وولدا - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وتزده وتقدس وتوحد فى سؤده وكبريائه وعظمته - فلا إله إلا هو، ولا رب سواه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أى: إنما هو عبد من عباد الله، وخلق من خلقه، قال له: كن، فكان، ورسول من رسله، وكلمته ألقاها إلى مريم، أى: خلقه بالكلمة التى أرسل بها جبريل، عليه السلام، إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن ربه، عز وجل، وكانت تلك النفخة التى نفخها فى جيب درعها، فنزلت حتى ولَّجت فرجها، بمنزلة لقاح الأب الأم، والجميع مخلوق لله، عز وجل؛ ولهذا قيل لعيسى: إنه كلمة الله وروح منه؛ لأنه لم يكن له أب تولد منه، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التى قال له بها: كن، فكان. و الروح التى أرسل بها جبريل، قال الله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]. وقال تعالى: ﴿إِنْ مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي أَحْضَنْتَ

(١) المسند (١٥٤، ١٦٤، ٣٣١) والبخارى (٦/ ٣٥٥ فتح) . وهو جزء من حديث السقيفة الطويل، رواه أحمد

(٣٩١) والبخارى (١٢/ ١٢٨ - ١٣٩ فتح) .

(٢) المسند (١٢٥٧٨) . وإسناده صحيح .

فَرُجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ [الأنبياء: ٩١] وقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا الظَّاهِرُ﴾ [التحریم: ١٢]. وقال تعالى إخباراً عن المسيح: ﴿إِنَّهُ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، قال: سمعت شاذَّ (١) بن يحيى يقول في قول الله: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ قال: ليس الكلمة صارت عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى.

وهذا أحسن مما ادعاه ابن جرير في قوله: ﴿أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أى: أعلمها بها، كما زعمه في قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥] أى: يعلمك بكلمة منه، ويجعل ذلك كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦] (٢) بل الصحيح أنها الكلمة التي جاء بها جبريل إلى مريم، فنفخ فيها بإذن الله، فكان عيسى، عليه السلام. وروى البخارى عن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ قال: « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه ، والجنة حق ، والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل ». ورواه مسلم (٣).

فقوله في الآية والحديث: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الباقية: ١٣] أى: من خلقه ومن عنده، وليست «من» للتبويض ، كما تقولوه النصارى - عليهم لعائن الله المتتابعة - بل هى لابتداء الغاية، كما فى الآية الأخرى.

وقد قال مجاهد فى قوله: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أى: ورسول منه. وقال غيره: ومجبة منه. والأظهر الأول ، وهو: أنه مخلوق من روح مخلوقة، وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف، كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله، فى قوله: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ [هود: ٦٤]. وفى قوله: ﴿وَطَهْرُ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦]، وكما ورد فى الحديث الصحيح: «فأدخل على ربى فى داره» ، أضافها إليه إضافة تشريف ، وهذا كله من قبيل واحد ونمط واحد.

وقوله: ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أى: فصدقوا بأن الله واحد أحد، لا ولد له ولا صاحبة، واعلموا وتيقنوا بأن عيسى عبد الله ورسوله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ أى: لا تجعلوا عيسى وأمه مع الله شريكين، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

(١) شاذ: بتشديد الذال المعجمة . ووقع فى المطبوعة « شاذان » بزيادة ألف ونون فى آخره . وهو خطأ صرف .

« وشاذ » - هذا : مترجم فى التهذيب ، وهو يروى عن وكيع وي زيد بن هارون ، وسئل عنه أحمد ، فقال :

« عرفته . وذكره بخير » وترجمه ابن أبى حاتم (٢ / ١ / ٣٩٢) وقال : « نزل عليكم وكيع حيث خرج إلى

عبادان » .

(٢) انظر الطبرى (٩ / ٤١٨ ، ٤١٩) . ثم ما قبل ذلك (٦ / ٤١١ - ٤١٣) .

(٣) البخارى (٦ / ٣٤٢ فتح) ومسلم (١ / ٢٥) .

وهذه الآية والتي تأتي في سورة المائدة ، حيث يقول تعالى : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣] . وكما قال في آخر السورة المذكورة : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ [المائدة: ١١٦] ، وقال في أولها : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢] ، فالنصارى - عليهم لعنة الله - من جهلهم ليس لهم ضابط ، ولا لكفرهم حد ، بل أقوالهم وضلالهم منتشر ، فمنهم من يعتقد إلهاً ، ومنهم من يعتقد شريكاً ، ومنهم من يعتقد ولدأ . وهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة ، وأقوال غير مؤتلفة ، ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال : لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا عن أحد عشر قولاً !! ولقد ذكر بعض علمائهم المشاهير عندهم وهو سعيد ابن بطريق - بترك الإسكندرية - في حدود سنة أربعمائة من الهجرة النبوية ، أنهم اجتمعوا المجمع الكبير ، الذي عقدوا فيه الأمانة الكبيرة التي لهم ، وإنما هي الخيانة الحقيرة الصغيرة ! وذلك في أيام قسطنطين باني المدينة المشهورة ، وأنهم اختلفوا عليه اختلافاً لا ينضبط ولا ينحصر ، فكانوا أزيد من ألفين أسقفأ ، فكانوا أحزاباً كثيرة ، كل خمسين منهم على مقالة ، وعشرون على مقالة ، ومائة على مقالة ، وسبعون على مقالة ، وأزيد من ذلك وأنقص . فلما رأى عصابة منهم قد زادوا على الثلاثمائة بشمانية عشر نفرأ ، وقد توافقوا على مقالة ، فآخذها الملك ونصرها وأيدها - وكان فيلسوفأ ذاهية - ومَحَقَّ ما عداها من الأقوال ، وانتظم دَسْتُ أولئك الثلاثمائة وثمانية عشر ، وبنيت لهم الكنائس ، ووضعوا لهم كتبأ وقوانين ، وأحدثوا الأمانة التي يلقتونها الولدان من الصغر - ليعتقدوها - ويُعَمِّدُونَهُمْ عليها ، وأتباع هؤلاء هم الملكية . ثم إنهم اجتمعوا مجمعا ثانياً فحدث فيهم اليعقوبية ، ثم مجمعا ثالثاً فحدث فيهم النسطورية . وكل هذه الفرق تثبت الأقاليم الثلاثة في المسيح ، ويختلفون في كيفية ذلك وفي اللاهوت والناسوت على زعمهم! هل اتحدا ، أو ما اتحدا ، بل امتزجا أو حل فيه؟ على ثلاث مقالات! وكل منهم يكفر بالفرقة الأخرى ، ونحن نكفر الثلاثة ^(١) ! ولهذا قال تعالى : ﴿انتهوا خيراً لكم﴾ أي : يكن خيراً لكم ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي : تعالى وتقدس عن ذلك علواً كبيراً ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ أي : الجميع ملكه وخلقه ، وجميع ما فيهما عبيده ، وهم تحت تدبيره وتصريفه ، وهو وكيل على كل شيء ، فكيف يكون له منهم صاحبة وولدا؟! كما قال في الآية الأخرى : ﴿يَدْعِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١] ، وقال تعالى : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . وَهِيَ تَكْفُرُ . إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مریم: ٨٨ - ٩٥] .

(١) انظر ما مضى عند تفسير الآية : (٥٥) من سورة آل عمران .

﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ (١٧٢) ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ (١٧٣)

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قوله: ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ ﴾: لن يستكبر. وقال قتادة: لن يحتشم ﴿ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ وقد استدل بعض من ذهب إلى تفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية حيث قال: ﴿ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾. وليس له فى ذلك دلالة؛ لأنه إنما عطف الملائكة على المسيح؛ لأن الاستنكاف هو الامتناع، والملائكة أقدر على ذلك من المسيح؛ فلهذا قال: ﴿ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ولا يلزم من كونهم أقوى وأقدر على الامتناع أن يكونوا أفضل. وقيل: إنما ذكروا؛ لأنهم اتخذوا آلهة مع الله، كما اتخذ المسيح، فأخبر تعالى أنهم عبيد من عبيده وخلق من خلقه، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ الآيات [الانباء: ٢٦- وما بعدها]. ولهذا قال: ﴿ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ أى: فيجمعهم إليه يوم القيامة، ويفضل بينهم بحكمه العدل، الذى لا يجوز فيه ولا يحيف؛ ولهذا قال: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾. يعنى: فيعطيه من الثواب على قدر أعمالهم الصالحة ويزيدهم على ذلك من فضله وإحسانه وسعة رحمته وامتثانه. ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا ﴾ أى: امتنعوا من طاعة الله وعبادته واستكبروا عن ذلك ﴿ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ كقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠] أى: صاغرين حقيرين ذليلين، كما كانوا ممتنعين مستكبرين.

﴿ يَأْتِيَنَّ النَّاسَ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ (١٧٤) ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴾ (١٧٥)

يقول تعالى مخاطباً جميع الناس، ومخبراً بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم، وهو الدليل القاطع للعذر، والحجة المزيلة للشبهة؛ ولهذا قال: ﴿ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ أى: ضياء واضحاً على الحق، قال ابن جرير وغيره: هو القرآن. ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ ﴾ أى: جمعوا بين مقامى العبادة والتوكل على الله فى جميع أمورهم. ﴿ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ ﴾ أى: يرحمهم فيدخلهم الجنة ويزيدهم ثواباً ومضاعفة ورفعا فى درجاتهم، من فضله عليهم وإحسانه إليهم ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴾ أى: طريقاً واضحاً قصداً قواماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف. وهذه صفة المؤمنين فى الدنيا والآخرة، فهم فى الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة فى جميع الاعتقادات والعمليات، وفى الآخرة على صراط الله المستقيم المفضى إلى روضات الجنات.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمْرُؤُا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أُثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الشُّلْثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

روى البخارى عن البراء قال : آخر سورة نزلت : « براءة » ، وآخر آية نزلت : ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ (١). وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال: دخل على رسول الله ﷺ ، وأنا مريض لا أعقل ، قال : فتوضأ ، ثم صَبَّ عَلَىَّ - أو قال : صبوا عليه - فَقُلْتُ : إنه لا يرثنى إلا كلاله ، فكيف الميراث ؟ قال : فنزلت آية الفرائض . أخرجاه فى الصحيحين ، ورواه بقية الجماعة وفى بعض الألفاظ : فنزلت آية الميراث : ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ الآية . وكان معنى الكلام - والله أعلم - : يستفتونك عن الكلاله قل : الله يفتيكم فيها ، فدل المذكور على التروك . وقد تقدم الكلام على الكلاله واشتقاقها ، وأنها مأخوذة من الإكليل الذى يحيط بالرأس من جوانبه (٢) ؛ ولهذا فسرهما أكثر العلماء : بمن يموت وليس له ولد ولا والد ، ومن الناس من يقول : الكلاله من لا ولد له ، كما دلت عليه هذه الآية : ﴿إِنْ أَمْرُؤُا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ (٣).

وقد أشكل حُكْمُ الكلاله على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، كما ثبت عنه فى الصحيحين أنه قال : ثلاثٌ وَدِدْتُ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كان عهد إلينا فيهن عهدا تنتهى إليه : الجدة ، والكلالة ، وباب من أبواب الربا . وروى الإمام أحمد عن معدان بن أبى طلحة قال : قال عمر بن الخطاب : ما سألت رسول الله ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلاله ، حتى طعن بأصبعه فى صدرى وقال : «يكفيك آية الصيف التى فى آخر سورة النساء» . هكذا رواه مختصراً وقد أخرجه مسلم مطولاً أكثر من هذا (٤). وروى الإمام أحمد عن إبراهيم [النخعى] ، عن عمر قال : سألت رسول الله ﷺ عن الكلاله ؟ فقال : «يكفيك آية الصيف» . فقال : لأن أكون سألت النبى ﷺ عنها أحبَّ إلىَّ من أن يكون لى حُمْرُ النَّعَمِ . وهذا إسناد جيد ، إلا أن فيه انقطاعاً بين إبراهيم وبين عمر ، فإنه لم يدرکه (٥). وروى الإمام أحمد عن البراء بن عازب قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله عن الكلاله ، فقال : «يكفيك آية الصيف» . وهذا إسناد جيد ، ورواه أبو داود والترمذى . وكان المراد بآية الصيف : أنها نزلت فى فصل الصيف ، والله أعلم .

ولما أرشده النبى ﷺ إلى تفهمها - فإن فيها كفاية - نسي أن يسأل النبى ﷺ عن معناها ؛ ولهذا قال : فلأن أكون سألت رسول الله ﷺ عنها أحبَّ إلىَّ من أن يكون لى حُمْرُ النَّعَمِ .

(١) البخارى (٢٠١ / ٨) فتح .

(٢) مضى عند تفسير الآية : (١٢) من سورة النساء .

(٣) سبأى قريبا الرد على هذا القول بالدليل الصريح : أن الآية نصت على ميراث الأخت فى حال الكلاله بأن لها نصف التركة . والأخت لا تترث مع وجود الوالد ، بالبداية ؛ لأنه يحجبها حجب حرمان .

(٤) المستند (١٧٩) ومسلم - مطولاً - (٣ / ٢) . وكذلك رواه أحمد مطولاً (٨٩ ، ١٨٦ ، ٣٤١) .

(٥) المستند (٢٦٢) .

وروى ابن جرير عن سعيد بن المسيب قال: سأل عمر بن الخطاب النبي ﷺ عن الكلالة؟ فقال: «أليس قد بين الله ذلك؟» فنزلت: «يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ» (١).

ذكر الكلام على معناها وبالله المستعان، وعليه التكلان:

قوله تعالى: «إِنْ أَمْرُؤُكَ هَلَكٌ» أى: مات، قال الله تعالى: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» [القصص: ٨٨] كل شيء يفنى ولا يبقى إلا الله، عز وجل، كما قال: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» [الرحمن: ٢٦، ٢٧] .

وقوله: «لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ» تمسك به من ذهب إلى أنه ليس من شرط الكلالة انتفاء الوالد، بل يكفي في وجود الكلالة انتفاء الولد، وهو رواية عن عمر بن الخطاب، رواها ابن جرير عنه بإسناد صحيح إليه. ولكن الذى رجع إليه هو قول الجمهور وقضاء الصديق: أنه من لا ولد له ولا والد، ويدل على ذلك قوله: «وَلَهُ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ» ولو كان معها أب لم ترث شيئاً؛ لأنه يحجبها بالإجماع، فدل على أنه من لا ولد له بنص القرآن، ولا والد بالنص عند التأمل أيضاً؛ لأن الأخت لا يفرض لها النصف مع الوالد، بل ليس لها ميراث بالكلية. وروى الإمام أحمد عن زيد بن ثابت: أنه سئل عن زوج وأخت لأب وأم؟ فأعطى الزوج النصف والأخت النصف. فكلم في ذلك، فقال: حضرت رسول الله ﷺ قضى بذلك. تفرد به أحمد من هذا الوجه (٢)، وقد نقل ابن جرير وغيره عن ابن عباس وابن الزبير: أنهما كانا يقولان في الميت ترك بنتاً وأختاً: إنه لا شيء للأخت لقوله: «إِنْ أَمْرُؤُكَ هَلَكٌ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ» قالوا: فإذا ترك بنتاً فقد ترك ولداً، فلا شيء للأخت، وخالفهما الجمهور، فقالوا في هذه المسألة: للبنت النصف بالقرض، وللأخت النصف الآخر بالتعصيب، بدليل غير هذه الآية. وهذه نصت أن يفرض لها في هذه الصورة، وأما وراثتها بالتعصيب؛ فلما رواه البخارى عن الأسود، قال: قضى فينا معاذ بن جبل - على عهد رسول الله ﷺ: النصف للبنت، والنصف للأخت. وفي صحيح البخارى أيضاً عن هُزَيْل بن هُرَيْب عن شرحبيل قال: سئل أبو موسى الأشعري عن ابنة وابنة ابن وأخت؟ فقال: للابنة النصف، وللأخت النصف، وأت ابن مسعود فاستأبني. فسئل ابن مسعود - وأخبر بقول أبي موسى؟ فقال: لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين، أقضى فيها بما قضى النبي ﷺ: للبنت النصف، ولبنت الابن السدس، تكملة الثلثين، وما بقي فللأخت، فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود، فقال: لا تسألوني ما دام هذا الخبر فيكم.

وقوله: «وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ» أى: والأخ يرث جميع مالها إذا ماتت كلاله، وليس لها ولد، أى: ولا والد؛ لأنه لو كان لها والد لم يرث الأخ شيئاً، فإن فرض أن معه من له

(١) المسند (٤/ ٢٩٣) (حلى).

(٢) المسند (٥/ ١٨٨) (حلى). وذكره الهيثمى فى الزوائد (٤/ ٢٢٨) وقال: «رواه أحمد وفيه أبو بكر بن أبى مريم، قد اختلط، وبقيه رجاله رجال الصحيح». وذكره السيوطى (٢/ ٢٥١) عن المسند فقط، وقال: «بسنيد جيد».

فرض، صرف إليه فرضه؛ كزوج، أو أخ من أم، وصرف الباقي إلى الأخ؛ لما ثبت في الصحيحين، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا أَبَقَتْ لِلْفَرَائِضِ فَلَأُولَىٰ رَجُلٍ ذَكَرَ».

وقوله: «إِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثَّلَاثَانِ مِمَّا تَرَكَ» أى: فإن كان لمن يموت كلاله، أختان، فرض لهما الثلثان، وكذا ما زاد على الأختين فى حكمهما، ومن هاهنا أخذ الجماعة حكم البنتين كما استفيد حكم الأخوات من البنات، فى قوله: «إِن كُنْ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثَلَاثُ مَا تَرَكَ».

وقوله: «وَأِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ» هذا حكم العصابات من البنين وبنى البنين والإخوة، إذا اجتمع ذكورهم وإناثهم، أعطى الذكر منهم مثل حظ الأنثيين. قوله: «يُيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْفَرَائِضَ، وَيُحَدِّثُ لَكُمْ حُدُودَهَا، وَيُوضِحُ لَكُمْ شَرَائِعَهَا».

وقوله: «أَنْ تَصْلُوا» أى: لتلا تصلوا عن الحق بعد البيان «وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» أى: هو عالم بعواقب الأمور ومصالحها وما فيها من الخير لعباده، وما يستحقه كل واحد من القربات بحسب قربه من المتوفى. وقد روى البزار عن أبى عبيدة بن حذيفة، عن أبيه: «نزلت الكلاله على النبى ﷺ وهو فى مسير له، فوقف النبى ﷺ وإذا هو بحذيفة، وإذا رأس ناقة حذيفة عند مؤتزر النبى ﷺ، فلما إياه، فنظر حذيفة فإذا عمر، رضى الله عنه، فلما إياه، فلما كان فى خلافة عمر نظر عمر فى الكلاله، فدعا حذيفة فسأله عنها؟ فقال حذيفة: لقد لقانيها رسول الله ﷺ فَلَقَيْتُكَ كما لقاني، والله إني لصادق، والله لا أزيدك على ذلك شيئاً أبداً. ثم قال البزار: وهذا الحديث لا نعلم أحداً رواه إلا حذيفة، ولا نعلم له طريقاً عن حذيفة إلا هذا الطريق، وكذا رواه ابن مردويه (١). وروى ابن جرير عن طارق بن شهاب قال: «أخذ عمر كَتَفًا وجمع أصحاب رسول الله ﷺ، ثم قال: لا قُضِيَ فى الكلاله قضاء تُحَدِّثُ به النساء فى خدورهن. فخرجت حينئذ حية من البيت، ففارقوا، فقال: لو أراد الله، عز وجل، أن يتم هذا الأمر لأتمه. وهذا إسناد صحيح (٢). وروى الحاكم عن محمد بن طلحة بن يزيد بن رُكَّانَ عن عمر ابن الخطاب قال: لأن أكون سألت رسول الله ﷺ عن ثلاث أحبُّ إلىَّ من حُمْرِ النَّعَمِ: مَنْ الخليفة بعده؟ وعن قوم قالوا: نُقِرُّ فى الزكاة من أموالنا ولا نُؤَدِّيها إليك، أيحل قتالهم؟ وعن الكلاله. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وروى أيضا ابن عباس قال: كنتُ آخر الناس عهداً بعمر، فسمعتة يقول: القولُ ما قلتُ، قلت: وما قلت؟ قال

(١) إسناده صحيح . وذكره الهيثمى فى الزوائد : (٧ / ١٣) وقال : « رواه البزار ، ورجاله رجال الصحيح ، غير أبى عبيدة ابن حذيفة ، وثقة ابن حبان » . أقول : وأبو عبيدة بن حذيفة بن اليمان : ترجمه البخارى فى الكنى رقم (٤٤٥) ، وابن أبى حاتم (٤ / ٢ / ٤٠٣ ، ٤٠٤) فلم يذكرا فيه جرحا ، فهو ثقة عندهما . والحديث ذكره السيوطى (٢ / ٢٥٠) ونسبه للعدنى والبزار وأبى الشيخ فى الفرائض « بسند صحيح » وروى الطبرى ، نحو معناه (١٠٨٧٤ - ١٠٨٧٦) من حديث ابن سيرين ، مرسلا .

(٢) الطبرى (١٠٨٨٢) .

قلتُ: الكلالة، من لا ولد له. ثم قال: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه. وروى ابن جرير عن سعيد بن المسيَّب: أن عمر كتب في الجَدِّ والكلالة كتاباً، فمكث يستخير الله [فيه] يقول: اللهم إن علمت فيه خيراً فأمضه، حتى إذا طَعِنَ دَعَا بكتاب فمُحِيَ ، ولم يدرِ أحداً ما كتب فيه. فقال: إني كنت كتبت في الجَدِّ والكلالة كتاباً، وكنت استخرت الله فيه، فرأيت أن أترككم على ما كنتم عليه ^(١). قال ابن جرير: وقد رُوِيَ عن عمر، أنه قال: إني لأستحي أن أخالف أبا بكر. وكان أبو بكر يقول: هو ما عدا الولد والوالد ^(٢).

وهذا الذي قاله الصديق عليه جمهور الصحابة والتابعين والأئمة، في قديم الزمان وحديثه، وهو مذهب الأئمة الأربعة، والفقهاء السبعة. وقول علماء الأمصار قاطبة، وهو الذي يدل عليه القرآن، كما أرشد الله أنه قد بين ذلك ووضحه في قوله: ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

(١) الطبري (١٠٨٧٨ ، ١٠٨٧٩) .

(٢) الطبري (٤٣٧ / ٩) . وقد كان روى ذلك من قبل مفصلاً (٨ / ٥٣ - ٥٥) بالأرقام (٨٧٤٥ - ٤٩ - ٨٧) .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة المائدة

وهي مدنية

روى الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد قالت: إني لأخذة بزمَامِ الْعَضْبَاءِ ناقة رسول الله ﷺ، إذ نزلت عليه المائدة كلها، وكادت من ثقلها تَدُقُّ عَضْدُ الناقة (١). وروى أحمد أيضاً عن عبد الله بن عمرو قال: أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته، فلم تستطع أن تحمله، فنزل عنها . تفرد به أحمد (٢) . وقد روى الترمذى عن عبد الله بن عمرو قال: آخر سورة أنزلت: سورة المائدة والفتح، ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب . وقد روى عن ابن عباس أنه قال: آخر سورة أنزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [سورة النصر: ١] . وقد روى الحاكم نحو رواية الترمذى، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وروى الحاكم عن جبير بن نفير قال: حجبت فدخلت على عائشة، فقالت لى: يا جبير، تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم. فقالت: أما إنها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . ورواه الإمام أحمد وزاد: وسألته عن خلق رسول الله ﷺ؟ فقالت: القرآن. ورواه النسائى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَآفُقُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَتُهُ ءَالَانَعْمَ إِلَّا مَا يَتَنَّى عَلَيْكُمْ عَذْرَٰئِحُ الْحَيْضِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ ﴿١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُحِلُّوْا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا أَشْهَرَ الْحَرَامِ وَلَا الْمَدَى وَلَا الْقَلْبَدَ وَلَا ءَامِنَ أَلْيَتِ الْحَرَامِ يَتَنَغَوْنَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدُوِّ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾

روى ابن أبى حاتم عن مَعْنٍ وَعَوْفٍ - أو: أحدهما - أن رجلا أتى عبد الله بن مسعود فقال: اعهد إلىَّ. فقال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فأرْعَهَا سَمْعَكَ، فإنه خيرٌ يأمر به، أو شرٌ ينهى عنه (٣) . وروى ابن جرير عن محمد بن مسلم قال: قرأت كتاب رسول الله

(١) المسند (٤٥٥/٦ حلى) والزوائد (١٣ / ٧) ، ونسبه أيضا للطبرانى ، وقال : « وفيه شهر بن حوشب ، وهو ضعيف ، وقد وثق » . ونقول : بل إسناده صحيح .

(٢) المسند (٦٦٤٣) ، وإسناده صحيح .

(٣) إسناده جيد ، إلا أن فيه انقطاعا بين معن وعوف وبين ابن مسعود .

ﷺ الذي كُتِبَ لعمر بن حَزْم حين بعثه إلى نَجْرَان ، وكان الكتاب عند أبي بكر بن حزم ، فيه : هذا بيان من الله ورسوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ فكتب الآيات منها ، حتى بلغ : ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١). وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو ابن حزم ، عن أبيه قال : هذا كتابُ رسول الله ﷺ عندنا ، الذي كتبه لعمر بن حَزْم ، حين بعثه إلى اليمن يُفَقِّه أهلها ويعلمهم السنة ، ويأخذ صدقاتهم . فكتب له كتابا وعهدا ، وأمره فيه بأمره ، فكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من الله ورسوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ عَهْدٌ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لعمر بن حزم ، حين بعثه إلى اليمن ، أمره بتقوى الله في أمره كله ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

وقوله : ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ : قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : يعنى بالعقود : العهود . وحكى ابن جرير الإجماع على ذلك ، قال : والعهود : ما كانوا يتعاقدون عليه من الحلف وغيره . وعن ابن عباس فى قوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ يعنى بالعهود ، يعنى : ما أحل الله وما حرم ، وما فرض وما حد فى القرآن كله ، ولا تغدروا ولا تنكثوا ، ثم شدد فى ذلك فقال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ إلى قوله : ﴿سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد : ٢٥] (٢) .

وقوله تعالى : ﴿أَحَلَّتْ لَكُمْ بِهِمَةَ الْأَنْعَامِ﴾ هى : الإبل ، والبقر ، والغنم . قاله الحسن وقتادة وغير واحد . قال ابن جرير : وكذلك هو عند العرب . وقد استدل ابن عمر ، وابن عباس ، وغير واحد بهذه الآية على إباحة الجنين إذا وجد ميتا فى بطن أمه إذا ذبحت ، وقد ورد فى ذلك حديث فى السنن ، رواه أبو داود و الترمذى وابن ماجه عن أبى سعيد ، قال : قلنا : يا رسول الله ، نتحر الناقة ، ونذبح البقرة أو الشاة فى بطنها الجنين ، أنلقيه أم نأكله ؟ فقال : «كلوه إن شئتم ؛ فإن ذكاته ذكاة أمه» . وقال الترمذى : حديث حسن . وروى أبو داود عن جابر بن عبد الله ، عن رسول الله ﷺ قال : «ذكاة الجنين ذكاة أمه» . تفرد به أبو داود .

وقوله : ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ : قال ابن عباس : يعنى بذلك : الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير . وقال قتادة : يعنى بذلك الميتة ، وما لم يذكر اسم الله عليه . والظاهر - والله أعلم - أن المراد بذلك قوله : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلُ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّعُوطُ﴾ ؛ فإن هذه وإن كانت من الأنعام إلا أنها تحرم بهذه العوارض ؛ ولهذا قال : ﴿إِلَّا مَا ذُكِّتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ يعنى : منها . فإنه حرام لا يمكن استدراكه ، وتلاحقه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿أَحَلَّتْ لَكُمْ بِهِمَةَ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أى : إلا ما سيتلى عليكم من تحريم بعضها فى بعض الأحوال .

وقوله : ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ قال بعضهم : هذا منصوب على الحال . والمراد بالأنعام :

(١) الطبرى (١٠٩١٤) . و « محمد بن مسلم » : هو الزهرى .

(٢) رواه الطبرى (١٠٩٠٧) .

ما يعم الإنسى من الإبل والبقر والغنم، وما يعم الوحشى كالظباء والبقر والحمر، فاستثنى من الإنسى ما تقدم، واستثنى من الوحشى الصيد فى حال الإحرام. وقيل: المراد: أحللنا لكم الأنعام لكم فى جميع الأحوال، فحرموا الصيد فى حال الإحرام، فإن الله قد حكم بهذا وهو الحكيم فى جميع ما يأمر به وينهى عنه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

ثم قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: يعنى بذلك مناسك الحج. وقال مجاهد: الصفا والمروة والهدى والبُدن من شعائر الله. وقيل: شعائر الله محارمه، أى: لا تحلوا محارم الله التى حرمها تعالى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا الشُّهُرَ الْحَرَامَ﴾ يعنى بذلك تحريمه والاعتراف بتعظيمه، وترك ما نهى الله عن تعاطيه فيه، من الابتداء بالقتال وتأكيده اجتناب المحارم، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشُّهُرِ الْحَرَامِ قَاتَلٍ فِيهِ قُلْ قَاتَلٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ الآية [التوبة: ٣٦]. وفى صحيح البخارى عن أبى بكره: أن رسول الله ﷺ قال فى حجة الوداع: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرا، منها أربعة حُرُم، ثلاث متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مُضَر الذى بين جُمادى وشعبان». وهذا يدل على استمرار تحريمها إلى آخر وقت، كما هو مذهب طائفة من السلف. وقال ابن عباس فى قوله: ﴿وَلَا الشُّهُرَ الْحَرَامَ﴾ يعنى: لا تستحلوا القتال فيه. واختاره ابن جرير أيضاً، وذهب الجمهور إلى أن ذلك منسوخ، وأنه يجوز ابتداء القتال فى الأشهر الحرم، واحتجوا بقوله: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحَرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، قالوا: والمراد أشهر التيسير الأربعة، ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، قالوا: فلم يستثن شهرا حراما من غيره. وقد حكى الإمام أبو جعفر الإجماع على أن الله قد أحل قتال أهل الشرك لو قلد عنقه أو ذراعيه بلحاء جميع أشجار الحرم، لم يكن ذلك له أمانا من القتل، إذا لم يكن تقدم له عقد ذمة من المسلمين أو أمان. ولهذه المسألة بحث آخر، له موضع أبسط من هذا.

وقوله: ﴿وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ يعنى: لا تتركوا الإهداء إلى البيت الحرام؛ فإن فيه تعظيم شعائر الله، ولا تتركوا تقليدها فى أعناقها لتمييز به عما عداها من الأنعام، وليعلم أنها هدى إلى الكعبة فيجتنبها من يريدها بسوء، وتبعث من يراها على الإتيان بمثلها، فإن من دعا إلى هَدْيٍ كان له من الأجر مثل أجر من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيئا؛ ولهذا لما حَجَّ رسول الله ﷺ بات بذى الحليفة، وهو وادى العقيق، فلما أصبح طاف على نسائه، وكن تسعا، ثم اغتسل وتطيب وصلّى ركعتين، ثم أشعر هَدْيَهُ وَقَلَدَهُ، وأهل للحج والعمرة، وكان هديه إبلا كثيرة تنيف على الستين، من أحسن الأشكال والألوان، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]. قال بعض السلف: إعظامها: استحسانها واستسمانها. قال على بن أبى طالب: أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن. رواه أهل

السنن. وقال مقاتل بن حيان: ﴿وَلَا أَقْلَانِدَ﴾: فلا تستحلوه. وكان أهل الجاهلية إذا خرجوا من أوطانهم في غير الأشهر الحرم، قلّدوا أنفسهم بالشعر والوبر، وتقلد مشركو الحرم من لحاء شجر الحرم، فيأمنون به. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَتَفَعُونَ فُضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ أى: ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام، الذى من دخله كان آمناً، وكذا من قصده طالبا فضل الله وراغباً في رضوانه، فلا تصدوه ولا تمنعوه ولا تهيجوه. قال مجاهد، وعطاء، وقتادة، وغير واحد في قوله: ﴿يَتَتَفَعُونَ فُضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يعنى بذلك: التجارة. وهذا كما تقدم فى قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]. وقوله: ﴿وَرِضْوَانًا﴾: قال ابن عباس: يترضون الله بحجهم. وقد ذكر عكرمة، والسدى، وابن جريج: أن هذه الآية نزلت فى الحطيم بن هند البكرى، كان قد أغار على سرح المدينة، فلما كان من العام المقبل اعتمر إلى البيت، فأراد بعض الصحابة أن يعترضوا عليه من طريقه إلى البيت، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَتَفَعُونَ فُضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ (١).

وقد حكى ابن جرير الإجماع على أن المشرك يجوز قتله، إذا لم يكن له أمان، وإن أمّ البيت الحرام أو بيت المقدس؛ وأن هذا الحكم منسوخ فى حقهم، والله أعلم. فأما من قصده بالإلحاد فيه والشرك عنده والكفر به، فهذا يمنع كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]؛ ولهذا بعث رسول الله ﷺ عام تسع - لما أمر الصديق على الحجاج - علياً، وأمره أن ينادى على سبيل النيابة عن رسول الله ﷺ ببراءة، «وَالأَ يَحِجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ».

وقال ابن عباس: قوله: ﴿وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ يعنى: من توجه قبل البيت الحرام، فكان المؤمنون والمشركون يحجون، فنهى الله المؤمنين أن يمنعوا أحداً من مؤمن أو كافر، ثم أنزل الله بعدها: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، وقال: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٧]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨] فنهى المشركين من المسجد الحرام. وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿وَلَا أَقْلَانِدَ﴾ يعنى: إن تقلد قلادة من الحرم فأمنوه، قال: ولم تزل العرب تُعَيِّرُ من أخفر ذلك.

وقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أى: إذا فرغتم من إحرامكم وأحللتم منه، فقد أبحنا لكم ما كان محرماً عليكم فى حال الإحرام من الصيد. وهذا أمر بعد الخطر، والصحيح الذى يثبت على السبَر: أنه يرد الحكم إلى ما كان عليه قبل النهى، فإن كان واجباً رده واجباً، وإن كان مستحباً فمستحب، أو مباحاً فمباح. ومن قال: إنه على الوجوب، يتقضى عليه بآيات كثيرة،

(١) انظر: الطبرى (١٠٩٥٨، ١٠٩٥٩) والسيوطى (٢ / ٢٥٤، ٢٥٥) فى خبرى السدى وعكرمة. ولم أجد

ومن قال : إنه للإباحة ، يردُّ عليه آيات أخر، والذي ينتظم الأدلة كلها هذا الذي ذكرناه، كما اختاره بعض علماء الأصول، والله أعلم.

وقوله : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ : من القراء من قرأ : «أن صدوكم» بفتح الالف من «أن»، ومعناها ظاهر، أى : لا يحملنكم بغض قوم قد كانوا صدوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام، وذلك عام الخديية، على أن تعتدوا حكم الله فيكم فتقتصوا منهم ظلماً وعدواناً، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل فى كل أحد (١) . وهذه الآية كما سيأتى من قوله تعالى : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] أى : لا يحملنكم بغض أقوام على ترك العدل، فإن العدل واجب على كل أحد، فى كل أحد، فى كل حال. وقال بعض السلف : ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، والعدل به قامت السموات والأرض.

والشَنَاَن هو : البغض. قاله ابن عباس وغيره، وهو مصدر من شَنَّته أشنؤه شَنَاَناً، بالتحريك، مثل قولهم : جَمَزَ، وَدَرَجَان وَرَقْلَان، من جمز، ودرج، ورقل (٢). قال ابن جرير : من العرب من يسقط التحريك فى شَنَاَن، فيقول : شنان. قال : ولم أعلم أحداً قرأ بها .

وقوله : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ : يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات، وهو البر، وترك المنكرات وهو التقوى، وينهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم والمحارم. قال ابن جرير : الإثم : ترك ما أمر الله بفعله، والعدوان : مجاوزة [ما حد الله فى دينكم، ومجاوزة] ما فرض عليكم فى أنفسكم وفى غيركم .

وقد روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «أَنْصُرُ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا». قيل : يا رسول الله، هذا نَصَرْتُهُ مَظْلُومًا، فكيف أنصره إذا كان ظالماً؟ قال : «تَحْجِزْهُ وَتَمْنَعَهُ مِنَ الظَّالِمِ ، فذاك نصره .» ورواه الشيخان بنحوه .

وروى الحافظ أبو بكر البزار عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «الدَّالُّ عَلَى الْخَيْرِ كِفَاعُهُ». ثم قال : لا نعلمه يروى إلا بهذا الإسناد . قلت : وله شاهد فى الصحيح : «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك

(١) لم يذكر المؤلف الحافظ للقراءة الأخرى : «إن صدوكم» بكسر الهمزة ، وهى قراءة ابن كثير وأبى عمرو من السبعة . وقراءة الفتح قراءة باقى السبعة . ولكن صنيع الحافظ ابن كثير يدل على أنه كان يقرؤها بالكسر ، بقراءة سميه ابن كثير وزميله أبى عمرو .

(٢) «الجمز» بسكون الميم ، و «الجمزى» بفتحها مع ألف مقصورة : هو ضرب من السير مسرعاً دون العدو الشديد . ولم أجد استعمال «الجمزان» الذى حكاه ابن كثير هنا ، و «الدرج» بسكون الراء، و «الدرجان» : مشية الشيخ والصبى . و «الرقل» بسكون الفاء ، و «الرفلان» : جر الذيل مع التبخر .

من آثامهم شيئاً (١).

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

يخبر تعالى عباده خبراً متضمناً النهى عن تعاطى هذه المحرمات من الميتة، وهى: ما مات من الحيوان حتف أنفه، من غير ذكاة ولا اصطياد، وما ذاك إلا لما فيها من المضرة، لما فيها من الدم المحتقن، فهى ضارة للدين والبدن فلهذا حرمها الله، عز وجل، ويستثنى من الميتة السمك، فإنه حلال سواء مات بتذكية أو غيرها، لما رواه مالك، والشافعى وأحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما، عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ سئل عن ماء البحر؟ فقال: « هو الطَّهُور ماؤه ، الحِلُّ ميتته » . وهكذا الجراد، لما سيأتى من الحديث .

وقوله: ﴿ وَالْدَّمُ ﴾ يعنى : المسفوح؛ لقوله: ﴿ أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا ﴾ [الأنعام: ١٤٥]. قاله ابن عباس وسعيد ابن جبّير. روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس: أنه سئل عن الطحال؟ فقال: كلوه، فقالوا: إنه دم. فقال: إنما حُرِّمَ عليكم الدم المسفوح (٢). وقد روى الشافعى عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: « أَحِلُّ لَنَا مِيتَتَانِ وَدَمَانِ، فَأَمَّا الْمِيتَتَانِ فَالسَّمَكُ وَالْجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ فَالْكَبِدُ وَالطَّحَالُ ». وكذا رواه أحمد بن حنبل، وابن ماجه، والدارقطنى، والبيهقى، وقد رواه سليمان بن بلال - أحد الأثبات - عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر، فوقفه بعضهم عليه. قال الحافظ أبو زرعة الرازى: وهو أصح (٣). وروى ابن أبى حاتم عن أبى أمامة - وهو صدق بن عجلان - قال: بعثنى رسول الله ﷺ إلى قومى أَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وأعرض عليهم شرائع الإسلام، فأتيتهم، فبينما نحن كذلك إذ جاؤوا بَقِصَّةٍ من دم، فاجتمعوا عليها يأكلونها، فقالوا: هلم يا صدق، فكل. قال: قلت: ويحكم! إنما أتيتكم من عند من يُحَرِّمُ هذا عليكم،

(١) صحيح مسلم (٢ / ٣٠٦) عن أبى هريرة . وكذلك رواه أحمد (٩١٤٩) وابن حبان فى صحيحه (١١٢) بتحقيقنا .

(٢) إسناده ابن أبى حاتم صحيح .

(٣) فى أسانيده مقال كثير. انظر التلخيص الحبير (ص ٩) وقال الحافظ هناك: «وصحح الموقوف أبو زرعة وأبو حاتم». ثم قال: «نعم، الرواية الموقوفة التى صححها أبو حاتم وغيره فى حكم المرفوع؛ لأن قول الصحابى: أحل لنا، وحرم علينا كذا - مثل قوله: أمرنا بكذا، ونهينا عن كذا. فيحصل الاستدلال بهذه الرواية؛ لأنها فى معنى المرفوع». وهذا حق وصحيح .

وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ، قَالُوا: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: فَنَلَوْتُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ﴾ الْآيَةُ .
 وَرَوَاهُ الْخَافِضُ ابْنُ مَرْزُوبٍ مِثْلَهُ ، وَزَادَ يَعِدُ هَذَا السِّيَاقُ : قَالَ : فَجَعَلْتُ أَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ،
 وَيَأْبُونَ عَلَيَّ ، فَقُلْتُ : وَيَحْكُمُ ، اسْقُونِي شُرْبَةً مِنْ مَاءٍ ، فَإِنِّي شَدِيدُ الْعَطَشِ . قَالَ : وَعَلَيَّ عِبَادَتِي -
 فَقَالُوا : لَا ، وَلَكِنْ نَدْعُكَ حَتَّى تَمُوتَ عَطْشًا . قَالَ : فَاسْتَمْتَمْتُ وَضَرَبْتُ بِرَأْسِي فِي الْعِبَادَةِ ،
 وَنَمْتُ عَلَى الرَّمْضَاءِ فِي حَرِّ شَدِيدٍ ، قَالَ : فَأَتَانِي آتٌ فِي مَنَامِي بِقَدَحٍ مِنْ زَجَاجٍ لَمْ يَرِ النَّاسُ
 أَحْسَنَ مِنْهُ ، وَفِيهِ شَرَابٌ لَمْ يَرِ النَّاسُ أَلَذَّ مِنْهُ ، فَأَمَكَّنْتِي مِنْهَا فَشَرِبْتَهُ ، فَلَمَّا فَرَعْتَ مِنْ شَرَابِي
 اسْتَيْقَظْتُ ، فَلَا وَاللَّهِ مَا عَطِشْتُ وَلَا عَرَفْتُ عَطْشًا بَعْدَ تَيْكِ الشَّرْبَةِ . وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ وَذَكَرَ نَحْوَهُ ،
 وَزَادَ بَعْدَ قَوْلِهِ : « بَعْدَ تَيْكِ الشَّرْبَةِ » : « فَسَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ : أَتَأْكُمُ رَجُلٌ مِنْ سَرَاةِ قَوْمِكُمْ ، فَلَمْ
 تُنْجِعُوهُ بِمَذَقَةٍ ، فَأَتُونِي بِمَذَقَةٍ ، فَقُلْتُ : لَا حَاجَةَ لِي فِيهَا ، إِنَّ اللَّهَ أَطْعَمَنِي وَسَقَانِي ، وَأَرَيْتُهُمْ
 بَطْنِي فَاسْلَمُوا عَنْ آخِرِهِمْ » (١) .

وقوله: ﴿وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ﴾ يعني: إنسيه ووحشيه، واللحم يعم جميع أجزائه حتى الشحم، ولا
 يحتاج إلى تحذلق الظاهرية في جمودهم ههنا وتصنفهم في الاحتجاج بقوله: ﴿فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فَسَقٌ﴾
 يعنون قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مُسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥] ، أعادوا
 الضمير - فيما فهموه - على الخنزير ، حتى يعم جميع أجزائه ! وهذا بعيد من حيث اللغة ، فإنه
 لا يعود الضمير إلا إلى المضاف دون المضاف إليه ، والأظهر أن اللحم يعم جميع الأجزاء ، كما
 هو المفهوم من لغة العرب ، ومن العرف المطرد ، وفي صحيح مسلم ، عن بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ
 الْأَسْلَمِيِّ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدِ شِيرَ فَكَأَنَّمَا صَبَّغَ يَدَهُ فِي لَحْمِ الْخَنزِيرِ
 وَدَمِهِ » . فَإِذَا كَانَ هَذَا التَّنْفِيرُ لِلْمَجْرَدِ اللَّحْمِ ، فَكَيْفَ يَكُونُ التَّهْدِيدُ وَالْوَعِيدُ الْأَكِيدُ عَلَى أَكْلِهِ
 وَالتَّغْذَى بِهِ ، وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى شُمُولِ اللَّحْمِ لِكُلِّ جُزْءٍ مِنَ الشَّحْمِ وَغَيْرِهِ .

(١) رَوَاتُ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ مَرْزُوبٍ هِيَ مِنْ طَرِيقِ بَشِيرِ بْنِ سَرِيحٍ - بَضْمُ السِّنِّ الْمُهْمَلَةِ وَآخِرُهُ جِيمٌ . وَرَوَايَةُ الْحَاكِمِ
 (٣ / ٦٤١ ، ٦٤٢) هِيَ مِنْ طَرِيقِ صَدَقَةَ بْنِ هَرْمَزٍ الزَّمَانِي ، كِلَاهُمَا عَنْ أَبِي غَالِبٍ عَنْ أَبِي أَمَامَةَ .
 وَالْحَدِيثُ ذَكَرَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي الزَّوَائِدِ (٩ / ٢٨٦ ، ٢٨٧) مِنْ رَوَاتَيْنِ لِلطَّبْرَانِيِّ ، قَالَ فِي أَوَّلَاهُمَا : « رَوَاهُ
 الطَّبْرَانِيُّ ، وَفِيهِ بَشِيرُ بْنُ سَرِيحٍ ، وَهُوَ ضَعِيفٌ » . وَقَالَ فِي الْآخَرَى : « رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ بِإِسْنَادَيْنِ ، وَإِسْنَادُ
 الْأَوَّلَى حَسَنٌ ، فِيهَا أَبُو غَالِبٍ ، وَقَدْ وَثِقَ » . وَذَكَرَهُ الْخَافِضُ فِي الْإِصَابَةِ (٣ / ٢٤١) بِنَحْوِهِ ، مِنْ رَوَايَةِ أَبِي
 يَعْلَى . وَلَمْ أَجِدْهُ فِي الزَّوَائِدِ مِنْ رَوَايَةِ أَبِي يَعْلَى ، وَهُوَ عَلَى شَرْطِهِ . وَلَمْ يَتَكَلَّمِ الْحَاكِمُ عَلَى الْحَدِيثِ ، وَلَكِنْ
 قَالَ الذَّهَبِيُّ : « صَدَقَةُ : ضَعْفُهُ ابْنُ مَعِينٍ » . وَأَبُو غَالِبٍ - صَاحِبُ أَبِي أَمَامَةَ - فِيهِ كَلَامٌ كَثِيرٌ . وَالْحَقُّ أَنَّهُ ثِقَةٌ ،
 وَحَدِيثُهُ صَحِيحٌ . وَ« بَشِيرُ بْنُ سَرِيحٍ » الرَّوَايَةُ عَنْهُ عِنْدَ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنِ مَرْزُوبٍ وَالتَّبْرَانِيِّ - ثِقَةٌ ، تَرْجَمَهُ ابْنُ
 أَبِي حَاتِمٍ (١ / ٣٧٥) ، فَلَمْ يَذْكُرْ فِيهِ جُرْحًا ، وَذَكَرَهُ ابْنُ حِبَّانٍ فِي الثَّقَاتِ . فَأِطْلَاقُ صَاحِبِ الزَّوَائِدِ
 تَضْعِيفُهُ غَيْرُ جَيِّدٍ . ثُمَّ إِنْ صَنِيعُهُ يُوْهِمُ أَنَّ رَوَايَتَهُ لَيْسَتْ عَنْ أَبِي غَالِبٍ ، بِذِكْرِ أَبِي غَالِبٍ فِي الرِّوَايَةِ الْآخَرَى
 فَقَطْ . وَصَدَقَةُ بْنُ هَرْمَزٍ الزَّمَانِيُّ - الرَّوَايَةُ الْآخَرَى عَنْ أَبِي غَالِبٍ فِي رَوَايَةِ الْحَاكِمِ - ثِقَةٌ أَيْضًا . تَرْجَمَهُ الْبُخَارِيُّ
 فِي الْكَبِيرِ (٢ / ٢٩٧ ، ٢٩٨) ، فَلَمْ يَذْكُرْ فِيهِ جُرْحًا ، وَذَكَرَهُ ابْنُ حِبَّانٍ فِي الثَّقَاتِ . وَانْفَرَدَ بِتَضْعِيفِهِ ابْنُ
 مَعِينٍ عِنْدَ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ (٢ / ٤٣١) . ثُمَّ اتَّفَاقُ هَذَيْنِ الرَّوَايَيْنِ عَلَى رَوَايَتِهِ عَنْ أَبِي غَالِبٍ يَرْفَعُ شَبِيهَةَ
 الضَّعْفِ عَنِ الْحَدِيثِ ، وَيَقْوَى كُلُّ مَنِهْمَا الْآخَرُ . وَقَوْلُهُ : « وَلَا عَرَفْتُ عَطْشًا » كَانَ فِي الْأَصُولِ هُنَا : « وَلَا
 عَرِيتُ » ! وَصَحْحَاهُ مِنَ الْمُسْتَدْرَكِ .

وقوله: ﴿وَمَا أَهْلُ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أى: ما ذبح فذكر عليه اسم غير الله، فهو حرام؛ لأن الله أوجب أن تذبح مخلوقاته على اسمه العظيم، فمتى عدل بها عن ذلك، وذكر عليها اسم غيره من صنم أو طاغوت أو وثن أو غير ذلك، من سائر المخلوقات، فإنها حرام بالإجماع. وإنما اختلف العلماء فى متروك التسمية، إما عمداً أو نسياناً، كما سيأتى تقريره فى سورة الأنعام (١). وقوله: ﴿وَالْمُنْحَنَقَةُ﴾ وهى التى تموت بالخنق إما قصداً وإما اتفاقاً، بأن تتخيل فى وثاقها فتموت به، فهى حرام. وأما ﴿الْمَوْقُودَةُ﴾ فهى التى تضرب بشيء ثقيل غير محدد حتى تموت، كما قال ابن عباس وغير واحد: هى التى تضرب بالخشبة حتى يوقدها فتموت. قال قتادة: كان أهل الجاهلية يضربونها بالعصى حتى إذا ماتت أكلوها. وفى الصحيح: أن عدى بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، إني أرمى بالمعراض الصيد فأصيب؟ قال: «إذا رميت بالمعراض فخرق فكله، وإن أصابه بعرضه فإنما هو وقيد فلا تأكله». ففرق بين ما أصابه بالسهم، أو بالزرق ونحوه بحده فأحله، وما أصابه بعرضه فجعله وقيداً فلم يحله، وقد أجمع الفقهاء على هذا الحكم ههنا، واختلفوا فيما إذا صدم الجارحة الصيد فقتله بثقله ولم يجرحه، على قولين، هما قولان للشافعى: أحدهما: لا يحل، كما فى السهم، والجامع أن كلا منهما ميت بغير جرح فهو وقيد. والثانى: أنه يحل؛ لأنه حكم بإباحة ما صاده الكلب، ولم يستفصل، فدل على إباحة ما ذكرناه؛ لأنه قد دخل فى العموم.

وأما ﴿الْمُتَرَدِّةُ﴾ فهى التى تقع من شاق أو موضع عال فتموت بذلك، فلا تحل. وأما ﴿النَّطِيعَةُ﴾ فهى التى ماتت بسبب نطح غيرها لها، فهى حرام، وإن جرحها القرن وخرج منها الدم ولو من مذبحتها. والنطيحة فعيلة بمعنى مفعولة، أى: منطوحة. وأكثر ما ترد هذه البنية فى كلام العرب بدون تاء التانيث، فيقولون: كف خضيب، وعين كحيل، ولا يقولون: كف خضيبية، ولا: عين كحيلية؛ وأما هذه فقال بعض النحاة: إنما استعمل فيها تاء التانيث؛ لأنها أجريت مجرى الأسماء، كما فى قولهم: طريقة طويلة. وقال بعضهم: إنما أتى بتاء التانيث فيها لتدل على التانيث من أول وهلة، بخلاف: عين كحيل، وكف خضيب؛ لأن التانيث مستفاد من أول الكلام.

وقوله: ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ﴾ أى: ما عدا عليها أسد، أو فهد، أو غر، أو ذئب، أو كلب، فأكل بعضها فماتت بذلك، فهى حرام وإن كان قد سال منها الدماء ولو من مذبحتها، فلا تحل بالإجماع. وقد كان أهل الجاهلية يأكلون ما أفضل السبع من الشاة أو البعير أو البقرة ونحو ذلك فحرم الله ذلك على المؤمنين. وقوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ عائد على ما يمكن عوده عليه، مما انعقد سبب موته فأمكن تداركه بذكاة، وفيه حياة مستقرة، وذلك إنما يعود على قوله: ﴿وَالْمُنْحَنَقَةُ وَالْمَوْقُودَةُ وَالْمُتَرَدِّةُ وَالنَّطِيعَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ﴾. قال ابن عباس: قوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ يقول: إلا ما ذبحتم من هؤلاء وفيه روح، فكلوه، فهو ذكى. وكذا روى عن سعيد بن جبير، والحسن البصرى،

والسدى. وروى ابن جرير عن على قال: إذا أدركت ذكاة الموقوذة والمتردية والنطيحة، وهى تحرك يداً أو رجلاً، فكلها. وهكذا روى عن طاوس، والحسن، وقتادة، وغير واحد: أن المذكاة متى تحركت بحركة تدل على بقاء الحياة فيها بعد الذبح، فهى حلال. وهذا مذهب جمهور الفقهاء، وبه قال أبو حنيفة، والشافعى، وأحمد بن حنبل. قال ابن وهب: سئل مالك عن الشاة التى يخرق جوفها السبع حتى تخرج أمعاؤها؟ فقال مالك: لا أرى أن تذكى، أى شئ يُذَكَّى منها؟! هذا مذهب مالك، رحمه الله. وظاهر الآية عام فيما استثناه مالك من الصور التى بلغ الحيوان فيها إلى حالة لا يعيش بعدها، فيحتاج إلى دليل مخصص للآية، والله أعلم.

وفى الصحيحين: عن رافع بن خديج أنه قال: قلت: يا رسول الله، إنا لاقو العدو غداً، وليس معنا مدى، أفندبح بالقصب؟ فقال: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه، ليس السنُّ والظفرُ، وسأحدثكم عن ذلك، أما السن فعظم، وأما الظفر فمذى الحبشة». وفى الحديث الذى رواه السدارقطنى مرفوعاً، وفيه نظر، وروى عن عمر موقوفاً، وهو أصح: «ألا إن الذكاة فى الحلق واللبة، ولا تعجلوا الأنفس أن تزهق». فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن أبى العُشراء الدارمى، عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله، أما تكون الذكاة إلا من اللبة والحلق؟ فقال: «لو طعنَتْ فى فخذها لأجزأ عنك». وهو حديث صحيح، ولكنه محمول على ما لا يقدر على ذبحه فى الحلق واللبة.

وقوله: «وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ»: قال مجاهد وابن جُرَيْج: كانت النصب حجارة حول الكعبة، قال ابن جرير: وهى ثلاثمائة وستون نصبا، كانت العرب فى جاهليتها يذبحون عندها، وينضحون ما أقبل منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح، ويشرحون اللحم ويضعونه على النصب. وكذا ذكره غير واحد، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع، وحرم عليهم أكل هذه الذبائح لئى فعلت عند النصب، من الشرك الذى حرمه الله ورسوله. وينبغى أن يحمل هذا على هذا؛ لأنه قد تقدم تحريم ما أهل به لغير الله.

وقوله: «وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ»: أى: حرم عليكم أيها المؤمنون الاستقسام بالأزلام، واحداها: زُكْمٌ، وقد تفتح الزاى، فيقال: زُكِمَ، وقد كانت العرب فى جاهليتها يتعاطون ذلك، وهى عبارة عن قداح ثلاثة، على أحدها مكتوب: «افعل» وعلى الآخر: «لا تفعل»، والثالث غُفْلٌ ليس عليه شئ. ومن الناس من قال: مكتوب على الواحد: «أمرنى ربى»، وعلى الآخر: «نهانى ربى». والثالث غفل ليس عليه شئ. فإذا أجالها فطلع السهم الأمر فعله، أو الناهى تركه، وإن طلع الفارغ أعاد. والاستقسام: مأخوذ من طلب القسَم من هذه الأزلام. هكذا قرر ذلك أبو جعفر بن جرير. وذكر محمد بن إسحاق وغيره: أن أعظم أصنام قريش صنم كان يقال له: هُبْلٌ، وكان داخل الكعبة، منصوب على بئر فيها، توضع الهدايا وأموال الكعبة فيه، وكان عنده سبعة أزلام مكتوب فيها ما يتحاكمون فيه، بما أشكل عليهم، فما خرج لهم منها رجعوا إليه

ولم يعدلوا عنه .

وثبت في الصحيح (١) : أن النبي ﷺ لما دخل الكعبة، وجد إبراهيم وإسماعيل مُصَوِّرَيْن فيها، وفي أيديهما الأُزْلَام، فقال: « قاتلهم الله ! لقد علموا أنهما لم يستقسما بها أبدا » (٢) .
وروى ابن مَرْدُويه عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: « لَنْ يَلِجَ الدرجات من تَكْهَن أو استقسم أو رجع من سفر طائراً » (٣) .

وقوله : ﴿ ذَلِكُمْ فَسُق ﴾ أى: تعاطيه فسق وغى وضلال وجهالة وشرك، وقد أمر الله المؤمنين إذا ترددوا فى أمورهم أن يستخبروه بأن يعبدوه، ثم يسألوه الخيرة فى الأمر الذى يريدونه، كما رواه الإمام أحمد والبخارى وأهل السنن عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة فى الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن، ويقول: « إذا همَّ أحدُكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرُ بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم؛ فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسميه باسمه - خير لى فى دينى ودنياى ومعاشى وعاقبة امرى، أو قال : عاجل امرى، وأجله، فاقدِّره لى ويسِّره لى، ثم بارك لى فيه، وإن كنت تعلمه شرا لى فى دينى ودنياى ومعاشى وعاقبة امرى، فاصرفنى عنه، واصرفه عنى، واقدر لى الخير حيث كان، ثم رَضْنى به ». لفظ أحمد . وقال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح غريب .

وقوله: ﴿ الْيَوْمَ يَسُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ ﴾: قال ابن عباس: يعنى: يشسوا أن يراجعوا دينهم . وكذا روى عن عطاء بن أبى رباح، والسدى ومقاتل بن حيان . وعلى هذا المعنى يرد الحديث الثابت فى الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: « إن الشيطان قد يسس أن يعبد المصلون فى جزيرة العرب، ولكن بالتَّحْرِيش بينهم » (٤) . ويحتمل أن يكون المراد: أنهم يشسوا من مشابهة المسلمين، بما تميز به المسلمون من هذه الصفات المخالفة للشرك وأهله؛ ولهذا قال تعالى أمرا عباده المؤمنين أن يصبروا ويثبتوا فى مخالفة الكفار، ولا يخافوا أحدا إلا الله، فقال: ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ﴾ أى: لا تخافوهم فى مخالفتكم إياهم واخشوني، أنصركم عليهم وأبيدهم، وأظفركم بهم، وأشف صدوركم منهم، وأجعلكم فوقهم فى الدنيا والآخرة .

وقوله: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾: هذه أكبر نعم

(١) فى المطبوعتين (تفسير ابن كثير ، والعمدة) : « الصحيحين » وهو خطأ ، وصوابه ما أثبتناه من المخطوطة الأزهرية . (الباز) .

(٢) رواه البخارى - بنحوه - من حديث ابن عباس (٢٧٦١٦ فتح) .

(٣) « طائراً » : من الطيرة ، يعنى متطيِّرا . والحديث ذكره الهيثمى فى الزوائد (١١٨ / ٥) بلفظ : « أو رجع من سفر نظيراً » وقال : « رواه الطبرانى : بإسنادين ، ورجال أحدهما ثقات » .

(٤) صحيح مسلم (٢ / ٣٤٦) من حديث جابر .

الله، عز وجل، على هذه الأمة، حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم، صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خُلف، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أى: صدقا فى الأخبار، وعدلا فى الأوامر والنواهي، فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أى: فارضوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذى أحبه الله ورضيه، وبعث به أفضل الرسل الكرام، وأنزل به أشرف كتبه. وقال ابن عباس: قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وهو الإسلام، أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين: أنه أكمل لهم الإيمان، فلا يحتاجون إلى زيادة أبدا، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبدا، وقد رضى الله فلا يسخطه أبدا. وقال السدى: نزلت هذه الآية يوم عرفة، فلم ينزل بعدها حلال ولا حرام، ورجع رسول الله ﷺ فمات. قالت أسماء بنت عميس: حَجَّجْتُ مع رسول الله ﷺ تلك الحجة، فبينما نحن نسير إذ تجلَّى له جبريل، فمال رسول الله ﷺ على الراحلة، فلم تطق الراحلة من ثقل ما عليها من القرآن، فبركت، فأثبته فسجَّيت عليه بُردًا كان على (١).

وروى ابن جرير وغير واحد: مات رسول الله ﷺ بعد يوم عرفة بأحد وثمانين يوما. وروى الإمام أحمد عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، إنكم تقرؤون آية فى كتابكم، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: وأى آية؟ قال: قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾، فقال عمر: والله إننى لأعلم اليوم الذى نزلت على رسول الله ﷺ، والساعة التى نزلت فيها على رسول الله ﷺ، عشية عرفة فى يوم الجمعة. ورواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى، وفى رواية البخارى من طريق سفيان الثورى: قال سفيان: وأشك كان يوم الجمعة أم لا. وشك سفيان، رحمه الله، إن كان فى الرواية فهو تورع، حيث شك هل أخبره شيخه بذلك أم لا؟ وإن كان شكاً فى كون الوقوف فى حجة الوداع كان يوم الجمعة، فهذا ما إخاله يصدر عن الثورى، رحمه الله، فإن هذا أمر معلوم مقطوع به، لم يختلف فيه أحد من أصحاب المغازى والسير ولا من الفقهاء، وقد وردت فى ذلك أحاديث متواترة لا يُشك فى صحتها، والله أعلم، وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن عمر (٢). وروى ابن جرير عن عمار - هو مولى بنى هاشم - أن ابن عباس قرأ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾. فقال يهودى: لو نزلت هذه الآية علينا لاتخذنا يومها عيداً. فقال ابن عباس: فإنها نزلت فى

(١) رواه الطبرى (١١٠٨١) .

(٢) المسند (١٨٨ ، ٢٧٢) . وتفصيل تخريجه هناك ، وفى الاستدراكين (٣٧٣٣ ، ، ٣٧٣٦) . وكذلك رواه

الطبرى (١١٠٩٤ - ١١٠٩٦) .

يوم عيدين اثنين: يوم عيد ويوم جمعة (١) . وروى ابن مردويه عن علي قال: نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ، وهو قائم عشية عرفة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (٢) . وروى ابن جرير عن عمرو بن قيس السكوني: أنه سمع معاوية بن أبي سفيان على المنبر يتنزع بهذه الآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ حتى ختمها، فقال: نزلت في يوم عرفة، في يوم جمعة (٣) .

وروى ابن مردويه، عن سمره قال: نزلت هذه الآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ يوم عرفة ورسول الله ﷺ واقف على الموقف (٤) .

والصواب الذي لا شك فيه ولا مرية: أنها أنزلت يوم عرفة، وكان يوم جمعة، كما روى ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وأول ملوك الإسلام معاوية بن أبي سفيان، وترجمان القرآن عبد الله بن عباس، وسمره بن جندب، رضى الله عنهم، وأرسله الشعبي، وقتادة بن دعامه، وشهر بن حوشب، وغير واحد من الأئمة والعلماء، واختاره ابن جرير الطبري، رحمه الله.

وقوله: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أى: فمن احتاج إلى تناول شيء من هذه المحرمات التي ذكرها الله تعالى، لضرورة أُلجأته إلى ذلك، فله تناول ذلك، والله غفور رحيم له؛ لأنه تعالى يعلم حاجة عبده المضطر، وافتقاره إلى ذلك، فيتجاوز عنه ويغفر له. وفي المسند وصحيح ابن حبان، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته»، لفظ ابن حبان (٥). وفي لفظ لأحمد: «من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة» (٦). ولهذا قال الفقهاء: قد يكون تناول الميتة واجبا في بعض الأحيان، وهو ما إذا خاف على نفسه ولم يجد غيرها، وقد يكون مندوبا، وقد يكون مباحا، بحسب الأحوال. واختلفوا: هل يتناول منها قدر ما يسد به الرمق، أو له أن يشبع ويتزود؟ على أقوال، كما هو مقرر في كتاب الأحكام. وفيما إذا وجد ميتة وطعام الغير، أو صيدا وهو محرم: هل يتناول الميتة، أو ذلك الصيد ويلزمه الجزاء، أو ذلك

(١) الطبري (١١٠٩٧ - ١١٠٩٩) . ورواه أيضا بنحوه - الطيالسي، برقم (٢٧٠٩) والترمذي (٩٦/٤) وقال: «حسن غريب» . و زاد السيوطي (٢/٢٥٨) نسبته لعبد بن حميد والطبراني والبيهقي في الدلائل .

(٢) إسناده عند ابن مردويه فيه: «إسماعيل بن سلمان الأزرق» وهو ضعيف . وقد ذكره السيوطي (٢/٢٥٨) ونسبه لابن جرير وابن مردويه، ولم أجده في تفسير الطبري .

(٣) الطبري (١١٠٨) ، وإسناده صحيح . وذكره الهيثمي في الزوائد (٧/١٤) بزيادة فسي آخره، وقال: «رواه الطبراني، ورجاله ثقات» . وقوله: «يتنزع بهذه الآية»: يعنى يتمثل بها ويقرؤها .

(٤) ذكره الهيثمي (٧/١٣، ١٤) وقال: «رواه الطبراني والبزار، وفيه عمر بن موسى بن وجيه، وهو ضعيف» . وهو في إسناده ابن مردويه أيضا .

(٥) وهو لفظ المسند أيضا (٥٨٦٦) ، وإسناده صحيح .

(٦) المسند (٥٣٩٢) وهو حديث غير الذي قبله، من وجه آخر غير ذلك الوجه، وإن تقاربا في المعنى . وقد مضى هذا الحديث عند تفسير الآية: (١٨٥) من سورة البقرة .

الطعام ويضمن بدله؟ على قولين، هما قولان للشافعي، رحمه الله. وليس من شرط جواز تناول الميتة أن يمضى عليه ثلاثة أيام لا يجد طعاما، كما قد يتوهمه كثير من العوام وغيرهم إبل متى اضطر إلى ذلك جاز له، وقد روى الإمام أحمد عن أبي واقد الليثي أنهم قالوا: يا رسول الله، إنا بآرض تصيينا بها المخصمة، فمتى تحل لنا بها الميتة؟ فقال: «إذ لم تصطبِّحوا، ولم تغتبقوا، ولم تحفثوا بقلأ، فشأنكم بها». تفرد به أحمد من هذا الوجه، وهو إسناد صحيح على شرط الصحيحين. رواه ابن جرير (١). ومعنى قوله: «ما لم تصطبِّحوا»: يعني به: الغداء، وما لم تغتبقوا: يعني به: العشاء، «أو تحفثوا قلا فشأنكم بها» أي: فكلوا منها. قال ابن جرير: يروى هذا الحرف - يعني قوله: «أو تحفثوا» - على أربعة أوجه: «تحفثوا» بالهمزة، و«تحفثوا» بتخفيف الياء والحاء، و«تحفثوا» بتشديد [الفاء]، و«تحفثوا» بالحاء وتبسيط الفاء، ويحتمل الهمزة، كذا ذكره في التفسير (٢).

وقوله: «غَيْرُ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ» أي: مُتَعَاظٍ لمعصية الله، فإن الله قد أباح ذلك له وسكت عن الآخر، كما قال في سورة البقرة: «فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» [الآية: ١٧٣] (٣). وقد استدلل بهذه الآية من يقول بأن العاصي بسفره لا يترخص بشيء من رخص السفر؛ لأن الرخص لا تنال بالمعاصي، والله أعلم.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ وَالْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

لما ذكر تعالى ما حرمه في الآية المتقدمة من الخبائث الضارة لتناولها، في بدنه، أو في دينه، أو فيهما، واستثنى ما استثناه في حالة الضرورة، كما قال: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرُّتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩]، قال بعدها: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ (٤)، كما

(١) المسند (٥ / ٢١٨ حلى) والطبرى (١١٢٥). وإسناد أحمد صحيح، كما قال ابن كثير. وفي إسناده الطبرى رجل ضعيف، فلا يضر، إذ ثبت بإسناد آخر صحيح. والذي فى المسند «ولم تحفثوا فشأنكم بها»، ليس فيه كلمة «بقلا». والظاهر أنها ثابتة فى نسخ أخرى من المسند. ورواه الحاكم (٤ / ١٢٥) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبى. وهو فى الزوائد (٤ / ١٦٥، ٥ / ٥٠).

(٢) الطبرى (٩ / ٥٤٢)، وقد فسر أخى السيد محمود شاكر هذه الحروف بدقة وإسهاب. وملخص ذلك هنا: أن «تحفثوا»: من «الحفأ»، وهو البردى، يقال «احتفأ الحفأ»: اقتلعه من منبته. و«تحفثوا» - بكسر الفاء وضم الياء - من قولهم «احتفى الحفأ» أي البقل، إذا اقتلعه من وجه الأرض بالأظافر، وأصله الهمز. و«تحفثوا» - بتشديد الفاء - من قولهم «احتف الطعام»، إذا أكل جميع ما فى القدر. و«تحفثوا» بتخفيف الفاء - من قولهم «احتفى البقل»، إذا اقتلعه، وهو غير مهموز.

(٣) انظر تفسيرها فيما مضى هناك.

(٤) يريد: بعدها فى النزول، لا فى سياق التلاوة؛ لأن آية ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ﴾ مكية، وهذه الآية المفصلة من المائدة، وهى مدنية.

فى سورة الأعراف فى صفة محمد ﷺ : أنه «يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ» [الآية : ١٥٧].

روى ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبيرة ، أن عدى بن حاتم ، وزيد بن مهلهل الطائنين سألوا رسول الله ﷺ ، فقالا : يا رسول الله ، قد حرم الله الميتة ، فماذا يحل لنا منها ؟ فنزلت : «يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّاتِ» . قال سعيد : يعنى : الذبائح الحلال الطيبة لهم (١) . وقال مقاتل : الطيبات ما أحل لهم من كل شئ أن يصيبوه ، وهو الحلال من الرزق . وقد سئل الزهرى عن شرب البول للتداوى ؟ فقال : ليس هو من الطيبات .

وقوله : «وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ» أى : أحل لكم الذبائح التى ذكر اسم الله عليها والطيبات من الرزق ، وأحل لكم ما صدقتموه بالجوارح ، وهى من الكلاب والفهود والصقور وأشباهاها ، كما هو مذهب الجمهور من الصحابة والتابعين والأئمة ، ومن قال ذلك ابن عباس فى قوله : «وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ» : وهن الكلاب المعلمة ، والبازى ، وكل طير يعلم للصيد ، والجوارح : يعنى الكلاب الضواري والفهود والصقور وأشباهاها . رواه ابن أبى حاتم ، ثم قال : وروى عن خيثمة ، وطاوس ، ومجاهد ، وغيرهم ، نحو ذلك . ثم روى عن ابن عمر قال : أما ما صاد من الطير ، البزاة وغيرها من الطير ، فما أدركت فهو لك ، وإلا فلا تطعمه .

قلت : والمحكى عن الجمهور أن صيد الطيور كصيد الكلاب ؛ لأنها تُكَلَّبُ الصيد بمخالبها ، كما تُكَلَّبُ الكلاب ، فلا فرق . وهو مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم ، واختاره ابن جرير ، واحتج فى ذلك بما رواه عن عدى بن حاتم قال : سألت رسول الله ﷺ عن صيد البازى ؟ فقال : « ما أمسك عليك فكل » (٢) . واستثنى الإمام أحمد صيد الكلب الأسود ؛ لأنه عنده مما يجب قتله ولا يحل اقتناؤه ؛ لما ثبت فى صحيح مسلم عن أبى ذر ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « يَقْطَعُ الصَّلَاةَ الْحِمَارُ وَالْمَرَأَةُ وَالْكَلْبُ الْأَسْوَدُ » . فقلت : ما بال الكلب الأسود من الأحمر ؟ فقال : « الكلب الأسود شيطان » (٣) .

وسميت هذه الحيوانات التى يصطاد بهن : جوارح ، من الجرح ، وهو : الكَسْبُ . كما تقول العرب : فلان جَرَحَ أهله خيرا ، أى : كسبهم خيرا . ويقولون : فلان لا جارج له ، أى : لا كاسب له ، وقال الله تعالى : «وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ» [الأنعام : ٦٠] أى : ما كسبتم من خير وشر . وقد ذكر فى سبب نزول هذه الآية الشريفة الحديث الذى رواه ابن أبى حاتم عن أبى رافع مولى رسول الله ﷺ ؛ أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب ، فَقُلْتُ ، فجاء الناس فقالوا : يا رسول الله ، ما يحل لنا من هذه الأمة التى أمرت بقتلها ؟ فسكت ، فأنزل الله : «يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّاتِ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ» الآية . فقال رسول الله ﷺ : « إذا أرسل الرجل كلبه

(١) إسناده إلى سعيد بن جبيرة جيد ، إلا أن ظاهره الإرسال ، ويحتمل أن يكون سعيد بن جبيرة سمعه من عدى بن حاتم ؛ لأنه من الرواة عنه . أما « زيد الخليل بن مهلهل » فإنه قديم الموت ، لم يدركه ابن جبيرة .

(٢) الطبرى (١١١٥٦) . وتخريجه وتصحيحه هناك .

(٣) من حديث فى صحيح مسلم (١ / ١٤٤) .

وسَمَّى، فأمسك عليه، فليأكل ما لم يأكل». ورواه ابن جرير (١). ورواه الحاكم وقال: صحيح ولم يخرجاه (٢).

وقوله: ﴿مُكَلِّينَ﴾ يحتمل أن يكون حالا من الضمير في ﴿عَلَّمْتُمْ﴾ فيكون حالا من الفاعل، ويحتمل أن يكون حالا من المفعول وهو ﴿الْجَوَارِحَ﴾ أى: وما علمتم من الجوارح فى حال كونهن مكَلَّبات للصيد، وذلك أن تقتنصه، بمخالبها أو أظفارها . فيستدل بذلك - والحالة هذه - على أن الجارحة إذا قتل الصيد بصدمة أو بمخلابه وظفره أنه لا يحل، كما هو أحد قولى الشافعى وطائفة من العلماء؛ ولهذا قال: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ وهو أنه إذا أرسله استرسل، وإذا أشلاه (٣) استشلى، وإذا أخذ الصيد أمسكه على صاحبه حتى يجيء إليه ولا يمسه لنفسه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فمتى كان الجارحة معلما وأمسك على صاحبه، وكان قد ذكر اسم الله عند إرساله حل الصيد، وإن قتله بالإجماع.

وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة، كما ثبت فى الصحيحين عن عَدِيّ ابن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، إنى أرسل الكلاب المعلّمة وأذكر اسم الله؟ فقال: «إذا أرسلت كلبك المعلّم وذكرت اسم الله، فكل ما أمسك عليك». قلت: وإن قتلن؟ قال: «وإن قتلن ما لم يَشْرُكْهَا كلب ليس منها، فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره». قلت له: فإنى أرمى بالمعرّاض الصيد فأصيب؟ فقال: «إذا رميت بالمعرّاض فَخَزَقَ فَكُلْهُ، وإن أصابه بعَرَضٍ فإنه وَقِيدٌ، فلا تأكله». وفى لفظ لهما: «إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله، فإن أمسك عليك فأدرّكه حيا فاذبحه، وإن أدركته قد قَتَلَ ولم يأكل منه فكله، فإن أخذ الكلب ذكاته». وفى رواية لهما: «فإن أكل فلا تأكل، فإنى أخاف أن يكون أمسك على نفسه». فهذا دليل للجمهور، وهو الصحيح من مذهب الشافعى، وهو أنه إذا أكل الكلب من الصيد يحرم مطلقا، ولم يستفصلوا كما ورد بذلك الحديث. وحكى عن طائفة من السلف أنهم قالوا: لا يحرم مطلقا. [ثبت ذلك عن سلمان، وسعد بن أبى وقاص، وأبى هريرة، وابن عمر]. وهو محكى عن على، وابن عباس. وهو قول الزهرى، وربيعة، ومالك. وإليه ذهب الشافعى فى القديم، وأوماً إليه فى الجديد.

وروى أبو داود عن عَمْرُو بن شعيب، عن أبيه، عن جده؛ أن أعرابيا - يقال له: أبو ثعلبة - قال: يا رسول الله، إن لى كلابا مُكَلَّبة، فافتنى فى صيدها؟ فقال النبى ﷺ: «إن كان لك

(١) الطبرى (١١١٣٤)، وروايته أطول من رواية ابن أبى حاتم. وكلتا الروایتين ضعيفتا الإسناد، فهما «موسى ابن عبيدة الرىذى»، وهو ضعيف جداً.

(٢) المستدرک (٢ / ٣١١) ووافقه الذهبى على تصحيحه. ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٩ / ٢٣٥) عن الحاكم. وروى أحمد فى المسند نحو هذا المعنى عن أبى رافع - فى قتل الكلاب - ولكن ليس فيه أن ذلك سبب نزول هذه الآية (المسند ٦ / ٩، ٣٩١ حلى). وذكر الهيثمى فى الزوائد (٤ / ٤٢) روايتى المسند، وقال: «رواه البزار وأحمد بأسانيد، رجال بعضها رجال الصحيح. ورواه الطبرانى فى الكبير أيضا».

(٣) «أشلاه»: دعاه فأرسله محرضا له على الصيد.

كلاب مكلبة، فكل مما أمسكن عليك». فقال: ذكيا وغير ذكي؟ قال: «نعم». قال: وإن أكل منه؟ فقال: «نعم، وإن أكل منه». قال: يا رسول الله، أفتنى فى قوسى. قال: «كُلْ ما رَدَّتْ عليك قوسُك». قال: ذكيا وغير ذكي؟ قال: «وإن تَغَيَّبَ عنك مالم يَصِلْ، أو تجد فيه أثر غير سهمك». قال: أفتنى فى آتية المجوس إذا اضطربنا إليها؟ قال: «اغسلها وكل فيها». ورواه النسائى (١). وروى أبو داود عن أبى ثعلبة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل، وإن أكل منه، وكل ما ردت عليك يدك». وإسنادهما جيدان (٢). فهذان أثران يدلان على أنه يغتفر إن أكل منه الكلب. وقد احتج بهما من لم يحرم الصيد بأكل الكلب وما أشبهه، كما تقدم عن حكيمه عنهم، وقد توسط آخرون فقالوا: إن أكل عقب ما أمسكه فإنه يحرم لحديث عدى بن حاتم. وللعلة التى أشار إليها النبى ﷺ: «فإن أكل فلا تأكل، فإنى أخاف أن يكون أمسك على نفسه». وأما إن أمسكه ثم انتظر صاحبه فطال عليه وجاع، فأكل منه لجوعه، فإنه لا يؤثر فى التحريم. وحملوا على ذلك حديث أبى ثعلبة الحُشَنِى، وهذا تفريق حسن، وجمع بين الحديثين صحيح. وقد تمنى الأستاذ أبو المعالى الجوينى فى كتابه «النهاية» أن لو فصلٌ مفصلٌ هذا التفصيل، وقد حقق الله أمنيته، وقال بهذا القول والتفريق طائفة من الأصحاب منهم، وقال آخرون قولاً رابعاً فى المسألة، وهو التفرقة بين أكل الكلب، فيحرم لحديث عدى، وبين أكل الصقور ونحوها فلا يحرم؛ لأنه لا يقبل التعليم إلا بالأكل.

وقوله: «فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ» أى: عند إرساله، كما قال النبى ﷺ لعدى بن حاتم: «إذا أرسلت كلبك المعلم، وذكرت اسم الله، فكل ما أمسك عليك». وفى حديث أبى ثعلبة المخرج فى الصحيحين أيضاً: «إذا أرسلت كلبك، فاذكر اسم الله، وإذا رميت بسهمك فاذكر اسم الله»؛ ولهذا اشترط من الأئمة - كالإمام أحمد رحمه الله فى المشهور عنه - التسمية عند إرسال الكلب والرمى بالسهم لهذه الآية وهذا الحديث، وهذا القول هو المشهور عن الجمهور: أن المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الإرسال، كما قال السُدِّى وغيره. وقال ابن عباس فى قوله: «وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ» يقول: إذا أرسلت جارحك فقل: بسم الله، وإن نسيت فلا حرج. وقال بعض الناس: المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الأكل كما ثبت فى الصحيحين: أن رسول الله ﷺ علَّم ربيبه عمر بن أبى سلمة فقال: «سَمِ الله، وكلْ بيمينك، وكلْ مما يليك». وفى صحيح البخارى: عن عائشة أنهم قالوا: يا رسول الله، إن قوماً يأتوننا - حديثٌ عهدهم بكفر - بلُحْمانٍ لا ندرى أذكر اسم الله عليها أم لا؟ فقال: «سَمُوا أُنْتُمْ وكلوا».

وروى الإمام أحمد عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان يأكل طعاماً فى ستة نفر من

(١) أبو داود (٢٨٥٧). ورواه أيضاً أحمد فى المسند (٦٧٢٥). ورواية النسائى (١٩٦ / ٢) مختصرة قليلاً.
وقوله: «مما لم يصل»: بفتح الباء وكسر الصاد المهملة وتشديد اللام، يعنى: ما لم يتن. (٢) حديث أبى ثعلبة فى أبى داود (٢٨٥٢).

أصحابه، فجاء أعرابي جائع فأكله بلقمتين ! فقال: « أما إنه لو ذكر اسم الله لكفاكم، فإذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله، فإن نسي اسم الله في أوله فليقل: بسم الله أوله وآخره ». ورواه أبو داود، والترمذى، والنسائى . وروى الإمام أحمد عن حذيفة قال: كنا إذا حضرنا مع رسول الله ﷺ على طعام، لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسول الله ﷺ فيضع يده، وإنا حضرنا معه طعاما، فجاءت جارية، كأنما تُدْفَع، فذهبت تضع يدها فى الطعام، فأخذ رسول الله ﷺ بيدها، وجاء أعرابي كأنما يُدْفَع، فذهب يضع يده فى الطعام، فأخذ رسول الله ﷺ بيده، فقال رسول الله ﷺ: « إن الشيطان يَسْتَحِلُّ الطعام إذا لم يذكر اسم الله عليه، وإنه جاء بهذه الجارية ليستحل بها، فأخذت بيدها، وجاء بهذا الأعرابي ليستحل به، فأخذت بيده، والسدى نفسى بيده، إن يده فى يدي مع يدهما » يعنى الشيطان. ورواه مسلم وأبو داود والنسائى (١). وروى مسلم وأهل السنن إلا الترمذى عن جابر بن عبد الله، عن النبى ﷺ قال: « إذا دخل الرجل بيته، فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر اسم الله عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيت، فإذا لم يذكر اسم الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء ». لفظ أبى داود .

﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفَحِينَ وَلَا مَخْذُولٍ أَخَذَانِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

لما ذكر تعالى ما حرمه على عباده المؤمنين من الخبائث، وما أحله لهم من الطيبات، قال بعده: «الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ». ثم ذكر حكم ذبائح أهل الكتابين من اليهود والنصارى، فقال: « وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ ». قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وغيرهم: يعنى ذبائحهم. وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء: أن ذبائحهم حلال للمسلمين؛ لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله، ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله، وإن اعتقدوا فيه تعالى ما هو منزله عنه، تعالى وتقدس. وقد ثبت فى الصحيح عن عبد الله بن معقل قال: أدلى بجراب من شحم يوم خيبر. فحضته ! وقلت: لا أعطى اليوم من هذا أحداً، والتفت فإذا النبى ﷺ يتيسم (٢). فاستدل به الفقهاء على أنه يجوز تناول ما يحتاج إليه من الأطعمة ونحوها من الغنيمة قبل القسمة، وهذا ظاهر. واستدل به الفقهاء الحنفية والشافعية والحنابلة على أصحاب مالك فى منعهم أكل ما يعتقد اليهود تحريمه من ذبائحهم، كالشحوم ونحوها مما حرم

(١) المسند (٥ / ٣٨٢، ٣٨٣ حلى) ومسلم (٢ / ١٣٤، ١٣٥). وكان فى نص الحديث نقص وتحريف فى المطبوعة والمخطوطتين، فصححناه من المسند، إذ ساقه ابن كثير من روايته .
(٢) صحيح مسلم (٢ / ٥٩). ورواه أحمد أيضا (١٦٨٦٢).

عليهم . فالملكية لا يجوزون للمسلمين أكله ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ ﴾ ، قالوا : وهذا ليس من طعامهم . واستدل عليهم الجمهور بهذا الحديث ، وفى ذلك نظر ؛ لأنه قضية عين ، ويحتمل أن يكون شحما يعتقدون حله ، كشحم الظهر والحوايا ونحوهما ، والله أعلم .

وأجود منه فى الدلالة ما ثبت فى الصحيح : أن أهل خيبر أهدوا لرسول الله ﷺ شاة مَصْلِيَّةً ، وقد سَمَوْا ذراعها ، وكان يعجبه الذراع ، فتناوله فَهَشَ مِنْهُ نَهْشَةً ، فأخبره الذراع أنه مسموم ، فَلَفَظَهُ وَأَثَرُ ذَلِكَ السَّمِ فِي ثَنَائِيا رسول الله ﷺ وفى أَبْهَرِهِ ، وأكل معه منها بشر بن البراء بن مَعْرُورٍ ؛ فمات ، فقتل اليهودية التى سمتها ، وكان اسمها زينب ، فقتلت ببشر بن البراء . ووجه الدلالة منه : أنه عزم على أكلها ومن معه ، ولم يسألهم : هل نزعوا منها ما يعتقدون تحريمه من شحمها أم لا ؟ وأهل الكتاب يذكرون اسم الله على ذبائحهم وقرايبتهم ، وهم متعبدون بذلك ؛ ولهذا لم يبيع ذبائح من عداهم من أهل الشرك ومن شابههم ، لأنهم لا يذكرون اسم الله على ذبائحهم ، بل ولا يتوقفون فيما يأكلونه من اللحم على ذكاة ، بل يأكلون الميتة ، بخلاف أهل الكتابين ومن شاكلهم من السامرة والصابئة ، ومن يتمسك بدين إبراهيم وشيث وغيرهما من الأنبياء ، على أحد قولى العلماء .

وأما المجوس ، فإنهم وإن أخذت منهم الجزية تبعا وإلحاقا لأهل الكتاب ، فإنهم لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم ، خلافا لأبى ثور أحد الفقهاء من أصحاب الشافعى ، وأحمد بن حنبل ، ولما قال ذلك واشتهر عنه أنكر عليه الفقهاء ذلك ، حتى قال عنه الإمام أحمد : أبو ثور كاسمه ! يعنى فى هذه المسألة ، وكأنه تمسك بعموم حديث روى مرسلا عن النبى ﷺ أنه قال : «سُئِلُوا بِهِمْ سَنَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ» ، ولكن لم يثبت بهذا اللفظ ، وإنما الذى فى صحيح البخارى : عن عبد الرحمن بن عوف ؛ أن رسول الله ﷺ أخذ الجزية من مَجُوسِ هَجَرَ . ولو سلم صحة هذا الحديث ، فعمومه مخصوص بمفهوم هذه الآية : ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ ﴾ ، فدل بمفهومه - مفهوم المخالفة - على أن طعام من عداهم من أهل الأديان لا يحل (١) .

وقوله : ﴿ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَكُمْ ﴾ أى : ويحل لكم أن تطعموهم من ذبائحكم ، وليس هذا إخبارا عن الحكم عندهم ، اللهم إلا أن يكون خبرا عما أمروا به من الأكل من كل طعام ذكر اسم الله عليه ، سواء كان من أهل ملتهم أو غيرها . والأول أظهر فى المعنى ، أى : ولكم أن تطعموهم

(١) هذا كله فى طعام أهل الكتاب ، إذا كانوا أهل كتاب . أما المتسبون الآن للصنانية واليهودية ، فى أوربة وأمريكا وغيرهما - فنحن نقطع أنهم ليسوا أهل كتاب ، لأنهم كفروا بأديانهم ، وإن اصطنع بعضهم رسومها الظاهرة فقط . فآكثرتهم ملحدون لا يؤمنون بالله ولا بالأنبياء ، وكتبهم وأخبارهم بين أيدينا . فهم قد خرجوا على كل دين ، ودانوا بالإلحادية والتحلل فى الأخلاق والأعراض . فلا يجوز نكاح نسائهم ، لفقدانهم صفة « أهل الكتاب » على الحقيقة . ولا يجوز أكل طعامهم ، لذلك ، ولأن الثابت أنهم لا يذبحون فى بلادهم قط . بل يرون الذبح الشرعى المعروف تعذيبا للحيوان - أخزاهم الله - ويقتلون الحيوان بطرق أخرى ، يزعمون أنها أرفق بالحيوان . فكل اللحوم عندهم ميتة ، لا يجوز لمسلم أن يأكل منها .

من ذبائحهم كما أكلتم من ذبائحهم . وهذا من باب المكافأة والمقابلة والمجازاة ، كما ألبس النبي ﷺ ثوبه لعبد الله بن أبي ابن سلول حين مات ودفنه فيه ، قالوا : لأنه كان قد كسا العباس حين قدم المدينة ثوبه ، فجزاه النبي ﷺ ذلك بذلك ، فأما الحديث الذي فيه : « لا تَصْحَبْ إِلَّا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إِلَّا تقي » - فمحمول على الندب والاستحباب ، والله أعلم (١) .

وقوله : «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ أَي: وأحل لكم نكاح الحرائر العفاف من النساء المؤمنات ، وذكر هذا توطئة لما بعده ، وهو قوله : «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ» ، فقيل : أراد بالمحصنات : الحرائر دون الإماء ، حكاه ابن جرير عن مجاهد . وإنما قال مجاهد : المحصنات : الحرائر ، فيحتمل أن يكون أراد ما حكاه عنه ، ويحتمل أن يكون أراد بالحرمة العفيفة ، كما قال في الرواية الأخرى عنه . وهو قول الجمهور ههنا ، وهو الأشبه ؛ لثلاث يجتمع فيها أن تكون ذمية وهي مع ذلك غير عفيفة ، فيفسد حالها بالكلية ، ويتحصل زوجها على ما قيل في المثل : «حَشَفًا وَسَوْءَ كَيْلَةٍ» (٢) . والظاهر من الآية أن المراد بالمحصنات : العفيفات عن الزنا ، كما قال تعالى في الآية الأخرى : «مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ» [النساء : ٢٥] .

ثم اختلف المفسرون والعلماء في قوله : «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ» : هل يعم كل كتابية عفيفة ، سواء كانت حرة أو أمة؟ حكاه ابن جرير عن طائفة من السلف ، ممن

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم ، من حديث أبي سعيد كما في الفتح الكبير (٣/ ٣٢٧) .
(٢) وأكثر النساء من تيك الأمم التي تنتسب لليهودية والمسيحية ، ليس فيهن عفيفات بل لقد صرن لا يعرفن البكارة ولا يحرصن عليها . يعاشرن الأخدان دون حياء ولا حرص على عرض ، أبحن من أنفسهن لأخدانهن وأحبابهن كل شيء . لا تتزوج امرأة منهن رجلاً إلا بعد أن تعرفه معرفة تامة ، ومعرفة داخلية في كل شيء ، وبعد أن تكون ثقلت بين أيدي الرجال . إلا النادر الذي لا يؤبه له ، ولا حكم له .

وأقبح من هذا وأسوأ أثراً : أن هذه الحال المنكرة فشت في الأمم المنتسبة للإسلام ، خاصة في الطبقات المتعلمة ، التي تصطنع تقليد الإفرنج ، والتي ترى أن الرقى والمدنية لا يكونان إلا في التهلك والإباحية ، والرقص والفجور وشرب الخمر والقمار - إلى ما يث فيهن معلوم من الإلحاد وإنكار الأديان ، والكفر بالله وبالأنبياء ، ومن السخرية بالدين وبالمستسكين به . وإلى ما تذيبه المجلات الماجنة الداعرة من الدعوة إلى الاختلاط ، والحرص على ما يسمونه « حقوق المرأة » و « مساواتها بالرجل » . بل زادوا فجوراً ونكراً ، فسموا « العفة » التي أمر الله بها في كل دين « كِبْتًا » . وصارت الدعوة سافرة إلى تخفيف هذا « الكبت » عن الشبان من الجنسين . بل صارت الدعوة علانية إلى البغاء ، لا يستحي الداعون إليه ! بل يريدون « تنظيم البغاء » ، حتى لا يضار الشبان من « الكبت » ! فهؤلاء ملعونون في كل دين ، وعلى لسان كل نبي .

وقد صرنا نأسف أن نرى أكثر عقود الزواج بين هذه الطبقات باطلة شرعاً ، بحكم الكفر الذي اختاروه لأنفسهم . وصارت الأنساب في هذه الطبقات مدخولة ، بحكم الفجور من ناحية ، حين يكون الفجور ، وبحكم الردة والكفر في كل النواحي فيهم : فالملحد - وهو كافر مرتد - زواجه بمثله من النساء زواج باطل ، لا ينتج عنه نسل شرعي ثابت النسب ، وزواجه بالمسلمة الحقيقية أشد بطلاناً . والمسلم الحقيقي زواجه بالملحدة المرتدة باطل ، لا ينتج عنه نسل شرعي ثابت النسب . وهكذا الحكم فيما إذا كان الزوجان مسلمين عند عقد الزواج ، ثم تردى أحدهما أو كلاهما في حماة الردة والإلحاد والكفر .

فليُنظر المسلمون لأنفسهم ، وليروا أين يذهب بهم . وإنا لله وإنا إليه راجعون .

فسر المحصنة بالعفيفة. وقيل: المراد بأهل الكتاب ههنا الإسرائيليات، وهو مذهب الشافعي. وقيل: المراد بذلك: الذميات دون الحرييات؛ لقوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]. وقد كان عبد الله بن عمر لا يرى التزويج بالنصرانية، ويقول: لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول: إن ربها عيسى، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ الآية [البقرة: ٢٢١]. وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾، قال: فحجز الناس عنهن حتى نزلت التي بعدها: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، فنكح الناس نساء أهل الكتاب (١).

وقد تزوج جماعة من الصحابة من نساء النصارى ولم يروا بذلك بأساً، أخذوا بهذه الآية الكريمة: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، فجعلوا هذه مخصصة للتي في سورة البقرة: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ [الآية: ٢٢١] (٢) إن قيل بدخول الكتابيات في عمومها، وإلا فلا معارضة بينها وبينها؛ لأن أهل الكتاب قد يَفْصَلُ في ذكرهم عن المشركين في غير موضع، كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١]، وكقوله: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾ الآية [آل عمران: ٢٠].

وقوله: ﴿إِذَا أَتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أى: مهورهن، أى: كما هن محصنات عفاف، فابذلوا لهن المهور عن طيب نفس. وقد أفتى جابر بن عبد الله، والشعبي، والنخعي، والحسن البصري بأن الرجل إذا نكح امرأة فزنت قبل دخوله بها: أنه يفرق بينهما، وتردّ عليه ما بذل لها من المهر. رواه ابن جرير عنهم.

وقوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾: فكما شرط الإحصان في النساء - وهى العفة عن الزنا - كذلك شرطها في الرجال وهو أن يكون الرجل أيضاً محصناً عفيفاً؛ ولهذا قال: ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ وهم: الزناة الذين لا يرتدعون عن معصية، ولا يردون أنفسهم عمن جاءهم، ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ أى: ذوى العشيقات الذين لا يفعلون إلا معهن، كما تقدم في سورة النساء سواء؛ ولهذا ذهب الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله، إلى أنه لا يصح نكاح المرأة البغى حتى تتوب، وما دامت كذلك لا يصح تزويجها من رجل عفيف، وكذلك لا يصح عنده عقد الرجل الفاجر على عفيفة حتى يتوب ويقلع عما هو فيه من الزنا؛ لهذه الآية

(١) الحديث كما هو ثابت في المخطوطة الأزهرية «عن أبى مالك الغفارى عن ابن عباس» وهو فى حكم المرفوع، وإن كان موقوفاً لفظاً. وليس كما قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله «فى عمدة التفسير»: «فالحديث مرسل» وذلك راجع إلى أن النسخة التى اختصرها أسقطت «ابن عباس» وجعلته من رواية «أبى مالك الغفارى» - واسمه «غزوان» وهو تابعى ثقة، كما قال شاكر رحمه الله. (الباز).

(٢) وانظر ما مضى فى تفسير سورة البقرة آية: (٢٢١).

وللحديث : « لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله » (١) .

وسبأتى الكلام على هذه المسألة مستقصي عند قوله : ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور : ٣] ؛ ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

قال كثيرون من السلف : قوله : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ﴾ : معناه وأنتم مُحَدِّثُونَ . وقال آخرون : إذا قمتم من النوم إلى الصلاة ، وكلاهما قريب . وقال آخرون : بل المعنى أعم من ذلك ، فالآية أمرة بالوضوء عند القيام إلى الصلاة ، ولكن هو في حق المُحَدِّث واجب ، وفي حق المتطهر ندب . وقد قيل : إن الأمر بالوضوء لكل صلاة كان واجبا في ابتداء الإسلام ، ثم نسخ .

وروى الإمام أحمد عن بُرَيْدَةَ قال : كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة ، فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه ، وصلى الصلوات بوضوء واحد . فقال له عمر : يا رسول الله ، إنك فعلت شيئا لم تكن تفعله ؟ قال : « إني عمدأ فعلته يا عمر » . وهكذا رواه مسلم وأهل السنن وقال الترمذى : حسن صحيح . وروى ابن جرير عن الفضل بن المُبَشَّر قال : رأيت جابر بن عبد الله يصلى الصلوات بوضوء واحد ، فإذا بال أو أحدث ، توضأ ومسح بفضل طهوره الخفين . فقلت : أبا عبد الله ، أشيء . تصنعه برأيك ؟ قال : بل رأيت النبي ﷺ يصنعه ، فأنا أصنعه ، كما رأيت رسول الله يصنع . وكذا رواه ابن ماجه (٢) . وروى أحمد بن محمد بن يحيى بن حبان الأنصارى ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر قال : رأيت وضوء عبد الله بن عمر لكل صلاة طاهراً كان أو غير طاهر ، عَمَّنْ هو ؟ قال : حدثته أسماء بنت زيد ابن الخطاب ؛ أن عبد الله بن حنظلة ابن الغسيل حدثها : أن رسول الله ﷺ كان أمر بالوضوء لكل صلاة طاهراً كان أو غير طاهر ، فلما شق ذلك عليه أمر بالسواك عند كل صلاة ووُضِعَ عنه الوضوء ، إلا من حَدَّثَ . فكان عبد الله يرى أن به قوة على ذلك ، كان يفعله حتى مات . ورواه أبو داود . وإسناد الحديث صحيح (٣) . وفي فعل ابن عمر هذا ، ومداومته على إسباغ الوضوء لكل صلاة ، دلالة

(١) رواه أبو داود والحاكم ، من حديث أبى هريرة ، كما فى الفتح الكبير (٣ / ٣٧٢ ، ٣٧٣) .

(٢) الطبرى (١١٣١٨) وابن ماجه (٥١١) . وإسناده صحيح . و « الفضل بن مبشر » : تابعى ثقة ، ومن تكلم فيه فقد أخطأ . وترجمه البخارى فى الكبير (١١٤ / ١ / ٤) ولم يذكر فيه جرحا . وذكره ابن حبان فى الثقات .

(٣) المسند (٥ / ٢٢٥ حلى) وأبو داود (٤٨) . ورواه الطبرى (١١٣٢٨ ، ١١٣٢٩) .

على استحباب ذلك ، كما هو مذهب الجمهور .

وروى ابن جرير عن عكرمة قال : كان على يتوضأ عند كل صلاة ، ويقرأ هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ﴾ الآية (١) . وروى عن التزالي بن سبرة قال : رأيت علياً صلى الظهر ، ثم قعد للناس في الرحبة ، ثم أتى بماء فغسل وجهه ويديه ، ثم مسح برأسه ورجليه ، وقال : هذا وضوء من لم يُحدث (٢) . وروى عن إبراهيم ؛ أن علياً اكتال من حُبٍّ ، فتوضأ وضوءاً فيه تجوَّز ، فقال : هذا وضوء من لم يحدث (٣) . وهذه طرق جيدة عن علي ، يقوى بعضها بعضها . وروى ابن جرير عن أنس قال : توضأ عمر بن الخطاب وضوءاً فيه تجوَّز ، خفيفاً ، فقال : هذا وضوء من لم يُحدث . وإسناده صحيح (٤) . وروى الإمام أحمد عن عمرو بن عامر الأنصاري ، سمعت أنس بن مالك يقول : كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة ، قال : قلت : فأنتم كيف كنتم تصنعون ؟ قال : كنا نصلى الصلوات كلها بوضوء واحد ما لم نُحدث . وقد رواه البخاري وأهل السنن (٥) . وروى أبو داود عن عبد الله بن عباس ؛ أن رسول الله ﷺ خرج من الخلاء ، فقدم إليه طعام ، فقالوا : ألا نأتيك بوضوء ؟ فقال : « إنما أمرت بالوضوء إذا قُمْتُ إِلَى الصَّلَاةِ » . ورواه الترمذي والنسائي وقال الترمذي : هذا حديث حسن . وروى مسلم عن ابن عباس قال : كنا عند النبي ﷺ فأتى الخلاء ، ثم إنه رجع فأتى بطعام ، فقيل : يا رسول الله ، ألا تتوضأ ؟ فقال : « لَمْ أَصَلْ فَأَتَوْضَأُ » .

وقوله : ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ قد استدلل طائفة من العلماء بقوله : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ على وجوب النية في الوضوء ؛ لأن تقدير الكلام : « إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم لها » ، كما تقول العرب : « إذا رأيت الأمير فقم » أي : له . وقد ثبت في الصحيحين حديث : « الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » (٦) .

ويستحب قبل غسل الوجه أن يذكر اسم الله تعالى على وضوئه ؛ لما ورد في الحديث من طرق جيدة ، عن جماعة من الصحابة ، عن النبي ﷺ أنه قال : « لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه » (٧) . ويستحب أن يغسل كفيه قبل إدخالهما في الإناء ، ويتأكد ذلك عند القيام من النوم ؛ لما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إذا استيقظ أحدكم من

(١) الطبري (١١٣٢٣) .

(٢) الطبري (١١٣٢٦) وهو مختصر . وقد رواه أحمد مراراً مطولاً ، بزيادة الشرب قائماً ، وزيادة أنه رأى النبي ﷺ يفعل هذا ، المسند (٥٨٣ ، ٩٧٠ ، ١٠٠٥ ، ١١٧٣ ، ١٢٢٢ ، ١٣١٥ ، ١٣٦٦) . ورواه البخاري مختصراً ومطولاً (١٠ / ٧١ ، ٧٢ فتح) .

(٣) الطبري (١١٣٢٧) . و « الحب » - بضم الحاء : الجرة الضخمة .

(٤) الطبري (١١٣٢٥) .

(٥) البخاري (١ / ٢٧٢ ، ٢٧٣ فتح) . ورواه أيضاً الطبري (١١٣٣٦) .

(٦) معروف مشهور من حديث عمر بن الخطاب .

(٧) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه ، من حديث أبي هريرة . ورواه أحمد وابن ماجه ، من حديث سعيد بن زيد وأبي سعيد . كما في المنتقى (٢٢٦ ، ٢٢٧) .

تَوَمِّهِ ، فلا يُدخل يده فى الإناء قبل أن يغسلها ثلاثاً ، فإن أحدكم لا يَدْرِى أين باتت يده .
وحدّ الوجه عند الفقهاء : ما بين منابت شعر الرأس - ولا اعتبار بالصّلْع ولا بالغَمَم - إلى
متهى اللحين والذقن طولاً ، ومن الأذن إلى الأذن عرضاً .

ويستحب للمتوضئ أن يخلل لحيته إذا كانت كثيفة . وروى الإمام أحمد عن شقيق قال :
رأيت عثمان توضأ - فذكر الحديث - قال : وخلل اللحية ثلاثاً حين غسل وجهه ، ثم قال : رأيت
رسول الله ﷺ فعل الذى رأيتمنى فعلت . رواه الترمذى ، وابن ماجه وقال الترمذى : حسن
صحيح ، وحسنه البخارى .

وقد ثبت عن النبى ﷺ من غير وجه فى الصحاح وغيرها : أنه كان إذا توضأ تمضمض
واستنشق ، فاختلف الأئمة فى ذلك : هل هما واجبان فى الوضوء والغسل ، كما هو مذهب أحمد
ابن حنبل ؟ أو مستحبان فيهما ، كما هو مذهب الشافعى ومالك ؟ لما ثبت فى الحديث الذى رواه
أهل السنن وصححه ابن خزيمة ، عن رفاعه بن رافع الزرقى ؛ أن النبى ﷺ قال للمسيء صلاته :
« توضأ كما أمرك الله » أو يجبان فى الغسل دون الوضوء ، كما هو مذهب أبى حنيفة ؟ أو يجب
الاستنشاق دون المضمضة كما هو رواية عن الإمام أحمد ؟ لما ثبت فى الصحيحين : أن رسول
الله ﷺ قال : « من توضأ فليستششق » (١) وفى رواية : « إذا توضأ أحدكم فليجعل فى منخريره
من الماء ثم ليستثر » (٢) والانتثار : هو المبالغة فى الاستنشاق . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس ؛
أنه توضأ فغسل وجهه ، ثم أخذ غرفة من ماء فتمضمض بها واستنثر ، ثم أخذ غرفة فجعل بها
هكذا ، يعنى أضافها إلى يده الأخرى ، فغسل بها وجهه . ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده
اليمنى ، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليسرى ، ثم مسح رأسه ، ثم أخذ غرفة من ماء ، ثم
رش على رجله اليمنى حتى غسلها ، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها رجله اليسرى ، ثم قال :
هكذا رأيت رسول الله ﷺ ، يعنى يتوضأ . ورواه البخارى (٣) .

وقوله : ﴿ وَأَيَّدِيكُمْ إِلَىٰ الصِّرَافِ ﴾ أى : مع المرافق ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ
أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ [النساء : ٢] . ويستحب للمتوضئ أن يشرع فى العضد ليغسله مع
ذراعيه ؛ لما روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أمتى يُدْعَوْنَ يوم
القيامة غُرًّا مُحَجَّلِينَ من آثار الوضوء ، فمن استطاع منكم أن يطيل غُرَّتَه فليفعل » . وفى صحيح
مسلم عن أبى هريرة قال : سمعت خليلي ﷺ يقول : « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ
الوضوء » .

(١) الذى فى الصحيحين - فيما رأيت - بلفظ : « من توضأ فليستثر » ، وهو من حديث أبى هريرة . انظر البخارى
(١ / ٢٢٩ فتح) ومسلم (١ / ٨٣ ، ٨٤) والمسند (٧٢٢٠) .

(٢) من حديث أبى هريرة . ولفظ البخارى (١ / ٢٢٩) : « فليجعل فى أنفه ماء » . ولفظ مسلم (١ / ٨٣) :
« فليستششق بمنخريره من الماء » . وانظر المسند (٧٧٣٢) .

(٣) المسند (٢٤١٦) والبخارى (١ / ٢١١ ، ٢١٢ فتح) .

وقوله: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾: اختلفوا في هذه «الباء» هل هي للإصاق؟ وهو الأظهر، أو للتبعض؟ وفيه نظر، على قولين. ومن الأصوليين من قال: هذا مجمل فليرجع في بيانه إلى السنة، وقد ثبت في الصحيحين من طريق مالك، عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه؛ أن رجلاً قال لعبد الله بن زيد بن عاصم - وهو جد عمرو بن يحيى، وكان من أصحاب النبي ﷺ -: هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟ فقال عبد الله بن زيد: نعم، فدعا بوضوء، فأفرغ على يديه، فغسل يديه مرتين، ثم مضمض واستنشق ثلاثاً، وغسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يديه مرتين إلى المرفقين، ثم مسح بيديه، فأقبل بهما وأدبر، بدأ بمقدم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه، ثم غسل رجليه. وفي حديث عبد خير، عن علي في صفة وضوء رسول الله ﷺ نحو هذا، وروى أبو داود عن معاوية والمقداد بن معد يكرب، في صفة وضوء رسول الله ﷺ مثله. ففي هذه الأحاديث دلالة لمن ذهب إلى وجوب تكميل مسح جميع الرأس، كما هو مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل، لا سيما على قول من زعم أنها خرجت مخرج البيان لما أجمل في القرآن.

وقد ذهب الحنفية إلى وجوب مسح ريع الرأس، وهو مقدار الناصية. وذهب أصحابنا إلى أنه إنما يجب ما يطلق عليه اسم مسح، لا يتقدر ذلك بحد، بل لو مسح بعض شعرة من رأسه أجزاء! واحتج الفريقان بحديث المغيرة بن شعبة، قال: تخلف النبي ﷺ فتخلف معه، فلما قضى حاجته قال: «هل معك ماء؟» فأتيته بمطهرة فغسل كفيه ووجهه، ثم ذهب يحسر عن ذراعيه فضايق كم الجبة، فأخرج يديه من تحت الجبة وألقى الجبة على منكبيه، فغسل ذراعيه ومسح بناصيته، وعلى العمامة وعلى خفيه. وذكر باقي الحديث، وهو في صحيح مسلم، وغيره. فقال لهم أصحاب الإمام أحمد: إنما اقتصر على مسح الناصية لأنه كمل مسح بقية الرأس على العمامة، ونحن نقول بذلك، وأنه يقع عن الموقع كما وردت بذلك أحاديث كثيرة، وأنه كان يمسح على العمامة وعلى الخفين، فهذا أولى، وليس لكم فيه دلالة على جواز الاقتصار على مسح الناصية أو بعض الرأس من غير تكميل على العمامة، والله أعلم.

ثم اختلفوا في أنه: هل يستحب تكرار مسح الرأس ثلاثاً، كما هو المشهور من مذهب الشافعي، أو إنما يستحب مسحة واحدة، كما هو مذهب أحمد بن حنبل ومن تابعه؟ على قولين. فروى عن حمّان بن أبان قال: رأيت عثمان بن عفان توضأ فأفرغ على يديه ثلاثاً فغسلهما، ثم تمضمض واستنشق، ثم غسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاثاً، ثم غسل اليسرى مثل ذلك، ثم مسح برأسه، ثم غسل قدمه اليمنى ثلاثاً، ثم اليسرى ثلاثاً مثل ذلك، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا، ثم قال: «من تَوَضَّأَ نحو وضوئي هذا، ثم صَلَّى ركعتين لا يُحَدِّثُ فيهما نفسه، غفر له ما تقدم من ذنبه». وأخرجه البخاري ومسلم بنحوه، وفي سنن أبي داود عن عثمان في صفة الوضوء: ومسح برأسه مرة واحدة. وكذا من رواية عبد خير، عن علي مثله.

واحتج من استحب تكرار مسح الرأس بعموم الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن عثمان ، أن رسول الله ﷺ : توضع ثلاثا ثلاثا. وروى أبو داود عن حمران قال: رأيت عثمان بن عفان توضعاً . . . فذكر نحوه ، ولم يذكر المضمضة والاستنشاق، قال فيه: ثم مسح رأسه ثلاثا، ثم غسل رجله ثلاثا، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضعاً هكذا ، وقال: « من توضعاً هكذا كفاه ». تفرد به أبو داود ، ثم قال: وأحاديث عثمان الصحاح تدل على أنه مسح الرأس مرة واحدة .

وقوله : ﴿ وَأَرْجُلُكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ قُرئ : ﴿ وَأَرْجُلُكُمْ ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿ فَأَغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾ . روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس؛ أنه قرأها : ﴿ وَأَرْجُلُكُمْ ﴾ يقول: رجعت إلى الغسل . وروى عن عبد الله بن مسعود، وعروة، وعطاء ، ومجاهد ، وغيرهم نحو ذلك. وهذه قراءة ظاهرة في وجوب الغسل، كما قاله السلف، ومن ههنا ذهب من ذهب إلى وجوب الترتيب في الوضوء ، كما هو مذهب الجمهور، خلافاً لأبي حنيفة حيث لم يشترط الترتيب، بل لو غسل قدميه ثم مسح رأسه وغسل يديه ثم وجهه أجزأه ذلك ! لأن الآية أمرت بغسل هذه الأعضاء، و«الواو» لا تدل على الترتيب. وقد سلك الجمهور في الجواب عن هذا البحث طرقاً، فمنهم من قال: الآية دلت على وجوب غسل الوجه ابتداء عند القيام إلى الصلاة؛ لأنه مأمور به بقاء التعقيب، وهي مقتضية للترتيب، ولم يقل أحد من الناس بوجوب غسل الوجه أولاً ثم لا يجب الترتيب بعده، بل القائل اثنان : أحدهما: يوجب الترتيب، كما هو واقع في الآية. والآخر يقول: لا يجب الترتيب مطلقاً، والآية دلت على وجوب غسل الوجه ابتداء، فوجب الترتيب فيما بعده لإجماع لا فارق . ومنهم من قال: لا نسلم أن «الواو» لا تدل على الترتيب ، بل هي دالة - كما هو مذهب طائفة من النحاة وأهل اللغة وبعض الفقهاء. ثم نقول - بتقدير تسليم كونها لا تدل على الترتيب اللغوي -: هي دالة على الترتيب شرعاً فيما من شأنه أن يرتب، والدليل على ذلك : أن رسول الله ﷺ لما طاف بالبيت ، خرج من باب الصفا وهو يتلو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٥٨] ثم قال: « أبدأ بما بدأ الله به » لفظ مسلم، ولفظ النسائي: « ابدؤوا بما بدأ الله به ». وهذا لفظ أمر، وإسناده صحيح (١) ، فدل على وجوب البداء بما بدأ الله به ، وهو معنى كونها تدل على الترتيب شرعاً، والله أعلم .

ومنهم من قال: لما ذكر تعالى هذه الصفة في هذه الآية على هذا الترتيب، فقطع النظر عن النظر، وأدخل الممسوح بين المغسولين، دل ذلك على إرادة الترتيب. ومنهم من قال: لا شك أنه قد روى أبو داود وغيره عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده؛ أن رسول الله ﷺ توضعاً مرة مرة، ثم قال: « هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به » . قالوا: فلا يخلو إما أن يكون توضعاً مرتباً فيجب الترتيب ، أو يكون توضعاً غير مرتب فيجب عدم الترتيب ! ولا قائل به، فوجب ما ذكرناه .

(١) هو جزء من حديث جابر - الطويل - في صفة حجة النبي ﷺ في صحيح مسلم (١ / ٣٤٦ - ٣٤٨) .

وأما القراءة الأخرى، وهى قراءة من قرأ: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بالخفض - فقد احتج بها الشيعة فى قولهم بوجوب مسح الرجلين؛ لأنها عندهم معطوفة على مسح الرأس: وقد زُوى عن طائفة من السلف ما يوهم القول بالمسح، فروى ابن جرير: عن حميد قال: قال موسى بن أنس لأنس - ونحن عنده: يا أبا حمزة، إن الحجاج خطبنا بالأهواز ونحن معه، فذكر الطهور، فقال: اغسلوا وجوهكم وأيديكم، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم، وإنه ليس شئ من ابن آدم أقرب من خبثه من قدميه، فاغسلوا بطونهما وظهورهما وعراقيبهما. فقال أنس: صدق الله وكذب الحجاج، قال الله تعالى: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ قال: وكان أنس إذا مسح قدميه بلأهما. وإسناده صحيح إليه. وروى ابن جرير عن أنس، قال: نزل القرآن بالمسح، والسنة بالغسل. وإسناده صحيح (١). وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: الوضوء غَسْلَتَانِ ومسحتان.

وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ قال: هو المسح. ثم قال: وروى عن ابن عمر، وعلقمة، وغيرهما - نحوه.

فهذه آثار غريبة جداً! وهى محمولة على أن المراد بالمسح هو الغسل الخفيف، لما سنذكره من السنة الثابتة فى وجوب غسل الرجلين. وإنما جاءت هذه القراءة بالخفض: إما على المجاوزة وتناسب الكلام، كما فى قول العرب: «جَحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ»، وكقوله تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُدُسٌ خُضْرٌ وَإِنتِرَقٌ﴾ [الإنسان: ٢١] وهذا سائغ ذائع، فى لغة العرب شائع. ومنهم من قال: هى محمولة على مسح القدمين إذا كان عليهما الخفان، قاله الشافعى. ومنهم من قال: هى دالة على مسح الرجلين، ولكن المراد بذلك الغسل الخفيف، كما ورد به السنة. وعلى كل تقدير فالواجب غسل الرجلين فرضاً، لا بد منه، للآية والأحاديث التى سنوردها.

ومن أحسن ما يستدل به على أن المسح يطلق على الغسل الخفيف ما رواه الحافظ البيهقى عن الزَّالِ بن سَبْرَةَ يحدث عن على بن أبى طالب؛ أنه صلى الظهر، ثم قعد فى حوائج الناس فى رَحْبَةِ الكوفة حتى حضرت صلاة العصر، ثم أتى بكوز من ماء، فأخذ منه حفنة واحدة، فمسح بها وجهه ويديه ورأسه ورجليه، ثم قام فشرب فضلته وهو قائم، ثم قال: إنا ناسا يكرهون الشرب قائما، وإن رسول الله ﷺ صنع ما صنعتُ. وقال: « هذا وضوء من لم يحدث ». رواه البخارى فى الصحيح، ببعض معناه.

ومن أوجب من الشيعة مسحهما كما يمسح الخف، فقد ضل وأضل (٢). وكذا من جوز مسحهما وجوز غسلهما فقد أخطأ أيضاً، ومن نقل عن أبى جعفر بن جرير أنه أوجب غسلهما للأحاديث، وأوجب مسحهما للآية - فلم يحقق مذهبه فى ذلك، فإن كلامه فى تفسيره إنما يدل

(١) الطبرى (١١٤٧٥، ١١٤٧٦).

(٢) لأنهم خالفوا السنة الثابتة المتواترة قولاً وفعلًا. وليس بهم إلا الهوى والأكاذيب وسب الصحابة وتكفير كثير منهم، ثم العداوة للمسلمين أهل السنة، ونصر أعداء الإسلام حيث كانوا، والغدر بالمسلمين إذا خدعوا بهم واطمأنوا إليهم. والشواهد حاضرة كل يوم.

على أنه أراد أنه يجب ذلك الرجلين من دون سائر أعضاء الوضوء؛ لأنهما يليان الأرض والطين وغير ذلك، فأوجب ذلكهما ليذهب ما عليهما، ولكنه عبّر عن ذلك بالمسح، فاعتقد من لم يتأمل كلامه أنه أراد وجوب الجمع بين غسل الرجلين ومسحهما، فحكا من حكاه كذلك؛ ولهذا يستشكله كثير من الفقهاء وهو معذور، فإنه لا معنى للجمع بين المسح والغسل، سواء تقدمه أو تأخر عليه؛ لاندراجه فيه، وإنما أراد الرجل ما ذكرته، والله أعلم. ثم تأملت كلامه أيضاً فإذا هو يحاول الجمع بين القراءتين، في قوله: ﴿وَأَرْجُلُكُمْ﴾ خفضاً على المسح وهو الدلك، ونصباً على الغسل، فأوجبهما أخذاً بالجمع بين هذه وهذه.

ذكر الأحاديث الواردة في غسل الرجلين وأنه لا بد منه :

قد تقدم في حديث أمير المؤمنين عثمان وعلى، وابن عباس ومعاوية، وعبد الله بن زيد ابن عاصم، والمقداد بن معد يكرّب؛ أن رسول الله ﷺ غسل الرجلين في وضوئه، إما مرة، وإما مرتين، أو ثلاثاً، على اختلاف رواياتهم (١). وفي حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ توضأ فغسل قدميه، ثم قال: «هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به». وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو قال: تَخَلَّفَ عَنَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرَةٍ سَافَرْنَاهَا، فَادْرَكْنَا وَقَدْ ارْهَقَتْنَا الصَّلَاةُ، صَلَاةُ الْعَصْرِ وَنَحْنُ نَتَوَضَّأُ، فَجَعَلْنَا نَمْسَحُ عَلَى أَرْجُلِنَا، فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «أَسْبِغُوا الْوُضُوءَ وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ». وكذلك هو في الصحيحين عن أبي هريرة. وفي صحيح مسلم عن عائشة، عن النبي ﷺ أنه قال: «أَسْبِغُوا الْوُضُوءَ وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ». وعن عبد الله بن الحارث بن جَزْءٍ؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ وَيُطَوَّنُ الْأَقْدَامُ مِنَ النَّارِ». رواه البيهقي والحاكم، وإسناده صحيح. وروى الإمام أحمد عن جابر ابن عبد الله، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وَيْلٌ لِلْعَرَاقِبِ مِنَ النَّارِ». وروى أيضاً عن جابر ابن عبد الله قال: رأى النبي ﷺ فِي رِجْلٍ رِجْلٌ مِثْلَ الدَّرْهَمِ لَمْ يَغْسِلْهُ، فَقَالَ: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ».

وجه الدلالة من هذه الأحاديث ظاهرة، وذلك أنه لو كان فَرَضَ الرجلين مَسْحَهما، أو أنه يجوز ذلك فيهما - لما تَوَعَّدَ على تركه؛ لأن المسح لا يستوعب جميع الرجل، بل يجري فيه ما يجري في مسح الخف، وهكذا وجه هذه الدلالة على الشيعة الإمام أبو جعفر بن جرير.

وقد روى مسلم عن عمر بن الخطاب؛ أن رجلاً توضأ فترك موضع ظفر على قدمه، فأبصره النبي ﷺ فقال: «ارجع فأحسن وضوءك». وروى البيهقي عن أنس بن مالك؛ أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ قد توضأ، وترك على قدمه مثل موضع الظفر، فقال له رسول الله ﷺ: «ارجع فأحسن وضوءك». رواه أبو داود وابن ماجه، وإسناده جيد، ورجاله كلهم ثقات. وروى الإمام أحمد عن خالد بن معدان، عن بعض أزواج النبي ﷺ؛ [أن النبي ﷺ رأى

رجلا يصلى وفي ظهر قدمه لُمعة قدر الدرهم لم يصبها الماء ، فأمره رسول الله ﷺ أن يعيد الوضوء . ورواه أبو داود ، وزاد : «والصلاة» . وإسناده جيد قوى صحيح ، والله أعلم (١) . وفي حديث عثمان ، فى صفة وضوء النبي ﷺ : أنه خلل بين أصابعه . وروى أهل السنن من حديث لَقِيط بن صَبْرَةَ ، قال ، قلت : يا رسول الله ، أخبرنى عن الوضوء ؟ فقال : «أسبغ الوضوء ، وَخَلَّلْ بين الأصابع ، وبالغ فى الاستنشاق إلا أن تكون صائما» .

وروى الإمام أحمد عن أبى أمامة : حدثنا عَمْرُو بن عَبَّسَةَ ، قال : قلت : يا نبي الله ، أخبرنى عن الوضوء ؟ قال : «ما منكم من أحد يقرب وضوءه ، ثم يتمضمض ويستنشق وينثر ، إلا خرت خطاياها من فمه وخياشيمه مع الماء حين ينثر ، ثم يغسل وجهه كما أمره الله إلا خرت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء ، ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلا خرت خطايا يديه من أطراف أنامله ، ثم يمسح رأسه إلا خرت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء ، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين كما أمره الله إلا خرت خطايا قدميه من أطراف أصابعه مع الماء ، ثم يقوم فيحمد الله ويثنى عليه بالذى هو له أهل ، ثم يركع ركعتين إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» . قال أبو أمامة : يا عمرو ، انظر ما تقول ! سمعتَ هذا من رسول الله ﷺ ؟ أعطى هذا الرجل كله فى مقامه ؟ فقال عمرو بن عبسة : يا أبا أمامة ، لقد كبرت سنّى ، وَرَقَّ عظمى ، واقترب أجلى ، وما بى حاجة أن أكذب على الله ، وعلى رسول الله ﷺ ، لو لم أسمع من رسول الله ﷺ إلا مرة أو مرتين أو ثلاثا ، لقد سمعته سبع مرات أو أكثر من ذلك . وهذا وإسناده صحيح (٢) ، وهو فى صحيح مسلم من وجه آخر ، وفيه : «ثم يغسل قدميه كما أمره الله» . فدل على أن القرآن يأمر بالغسل .

ومن ههنا يتضح لك المراد من حديث عبد خير ، عن على ؛ أن رسول الله ﷺ رَشَ على قدميه الماء وهما فى النعلين فدلّكهما - إنما أراد غسلا خفيفاً وهما فى النعلين ولا مانع من إيجاد الغسل والرجل فى نعلها ، ولكن فى هذا رد على المتعمقين والمتنطعين من الموسوسين !

وهكذا الحديث الذى أورده ابن جرير على نفسه عن حذيفة قال : أتى رسول الله ﷺ سُبَّاطَةَ قوم فبال قائما ، ثم دعا بماء فتوضأ ، ومسح على نعليه . وهو حديث صحيح . وقد أجاب ابن جرير عنه بأن الثقات الحفاظ رَوَوْه عن حذيفة قال : فبال قائما ، ثم توضأ ومسح على خفيه . قلت : ويحتمل الجمع بينهما بأن يكون فى رجله خفان ، وعليهما نعلان . وهكذا الحديث الذى رواه الإمام أحمد بن حنبل عن أوس بن أبى أوس قال : رأيت رسول الله ﷺ توضأ ومسح على نعليه ، ثم قام إلى الصلاة . ورواه أبو داود عن أوس بن أبى أوس قال : رأيت رسول الله ﷺ أتى سُبَّاطَةَ قوم فبال ، وتوضأ ومسح على نعليه وقدميه . وقد رواه ابن جرير ، ثم قال : وهذا محمول على أنه توضأ كذلك وهو غير محدث ؛ إذ كان غير جائز أن تكون فرائض الله وسنن

(١) أبو داود (١٧٥) . والذى فيه « عن بعض أصحاب النبي ﷺ » .

(٢) هو جزء من حديث طويل فى المسند (١٧٠٨٦) .

رسوله متنافية متعارضة، وقد صح عنه ﷺ الأمرُ بعموم غسل القدمين في الوضوء بالماء بالنقل المستفيض القاطع عُدْر من انتهى إليه وبلغه.

ولما كان القرآن أمراً بغسل الرجلين - كما في قراءة النصب، وكما هو الواجب في حمل قراءة الخفض عليها - توهم بعض السلف أن هذه الآية ناسخة لرخصة المسح على الخفين، وقد روى ذلك عن علي بن أبي طالب، ولكن لم يصح إسناده، ثم الثابت عنه خلافه، وليس كما زعموه، فإنه قد ثبت أن النبي ﷺ مسح على الخفين بعد نزول هذه الآية الكريمة. فروى الإمام أحمد عن جرير بن عبد الله البجلي قال: أنا أسلمت بعد نزول المائدة، وأنا رأيت رسول الله ﷺ يمسح بعد ما أسلمت. تفرد به أحمد. وفي الصحيحين، من حديث الأعمش، عن إبراهيم، عن همام قال: بال جرير، ثم توضأ ومسح على خفيه، فقيل: تفعل هذا؟ فقال: نعم، رأيت رسول الله ﷺ بال، ثم توضأ ومسح على خفيه. قال إبراهيم: فكان يعجبهم هذا الحديث؛ لأن إسلام جرير كان بعد نزول المائدة. لفظ مسلم. وقد ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ مشروعية المسح على الخفين قولاً منه وفعلًا، كما هو مقرر في كتاب «الأحكام الكبير»، مع يحتاج إليه ذكره هناك، من تأقبت المسح أو عدمه أو التفصيل فيه، كما هو مبسوط في موضعه. وقد خالفت الروافض في ذلك كله بلا مستند، بل بجهل وضلال! مع أنه ثابت في صحيح مسلم، من رواية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، كما ثبت في الصحيحين عنه، عن النبي ﷺ النهي عن نكاح المتعة وهم يستبيحونها! وكذلك هذه الآية الكريمة دالة على وجوب غسل الرجلين، مع ما ثبت بالتواتر من فعل رسول الله ﷺ على وفق ما دلت عليه الآية الكريمة، وهم مخالفون لذلك كله، وليس لهم دليل صحيح في نفس الأمر، والله الحمد.

وهكذا خالفوا الأئمة والسلف في الكعبين اللذين في القدمين، فعندهم أنهما في ظهر القدم، فعندهم في كل رجل كعب! وعند الجمهور أن الكعبين هما العظمان الناثان عند مفصل الساق والقدم. قال الربيع: قال الشافعي: لم أعلم مخالفاً في أن الكعبين اللذين ذكرهما الله في كتابه في الوضوء هما الناثان، وهما مجمع مفصل الساق والقدم. هذا لفظه. فعند الأئمة، رحمهم الله في كل قدم كعبان، كما هو المعروف عند الناس، وكما دلت عليه السنة في الصحيحين عن عثمان؛ أنه توضأ فغسل رجله اليمنى إلى الكعبين، واليسرى مثل ذلك. وروى البخاري - تعليقاً مجزوماً به - وأبو داود وابن خزيمة في صحيحه عن النعمان بن بشير قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال: «أقيموا صفوفكم - ثلاثاً - والله لتقيمُن صفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم». قال: فرأيت الرجل يلزق كعبه بكعب صاحبه، وركبته بركبة صاحبه، ومنكبه بمنكبه. لفظ ابن خزيمة. فليس يمكن أن يلزق كعبه بكعب صاحبه إلا والمراد به العظم الناتئ في الساق، حتى يحاذي كعب الآخر، فدل ذلك على ما ذكرناه، من أنهما العظمان الناثان عند مفصل الساق والقدم، كما هو مذهب أهل السنة.

وقوله: ﴿وَأَن كُنتُمْ مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً

فَيَمْسُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ﴿٦﴾ كل ذلك قد تقدم الكلام عليه فى تفسير آية النساء، فلا حاجة بنا إلى إعادته؛ لثلاث بطول الكلام . وقد ذكرنا سبب نزول آية التيمم هناك (١)، لكن البخارى روى ههنا حديثا خاصا بهذه الآية الكريمة عن عائشة قالت: سقطت قلادة لى بالبلاء، ونحن داخلون المدينة، فأناخ رسول الله ﷺ ونزل، فثنى رأسه فى حجرى راقداً، أقبل أبو بكر فلكرزنى لكزة شديدة، وقال: حبست الناس فى قلادة! فبى الموت لمكان رسول الله ﷺ منى، وقد أوجعنى، ثم إن النبى ﷺ استيقظ وحضرت الصبح، فالتمس الماء فلم يوجد، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ الآية، فقال أسيد بن الحضير لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبى بكر، ما أنتم إلا بركة لهم (٢). وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ أى: فلهذا سهل عليكم ويسر ولم يعسر، بل أباح التيمم عند المرض، وعند فقد الماء، توسعة عليكم ورحمة بكم، وجعله فى حق من شرع له يقوم مقام الماء إلا من بعض الوجوه، كما هو مقرر فى كتاب «الأحكام الكبير».

وقوله: ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أى: نعمه عليكم فيما شرعه لكم من التوسعة والرأفة والرحمة والتسهيل والسماحة، وقد وردت السنة بالحث على الدعاء عقب الوضوء، بأن يجعل فاعله من المتطهرين الداخلين فى امتثال هذه الآية الكريمة، كما رواه الإمام أحمد ومسلم وأهل السنن، عن عقبة بن عامر قال: كانت علينا رعاية الإبل، فجاءت نوبتى فروحتها بعشى، فأدرت رسول الله ﷺ قائما يحدث الناس، فأدرت من قوله: «ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه، ثم يقوم فيصلى ركعتين مقبلاً عليهما بقلبه ووجهه، إلا وجبت له الجنة». قال: قلت: ما أجود هذه، فإذا قائل بين يدي يقول: التى قبلها أجود منها. فنظرت فإذا عمر، فقال: إني قد رأيتك جثت أنفاً، قال: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ - أو: فيسبغ - الوضوء، يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء». لفظ مسلم.

وعن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم - أو: المؤمن - فغسل وجهه، خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء - أو: مع آخر قطر الماء - فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة بطشتها يده مع الماء - أو: مع آخر قطر الماء - فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء - أو: مع آخر قطر الماء - حتى يخرج نقياً من الذنوب». رواه مسلم. وروى مسلم عن أبى مالك الأشعرى؛ أن رسول الله ﷺ قال: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والله أكبر تملأ ما بين السماء والأرض، والصوم جنّة، والصبر ضياء، والصدقة برهان، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها، أو موبقها». وفى صحيح مسلم عن ابن عمر قال: قال

(١) انظر ما مضى فى تفسير سورة النساء عند الآية: (٤٣).

(٢) البخارى (٨ / ٢٠٥ فتح). وقد مضى - بمعناه - من رواية أخرى للشيخين.

رسول الله ﷺ: «لا يقبل الله صدقة من غُلُول، ولا صلاة بغير طهور». وروى الطيالسي عن أبي المليح الهذلي عن أبيه قال: كنت مع رسول الله ﷺ في بيت، فسمعتة يقول: «إن الله لا يقبل صلاة من غير طهور، ولا صدقة من غُلُول». وكذا رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٧) يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالتَّائِبِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

يقول تعالى مذكراً عباده المؤمنين نعمته عليهم في شرعه لهم هذا الدين العظيم، وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم، وما أخذ عليهم من العهد والميثاق في مبايعته على متابعتة ومناصرتة وموازرتة، والقيام بدينه وإبلاغه عنه وقبوله منه، فقال: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، وهذه هي البيعة التي كانوا يبائعون عليها رسول الله ﷺ عند إسلامهم، كما قالوا: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله» (١)، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرُّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِقَائِهِمْ يُرِيدُكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨]، وقيل: هذا تذكار لليهود بما أخذ عليهم من الموائيق والعهود في متابعة محمد ﷺ والانقياد لشرعه، رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وقيل: هو تذكار بما أخذ تعالى من العهد على ذرية آدم حين استخرجهم من صلبه وأشهدهم على أنفسهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الاعراف: ١٧٢]، قاله مجاهد، ومقاتل. والقول الأول أظهر، وهو المحكى عن ابن عباس، والسدي. واختاره ابن جرير. ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تأكيد وتحريض على مواظبة التقوى في كل حال. ثم أعلمهم أنه يعلم ما يتخالج في الضمائر والسرائر من الأسرار والخواطر، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ أي: كونوا قائمين بالحق لله، عز وجل، لا لأجل الناس والسمعة، وكونوا ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل لا بالجور. وقد ثبت في الصحيحين، عن النعمان بن بشير أنه قال: نحلني أبي نَحْلًا، فقالت أمي عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تُشَهِدَ علي رسول الله ﷺ. فجاء ليَشْهَدَ على صدقتي فقال: «أكل ولدك نحلث مثله؟» قال:

(١) من حديث رواه الشيخان وغيرهما من حديث عبادة بن الصامت. وقد مضى كاملاً مخرجاً عند تفسير الآية (٥٩) من سورة النساء.

لا. قال: «اتقوا الله، واعدلوا في أولادكم». وقال: «إني لا أشهد على جور». قال: فرجع أبى فرد تلك الصدقة. وقوله: «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا» أى: لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل فى كل أحد، صديقا كان أو عدوا؛ ولهذا قال: «اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ» أى: عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه. ودل الفعل على المصدر الذى عاد الضمير عليه، كما فى نظائره من القرآن وغيره، كما فى قوله: «وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم» [النور: ٢٨].

وقوله: «هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ»، من باب استعمال أفعل التفضيل فى المحل الذى ليس فى الجانب الآخر منه شىء، كما فى قوله: «أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا» [الفرقان: ٢٤]، وكقول بعض الصحابييات لعمر: أنت أفض وأغلظ وأعظم من رسول الله ﷺ.

ثم قال تعالى: «وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» أى: وسيجزىكم على ما علم من أفعالكم التى عملتموها، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر؛ ولهذا قال بعده: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ» أى: لذنوبهم «وَأَجْرٌ عَظِيمٌ» وهو: الجنة التى هى من رحمته على عباده، لا ينالونها بأعمالهم، بل برحمة منه وفضل، وإن كان سبب وصول الرحمة إليهم أعمالهم، وهو تعالى الذى جعلها أسبابا إلى نيل رحمته وفضله وعفوه ورضوانه، فالكل منه وله، فله الحمد والمنة. ثم قال: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ»، وهذا من عدله تعالى، وحكمته وحكمه الذى لا يجور فيه، بل هو الحكم العدل الحكيم القدير.

وقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ» روى عبد الرزاق عن جابر؛ أن النبى ﷺ نزل منزلا، وتفرق الناس فى العشاء يستظلون تحتها، وعلق النبى ﷺ سلاحه بشجرة، فجاء أعرابى إلى سيف رسول الله ﷺ فأخذه فسله، ثم أقبل على النبى ﷺ فقال: من يمنعك منى؟ قال: «الله»، قال الأعرابى مرتين أو ثلاثا: من يمنعك منى؟ والنبى ﷺ يقول: «الله»، قال: فثام الأعرابى السيف، فدعا النبى ﷺ أصحابه فأخبرهم خبر الأعرابى، وهو جالس إلى جنبه ولم يعاقبه (١). وقصة هذا الأعرابى - وهو غوث بن الحارث - ثابتة فى الصحيح. وذكر محمد ابن إسحاق، ومجاهد وعكرمة، وغير واحد: أنها نزلت فى شأن بنى النضير، حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحى، لما جاءهم يستعينهم فى دية العامرين، ووكلوا عمرو بن جحاش بن كعب بذلك، وأمره إن جلس النبى ﷺ تحت الجدار واجتمعوا عنده أن يلقى تلك الرحى من فوقه، فاطلع الله النبى ﷺ على ما تمالؤوا عليه، فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه، فأنزل الله فى ذلك. ثم أمر رسول الله ﷺ أن يغدو إليهم فحاصرهم، حتى أنزلهم فأجلاهم.

(١) تفسير عبد الرزاق (ص ٦ مخطوط مصور). ورواه الطبرى (١١٥٦٦) من طريق عبد الرزاق، وإسناده صحيح. ورواه - بنحوه - أحمد (١٤٣٨٦، ١٤٩٨٧، ١٥٢٥٢) من أوجه. وكذلك البخارى (٧ / ٣٢٩ - ٣٣١ فتح). وقد مضى حديث آخر فيه شىء من هذه القصة، عن جابر أيضا، وفيه التصريح بأنه «غوث ابن الحارث» مضت عند تفسير الآية: (١٠٢) من سورة النساء. و «العشاء» - بكسر العين المهملة وآخره هاء - ما عظم من شجر الشوك وطال حتى يستظل به الناس. وقوله «ثام الأعرابى السيف»: أى أغمدته.

وقوله تعالى : ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يعنى : من توكل على الله كفاه الله ما أهمه ، وحفظه من شر الناس وعصمه .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ أَخَذْنَا مِنْهُمُ اقْرِضُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

لما أمر تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه ، الذى أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ ، وأمرهم بالقيام بالحق والشهادة بالعدل ، وذكرهم نعمه عليهم الظاهرة والباطنة ، فيما هداهم له من الحق والهدى - شرع يبين لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتابين : اليهود والنصارى ، فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعنا منه لهم ، وطردا عن بابه وجنابه ، وحجابا لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق ، وهو العلم النافع والعمل الصالح ، فقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ يعنى : عرفاء على قبائلهم بالمبايعة والسمع ، والطاعة لله ، ولرسوله ولكتابه . وهكذا لما بايع رسول الله ﷺ الأنصار ليلة العقبة ، كان فيهم اثنا عشر نقيبا . ثلاثة من الأوس وهم : أسيد بن الحضير ، وسعد بن خيثمة ، ورفاعة بن عبد المنذر - ويقال بدله : أبو الهيثم ابن التيهان - رضى الله عنهم ، وتسعة من الخزرج ، وهم : أبو أمامة أسعد بن زُرارة ، وسعد بن الربيع ، وعبد الله بن رواحة ، ورافع بن مالك بن العجلان ، والبراء بن معرور ، وعبادة بن الصامت ، وسعد ابن عباد ، وعبد الله بن عمرو بن حرام ، والمنذر بن عمرو بن حنيس ، رضى الله عنهم . والمقصود : أن هؤلاء كانوا عرفاء على قومهم ليلتشد عن أمر النبى ﷺ لهم بذلك ، وهم الذين ولّوا المبايعة والمبايعة عن قومهم للنبى ﷺ على السمع والطاعة .

وروى الإمام أحمد عن مسروق قال : كنا جلوسا عند عبد الله بن مسعود وهو يقرئنا القرآن ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن ، هل سألتم رسول الله ﷺ : كم يملك هذه الأمة من خليفة ؟ فقال عبد الله : ما سألتى عنها أحد منذ قدمت العراق قبلك ، ثم قال : نعم ، ولقد سألتنا

رسول الله ﷺ ؟ فقال: « اثنا عشر، كعدة نقباء بنى إسرائيل ». هذا حديث غريب من هذا الوجه (١) .

وأصل هذا الحديث ثابت فى الصحيحين عن جابر بن سمرّة قال: سمعت النّبي ﷺ يقول: « لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً ». ثم تكلم النّبي ﷺ بكلمة خفيت علىّ، فسألت ، أى: ماذا قال النّبي ﷺ؟ قال: «كلهم من قريش». وهذا لفظ مسلم ، ومعنى هذا الحديث البشارة بوجود اثنى عشر خليفة صالحاً ، يقيم الحق ويعدل فيهم، ولا يلزم من هذا تواليهم وتتابع أيامهم، بل قد وجد منهم أربعة على نسق، وهم الخلفاء الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، رضى الله عنهم، ومنهم عمر بن عبد العزيز بلا شك عند الأئمة، وبعض بنى العباس. ولا تقوم الساعة حتى تكون ولايتهم لا محالة، والظاهر أن منهم المهدي المبشّر به فى الأحاديث الواردة بذكره: أنه يواطىء اسمه اسم النّبي ﷺ، واسم أبيه اسم أبيه، فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً، كما ملئت جوراً وظلماً، وليس هذا بالمنتظر الذى تتوهم الرافضة وجوده ثم ظهوره من سرداب « سَمَرًا » ! فإن ذلك ليس له حقيقة ولا وجود بالكلية، بل هو من هوس العقول السخيفة، وتوهم الخيالات الضعيفة، وليس المراد بهؤلاء الخلفاء الاثنى عشر الأئمة الاثنى عشر الذين يعتقد فيهم الاثنا عشرية من الروافض، لجهلهم وقلة عقلهم (٢) . وفى التوراة البشارة بإسماعيل، عليه السلام، وأن الله يقيم من صلبه اثنى عشر عظيماً، وهم هؤلاء الخلفاء الاثنا عشر المذكورون فى حديث ابن مسعود، وجابر بن سمرّة، وبعض الجهلة ممن يسلم من اليهود إذا اقترن بهم بعض الشيعة يوهمونهم أنهم الأئمة الاثنا عشر، فيتشيع كثير منهم جهلاً وسفهاً، لقلة علمهم وعلم من لقنهم ذلك بالسنن الثابتة عن النّبي ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أى: بحفظى وكلاءتى ونصرى ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ أى: صدقتموهم فيما يجيئونكم به من الوحى ﴿وَعَزَّوْتُمُوهُمْ﴾ أى: نصرتموهم ووازرتموهم على الحق ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهو: الإنفاق فى سبيله وابتغاء مرضاته ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أى: ذنوبكم ، أمحوها وأسترها، ولا أؤاخذكم بها ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أى: أدفع عنكم المحذور، وأحصل لكم المقصود.

وقوله: ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أى: فمن خالف هذا الميثاق بعد عقده وتوكيده وشده، وجحدته وعامله معاملة من لم يعرفه، فقد أخطأ الطريق الواضح، وعدل عن الهدى إلى الضلال.

ثم أخبر تعالى عما حلّ بهم من العقوبة عند مخالفتهم ميثاقه ونقضهم عهده، فقال: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَانَهُمْ﴾ أى: فبسبب نقضهم الميثاق الذى أخذ عليهم لعناهم، أى: أبعدناهم عن

(١) المسند (٣٧٨١) . وإسناده صحيح .

(٢) بل هو من أكاذيب هذه الفئة المضلة ، التى استمرت الكذب والافتراء ، ومرنت عليه قلوبهم والستهم .

الحق وطردها عن الهدى ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ أى: فلا يتعظون بموعظة لغفلتها وقساوتها ﴿يَحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أى: فسدت فهمهم، وساء تصرفهم فى آيات الله، وتأولوا كتابه على غير ما أنزله، وحملوه على غير مراده، وقالوا عليه ما لم يقل، عياداً بالله من ذلك ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أى: وتركوا العمل به رغبة عنه. وقال الحسن: تركوا عرى دينهم ووظائف الله تعالى التى لا يقبل العمل إلا بها. وقال غيره: تركوا العمل فصاروا إلى حالة رديئة، فلا قلوب سليمة، ولا فطر مستقيمة، ولا أعمال قويمية ﴿وَلَا تَرَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ أى: مكرهم وغدرهم. لك ولاصحابك. ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ وهذا هو عين النصر والظفر، كما قال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه. وبهذا يحصل لهم تأليف وجمع على الحق، ولعل الله أن يهديهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: معنى به: الصفح عمن أساء إليك.

وقوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ أى: ومن الذين ادعوا لأنفسهم أنهم نصارى متابعون المسيح ابن مريم، عليه السلام، وليسوا كذلك، أخذنا عليهم العهود والمواثيق على متابعة الرسول ﷺ ومناصرتة ومؤازرتة واقتفاء آثاره، والإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض، ففعلوا كما فعل اليهود: خالفوا المواثيق ونقضوا العهود؛ ولهذا قال: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أى: فآلقينا بينهم العداوة والتباغض لبعضهم بعضا، ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة. وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين، يكفر بعضهم بعضا، ويلعن بعضهم بعضا؛ فكل فرقة تحرم الأخرى ولا تدعها تلجُ معبدها، فالملكية تكفر اليعقوبية، وكذلك الآخرون، وكذلك النسطورية والأريوسية، كل طائفة تكفر الأخرى فى هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد (١).

ثم قال: ﴿وَسَوْفَ يَنْبِئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وهذا تهديد ووعد أكيد للنصارى على ما ارتكبه من الكذب على الله رسوله، وما نسبوه إلى الرب - عز وجل، وتعالى وتقدس عن قولهم علواً كبيراً - من جعلهم له صاحبة وولدا، تعالى الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُم سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾

(١) وقد حقق الله وعده، وسيحققه عليهم إلى يوم القيامة، وقوله الصدق، ووعد الحق. ولذلك ترى هذه الأمم الفاجرة الضالة، الذين يتسبون إلى المسيح، عليه السلام، زورا وبهتانا، أولئك يزعمون أنهم نصارى - لا يزالون فى شقاق وخلاف، وعداوة بينهم وحروب مدمرة، وألوان من العدوان فاقت عدوان الوحوش الكاسرة. وقد حقت عليهم كلمة العذاب إلى يوم القيامة، إن شاء الله.

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة: أنه قد أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض، عربهم وعجمهم، أميهم وكتابيهم، وأنه بعثه بالبينات والفرق بين الحق والباطل، فقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ أى: يبين ما بدلوه وحرفوه وأولوه، وافترون على الله فيه، ويسكت عن كثير مما غيره ولا فائدة فى بيانه. وقد روى الحاكم عن ابن عباس قال: من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب، قوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ فكان الرحم مما أخفوه. ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ^(١). ثم أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذى أنزله على نبيه الكريم فقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ أى: طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة ﴿وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أى: ينجيهم من المهالك، ويوضح لهم آيين المسالك، فيصرف عنهم المحذور، ويحصل لهم أنجب الأمور، وينفى عنهم الضلالة، ويرشدهم إلى أقوم حالة.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ ﴿١٨﴾

يقول تعالى مخبراً وحاكماً بكفر النصارى فى ادعائهم فى المسيح ابن مريم - وهو عبدٌ من عباد الله، وخلق من خلقه - أنه هو الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

ثم قال مخبراً عن قدرته على الأشياء وكونها تحت قهره وسلطانه: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أى: لو أراد ذلك، فمن ذا الذى كان يمنعه؟ أو من ذا الذى يقدر على صرفه عن ذلك؟

ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أى: جميع الموجودات ملكه وخلقها، وهو القادر على ما يشاء، لا يسأل عما يفعل، لقدرته وسلطانه، وعدله وعظمته، وهذا رد على النصارى عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة. ثم قال تعالى راداً على اليهود والنصارى فى كذبهم وافترائهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ أى: نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه وله بهم عناية، وهو يحبنا. ونقلوا عن كتابهم: أن الله تعالى قال لعبده إسرائيل: «أنت ابني بكرى»! فحملوا هذا على غير تأويله، وحرفوه. وقد رد عليهم غير واحد

(١) المستدرك (٤ / ٣٥٩) ووافقه الذهبي على تصحيحه. ورواه أيضاً الطبري (١١٦٠٩ ، ١١٦١٠) بإسنادين صحيحين. وزاد السيوطي (٢ / ٢٦٩) نسبه لابن الضريس والنسائي وابن أبي حاتم.

من أسلم من عقلائهم، وقالوا: هذا يطلق عندهم على التشريف والإكرام، كما نقل النصارى عن كتابهم : أن عيسى قال لهم: إني ذاهب إلى أبى وأبيكم ! يعنى: ربى وربكم. ومعلوم أنهم لم يدعوا لأنفسهم من النبوة ما ادعوها فى عيسى، عليه السلام، وإنما أرادوا من ذلك معزتهم لديه وحظوتهم عنده، ولهذا قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه.

قال الله تعالى رادا عليهم: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ أى: لو كنتم - كما تدعون - أبناءه وأحباؤه، فلم أعدت لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم وافترائكم؟! وقد قال بعض شيوخ الصوفية لبعض الفقهاء: أين تجد فى القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فلم يرد عليه، فتلا عليه الصوفى هذه الآية: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾. وهذا الذى قاله حسن، وله شاهد فى المسند للإمام أحمد حيث روى عن أنس قال: مر النبى ﷺ فى نفر من أصحابه، وصبى فى الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسعى وتقول: ابنى ابنى، وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما كانت هذه لتلقى ولدها فى النار. قال: فخففهم النبى ﷺ فقال: «لا، والله ما يلقى حبيبه فى النار». تفرد به (١).

﴿يَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ أى: لكم أسوة أمثالكم من بنى آدم، وهو سبحانه الحاكم فى جميع عبادته ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أى: هو فعال لما يريد، لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب. ﴿وَلِلَّهِ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أى: الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه، ﴿وَالِيهِ الْمَصِيرُ﴾ أى: المرجع والمآب إليه، فيحكم فى عبادته ما يشاء، وهو العادل الذى لا يجور.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

يقول تعالى مخاطبا أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأنه قد أرسل إليهم رسوله محمد ﷺ خاتم النبيين، الذى لا نبى بعده ولا رسول، بل هو المعقب لجميعهم؛ ولهذا قال: ﴿عَلَى فِتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أى: بعد مدة متطاولة ما بين إرساله وعيسى ابن مريم.

وقد اختلفوا فى مقدار هذه الفترة، كم هى؟ فقال أبو عثمان النهديّ وقتادة - فى رواية عنه: كانت ستمائة سنة. ورواه البخارى عن سلمان الفارسى. وعن قتادة: خمسمائة وستون سنة. وقال معمر، عن بعض أصحابه: خمسمائة وأربعون سنة. وقال: الضحاك: أربعمائة وبضع وثلاثون سنة. وذكر ابن عساكر فى ترجمة عيسى، عليه السلام، عن الشعبى أنه قال: ومن رفع المسيح إلى هجرة النبى ﷺ تسعمائة وثلاث وثلاثون سنة. والمشهور هو الأول، وهو أنه ستمائة سنة. ومنهم من يقول: ستمائة وعشرون سنة. ولا منافاة بينهما، فإن القائل الأول أراد ستمائة سنة شمسية، والآخر أراد قمرية، وبين كل مائة سنة شمسية وبين القمرية نحو من

(١) المسند (١٢٠٤٣) وإسناده صحيح. وقوله: «خففهم» - بتشديد الفاء المفتوحة وبإضاد المعجمة، أى: سكنهم. وفى المطبوعة: «خففهم» بالظاء! وهو تصحيف. والصواب من المسند والمخطوطتين.

ثلاث سنين؛ ولهذا قال تعالى في قصة أصحاب الكهف: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥] أى: قمرية، لتكميل الثلاثمائة الشمسية التى كانت معلومة لأهل الكتاب. وكانت الفترة بين عيسى ابن مريم، آخر أنبياء بنى إسرائيل، وبين محمد خاتم النبيين من بنى آدم على الإطلاق، كما ثبت فى صحيح البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن أولى الناس لأنا، ليس بينى وبينه نبي»، هذا فيه رد على من زعم أنه بعث بعد عيسى نبي، يقال له: خالد بن سنان، كما حكاه القضاعي وغيره.

والمقصود: أن الله بعث محمداً ﷺ على فترة من الرسل، وطُمُوس من السبل، وتَغَيَّر الأديان، وكثرة عبادة الأوثان والنيران والصلبان، فكانت النعمة به أتم النعم، والحاجة إليه أمر عَمَم، فإن الفساد كان قد عم جميع البلاد، والطغيان والجهل قد ظهر فى سائر العباد، إلا قليلاً من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين، من بعض أحبار اليهود وعباد النصراني والصابئين، كما روى الإمام أحمد عن عياض بن حمار الجاشعِي، أن النبي ﷺ خطب ذات يوم فقال فى خطبته: «وإن ربي أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى فى يومى هذا: كل مال نَحَلْتُهُ عبادى حلال، وإنى خلقت عبادى حُنَفَاءَ كُلِّهِمْ، وإنهم أتتهم الشياطين فآضَلَتْهُمْ عن دينهم، وحرَمَتْ عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطاناً، ثم إن الله عز وجل، نظر إلى أهل الأرض فَمَقَّتَهُمْ عَجْمَهُمْ وعَرَبَّهُمْ، إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتيك وأبتي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظاناً، ثم إن الله أمرنى أن أحرَقَ قريشاً، فقلت: يارب، إذن يَتَلَعُوا رأسى فيدعوه خبزاً، فقال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزهم نُغْزِكَ، وأنْفِقْ عليهم فَسَنُنْفِقْ عليك، وابعث جنداً نبعث خمسة أمثاله، وقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مِنْ عَصَاكَ، وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مُقْسَطٌ مُتَصَدِّقٌ موفق، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذى قرى ومسلم، ورجل عَفِيفٌ فقير متصدق، وأهل النار خمسة: الضعيف الذى لا زَبْرَ له، الذين هم فيكم - تَبَعًا أو تُبَعَاءَ لا يبتغون أهلاً ولا مالاً، والخائن الذى لا يَخْفَى له طَمَعٌ وإن دَقَّ إلا خانهُ، ورجل لا يُصْبِح ولا يُمَسِي إلا وهو يخادعك عن أهلِكَ ومالك»، وذكر البخل والكذب، والشنظير: الفاحش (١).

والمقصود من إيراد هذا الحديث قوله: «وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عجمهم وعربهم إلا بقايا من أهل الكتاب». وكان الدين قد التبس على أهل الأرض كلهم، حتى بعث الله محمداً ﷺ، فهدى الخلائق، وأخرجهم الله به من الظلمات إلى النور، وتركهم على المحجة

(١) المسند (١٧٥٥٦ - ١٧٥٥٨ ، ١٧٥٦٣) ومسلم (٢ / ٣٥٦ ، ٣٥٧). وسياى مرة أخرى عند تفسير الآية (٣٠) من سورة الروم وقد مضى بعضه عند تفسير الآية (١٦٨) من سورة البقرة، والآيات: (١١٦ - ١٢٢) من سورة النساء وقوله: «يتلغوا رأسى»: من «الثلغ» بالثاء المثناة، وهو الشدخ، وقيل: هو ضربك الشيء الرطب بالشيء اليابس حتى ينشدخ. وقوله: «الضعيف الذى لا زبر له»: هو بفتح الزاى وسكون الباء الموحدة، قال ابن الأثير: «أى لا عقل له يزيه وينهاه عن الإقدام على ما لا يبغي». و«الشنظير»: بكسر الشين المعجمة: هو السوء الخلق.

البيضاء، والشربعة الغراء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ أى: لتلا تحتجوا. وتقولوا يا أيها الذين بدلوا دينهم وغيره - ما جاءنا من رسول يبشر بالخير وينذر من الشر ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ يعنى: محمداً ﷺ ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. قال ابن جرير: معناه: إني قادر على عقاب من عصاني، وثواب من أطاعني.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يُقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا عَلَى آذَانِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدَخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِذْكُمْ عَلَيْهِمُ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنَنْدَخُلُهَا أَيْدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام، فيما ذكر به قومه نعم الله عليهم وآلاءه لديهم، في جمعه لهم خير الدنيا والآخرة لو استقاموا على طريقتهم المستقيمة - فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ أى: كلما هلك نبي قام فيكم نبي، من لدن أبيكم إبراهيم وإلى ما بعده. وكذلك كانوا، لا يزال فيهم الأنبياء يدعون إلى الله ويحذرون نقمته، حتى ختموا بعبسى ابن مريم، عليه السلام، ثم أوحى الله إلى خاتم الأنبياء والرسل على الإطلاق محمد بن عبد الله، المنسوب إلى إسماعيل ابن إبراهيم، عليه السلام، وهو أشرف من كل من تقدمه منهم ﷺ. ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ عن ابن عباس قال: الخادم والمرأة والبيت. وروى الحاكم عن ابن عباس قال: المرأة والخادم ﴿وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قال: الذين بين ظهرائهم يومئذ، ثم قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وروى ابن جرير عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وسأله رجل فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال عبد الله: ألك امرأة تأوى إليها؟ قال: نعم. قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم. قال: فأنت من الأغنياء. فقال: إن لى خادماً. قال: فأنت من الملوك (١). وقال السدي في قوله: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ قال: بملك الرجل منكم نفسه وماله وأهله. رواه ابن أبي حاتم. وقد ورد في الحديث: «من أصبح منكم معافى في جسده، آمناً في سربه، عنده

(١) الطبرى (١١٦٢٥) وإسناده صحيح . ورواه أيضا مسلم (٢ / ٣٨٨ ، ٣٨٩) مطولاً بقصة أخرى فى آخره . وقصر السيوطى (٢ / ٢٧٠) إذ اقتصر على نسبته لسعيد بن منصور وابن جرير ، ولم ينسبه لصحيح مسلم .

قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها (١) .

وقوله: ﴿وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ يعنى عالمى زمانكم، فإنهم كانوا أشرف الناس فى زمانهم، من اليونان والقيط وسائر أصناف بنى آدم، كما قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الباقية: ١٦]، وقال تعالى إخباراً عن موسى لما قالوا: ﴿اجْعَلْ لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ . قَالَ أَغَيْرِ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الاعراف: ١٣٨ - ١٤٠] .

والمقصود: أنهم كانوا أفضل أهل زمانهم، وإلا فهذه الأمة أشرف منهم، وأفضل عند الله، وأكمل شريعة، وأقوم منهاجاً، وأكرم نبياً، وأعظم ملكاً، وأغزر أرزاقاً، وأكثر أموالاً وأولاداً، وأوسع مملكة، وأدوم عزا، قال الله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] ، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقد ذكرنا الأحاديث المتواترة فى فضل هذه الأمة وشرفها وكرمها، عند الله، عند قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ من سورة آل عمران (٢) .

ثم قال تعالى مخبراً عن تحريض، موسى، عليه السلام، بنى إسرائيل على الجهاد والدخول إلى بيت المقدس، الذى كان بأيديهم فى زمان أبيهم يعقوب، لما ارتحل هو وبنوه وأهله إلى بلاد مصر أيام يوسف، عليه السلام، ثم لم يزلوا بها حتى خرجوا مع موسى فوجدوا فيها قوما من العمالة الجبارين، قد استحوذوا عليها وتملكوها، فأمرهم رسول الله موسى، عليه السلام، بالدخول إليها، وبقتال أعدائهم، وبشَرِّهم بالنصرة والظفر عليهم، فَكَلَّلُوا وَعَصَوْا وَخَالَفُوا أمره، فعوقبوا بالذهاب فى التيه والتمادى فى سيرهم حائرين، لا يدرون كيف يتوجهون إلى مقصد، مُدَّة أربعين سنة، عقوبة لهم على تفريطهم فى أمر الله تعالى، فقال تعالى مخبراً عن موسى أنه قال: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ أى: المطهرة . وقال ابن عباس: هى الطور وما حوله . وكذا قال مجاهد وغير واحد . وفى رواية عن ابن عباس قال: هى أريحاء وكذا ذكر غير واحد من المفسرين . وفى هذا نظر ! لأن أريحاء ليست هى المقصود بالفتح، ولا كانت فى طريقهم إلى بيت المقدس، وقد قدموا من بلاد مصر، حين أهلك الله عدوهم فرعون، اللهم إلا أن يكون المراد بأريحاء أرض بيت المقدس، كما قاله السدى - فيما رواه ابن جرير عنه - لا أن المراد بها هذه البلدة المعروفة فى طرف الطَّوْر شرقى بيت المقدس .

وقوله تعالى: ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أى: التى وعدكموها الله على لسان أبيكم إسرائيل: أنه وراثة من آمن منكم ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ﴾ أى: ولا تنكروا عن الجهاد ﴿فَتَقَبِّلُوا خَاسِرِينَ﴾ قَالُوا

(١) رواه البخارى فى الادب المفرد، رقم (٣٠٠)، والترمذى (٣ / ٢٦٨، ٢٦٩) وابن ماجه (٤١٤١) -

كلهم من حديث عبيد الله بن محصن . قال الترمذى: حديث حسن غريب . وقوله: «أما فى سربه»: أى فى نفسه . وقوله: «حيزت»: أى جمعت .

(٢) مضى عند تفسير الآية: (١١٠) من سورة آل عمران .

يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٠﴾ أَى : اعتذروا بأن فى هذه البلدة - التى أمرتنا بدخولها وقتال أهلها - قوما جبارين ، أَى : ذوى خلقٍ هائلة ، وقوى شديدة ، وإنا لا نقدر على مقاومتهم ولا مُصَاوَلتهم ، ولا يمكننا الدخول إليها ما داموا فيها ، فإن يخرجوا منها دخلناها ، وإلا فلا طاقة لنا بهم .

وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا أخباراً من وضع بنى إسرائيل ، فى عظمة خلق هؤلاء الجبارين ، وأن منهم عوج بن عنق ، بنت آدم ، عليه السلام ، وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعاً وثلاث ذراع ، تحرير الحساب !! وهذا شيء يستحى من ذكره ! ثم هو مخالف لما ثبت فى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال : « إِنْ اللَّهُ خَلَقَ آدَمَ وَطُولُهُ سِتُونَ ذِرَاعًا ، ثُمَّ لَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الْآنَ » (١) . ثم ذكروا أن هذا الرجل كان كافراً ، وأنه كان ولد زنية ، وأنه امتنع من ركوب السفينة ، وأن الطوفان لم يصل إلى ركبته ! وهذا كذب وافتراء ، فإن الله ذكر أن نوحاً دعا على أهل الأرض من الكافرين ، فقال : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » [نوح : ٢٦] ، وقال تعالى : « فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ » [الشعراء : ١١٩ ، ١٢٠] ، وقال تعالى : « لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ » [هود : ٤٣] ، وإذا كان ابنُ نوحٍ الكافرُ غرق ، فكيف يبقى عوج بن عنق ، وهو كافر وولد زنية ؟! هذا لا يسوغ فى عقل ولا شرع . ثم فى وجود رجل يقال له : « عوج بن عنق » نظر ، والله أعلم .

وقوله : « قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا » أَى : فلما نكل بنو إسرائيل عن طاعة الله ومتابعة رسول الله ﷺ حرّضهم رجلاَن الله عليهما نعمة عظيمة ، وهما ممن يخاف أمر الله ويخشى عقابه . وقرأ بعضهم : « مِنَ الَّذِينَ يُخَافُونَ » أَى : ممن لهما مهابة وموضع من الناس (٢) . « ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتْرُكُوكُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أَى : متى توكلتم على الله واتبعتم أمره ، ووافقتم رسوله ، نصركم الله على أعدائكم وأيدكم وظفركم بهم ، ودخلتم البلدة التى كتبها لكم . فلم ينفع ذاك منهم شيئاً « قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ » وهذا نكول منهم عن الجهاد ، ومخالفة لرسولهم ، وتخلف عن مقاتلة الأعداء .

وما أحسن ما أجاب به الصحابة ، رضى الله عنهم ، يوم بدر رسول الله ﷺ ، حين استشارهم فى قتال النفير ، الذين جاؤوا لمنع العير الذى كان مع أبى سفيان ، فلما فات اقتناص

(١) من حديث فى المسند (٨١٥٦) من حديث أبى هريرة ، من صحيفة همام بن منبه ، ورواه الشيخان ، كما قال ابن كثير .

(٢) هذه القراءة - بضم الياء من « يخافون » - ليست فى شيء من القراءات الأربعة عشر . فهى قراءة شاذة ، وقد رواها الطبرى بإسناده (١١٦٧٥) عن سعيد بن جبير ، ثم ردّها ورجح القراءة المعروفة بفتح الياء : « لإجماع قراء الأمصار عليها ، وأن ما استفاضت به القراءة عنهم ، فحجة لا يجوز خلافها . وما انفرد به الواحد فجائز فيه الخطأ والسهو » .

العير، واقترب منهم النفير، وهم فى جمع ما بين التسعمائة إلى الألف، فى العدة والبيض واليلب، فتكلم أبو بكر فأحسن، ثم تكلم من تكلم من الصحابة من المهاجرين، ورسول الله ﷺ يقول: «أشيروا على أيها المسلمون». وما يقول ذلك إلا ليستعلم ما عند الأنصار؛ لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذ. فقال سعد بن معاذ: كأنك تُعرض بنا يا رسول الله، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصبر فى الحرب، صدق فى اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله فسر رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك (١). وروى ابن مردويه عن أنس، أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر استشار المسلمين، فأشار إليه عمر، ثم استشارهم فقالت الأنصار: يا معشر الأنصار، إياكم يريد رسول الله ﷺ. قالوا: إذا لا نقول له كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ والذى بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك. ورواه الإمام أحمد والنسائي وابن حبان (٢).

وكان ممن أجاب يومئذ المقداد بن عمرو الكندى، رضى الله عنه، كما روى الإمام أحمد: لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحب إلى مما عدل به: أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: والله - يا رسول الله - لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، ولكننا نقاتل عن يمينك وعن يسارك، ومن بين يديك ومن خلفك. فرأيت وجه رسول الله ﷺ يُشرق لذلك، وسر بذلك. ورواه البخارى (٣).

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ يعنى: لما نكل بنو إسرائيل عن القتال غضب عليهم موسى عليه السلام، وقال داعياً عليهم: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ أى: ليس أحد يطيعنى منهم فيمثل أمر الله، ويجب إلى ما دعوت إليه إلا أنا وأخى هارون، ﴿فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ قال ابن عباس: يعنى اقض بينى وبينهم. وعنه أيضاً: افصل بيننا وبينهم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيَهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية، لما دعا عليهم موسى، عليه السلام، حين نكلوا عن الجهاد حكم الله بتحريم دخولها عليهم مدة أربعين سنة، فوقعوا فى التيه، يسرون دائماً لا يهتدون للخروج منه، وفيه كانت أمور عجيبة، وخوارق كثيرة، من

(١) انظر تاريخ ابن كثير (٣ / ٣٦٢).

(٢) المسند (١٢٩٨٦) بأطول قليلا. ورواه أيضا بنحوه (١٢٠٤٧، ١٣٣٣٠، ١٣٧٣٩). وذكر الحافظ المؤلف

فى التاريخ (٣ / ٣٦٣) عن الرواية (١٢٩٨٦) ثم قال: «وهذا إسناد ثلاثى صحيح على شرط الصحيح».

(٣) المسند (٣٦٩٨). ورواه أيضا (٤٠٧٠، ٤٣٧٦) والبخارى (٧ / ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٠٥ فتح).

وذكره المؤلف الحافظ فى التاريخ (٣ / ٢٦٢، ٣٦٣) عن الموضع الاول من الفتح، ثم قال: «انفرد به

البخارى دون مسلم، فرواه فى مواضع من صحيحه».

تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم، ومن إخراج الماء الجارى من صخرة صماء تحمل معهم على دابة، فإذا ضربها موسى بعصاه انفجرت من ذلك الحجر اثنتا عشرة عينا تجري لكل شعب عين، وغير ذلك من المعجزات التي أيد الله بها موسى بن عمران. وهناك نزلت التوراة، وشرعت لهم الأحكام. وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: فتأهوا أربعين سنة، فهلك موسى وهارون فى التيه وكل من جاوز الأربعين سنة، فلما مضت الأربعون سنة ناهضهم «يوشع ابن نون»، وهو الذى قام بالأمر بعد موسى، وهو الذى افتتحها، وهو الذى قيل له: «اليوم يوم الجمعة» فهموا بافتتاحها، ودنت الشمس للغروب، فخشى إن دخلت ليلة السبت أن يُسبِتُوا، فنادى الشمس: «إنى مأمور وإنك مأمورة»، فوقفت حتى افتتحها، فوجد فيها من الأموال ما لم ير مثله قط، فقربوه إلى النار فلم تأت، فقال: فيكم الغلول، فدعا رؤوس الأسباط، وهم اثنا عشر رجلا، فبايعهم، والتصقت يد رجل منهم بيده، فقال: الغلول عندك، فأخرجَجه، فأخرج رأس بقرة من ذهب، لها عينان من ياقوت، وأسنان من لؤلؤ، فوضعه مع القربان، فأنت النار فأكلتها. وهذا السياق له شاهد فى الصحيح.

وقال بعض المفسرين فى قوله: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾: هذا وقف تام، وقوله: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ منصوب بقوله: ﴿يَتِيَهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾. وقد اختار ابن جرير أن قوله: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ هو العامل فى «أربعين سنة»، وأنهم مكثوا لا يدخلونها أربعين سنة، وهم تائهون فى البرية لا يهتدون لمقصد. وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ تسلية لموسى، عليه السلام، عنهم، أى: لا تتأسف ولا تحزن عليهم فيما حكمت عليهم، به فإنهم يستحقون ذلك.

وهذه القصة تضمنت تقريع اليهود وبيان فضائحهم، ومخالفتهم لله ولرسوله، ونكولهم عن طاعتها، فيما أمروهم به من الجهاد، فضغفت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم، ومقاتلتهم، مع أن بين أظهرهم رسول الله وكليمه وصفيه من خلقه فى ذلك الزمان، وهو يعدهم بالنصر والظفر بأعدائهم، هذا مع ما شاهدوا من فعل الله بعدوهم فرعون من العذاب والنكال والغرق له ولجنوده فى اليم، وهم ينظرون، لتَقَرَّ به أعينهم وما بالعهد من قَدَم، ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلد هى بالنسبة إلى ديار مصر لا توازى عشر المعشار فى عدة أهلها وعددهم، فظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام، واقتضحوا فضيحة لا يغطيها الليل، ولا يسترها الذليل، هذا وهم فى جهلهم يعمهون، وفى غيهم يترددون، وهم البُعْضَاء إلى الله وأعداؤه، ويقولون مع ذلك: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]!! ففجح الله وجوههم التى مسخ منها الخنازير والقروء، وألزمهم لعنة تصحبهم إلى النار ذات الوقود، ويقضى لهم فيها بتأييد الخلود، وقد فعل، وله الحمد من جميع الوجود.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيْكَ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِثُ سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلَقِي أَعْجَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِثُ سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى مبينا وخيم عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر ابني آدم لصلبه - في قول الجمهور - وهما قابيل وهابيل (١) ، كيف عدا أحدهما على الآخر فقتله ، بغيا عليه وحسدا له ، فيما وهبه الله من النعمة وتقبل القربان الذي أخلص فيه الله عز وجل ، ففاز المقتول بوضع الآثام والدخول إلى الجنة ، وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة ، فقال تعالى : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ﴾ أي : اقصص على هؤلاء البغاة الحسدة ، إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم - خبر ابني آدم ، وهما هابيل وقابيل فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف . وقوله : ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي : على الحلية والأمر الذي لا لبس فيه ولا كذب ، ولا وهم ولا تبديل ، ولا زيادة ولا نقصان ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ بِالْحَقِّ﴾ [آل عمران: ٦٢] وقال تعالى : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ [الكهف: ١٣] ، وقال تعالى : ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ﴾ [مريم: ٣٤] .

وكان من خبرهما - فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف : أن الله تعالى شرع لآدم ، عليه السلام ، أن يزوج بناته من بنيه لضرورة الحال ، ولكن قالوا : كان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى ، فكان يزوج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر ، وكانت أخت هابيل دميمة ، وأخت قابيل وضيئة ، فأراد أن يستأثر بها على أخيه ، فأبى آدم ذلك إلا أن يقربا قربانا ، فمن تقبل منه فهي له ، فتقبل من هابيل ولم يتقبل من قابيل ، فكان من أمرهما ما قص الله في كتابه (٢) . وروى ابن أبي حاتم عن ابن خثيم قال : أقبلت مع سعيد بن جبير ، فحدثني عن ابن عباس قال : نهى أن تتكح المرأة أخاها تؤمها ، وأمر أن ينكحها غيره من إخواتها ، وكان يولد له في كل بطن رجل وامرأة ، فبينما هم كذلك ولد له امرأة وضيئة ، وولد له أخري قبيحة دميمة ، فقال أخو

(١) أما أنهما ابنا آدم لصلبه ، فهو القول الثابت الصحيح ، الذي يدل عليه سياق الآيات ، مؤيدا بالسنة الصحيحة ، كما سيأتي . وأما تسميتهما - « قابيل وهابيل » فإنما هو من نقل العلماء عند أهل الكتاب ، لم يرد به القرآن ، ولا جاء في سنة ثابتة فيما نعلم ، فلا علينا ألا نجزم به ولا نرجحه ، وإنما هو قول قيل .
(٢) هذا من قصص أهل الكتاب ، ليس له أصل صحيح . ثم قد ساق الحافظ المؤلف هنا آثارا كثيرة في هذا المعنى ، مما امتلات به كتب المفسرين . وقد أعرضنا عن ذلك ، وأبقينا شيئا منها أجود إسنادا ، على سبيل المثال . ليس على سبيل الرواية الصحيحة المقبولة .

الدميمة: أنكحنى أحتك وأنكحك أحتى. قال: لا، أنا أحق بأحتى فقربا قربانا ، فتقبل من صاحب الكبش ، ولم يتقبل من صاحب الزرع ، فقتله إسناده جيد (١) . وعن ابن عباس قال: [كان] من شأنهما أنه لم يكن مسكين يُصَدَّق عليه ، وإنما كان القربان يقربه الرجل . فبينما ابنا آدم قاعدان إذ قالوا: لو قربنا قربانا وكان الرجل إذا قرب قربانا فرضيه الله ، أرسل إليه نارا فتأكله ، وإن لم يكن رضيه الله خَبَّت النار ، فقربا قربانا ، وكان أحدهما راعيا ، وكان الآخر حرًا ، وإن صاحب الغنم قرب خير غنمه وأسمنها ، وقرب الآخر بعض زرعه ، فجاءت النار فنزلت بينهما ، فأكلت الشاة وتركت الزرع ، وإن ابن آدم قال لأخيه: أتمشى فى الناس وقد علموا أنك قَرَبْتَ قربانا فَتَقَبَّلَ منك وَرَدَّ عَلَى؟! فلا والله لا ينظر الناس إليك وإلى وأنت خير منى . فقال: لأقتلنك . فقال له أخوه: ما ذنبى؟ إنما يتقبل الله من المتقين . رواه ابن جرير . فهذا الأثر يقتضى أن تقرب القربان كان لا عن سبب ولا عن تدارى فى امرأة ، كما تقدم عن جماعة ممن تقدم ذكرهم ، وهو ظاهر القرآن: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ . فالسياق يقتضى أنه إنما غضب عليه وحسده لقبول قربانه دونه .

وقوله: ﴿لَنْ يَسْطِيَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ : يقول له أخوه الرجل الصالح ، الذى تقبل الله قربانه لتقواه حين تواعده أخوه بالقتل على غير ما ذنب منه إليه: ﴿لَنْ يَسْطِيَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ أى: لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله ، فأكون أنا وأنت سواء فى الخطيئة ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: من أن أصنع كما تريد أن تصنع ، بل أصبر وأحتسب . ولهذا ثبت فى الصحيحين ، عن النبى ﷺ أنه قال: « إذا تواجه المسلمان بسيفيهما ، فالقاتل والمقتول فى النار » . قالوا: يا رسول الله ، هذا القاتل ، فما بال المقتول؟ قال: « إنه كان حريصا على قتل صاحبه » (٢) .

وروى الإمام أحمد أن سعد بن أبى وقاص قال عند فتنة عثمان : أشهد أن رسول الله ﷺ قال : « إنها ستكون فتنة ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشى ، والماشى خير من الساعى » . قال: أفرأيت إن دخل على بيتى فبسط يده إلى ليقتلنى ؟ فقال: « كن كابن آدم » . وكذا رواه الترمذى وقال: هذا حديث حسن . وقد رواه أبو داود بنحوه ، وفى آخره : قال: فقال رسول الله ﷺ: « كن كابن آدم » . وتلا يزيد: ﴿لَنْ يَسْطِيَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣) . قال أيوب السَّخْتَيَانِي: إن أول من أخذ بهذه الآية من هذه الأمة: ﴿لَنْ يَسْطِيَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ لعُثْمَان

(١) ورواه الطبرى (١١٧٥١) مطولا ، بإسناد جيد أيضا . وهو خير - كما ترى - ليس من السنة النبوية ، بل ظاهره يدل على أنه مما أخذه ابن عباس من كتب أهل الكتاب . و « التَّوَم » - بضم التاء وسكون الهمزة : التوام ، يقال للذكر وللأنثى .

(٢) البخارى (١٣ / ٢٧ فتح) ومسلم (٢ / ٣٦٢) - كلاهما من حديث أبى بكره .
(٣) المسند (١٦٠٩) والترمذى (٣ / ٢٢٠) وأبو داود (٤٢٥٧) . ولكن الذى فيه أن الذى تلا هذه الآية هو يزيد بن خالد الرملى شيخ أبى داود . خلافا لما يوهمه السياق هنا .

ابن عفان، رضى الله عنه . رواه ابن أبى حاتم .

وروى الإمام أحمد عن أبى ذر قال : ركب النبى ﷺ حمارا وأردفنى خلفه ، وقال : « يا أبا ذر ، أرايت إن أصاب الناس جوعٌ شديد لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك ، كيف تصنع ؟ » . قال : قال : الله ورسوله أعلم . قال : « تَعَفَّفْ » . قال : « يا أبا ذر ، أرايت إن أصاب الناس موتٌ شديد ، ويكون البيت فيه بالعبد ، يعنى القبر ، كيف تصنع ؟ » . قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « اصبر » . قال : « يا أبا ذر ، أرايت إن قتل الناس بعضهم بعضا ، يعنى حتى تغرق حجارة الزيت من الدماء ، كيف تصنع ؟ » . قال : الله ورسوله أعلم . قال : « اقعِدْ فى بيتك ، وأغلِقْ عليك بابك » . قال : فإن لم أترك؟ قال : « فأت من أنت منهم ، فكن منهم » . قال : فأخذ سلاحى ؟ قال : « فإذن تشاركهم فيما هم فيه ، ولكن إن خشيت أن يروعك شعاع السيف ، فأتى طرف ردائك على وجهك حتى يبيوء بإثمك وإثمك » . ورواه مسلم وأهل السنن سوى النسائى (١) .

وقوله : « إِنِّى أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ » : قال ابن عباس ، ومجاهد وغيرهما : أى : بإثم قتلى وإثمك الذى عليك قبل ذلك . قال ابن جرير : وقال آخرون : يعنى بذلك : إنى أريد أن تبوء بخطيئتي ، فتتحمل وزرها ، وإثمك فى قتلك إياى . وهذا قول وجدته عن مجاهد ، وأخشى أن يكون غلطاً ؛ لأن الصحيح من الرواية عنه خلافه . قلت : وقد يتوهم كثير من الناس هذا القول ، ويذكرون فى ذلك حديثاً لا أصل له : « ما ترك القاتل على المقتول من ذنب » . وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً يشبه هذا ، ولكن ليس به ، فروى عن عائشة ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « قتل الصَّبْر لا يمر بذنب إلا محاه » . وهذا لا يصح ، ولو صح فمعناه : أن الله يكفر عن المقتول بألم القتل ذنوبه ، فاما أن تحمل على القاتل فلا . ولكن قد يتفق هذا فى بعض الأشخاص ، وهو الغالب ، فإن المقتول يطالب القاتل فى العَرَصَات فيؤخذ له من حسناته بقدر مظلمته ، فإن نفدت ولم يستوف حقه أُخِذَ من سيئات المقتول فطُرِحَتْ على القاتل ، فربما لا يبقى على المقتول خطيئة إلا وضعت على القاتل . وقد صح الحديث بذلك عن رسول الله ﷺ فى المظالم كلها ، والقتل من أعظمها وأشدّها ، والله أعلم .

وأما ابن جرير فقال : والصواب من القول فى ذلك أن يقال : إن تأويله : إنى أريد أن تنصرف بخطيئتك فى قتلك إياى - وذلك هو معنى قوله : « إِنِّى أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي » . وأما معنى « وَإِثْمِكَ » فهو إثمه بغير قتله ، وذلك معصيته - عز وجل ، فى أعمال سواه . وإنما قلنا ذلك الصواب ، لإجماع أهل التأويل عليه ، وأن الله ، عز وجل ، أخبرنا أن كل عامل فجزاء عمله له أو عليه ، وإذا كان هذا حكمه فى خلقه ، فغير جائز أن تكون آثام المقتول مأخوذاً بها القاتل ، وإنما يؤخذ القاتل بإثمه بالقتل المحرّم وسائر آثام معاصيه التى ارتكبها بنفسه دون ما ركبه قتيله . هذا لفظه (٢) . ثم أورد على هذا سؤالاً ، حاصله : كيف أراد هابيل أن يكون على أخيه قابيل إثم قتله ، وإثم نفسه ، مع أن قتله له محرم ؟ وأجاب بما حاصله : أن هابيل أخبر عن نفسه

بأنه لا يقاتل أخاه إن قاتله، بل يكف يده عنه، طالباً - إن وقع قتل - أن يكون من أخيه لا منه. قلت: وهذا الكلام متضمن موعظة له لو اتعظ، وزجرًا له لو انزجر؛ ولهذا قال: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِغْيَابِ إِلْمِي﴾ أى: تتحمل إثمى وإثمك ﴿فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾. وقال ابن عباس: خوفه النار فلم يئته ولم ينزجر.

وقوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾ أى: فحسنت وسوكت له نفسه، وشجعته على قتل أخيه فقتله، أى: بعد هذه الموعظة وهذا الزجر. وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة، وأى خسارة أعظم من هذه؟. وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تُقْتَلْ نَفْسٌ ظُلْمًا، إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دِمَهِهَا، لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ». وقد أخرجه الجماعة سوى أبى داود (١).

وقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِي سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾: قال ابن عباس: جاء غراب إلى غراب ميت، فَبَحَثَ عليه من التراب حتى واره، فقال الذى قتل أخاه: ﴿يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِي سَوْءَ أَخِي﴾. وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ قال الحسن البصرى: علاه الله بندامة بعد خسران. فهذه أقوال المفسرين فى هذه القصة، وكلهم متفقون على أن هذين ابنا آدم لصلبه، كما هو ظاهر القرآن، وكما نطق به الحديث فى قوله: «إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دِمَهِهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ». وهذا ظاهر جلى، ولكن روى ابن جرير عن الحسن - هو البصرى - قال: كان الرجلان اللذان فى القرآن، اللذان قال الله: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ من بنى إسرائيل، ولم يكونا ابنى آدم لصلبه، وإنما كانا القريبان من بنى إسرائيل، وكان آدم أول من مات. وهذا غريب جداً، وفى إسناده نظر (٢).

(١) المسند (٣٦٣٠ ، ، ٤٠٩٢ ، ٤١٢٣) وهو فى البخارى (٦ / ٢٦٢ ، ١٢ / ١٦٩ ، ١٣ / ٢٥٦ فتح) .

ورواه أيضا الطبرى (١١٧٣٨ ، ، ١١٧٣٩) و « الكفل » - بكسر الكاف وسكون الفاء : الحظ والنصيب .

(٢) الطبرى (١١٧١٩) (١٠ / ٢٠٨) . وقد رده عقيبه بما ملخصه : أن الله تعالى عن أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به فائدة . والمخاطبون يعلمون أن القريبان لم يكن مشروعا إلا فى بنى آدم ، فلو كان المراد رجلين من بنى إسرائيل لم يكن فى قوله: « ابنى آدم » فائدة جديدة . ثم رده مرة أخرى (ص ٢١٩ ، ٢٢٠) بأنه « خطأ » ، لأن رسول الله ﷺ قد أخبر عن هذا القاتل الذى قتل أخاه : أنه أول من سَنَّ القتل . وقد كان - لا شك - القتل قبل إسرائيل ، فكيف قبل ذريته ! فخطأ من القول أن يقال : أول من سَنَّ القتل رجل من بنى إسرائيل . ثم رده مرة ثالثة (ص ٢٢٤) ، عند قوله تعالى : (فبعث الله غرابًا يبحث فى الأرض) - الآية - بأن « الرجلين اللذين وصف الله صفتهم فى هذه الآية ، لو كانا من بنى إسرائيل ، لم يجهل القاتل دفن أخيه ومواراة سوء أخيه . ولكنهما كانا من ولد آدم لصلبه ، ولم يكن القاتل منهما أخاه علم سنة الله فى عباده الموتى ، ولم يدر ما يصنع بأخيه المقتول » . وهذا كلام قوى نفيس .

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لُمْسِرُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ﴾ قتل ابن آدم أخاه ضماً وعدواناً ﴿ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ أى: شرعنا لهم وأعلمناهم ﴿ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ أى: ومن قتل نفساً بغير سبب من قصاص، أو فساد فى الأرض، واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية، فكأنما قتل الناس جميعاً؛ لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ أى: حرم قتلها واعتقد ذلك، فقد سلم الناس كلهم منه بهذا الاعتبار؛ ولهذا قال: ﴿ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾. وعن أبى هريرة قال: دخلت على عثمان يوم الدار، فقلت: جئت لأنصرك وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين. فقال: يا أبا هريرة، أيسرك أن تقتل الناس جميعاً وإياى معهم؟ قلت: لا. قال: فإنك إن قتلت رجلاً واحداً فكأنما قتلت الناس جميعاً، فأنصرفت ماذوناً لك، مأجوراً غير مأزور. قال: فأنصرفت ولم أقاتل ^(١). وقال ابن عباس: ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ وإحياؤها: ألا يقتل نفساً حرّمها الله، فذلك الذى أحيا الناس جميعاً، يعنى: أنه من حرّم قتلها إلا بحق، حيى الناس منه. وقال سعيد بن جبير: من استحل دم مسلّم فكأنما استحل دماء الناس جميعاً، ومن حرم دم مسلم فكأنما حرم دماء الناس جميعاً. وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: جاء حمزة بن عبد المطلب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، اجعلنى على شىء أعيش به؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا حمزة، نفس تحيىها أحب إليك أم نفس تميتها؟» قال: بل نفس أحيىها: قال: «عليك بنفسك» ^(٢).

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى: بالحجج والبراهين والدلائل الواضحة ﴿ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لُمْسِرُونَ ﴾ وهذا تقريع لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها، كما كانت بنو قريظة والنضير وغيرهم من بنى قينقاع ممن حول المدينة من اليهود، الذين كانوا يقاتلون مع الأوس والخزرج إذا وقعت بينهم الحروب فى الجاهلية، ثم إذا وضعت الحروب أوزارها فدّوا من أسروه، ودّوا من قتلوه، وقد أنكر الله عليهم ذلك فى سورة البقرة، حيث يقول:

(١) هذا الخبر لم يبين الحافظ ابن كثير مخرجه. وقد رواه ابن سعد فى الطبقات (٣ / ١ / ٤٨، ٤٩)، وإسناده صحيح جداً. وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٢ / ٢٧٧) وله ينسبه لغير ابن سعد.
(٢) المسند (٦٦٣٩). وإسناده صحيح.

﴿وَأَذِّنَا أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تُشْهَدُونَ . ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٤، ٨٥] (١) .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ الآية . المحاربة: هي المضادة والمخالفة ، وهى صداقة على الكفر ، وعلى قطع الطريق وإخافة السبيل ، وكذا الإفساد فى الأرض يطلق على أنواع من الشر ، حتى قال كثير من السلف ، منهم سعيد بن المسيب : إن قرض الدراهم والدنانير من الإفساد فى الأرض (٢) ، وقد قال الله تعالى : ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥] .

ثم قال بعضهم : نزلت هذه الآية الكريمة فى المشركين ، كما روى ابن جرير عن عكرمة والحسن البصرى قالا : نزلت هذه الآية فى المشركين ، فمن تاب منهم من قبل أن تقتلوا عليه ، لم يكن عليه سبيل ، وليست تُحَرِّزُ هذه الآية الرجل المسلم من الحد ، إن قتل أو أفسد فى الأرض أو حارب الله ورسوله ، ثم لحق بالكفار قبل أن يقدر عليه ، لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحد الذى أصاب (٣) . ورواه أبو داود والنسائى ، من طريق عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ : نزلت فى المشركين ، فمن تاب منهم قبل أن يُقَدَّرَ عليه لم يمنعه ذلك أن يقام فيه الحد الذى أصابه (٤) . وروى عن ابن عباس ، قال : كان قوم من أهل الكتاب ، بينهم وبين النبى ﷺ عهد وميثاق ، فتقضوا العهد وأفسدوا فى الأرض ، فخير الله رسوله : إن شاء أن يقتل ، وإن شاء أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف (٥) .

والصحيح أن هذه الآية عامة فى المشركين وغيرهم ممن ارتكب هذه الصفات ، كما رواه البخارى ومسلم من حديث أبى قلابة - واسمه عبد الله بن زيد الجرمي البصرى - عن أنس بن مالك : أن نفراً من عكْل ثمانية ، قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام ، فاستوخموا المدينة ، وسَقَمَت أجسامهم ، فشكوا إلى رسول الله ﷺ ، فقال : «ألا تخرجون مع راعينا فى إبله فتصيبون من أبوالها وألبانها ؟ » فقالوا : بلى . فخرجوا ، فشربوا من أبوالها وألبانها ، فَصَحُّوا ، فقتلوا الراعى وطرَدوا الإبل . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فبعث فى آثارهم ، فَأَدْرِكُوا ،

(١) انظر ما مضى عند تفسير الآيتين : (٨٤ ، ٨٥) من سورة البقرة .

(٢) « قرض الدراهم والدنانير » : قطعها . ومنه : « قراضة الذهب والفضة » . وهذا القرض سرقة وغش فى المعاملة . ووقع فى المطبوعة : « قبض » ! وهو تصحيف وكلام لا معنى له .

(٣) رواه الطبرى - هكذا - من كلام عكرمة والحسن ، مرتين بإسناد واحد (١١٨٧٢ ، ١١٨٠٦) .

(٤) أبو داود (٤٣٧٢) والنسائى (١٦٩ / ٢) . وإسنادهما صحيحان وهو الحديث السابق عن عكرمة والحسن ، إلا أن الطبرى أو أحد رجال إسناده قصر به ، فلم يرتفع به إلى ابن عباس .

(٥) الطبرى (١١٨٠٣) .

فجىء بهم، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم، وسُمرت أعينهم، ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا. لفظ مسلم (١).

وعند البخارى: قال أبو قلابة: فهؤلاء سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم، وحاربوا الله ورسوله (٢). ورواه مسلم من طريق سليمان التيمي، عن أنس قال: إنما سَمَلَ النبي ﷺ أعين أولئك؛ لأنهم سَمَلُوا أعين الرعاء (٣). وقال حماد بن سلمة: حدثنا قتادة وثابت البناني وحميد الطويل، عن أنس بن مالك: أن ناسًا من عُرْبَةِ قَدَمُوا المدينة، فاجتَوَوْهَا، فبعثهم رسول الله ﷺ في إبل الصدقة، وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها ففعلوا، فصَحُّوا فارتدوا عن الإسلام، وقتلوا الراعى، وساقوا الإبل، فأرسل رسول الله ﷺ في آثارهم، فجىء بهم، فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وسَمَرَ أعينهم وألقاهم في الحرة. قال أنس: فلقد رأيت أحدهم يكدم الأرض بفيه عطشًا حتى ماتوا، ونزلت: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية. رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن مردويه - وهذا لفظه - وقال الترمذى: «حسن صحيح». وقد تقدم في صحيح مسلم أنهم سَمَلُوا أعين الرعاء، فكان ما فعل بهم قصاصًا، والله أعلم. وقد روى قصة العرنيين من حديث جماعة من الصحابة، منهم: جابر وعائشة وغير واحد. وقد اعتنى الحافظ الجليل أبو بكر بن مردويه بتطريق هذا الحديث من وجوه كثيرة جدًا، فرحمه الله وأثابه.

وقد اختلف الأئمة في حكم هؤلاء العرنيين: هل هو منسوخ أو محكم؟ فقال بعضهم: هو منسوخ بهذه الآية، وزعموا أن فيها عتابًا للنبي ﷺ كما في قوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، ومنهم من قال: هو منسوخ بنهى النبي ﷺ عن المثلة. وهذا القول فيه نظر، ثم صاحبه مطالب ببيان تأخر الناسخ الذى ادعاه عن المنسوخ! وقال بعضهم: كان هذا قبل أن تنزل الحدود، قاله محمد بن سيرين، وفي هذا نظر، فإن قصتهم متأخرة، وفي رواية جرير بن عبد الله لقصتهم ما يدل على تأخرها، فإنه أسلم بعد نزول المائدة. ومنهم من قال: لم يشمل النبي ﷺ أعينهم، وإنما عزم على ذلك، حتى نزل القرآن فبيّن حكم المحاربين! وهذا القول أيضًا فيه نظر؛ فإنه قد تقدم في الحديث المتفق عليه أنه سَمَلَ - وفي رواية: سمر - أعينهم.

وقال ابن جرير: حدثنا على بن سهل، حدثنا الوليد بن مسلم قال: ذكرت الليث بن سعد ما كان من سَمَلَ النبي ﷺ أعينهم، وتركه حَسَمَهُمْ حتى ماتوا، قال: سمعت محمد بن عجلان يقول: أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ معاتبة في ذلك، وعَلَّمَهُ عقوبة مثلهم: من القتل والقطع والنفى، ولم يشمل بعدهم غيرهم. قال: وكان هذا القول ذكر لأبى عمرو - يعنى

(١) مسلم (٢ / ٢٥، ٢٦). ورواه قبل ذلك وبعده، من أوجه مختلفة، ورواه أيضا الطبرى من أوجه كثيرة، منها: (١١٨١٤).

(٢) البخارى مطولا (١ / ٢٨٩ - ٢٩٤ فتح). وهنا شرحه الحافظ شرحا وافيا. وقد رواه البخارى فى مواضع آخر أيضا، منها: (٦ / ١٠٨، ٧ / ٣٥٢، ٨ / ٢٠٦، ١٢ / ٩٩، ١٠٠ فتح).

(٣) مسلم (٢ / ٢٦).

الأوزاعي - فأنكر أن يكون نزلت معاتبة، وقال: بل كانت عقوبة أولئك النفر بأعيانهم، ثم نزلت هذه الآية في عقوبة غيرهم ممن حارب بعدهم، ورفع عنهم السمل (١).

ثم قد احتج بعموم هذه الآية جمهور العلماء في ذهابهم إلى أن المحاربة في الأمصار وفي السبلان على السواء لقوله: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾. وهذا مذهب مالك، والأوزاعي، والليث ابن سعد، والشافعي، أحمد بن حنبل، حتى قال مالك - في الذي يغتال الرجل فيخذه حتى يدخله بيتاً فيقتله، ويأخذ ماله -: إن هذا محاربة، ودمه إلى السلطان لا إلى ولي المقتول، ولا اعتبار بعفوه عنه في إسقاط القتل (٢). وقال أبو حنيفة وأصحابه: لا تكون المحاربة إلا في الطرقات، فأما في الأمصار فلا؛ لأنه يلحقه الغوث إذا استغاث، بخلاف الطريق لبعده ممن يغيثه ويعينه.

وأما قوله: ﴿أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ فقال ابن عباس: من شهر السلاح في قبة الإسلام (٣)، وأخاف السبيل، ثم ظفر به وقدر عليه، فإمام المسلمين فيه بالخيار: إن شاء قتله، وإن شاء صلبه، وإن شاء قطع يده ورجله.

وكذا قال سعيد بن المسيب، ومجاهد، وعطاء، وغيرهم. وروى ذلك ابن جرير، وحكى مثله عن مالك بن أنس، رحمه الله. ومستند هذا القول: أن ظاهر «أو» للتخيير، كما في نظائر

(١) الطبري (١١٨١٨).

(٢) روى الطبري (١١٨٢٢) عن الوليد بن مسلم، قال: «قلت لمالك بن أنس: تكون محاربة في مصر؟ قال: نعم، والمحارب عندنا من حمل السلاح على المسلمين في مصر أو خلاء، فكان ذلك منه على غير نائرة كانت بينهم ولا دخل ولا عداوة، قاطعاً للسبيل والطريق والديار، مخيفاً لهم بسلاحه، فقتل أحداً منهم، قتله الإمام كقتله المحارب، ليس لولي المقتول فيه عفو ولا قود». ثم روى (١١٨٢٣) عن الوليد، قال: «وسألت عن ذلك الليث بن سعد وابن لهيعة، قلت: تكون المحاربة في دور المصر والمدائن والقرى؟ فقالا: نعم، إذا هم دخلوا عليه بالسيوف علاية، أو ليلاً بالنيران، قلت: فقتلوا، أو أخذوا المال ولم يقتلوا؟ فقال: نعم، هم المحاربون، فإن قتلوا قتلوا، وإن لم يقتلوا وأخذوا المال قطعوا من خلاف إذا هم خرجوا به من الدار، ليس من حارب المسلمين في الخلاء والسبيل، بأعظم محاربة ممن حاربهم في حريمهم ودورهم». ثم روى (١١٨٢٤) عن الوليد، قال: «قال أبو عمرو [يعني الأوزاعي]: وتكون المحاربة في مصر، شهر على أهله بسلاحه ليلاً أو نهاراً. قال الوليد: وأخبرني مالك: أن قتل الغيلة - عنده - بمنزلة المحاربة، قلت: وما قتل الغيلة؟ قال: هو الرجل يخدع الرجل أو الصبي فيدخله بيتاً أو يخلو به، فيقتله ويأخذ ماله، فالإمام ولي قتل هذا، وليس لولي الدم والجرح قود ولا قصاص».

وقول مالك في الرواية الأولى: «نائرة» هي بالنون، وهي: الفتنة الحادثة في عداوة وشحناء و«الذحل» - بفتح الذال المعجمة وسكون الحاء المهملة - هو الثأر.

(٣) «قبة الإسلام»: فسرها أخى السيد محمود شاكر في الطبري (٢٦٣/١٠) بأنه «يعني في ظله وحيث مستقرها سلطانه، ولذلك سماها البصرة: قبة الإسلام». وفي المطبوعة: «قبة الإسلام»! وكذلك كانت في طبعة الطبري القديمة. وهي - كما قال أخى السيد محمود - لا معنى لها! وكلمة «قبة» واضحة الرسم والنقط في مخطوطي ابن كثير، ومضبوطة بالشكل في إحداها.

ذلك من القرآن، كقوله في جزاء الصيد: ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَذَا بِأَلْفِ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: ٩٥]. وقوله في كفارة الفدية: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وكقوله في كفارة اليمين: ﴿إِطْعَامُ (١) عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩]. هذه كلها على التخيير، فكذلك فلتكن هذه الآية. وقال الجمهور: هذه الآية منزلة على أحوال كما روى الشافعي عن ابن عباس في قطاع الطريق: إذا قَتَلُوا وأخذوا المال قَتَلُوا وصلبوا، وإذا قَتَلُوا ولم يأخذوا المال قَتَلُوا ولم يصلبوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قُطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا مالاً نفوا من الأرض. وقد رواه ابن أبي شيبَةَ عن ابن عباس، بنحوه. وهكذا قال غير واحد من السلف والأئمة.

واختلفوا: هل يُصَلَّب حياً ويُتْرَك حتى يموت بمنعه من الطعام والشراب ؟ أو يقتله برمح ونحوه ؟ أو يقتل أولاً ثم يصلب تنكيلاً وتشديداً لغيره من المفسدين؟ وهل يصلب ثلاثة أيام ثم ينزل ؟ أو يترك حتى يسيل صديده ؟ في ذلك كله خلاف محرر في موضعه ، وبالله الثقة وعليه التكلان .

وأما قوله تعالى: ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ فقال بعضهم: هو أن يطلب حتى يقدر عليه، فيقام عليه الحد أو يهرب من دار الإسلام. رواه ابن جرير عن ابن عباس، وأنس بن مالك، وسعيد ابن جبير، والليث، ومالك، وغيرهم. وقال آخرون: هو أن ينفي من بلده إلى بلد آخر، أو يخرج السultan أو نائبه من معاملته بالكلية، وقال الشعبي: ينفيه من عمله كله. وقال عطاء الخراساني: ينفي من جُند إلى جند سنين، ولا يخرج من دار الإسلام. وكذا قال سعيد بن جبير، وأبو الشعثاء، والحسن، والزهرى، وغيرهم. وقال آخرون: المراد بالنفي ههنا السجن، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه، واختار ابن جرير: أن المراد بالنفي ههنا: أن يخرج من بلده إلى بلد آخر فيسجن فيه.

وقوله: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أى: هذا الذى ذكرته - من قتلهم، ومن صلبهم، وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ونفيهم - خِزْيٌ لهم بين الناس فى هذه الحياة الدنيا، مع ما ادخر الله لهم من العذاب العظيم يوم القيامة، وهذا يؤيد قول من قال: إنها نزلت فى المشركين، فأما أهل الإسلام فقد ثبت فى صحيح مسلم، عن عبادة بن الصامت قال: أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء: ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزنى، ولا نقتل أولادنا، ولا يَعْصَهُ بعضنا بعضاً، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له، ومن ستره الله فأمره إلى الله، إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه. وعن على قال: قال رسول الله ﷺ: «من أذنب ذنباً فى الدنيا، فعوقب به، فالله

أعدل من أن يثنى عقوبته على عبده، ومن أذنب ذنباً في الدنيا فستره الله عليه وعفا عنه، فالله أكرم من أن يعود عليه في شيء قد عفا عنه». رواه الإمام أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وقال الترمذي: «حسن غريب». وقد سئل الحافظ الدارقطني عن هذا الحديث؟ فقال: روى مرفوعاً وموقوفاً، وقال: ورفعه صحيح. وقال ابن جرير في قوله: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ يعني: شرٌّ وعارٌ ونكالٌ وذلةٌ وعقوبة في عاجل الدنيا قبل الآخرة ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أى: إذا لم يتوبوا من فعلهم ذلك حتى هلكوا - في الآخرة مع الجزاء الذي جازيتهم به في الدنيا، والعقوبة التي عاقبتهم بها في الدنيا - ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يعني: عذاب جهنم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أما على قول من قال: إنها في أهل الشرك - فظاهر، وأما المحاربون المسلمون فإذا تابوا قبل القدرة عليهم، فإنه يسقط عنهم انتقام القتل والصلب وقطع الرجل، وهل يسقط قطع اليد أم لا؟ فيه قولان للعلماء. وظاهر الآية يقتضى سقوط الجميع، وعليه عمل الصحابة، كما روى ابن أبي حاتم عن الشعبي قال: كان حارثة بن بدر التميمي من أهل البصرة، وكان قد أفسد في الأرض وحارب، فكلّم رجلاً من قريش منهم: الحسن بن علي، وابن عباس، وعبد الله بن جعفر، فكلّموا علياً فيه، فلم يؤمنه. فأتى سعيد بن قيس الهمداني فخلفه في داره، ثم أتى علياً فقال: يا أمير المؤمنين، أرايت من حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً، فقرأ حتى بلغ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ﴾ قال: فكتب له أماناً. قال سعيد بن قيس: فإنه حارثة بن بدر. وكذا رواه ابن جرير (١).

وروى ابن جرير عن الشعبي قال: جاء رجل من مرد إلى أبي موسى، وهو على الكوفة في إمارة عثمان، بعد ما صلى المكتوبة، فقال: يا أبا موسى، هذا مقام العائذ بك، أنا فلان ابن فلان المرادي، وإنى كنت حاربت الله ورسوله وسعيت في الأرض فساداً، وإنى تبت من قبل أن يُقدّر عليّ. فقام أبو موسى فقال: إن هذا فلان ابن فلان، وإنه كان حارب الله ورسوله، وسعى في الأرض فساداً، وإنه تاب من قبل أن تُقدّر عليه، فمن لقيه فلا يعرض له إلا بخير، فإن يك صادقاً فسيبل من صدق، وإن يك كاذباً تدركه ذنوبه، فأقام الرجل ما شاء الله، ثم إنه خرج فأدركه الله بذنوبه فقتله (٢).

ثم روى ابن جرير عن الليث، قال حدثني موسى بن إسحاق المدني - وهو الأمير عندنا: أن علياً الأسدي حارب وأخاف السبيل وأصاب الدم والمال، فطلبه الأئمة والعامّة، فامتنع ولم يقدرُوا عليه، حتى جاء تائباً، وذلك أنه سمع رجلاً يقرأ هذه الآية: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، فوقف عليه فقال: يا عبد الله، أعد قراءتها. فأعادها عليه، فغمد سيفه، ثم جاء تائباً. حتى قدم المدينة من

(١) رواه الطبري مطولاً ومختصراً (١١٨٧٩ - ١١٨٨١).

(٢) الطبري (١١٨٨٤، ١١٨٨٥).

السحر، فاغتسل، ثم أتى مسجد رسول الله ﷺ فصلى الصبح، ثم قعد إلى أبي هريرة في غمار أصحابه، فلما أسفروا عرفه الناس، فقاموا إليه، فقال: لا سبيل لكم على جثت تائباً من قبل أن تقدروا على. فقال أبو هريرة: صدق. وأخذ بيده أبو هريرة حتى أتى مروان بن الحكم في أمرته على المدينة، في زمن معاوية، فقال: هذا عليّ جاء تائباً، ولا سبيل لكم عليه ولا قتل. فترك من ذلك كله، قال: وخرج عليّ تائباً مجاهداً في سبيل الله في البحر، فلقوا الروم، فقربوا سفينته إلى سفينة من سفنهم، فاقتحم على الروم في سفينتهم، فهربوا منه إلى شقها الآخر، فمالت به وبهم، ففارقوا جميعاً (١).

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْقَدُوهُ مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿١٧﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه، وهي إذا قرنت بطاعته كان المراد بها الانكفاف عن المحارم وترك المنهيات، وقد قال بعدها: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ قال ابن عباس: أى القرية. وكذا قال مجاهد، وقتادة، وابن زيد، وغير واحد. وقال قتادة: أى تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه. وقرأ ابن زيد: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧]. وهذا الذى قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه.

والوسيلة: هى التى يتوصل بها إلى تحصيل المقصود، والوسيلة أيضاً: عَلم على أعلى منزلة فى الجنة، وهى منزلة رسول الله ﷺ وداره فى الجنة، وهى أقرب أمكنة الجنة إلى العرش، وقد ثبت فى صحيح البخارى عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعته مقاماً محموداً الذى وعدته، إلا حَلَّتْ له الشفاعة يوم القيامة». وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبی ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا علىّ، فإنه من صلى علىّ صلاة صلى الله عليه عشرأ، ثم سلوا الله لى الوسيلة، فإنها منزلة فى الجنة، لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لى الوسيلة حَلَّتْ عليه الشفاعة» (٢). وروى الإمام أحمد عن كعب، عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا صليتم علىّ فسلُّوا لى الوسيلة». قيل: يا رسول الله، وما الوسيلة؟ قال: «أعلى درجة فى الجنة، لا ينالها إلا رجلٌ واحد، وأرجو أن أكون أنا هو». ورواه الترمذى ثم قال: غريب،

(١) الطبرى (١١٨٨٩).

(٢) ورواه الإمام أحمد فى المسند (٦٥٦٨). وخرجناه هناك.

وكعب ليس بمعروف، لا نعرف أحداً روى عنه غير ليث بن أبي سليم (١).

وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: لما أمرهم بترك المحارم وفعل الطاعات، أمرهم بقتال الأعداء من الكفار والمشركين، الخارجين عن الطريق المستقيم، والتاركين للدين القويم، ورغبتهم في ذلك بالذي أعدّه للمجاهدين في سبيله يوم القيامة، من الفلاح والسعادة العظيمة الخالدة المستمرة التي لا تبيد ولا تحوّل ولا تزول في الغرف العالية الرفيعة الآمنة، الحسنة مناظرها، الطيبة مساكنها، التي من سكنها ينعم لا يباس، ويحيا لا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه.

ثم أخبر تعالى بما أعد لأعدائه الكفار من العذاب والنكال يوم القيامة، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ﴾ أي: لو أن أحدهم جاء يوم القيامة بملء الأرض ذهباً، ومثله ليفتدي بذلك من عذاب الله الذي قد أحاط به، وتيقن وصوله إليه، ما تقبل ذلك منه، بل لا مندوحة عنه ولا محيص له ولا مناص؛ ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجع ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يُخْرَجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ الآية [الحج: ٢٢]، فلا يزالون يريدون الخروج مما هم فيه من شدته وأليم مسه، ولا سبيل لهم إلى ذلك، كلما رفعهم اللهب فصاروا في أعلى جهنم، ضربتهم الزبانية بالمقامع الحديد، فيردوهم إلى أسفلها ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: دائم مستمر لا خروج لهم منها، ولا محيد لهم عنها. وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فيقول: يا ابن آدم، كيف وجدت مضجعك؟ فيقول: شرٌّ مضجع، فيقول: هل تفتدي بقراب الأرض ذهباً؟» قال: «فيقول: نعم، يا رب، فيقول: كذبت، قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل: فيؤمر به إلى النار». رواه مسلم والنسائي وابن مردويه. وروى ابن مردويه عن يزيد بن صهيب الفقير، عن جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ [قال]: «يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة». قال: فقلت لجابر بن عبد الله: يقول الله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾؟ قال: اتل أول الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ﴾ الآية، ألا إنهم الذين كفروا. وقد روى الإمام أحمد ومسلم هذا الحديث من وجه آخر، عن يزيد الفقير، عن جابر، وهذا أبسط سياقا.

وروى ابن أبي حاتم عن يزيد الفقير قال: جلست إلى جابر بن عبد الله، وهو يحدث، فحدث أن ناساً يخرجون من النار، قال: وأنا يومئذ أنكر ذلك، فغضبت وقلت: ما أعجب من الناس، ولكن أعجب منكم يا أصحاب محمد، تزعمون أن الله يخرج ناساً من النار، والله يقول: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾؟! فاتهرنى أصحابه، وكان أحلمهم فقال: دعوا الرجل، إنما ذلك للكفار: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ﴾ الآية.

(١) المسند (٧٥٨٨)، وإسناده صحيح. وكعب المديني: تابعي معروف، ذكره ابن حبان في الثقات، وترجمه البخاري في الكبير (٤ / ١ / ٢٢٤) فلم يذكر فيه جرحاً.

بِهِ مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» حتى بلغ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أما تقرأ القرآن؟ قلت: بلى قد جمعته ، قال: أليس الله يقول: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مُمَكَّدًا﴾ ؟ [الإسراء: ٧٩] ، فهو ذلك المقام ، فإن الله يحبس أقواماً بخطاياهم فى النار ما شاء ، لا يكلمهم ، فإذا أراد أن يخرجهم أخرجهم . قال : فلم أعد بعد ذلك إلى أن أكذب به (١) . ثم روى ابن مردويه عن طلق بن حبيب قال: كنت من أشد الناس تكذيباً بالشفاعة ، حتى لقيت جابر بن عبد الله ، فقرأت عليه كل آية أقدر عليها يذكر الله فيها خلود أهل النار ، فقال: يا طلق، أترأى أقرأ لكتاب الله وأعلم بسنة رسول الله منى؟ إن الذين قرأت هم أهلها ، هم المشركون ، ولكن هؤلاء قوم أصابوا ذنباً فعذبوا ، ثم أخرجوا منها ، ثم أهوى بيديه إلى أذنيه ، فقال : صمتاً إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرجون من النار بعد ما دخلوا» . ونحن نقرأ كما قرأت (٢) .

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا تَكْلَافًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ٢٨ ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ٢٩ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ٤٠

يقول تعالى حاكماً وأمرأً بقطع يد السارق والسارقة ، وروى أن ابن مسعود كان يقرأها: «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما» . وهذه قراءة شاذة ، وإن كان الحكم عند جميع العلماء موافقاً لها ، لا بها ، بل هو مستفاد من دليل آخر . وقد كان القطع معمولاً به فى الجاهلية ، فقرر فى الإسلام وزيدت شروط آخر ، كما سنذكره إن شاء الله تعالى ، كما كانت القسامة والدية والقرأض وغير ذلك من الأشياء التى ورد الشرع بتقريرها على ما كانت عليه ، وزيادات هى من تمام المصالح . ويقال : إن أول من قطع الأيدي فى الجاهلية قريش ، قطعوا رجلاً يقال له : «دؤيك» ، مولى لبني مليح بن عمرو من خزاعة ، كان قد سرق كنز الكعبة ، ويقال: سرقة قوم فوضعوه عنده .

وقد ذهب بعض الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سرق السارق شيئاً قطعت يده به ، سواء كان قليلاً أو كثيراً ؛ لعموم هذه الآية: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ . فلم يعتبروا نصاباً ولا حرزاً ، بل أخذوا بمجرد السرقة . وتمسكوا بما ثبت فى الصحيحين ، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لَعَنَ اللَّهُ السَّارِقَ ، يسرق البيضة فتقطع يده ، ويسرق الحبل فتقطع يده» . وأما الجمهور فاعتبروا النصاب فى السرقة ، وإن كان قد وقع بينهم الخلاف فى قدره ، فذهب كل من الأئمة الأربعة إلى قول على حدة ، فعند الإمام مالك بن أنس : النصاب ثلاثة دراهم مضروبة

(١) إسناده ابن أبى حاتم - فى هذا - إسناده صحيح .

(٢) إسناده صحيح . ورواه أحمد فى المسند (١٤٥٨٦) بأطول منه قليلاً ، وإسناده أيضاً صحيح . وزاد السيوطى

(٢٨٠ / ٢) نسبته للبخارى فى الأدب المفرد والبيهقى فى الشعب ، ولكنه فاته أن ينسبه للمسند . ولم أجده

فى الأدب المفرد .

خالصة، فمتى سرقها أو ما يبلغ ثمنها فما فوقها وجب القطع، واحتج في ذلك بما رواه عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قطع في مجن ثمنه ثلاثة دراهم. أخرجاه في الصحيحين . قال مالك : وقطع عثمان ، في أترجة قومت بثلاثة دراهم، وهو أحب ما سمعت في ذلك . وهذا الأثر عن عثمان قد رواه مالك : أن سارقاً سرق في زمان عثمان أترجة، فأمر بها عثمان أن تقوم، فقومت بثلاثة دراهم من صرف اثني عشر درهماً ، فقطع عثمان يده . قال أصحاب مالك : ومثل هذا الصنيع يشتهر، ولم ينكر، فمن مثله يحكى الإجماع السكوتي، وفيه دلالة على القطع في الثمار خلافاً للحنفية . وعلى اعتبار ثلاثة دراهم خلافاً لهم في أنه لا بد من عشرة دراهم، وللشافعية في اعتبار ربع دينار، والله أعلم . وذهب الشافعي إلى أن الاعتبار في قطع يد السارق بربع دينار أو ما يساويه من الأثمان أو العروض فصاعداً . والحجة في ذلك ما أخرجه الشيخان عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « تقطع يد السارق في ربع دينار فصاعداً » . ولمسلم عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً » . قال أصحابنا : فهذا الحديث فاصل في المسألة ، ونصر في اعتبار ربع الدينار لا ما سواه . قالوا: وحديث ثمن المجن، وأنه كان ثلاثة دراهم، لا ينافي هذا؛ لأنه إذ ذاك كان الدينار بائني عشر درهماً، فهي ثمن ربع دينار، فامكن الجمع بهذه الطريق . ويروى هذا المذهب عن عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلى بن أبي طالب . وبه يقول عمر بن عبد العزيز، والليث بن سعد ، والأوزاعي ، والشافعي ، وأصحابه، وغيرهم .

وذهب الإمام أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه - في رواية عنه - إلى أن كل واحد من ربع الدينار والثلاثة دراهم مرد شرعى، فمن سرق واحداً منهما، أو ما يساويه قطع ، عملاً بحديث ابن عمر، وبحديث عائشة ووقع في لفظ عند الإمام أحمد، عن عائشة ، أن رسول الله ﷺ قال : « اقطعوا في ربع دينار، ولا تقطعوا فيما هو أدنى من ذلك » . وكان ربع الدينار يومئذ ثلاثة دراهم، والدينار اثني عشر درهماً . وفي لفظ للنسائي : « لا تقطع يد السارق فيما دون ثمن المجن . قيل لعائشة : ما ثمن المجن ؟ قالت : ربع دينار (١) . فهذه كلها نصوص دالة على عدم اشتراط عشرة دراهم، والله أعلم .

وأما الإمام أبو حنيفة وأصحابه: أبو يوسف، ومحمد، وزفر، وكذا سفيان الثوري - فإنهم ذهبوا إلى أن النصاب عشرة دراهم مضروبة غير مغشوشة . واحتجوا بأن ثمن المجن الذي قطع فيه السارق على عهد رسول الله ﷺ، كان ثمنه عشرة دراهم . وقد روى أبو بكر بن أبي شيبة عن ابن عباس قال : كان ثمن المجن على عهد النبي ﷺ عشرة دراهم . ثم روى عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقطع يد السارق في دون ثمن المجن » . وكان ثمن المجن عشرة دراهم . قالوا: فهذا ابن عباس وعبد الله بن عمرو قد خالفا ابن عمر في ثمن المجن، فالاحتياط الأخذ بالأكثر؛ لأن الحدود تدرأ بالشبهات . وذهب بعض

(١) انظر هذه الأحاديث كلها في المتقى (٤٠٦٧ - ٤٠٧٥) .

السلف إلى أنه تَقَطَّعَ يَدُ السَّارِقِ فِي عَشْرَةِ دَرَاهِمٍ، أَوْ دِينَارٍ، أَوْ مَا يَبْلُغُ قِيَمَتَهُ وَاحِدًا مِنْهُمَا، يَحْكِي هَذَا عَنْ عَلِيٍّ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ، وَأَبِي جَعْفَرٍ الْبَاقِرِ، وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لَا تَقَطَّعُ الْخَمْسَ إِلَّا فِي خَمْسٍ، أَيْ: فِي خَمْسَةِ دَنَانِيرٍ، أَوْ خَمْسِينَ دِرْهَمًا. وَيَنْقُلُ هَذَا عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ .

وقد أجاب الجمهور عما تمسك به الظاهرية من حديث أبي هريرة: «يَسْرِقُ الْبَيْضَةُ فَتَقَطَّعَ يَدُهُ، وَيَسْرِقُ الْحَبْلَ فَتَقَطَّعَ يَدُهُ» بأجوبة:

أحدها: أنه منسوخ بحديث عائشة. وفي هذا نظر؛ لأنه لا بد من بيان التاريخ.

والثاني: أنه مؤول ببیضة الحديد وحبل السفن، قاله الأعمش فيما حكاه البخاري وغيره عنه.

والثالث: أن هذا وسيلة إلى التدرج في السرقة من القليل إلى الكثير الذي تقطع فيه يده، ويحتمل أن يكون هذا خرج مخرج الإخبار عما كان الأمر عليه في الجاهلية، حيث كانوا يقطعون في القليل والكثير، فلعن السارق الذي يذل يده الثمينة في الأشياء المهينة.

وقد ذكروا أن أبا العلاء المعري، لما قدم بغداد، اشتهر عنه أنه أورد إشكالا على الفقهاء في جعلهم نصاب السرقة ربع دينار، ونظم في ذلك شعراً دل على جهله، وقلة عقله ! فقال:

تَنَاقَضَ مَا لَنَا إِلَّا السَّكُوتُ لَهُ وَأَنْ نَعُوذَ بِمَوْلَانَا مِنْ النَّارِ
يَدٌ بِخَمْسٍ مِثْنِ عَسَجَدٍ قُدِيتْ مَا بِالْهَالِهَا قُطِعَتْ فِي رُبْعِ دِينَارٍ

ولما قال ذلك واشتهر عنه تَطَلَّبَ الفقهاء فهرب منهم. وقد أجابه الناس في ذلك، فكان جواب القاضي عبد الوهاب المالكي أن قال: لما كانت أمانة كانت ثمينة، ولما خانت هانت. ومنهم من قال: هذا من تمام الحكمة والمصلحة وأسرار الشريعة العظيمة، فإن في باب الجنائيات ناسب أن تعظم قيمة اليد بخمسائة دينار، لثلاثي يَجْنِي عليها، وفي باب السرقة ناسب أن يكون القدر الذي تقطع فيه ربع دينار، لثلاثي يتسارع الناس في سرقة الأموال، فهذا هو عين الحكمة عند ذوى الالباب؛ ولهذا قال: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا﴾ أي: مجازاة على صنيعهما السيئ في أخذهما أموال الناس بأيديهم، فناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك ﴿نَكَالًا مِنَ اللَّهِ﴾ أي: تنكيلاً من الله بهما على ارتكاب ذلك ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي: في انتقامه ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: في أمره ونهيه وشرعه وقدره.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: من تاب بعد سرقة وأتاب إلى الله، فإن الله يتوب عليه فيما بينه وبينه، فأما أموال الناس فلا بد من ردها إليهم أو بدلها عند الجمهور. وقال أبو حنيفة: متى قطع وقد تلفت في يده، فإنه لا يرد بديلها. وقد روى الدارقطني عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ أتى بسارق قد سرق شملة فقال: «ما إخاله سارق»، فقال السارق: بلى يا رسول الله. قال: «اذهبوا به فاقطعوه»، ثم احسموه، ثم اتونى به. ففقط فأتى به، فقال: «تب إلى الله». فقال: تبت إلى الله. فقال: «تاب الله عليك».

وقد روى من وجه آخر مرسلاً ورجح إرساله على بن المديني وابن خزيمة. وروى ابن ماجه عن ثعلبة الأنصاري ، أن عمرو بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس جاء إلى النبي ﷺ ، فقال: يا رسول الله ، إني سرقت جملاً لبنى فلان فطهرني ، فأرسل إليهم النبي ﷺ ، فقالوا: إنا افتقدنا جملاً لنا . فأمر به فقطعت يده ، وهو يقول: الحمد لله الذي طهرني منك ، أردت أن تدخلني جسد النار (١) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو؛ أن امرأة سرقت على عهد رسول الله ﷺ ، فجاء بها الذين سرقتهم ، فقالوا: يا رسول الله ، إن هذه المرأة سرقتنا ، قال قومها: فنحن نفديها ، فقال رسول الله : «اقطعوا يدها» ، فقالوا: نحن نفديها بخمسائة دينار . فقال: «اقطعوا يدها» . فقطعت يدها اليمنى . فقالت المرأة: هل لى من توبة يا رسول الله؟ قال: «نعم» ، أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك . فانزل الله فى سورة المائدة: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢) .

وهذه المرأة هى المخزومية التى سرقت ، وحديثها ثابت فى الصحيحين عن عائشة؛ أن قريشاً أهمهم شأن المرأة التى سرقت فى عهد النبي ﷺ ، فى غزوة الفتح ، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ؟ فأتى بها رسول الله ﷺ ، فكلمه فيها أسامة بن زيد ، قتلون وجه رسول الله ﷺ فقال: «أتشفع فى حد من حدود الله ، عز وجل؟ !» فقال له أسامة : استغفر لى يا رسول الله . فلما كان العشى قام رسول الله ﷺ فاخطب ، فأتى على الله بما هو أهله ، ثم قال: «أما بعد ، فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وإني - والذى نفسى بيده - لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» . ثم أمر بتلك المرأة التى سرقت فقطعت يدها . قالت عائشة : فحسنت توبتها بعد ، وتزوجت ، وكانت تأتى بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ . وهذا لفظ مسلم . وعن ابن عمر قال: كانت امرأة مخزومية تستعير متاعاً على السنة جاراتها وتجيده ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع يدها . رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والنسائي ، وهذا لفظه . وقد ورد فى أحكام السرقة أحاديث كثيرة مذكورة فى كتاب «الأحكام» ، والله الحمد والمنة .

ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: هو المالك لجميع ذلك ، الحاكم فيه ، الذى لا معقب لحكمه ، وهو الفعال لما يريد ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣) .

(١) ابن ماجه (٢٥٨٨) . ووقع فى المطبوعة « عمر بن سمرة » بدل « عمرو » . وهو خطأ .
(٢) المسند (٦٦٥٧) وإسناده صحيح . وهو فى مجمع الزوائد (٢٧٦ / ٦) . ورواه الطبري (١١٩١٧) مختصراً ، وإسناده صحيح أيضاً .

(٣) هذا حكم الله فى السارق والسارقة ، قاطع صريح اللفظ والمعنى ، لا يحتمل أى شك فى الثبوت ولا فى الدلالة . وهذا حكم رسول الله ﷺ تنفيذاً لحكم الله وطاعة لأمره ، فى الرجال والنساء : قطع اليد ، لاشك فيه ، حتى ليقول ﷺ بأبى هو وأمى : « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

﴿ يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكَفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا
ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَكَّعُوا لِلْكَذِبِ
سَكَّعُوا لِقَوْمِهِ الْآخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُخَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ
هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَأَحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً

= فانظروا إلى ما فعل بنا أعداؤنا المبشرون المستعمرون ! العوا بدينا ، وضربوا علينا قوانين وثنية ملعونة مجرمة ،
نسخوا بها حكم الله وحكم رسوله . ثم ربوا فينا ناساً يتنسبون إلينا ، أشربوهم في قلوبهم بغض هذا الحكم ،
ووضعوا على ألسنتهم كلمة الكفر : أن هذا حكم قاس لا يناسب هذا العصر الماجن ، عصر المدنية المتهتكة !
وجعلوا هذا الحكم موضع سخريتهم وتندرهم ! فكان عن هذا أن امتلأت السجون - في بلادنا وحدها - بمئات
الآلاف من اللصوص ، بما وضعوا في القوانين من عقوبات للسرقة ليست برادعة ، ولن تكون أبداً رادعة ،
ولن تكون أبداً علاجاً لهذا الداء المستشري .

ثم أدخلها في عقول الطبقة المثقفة ، وخاصة القائمين على هذه القوانين الوثنية - ما يسمونه « علم النفس » .
وهو ليس بعلم ولا شبيه به . بل هو أهواء متناقضة متباينة . لكل إمام من أئمة الكفر في هذا العلم رأى يقض
رأى مخالفه . ثم جاؤوا في التطبيق يلتمسون الأعذار من « علم النفس » لكل لص بحسبه . ثم زاد الأمر شراً
أن يكتب اللصوص أنفسهم كلاماً يلتمسون به الأعذار لجرمهم . وقام المدافعون عنهم المقامات التي توردهم
النار : يعلمون أن الجريمة ثابتة ، فلا يحاولون إنكارها ، بل يحاولون التهوين من شأنها ، بدراسة نفسية المجرم
وظروفه !!

ولقد جادلت منهم رجالاً كثيراً من أساطينهم ، فليس عندهم إلا أن حكم القرآن في هذا لا يناسب هذا
العصر !! وأن المجرم إن هو إلا مريض يجب علاجه لا عقابه . ثم ينسبون قول الله سبحانه في هذا الحكم
بعينه : ﴿ جَزَاءُ بِمَا كَتَبْنَا مِنَ الْإِلَهِ ﴾ . قاله سبحانه - وهو خالق الخلق ، وهو أعلم بهم ، وهو العزيز الحكيم -
يجعل هذه العقوبة للتكثير بالسارقين ، نصاً قاطعاً صريحاً . فأين يذهب هؤلاء الناس ؟!

المسألة - عندنا نحن المسلمين - هي من صميم العقيدة ، ومن صميم الإيمان . فهؤلاء المتسبون للإسلام ،
المنكرون حد القطع أو الراغبون عنه - سنسألهم : أتؤمنون بالله وبأنه خلق هذا الخلق ؟ فيقولون : نعم .
أفتؤمنون بأنه أرسل رسوله محمداً بالهدى ودين الحق ، وأنزل عليه هذا القرآن من لدنه هدى للناس وإصلاحاً
لهم في دينهم ودنياهم ؟ فيقولون : نعم . أفتؤمنون بأن هذه الآية بعينها ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾
من القرآن ؟ فيقولون : نعم . أفتؤمنون بأن تشريع الله قائم ملزم للناس في كل زمان وفي كل مكان ، وفي
كل حال ؟ فيقولون نعم . إذن فأنى تصرفون؟! وعلى أى شرع تقومون ؟! أما من أجاب - بمن يتسب
للإسلام - على أى سؤال من هذه السؤالات بأن: لا ، فقد فرغنا منه وعرفنا مصيره . وقد أيقن كل مسلم ،
من عالم أو جاهل ، مثقف أو أمي - أن من يقول في شيء من هذا « لا » فقد خرج من الإسلام ، وتردى في
حماة الردة . وأما من عدا المسلمين ، ومن عدا المتسبين للإسلام ، فلن نجادلهم في هذا ، ولن نسايرهم في
الحديث عنه ، إذ لم يؤمنوا بمثل ما آمننا . ولن يرضوا عنا أبداً إلا أن نقول مثل قولهم ! عياداً بالله من ذلك .

ولو عقل هؤلاء الناس - الذين يتسبون للإسلام - لعللوا أن بضعة أيد من أيدي السارقين لو قطعت كل
عام ، لنجت البلاد من سبة اللصوص ، ولما وقع كل عام إلا بضعة سرقات ، كالشيء النادر ، ولخلت السجون
من مئات الآلاف التي تجعل السجون مدارس حقيقية للتفنن في الجرائم . لو عقلوا لفعلوا ، ولكنهم يصرون
على باطلهم ، ليرضى عنهم سادتهم ومعلموهم ! وهيئات !!

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرْ قُلُوبُهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمِعْتُمْ لِلْكَذِبِ أَكْثَلُونَ لِلْحَقِّ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحْكِمُوكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَنِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَتَشَرُّوا بَيْنَ يَدَيْهِ تَمَنَّا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾

نزلت هذه الآيات الكريمة في المسارعين في الكفر، إخراجين عن طاعة الله ورسوله، المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله، عز وجل ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَامِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ أى: أظهروا الإيمان بالسنتهم، وقلوبهم خراب خاوية منه، وهؤلاء هم المنافقون. ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أعداء الإسلام وأهله. وهؤلاء كلهم ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أى: مستجيبون له، منفعلون عنه ﴿سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أى: يستجيبون لأقوام آخرين لا يأتون مجلسك يا محمد. وقيل: المراد أنهم يتسمعون الكلام، وينهونه إلى أقوام آخرين ممن لا يحضر عندك، من أعدائك ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ أى: يتأولونه على غير تأويله، ويبدلونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾. قيل: نزلت في أقوام من اليهود، قتلوا قتيلًا، وقالوا: تعالوا حتى نتحاكم إلى محمد، فإن بالدية فاقبلوه، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه.

والصحيح أنها نزلت في اليهوديين اللذين زنيا، وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذى بأيديهم، من الأمر برجم من أحصن منهم، فحرقوه واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة، والتحميم والإركاب على حمارين مقلوبين! فلما وقعت تلك الكائنة بعد هجرة النبي ﷺ، قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه، فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه، واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك.

وقد وردت الأحاديث بذلك، فقال مالك، عن نافع، عن ابن عمر أنه قال: إن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟» فقالوا: نفضحهم ويُجلدون. قال عبد الله بن سلام: كذبتم، إن فيها الرجم. فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك. فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد، فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، فأريت الرجل يحنى على المرأة

بقيها الحجارة. أخرجاه ، وهذا لفظ البخارى (١). وفى لفظ له : « قال لليهود: ما تصنعون بهما؟ » قالوا: نُسَخِّمُ وجوههما ونُخْزِيهما. قال: ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلَوْهَا إِنَّ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩٣]. فجاءوا، فقالوا لرجل منهم ممن يرضون أعور: اقرأ، فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها فوضع يده عليه، قال: ارفع يدك. فرفع، فإذا آية الرجم تلوح، قال: يا محمد، إن فيها آية الرجم، ولكننا نتكلمه بيننا. فأمر بهما فرجما (٢). وعند مسلم: أن رسول الله ﷺ أتى يهودى ويهودية قد زنيا، فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود، فقال: «ما تجدون فى التوراة على من زنى؟» قالوا: نُسَوِّدُ وجوههما ونُحْمَلِّهما، ونخالف بين وجوههما ويطاف بهما، قال: ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلَوْهَا إِنَّ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ قال: فجاءوا بها، فقرؤوها، حتى إذا مر بآية الرجم وضع الفتى الذى يقرأ يده على آية الرجم، وقرأ ما بين يديها وما وراءها. فقال له عبد الله بن سلام - وهو مع رسول الله ﷺ : مره فليرفع يده. فرفع يده، فإذا تحتها آية الرجم. فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما. قال عبد الله بن عمر: كنت فيمن رجمهما، فلقد رأيتهما بقيهما من الحجارة بنفسه (٣).

وروى الإمام أحمد عن البراء بن عازب قال : مرَّ على رسول الله ﷺ يهودى محمَّم مجلود ، فدعاهم فقال: « أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ » فقالوا : نعم ، فدعا رجلاً من علمائهم فقال : « أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى ، أهكذا تجدون حدَّ الزانى فى كتابكم ؟ » فقال : لا ، والله ، ولولا أنك تشدتنى بهذا لم أخبرك ، نجد حد الزانى فى كتابنا الرجم ، ولكنه كثر فى أشرافنا ، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد ، فقلنا: تعالوا حتى نجعل شيئاً نقيمه على الشريف والوضيع ، فاجتمعنا على التحميم والجلد . فقال النبى ﷺ : « اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أमतوه ». قال: فأمر به فرجم ، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ أُوتِيْنَاهُ هَذَا فَخَذُوهُ﴾ يقولون: اتنوا محمداً، فإن أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، إلى قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: فى اليهود إلى قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قال: فى اليهود ، ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ قال: فى الكفار كلها . انفرد بإخراجه مسلم دون البخارى، وأبو داود، والنسائى، وابن ماجه (٤).

وقال الإمام أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدى فى مسنده: حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا مجالد ابن سعيد الهمداني، عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله قال: زنى رجل من أهل فدك،

(١) البخارى (٦ / ٤٦٣ ، ، و١٢ / ١٤٨ - ١٥٣ فتح) . وهو فى الموطأ (ص ٨١٩) .

(٢) البخارى (١٣ / ٤٣٢ فتح) . وهو من رواية أيوب عن نافع عن ابن عمر . ومن هذا الوجه رواه أحمد فى المسند (٤٤٩٨) .

(٣) مسلم (٢ / ٣٦) .

(٤) المسند (٤ / ٢٨٦ حلى) ومسلم (٢ / ٣٧) . ورواه الطبري كاملاً (١٢٠٣٤ ، ١٢٠٣٦) . ورواه ناقصاً (١١٩٢٢) ، ثم روى باقية (١١٩٣٩ ، ١٢٠٢٢) .

فكتب أهل فداك إلى ناس من اليهود بالمدينة : أن سلوا محمداً عن ذلك ؟ فإن أمركم بالجلد فخذوه عنه ! وإن أمركم بالرجم فلا تأخذوه عنه ! فسألوه عن ذلك ؟ فقال : « أرسلوا إلى أعلم رجلين فيكم ». فجاؤوا برجل أعور - يقال له : ابن سوريا - وآخر ، فقال لهما النبي ﷺ : « أتتما أعلم من قبلكما ؟ ». فقالا : قد لحانا قومنا كذلك ، فقال النبي ﷺ لهما : « أليس عندكما التوراة فيها حكم الله ؟ » قالوا : بلى ، فقال النبي ﷺ : « أنشدكم بالذي فلق البحر لبنى إسرائيل ، وظلل عليكم الغمام ، وأنجاكم من آل فرعون ، وأنزل المن والسلوى على بنى إسرائيل - ما تجدون في التوراة في شأن الرجم ؟ » فقال أحدهما للآخر : ما نُشِدْتُ بمثله قط . قالوا : نجد ترداد النظر زنية والاعتناق زنية ، والقَبْلُ زنية ، فإذا شهد أربعة أنهم رأوه يبدئ ويعيد ، كما يدخل الميل في المكحلة ، فقد وجب الرجم . فقال النبي ﷺ : « هو ذاك » . فأمر به فُرجِمَ ، فنزلت : « فَإِنْ جَاءُوكَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » . ورواه أبو داود وابن ماجه ، نحوه (١) .

فهذه أحاديث دالة على أن رسول الله ﷺ حكم بموافقة حكم التوراة ، وليس هذا من باب الإلزام لهم بما يعتقدون صحته ؛ لأنهم مأمرون باتباع الشرع المحمدي لا محالة ، ولكن هذا بوحى خاص من الله ، عز وجل ، إليه بذلك ، وسؤاله إياهم عن ذلك ليقررهم على ما بأيديهم ، مما تواطؤوا على كتمانهم وجحدته ، وعدم العمل به تلك الدهور الطويلة . فلما اعترفوا به - مع عملهم على خلافه - بأن زيغهم وعنادهم وتكذيبهم لما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم ، وعدولهم إلى تحكيم الرسول ﷺ إنما كان عن هوى منهم وشهوة لموافقة آرائهم ، لا لاعتقادهم صحة ما يحكم به . لهذا قالوا : « إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا » أى : الجلد والتحميم « فَخُذُوهُ » أى : اقبلوه « وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَأَحْذَرُوا » أى : من قبلوه واتبعاه .

قال الله تعالى : « وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرْ قُلُوبُهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ » أى : الباطل « أَكَاوُنَ لِلْسُّخْتِ » أى : الحرام ، وهو الرشوة ، كما قاله ابن مسعود وغير واحد ، أى : ومن كانت هذه صفته كيف يظهر الله قلبه ؟ وإنى يستجيب له ! ثم قال لنبية : « فَإِنْ جَاءُوكَ » أى : يتحاكمون إليك « فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً » أى : فلا عليك ألا تحكم بينهم ؛ لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق ، بل ما يوافق أهواءهم . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، والسدي ، وزيد بن أسلم ، وعطاء الخراساني : هي منسوخة

(١) مجالد بن سعيد الهمداني : حديثه حسن ، كما رجحنا في مواضع متعددة . والحديث في أبي داود (٤٤٥٢) من طريق مجالد أيضاً . ورواية أبي داود مختصرة . والتفصيل الذى فى رواية الحميدى هذه لم نجده فى غير هذا الموضع . وقول اليهوديين « قد لحانا قومنا كذلك » هكذا ثبت فى المخطوطتين واضحاً « لحانا » باللام والحاء المهملة . و « اللحو » : الشتم ، يقال : « لحا الرجل لحواً » : شتمه . فلعل الحرف استعمل هنا فى معنى أعم من ذلك ، كأنهما يقولان : قد نسب إلينا قومنا ذلك ونبزونا به ، كأنهما يقولانه تواضعاً ! وفى المطبوعة « قد دعانا قومنا لذلك » . وهو تحريف ، وما فى المخطوطتين أجود وأصح .

بقوله: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩] (١)، ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِأَلْقِطِ﴾ أى: بالحق والعدل وإن كانوا ظلمة خارجين عن طريق العدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

ثم قال تعالى - منكرًا عليهم فى آرائهم الفاسدة ومقاصدهم الزائغة، فى تركهم ما يعتقدون صحته من الكتاب الذى بأيديهم، الذى يزعمون أنهم مأمورون بالتمسك به أبداً، ثم خرجوا عن حكمه وعدلوا إلى غيره، مما يعتقدون فى نفس الأمر بطلانه وعدم لزومه لهم - فقال: ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم مدح التوراة التى أنزلها على عبده ورسوله موسى بن عمران، فقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ أى: لا يخرجون عن حكمها ولا يبدلون لها ولا يحرفونها ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ﴾ أى: وكذلك الربانيون منهم وهم العباد العلماء، والأنبياء وهم العلماء ﴿بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ أى: بما استودعوا من كتاب الله الذى أمروا أن يظهره ويعملوا به ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوْنَ النَّاسَ وَآخِشُونَ﴾ أى: لا تخافوا منهم وخافوا منى ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ فيه قولان سيأتى بيانهما.

سبب آخر فى نزول هذه الآيات الكريمات :

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : إن الله أنزل : ﴿ وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ و ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ و ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ قال ابن عباس : أنزلها الله فى الطائفتين من اليهود ، كانت إحداهما قد قهرت الأخرى فى الجاهلية ، حتى ارتضوا واصطلحوا على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقًا ، وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق ، فكانوا على ذلك حتى قدم النبى ﷺ ، فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلًا ، فأرسلت العزيزة إلى الذليلة : أن ابعثوا لنا بمائة وسق ، فقالت الذليلة : وهل كان هذا فى حين قط دينهما واحد ، ونسبهما واحد ، وبلدهما واحد - دية بعضهم نصف دية بعض ؟ إنما أعطيناكم هذا ضيماً منكم لنا ، وفرقاً منكم ، فأما إذ قدم محمد فلا نعطيكم ذلك ، فكادت الحرب تهيح بينهما ، ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله ﷺ بينهم ، ثم ذكرت العزيزة فقالت : والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم ، ولقد صدقوا ، ما أعطونا هذا إلا ضيماً منا وقهراً لهم ، فدسوا إلى محمد من يخبر لكم رأيه ، إن أعطاكم ما تريدون حكمتموه وإن لم يعطكم حذرتم فلم تحكمتموه . فدسوا إلى رسول الله ﷺ ناساً من المنافقين ليخبروا لهم رأى رسول الله ﷺ ، فلما جاؤوا رسول الله ﷺ أخبر الله رسول الله ﷺ بأمرهم كله ، وما أرادوا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ إلى قوله : ﴿ الْفَاسِقُونَ ﴾ ، ففهم - والله - أنزل ، وإياهم عنى الله ، عز وجل . ورواه أبو داود بنحوه (٢) .

(١) ستأتى الرواية عن ابن عباس فى شأن النسخ - عند تفسير الآية : (٤٨) ويأتى الكلام فى ذلك ، إن شاء الله .
(٢) المسند (٢٢١٢) . وإسناده صحيح . وهو فى مجمع الزوائد (٧ / ١٥ ، ١٦) وقال : « رواه أحمد والطبرى بنحوه . وفيه عبد الرحمن بن أبى الزناد ، وهو ضعيف ، وقد وثق ، وبقية رجاله ثقات » . وقال أيضاً : « روى أبو داود بعضه » .

وروى ابن جرير عن ابن عباس؛ أن الآيات في «المائدة»، قوله: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ إلى: ﴿الْمُقْسِطِينَ﴾، إنما أنزلت في الدية في بنى النضير وبنى قريظة، وذلك أن قتلى بنى النضير، كان لهم شرف، تُودى الدية كاملة، وأن قريظة كانوا يُودون نصف الدية فتحاكموا في ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله ذلك فيهم، فحملهم رسول الله ﷺ على الحق في ذلك، فجعل الدية في ذلك سواء - والله أعلم أى ذلك كان . ورواه أحمد، وأبو داود، والنسائي بنحوه (١) . ثم روى ابن جرير عن ابن عباس قال: كانت قريظة والنضير ، وكانت النضير أشرف من قريظة، فكان إذا قتل رجل من قريظة رجلاً من النضير قتل به، وإذا قتل النضيرى رجلاً من قريظة، وُدَى مائة وسق تمر. فلما بعث رسول الله ﷺ ، قتل رجلاً من قريظة، فقالوا: ادفعهو إليه ، فقالوا: بيننا وبينكم رسول الله ﷺ. فنزلت: ﴿وَأَنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾. ورواه أبو داود والنسائي، وابن حبان، والحاكم بنحوه (٢) . وهكذا قال قتادة، ومقاتل ابن حيان، وابن زيد وغير واحد. وقد روى عن ابن عباس: أن هذه الآيات نزلت في اليهوديين اللذين زنيا، كما تقدمت الأحاديث بذلك. وقد يكون اجتماع هذان السببان في وقت واحد، فنزلت هذه الآية في ذلك كله، والله أعلم.

ولهذا قال بعد ذلك: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ إلى آخرها، وهذا يقوى أن سبب النزول قضية القصاص، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾: قال البراء بن عازب، وحذيفة بن اليمان، وابن عباس، والحسن البصرى، وغيرهم: نزلت في أهل الكتاب - زاد الحسن البصرى: وهى علينا واجبة. وروى ابن جرير عن علقمة ومسروق: أنهما سألا ابن مسعود عن الرشوة؟ فقال: من السُّحْتِ: قال: فقالا: وفي الحكم؟ قال: ذاك الكفر! ثم تلا: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾. وقال السُّدِّى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ يقول: ومن لم يحكم بما أنزلت ، فتركه عمداً ، أو جار وهو يعلم، فهو من الكافرين. وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: من جحد ما أنزل الله فقد كفر. ومن أقر به فهو ظالم فاسق . رواه ابن جرير. ثم اختار أن الآية المراد بها أهل الكتاب، أو من جحد حكم الله المنزل في الكتاب.

وروى ابن جرير عن الشعبي: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: هذا في المسلمين، ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قال: هذا في اليهود، ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ قال: هذا في النصارى . وروى عبد الرزاق عن ابن طاوس ، عن

(١) الطبرى (١١٩٧٤) من طريق ابن إسحاق . والمسند (٣٤٣٤) وأبو داود (٣٥٩١) من طريقه أيضا . وهو فى سيرة ابن هشام (ص ٣٩٥ ، ٣٩٦) طبعة أوربة . وفيها أن قوله : « والله أعلم أى ذلك كان » - من كلام ابن إسحاق .

(٢) الطبرى (١١٩٧٥) وأبو داود (٤٤٩٤) .

أبيه قال: سئل ابن عباس عن قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ﴾ الآية قال: هي به كفر. قال ابن طاوس: وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله. وقال عطاء: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق. رواه ابن جرير. وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: ليس بالكفر الذى يذهبون إليه. ورواه الحاكم فى مستدركه، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (١).

(١) الحاكم (٢ / ٣١٣)، ولفظه: «إنه ليس بالكفر الذى يذهبون إليه، إنه ليس كفراً ينقل عن الملة ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ - كفر دون كفر». ووافقه الذهبي على تصحيحه.

وهذه الآثار - عن ابن عباس وغيره - مما يلعب به المضللون فى عصرنا هذا، من المتسبين للعلم، ومن غيرهم من الجراء على الدين: يجعلونها عذراً أو إباحية للقوانين الوثنية الموضوعه، التى ضربت على بلاد الإسلام.

وهناك أثر عن أبى مجلز، فى جدال الإباضية الخوارج إياه، فيما كان يصنع بعض الأمراء من الجور، فيحكمون فى بعض قضائهم بما يخالف الشريعة، عمداً إلى الهوى، أو جهلاً بالحكم. والخوارج، من مذهبهم أن مرتكب الكبيرة كافرة، فهم يجادلون يريدون من أبى مجلز أن يوافقهم على ما يرون من كفر هؤلاء الأمراء، ليكون ذلك عذراً لهم فيما يرون من الخروج عليهم بالسيف. وهذا الأثران رواهما الطبرى (١٢٠٢٥)، وكتب عليهما أخى السيد محمود محمد شاكر تعليقا نفيسا جدا، قويا صريحا. فرأيت أن أثبت هنا نص أولى روايتى الطبرى، ثم تعليق أخى على الروائيتين.

فروى الطبرى (١٢٠٢٥) عن عمران بن حدير، قال: «أتى أبى مجلز ناساً من بنى عمرو بن سدوس، فقالوا: يا أبى مجلز، أرايت قول الله ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أحق هو؟ قال: نعم، قالوا: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أحق هو؟ قال: نعم، قالوا: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أحق هو؟ قال: نعم، قال: فقالوا: يا أبى مجلز، فيحكم هؤلاء بما أنزل الله؟ قال: هو دينهم الذى يدينون به، وبه يقولون، وإليه يدعون، فإن هم تركوا شيئاً منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنباً، فقالوا: لا والله، ولكنتك تفرق! قال: أنتم أولى بهذا منى! لا أرى، وإنكم ترون هذا ولا تحرجون! ولكنها أنزلت فى اليهود والنصارى وأهل الشرك، أو نحواً من هذا».

ثم روى الطبرى (١٢٠٢٦) نحو معناه. وإسناده صحيحان. فكتب أخى السيد محمود، بمناسبة هذين الاثرين ما نصه:

«اللهم إنى أبرأ إليك من الضلالة. وبعد، فإن أهل الربب والفتن ممن تصدوا للكلام فى زماننا هذا، قد تلمس المعذرة لأهل السلطان فى ترك الحكم بما أنزل الله، وفى القضاء فى الدماء والأعراض والأموال بغير شريعة الله التى أنزلها فى كتابه، وفى اتخاذهم قانون أهل الكفر شريعة فى بلاد الإسلام. فلما وقف على هذه الخبرين، اتخذهما رأياً يرى به صواب القضاء فى الأموال والأعراض والدماء بغير ما أنزل الله، وأن مخالفة شريعة الله فى القضاء العام لا تكفر الراضى بها، والعامل عليها.

والناظر فى هذين الخبرين لا محيص له عن معرفة السائل والمسؤول، فأبو مجلز (لاحق بن حميد الشيباني الدوسى) تابعى ثقة، وكان يحب علياً عليه السلام. وكان قوم أبى مجلز، وهم بنو شيبان، من شيعة على يوم الجمل وصفين. فلما كان أمر الحكمين يوم صفين، واعتزلت الخوارج، كان فيمن خرج على عليه السلام، طائفة من بنى شيبان، ومن بنى سدوس ابن شيبان بن ذهل. وهؤلاء الذين سألوا أبى مجلز، ناس من بنى عمرو بن سدوس (كما فى الأثر: ١٢٠٢٥)، وهم نفر من الإباضية (كما فى الأثر: ١٢٠٢٦)، والإباضية من جماعة الخوارج الحزبية، هم أصحاب عبد الله بن أباض التميمي، وهم يقولون بمقالة سائر =

﴿وَكُتِبَ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَاللِّسْنَ بِاللِّسَنِ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

= الخوارج في التحكيم ، وفي تكفير على رؤسهم إذ حكم الحكّمين ، وأن علياً لم يحكم بما أنزل الله ، في أمر التحكيم . ثم إن عبد الله بن إياض قال : إن من خالف الخوارج كافر ليس بمشرك ، فخالف أصحابه ، وأقام الخوارج على أنه أحكام المشركين تحري على من خالفهم .

ثم اختلفت الإباضية بعد عبد الله بن إياض الإمام افتراضاً لا ندرى معه في أمر هذين الخبرين - من أي الفرق كان هؤلاء السائلون ، بيد أن الإباضية كلها تقول : إن دور مخالفتهم دور توحيد ، إلا معسكر السلطان فإنه دار كفر عندهم . ثم قالوا أيضاً : إن جميع ما افترض الله سبحانه على خلقه إيمان ، وأن كل كبيرة فهي كفر نعمة ، لا كفر شرك ، وأن مرتكبي الكبائر في النار خالدون مخلدون فيها .

ومن البين أن الذين سألوا أبا مجلز من الإباضية ، إنما كانوا يريدون أن يلزمهم الحجة في تكفير الأمراء ، لأنهم في معسكر السلطان ، ولأنهم ربما عصوا أو ارتكبوا بعض ما نهاهم الله عن ارتكابه . ولذلك قال لهم في الخبر الأول (رقم : ١٢٠٢٥) : « فإن هم تركوا شيئاً منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنباً » ، وقال لهم في الخبر الثاني : « إنهم يعملون بما يعملون ويعلمون أنه ذنب » .

ولئن ، فلم يكن سؤالهم عما احتج به مبتدعة زماننا ، من القضاء في الأموال والأعراض والدماء بقانون مخالف لشريعة أهل الإسلام ، ولا في إصدار قانون ملزم لأهل الإسلام ، بالاحتكام إلى حكم غير الله في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ . فهذا الفعل إعراض عن حكم الله ، ورغبته عن دينه ، وإيثار لأحكام أهل الكفر على حكم الله سبحانه وتعالى ، وهذا كفر لا يشك أحد من أهل القبلة على اختلافهم في تكفير القاتل به والداعي إليه .

والذي نحن فيه اليوم ، هو هجر لأحكام الله عامة بلا استثناء ، وإيثار أحكام غير حكمه في كتابه وسنة نبيه ، وتعطيل لكل ما في شريعة الله ، بل بلغ الأمر مبلغ الاحتجاج على تفضيل أحكام القانون الموضوع ، على أحكام الله المنزلة ، وإدعاء المحتجين لذلك بأن أحكام الشريعة إنما نزلت لزمان غير زماننا ، ولعلل وأسباب انقضت ، فسقطت الأحكام كلها بانقضائها . فإين هذا مما بيناه من حديث أبي مجلز والنفر من الإباضية من بنى عمرو بن سدوس !!

ولو كان الأمر على ما ظنوا في خبر أبي مجلز ، أنهم أرادوا مخالفة السلطان في حكم من أحكام الشريعة . فإنه لم يحدث في تاريخ الإسلام أن سن حاكم حكماً وجعله شريعة ملزمة للقضاء بها . هذه واحدة . وأخرى ، أن الحاكم الذي حكم في قضية بعينها بغير حكم الله فيها ، فإنه إما أن يكون حكم بها وهو جاهل ، فهذا أمر الجاهل بالشريعة . وإما أن يكون حكم بها هوى ومعصية ، فهذا ذنب تناله التوبة ، وتلحقه المغفرة . وإما أن يكون حكم به متأولاً حكماً خالف به سائر العلماء فهذا حكمه حكم كل متأول يستمد تأويله من الإقرار بنص الكتاب ، وسنة رسول الله .

وأما أن يكون كان في زمن أبي مجلز أو قبله أو بعده حاكم حكم بقضاء في أمر ، جاحداً لحكم من أحكام الشريعة ، أو مؤثراً لأحكام أهل الكفر على أحكام أهل الإسلام ، فذلك لم يكن قط . فلا يمكن صرف كلام أبي مجلز والإباضيين إليه . فمن احتج بهذه الأثرين وغيرهما في غير بابها ، وصرفها إلى غير معناها ، رغبة في نصرة سلطان ، أو احتيالا على تسويق الحكم بغير ما أنزل الله وفرض على عباده ، فحكمه في الشريعة حكم الجاحد لحكم من أحكام الله : أن يستتاب ، فإن أصر وكابر وجحد حكم الله ، ورضى بتبديل الأحكام فحكم الكافر المصر على كفره معروف لأهل هذا الدين . وكتبه محمود محمد شاكر .

وهذا أيضاً مما وُيِّحَتْ به اليهود وقُرِّعوا عليه، فإن عندهم فى نص التوراة: أن النفس بالنفس. وهم يخالفون حكم ذلك عمداً وعناداً، ويُقيدون النضرى من القرطى، ولا يُقيدون القرطى من النضرى، بل يعدلون إلى الدية ! كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم فى رجم الزانى المحصن، وعدلوا إلى ما اصطَلَحُوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار ! ولهذا قال هناك: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ لأنهم جحدوا حكم الله قصداً منهم وعناداً وعمداً، وقال ههنا: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم فى الأمر الذى أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه، فخالفوا وظلموا، وتعدوا على بعضهم على بعضنا . وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ قرأها: ﴿وَكُتِبَ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ﴾ نصب « النفس » ورفع « العين » . وكذا رواه أبو داود، والترمذى، وقال الترمذى: حسن غريب . وقال البخارى: تفرد ابن المبارك بهذا الحديث (١) .

وقد استدل كثير ممن ذهب من الأصوليين والفقهاء إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا، إذا حكى مقررأ ولم ينسخ، كما هو المشهور عن الجمهور، وكما حكاه الشيخ أبو إسحاق الاسفراينى عن نص الشافعى وأكثر الأصحاب - بهذه الآية، حيث كان الحكم عندنا على وفقها فى الجنائيات عند جميع الأئمة. وقال الحسن البصرى: هى عليهم وعلى الناس عامة. رواه ابن أبى حاتم. وقد حكى الإمام أبو نصر بن الصباغ فى كتابه «الشامل» إجماع العلماء على الاحتجاج بهذه الآية على ما دلت عليه، وقد احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يقتل بالمرأة بعموم هذه الآية الكريمة، وكذا ورد فى الحديث الذى رواه النسائى وغيره: أن رسول الله ﷺ كتب فى كتاب عمرو بن حزم: «أن الرجل يقتل بالمرأة» وفى الحديث الآخر: «المسلمون تتكافأ دماؤهم»، وهذا قول جمهور العلماء . وكذا احتج أبو حنيفة بعموم هذه الآية على أنه يقتل المسلم بالكافر، وعلى قتل الحر بالعبد، وقد خالفه الجمهور فيهما، ففى الصحيحين عن على قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقتل مسلم بكافر» ، وأما العبد ففيه عن السلف آثار متعددة: أنهم لم يكونوا يُقيدون العبد من الحر، ولا يقتلون حراً بعبد، وجاء فى ذلك أحاديث لا تصح، وحكى الشافعى الإجماع على خلاف قول الحنفية فى ذلك، ولكن لا يلزم من ذلك بطلان قولهم إلا بدليل مخصص للآية الكريمة.

ويؤيد ما قاله ابن الصباغ من الاحتجاج بهذه الآية الكريمة - الحديث الثابت فى ذلك، كما روى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك: أن الربيع عمّة أنس كسرت ثِيَّةً جارية، فطلبوا إلى

(١) المسند (١٣٢٨٢) والترمذى (٥٨ / ٤) وأبو داود (٣٩٧٦، ٣٩٧٧) والحاكم (٢ / ٢٣٦) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» . ووافقه الذهبى . وأشار إليه البخارى فى الكنى، رقم (٤٥٥) وابن أبى حاتم (٤٠٩ / ٢ / ٤) .

والقراءة برفع « العين » ثم رفع ما بعدها - قراءة الكسائى . وقرأ أبو عمرو وابن كثير وابن عامر بنصب « والعين » وما بعدها، ما عدا « والجروح » فقرؤها بالرفع . وقرأ باقى السبعة بنصب الجميع « والعين » ... « والجروح » .

القوم العفو ، فأبوا ، فأتوا رسول الله ﷺ فقال : « القصاص » . فقال أخوها أنس بن النضر : يا رسول الله ، تكسر ثنية فلانة ؟! فقال رسول الله ﷺ : « يا أنس ، كتاب الله القصاص » . قال : فقال : لا ، والذي بعثك بالحق ، لا تكسر ثنية فلانة . قال : فرضى القوم ، فعفوا وتركوا القصاص ، فقال رسول الله ﷺ : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » . أخرجاه فى الصحيحين . وروى أبو داود عن عمران ابن حصين ، أن غلاماً لأناس فقراء قطع أذن غلام لأناس أغنياء ، فأتى أهله النبى ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، إنا أناس فقراء ، فلم يجعل عليه شيئاً . وكذا رواه النسائى . وإسناده قوى ، رجاله كلهم ثقات . وهو حديث مشكل ، اللهم إلا أن يقال : إن الجانى كان قبل البلوغ ، فلا قصاص عليه ، ولعله تحمل أرضاً ما نقص من غلام الأغنياء عن الفقراء ، أو استعفاهم عنه .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ ﴾ قال ابن عباس : تقتل النفس بالنفس ، وتفقأ العين بالعين ، ويقطع الأنف بالأنف ، وتترع السن بالسن ، وتقتص الجراح بالجراح . فهذا يستوى فيه أحرار المسلمين فيما بينهم ، رجالهم ونساؤهم ، إذا كان عمداً فى النفس وما دون النفس ، ويستوى فيه العبيد رجالهم ونساؤهم فيما بينهم إذا كان عمداً ، فى النفس وما دون النفس . رواه ابن جرير وابن أبى حاتم (١) .

وقوله : ﴿ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾ قال ابن عباس : يقول : فمن عفا عنه ، وتصدق عليه فهو كفارة للمطلوب ، وأجر للطالب . وقال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : فمن تصدق به فهو كفارة للجراح ، وأجر المجروح على الله ، عز وجل . رواه ابن أبى حاتم ، ثم قال : وروى عن خيثمة بن عبد الرحمن ، ومجاهد ، وإبراهيم - فى أحد قوليه - الشعبي ، وجابر بن زيد - نحو ذلك . وروى ابن أبى حاتم عن الهيثم أبى العريان النخعى ، قال : رأيت عبد الله بن عمرو عند معاوية أحمر شبيهاً بالموالى ، فسألته عن قول الله : ﴿ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾ قال : يهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدق به . ورواه ابن جرير (٢) . ثم روى ابن جرير عن أبى السَّفَر ، قال : دفع رجل من قريش رجلاً من الأنصار ، فاندقت ثنيته ، فرفعه الأنصارى إلى معاوية ، فلما ألح عليه الرجل قال : شأنك وصاحبك . قال : وأبو الدرداء عند معاوية ، فقال أبو الدرداء : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من مسلم يصاب بشيء فى جسده ، فيهبه ، إلا رفعه الله به درجة ،

(١) هذا التشريع الثابت بنص القرآن الكريم - الذى أخبرنا الله سبحانه فى هذه الآيات أنه ثابت فى التوراة - جعله الإفرنج الكفرة الفجرة مما يتندرون به فى أقوالهم وكتاباتهم ، يسمونه « شريعة الغاب » !! عن كفرهم بالأديان ، وإنكارهم للشرائع السماوية . حتى سارت هذه الكلمة المنكرة مثلاً . ثم يقلدهم الملحدون من المنتسبين للإسلام ، والجاهلون من المسلمين ، لا يدرون أنهم بذلك طعنوا فى التشريع الإلهى الثابت فى الأديان الثلاثة السماوية ! فليحذر المسلمون مواطن الزلق ، وليصنوا ألسنتهم وأقلامهم . أما الملحدون فهم الملحدون .

(٢) الطبرى (١٢٠٧٣ - ١٢٠٧٥) . وأسانيده - عندهما - صحاح . و « الهيثم أبى العريان » : هو « الهيثم بن الأسود » كنيته « أبو العريان » . وهو ثقة من خيار التابعين . ووقع فى الأصول المخطوطة والمطبوعة هنا : « الهيثم ابن العريان » . وهو تحريف من الناسخين .

وخط عنه به خطيئة». فقال الأنصارى: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ فقال: سمعته أذنأى ووعاه قلبي، فخلى سبيل القرشى، فقال معاوية: مروا له بما. ورواه الإمام أحمد عن أبي السفر، قال: كسر رجل من قریش سن رجل من الأنصار، فاستعدى عليه معاوية، فقال معاوية: إن ابن سريته. فالح الأنصارى، فقال معاوية: شأنك بصاحبك، وأبو الدرداء جالس، فقال أبو الدرداء سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يصاب بشيء من جسده، فيتصدق به، إلا رفعه الله به درجة أو خط عنه خطيئة». فقال الأنصارى: قد عفوت. وهكذا رواه الترمذى وابن ماجه. ثم قال الترمذى: غريب هذا الوجه، ولا أعرف لأبى السفر سمعاً من أبى الدرداء (١). وروى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل يجرح من جسده جراحة، فيتصدق بها، إلا كفر الله عنه مثل ما تصدق به». ورواه النسائى وابن جرير (٢). وروى الإمام أحمد عن المحرر بن أبى هريرة، عن رجل من أصحاب النبى ﷺ قال: «من أصيب بشيء من جسده، فتركه لله، كان كفارة له» (٣).

وقوله: «وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»، قد تقدم عن طاوس وعطاء أنهما قالا: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآيَنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أى: أتبعنا ﴿عَلَىٰ آثَرِهِمْ﴾ يعنى: أنبياء بنى إسرائيل ﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أى: مؤمناً بها حاكماً بما فيها ﴿وَأَيَّاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ أى: هدى إلى الحق، ونور يستضاء به فى إزالة الشبهات وحل المشكلات ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أى: متبعاً لها، غير مخالف لما فيها، إلا فى القليل مما بين لبنى إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه، كما قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبنى إسرائيل: ﴿وَلَا أُخِلْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]؛ ولهذا كان المشهور من قول العلماء: أن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة. وقوله تعالى: ﴿وَهُدًى﴾ أى: وجعلنا الإنجيل هدى يهتدى به ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ أى: زاجراً عن ارتكاب المحارم والمآثم ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أى: لمن اتقى الله وخاف وعيده وعقابه.

(١) رواية الطبرى فى التفسير (١٢٠٨٠). ورواية الإمام أحمد فى المسند (٦ / ٤٤٨ حلى). وهو فى الترمذى (٣٠٥ / ٢) وابن ماجه (٢٦٩٣)، وروايته مختصرة. و «أبو السفر»: بفتح السين والفاء. وروايته عن أبى الدرداء مرسله؛ لأنه مات سنة ١١٢ أو ١١٣. وأبو الدرداء مات سنة ٣٢.

(٢) المسند (٥ / ٣١٦ حلى) والطبرى (١٢٠٨١). وإسنادهما صحيحان.

(٣) إسناده حسن. وظاهر اللفظ هنا أنه موقف على الصحابى. وأخشى أن يكون سهواً من الناسخين؛ لأن الإمام أحمد لا يروى الموقوفات فى المسند إلا أن تكون تبعاً لحديث مرفوع. ثم لم أستطع معرفة موضعه فى المسند.

وقوله: ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾، قرئ: ﴿وَلِيَحْكُمَ﴾ بالنصب على أن اللام لام كى، أى: وآتيناه الإنجيل ليحكم أهل ملته به فى زمانهم. وقرئ: ﴿وَلِيَحْكُمَ﴾ بالجزم على أن اللام لام الأمر، أى: ليؤمنوا بجميع ما فيه، وليقيموا ما أمروا به فيه، وبما فيه البشارة ببعثة محمد والأمر باتباعه وتصديقه إذا وجد، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ إلى قوله: ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ [الاعراف: ١٥٧]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أى: الخارجون عن طاعة ربهم، المائلون إلى الباطل، التاركون للحق. وقد تقدم أن هذه الآية نزلت فى النصارى، وهو ظاهر من السياق.

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَقُوا أَلْحَادًا إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنْزِلُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَن أَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّهُ يَرْبُدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ دُورِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

لما ذكر تعالى التوراة التى أنزلها الله على موسى كلمه ، ومدحها وأثنى عليها، وأمر باتباعها حيث كانت سائغة الاتباع، وذكر الإنجيل ومدحه، وأمر أهله بإقامته واتباع ما فيه، كما تقدم بيانه - شرع تعالى فى ذكر القرآن العظيم، الذى أنزله على عبده ورسوله الكريم، فقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أى: بالصدق الذى لا ريب فيه أنه من عند الله ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أى: من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه، وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فكان نزوله كما أخبر به، مما زادها صدقاً عند حاملها من ذوى البصائر، الذين انتقادوا لأمر الله واتباعوا شرائع الله، وصدقوا رسل الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] أى: إن كان ما وعدنا الله على ألسنة الرسل المتقدمين، من مجيء محمد، عليه السلام ﴿لَمَفْعُولًا﴾ أى: لكائنًا لا محالة ولا بد .

وقوله: ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ قال ابن عباس، أى: مؤتمناً عليه. وقال: القرآن أمين على كل كتاب قبله . وروى عن عكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وغيرهم نحو ذلك. وقال ابن جرير: القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله ، فما وافقه منها فهو حق، وما خالفه منها فهو باطل . وعن ابن عباس: أى: حاكماً على ما قبله من الكتب. وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى، فإن اسم «المهيمن» يتضمن هذا كله، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا

الكتاب العظيم، الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها - أشملها وأعظمها وأكملها ، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره ؛ فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها . وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة ، فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] . فأما ما حكاه ابن أبي حاتم، عن عكرمة، وسعيد بن جبير ، وغيرهما أنهم قالوا في قوله: ﴿ وَمُهَيِّمِنَا عَلَيْهِ ﴾ يعني: محمداً ﷺ أمين على القرآن - فإنه صحيح في المعنى، ولكن في تفسير هذا بهذا نظراً، وفي تنزيله عليه من حيث العربية أيضاً نظراً . وبالجملية فالصحيح الأول، وقال أبو جعفر بن جرير، بعد حكايته له عن مجاهد: وهذا التأويل بعيد من المفهوم في كلام العرب، بل هو خطأ، وذلك أن «المهيمن» عطف على «المصدق»، فلا يكون إلا صفة لما كان «المصدق» صفة له . ولو كان كما قال مجاهد لقال: «وانزلنا إليك الكتاب مُصدقا لما بين يديه من الكتاب مهيمنا عليه» . يعني من غير عطف (١) .

وقوله: ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ أى: فاحكم - يا محمد - بين الناس: عربهم وعجمهم، أميهم وكتابيهم بما أنزل الله إليك هذا الكتاب العظيم، وبما قرره لك مَنْ حَكَمَ من كان قبلك من الأنبياء ولم ينسخه في شرعك . هكذا وجهه ابن جرير بمعناه . وروى ابن أبي حاتم من طريق سفيان بن حسين، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ مخيراً، إن شاء حكم بينهم، وإن شاء أعرض عنهم . فردهم إلى أحكامهم، فنزلت: ﴿ وَأَنْ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ فامر رسول الله ﷺ أن يحكم بينهم بما في كتابنا (٢) .

(١) انظر : تفسير الطبرى (١٠ / ٣٨٠ - ٣٨٢) .

(٢) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث عن ابن عباس ، ضمن الحكاية عن القائلين بالنسخ مضت عند تفسير الآية : (١٧١) من سورة النساء .

هذا الحديث إسناده عند ابن أبي حاتم إسناده صحيح . ورواه الحاكم (٢ / ٣١٢) من هذا الوجه بنحو معناه ، مختصراً ، وقال : « صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه » . ووافقه الذهبي . ورواه الطبرى (١١٩٩٦) بنحوه ، بأطول من رواية الحاكم . فرواه بالإسناد الذى رواه به ابن أبي حاتم ، ولكن قصر به ، فجعله من كلام مجاهد ! فلا أدري : أهو تفسير من الطبرى فى الإسناد ؟ أم سقط من الناسخين قوله : « عن ابن عباس ؟ » وهذا الذى أكاد أرجحه .

وقد رواه أبو جعفر النحاس فى كتاب النسخ والنسخ (ص ١٣٩) ، والبيهقى فى السنن الكبرى (٨ / ٢٤٨) ، (٢٤٩) كلاهما من هذا الوجه ، من طريق سفيان بن حسين ، بهذا الإسناد ، مطولا . ولفظه : « عن ابن عباس ، قال : نسخت من هذه السورة - معنى المائدة - آيات: آية القلائد ، وقوله : ﴿ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ [المائدة : ٤٢] ، فكان رسول الله ﷺ مخيراً . إن شاء حكم وإن شاء أعرض عنهم فردهم إلى أحكامهم ، فنزلت : ﴿ وَأَنْ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ [المائدة : ٤٩] فامر النبي ﷺ أن يحكم بينهم بما فى كتابنا » .

وهذه الرواية هى أوفى الروايات لهذا الحديث . وكذلك نقله السيوطى فى الدر المنثور (٢ / ٢٨٤) بهذا اللفظ المطول ، ونسبه لابن أبي حاتم والنحاس فى ناسخه والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى سننه . ومن الواضح أنه يريد أصل الحديث ، وإلا فبعض هؤلاء رواه مختصراً ، كما فى روايتى ابن أبي حاتم والحاكم . وذكره الجصاص فى أحكام القرآن (٢ / ٤٣٤ ، ٤٣٥) معلقاً ، بنحو روايتى النحاس والبيهقى . =

وقوله : ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أى : آراءهم التى اصططلحوا عليها ، وتركوا بسببها ما أنزل الله

= ثم قال النحاس - بعد رواية الحديث - : « وهذا إسناد مستقيم . وأهل الحديث يدخلونه فى المستند . وهو مع قول جماعة من العلماء » . ثم روى نحو هذا بإسناد آخر عن مجاهد ، ثم قال : « فهذا أيضا إسناد صحيح . والقول بأنهما منسوخة قول عكرمة والزهرى وعمر بن عبد العزيز والسدى . وهو الصحيح من قول الشافعى . قال فى كتاب الجزية : ولا خيار له إذا تحاكموا إليه ، لقوله تعالى : ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة : ٢٩] . وهذا من أصح الاحتجاجات ، لأنه إذا كان معنى ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أن تجرى عليهم أحكام المسلمين - وجب أن لا يردوا إلى أحكامهم ، فإذا وجب هذا فالآية منسوخة » .

ونقل البيهقى فى السنن الكبرى (٢٤٨ / ٨) عن الشافعى أنه « نص فى كتاب الجزية على أن ليس للإمام الخيار فى أحد من المعاهدين الذين يجرى عليهم الحكم إذا جاؤوه فى حد الله ، وعليه أن يقيمه . واحتج بقول الله عز وجل : ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة : ٢٩] . قال : فكان الصغار - والله أعلم - أن يجرى عليهم حكم الإسلام » .

وقد رد القاضى أبو بكر بن العربى فى أحكام القرآن (٢٦١ / ١) قول من ذهب إلى النسخ ، فقال : « وهذه دعوى عريضة ! فإن شروط النسخ أربعة ، منها : معرفة التاريخ بتحصيل المتقدم والمتأخر ، وهذا مجهول من هاتين الآيتين ، فامتنع أن يدعى أن واحدة منهما ناسخة للأخرى ، وبقي الأمر على حاله !! » وهذا كلام ملقى على عواهنه ، غير محرر .

فإن سياق الآيات ، من أول قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ لَا يَعَزُّوكُمُ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ الآية (٤١) ، إلى آخر هذه الآيات فى الآية (٥٠) - يدل على أنه سياق واحد نزل دفعة واحدة غير منجم . ويزيده تأييدا وتوكيدا ، حديث أسماء بنت يزيد ، الذى مضى فى أول سورة المائدة الذى فيه : « إذ نزلت عليه المائدة كلها » . وكذلك حديث عبد الله بن عمرو ، المذكور عقبه هناك ، بما يدل فى ظاهره على نزول « سورة المائدة » ، من غير بيان أن بعضها تأخر نزوله عن سائرهما .

وقد رد الجصاص (٢ : ٤٣٥) برد آخر طريف ! بأنه « لم يقل من أثبت التخيير أن آية التخيير نزلت بعد قوله : ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة : ٤٩] وأن التخيير نسخة » . يريد بذلك أن يعقد تعاضدا بين الآيتين ، وأن لا بد أن إحدهما ناسخة ، وأنه لم يقل أحد أن آية التخيير - وهى المقدمة فى التلاوة - متأخرة النزول عن هذه الآية ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم﴾ حتى يكون التخيير ناسخا لها . فكان من الضروري أن الآية التالية فى التلاوة ناسخة للتخيير الذى فى الآية قبلها .

وأما الطبرى ، فإنه أبى القول بالنسخ ، مستندا إلى القاعدة الأصولية الصحيحة : أنه لا يصار إلى القول بالنسخ إذا تعارضت الآيتان تعاضدا تاما بحيث لا يمكن الجمع بينهما . ولكنه حين أراد أن يجمع بينهما أخطأ طريق الجمع ، فتأول الآية الثانية بما يجعلها غير مقررة حكما جديدا ! بأن جعل معناها : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله إذا حكمت منهم باختيارك الحكم بينهم ، إذا اخترت ذلك ، ولم تختار الإعراض عنهم » . انظر تفسير الطبرى (١٠ / ٣٣٣ - ٣٣٤) .

ومن المفهوم بداهة : أن هذا الجمع يكاد يجعل الأمر بالحكم بينهم فى الآيتين (٤٨ ، ٤٩) تكرارا فقط لما مضى فى الآية (٤٢) ، آية التخيير ! لأن نصها : ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ . ثم جاءت الآية (٤٨) : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ - إلى آخر الآية . ثم جاءت بعدها الآية (٤٩) مؤكدة لحكمها ، مثبته لمعناها : ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة : ٤٩] .

فسياق الآيات الثلاث واضح جدا ، وصريح فى أن الحكم فى الآيتين الأخيرتين غير الحكم فى الآية (٤٣) ، =

على رسوله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أى: لا تنصرف عن الحق

= وإنه حكم جديد. مؤكداً. مثبت المعنى فى آيتين متاليتين. فجمله فيها على معنى الآية (٤٣) بأن حكمها هذا إنما هو فى أحد حالى التخيير فقط. - غير سديد، ولا هو بمستقيم.

والوجه الصحيح فى فهم هذه الآيات والجمع بينها، وفى فهم حديث ابن عباس بالنسخ: أن آية التخيير إنما هى فى القوم الذين جاؤوا إلى رسول الله ﷺ يحكمونه بينهم. فى شأن الزانين وفى شأن الديات، وهم قوم من يهود، لم يكونوا ذميين ولا معاهدين، أعنى: أنهم لم يكونوا فى سلطان الدولة الإسلامية ولا خاضعين لأحكامها. بل قدموا إلى الحاكم الأعلى فى الدولة الإسلامية يجعلونه حكماً بينهم فى بعض شأنهم، وكانوا مستطيعين أن يحكموا بأنفسهم فى شأنهم بحكم دينهم أو بأهوائهم، كعادتهم فى سائر ما يعرض لديهم من الأقضية. فإذا جاؤوا إلى رسول الله ﷺ يحكمونه على بعض ما عرض لهم، أغلنه الله سبحانه أن له الخيار أن يحكم بينهم فيما حكموه فيه أو أن يعرض عنهم، وأمره فى الآية نفسها أنه إذا أراد أن يحكم بينهم واختار ذلك - أن يحكم فيهم بالعدل. ويوضح ذلك وبينه كالشمس: أنه قال له فى الآية التى تتلو آية التخيير: ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣]. فحددت هذه الآية معنى حكم التخيير، وأنه فى قوم لجؤوا إليه وجاؤوا يجعلونه حكماً بينهم، ليس فى قوم هم رعية له خاضعون لحكمه وسلطانه. ثم جاءت الآيات الأخرى بأن حكم جديد: بأمره أن يحكم فى رعيته من أهل الكتاب ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٤] وألا يتبع أهواءهم. فليس لهم حق أن يتحاكموا إلى أهل ملتهم، وليس لهم على المسلمين امتياز ألا يخضعوا لحكم الدولة التى هم خاضعون لأحكامها، والتى يعطون فيها الجزية عن زبد وهم صاغرون.

وإلى هذا المعنى الدقيق يشير كلام الشافعى فى الأم، بل يكاد يكون صريحاً. فقد قال فى الجزء (٤ / ١٢٩، ١٣٠): «لم أعلم مخالفاً من أهل العلم بالسيرة أن رسول الله ﷺ لما نزل بالمدينة وادع يهود كافة على غير جزية، وأن قول الله عز وجل: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: ٤٢]، إنما نزلت فى اليهود المواعين الذين لم يعطوا جزية، ولم يقرروا بأن يجرى عليهم الحكم. وقال بعض: نزلت فى اليهوديين اللذين زنيا. قال الشافعى: والذى قالوا يشبه ما قالوا، لقول الله عز وجل: ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣]، وقوله: ﴿وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتَوْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]. يعنى - والله أعلم - : إن تولوا عن حكمك بغير رضاهم. وهذا يشبه أن يكون ممن أتى حاكماً غير مقهور على الحكم. والذين حاكموا إلى رسول الله ﷺ - فى امرأة منهم ورجل زنيا - موادعون. وكان فى التوراة الرجم، فجاؤوا بهما فرجمهما رسول الله ﷺ، قال: وإذا وادع الإمام قوماً من أهل الشرك ولم يشترط أن يجرى عليهم الحكم، ثم جاؤوا متحاكمين، فهو بالخيار بين أن يحكم بينهم أو يدع الحكم. فإن اختار أن يحكم بينهم حكم بينهم حكمة من المسلمين، لقول الله ﷻ: ﴿وَأَنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٤٢]. والقسط: حكم الله الذى أنزله عليه ﷺ. قال الشافعى: وليس للإمام الخيار فى أحد من المعاهدين الذين يجرى عليهم الحكم، إذا جاؤوه فى حد الله عز وجل، وعليه أن يقيمه، ولا يفارقون المواعين إلا فى هذا الموضع».

ثم قال الشافعى: «قال الله عز وجل: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]. فكان الصغار - والله أعلم - أن يجرى عليهم حكم الإسلام... ولا يجوز أن تكون دار الإسلام دار مقام لمن يتمتع من الحكم فى حال».

وقد ذكر الجصاص (٢/ ٤٣٥) هذا المعنى، وجعله محتملاً فى معنى الآية، ثم رده بما لا يصلح رداً، فقال: «ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: ٤٢] قبل أن تعقد لهم الذمة ويدخلوا تحت أحكام الإسلام بالجزية، فلما أمر الله بأخذ الجزية منهم وجرت عليهم أحكام الإسلام أمر بالحكم بينهم بما أنزل الله، فيكون حكم الآيتين جميعاً ثابتاً: التخيير فى أهل العهد الذين لا ذمة =

الذى أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء .

وقوله : ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿شِرْعَةً﴾ قال : سبيلاً ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ قال : سنة . وكذا روى عن مجاهد ، وعكرمة ، والحسن البصرى ، وغيرهم . وعن ابن عباس أيضاً ومجاهد عكسه : ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أى : سنة وسبيلاً ، والأول أنسب ، فإن - الشريعة وهى الشريعة أيضاً - هى ما يتبدأ فيه إلى الشئ ومنه يقال : ﴿شرع فى كذا﴾ أى : ابتدأ فيه . وكذا الشريعة وهى ما يشرع منها إلى الماء . أما المنهاج : فهو الطريق الواضح السهل ،

= لهم ولم يجز عليهم إحكام المسلمين ، كأهل الحرب إذا هادناهم . وإيجاب الحكم بما أنزل الله فى أهل الذمة الذين يجزى عليهم أحكام المسلمين . وقد روى عن ابن عباس ما يدل على ذلك : روى محمد بن إسحاق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس : أن الآية التى فى المائدة ، قول الله تعالى : ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُمُ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة : ٤٢] - إنما نزلت فى الدية بين بنى قريظة وبنى النضير ، وذلك : أن بنى النضير كان لهم شرف ، يدون دية كاملة ، وأن بنى قريظة يدون نصف الدية ، فتحاكموا فى ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فأنزل الله ذلك فيهم ، فحملهم رسول الله ﷺ على الحق فى ذلك ، فجعل الدية سواء . ومعلوم أن بنى قريظة والنضير لم تكن لهم ذمة قط . وقد أجلى النبى ﷺ بنى النضير وقتل بنى قريظة . ولو كان لهم ذمة لما أجلهم ولا قتلهم ، وإنما كان بينه وبينهم عهد وهدنة فنقضوها . فأخبر ابن عباس أن آية التخيير نزلت فيهم ، فجاز أن يكون حكمها باقياً فى أهل الحرب من أهل العهد ، وحكم الآية الأخرى - فى وجوب الحكم بينهما بما أنزل الله - ثابتاً فى أهل الذمة . فلا يكون فيها نسخ . وهذا تأويل سائغ ، لولا ما روى عن السلف من نسخ التخيير بالآية الأخرى .

وحديث ابن عباس ، الذى ذكره الجصاص من رواية ابن إسحاق - حديث صحيح أيضاً ، وقد مضى عند تفسير الآيات : (٤١ - ٤٤) من سورة المائدة . وهو لا يعارض حديثه فى نسخ آية التخيير ، الذى ذكرناه مفسراً واضحاً من روايتى النحاس والبيهقى . لأن مراد ابن عباس بالنسخ ، ليس النسخ المصطلح عليه عند الأصوليين بمعناه الدقيق . بل الظاهر الراجح عندنا - والله أعلم - أنه يريد به معنى التخصيص . أى أن آية التخيير ليست عامة فى كل الحالات ، بل هى قاصرة على مثل ما فى معناها ، وهو معنى الجمع بين الآيتين ، الذى يفهم من كلام الإمام الشافعى ، والذى بينه الجصاص ، وجعله تأويلاً سائغاً لولا ما يعرّكه عليه من التصريح بالنسخ - فى رأيه .

ويكون معنى كلام ابن عباس : أن آية التخيير قد يظن أنها عامة فى كل أحوال الحكم بين غير المسلمين فيكون الإمام مخيراً دائماً . فأبان ابن عباس بحديثه : حديث أنها منسوخة ، وحديث أنها نزلت فى قريظة والنضير - أن هذا العموم غير مراد بها ، وأن الآية الأخرى بالأمر الحتم بالحكم نسخت بعض هذا العموم ، أى جعلته خاصاً بمثل تلك الحال ، وهى حال الموادعين ، الذين ليسوا بأهل ذمة ولا عهد ، أعنى الذين لم يدخلوا تحت سلطان الدولة الإسلامية ولم يكونوا من رعيتها ولا قارين بها .

وليس فى هذا التأويل والجمع أى تكلف . فالمعروف أن الصحابة وكثير من أئمة السلف يطلقون كلمة « النسخ » على التخصيص وغيره . ولذلك قال ابن القيم : « مراد عامة السلف بالناسخ والمنسوخ : رفع الحكم بجملته ، تارة - وهو اصطلاح المتأخرين . ورفع دلالة العام والمطلق والظاهر وغيرهما ، تارة . إما بتخصيص (عام) ، أو تقييد مطلق وحمله على المقيد وتفسيره وتبيينه ، حتى إنهم يسمون الاستثناء والشرط والصفة نسخاً ، لتضمن ذلك رفع دلالة الظاهر وبيان المراد . فالنسخ - عندهم وفى لسانهم - هو بيان المراد بغير ذلك اللفظ ، بل بأمر خارج عنه . ومن تأمل كلامهم رأى من ذلك فيه ما لا يحصى ، وزال عنه به إشكالات أوجبها حمل كلامهم على الاصطلاح الحادث المتأخر » . انظر : تفسير الشيخ جمال الدين القاسمى (١ / ٣٢ - ٣٨) .

والسنن: الطرائق، فتفسير قوله: ﴿شُرْعَةً وَمِنْهَا جَا﴾ بالسبيل والسنة أظهر فى المناسبة من العكس، والله أعلم. ثم هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان، باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة فى الأحكام، المتفقة فى التوحيد، كما ثبت فى صحيح البخارى، عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات، ديننا واحد» (١). يعنى بذلك التوحيد، الذى بعث الله به كل رسول أرسله، وضمنه كل كتاب أنزله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ الآية [النحل: ٣٦]، وأما الشرائع فمختلفة فى الأوامر والنواهي، فقد يكون الشيء فى الشريعة حراماً ثم يحل فى الشريعة الأخرى، وبالعكس، وخفيفاً فيزداد فى الشدة فى هذه دون هذه. وذلك لما له تعالى فى ذلك من الحكمة البالغة، والحجة الدامغة.

قال قتادة: قوله: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَا جَا﴾ يقول: سبيلاً وسنة، والسنن مختلفة: هى فى التوراة شريعة، وفى الإنجيل شريعة، وفى الفرقان شريعة، يحل الله فيها ما يشاء، ويحرم ما يشاء، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، والدين الذى لا يقبل الله غيره: التوحيد والإخلاص لله، الذى جاءت به الرسل (٢). وقيل: المخاطب بهذا هذه الأمة، ومعناه: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا الْقُرْآنَ مِنْكُمْ﴾ أيها الأمة ﴿شُرْعَةً وَمِنْهَا جَا﴾ أى: هو لكم كلكم، تقتدون به. وحُذِفَ الضمير المنصوب فى قوله: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ أى: جعلناها، يعنى القرآن، ﴿شُرْعَةً وَمِنْهَا جَا﴾ أى: سبيلاً إلى المقاصد الصحيحة، وسنة أى: طريقاً ومسلكاً واضحاً بيناً.

هذا مضمون ما حكاه ابن جرير عن مجاهد، رحمه الله، والصحيح القول الأول، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فلو كان هذا خطاباً لهذه الأمة لما صح أن يقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وهم أمة واحدة، ولكن هذا خطاب لجميع الأمم، وإخبار عن قدرته تعالى العظيمة التى لو شاء الله لجمع الناس كلهم على دين واحد وشريعة واحدة، لا ينسخ شىء منها. ولكنه تعالى شرع لكل رسول شرعة على حدة، ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذى بعده، حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمداً ﷺ، الذى ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبة، وجعله خاتم الأنبياء كلهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ﴾ أى: أنه تعالى شرع الشرائع المختلفة، ليختبر عباده فيما شرع لهم، ويثيبهم أو يعاقبهم على طاعته ومعصيته بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله. قال عبد الله بن كثير: ﴿فِيمَا آتَاكُمْ﴾ يعنى: من الكتاب.

ثم إنه تعالى ندبهم إلى المسارعة إلى الخيرات والمبادرة إليها، فقال: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾

(١) مضى هكذا مختصراً عند تفسير الآيات: (١٣٣ - ١٣٦) من سورة البقرة. ومضى بنحوه ضمن حديث مطول عند تفسير الآيات: (١٢٤ - ١٢٩) من سورة آل عمران.

(٢) رواه الطبرى (١٢١٢٦) بنحوه عن قتادة.

وهى طاعة الله واتباع شرعه، الذى جعله ناسخاً لما قبله، والتصديق بكتابه القرآن الذى هو آخر كتاب أنزله. ثم قال تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أى: معادكم أيها الناس ومصيركم إليه يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أى: فيخبركم بما اختلفتم فيه من الحق، فيجزى الصادقين بصدقهم، ويعذب الكافرين الجاحدين المكذبين بالحق، العادلين عنه إلى غيره بلا دليل ولا برهان، بل هم معاندون للبراهين القاطعة، والحجج البالغة، والأدلة الدامغة.

وقوله: ﴿وَأَن احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك، والنهى عن خلافه. ثم قال: ﴿وَاحْذَرُهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أى: احذر أعداءك اليهود أن يبدلسوا عليك الحق فيما يُنْهَوْنَهُ إِلَيْكَ من الأمور، فلا تغتر بهم، فإنهم كذبة كَفَرَةٌ خونة ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أى: عما تحكم به بينهم من الحق، وخالفوا شرع الله ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ أى: فاعلم أن ذلك كائن عن قَدْرَةِ الله وحكمته فيهم أن يصرفهم عن الهدى لما لهم من الذنوب السالفة التى اقتضت إضلالهم ونكالهم ﴿وَأَن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ أى: أكثر الناس خارجون عن طاعة ربهم، مخالفون للحق ناكبون عنه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]. وقال تعالى: ﴿وَأَن تَطِغَ أَكْثَرُ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]. وعن ابن عباس قال: قال كعب بن أسد، وابن صلوياء، وعبد الله بن صوريا، وشأس بن قيس، بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد، لعلنا نفتنه عن دينه ! فاتوه، فقالوا: يا محمد، إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم، وإنا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة، فنحاكمهم إليك، فتقضى لنا عليهم، ونؤمن بك ونصدقك ! فأبى ذلك رسول الله ﷺ، فأنزل الله، عز وجل، فيهم: ﴿وَأَن احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرُهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿لَقَوْمٌ يُؤْفِكُونَ﴾ رواه ابن جرير، وابن أبى حاتم (١).

وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾: ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المُحْكَم المشتمل على كل خير، الناهى عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات، التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم سنكرخان (٢)، الذى وضع لهم الياسق (٣)، وهو عبارة

(١) الطبرى (١٢١٥٠).

(٢) هكذا ثبت فى المخطوطتين واضحا: « سنكرخان » بالسین فى أوله . والمشهور على اللسان الثابت فى المراجع التاريخية: « جنكرخان » بالجيم بدل السين، وهو الثابت فى المطبوعة هنا.

(٣) هكذا رسمت هذه الكلمة فى المخطوطتين والطبوعة. وهى كلمة أعجمية، لذلك اختلفت المراجع فى رسمها وأصلها. وفى تاريخ ابن كثير (١٣ / ١١٧) فى ترجمته جنكرخان: « وهو الذى وضع لهم الياسا، التى يتحاكمون إليها ويحكمون بها، وأكثرها مخالف لشرائع الله وكتبه، وهو شئ اقترحه من عند نفسه، وتبعوه فى ذلك ». ثم سماها بعد ذلك « الياسا » - فيما نقله عن الوزير علاء الدين الجوينى (ص ١١٨)، وفيه: =

عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت فى بنية شبرعاً متبعاً، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه فى قليل ولا كثير، قال الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ﴾ أى: يبتغون ويريدون، وعن حكم الله يعدلون ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أى: ومن أعدل من الله فى حكمه لمن عقل عن الله شرعه، وآمن به وأيقن وعلم أنه تعالى أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، العادل فى كل شيء (١).

= « وأما كتابه الياس، فإنه يكتب فى مجلدين بخط غليظ، ويحمل على بعير عندهم ». وقال الزبيدي فى شرح القاموس (٧ / ٩٨) - « يساق، كسحاب، وربما قيل: يسق، بحذف الألف، والأصل فيه: يساغ، بالغين المعجمة، وربما خفف فحذف وربما قلب قافاً، وهى كلمة تركية يعبر بها عن وضع قانون المعاملة، كذلك ذكره غير واحد وقد حررها المقرئ فى الخطط (٣ / ٣٥٧، ٣٥٨)، قال تحت عنوان « ذكر أحكام السياسة: » ... ويقال: ساس الأمر سياسة، بمعنى قام به ... فهذا أصل وضع السياسة فى اللغة. ثم رسمت بأنها القانون الموضوع لرعاية الآداب والمصالح وانتظام الأحوال. والسياسة نوعان: سياسة عادلة تخرج الحق من الظالم والفاجر، فهى من الأحكام الشرعية، علمها من علمها وجهلها من جهلها ... والنوع الآخر سياسة ظالمة، فالشريعة تحرمها. وليس ما يقوله أهل زماننا فى شيء من هذا. وإنما هى كلمة مغلية، أصلها: ياسة، فحرفها أهل مصر وزادوا بأولها سيئاً فقالوا: سياسة، وأدخلوا عليها الألف واللام، فظن من لا علم عنده أنها كلمة عربية! وما الأمر فيها إلا ما قلت. واسمع الآن كيف نشأت هذه الكلمة حتى انتشرت بمصر والشام: وذلك أن جنكزخان القائم بالدولة التتر فى بلاد الشرق، لما غلب الملك أونك خان وصارت له دولة - قرر قواعد وعقوبات، أثبتها فى كتاب سماه: ياسة، ومن الناس من يسميه: يسق، والأصل فى اسمه: ياسة. ولما تم وضعه كتب ذلك نقشاً فى صفائح الفولاذ، وجعله شريعة لقومه، فالتزموه بعده، حتى قطع الله دابرهم. وكان جنكزخان لا يتدين بشيء من أديان أهل الأرض - كما تعرف هذا إن كنت أشرفت على أخباره - فصارت الياسة حكماً بئاً فى أعقابها، لا يخرجون عن شيء من حكمه ». ثم قال فى (ص ٣٥٩) بعد ذكر أمثلة من سخافات هذه الياسة - « وجعل حكم الياسة لولده جغتاي بن جنكزخان، فلما مات التزم من بعده أولاده وأتباعهم حكم الياسة، كاللزام أول المسلمين حكم القرآن، وجعلوا ذلك ديناً لم يعرف عن أحد منهم مخالفته بوجه ».

(١) وقد نقل الحافظ المؤلف فى تاريخه أشياء من سخافات هذا « الياسق »، (١٣ / ١١٨، ١١٩)، ثم قال: « فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء، وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة - كفر. فكيف بمن تحاكم إلى الياسا وقدمها عليه؟! من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين ». أقول: أفيجوز - مع هذا - فى شرع الله أن يحكم المسلمون فى بلادهم بتشريع مقتبس عن تشريعات أوربه الوثنية الملمدة؟ بل بتشريع تدخله الأهواء والآراء الباطلة، يغيرونه ويبدلونه كما يشاؤون، لايبالى واضعه أوافق شرعة الإسلام أم خالفها؟

إن المسلمين لم يُلَوَّأ بهذا قط - فيما نعلم من تاريخهم - إلا فى ذلك العهد، عهد التتار، وكان من أسوأ عهود الظلم والظلام. ومع هذا فإنهم لم يخضعوا له، بل غلب الإسلام التتار، ثم مزجهم فأدخلهم فى شرعته. وزال أثر ما صنعوا، بثبات المسلمين على دينهم وشريعتهم، وبأن هذا الحكم السيئ الجائر كان مصدره الفريق الحاكم إذ ذاك، لم يندمج فيه أحد من أفراد الأمم الإسلامية المحكومة، ولم يتعلموه ولم يعلموه أبناءهم. فما أسرع ما زال أثره.

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْكَرُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ تَنَدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن موالاته اليهود والنصارى ، الذين هم أعداء الإسلام وأهله ، قاتلهم الله ، ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض ، ثم تهدد وتوعد من يتعاطى ذلك فقال : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ .

= أفرأيت هذا الوصف القوي من الحافظ ابن كثير - فى القرن الثامن - لذاك القانون الوضعى ، الذى صنته عدو الإسلام جنكركرخان ؟ ألتسم ترونه يصف حال المسلمين فى هذا العصر ، فى القرن الرابع عشر ؟ إلا فى فرق واحد ، أشربنا إليه أنفأ : أن ذلك كان فى طبقة خاصة من الحكام . أتى عليها الزمن سريعاً ، فاندمجت فى الأمة الإسلامية ، وزال أثر ما صنعت .

ثم كان المسلمون الآن أسوأ حالا وأشد ظلاماً وظلاماً منهم . لأن أكثر الأمم الإسلامية الآن تندمج فى هذه القوانين المخالفة للشريعة ، والتى هى أشبه شئ بذاك « الياسق » الذى اصطنعه رجل كافر ظاهر الكفر . هذه القوانين التى يصطنعها ناس ينتسبون للإسلام ، ثم يتعلمها أبناء المسلمين ، ويفخرون بذلك آباء وأبناء ، ثم يجعلون مرد أمرهم إلى معتنقى هذا « الياسق العصرى » ! ويحقرون من يخالفهم فى ذلك ، ويسمون من يدعوههم إلى الاستمسك بدينهم وشريعتهم « رجعيًا » و« جامدًا » ! إلى مثل ذلك من الألفاظ البذيئة . بل إنهم أدخلوا أيديهم فيما بقى فى الحكم من التشريع الإسلامى ، يريدون تحويله إلى « ياسقهم الجديد » ، بالهويئا واللين تارة ، وبالمكر والخديعة تارة ، وبما ملكت أيديهم من السلطات تارات - ويصرحون - ولا يستحيون - بأنهم يعملون على فصل الدولة عن الدين !!

أفيجوز إذن - مع هذا - لأحد من المسلمين أن يعتقد هذا الدين الجديد ، أعنى التشريع الجديد ! أو يجوز لأب أن يرسل أبنائه لتعلم هذا واعتناقه واعتقاده والعمل به ، عالمًا كان الأب أو جاهلاً ؟ !

أو يجوز لرجل مسلم أن يلى القضاء فى ظل هذا « الياسق العصرى » ، وأن يعمل به ويعرض عن شريعته البينة ؟ ! ما أظن أن رجلاً مسلماً يعرف دينه ويؤمن به جملة وتفصيلاً ، ويؤمن بأن هذا القرآن أنزله الله على رسوله كتاباً محكماً ، لا يأتبه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وبأن طاعته وطاعة الرسول الذى جاء به واجبة قطعية الوجوب فى كل حال - ما أظنه يستطيع إلا أن يعجز غير متردد ولا متاؤل ، بأن ولاية القضاء فى هذه الحال باطلة بطلاناً أصلياً ، لا يلحقه التصحيح ولا الإجازة !

إن الأمر فى هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس ، هى كفر بواح ، لا خفاء فيه ولا مداورة . ولا عذر لأحد ممن ينتسبون للإسلام - كائنًا من كان - فى العمل بها أو الخضوع لها أو إقرارها . فليحذر امرؤ نفسه . و « كل امرئ حسب نفسه » .

ألا فليصدع العلماء بالحق غير هيايين ، وليبلغوا ما أمروا بتبليغه ، غير موانين ولا مقصرين .
سيقول عنى عبید هذا « الياسق العصرى » وناصروه ، أنى جامد ، وأنى رجعى ، وما إلى ذلك من الأقاويل . ألا فليقولوا ما شاؤوا ، فما عبأت يوماً ما بما يقال عنى . ولكنى قلت ما يجب أن أقول .

وقوله: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أى: شك، وريب، ونفاق ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ أى: يبادرون إلى موالاتهم ومودتهم فى الباطن والظاهر ﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ أى: يتأولون فى مودتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكفار بالمسلمين، فتكون لهم أباد عند اليهود والنصارى، فينفعهم ذلك، عند ذلك قال الله تعالى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِي بِالْفَتْحِ﴾ قال السدّى: يعنى فتح مكة. وقال غيره: يعنى القضاء والفصل ﴿أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ قال السدّى: يعنى ضرب الجزية على اليهود والنصارى ﴿فَيُضْبَحُوا﴾ يعنى: الذين والوا اليهود والنصارى من المنافقين ﴿عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من الموالاة ﴿نَادِمِينَ﴾ أى: على ما كان منهم، مما لم يجد عنهم شيئاً، ولا دفع عنهم محذوراً، بل كان عين المفسدة، فإنهم فضحوا، وأظهر الله أمرهم فى الدنيا لعباده المؤمنين، بعد أن كانوا مستورين لا يدرى كيف حالهم. فلما انعقدت الأسباب الفاضحة لهم، تبين أمرهم لعباد الله المؤمنين، فتعجبوا منهم كيف كانوا يظهرون أنهم من المؤمنين، ويحلفون على ذلك ويتألّون؟! فبان كذبهم واقتراؤهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾.

وقد اختلف القراء فى هذا الحرف، فقرأه الجمهور بإثبات الواو فى قوله: ﴿وَيَقُولُ﴾ ثم منهم من رفع ﴿وَيَقُولُ﴾ على الابتداء، ومنهم من نصب عطفاً على قوله: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِي بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ فتقديره «أن يأتى» و «أن يقول»، وقرأ أهل المدينة: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بغير واو، وكذلك هو فى مصاحفهم على ما ذكره ابن جرير (١)، قال مجاهد: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِي بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ تقديره: حينئذ ﴿يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾.

واختلف المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات الكريمات، فذكر السدّى أنها نزلت فى رجلين، قال أحدهما لصاحبه بعد وقعة أحد: أما أنا فإنى ذاهب إلى ذلك اليهودى، فأوى إليه وأتهود معه، لعله ينفعنى إذا وقع أمر أو حدث حادث! وقال الآخر: وأما أنا فإنى ذاهب إلى فلان النصرانى بالشام، فأوى إليه وأتنصر معه! فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ الآيات. وقال عكرمة: نزلت فى أبى لبابة بن عبد المنذر، حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بنى قُرَيْظَةَ، فسأله: ماذا هو صانع بنا؟ فأشار بيده إلى حلقه، أى: إنه الذبح. رواه ابن جرير (٢).

وقال محمد بن إسحاق: فكانت أول قبيلة من اليهود نقضت ما بينها وبين رسول الله ﷺ بنو قينقاع. فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة قال: فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على

(١) قراءة «يقول» بالرفع وبغير الواو - هى قراءة نافع وابن كثير وابن عامر وأبى جعفر وابن محيصة. وهى كذلك ثابتة فى مصاحف مكة والمدينة. والواو ثابتة فى مصاحف الكوفة وأهل المشرق. والقراءة بإثبات الواو مع نصب اللام - هى قراءة أبى عمرو ويعقوب. وإثبات الواو مع الرفع - قراءة باقى الأربعة عشر.

(٢) روايتا السدى وعكرمة رواهما الطبرى (١٢١٥٩، ١٢١٦٠).

حكمه ، فقام إليه عبد الله بن أبي ابن سلول ، حين أمكنه الله منهم ، فقال : يا محمد ، أحسن في موالى . وكانوا حلفاء الخزرج ، قال : فأبطأ عليه رسول الله ﷺ ، فقال : يا محمد ، أحسن في موالى . قال : فأعرض عنه . فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ . فقال له رسول الله ﷺ : « أرسلنى » . وغضب رسول الله ﷺ حتى رثى لوجهه ظللاً ، ثم قال : « ويحك أرسلنى » . قال : لا ، والله لا أرسلك حتى تحسن في موالى ، أربعمائة حاسر ، وثلاثمائة دارع ، قد منعونى من الأحمر والأسود ، تحصدهم في غداة واحدة ؟ ! إني امرؤ أخشى الدوائر ، قال : فقال رسول الله ﷺ : « هم لك » . قال ابن إسحاق : فحدثنى أبى إسحاق بن يسار ، عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال : لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ ، تشبث بأمرهم عبد الله بن أبى ، وقام دونهم ، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ ، وكان أحد بنى عوف بن الخزرج ، له من حلفهم مثل الذى لعبد الله بن أبى ، فجعلهم إلى رسول الله ﷺ ، وتبرأ إلى الله ورسوله ﷺ من حلفهم ، وقال : يا رسول الله ، أبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم ، وأتولى الله ورسوله والمؤمنين ، وأبرأ من حلف الكفار ولايتهم . ففيه وفي عبد الله بن أبى نزلت الآيات فى المائدة : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » إلى قوله : « وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ » [المائدة : ٥٦] . وروى الإمام أحمد عن أسامة ابن زيد قال : دخلت مع رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبى نعوذه ، فقال له النبى ﷺ : « قد كنت أنهاك عن حب يهود » . فقال عبد الله : فقد أبغضهم أسعد بن زرارة ، فمات . ورواه أبو داود (١) .

﴿ يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا مَنْ يَّرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِيْنِهٖ فَسَوْفَ يٰۤاَتِيْ اللّٰهُ بِقَوْمٍ يُّحِبُّهُمْ وَيُحِبُّوْنَهُۥ اٰذَلٰٓءَ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ اَعَزُّوْا عَلَى الْكَافِرِيْنَ يُجَاهِدُوْا فِيْ سَبِيْلِ اللّٰهِ وَلَا يَخَافُوْنَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۭ ذٰلِكَ فَضْلُ اللّٰهِ يُؤْتِيْهِ مَنْ يَّشَآءُ وَاللّٰهُ وَاسِعٌ عَلِيْمٌ ﴿٥٤﴾ اِنَّا وَلِيُّكُمْ اللّٰهُ وَرَسُوْلُهُ وَالَّذِيْنَ اٰمَنُوْا الَّذِيْنَ يُقِيْمُوْنَ الصَّلٰوةَ وَزَيَّتُوْنَ الزَّكٰوةَ وَهُمْ رٰكِعُوْنَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللّٰهُ وَرَسُوْلَهُ وَالَّذِيْنَ اٰمَنُوْا فَاِنَّ حِزْبَ اللّٰهِ هُمُ الْغٰلِبُوْنَ ﴿٥٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته ، فإن الله يستبدل به من هو خير لها منه ، وأشد منعة وأقوم سبيلاً ، كما قال تعالى : « وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ » [محمد : ٣٨] ، وقال تعالى : « إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ » [إبراهيم : ١٩ ، ٢٠] أى : بممتنع ولا صعب . وقال تعالى ههنا : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ » أى : يرجع عن الحق إلى الباطل « فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ » قال الحسن : هو والله أبو بكر وأصحابه . رواه ابن أبى حاتم . وروى عن ابن عباس قال : ناس من أهل اليمن ، ثم من كندة ، ثم من السكون . وروى ابن أبى حاتم أيضاً عن الأشعري قال : لما نزلت : « فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ » قال رسول الله ﷺ : « هم قوم هذا » . ورواه ابن

جري (١).

وقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ هذه صفات المؤمنين الكامل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه، متعزلاً على خصمه وعدوه، كما قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. وفي صفة النبي ﷺ أنه: «الضحك القتال»، فهو ضحك لأوليائه قتال لأعدائه.

وقوله: ﴿يَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ أى: لا يردهم عما هم فيه من طاعة الله، وقاتل أعدائه، وإقامة الحدود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يردهم عن ذلك راد، ولا يصدهم عنه صاد، ولا يحيك فيهم لوم لائم، ولا عذل عاذل. روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال: أمرني تحليلي ﷺ بسبع، أمرني بحب المساكين والدنو منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني، ولا أنظر إلى من هو فوقى، وأمرني أن أصل للرحم وإن أدبرت، وأمرني ألا أسأل أحداً شيئاً، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرأى، وأمرني ألا أخاف في الله لومة لائم، وأمرني أن أكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنهن من كنز تحت العرش (٢). وروى الإمام أحمد أيضاً عن ذر، قال: بايعني رسول الله ﷺ خمسا ووافقني سبعا، وأشهد الله على تسعا (٣)، أني لا أخاف في الله لومة لائم. قال أبو ذر: فدعاني رسول الله ﷺ فقال: «هل لك إلى بيعة ولك الجنة؟» قلت: نعم، قال: وبسطت يدي، فقال النبي ﷺ وهو يشترط على: ألا تسأل الناس شيئاً؟ قلت: نعم، قال: «ولا سوطك وإن سقط منك حتى تنزل إليه فتأخذه» (٤). وروى الإمام أحمد أيضاً عن الحسن، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهد، فإنه لا يقرب من أجل، ولا يبعد من رزق أن يقول بحق أو يذکر بعظيم». تفرد به أحمد (٥). وروى أحمد أيضاً عن أبي

(١) الطبري (١٢١٨٨ - ١٢١٩٢). وهو حديث صحيح. ورواه ابن سعد (٤ / ١ / ٧٩) والحاكم (٢ / ٣١٣) وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في الزوائد (١٦ / ٧) وقال: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) المسند (٥ / ١٥٩ حلى). وإسناده صحيح. وذكره الهيثمي في الزوائد (٧ / ٢٦٥) ونسبه للطبراني في الصغير والكبير، وقال: «ورجاله رجال الصحيح»، غير سلام أبي المنذر، وهو ثقة. ورواه البزار. وذكر قبل ذلك نحوه - من وجه آخر فيه كلام - ونسبه أيضاً للطبراني في الكبير والصغير، وقال: «وأظنه رواه أحمد». فهو لم يره في المسند.

(٣) في المطبوعة والمطبوع من «عمدة التفسير»: «سبعا»، وما أثبتناه هو الموافق لما في المخطوطة الأزهرية وكذا الهيثمي في الزوائد. (الباز).

(٤) المسند (٥ / ١٧٢ حلى). وذكره الهيثمي في الزوائد (٣ / ٩٢، ٩٣) بروايتين، وقال: «رواه كله أحمد، ورجاله ثقات».

(٥) المسند (١١٤٩٤). وإسناده صحيح. وذكره الهيثمي في الزوائد (٧ / ٢٦٥)، ونسبه للطبراني في الأوسط وقال: «ورجاله رجال الصحيح. غير شيخ الطبراني»! فأنسى أن ينسبه للمسند، الذي لم يروه عن شيخ الطبراني.

سعيد الخدرى ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يَحْقِرَنَّ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ أَنْ يَرَى أَمْرًا لِلَّهِ فِيهِ مَقَالٌ ، فَلَا يَقُولُ فِيهِ ، فَيَقَالَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : مَا مَنَعَكَ أَنْ تَكُونَ قَلْتَ فِي كَذَا وَكَذَا؟ » فيقول : مخافة الناس . فيقول : إِيَّايَ أَحَقُّ أَنْ تَخَافَ . ورواه ابن ماجه (١) . وروى أحمد وابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى ، عن النبى ﷺ قال : « إِنْ اللَّهُ لَيَسْأَلُ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْأَلُهُ يَقُولُ لَهُ : أَيْ عَبْدِي ، أَرَأَيْتَ مَنَكراً قَلِمَ تَكْرَهُ؟ » إِذَا لَقِنَ اللَّهُ عَبْدًا حِجَّتَهُ ، قَالَ : أَيْ رَبِّ ، وَثَقْتُ بِكَ وَخَفْتُ النَّاسَ » (٢) . وثبت فى الصحيح : « مَا يَنْبَغِي لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَذَلَّ نَفْسَهُ ، قَالُوا : وَكَيْفَ يَذَلُّ نَفْسَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ : « يَتَحَمَّلُ مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَا يَطِيقُ » (٣) .

« ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ » أى : من اتصف بهذه الصفات ، فإنما هو من فضل الله عليه ، وتوفيقه له « وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَالِمٌ » أى : واسع الفضل ، عليم بمن يستحق ذلك ممن يحرمه إياه . وقوله : « إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا » أى : ليس اليهود بأوليائكم ، بل ولايتكم راجعة إلى الله ورسوله والمؤمنين . وقوله : « الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » أى : المؤمنون المتصفون بهذه الصفات ، من إقام الصلاة التى هى أكبر أركان الإسلام ، وهى لله وحده لا شريك له ، وإيتاء الزكاة ، التى هى حق المخلوقين ومساعدة للمحتاجين من الضعفاء والمساكين .

وأما قوله : « وَهُمْ رَاكِعُونَ » : فقد توهم بعض الناس أن هذه الجملة فى موضع الحال من قوله : « وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » أى : فى حال ركوعهم ! ولو كان هذا كذلك ، لكان دفع الزكاة فى حال الركوع أفضل من غيره ؛ لأنه ممدوح ! وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى ، وحتى إن بعضهم ذكر فى هذا أثراً عن على بن أبى طالب : أن هذه الآية نزلت فيه : وذلك أنه مر به سائل فى حال ركوعه ، فأعطاه خاتمه . [ثم ذكر الحافظ ابن كثير هنا آثاراً فى ذلك ، بأسانيد الضعيفة . وأبان عن عوار كل منها . ثم قال] : وليس يصح شىء منها بالكلية ، لضعف أسانيدها وجهالة رجالها (٤) .

وقد تقدم فى الأحاديث التى أوردناها : أن هذه الآيات كلها نزلت فى عبادة بن الصلت ، رضى الله عنه ، حين تبرأ من حلف يهود ، ورضى بولاية الله ورسوله والمؤمنين ؛ ولهذا قال تعالى بعد هذا كله : « وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ » ، كما قال تعالى :

(١) المسند (١١٧٢٢) . وإسناده صحيح .

(٢) المسند (١١٢٦٥) . وإسناده صحيح . ورواه أيضاً بنحوه (١١٧٣٢ ، ١١٧٥٨) ، وابن ماجه (٤٠١٧) .

(٣) هكذا جزم المؤلف الحافظ بأن هذا الحديث فى الصحيح . وهو - على اليقين - ليس فى الصحيحين ، إنما رواه الإمام أحمد فى المسند (٥ / ٤٠٥ حلى) . والترمذى (٣ / ٢٤٣) وابن ماجه (٤٠١٦) - كلهم من حديث حذيفة . وقال الترمذى : « حسن غريب » .

(٤) بل هى أمر من أكاذيب الشيعة ، الذين يلعبون بتأويل القرآن ، لينسبوا لعلى كرم الله وجهه مآثر وفضائل غير ثابتة . ثم أعجب من ذلك أن يستدلوا بهذه الأكاذيب فى هذا الموضع على وجوب إمامة على . والزمخشري - على ذكائه - فانت عليه هذه السخافات وحكاها كأنها حقيقة واقعة ، جهلاً منه بطرق الرواية وإثباتها . والفخر الرازى - على جهله بعلوم الحديث - رفضها رفضاً شديداً ، وندد بمخترعيها ومصدقها .

﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ . لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَوَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢١ ، ٢٢] . فكل من رضى بولاية الله ورسوله والمؤمنين فهو مفلح في الدنيا والآخرة ، ومنصور في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ .

﴿يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا لِنَخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِمَّنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٥٨﴾﴾

وهذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام وأهله، من الكتابيين والمشركيين، الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون، وهى شرائع الإسلام المطهرة المحكمة المشتملة على كل خير دنيوى وأخروى، يتخذونها «هُزُؤًا» يستهزئون بها «ولعبًا» يعتقدون أنها نوع من اللعب فى نظرهم الفاسد، وفكرهم البارد . وقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ﴾ «من» ههنا لبيان الجنس، كقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]، وقرأ بعضهم «وَالْكَافِرَ» بالخفض عطفًا، وقرأ آخرون بالنصب على أنه معمول ﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِمَّنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ تقديره: ولا الكفار أولياء، أى: لا تتخذوا هؤلاء ولا هؤلاء أولياء (١) . والمراد بالكفار ههنا المشركون . وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى: اتقوا الله أن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولديكم أولياء «إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ» بشرع الله الذى اتخذه هؤلاء هُزُؤًا ولعبًا، كما قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨] .

وقوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ أى: وكذلك إذا أذنتم داعين إلى الصلاة التى هى أفضل الأعمال لمن يعقل ويعلم من ذوى الألباب «اتَّخَذُوهَا» أيضاً «هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ» معانى عبادة الله وشرائعه، وهذه صفات أتباع الشيطان الذى إذا سمع الأذان أدير وله حُصَّاص - أى: ضراط - حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضى التأذين أقبل، فإذا ثُوب بالصلاة أدير، فإذا قضى الشوب أقبل حتى يخطر بين المرء وقلبه، فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا، لما لم يكن يذكر، حتى يظل الرجل لا يدرى كم صلى، فإذا وجد أحدهم ذلك، فليسجد سجدة قبل السلام . مفتق عليه (٢) . وقال الزهرى: قد ذكر الله التأذين فى كتابه فقال: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ . رواه ابن أبى حاتم .

وروى الإمام أحمد عن عبد العزيز بن عبد الملك بن أبى محذورة: أن عبد الله بن مُحَيْرِيز

(١) القراءة بالخفض قراءة أبى عمرو والكسائى ويعقوب . وبالنصب قراءة باقى الأربعة عشر .

(٢) البخارى (٢ / ٦٩ - ٧١ فتح) ومسلم (١ / ١١٤) كلاهما بنحوه ، من حديث أبى هريرة .

أخبره - وكان يتيماً فى حجر أبى محذورة - قال: قلت لأبى محذورة: يا عم، إني خارج إلى الشام، وأخشى أن أسأل عن تأذيتك. فأخبرنى : أن أبا محذورة قال له: نعم خرجت فى نفر، وكنا فى بعض طريق حنين، فمَقَّل رسول الله ﷺ من حنين، فلقينا رسول الله ﷺ ببعض الطريق، فأذن مؤذن رسول الله ﷺ بالصلاة عند رسول الله ﷺ، فسمعنا صوت المؤذن ونحن متكبون، فصرخنا نحيه ونستهزئ به ! فسمع رسول الله ﷺ الصوت، فأرسل إلينا إلى أن وقفنا بين يديه، فقال رسول الله ﷺ: «أيكم الذى سمعتُ صوته قد ارتفع؟» فأشار القوم كلهم إلى، وصدقوا، فأرسل كلَّهم وحسنى. وقال: «قم فأذن». فقامت ولا شيء أكره إلى من رسول الله ﷺ، ولا مما يأمرنى به، فقامت بين يدي رسول الله ﷺ، فألقى على رسول الله ﷺ التأذين هو بنفسه، قال: «قل: الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حى على الصلاة، حى على الفلاح، حى على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله». ثم دعانى حين قضيت التأذين، فأعطاني صرة فيها شيء من فضة، ثم وضع يده على ناصية أبى محذورة، ثم أمرها على وجهه، ثم بين ثدييه، ثم على كبده حتى بلغت يد رسول الله ﷺ سره أبى محذورة، ثم قال رسول الله ﷺ: «بارك الله فيك وبارك عليك». فقلت: يا رسول الله، مُرْنى بالتأذين بمكة. فقال: «قد أمرتك به». وذهب كل شيء كان لرسول الله ﷺ من كراهة، وعاد ذلك كله محبة لرسول الله ﷺ. فقدمت على عتاب بن أسيد عامل رسول الله ﷺ، فأذنت معه بالصلاة عن أمر رسول الله ﷺ، وأخبرنى ذلك من أدركت من أهلى ممن أدرك أبا محذورة، على نحو ما أخبرنى عبد الله بن محيريز. هكذا رواه الإمام أحمد، وقد أخرجه مسلم فى صحيحه، وأهل السنن الأربعة عن أبى محذورة واسمه: سَمْرَةُ بن مَعْيَر بن لَوْذَانَ - أحد مؤذنى رسول الله ﷺ الأربعة، وهو مؤذن أهل مكة، وامتدت أيامه، رضى الله عنه وأرضاه (١).

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَآ أَن ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَن أَكْثَرُكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ (٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّاغُوتِ ٱلَّذِينَ شَرُّ مَكَآنَ وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءَ وَكُمُ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِٱلْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَرَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدُونِ وَأَكْثِلَهُمُ ٱلسُّحَتُ لَيْتَسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَهْتَفُهُمُ ٱلرَّبِّبُونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمُ وَأَكْثِلَهُمُ ٱلسُّحَتُ لَيْتَسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾

(١) المسند (١٥٤٤٥) . وإسناده صحيح . وكذلك رواه النسائى (١ / ١٠٣ ، ١٠٤) وابن ماجه (٧٠٨) من هذا الوجه مطولاً . وكذلك رواه أبو داود (٥٠٣) من هذا الوجه ، ومختصراً بعض الشيء . وذكر الحافظ ابن حجر فى التهذيب (٦ / ٣٤٧) أنه رواه أيضاً ابن خزيمة فى صحيحه من هذا الوجه . وأما رواية مسلم (١ / ١١٢) فإنها مختصرة ومن وجه آخر . ورواه الترمذى من وجهين آخرين مختصراً ، رقم (١٩١) ، (١٩٢) بشرحنا . ورواه النسائى - قبل ذلك وبعده - من أوجه متعددة .

يقول تعالى: قل يا محمد، لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من أهل الكتاب: ﴿هَلْ تَقْمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ أى: هل لكم علينا مطعن أو عيب إلا هذا؟! وهذا ليس بعيب ولا مذمة، فيكون الاستثناء منقطعاً، كما فى قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]، وكقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ١٧٤].

وقوله: ﴿وَأَنْ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ معطوف على ﴿أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ أى: وآمنا بأن أكثركم فاسقون، أى: خارجون عن الطريق المستقيم. ثم قال: ﴿قُلْ هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكُمْ مُثْبِتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أى: هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونونه بنا؟ وهم أنتم الذين هم متصفون بهذه الصفات المفسرة، فقوله: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ أى: أبعد من رحمته ﴿وَعُصِبَ عَلَيْهِ﴾ أى: غضباً لا يرضى بعده أبداً ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَالْخَنَازِيرَ﴾، كما تقدم بيانه فى سورة البقرة. وكما سيأتى إيضاحه فى سورة الأعراف (١). وعن ابن مسعود قال: سئل رسول الله ﷺ عن الفردة والخنازير، أهى مما مسخ الله؟ فقال: «إن الله لم يهلك قوماً - أو قال: لم يمسح قوماً - فيجعل لهم نسلًا ولا عقبًا، وإن الفردة والخنازير كانت قبل ذلك». رواه مسلم (٢).

وقوله: ﴿وَعَبْدَ الطَّاغُوتِ﴾ وقرئ: ﴿وَعَبْدَ الطَّاغُوتِ﴾ على أنه فعل ماضٍ، و«الطاغوت» منصوب به، أى: وجعل منهم من عبد الطاغوت. وقرئ: ﴿وَعَبْدَ الطَّاغُوتِ﴾ بالإضافة على أن المعنى: وجعل منهم خدام الطاغوت، أى: خدامه وعبيده. وقرئ: ﴿وَعَبْدَ الطَّاغُوتِ﴾ على أنه جمع الجمع: عبد وعبيد وعبد، مثل ثمار وثمر. حكاه ابن جرير عن الأعمش. وحكى عن بُرَيْدَةَ الأسلمى أنه كان يقرؤها: «وعابد الطاغوت»، وعن أبى، وابن مسعود: «وعبدوا»، وحكى ابن جرير عن أبى جعفر القارئ أنه كان يقرؤها: ﴿وَعَبْدَ الطَّاغُوتِ﴾ على أنه مفعول ما لم يسم فاعله، ثم استبعد معناها. والظاهر أنه لا بعد فى ذلك؛ لأن هذا من باب التعريض بهم، أى: وقد عبدت الطاغوت فيكم، أنتم الذين فعلتموه (٣). وكل هذه القراءات يرجع معناها إلى: أنكم يا أهل الكتاب الطاعنين فى ديننا - الذى هو توحيد الله وإفراده بالعبادة دون ما سواه - كيف يصدر منكم هذا وأنتم قد وجد منكم جميع ما ذكر؟! ولهذا قال: ﴿أَوَلَيْكَ شَرُّ مَكَانًا﴾ أى: مما تظنون بنا ﴿وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾. وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل فيما ليس فى الطرف الآخر مشاركة، كقوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ وهذه صفة المنافقين منهم: إنهم يصانعون المؤمنين فى الظاهر وقلوبهم منطوية على الكفر؛ ولهذا قال: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا﴾ أى:

(١) سورة البقرة (٦٥) وسورة الأعراف (١٦٦).

(٢) من حديث طويل فى صحيح مسلم (٣٠٣ / ٢). ورواه أحمد (٣٧٠٠).

(٣) أما القراءة السبعة، فقرأ منهم حمزة «عبد» بفتح العين والدال بينهما باء مضمومة. و«الطاغوت» بالخفض على الإضافة. وقرأ باقيهم «عبد» فعل ماضٍ، و«الطاغوت» مفعول.

عندك يا محمد ﴿بِالْكَفْرِ﴾ أى: مستصحين الكفر فى قلوبهم، ثم خرجوا وهو كامن فيها، لم ينتفعوا بما قد سمعوا منك من العلم، ولا نجت فيهم المواعظ ولا الزواجر؛ ولهذا قال: ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ فخصهم به دون غيرهم. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾: والله عالم بسر أئمتكم وما تنطوى عليهم ضمائرهم، وإن أظهروا لخلقهم خلاف ذلك، وتزينوا بما ليس فيهم، فإن الله عالم الغيب والشهادة أعلم بهم منهم، وسيجزى بهم على ذلك أتم الجزاء.

وقوله: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ أى: يبادرون إلى ذلك من تعاطى المأثم والمحارم والاعتداء على الناس، وأكل أموالهم بالباطل ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: لبس العمل كان عملهم، وبئس الاعتداء اعتداؤهم.

وقوله: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ يعنى: هلا كان ينهاهم الربانيون والأخبار عن تعاطى ذلك. والربانيون: هم العلماء العمال أرباب الولايات عليهم، والأخبار: هم العلماء فقط. ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ يعنى: فى تركهم ذلك. قاله ابن عباس. وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: ما فى القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾. وروى ابن أبى حاتم عن يحيى بن يعمر قال: خطب على بن أبى طالب فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصى، ولم ينههم الربانيون والأخبار، فلما تمادوا فى المعاصى [ولم ينههم الربانيون والأخبار] أخذتهم العقوبات. فمروا بالمعروف وانهاوا عن المنكر، قبل أن ينزل بكم مثل الذى نزل بهم، واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يقطع رزقاً ولا يقرب أجلاً (١). وروى الإمام أحمد عن جرير، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصى هم أعز منه وأمنع، ولم يغيروا، إلا أصابهم الله منه بعداب». ورواه أبو داود وابن ماجه، بنحوه (٢).

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلِعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَئِنْ بَدَّلْتَ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَنًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعُدَّةَ وَالْبَعْضَةَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَسَعَّوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾
﴿١٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْنَصَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

(١) إسناده صحيح، ولكن فى سماع يحيى بن يعمر من على كلام. والزيادة من المخطوطة الأخرى الصحيحة.

(٢) المسند (٤ / ٣٦٣ حلى). وإسناده صحيح.

يخبر تعالى عن اليهود - عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة - بأنهم وصفوه ، عز وجل وتعالى عن قولهم علواً كبيراً - بأنه بخيل ! كما وصفوه بأنه فقير وهم أغنياء ! وعبروا عن البخل بقولهم : ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ . قال ابن عباس : قوله : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ : قال : لا يعنون بذلك أن يد الله موثقة ، ولكن يقولون : بخيل يعنى : أمسك ما عنده بخلاً ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً . وكذا روى عن مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والسدى ، والضحاك ، وقرأ : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩] يعنى : أنه ينهى عن البخل وعن التبذير ، وهو زيادة الإنفاق فى غير محله ، وعبر عن البخل بقوله : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ .

وهذا هو الذى أراد هؤلاء اليهود - عليهم لعائن الله - وقد قال عكرمة : إنها نزلت فى فنحاص اليهودى - عليه لعنة الله - وقد تقدم أنه الذى قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] فضربه أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه (١) . وروى ابن إسحاق عن ابن عباس ، قال : قال رجل من اليهود ، يقال له : شأس بن قيس : إن ربك بخيل لا ينفق ! فأنزل الله : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ .

وقد رد الله ، عز وجل ، عليهم ما قالوه ، وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه واثبتكوه ، فقال : ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ . وهكذا وقع لهم ، فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمر عظيم ، كما قال تعالى : ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا . أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٣ - ٥٥] ، وقال تعالى : ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ [آل عمران: ١١٢] .

ثم قال تعالى : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أى : بل هو الواسع الفضل ، الجزيل العطاء ، الذى ما من شئ إلا عنده خزائنه ، وهو الذى ما بخلقه من نعمة فمنه وحده لا شريك له ، الذى خلق لنا كل شئ مما نحتاج إليه ، فى ليلنا ونهارنا ، وحضرنا وسفرنا ، وفى جميع أحوالنا ، كما قال : ﴿وَاتَّكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] . والآيات فى هذا كثيرة ، وقد روى الإمام أحمد بن حنبل عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ يَمِينَ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ ، سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مِنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِيضْ مَا فِى يَمِينِهِ» قال : «وعرشه على الماء ، وفى يده الأخرى القبض ، يرفع ويخفض » : وقال : يقول الله تعالى : «أَنْفَقَ أَنْفَقَ عَلَيْكَ» أخرجه فى الصحيحين (٢) .

وقوله : ﴿وَلَنَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُفْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أى : يكون ما آتاك الله يا محمد من النعمة نقمة فى حق أعدائك من اليهود وأشباههم ، فكما يزداد به المؤمنون تصديقاً وعملاً

(١) مضى عند تفسير الآية : (١٨١) من سورة آل عمران .

(٢) المسند (٨١٢٥) فى صحيفة همام بن منبه . والبخارى (١٣ / ٣٤٧ فتح) ومسلم (١ / ٢٧٣ ، ٢٧٤) . وانظر أيضا المسند (٧٢٩٦) .

صالحًا وعلماً نافعا، يزداد به الكفرة الحاسدون لك ولأمتك ﴿طُفَيْنَا﴾ وهو: المبالغة والمجاوزة للحد في الأشياء ﴿وَكُفِّرُوا﴾ أى: تكذبا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَلِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] . وقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعنى: أنه لا تجتمع قلوبهم، بل العداوة واقعة بين فرقتهم بعضهم فى بعض دائما؛ لأنهم لا يجتمعون على حق، وقد خالفوك وكذبوك. وقال إبراهيم النخعى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ قال: الخصومات والجدال فى الدين. رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿كَلَّمَا أَوْفَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ أى: كلما عقدوا أسبابا يكيدونك بها، وكلما أبرموا أمورا يحاربونك بها يبطئها الله ويرد كيدهم عليهم، ويحيق مكرهم السيئ بهم ﴿وَيَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ أى: من سجنيتهم أنهم دائما يسعون فى الإفساد فى الأرض، والله لا يحب من هذه صفته. ثم قال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أى: لو أنهم آمنوا بالله ورسوله، واتقوا ما كانوا يتعاطونه من المآثم والمحارم ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أى: لأزلنا عنهم المحذور ولخصلنا لهم المقصود. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِن رَّبِّهِمْ﴾ قال ابن عباس، وغيره: يعنى القرآن ﴿لَأَكْلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أى: لو أنهم عملوا بما فى الكتب التى بأيديهم عن الأنبياء، على ما هى عليه، من غير تحريف ولا تبديل ولا تغيير، لقادهم ذلك إلى اتباع الحق والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمدا ﷺ؛ فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه حتما لا محالة.

وقوله: ﴿لَأَكْلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ يعنى: كثرة الرزق النازل عليهم من السماء والنابت لهم من الأرض. كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [الأعراف: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ الآية [الروم: ٤١] . وقد ذكر ابن أبى حاتم عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يرفع العلم». فقال زياد بن ليبيد: يا رسول الله، وكيف يرفع العلم وقد قرأنا القرآن وعلمناه أبناءنا؟ فقال: «ثكلتك أمك يابن ليبيد! إن كنت لأراك من أفقه أهل المدينة، أو ليست التوراة والإنجيل بأيدي اليهود والنصارى، فما أغنى عنهم حين تركوا أمر الله» ثم قرأ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾. هكذا أورده ابن أبى حاتم معلقا من أول إسناده، مرسلأ فى آخره . وقد روى الإمام أحمد عن سالم بن أبى الجعد، عن زياد بن ليبيد أنه قال: ذكر النبى ﷺ شيئا فقال: «وذاك عند [أوان] ذهاب العلم». قال: قلنا: يا رسول الله، وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا، وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم إلى يوم القيامة؟ قال: «ثكلتك أمك يابن أم ليبيد! إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيها بشيء؟!». ورواه ابن

ماجه . وإسناده صحيح (١) .

وقوله: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الاعراف: ١٥٩] ، وكقوله عن أتباع عيسى: ﴿فَاتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧] . فجعل أعلى مقاماتهم الاقتصاد ، وهو أوسط مقامات هذه الأمة ، وفوق ذلك رتبة السابقة ، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ . جَاءَتْ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا﴾ الآية [فاطر: ٣٢ ، ٣٣] . والصحيح أن الأقسام الثلاثة من هذه الأمة كلهم يدخلون كلهم الجنة .

ربع

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ باسم الرسالة ، وأمرأ له بإبلاغ جميع ما أرسله الله به ، وقد امثل صلوات الله وسلامه عليه ذلك ، وقام به أتم القيام . روى البخارى عن عائشة قالت: من حدثك أن محمداً كتم شيئاً مما أنزل الله عليه فقد كذب ، وهو يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ . هكذا رواه ههنا مختصراً ، وقد أخرجه فى مواضع من صحيحه مطولاً . وكذا رواه مسلم والترمذى والنسائى وفى الصحيحين عنها أيضاً أنها قالت: لو كان محمد ﷺ كاتماً من القرآن شيئاً لكتّم هذه الآية: ﴿وَتَخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ

(١) المسند (١٧٥٤٥) وابن ماجه (٤٠٤٨) . وزیاد بن لیث: صحابى قديم ، أنصارى من الأوس ، أسلم قديماً وخرج إلى رسول الله ﷺ بمكة ، فأقام معه حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، فهاجر معه ، فكان يقال : زياد مهاجرى أنصارى . وشهد بدرًا وأحدًا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . كما فى ابن سعد (٣ / ٢ / ١٣١) .

والحديث رواه أيضا الحاكم (٣ / ٥٩٠) من هذا الوجه ، وقال : « صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه » . وذكره البخارى فى الكبير (٢ / ١ / ٣١٥) موجزاً بالإشارة كعادته ، ثم قال : « ولا أرى سالماً سمع من زياد » . وذكر الحافظ فى الإصابة (٣ / ٢٠) ونسبه للمسند وابن ماجه والحاكم ، ثم قال : « وسالم لم يلق زياداً » . وله شاهد أخرجه الطبرانى فى الأوسط ، من طريق أبى طوالة عن زياد بن ليث ، نحوه . وهذا منقطع أيضاً بين أبى طوالة وزیاد . وفى الترمذى والدارمى من طريق معاوية بن صالح ، عن عبد الرحمن بن جبیر بن نفيّر عن أبيه ، عن أبى الدرداء ، قال : كنا مع رسول الله ﷺ فقال : هذا أوان يخلص العلم ، فقال له زياد بن ليث الأنصارى - فذكر الحديث - قال : فلقيت عبادة بن الصامت ، فقال: صدق ، وأول ما يرفع الخشوع » . وهذا الحديث الذى أشار إليه الحافظ - هو فى الترمذى (٣ / ٣٧١) وقال « حديث حسن غريب » ثم ذكر أنه رواه بعضهم « عن عبد الرحمن بن جبیر بن نفيّر عن أبيه ، عن عوف بن مالك ، عن النبى ﷺ » وحديث عوف بن مالك - الذى أشار إليه الترمذى - رواه أحمد فى المسند (٦ / ٢٦ ، ٢٧ حلى) ، لكن من رواية الوليد بن عبد الرحمن الجرشى ، عن جبیر بن نفيّر ، عن عوف بن مالك . وإسناده صحيح . وقد ذكر الحافظ فى الإصابة أنه رواه النسائى وابن حبان والحاكم .

وهذه الروايات تقوى رواية سالم بن أبى الجعد عن زياد بن ليث مع انقطاعها .

أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ» [الاحزاب: ٣٧]. وروى ابن أبي حاتم هارون بن عترة، عن أبيه قال: كنت عند ابن عباس، فجاءه رجل فقال له: إن ناساً يأتونا فيخبرونا أن عندكم شيئاً لم يیده رسولُ الله ﷺ للناس؟ فقال: ألم تعلم أن الله تعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾؟! والله ما وَرَّثنا رسول الله ﷺ سوداءً في بيضاء. وإسناده جيد. وفي صحيح البخارى من رواية أبى جَحِيفَةَ وَهَب بن عبد الله السَّوَّائى قال: قلت لعلی بن أبى طالب: هل عندكم شيء من الوحي مما ليس فى القرآن؟ فقال: لا، والذى فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فَهَمَّا يعطيه الله رجلاً فى القرآن، وما فى هذه الصحيفة. قلت: وما فى هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر. وقال البخارى: قال الزهرى: من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلىنا التسليم.

وقد شهدت له أمته ببلاغ الرسالة وأداء الأمانة، واستنطقهم بذلك فى أعظم المحافل، فى خطبته يوم حجة الوداع، وقد كان هناك من أصحابه نحو من أربعين ألفاً، كما ثبت فى صحيح مسلم، عن جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ قال فى خطبته يومئذ: «أيها الناس، إنكم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بَلَغْتَ وأَدَيْتَ ونصحت. فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكسها إليهم ويقول: «اللهم هل بَلَغْتُ». وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ فى حجة الوداع: «يا أيها الناس، أى يوم هذا؟» قالوا: يوم حرام. قال: «أى بلد هذا؟» قالوا: بلد حرام. قال: «فأى شهر هذا؟» قالوا: شهر حرام. قال: «فإن أموالكم ودماءكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، فى بلدكم هذا، فى شهركم هذا». ثم أعادها مراراً. ثم رفع إصبعه إلى السماء فقال: «اللهم هل بلغت؟» مراراً - قال: يقول ابن عباس: والله [إنها] لَوَصِيَّةٌ إلى ربه عز وجل، ثم قال: «ألا فليبلغ الشاهد الغائب، لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض». وقد روى البخارى نحوه (١).

وقوله: «وإن لم تفعل فما بَلَغْتَ رسالته» يعنى: وإن لم تؤد إلى الناس ما أرسلتك به «فَمَا بَلَغْتَ رسالته» أى: وقد عَلِمَ ما يترتب على ذلك لو وقع. وقوله: «والله يعصمك من الناس» أى: بلغ أنت رسالتى، وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك. أعدائك ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك. وقد كان النبى ﷺ قبل نزول هذه الآية يُحَرَّسُ، كما روى الإمام أحمد: أن عائشة كانت تحدث: أن رسول الله ﷺ سهر ذات ليلة، وهى إلى جنبه، قالت: فقلت: ما شأنك يا رسول الله؟ قال: «ليت رجلاً صالحاً من أصحابى يحرسنى الليلة» قالت: فبينما أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح، فقال: «من هذا؟» فقال: أنا سعد ابن مالك. فقال: «ما جاء بك؟» قال: جئت لأحرسك يا رسول الله. قالت: فسمعت غطيظ

(١) المسند (٢٠٣٦). وذكره المؤلف الحافظ فى التاريخ (٥ / ١٩٤) عن رواية البخارى. وانظر الفتح (٣ / ٤٥٧)،

رسول الله ﷺ في نومه. أخرجاه في الصحيحين . وروى ابن أبي حاتم عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يُحَرِّسُ حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾. قالت: فأخرج النبي ﷺ رأسه من القبة، وقال: «يا أيها الناس، انصرفوا ، فقد عصمني الله عز وجل». ورواه الترمذى وسعيد بن منصور وابن جرير والحاكم . قال الترمذى : حديث غريب . وقال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه (١) .

ومن عصمة الله عز وجل لرسوله حفظه له من أهل مكة وصناديدها وحسادها ومُعَانِدِيهَا ومترفيها، مع شدة العداوة والبغضة ونصب المحاربة له ليلاً ونهاراً، بما يخلقه الله تعالى من الأسباب العظيمة بقدره وحكمته العظيمة. فصانه في ابتداء الرسالة بعمه أبى طالب، إذ كان رئيساً مطاعاً كبيراً في قريش، وخلق الله في قلبه محبة طبيعية لرسول الله ﷺ لا شرعية، ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها، ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر هابوه واحترموه، فلما مات عمه أبوطالب نال منه المشركون أذى سيراً، ثم قيض الله له الانصار ، فبايعوه على الإسلام، وعلى أن يتحول إلى دارهم - وهى المدينة - فلما صار إليها منعوه من الأحمر والأسود، وكلما هم أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله ورد كيده عليه . لما كاده اليهود بالسحر حماه الله منهم، وأنزل عليه سورتي المعوذتين دواء لذلك الداء . ولما سم اليهود ذراع تلك الشاة بخير ، أعلمه الله به ، وحماه منه ؛ ولهذا أشباه كثيرة جداً يطول ذكرها ، وقصة «عَوْرَتِ بْنِ الْحَارِثِ» مشهورة في الصحيح (٢). وروى ابن مَرْدُويه عن أبى هريرة قال: كنا إذا صحبنا رسول الله ﷺ في سفر تركنا له أعظم شجرة وأظلمها، فينزل تحتها، فنزل ذات يوم تحت شجرة وعلّق سيفه فيها، فجاء رجل فأخذه فقال: يا محمد، من يمنعك منى؟ فقال رسول الله ﷺ: «الله يمنعني منك، ضع السيف». فوضعه، فأنزل الله، عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾. ورواه أبو حاتم بن حَبَّانَ في صحيحه (٣) . وروى الإمام أحمد عن جَعْدَةَ - هو ابن خالد بن الصِّمَّةِ الجُشْمَى - قال: سمعت النبي ﷺ ورأى رجلاً سميناً، فجعل النبي ﷺ يومئ إلى بطنه بيده ويقول: «لو كان هذا في غير هذا لكان خيراً لك». قال: وأثنى النبي ﷺ برجل فقيل: هذا أراد أن يقتلك . فقال له النبي ﷺ: «لم تُرَعْ ، ولو أردتَ ذلك لم يسلكك الله على» (٤).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أى: بلغ أنت، والله هو الذى يهدى من يشاء،

(١) إسناده صحيح . وهو فى الترمذى (٩٦ / ٤) والطبرى (١٢٢٧٦) والحاكم (٣١٣ / ٢) ووافقه الذهبى على تصحيحه . ورواه بعضهم مرسلًا - عند الطبرى وغيره - وأشار الترمذى إلى ذلك . وما هذه بعلقة تقدر فى صحة الموصول .

(٢) انظر ما مضى عند تفسير الآية (١٠٢) من سورة النساء ، والآيات (٧ - ١١) من سورة المائدة .

(٣) نقله السيوطى فى الدر المنثور (٢ / ٢٩٩) ولم ينسبه لغبر ابن مردويه وابن حبان .

(٤) المسند (١٥٩٣٣) ، وإسناده صحيح . وذكره الهيثمى فى الزوائد (٨ / ٢٢٦ ، ٢٢٧) وقال : « رواه أحمد والطبرانى باختصار ، ورجاله رجال الصحيح غير أبى إسرائيل الجشمى ، وهو ثقة » .

ويضل من يشاء، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال: ﴿فَأَنمَّا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيُزِيدَنَّا كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَارَىٰ مِّنْ أُمَّةٍ إِثْمًا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أى: من الدين ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ أى: حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزلة من الله على الانبياء، وتعملوا بما فيها وما فيها الأمر باتباع محمد ﷺ والإيمان ببعثه، والافتداء بشريعته؛ ولهذا قال مجاهد، فى قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعنى: القرآن العظيم. وقوله: ﴿وَلَيُزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ تقدم تفسيره (١) ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أى: فلا تحزن عليهم ولا يهيدنك ذلك منهم (٢).

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهم المسلمون ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وهم حملة التوراة ﴿وَالصَّابِقُونَ﴾ لما طال الفصل حسن العطف بالرفع. والصابئون: طائفة من النصارى والمجوس، ليس لهم دين. قاله مجاهد، وعنه: من اليهود والمجوس. وقال سعيد بن جبير: من اليهود والنصارى، وقال قتادة: هم قوم يعبدون الملائكة، ويصلون إلى غير القبلة، ويقرؤون الزبور. وقال ابن وهب: أخبرنى ابن أبى الزناد، عن أبيه قال: الصابئون: قوم بما يلى العراق، وهم بكوثى، وهم يؤمنون بالنبيين كلهم، ويصومون كل سنة ثلاثين يوما، ويصلون إلى اليمن كل يوم خمس صلوات. وقيل غير ذلك. وأما النصارى فمعروفون، وهم حملة الإنجيل.

والمقصود: أن كل فرقة آمنت بالله وباليوم الآخر، وهو المعاد والجزاء يوم الدين، وعملت عملاً صالحاً، ولا يكون ذلك كذلك حتى يكون موافقاً للشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين، فمن اتصف بذلك ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه، ولا على ما تركوا وراء ظهورهم، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. وقد تقدم الكلام على نظيراتها فى سورة البقرة، بما أغنى عن إعادته ههنا (٣).

(١) تقدم عند تفسير الآيات (٦٤ - ٦٦) من سورة المائدة .

(٢) « ولا يهيدنك » أى : لا يزعجك . يقال : « هاده الشئ يهيد » إذا أفرغه وكرهه . وفى المطبوعة : « ولا يهينك ! » وهو تخليط لا معنى له . والصواب من المخطوطتين ، وانظر فى تفسير مثل هذه الآية : (٦٢) من سورة البقرة .

(٣) مضى عند تفسير الآيتين : (٣٨ ، ١١٢) من سورة البقرة . وانظر فى تفسير مثل هذه الآية ما مضى عند تفسير الآية : (٦٢) من سورة البقرة .

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ (٧٠) وَحَسِبُوا أَنَّا لَنَكُونُ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

يذكر تعالى أنه أخذ العهود والمواثيق على بني إسرائيل، على السمع والطاعة لله ولرسوله، فنقضوا تلك العهود والمواثيق، واتبعوا آراءهم وأهواءهم وقدموها على الشرائع، فما وافقهم منها قبلوه، وما خالفهم ردوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ. وَحَسِبُوا أَنَّا لَنَكُونُ فِتْنَةً﴾ أى: وحسبوا ألا يترتب لهم شر على ما صنعوا، فترتب، وهو: أنهم عموا عن الحق وصموا، فلا يسمعون حقاً ولا يهتدون إليه، ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أى: بما كانوا فيه ﴿ثُمَّ عَمُوا﴾ أى: بعد ذلك ﴿وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أى: مطلع عليهم، وعليهم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية منهم.

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي لِيَرْبِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّكُمْ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ (٧١) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٢﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٣﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأَمَّهُ صَدِيقَةٌ كَانَا يَآكُلَانِ الْأَطْعَامَ انْظُرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ

﴿ أَفْ يُؤْفَكُونَ ﴾ (٧٠)

يقول تعالى حاكماً بتكفير فرق النصارى، من الملكية واليعقوبية والنسطورية، ممن قال منهم بأن المسيح هو الله! تعالى الله عن قولهم وتزهر وتقدر علواً كبيراً.

هذا وقد تقدم إليهم المسيح بأنه عبد الله ورسوله، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أن قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾، ولم يقل: إني أنا الله، ولا: ابن الله. بل قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ٣٠ - ٣٦].

وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته، آمراً لهم بعبادة الله ربه وربهم وحده لا شريك له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ أى: فيعبد معه غيره ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ أى: فقد أوجب له النار، وحرم عليه الجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ افْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الاعراف: ٥٠]. وفي الصحيح: أن النبي ﷺ بعث منادياً ينادى في الناس: ﴿إِنَّ الْجَنَّةَ

لا يدخلها إلا نفس مسلمة » ، وفي لفظ : « مؤمنة »^(١). وتقدم في أول سورة النساء عند قوله : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ » [النساء : ٤٨ ، ١١٦] حديث : « الدواوين ثلاثة » ، فذكر منهم ديواناً لا يغفره الله ، وهو الشرك بالله ، قال الله تعالى : « مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ » والحديث في مسند أحمد^(٢). ولهذا قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبنى إسرائيل : « إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ » أى : وما له عند الله ناصر ولا معين ولا منقذ عما هو فيه .

وقوله : « لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ » ، قال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسن الهستجاني ، حدثنا سعيد بن الحكم بن أبى مريم ، حدثنا الفضل ، حدثنى أبو صخر فى قول الله : « لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ » والصحيح : أنها نزلت فى النصارى خاصة ، قاله مجاهد وغير واحد . ثم اختلفوا فى ذلك ، فقليل : المراد بذلك كفارهم فى قولهم بالأقانيم الثلاثة ، وهو أقنوم الأب ، وأقنوم الابن ، وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن !! تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ، قاله ابن جرير وغيره : والطوائف الثلاثة - من الملكية واليعقوبية والنسطورية - تقول بهذه الأقانيم ! وهم مختلفون فيها اختلافاً متبايناً ليس هذا موضع بسطه ، وكل فرقة منهم تكفر الأخرى ، والحق أن الثلاث كافرة . وقال السدى وغيره : نزلت فى جعلهم المسيح وأمه إلهين مع الله ، فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار ، قال السدى : وهى كقوله تعالى فى آخر السورة : « وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ » الآية [المائدة : ١١٦] . وهذا القول هو الأظهر ، والله أعلم . قال الله تعالى : « وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ » أى : ليس متعدد ، بل هو وحده لا شريك له ، إله جميع الكائنات وسائر الموجودات . ثم قال تعالى متوعداً لهم ومتهدداً : « وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ » أى : من هذا الافتراء والكذب « لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى : فى الآخرة من الأغلال والنكال . ثم قال : « أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » وهذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه ، مع هذا الذنب العظيم وهذا الافتراء والكذب والإفك - يدعوهم إلى التوبة والمغفرة ، فكل من تاب إليه تاب عليه .

ثم قال : « مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ » أى : له سوية أمثاله^(٣) من سائر المرسلين المتقدمين عليه ، وأنه عبد من عباد الله ورسول من رسله الكرام ، كما قال : « إِنَّهُ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ » [الزخرف : ٥٩] . وقوله : « وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ » أى : مؤمنة به مصدقة له . وهذا أعلى مقاماتها ، فدل على أنها ليست بنبية ، كما زعمه ابن حزم وغيره - ممن

(١) هو جزء من حديث لابن مسعود ، فى المسند (٣٦٦١) . ورواه الشيخان ، كما بينا هناك . وجزء من حديث آخر لأبى هريرة ، فى المسند (٨٠٧٦) . ورواه الشيخان أيضاً .

(٢) مضى عند تفسير الآيتين : (٤٧ ، ٤٨) من نفس السورة .

(٣) قوله : « له سوية أمثاله » : بفتح السين وكسر الواو وتشديد الباء ، أى : هو مستو معهم فى عبوديته لربه ، كأمثاله من الأنبياء . يقال : « هما على سوية من الأمر » ، أى : على استواء . انظر اللسان (١٩ / ١٤٢) .

ذهب إلى نبوة سارة أم إسحاق، ونبوة أم موسى، ونبوة أم عيسى - استدلالاً منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم، وبقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]، وهذا معنى النبوة، والذي عليه الجمهور: أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرجال، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقد حكى الشيخ أبو الحسن الأشعري الإجماع على ذلك. وقوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ أي: يحتاجان إلى التغذية به، وإلى خروجه منهما، فهما عبدان كسائر الناس وليسا بالهين كما زعمه فرق النصارى الجهلة، عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة. ثم قال تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ تَبَيَّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ أي: نوضحها ونظهرها ﴿ثُمَّ انْظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: ثم انظر بعد هذا البيان والوضوح والجلاء أين يذهبون؟! وبأى قول يتمسكون؟ وإلى أى مذهب من الضلال يذهبون؟!

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

يقول تعالى منكراً على من عبد غيره من الأصنام والأنداد والأوثان، ومبيناً له أنها لا تستحق شيئاً من الإلهية: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بنى آدم، ودخل في ذلك النصارى وغيرهم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: لا يقدر على إيصال ضرر إليكم، ولا إيجاد نفع ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: فلم عدلتن عن أفراد السميع لأقوال عباده، العليم بكل شيء إلى عبادة جماد لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئاً، ولا يملك ضرراً ولا نفعاً لغيره ولا لنفسه؟

ثم قال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي: لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق، ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه، حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية، كما صنعتم في المسيح، هو نبي من الأنبياء، فجعلتموه إلهاً من دون الله وما ذاك إلا لاعتدائكم بشيوخ الضلال، الذين هم سلفكم ممن ضل قديماً ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي: وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال، إلى طريق الغواية والضلال.

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَا أَتَوْا مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨١﴾

يخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بنى إسرائيل من دهر طويل، فيما أنزله على داود نبيه، عليه السلام، وعلى لسان عيسى ابن مريم، بسبب عصيانهم لله واعتدائهم على خلقه. قال ابن عباس: لعنوا في التوراة والإنجيل وفي الزبور، وفي الفرقان.

ثم بين حالهم فيما كانوا يعتمدونه في زمانهم، فقال: ﴿كَانُوا لَا يَتَّاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرِ فَعْلُوهُ﴾ أي: كان لا ينهى أحد منهم أحداً عن ارتكاب المآثم والمحارم، ثم ذمهم على ذلك ليحذر أن يُركبَ مثل الذي ارتكبوا، فقال: ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾. وروى الإمام أحمد عن أبي عبيدة، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي، نهتهم علماءهم فلم ينتهوا، فجالسهم في مجالسهم - قال يزيد: وأحسبه قال: وأسواقهم - وواكلوهم وشاربوهم. فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون»، وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس فقال: «لا والذي نفسي بيده، حتى تأطروهم على الحق أطرا». ورواه أبو داود عن عبد الله ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل كان الرجل يلقي الرجل فيقول: يا هذا، اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك. ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: ﴿لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ إلى قوله: ﴿فَاسْقُون﴾، ثم قال: «كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرا - أو نقسرنه على الحق قسراً». وكذا رواه الترمذى وابن ماجه، وقال الترمذى: «حسن غريب». ثم رواه هو وابن ماجه عن أبي عبيدة مرسلًا^(١). والاحاديث في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جداً، ولنذكر منها ما يناسب هذا المقام. فقد تقدم حديث جرير عند قوله: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٦٣] (٢)، وسيأتى عند قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، حديث أبي بكر الصديق وأبي ثعلبة الخشني. فروى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان: أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم». ورواه الترمذى وقال: هذا حديث حسن (٣). وفي الصحيح عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان». رواه

(١) المسند (٣٧١٣) وأبو داود (٤٣٣٦) والترمذى (٧٤ / ٤). ونقله المنذرى في الترغيب (٣ / ١٦٩ ، ١٧٠) من روايتي أبي داود والترمذى، ثم قال: «رواه من طريق أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود، ولم يسمع من أبيه، وقيل: سمع. ورواه ابن ماجه عن أبي عبيدة مرسلًا». و«الاطر» - بسكون الطاء: عطف الشيء، تقبض على أحد طرفيه فتعوجه.

(٢) مضى تخريجه عند الآية: (٦٣) من نفس السورة، وهو حديث «جرير»، كما ثبت في المخطوطتين هنا على الصواب. وفي المطبوعة «جابر»! وهو تحريف ومخالف للواقع.

(٣) المسند (٣٨٨ / ٥ ، ٣٨٩ حلى). وإسناده صحيح. وقد مضى تخريجه عند تفسير الآيات: (١٠٤ - ١٠٩) من سورة آل عمران.

مسلم (١).

وروى أبو داود عن عَدِيّ بن عَدِيّ ، عن العُرْس - يعنى ابن عميرة - عن النبي ﷺ قال :
 « إذا عملت الخطيئة فى الأرض كان من شَهِدَهَا فكَرَّهَهَا - وقال مرة: فأنكرها - كان كمن غاب
 عنها، ومن غاب عنها فَرَضِيهَا كان كمن شَهِدَهَا. تفرد به أبو داود، ثم رواه مرسلًا (٢).
 وروى أبو داود عن أبى البَخْتَرى قال: أخبرنى من سمع النبي ﷺ؛ أن النبي ﷺ - قال: «لن
 يهلك الناس حتى يعذروا - أو: يُعْذِرُوا - من أنفسهم» (٣). وروى ابن ماجه عن أبى سعيد
 الخدرى؛ أن رسول الله ﷺ قام خطيباً، فكان فيما قال: « ألا لا يمنع رجلاً هَيْبَةُ الناس أن يقول
 الحق إذا علمه». قال: فبكى أبو سعيد وقال: قد - والله - رأينا أشياء، فَهَبْنَا (٤). وعن أبى
 سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر». رواه أبو داود،
 والترمذى، وابن ماجه، وقال الترمذى: حسن غريب من هذا الوجه (٥).

وروى ابن ماجه أيضاً عن أبى أمامة قال: عَرَّضَ لرسول الله ﷺ رجلٌ عند الجَمْرَةِ الأولى
 فقال: يا رسول الله، أى الجهاد أفضل؟ فسكت عنه. فلما رَمَى الجَمْرَةَ الثانية سألَه؟ فسكت عنه.
 فلما رمى جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ، ووضع رجله فى الغَرَزِ ليركب، قال: « أين السائل؟ » قال: أنا يا رسول
 الله، قال: « كلمة حق تقال عند ذى سلطان جائر ». تفرد به (٦). وروى الإمام أحمد عن حذيفة
 عن النبي ﷺ قال : « لا ينبغي لمسلم أن يَذُلَّ نفسه . قيل : وكيف يذل نفسه ؟ قال :
 « يتعرض من البلاء لما لا يطيق » . وكذا رواه الترمذى وابن ماجه . وقال الترمذى: هذا

(١) مسلم (٢٩/١) . وقد مضى تخريجه عند تفسير الآيات : (١٠٤ - ١٠٩) من سورة آل عمران . وذكرنا هناك
 أن الحافظ ابن كثير وهم فى ذلك الموضع فجعله من حديث أبى هريرة . وها هو يذكره هنا علي الصواب .
 (٢) أبو داود (٤٣٤٥ ، ٤٣٤٦) . وإسناد الموصول صحيح .

(٣) أبو داود (٤٣٤٧) . وإسناده صحيح . وجهالة الصحابى لا تضر . وقوله : « حتى يعذروا » - قال ابن الأثير :
 « يقال : أعذر فلان من نفسه ، إذا أمكن منها . يعنى : أنهم لا يهلكون حتى تكثر ذنوبهم وعبوبهم ،
 فيستوجبون العقوبة ، ويكون لمن يعذبهم عذر، كأنهم قاموا بعذره فى ذلك . ويروى بفتح الياء ، من: عذرتة .
 وهو بمعناه . وحقيقة عذرت : محوت الإساءة وطمسها » .

(٤) ابن ماجه (٤٠٠٧) . وقد رواه أحمد بنحوه (١١٧٠١) . ورواه أيضاً بنحو معناه ، مطولاً ومختصراً
 (١١٠٣٠ ، ١١٤٢٣ ، ١١٤٤٨ ، ١١٥١٨ ، ١١٨١٦ ، ١١٨٤٧ ، ١١٨٥٤ ، ١١٨٩٢) . وقد مضى

حديث آخر أطول منه ، فيه نحو معناه عند تفسير الآية : (٥٤) من نفس السورة .

(٥) ابن ماجه (٤٠١١) وأبو داود (٤٣٤٤) والترمذى (٣ / ٢١٠) . وهو من رواية عطية العوفى عن أبى سعيد .
 وعطية ضعيف . ولكنه ثابت ضمن حديث مطول ، رواه أحمد بإسنادين صحيحين ، من رواية أبى
 نضرة عن أبى سعيد (١١٦٠ ، ١١٦٠٩) .

(٦) ابن ماجه (٤٠١٢) . ورواه أحمد من هذا الوجه (٥ / ٢٥١ ، ٢٥٦ حلى) : ثم ذكر المؤلف الحافظ هنا
 حديثى أبى سعيد « لا يحقر أحدكم نفسه . . . » ، و « إن الله ليسأل العبد يوم القيامة » - ذكرهما من رواية ابن
 ماجه . وقد مضيا عند تفسير الآيتين : (٥٤ ، ٥٥) من نفس السورة من رواية المسند . فاكفينا بالإشارة إليهما .

حديث حسن غريب (١). وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال: قيل: يا رسول الله، متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال: «إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم». قلنا: يا رسول الله، وما ظهر في الأمم قبلنا؟ قال: «الملك في صغاركم، والفاحشة في كباركم، والعلم في رذالكم». قال زيد: تفسير معنى قول النبي ﷺ: «والعلم في رذالكم»: إذا كان العلم في الفساق. تفرد به ابن ماجه (٢). وسيأتى في حديث أبي ثعلبة، عند قوله: «لا يضركم من ضل إذا هتديتم» [المائدة: ١٠٥] شاهد لهذا، إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

وقوله: «تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَقُولُونَ الذِّينَ كَفَرُوا» قال مجاهد: يعنى بذلك المنافقين. وقوله: «لَيْسَ مَا قَدَّمْتَ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ» يعنى بذلك موالاتهم للكافرين، وتركهم موالاة المؤمنين، التي أعقبتهم نفاقاً في قلوبهم، وأسخطت الله عليهم سخطاً مستمراً إلى يوم معادهم؛ ولهذا قال: «أَنْ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» فسر بذلك ما ذمهم به. ثم أخبر أنهم «فِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ» يعنى يوم القيامة. وقوله تعالى: «وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ» أى: لو آمنوا حق الإيمان بالله والرسول والفرقان لما ارتكبوا ما ارتكبه من موالاة الكافرين فى الباطن، ومعاداة المؤمنين بالله والنبي وما أنزل إليه «وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ» أى: خارجون عن طاعة الله ورسوله، مخالفون لآيات وحيه وتنزيله.

الجزء ٧
﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ إِنَّكَ بِدَارِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وَرَهْبَانًا وَآتَمَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨١﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٢﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَأَنْتَبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٥﴾

قال ابن عباس: نزلت هذه الآيات فى النجاشى وأصحابه، الذين حين تلا عليهم جعفر بن

(١) المسند (٥ / ٤٠٥ حلى) وابن ماجه (٤٠١٦). وإسنادهما صحيحان. وقد مضت الإشارة إليه بمعناه عند الآيتين: (٥٤، ٥٥) من نفس السورة حيث ذكره المؤلف هناك منسوباً للصحيح. وبيننا وهمه هناك وما هو ذا يذكره هنا على الصواب.

(٢) ابن ماجه (٤٠١٥). وقال البوصيرى فى روايته: «إسناده صحيح، رجاله ثقات». ورواه أيضاً أحمد فى المسند (١٢٩٧٥). وإسناده صحيح. وزيد - الذى فسر الكلمة فى الحديث - هو زيد بن يحيى بن عبيد الخزاعى، شيخ أحمد، وشيخ شيخ ابن ماجه فى هذا الحديث. وتفسيره لم يذكر فى المسند. و«رذل»: بضم الراء وتخفيف الذال المعجمة، وهو جمع «رذل» بفتح الراء وسكون الذال، وهو من الجمع العزيز، كما فى اللسان. و«الرذل»: الدون الخسيس. ووقع فى ابن ماجه: «فى رذالكم». وأخشى أن يكون خطأ من ناسخ أو طابع، فهو مخالف لما ثبت هنا فى المخطوطتين والمطبوعة، ولما ثبت فى المسند.

أبى طالب بالحبشة القرآن بكوا حتى أخضلوا لحاهم. وهذا القول فيه نظر؛ لأن هذه الآية مدنية، وقصة جعفر مع النجاشي قبل الهجرة. واختار ابن جرير أن هذه الآيات نزلت في صفة أقوام بهذه المثابة، سواء كانوا من الحبشة أو غيرها.

فقوله : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ ما ذاك إلا لأن كفر اليهود عناد وجحود ومباهنة للحق، وعَمَطٌ للناس وتَنَقُّصٌ بحملة العلم. ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتى هموا بقتل الرسول ﷺ غير مرة وسموه وسحروه، وألبوا عليه أشباههم من المشركين - عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

وقوله : ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ أى : الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله، فيهم مودة للإسلام وأهله فى الجملة، وما ذاك إلا لما فى قلوبهم، إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرافة، كما قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧]، وفى كتابهم : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر! وليس القتال مشروعاً فى ملتهم؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرَهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أى : يوجد فيهم القسيسون - وهم خطباؤهم وعلمائهم، واحدهم : قسيس وقس أيضاً، وقد يجمع على قسوس . والرهبان : جمع راهب، وهو : العابد. مشتق من الرهبة، وهى الخوف، كراكب وركبان، وفارس وفرسان. قال ابن جرير : وقد يكون الرهبان واحداً وجمعه رهابين، مثل قربان وقرايين، وجُرْذان وجُرَازين، وقد يجمع على رهابنة.

فقوله : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرَهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع، ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف، فقال : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ أى : مما عندهم من البشارة ببعثة محمد ﷺ ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أى : مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به.

وروى ابن أبى حاتم وابن مردويه والحاكم عن ابن عباس فى قوله : ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أى : مع محمد ﷺ، وأمه ، هم الشاهدون، يشهدون لنبيه ﷺ أنه قد بلغ، وللرسل أنهم قد بلغوا. قال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه (١).

وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون فى قوله : ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ الآية [آل عمران: ١٩٩] ، وهم الذين قال الله فيهم : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ. وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللَّهِ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ. [أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ. وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص : ٥٢ - ٥٥] ؛ ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿فَاثَابُهُمُ اللَّهُ

يَمَّا قَالُوا ﴿ أَى : فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق ﴾ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴿ أَى : مآكثين فيها أبداً ، لا يحولون ولا يزولون ، ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أَى : فى اتباعهم الحق وانقيادهم له حيث كان ، وأين كان ، ومع من كان .

ثم أخبر عن حال الأشقياء فقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أَى : جحدوا بها وخالفوها ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ أَى : هم أهلها والداخلون فيها .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ﴿ ٨٧ ﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿ ٨٨ ﴾

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية فى رهط من أصحاب النبى ﷺ ، قالوا: نقطع مذاكيرنا ، ونترك شهوات الدنيا ، ونسيح فى الأرض كما يفعل الرهبان! فبلغ ذلك النبى ﷺ ، فأرسل إليهم ، فذكر لهم ذلك ، فقالوا: نعم . فقال النبى ﷺ : « لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأنام ، وأنكح النساء ، فمن أخذ بسنتى فهو منى ، ومن لم يأخذ بسنتى فليس منى » . رواه ابن أبى حاتم . وروى ابن مردويه نحو ذلك (١) . وفى الصحيحين عن أنس ؛ أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبى ﷺ عن عمله فى السر؟ فقال بعضهم : لا أكل اللحم . وقال بعضهم : لا أتزوج النساء . وقال بعضهم : لا أنام على فراش . فبلغ ذلك النبى ﷺ ، فقال : « ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا؟! لكنى أصوم وأفطر ، وأنام وأقوم ، وأكل اللحم ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » (٢) . وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس ؛ أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله ، إنى إذا أكلت اللحم انتشرت للنساء ، وإنى حرمت على اللحم ، فترلت : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ . وكذا رواه الترمذى وابن جرير وقال : حسن غريب . وقد روى من وجه آخر مرسلاً (٣) . وعن عبد الله ابن مسعود قال : كنا نغزو مع رسول الله ﷺ ، وليس معنا نساء ، فقلنا: ألا نستخصى؟! فنهانا رسول الله ﷺ عن ذلك ، ورخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل ، ثم قرأ عبد الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ . أخرجه (٤) . وهذا كان قبل تحريم نكاح المتعة ، والله أعلم .

(١) وكذلك رواه الطبرى بنحوه (١٢٣٤٦) .

(٢) الحديث حديث أنس بن مالك ، كذلك رواه البخارى (٨٩ / ٩ ، ٩٠ فتح) ومسلم (١ / ٣٩٤) من حديث أنس . وكذلك رواه ابن حبان فى صحيحه ، رقم (١٣) بتحقيقنا ، مختصراً . وكان فى الأصول المخطوطة المطبوعة هنا : « عن عائشة ! وهو وهم - يقينا - من الحافظ ابن كثير . وقد قلده فى هذا الوهم تلميذه قاضى القضاة ابن أبى العز فى شرح الطحاوية (ص ٤٤٧ ، ٤٤٨) بتحقيقنا . وقد بينا هذا الوهم هناك . وما وجدته من حديث عائشة قط ، لا فى الصحيحين ولا فى غيرهما .

(٣) الطبرى (١٢٣٥٠) والترمذى (٩٧ / ٤ ، ٩٨) . (٤) انظر الفتح (٩ / ١٠١ - ١٠٣) .

وفى هذه القصة دلالة لمن ذهب من العلماء - كالشافعى وغيره - إلى أن من حرم مأكلاً أو ملبساً أو شيئاً ما عدا النساء : أنه لا يحرم عليه ، ولا كفارة عليه أيضاً ؛ ولقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ؛ ولأن الذى حَرَّمَ اللحم على نفسه - كما فى الحديث المتقدم - لم يأمره النبى ﷺ بكفارة. وذهب آخرون منهم الإمام أحمد بن حنبل إلى أن من حرم مأكلاً أو مشرباً أو شيئاً من الأشياء فإنه يجب عليه بذلك كفارة يمين ، كما إذا التزم تركه باليمين فكذلك يؤاخذ بمجرد تحريمه على نفسه إلزاماً له بما التزمه ، كما أفتى بذلك ابن عباس ، وكما فى قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تَحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَغَّى مَرْضَاتُ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التحریم: ١] ثم قال : ﴿فَدَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ الآية [التحریم: ٢]. وكذلك ههنا لما ذكر هذا الحكم عقبه بالآية المبينة لتكفير اليمين ، فدل على أن هذا منزل منزلة اليمين فى اقتضاء التكفير ، والله أعلم. وروى ابن جرير عن ابن جُرَيْج ، عن مجاهد قال : أراد رجال ، منهم عثمان بن مظعون وعبد الله بن عمرو أن يَتَّبِلُوا ويخصوا أنفسهم ويلبسوا المسوح ، فنزلت هذه الآية إلى قوله : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾. قال ابن جريج ، عن عكرمة : إن عثمان بن مظعون ، وعلى ابن أبى طالب ، وابن مسعود ، والمقداد بن الأسود ، وسالماً مولى أبى حذيفة فى أصحابه - تبتلوا ، فجلسوا فى البيوت ، واعتزلوا النساء ، ولبسوا المسوح ، وحرموا طيبات الطعام واللباس إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بنى إسرائيل ، وهموا بالإخصاء وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار ، فنزلت : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ يقول : لا تسيروا بغير سنة المسلمين ، يريد : ما حرّموا من النساء والطعام واللباس ، وما أجمعوا عليه من قيام الليل وصيام النهار ، وما هموا به من الإخصاء ، فلما نزلت فيهم بعث إليهم رسول الله ﷺ فقال : «إِنْ لَأَنْفُسَكُمْ حَقًّا ، وَإِنْ لَأَعَيْنُكُمْ حَقًّا ، صُومُوا وَأَفْطَرُوا ، وَصَلُّوا وَنَامُوا ، فَلَيْسَ مِنَّا مَنْ تَرَكَ سِتْنَانًا» . فقالوا : اللهم سلّمنا واتبعنا ما أنزلت (١) .

وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين مرسله ، ولها شاهد فى الصحيحين من رواية عائشة أم المؤمنين ، كما تقدم ذلك ، والله الحمد والمنة .

وقوله : ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ يحتمل أن يكون المراد منه : ولا تبالغوا فى التضييق على أنفسكم بتحريم المباحات عليكم ، كما قاله من قاله من السلف . ويحتمل أن يكون المراد : كما لا تحرموا الحلال ، فلا تعتدوا فى تناول الحلال ، بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم ، ولا تجاوزوا الحد فيه ، كما قال تعالى : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ الآية [آل عمران: ٣١] وقال : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] ، فشرع الله عدل بين الغالى فيه والجافى عنه ، لا إفراط ولا تفريط ؛ ولهذا قال : ﴿لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ .

ثم قال: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا﴾ أى: فى حال كونه حلالاً طيباً ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: فى جميع أموركم، واتبعوا طاعته ورضوانه، واتركوا مخالفته وعصيانَه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ بِهِ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٨٩)

وقد تقدم فى سورة البقرة الكلام على لغو اليمين، وأنه قول الرجل فى الكلام من غير قصد: لا والله، وبلى والله (١). وقيل: هو فى الهزل. وقيل: فى المعصية. وقيل: على غلبة الظن وهو قول أبى حنيفة وأحمد. وقيل: اليمين فى الغضب. وقيل: فى النسيان. وقيل: هو الحلف على ترك المأكل والمشرب والملبس ونحو ذلك، واستدلوا بقوله: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾. والصحيح أنه اليمين من غير قصد؛ بدليل قوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ أى: بما صمتم عليه من الأيمان وقصدتموها، ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾ يعنى: محاييج من الفقراء، ومن لا يجد ما يكفيه.

وقوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قال ابن عباس، وسعيد بن جبیر، وعكرمة: أى من أعدل ما تطعمون أهليكم. وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كان الرجل يقوت بعض أهله قوت دون، وبعضهم قوتاً فيه سعة، فقال الله تعالى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ من الخبز والزيت. واختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أى: فى القلة والكثرة.

ثم اختلف العلماء فى مقدار ما يطعمهم، فروى ابن أبى حاتم عن على فى قوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قال: يغديهم ويعشيهم. وقال الحسن ومحمد بن سيرين: يكفيه أن يطعم عشرة مساكين أكلة واحدة خبزاً ولحماً، زاد الحسن: فإن لم يجد فخبزاً وسمناً ولبناً، فإن لم يجد فخبزاً وزيتاً وخللاً، حتى يشبعوا. وقال آخرون: يطعم كل واحد من العشرة نصف صاع من بر أو تمر، ونحوهما. هذا قول عمر، وعلى، وعائشة، ومجاهد، والشعبي، وسعيد ابن جبیر، وغيرهم. وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه قال: مداً من بر - يعنى لكل مسكين - ومعه إدامه. ثم قال: ورؤى عن ابن عمر، وزيد بن ثابت، وسعيد بن المسيب، ومجاهد وغيرهم نحو ذلك. وقال الشافعى: الواجب فى كفارة اليمين مَدٌّ بِمَدِّ النَّبِيِّ ﷺ لكل مسكين. ولم يتعرض للأدم. واحتج بأمر النبي ﷺ للذى جامع فى رمضان بأن يطعم ستين مسكيناً من مكيل يسع خمسة عشر صاعاً لكل واحد منهم مَدٌّ.

وقال أحمد بن حنبل: الواجب مُدٌّ من بر، أو مدان من غيره. والله أعلم.

وقوله: ﴿أَوْ كَسَوْتُهُمْ﴾: قال الشافعي: لو دفع إلى كل واحد من العشرة ما يصدق عليه اسم الكسوة من قميص أو سراويل أو إزار أو عمامة أو مقنعة أجزاء ذلك وقال مالك وأحمد بن حنبل: لا بد أن يدفع إلى كل واحد منهم من الكسوة ما يصح أن يصلى فيه، إن كان رجلاً أو امرأة، كلٌ بحسبه. والله أعلم.

وقوله: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾: أخذ أبو حنيفة بإطلاقها، فقال: تجزئ الكافرة كما تجزئ المؤمنة. وقال الشافعي وآخرون: لا بد أن تكون مؤمنة. وأخذ تقييدها بالإيمان من كفارة القتل؛ لاتحاد الموجب وإن اختلف السبب ولحديث معاوية بن الحكم السلمي، الذي هو في موطأ مالك ومسند الشافعي وصحيح مسلم: أنه ذكر أن عليه عتق رقبة، وجاء معه بجارية سوداء، فقال لها رسول الله ﷺ: «أين الله؟» قالت: في السماء. قال: «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله. قال: «اعتقها فإنها مؤمنة». الحديث بطوله (١). فهذه خصال ثلاث في كفارة اليمين، أيها فعَلُ الحائث أجزاء عنه بالإجماع. وقد بدأ بالأسهل فالأسهل، فالإطعام أسهل وأيسر من الكسوة، كما أن الكسوة أيسر من العتق، فترقى فيها من الأدنى إلى الأعلى. فإن لم يقدر المكلف على واحدة من هذه الخصال الثلاث كفر بصيام ثلاثة أيام، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾. وروى ابن جرير، عن سعيد بن جبير والحسن البصري أنهما قالوا: من وجد ثلاثة دراهم لزمه الإطعام وإلا صام. وقال ابن جرير، حاكياً عن بعض متأخري متفقهة زمانه أنه قال: جائز لمن لم يكن له فضل عن رأس مال يتصرف به لمعاشه [ما يكفر به بالإطعام، أن يصوم إلا أن يكون له كفاية، ومن المال ما يتصرف به لمعاشه] (٢)، ومن الفضل عن ذلك ما يكفر به عن يمينه. ثم اختار ابن جرير: أنه الذي لا يفضل عن قوته وقوت عياله في يومه ذلك ما يخرج به كفارة اليمين.

واختلف العلماء: هل يجب فيها التتابع، أو يستحب ولا يجب ويجزئ التفريق؟ على قولين: أحدهما: لا يجب، وهذا منصوص الشافعي في كتاب «الإيمان»، وهو قول مالك، لإطلاق قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ وهو صادق على المجموعة والمفرقة، كما في قضاء رمضان؛ لقوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤]. ونص الشافعي في موضع آخر في «الأم» على وجوب التتابع، كما هو قول الحنفية والحنابلة؛ لأنه قد روى عن أبي بن كعب وغيره: أنهم كانوا يقرؤونها: «فصيام ثلاثة أيام متتابعات». وحكاها مجاهد، والشعبي، وأبو إسحاق عن عبد الله بن مسعود. وقال الأعمش: كان أصحاب ابن مسعود يقرؤونها كذلك. وهذه إذا لم يثبت كونها قرآناً متواتراً، فلا أقل من أن يكون خبر واحد، أو تفسيراً من الصحابي، وهو في حكم المرفوع.

(١) مضت الإشارة إليه عند تفسير الآيتين: (٩٢، ٩٣) من سورة النساء.

(٢) ما بين المعقوفين غير موجود في المطبوعة وكذا المطبوع من «عمدة التفسير» وأيضا المخطوطة الأهرية. وأثبتناه من الطبري. راجع تفسير الآية (٨٩) به. (الباز).

وقوله : ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةٌ لِّإِيمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ قال ابن جرير: معناه : لا تركوها بغير تكفير ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أى: يوضحها ويفسرهما ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الخمر والميسر، وهو القمار. وقد ورد عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أنه قال: الشطرنج من الميسر. رواه ابن أبى حاتم ^(١). وروى ابن أبى حاتم عن عطاء ومجاهد وطاوس - أو اثنين منهم - قالوا: كل شيء من القمار فهو من الميسر، حتى لعب الصبيان بالجوز. وروى عن راشد بن سعد وضمرة بن حبيب، وقالوا: حتى الكعب، والجوز، والبيض التى تلعب بها الصبيان. وعن ابن عمر قال: الميسر هو القمار. وقال ابن عباس: الميسر هو القمار، كانوا يتقمارون فى الجاهلية إلى مجيء الإسلام، فنهاهم الله عن هذه الأخلاق القبيحة. وقال سعيد بن المسيب: كان ميسر أهل الجاهلية بيع اللحم بالشاة والشاتين. وقال الأعرج: الميسر الضرب بالقداح على الأموال والثمار. وقال القاسم ابن محمد: كل ما ألهى عن ذكر الله وعن الصلاة، فهو من الميسر. رواه ابن أبى حاتم. وفى صحيح مسلم، عن بُريدة بن الحَصْبِيب الأسلمى قال: قال رسول الله ﷺ: «من لعب بالنردشير فكأنما صبَّغ يده فى لحم خنزير ودمه». وفى موطأ مالك ومسنَد أحمد، وسنن أبى داود وابن ماجه، عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله». وروى موقوفاً عن أبى موسى من قوله، فالله أعلم.

وأما الشطرنج، فقد قال عبد الله بن عمر: إنه شرّ من النرد. وتقدم عن على أنه قال: هو من الميسر، ونص على تحريره مالك، وأبو حنيفة، وأحمد، وكرهه الشافعى.

وأما الأنصاب، فقال ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وغير واحد: هى حجارة كانوا يذبحون قربانهم عندها.

وأما الأزلام، فقالوا أيضاً: هى قداح كانوا يستقسمون بها. رواه ابن أبى حاتم.

وقوله تعالى: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ قال ابن عباس: أى سَخَط من عمل الشيطان. وقال

(١) إسناده منقطع؛ لأنه من رواية محمد بن على بن الحسين، عن جد أبيه على بن أبى طالب. وبينهما دهر طويل.

سعيد بن جبير: إثم. وقال زيد بن أسلم: أى شر من عمل الشيطان ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾: الضمير عائد على الرجس، أى: اتركوه ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ وهذا ترغيب.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ وهذا تهديد وترهيب.

ذكر الأحاديث الواردة فى بيان تحريم الخمر:

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: حرمت الخمر ثلاث مرات، قدم رسول الله ﷺ المدينة، وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر، فسألوا رسول الله ﷺ عنهما فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ إلى آخر الآية [البقرة: ٢١٩]. فقال الناس: ما حرم علينا، إنما قال: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾. وكانوا يشربون الخمر، حتى كان يوماً من الأيام صلى رجل من المهاجرين، أم أصحابه فى المغرب، خلط فى قراءته، فأنزل الله آية أغلظ منها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]. وكان الناس يشربون، حتى يأتى أحدهم الصلاة وهو مفيق. ثم أنزلت آية أغلظ من ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ قالوا: انتهينا ربنا. وقال الناس: يا رسول الله، ناس قتلوا فى سبيل الله، وماتوا على فرشهم، كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر، وقد جعله الله رجساً من عمل الشيطان؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ إلى آخر الآية، فقال النبى ﷺ: «لو حرم عليهم لتركوه كما تركتم». انفرد به أحمد (١).

وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب أنه قال: لما نزل تحريم الخمر قال: اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التى فى البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، فدعى عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التى فى سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ فكان منادى رسول الله ﷺ إذا قال: حى على الصلاة - نادى: لا يقربن الصلاة سكران. فدعى عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التى فى المائدة، فدعى عمر فقرئت عليه فلما بلغ: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ قال عمر: انتهينا. وهكذا رواه أبو داود، والترمذى، والنسائى وصحح هذا الحديث على بن المدنى والترمذى (٢). وقد ثبت فى الصحيحين عن عمر بن الخطاب أنه قال فى خطبته

(١) المسند (٨٦٠٥). وذكره الهيثمى فى الزوائد (٥ / ٥١) وقال: «أبو وهب مولى أبى هريرة: لم يجره أحد ولم يوثقه. وأبو معشر نجح: ضعيف لسوء حفظه». أقول: وأبو وهب: تابعى عرف شخصه، وترجمه البخارى فى الكنى (ص ٧٥١) وابن أبى حاتم (٤ / ٢ / ٤٥١، ٤٥٢)، فلم يذكر فيه جرحاً، فهو ثقة عندهما. وللحديث شواهد تجبر ضعف أبى معشر نجح.

(١) المسند (٣٧٨)، وإسناده صحيح. وقد مضى عند تفسير الآيتين: (٢١٩، ٢٢٠) من سورة البقرة. وأشار المؤلف الحافظ هناك إلى ذكره فى هذا الموضع. ومضى أيضاً عند تفسير الآية: (٢٣) من سورة النساء. ورواه الحاكم (٢ / ٢٧٨)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبى. ورواه الطبرى بخمسة أسانيد (١٢٥١٢ - ١٢٥١٦).

على منبر رسول الله ﷺ: أيها الناس، إنه نزل تحريم الخمر وهى من خمسة: من العنب، والتمر، والعسل، والحنطة، والشعير، والخمر ما خامر العقل . وروى البخارى عن ابن عمر قال: نزل تحريم الخمر وإن بالمدينة يومئذ خمسة أشربة ما فيها شراب العنب (١).

وروى الطيالسى عن ابن عمر قال: نزلت فى الخمر ثلاث آيات، فأول شيء نزل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ الآية، [البقرة: ٢١٩] فقيل: حرمت الخمر. فقالوا: يا رسول الله، دعنا ننتفع بها كما قال الله تعالى. قال: فسكت عنهم، ثم نزلت هذه الآية: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ [النساء: ٤٣]. فقيل: حرمت الخمر، فقالوا: يا رسول الله، إنا لا نشربها قرب الصلاة، فسكت عنهم ثم نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «حرمت الخمر» (٢). وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن وعلة قال: سألت ابن عباس عن بيع الخمر؟ فقال: كان لرسول الله ﷺ صديق من ثقيف - أو: من دوس - فلقبه يوم الفتح براوية خمر يهديها إليه، فقال رسول الله ﷺ: «يا فلان، أما علمت أن الله حرّمها؟» فأقبل الرجل على غلامه فقال: اذهب فبيعها. فقال رسول الله ﷺ: «يا فلان، بماذا أمرته؟» فقال: أمرته أن يبيعها. قال: «إن الذى حرم شربها حرم بيعها». فأمر بها فأفرغت فى البطحاء. ورواه مسلم والنسائى (٣).

رواه مسلم من طريق ابن وهب، عن مالك، عن زيد بن أسلم. ومن طريق ابن وهب أيضاً، عن سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد كلاهما - عن عبد الرحمن بن وعلة، عن ابن عباس، به. ورواه النسائى، عن قتبية، عن مالك، به.

وروى أبو يعلى الموصلى عن شهر بن حوشب، عن تميم الدارى أنه كان يهدى لرسول الله ﷺ كل عام راوية من خمر، فلما أنزل الله تحريم الخمر جاء بها، فلما رآها رسول الله ﷺ ضحك وقال: «إنها قد حرمت بعدك». قال: يا رسول الله، فأبيعها أنتفع بثمرتها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لعن الله اليهود، حرمت عليهم شحوم البقر والغنم، فأذابوه، وباعوه! والله حرّم الخمر وثمرتها». وقد رواه أيضاً الإمام أحمد عن شهر بن حوشب قال: حدثنى عبد الرحمن بن غنم: أن الدارى كان يهدى لرسول الله ﷺ كل عام راوية من خمر، فلما كان عام حرمت جاء براوية، فلما نظر إليه ضحك فقال: «أشعرت أنها قد حرمت بعدك؟» فقال: يا رسول الله، ألا أبيعها وأنتفع بثمرتها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لعن الله اليهود، انطلقوا إلى ما حرّم عليهم من شحم البقر والغنم فأذابوه، فباعوا به ما يأكلون! وإن الخمر حرام وثمرتها حرام، وإن الخمر حرام

(١) انظر المسند (٥٩٩٢)، وما أشرنا إليه من الروايات هناك.

(٢) مسند الطيالسى (١٩٥٧). ورواه أيضاً الطبرى (٤١٤٣). وفصلنا القول فيه هناك.

(٣) المسند (٢٠٤١) والمتقى (٤٧٠٢).

وثنمها حرام، وإن الخمر حرام وثنمها حرام» (١).

وروى الإمام أحمد عن نافع بن كيسان أن أباه أخبره : أنه كان يتجر في الخمر في زمن رسول الله ﷺ، وأنه أقبل من الشام ومعه خمر في الزقاق، يريد بها التجارة، فأتى بها رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى جئتك بشراب طيب ! فقال رسول الله ﷺ: «يا كيسان، إنها قد حرمت بعدك». قال: فأبيعها يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنها قد حرمت وحرمت ثمنها». فأنطلق كيسان إلى الزقاق، فأخذ بأرجلها ثم هراقها (٢). وروى الإمام أحمد عن أنس قال: كنت أسقى أبا عبيدة بن الجراح، وأبى بن كعب، وسُهَيْل بن بيضاء، ونفراً من أصحابه عند أبى طلحة، حتى كاد الشراب يأخذ منهم، فأتى آت من المسلمين فقال: أما شعرتم أن الخمر قد حرمت؟ فما قالوا: حتى ننظر ونسأل ! فقالوا: يا أنس أكف ما بقى فى إنائك، فوالله ما عادوا فيها، وما هى إلا التمر والبسر، وهى خمرهم يومئذ. أخرجه فى الصحيحين (٣). وفى رواية عن أنس قال: كنت ساقى القوم يوم حُرِّمَت الخمر فى بيت أبى طلحة، وما شربهم إلا الفَصِيخ : البسر والتمر، فإذا مناد ينادى، قال: اخرج فانظر. فإذا مناد ينادى: ألا إن الخمر قد حُرِّمَت، فَجَرَّت فى سَكِّكَ المدينة، قال: فقال لى أبو طلحة: اخرج فأهْرِقْها. فهِرَقَتْها، فقالوا - أو: قال بعضهم: قُتِلَ فُلَانٌ وفُلَانٌ وهى فى بطونهم؟ قال: فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ الآية. وروى ابن جرير عن أنس بن مالك قال: بينما أنا أدير الكأس على أبى طلحة، وأبى عبيدة بن الجراح وأبى دُجَانَةَ، ومعاذ بن جبل، وسهيل ابن بيضاء، حتى مالت رؤوسهم من خليط بُسْرٍ وتمر. فسمعت منادياً ينادى: ألا إن الخمر قد

(١) رواية شهر بن حوشب عن تميم الدارى - التى رواها أبو يعلى - تحتل الاتصال . ولكن رواية المسند التى بعدها ترجح أنه سمعه من عبد الرحمن بن غنم - وهو صحابى - حكاية منه للقصة . ولم أجد رواية أبى يعلى فى الزوائد ، مع أنها على شرطه ، ولعلها فى موضع خفى على من . ورواية أحمد هى فى المسند (٤ / ٢٢٧ حلى) . وهى فى الزوائد (٤ / ٨٨) ، وقال : « رواه أحمد هكذا : عن ابن غنم أن الدارى . وفيه شهر ، وحديثه حسن ، وفيه كلام . ورواه الطبرانى فى الكبير عن عبد الرحمن بن غنم ، عن تميم الدارى : أنه كان يهدى . فذكر نحوه باختصار ، إلا أنه قال : إنه حرام شراؤها وثنمها . وإسناده متصل حسن » . فالظاهر من قرينة رواية الطبرانى أن عبد الرحمن بن غنم سمعه من تميم الدارى ، وأن شهر بن حوشب سمعه من عبد الرحمن بن غنم ، ثم حدث به على أوجه مختلفة ، مرجعها واحد . فالحديث صحيح بكل حال .

(٢) المسند (٤ / ٣٣٥ ، ٣٣٦ حلى) . ورواه البخارى فى الكبير (٤ / ١ / ٢٢٣) فى ترجمة الصحابى « كيسان ابن عبد الله بن طارق » . وهو فى الزوائد (٤ / ٨٨) ، وقال : « رواه أحمد والطبرانى فى الكبير والأوسط ، وفيه نافع بن كيسان ، وهو مستور » . أقول : بل هو ثقة ، ترجمة البخارى وابن أبى حاتم ، فلم يذكر فيه جرْحاً ، بل ذكره بعضهم - ومنهم الحافظ ابن حجر - فى الصحابة . والحديث ذكره الحافظ فى الإصابة (٥ / ٣١٦) ، وزاد نسبه للبغوى والرويانى وأبى نعيم .

(٣) المسند (١٢٩٠) . وقوله : « فما قالوا حتى ننظر ونسأل » - يريد : أنهم قبلوا خبر المخبر بالتحريم دون تردد ، طاعة لله ورسوله ، وثقة بخبر الناقل إليهم . ووقع فى المطبوعة « فقالوا » ! وهو تغيير سخيف ، يقلب المعنى إلى ضده . وما أثبتنا هو الذى فى المسند والمخطوطين . وقوله : « أكف ما بقى فى إنائك » : أصله « أكفى » فحذفت الهمزة الأخيرة تسهيلاً . وفى المطبوعة بدلها : « اسكب » ! وهو تصرف أيضاً ، مخالف لما فى المسند والمخطوطين .

حُرِّمَتْ! قال: فما دخل علينا داخل ولا خرج منا خارج، حتى أهرقنا الشراب، وكسرنا القلال، وتوضأ بعضنا واغتسل بعضنا، وأصبنا من طيب أم سليم، ثم خرجنا إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾. فقال رجل: يا رسول الله، فما ترى فيمن مات وهو يشربها؟ فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ الآية، وقال رجل لأنس بن مالك: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم - أو: حدثني من لم يكذب، ما كنا نكذب، ولا ندرى ما الكذب (١). وروى الإمام أحمد عن قيس بن سعد بن عباد؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن ربي تبارك وتعالى حرم على الخمر، والكوبة، والقنين. وإياكم والغبيراء فإنها ثلث خمر العالم» (٢). وروى أحمد أيضا عن عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال على ما لم أقل فليتبوأ مقعده من جهنم». قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله حرم الخمر والميسر والكوبة والغبيراء، وكل مسكر حرام». تفرد به أحمد (٣).

وروى الإمام أحمد أيضا عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لعنت الخمر على عشرة وجوه: لعنت الخمر بعينها وشاربها، وساقها، وبائعها، ومُبتاعها، وعاصرها، ومُعصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وأكل ثمنها». ورواه أبو داود وابن ماجه (٤). وروى أحمد عن ابن عمر قال: خرج رسول الله ﷺ إلى المربد، فخرجت معه فكننت عن يمينه، وأقبل أبو بكر فتأخرت عنه، فكان عن يمينه وكننت عن يساره. ثم أقبل عمر فتكنحت له، فكان عن يساره. فأتى رسول الله ﷺ المربد، فإذا بزقاق على المربد فيها خمر - قال ابن عمر -: فدعاني رسول الله ﷺ بالمدية - قال ابن عمر: وما عرفت المدية إلا يومئذ - فأمر بالزقاق فشقَّتْ، ثم قال: «لعنت الخمر وشاربها، وساقها، وبائعها، ومُبتاعها، وحاملها، والمحمولة إليه، وعاصرها، ومُعصرها، وأكل ثمنها» (٥).

(١) الطبري (١٢٥٢٧). وإسناده صحيح. وهو رواية مفصلة لحديث أنس، السابق بروايتين. وهذه الرواية لم ينسبها السيوطي (٣٢٠/٢) لغير الطبري. وقد ذكره الهيثمي في الزوائد (٥٢/٥)، وقال: «رواه البزار، ورجاله ثقات».

(٢) المسند (١٥٥٤٧). وإسناده صحيح. وكذلك رواه ابن عبد الحكم في فتوح مصر، (ص ٢٧٣)، من هذا الوجه. و «الكوبة» - بضم الكاف - هي النرد، وقيل: الطبل، وقيل: البريط، قاله ابن الأثير. و «القنين» - بكسر القاف وتشديد النون الأولى المكسورة: قال ابن الأثير: «لعبة للروم يقامرون بها». وقيل: هي الطنبور بالحيشية. والتقنين: الضرب بها. و «الغبيراء» - بضم الغين المعجمة: ضرب من الشراب يتخذة الخبش من الذرة. وفي حديث آخر لابن عباس - مرفوعا - في المسند (٢٤٧٦، ٢٦٢٥): «إن الله حرم الخمر والميسر والكوبة، وكل مسكر حرام». قال سفيان في الرواية الأولى: «قلت لعلى بن بذية: ما الكوبة؟ قال: «الطبل»». وهو حديث صحيح.

(٣) المسند (٦٥٩١). ورواه أيضا بنحوه (٦٤٧٨). وإسناده صحيحان.

(٤) المسند (٤٧٨٧، ٥٣٩١). ورواه أيضا بإسناد آخر (٥٧١٦) بنحوه. وكلا الإسنادين صحيح.

(٥) المسند (٥٣٩٠)، وإسناده صحيح. ورواه أيضا ابن عبد الحكم في فتوح مصر (ص ٢٦٤) مطولا. وانظر تفسير الطبري (٤١٤٣).

وعن ثابت بن يزيد الخولاني: أنه كان له عم يبيع الخمر، وكان يتصدق! قال: فنهت عنها فلم ينته، فقدمت المدينة فلقيت ابن عباس، فسألته عن الخمر وثمنها؟ فقال: هي حرام وثمنها حرام. ثم قال ابن عباس: يا معشر أمة محمد، إنه لو كان كتاب بعد كتابكم، ونبي بعد نبيكم، لأنزل فيكم كما أنزل فيمن قبلكم، ولكن أخر ذلك من أمركم إلى يوم القيامة، ولعمري لهو أشد عليكم، قال ثابت: فلقيت عبد الله بن عمر فسألته عن ثمن الخمر؟ فقال: سأخبرك عن الخمر، إني كنت مع رسول الله ﷺ في المسجد، فبينما هو محتب حلَّ حَبْوَتِهِ، ثم قال: «من كان عنده من هذه الخمر شيء فليأتنا بها». فجعلوا يأتونه، فيقول أحدهم: عندي راوية. ويقول الآخر: عندي زقٌ أو: ما شاء الله أن يكون عنده، فقال رسول الله ﷺ: «اجمعوا ببيع كذا وكذا ثم آذنوني». ففعلوا، ثم آذنه، فقام وقمت معه، ومشيت عن يمينه وهو متكئ على، فلفحنا أبو بكر، فأخبرني رسول الله ﷺ، فجعلني عن شماله، وجعل أبا بكر في مكاني. ثم لحقنا عمر بن الخطاب، فأخبرني، وجعله عن يساره، فمشى بينهما. حتى إذا وقف على الخمر قال للناس: «أتعرفون هذا؟» قالوا: نعم، يا رسول الله، هذه الخمر. قال: «صدقت». قال: «فإن الله لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها، وشاربها وساقبها، وحاملها والمحمولة إليه، وبائعها ومشتريها وأكل ثمنها». ثم دعا بسكين فقال: «اشحذوها». ففعلوا، ثم أخذها رسول الله ﷺ يُخْرِقُ بها الزقاق، قال: فقال الناس: في هذه الزقاق منفعة، فقال: «أجل، ولكني إنما أفعل ذلك غضباً لله، عز وجل، لما فيها من سخطه». فقال عمر: أنا أكفيك يا رسول الله، قال: «لا» (١).

وروى البيهقي عن ابن عباس قال: إنما نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار، شربوا فلما أن تَمَلَّ القوم عبث بعضهم ببعض، فلما أن صَحَّوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه ورأسه ولحيته، فيقول: صنع بي هذا أخى فلان - وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن - والله لو كان بي رؤوفاً رحيماً ما صنع هذا بي، حتى وقعت في الضغائن في قلوبهم فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ إلى قوله ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ فقال ناس من المتكلفين: هي رجس، وهي في بطن فلان، وقد قتل يوم أحد! فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ إلى آخر الآية. ورواه النسائي (٢). وروى ابن جرير عن بريدة، قال: بينا نحن نُعَوِّدُ على شراب لنا، ونحن رَمَلَةٌ، ونحن ثلاثة أو أربعة، وعندنا باطية لنا، ونحن نشرب الخمر حلاً، إذ قمت حتى أتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه، إذ نزل تحريم الخمر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ إلى آخر الآية:

(١) السنن الكبرى (٨ / ٢٨٧). ورواه أيضاً الحاكم (٤ / ١٤٤، ١٤٥) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي (٨ / ٢٨٥، ٢٨٦)، وإسناده صحيح. ورواه الطبري (١٢٥٢٢) والحاكم (٤ / ١٤١، ١٤٢) وصححه الذهبي على شرط مسلم. وذكره الهيثمي في الزوائد (٧ / ١٨) وقال: «رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح».

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ فجئت إلى أصحابي فقرأتها إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ قال: وبعض القوم شربته في يده، قد شرب بعضها وبقي بعض في الإناء، فقال بالإناء تحت شفته العليا، كما يفعل الحجام، ثم صبوا ما في باطيتهم فقالوا: انتهينا ربنا (١). وروى الطيالسي عن البراء بن عازب قال: لما نزل تحريم الخمر قالوا: كيف بمن كان يشربها قبل أن تحرم؟ فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ الآية. ورواه الترمذى نحوه. وقال: حسن صحيح. وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك؛ أن أبا طلحة سأل النبي ﷺ عن أيتام في حجره ورثوا خمرًا، فقال: «أهرقها». قال: أفلا نجعلها خلا؟ قال: «لا». ورواه مسلم، وأبو داود، والترمذى.

وروى ابن وهب بإسناده عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن رسول الله ﷺ قال: «من ترك الصلاة سكرًا مرة واحدة، فكأنما كانت له الدنيا وما عليها فسلبها، ومن ترك الصلاة سكرًا أربع مرات، كان حقًا على الله أن يسقيه من طينة الخبال». قيل: وما طينة الخبال؟ قال: «عصارة أهل جهنم». ورواه أحمد (٢).

وروى أبو داود عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «كل مخمر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب مسكرًا بخست صلاته أربعين صباحًا، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد الرابعة كان حقًا على الله أن يسقيه من طينة الخبال». قيل: وما طينة الخبال يا رسول الله؟ قال: «صديد أهل النار، ومن سقاه صغيرًا لا يعرف حلاله من حرامه، كان حقًا على الله أن يسقيه من طينة الخبال». تفرد به أبو داود (٣). وقال الشافعي: أنبأنا مالك، عن نافع، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «من شرب الخمر في الدنيا، ثم لم يتب منها حُرُمها في الآخرة». أخرجه البخارى ومسلم. وروى مسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر فمات وهو يذمُّها ولم يتب منها لم يشربها في الآخرة». وروى ابن وهب عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، والمُدمن الخمر، والمُنان بما أعطى». ورواه النسائي (٤). وروى أحمد عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة منان، ولا عاق، ولا مُدمن خمر». ورواه النسائي (٥).

وعن عثمان بن عفان قال: اجتنبوا الخمر، فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس، فعلقته امرأة غوية، فأرسلت إليه جاريتهما: إنا ندعوك لشهادة.

(١) الطبرى (١٢٥٢٣)، وإسناده صحيح. وقد أشار إليه البخارى فى الكبير كعاداته فى الإيجاز (٢ / ٢ / ١٣٤) ولم يذكر له علة، فهو أمارة قبوله عنده.

(٢) المسند (٦٦٥٩). ورواه أيضا الحاكم (٤ / ١٤٦) وصححه، وقال الذهبي: «غريب جدًا».

(٣) أبو داود (٣٦٨٠)، وإسناده صحيح.

(٤) النسائي (١ / ٣٥٧). وقد مضى عند تفسير الآية: (٢٦٤) من سورة البقرة. وهو جزء من حديث مطول فى المسند (٦١٨٠).

(٥) المسند (١١٢٤٠، ١١٤١٨)، وإسناده صحيحان. ورواه أيضا البيهقي (٨ / ٢٨٨).

فدخل معها، فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضیئة عندها غلام وباطية خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك لشهادة ولكني دعوتك لتقع على أو تقتل هذا الغلام، أو تشرب هذا الخمر ! فسقته كأساً، فقال: زيدوني، فلم يرم حتى وقع عليها، وقتل النفس، فاجتنبوا الخمر، فإنها لا تجتمع هي والإيمان أبداً إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه. رواه البيهقي، وإسناده صحيح (١). وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا في كتابه «ذم المسكر» مرفوعاً. والموقوف أصح، والله أعلم. وله شاهد في الصحيحين، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق سرقه حين يسرقها وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» (٢).

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: لما حرمت الخمر قال أناس: يا رسول الله، أصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها؟ فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ الآية. قال: ولما حوت القبلة قال أناس: يا رسول الله، أصحابنا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] (٣). وروى الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد، أنها سمعت النبي ﷺ يقول: «من شرب الخمر لم يرض الله عنه أربعين ليلة، إن مات مات كافراً، وإن تاب تاب الله عليه. وإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال». قالت: قلت: يا رسول الله، وما طينة الخبال؟ قال: «صديد أهل النار» (٤).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَبِئْسَ اللَّهُ بِشَىءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَن أَعْدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿١٠﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَلِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّذَوْقٍ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَن عَادَ فَيَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ ﴿١١﴾

قال ابن عباس: قوله: ﴿لَبِئْسَ اللَّهُ بِشَىءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ قال: هو الضعيف من الصيد وضعيفه، يتلى الله به عباده في إحرامهم، حتى لو شأوا يتناولونه بأيديهم. فنهاهم الله أن يقربوه. وقال مجاهد: ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ﴾ يعني: صغار الصيد وبراخه «ورماحكم» يعني: كباره. ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ يعني: أنه تعالى يبتليهم بالصيد يغشاهم في رحالهم،

(١) السنن الكبرى (٨ / ٢٨٧ ، ٢٨٨). ورواه أيضا النسائي (٢ / ٣٣١) موقوفاً بإسنادين صحيحين.
(٢) رواه البخاري (٥ / ٨٦ ، ١٠ / ٢٨ ، ٢٩ ، ١٢ / ٥٠ ، ١٠١ فتح) ومسلم (١ / ٣١ ، ٣٢) وأحمد في المسند (٧٣١٦) كلهم من حديث أبي هريرة بنحوه. ورواه البخاري أيضا (١٢ / ٧١ ، ١٠١ فتح) من حديث ابن عباس، بمعناه.

(٣) المسند (٢٦٩١)، وإسناده صحيح. وقد مضت الإشارة إليه في شأن القبلة عند الآية (١٤٣) البقرة.

(٤) المسند (٦ / ٤٦٠ حلي)، وإسناده صحيح.

يتمكنون من أخذه بالأيدى والرماح سرّاً وجهراً ، لتظهر طاعة من يطيع منهم فى سره وجهره ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك : ١٢] . وقوله ههنا : ﴿ فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ قال السدى وغيره : يعنى بعد هذا الإعلام والإنذار والتقدم ﴿ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى : لمخالفته أمر الله وشرعه .

ثم قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ وهذا تحريم منه تعالى لقتل الصيد فى حال الإحرام ، ونهى عن تعاطيه فيه . وهذا إنما يتناول - من حيث المعنى - المأكول وما يتولد منه ومن غيره ، فأما غير المأكول من حيوانات البر ، فعند الشافعى يجوز للمحرم قتلها . والجمهور على تحريم قتلها أيضاً ، ولا يستثنى من ذلك إلا ما ثبت فى الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين ؛ أن رسول الله ﷺ قال : «خمس فواسىق يُقتلن فى الحِلِّ والإحرام : الغُراب والحدأة ، والعُقرب ، والفأرة ، والكلب العقور » (١) .

وقال مالك ، عن نافع ، عن ابن عمر ؛ أن رسول الله ﷺ قال : «خمس من الدواب ليس على المحرم فى قتلهن جناح : الغراب ، والحدأة ، والعقرب ، والفأرة ، والكلب العقور» . أخرجاه (٢) . ومن العلماء - كمالك وأحمد - من ألحق بالكلب العقور الذئب ، والسبع ، والثمر ، والفهد ؛ لأنها أشد ضرراً منه ، فالله أعلم . وقال سفيان بن عيينة وزيد بن أسلم : الكلب العقور يشمل هذه السباع العادية كلها . قالوا : فإن قتل ما عداها كالضبع والثعلب والوبر ونحو ذلك (٣) . قال مالك : وكذا يستثنى من ذلك صغار هذه الخمس المنصوص عليها ، وصغار الملحق بها من السباع العوادي . وقال الشافعى : يجوز للمحرم قتل كل ما لا يؤكل لحمه ، ولا فرق بين صغاره وكباره . وجعل العلة الجامعة كونها لا تؤكل . وقال أبو حنيفة : يقتل المحرم الكلب العقور والذئب ؛ لأنه كلب برى ، فإن قتل غيرهما فداء ، إلا أن يصول عليه سبع غيرهما فيقتله ، فلا فداء عليه . وهذا قول الأوزاعى ، والحسن بن صالح بن حى . وقال بعض الناس : المراد بالغراب ههنا الأبقع ، وهو الذى فى بطنه وظهره بياض ، دون الأدرع وهو الأسود ، والأعصم وهو الأبيض ؛ لما رواه النسائى عن عائشة ، عن النبى ﷺ قال : «خمس

(١) البخارى (٣٠ / ٤ - ٣٣ ، ٦ و ٢٥٣ فتح) ومسلم (٣٣٥ / ١) . ولكن لفظه عندهما : « يقتلن فى الحرام » ، ليس فيه كلمة « فى الحِل » ، إلا فى رواية أخرى عن عائشة عند مسلم (٣٣٤ / ١ ، ٣٣٥) ، وفيه : « الحرم » بدل « الإحرام » . وأثبتنا ما فى المخطوطتين هنا . وفى المطبوعة : « فى الحِل والحرم » . ولفظ « الإحرام » ثابت فى حديث آخر عند مسلم (٣٣٥ / ١) من حديث ابن عمر مرفوعاً : « خمس لا جناح على من قتلهن فى الحرم والإحرام » . فلعن الحفاظ ابن كثير أثبت ما هنا من حفظه ، أو من رواية أخرى لغير الصحيحين ، ونسبهما لها تجوراً ، بإرادة أصل الحديث .

(٢) الموطأ (ص ٣٥٦) والبخارى (٤ / ٢٩ ، ٦ و ٢٥٣ فتح) ومسلم (٣٣٥ / ١) .

(٣) الوبر : يفتح الواو وسكون الباء الموحدة : دوية على قدر السنور ، غبراء أو بيضاء ، من دواب الصحراء ، حسنة العينين شديدة الحياء . قاله فى اللسان . وقال الجوهري : « هى طحلاء اللون ، لا ذنب لها ، تدجن فى البيوت » . وفى المخطوطتين : « وهر البر » بدل « والوبر » .

يقتلهم المحرم: الحية، والفأرة، والحدأة، والغراب الأبقع، والكلب العقور (١). والجمهور على أن المراد به أعم من ذلك؛ لما ثبت في الصحيحين من إطلاق لفظه (٢). وقال مالك: لا يقتل المحرم الغراب إلا إذا صال عليه وآذاه (٣).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ الذي عليه الجمهور أن العامد والناسي سواء في وجوب الجزاء عليه. وقال الزهري: دل الكتاب على العامد، وجرت السنة على الناسي، ومعنى هذا: أن القرآن دل على وجوب الجزاء على المتعمد وعلى تأنيبه بقوله: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَنْمَا لَقَدْ قَتَلَ مِنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾، وجاءت السنة من أحكام النبي ﷺ وأحكام أصحابه بوجوب الجزاء في الخطأ، كما دل الكتاب عليه في العمد، وأيضاً فإن قتل الصيد إتلاف، والإتلاف مضمون في العمد وفي النسيان، لكن المتعمد مأثوم والمخطئ غير مأثوم. وقوله: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾: قرأ بعضهم بالإضافة، وقرأ آخرون بضمها: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ (٤). وفي قوله: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ - على كل من القراءتين - دليل لما ذهب إليه مالك، والشافعي، وأحمد، والجمهور: من وجوب الجزاء في مثل ما قتله المحرم، إذا كان له مثل من الحيوان الإنسي، خلافاً لأبي حنيفة، حيث أوجب القيمة سواء كان الصيد المقتول مثلياً أو غير مثلي، قال: وهو مخير إن شاء تصدق بثمانته، وإن شاء اشترى به هدياً. والذي حكم به الصحابة في المثل أولى بالاتباع، فإنهم حكموا في النعامة ببذنه، وفي بقرة الوحش ببقرة، وفي الغزال بعنز.

وقوله: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ يعني: أنه يحكم بالجزاء في المثلي، أو بالقيمة في غير المثلي، عدلان من المسلمين. واختلف العلماء في القاتل: هل يجوز أن يكون أحد الحكمين؟ على قولين: أحدهما: لا؛ لأنه قد يتهم في حكمه على نفسه، وهذا مذهب مالك. والثاني: نعم؛ لعموم الآية. وهو مذهب الشافعي، وأحمد. واحتج الأولون بأن الحاكم لا يكون محكوماً عليه في صورة واحدة.

روى ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران: أن أعرابياً أتى أبا بكر فقال: قتلت صيداً وأنا محرم، فما ترى عليّ من الجزاء؟ فقال أبو بكر لأبي بن كعب وهو جالس عنده: ما ترى فيها قال؟ فقال الأعرابي: أتيتك وأنت خليفة رسول الله ﷺ أسألك، فإذا أنت تسأل غيرك! فقال أبو بكر: وما تنكر؟ يقول الله تعالى: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ فشاورت

(١) النسائي (٢ / ٢٦). وكذلك رواه مسلم (١ / ٣٣٤ ، ٣٣٥) بنحوه.

(٢) ولكن يعكر عليه أن المطلق يحمل على المقيد.

(٣) لا أدري من أين جاء الحافظ ابن كثير بهذا الذي نسب لمالك؟! وقوله في الموطأ غير ذلك، قال: «وأما ما ضر من الطير - فإن المحرم لا يقتله، إلا ما سمى النبي ﷺ: «الغراب والحدأة». [الموطأ، ص ٣٥٧].

(٤) قرأ عاصم وحزمة والكسائي ويعقوب وخلف «فجزاء» بالتثنية والرفع، و«مثل» برفع اللام، صفة لجزاء. وقرأ باقي الأربعة عشر برفع «جزاء» من غير تنوين وخفض اللام في «مثل». والقراءتان صحيحتان.

صاحبي حتى إذا اتفقنا على أمر أمرناك به . وإسناده جيد ، لكنه منقطع بين ميمون وبين الصديق ، ومثله يحتمل ههنا . فبين له الصديق الحكم برفق وتؤدة ، لما رآه أعرابياً جاهلاً ، وإنما دواء الجهل التعليم ، فأما إذا كان المعترض منسوباً إلى العلم ، فقد روى ابن جرير عن قبيصة بن جابر قال : خرجنا حجاجاً ، فكنّا إذا صلينا الغداة اقتدنا وواحلنا نتماشى نتحدث ، قال : فبينما نحن ذات غداة إذ سَنَحَ لنا ظبي - أو : بَرَحَ - فرماه رجل كان معنا بحجر ، فما أخطأ حشاه فركب رَدْعَهُ ميتاً ، قال : فَعَظَمْنَا عليه ، فلما قدمنا مكة خرجت معه حتى أتينا عمر بن الخطاب ، فقص عليه القصة ، قال : وإلى جنبه رجل كان وجهه قُلْبَ فضة - يعني عبد الرحمن بن عوف - فالتفت عمر إلى صاحبه فكلمه ، قال : ثم أقبل على الرجل فقال : أعمداً قتلته أم خطأ؟ قال الرجل : لقد تعمدت رميه ، وما أردت قتله . فقال عمر : ما أراك إلا قد أشركت بين العمد والخطأ ، اعمد إلى شاة فاذهبها فتصدق بلحمها واستبق إهابها . قال : فقمتنا من عنده ، فقلت لصاحبي : أيها الرجل ، عَظَمَ شعائر الله ، فما درى أمير المؤمنين ما يفتيك حتى سأل صاحبه ! اعمد إلى ناقتك فانحرها ، فلعل ذاك ، يعني : أن يجزئ عنك . قال قبيصة : ولا أذكر الآية من سورة المائدة : ﴿يَعْلَمُ بِهِ ذَوْاً عَدَلٍ مِنْكُمْ﴾ فبلغ عمر مقالتي ، فلم يفجأنا منه إلا ومعه الدرة . قال : فعلا صاحبي ضرباً بالدرة : أَقْتَلْتَ في الحرم وسَفَّهْتَ الحكم؟! قال : ثم أقبل على فقلت : يا أمير المؤمنين ، لا أحل لك اليوم شيئاً يحرم عليك مني ، فقال : يا قبيصة بن جابر ، إني أراك شاب السن ، فسيح الصدر ، بين اللسان ، وإن الشاب يكون فيه تسعة أخلاق حسنة وخلق سيئ ، فيفسد الخلق السيئ الأخلاق الحسنة ، فإياك وعثرات الشباب (١) .

وروى ابن جرير عن طارق قال : أوطأ أربدُ ضباً فقتله وهو محرم ، فأتى عمر ؛ ليحكم عليه ، فقال له عمر : احكم معي ، فحكمما فيه جدياً ، قد جمع الماء والشجر . ثم قال عمر :

(١) الطبري (١٢٥٨٨) ، وإسناده صحيح . ورواه قبل ذلك مختصراً بسياقات ومن أوجه (١٢٥٧٣ - ١٢٥٧٧) ، ١٢٥٨٦ ، ١٢٥٨٧) . ورواه البيهقي من هذا الوجه مطولاً (١٨١ / ٥) . ورواه أيضاً عقب ذلك عن الحاكم ، مختصراً قليلاً من وجه آخر . وهو في المستدرک (٣ / ٣١٠) . وقال الحاكم : « صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه » . ووافقه الذهبي . وذكره الهيثمي في الزوائد (٣ / ٢٣١ ، ٢٣٢) بنحوه ، وقال : « رواه الطبراني في الكبير ، ورجاله ثقات » . وذكره السيوطي (٢ / ٣٢٩) ، وزاد بنسبته لابن المنذر وابن أبي حاتم . وقوله : « إذا سَنَحَ لنا ظي أو برح » : هما يفتح أولهما وثانيهما . و « سَنَحَ » : أتاك عن يسارك . و « برح » : أتاك عن يمينك . وقوله : « فركب رده » : هو بفتح الراء وسكون الدال ، أي : خر لوجهه على دمه وركبه ، إذ الدم يسيل ثم يخر عليه صريعاً . وهذا الحرف ثابت على الصواب في المخطوطتين هنا . وفي المطبوعة « فركب وودعه » ! وهو تخطيط . وقوله : « قلب فضة » - « القلب » بضم القاف وسكون اللام ، وهو السوار الملوى ليا واحداً .

وموعظة عمر لقبيصة في شأن الشباب ، من أغلى المواعظ وأعلاها ، وأبلغها عبارة . فما يفسد الشباب شيء مثل خلق سيئ ، يدمر ما كان حسناً من أخلاقه .

﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ (١). وفى هذا دلالة على جواز كون القاتل أحد الحكمين ، كما قاله الشافعى وأحمد ، رحمهما الله .

واختلفوا: هل تستأنف الحكومة فى كل ما يصيبه المحرم، فيجب أن يحكم فيه ذوا عدل، وإن كان قد حكم فى مثله الصحابة ؟ أو يكتفى بأحكام الصحابة المتقدمة؟ على قولين، فقال الشافعى وأحمد: يتبع فى ذلك ما حكمت به الصحابة ، وجعله شرعاً مقررأ لا يعدل عنه، وما لم يحكم فيه الصحابة يرجع فيه إلى عدلين . وقال مالك وأبو حنيفة: بل يجب الحكم فى كل فرد فرد، سواء وجد للصحابة فى مثله حكم أم لا؛ لقوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ .

وقوله: ﴿هَذَا بِأَلْفِ الْكُفَّةِ﴾ أى: واصلاً إلى الكعبة، والمراد وصوله إلى الحرم، بأن يذبح هناك، ويفرق لحمه على مساكين الحرم. وهذا أمر متفق عليه فى هذه الصورة. وقوله: ﴿أَوْ كَفَّارَةً طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ أى: إذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم، أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال، أو قلنا بالتخير فى هذا المقام بين الجزاء والإطعام والصيام، كما هو قول مالك، وأبى حنيفة، وأبى يوسف، ومحمد ، وأحد قولى الشافعى، والمشهور عن أحمد ، لظاهر الآية « أو » فإنها للتخير. والقول الآخر: أنها على الترتيب . فصورة ذلك : أن يعدل إلى القيمة، فيقوم الصيد المقتول عند مالك، وأبى حنيفة وأصحابه، وحماذ، وإبراهيم. وقال الشافعى: يقوم مثله من النعم لو كان موجوداً، ثم يشتري به طعام فيتصدق به، فيصرف لكل مسكين مُدّ منه عند الشافعى، ومالك، وفقهاء الحجاز، واختاره ابن جرير. وقال أبو حنيفة وأصحابه: يُطعم كل مسكين مُدّين، وهو قول مجاهد. وقال أحمد: مُدّ من حنطة، أو مدان من غيره. فإن لم يجد - أو قلنا بالتخير - صام عن إطعام كل مسكين يوماً. واختلفوا فى مكان هذا الإطعام، فقال الشافعى: محله الحرم، وهو قول عطاء. وقال مالك: يطعم فى المكان الذى أصاب فيه الصيد، أو أقرب الأماكن إليه. وقال أبو حنيفة: إن شاء أطعم فى الحرم، وإن شاء أطعم فى غيره.

وقوله: ﴿لِيَذُوقَ وَيَلْأَمَهُ﴾ أى: أوجبنا عليه الكفارة ليدوق عقوبة فعله الذى ارتكب فيه المخالفة ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ سَلَفٌ﴾ أى: فى زمان الجاهلية، لمن أحسن فى الإسلام واتبع شرع الله، ولم يرتكب المعصية . ثم قال: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ أى: ومن فعل ذلك بعد تحريمه فى الإسلام وبلوغ الحكم الشرعى إليه ﴿فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ . قال ابن جرّيج، قلت لعطاء: ما ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ سَلَفٌ﴾ قال: قلت: وما ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾؟ قال: ومن عاد فى الإسلام، فينتقم الله

(١) الطبرى (١٢٥٨٩) . ورواه الشافعى فى الأم (٢ / ١٦٥) . ورواه البيهقى (٥ / ١٨٢) من طريق الشافعى ، وذكره الحافظ فى الإصابة (١ / ١٠٣ ، ١٠٤) فى ترجمة « أريد بن عبد الله البجلي » من رواية عبد الرزاق ، وقال : « إسناده صحيح » . وقوله : « أوطأ أريد ضبا » : أى جعل دابته تطؤه فى مسيرها . وكان فى المخطوطتين والمطبوعة هنا : « ظيبا » بدل « ضبا » وصححناه من الأم والطبرى . ويؤيده أنه جاء فى الأم تحت عنوان « باب الضب » .

منه، وعليه مع ذلك الكفارة قال: قلت: فهل فى العود حَدُّ تعلمه؟ قال: لا. قال: قلت: فترى حقاً على الإمام أن يعاقبه؟ قال: لا، هو ذنب أذنبه فيما بينه وبين الله، عز وجل، ولكن يفتدى. رواه ابن جرير^(١). وقيل: معناه: فينتقم الله منه بالكفارة. قاله سعيد بن جبير، وعطاء. ثم الجمهور - من السلف والخلف - على أنه متى قتل المحرم الصيد وجب الجزاء، ولا فرق بين الأوَّلة والثانية والثالثة، وإن تكرَّر ما تكرَّر، سواء الخطأ فى ذلك والعمد^(٢). وروى ابن جرير عن ابن عباس فيمن أصاب صيداً فحُكِّم عليه ثم عاد، قال: لا يحكم عليه، ينتقم الله منه^(٣). وهكذا قال شريح، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهم.

وقال ابن جرير فى قوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ يقول عزَّ ذكره: والله منيع فى سلطانه لا يقهره قاهر، ولا يمنعه من الانتقام من انتقم منه، ولا من عقوبة من أراد عقوبته مانع؛ لأن الخلق خلقه، والأمر أمره، له العزة والمنعة. وقوله: ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ يعنى: أنه ذو معاقبة لمن عصاه على معصيته إياه^(٤).

(١) الطبرى (١٢٦٣٦، ١٢٦٣٧).

(٢) «الأولة»: أثبتناها على ما فى المخطوطتين. وفى المطبوعة: «الأولى»، وأرجح أنه تصرف من ناسخ أو طابع، و«الأولة»: مؤنث «أول»، كالأولى، ولكنها قليلة. ففى اللسان (١٤ / ٢٤٤): «وحكى عن ثعلب: من الأولات دخولا والآخرات خروجا: واحدتها الأولية والآخرة. ثم قال: ليس هذا أصل الباب، وإنما أصل الباب: الأول والأولى، كالأطول والطولى».

(٣) الطبرى (١٢٦٦١). وإسناده صحيح.

(٤) إلى هنا آخر المجلد الثانى من المخطوطة الأزهرية، المقسمة إلى سبعة مجلدات، كما بينا صفتها فى بداية هذا الجزء وكتب الناسخ فى آخر المجلد ما نصه:

«آخر الجزء الثانى من تفسير القرآن العظيم. يتلوه فى الثالث قوله تعالى ﴿أَحِلُّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ﴾. والحمد لله وحده. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً. وحسبنا الله ونعم الوكيل». وهذا الجزء غير مؤرخ الكتابة، كمثل سائر الأجزاء، إلا الجزء الأخير. فقد بينا هناك أن الناسخ فرغ من كتابته يوم ١٠ جمادى الأولى سنة ٨٢٥.

وكنْتُ أثناء طبع الجزء الثانى من هذا الكتاب - اقتنيت مصوراً عن مجلد مخطوط من الجزء الثانى من تفسير ابن كثير. وهذا المجلد بدار الكتب المصرية، تحت رقم ٨٥ تفسير. وهو مجلد مفرد من نسخة أخرى. وهو مجلد نفيس، يغلب عليه الصحة، أكثر من النسخة الأزهرية. وهو أقدم منها. بل يبدو لى أن النسخة الأزهرية منقولة عن النسخة الذى منها هذا المجلد، لأنى وجدت أنه إذا ما وقع خطأ أو سقط فى هذه النسخة، وقع مثله بالضبط فى النسخة الأزهرية. هذا إلى اتحاد التقسيم؛ لأن هذا المجلد كمثل المجلد الثانى من النسخة الأزهرية: ينتهى إلى هذا الموضع أيضاً، وأوله أول تفسير سورة آل عمران، كمثل النسخة الأزهرية.

وناسخ هذا المجلد لم يذكر اسمه، ولكنه أثبت تاريخ نسخه. ففى آخره ما مثاله.

«نجز الجزء الثانى من تفسير القرآن العظيم. غفر الله لكتابه وقاره ولوالديهما، ولما لهما ولوالديه، ولسائر المسلمين، آمين، آمين، آمين. وذلك فى العشر الثالث من شهر جمادى الأولى سنة (٧٨٠) ثمانين وسبعمان. الحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، وشرف وكرم. يتلوه فى الثالث قوله تعالى ﴿أَحِلُّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾».

﴿أَحِلُّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَتْمَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ فِيمَا لِلنَّاسِ وَالشَّهَرِ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبِدَ ذَلِكَ لِيَتَلَمَّذُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ ﴿١٩﴾

قال ابن عباس - في رواية عنه - وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير ، وغيرهم في قوله : ﴿أَحِلُّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ يعني : ما يصطاد منه طرياً ﴿وَطَعَامُهُ﴾ : ما يتزود منه مليحاً يابساً . وقال ابن عباس في الرواية المشهورة عنه : صيده ما أخذه منه حياً ﴿وَطَعَامُهُ﴾ : ما لفظه ميتاً . وكذا روى عن أبي بكر الصديق وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عمر ، وأبي أيوب الأنصاري ، رضى الله عنهم . وغيرهم . وعن أبي بكر الصديق أنه قال : ﴿طَعَامُهُ﴾ : كل ما فيه . رواه ابن جرير وابن أبي حاتم (١) . وعن ابن عباس في قوله : ﴿أَحِلُّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾ قال : ﴿طَعَامُهُ﴾ : ما قذف .

= وكتب أحد قرائه - الذي لم يذكر اسمه - بهامش الصفحة الأخيرة منه ما نصه :

« بلغ مقابلة فصيح حسب الطاقة ، في مجالس آخرهم [كذا] ثالث عشر رمضان المعظم سنة عشر وثمانمائة [٨١٠] من الهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام . والحمد لله وحده . »
وقرئ هذا الجزء بالجامع الأزهر على أحد العلماء الكبار ، وكتب ثبت القراءة بذيل الصفحة الأخيرة منه أيضا . ونصه :

« قرأ جميع هذه المجلدة ، في مجالس متعددة ، بالجامع الأزهر ، بعد صلاة العشاء الآخرة ، بحضرة جمع كثير - على سيدنا قاضي القضاة شيخ الإسلام ، حافظ مصر والشام ، محمد قطب الدين الخضيرى ، أمتع الله به . وأجاز لى وللحاضرين . وختمها بتاريخ ليلة الخميس الحادى عشر من شهر رجب الفرد ، سنة إحدى وتسعين وثمانمائة [٨٩١] . كتبه محمد العز الحجازى الشافعى ، لطف الله به وبالمسلمين . »
و « قاضى القضاة قطب الدين الخضيرى - هذا الذى قرئ عليه - من أكبر تلاميذ الحافظ ابن حجر العسقلانى ، أثنى عليه شيخه الحافظ ثناء جميلا ، وشهد له شهادة قيمة ، نقلها السخاوى فى الضوء اللامع ، فذكر أنه « وصفه بالفاضل البارع » و « أنه سمع الكثير ، وكتب كتبا كثيرة وأجزاء ، وجد وحصل فى مدة لطيفة شيئا كثيرا . وخطه مليح ، وفهمه جيد ، ومحاضراته تدل على كثرة استحضاره » . نقل السخاوى هذه الشهادة على الرغم منه ، بما قرئ فى نفسه من حقد على القاضى الخضيرى وحسد ، بل على كل معاصريه . حتى إن ما فى نفسه جعله يكاد يكذب شيخه الحافظ ابن حجر فى شهادته تكذيبا مقنعا عجيبا ! فذكر أن كلام شيخه « يحتاج إلى تأويل فى بعض الكلمات ! وكذا وصفه له بالحفظ بعد ذلك ليس على إطلاقه » !! وليس تأويل الكلام بإخراجه عن معناه الوضعى للكلمات ، المفهوم من لغة العرب - إلا تكذيبا لمدلول الكلام ، باختراع مدلول آخر له ، تحوُّرا من التكذيب الصريح .

وترجمة القاضى الخضيرى وإفيه فى الضوء اللامع ، على الرغم من تحامل السخاوى [١١٧/٩ - ١٢٤] ، وفيها أنه ولد ليلة الاثنين منتصف رمضان سنة ٨٢١ بدمشق . وأنه مات فى شهر ربيع الثانى سنة ٨٩٤ بالقاهرة . ودفن بترته عند باب الشافعى .

(١) الطبرى (١٢٦٨٤ ، ١٢٦٨٥) . وفى إسناده انقطاع بين عكرمة وأبى بكر .

عن ابن عباس قال: ﴿وَطَعَامُهُ﴾: ما لفظ من ميتة. رواهما ابن جرير أيضاً (١).

وروى ابن جرير عن نافع؛ أن عبد الرحمن بن أبي هريرة سأل ابن عمر فقال: إن البحر قد قذف حيتاناً كثيرة ميتة، أفنأكلها؟ فقال: لا تأكلوها. فلما رجع عبد الله إلى أهله أخذ المصحف فقرأ سورة المائدة، فأتى [على] هذه الآية: ﴿وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلْآيَةِ﴾ فقال: اذهب فقل له فليأكله، فإنه طعامه (٢). وهكذا اختار ابن جرير أن المراد بطعامه ما مات فيه، قال: وقد روى في ذلك خبر، وإن بعضهم يرويه موقوفاً. ثم روى عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿أَحْلَلْ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَاعاً لَكُمْ﴾ قال: «طعامه: ما لفظه ميتاً». ثم قال: وقد وقف بعضهم هذا الحديث على أبي هريرة. ثم رواه موقوفاً (٣).

وقوله: ﴿مَتَاعاً لَكُمْ﴾ أى: منفعة وقوتاً لكم أيها المخاطبون ﴿وَلِلْآيَةِ﴾ وهم جمع سيّار. قال عكرمة: لمن كان بحضرة البحر. وقال غيره: الطرىّ منه لمن يصطاده من حضرة البحر، و﴿طَعَامُهُ﴾: ما مات فيه أو اصطيد منه وملّح وقُدّد زاداً للمسافرين والنائين عن البحر. وقد روى نحوه عن ابن عباس، ومجاهد، والسدي وغيرهم. وقد استدلل جمهور العلماء على حل ميتة البحر بهذه الآية الكريمة، وبما رواه الإمام مالك عن جابر بن عبد الله قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً قبيل الساحل، فأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح، وهم ثلاثمائة، قال: وأنا فيهم. قال: فخرجنا، حتى إذا كنا ببعض الطريق فنى الزاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش، فجُمع ذلك كله، فكان مزودى تمر، قال: فكان يَقتُونَا كل يوم قليلاً قليلاً، حتى فنى، فلم يكن يصيبنا إلا ثمرة تمر. [فقلت: وما تغنى ثمرة؟] (٤) فقال: فقد وجدنا فقدوها حين فنيته، قال: ثم انتهينا إلى البحر، فإذا حوت مثل الظرب، فأكل منه ذلك الجيش ثمانى عشرة ليلة. ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فنصّباً، ثم أمر براحلة فرحلت، ومرت تحتها فلم تصبهما. وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين، وله طرق عن جابر.

وفى صحيح مسلم عن جابر: فإذا على ساحل البحر مثل الكتيب الضخم، فأتيناه فإذا بدابة يقال لها: العنبر قال: قال أبو عبيدة: ميتة، ثم قال: لا، نحن رسل رسول الله ﷺ، وقد اضطررتم فكلوا، قال: فأقمنا عليه شهراً ونحن ثلاثمائة حتى سمنّا. ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينه بالقلال الدهن، ونقطع منه الفدر كالثور، قال: ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر

(١) الطبرى (١٢٦٨٩، ١٢٦٩٠، ١٢٦٩٢).

(٢) الطبرى (١٢٧٠٠)، وإسناده صحيح. وردنا منه كلمة [على]. ورواه الطبرى أيضاً بنحوه (١٢٦٩٩)، (١٢٧٠١، ١٢٧٠٣). ورواه أيضاً مالك عن نافع، فى الموطأ (ص ٤٩٤) بنحوه. ورواه البيهقى (٩/ ٢٥٥) من طريق مالك.

(٣) الطبرى (١٢٧٢٩) مرفوعاً، و (١٢٧٣٠) موقوفاً. وكلا الإسنادين صحيح، فلا يعل المرفوع بالموقوف، بل يؤيده.

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من المطبوعة وكذا المطبوع من «عمدة التفسير» والمخطوطة الأزهرية، وأثبتناه من الموطأ (٢/ ٩٣٠) صفة النبى ﷺ، رقم (٢٤). (الباز).

رجلاً، فأقعدهم فى وَقْب عينه، وأخذ ضِلْعاً من أضلاعه فأقامها، ثم رحل أعظم بعير معنا فمر من تحته، وتزودنا من لحمه وشائق. فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ، فذكرنا ذلك له، فقال: « هو رزق أخرجه الله لكم، هل معكم من لحمه شيء فقطعتمونا؟ » قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله. وفى بعض روايات مسلم: أنهم كانوا مع النبي ﷺ حين وجدوا هذه السمكة. فقال بعضهم: هى واقعة أخرى، وقال بعضهم: بل هى قضية واحدة، ولكن كانوا أولاً مع النبي ﷺ، ثم بعثهم سرية مع أبى عبيدة، فوجدوا هذه فى سريتهم تلك مع أبى عبيدة، والله أعلم^(١). وروى مالك عن أبى هريرة قال: سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنا نركب البحر، ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: « هو الطَّهُور ماؤه الحِلّ ميتته ». وقد روى هذا الحديث الإمامان الشافعى، وأحمد بن حنبل، وأهل السنن الأربع، وصححه البخارى، والترمذى، وابن خزيمة، وابن حبان، وغيرهم. وقد روى عن جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ، بنحوه^(٢). وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من الفقهاء إلى أنه يؤكل دواب البحر، ولم يستثن من ذلك شيئاً. وقد تقدم عن الصديق أنه قال: « طَعَامُهُ »: كل ما فيه. وقد استثنى بعضهم الضفادع وأباج ما سواها؛ لما رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائى عن عبد الرحمن بن عثمان التيمى؛ أن رسول الله ﷺ نهى عن قتل الضفدع^(٣). وقال آخرون: يؤكل من صيد البحر السمك، ولا يؤكل الضفدع. واختلفوا فيما سواهما، فقيل: يؤكل سائر ذلك، وقيل: لا يؤكل. وقيل: ما أكل شبهه من البر أكل مثله فى البحر، وما لا يؤكل شبهه لا يؤكل. وهذه كلها وجوه فى مذهب الشافعى. وقال أبو حنيفة، رحمه الله: لا يؤكل ما مات فى البحر، كما لا يؤكل ما مات فى البر؛ لعموم قوله: « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ » [المائدة: ٣]. وقد احتج الجمهور من أصحاب مالك، والشافعى، وأحمد بن حنبل، بحديث « العَنْبَر » المتقدم ذكره، وبحديث: « هو الطهور ماؤه الحِلّ ميتته »، وقد تقدم أيضاً. وروى الإمام الشافعى عن ابن عمر قال: قال رسول الله

(١) الموطأ (ص ٩٣٠ ، ٩٣١) والبخارى (٥ / ٩٢ فتح) ومسلم (٢ / ١١٠ ، ١١١) . ورواه أحمد فى المسند من طريق مالك (١٤٣٣٦) . ورواه أيضاً من أوجه ، مطولاً ومختصراً (١٤٣٠٦ ، ، ١٤٣٨٧ - ١٤٣٨٩ ، ١٥١٠٨) . وقوله فى رواية مالك : « مثل الظرب » : هو بفتح الظاء المعجمة وكسر الراء ، وهو الجبل الصغير . وقوله فى رواية مسلم : « من وقب عينه » - بفتح الواو وسكون القاف وآخره باء موحدة : وهو داخل العين ونقرتها . و « القلال » - بكسر القاف : جمع « قلة » ، بضمها ، وهى الجرة الكبيرة . وقوله : « الفدر » - بكسر الفاء وفتح الدال : جمع « فدر » بكسر فسكون ، وهى القطة من اللحم . وقوله : « وشائق » - بالشين المعجمة : جمع « وشيقة » ، وهى اللحم يغلى قليلاً قليلاً فى ماء مالح ، فيقدد ليبقى أياماً لا يتن .

(٢) الموطأ (ص ٢٢٢) . ورواه الإمام أحمد من طريق مالك ، مختصراً (٧٢٣٢) ومطولاً (٨٧٢٠) . وفصلنا تخريجه فى أولهما . وقد أفاض الحافظ ابن حجر فى التلخيص الخبير القول فى تخريجه ، وفى شواهده من روايات الصحابة (ص ٢ ، ٣) .

(٣) المسند (١٥٨٢٢ ، ١٦١٣٧) والنسائى (٢ / ٢٠٢) بنحوه ، وأسانيده صحاح .

ﷺ: « أَحَلَّتْ لَنَا مَيْتَانِ وَدَمَانِ ، فَأَمَّا الْمَيْتَانِ فَالْحَوْتَ وَالْجُرَادُ ، وَأَمَّا الدَّمَانِ فَالْكَبِدُ وَالطَّحَالُ » .
ورواه أحمد وابن ماجه ، والدارقطني والبيهقي . وله شواهد ، وروى موقوفاً ، والله أعلم (١) .

وقوله: ﴿وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أى: فى حال إحرامكم يحرم عليكم الاصطياد .
فيه دلالة على تحريم ذلك ، فإذا اصطاد المحرم الصيد متعمداً أثمَ وغرم ، أو مخطئاً غرم وحرم عليه أكله ؛ لأنه فى حقه كالميتة ، وكذا فى حق غيره من المحرمين والمحلين عند مالك والشافعى - فى أحد قوليه - وبه يقول عطاء ، والقاسم ، وسالم ، وأبو يوسف ، ومحمد ، وغيرهم . فإن أكله أو شئاً منه ، فهل يلزمه جزاء ثان ؟ فيه قولان للعلماء: أحدهما: نعم ، قال عن عطاء: إن ذبحه ثم أكله فكفارته ، وإليه ذهب طائفة . والثانى: لا جزاء عليه فى أكله . نص عليه مالك بن أنس . قال أبو عمر بن عبد البر: وعلى هذا مذهب فقهاء الأمصار ، وجمهور العلماء . ثم وجهه أبو عمر بما لو وطئ ثم وطئ قبل أن يُحَدَّ ، فإنما عليه حد واحد . وقال أبو حنيفة: عليه قيمة ما أكل . وأما إذا صاد حلالاً صيداً فأهداه إلى محرم ، فقد ذهب ذاهبون إلى إباحته مطلقاً ، ولم يستفصلوا بين أن يكون قد صاده لأجله أم لا . حكى هذا القول أبو عمر بن عبد البر ، عن عمر بن الخطاب ، وأبى هريرة ، والزيبر بن العوام ، وسعيد ابن جببر ، وغيرهم . وبه قال الكوفيون . روى ابن جرير عن أبى هريرة ؛ أنه سئل عن لحم صيد صاده حلال ، أياكله المحرم؟ قال: فأقتانهم بأكله . ثم لقي عمر بن الخطاب فأخبره بما كان من أمره ، فقال: لو أقتيتهم بغير هذا لأوجعتُ لك رأسك (٢) .

وقال آخرون: لا يجوز أكل الصيد للمحرم بالكلية ، ومنعوا من ذلك مطلقاً ؛ لعدم هذه الآية الكريمة . وروى عبد الرزاق عن ابن عباس؛ أنه كره أكل لحم الصيد للمحرم ، وقال: هى مبهمة . يعنى قوله: ﴿وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ . وروى عن ابن عمر؛ أنه كان يكره للمحرم أن يأكل من لحم الصيد على كل حال (٣) . قال ابن عبد البر: وبه قال طاوس ، وجابر ابن زيد ، وإليه ذهب الثورى ، وقد روى نحوه عن على بن أبى طالب ، رواه ابن جرير عن سعيد بن المسيب: أن علىاً كره لحم الصيد للمحرم على كل حال (٤) .

وقال مالك ، والشافعى ، وأحمد بن حنبل ، والجمهور: إن كان الحلال قد قصد المحرم

(١) الأم (٢ / ١٩٧) . والمسند (٥٧٣٢) . وإسناده ضعيف . ولكنه ثبت مرفوعاً بإسناد آخر صحيح ، وثبت موقوفاً بأسانيد صحاح . والموقوف هنا موقوف لفظاً ، ولكنه مرفوع معنى ، يقينا . لأن الصحابى إذا قال: « أحل لنا كذا » أو « حرم علينا كذا » فإنما يريد أن الذى أحل الشيء أو حرمه هو النبى ﷺ ، المبلغ عن ربه . ولم يكن الصحابة كاذبين ولا مفترين ، ولا جراء على الشرع ، حتى يظن بهم أن ينقلوا التحليل أو التحريم عن غير صاحب الشريعة ﷺ . وقد فصلنا القول فى روايات الحديث وتخريجه فى ذاك الموضع من المسند .

(٢) الطبرى (١٢٧٥٤) . وإسناده صحيح . ورواه - بنحوه - بأسانيد آخر (١٢٧٥٦ ، ١٢٧٥٧ ، ١٢٧٦٠ ، ١٢٧٦٢) .

(٣) إسنادا عبد الرزاق فى خبرى ابن عباس وابن عمر - صحيحان .

(٤) الطبرى (١٢٧٤٤) .

بذلك الصيد ، لم يجز للمحرم أكله ؛ لحديث الصَّعْب بن جَثَّامة : أنه أهدى للنبي ﷺ حماراً وحشياً ، وهو بالأبواء - أو : بَوْدَان - فردّه عليه ، فلما رأى ما فى وجهه قال : « إنا لم نرُدّه عليك إلا أنا حُرْمٌ » . وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين ، وله ألفاظ كثيرة (١) . قالوا : فوجهه أن النبي ﷺ ظن أن هذا إنما صاده من أجله ، فردّه لذلك . فأما إذا لم يقصده بالاصطياد ، فإنه يجوز له الأكل منه ؛ لحديث أبى قتادة حين صاد حماراً وحشاً ، وكان حلالاً لم يحرم ، وكان أصحابه محرمين ، فتوقفوا فى أكله . ثم سألوا رسول الله ﷺ ؟ فقال : « هل كان منكم أحد أشار إليها ، أو أعان فى قتلها ؟ » قالوا : لا . قال : « فكلوا » . وأكل منها رسول الله ﷺ . وهذه القصة ثابتة أيضاً فى الصحيحين بألفاظ كثيرة (٢) . وروى الإمام أحمد عن المطلب بن عبد الله بن حنطب ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « صيد البر لكم حلال وأنتم حرم ، ما لم تُصيده أو يُصدّ لكم » . وكذا رواه أبو داود والترمذى والنسائى . وقال الترمذى : لا نعرف للمطلب سماعاً من جابر . ورواه الإمام الشافعى ، من طريق عمرو عن جابر ثم قال : وهذا أحسن حديث روى فى هذا الباب وأقْبَسُ (٣) . وروى مالك ، عن عبد الله بن أبى بكر ، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال : رأيت عثمان بن عفان بالعَرَج ، وهو محرم فى يوم صائف ، قد غطى وجهه بقطيفة أرجوان ، ثم أتى بلحم صيد فقال لأصحابه : كلوا ، فقالوا : أوْلا نأكل أنت ؟ فقال : إني لست كهيتكم ، إنما صيد من أجلى (٤) .

[تكميل]

[ذكر الحافظ ابن كثير هنا أربع آيات ، هى : ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ . ثم فسر أكثر الآية الأولى منها فقط إلى هذا الموضع ، ولم يذكر تفسير آخرها ولا الثلاثة بعدها . وهذا هو الثابت فى كل الأصول المخطوطة والمطبوعة . والظاهر أنه سها عن ذلك ، رحمه الله . فمن البعيد جداً أن يكون ذلك سهواً من الناسخين يتفقون عليه فى جميع النسخ على اختلاف مصادرها . فرأيت - تكميل هذا النقص ، بإثبات تفسيرها من تفسير إمام المفسرين : ابن جرير الطبرى - بشئ من الاختصار والتصرف ، والاقتصار على التفسير نفسه . مراعيًا الدقة فى

(١) انظر صحيح مسلم (١ / ٣٣٢ ، ٣٣٣) .

(٢) انظر صحيح مسلم (١ / ٣٣٣ ، ٣٣٤) .

(٣) المسند (١٤٩٥١) . ورواه الحاكم (١ / ٤٥٢ ، ٤٧٦) وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى فى الموضعين . ورواه البيهقى (٥ / ١٩٠) بأسانيد وأبان عن صحته . وأما إعلال الترمذى بإياه فليس بذى شأن ؛ لأن « المطلب بن عبد الله بن حنطب » اثنان ، ، فشبّه على الترمذى وغيره . وقد حققت ذلك بأوفى بيان ، فى شرحى لكتاب الرسالة للإمام الشافعى ، (ص ٩٧ - ١٠٣) .

(٤) الموطأ (ص ٣٥٤) طبعة الأستاذ فؤاد عبد الباقي ، و (٢ / ٣٢٥) من الطبعة التى معها شرح السيوطى سنة ١٣٤٣ . ووقع فيهما : « عن عبد الرحمن بن عامر بن ربيعة ! » وهو خطأ ناسخ أو طابع . ولا يوجد راو بهذا الاسم . بل إن السيوطى نفسه فى « رجال الموطأ » لم يذكره إلا على الصواب . وثبت أيضاً على الصواب فى شرح الزرقانى للموطأ (٢ / ١٩٣ ، ١٩٤) .

المحافظة على عبارته العالية ما استطعت ، إن شاء الله ، وبه الاستعانة] .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ يقول تعالى : واخشوا الله - أيها الناس - واحذروه ، بطاعته فيما أمركم به من فرائضه ، وفيما نهاكم عنه في هذه الآيات التي أنزلها على نبيكم ﷺ : من النهي عن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، وعن إصابة صيد البر وقتله في حال إحرامكم ، فإن لله مصيركم ومرجعكم ، فيعاقبكم بمعصيتكم إياه ، ويجازيكم فيثيبكم على طاعتكم له .

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْغُرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ ﴾ يقول تعالى صَبَّرَ اللَّهُ الكعبة البيت الحرام قِوَامًا للناس الذين لا قِوَامَ لهم من رئيس يحجز قِوَاهُمْ عن ضعيفهم ، ومسيئهم عن محسنهم ، وظالمهم عن مظلومهم ﴿ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ﴾ يقول : وجعل هذه أيضا قِيَامًا للناس ، كما جعل الكعبة قِيَامًا لهم ، فحجز بكل واحد من ذلك بعضهم عن بعض ، إذ لم يكن لهم قِيَامٌ غيره ، وجعلها معالم لدينهم ومصالح أمورهم . وقيل : « قِيَامًا » بالياء ، وهو من ذوات الواو ، لكسرة القاف ، وهى فاء الفعل ، فجعلت العين منه بالكسرة ياءً . كما قيل فى مصدره « قمت » : « قِيَامًا » و « صمت » : « صِيَامًا » . وجعل تعالى الكعبة والشهر الحرام والهدى والقلائد قواما لمن كان يحرم ذلك من العرب ويعظمه ، بمنزلة الرئيس الذى يقوم به أمر تباعه ، وأما الكعبة : فالحرم كله ، وسماها الله « حرامًا » لتحريمه إياها أن يصاد صيدها أو يُختلَى خلاها أو يعضد شجرها . وكذلك كانت الكعبة والشهر الحرام والهدى والقلائد قِوَامَ أمر العرب ، الذى كان به صلاحهم فى الجاهلية . وهى فى الإسلام معالم حجهم ومناسكهم ، ومتوجّههم لصلاتهم .

﴿ ذَلِكَ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ يقول تعالى : صَبَّرَ لكم - أيها الناس - ذلك قِيَامًا ، كى تعلموا أن من أحدث لكم لمصالح دنياكم ما أحدث بما به قوامكم ، علمًا منه بمنافعكم ومضاركم - أنه كذلك يعلم جميع ما فى السموات والأرض مما فيه صلاح عاجلكم وآجلكم . ولتعلموا أنه بكل شىء عليم ، لا يخفى عليه شىء من أموركم وأعمالكم ، وهو محصياها عليكم ، حتى يجازى المحسن منكم بإحسانه ، والمسيء منكم بإساءته .

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ يقول تعالى : اعلموا أن ربكم الذى يعلم ما فى السموات والأرض ، ولا يخفى عليه شىء من سرائر أعمالكم وعلايتها - شديد عقابه على من عصاه وتمرد عليه ، وهو غفور لذنوب من أطاعه وأتاب إليه ، رحيم به أن يعاقبه على ما سلف من ذنوبه بعد إنابته وتوبته منها . ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ وهذا من الله تهديد لعباده ووعيد . يقول : ليس على رسولنا الذى أرسلناه إليكم ، إلا أن يودى إليكم رسالتنا ، ثم إلينا الثواب على الطاعة ، وعلينا العقاب على المعصية . وغير خفى علينا المطيع منكم القابلُ رسالتنا ، من العاصى الأبى رسالتنا . لأننا نعلم ما عمله العامل منكم فأظهره بحوارحه ونطق به لسانه ، وما تخفونه فى أنفسكم من إيمان وكفر ، أو يقين وشك

ونفاق . فمن كان كذلك ، لا يخفى عليه شيء من ضمائر الصدور ، وظواهر أعمال النفوس ، مما فى السموات والأرض ، ويده الثواب والعقاب ، فحقيق أن يتقى ، وأن يطاع فلا يعصى .

﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَكُونِ لَكُمُ الْأَلْتَابُ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١٠٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَبْدَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلَ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢)

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ أى: يا أيها الإنسان ﴿كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ يعنى: أن القليل الحلال النافع خير من الكثير الحرام الضار، كما جاء فى الحديث: « ما قلَّ وكفى، خيرٌ مما كثر وألهى » (١) . ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْتَابِ﴾ أى: يا ذوى العقول الصحيحة المستقيمة، وتجنبوا الحرام ودعوه، واقنعوا بالحلال واكتفوا به ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾: هذا تأديب من الله لعباده المؤمنين، ونهى لهم عن أن يسألوا عما لا فائدة لهم فى السؤال والتنقيب عنها؛ لأنها إن ظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءتهم وشق عليهم سماعها، كما جاء فى الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: « لا يُلْغِنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ شَيْئاً، إِنِّى أَحِبُّ أَنْ أُخْرَجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ » (٢) . وروى البخارى عن أنس بن مالك قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلاً قط، وقال فيها: « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » . قال: فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ، لهم حنين . فقال رجل: من أبى؟ قال: « فلان »، فنزلت هذه الآية: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾ (٣) . ورواه مسلم، وأحمد، والترمذى، والنسائى .

وروى ابن جرير عن قتادة فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾ : أن أنس بن مالك حدثه: أن رسول الله ﷺ سألوه حتى أحفوه بالمسألة، فخرج عليهم ذات يوم فصعد المنبر، فقال: « لا تسألوا اليوم عن شيء إلا بيته لكم » . فأشفق أصحاب رسول الله ﷺ أن يكون بين يدى أمر قد حضر، فجعلت لا ألثفت يميناً ولا شمالاً إلا وجدت كلاً لا قاً رأسه فى ثوبه يبكى، فأنشأ رجل كان يلاحى فيدعى إلى غير أبيه، فقال: يا نبي الله، من أبى؟

(١) ذكره الهيثمى فى الزوائد (١٠ / ٢٥٥ ، ٢٥٦) من حديث أبى سعيد ، وقال : « رواه أبو يعلى ، ورجال رجال الصحيح ، غير صدقة بن الربيع ، وهو ثقة » .

(٢) رواه أبو داود (٤٨٦٠) من حديث ابن مسعود . وهو جزء من حديث مطول ، رواه أحمد فى المسند (٣٧٥٩) . وكذلك رواه الترمذى (٣٦٧ / ٤) . وذكره المؤلف الحافظ فى التاريخ (١ / ٣١٣) عن رواية

المسند . وسيأتى هذا الجزء فى (ص ٨٨٠) عن رواية المسند .

(٣) البخارى (٨ / ٢١٠ ، ٢١١ فتح) .

قال: « أبوك حذافة ». قال: ثم قام عمر - أو قال: فأنشأ عمر - فقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، عائداً بالله - أو قال: أعوذ بالله - من شر الفتن قال: وقال رسول الله ﷺ: « لم أر في الخير والشر كالיום قط، صورت لى الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط ». أخرجاه (١). ورواه الزهري، عن أنس بنحو ذلك - أو قريباً منه - قال الزهري: فقالت أم عبد الله بن حذافة: ما رأيت ولدًا أعق منك قط، أكنت تأمن أن تكون أمك قد قارفت ما قارف أهل الجاهلية فتفضحها على رؤوس الناس؟! فقال: والله لو ألحقني بعبد أسود للحقته (٢).

وروى البخارى عن ابن عباس قال: كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاء، فيقول الرجل: من أبى؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟! فأنزل الله فيهم هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ حتى فرغ من الآية كلها. تمرد به البخارى (٣). وروى الإمام أحمد عن على، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] قالوا: يا رسول الله، أفى كل عام؟ فسكت، قال: ثم قالوا: أفى كل عام؟ فقال: «لا، ولو قلت: نعم لوجبت، ولو وجبت لما استطعتم»، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ الآية.

وكذا رواه الترمذى وابن ماجه، وقال الترمذى: غريب من هذا الوجه، وسمعت البخارى يقول: أبو البختري لم يدرك علياً (٤).

وظاهر الآية النهى عن السؤال عن الأشياء التى إذا علم بها الشخص ساءته، فالأولى الإعراض عنها وتركها. وما أحسن الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لا يبلغنى أحد عن أحد شيئاً؛ فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر» الحديث، وقد رواه أبو داود والترمذى. قال الترمذى: غريب من هذا الوجه (٥). وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنْزَلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ﴾ أى: وإن تسألوا عن هذه الأشياء - التى نهيتهم عن السؤال عنها - حين ينزل الوحي على رسول الله ﷺ تبين لكم، وذلك يسير.

(١) الطبرى (١٢٧٩٧). ورواه قبل ذلك (١٢٧٩٥) وفى آخره: « وكان قتادة يذكر هذا الحديث عند هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ ».

(٢) حديث الزهري عن أنس رواه البخارى مطولاً ومختصراً (١ / ١٦٩ ، ٢ / ١٧ ، ١٨ ، ٨ / ٢١٠ ، ٢١١ ، ١٣ / ٢٣٠ فتح) وابن حبان فى صحيحه ، رقم (١٠٦) بتحقيقنا . ولكن ليس عندهما الزيادة التى ذكرها الحافظ ابن كثير هنا ، وهى ثابتة فى رواية مسلم (٢ / ٢٢٢) من رواية الزهري عن أنس .

(٣) البخارى (٨ / ٢١٢ فتح) . ورواه الطبرى بنحوه (١٢٧٩٤) .

(٤) المسند (٩٠٥) . وإسناده ضعيف لسبب آخر : أن فيه « عبد الأعلى بن عامر الثعلبى » ، وهو ضعيف . وقد رواه الطبرى (١٢٨٠٣) عن على بن عبد الأعلى الثعلبى . ووقف به عنده ، فلم يذكر باقى الإسناد ! فجعله معضلاً .

(٥) مضى فى (ص ٨٧٨) من غير بيان مخرجه ، وخرجهنا هناك .

ثم قال : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ أى : عما كان منكم قبل ذلك ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ .

وقيل : المراد بقوله : ﴿وإن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدِّلْ لَكُمْ﴾ أى : لا تسألوا عن أشياء تستأنفون السؤال عنها ، فلعلة قد ينزل بسبب سؤالكم تشديد أو تضييق . وقد ورد فى الحديث : «أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يُحرم فحرم من أجل مسألته» (١) . ولكن إذا نزل القرآن بها مجملة فسألتم عن بيانها بينت لكم حيثنذا لاحتياجكم إليها .

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ أى : ما لم يذكره فى كتابه فهو مما عفا عنه ، فاستكتوا أنتم عنها كما سكت عنها . وفى الصحيح ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «ذرونى ما تركتم ؛ فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم» (٢) . وفى الحديث الصحيح أيضاً : «إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحدد حدوداً فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم ، غير نسيان ، فلا تسألوا عنها» (٣) .

ثم قال تعالى : ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُم ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ أى : قد سأل هذه المسائل المنهى عنها قومٌ من قبلكم ، فأجيبوا عنها ثم لم يؤمنوا بها ، فأصبحوا بها كافرين ، أى : بسببها ، أن بينت لهم فلم ينتفعوا بها ؛ لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد ، وإنما سألوا على وجه التعنت والعناد . وروى الطبرى عن خُصيف ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاء﴾ قال : هى البحيرة والوصيلة والسائبة والحام ، ألا ترى أنه : ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ﴾ ولا كذا ولا كذا ؟ ، قال : وأما عكرمة فقال : إنهم كانوا يسألونه عن الآيات ، فنهوا عن ذلك . ثم قال : ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُم ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ (٤) يعنى عكرمة رحمه الله : أن المراد بهذا النهى عن سؤال وقوع الآيات ، كما سألت قريش أن يجرى لهم أنهاراً ، وأن يجعل لهم الصفاً ذهباً ! وغير ذلك ، وكما سألت اليهود أن ينزل عليهم كتاباً من السماء ، وقد قال الله تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً﴾ [الاسراء: ٥٩] وقال تعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنِ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ . وَنَقَلِبْ أَقْدُنْهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ

(١) المسند (١٥٤٥) من حديث سعد بن أبى وقاص ، بلفظ : «أعظم المسلمين فى المسلمين جرماً» . ورواه قبل ذلك بنحوه (١٥٢٠) . ورواه ابن حبان فى صحيحه ، رقم (١١٠) بتحقيقنا ، وفصلنا تخريجه فيه ، وأنه رواه أيضاً الشيخان وأبو داود .

(٢) هو جزء من حديث رواه أحمد فى المسند (٧٣٦١) من حديث أبى هريرة وفصلنا تخريجه هناك ، وأنه رواه الشيخان وغيرهما . ورواه الطبرى فى التفسير (١٢٣٤) ، معلقاً محرف اللفظ ، وبيننا ذلك هناك .

(٣) رواه الحاكم (١١٥/٤) والدارقطنى (ص ٥٠٢ ، ٥٠٣) وابن حزم فى الإحكام (٢٤ / ٨) بتحقيقنا - ثلاثهم من حديث أبى ثعلبة الخشنى مرفوعاً . وذكر الهيثمى فى الزوائد (١ / ١٧١) من رواية الطبرانى فى الكبير ، وقال : «ورجاله رجال الصحيح» . ورواه الطبرى فى التفسير (١٢٨١٣) موقوفاً من كلام أبى ثعلبة . وقد بينا فى تمام التخرىج (٣ / ٥٨٧ ، ٥٨٨ برقم ٣) صحته مرفوعاً ، وأن الذى رفعه ثلاثة من الثقات . وهو الحديث الثلاثون من الأربعين النووية .

(٤) الطبرى (١٢٨١١) .

يَعْمَهُونَ . وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١٠٩﴾ [الأنعام : ١٠٩ - ١١١].

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَجِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامِرٍ لِلَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ عَلَى اللَّهِ
الْكَذِبَ وَآكَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١٠٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا
حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾

روى البخارى عن سعيد بن المسيب قال : «البحيرة» : التى يُعْمَعُ دَرَّهَا للطواغيت ، فلا يحلبها أحد من الناس . و«السائبة» : كانوا يسيبونها لآلهتهم ، لا يحمل عليها شيء ، قال : وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : «رأيت عمرو بن عامر الخزاعى يجر قُصْبَهُ فى النار ، كان أول من سَبَّ السوائب» . و«الوصيلة» : الناقة البكر ، تُبَكَّر فى أول نتاج الإبل ، ثم تشى بعد بأنثى ، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم ، إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر . و«الحام» : فحل الإبل يضرب الضراب المعدود ، فإذا قضى ضرابه ودَعُوهُ للطواغيت ، وأغفوه عن الحمل ، فلم يُحْمَل عليه شيء ، وسموه الحامى . وكذا رواه مسلم والنسائى (١) . ثم رواه البخارى عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : «رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً ، ورأيت عمراً يجر قُصْبَهُ ، وهو أول من سب السوائب» . تفرد به البخارى (٢) . وروى ابن جرير عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجؤن : «يا أكثم ، رأيت عمرو ابن لُحَيَّ بن قَمْعَةَ بن خندف يجر قُصْبَهُ فى النار ، فما رأيت رجلاً أشبه برجل منك به ، ولا به منك» . فقال أكثم : تخشى أن يضرنى شبهه يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : «لا ، إنك مؤمن وهو كافر ، إنه أول من غير دين إسماعيل ، وبحر البحيرة ، وسب السائبة ، وحمل الحامى» . ثم رواه بإسناد آخر نحوه . ليس هذان الطريقتان فى الكتب (٣) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود ، عن النبى ﷺ قال : «إن أول من سب السوائب ، وعبد الأصنام ، أبو خزاعة عمرو ابن عامر ، وإنى رأيته يجر أمعاءه فى النار» . تفرد به أحمد من هذا الوجه (٤) .

(١) البخارى (٨ / ٢١٣ ، ٢١٤ فتح) . ورواه مرة أخرى بنحوه (٦ / ٣٩٩ ، ٤٠٠) دون آخره فى تفسير الوصيلة والحام . وكذلك رواه مسلم (٢ / ٣٥٤ ، ٣٥٥) . وروى المرفوع منه أحمد فى المسند (٧٦٩٦) بإسناد فيه انقطاع . ثم رواه موصولاً (٨٧٧٢) . ورواه ابن حزم فى جمهرة الأنساب (ص ٢٢٢) مختصراً من طريق البخارى وطريق مسلم .

(٢) البخارى (٨ / ٢١٤ فتح) . و«القصب» - بضم القاف وسكون الصاد المهملة : الأمعاء .

(٣) الطبرى (١٢٨٢٠ ، ١٢٨٢٢) . وإسناده صحيحان . وكان فى المطبوعة : «أول من غير دين إبراهيم» . وأثبتنا ما فى الطبرى فى الرواية الأولى . وأما الثانية ففيها «إبراهيم» .

(٤) المسند (٤٢٥٨) ، وإسناده ضعيف . ولكن شواهدة تجعله صحيحاً لغيره أو حسناً .

فعمرو هذا هو ابن لحي بن قَمْعَة (١) ، أحد رؤساء خزاعة ، الذين ولّوا البيت بعد جرهم . وكان أول من غير دين إبراهيم الخليل ، فأدخل الأصنام إلى الحجاز ، ودعا الرعاع من الناس إلى عبادتها والتقرب بها ، وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأتعام وغيرها ، كما ذكره الله تعالى في سورة الأنعام ، عند قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ﴾ [الأنعام: ١٣٦] إلى آخر الآيات في ذلك .

فأما البحيرة ، فقال ابن عباس : هي الناقة إذا نُتجت خمسة أبطن نظروا إلى الخامس ، فإن كان ذكراً ذبحوه ، فأكله الرجال دون النساء . وإن كان أنثى جدعوا أذانها ، فقالوا : هذه بحيرة . وذكر السدّي وغيره قريباً من هذا .

وأما السائبة ، فقال مجاهد : هي من الغنم نحو ما فسر من البحيرة ، إلا أنها ما ولدت بين ولد وبين ستة أولاد كانت على هيئتها ، وإذا ولدت السابع ذكراً أو ذكرين ، ذبحوه ، فأكله رجالهم دون نساءهم . وقال محمد بن إسحاق : السائبة : هي الناقة إذا ولدت عشر إناث من الولد ليس بينهن ذكر ، سُبّيت فلم تركب ، ولم يُجَزَّ وبرها ، ولم يحلب لبنها إلا الضيف .

وأما الوصيلة ، فقال ابن عباس : هي الشاة إذا نتجت سبعة أبطن نظروا السابع ، فإن كان ذكراً أو أنثى وهو ميت اشترك فيه الرجال دون النساء ، وإن كان أنثى استحيوها ، وإن كان ذكراً وأنثى في بطن استحيوهما وقالوا : وصلته أخته فحرمته علينا . رواه ابن أبي حاتم . وروى عبد الرزاق عن سعيد بن المسيب قال : فالوصيلة من الإبل ، كانت الناقة تبتكر بأنثى ، ثم ثنت بأنثى ، فسموها الوصيلة ، ويقولون : وصلت أنثيين ليس بينهما ذكر ، فكانوا يجدعونها لطواغيتهم . وكذا روى عن الإمام مالك . وقال محمد بن إسحاق : الوصيلة من الغنم : إذا ولدت عشر إناث في خمسة أبطن ، توأمين توأمين في كل بطن ، سميت الوصيلة وتركت ، فما ولدت بعد ذلك من ذكر أو أنثى ، جعلت للذكور دون الإناث . وإن كانت ميتة اشتركوا فيها .

وأما الحام فقال ابن عباس قال : فالفحل من الإبل ، إذا وُلد لولده قالوا : حمى هذا ظهره ، فلا يحملون عليه شيئاً ، ولا يجوزون له وبراً ، ولا يمنعونه من حمى رعى ، ومن حوض يشرب منه ، وإن كان الحوض لغير صاحبه .

وقد قيل غير ذلك في تفسير هذه الآية . وقد ورد في ذلك حديث رواه ابن أبي حاتم عن أبي الأحوص الجُشَمي ، عن أبيه مالك بن نَضْلَة قال : أتيت النبي ﷺ في خَلْقَانِ مِنَ الثِّياب ، فقال لى : « هل لك من مال ؟ » فقلت : نعم . قال : « من أى المال ؟ » قال : فقلت : من كل المال ، من الإبل والغنم والخليل والريق . قال : « فإذا أتاك الله مالاً فكثّر عليك » . ثم قال : « تُنتجُ إبلك

(١) هو « عمرو بن عامر بن لحي بن قَمْعَة بن خندف بن إلياس بن مضر » . و « خندف » : هو أبو « خزاعة » .

انظر جمهرة الأنساب لابن حزم (ص ٢٢٢ ، ٢٢٣) . فنسب « عمرو » إلى أبيه تارة ، وإلى جسد أخرى . و « لحي » : بضم اللام وفتح الحاء المهملة وتشديد الياء . و « قَمْعَة » : بفتح القاف والميم مخففة . و « خندف » : بكسر الحاء المعجمة والذال المهملة بينهما نون ساكنة .

وافية آذانها؟ قال: قلت: نعم. قال: «وهل تُنتج الإبل إلا كذلك؟» قال: «فعلك تأخذ موسى فتقطع آذان طائفة منها وتقول: هذه بحيرة ، وتشق آذان طائفة منها، وتقول: هذه صُرْم ؟» قلت: نعم. قال: «فلا تفعل، إن كل ما آتاك الله لك حل»، ثم قال: «مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ»، أما البحيرة: فهي التي يجدعون آذانها، فلا تنتفع امرأته ولا بناته ولا أحد من أهل بيته بصوفها ولا أوبرها ولا أشعارها ولا ألبانها، فإذا ماتت اشتركوا فيها. وأما السائبة: فهي التي يسيبون لآلهتهم، ويذهبون إلى آلهتهم فيسيبونها، وأما الوصيصة: فالشاة تلد ستة أبطن، فإذا ولدت السابع، جدعت وقطع قرنها، فيقولون: قد وصلت، فلا يذبحونها، ولا تضرب ولا تمنع مهما وردت على حوض. هكذا يذكر تفسير ذلك مدرجاً في الحديث. وقد روى من وجه آخر عن أبي الأحوص عوف بن مالك، من قوله، وهو أشبه. وقد روى هذا الحديث الإمام أحمد، عن أبي الأحوص عوف بن مالك بن نضلة، عن أبيه، به. وليس فيه تفسير هذه، والله أعلم (١).

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أى: ما شرع الله هذه الأشياء ولا هى عنده قربة، ولكن المشركون افتروا ذلك، وجعلوه شرعاً لهم وقربة يتقربون بها إليه. وليس ذلك بحاصل لهم، بل هو وبال عليهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أى: إذا دعوا إلى دين الله وشرعه وما أوجبه وترك ما حرمه، قالوا: يكفيننا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ أى: لا يفهمون حقاً، ولا يعرفونه، ولا يهتدون إليه، فكيف يتبعونهم والحالة هذه؟! لا يتبعهم إلا من هو أجهل منهم، وأضل سبيلاً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقاتهم، ومخبراً لهم أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس، سواء كان قريباً منه أو بعيداً. قال ابن عباس عند تفسير هذه الآية: يقول تعالى: إذا ما العبد أطاعنى فيما أمرته به من الحلال ونهيته عنه من الحرام، فلا يضره من ضل بعده، إذا عمل بما أمرته به. وهكذا قال مقاتل. فتقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ نصب على الإغراء ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: فيجازى كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

(١) المسند (١٥٩٥٣، ١٥٩٥٦) بنحوه. ورواه أيضاً قبل ذلك وبعده بأسانيد، مختصراً ومطولاً، دون التفسير الملرج هنا. ورواه أيضاً (١٧٢٩٤)، وهى الرواية التى يشير إليها الحافظ ابن كثير هنا. ورواه الطبرى (١٢٨٢٥)، وقال الطبرى (١١ / ١٣٣) - بعد أن أطال فى تفسيرها ورواية الآثار فيها: « وهذه أمور كانت فى الجاهلية فأبطلها الإسلام ، فلا تعرف قوما يعملون بها اليوم » .

وليس فيها دليل على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذا كان فعل ذلك ممكناً، وقد روى الإمام أحمد عن قيس قال: قام أبو بكر، رضى الله عنه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلٍّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ إلى آخر الآية، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإنى سمعت رسول الله ﷺ قال: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه أوشك الله، عز وجل، أن يعمهم بعقابه». قال: وسمعت أبا بكر يقول: يا أيها الناس، إياكم والكذب، فإن الكذب مجانب للإيمان. وقد روى هذا الحديث أصحاب السنن الأربعة، وابن حبان فى صحيحه، وغيرهم، من طرق كثيرة متصلاً مرفوعاً، ومنهم من رواه موقوفاً على الصديق. وقد رجح رفعه الدارقطنى وغيره (١). وروى الترمذى عن أبى أمية الشَّعْبَانِى، قال: أتيت أبا ثعلبة الخشنى فقلت له: كيف تصنع فى هذه الآية؟ فقال: أية آية؟ قلت: قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلٍّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾؟ قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «بل اتتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع العوام، فإن من ورائكم أياماً الصبر فيهن مثل القابض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم» - قال عبد الله بن المبارك: وزاد غير عتبة: قيل: يا رسول الله، أجر خمسين رجلاً منا أو منهم؟ قال: «بل أجر خمسين منكم». ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب صحيح. وكذا رواه أبو داود، وابن ماجه، وابن جرير، وابن أبى حاتم (٢).

وعن أبى العالية، عن ابن مسعود، فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلٍّ﴾ الآية، قال: كانوا عند عبد الله بن مسعود جلوساً، فكان بين رجلين بعض ما يكون بين الناس، حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه، فقال رجل من جلساء عبد الله: ألا أقوم فأمرهما بالمعروف ونهاهما عن المنكر؟ فقال آخر إلى جنبه: عليك بنفسك، فإن الله يقول: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ الآية! قال: فسمعها ابن مسعود فقال: مه، لم يجئ تأويل هذه بعد. إن القرآن أنزل حيث أنزل، ومنه آى قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن، ومنه آى قد وقع تأويلهن على عهد رسول الله ﷺ، ومنه آى قد وقع تأويلهن بعد النبي ﷺ ببسبر، ومنه آى يقع تأويلهن بعد اليوم، ومنه آى يقع تأويلهن عند الساعة: ما ذكر من الساعة، ومنه آى يقع تأويلهن يوم الحساب: ما ذكر من الحساب والجنة والنار. فما دامت قلوبكم واحدة، وأهواؤكم واحدة ولم تلبسوا شيعاً، ولم يذق بعضكم بأس بعض فأمروا وانهاؤا. وإذا اختلفت القلوب والأهواء، وألبستم شيعاً، وذاق

(١) المسند (١٦).

(٢) الترمذى (٩٩/٤، ١٠٠) وأبو داود (٤٣٤١) وابن ماجه (٤٠١٤). ورواه الطبرى (١٢٨٦٢، ١٢٨٦٣).
والزيادة التى ذكر ابن المبارك أنها غير «عتبة بن أبى حكيم» - ثابتة فى الرواية الأولى عند الطبرى من رواية أيوب ابن سويد عن عتبة.

بعضكم بأس بعض فامرو ونفسه، عند ذلك جاءنا تأويل هذه الآية. رواه ابن جرير (١).

وروى ابن جرير عن الربيع بن صبيح، عن سفيان بن عقال قال: قيل لابن عمر: لو جلست في هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه، فإن الله قال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾؟! فقال ابن عمر: إنها ليست لي ولا لأصحابي؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «ألا فليبلغ الشاهد الغائب». فكننا نحن اليهود وأنتم الغيب، ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا، إن قالوا لم يقبل منهم (٢). وروى أيضاً عن سوار بن شبيب قال: كنت عند ابن عمر، إذ أتاه رجل جليد في العين، شديد اللسان، فقال: يا أبا عبد الرحمن، نفر ستة، كلهم قد قرأ القرآن فأسرع فيه، وكلهم مجتهد لا يالو، وكلهم بغض إليه أن يأتي ذنابة، وهم في ذلك يشهد بعضهم على بعض بالشرك؟! فقال رجل من القوم: وأي ذنابة تريد أكثر من أن يشهد بعضهم على بعض بالشرك؟ فقال الرجل: إني لست إياك أسأل، إنما أسأل الشيخ. فأعاد على عبد الله الحديث، فقال عبد الله: لعلك ترى، لا أبالك، أني سأمرك أن تذهب فتقتلهم؟! عظمهم وانهمم، فإن عصوك فعليك نفسك، فإن الله، عز وجل يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ الآية (٣). وروى أيضاً عن أبي مازن، قال: انطلقت على عهد عثمان إلى المدينة، فإذا قوم من المسلمين جلوس، فقرأ أحدهم هذه الآية: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ فقال أكثرهم: لم يجئ تأويل هذه الآية اليوم (٤).

وروى أيضاً عن جبير بن نفير قال: كنت في حلقة فيها أصحاب رسول الله ﷺ، وإني لأصغر القوم، فتذكروا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقلت أنا: أليس الله يقول في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾؟ فأقبلوا على بلسان واحد وقالوا: تنزع آية من القرآن ولا تعرفها، ولا تدري ما تأويلها؟! فتمنيت أني لم أكن تكلمت، وأقبلوا يتحدثون، فلما حضر قيامهم، قالوا: إنك غلام حديث السن، وإنك نزع آية لا تدري ما هي، وعسى أن تدرك ذلك الزمان، إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، وإعجاب كل ذي رأى برأيه، فعليك بنفسك، لا يضرك من ضل إذا اهتديت (٥). وقال سعيد بن المسيب: إذا أمرت

(١) الطبري (١٢٨٥٩، ١٢٨٦٠).

(٢) الطبري (١٢٨٥١)، وإسناده صحيح. «الربيع بن صبيح» - بفتح الصاد وكسر الباء: تكلم فيه بعضهم، والراجح عندنا أنه ثقة. و«سفيان بن عقال» - بكسر العين وتخفيف القاف -: تابعي ثقة، ترجمه البخاري وابن أبي حاتم قلم يذكر في جرحه.

(٣) الطبري (١٢٨٥٤). وإسناده صحيح. «سوار بن شبيب»: تابعي ثقة، ترجمه البخاري وابن أبي حاتم فلم يذكر في جرحه.

(٤) الطبري (١٢٨٥٢، ١٢٨٥٣)، وإسناده صحيحان. و«أبو مازن»: هو الأزدي الحداني، وهو تابعي ثقة. ترجمه البخاري في الكنى (٦٩٦)، وقال: «كان من صلحاء الأزديين، قدم المدينة زمن عثمان». ولكن وقع في كتاب الكنى: «أبو ملاز»! وهو خطأ مطبعي واضح. ثم رواه الطبري بعد ذلك بنحوه (١٢٨٥٦، ١٢٨٥٧).

(٥) الطبري (١٢٨٥٨).

بالمعروف ونهيت عن المنكر، فلا يضرك من ضل إذا اهتديت. رواه ابن جرير، وكذا قال غير واحد من السلف.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهِدُوا بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ اَرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُرِيَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْنَا أَحَقُّ مِنْ شَهِدَيْهِمَا وَمَا كُنَّا لِنَكْتُمَ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ أَذَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ ۖ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على حكم عزيز، قيل: إنه منسوخ رواه العوفي عن ابن عباس. وقال حماد بن أبي سليمان، عن إبراهيم: إنها منسوخة. وقال آخرون - وهم الأكثرون، فيما قاله ابن جرير -: بل هو محكم؛ ومن ادعى النسخ فعليه البيان.

فقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهِدُوا بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ﴾ هذا هو الخبر؛ لقوله: ﴿شَهِادَةُ بَيْنَكُمْ﴾ فقيل: تقديره: «شهادة اثنين»، حذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه. وقيل: دل الكلام على تقدير أن يشهد اثنان. وقوله: ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ وصف الاثنين، بأن يكونا عدلين. وقوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ أى: من المسلمين. قاله الجمهور. قال ابن عباس: من المسلمين. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: روى عن عبيدة، وسعيد بن المسيب، والحسن، ومجاهد، وغيرهم، نحو ذلك. قال ابن جرير: وقال آخرون: عنى: ذلك ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ من أهل الموصى. وذلك قول روى عن عكرمة وعبيدة وعدة غيرهما (١).

وقوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ قال: من غير المسلمين، يعنى: أهل الكتاب. ثم قال: وروى عن عبيدة، وشريح، وسعيد بن المسيب، وابن سيرين، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهم، نحو ذلك. وعلى ما حكاه ابن جرير عن عكرمة وعبيدة فى قوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ أى: المراد من قبيلة الموصى، يكون المراد ههنا: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ أى: من غير قبيلة الموصى.

وقوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: سافرتُم ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ وهذان شرطان

(١) ثم رد ذلك بأن الله عم المؤمنين بخطابهم بذلك، فى قوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ «غير جائر أن يصرف عما عمه الله إلى الخصوص إلا بحجة يجب التسليم لها». وهذا كلام جيد قوى. انظر الطبرى (١١ / ١٥٧) من طبعتنا.

لجواز استشهاد الذميين عند فقد المؤمنين : أن يكون ذلك في سفر، وأن يكون في وصية، كما صرح بذلك شريح القاضي. روى ابن جرير عن شريح قال: لا يجوز شهادة اليهودي والنصراني إلا في سفر، ولا تجوز في سفر إلا في وصية (١). وروى نحوه عن الإمام أحمد بن حنبل، وهذه المسألة من أفراده، وخالفه الثلاثة فقالوا: لا تجوز شهادة أهل الذمة على المسلمين. وأجازها أبو حنيفة فيما بين بعضهم بعضاً. وروى ابن جرير عن الزهري قال: مضت السنة ألا تجوز شهادة الكافر في حضر ولا سفر، إنما هي في المسلمين. وقال ابن زيد: نزلت هذه الآية في رجل توفي وليس عنده أحد من أهل الإسلام، وذلك في أول الإسلام، والأرض حرب، والناس كفار، وكان الناس يتوارثون بالوصية، ثم نسخت الوصية وفرضت الفرائض، وعمل الناس بها. رواه ابن جرير، وفي هذا نظر، والله أعلم.

وقال ابن جرير: اختلف في قوله: ﴿شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾: هل المراد أن يوصى إليهما؟ أو يشهدهما؟ على قولين: أحدهما: أن يوصى إليهما، والقول الثاني: أنهما يكونان شاهدين. وهو ظاهر سياق الآية الكريمة، فإن لم يكن وصى ثالث معهما اجتمع فيهما الوصفان: الوصاية والشهادة، كما في قصة تميم الداري، وعدي بن بداء، كما سيأتي ذكرهما، إن شاء الله وبه التوفيق (٢). وقد استشكل ابن جرير كونهما شاهدين، قال: لأننا لا نعلم حكماً يحلف فيه الشاهد. وهذا لا يمنع الحكم الذي تضمنته هذه الآية الكريمة، وهو حكم مستقل بنفسه، لا يلزم أن يكون جارياً على قياس جميع الأحكام، على أن هذا حكم خاص بشهادة خاصة في محل خاص، وقد اغتفر فيه من الأمور ما لم يغتفر في غيره، فإذا قامت قرينة الريبة حلف هذا الشاهد بمقتضى ما دلت عليه هذه الآية الكريمة.

وقوله تعالى: ﴿تَجَسَّوْنَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ قال ابن عباس: يعني صلاة العصر. وكذا قال سعيد بن جبير، والنخعي، وقتادة، وغيرهم. وقال الزهري: يعني صلاة المسلمين، وقال السدي، عن ابن عباس: يعني صلاة أهل دينهما (٣). والمقصود: أن يقام هذان الشاهدان بعد صلاة اجتمع الناس فيها بحضرتهم، ﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ اَرْتَبْتُمْ﴾ أي: إن ظهرت لكم منهما ريبة، أنهما قد خانا أو غلّا، فيحلفان حينئذ بالله ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ﴾ أي: بأيماننا. قاله مقاتل بن حيان ﴿ثَمَنًا﴾ أي: لا نعتاض عنه بعوض قليل من الدنيا الفانية الزائلة ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أي: ولو كان المشهود عليه قريباً إلينا لا نحايه ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾: أضافها إلى الله تشريقاً لها،

(١) الطبري (١٢٩١١، ١٢٩١٢، ١٢٩٢٥).

(٢) في الصفحة التالية.

(٣) هذه رواية شاذة، رواها الطبري (١٢٩٥٤) في قصة طويلة. ثم ردّها رداً شديداً. وجزم بأن المراد الصلاة المعروفة للمخاطبين، التي كان رسول الله ﷺ يتخيرها لاستحلاف من أراد تغليظ اليمين عليه، وهي صلاة العصر. الطبري (١١ / ١٧٦، ١٧٧) من طبعنا.

وتعظيمًا لأمرها. وقرأ بعضهم: «ولا نكتم شهادة الله مجروراً على القسم. رواها ابن جرير، عن عامر الشعبي (١). وحكى عن بعضهم أنه قرأ: «وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ» (٢)، والقراءة الأولى هي المشهورة. «إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ» أى: إن فعلنا شيئاً من ذلك، من تحريف الشهادة، أو تبديلها، أو تغييرها، أو كتمها بالكلية.

ثم قال تعالى: «فَإِنْ عُرِيَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا» أى: فإن اشتهر وظهر وتحقق من الشاهدين الوصيين، أنهما خانا أو غلا شيئاً من المال الموصى به إليهما، وظهر عليهما بذلك «فَأَخْرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلِيَّانِ»: هذه قراءة الجمهور: «اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلِيَّانِ» أى: متى تحقق ذلك بالخبر الصحيح على خيانتهم، فليقم اثنان من الورثة المستحقين للتركة وليكونا من أولى من يرث ذلك المال «فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا» أى: لقولنا: إنهما خانا - أحق وأصح وأثبت من شهادتهما المتقدمة «وَمَا اعتدنا» أى: فيما قلنا من الخيانة «إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ» أى: إن كنا قد كذبتنا عليهما. وهذا التحليف للورثة، والرجوع إلى قولهما والحالة هذه - كما يحلف أولياء المقتول إذا ظهر لوث في جانب القاتل، فيقسم المستحقون على القاتل فيدفع برؤيته إليهم، كما هو مقرر في باب «القسامة» من الأحكام.

وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة، فروى الترمذى عن ابن عباس قال: خرج رجل من بنى سَهْمٍ مع تميم الدارى وعدى بن بداء، فمات السهمى بأرض ليس فيها مسلم، فلما قدما بتركته فقدوا جأماً من فضة مخصوصاً بالذهب، فأحلفهما رسول الله ﷺ، ووجدوا الجأماً بمكة، فقيل: اشتريانه من تميم وعدى. فقام رجلان من أولياء السهمى فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما، وأن الجأماً لصاحبهم. وفيهم نزلت: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ». رواه أبو داود، ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب (٣).

وقد ذكر هذه القصة مرسله غير واحد من التابعين منهم: عكرمة، ومحمد بن سيرين، وقتادة. وذكروا أن التحليف كان بعد صلاة العصر، رواه ابن جرير (٤). وكذا ذكرها مرسله:

(١) بتنوين «شهادة» وكسر الهاء من لفظ الجلالة، أى: بالله، أو: والله. ووقع في المطبوع «شهادة لله».

والتصحيح من مخطوطى الطبرى وابن كثير.

(٢) بتنوين «شهادة» ونصب الهاء من لفظ الجلالة، أى: ولا نكتم الله شهادة عندنا. انظر الطبرى (١١ / ١٧٨) من طبعنا.

(٣) الترمذى (٤ / ١٠٠، ١٠١) وأبو داود (٣٦٠٦). ورواه أيضاً البخارى (٥ / ٣٠٧ - ٣٠٩ فتح). ومن عجب أن يسهو الحافظ ابن كثير عن نسبه للبخارى. والحديث رواه أيضاً الطبرى (١٢٩٦٦). ورواه الترمذى (٤ / ١٠٠) والطبرى (١٢٩٦٧) مطولاً؛ بإسناد آخر ضعيف جداً. والحجة فى الرواية الأولى الصحيحة.

و «عدى بن بداء» - بفتح الباء وتشديد الدال: ذكره بعضهم فى الصحابة خطأ، وصحح الحافظ فى الفتح والإصابة (٤ / ٢٢٨) أنه مات نصرانياً. و «الجام» - بتخفيف الميم: إناء من فضة. و «المخصص» - بضم الميم وفتح الحاء وتشديد الواو: الذى عليه صفائح من ذهب على هيئة خوص النخل.

(٤) الطبرى (١٢٩٦٨). وهى أطول من الروایتين الأخريين.

مجاهد، والحسن، والضحاك. وهذا يدل على اشتهاها في السلف وصحتها.

ومن الشواهد لصحة هذه القصة أيضا ما رواه ابن جرير عن الشعبي؛ أن رجلاً من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقا، قال: فحضرته الوفاة ولم يجد أحداً من المسلمين يشهده على وصيته، فأشهد رجلين من أهل الكتاب. قال: فقدم الكوفة، فأتيا الأشعري - يعنى: أبا موسى الأشعري - فأخبراه، وقدم الكوفة بتركته ووصيته، فقال الأشعري: هذا أمر لم يكن بعد الذى كان على عهد رسول الله ﷺ. قال: فأحلفهما بعد العصر: بالله ما خانا ولا كذبا ولا بدلاً ولا كتماً ولا غيراً، وإنها لو صية الرجل وتركته. قال: فأمضى شهادتهما. ثم رواه بإسناد آخر عن الشعبي؛ أن أبا موسى قضى به. وهذان إسنادان صحيحان إلى الشعبي، عن أبى موسى الأشعري (١). فقله: «هذا أمر لم يكن بعد الذى كان على عهد رسول الله ﷺ» الظاهر - والله أعلم - أنه إنما أراد بذلك قصة تميم وعدى بن بداء، وقد ذكروا أن إسلام تميم بن أوس الدارى كان فى سنة تسع من الهجرة فعلى هذا يكون هذا الحكم متأخراً، يحتاج مدعى نسخه إلى دليل فاصل فى هذا المقام، والله أعلم. وروى ابن جرير عن إبراهيم وسعيد بن جبير، أنهما قالا فى هذه الآية: إذا حضر الرجل الوفاة فى سفر، فليشهد رجلين من المسلمين، فإن لم يجد رجلين من المسلمين فرجلين من أهل الكتاب فإذا قدما بتركته، فإن صدقهما الورثة قبل قولهما، وإن اتهمهما حلفا بعد صلاة العصر: بالله ما كتمنا ولا كذبنا ولا خناً ولا غيرنا (٢).

وقال ابن عباس فى تفسير هذه الآية: فإن ارتب فى شهادتهما استحلفا بعد الصلاة بالله: ما اشترينا بشهادتنا ثمناً قليلاً. فإن اطلع الأولياء على أن الكافرين كذبا فى شهادتهما، قام رجلان من الأولياء فحلفا بالله: إن شهادة الكافرين باطلة، وإننا لم نعتد، فذلك قوله: «فإن عثر على أنهما استحقا إثماً» يقول: إن اطلع على أن الكافرين كذبا «فأخراهم يقومان مقامهما» يقول: من الأولياء، فحلفا بالله: إن شهادة الكافرين باطلة، وإننا لم نعتد، فترد شهادة الكافرين، وتجوز شهادة الأولياء. رواه ابن جرير (٣) وهكذا قرر هذا الحكم على مقتضى هذه الآية غير واحد من أئمة التابعين والسلف، وهو مذهب الإمام أحمد.

وقوله: «ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها» أى: شرعية هذا الحكم على هذا الوجه المرضى من تحليف الشاهدين الذين أقرب إلى إقامتهما الشهادة على الوجه المرضى. وقوله: «أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم» أى: يكون الحامل لهم على الإتيان بها على وجهها، وهو تعظيم الحلف بالله ومراعاة جانبه وإجلاله، والخوف من الفضيحة بين الناس إذا ردت اليمين على الورثة، فيحلفون ويستحقون ما يدعون، ولهذا قال: «أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم». ثم قال: «واتقوا الله» أى: فى جميع أموركم «واسمعوا» أى: وأطيعوا «والله لا يهدي القوم الفاسقين»

(١) الطبرى (١٢٩٤٨، ١٢٩٢٧)، ورواه أيضا (١٢٩٢٦، ١٢٩٥٣). ورواه أبو داود (٣٦٠٥). و«دقوقا»:

يفتح الدال وضم القاف الأولى ويجوز فيه المد والقصر. وهو اسم بلد بين إربل وبغداد.

(٢) الطبرى (١٢٩٥٢). (٣) الطبرى (١٢٩٦١).

يعنى: الخارجين عن طاعته ومتابعة شريعته.

ربع

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾ ﴿١٠٩﴾

هذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة، عما أجيبوا به من أمهم الذين أرسلهم إليهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْتَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الاعراف: ٦]، وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] . وقول الرسل: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ قال مجاهد، والحسن البصرى، والسدّى: إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم . ولا شك أنه قول حسن، وهو من باب التأدب مع الرب، جل جلاله ، أى: لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء، فنحن - وإن كنا قد أجبنّا وعرفنا من أجابنا - ولكن منهم من كنا إنما نطلع على ظاهره، لا علم لنا بباطنه، وأنت العليم بكل شيء، المطلع على كل شيء. فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلاً علم، فإنك ﴿أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾

يذكر تعالى ما امتن به على عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام ، مما أجراه على يديه من المعجزات الباهرات وخوارق العادات، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ أى: في خلقى إياك من أم بلا ذكر، وجعلى إياك آية ودلالة قاطعة على كمال قدرتى على الأشياء ﴿وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾ حيث جعلتك لها برهاناً على براءتها مما نسبته الظالمون والجاهلون إليها من الفاحشة ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل، عليه السلام، وجعلتك نبياً داعياً إلى الله فى صغرك وكبرك، فانطقتك فى المهد صغيراً، فشهدت ببراءة أمك من كل عيب، واعترفت لى بالعبودية، وأخبرت عن رسالتى إياك ودعوت إلى عبادتى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أى: تدعو الناس إلى الله فى صغرك وكبرك. وضمنّ «تكلم» تدعو؛ لأن كلامه الناس فى كهولته ليس بأمر عجيب.

وقوله: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أى: الخط والفهم ﴿وَالتَّوْرَةَ﴾ وهى المنزلة على موسى ابن عمران الكليم . وقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ أى: تصوره وتشكله على هيئة الطائر بإذنى لك فى ذلك ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ ، أى: فتنفخ فى تلك الصورة التى شكلتها بإذنى لك فى ذلك ، فتكون طيراً ذا روح بإذن الله وخلقه. وقوله: ﴿وَتَبْرِئُ الْأَكْمَامَ﴾

هذه قصة المائدة، وإليها تنسب السورة فيقال: «سورة المائدة». وهى مما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى لما أجاب دعاءه بنزولها، فأنزلها الله آية باهرة وحجة قاطعة. وقد ذكر بعض الأئمة أن قصة المائدة ليست مذكورة فى الإنجيل، ولا يعرفها النصارى إلا من المسلمين، فالله أعلم.

فقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ وهم أتباع عيسى، عليه السلام ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ هذه قراءة كثيرين، وقرا آخرون: «هل تَسْتَطِيعُ رَبُّكَ» (١) أى: هل تستطيع أن تسأل ربك ﴿أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾. والمائدة هى: الخوان عليه طعام. وذكر بعضهم أنهم إنما سألوا ذلك لحاجتهم وفقرهم، فسألوه أن ينزل عليهم مائدة كل يوم يقتاتون منها، ويتقوون بها على العبادة قال: ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى: فأجابهم المسيح، عليه السلام، قائلاً لهم: اتقوا الله، ولا تسألوا هذا، ففساه أن يكون فتنة لكم، وتوكلوا على الله فى طلب الرزق إن كنتم مؤمنين. ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ أى: نحن محتاجون إلى الأكل منها ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُنَا﴾ إذا شاهدنا نزولها رزقاً لنا من السماء ﴿وَنَعْلَمَ أَنَّ قَدْ صَدَّقْتَ﴾ أى: ونزداد إيماناً بك وعلماً برسالتك ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أى: ونشهد أنها آية من عند الله، ودلالة وحجة على نبوتك وصدق ما جئت به.

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ قال السُّدِّى: أى نتخذ ذلك اليوم الذى نزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومن بعدنا، وقال سفيان الثوري: يعنى يوماً نصلى فيه، وقال قتادة: أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم. ﴿وَأَيَّةٌ مِنْكَ﴾ أى: دليلاً تنصبه على قدرتك على الأشياء، وعلى إجابتك لدعوتى، فيصدقونى فيما أبلغه عنك ﴿وَأَرْزُقْنَا﴾ أى: من عندك رزقاً هنيئاً بلا كلفة ولا تعب ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾. قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم ﴿أى: فمن كذب بها من أمتك يا عيسى وعاندها﴾ ﴿فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحدًا من العالمين﴾ أى: من عالمى زمانكم، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ (٢) أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ [غافر: ٤٦]، وكقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]. وقد روى ابن جرير، من طريق عوف الأعرابي، عن أبى المغيرة القوأس، عن عبد الله بن عمرو قال: إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة ثلاثة: المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون (٣). وروى ابن أبى حاتم عن عمار بن ياسر، عن النبى ﷺ قال: «نزلت المائدة من السماء، عليها خبز ولحم، وأمروا ألا يخونوا ولا يرفعوا لغد، فخانوا وادخروا ورفعوا، فمسخوا قردة وخنازير». ورواه ابن جرير (٤).

(١) هى قراءة الكسائى . والقراءة الاولى قراءة باقى السبعة .

(٢) فى المطبوعة ، والمطبوع من «عمدة التفسير» ، وكذا المخطوطة الازهرية : «يوم القيامة» وهو خطأ واضح . (البار) .

(٣) الطبرى (١٣٠٢٥) وإسناده صحيح ، ولكنه موقوف من كلام عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٤) الطبرى (١٣٠١٢) . ثم رواه بنحوه موقوفاً على عمار (١٣٠١٤) . ورواه الترمذى (٤ / ١٠٢) مرفوعاً . ثم رواه موقوفاً ، وجزم بأنه أصح ، ثم قال : «ولا نعرف للحديث المرفوع أصلاً» . وهو كما قال .

[ثم أطل الحافظ ابن كثير فى ذكر آثار فى نزول المائدة وصفنها ، ليست ثابتة عن النبى ﷺ ، فأعرضنا عن إثباتها هنا . ثم قال] : وكل هذه الآثار دالة على أن المائدة نزلت على بنى إسرائيل ، أيام عيسى ابن مريم ، إجابة من الله لدعوته ، وكما دل على ذلك ظاهر السياق من القرآن العظيم : ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ ﴾ الآية .

وقال قائلون : إنها لم تنزل . فروى عن مجاهد ، قال : هو مثل ضربه الله ، ولم ينزل شىء . رواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير . وروى عن الحسن أنه قال فى المائدة : لم تنزل . وأسانيدنا صحيحة إلى مجاهد والحسن (١) ، وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا يعرفه النصارى وليس هو فى كتابهم ، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعى على نقله ، وكان يكون موجوداً فى كتابهم متواتراً ، ولا أقل من الأحاد ، والله أعلم (٢) . ولكن الذى عليه الجمهور أنها نزلت ، وهو الذى اختاره ابن جرير ، قال : لأن الله تعالى أخبر بنزولها فى قوله تعالى : ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مَنِّكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ۖ ﴾ قال : ووعد الله ووعده حق وصدق .

وهذا القول هو - والله أعلم - الصواب ، كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم . وقد ذكر أهل التاريخ : أن موسى بن نصير نائب بنى أمية فى فتوح بلاد المغرب ، وجد المائدة هناك مرصعة باللؤلؤ وأنواع الجواهر ، فبعث بها إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، باني جامع دمشق ، فمات وهى فى الطريق ، فحملت إلى أخيه سليمان بن عبد الملك الخليفة بعده ، فرآها الناس فتعجبوا منها كثيراً ، لما فيها من اليواقيت النفيسة والجواهر اليتيمة . ويقال : إن هذه المائدة كانت لسليمان بن داود ، عليهما السلام ، فآله أعلم . وقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قالت قريش للنبي ﷺ : ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك ! قال : « وتفعلون ؟ » قالوا : نعم . فاتاه جبريل فقال : إن ربك يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا (١) الطبرى (١٣٠١٩ ، ١٣٠٢١) .

(٢) هذا المروى عن مجاهد والحسن - خطأ منهما ، لم يستندا فيه إلى خبر ثابت ، وإنما هو رأى واستنباط ، أخطأ طريقه .

وأما ما زعمه الحافظ ابن كثير هنا ، من أنه قد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا يعرفه النصارى إلى آخر كلامه - فإنه كلام ضعيف لا قيمة له ولا حجة فيه . ولا أدرى كيف يظن ابن كثير هذا الظن الباطل ؟ وإن كان قد استدرك بعد فرجح القول الصحيح الذى يدل عليه صريح القرآن : أن المائدة نزلت عليهم . فالاستناد إلى أن خبر المائدة ليس فى كتب النصارى ولا يعرفونه - كلام متهاافت باطل . لأن القرآن جاء مهيمنا على الكتب السابقة ، فما وافقه منها كان صحيحا ، وما خالفه كان باطلا . فأولى ألا يكون سكوتها عن شىء أمانة نفيه ، إذا ما أثبت القرآن . ومن زعم أن عدم ذكرها عندهم دليل على نفي وجودها ، مع ذكرها فى القرآن - فقد جعل هذه الكتب المحرفة غير الثابتة هى المهيمنة على القرآن !! وحاشا لمسلم أن يزعم ذلك .

ثم ليس خبر المائدة وحده هو الثابت فى القرآن غير المذكور عندهم : فإن خبر كلام عيسى فى المهد ثابت فى الكتاب العزيز بأصرح لفظ وأوضحه . ولا يعرفه النصارى فى كتبهم وأخبارهم ، مع توافر الدواعى على نقله . فكان ماذا ؟ كان أن القرآن حق ، وما خالفه باطل ، دون تردد أو ريب .

ذهبا، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة؟ قال: «بل باب التوبة والرحمة». ورواه ابن مردويه والحاكم (١).

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا أَنْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تُغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

هذا أيضاً مما يخاطب الله تعالى به عبده ورسوله عيسى ابن مريم، عليه السلام، قائلاً له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله: ﴿يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد. هكذا قاله قتادة وغيره، واستدل قتادة على ذلك بقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾. وقال السدي: هذا الخطاب والجواب في الدنيا. قال ابن جرير: وهذا هو الصواب، وكان ذلك حين رفعه إلى السماء الدنيا. واحتج ابن جرير على ذلك بمعنيين: أحدهما: أن لفظ الكلام لفظ المضى. والثاني: قوله: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ﴾، ﴿وَإِنْ تُغْفِرَ لَهُمْ﴾. وهذان الدليلان فيهما نظر؛ لأن كثيراً من أمور يوم القيامة ذكر بلفظ المضى، ليدل على الوقوع والثبوت. ومعنى قوله: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تُغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الآية: التبرى منهم ورد المشيئة فيهم إلى الله، وتعليق ذلك على الشرط لا يقتضى وقوعه، كما في نظائر ذلك من الآيات. والذي قاله قتادة وغيره هو الأظهر - والله أعلم - أن ذلك كائن يوم القيامة، ليدل على تهديد النصارى وتقريعهم وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة.

﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ هذا توفيق للتأدب في الجواب الكامل، كما روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: يلقي عيسى حجته، ولقاء الله في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال أبو هريرة، عن النبي ﷺ: فلقيه الله: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ إلى آخر الآية (٢).

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ أى: إن كان صدر مني هذا فقد علمته يا رب، فإنه لا يخفى

(١) المسند (٢١٦٦، ٢٣٢٣) والحاكم (٣١٤/٢)، وقال: «صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه». ووافقه الذهبي. وسيدكره المؤلف الحافظ مرة أخرى عند الآية (٥٩) من سورة الإسراء. وذكره في التاريخ (٥٢/٣) بإسنادي المسند، ثم قال: «وهذان إسنادان جيدان».

(٢) إسناد ابن أبي حاتم إسناد صحيح. ورواه الترمذي (١٠٢/٤، ١٠٣) بالإسناد نفسه، وقال: «حديث حسن صحيح». وذكره السيوطي (٣٤٩/٢) وزاد نسبه للنسائي - يعنى في السنن الكبرى - وأبى الشيخ وابن مردويه والديلمى.

عليك شيء مما قلته ولا أدركته في نفسي ولا أضمرت؛ ولهذا قال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾. مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴿بِإِبْلَاجِهِ﴾ ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أَيْ: هذا هو الذي قلت لهم ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أَيْ: كنت أشهد على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

روى الطيالسي عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة، فقال: «يا أيها الناس، إنكم محشورون إلى الله، عز وجل، حفاة عراة غرلاً، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وإن أول الخلائق يُكسى إبراهيم، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي. فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. إن تُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ»، فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم». ورواه البخاري (١).

وقوله: ﴿إِنْ تُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ﴾ هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله، عز وجل، فإنه الفعال لما يشاء، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. ويتضمن التبري من النصارى الذين كذبوا على الله، وعلى رسوله، وجعلوا لله نداً وصاحبة ولداً، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. وهذه الآية لها شأن عظيم ونباً عجيب، وقد ورد في الحديث: أن النبي ﷺ قام بها ليلة حتى الصباح يرددها. روى الإمام أحمد عن أبي ذر، قال: صلى النبي ﷺ ذات ليلة فقرأ بآية حتى أصبح، يركع بها ويسجد بها: ﴿إِنْ تُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ﴾، فلما أصبح قلت: يا رسول الله، ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت، تركع بها وتسجد بها؟ قال: «إني سألت ربي، عز وجل، الشفاعة لأمتي، فأعطانيها، وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً» (٢).

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

يقول تعالى مجيباً لعبده ورسوله عيسى ابن مريم، فيما أنهأه إليه من التبري من النصارى الملحدين، الكاذبين على الله وعلى رسوله، ومن رد المشيئة فيهم إلى ربه، عز وجل، فعند ذلك يقول تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾. قال ابن عباس: يقول: يوم ينفع الموحدين توحيدهم. ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أَيْ: ماكين فيها لا يحولون ولا يزولون،

(١) مسند الطيالسي (٢٦٣٨) والبخاري (٨ / ٢١٥ فتح). ورواه أحمد في المسند مطولاً (٢٠٩٦، ٢٢٨١).

وروى بعضه مختصراً (١٩٥٠، ٢٠٢٧).

(٢) المسند (٥ / ١٤٩ حلي). وإسناده جيد.

رضى الله عنهم ورضوا عنه، كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] . وسيأتى ما يتعلق بتلك الآية من الحديث (١) . وقوله: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أى: هذا هو الفوز الكبير الذى لا أعظم منه، كما قال تعالى: ﴿لِمَثَلٍ هَذَا فَلَيعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصفات: ٦١]، وكما قال: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] .

وقوله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى: هو الخالق للأشياء، المالك لها، المتصرف فيها القادر عليها، فالجميع ملّكه وتحت قهره وقدرته وفى مشيئته، فلا نظير له ولا وزير، ولا عدل، ولا والد ولا ولد ولا صاحبة، ولا إله غيره ولا رب سواه. روى ابن وهب عن عبد الله بن عمرو (٢) قال: آخر سورة أنزلت سورة المائدة (٣) .

وهذا آخر تفسير سورة المائدة

والحمد لله رب العالمين

(١) عند الآية (٧٢) من سورة التوبة .

(٢) فى المطبوع من « عمدة التفسير » : « عمر » وهو خطأ من الطابع . (الباز) .

(٣) رواه الحاكم (٢ / ٣١١) من طريق ابن وهب ، وقال: « صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه » . ورواه

الترمذى (٤ / ١٠٣) من طريق ابن وهب أيضا ، بلفظ : « سورة المائدة والفتح » وقال : « هذا حديث حسن

غريب » . وقد مضت رواية الترمذى فى أول هذه السورة .

تفسير سورة الأنعام

وهي مكية

قال ابن عباس: أنزلت سورة الأنعام بمكة. وروى الطبراني عن ابن عباس، قال: نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة، حولها سبعون ألف ملك يجارون حولها بالتسبيح (١). وعن أسماء بنت يزيد قالت: نزلت سورة الأنعام على النبي ﷺ جملة [واحدة]، وأنا آخذة بزمام ناقة النبي ﷺ، إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة (٢). وروى ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة، سد ما بين الخافقين، لهم زجل بالتسبيح والأرض بهم ترتج»، ورسول الله ﷺ يقول: «سبحان الله العظيم، سبحان الله العظيم» (٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَ اللَّهِ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾

يقول تعالى مادحاً نفسه الكريمة، وحامداً لها على خلقه السموات والأرض قراراً لعباده، وجعل الظلمات والنور منفعة لعباده في ليلهم ونهارهم، فجمع لفظ «الظلمات» ووحّد لفظ «النور»؛ لكونه أشرف، كما قال: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ [النحل: ٤٨]، وكما قال في آخر هذه السورة: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وقوله: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي: ومع هذا كله كفر به بعض عباده، وجعلوا له شريكاً وعدلاً، واتخذوا له صاحبةً وولداً، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

(١) إسناده عند الطبراني إسناده صحيح . وزاد السيوطي في الدر المنثور (٣ / ٢) نسبته لأبي عبيد وابن الضريس وابن المنذر وابن مردويه .

(٢) لم يخرجها الحافظ ابن كثير ، فلم يذكر إلا أنه رواه سفيان الثوري . والحديث في مجمع الزوائد (٧ / ٢٠) ، وقال : « رواه الطبراني ، وفيه شهر بن حوشب ، وهو ضعيف ، وقد وثق » . وشهر : ثقة عندنا . وذكره السيوطي (٣ / ٢) ، ونسبه للطبراني وابن مردويه .

(٣) إسناده ابن مردويه فيه رجلا لم أعرف ترجمتهما . وقد ذكره الهيثمي في الزوائد (٧ / ٢٠) ، وقال : « رواه الطبراني عن شيخه محمد بن عبد الله بن عرس ، عن أحمد بن محمد بن أبي بكر السالمى ، ولم أعرفهما ، وبقيت رجاله ثقات » . وأما اللذان ففى إسناده ابن مردويه فهما شيخ شيخه « إبراهيم بن درستويه الفارسى » ، و « أحمد بن محمد بن أبي بكر » . وهو الذى ذكر الهيثمى أنه فى إسناده الطبرانى . والحديث ذكره أيضا السيوطي (٣ / ٢) ، وزاد نسبته لأبى الشيخ والبيهقى فى شعب الإيمان والسلفى فى الطويريات .

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ يعني: أباهم آدم الذي هو أصلهم ومنه خرجوا، فانتشروا في المشرق والمغرب. وقوله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ قال ابن عباس: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ يعني: الموت ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يعني: الآخرة. وهكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وغيرهم. وقال الحسن - في رواية عنه: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ وهو ما بين أن يخلق إلى أن يموت ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ وهو ما بين أن يموت إلى أن يبعث. ويرجع إلى ما تقدم، وهو تقدير الأجل الخاص، وهو عمر كل إنسان، وتقدير الأجل العام، وهو عمر الدنيا بكمالها ثم انتهائها وانقضائها وزوالها، وانتقالها، والمصير إلى الدار الآخرة. ومعنى قوله: ﴿عِنْدَهُ﴾ أي: لا يعلمه إلا هو، كقوله: ﴿إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لَوْفَتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الاعراف: ١٨٧]، وكقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ [التازعات: ٤٢ - ٤٤]. وقوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمُرُّونَ﴾ قال السدّي وغيره: يعني تشكون في أمر الساعة.

وقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرُكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ اختلف مفسرو هذه الآية على أقوال، بعد الاتفاق على تخطئة الأول القائلين بأنه - تعالى عن قولهم علواً كبيراً - في كل مكان! حيث حملوا الآية على ذلك، فالأصح من الأقوال أنه: المدعو الله في السموات وفي الأرض، أي: يعبد ويوحده ويقر له بالإلهية من في السموات ومن في الأرض، ويسمونه الله، ويدعونه رَعْبًا وَرَهْبًا، إلا من كفر من الجن والإنس، وهذه الآية على هذا القول كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] أي: هو إله من في السماء وإله من في الأرض، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرُكُمْ﴾ خبراً أو حالاً. والقول الثاني: أن المراد أن الله الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض، من سر وجهر. فيكون قوله: ﴿يَعْلَمُ﴾ متعلقاً بقوله: ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾، تقديره: وهو الله يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الأرض ويعلم ما تكتسبون. والقول الثالث: أن قوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ﴾ وقف تام، ثم استأنف الخبر، فقال: ﴿فِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرُكُمْ﴾، وهذا اختيار ابن جرير. وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أي: جميع أعمالكم خيرها وشرها.

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿١﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ وَارْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِزَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين المكذبين المعاندين: أنهم مهما أتتهم ﴿من آية﴾ أي: دلالة ومعجزة وحجة من الدلالات على وحدانية الرب، عز وجل، وصدق رسله الكرام، فإنهم يعرضون عنها، فلا ينظرون إليها ولا يبالون بها، قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. وهذا تهديد لهم ووعد شديد على تكذيبهم بالحق، بأنه

لا بد أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب، وليجدنَّ غيبه ، وليذوقنَّ وباله.

ثم قال تعالى واعظاً ومحذراً لهم أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوي ما حل بأشباههم ونظرائهم من القرون السالفة الذين كانوا أشد منهم قوة، وأكثر جمعاً، وأكثر أموالاً وأولاداً واشتغالا للأرض وعمارة لها، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمْكِنْ لَكُمْ﴾ أى: من الأموال والأولاد والأعمار، والجاه العريض، والسعة والجنود ولهذا قال: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِذْرَارًا﴾ أى: شيئاً بعد شيء ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ أى: كثرت عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض، أى: استدراجاً وإملاء لهم ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أى: بخطاياهم وسيئاتهم التي اجتمعوها ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أى: فذهب الأولون كأمس الذاهب وجعلناهم أحاديث ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أى: جيلاً آخر لنختبرهم، فعملوا مثل عملهم ، فهلكوا كهلاكهم. فاحذروا - أيها المخاطبون - أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فما أنتم بأعز على الله منهم، والرسول الذي كذبتموه أكرم على الله من رسولهم، فأنتم أولى بالعذاب ومعالجة العقوبة منهم، لولا لطفه وإحسانه.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٧﴾ وقالوا لولا أنزل عليه ملكٌ ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيسُوت ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١١﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفر المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق ومباهتتهم فيه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أى: عاينوه، وراوا نزوله، وباشروا ذلك ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، وهذا كما قال تعالى مخبراً عن مكابرتهم للمحسوسات: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾. لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ مُسْحُورُونَ ﴿[الحجر: ١٤، ١٥]﴾، وكقوله تعالى: ﴿وَلِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤]. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أى: فيكون معه نذيراً ، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ أى: لو نزلت الملائكة على ما هم عليه لجاءهم من الله العذاب، كما قال الله تعالى: ﴿مَا نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ يَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢].

وقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيسُونَ﴾ أى: لو أنزلنا مع الرسول البشري ملكاً، أى: لو بعثنا إلى البشر رسولا ملكياً، لكان على هيئة الرجل ليتمكن مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر ، كما يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشري، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا

رُسُولًا ﴿ [الإسراء : ٩٥] ، فمن رحمته تعالى بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلاً منهم ، ليدعو بعضهم بعضاً ، وليمكن بعضهم أن يتنفع ببعض في المخاطبة والسؤال ، كما قال تعالى : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية [آل عمران : ١٦٤] . قال ابن عباس : يقول : لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا في صورة رجل ؛ لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة ﴿وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يُلْبَسُونَ﴾ أى : ولخلطنا عليهم ما يخلطون .

وقوله : ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ هذا تسلية لرسوله محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه ، ووعد له وللمؤمنين به بالنصرة والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة . ثم قال : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ أى : فكروا في أنفسكم ، وانظروا ما أحل الله بالقرون الماضية الذين كذبوا رسله وعاندوهم ، من العذاب والنكال ، والعقوبة في الدنيا ، مع ما ادّخر لهم من العذاب الآليم في الآخرة ، وكيف نَجَّى رسله وعباده المؤمنين .

﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٢﴾ ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ وَبِئْسَ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يَطْعَمُهُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَمْسَهُ وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿مَنْ يُصِرْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ ﴿١٦﴾

ربع

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ومن فيهن ، وأنه قد كتب على نفسه الرحمة المقدسة الرحمة ، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة ، قال : قال النبي ﷺ : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ الْخَلْقَ كَتَبَ كِتَابًا عَنْده فوق العرش : إِنْ رَحِمْتِي تَغْلِبُ غَضَبِي﴾ (١) .

وقوله : ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هذه اللام هي الموطنة للقسم ، فأقسم بنفسه الكريمة ليجمعن عباده لميقات يوم معلوم ، وهو يوم القيامة ، الذى لا ريب فيه ولا شك عند عباده المؤمنين ، فأما الجاحدون المكذبون فهم فى ربهم يترددون . وقوله : ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أى : يوم القيامة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى : لا يصدقون بالمعاد ، ولا يخافون شر ذلك اليوم .

ثم قال تعالى : ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أى : كل دابة فى السموات والأرض ، الجميع عباده وخلقه ، وتحت قهره وتدييره ، لا إله إلا هو ، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أى : السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وضمائرهم وسرائرهم .

ثم قال لعبده ورسوله محمد ﷺ ، الذى بعثه بالتوحيد العظيم وبالشرع القويم ، وأمره أن

(١) رواه أحمد فى المسند مرارا ، بنحوه ، منها : (٧٢٩٧ ، ٧٤٩١ ، ٧٥٢٠ ، ٨١١٢) وسياى عن الرواية الأخيرة من المسند عند الآيات : (٥٠ - ٥٤) ، ورواه الطبرى فى التفسير بنحوه (١٣٠٩٦ ، ١٣١٠٥) .

يدعو الناس إلى صراط الله المستقيم: ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَخَذَ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كما قال: ﴿قُلْ أَفَغَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤] ، والمعنى: لا أتخذ ولياً إلا الله وحده لا شريك له، فإنه فاطر السموات والأرض، أى: خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق. ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أى: وهو الرازق لخلقه من غير احتياج إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا . إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

وقرأ بعضهم ههنا: «وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ» أى: لا يأكل (١). وعن أبى هريرة قال: دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي ﷺ ، قال: فانطلقنا معه، فلما طعم النبي ﷺ وغسل يديه قال: « الحمد لله الذى يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ ، وَمَنْ عَلَيْنَا فهدانا ، وأطعمنا وسقانا وكلّ بلاء حسن أبلانا ، الحمد لله غير مُودَعٍ ولا مكافأ ولا مكفور ولا مُسْتَغْنَى عنه ، الحمد لله الذى أطعمنا من الطعام ، وسقانا من الشراب ، وكسانا من العرى، وهدانا من الضلال ، وبصّرنا من العمى، وقضّلنا على كثير من خلق تفضيلاً، الحمد لله رب العالمين» (٢).

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أى: من هذه الأمة «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» يعنى: يوم القيامة. «مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ» يعنى: العذاب «يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ» يعنى: فقد رحمه الله «وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ» (٣)، كما قال: «فَمَنْ زُحْرِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ» [آل عمران: ١٨٥] ، والفوز: هو حصول الربح ونفى الخسارة.

(١) يعنى بفتح الياء والعين . وهذه القراءة مروية عن الحسن والطوعى . انظر القراءات الأربعة عشر (ص ٢٠٦) . وذكرها الطبرى (١١ / ٢٨٤) مجهلاً قارئها ، وقال: «أى أنه يطعم خلقه، ولا يأكل هو . ولا معنى لذلك ، لقلة القراءة به» .

(٢) هذا حديث صحيح . ذكره الحافظ ابن كثير دون تخريج . وقد رواه الحاكم (١ / ٥٤٦) بهذا اللفظ مع اختلاف قليل بعض الكلمات . ورواه ابن حبان فى صحيحه (٧ / ٢٦٥) (مخطوطة الإحسان المصورة) مختصراً قليلاً . وقال الحاكم : « صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه » . ووافقه الذهبي .

وقد روى البخارى بعض معناه (٩ / ٥٠١ - ٥٠٢) بروايتين من حديث أبى أمامة . وكذلك رواه أبو داود (٣٨٤٩) . وروى الحاكم حديث أبى أمامة هذا (٤ / ١٣٥ ، ١٣٦) بروايتين ، وقال فى كل منهما : « صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه » . ووافقه الذهبي ! فلم يعقب عليه بأنهما فى صحيح البخارى .

وأشار الحافظ ابن حجر إلى حديث أبى هريرة هذا أثناء شرحه حديث أبى أمامة ، ونسبه للنسائى وابن حبان والحاكم . ولكنه ليس فى السنن الصغرى للنسائى ، فالنسبة إذن للسنن الكبرى .

وقوله : « غير مودع » : هو بفتح الدال المهملة المشددة ، أى : غير متروك . وهذا الضبط هو الثابت وحده فى اليونينية . وذكر القاضى عياض فى مشارق الأنوار (٢ / ٢٨٢) والحافظ فى الفتح : أنه يجوز كسر الدال المشددة ، بمعنى : غير تارك طاعة ربه .

(٣) فى المطبوعة والمطبوع من « عمدة التفسير » وكذا المخطوطة الأزهرية: «وذلك هو الفوز المبين» وهو خطأ واضح . (الباز) .

﴿وَأَن يَمْسَسَكَ اللَّهُ يَضْرِبَ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإَن يَمْسَسَكَ بِشَيْءٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ أَهَيْتَكُمْ لِتُشْهَدُونَ أَن مَعَ اللَّهِ إِلَهَةٌ أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلِكُتَبَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾

يقول تعالى مخبراً أنه مالك الضر والنفع، وأنه المتصرف في خلقه بما يشاء، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه: ﴿وَأَن يَمْسَسَكَ اللَّهُ يَضْرِبَ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإَن يَمْسَسَكَ بِشَيْءٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، كما قال: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ الآية [فاطر: ٢]، وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أي: هو الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، وقهر كل شيء، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته الأشياء، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت حكمه وقهره. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ أي: في جميع ما يفعله «الخبير» بمواضع الأشياء ومحالها، فلا يعطي إلا لمن يستحق ولا يمنع إلا من يستحق. ثم قال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ أي: من أعظم الأشياء شهادة ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: هو العالم بما جتسم به، وما أنتم قائلون لي ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ أي: وهو نذير لكل من بلغه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]. قال الربيع بن أنس: حق على من اتبع رسول الله ﷺ أن يدعو كالذي دعا رسول الله ﷺ، وأن يندر كالذي أنذر.

وقوله: ﴿أَنْتُمْ لَتُشْهَدُونَ﴾ أي: أيها المشركون ﴿أَن مَعَ اللَّهِ إِلَهَةٌ أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ كما قال: ﴿فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٠]، ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

ثم قال مخبراً عن أهل الكتاب: إنهم يعرفون هذا الذي جتسم به كما يعرفون أبناءهم، بما عندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين المتقدمين والأنبياء، فإن الرسل كلهم بشرٌ بوجود محمد ﷺ وبنعته وصفته، وبلده ومهاجره، وصفة أمته؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: خسروا كل الخسارة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا الأمر الجلى الظاهر الذى بشرت به الأنبياء، ونوهت به في قديم الزمان وحديثه.

ثم قال: ﴿وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أي: لا أظلم من تقول على الله، فادعى أن الله أرسله ولم يكن أرسله، ثم لا أظلم من كذب، بأيات الله وحججه وبراهينه ودلالاته، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: لا يفلح هذا ولا هذا، لا المفتري ولا المكذب.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنِّي سُرَّكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (١١)
 ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿١٢﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ
 وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ
 وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا مِنْ آيَةِ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ
 هَذَا إِلَّا اسْتِطْلَاعُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا
 يَشْعُرُونَ ﴿١٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يوم القيامة ، فيسألهم عن الأصنام
 والأنناد التي كانوا يعبدونها من دونه قائلاً لهم: ﴿إِنِّي سُرَّكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ كما قال في
 سورة القصص: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الآية: ٦٢].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ أى: حجبتهم. قال ابن عباس: أى: معذرتهم. وكذا قال قتادة.
 وقال ابن جرير: والصواب: ثم لم يكن قليلهم عند فتنتنا إياهم، اعتذاراً مما سلف منهم من الشرك
 بالله. ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس
 قال: أتاه رجل فقال: يا أبا عباس (١). سمعت الله يقول: ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾؟ قال: أما
 قوله: ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإنهم رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة، فقالوا: تعالوا
 فلنجحد، فيجحدون، فيختم الله على أفواههم، وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتُمون الله حديثاً،
 فهل فى قلبك الآن شيء؟ إنه ليس من القرآن شيء إلا قد نزل فيه شيء، ولكن لا تعلمون
 وجهه (٢). وقال الضحاك عن ابن عباس: هذه فى المنافقين. وفى هذا نظر، فإن هذه الآية مكية،
 والمنافقون إنما كانوا بالمدينة، والى نزلت فى المنافقين آية المجادلة: ﴿يَوْمَ يَعْتَبُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ
 كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨]. وهكذا قال فى حق هؤلاء:
 ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ كما قال: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ .
 مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ [غافر: ٧٣، ٧٤].

وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا مِنْ آيَةٍ لَا
 يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أى: يجيؤوك ليسمعوا قراءتك، ولا تجزى عنهم شيئاً؛ لأن الله جعل ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ
 أَكِنَّةً﴾ أى: أغطية لئلا يفهموا القرآن ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أى: صمماً عن السماع النافع، فهم كما
 قال الله تعالى: ﴿وَمِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمِثْلِ الَّذِي يَنْقُبُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عَنِ فِهْمٍ لَا يَعْقِلُونَ﴾
 [البقرة: ١٧١]. وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا مِنْ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أى: مهما رأوا من الآيات والدلالات

(١) «أبو عباس»: كنية عبد الله بن عباس. وهذا هو الثابت فى المخطوطتين: «يا أبا عباس»، وفى المطبوعة:
 «يا بن عباس».

(٢) ورواه أيضاً الطبرى (١٣١٤٠) (١١ / ٣٠٢). ورواه قبل ذلك بالإسناد نفسه (٩٥٢٠) (٨ / ٣٧٣).
 ورواه عقب ذلك (٩٥٢١) بإسناد آخر مطولا.

والحجج البينات، لا يؤمنوا بها. فلا فهم عندهم ولا إنصاف، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَكَّلُوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] .

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ أي: يحاجونك ويناضونك في الحق بالباطل ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا الذي جئت به إلا مأخوذ من كتب الأوائل ومنقول عنهم. وقوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ﴾ في معنى ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ قولان: أحدهما: أن المراد أنهم ينهون الناس عن اتباع الحق، وتصديق الرسول، والانقياد للقرآن، ﴿يَنْتَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: ويبتعدون عنه، فيجمعون بين الفعلين القبيحين: لا يتفجعون ولا يدعون أحداً ينتفع . وهذا القول أظهر، والله أعلم، وهو اختيار ابن جرير. والقول الثاني: روى عن ابن عباس قال: نزلت في أبي طالب كان ينهى الناس عن النبي ﷺ أن يؤذى. وكذا قال عطاء بن دينار وغيره: إنها نزلت في أبي طالب . وقال سعيد بن أبي هلال: نزلت في عمومة النبي ﷺ، وكانوا عشرة، فكانوا أشد الناس معه في العلانية، وأشد الناس عليه في السر. رواه ابن أبي حاتم. ﴿وَأَن يَهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وما يهلكون بهذا الصنيع، ولا يعود وباله إلا عليهم، وما يشعرون.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نَرُدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٧﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿١٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٠﴾

يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال، فعند ذلك قالوا: ﴿يَا لَيْتُنَا نَرُدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، يتمنون أن يردوا إلى الدار الدنيا، ليعملوا عملاً صالحاً، ولا يكذبوا بآيات ربهم ويكونوا من المؤمنين. قال الله تعالى: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة، وإن أنكروها في الدنيا أو في الآخرة، كما قال قبل هذا بيسير: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتِنُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ. انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾. ويحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءتهم به الرسل في الدنيا، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافاً، كما قال تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَٰئِرٍ﴾ الآية [الإسراء: ١٠٢] . وقال تعالى مخبراً عن فرعون وقومه: ﴿وَجَعَلُوا بِهَا أَسْتِفْقَتَهَا أَنفُسَهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] . ويحتمل أن يكون المراد بهؤلاء: المنافقون الذين كانوا يظهرون للناس الإيمان ويطنون الكفر، ويكون هذا إخباراً عما يكون يوم القيامة من كلام طائفة من الكفار، ولا ينافي هذا كون هذه السورة مكية، والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة ومن حولها من الأعراب،

وقد ذكر الله وقوع النفاق في سورة مكية وهى العنكبوت، فقال: ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١]؛ وعلى هذا فيكون إخباراً عن حال المنافقين في الدار الآخرة، حين يعاينون العذاب، فظهر لهم حينئذ غيب ما كانوا يبطنون من الكفر والنفاق والشقاق، والله أعلم.

وأما معنى الإضراب في قوله: ﴿بَلْ يَدَّبْأَهُمْ﴾ فهُمْ ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبة ومحبة في الإيمان، بل خوفاً من العذاب الذى عاينوه جزاء على ما كانوا عليه من الكفر، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أى: فى تمنيههم الرجعة رغبة ومحبة فى الإيمان.

ثم قال مخبراً عنهم: إنهم لو ردوا إلى الدار الدنيا، لعادوا لما نهوا عنه من الكفر والمخالفة ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أى: فى قولهم: ﴿يَا لَيْتَا نَرُدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أى: لعادوا لما نهوا عنه، ولقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا﴾ أى: ما هى إلا هذه الحياة الدنيا، ثم لا معاد بعدها؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

ثم قال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أى: أوقفوا بين يديه ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أى: اليس هذا المعاد بحق وليس بباطل كما كنتم تظنون؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أى: بما كنتم تكذبون به، فذوقوا اليوم مسه ﴿أَفَسِحْرَ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥].

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْصَرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿١١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن خسارة من كذب بقاء الله، وعن خيبته إذا جاءته الساعة بغتة، وعن ندامته على ما فرط من العمل، وما أسلف من قبح الفعل؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾ وهذا الضمير يحتمل عودته على الحياة وعلى الأعمال، وعلى الدار الآخرة، أى: فى أمرها. وقوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ أى: يحملون. وقال قتادة: يعملون. وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ﴾ أى: إنما غالبها كذلك ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنْتُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤﴾ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ أُسْتَطِيعَتْ أَنْ تَبْغِي نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿١٥﴾﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ رِيع

وَالْمَوْقَّعِينَ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

يقول تعالى مسلماً لنبيه ﷺ، في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ أى: قد أحطنا علماً بتكذيب قومك لك ، وحزنك وتأسفك عليهم ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨] ، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٧] . وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ﴾ أى: لا يتهمونك بالكذب فى نفس الأمر ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيِّنَاتٍ اللَّهُ يَجْعَلُوهُمْ﴾ أى: ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم، كما قال على: قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب ما جئت به، فانزل الله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيِّنَاتٍ اللَّهُ يَجْعَلُوهُمْ﴾ . رواه الحاكم، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه (١).

وذكر محمد بن إسحاق، عن الزهري، فى قصة أبى جهل حين جاء يستمع قراءة النبي ﷺ من الليل، هو وأبو سفيان صخر بن حرب، والأخنس بن شريق ، ولا يشعر أحد منهم بالآخر. فاستمعوها إلى الصباح، فلما هَجَمَ الصبح تفرقوا، فجمعتهم الطريق، فقال كل منهم للآخر: ما جاء بك؟ فذكر له ما جاء له ، ثم تعاهدوا ألا يعودوا، لما يخافون من علم شباب قريش بهم، لئلا يفتنوا بمجيئهم، فلما كانت الليلة الثانية جاء كل منهم ظناً منه أن صاحبيه لا يجيئان، لما تقدم من العهود، فلما أصبحوا جمعتهم الطريق، فتلاوموا، ثم تعاهدوا ألا يعودوا. فلما كانت الليلة الثالثة جاؤوا أيضاً، فلما أصبحوا تعاهدوا ألا يعودوا لمثلها ، ثم تفرقوا . فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب فى بيته، فقال: أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعتُ أشياء أعرفها وأعرف ما يُراد بها، وسمعتُ أشياء ما عرفتُ معناها ولا ما يراد بها. قال الأخنس: وأنا الذى حلفتُ به . ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه فى بيته فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعتُ؟ قال تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كقَرَسَى رَهَانٍ، قالوا: منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه، قال: فقام عنه الأخنس وتركه .

وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنَاهُمْ نَصْرًا﴾: هذه تسلية للنبي ﷺ وتُعْزِيَةٌ له فيمن كذبه من قومه، وأمر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ووَعْدٌ له بالنصر كما نُصِرُوا، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة ، بعد ما نالهم من التكذيب من

(١) ورواه الترمذى (٤ / ١٠٣) ، ثم رواه مرسلًا ، من رواية ناجية بن كعب ، دون ذكر « على » ، وقال: « وهذا أصح » . أى أنه رجح المرسل على الموصول . وكذلك رواه الطبرى (١٣١٩٥ ، ١٣١٩٦) عن ناجية - مرسلًا . ولكن رواية الحاكم (٢ / ٣١٥ ، ٣١٦) موصولة بإسناد آخر غير إسناد الترمذى . فالوصل زيادة من ثقتين ، فهى مقبولة على اليقين . وقد تعقب الذهبي تصحيح الحاكم إياه « على شرط الشيخين » بأنهما لم يخرجاه لناجية شيئا . وهذا صحيح ، فإن الشيخين لم يخرجاه لناجية بن كعب الأسدى شيئا . ولكنه تابعى ثقة . فالحديث صحيح ، وإن لم يكن على شرطهما .

قومهم والأذى البليغ، ثم جاءهم النصر في الدنيا، كما لهم النصر في الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أى: التى كتبها بالنصر فى الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين، كما قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]. وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ﴾ أى: من خبرهم كيف نُصِرُوا وأيدوا على من كذبهم من قومهم، فلك فيهم أسوة وبهم قدوة.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أى: إن كان شق عليك إعراضهم عنك ﴿فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلْمًا فِي السَّمَاءِ﴾ قال ابن عباس: التَّفَقُّ: السَّرْبُ، فتذهب فيه ﴿فَتَأْتِيهِمْ بَأْيَةً﴾ أو تجعل لك سلماً فى السماء فتصعد فيه فتأتيهم بأية أفضل مما أتيتهم به، فافعل. وكذا قال قتادة، والسدّي، وغيرهما. وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مِنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تَكْذِبُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] قال ابن عباس فى قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾، قال: إن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبر الله أنه لا يؤمن إلا من قد سبق له من الله السعادة فى الذكر الأول.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أى: إنما يستجيب لدعائك يا محمد من يسمع الكلام ويعيه ويفهمه، كقوله: ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠]، وقوله: ﴿وَالْمَوْتَى يَتَعَنَّهُمُ اللَّهُ﴾ يعنى: بذلك الكفار؛ لأنهم موتى القلوب، فشبههم الله بالأوات الأجساد، فقال: ﴿وَالْمَوْتَى يَتَعَنَّهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ وهذا من باب التهكم بهم، والإزاء عليهم.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَقْنَاهُمْ فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُدُّوا عَنْكُمْ فِي الْفُلُولِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين أنهم كانوا يقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أى: خارق على مقتضى ما كانوا يريدون، وما يتعتون كما قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ الآيات [الإسراء: ٩٠]. ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى: هو تعالى قادر على ذلك، ولكن حكمته تعالى تقتضى تأخير ذلك؛ لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا، لعاجلهم بالعقوبة، كما فعل بالأمم السالفة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظُلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

وقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ قال مجاهد: أى أصناف مُصَنَّفَةٌ تُعَرَّفُ بأسمائها. وقال قتادة: الطير أمة، والإنس أمة، والجن أمة. وقوله: ﴿وَمَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أى: الجميع علمهم عند الله، ولا ينسى واحداً من جميعها من رزقه وتديره، سواء كان برياً أو بحرياً، كما قال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرُّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلُّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦٠] أى: مُفَصَّح بأسمائها وأعدادها ومظانها، وحاصر لحركاتها وسكناتها، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ مِنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾: وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: حَشَرَهَا الموتُ. وكذا رواه ابن جرير والقول الثانى: إن حشرها هو بعثها يوم القيامة، لقوله: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]. وروى الإمام أحمد عن أبى ذرٍّ أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تنتطحان، فقال: «يا أبا ذر، هل تدري فيمَ تنتطحان؟» قال: لا. قال: «لكن الله يدرى، وسيقضى بينهما». ورواه ابن جرير، وزاد: قال أبو ذر: ولقد تركنا رسول الله ﷺ وما يُقَلِّبُ طائر جناحيه فى السماء إلا ذكرنا منه علماً^(١). وروى عبد الرزاق عن أبى هريرة فى قوله: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ قال: يحشر الخلق كلهم يوم القيامة، البهائم والدواب والطيور وكل شىء، فيبلغ من عدل الله يومئذ أن يأخذ للجماء من القرناء. قال: ثم يقول: كونى ترابا. قال: فلذلك يقول الكافر: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبا: ٤٠] (٢).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أى: مثلهم فى جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصم - وهو الذى لا يسمع - أبكم - وهو الذى لا يتكلم - وهو مع هذا فى ظلام لا يبصر، فكيف يهتدى مثل هذا إلى الطريق، أو يخرج مما هو فيه؟! كما قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ. صُمُّ بُكْمٌ عُمْىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٧، ١٨]، وكما قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لَبِىٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكُنْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠] ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أى: هو المتصرف فى خلقه بما يشاء.

(١) المسند (٥/ ١٥٣، ١٦٢ حلى). والطبرى (١٣٢٢٣، ١٣٢٢٤). وفى أسانيدنا ضعف، بالانقطاع أو إبهام بعض الرواة. ولكن قول أبى ذر، قال: «تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يطير بجناحيه إلا عندنا منه علم». وانظر تمة التخرىج فى تفسير الطبرى (١١ / ٥٩٠)، رقم (٨). ومجمع الزوائد (٨ / ٢٦٣، ٢٦٤). (٢) إسناده عبد الرزاق إسناده صحيح. وكذلك رواه الطبرى (١٣٢٢٢) من طريق عبد الرزاق. ورواه الحاكم (٢ / ٣١٦) من طريق عبد الرزاق أيضاً، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبى. وهو موقوف على أبى هريرة. ومعناه ثابت صحيح مرفوعاً: فروى أحمد فى المسند (٣٠٣ / ٧٢) عن أبى هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ: «لتؤذن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقتص للشاء الجماء من الشاة القراء تنطحها». وقد مضت الإشارة إلى هذا المرفوع (٣ / ٢٠٣) و«الجماء»: التى لا قرن لها. و«القراء» ذات القرن.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ٤٠ ﴿ بَلْ إِلَٰهُهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُدْعِرُونَ ﴾ ٤١ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَاسِ وَأَلْضَرَّاهُمْ لَعْلَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ ٤٢ ﴿ فَلَوْلَا إِذَا جَاءَهُمْ بَاسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ٤٣ ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ ٤٤ ﴿ فَقَطَّعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ٤٥

يخبر تعالى أنه الفعال لما يريد ، المتصرف في خلقه بما يشاء ، وأنه لا معقب لحكمه ، ولا يقدر أحد على صرف حكمه عن خلقه ، بل هو وحده لا شريك له ، الذي إذا سئل يجيب لمن يشاء ؛ ولهذا قال : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ ﴾ أى : أتاكم هذا أو هذا ؟ ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى : لا تدعون غيره لعلمكم أنه لا يقدر أحد على دفع ذلك سواء ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى : فى اتخاذكم آلهة معه ﴿ بَلْ إِلَٰهُهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُدْعِرُونَ ﴾ أى : فى وقت الضرورة لا تدعون أحداً سواه وتذهب عنكم أصنامكم واندادكم كما قال : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهُهُ ﴾ الآية [الإسراء : ٦٧] .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَاسِ ﴾ يعنى : الفقر والضيق فى العيش ﴿ وَالضَّرَّاءِ ﴾ وهى الأمراض والأسقام والآلام ﴿ لَعْلَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ أى : يدعون الله ويتضرعون إليه ويخشعون ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا جَاءَهُمْ بَاسُنَا تَضَرَّعُوا ﴾ أى : فهلا إذا ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا وتمسكوا لدينا ﴿ وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أى : ما رقت ولا خشعت ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى : من الشرك والمعاصى .

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ أى : أعرضوا عنه وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى : فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون ، وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم ، عياداً بالله من مكروه ؛ ولهذا قال : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا ﴾ أى : من الأموال والأولاد والأرزاق ﴿ أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ﴾ أى : على غفلة ﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ أى : آيسون من كل خير . قال ابن عباس : المبلس : الآيس . قال الحسن البصرى : من وسع الله عليه فلم ير أنه يكر به ، فلا رأى له . ومن قتر عليه فلم ير أنه ينظر له ، فلا رأى له ، ثم قرأ : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ قال الحسن : مكر بالقوم ورب الكعبة ؛ أعطوا حاجتهم ثم أخذوا . رواه ابن أبى حاتم . وقال قتادة : بَغَتِ الْقَوْمُ أَمْرُ اللَّهِ ، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرثهم ونعمتهم ، فلا تغتروا بالله ، إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون . رواه ابن أبى حاتم أيضاً . وقد روى الإمام أحمد عن عَقْبَةَ بن مسلم ، عن عَقْبَةَ بن عامر ، عن النبى ﷺ قال : «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَىٰ مَعْصِيَةٍ مَا يَحِبُّ ، فَلَمَّا هُوَ اسْتَدْرَاجٌ» . ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ

بَعَثَ فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿١﴾ . ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم (١) . وقال ابن أبي حاتم عن إبراهيم بن أبي عبلة ، عن عبادة بن الصامت ، أن رسول الله ﷺ كان يقول : « إذا أراد الله بقوم بقاء - أو : نعمة - رزقهم القصد والعفاف ، وإذا أراد الله بقوم اقتطاعاً فتح لهم - أو : فتح عليهم - باب خيانة ﴿ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ كما قال : ﴿ قَطَّعْ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ورواه أحمد وغيره (٢) .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنَ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ ﴾ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَمْسُكُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ : قل لهؤلاء المكذبين المعاندين : ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ ﴾ أى : سلبكم إياها كما أعطاكموها فإنه ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ [وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ] ﴾ [الملك : ٢٣] . ويحتمل أن يكون هذا عبارة عن منع الانتفاع بهما النفع الشرعى ؛ ولهذا قال : ﴿ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾ كما قال : ﴿ أَمِنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾ [يونس : ٣١] ، وقال : ﴿ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ [الأنفال : ٢٤] . وقوله : ﴿ مَنَ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ﴾ أى : هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم ؟ لا يقدر على ذلك أحد سواه ؛ ولهذا قال : ﴿ أَنْظَرُ كَيْفَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ ﴾ أى : نبينها ونوضحها ونفسرها ، دالة على أنه لا إله إلا الله ، وأن ما يعبدون من دونه باطل وضلال ﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ ﴾ أى : ثم هم مع هذا البيان يعرضون عن الحق ، ويصدون الناس عن اتباعه . قال ابن عباس ﴿ يَصْذِفُونَ ﴾ : يعدلون . وقال مجاهد ، وقتادة : يعرضون : وقال السدى : يصدون .

وقوله : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً ﴾ أى : وأنتم لا تشعرون به حتى بغيتم وفجأكم ﴿ أَوْ جَهْرَةً ﴾ أى : ظاهراً عياناً ﴿ هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴾ أى : إنما كان يحيط بالظالمين أنفسهم بالشرك بالله ، وينجو الذين كانوا يعبدون الله وحده لا شريك له ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام :

(١) المسند (١٧٣٨٢) والطبرى (١٣٢٤٠ ، ١٣٢٤١) . وفى إسناد أحمد : « رشدين بن سعد » وهو ضعيف . وإسناد الطبرى لا بأس بهما ، فهما يشدان من رواية رشدين ، ويكونان شاهدين له . خصوصاً وأن ضعف رشدين إنما هو من قبل حفظه وتخليطه فى بعض ما يروى ، ولكنه كان رجلاً صالحاً .

(٢) إسناده منقطع بين إبراهيم بن أبي عبلة وعبادة بن الصامت دهر طويل ! . وقوله هنا : « ورواه أحمد وغيره » ثبت فى المطبوعة فقط ، ولم يذكر فى المخطوطتين . وإثباته - فى رأى - خطأ . فالحديث ليس فى المسند على اليقين . وقد ذكره السيوطى (٣ / ١٢) ، ونسبه لابن أبي حاتم وأبى الشيخ وابن مردويه ، فقط .

[٨٢] . وقوله : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ أى : مبشرين عباد الله المؤمنين بالخيرات ، ومنذرين من كفر بالله التقمات والعقوبات . ولهذا قال : ﴿ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ ﴾ أى : فمن آمن قلبه بما جاؤوا به واصلح عمله باتباعه إياهم ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : بالنسبة إلى ما يستقبلونه ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أى : بالنسبة إلى ما فاتهم وتركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا وضيعتها ، الله وليهم فيما خلفوه ، وحافظهم فيما تركوه . ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أى : ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرسل ، وخرجوا عن أوامر الله وطاعاته ، وارتكبوا من مناهيه ومحارمه وانتهاك حرمانه .

﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [٥٠] وأنذر به الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ [٥١] وَلَا تَقْطُرُوا لَازِيكَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَكَفُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ [٥٢] وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ [٥٣] وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَّمْتُ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُمْ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [٥٤]

يقول تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ﴾ أى : لست أملكها ولا المتصرف فيها ، ﴿ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ أى : ولا أقول لكم : إنى أعلم الغيب ، إنما ذاك من علم الله ، عز وجل ، لا أطلع منه إلا على ما أطلعنى عليه ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ أى : ولا ادعى أنى ملك ، إنما أنا بشر من البشر ، يُوحى إلى من الله ، عز وجل ، شرفنى بذلك ، وأنعم على به ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ أى : لست أخرج عنه قيد شبر ولا أدنى منه . ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ أى : هل يستوى من اتبع الحق وهدى إليه ، ومن ضل عنه ولم ينقذ له ؟ ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، وهذه كقوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقَّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [الرعد : ١٩] .

وقوله : ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ أى : وأنذر بهذا القرآن يا محمد ﴿ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٧] والذين ﴿ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ [الرعد : ٢١] . ﴿ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ لَيْسَ لَهُمْ ﴾ أى : يومئذ ﴿ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ أى : لا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه إن أرادهم بهم ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أى : أنذر هذا اليوم الذى لاحاكم فيه إلا الله ، عز وجل ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ فيعملون فى هذه الدار عملاً ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه ، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه .

وقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أى: لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفات عنك، بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك، كما قال: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨] . وقوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أى: يعبدونه ويسألونه ﴿بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ قال سعيد بن المسيب، ومجاهد، والحسن، وقتادة: المراد بذلك الصلاة المكتوبة . وهذا كقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] أى: أتقبل منكم . وقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أى: يريدون بذلك العمل وجه الله الكريم، فهم مخلصون فيما هم فيه من العبادات والطاعات . وقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ كقول نوح، عليه السلام، فى جواب الذين قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . إِن حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ [الشعراء: ١١١ - ١١٣] ، أى: إنما حسابهم على الله، عز وجل، وليس على من حسابهم من شىء، كما أنه ليس عليهم من حسابى من شىء .

وقوله: ﴿فَطَرَدَهُمْ فَكَفُّوا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أى: إن فعلت هذا والحالة هذه . روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: مر الملا من قريش على رسول الله ﷺ، وعنده: خباب، وصهيب، وبلال، وعمار . فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء؟ فنزل فيهم القرآن: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ . ورواه ابن جرير عن ابن مسعود قال: مر الملا من قريش برسول الله ﷺ، وعنده: صهيب، وبلال، وعمار، وخباب، وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا؟ أنحن نصير تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم أن تنبئك ! فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ إلى آخر الآية (١) . وعن سعد قال: نزلت هذه الآية فى ستة من أصحاب النبى ﷺ، منهم ابن مسعود، قال: كنا نسبق إلى رسول الله ﷺ، وندنو منه ونسمع منه، فقالت قريش: يدنى هؤلاء دوننا ! فنزلت: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ . رواه الحاكم ، وقال: على شرط الشيخين . وأخرجه ابن حبان فى صحيحه (٢) .

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أى: ابتلينا واختبرنا وامتنحنا بعضهم ببعض ﴿لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِن بَيِّنَاتٍ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ كان غالب من اتبعه فى أول البعثة، ضعفاء

(١) المسند (٣٩٨٥) والطبرى (١٣٢٥٥) ، وإسناداهما صحيحان . وتفصيل التخريج هناك فى الموضوعين .
(٢) المستدرک (٣/ ٣١٩) ووافقه الذهبى على تصحيحه . وهو فى الحقيقة لا يستدرک على الشيخين ، فقد رواه مسلم (٢/ ٢٤٠ بولاق) بنحوه . ورواه أيضا الطبرى (١٣٢٦٣) . واللفظ الذى أورده الحافظ ابن كثير هنا ، هو لفظ الطبرى . وقد خرجه السيوطى (٣ / ١٣) ونسبه أيضا لأحمد . وقلت فى تمة التخريج فى الطبرى (١١ / ٥٩٠) : « لم أجده فى المسند ، فى مسند سعد بن أبى وقاص ، إلا أن يكون الإمام أحمد رواه أثناء مسند صحابى آخر ، فخفى على موضعه » . وكان سعد بن أبى وقاص - راوى الحديث - أحد هؤلاء الستة أيضا ، كما فى روايتى مسلم والحاكم .

الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل، كما قال قوم نوح لنوح: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ﴾ الآية (هود: ٢٧)، وكما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان حين سأله عن تلك المسائل، فقال له: فهل اتبعه ضعفاء الناس أو أشرافهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم. فقال: هم أتباع الرسل .

والغرض: أن مشركى قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفاءهم، ويعذبون من يقدرهم عليه منهم، وكانوا يقولون: ﴿أَهْؤَلَاءِ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا؟ أَى: مَا كَانَ اللَّهُ لِيَهْدَى هَؤُلَاءِ إِلَى الْخَيْرِ - لو كان ما صاروا إليه خيراً - ويدعنا، كما قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الاحقاف: ١١]، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَنَادَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣] . قال الله تعالى فى جواب ذلك: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرِعًا﴾ [مريم: ٧٤]، وقال فى جوابهم حين قالوا: ﴿أَهْؤَلَاءِ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا؟ - ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ أَى: أليس هو أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وضمايرهم، فيوفقتهم ويهديهم سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] . وفى الحديث الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولا إلى ألوانكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» (١).

وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أَى: فآكرمهم برد السلام عليهم، وبشّرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم؛ ولهذا قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أَى: أوجبها على نفسه الكريمة، تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾، قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل. وقال عكرمة: الدنيا كلها جهالة. رواه ابن أبى حاتم . ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾ أَى: رجع عما كان عليه من المعاصى، وأقلع وعزم على ألا يعود، وأصلح العمل فى المستقبل ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ . روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق، كتب فى كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتى غلبت غضبى». أخرجه فى الصحيحين (٢). وسيأتى كثير من الأحاديث الموافقة لهذه عند قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. وما يناسب هذه الآية من الأحاديث أيضاً قوله ﷺ لمعاذ بن جبل: «أتدرى ما حق الله على العباد؟ أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً»، ثم قال: «أتدرى ما حق العباد على الله إذا هم فعلوا ذلك؟ ألا يعذبهم». وقد رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة (٣).

(١) رواه أحمد فى المسند (٧٨١٤) ومسلم (٢ / ٢٨٠) - من حديث أبى هريرة ولكن فيهما: «لا ينظر إلى صوركم وأموالكم» . وكذلك مضى على الصواب عند تفسير الآية: (٢٧٥) من سورة البقرة .

(٢) المسند (٨١١٢) فى صحيفة همام بن منبه . وقد مضى من رواية الشيخين عند تفسير الآية: (١٢) من سورة الأنعام ، وأشرنا إلى هذا هناك .

(٣) حديث معاذ مضى عند تفسير الآية: (٣٦) من سورة النساء ، وخرجناه من رواية الشيخين وغيرهما . وقد رواه الإمام أحمد من حديث أنس بن مالك (١٣٧٧٨) . وهو فى الحقيقة من رواية أنس عن معاذ ، كما تدل عليه الروايات الأخر وأما حديث أبى هريرة فهو فى المسند (٨٠٧١ ، ١٠٨٠٨ ، ١٠٩٣١) .

﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وَلِتَسْتَوِي سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أُعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِيْعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِي الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقَضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾

ربع

يقول تعالى: كما بينا ما تقدم بيانه من الحجج والدلائل على طريق الهداية والرشاد، وذم المجادلة والعناد - ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أى: التى يحتاج المخاطبون إلى بيانها ﴿وَلِتَسْتَوِي سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى: ولتظهر طريق المجرمين المخالفين للرسول، وقرئ: ﴿ولتستوي سبيل المجرمين﴾ أى: ولتستوي يا محمد - أو يا مخاطب - سبيل المجرمين (١).

وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أى: على بصيرة من شريعة الله التى أوحاها إلى ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ أى: بالحق الذى جاءنى من الله ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أى: من العذاب ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أى: إنما يرجع أمر ذلك إلى الله إن شاء عَجَّلَ لكم ما سألتموه من ذلك، وإن شاء أنظركم وأجلكم؛ لما له فى ذلك من الحكمة العظيمة. ولهذا قال: ﴿يَقْضِي الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ أى: وهو خير من فصل القضايا، وخير الفاتحين الحاكم بين عباده. وقوله: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقَضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أى: لو كان مرجع ذلك به إلى، لأوقعت بكم ما تستحقونه من ذلك ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾.

فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية، وبين ما ثبت فى الصحيحين عن عائشة؛ أنها قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: «لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسى على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال، فلم يجبنى إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسى، فإذا أنا بسحابة قد أظللتنى، فنظرت فإذا فيها جبريل، عليه السلام، فنادانى، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم». قال: «فنادانى ملك الجبال وسلم على، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وقد بعثنى ربك إليك، لتأمرنى بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين؟» فقال رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله، لا يشرك به شيئاً»، وهذا لفظ مسلم (٢). فقد عُرِضَ عليه عذابهم واستئصالهم، فاستأنى بهم،

(١) قراءة نصب اللام هى قراءة نافع وأبى جعفر. وقراءة الرفع هى قراءة ابن كثير وأبى عمرو وابن عامر وحفص. (٢) مسلم (٢ / ٦٨ بولاق) والبخارى (٢٢٤ / ٦، ٢٢٥ فتح). و «يا ليل»: بكسر اللام الأولى. و «كلال»: بضم القاف وتخفيف اللام. و «قرن الثعالب»: هو ميقات أهل نجد، ويقال له: قرن المنازل أيضا، وهو على يوم وليلة من مكة. و «الأخشبان»: بالخاء والشين المعجمتين: هما جبلا مكة، أبو قيس والذى يقابله.

وسأل لهم التأخير، لعل الله أن يخرج من أصلاهم من لا يشرك به شيئا. فما الجمع بين هذا، وبين قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِّي الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾؟ فالجواب - والله أعلم -: أن هذه الآية دللت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذى يطلبونه حال طلبهم له، لأوقعه بهم. وأما الحديث، فليس فيه أنهم سأله وقوع العذاب بهم، بل عرض عليه ملك الجبال أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين - وهما جبلا مكة للذنان يكتنفانها جنوبا وشمالا - فلهذا استأنى بهم وسأل الفرق لهم .

وقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ روى البخارى عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]» (١). وفى حديث عمر: أن جبريل حين تبدى له فى صورة أعرابى فسأل عن الإسلام والإيمان والإحسان؟ فقال له النبى ﷺ فيما قال له: «فى خمس لا يعلمهن إلا الله»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية [لقمان: ٣٤].

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أى: يحيط علمه العظيم بجميع الموجودات، بريها وبحريها، لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولا مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء.

وقوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ أى: ويعلم الحركات حتى من الجمادات، فما ظنك بالحيوانات، ولا سيما المكلفون منهم من جنهم وإنسهم؟ كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٢﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٣﴾﴾

يخبر تعالى أنه يتوفى عباده فى منامهم بالليل، وهذا هو التوفى الأصغر، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ارْفَعْكَ وَإِنِّي مَتِّعُكَ وَإِنِّي﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمَا ضَرَفَ إِلَيْهِ قُضِيَ عَلَيْهَا الْمَوْتُ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢]، يذكر فى هذه الآية الوفايتين: الكبرى والصغرى، وهكذا ذكر فى هذا المقام حكم الوفايتين الصغرى ثم الكبرى، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ أى: ويعلم ما كسبتم

(١) البخارى (٨ / ٢١٩ فتح) . ورواه أحمد مرارا، منها: (٤٧٦٦) وسيدكره الحافظ ابن كثير فيما يأتى، عند تفسير الآية (٣٤) من سورة لقمان - من رواية المسند وغيره . ورواه - بنحوه - ابن حبان فى صحيحه (٦٩)، (٧٠) بتحقيقنا، وفصلنا تخريجه هناك .

من الأعمال بالنهار. وهذه جملة معترضة دلت على إحاطة علمه تعالى بخلقه في ليالهم ونهارهم، في حال سكونهم وفي حال حركتهم، كما قال: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠] ، وكما قال تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي: في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الفصل: ٧٣] ، أي: في النهار، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا . وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبا: ١٠، ١١] ؛ ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ أي: ما كسبتم بالنهار ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي: في النهار. قاله مجاهد، وقتادة، والسُّدِّي . وقال ابن جريج ، عن عبد الله بن كثير: أي في المنام . والأول أظهر . وقوله: ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ يعني به: أجل كل واحد واحد من الناس ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: فيخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: ويجزيكم على ذلك إن خيراً فخير، وإن شراً فشر .

وقوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أي: هو الذي قهر كل شيء، وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ أي: من الملائكة يحفظون بدن الإنسان، كما قال : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] ، وحفظة يحفظون عمله ويحفظونه عليه، كما قال: ﴿وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ . كِرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [الانقطار: ١٠ - ١٢] وقال: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧ ، ١٨] . وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ﴾ أي: احتضر وحن أجله ﴿تَوَفَّهُ رُسُلُنَا﴾ أي: ملائكة موكلون بذلك. وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ أي: في حفظ روح المتوفى، بل يحفظونها وينزلونها حيث شاء الله، عز وجل، إن كان من الأبرار ففي عليين، وإن كان من الفجار ففي سجين، عياذا بالله من ذلك .

وقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوْا﴾ قال ابن جرير: يعني: الملائكة ﴿إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ﴾ . ونذكر هاهنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، فلا تزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَج بها إلى السماء فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: مرحبا بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة ، وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان. فلا تزال يقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل. وإذا كان الرجل السوء ، قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وعساق، وآخر من شكله أزواج، فلا تزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لا يفتح لك أبواب السماء. فترسل من السماء ، ثم تصير إلى القبر، فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل في الحديث

الأول، ويُجَلِّس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول «. هذا حديث غريب (١) .
ويحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا﴾ يعني: الخلائق كلهم إلى الله يوم القيامة،
فيحكم فيهم بعده، كما قال : ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ [الواقعة:
٤٩، ٥٠]، وقال : ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧-
٤٩]، ولهذا قال: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ لَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ .

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَنْجَحَنَا مِنْ هَٰذِهِ
لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿١٢﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿١٤﴾ قُلْ هُوَ
الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ
بِأَسِّ بَعْضٍ أَنْظَرْكُمْ كَيْفَ تُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ﴾ ﴿١٥﴾

يقول تعالى ممثنا على عباده في إنجائهم المضطرين منهم ﴿مَنْ ظَلَمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أى:
الحائرين الواقعين فى المهامة البرية، واللجج البحرية إذا هاجت الرياح العاصفة، فحينئذ يَفْرِدُونَ
الدعاء له وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلُّ مِنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُه فَلَمَّا نَجَّاهُمْ
إِلَى الْبَرِّ اعْرِضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧] ، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا
أَنَّهُمْ أَحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَّيْنٍ أَنْجَيْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢]، وقال
تعالى: ﴿أَمْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَىٰ اللَّهُ عَمَّا
يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣] . وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا
وَخُفْيَةً﴾ أى: جهراً وسراً ﴿لَّيْنٍ أَنْجَيْنَا مِنْ هَٰذِهِ﴾ أى: من هذه الضائقة ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أى:
بعدها، قال الله تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ﴾ أى: بعد ذلك ﴿تُشْرِكُونَ﴾
أى: تَدْعُونَ معه فى حال الرفاهية آلهة أخرى .

وقوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ لما قال: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ
تُشْرِكُونَ﴾ عقبه بقوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾ أى: بعد إنجائهم إياكم، كما قال فى
سورة سبحان: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُرْسِلُ لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا . وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ

(١) المسند (٨٧٥٤) . وإسناده صحيح . ورواه الطبري - بنحوه - بإسنادين (١٤٦١٥ ، ١٤٦١٦) . وسيذكر
الحافظ المؤلف ، عند الآية (٤٠) من سورة الأعراف من رواية الطبري ، ونسبه هناك لأحمد والنسائي وابن
ماجه . ولم أجد وجها لحكم الحافظ ابن كثير هنا على هذا الحديث بأنه « غريب » ! فإن إسناده الإمام أحمد
صحيح عى شرط الشيخين ، وكذلك الإسناد الثانى عند الطبري ، إلا شيخه « محمد بن عبد الله بن عبد
الحكم » فإنه لم يرو له الشيخان ، ولكنه إمام ثقة لا خلاف فيه . وليس فى متن الحديث شيء من الغرابة أو
المخالفة لادلة أخرى .

أمتى بالسنين، ففعل. وسألته ألا يظهر عليهم عدوهم، ففعل. وسألته ألا يلبسهم شيعاً، فأبى عليّ. ورواه النسائي (١). وروى الإمام أحمد عن خباب بن الارت، مولى بنى زُهرة، وكان قد شهد بدمراً مع رسول الله ﷺ، أنه قال: راقبت رسول الله ﷺ في ليلة صلاها كلها، حتى كان مع الفجر فسلم رسول الله ﷺ من صلاته، فقلت: يا رسول الله، لقد صليت الليلة صلاة ما رأيته صليت مثلها؟ فقال رسول الله ﷺ: «أجل، إنها صلاة رَغَبَ ورَهَبَ. سألت ربي، عز وجل، فيها ثلاث خصال، فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة: سألت ربي، عز وجل، ألا يهلكنا بما أهلك به الأمم قبلاً، فأعطانيها. وسألت ربي، عز وجل، ألا يظهر علينا عدوا من غيرنا، فأعطانيها. وسألت ربي، عز وجل، ألا يلبسنا شيعاً، فمنعنيها». ورواه النسائي وابن حبان في صحيحه، والترمذي وقال: حسن صحيح (٢).

وروى الإمام أحمد عن شَداد بن أوس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زَوَى لى الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها، وإن مُلِّك أمتى سيبلغ ما زَوَى لى منها، وإنى أعطيت الكثرين الأبيض والأحمر، وإنى سألت ربي، عز وجل، ألا يهلك أمتى بسنة بعامه وألا يسلط عليهم عدواً فيهلكهم بعامه، وألا يلبسهم شيعاً، وألا يذيق بعضهم بأس بعض. فقال: يا محمد، إنى إذا قضيت قضاء فإنه لا يردّ. وإنى قد أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة بعامه، وألا أسلط عليهم عدواً ممن سواهم فيهلكهم بعامه، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، وبعضهم يقتل بعضاً، وبعضهم يسبى بعضاً». قال: وقال النبي ﷺ: «وإنى لا أخاف على أمتى إلا الأئمة المضلين، فإذا وُضِع السيف فى أمتى، لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة». ليس فى شيء من الكتب الستة، وإسناده جيد قوى (٣). وروى ابن مردويه عن أبى مالك الأشجعى، عن نافع بن خالد الخزازى، عن أبيه قال - وكان أبوه من أصحاب رسول الله ﷺ، وكان من أصحاب الشجرة -: كان رسول الله ﷺ إذا صلى والناس حوله، صلى صلاة خفيفة تامة الركوع والسجود. قال: فجلس يوماً فأطال الجلوس حتى أوماً بعضنا إلى بعض: أن اسكتوا، إنه ينزل عليه. فلما فرغ قال له بعض القوم: يا رسول الله، لقد أطلت الجلوس حتى أوماً بعضنا إلى بعض: إنه ينزل عليه؟ قال: «لا، ولكنها كانت صلاة رَغْبَةً ورَهْبَةً، سألت الله فيها ثلاثاً فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة. سألت الله ألا يعذبكم بعذاب عذب به من كان قبلكم،

(١) المسند (١٢٥١٣، ١٢٦١٦). وإسناده صحيحان. ورواية النسائي له إنما هى فى السنن الكبرى، كما نص عليه الحافظ ابن حجر فى تعجيل المنفعة (ص ١٣٤). وذكره الهيثمى فى الزوائد (٢٣٦/٢) وقال: «رواه أحمد، ورجاله ثقات». إلا أنه سقط فيه ألفاظ من متن الحديث.

(٢) المسند (١٠٨ / ٥، ١٠٩ / ٣) حلى. والترمذي (٢١٠ / ٣). ورواه الطبري (١٣٣٧٠، ١٣٣٧١) بإسنادين فيهما انقطاع، ولكن تبين وصلهما من روايات المسند والترمذي وغيرهما.

(٣) المسند (١٧١٨٢). وذكره الهيثمى فى الزوائد (٢٢١ / ٧)، وقال: «رواه أحمد والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح». ورواه الطبري أيضاً (١٣٣٦٨، ١٣٣٦٩) وأشار إليه الحافظ فى الفتح (٢٢١ / ٨) عن رواية الطبري، وقال: «إسناده صحيح». وقوله: «زوى لى الأرض»: أى قبضها وجمعها حتى يراها جميعاً.

فأعطانيها، وسألت الله ألا يسلط على أمتي عدواً يستبيحها، فأعطانيها. وسألته ألا يلبسكم شيعاً وألا يذيق بعضكم بأس بعض، فمنعنيها، قال: قلت له: أبوك سمعها من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، سمعته يقول: إنه سمعها من رسول الله ﷺ عدد أصابعي هذه، عشر أصابع^(١). وروى ابن مردويه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «سألت ربي لأمتي أربع خصال، فأعطاني ثلاثاً ومنعني واحدة. سألته ألا تكفر أمتي واحدة، فأعطانيها. وسألته ألا يعذبهم بما عذب به الأمم قبلهم، فأعطانيها. وسألته ألا يظهر عليهم عدواً من غيرهم، فأعطانيها. وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم، فمنعنيها». ورواه ابن أبي حاتم^(٢).

وقال مجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد في قوله: «عَذَابًا مِّنْ فَوْقَكُم» يعني: الرجم «أَوْ مِّنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ» يعني: الخسف. وهذا هو اختيار ابن جرير.

وهو كما قال ابن جرير، رحمه الله، ويشهد له بالصحة قوله تعالى: «أَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ». أَمِ امْنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ [الملك: ١٦-١٨]، وفي الحديث: «ليكونن في هذه الأمة قَذْفٌ وَخَسْفٌ وَمَسْخٌ»^(٣) وذلك مذكور مع نظائره ففى أمارات الساعة وأشراتها وظهور الآيات قبل يوم القيامة، وستأتى مواضعها إن شاء الله تعالى.

وقوله: «أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا» أى: يجعلكم ملتبيين شيعاً: فرقاً متخالفين. قال ابن عباس: يعنى: الأهواء. وكذا قال مجاهد وغير واحد. وقد ورد فى الحديث المروى من طرق عنه ﷺ أنه قال: «وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها فى النار إلا واحدة». وقوله: «وَيَذِيقُ بَعْضُكُمُ بَأْسَ بَعْضٍ» قال ابن عباس وغير واحد: يعنى يسلط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل. وقوله: «وَانْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ» أى: نبينها ونوضحها ونفسرها «لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ» أى: يفهمون ويتدبرون عن الله آياته وحججه وبراهينه.

(١) ورواه الطبرى (١٣٣٦٧) - بنحوه - مختصراً قليلاً. وأشار إليه الحافظ فى الإصابة (١٠١ / ٢) ونسبه للحسن بن سفيان وأبى يعلى والطبرانى والطبرى وغيرهم، وقال: «رجاله ثقات». وذكره الهيمى فى الزوائد (٧ / ٢٢٢، ٢٢٣)، وقال: «رواه الطبرانى بأسانيد، ورجال بعضها رجال الصحيح غير نافع بن خالد، وقد ذكره ابن أبى حاتم، ولم يخرج أحد. ورواه البزار». ونافع بن خالد: ترجمه البخارى فى الكبير (٤ / ٨٥)، ولم يذكر فيه جرحاً.

(٢) ذكره الهيمى فى الزوائد (٧ / ٢٢٢)، وقال: «رواه الطبرانى فى الأوسط، ورجاله ثقات». ورواه البزار، إلا أنه قال: سألت ربي ثلاثاً. ورواية البزار أشار إليها الحافظ ابن كثير هنا عقب هذا الحديث، من رواية أخرى لابن مردويه.

(٣) بهذا اللفظ رواه ابن أبى الدنيا فى ذم الملاحى، عن أنس. وفى آخره: «ذلك إذا شربوا الخمر، واتخذوا القينات، وضربوا بالمعازف» - كما فى الفتح الكبير (٣ / ٧١). ورواه الترمذى (٣ / ٢١٥، ٢١٦) من حديث عائشة، مرفوعاً: «يكون فى آخر هذه الأمة خسف ومسح وقذف، قالت: قلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا ظهر الخبث». قال الترمذى: حديث غريب.

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ نَبَلٍ مُّسْتَقَرٍّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آبَائِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴿٦٨﴾ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْتَقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِىٰ لِمَالَهُمْ يَنْتَقُونَ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ﴾ أى: بالقرآن الذى جئتكم به، والهدى والبيان ﴿قَوْمُكَ﴾ يعنى: قريشاً ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ أى: الذى ليس وراءه حق ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أى: لست عليكم بحفيظ، ولست بموكل بكم، كقوله: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] أى: إنما على البلاغ، وعليكم السمع والطاعة، فمن اتبعنى سعد فى الدنيا والآخرة، ومن خالفنى فقد شقى فى الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿لِكُلِّ نَبَلٍ مُّسْتَقَرٍّ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: أى لكل نبال حقيقة، أى: لكل خبر وقوع، ولو بعد حين، كما قال: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨]، وقال: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٧]. وهذا تهديد ووعد أكيد؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

ثم قال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ أى: بالتكذيب والاستهزاء ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أى: حتى يأخذوا فى كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب ﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ والمراد بهذا كل فرد فرد من آحاد الأمة، ألا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير موضعها، فإن جلس أحد منهم ناسياً، فلا يقعد بعد التذكر ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. ولهذا ورد فى الحديث: «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» (١). وقال السدى، عن أبى مالك وسعيد ابن جبير فى قوله: ﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ قال: إن نسيت فذكرت، فلا تجلس معهم. وكذا قال مقاتل ابن حيان. وهذه الآية هى المشار إليها فى قوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ﴾ الآية [النساء: ١٤٠] أى: إنكم إذا جلستم معهم وأقررتهم على ذلك، فقد ساويتهم فى الذى هم فيه.

وقوله: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْتَقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أى: إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم فى ذلك، فقد برئوا من عهدهم، وتخلصوا من إثمهم. وقوله: ﴿وَلَكِنْ ذِكْرِىٰ﴾ أى: ولكن أمرناكم بالإعراض عنهم حينئذ تذكيراً لهم عما هم فيه؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَقُونَ﴾ ذلك ولا يعودون إليه.

(١) هو بهذا اللفظ يدور على السنة الفقهاء وغيرهم. وقد ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٤٤٦٣)، وأنه رواه الطبرانى عن ثوبان، ورمز له بالصحة. وأخطأ فى ذلك، فإن فى إسناده رجلاً ضعيفاً، كما بينه شارحه المناوى. وقد أطال السخاوى فى تخريجه وبيان ضعفه فى المقاصد الحسنة، رقم (٥٢٨) (ص ٢٢٨ - ٢٣٠). ولكن معناه ثابت صحيح. فقد مضى عند تفسير الآيتين: (٢٨٥، ٢٨٦) من سورة البقرة حديث ابن عباس مرفوعاً: «إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه». وبيننا هناك صحته.

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ أَلْحِيَةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرَ بِهِمْ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾

يقول تعالى : ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ أَلْحِيَةُ الدُّنْيَا ﴾ أى : دعهم وأعرض عنهم وأمهلهم قليلاً ، فإنهم صاثرون إلى عذاب عظيم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَذَكَّرَ بِهِ ﴾ أى : وذكر الناس بهذا القرآن ، وحذرهم نعمة الله وعذابه الأليم يوم القيامة . وقوله : ﴿ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أى : لئلا تبسل . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والحسن : تبسل : تسلم . عن ابن عباس : تُفَضَّح . وقال الكلبي : تُجْزَى . وكل هذه الأقوال والعبارات متقاربة فى المعنى ، وحاصلها : الإسلام للهلاكه ، والحبس عن الخير ، والارتهان عن دوك المطلوب ، كما قال : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ [المثدر : ٣٨ ، ٣٩] . وقوله : ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ أى : لا قريب ولا أحد يشفع فيها ، كما قال : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَتَّ فِيهِ وَلَا خَلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٤] .

وقوله : ﴿ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا ﴾ أى : ولو بذلت كل مبدول ما قبل منها ، كما قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقِيلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ اقْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٩١] ، وهكذا قال هاهنا : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ .

﴿ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى أَقِنَّا قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرًا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْمَلَكِينَ ﴾ ﴿ ٧١ ﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا زَكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿ ٧٢ ﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿ ٧٣ ﴾

قال السُّدِّي : قال المشركون للمسلمين : اتبعوا سبيلنا ، واتركوا دين محمد ، فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا ﴾ أى : فى الكفر ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا اللَّهُ ﴾ فيكون مثلنا مثل الذى ﴿ اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ ﴾ يقول : مثلكم ، إن كفرتم بعد الإيمان ، كمثل رجل كان مع قوم على الطريق ، فَضَلَّ الطريق ، فحيرته الشياطين ، واستهوته فى الأرض ، وأصحابه

على الطريق ، فجعلوا يدعونه إليهم يقولون : اثنا قَنَانًا على الطريق ، فأبى أن يأتيهم . فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد ﷺ ومحمد الذي يدعو إلى الطريق ، والطريق هو الإسلام . رواه ابن جرير (١) . وقال قتادة : ﴿ اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ ﴾ : أضلته في الأرض ، يعنى : استهوته : [سبَّرتَه] ، مثل قوله : ﴿ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] . وقال ابن عباس : هذا مثل ضربه الله للآلهة ومن يدعو إليها ، والدعاة الذين يدعون إلى الله ، عز وجل ، كمثّل رجل ضل عن الطريق تائها ضالاً ، إذ ناداه مناد : يا فلان بن فلان ، هلم إلى الطريق ، وله أصحاب يدعونه : يا فلان ، هلم إلى الطريق ، فإن اتبع الداعي الأول ، انطلق به حتى يلقيه إلى الهلكة . وإن أجاب من يدعوه إلى الهدى ، اهتدى إلى الطريق . وهذه الداعية التي تدعو في البرية من الغيлян ، يقول : مثل من يعبد هذه الآلهة من دون الله ، فإتته يرى أنه في شيء حتى يأتيه الموت ، فيستقبل الندامة والهلكة . وقوله : ﴿ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ ﴾ ، هم «الغيлян» ، يدعونه باسمه واسم أبيه وجده ، فيتبعها وهو يرى أنه في شيء ، فيصبح وقد ألقته في هلكة ، وربما أكلته - أو تلقيه في مضلة من الأرض ، يهلك فيها عطشاً ، فهذا مثل من أجاب الآلهة التي تُعبد من دون الله ، عز وجل . رواه ابن جرير (٢) .

وسياق الآية يقتضى أن هذا الذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران - وهو منصوب على الحال ، أى : فى حال حيرته وضلاله وجهله بوجه الحجّة - وله أصحاب على المحجة سائرون ، فجعلوا يدعونه إليهم وإلى الذهاب معهم على الطريقة المثلى . وتقدير الكلام : فيأبى عليهم ولا يلتفت إليهم ، ولو شاء الله لهداه ، وكردّه به إلى الطريق ؛ ولهذا قال : ﴿ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَى ﴾ ، كما قال : ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ﴾ [الزمر : ٣٧] ، وقال : ﴿ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ [النحل : ٣٧] . وقوله : ﴿ وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : نخلص له العبادة وحنه لا شريك له .

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا زَكَاةَ﴾ أى : وأمرنا بإقامة الصلاة وبتقواها فى جميع الأحوال ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أى : يوم القيامة .

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أى : بالعدل ، فهو خالقهما ومالكهما ، والمدير لهما ولمن فيهما . وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ يعنى : يوم القيامة ، الذى يقول الله : ﴿ كُنْ ﴾ فيكون عن أمره كلمح البصر ، أو هو أقرب . و ﴿ يَوْمَ ﴾ منصوب إما على العطف على قوله : ﴿ وَآتُوا زَكَاةَ ﴾ ، وتقديره : وآتوا يومَ يقول كن فيكون ، وإما على قوله : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أى : وخلق يومَ يقول كن فيكون . فذكر بدء الخلق وإعادته ، وهذا مناسب . وإما على إضمار فعل ، تقديره : واذكر يومَ يقول كن فيكون . ﴿ قَوْلَهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ ﴾ جملتان محلّهما الجر ، على أنهما صفتان لرب العالمين . وقوله : ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ يحتمل أن يكون بدلاً من قوله : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ ويحتمل أن يكون ظرفاً لقوله : ﴿ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ كقوله : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر : ١٦] ، وكقوله : ﴿ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا

عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا» [الفرقان : ٢٦] ، وما أشبه ذلك .

واختلف المفسرون في قوله : «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ» ، فقال بعضهم : المراد بالصور هاهنا جمع «صورة» أى : يوم ينفخ فيها فتحيا . قال ابن جرير : كما يقال : سور - لسور البلد - هو جمع سورة . والصحيح أن المراد بالصور : «الْقَرْنَ» الذى ينفخ فيه إسرافيل ، عليه السلام ، قال ابن جرير : والصواب من القول فى ذلك عندنا ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إن إسرافيل قد التقم الصور وحنى جبهته ، ينتظر متى يُؤْمَرُ ، فينفخ» . ورواه مسلم فى صحيحه (١) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : قال أعرابى : يا رسول الله ، ما الصور؟ قال : « قَرْنٌ ينفخ فيه » (٢) . وقد روينا حديث الصور بطوله ، من طريق الحافظ أبى القاسم الطبرانى ، وهو غريب جدا ! ولبعظه شواهد فى الأحاديث المتفرقة ، وفى بعض ألفاظه نكارة . تفرد به إسماعيل بن رافع قاصّ أهل المدينة ، وقد اختلف فيه ، فمنهم من وثقه ، ومنهم من ضعفه ، ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة ، كأحمد بن حنبل ، وأبى حاتم الرازى ، وعمرو بن على الفلاس ، ومنهم من قال فيه : هو متروك . وقال ابن عدى : أحاديثه كلها فيها نظر إلا أنه يكتب حديثه فى جملة الضعفاء .

قلت : وقد اختلف عليه فى إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة ، قد أفردتها فى جزء على حدة . وأما سياقه ، فغريب جدًا ! ويقال : إنه جمعه من أحاديث كثيرة ، وجعله سياقاً واحداً !! فأنكر عليه بسبب ذلك . وسمعت شيخنا الحافظ أبى الحجاج المزيّ يقول : إنه رأى للوليد بن مسلم مصنفاً قد جمعه كالشواهد لبعض مفردات هذا الحديث ، فالله أعلم (٣) .

(١) وهم الحافظ ابن كثير هنا وهماً شديداً ! فالحديث ليس فى صحيح مسلم ، على اليقين . ثم ليس فى شيء من رواياته التى رأيتها تسميه «إسرافيل» . بل فيها : «صاحب القرن» . والحديث رواه أحمد فى المسند (١١٠٥٤) عن أبى سعيد الخدرى ، عن النبى ﷺ ، قال : « كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن ، وحنى جبهته ، وأصغى سمعه ، ينتظر متى يؤمر؟ » قال المسلمون : يا رسول الله ، فما نقول ؟ قال : « قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » . وإسناده ضعيف . ورواه الحاكم فى المستدرك (٤ / ٥٥٩) بإسنادين ضعيفين . وذكره النابلسى فى ذخائر الموارث (٧٩٦٠) ، ونسبه لأبى داود والترمذى وابن ماجه . وذكره السيوطى فى زيادات الجامع الصغير (٢ / ٣٣٥ ، ٣٣٦) من الفتح الكبير ، ونسبه لأحمد والترمذى وابن حبان والحاكم . ورواه أحمد أيضاً (٣٠١٠) من حديث ابن عباس . وكذلك رواه الحاكم (٤ / ٥٥٩) . وإسناده - عندهما - ضعيف .

(٢) المسند (٦٥٠٧ ، ٦٨٠٥) . ورواه الترمذى (٣ / ٢٩٥) وصححه . ورواه الحاكم (٢ / ٤٣٦ ، ٥٠٦ ، و ٤ / ٥٦٠) وصححه ووافقه الذهبى .

(٣) هو حديث ظاهر النكارة ، ساقه ابن كثير هنا من رواية الطبرانى ، كما قال فحذفناه ، كما شرطنا فى كتابنا هذا . و «إسماعيل بن رافع» - راويه : قال فيه ابن معين : « ليس بشيء » . وقال أبو حاتم : « هو منكر الحديث » . انظر الجرح والتعديل لابن أبى حاتم (١ / ١٦٨ - ١٦٩) . وقال ابن حبان فى كتاب المجروحين (ص ٨٣ ، ٨٤ مخطوط مصور) : « كان رجلاً صالحاً ، إلا أنه يقلب الأخبار ، حتى صار الغالب على حديثه المنكير ، التى يسبق إلى القلب أنه كالتعمد لها » .

رَبِّهِمْ لِأَبِيهِمْ وَأَزَرَ أَنْتَخِذُ أَصْنَامًا إِلَهًا إِنِّي أُرِيدُ أَنْ يَمْلِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ إِلَهِي بِيَدِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُعْقِرُونَ إِيَّيَّ بِرِيءٌ مِمَّا فُتِّرُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

قال الضحاك، عن ابن عباس: إن أبا إبراهيم لم يكن اسمه آزر، وإنما كان اسمه تارح. رواه ابن أبي حاتم. وهكذا قال غير واحد من علماء النسب: إن اسمه تارح. وقال مجاهد والسدي: آزر: اسم صنم. قلت: كأنه غلب عليه آزر لخدمته ذلك الصنم، فالله أعلم. وقال ابن جرير: وقال آخرون: هو سب وعيب بكلامهم، ومعناه: مُعَوَّج. ولم يسنده ولا حكاه عن أحد. ثم قال ابن جرير: والصواب أن اسم أبيه آزر. ثم أورد على نفسه قول النسابين أن اسمه تارح، ثم أجاب بأنه قد يكون له اسمان، كما لكثير من الناس، أو يكون أحدهما لقباً. وهذا الذي قاله جيد قوى، والله أعلم (١).

واختلف القراء في أداء قوله تعالى: ﴿وَأَذَّ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾، فحكى ابن جرير عن الحسن البصري وأبي يزيد المدني أنهما كانا يقرآن: «وَأَذَّ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَنْتَخِذُ أَصْنَامًا إِلَهًا»، معناه: يا آزر، أنتخذ أصناماً إلهة. وقرأ الجمهور بالفتح، إما على أنه علم أعجمي لا ينصرف، وهو بدل من قوله: ﴿لِأَبِيهِ﴾، أو عطف بيان، وهو أشبه. وعلى قول من جعله نعتاً لا ينصرف أيضاً كأحمر وأسود. فأما من زعم أنه منصوب لكونه معمولاً لقوله: ﴿أَنْتَخِذُ أَصْنَامًا﴾، تقديره: يا أبت، أنتخذ آزر أصناماً إلهة! فإنه قول بعيد في اللغة؛ فإن ما بعد حرف الاستفهام لا يعمل فيما قبله؛ لأن له صدر الكلام، كذا قرره ابن جرير وغيره. وهو مشهور في قواعد اللغة العربية.

(١) أما أن اسم والد إبراهيم «آزر» - فإنه عندنا أمر قطعي الثبوت، بصريح القرآن في هذه الآية، بدلالة الألفاظ على المعاني. وأما التأويل والتلاعب بالألفاظ، فما هو إلا إنكار مقنع لمضمون الكلام ومعناه. وسواء أكان اسمه في قول أهل النسب نقلاً عن الكتب السابقة - «تارح»، أو لم يكن، فلا أثر له في وجوب الإيمان بصدق ما نص عليه القرآن، وبدلالة لفظ «لأبيه» على معناه الوضعي في اللغة. والقرآن هو المهيمن على ما قبله من كتب الأديان السابقة.

ثم يقطع كل شك، ويذهب بكل تأويل - الحديث الصحيح الذي رواه البخاري (١٣٩/٤) من الطبعة السلطانية، ٦ / ٢٧٦ من فتح الباري: «عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قتره وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني؟» - إلى آخر الحديث. وليس بعد هذا النص مجال للتلاعب.

وقد فصلت تحقيق هذه المسألة في بحث مسهب، ألحقته بكتاب العرب للجواليقي - بتحقيق - طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٦١، (ص ٣٥٩ - ٣٦٥).

والمقصود : أن إبراهيم، عليه السلام، وعظ أباه في عبادة الأصنام، وزجره عنها، ونهاه فلم ينته، كما قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَّ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ أى: أتتاله لصنم تعبدته من دون الله؟ ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ﴾ أى: السالكين مسلكك ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أى: تائهين لا تهتدون أين تسلكون، بل فى حيرة وجهل وأمركم فى الجهالة والضلال بين واضح لكل ذى عقل صحيح.

وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا. يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا. يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا. يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا. قَالَ أَرَأَيْبَ أَنْتَ عَنِ الْهَيْبِ يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا. قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا. وَأَعْتَزِّلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مریم: ٤١ - ٤٨] ، فكان إبراهيم، عليه السلام، يستغفر لأبيه مدة حياته، فلما مات على الشرك وتبين إبراهيم ذلك، رجع عن الاستغفار له، وتبرأ منه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]. وثبت فى الصحيح : أن إبراهيم يلقى أباه يوم القيامة فيقول له آزر : يا بنى ، اليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم : أى رب ، ألم تعدنى أنك لا تخزنى يوم الدين ، وأى خزى أخزى من أبى الأبعد ؟ فيقال : يا إبراهيم ، انظر ما وراءك . فإذا هو بذيخ متلطح فيؤخذ بقوائمه ، فيلقى فى النار (١) .

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: نبين له وجه الدلالة - فى نظره إلى خلقهما - على وحدانية الله، عز وجل، فى ملكه وخلقه، وإنه لا إله غيره ولا رب سواه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١] ، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَشْأَ نَخِيفَ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [سبا: ٩] . ويحتمل أن يكون هذا كشف له عن بصره، حتى رأى ذلك عياناً، ويحتمل أن يكون عن بصيرته حتى شاهده بفؤاده وتحققه وعرفه، وعلم ما فى ذلك من الحكم الباهرة والدلالات القاطعة، كما رواه الإمام أحمد والترمذى وصححه، عن معاذ بن جبل فى حديث المنام: «أتانى ربي فى أحسن صورة فقال: يا محمد، فيم يختصم الملائة الأعلى؟ فقلت: لا أدرى يا رب، فوضع كفه بين كفتي، حتى وجدت برد أنامله بين ثديي، فتجلى لى كل شيء وعرفت» وذكر الحديث.

وقوله: ﴿وَلْيَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: «الواو» زائدة، تقديره: وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ليكون من المؤمنين، كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَسَمَتَيْنِ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥] . وقيل: بل هى على بابها، أى: نريه ذلك ليكون عالماً وموقناً.

(١) هو الحديث الذى أشرنا فى الهامشة السابقة إلى أنه رواه البخارى من حديث أبى هريرة ، والمؤلف اختصره هنا ، كأنه يحكيه بالمعنى .

(٢) فى المطبوع من «عمدة التفسير» وكذا المخطوطة الأزهرية: «أقلم» وهو خطأ واضح . (الباز) .

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ أى: تغشاه وستره ﴿رَأَىٰ كَوْكَبًا﴾ أى: نجماً ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ﴾ أى: غاب. قال ابن إسحاق: «الأفول»: الذهاب. وقال ابن جرير: يقال: أفل النجم يأفل ويأفل أفولاً وأفلاً: إذا غاب ويقال: أين أفلت عنا؟ بمعنى: أين غبت عنا. ﴿قَالَ لَا أَحِبُّ الْأَفْلِينَ﴾ قال قتادة: علم أنه ربه دائم لا يزول ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا﴾ أى: طالعاً ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾. فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربِّي أى: هذا الشيء الطالع ربِّي ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ أى: جرمًا من النجم ومن القمر، وأكثر إضاءة ﴿فَلَمَّا أَفَلَّتْ﴾ أى: غابت ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي﴾ أى: أخلصت ديني وأفردت عبادتي ﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق ﴿حَنِيفًا﴾ أى: فى حال كونى حنيفاً، أى: مائلاً عن الشرك إلى التوحيد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وقد اختلف المفسرون فى هذا المقام، هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ فروى ابن جرير عن ابن عباس ما يقتضى أنه مقام نظر، واختاره ابن جرير مستدلاً بقوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾. والحق: أن إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، كان فى هذا المقام مناظراً لقومه، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبين فى المقام الأول مع أبيه خطأهم فى عبادة الأصنام الأرضية، التى هى على صورة الملائكة السماوية، ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذى هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته، ليشفعوا لهم عنده فى الرزق والنصر، وغير ذلك مما يحتاجون إليه. وبين فى هذا المقام خطأهم وضلالهم فى عبادة الهياكل، وهى الكواكب السيارة السبعة المتحيرة، وهى: القمر، وعطارد، والزهرة، والشمس، والمريخ، والمشتري، وزحل، وأشدهن إضاءة وأشرقهن عندهم: الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة. فبين أولاً: أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية؛ لأنها مسخرة مقدرة بسير معين، لا تزيغ عنه ميمناً ولا شمالاً، ولا تملك لنفسها تصرفاً، بل هى جرم من الأجرام خلقها الله منيرة، لما له فى ذلك من الحكمة العظيمة، وهى تطلع من المشرق، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو فى الليلة القابلة على هذا المنوال. ومثل هذه لا تصلح للإلهية. ثم انتقل إلى القمر، فبين فيه مثل ما بين فى النجم. ثم انتقل إلى الشمس كذلك. فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التى هى أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع - ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أى: أنا برىء من عبادتهن ومولاتهن، فإن كانت آلهة، فكيدونى بها جميعاً ثم لا تنظرون ﴿إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أى: إنما أعبد خالق الأشياء ومخترعها ومُسَخِّرَها ومقدرها ومديرها، الذى بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء وربى ومليكه وإلهه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَبِثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الاعراف: ٥٤]. وكيف يجوز أن يكون إبراهيم الخليل ناظراً فى هذا المقام؟ وهو الذى قال الله فى حقه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ

وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥١﴾ الْآيَاتِ [الأنبياء : ٥١ ، ٥٢] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَاتَّبَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل : ١٢٠ - ١٢٣] ، وقال تعالى : ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦١] .

وقد ثبت في الصحيحين ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «كل مولود يولد على الفطرة» ، وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار ؛ أن رسول الله ﷺ قال : «قال الله : إني خلقت عبادي حنفاء» وقال الله في كتابه العزيز : ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم : ٣٠] ، وقال تعالى : ﴿وِإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف : ١٧٢] ومعناه على أحد القولين : كقوله : ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ كما سيأتي بيانه . فإذا كان هذا في حق سائر الخليفة ، فكيف يكون إبراهيم الخليل - الذي جعله الله «أُمَّةً قَانًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» [النحل : ١٢٠] - ناظرًا في هذا المقام ؟ بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة ، والسجية المستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب . وما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظرًا لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظرًا - قوله تعالى :

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَبَلَّغْ حُجَّتَنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

يقول تعالى : وجادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد ، وناظره بشبه من القول - «قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ» أي : أتجادلونني في أمر الله وأنه لا إله إلا هو ؟ وقد بصرني وهداني إلى الحق وأنا على بينة منه ، فكيف التفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة ؟ وقوله : ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أي : ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبت إليه أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تؤثر شيئًا ، وأنا لا أخافها ، ولا أبايها ، فإن كان لها صنع ، فكيدوني بها ولا تتظرون ، بل عاجلونني بذلك . وقوله : ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ استثناء منقطع ، أي : لا يضر ولا ينفع إلا الله ، عز وجل . «وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا» أي : أحاط علمه بجميع الأشياء ، فلا يخفى عليه خافية . «أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ» أي : فيما بينت لكم ، فتعتبرون أن هذه الآلهة باطلة ، فتتجزوا عن عبادتها . وهذه الحجة نظير ما احتج به نبي الله هود ، عليه السلام ، على قومه عاد ، فيما قص عنهم في كتابه ، حيث يقول : ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ

قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ . إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٣-٥٦﴾ .

وقوله : ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ أى : كيف أخاف من هذه الأصنام التى تعبدونها من دون الله . ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنْتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ قال ابن عباس وغير واحد من السلف : أى : حجة . وهذا كما قال تعالى : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى : ٢١] ، وقال : ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم : ٢٣] . وقوله : ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى : فأى الطائفتين أصوب ؟ الذى عبد من بيده الضر والنفع ، أو الذى عبد من لا يضر ولا ينفع بلا دليل ؟ أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة ؟ قال الله تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ أى : هؤلاء الذى أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له ، ولم يشركوا به شيئاً ، هم الآمنون يوم القيامة ، المهتدون فى الدنيا والآخرة .

روى البخارى عن عبد الله قال : لما نزلت ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ قال أصحابه : وأينا لم يظلم نفسه ؟ فنزلت : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان : ١٣] (١) .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على الناس ، فقالوا : يا رسول الله ، أينا لا يظلم نفسه ؟ قال : « إنه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : ﴿يَا بَنِيَّ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ، إنما هو الشرك » (٢) .

وقوله : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ أى : وجهنا حجته على قومه . قال مجاهد وغيره : يعنى بذلك قوله : ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنْتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وقد صدقه الله ، وحكم له بالأمن والهداية فقال : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ ، ثم قال بعد ذلك كله : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ﴾ . قرئ بالإضافة وبلا إضافة ، كما فى سورة يوسف ، وكلاهما قريب فى المعنى .

وقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أى : حكيم فى أفعاله وأقواله ﴿عَلِيمٌ﴾ أى : بمن يهديه ومن يضلّه ، وإن قامت عليه الحجج والبراهين ، كما قال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ .

(١) البخارى (٨ / ٢٢١ فتح) .

(٢) المسند (٣٥٨٩) ، وفصلنا تخريجه هناك . ورواه الطبرى بنحوه (١٣٤٧٦ - ١٣٤٨٠) .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا كُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَكْفُرُنَّ بِهَا بِكُفْرِنٍ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ آفَتُهُ قُلْ لَا آسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق، بعد أن طعن في السن، وأيس هو وامرأته «سارة» من الولد، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط، فبشروهما بإسحاق، فتعجبت المرأة من ذلك، وقالت: «قَالَتِ يَا وَيْلَتَى أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ. قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مُجِيدٌ» [هود: ٧٢، ٧٣]. وبشروهما مع وجوده بنبوته، ويأن له نسلا وعقباً، كما قال: «وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ» [الصافات: ١١٢]، وهذا أكمل في البشارة، وأعظم في النعمة، وقال: «فَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ» [هود: ٧١]، أى: ويولد لهذا المولود ولد في حياتكما، فتقر أعينكما به كما قرت بوالده، فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه، وقعت البشارة به وبولده باسم «يعقوب»، الذى فيه اشتقاق العقب والذرية، وكان هذا مجازاة لإبراهيم عليه السلام، حين اعتزل قومه وتركهم، ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهباً إلى عبادة الله في الأرض، فعوضه الله، عز وجل، عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه، لتقر بهم عينه، كما قال: «فَلَمَّا اعْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا» [مريم: ٤٩]، وقال هاهنا: «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا».

وقوله: «وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ» أى: من قبله، هديناه كما هديناه، ووهبنا له ذرية صالحة، وكل منهما له خصوصية عظيمة، أما نوح، عليه السلام، فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به - وهم الذين صحبوه في السفينة - جعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذرية نوح، وكذلك الخليل إبراهيم، عليه السلام، لم يبعث الله، عز وجل، بعده نبياً إلا من ذريته، كما قال تعالى: «وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ» [العنكبوت: ٢٧]، وقال تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ» [الحديد: ٢٦]، وقال تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجُودًا وَبُكِيًّا» [مريم: ٥٨].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ أى: وهدينا من ذريته ﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ الآية، وعود الضمير إلى «نوح»؛ لأنه أقرب المذكورين - ظاهر. وهو اختيار ابن جرير. وعوده إلى «إبراهيم»؛ لأنه الذى سبق الكلام من أجله - حسن، لكن يشكل على ذلك «لوط»، فإنه ليس من ذرية «إبراهيم»، بل هو ابن أخيه هاران بن آزر؛ اللهم إلا أن يقال: إنه دخل فى الذرية تغليبا، كما فى قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، فإسماعيل عمه، ودخل فى آبائه تغليبا. وكما فى قوله: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [إلى إيليس] [الحجر: ٣٠]، فدخل إيليس فى أمر الملائكة بالسجود، وذم على المخالفة؛ لأنه كان قد تشبه بهم، فعومل معاملة مثلهم، ودخل معهم تغليبا، وإلا فهو كان من الجن وطبيعته النار، والملائكة من نور.

وفى ذكر «عيسى»، عليه السلام، فى ذرية «إبراهيم» أو «نوح» - على القول الآخر - دلالة على دخول ولد البنات فى ذرية الرجال؛ لأن «عيسى»، عليه السلام، إنما ينسب إلى «إبراهيم»، عليه السلام، بأمه «مريم» عليها السلام، فإنه لا أب له. روى ابن أبى حاتم عن أبى حرب بن أبى الأسود قال: أرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر فقال: بلغنى أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبی ﷺ، تجده فى كتاب الله؟ وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده! قال: اليس تقرأ سورة الأنعام: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾، حتى بلغ ﴿وَيَحْيَى وَعِيسَى﴾؟ قال: بلى، قال: اليس عيسى من ذرية إبراهيم، وليس له أب؟ قال: صدقت. فلهذا إذا أوصى الرجل لذريته، أو وقف على ذريته أو وهبهم، دخل أولاد البنات فيهم. فأما إذا أعطى الرجل بنيه أو وقف عليهم، فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه وبنو بنيه، واحتجوا بقول الشاعر العربى:

بَنُوْنَا بَنُو أَبْنَانَا، وَبَنَاتُنَا
بَنُوْنُهُنَّ أَبْنَاءُ الرِّجَالِ الْإِجَانِبِ

وقال آخرون: ويدخل بنو البنات فيهم أيضا، لما ثبت فى صحيح البخارى، أن رسول الله ﷺ قال للحسن بن على: «إن ابنى هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» (١). فسماه ابنا، فدل على دخوله فى الأبناء. وقال الآخرون: هذا تجوز.

وقوله: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾: ذكر أصولهم وفروعهم. وذوى طبقتهم، وأن الهداية والاجتماع شملهم كلهم؛ ولهذا قال: ﴿وَأَجْبَيْنَاهُمْ هَدْيَانَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. ثم قال: ﴿ذَلِكَ هَدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أى: إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهدايته إياهم، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: تشديد لأمر الشرك، وتغليظ لشأنه، وتعظيم للملابسته، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وهذا شرط، والشرط لا يقتضى جواز الوقوع، كقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، وكقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧] وكقوله: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ أى: أنعمنا عليهم بذلك رحمة للعباد بهم، ولطفاً منا بالخلقة ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا﴾ أى: بالنبوة. ويحتمل أن يكون الضمير عائداً على هذه الأشياء الثلاثة: الكتاب، والحكم، والنبوة. وقوله: ﴿هُؤُلَاءِ﴾ يعنى: أهل مكة. قاله ابن عباس، وسعيد بن المسيّب، وقتادة، والسدّي ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ أى: إن يكفر بهذه النعم من كفر بها من قريش وغيرهم من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، ومليين وكتابين، فقد وكَّلنا بها قوماً ﴿آخَرِينَ﴾ يعنى: المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة ﴿لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ أى: لا يجحدون منها شيئاً، ولا يردون منها حرفاً واحداً، بل يؤمنون بجميعها محكمها ومتشابهها، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه وإحسانه.

ثم قال تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ: ﴿أُولَئِكَ﴾ يعنى: الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان وهم الأشباه ﴿الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أى: هم أهل الهداية لا غيرهم، ﴿فَبِهَدَاهُمْ أَقْتَدِهِ﴾ أى: اقتد واتبع. وإذا كان هذا أمراً للرسول ﷺ، فأمته تبع له فيما يشرعه ويأمرهم به. وقوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أى: لا أطلب منكم على إبلاغي إياكم هذا القرآن أجره، ولا أريد منكم شيئاً ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أى: يتذكرون به، فيرشدوا من العمى إلى الهدى، ومن الغى إلى الرشاد، ومن الكفر إلى الإيمان.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يَبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْنَاهُ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَن حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى: وما عظموا الله حق تعظيمه، إذ كذبوا رسله إليهم، قال ابن عباس، ومجاهد: نزلت في قريش. واختاره ابن جرير، وقيل: نزلت في طائفة من اليهود؛ وقيل: في فئحة من رجل منهم، وقيل: في مالك بن الصيف، ﴿قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ والاول أصح؛ لأن الآية مكية، واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء، وقريش - والعرب قاطبة - كانوا يبعدون إرسال رسول من البشر، كما قال: ﴿أَكَاَنَّ لِلنَّاسِ عِجَابٌ أَن أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَن أَنذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا. قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَّمْنُونَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤، ٩٥]، وقال ههنا: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾، قال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أى: قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لانزال شيء من الكتب من عند الله، فى جواب سلبهم العام، بإثبات قضية جزئية موجبة: ﴿مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ يعنى: التوراة التى قد علمتم - وكل

أحد - أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران ﴿نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ أى : ليستضاء بها فى كشف المشكلات ، ويهتدى بها من ظلم الشبهات .

وقوله : ﴿يَجْعَلُونَهُ^(١) قَرَأِيسَ يَدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ أى : يجعلون جملتها قراطيس ، أى : قطعاً قطعاً ، يكتبونها من الكتاب الأصلي الذى بأيديهم ويحرفون منها ما يحرفون ، ويبدلون ويتأولون ، ويقولون : ﴿هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [البقرة : ٧٩] أى : فى كتابه المنزل ، وما هو من عند الله ؛ ولهذا قال : ﴿يَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ يَدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ (٢) . وقوله تعالى : ﴿وَعَلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ أى : ومن أنزل القرآن الذى علمكم الله فيه من خبر ما سبق ، ونبا ما يأتى ما لم تكونوا تعلمون ذلك ، لا أنتم ولا آبائكم . وقد قال قتادة : هؤلاء مشركو العرب . وقال مجاهد : هذه للمسلمين .

وقوله : ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ : قال عن ابن عباس : أى : قل : الله أنزله . وهذا الذى قاله ابن عباس هو المتعين فى تفسير هذه الكلمة ، لا ما يقوله بعض المتأخرين ، من أن معنى ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ أى : لا يكون خطابك هم إلا هذه الكلمة ، كلمة : « الله » . وهذا الذى قاله هذا القائل يكون أمراً بكلمة مفردة من غير تركيب ، والآيتان بكلمة مفردة لا يفيد فى لغة العرب فائدة يحسن السكوت عليها . وقوله : ﴿ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أى : ثم دعهم فى جهلهم وضلالهم يلعبون ، حتى يأتهم من الله اليقين فسوف يعلمون : ألهم العاقبة ، أم لعباد الله المتقين ؟ .

وقوله : ﴿وَهَذَا كِتَابٌ﴾ يعنى : القرآن ﴿أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكًا مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ يعنى : مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من أحياء العرب ، ومن سائر طوائف بنى آدم من عرب وعجم ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿قُلِ يَٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، وقال : ﴿لَا تُنْذِرُكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام : ١٩] ، وقال : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود : ١٧] ، وقال : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان : ١] ، وقال : ﴿وَقُلِ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ

(١) من أول قوله : « وقوله يجعلونه » - إلى هنا - أثبتنا الأفعال : « يجعلونه » و « يدونها » و « يخفون » ، والأفعال فى كلام الحافظ ابن كثير فى تفسير الآية - بيا الغائب فى المضارعة ، دون تاء المخاطب ، لأن هذا هو الثابت فى المخطوطتين . وهى قراءة ابن كثير - القارئ - وأبى عمرو « بالغيب فى الثلاثة » ، على إسناده للكفار . ووافقهم ابن محيصن واليزيدى . وقرأ باقى الأربعة عشر « تجعلونه » - إلخ بناء المخاطب ، وهى قراءة حفص الثابتة فى مصاحفنا . وكذلك قول ابن كثير « من الكتاب الأصلي الذى بأيديهم » - هو الثابت فى المخطوطتين . وثبت فى المطبوعة : « بأيديكم » . وهو المناسب لقراءة تاء الخطاب . وإنما رجحنا إثبات ما فى المخطوطتين لأنه هو الذى يستقيم وما ذهب إليه الحافظ ابن كثير - تبعاً للطبرى - أن الآية نزلت فى قريش ، فيكون الخبر عن اليهود بيا الغائب . وقد رجح الطبرى القراءة بيا الغائب ، وحكى أنها قراءة مجاهد أيضاً (١١ / ٥٢٥ ، ٥٢٦) . بل جعلها « الأصوب من القراءة » : « أن يكون بالياء ، لا بالتاء . على معنى : أن اليهود يجعلونه قراطيس يدونها ويخفون كثيراً . ويكون الخطاب بقوله : ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ لمشركى قريش . هذا نص كلامه .

(٢) هذا هو الحق . وهو يدل على بطلان ما يتلاعب به بعض المتصوفة بالذكر بكلمات مفردة من أسماء الله عز وجل .

أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ احْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ [آل عمران: ٢٠] وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أُعْطِيْتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي» وذكر منهن: «وكان النبي يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة» (١) ؛ ولهذا قال: «وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ» أي: كل من آمن بالله واليوم الآخر آمن بهذا الكتاب المبارك الذي أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: يقومون بما افترض عليهم، من أداء الصلوات في أوقاتها.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكْتُمْ مَا خَوَّلْنَكُمْ وَرَأَى ظُهُورَكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله، فجعل له شريكاً أو ولداً، أو ادعى أن الله أرسله إلى الناس ولم يرسله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ قال عكرمة وقتادة: نزلت في مسيلمة الكذاب. ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ يعني: أو من ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحي بما يفتره من القول، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١] ، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ أي: في سكراته وغمراته وكرباته، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بالضرب ، كما قال: ﴿لَنْ يَسْطُرَ إِلَيْكَ لِقَافِي﴾ الآية [المائدة: ٢٨] ، وقال: ﴿وَيَسْطُرُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَالنَّسْتَهُمُ بِالسُّوءِ﴾ الآية [المتحنة: ٢] . قال الضحاك، وأبو صالح: ﴿بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: بالعذاب. وكما قال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠] ؛ ولهذا قال: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: بالضرب لهم ، حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم؛ ولهذا يقولون لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ ، وذلك أن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال، والأغلال والسلاسل، والجحيم والحميم، وغضب الرحمن الرحيم، فتتفرق روحه في جسده، وتعصى وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم، قائلين لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي: اليوم تهانون غاية الإهانة ، كما كنتم تكذبون على الله ، وتستكبرون عن اتباع آياته ، والانقياد لرسله. وقد وردت الأحاديث المتواترة في كيفية احتضار المؤمن والكافر، وهي مقررة عند قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] .

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: يقال لهم يوم معادهم هذا، كما قال: ﴿وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨] ، أي: كما بدأناكم أعدناكم، وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه، فهذا يوم البعث. وقوله: ﴿وَتَرَكْتُمَا خَوْلَانَكُمْ﴾ أي: من النعم والأموال التي اقتنيتوها في الدار الدنيا ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي ! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت، وما سوى ذلك فذهاب وتاركة للناس» (١).

وقوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾: تقريع لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا في الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان، ظانين أنها تنفعهم في معاشهم ومعادهم إن كان ثم معاد، فإذا كان يوم القيامة تقطعت بهم الأسباب، وانزاح الضلال، وضل عنهم ما كانوا يفترون، ويناديهم الرب، جل جلاله، على رؤوس الخلائق: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢، ٧٤] وقيل لهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَبْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْبِئُونَكُمْ﴾ [الشعراء: ٩٢، ٩٣] ؛ ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: في العباد، لهم فيكم قسط في استحقاق العباد لهم.

ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾: قرئ بالرفع، أي: شملكم، وقرئ بالنصب، أي: لقد تقطع ما بينكم من الوصلات والأسباب والوسائل ﴿وَوَضِلَّ عَنْكُمْ﴾ أي: وذهب عنكم ﴿مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ من رجوى الأصنام، كما قال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَفْتَرُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِك يَرِيبُهُمُ اللَّهُ أَعْمَالُهُمْ حَسَرَاتٌ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧] ، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] ، وقال: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْنُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَمَا وَكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥] ، وقال: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُم فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ الآية [القصص: ٦٤] ، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاءُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ . ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢ - ٢٤] ، والآيات في هذا كثيرة جدا .

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْمَتَىٰ مِنَ الْعِثْبِ وَيُخْرِجُ الْمَتَىٰ مِنَ الْحَبِّ ذَلِكُمُ رَبُّ رَبِّكُمْ﴾
 ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾

(١) رواه مسلم (٢ / ٣٨٣ ، ٣٨٤) من حديث عبد الله بن الشخير . وكذلك رواه أحمد والترمذي والنسائي .
 وقد مضى عند تفسير الآية : (٢١٣) من سورة البقرة .

يخبر تعالى أنه ﴿فَالِقُ الْغَيْبِ وَالْنَّوَى﴾ أى: يشقه فى الثرى ، فتنبت منه الزروع على اختلاف أصنافها من الحبوب والشمار ومن اختلاف ألوانها وأشكالها وطعومها من النوى؛ ولهذا فسر قوله : ﴿فَالِقُ الْغَيْبِ وَالْنَّوَى﴾ بقوله: ﴿يُخْرِجُ الْغَيْمَ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ أى: يخرج النبات الحى من الحب والنوى، الذى كالجماد الميت، كما قال: ﴿وَأَيَّةُ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ. وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ. لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ. سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٣ - ٣٦] . وقوله: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ معطوف على ﴿فَالِقُ الْغَيْبِ وَالْنَّوَى﴾ ثم فسرهُ ثم عطف عليه قوله: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾. وقد عبروا عن هذا وهذا بعبارات كلها متقاربة مؤدية للمعنى ، فمن قائل: يخرج الدجاجة من البيضة ، والبيضة من الدجاجة، من قائل: يخرج الولد الصالح من الكافر ، والكافر من الصالح ، وغير ذلك من العبارات التى تنظمها الآية وتشملها. ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ﴾ أى: فاعل هذا هو الله وحده لا شريك له ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أى: فكيف تصرفون من الحق وتعبدون عنه إلى الباطل فتعبدون معه غيره ؟ !

وقوله: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكَنًا﴾ (١) أى: خالق الضياء والظلام، كما قال فى أول السورة: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، فهو سبحانه يفلق ظلام الليل عن غرة الصباح، فيضئ الوجود، ويستتير الأفق، ويضمحل الظلام، ويذهب الليل بدأته وظلام رواقه (٢) ، ويجئ النهار بضياءه

(١) « وجاعل الليل » - قراءة عاصم وحزمة والكسائى وخلف والأعمش « وجعل الليل » بصيغة الفعل الماضى ونصب « الليل » مفعولا وهى قراءة حفص عن عاصم الثابتة فى مصاحف مصر ، وقرا باقى الأربعة عشر « وجاعل الليل » بصيغة اسم الفاعل وجر « الليل » بالإضافة . وهى الثابتة فى المخطوطتين من ابن كثير هنا ، فأثبتناها كذلك . والقراءتان صحيحتان .

(٢) قوله : « بدأته » : بفتح الدال الأولى وبعدها ألف ممدودة ثم دال مكسورة ثم همزة مكسورة . وقد رسمت فى المخطوطة العتيقة هكذا : « بداديه » ، ورسمت فى المخطوطة الأزهريّة هكذا « بداءديه » . أما الهمزة فى الأزهريّة فموضعا خطأ من الناسخ ، موضعها الصحيح قبل الألف ، لتقرأ ألفا ممدودة . وأما الياء بعد الدال الثانية فهى ، فهكذا ترسم الهمزة المكسورة التى تكتب على ياء فى الخطوط القديمة ، كلها أو أكثرها . حتى فى ألفاظ القرآن . مثلا لفظ « باريكم » فى الآية (٥٤) من سورة البقرة مكرراً مرتين ، رسم فى المخطوطة الأزهريّة (١ / ١٤٦) فى المرتين : « باريكم » . وتسهيل هذه الهمزة إلى ياء فصيح صحيح فى لغة العرب . ولم يحسن طابعو تفسير ابن كثير قراءة هذه الكلمة ، فاستسهلوا تغييرها ، فجعلوها « بسواده » ! وما أبعد ما بين الحرفين فى الرسم !!

وأما معناها ، فالمراد بها شدة الظلام فى آخر الشهر . وأصل الحرف فى نص لسان العرب (مادة : دأدأ) ، قال :

« والدَّاءُ والدُّوْدُ والدُّوْدَاءُ والدُّوْدَاءُ : آخر أيام الشهر . قال :

نحنُ أَجَزْنَا كُلَّ ذِيَالٍ قِترٍ فى الحجِّ مِنْ قَبْلِ دَادِي الْمُوتِمِرِ أَرَادَ دَادِي الْمُوتِمِرِ ، فأبدل الهمزة ياءً ثم حذفها لالتقاء الساكنين .

قال الأعشى :

تداركه فى مُصِلِ الالِ بعدَ مَا مَضَى غَيْرَ دَادَاءٍ وَقَدْ كَادَ يَعْطَبُ =

وإشراقه، كما قال : ﴿يَغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الاعراف: ٥٤]، فبين تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة المختلفة ، الدالة على كمال عظمته وعظيم سلطانه، فذكر أنه فائق الإصباح وقابل ذلك بقوله : ﴿وَجَاعِلَ اللَّيْلِ سَكَنًا﴾ أى: ساجيا مظلما تسكن فيه الأشياء، كما قال: ﴿وَالضُّحَى﴾. وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴿ [الضحى: ١، ٢] ، وقال: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾. وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴿ [الليل : ١، ٢] ، وقال : ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾. وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿ [الشمس: ٣، ٤]. وقال صُهَيْبُ الرُّومِي لَامِرَاتِهِ - وقد عاتبته فى كثرة سهره: إن الله جعل الليل سكنا إلا لصهيب، إن صهيبا إذا ذكر الجنة طال شوقه، وإذا ذكر النار طار نومه، رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا﴾ أى: يجريان بحساب مُقَنَّنٍ مُقَدَّرٍ ، لا يتغير ولا يضطرب، بل كل منهما له منازل يسلكها فى الصيف والشتاء، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولاً وقصرًا، كما قال : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾ الآية [يونس: ٥] ، وكما قال : ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، وقال : ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ [الاعراف: ٥٤] . وقوله: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أى: الجميع جار بتقدير العزيز الذى لا يمانع ولا يخالف، العليم بكل شىء، فلا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، وكثيراً ما إذا ذكر تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر، يختم الكلام بالعزة والعلم، كما ذكر فى هذه الآية، وكما فى قوله: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾. وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٧، ٣٨] . ولما ذكر خلق السموات والأرض وما فيهن فى أول سورة ﴿حَم﴾ السجدة، قال: ﴿وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢] .

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ قال بعض السلف: من اعتقد فى هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله: أن الله جعلها زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، ويُهتدى بها فى ظلمات البر والبحر. وقوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ أى: قد بيناها ووضحناها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أى: يعقلون ويعرفون الحق ويتجنبون الباطل.

= قال الأزهري : أراد أن تداركه فى آخر ليلة من ليالى رجب . وقيل : الدَّاءُ والدَّاءُ ليلة خمس وست وسبع وعشرين . وقال ثعلب : العرب تسمى ليلة ثمان وعشرين وتسع وعشرين : الدَّاءُ ، والواحد : دَاءَةٌ . وفى الصحاح : الدَّاءُ ثلاث ليال من آخر الشهر قبل ليالى المحاق ، والمحاق آخرها ، وقيل : هى هـ . أبو الهيثم : الليالى الثلاث التى بعد المحاق سُمِينَ دَآئِي ، لأن القمر فيها يُدَآئِي إلى الغُيُوب . أى يسرع ، من دَاءَاة البعير . وقال الأصمعى : فى ليالى الشهر ثلاث مُحَاق ، وثلاث دَآئِي ، قال : والدَّاءُ الآخر ، وَأَشَدُّ :

أَبْدَى لَنَا غُرَّةً وَجِهَ بَادَى كَزُهْرَةِ النُّجُومِ فى الدَّاءِ ،

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنَ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

يقول تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ يعني : آدم عليه السلام ، كما قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ [النساء : ١] . وقوله : ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ : اختلفوا في معنى ذلك ، فعن ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهم : ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ ﴾ أى : فى الارحام . قالوا أو أكثرهم : ﴿ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ أى : فى الأصلاب . وعن ابن مسعود وطائفة عكس ذلك . وعن ابن مسعود أيضاً وطائفة : فمستقر فى الدنيا ، ومستودع حيث يموت . الأول هو الاظهر ، والله أعلم . وقوله : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ أى : يفهمون ويعون كلام الله ومعناه .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أى بقدر ، مباركاً ، رزقاً للعباد وغياثاً للخلائق ، رحمة من الله لخلقه ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ، كما قال : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا ﴾ [الانبيا : ٣٠] . ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ﴾ أى : زرعاً وشجراً أخضر ، ثم بعد ذلك يخلق فيه الحب والتمر ؛ ولهذا قال : ﴿ نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ﴾ أى : يركب بعضه بعضاً ، كالسنابل ونحوها ﴿ وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ ﴾ أى : جمع قنر وهى عذوق الرطب ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ أى : قريبة من المتناول ، كما قال ابن عباس : يعنى بالقنوان الدانية : قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض . رواه ابن جرير . قال ابن جرير : وأهل الحجاز يقولون : قِنْوَان ، وقيس يقولون : قِنْوَان قال امرؤ القيس :

فَأَثَرْتُ أَعَالِيهِ وَأَدَتُ أَصُولُهُ
وَمَالَ بَقَنْوَانٍ مِنَ الْبُسْرِ أَحْمَرًا

قال : وتميم يقولون : قُنْيَان بالياء - قال : وهى جمع قنو ، كما أن صنوان جمع صنو .

وقوله : ﴿ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ أى : ونخرج منه جنات من أعناب ، وهذان النوعان هما أشرف الثمار عند أهل الحجاز ، وربما كانا خيار الثمار فى الدنيا ، كما امتن الله بهما على عباده ، فى قوله : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ [النحل : ٦٧] ، وكان ذلك قبل تحريم الخمر . وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ [يس : ٣٤] . وقوله : ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ قال قتادة وغيره : يتشابه فى الورق ، قريب الشكل بعضه من بعض ، ويتخالف فى الثمار شكلاً وطعماً وطبعاً .

وقوله : ﴿ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ أى : نضجه ، قاله البراء بن عازب ، وابن عباس ، وقتادة ، وغيرهم . أى : فكروا فى قُدْرَةِ خالقه من العدم إلى الوجود ، بعد أن كان حطْبًا صار عِنْبًا ورطبًا وغير ذلك ، مما خلق تعالى من الألوان والأشكال والطعوم والروائح ، كما قال

تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلَانِ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤] ولهذا قال ههنا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ﴾ أى: للدلالات على كمال قدرة خالق هذه الأشياء وحكمته ورحمته ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أى: يصدقون به، ويتبعون رسله (١).

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَؤْيَيْنَ وَبَنَتِ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾

هذا ردّ على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، وأشركوا فى عبادته أن عبدوا الجن، فجعلوهم شركاء الله فى العبادة، تعالى الله عن شركهم وكفرهم.

فإن قيل: فكيف عبّدت الجن مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام؟ فالجواب: أنهم ما عبدوها إلا عن طاعة الجن وأمرهم إياهم بذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا. لَّعَنَ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا. وَلَأُصَلِّتَهُمْ وَلَأُمَنِّيَهُمْ وَأُكْفِيَهُمْ فَلْيُبَيِّنْ لَّيْسَ كُنَّ آذَانُ الْأَنْعَامِ وَلَا أُمَرَاتُهُمْ فَلْيُغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا. يَعْدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٧ - ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال إبراهيم لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ. وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١]، وتقول الملائكة يوم القيامة: ﴿سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبا: ٤١]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ أى: وقد خلقهم، فهو الخالق وحده لا شريك له، فكيف يعبد معه غيره ؟ ! كما قال إبراهيم، عليه السلام: ﴿اتَّبِعُونِ مَا تَنصَحُونَ. وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦]. ومعنى الآية: أنه سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق وحده؛ فلهذا يجب أن يُفرد بالعبادة وحده لا شريك له.

وقوله تعالى: ﴿وَخَرَقُوا لَؤْيَيْنَ وَبَنَتِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: يئنه به تعالى على ضلال من ضل فى وصفه تعالى بأن له ولداً، كما يزعم من قاله من اليهود فى العزير، ومن قال من النصارى فى المسيح، وكما قالت المشركون من العرب فى الملائكة: أنها بنات الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً. ومعنى قوله: ﴿وَخَرَقُوا﴾ أى: واختلقوا واثفكوا، وتخَرَصُوا وكذبوا، كما قاله علماء

(١) هنا بهامش المخطوطة العتيقة ما نصه: « آخر الجزء الأول من تفسير سورة الأنعام، من خط المؤلف، عفا الله عنه ». وبهامش المخطوطة الأهرية - ولكن بعد هذا الموضع بقليل - ما نصه: « آخر أول أجزاء المؤلف رحمه الله من هذه السورة. ومن هذه الآية ابتداء بتعليق هذا التفسير إلى آخر القرآن العظيم. ثم فسر من سورة البقرة إلى ههنا. ووافق آخر التعليق يوم الجمعة رابع عشر ذى قعدة، سنة إحدى وأربعين وسبع مائة. فكتب الجميع فى نحو أربع سنين ».

السلف. قال ابن جرير: فتأويل الكلام إذا: وجعلوا لله الجن شركاء فى عبادتهم إياه، وهو المنفرد بخلقهم بغير شريك ولا ظهير ﴿وَحَرِّقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بحقيقة ما يقولون، ولكن جهلا بالله وبِعظمته، وأنه لا ينبغي لمن كان إلها أن يكون له بنون وبنات ولا صاحبة، ولا أن يشركه فى خلقه شريك. ولهذا قال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أى: تقدس وتنزه وتعظم عما يصفه هؤلاء الجهلة الضالون من الأولاد والأنداد، والنظراء والشركاء.

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٠١﴾

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: مبدع السموات والأرض وخالقها ومنشئها ومحدثها على غير مثال سبق، كما قال مجاهد والسدى. ومنه سميت البدعة بدعة؛ لأنه لا نظير لها فيما سلف. ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ﴾ أى: كيف يكون له ولد، ولم تكن له صاحبة؟ أى: والولد إنما يكون متولداً عن شيئين متناسبين، والله لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه؛ لأنه خالق كل شيء، فلا صاحبة له ولا ولد، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا. تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا. أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا. وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا. إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا. لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلَّمَا أَتَى بِیَوْمِ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٥]. ﴿وَوَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: فبين تعالى أنه الذى خلق كل شيء، وأنه بكل شيء عليم، فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه، وهو الذى لا نظير له؟ ! فأنى يكون له ولد؟! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ﴿١٠٢﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْآبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أى: الذى خلق كل شيء ولا ولد له ولا صاحبة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ فاعبدوه وحده لا شريك له، وأقروا له بالوحدانية، وإنه لا إله إلا هو، وأنه لا ولد له ولا والد، ولا صاحبة له ولا نظير ولا عدیل ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أى: حفيظ ورقيب يدبر كل ما سواه، ويرزقهم ويكلوهم بالليل والنهار.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ فيه أقوال للائمة من السلف: أحدها: لا تدركه فى الدنيا، وإن كانت تراه فى الآخرة، كما تواترت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من غير ما طريق ثابت فى الصحاح والمسانيد والسنن، كما قالت عائشة: من زعم أن محمداً أبصر ربه فقد كذب، فإن الله يقول: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾. رواه ابن أبى حاتم، وثبت فى الصحيح وغيره عن عائشة من غير وجه. وخالفها ابن عباس، فعنه: إطلاق الرؤية، وعنه: رآه بفؤاده مرتين. والمسألة تذكر فى أول «سورة النجم» إن شاء الله.

وقال آخرون: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أى: جميعها، وهذا مخصص بما ثبت من رؤية المؤمنين له فى الآخرة . وقال آخرون من المعتزلة - بمقتضى ما فهموه من هذه الآية: أنه لا يرى فى الدنيا ولا فى الآخرة . فخالفوا أهل السنة والجماعة فى ذلك، مع ما ارتكبه من الجهل بما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله . أما الكتاب، فقوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى عن الكافرين: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحْجُورُونَ﴾ [المطففين: ١٥] . قال الإمام الشافعى: فدل هذا على أن المؤمنين لا يُحْجَبُونَ عنه تبارك وتعالى . وأما السنة، فقد تواترت الأخبار عن أبى سعيد، وأبى هريرة، وأنس، وجريج، وصُهَيْب، وبلال، وغير واحد من الصحابة عن النبى ﷺ: أن المؤمنين يرون الله فى الدار الآخرة فى العرصات، وفى روضات الجنات، جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه آمين . وقال آخرون: لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفى الإدراك، فإن الإدراك أخص من الرؤية، ولا يلزم من نفى الأخص انتفاء الأعم . ثم اختلف هؤلاء فى الإدراك المنفى، ما هو؟ ف قيل: معرفة الحقيقة، فإن هذا لا يعلمه إلا هو وإن رآه المؤمنون، كما أن من رأى القمر فإنه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته، فالعظيم أولى بذلك ، وله المثل الأعلى . وقال آخرون: المراد بالإدراك الإحاطة . قالوا: ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية ، كما لا يلزم من عدم إحاطة العلم عدم العلم، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] ، وفى صحيح مسلم: «لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك» (١) . ولا يلزم من هذا عدم الثناء، فكذلك هذا . وروى ابن أبى حاتم عن عكرمة، أنه قيل له: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾؟ قال: أأست ترى السماء؟! قال: بلى . قال: فكلمها ترى؟! وقال آخرون فى الآية بما رواه الترمذى فى جامعه، وابن أبى عاصم فى كتاب «السنة» له، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه عن عكرمة قال: سمعت ابن عباس يقول: رأى محمد ربه تبارك وتعالى . فقلت: أليس الله يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ الآية؟ فقال لى: «لا أم لك . ذاك نوره، الذى هو نوره، إذا تجلّى بنوره لا يدركه شىء» . وفى رواية: «لا يقوم له شىء» . قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه (٢) .

وفى معنى هذا الأثر ما ثبت فى الصحيحين، عن أبى موسى الأشعرى: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسطن ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور - أو: النار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» (٣) . ونفى هذا الإدراك الخاص لا ينفى الرؤية يوم القيامة ، يتجلى لعباده

(١) صحيح مسلم (١ / ١٤٠ بولاق) من حديث من رواية أبى هريرة عن عائشة .

(٢) لم أجده فى المستدرک بهذا اللفظ ، خفى على موضعه منه . وهو فى الترمذى (٤ / ١٨٩) « عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : رأى محمد ربه ، قلت : أليس الله يقول « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ » ؟ قال : ويحك ، ذاك إذا تجلّى بنوره الذى هو نوره ، وقد رأى محمد ربه مرتين » . قال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب » .

(٣) مسلم (١ / ٦٤) فى حديث . ولم أجده فى البخارى ، فلا أدري أخفى على موضعه أم وهم الحافظ ابن كثير ؟

المؤمنين كما يشاء . فأما جلاله وعظمته على ما هو عليه - تعالى وتقدس وتنزه - فلا تدركه الأبصار؛ ولهذا كانت أم المؤمنين عائشة تثبت الرؤية في الدار الآخرة وتنفيها في الدنيا، وتحتج بهذه الآية : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ فالذى نفته الإدراك الذى هو بمعنى رؤية العظمة والجلال على ما هو عليه، فإن ذلك غير ممكن للبشر، ولا للملائكة ولا لشيء .

وقوله : ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ أى : يحيط بها ويعلمها على ما هي عليه؛ لأنه خلقها كما قال تعالى : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [المك : ١٤] . وقال أبو العالية فى قوله : ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ : اللطيف لاستخراجها، الخبير بمكانها . والله أعلم . وهذا كما قال تعالى إخباراً عن لقمان فيما وعظ به ابنه : ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّا إِنَّا تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان : ١٦] .

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِيُنَبِّتُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

البصائر : هى البينات والحجج التى اشتمل عليها القرآن ، وما جاء به الرسول ﷺ ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾ مثل قوله : ﴿مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الاسراء : ١٥] ؛ ولهذا قال : ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ ، لما ذكر البصائر قال : ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ أى : إنما يعود وبإل ذلك عليه ، كقوله : ﴿فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج : ٤٦] . ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ﴾ أى : بحافظ ولا رقيب، بل أنا مبلغ والله يهذى من يشاء ويضل من يشاء . وقوله : ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ أى : وكما فصلنا الآيات فى هذه السورة، من بيان التوحيد وأنه لا إله إلا هو، هكذا نوضح الآيات ونفسرها ونبينها فى كل موطن لجهالة الجاهلين، وليقول المشركون والكافرون المكذبون : دَارَسْتَ يَا مُحَمَّدٌ مِنْ قَبْلِكَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَقَارَأْتَهُمْ وَتَعَلَّمْتَ مِنْهُمْ (١) . هكذا قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر، وغيرهم . وروى الطبرانى عن ابن عباس قال : ﴿دَارَسْتَ﴾ : تلوت، خاصمت، جادلت (٢) .

وهذا كما قال تعالى إخباراً عن كذبهم وعنادهم : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ . وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿[الفرقان : ٤ ، ٥] ، وقال تعالى إخباراً عن زعيمهم وكاذبهم : ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر : ١٨-٢٥] .

(١) فسرها المؤلف رحمه الله على قراءة « دارست » بإثبات الألف بين الدال والراء . وهى قراءة ابن عباس ، كما روى ذلك عنه الطبرى (١٣٧١٧) . وهى أيضا قراءة ابن كثير القارئ وأبى عمرو . وكتبت فى الآية فى المخطوطتين بإثبات الألف ، على هذه القراءة . وقراءة حفص التى فى مصاحفنا : « درست » بدون ألف . والقراءتان صحيحتان .

(٢) إسناده جيد . وكذلك رواه الطبرى عن ابن عباس (١٣٧١٩ ، ١٣٧٢٠) .

وقوله: ﴿وَلَيَبَيِّنَنَّ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أى: ولنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه، والباطل فيجتنبونه. فله تعالى الحكمة البالغة فى إضلال أولئك، وبيان الحق لهؤلاء. كما قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦] ، وقال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فَتَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [وإن الظالمين لفي شقاق بعيد . وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ] (١) ﴿[الحج: ٥٣ ، ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفِيقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شَفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [نصحت: ٤٤] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى أنزل القرآن هدى للمؤمنين، وأنه يضل به من يشاء ويهدي من يشاء: ولهذا قال ههنا: ﴿وَكَذَلِكَ نَصْرِفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَارَسْتَ وَلَيَبَيِّنَنَّ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. وقرأ بعضهم: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾. قال التميمي، عن ابن عباس: «درست» أى: قرأت وتعلمت. وكذا قال مجاهد، والسدى والضحاك، وغير واحد. وقال الحسن: «وليقولوا دَرَسْتَ»، يقول: تقادمت وانمحت. وروى عبد الرزاق عن ابن الزبير: إن صبيانا يقرؤون ههنا: «دَارَسْتَ»، وإنا همي: «دَرَسْتَ». وقال شعبة: حدثنا أبو إسحاق الهمداني ، قال : هى فى قراءة ابن مسعود: «دَرَسْتَ» يعنى بغير ألف، بنصب السين ووقف على التاء . قال ابن جرير: ومعناه : انمحت وتقادمت، أى: أن هذا الذى تلتوه علينا قد مر بنا قديماً، وتناولت مدته. وقال سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة أنه قرأها: «دَرَسْتَ» أى: قرأت وتعلّمت . وروى ابن مردويه عن أبى بن كعب قال: أقرأني رسول الله ﷺ: «وليقولوا دَرَسْتَ». ورواه الحاكم وقال: يعنى بجزم السين، ونصب التاء، ثم قال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٢).

﴿اتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٦)
﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ (١٠٧)

يقول تعالى أمراً لرسوله ﷺ ولمن اتبع طريقته: «اتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ» أى: اقتد به، واقف أثره، واعمل به؛ فإن ما أوحى إليك من ربك هو الحق الذى لا مِرية فيه؛ لأنه لا إله إلا هو «وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ» أى: اعف عنهم واصفح، واحتمل أذاهم، حتى يفتح الله لك وينصرك ويظفرك عليهم . واعلم أن الله حكمة فى إضلالهم، فإنه لو شاء لهدى الناس كلهم

(١) ما بين المعقوفين سقط من المطبوعة والمطبوع من عمدة التفسير ، وكذا المخطوطة الأزهرية . ولا يتم الاستشهاد إلا به . (البار) .

(٢) المستدرک (٢ / ٢٣٨ ، ٢٣٩) ووافقه الذهبي على تصحيحه .

جميعاً ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام : ٣٥] . ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ أى : بل له المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . وقوله : ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أى : حافظاً تحفظ أعمالهم وأقوالهم ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أى : موكل على أرزاقهم وأمورهم إن عليك إلا البلاغ ، كما قال تعالى : ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية : ٢١ ، ٢٢] ، وقال ﴿إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد : ٤٠] .

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٠٨﴾

يقول تعالى ناهياً لرسوله ﷺ والمؤمنين عن سب آلهة المشركين ، وإن كان فيه مصلحة ، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها ، وهى مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين ، وهو الله لا إله إلا هو . كما قال ابن عباس فى هذه الآية : قالوا : يا محمد ، لتنتهين عن سب آلهتنا ، أو لنهجون ربك ، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ .

ومن هذا القبيل - وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها - ما جاء فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «ملعون من سب والديه» . قالوا : يا رسول الله ، وكيف يسب الرجل والديه؟ قال : «يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه» . أو كما قال ﷺ (١) .

وقوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ﴾ أى : وكما زيننا لهؤلاء القوم حب أصنامهم والمحاماة لها والانتصار ، كذلك زيننا لكل أمة ، أى : من الأمم الخالية على الضلال - عملهم الذى كانوا فيه ، والله الحجة البالغة ، والحكمة التامة فيما يشاؤه ويختاره ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ﴾ أى : معادهم ومصيرهم ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى : يجازيهم بأعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٠٩﴾ وَنَقَلِبْ أَفْسَدْتُمْ وَأَبْصَرْتُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرْتُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿١١٠﴾

يقول تعالى إخباراً عن المشركين : إنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم ، أى : حلفوا أيماناً مؤكدة

(١) مضى عند تفسير الآيات : (٢٩ - ٣١) من سورة النساء . من رواية البخارى عن عبد الله بن عمرو ، بلفظ : « من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه ، قالوا : وكيف يلعن الرجل والديه ؟ ... » . وهو أيضاً فى المسند (٦٥٢٩ ، ٦٨٤٠ ، ٧٠٢٩) وصحيح مسلم (١ / ٣٧ بولاق) بنحوه ، والمؤلف الحافظ ذكره هنا بالمعنى لا باللفظ .

﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ أى: معجزة وخارق، ﴿لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ أى: ليصدقنها ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أى: قل يا محمد لهؤلاء الذين يسألونك الآيات تعتنا وكفراً وعناداً، لا على سبيل الهدى والاسترشاد: إنما مرجع هذه الآيات إلى الله، إن شاء جاءكم بها، وإن شاء ترككم. روى ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: كلم رسول الله ﷺ قريشاً، فقالوا: يا محمد، تخبرنا أن موسى كان معه عصاً يضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، وتخبرنا أن عيسى كان يحيى الموتى، وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقة، فأتنا من الآيات حتى نصدقك! فقال رسول الله ﷺ: «أى شيء تحبون أن أتاكم به؟». قالوا: تجعل لنا الصفا ذهباً. فقال لهم: «فإن فعلتُ تصدقوني؟». قالوا: نعم، والله لئن فعلت لتتبعنك أجمعين. فقام رسول الله ﷺ يدعو، فجاءه جبريل، عليه السلام، فقال له: ما شئت، إن شئت أصبح ذهباً، ولئن أرسل آية فلم يصدقوا عند ذلك ليعذبنهم، وإن شئت فأنزركم حتى يتوب تائبهم. فقال رسول الله ﷺ: «بل يتوب تائبهم». فأنزل الله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَجْهَلُونَ﴾. وهذا مرسل، وله شواهد من وجوه آخر (١). وقال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قيل: المخاطب بـ ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾: المشركون، وإليه ذهب مجاهد، كأنه يقول لهم: وما يدريك بصدقكم في هذه الأيمان التي تقسمون بها. وعلى هذا فالقراءة: «إنها إذا جاءت لا يؤمنون» بكسر «إنها» على استئناف الخبر عنهم بنفى الإيمان عند مجيء الآيات التي طلبوها. وقرأ بعضهم: «أنها إذا جاءت لا تؤمنون» بالياء المثناة من فوق. وقيل: المخاطب بقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ المؤمنون، أى: وما يدريك أيها المؤمنون، وعلى هذا فيجوز في قوله: ﴿إِنَّهَا﴾ الكسر كالأول والفتح على أنه معمول ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾ (٢). وعلى هذا فتكون «لا» في قوله: ﴿إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ صلة كما في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] وقوله: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥]. أى: ما منعك أن تسجد إذ أمرتك، وحرام أنهم يرجعون. وتقديره في هذه الآية: وما يدريك - أيها المؤمنون الذين تودون لهم ذلك حرصاً على إيمانهم - أنها إذا جاءتهم الآيات يؤمنون. وقال بعضهم: «أنها» بمعنى لعلها. قال ابن جرير: وذكرنا أن ذلك كذلك في قراءة أبي بن كعب. قال: وقد ذكر عن العرب سماعاً: «أذهب إلى السوق أنك تشتري لنا شيئاً» بمعنى: لعلك تشتري. وقد اختار هذا القول ابن جرير وذكر عليه شواهد من أشعار العرب والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. قال ابن عباس في هذه الآية: لما جحد المشركون ما أنزل الله لم تثبت قلوبهم على شيء وردت عن كل أمر. وقال مجاهد: ونحول بينهم وبين الإيمان ولو جاءتهم كل آية، فلا يؤمنوا، كما حلنا بينهم وبين

(١) الطبرى (١٣٧٤٦) .

(٢) قراءة «إنها» بكسر الهمزة - هي قراءة القارئ ابن كثير وأبى عمرو، وقرأ باقى السبعة بفتحها . وقراءة «تؤمنون» بتاء الخطاب قراءة ابن عامر وحزمة ، وبياء الغائب باقى السبعة .

الإيمان أول مرة. وكذا قال عكرمة. وعن ابن عباس أنه قال: أخبر الله ما العبادُ قائلون قبل أن يقولوه وعملهم قبل أن يعملوه. قال: ﴿وَلَا يَنْبُتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤] ، ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٦ - ٥٨] ، فأخبر سبحانه أنهم لو ردوا لم يُقدروا على الهدى، وقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] ، وقال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَ مرة﴾ قال: لو رُدُّوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى، كما حللنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا^(١). وقوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ أى: نتركهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ قال ابن عباس والسدى: فى كفرهم. وقال أبو العالية وقتادة: فى ضلالهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ قال الأعمش: يلعبون. وقال ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: فى كفرهم يترددون.

﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ التَّوْقَ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾

الجزء
٨

يقول تعالى: ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم ﴿لَنْ يَجَاءَهُمْ آيَةٌ لِّیُؤْمِنُوا بِهَا﴾ فنزلنا عليهم الملائكة، أى: تخبرهم بالرسالة من الله بتصديق الرسل، كما سألوا فقالوا: ﴿أَوْ تَأْتِي بَالَهُ الْمَلَائِكَةُ قُبُلًا﴾ [الإسراء: ٩٢] و﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تُنْزِلَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُلُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤] ، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١] . ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى﴾ أى: فأخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرسل ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ - قرأ بعضهم: ﴿قُبُلًا﴾ بكسر القاف وفتح الباء، من المقابلة، والمعاينة. وقرأ آخرون ﴿قُبُلًا﴾ بضمهما^(٢) ، قيل: معناه من المقابلة والمعاينة أيضا، قال ابن عباس. وبه قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال مجاهد: ﴿قُبُلًا﴾: أفواجا، قبيلًا قبيلًا، أى: تعرض عليهم كل أمة من الأمم فتخبرهم بصدق الرسل فيما جاؤوهم به ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أى: إن الهداية إليه، لا إليهم. بل يهدى من يشاء ويضل من يشاء، وهو الفعال لما يريد، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، لعلهم وحكمته، وسلطانه وقهره وغلبته. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ ، ٩٧].

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾
﴿أَعِدَّةٌ لِّالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلَيَرَّضَنَّهُمْ وَلَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾

(١) رواه الطبرى عن ابن عباس (١٣٧٥٤) .

(٢) « قُبُلًا » - بكسر القاف وفتح الباء : قراءة نافع وابن عامر . وقراءة ضمه لباقي السبعة .

يقول تعالى : كما جعلنا لك - يا محمد - أعداء يخالفونك ، ويعادونك ويعاندونك - جعلنا لكل نبي من قبلك أيضا أعداء فلا يهديئك ذلك (١) ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [فاطر : ٤] وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنَا هُمْ نَصَرْنَا﴾ [الأنعام : ٣٤] ، وقال تعالى : ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت : ٤٣] ، وقال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان : ٤٣] . وقال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ : إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي .

وقوله : ﴿شَیَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ يدل من ﴿عَدُوًّا﴾ أى : لهم أعداء من شياطين الإنس والجن ، والشياطين كل من خرج عن نظيره البشر ، ولا يعادى الرسل إلا الشياطين من هؤلاء ، قبحهم الله ولعنهم . قال قتادة فى قوله : ﴿شَیَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ : من الجن شياطين ، ومن الإنس شياطين ، يوحى بعضهم إلى بعض ، قال قتادة : وبلغنى : أن أبا ذر كان يوما يصلى ، فقال النبى ﷺ : «تعوذت يا أبا ذر من شياطين الإنس والجن ؟» . فقال : أو إن من الإنس لشياطين ؟ فقال رسول الله ﷺ : «نعم» . وهذا منقطع بين قتادة وأبى ذر . وروى متصلا ، فرواه الإمام أحمد عن أبى ذر قال : أتيت النبى ﷺ وهو فى المسجد ، فجلست فقال : «يا أبا ذر ، هل صليت ؟» . قلت : لا . قال : «قم فصل» . قال : فقممت فصليت ، ثم جلست ، فقال : «يا أبا ذر ، تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن» . قال : قلت : يا رسول الله ، وللإنس شياطين ؟ قال : «نعم» . وذكر تمام الحديث بطوله . وكذا رواه الحافظ ابن مردويه (٢) . وروى ابن أبى حاتم عن أبى أمامة ، قال : قال رسول الله ﷺ : «يا أبا ذر ، تعوذت من شياطين الجن والإنس ؟» . قال : يا رسول الله ، وهل للإنس شياطين ؟ قال : «نعم» ، شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعضهم زخرف القول غرورا (٣) . فهذه طرق لهذا الحديث ، ومجموعها يفيد قوته وصحته ، والله أعلم . وعلى كل حال فالصحيح ما تقدم من حديث أبى ذر : إن للإنس شياطين منهم ، وشيطان كل شئ ماردّه ، ولهذا جاء فى صحيح مسلم ، عن أبى ذر ، أن رسول الله ﷺ قال : «الكلب الأسود شيطان» (٤) . ومعناه - والله أعلم - : شيطان فى الكلاب .

وقال مجاهد فى تفسير هذه الآية : كفار الجن شياطين ، يوحون إلى شياطين الإنس ، كفار

(١) أى : لا يزعجك ذلك . يقال : «هاده الشئ يهيده هيدا وهادا» : إذا أفرعه وكربه وتقول : «ما يهدينى ذلك» أى : ما يزعجنى ولا أكثر له ولا أباليه . وغير الطابعون هذا الحرف ، فكتبوه : «فلا يحزنك ذلك» ! وهو تصرف غير جيد .

(٢) مضى بطوله عند تفسير الآية : (٢٥٥) من سورة البقرة ، وبيننا صحته وتخريجه هناك . ومضى بعضه أيضا عند الاستعاذة والآية : (١٤) ، والآيتين : (٣٥ ، ٣٦) من سورة البقرة .

(٣) هو جزء من حديث مطول ، رواه أحمد فى المسند (٥ / ٢٦٥ ، ٢٦٦ حلى) . وذكره الهيثمى بطوله فى مجمع الزوائد (١٥٩ / ١) ونسبه لأحمد والطبرانى فى الكبير ، وقال : «ومداه على على بن يزيد ، وهو ضعيف» .

(٤) من حديث مضى فى آخر الكلام فى الاستعاذة والآية : (٤) من سورة المائدة .

الإنس ، زخرف القول غرورا .

وروى ابن أبى حاتم ، عن عكرمة قال : قدمت على المختار فأكرمنى وأنزلنى حتى كان يتعاهد مبيتى بالليل ، قال : فقال لى : اخرج فَحَدَّثَ الناس . قال : فخرجت ، فجاء رجل فقال : ما تقول فى الوحى ؟ فقلت : الوحى وحيان ، قال الله تعالى : ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ [يوسف : ٣] ، وقال تعالى : ﴿شَاطِئِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ قال : فهموا بى أن يأخذونى ، فقلت : ما لكم ذاك ، إنى مفتيكم وضيغكم . فتركونى . وإنما عَرَضَ عكرمة بالمختار - وهو ابن أبى عبید - قبحه الله ، وكان يزعم أنه يأتيه الوحى ، وقد كانت أخته صفية تحت عبد الله بن عمر ، وكانت من الصالحات ، ولما أخبر عبد الله بن عمر أن المختار يزعم أنه يوحى إليه قال : صدق ! قال الله تعالى : ﴿وَأَنَّ الشَّاطِئِينَ لَا يُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ (١) [الأنعام : ١٢١] .

وقوله تعالى : ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ أى : يلقي بعضهم إلى بعض القول المزين المزخرف ، وهو المزوق الذى يغتر سامعه من الجهلة بأمره ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أى : وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيته أن يكون لكل نبيّ عدو من هؤلاء ﴿فَذَرَهُمْ﴾ أى : فدعهم ﴿وَمَا يَقْتَرُونَ﴾ أى : يكذبون ، أى : دع أذاهم وتوكل على الله فى عداوتهم ، فإن الله كافيك وناصرك عليهم .

وقوله تعالى : ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ﴾ أى : ولتميل إليه ، قاله ابن عباس ﴿أَفِدَّةَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أى : قلوبهم وعقولهم وأسماعهم . وقال السدى : قلوب الكافرين ﴿وَلِتَرْضَوْهُ﴾ أى : يحبوه ويريدوه . وإنما يستجيب لذلك من لا يؤمن بالآخرة ، كما قال تعالى : ﴿فَأَنكُمْ وَمَا تَعْدُونَ . مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِينَ . إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات : ١٦١-١٦٣] ، وقال تعالى : ﴿إِنكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ . يُفَكُّ عَنْهُ مَنَ أَفَكٍ﴾ [الذاريات : ٨ ، ٩] . وقوله : ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ﴾ قال ابن عباس : وليكتسبوا ما هم مكتسبون . وقال السدى ، وابن زيد : وليعملوا ما هم عاملون .

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾

يقول تعالى لنبى محمد ﷺ : قل لهؤلاء المشركين بالله غيره ، الذين يعبدون غيره : ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا﴾ أى : بينى وبينكم ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ أى : مبينا ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ أى : من اليهود والنصارى ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أى : بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ كقوله : ﴿فَإِن كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس : ٩٤] ،

(١) مضى هذا الخبر من رواية ابن أبى حاتم فى آخر الكلام فى الاستعاذة والآية : (٤) من سورة المائدة .

وهذا شرط، والشرط لا يقتضى وقوعه؛ ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أشك ولا أسأل» (١).

وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قال قتادة: صدقا فيما وقال، وعدلا فيما حكم. يقول: صدقا فى الإخبار وعدلا فى الطلب، فكل ما أخبر به فحق لا مرية فيه ولا شك، وكل ما أمر به فهو العدل الذى لا عدل سواه، وكل ما نهى عنه فباطل، فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة، كما قال: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. «لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ» أى: ليس أحد يعقب حكمه تعالى لا فى الدنيا ولا فى الآخرة «وَهُوَ السَّمِيعُ» لاقوال عباده «الْعَلِيمُ» بحركاتهم وسكناتهم، الذى يجازى كل عامل بعمله.

﴿وَلَنْ تُلَاقِيَهُ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾

يخبر تعالى عن حال أكثر أهل الأرض من بنى آدم: أنه الضلال، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصفات: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] (٢)، وهم فى ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم فى ظنون كاذبة وحسبان باطل، ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، فإن الخرص هو الحزر، ومنه خرص النخل، وهو حزر ما عليها من التمر وكذلك كله عن قدر الله ومشيبته ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فيسره لذلك ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ فيسره لذلك، وكل ميسر لما خلق له.

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِرَبَائِكُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطَرَرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾

هذا إباحة من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح ما ذكر عليه اسمه، ومفهومه: أنه لا يباح مالم يذكر اسم الله عليه، كما كان يستبيحه كفار المشركين من أكل الميتات، وأكل ما ذبح على النصب وغيرها. ثم ندب إلى الأكل مما ذكر اسم الله عليه، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا

(١) سيذكره المؤلف الحافظ عند تفسير الآية (٩٤) من سورة يونس: «قال قتادة بن دعامة: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: لا أشك ولا أسأل». وكذلك ذكره السيوط (٣ / ٣١٧) عن قتادة، ونسبه لعبد الرزاق وابن جرير. وأقوى منه وأثبت ما ذكره السيوطى عن ابن عباس، قال: «لم يشك رسول الله ﷺ ولم يسأل». ونسبه لابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والضياء فى المختارة.

(٢) هذه الآيات وما فى معناها تدفع بالبطلان نوع الحكم الذى يخدعون به الناس ويسمون «الديمقراطية»، إذ هى حكم الاكثرية الموسومة بالضلال، هى حكم الدهماء والغوغاء.

مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴿١﴾ أَى : قد بين لكم ما حرم عليكم ووضحه . وقرأ بعضهم : ﴿فَصَّلَ﴾ بالتشديد ، وقرأ آخرون بالتخفيف (١) ، والكل بمعنى البيان والوضوح . ﴿إِلَّا مَا اضْطُرُّرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أَى : إلا فى حالة الاضطرار ، فإنه يباح لكم ما وجدتم . ثم بين جهالة المشركين فى آرائهم الفاسدة من استحلالهم الميتات ، وما ذكر عليه غير اسم الله تعالى : فقال ﴿وَأَنْ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ أَى : هو أعلم باعتدائهم وكذبهم وافتراءهم .

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾

قال مجاهد : ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ : معصيته فى السر والعلانية ، وفى رواية عنه : هو ما ينوى مما هو عامل . وقال قتادة : قليله وكثيره ، سره وعلانيته . وقال السدى : ظاهره : الزنا مع البغايا ذوات الرايات ، وباطنه : الزنا مع الخليفة والصدايق والأخذان . وقال عكرمة : ظاهره : نكاح ذوات المحارم . والصحيح أن الآية عامة فى ذلك كله ، وهى كقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ الآية [الأعراف : ٣٣] ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ أَى : سواء كان ظاهراً أو خفياً ، فإن الله سيجزيهم عليه .

روى ابن أبى حاتم عن النواس بن سمعان قال : سألت رسول الله ﷺ عن الإثم فقال : «الإثم ما حاك فى صدرك ، وكرهت أن يطلع الناس عليه » (٢) .

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجِدُوا لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾

استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها ، ولو كان الذابح مسلماً ، وقد اختلف الأئمة ، رحمهم الله ، فى هذه المسألة على ثلاثة أقوال :

فمنهم من قال : لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة ، وسواء متروك التسمية عمداً وسهواً . وهو مروى عن ابن عمر ، ونافع مولاة ، والشعبى ، وابن سيرين . وهو رواية عن مالك ، ورواية عن أحمد بن حنبل نصرها طائفة من أصحابه المتقدمين والمتأخرين ، وهو اختيار أبى ثور ، وداود الظاهرى ، واحتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية ، ويقولون فى آية الصيد : ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ

(١) لعل الحافظ ابن كثير وهم وانتقل نظره فى حكاية القراءتين فى قوله « فصل » . فإن قراءة « فصل » بفتح الفاء والصاد مخففة - قراءة شاذة ، لم تحك إلا عن عطية العوفى - وهو ضعيف - حكاها عنه الطبرى (١٢ / ٧٠) ، وردها ، وكذلك حكاها عنه أبو حيان فى البحر (٤ / ٢١١) ثم هى ليست بمعنى بين واضح . بل فسرها الطبرى « بمعنى وقد أتاكم حكم الله فيما حرم عليكم » . وأما القراءات المعروفة فى هذه الآية ، فهى ثلاث قراءات : فقرأ نافع وحفص وأبو جعفر ويعقوب : « فصل » و « حرم » بفتح أولهما بالبناء للفاعل . وقرأهما ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بضم أولهما بالبناء للمفعول . وقرأهما أبو بكر وحزمة والكسائى وخلف ببناء « فصل » للفاعل و « حرم » للمفعول - كل ذلك مع تشديد الصاد من « فصل » .

(٢) هو جزء من حديث رواه مسلم (٢ / ٢٧٧) . وكذلك رواه أحمد فى المسند (١٧٧٠٨ ، ١٧٧٠٩) .

وَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴿[المائدة: ٤]﴾. ثم قد أكد في هذه الآية بقوله: ﴿وَأِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾. والضمير قيل: عائد على الأكل، وقيل: عائد على الذبح لغير الله، وبالأحاديث الواردة في الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد، كحديثى عدى بن حاتم وأبى ثعلبة: «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك». وهما فى الصحيحين (١)، وحديث رافع بن خديج: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه». وهو فى الصحيحين أيضاً (٢)، وحديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال للجن: «لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه». رواه مسلم. وحديث جندب بن سفيان البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: «من ذبح قبل أن يصلى فليذبح مكانها أخرى، ومن لم يكن ذبح حتى صلينا فليذبح باسم الله». وعن عائشة: أن ناسا قالوا: يا رسول الله، إن قوما يأتوننا باللحم لا ندرى: أذكر اسم الله عليه أم لا؟ قال: «سموا عليه أنتم وكلوا». قالت: وكانوا حديثى عهد بالكفر. رواه البخارى (٣). ووجه الدلالة: أنهم فهموا أن التسمية لا بد منها، وخشوا ألا تكون وجدت من أولئك، لحداثة إسلامهم، فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الأكل، لتكون كالمعوض عن المتروكة عند الذبح إن لم تكن وجدت، وأمرهم بإجراء أحكام المسلمين على السداد، والله أعلم.

والمذهب الثانى فى المسألة: أنه لا يشترط التسمية، بل هى مستحبة، فإن تركت عمداً أو نسياناً لم تضر. وهذا مذهب الإمام الشافعى وجميع أصحابه، ورواية عن الإمام أحمد. نقلها عنه حنبل. وهو رواية عن الإمام مالك، ونص على ذلك أشهب بن عبد العزيز من أصحابه، وحكى عن ابن عباس، وأبى هريرة، وعطاء بن أبى رباح، والله أعلم. وحمل الشافعى الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ على ما ذبح لغير الله، كقوله تعالى: ﴿أَوْ فَسَقًا أَهْلَ لَيْعٍ لِّلَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥]. وقال عطاء: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ قال: ينهى عن ذبائح كانت تذبحها قريش عن الأوثان، وينهى عن ذبائح المجوس، وهذا المسلك الذى طرقه الإمام الشافعى قوى، وقد حاول بعض المتأخرين أن يقويه بأن جعل «الواو» فى قوله: ﴿وَأِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ حالية، أى: لا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه فى حال كونه فسقا، ولا يكون فسقا حتى يكون قد أكل به لغير الله! ثم ادعى أن هذا متعين، ولا يجوز أن تكون «الواو» عاطفة. لأنه يلزم منه عطف جملة إسمية خبرية على جملة فعلية طلبية! وهذا يتقضى عليه بقوله: ﴿وَأَنَّ الشَّيَاطِينَ يُؤْخَذُونَ إِلَىٰ أُولَٰئِهِمْ﴾. فإنها عاطفة لا محالة، فإن كانت «الواو» التى ادعى أنها حالية صحيحة على ما قال؛ امتنع عطف هذه عليها، فإن عطف على الطلبية ورد عليه ما أورد على غيره، وإن لم تكن «الواو» حالية، بطل ما قال من أصله، والله أعلم.

(٢) أما حديث عدى بن حاتم فهو فى الصحيحين. وقد مضى مطولا عند تفسير الآية: (٤) من سورة البقرة. وأما حديث أبى ثعلبة فليس بهذا اللفظ، وليس فى الصحيحين، بل رواه أبو داود (٢٨٥٢). وقد مضى عند تفسير الآية: (٤) من سورة البقرة.

(٣) من حديث مضى عند تفسير الآية: (٣) من سورة المائدة.

(٤) مضى عند تفسير الآية: (٤) من سورة المائدة. وهو فى البخارى بنحوه (٢٥٢/٤، و٥٤٦/٩، ٥٤٧ فتح).

المذهب الثالث فى المسألة: أنه إن ترك البسملة على الذبيحة نسياناً لم يضر، وإن تركها عمداً لم تحل . هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك، والإمام أحمد بن حنبل، وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه، وإسحاق بن راهويه . وهو محكى عن على، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وعطاء، وطاوس، والحسن البصرى ، وغيرهم . ونقل الإمام أبو الحسن المرغينانى فى كتابه «الهداية» الإجماع قبل الشافعى على تحريم متروك التسمية عمداً، فلهذا قال أبو يوسف والمشايع: لو حكم حاكم بجواز بيعه لم ينفذ لمخالفة الإجماع ! وهذا الذى قاله غريب جداً !! وقد تقدم نقل الخلاف عن قبل الشافعى، والله أعلم. قال ابن جرير: وقد اختلف أهل العلم فى هذه الآية: هل نسخ من حكمها شيء أم لا؟ فقال بعضهم: لم ينسخ منها شيء وهى محكمة فيما عُنيت به . وعلى هذا قول عامة أهل العلم. وروى عن الحسن البصرى وعكرمة. ما حدثنا به ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، عن الحسين ابن واقد، عن الحسن البصرى وعكرمة أنهما قالا: قال الله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾، وقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ فنسخ واستثنى من ذلك فقال: ﴿وَوَطْءُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعْمُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ [المائدة: ٥]. ثم قال ابن جرير: والصواب أنه لا تعارض بين حل طعام أهل الكتاب، وبين تحريم مالم يذكر اسم الله عليه. وهذا الذى قاله صحيح، من أطلق من السلف النسخ ههنا فإنما أراد التخصيص، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ روى ابن أبى حاتم عن أبى إسحاق قال: قال رجل لابن عمر: إن المختار يزعم أنه يوحى إليه؟ قال: صدق، وتلا هذه الآية: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾. وروى عن أبى زميل قال: كنت قاعداً عند ابن عباس، وحج المختار بن أبى عبيد، فجاءه رجل فقال: يا ابن عباس، زعم أبو إسحاق أنه أوحى إليه الليلة؟ فقال ابن عباس: صدق !! ففرز وقلت: يقول ابن عباس: صدق !! فقال ابن عباس: هما وحيان، ووحى الله، ووحى الشيطان، فوحى الله إلى محمد ﷺ، ووحى الشيطان إلى أوليائه، ثم قرأ: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ (١). وقد تقدم عن عكرمة نحو هذا (٢). وقوله: ﴿لِيَجَادِلُوكُمْ﴾ روى أبو داود عن ابن عباس قال: جاءت اليهود إلى النبى ﷺ فقالوا: نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله؟ فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾. وكذا رواه ابن جرير، والبخاري (٣). وهذا فيه نظر من وجوه ثلاثة:

أحدها: أن اليهود لا يرون إباحة الميتة حتى يجادلوا.

الثانى: أن الآية من الأنعام، وهى مكية.

(١) خبر أبى زميل عن ابن عباس، رواه الطبرانى أيضاً (١٣٨٣٢). و «المختار بن أبى عبيد»: متنبئ كذاب وقح. قتله مصعب بن الزبير سنة ٦٧ من الهجرة.

(٢) مضى عند تفسير الآيتين: (١١٣، ١١٤) من سورة الأنعام.

(٣) الطبرى (١٣٨٢٥). وتمة التخرىج فيه (١٢ / ٥٨٥، ٥٨٦).

الثالث: أن هذا الحديث رواه الترمذى بلفظ: أتى ناسُ النبي ﷺ فذكره وقال: حسن غريب، وروى عن سعيد بن جبير مرسلًا .

وروى الطبراني عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أرسلت فارس إلى قريش: أن خاصموا محمداً وقولوا له: فَمَا تَذْبَح أنت بيدك بسكين فهو حلال، وما ذبح الله، عز وجل، بشمشير من ذهب - يعنى الميتة - فهو حرام ؟ فنزلت هذه الآية: ﴿وَأَنَّ الشَّيَاطِينَ يُؤْخَوْنَ إِلَى أُولِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوهُمْ﴾ قال: وإن الشياطين من فارس، وأولياؤهم قريش (٣) . وقال أبو داود: حدثنا محمد ابن كثير، أخبرنا إسرائيل، حدثنا سمك، عن عكرمة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَأَنَّ الشَّيَاطِينَ يُؤْخَوْنَ إِلَى أُولِيَائِهِمْ﴾ يقولون: ما ذبح الله فلا تأكلوه . وما ذبحتم أنتم فكلوه ! فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ . ورواه ابن ماجه وابن أبى حاتم وإسناده صحيح . ورواه ابن جرير من طرق متعددة، عن ابن عباس، وليس فيه ذكر اليهود، فهذا هو المحفوظ ، والله أعلم .

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ أَطْعَمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ أى: حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره، فقدّمتم عليه غيره ، فهذا هو الشرك، كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ٣١] . وقد روى الترمذى فى تفسيرها، عن عدى بن حاتم أنه قال: يا رسول الله، ما عبدوهم، فقال: «بل إنهم أحلوا لهم الحرام وحرّموا عليهم الحلال، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم » .

﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذى كان ميتا، أى: فى الضلالة، هالكا حائرا، فأحياه الله، أى: أحيا قلبه بالإيمان، وهده له ووفقه لاتباع زسله ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ أى: يهتدى كيف يسلك، وكيف يتصرف به . والنور هو: القرآن، كما قال ابن عباس . وقال السدى: الإسلام . والكل صحيح . ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أى: الجهالات والأهواء والضلالات المنفرقة ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ أى: لا يهتدى إلى منفذ ، ولا مخلص مما هو فيه، وفى مسند الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله خلق خلقه فى ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل» (٢) . كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى

(١) إسناده عند الطبراني إسناده صحيح . وكذلك رواه الطبرى (١٣٨٠٥) من هذا الوجه ، وفيه : « بسمشار » . وكتب هنا بهامش المخطوطة العتيقة : « فى تفسير ابن جرير : بسمشار من ذهب » وتحته وعليها علامة أنها حاشية « والشمشير : السكين ، بالفارسية » .

(٢) هو جزء من حديث طويل ، فى المسند (٦٦٤٤) بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو . وفى لفظه : « ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ » . ورواه مرة أخرى من المراجع التى أشرنا إليها فى التخرىج فى الموضعين كلمة « رش » ! والظاهر أن الحافظ ابن كثير ذكره بالمعنى من حفظه .

إِلَى النَّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النَّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿البقرة: ٢٥٧﴾. قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ . وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النَّورُ . وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ . وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ . إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ١٩-٢٣]. والآيات في هذا كثيرة، ووجه المناسبة في ضرب المثلين ههنا بالنور والظلمات، لما تقدم في أول السورة: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]. وزعم بعضهم أن المراد بهذا المثل رجلاً معينان، والصحيح أن الآية عامة، يدخل فيها كل مؤمن وكافر.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيْنٌ لِّلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: حسن لهم ما كانوا فيه من الجهالة والضلالة، قدرا من الله وحكمة بالغة، لا إله إلا هو .

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَّا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ ﴿١٢٤﴾

يقول تعالى: وكما جعلنا في قريتك - يا محمد - أكبر من المجرمين، ورؤوساً ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله، وإلى مخالفتك وعداوتك، كذلك كانت الرسل من قبلك يبتلون بذلك، ثم تكون لهم العاقبة، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]، قيل: معناه: أمرناهم بالطاعات، فخالفوا، فدمرناهم. وقيل: أمرناهم أمراً قديراً، كما قال ههنا: ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾. قال ابن عباس: ﴿أَكْبَرُ مُجْرِمِيهَا﴾ قال: سلطنا شرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب. وقال مجاهد وقتادة: ﴿أَكْبَرُ مُجْرِمِيهَا﴾ قال: عظماءها. قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبا: ٣٤، ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] .

والمراد بالمكر ههنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال، كما قال تعالى إخباراً عن قوم نوح: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ [نوح: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُّجْرِمِينَ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرَأُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبا: ٣١ - ٣٣] .

وقوله: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أى: وما يعود وبال مكرهم ذلك وإضلالهم

من أضلوه إلا على أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿لَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] ، وقال: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ [النحل: ٢٥] .

وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ أى: إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة، قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ أى: حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة، كما تأتى إلى الرسل، كقوله، جل وعلا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَايِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١] .

وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ﴾ أى: هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ. أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ الآية [الزخرف: ٣١، ٣٢] يعنون: لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير مبعجل فى أعينهم ﴿مِنَ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أى: مكة والطائف. وذلك لأنهم - قبحهم الله - كانوا يزدرون بالرسول، صلوات الله وسلامه عليه، بغيا وحسداً، وعناداً واستكباراً، كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ لَإِنَّهُمْ لَأَبْغَى وَأَبْغَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَخَدُّونَكَ لِإِهْزَاؤٍ أَوْ لِبُذْخٍ الْهَيْكَلُ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦] ، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَخَدُّونَكَ لِإِهْزَاؤٍ أَوْ لِبُذْخٍ الْهَيْكَلُ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١] ، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠] . هذا ، وهم معترفون بفضله وشرفه ونسبه، وطهارة بيته ومرباه ومنشئه، حتى إنهم إنما كانوا يسمونه بينهم قبل أن يوحى إليه: «الأمين»، وقد اعترف بذلك رئيس الكفار «أبو سفيان» حين سأل «هرقل» ملك الروم: كيف نسبه فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب. قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، الحديث بطوله الذى استدل به ملك الروم بطهارة صفاته ، عليه السلام ، على صدقه ونبوته وصحة ما جاء به .

وروى الإمام أحمد عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بنى إسماعيل بنى كنانة، واصطفى من بنى كنانة قريشا، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم» . انفراد بإخراجه مسلم نحوه (١) . وفى صحيح البخارى، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنَى آدَمَ قَرْنًا فَقَرْنًا، حَتَّى بَعِثْتُ مِنَ الْقُرُونِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ» (٢) . وروى الإمام أحمد عن المطلب بن أبى وداعة قال: قال العباس: بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس، فصعد المنبر فقال: «من أنا؟» . قالوا: أنت رسول الله . فقال: «أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه، وجعلهم فريقين، فجعلنى فى خير فرقة، وخلق القبائل فجعلنى فى خير قبيلة. وجعلهم بيوتا فجعلنى فى خيرهم بيتاً، فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً» (٣) . صدق صلوات الله وسلامه عليه . وفى الحديث أيضا المروى عن عائشة، قالت: قال رسول الله

(١) المسند (١٧٠٥٤) ومسلم (٢ / ٢٠٣ بولاق) . (٢) البخارى (٦ / ٤١٨ فتح) .

(٣) المسند (١٧٨٨) . وإسناده صحيح . ورواه الترمذى (٤ / ٢٩٢ ، ٢٩٣) .

ﷺ: « قال لى جبريل: قلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد رجلاً أفضل من محمد، وقلبتُ الأرضُ مشارقها ومغاربها فلم أجد بنى أب أفضل من بنى هاشم ». رواه الحاكم والبيهقي (١).

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: إن الله نظر فى قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته. ثم نظر فى قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون سيئاً فهو عند الله سيئ (٢). وروى ابن أبى حاتم عن ابن أبى حسين قال: أبصر رجل ابن عباس وهو داخل من باب المسجد، فلما نظر إليه راعه، فقال: من هذا؟ قالوا: ابن عباس ابن عم رسول الله ﷺ. فقال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ هذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيد، لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاؤوا به، فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدي الله ﴿صَغَارٌ﴾ وهو الذلة الدائمة، كما أنهم استكبروا أعقبهم ذلك ذلاً كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. أى: صاغرين ذليلين حقيرين. وقوله: ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ لما كان المكر غالباً إنما يكون خفياً، وهو التلطف فى التحيل والخديعة، قوبلوا بالعذاب الشديد جزاء وفاقاً ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩] أى: تظهر المسترات والمكنونات والضمائر. وجاء فى الصحيحين، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يُنْصَبُ لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة، فيقال: هذه غَدْرَةُ فلان ابن فلان» (٣). والحكمة فى هذا: أنه لما كان الغدر خفياً لا يطلع عليه الناس، فيوم القيامة يصير علماً منشوراً على صاحبه بما فعل.

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرْمًا كَأَنَّمَا يُصِغْدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا

يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾

يقول تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ أى: ييسره له وينشطه ويسهله

(١) إطلاقه النسبة إلى الحاكم يوهم أنه فى المستدرک، ولم أجده فيه. ونسبه السيوطى فى الجامع الصغير للحاكم فى الكنى وابن عساكر. وليس بين يدي إسناده حتى أعرف درجته. وذكره الهيثمى فى الزوائد (٢١٧/٨) وقال: «رواه الطبرانى فى الأوسط، وفيه موسى بن عبيدة الزيدى، وهو ضعيف». ونقل المناوى فى شرح الجامع الصغير أنه رواه أحمد فى المتأنيب والطبرانى والبيهقى وغيرهم، وقال: «قال ابن حجر فى أماليه: لوائح الصحة ظاهرة على صفحات هذا المتن»! وما هذا بقول يقبل فى تصحيح حديث، وما هو من باب كلام أهل العلم بالحديث.

(٢) المسند (٣٦٠). وإسناده صحيح.

(٣) هو فى المسند (٤٦٤٨) بنحوه من حديث ابن عمر. وانظر البخارى (١٣ / ٦٠، ٦١ فتح) وصحيح مسلم (٤٧ / ٢).

لذلك ، فهذه علامات على الخير ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الزمر : ٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانُ وَزِينَةُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَاهَةُ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ [الحجرات : ٧] .
قال ابن عباس : ﴿ فَمَنْ يَرِدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ يقول : يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به ، وكذا قال غير واحد . وهو ظاهر .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يَضِلَّهُ يُجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ قرئ بفتح الضاد وتسكين الباء ، والأكثر : ﴿ ضَيِّقًا ﴾ بتشديد الباء وكسرها ، وهما لغتان : كَهَيْنَ وَهَيْنَ . وقرأ بعضهم : ﴿ حَرَجًا ﴾ بفتح الحاء وكسر الراء ، قيل : بمعنى آثم . قاله السدي . وقيل : بمعنى القراءة الأخرى ﴿ حَرَجًا ﴾ بفتح الحاء والراء ، وهو الذي لا يتسع لشيء من الهدى ، ولا يخلص إليه شيء ما ينفعه من الإيمان ولا ينفذ فيه . وقد سأل عمر بن الخطاب رجلا من الأعراب من أهل البادية من مدليج : ما الحرجة ؟ فقال : هي الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية ، ولا وحشية ، ولا شيء . فقال عمر : كذلك قلب المنافق ، لا يصل إليه شيء من الخير . وقال ابن جريج : ﴿ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ بلا إله إلا الله ، حتى لا يستطيع أن يدخله ، كأنما يصعد في السماء من شدة ذلك عليه . وقال عطاء الخراساني : ﴿ كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ ويقول : مثله كمثل الذي لا يستطيع أن يصعد إلى السماء . وقال ابن عباس : ﴿ كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ ويقول : فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء ، فكذلك لا يقدر أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه ، حتى يدخله الله قلبه .

وقال ابن جرير : وهذا مثل ضربه الله لقلب هذا الكافر في شدة تضيقه إياه عن دخول الإيمان إليه . يقول : فمثله في امتناعه من قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه ، مثل امتناعه من الصعود إلى السماء وعجزه عنه ؛ لأنه ليس في وسعه وطاقته . وقال في قوله : ﴿ كَذَلِكَ يُجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ يقول : كما يجعل الله صدر من أراد ضلاله ضيقا حرجا ، كذلك يسلب الله الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان بالله ورسوله ، فيغويه ويصده عن سبيل الله . وقال ابن عباس : الرجس : الشيطان . وقال مجاهد : الرجس : كل ما لا خير فيه . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الرجس : العذاب .

﴿ وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴾ ﴿ ١٢٦ ﴾ ﴿ لَمْ دَارُ رِيعِ ﴾
﴿ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ ١٢٧ ﴾

لما ذكر تعالى طريق الضالين عن سبيله ، الصادقين عنها - نبه على شرف ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق ، فقال : ﴿ وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ﴾ منصوب على الحال ، أى : هذا الدين الذى شرعناه لك يا محمد بما أوحينا إليك هذا القرآن هو صراط الله المستقيم ، كما تقدم فى حديث الحارث ، عن على فى نعت القرآن : « هو صراط الله المستقيم ، وحبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم » . رواه أحمد والترمذى بطوله . ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ ﴾ أى : وضحناها وبينناها وفسرناها

﴿لَقَوْمٌ يَذْكُرُونَ﴾ أى: لمن له فهم ووعى يعقل عن الله ورسوله. ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾ وهى: الجنة، ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أى: يوم القيامة. وإنما وصف الله الجنة ههنا بدار السلام ، لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم، المتقضى أثر الأنبياء وطرائقهم، فكما سلموا من آفات الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام. ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ أى: حافظهم وناصرهم ومؤيدهم ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: جزاء على أعمالهم الصالحة تولاهم وأثابهم الجنة، بمنته وكرمه.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجِنُّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَمَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

يقول تعالى: واذكر يا محمد فيما تقصه عليهم وتذكرهم به ﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يعنى: الجن وأولياءهم ، الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا، ويعوذون بهم ويطيعونهم، ويوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ أى: ثم يقول: يا معشر الجن. وسياق الكلام يدل على المحذوف.

ومعنى قوله: ﴿قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ أى: من إضلالهم وإغوائهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ. وَلَقَدْ أَضَلُّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا أَلَمُمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٦٠ - ٦٢]. وقال ابن عباس: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ يعنى: أضللتهم منهم كثيرا. وكذلك قال مجاهد، والحسن، وقتادة.

﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ يعنى: أن أولياء الجن من الإنس قالوا مجيبين لله تعالى عن ذلك بهذا. وقال ابن جرير: كان الرجل فى الجاهلية ينزل الأرض، فيقول: أعوذ بكبير هذا الوادى! فذلك استمتاعهم، فاعتذروا يوم القيامة. وأما استمتاع الجن بالإنس فإنه كان - فيما ذكر - ما ينال الجن من الإنس من تعظيمهم إياهم فى استعانتهم بهم، فيقولون: قد سدننا الإنس والجن. ﴿وَبَلَّغْنَا أَمَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا﴾ قال السدى، أى الموت ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ أى: ماواكم ومنزلكم أنتم وأولياؤكم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: ماكنين فيها مكثا مخلدا ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾. قال بعضهم: يرجع معنى هذا الاستثناء إلى البرزخ. وقال بعضهم: هذا رد إلى مدة الدنيا. وقيل غير ذلك من الأقوال التى سيأتى تقريرها عند قوله تعالى فى سورة هود: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [الآية: ١٠٧]. وقد روى ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ قال: إن هذه الآية آية لا ينبغى لأحد أن يحكم على الله فى خلقه، لا ينزلهم جنة ولا ناراً.

﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَصِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

قال سعيد، عن قتادة فى تفسيرها: إنما يولى الله بين الناس بأعمالهم، فال مؤمن ولى المؤمن

أين كان وحيث كان، والكافر ولى الكافر أينما كان وحيثما كان، ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى. واختار هذا القول ابن جرير. وقال قتادة فى تفسيرها: يولى الله بعض الظالمين بعضا فى النار، يتبع بعضهم بعضا. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿كَذَلِكَ نُؤْكَلُ بِعُضِّ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ قال: ظالمى الجن وظالمى الإنس، وقرأ: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] ، قال: ونسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس.

ومعنى الآية الكريمة: كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التى أغوتهم من الجن، كذلك نفعل بالظالمين، نسلط بعضهم على بعض، ونهلك بعضهم ببعض، وننتقم من بعضهم ببعض، جزاء على ظلمهم وبغيهم.

﴿يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُزِيدُونَكُمْ إِفَاءً يَوْمَكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاثِرُونَ كَافِرِينَ﴾

وهذا أيضا مما يُقرع الله - سبحانه وتعالى - به كافرى الجن والإنس يوم القيامة، حيث يسألهم - وهو أعلم : هل بلغتكم الرسل رسالاته؟ وهذا استفهامٌ تقريرى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ أى : من جملتكم. والرسل من الإنس فقط، وليس من الجن رسل، كما نص على ذلك مجاهد، وابن جرير، وغير واحد من الأئمة، من السلف والخلف. وقال ابن عباس: الرسل من بنى آدم، ومن الجن نذُر. وحكى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم: أنه زعم أن فى الجن رسلا، واحتج بهذه الآية الكريمة وفيه نظر؛ لأنها محتملة وليست بصريحة، وهى - والله أعلم - كقوله ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ أى : المالح والحلو ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ إلى أن قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْثُ وَالْعَرَبَانِ﴾ [الرحمن: ١٩- ٢٢]، ومعلوم أن اللؤلؤ والمرجان إنما يستخرجان من الملح لا من الحلو. وهذا واضح، والله الحمد. وقد نص على هذا الجواب بعينه ابن جرير .

والدليل على أن الرسل إنما هم من الإنس قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ إلى قوله: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٣ - ١٦٥] ، وقال تعالى عن إبراهيم: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، فحصر النبوة والكتاب بعد إبراهيم فى ذريته، ولم يقل أحد من الناس: إن النبوة كانت فى الجن قبل إبراهيم الخليل ، ثم انقطعت عنهم ببعثته. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩]، ومعلوم أن الجن تبع للإنس فى هذا الباب ؛ ولهذا قال تعالى إخباراً عنهم: ﴿وَإِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ. قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ. يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ. وَمَنْ لَا يَجِبِ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الاحقاف: ٢٩- ٣٢] . وقد جاء فى الحديث

- الذي رواه الترمذى وغيره - أن رسول الله ﷺ تلا عليهم سورة الرحمن، وفيها قوله تعالى : ﴿ سَفَرُكُمْ لَكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الآيات : ٣١ ، ٣٢] (١) .

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا أَى : أقرنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتنا ، وأنذرونا لقاءك ، وأن هذا اليوم كائن لا محالة . قال تعالى : ﴿ وَغَرَّتُهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أى : وقد فرطوا فى حياتهم الدنيا ، وهلكوا فيها بتكذيبهم الرسل ، ومخالفتهم المعجزات ، لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها ﴿ وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ أى : فى الدنيا ، بما جاءتهم به الرسل ، صلوات الله وسلامه عليهم .

﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿

يقول تعالى : ﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ أى : إنما أعذرنا إلى الثقيلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، لئلا يعاقب أحداً بظلمه ، وهو لم تبلغه دعوة ، ولكن أعذرنا إلى الأمم ، وما عذبنا أحداً إلا بعد إرسال الرسل إليهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : ٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] ، وقال تعالى : ﴿ كُلَّمَا أَلْقَيْنَا فِيهَا فَوجًا سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهُمْ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا ﴾ [الملك : ٨ ، ٩] والآيات فى هذا كثيرة . قال الإمام أبو جعفر بن جرير : ويحتمل قوله تعالى : ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ وجهين :

أحدهما : ذلك من أجل أن ربك لم يكن ليهلك القرى بظلم أهلها بالشرك ونحوه ، وهم غافلون ، يقول : لم يكن يعاجلهم بالعقوبة حتى يبعث إليهم رسولا ينههم على حجج الله عليهم ، وينذرهم عذاب الله يوم معادهم ، ولم يكن بالذى يؤاخذهم غفلة فيقولوا : ﴿ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾ [المائدة : ١٩] .

والوجه الثانى : ﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ ﴾ يقول : لم يكن ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسول والآيات والعبر ، فيظلمهم بذلك ، والله غير ظلام لعبيده . ثم شرع يرجع الوجه الأول ، ولا شك أنه أقوى ، والله أعلم .

وقال : وقوله : ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ أى : ولكل عامل من طاعة الله أو معصيته منازل

(١) الترمذى (٤ / ١٩١ ، ١٩٢) من حديث جابر ، قال : « خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها ، فسكتوا ، فقال : لقد قرأتها على الجن ليلة الجنب ، فكانوا أحسن مردودصا منكم ، كنت كلما أتيت على قوله ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ - قالوا : لا بشيء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد » . قال الترمذى : « هذا حديث غريب » . ورواه الحاكم (٤ / ٤٧٣) وقال : « صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه » . ووافقه الذهبى .

ومراتب من عمله يبلغه الله إياها، ويثيبه بها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. قلت: ويحتمل أن يعود قوله: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ أى: من كافرى الجن والإنس، أى: ولكل درجة فى النار بحسبه، كقوله: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾ [الاعراف: ٣٨]، وقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ قال ابن جرير: أى وكل ذلك من عملهم، يا محمد، بعلم من ربك، يحصيها ويثبتها لهم عنده، ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه ومعادهم إليه.

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوْعَدُونَ لَأَتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿الغني﴾ أى: عن جميع خلقه من جميع الوجوه، وهم الفقراء إليه فى جميع أحوالهم، ﴿ذو الرحمة﴾ أى: وهو مع ذلك رحيم بهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]. ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أى: إذا خالفتم أمره ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ أى: قوما آخرين، أى: يعملون بطاعته ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ أى: هو قادر على ذلك، سهل عليه، يسير لديه، كما أذهب القرون الأولى وأتى بالذى بعده، كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والإتيان بآخرين، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥-١٧]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]. وروى ابن إسحاق، عن أبان بن عثمان قال: الذرية: الأصل، والذرية: النسل. وقوله تعالى: ﴿إِنْ مَا تُوْعَدُونَ لَأَتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أى: أخبرهم يا محمد أن الذى توعدون به من أمر المعاد كائن لا محالة ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أى: لا تعجزون الله، بل هو قادر على إعادتكم، وإن صرتم تراباً ورفاتاً وعظاماً، هو قادر لا يعجزه شيء.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾ هذا تهديد، أى: استمروا على طريقتكم وناحيتكم إن كنتم تظنون أنكم على هدى، فانا مستمر على طريقتى ومنهجى، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ . وَانظُرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [هود: ١٢١]، ١٢٢. قال ابن عباس: ﴿عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أى: ناحيتكم. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أى: أنكون لى أو لكم. وقد أجز موعوده لرسوله، صلوات الله عليه، فإنه تعالى مكن له فى البلاد، وحكمه فى نواصى مخالفيه من العباد، وفتح له مكة، وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناواه، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب، وكذلك اليمن والبحرين، وكل ذلك فى حياته. ثم فتحت الأمصار والأقاليم والرساتيق بعد وفاته فى أيام خلفائه، رضى الله

عنهم ، كما قال تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ [المجادلة: ٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر: ٥١ ، ٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] ، وقال تعالى إخباراً عن رسوله : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَهَاكِنِ الظَّالِمِينَ . وَلَنَسْكُنَنَّكَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١٣ ، ١٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ الآية [النور: ٥٥] ، وقد فعل الله ذلك بهذه الأمة ، وله الحمد والمنة أولاً وآخراً ، باطنًا وظاهرًا .

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ ﴿١٣٦﴾

هذا ذم وتوبيخ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعًا وكفرًا وشركًا ، وجعلوا لله جزءًا من خلقه ، وهو خالق كل شيء سبحانه وتعالى عما يشركون ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ ﴾ أى : مما خلق وبرأ ﴿ مِنَ الْحَرْثِ ﴾ أى : من الزروع والثمار ﴿ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ﴾ أى : جزءًا وقسمًا ﴿ فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ﴾ .

وقوله : ﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ ﴾ قال ابن عباس فى تفسير هذه الآية : إن أعداء الله كانوا إذا احترثوا حرثًا ، أو كانت لهم ثمرة ، جعلوا لله منه جزءًا وللوثن جزءًا ، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه . وإن سقط منه شيء فيما سموه للصمد رده إلى ما جعلوه للوثن . وإن سبقهم الماء الذى جعلوه للوثن ، فسقى شيئًا جعلوه لله جعلوا ذلك للوثن . وإن سقط شيء من الحرث والثمرة التى جعلوها لله ، فاختلط بالذى جعلوه للوثن ، قالوا : هذا فقير ! ولم يردوه إلى ما جعلوا لله . وإن سبقهم الماء الذى جعلوا لله ، فسقى ما سُمى للوثن تركوه للوثن ، وكانوا يحرمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، فيجعلونه للأوثان ، ويزعمون أنهم يحرمونه لله ، فقال الله ، عز وجل : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ﴾ الآية . وهكذا قال مجاهد ، وقتادة ، والسدى ، وغير واحد . ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أى : ساء ما يقسمون ، فإنهم أخطؤوا أولاً فى القسمة ، لأن الله تعالى هو رب كل شيء ومليكه وخالقه ، وله الملك ، وكل شيء له وفى تصرفه وتحت قدرته ومشيتته ، لا إله غيره ، ولا رب سواه .

ثم لما قسموا فيما زعموا لم يحفظوا القسمة ، بل جاروا فيها ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل: ٥٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴾ [الزخرف: ١٥] ، وقال تعالى : ﴿ أَلَكُمُ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَى . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ [النجم: ٢١ ، ٢٢] .

﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَّاؤُهُمْ لِيُرْذَوْهُمْ وَلِيَقْتَرُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ ﴿١٣٧﴾

يقول تعالى: وكما زين الشياطين لهؤلاء أن يجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق، وواد البنات خشية العار. قال ابن عباس: زينوا قتل أولادهم. وقال مجاهد: ﴿شُرَكَّاؤُهُمْ﴾: شياطينهم، يأمرونهم أن يذبحوا أولادهم خشية العيلة. وقال السدي: أمرتهم الشياطين أن يقتلوا البنات. وأما ﴿لِيُرْذَوْهُمْ﴾ فيهلكوهم، وأما ﴿لِيَقْتَرُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أى: فيخطئوا عليهم دينهم. ونحو ذلك قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم و قتادة. وهذا كقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩]. وقد كانوا أيضا يقتلون الأولاد من الإملاق، وهو: الفقر، أو خشية الإملاق أن يحصل لهم فى ثانى الحال ، وقد نهاهم عن قتل أولادهم لذلك ، وإنما كان هذا كله من شرع الشيطان وتزيينه لهم ذلك.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ أى: كل هذا واقع بمشيئته تعالى وإرادته واختياره لذلك كونًا، وله الحكمة التامة فى ذلك، فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون. ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أى: فدعهم واجتنبهم وما هم فيه، فسيحكم الله بينك وبينهم.

﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَمْعُنْ وَأَحْرَثْ حَجَرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بَرْعِهِمْ وَأَنْعَمُ حُرِمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ ﴿١٣٨﴾

قال ابن عباس: «الحجر»: الحرام، مما حرّموا الوصيلة، وتحريم ما حرّموا. وكذلك قال مجاهد، و قتادة، وغيرهما. وقال السدي: ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بَرْعِهِمْ﴾ يقولون: حرام أن نطعم إلا من شئنا. وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رَّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَدْنَىٰ لَّكُمْ أَمْ عَلَىٰ اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]، وكقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَآكَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]. وقال مجاهد: كان من إبلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها ولا فى شىء من شأنها، لا إن ركبوا، ولا إن حلبوا، ولا إن حملوا، ولا إن نتجوا، ولا إن عملوا شيئا. ﴿افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ أى: على الله، وكذبا منهم فى إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعته؛ فإنه لم يأذن لهم فى ذلك ولا رضىه منهم ، ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أى: عليه، ويُسندون إليه.

﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مِّتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفُهُمْ إِنَّهُمُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [١٣٩]

قال ابن عباس: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: اللين، كانوا يحرمونه على إناثهم، ويشربه ذكرائهم. وكانت الشاة إذ ولدت ذكراً ذبحوه، وكان للرجال دون النساء. وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء. فنهى الله عن ذلك. وقال مجاهد في قوله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفُهُمْ﴾ أى: قولهم الكذب فى ذلك، يعنى كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ الآية [النحل: ١١٦، ١١٧]. ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ أى: فى أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمال عباده من خير وشر، وسيجزىهم على ذلك أتم الجزاء.

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [١٤٠]

يقول تعالى: قد خسر الذين صنعوا هذه الأفاعيل فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم، وضيقوا عليهم فى أموالهم، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم، وأما فى الآخرة فيصيرون إلى شر المنازل بكذبهم على الله وافتراءهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ. مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠]. وروى ابن مردويه عن ابن عباس، قال: إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرا ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام، ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾. وهكذا رواه البخارى منفرداً (١).

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَاتُ مُتَشَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [١٤١]

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [١٤٢]

يقول تعالى بيانا لانه الخالق لكل شىء، من الزروع والثمار والأنعام التى تصرف فيها المشركون بآرائهم الفاسدة وقسموها وجزؤوها، فجعلوها حراماً وحلالاً، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾. قال عطاء الخرساني، عن ابن عباس: ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾: ما عرش

من الكرم **﴿وَعَيَّرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾** : ما لم يعرش من الكرم . وكذا قال السدى . وقال ابن جريج : **﴿مُتَشَابِهًا وَعَيَّرَ مُتَشَابِهًا﴾** قال : متشابهها في المنظر ، وغير متشابه في المطعم . وقال محمد بن كعب : **﴿كُلُّوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾** قال : من رطبه وعنبه .

وقوله تعالى : **﴿وَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾** قال ابن جرير : قال بعضهم : هي الزكاة المفروضة . وروى عن أنس بن مالك قال : **﴿وَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾** قال : الزكاة المفروضة (١) . وقال ابن عباس : يعنى : الزكاة المفروضة ، يوم يُكَال ويعلم كيله . وكذا قال سعيد بن المسيب . وقد روى الإمام أحمد وأبو داود عن جابر بن عبد الله ، أن النبی ﷺ أمر من كل جاد عشرة أوسق من التمر ، بَقْنُو يعلق في المسجد للمساكين ، وإسناده جيد قوى (٢) . وقال طاوس ، وأبو الشعثاء ، وقتادة ، والحسن ، والضحاك ، وابن جريج : هي الزكاة . وقال الحسن البصرى : هي الصدقة من الحب والثمار . وقال آخرون : هو حق آخر سوى الزكاة . وقال مجاهد : عند الزرع يعطى القبض ، وعند الصَّرام يعطى القبضة ، وتركهم فيتبعون آثار الصَّرام . وقال سعيد بن جبیر : كان هذا قبل الزكاة : للمساكين ، القبضة والضغث لعلف دابته . وقال آخرون : هذا كان واجباً ، ثم نسخة الله بالعشر أو نصف العشر . حكاه ابن جرير عن ابن عباس ، ومحمد بن الحنفية ، وإبراهيم النخعي وغيرهم . واختاره ابن جرير . قلت : وفى تسمية هذا نسخاً نظراً ؛ لأنه قد كان شيئاً واجباً فى الأصل ، ثم إنه فصل بيانه وبين مقدار المخرج وكميته . قالوا : وكان هذا فى السنة الثانية من الهجرة ، فאלله أعلم .

وقد ذم الله سبحانه الذين يصومون ولايتصدقون ، كما ذكر عن أصحاب الجنة فى سورة «ن» : **﴿إِذْ أَقْسَمُوا لِيَصْرِمُهَا مُصْبِحِينَ . وَلَا يَسْتَتُونَ . فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ . فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾** أى : كالليل المدلهم سوداء محترقة **﴿فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ . أَنْ أَغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ . فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ . أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ . وَغَدُوا عَلَى حَرْدٍ﴾** أى : قوة وجلد وهمة **﴿قَادِرِينَ . فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ . قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا تَسْبَحُونَ . قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَامُونَ . قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ . عَسَى رَبَّنَا أَنْ يَدُلَّنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ . كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾** [القلم : ١٧ - ٣٣] .

وقوله : **﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾** قيل : معناه : ولا تسرفوا فى الإعطاء ، فتعطوا فوق المعروف . وقال عطاء : نهوا عن السرف فى كل شىء . وقال السدى : لا تعطوا أموالكم ، فتتعادوا فقراء . وقال سعيد بن المسيب ومحمد بن كعب : لا تمنعوا الصدقة فتعصوا . ثم اختار ابن جرير قول عطاء : أنه نهى عن الإسراف فى كل شىء . ولا شك أنه صحيح ، لكن الظاهر - والله أعلم - من سياق الآية حيث قال تعالى : **﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا﴾** أن يكون

(١) الطبرى (١٣٩٦٣) ، وإسناده صحيح . يزيد بن درهم أبو العلاء العجمى - رواه عن أنس : تابعى ثقة ، ترجمه البخارى فى الكبير (٤ / ٢ / ٣٣٠) فلم يذكر فيه جرْحاً . وترجمه ابن أبى حاتم (٤ / ٢ / ٢٦٠) وروى عن عبد الصمد بن عبد الوارث أنه قال : « وكان ثقة » . ثم روى عن يحيى بن معين أنه قال : « ليس بشىء » . وتلميذه عبد الصمد أعرف به من ابن معين .

(٢) المسند (١٤٩٢٤) وأبو داود (١٦٦٢) . وقوله : « من جاد عشرة أوسق » : الجاد ، بالذال المهملة المشددة - بمعنى المجدود ، أى : نخلا يجد منه هذا القدر . وهو من « الجداد » بفتح الجيم وتخفيف الدال ، وهو قطع ثمر النخل .

عائداً على الأكل، أى: ولا تسرفوا فى الأكل لما فيه من مضرة العقل والبدن ، كما قال تعالى : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١] ، وفى صحيح البخارى تعليقاً: «كلوا واشربوا، والبسوا وتصدقوا، فى غير إسراف ولا مخيلة» (١). وهذا من هذا، والله أعلم .

وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشٌ﴾ أى: وأنشأ لكم من الأنعام ما هو حمولة وما هو فرش، قيل: المراد بالحمولة ما يحمل عليه من الإبل، والفرش الصغار منها. كما قال عن عبد الله فى قوله: ﴿حَمُولَةٌ﴾: ما حمل عليه من الإبل ﴿وَفَرَشٌ﴾ الصغار من الإبل. رواه الحاكم، وقال: صحيح ولم يخرجاه. وقال ابن عباس: الحمولة: الكبار، والفرش الصغار من الإبل. وكذا قال مجاهد. وقال ابن عباس: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشٌ﴾: فأما الحمولة فالإبل والحيل والبغال والحمير وكل شئ يحمل عليه، وأما الفرش فالغنم . واختاره ابن جرير ، قال : وأحسبه إنما سمى فرشاً لدنوه من الأرض . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الحمولة ما تركبون، والفرش ما تأكلون وتغلبون، شاة لا تحمل، تأكلون لحمها وتتخذون من صوفها لحافاً وفرشاً . وهذا الذى قاله عبد الرحمن فى تفسير هذه الآية الكريمة حسن ، يشهد له قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ . وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧١، ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَن لَّكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّتُفَكَّرَ فِي بَاطِنِهِ مِن بَيْنِ فَتْرَتَيْنِ فَذَرْهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ الْبَغَالُ لِلشَّارِبِينَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَاوُهَا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ [النحل: ٦٩ - ٨٠]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونُ . وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [غافر: ٧٩ - ٨١] .

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أى: من الثمار والزروع والأنعام، فكلها خلقها الله وجعلها رزقاً لكم ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ﴾ أى: طرائقه وأوامره، كما اتبعها المشركون الذين حرّموا ما رزقهم الله، أى: من الثمار والزروع افتراء على الله ﴿إِنَّهُ﴾ أى: إن الشيطان - أيها الناس - لكم ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أى: مبين ظاهر العداوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخَذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حُزْنَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتَهُمَا﴾ الآية [الأعراف: ٢٧] ، وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]. والآيات فى هذا كثيرة فى القرآن .

﴿ثُمَّ نَبَيَّةَ آدَمَ مِن أَهْلِ الْأَنْثَيْنِ وَمِنَ الْأُنثَيْنِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ نَبِيُّ يَعْلَمُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٤٣) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْأُنثَيْنِ أَمْ الْأُنثَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾

(١) البخارى (٢١٥ / ١٠ فتح) . ورواه أحمد فى المسند (٦٦٩٥) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، وسيدكره المؤلف الحافظ مخرجاً عند الآية (٣١) من سورة الأعراف . و « المخيلة » بضم الميم : الخلاء .

وهذا بيان لجهل العرب قبل الإسلام فيما كانوا حَرَمُوا من الأنعام، وجعلوها أجزاءً وأنواعاً: بحيرة، وسائبة، ووصيلة وحاماً، وغير ذلك من الأنوع التي ابتدعوها في الأنعام والزروع والشمار، فبين أنه تعالى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات، وأنه أنشأ من الأنعام حمولة وفرشا. ثم بين أصناف الأنعام إلى غنم وهو بياض وهو الضأن، وسواد وهو المعز، ذكره وأنثاه، وإلى إبل ذكورها وإنائها، وبقر كذلك. وأنه تعالى لم يحرم شيئاً من ذلك ولا شيئاً من أولادها، بل كلها مخلوقة لبنى آدم، أكلا، وركوباً، وحمولة، وحلباً، وغير ذلك من وجوه المنافع، كما قال : ﴿وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ الآية [الزمر: ٦].

وقوله : ﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيِّينَ رَدَّ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِمْ : ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمَحْرَمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾. وقوله : ﴿نَبَيُّنَا يُعَلِّمُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى : أخبرونى عن يقين : كيف حرم الله عليكم ما زعمتم تحريمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك؟ وقوله : ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا﴾ : تهكم بهم فيما ابتدعوه وافتروه على الله، من تحريم ما حرموه من ذلك ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أى : لا أحد أظلم منه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ . وأول من دخل فى هذه الآية : عمرو بن لُحَيٍّ بن قَمْعَةَ ، فإنه أول من سَبَّ السَّوَابِ ، ووصل الوصيلة ، وحمى الحام ، كما ثبت ذلك فى الصحيح (١).

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ أَضَلُّ عَنِ بَإِغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤٥)

يقول تعالى آمراً عبده ورسوله محمداً، صلوات الله وسلامه عليه : ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الذين حرموا ما رزقهم الله افتراء على الله : ﴿لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ أى : أكل يأكله. قيل : معناه : لا أجِد شيئاً مما حرمتم حراماً سوى هذه. وقيل : معناه : لا أجِد من الحيوانات شيئاً حراماً سوى هذه. فعلى هذا يكون ما ورد من التحريمات بعد هذا فى سورة «المائدة»، وفى الأحاديث الواردة، رافعاً لمفهوم هذه الآية. ومن الناس من يسمى ذلك نسخاً، والأكثرون من المتأخرين لا يسمونه نسخاً؛ لأنه من باب رفع مباح الأصل، والله أعلم. وقال ابن عباس : ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ يعنى : المَهْرَاق . وقال عِكْرِمَةُ فى قوله : ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ : لولا هذه الآية لتبع الناس ما فى العُرُوق، كما تتبعه اليهود . وقال قتادة : حرم من الدماء ما كان مسفوحاً، فأما لحم خالطه دم فلا بأس به. وروى ابن جرير عن عائشة : أنها كانت لا ترى بلحوم السباع بأساً، والحمرة والدم يكونان على القَدَرِ بأساً، وقرأت هذه الآية . صحيح غريب (٢).

(١) انظر ما مضى عند تفسير الآيات : (١٠٠ - ١٠٤) من سورة المائدة .

(٢) الطبرى (١٤٠٩٠) .

وروى الحميدى عن عمرو بن دينار قال: قلت لجابر بن عبد الله: إنهم يزعمون أن رسول الله ﷺ نهى عن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر؟ فقال: قد كان يقول ذلك «الحكم بن عمرو» عن رسول الله ﷺ، ولكن أبى ذلك البحر - يعنى ابن عباس - وقرأ: «قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ» الآية. رواه البخارى، وأخرجه أبو داود، ورواه الحاكم، مع أنه فى صحيح البخارى، كما رأيت (١).

وروى ابن مردويه والحاكم عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذرا، فبعث الله نبيه وأنزل كتابه، وأحل حلاله وحرم حرامه، فما أحل فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، وتلا هذه الآية: «قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ» إلى آخر الآية. وهذا لفظ ابن مردويه. ورواه أبو داود منفرداً به، عن محمد بن داود بن صبيح، عن أبى نعيم، به. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٢).

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: ماتت شاة لسودة بنت زمعة، فقالت: يا رسول الله، ماتت فلانة - تعنى الشاة - قال: «فلولا أخذتم مسكها؟». قالت: تأخذ مسك شاة قد ماتت؟! فقال لها رسول الله ﷺ: «إنما قال الله: «قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ»، وإنكم لا تطعمونه أن تدبغوه فتتفعوا به». فأرسلت فسلخت مسكها فدبغته، فاتخذت منه قرية، حتى تحرقت عندها (٣). ورواه البخارى والنسائى عن ابن عباس، عن سودة بنت زمعة، بذلك أو نحوه. وقال سعيد بن منصور: حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن عيسى بن نُمَيْلَةَ الفزارى، عن أبيه قال: كنت عند ابن عمر، فسأله رجل عن أكل القنفذ؟ فقرأ عليه: «قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ» الآية، فقال شيخ عنده: سمعت أبا هريرة يقول: ذكر عند النبى ﷺ فقال: «خبث من الخبائث». فقال ابن عمر: إن كان النبى ﷺ قاله فهو كما قال. ورواه أبو داود (٤).

وقوله تعالى: «فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ» أى: فمن اضطر إلى أكل شىء مما حرم الله فى هذه الآية الكريمة، وهو غير متلبس ببغى ولا عدوان «فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» أى: غفور له، رحيم به. وقد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة البقرة بما فيه كفاية (٥). والمقصود من سياق هذه الآية الكريمة الرد على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه، من تحريم المحرمات على أنفسهم بآرائهم

(١) البخارى (٩ / ٥٦٤ ، ٥٦٥) مختصراً قليلاً. ولكن فيه «جابر بن زيد» بدل «جابر بن عبد الله». وجابر ابن زيد: هو أبو الشعثاء التابعى. ورواية الحاكم فى المستدرک (٢ / ٣١٧) كرواية الحميدى التى ذكرها الحافظ ابن كثير هنا. وأما رواية أبى داود (٣٨٠٨) ففى إسناده راو مبهم، وفيها اختلاف عن هاتين الروایتين. والظاهر أنها خطأ من أحد الرواة.

(٢) الحاكم (٤ / ١١٥) ووافقه الذهبى على تصحيحه. وهو فى أبى داود (٣٨٠٠). ورواه أيضا ابن حزم فى الإحكام (٨ / ٢٨) بتحقيقنا. واختصره قليلاً من آخره، فلم يذكر الآية.

(٣) المسند (٣٠٢٧). (٤) أبو داود (٣٧٩٩) من طريق سعيد بن منصور.

(٥) مضى عند تفسير الآية: (١٧٣) من سورة البقرة.

الفاسدة من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك، فأمر الله رسوله أن يخبرهم أنه لا يجد فيما أوحاه الله إليه أن ذلك محرم، وإنما حُرِّمَ ما ذكر في هذه الآية من الميتة، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به. وما عدا ذلك فلم يحرم، وإنما هو عفو مسكوت عنه، فكيف تزعمون أنتم أنه حرام، ومن أين حرمتموه ولم يحرمه الله؟! وعلى هذا فلا ينفي تحريم أشياء آخر فيما بعد هذا، كما جاء النهي عن لحوم الحمر الأهلية ولحوم السباع، وكل ذي مخلب من الطير، على المشهور من مذاهب العلماء.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾

قال ابن جرير: يقول تعالى: وحرمنا على اليهود ﴿كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾، وهو البهائم والطير ما لم يكن مشقوق الأصابع، كالإبل والنعام والأوز والبط. قال ابن عباس: هو البعير والنعام. وكذا قال مجاهد.

وقوله: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ قال السدي: يعني: الثَّرب (١) وشحم الكلوتين. وكانت اليهود تقول: إنه حرمه إسرائيل فنحن نحرمه. وكذا قال ابن زيد. وقال قتادة: الثَّرب وكل شحم كان كذلك ليس في عظم. وقوله: ﴿أَوِ الْحَوَايَا﴾ قال ابن جرير: ﴿الْحَوَايَا﴾ جمع، واحدها حاوية، وحاوية وحاوية وهو ما تحوى من البطن فاجتمع واستدار، وهى بنات اللبن، وهى «المباعر»، وتسمى «المرايض»، وفيها الأمعاء. قال: ومعنى الكلام: ومن البقر والغنم حرما عليهم شحومهما، إلا ما حملت ظهورهما، وما حملت الحوايا.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ أى: إلا ما اختلط من الشحوم بالعظام فقد أحللناه لهم. وقال ابن جرير: شحم الآلية اختلط بالعصعص، فهو حلال. وكل شيء فى القوائم والجنب والرأس والعين وما اختلط بعظم، فهو حلال، ونحوه قال السدي. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ أى: هذا التضييق إنما فعلناه بهم والزمناهم به، مجازاة لهم على بغيتهم ومخالفتهم وأمرنا، كما قال تعالى: ﴿فَبَطَّلْنَا مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠]. وقوله: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أى: وإنا لعادلون فيما جزيناهم به. وقال ابن جرير: وإنا لصادقون فيما أخبرناك به يا محمد من تحريمنا ذلك عليهم، لا كما زعموا من أن إسرائيل هو الذى حرمه على نفسه، والله أعلم. وقال عبد الله بن عباس: بلغ عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، أن سمرّة باع خمرا، فقال: قاتل الله سمرّة، ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها». أخرجاه.

(١) «الثرب» - بفتح الثاء المثلثة وسكون الراء : شحم رقيق يغشى الكرش والأمعاء.

وعن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول عام الفتح: «إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام». فقيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة، فإنه يدهن بها الجلود وتطلى بها السفن، ويستصيح بها الناس. فقال: «لا، هو حرام». ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «قاتل الله اليهود، إن الله لما حرم عليهم شحومها جعلها حراماً، ثم باعوه وأكلوا ثمنه». رواه الجماعة. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قاتل الله اليهود! حرمت عليهم الشحوم، فباعوها وأكلوا ثمنها». رواه البخاري ومسلم. وروى ابن مردويه عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان قاعداً خلف المقام، فرفع بصره إلى السماء فقال: «لعن الله اليهود - ثلاثاً - إن الله حرم عليهم الشحوم، فباعوها وأكلوا ثمنها، وإن الله لم يحرم على قوم أكل شيء إلا حرم عليهم ثمنه» (١).

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ قاعداً في المسجد مستقبلاً الحجر، فنظر إلى السماء فضحك، [ثم] قال: «لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها، وإن الله إذا حرم على قوم أكل شيء حرم عليهم ثمنه». ورواه أبو داود (٢).

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُمُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (١٤٧)

يقول تعالى: فإن كذبك - يا محمد - مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم، فقل: ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة، باتباع رسوله ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ترهيب لهم في مخالفتهم الرسول خاتم النبيين. وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن، كما قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الآية: ١٦٥]، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، وقال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يَدْعُو وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾ [البروج: ١٢-١٤]، والآيات في هذا كثيرة جداً.

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١٤٩) قُلْ هَلَمْ شَهِدْكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا إِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (١٥٠)

(١) رواه البخاري في التاريخ الكبير - مختصراً - من الوجه الذي رواه ابن مردويه (١٤٧/٢/١)، وإسنادهما صحيح.
(٢) المسند (٢٢٢١)، وإسناده صحيح.

هذه مناظرة ذكرها الله تعالى وشبهة تشبث بها المشركون فى شركهم وتحريم ما حرموا؛ فإن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرموه، وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الإيمان، ويحول بيننا وبين الكفر، فلم يغيره، فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منا بذلك! ولهذا قال: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ كما فى قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الزخرف: ٢٠]، وكذلك الآية التى فى «النحل» مثل هذه سواء، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أى: بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء. وهى حجة داحضة باطلة؛ لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه، ودمر عليهم، وأدال عليهم رسله الكرام، وأذاق المشركين من أليم الانتقام. ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى: بأن الله تعالى راض عنكم فيما أنتم فيه ﴿فَتَخْرِجُوهُ لَنَا﴾ أى: فتظهروه لنا وتبينوه وتبرزوه ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أى: الوهم والخيال. والمراد بالظن ههنا: الاعتقاد الفاسد. ﴿وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أى: تكذبون على الله فيما ادعيتموه.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، يقول تعالى لنبىه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ أى: له الحكمة التامة، والحجة البالغة فى هداية من هدى، وإضلال من ضل، ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وكل ذلك بقدرته ومشيئته واختياره، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويُبغض الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٩٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]. قال الضحاك: لا حجة لأحد عصى الله، ولكن لله الحجة البالغة على عباده.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُكُمْ﴾ أى: أحضروا شهداءكم ﴿الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ أى: هذا الذى حرمتموه وكذبتم وافترستم على الله فيه ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾ أى: لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذباً وزوراً ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتٍ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أى: يشركون به، ويجعلون له عديلاً.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ أَمَلِي نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَنَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١٥١)

عن ابن مسعود، قال: من أراد أن يقرأ صحيفة رسول الله ﷺ التى عليها خاتمه، فليقرأ هؤلاء الآيات: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١). وروى الحاكم

(١) لم يخرجها الحافظ ابن كثير . وذكره السيوطى (٣/ ٥٤) بلفظ: «من سره أن ينظر إلى وصية محمد» - إلى آخره . ونسبه للترمذى وحسنه وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبى الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى شعب الإيمان .

عن ابن عباس يقول : إن في الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب، ثم قرأ : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ . الآيات . قال الحاكم : صحيح الإسناد، ولم يخرجاه (١) . وروى الحاكم أيضاً عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : «أيكم يبايعني على ثلاث؟» ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ حتى فرغ من الآيات فمن وفى فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله به في الدنيا كانت عقوبته ، ومن أخر إلى الآخرة فأمره إلى الله، إن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه . ثم قال : صحيح الإسناد، ولم يخرجاه (٢) .

وأما تفسيرها فيقول تعالى لنبية ورسوله محمد ﷺ : قل يا محمد - لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله، وحرّموا ما رزقهم الله، وقتلوا أولادهم وكل ذلك فعلوه بآرائهم وتسويل الشياطين لهم ﴿قُلْ﴾ لهم : ﴿تَعَالَوْا﴾ أى : هلموا وأقبلوا ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أى : أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقاً لا تخرصاً، ولا ظناً، بل وحياً منه وأمرأ من عنده ﴿أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾، وكان في الكلام محذوفاً دل عليه السياق، وتقديره : ووصاكم ﴿أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾؛ ولهذا قال في آخر الآية : ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ، وتقول العرب : أمرتك ألا تقوم . وفي الصحيحين من حديث أبي ذر، قال : قال رسول الله ﷺ : «أتاني جبريل فبشرني أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً من أمتك، دخل الجنة». قلت : وإن زنى وإن سرق؟ قال : « وإن زنى وإن سرق ». قلت : وإن زنى وإن سرق؟ قال : « وإن زنى وإن سرق ». قلت : « وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر؟ قال : «وإن زنى وإن سرق، وإن شرب الخمر» : وفي بعض الروايات : أن القائل ذلك إنما هو أبو ذر لرسول الله ﷺ، وأنه، عليه الصلاة والسلام، قال في الثالثة : «وإن رغم أنف أبي ذر » . فكان أبو ذر يقول بعد تمام الحديث : «وإن رغم أنف أبي ذر (٣) . وفي بعض المسانيد والسنن عن أبي ذر ، قال : قال رسول الله ﷺ : «يقول الله تعالى : يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني فأني أغفر لك على ما كان منك ولا أبالي، ولو أتيتني بقراب الأرض خطيئة أنيتك بقرابها مغفرة ، ما لم تشرك بي شيئاً، وإن أخطأت حتى تبلغ خطاياك عنان السماء ثم استغفرتني، غفرت لك » (٤) . ولهذا شاهد في القرآن، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء : ٤٨ ، ١١٦] . وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود : «من مات لا يشرك بالله شيئاً، دخل الجنة» . والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً.

وقوله تعالى : ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أى : وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحساناً، أى : أن تحسنوا إليهم، كما قال تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء : ٢٣] . وقرأ

(١) المستدرک (٢ / ٣١٧) ووافقه الذهبي على تصحيحه .

(٢) الحاكم (٢ / ٣١٨) ووافقه الذهبي على تصحيحه . وزاد السيوطي (٣ / ٥٤) نسبه لعبد بن حميد وابن أبي

حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه .

(٣) الحديث مضمي عند تفسير الآيتين : (٤٧ ، ٤٨) من تفسير سور النساء من رواية المسند بنحوه .

(٤) رواه أحمد في المسند (٥ / ١٥٤ حلي) والدارمي (٢ / ٣٢٢) كلاهما بنحوه من حديث أبي ذر : ورواه

الترمذي - بنحوه - من حديث أنس (٢ / ٢٧٠) .

بعضهم: «ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً». أى : أحسنوا إليهم . والله تعالى كثيراً ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين ، كما قال : ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا ذَلِكَ لِإِنِّي الْمَصِيرُ . وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٤ ، ١٥] . فأمر بالإحسان إليهما ، وإن كانا مشركين ، بحسبهما ، وقال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الآية [البقرة: ٨٣] . والآيات فى هذا كثيرة . وفى الصحيحين عن ابن مسعود ، قال : سألت رسول الله ﷺ : أى العمل أفضل ؟ قال : «الصلاة على وقتها» . قلت : ثم أى ؟ قال : «بر الوالدين» . قلت : ثم أى ؟ قال : «الجهاد فى سبيل الله» . قال ابن مسعود : حدثنى بهن رسول الله ﷺ ، ولو استزدته لزادنى .

وقوله : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ : لما وصى تعالى ببر الآباء والأجداد ، عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد ، فقال تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ ، وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سَوَّكَتْ لهم الشياطين ذلك ، فكانوا يثدون البنات خشية العار ، وربما قتلوا بعض الذكور خيفة الافتقار ؛ ولهذا جاء فى الصحيحين ، من حديث عبد الله بن مسعود ، أنه سأل رسول الله ﷺ ، أى الذنب أعظم ؟ قال : «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» . قلت : ثم أى ؟ قال : «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك» . قلت : ثم أى ؟ قال : «أن تزانى حليلة جارك» . ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨] . وقوله : ﴿مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ قال ابن عباس ، وقتادة ، والسدى : هو الفقر ، أى : ولا تقتلوهم من فقرهم الحاصل ، وقال فى سورة «سبحان» : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] أى : خيفة حصول فقر فى الآجل ؛ ولهذا قال هناك : ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ ، فبدأ برزقهم للاهتمام بهم ، أى : لا تخافوا من فقرهم بسببهم ، فرزقهم على الله . وأما فى هذه الآية فلما كان الفقر حاصلًا ، قال : ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لأنه الأهم هاهنا ، والله أعلم .

وقوله : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] وقد تقدم تفسيرها فى قوله : ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠] . وفى الصحيحين ، عن ابن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ : «لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حَرَّمَ الفواحش ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ» . وعن المغيرة قال : قال سعد بن عباد : لو رأيتُ مع امرأتى رجلاً لضربته بالسيف غير مُصْفَح . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : «أمتعجون من غيرة سعد ؟ فوالله لأنا أغير من سعد ، والله أغير منى ، من أجل ذلك حَرَّمَ الفواحش ما ظهر منها وما بَطَنَ» . أخرجاه (١) .

(١) من حديث فى البخارى (٩ / ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ١٢ / ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٣ / ٣٣٧ ، ٣٣٨ فتح) ومسلم (١ / ٤٣٨ ، ٤٣٩) . ورواه أحمد فى المسند (٤ / ٢٤٨) .

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وهذا مما نص تبارك وتعالى على النهي عنه تأكيداً، وإلا فهو داخل في النهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فقد جاء في الصحيحين عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله - إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزانى، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة». وفي لفظ لمسلم: «والذى لا إله غيره لا يحل دم رجل مسلم». وروى أبو داود، والنسائي، عن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث خصال: زان مُحْصَن يُرْجَم، ورجل قتل رجلاً مُتَعَمِّداً فيقتل، ورجل يخرج من الإسلام حارب الله ورسوله، فيقتل أو يصلب أو ينفى من الأرض». وهذا لفظ النسائي. وعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه، أنه قال وهو محصور: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل كَفَرَ بعد إسلامه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتل نفساً بغير نفس». فوالله ما زينت في جاهلية ولا إسلام، ولا تمنيت أن لى بدينى بدلا منه بعد إذ هدانى الله، ولا قتلت نفساً، فبم تقتلوننى؟! رواه الإمام أحمد، والترمذى، والنسائي، وابن ماجه. وقال الترمذى: هذا حديث حسن (١).

وقد جاء النهى والزجر والوعيد فى قتل المعاهد - وهو المستأمن من أهل الحرب - فروى البخارى، عن عبد الله بن عمر، عن النبى ﷺ قال: «من قتل مُعَاهِداً لم يَرَحْ رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً». وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «من قتل معاهداً له ذمّة الله وذمّة رسوله، فقد أخفر بذمة الله، فلا يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفاً». رواه ابن ماجه، والترمذى، وقال: حسن صحيح.

وقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَمَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أى : هذا مما وصاكم به لعلكم تعقلون عن الله أمره ونهيه.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلَفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

عن ابن عباس قال: لما أنزل الله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ و «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا» الآية [النساء: ١٠]، فانطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل الشئ فيحبس له حتى يأكله ويفسد. فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَلَاخَافَ وَنِجَافٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، قال: فخلطوا طعامهم بطعامهم، وشرابهم بشرابهم. رواه أبو داود (٢).

(١) المسند (٤٦٨) بنحوه. ورواه أيضا مطولا ومختصرا: (٤٣٧، ٤٣٨، ٤٥٢، ٥٠٩).

(٢) مضى تخريجه عند تفسير الآية: (٢٢٠) من سورة البقرة.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ قال الشعبي، ومالك، وغير واحد من السلف: يعنى: حتى يحتلم. وقوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾: يأمر تعالى بإقامة العدل فى الأخذ والإعطاء، كما توعده على تركه فى قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ. وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ. أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ. لِيَوْمٍ عَظِيمٍ. يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ١-٦]. وقد أهلك الله أمة من الأمم كانوا يبخسون المكيال والميزان. وقوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أى: من اجتهد فى أداء الحق وأخذه، فإن أخطأ بعد است فراغ وسعه وبذل جهده فلا حرج عليه.

وقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]، وكذا التى تشبهها فى سورة المائدة (١)، يأمر تعالى بالعدل فى الفعال والمقال، على القريب والبعيد، والله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد، فى كل وقت، وفى كل حال. ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوفُوا﴾ قال ابن جرير: يقول وبوصية الله التى أوصاكم بها فأوفوا. وإيفاء ذلك: أن تطيعوه فيما أمركم ونهاكم، وتعملوا بكتابه وسنة رسوله، وذلك هو الوفاء بعهد الله. ﴿ذَلِكَمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يقول تعالى: هذا وصاكم به، وأمركم به، وأكد عليكم فيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أى: تتعظون وتنتهون مما كنتم فيه قبل هذا. وقرأ بعضهم بتشديد «الذال»، وآخرون بتخفيفها.

﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾
ذَلِكَمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٣﴾

قال ابن عباس فى قوله: ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وفى قوله: ﴿أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، ونحو هذا فى القرآن، قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمرء والخصومات فى دين الله. ونحو هذا قال مجاهد، وغير واحد. وروى الإمام أحمد بن حنبل عن عبد الله - هو ابن مسعود، قال: خط رسول الله ﷺ خطا بيده، ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيما». وخط على يمينه وشماله، ثم قال: «هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه». ثم قرأ: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾. وكذا رواه الحاكم، وقال: صحيح ولم يخرجاه. ورواه النسائي وابن مردويه. فقد صححه الحاكم كما رأيت من الطريقتين (٢)، وقد روى من حديث النّوّاس بن سمعان نحوه، روى الإمام أحمد عن النّوّاس بن سمعان، عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلا صراطا مستقيما، وعن جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب

(١) الآية رقم (٨).

(٢) المسند (٤٤٣٧). ورواه أيضا (٤١٤٢) والحاكم (٣١٨/٢). ورواه أيضا ابن حبان فى صحيحه، رقم (٥) بتحقيقنا. وهو فى مجمع الزوائد (٢٢/٧) وقال: «رواه أحمد والبزار، وفيه عاصم بن بهدلة، وهو ثقة، وفيه ضعف».

مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس، ادخلوا الصراط المستقيم جميعاً، ولا تعرجوا وداع يدعو من جوف الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك ، لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجّه ، فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق واعظ الله في قلب كل مسلم». ورواه الترمذى والنسائى ، وقال الترمذى: حسن غريب (١).

وقوله: ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ﴾، إنما وحد سبيله لأن الحق واحد؛ ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ لَهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧] . وروى ابن أبى حاتم عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «أيكم يباعدنى على هؤلاء الآيات الثلاث؟» . ثم تلا: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾، حتى فرغ من ثلاث آيات، ثم قال: «ومن وقى بهن أجره الله، ومن انتقص منهن شيئاً فادركه الله فى الدنيا كانت عقوبته، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء أخذه، وإن شاء عفا عنه» (٢).

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٤) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٥٥)

قال ابن جرير: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ تقديره: ثم قل - يا محمد - مخبراً عنا بأننا آتينا موسى الكتاب، بدلالة قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾. قلت: وفى هذا نظر، و ﴿ثُمَّ﴾ ههنا إنما هى لعطف الخبر بعد الخبر، لا للترتيب ههنا، كما قال الشاعر:

قُلْ لِمَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ ثُمَّ مِنْ قَبْلِ ذَاكَ قَدْ سَادَ جَدُّهُ

وههنا لما أخبر الله تعالى عن القرآن بقوله: ﴿وَأَن هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ - عطف بمدح التوراة ورسولها، فقال: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾. وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين ذكر القرآن والتوراة، كقوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانٍ عَرَبِيًّا﴾ [الاحقاف: ١٢]، وقوله أول هذه السورة: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا يَّبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الآية: ٩١]، وبعدها: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ الآية [الأنعام: ٩٢]، وقال تعالى مخبراً عن المشركين: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾ [القصص: ٤٨]، وقال تعالى مخبراً عن الجن أنهم قالوا: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ

(١) المسند (١٧٧١) . وقد مضى عند تفسير الآية : (٦) من سورة الفاتحة .

(٢) مضى من رواية الحاكم .

يَدِيهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ [الاحقاف: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا﴾ أى: آتيناه الكتاب الذى أنزلناه إليه تمامًا كاملاً جامعاً لجميع ما يحتاج إليه فى شريعته ، كما قال تعالى: ﴿ وَكُتِبَ لَهُ فِي الْأَوْحَانِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ الآية [الاعراف: ١٤٥]. وقوله: ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ أى: جزاء على إحسانه فى العمل، وقيامه بأوامرنا وطاعتنا، كقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وكقوله: ﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] (١). وقال الربيع بن أنس: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ يقول: أحسن فيما أعطاه الله. وقال قتادة: من أحسن فى الدنيا تم له ذلك فى الآخرة. واختار ابن جرير أن تقدير الكلام: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا﴾ على إحسانه. فكانه جعل «الذى» مصدرية، كما قيل فى قوله تعالى: ﴿وَحُضِّتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩] أى: كخوضهم ، وقال آخرون: «الذى» ههنا بمعنى «الذين». قال ابن جرير: وقد ذكر عن عبد الله ابن مسعود: أنه كان يقرأها: «تماماً على الذين أحسنوا». وقال مجاهد: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ قال: على المؤمنين والمحسنين، وكذا قال أبو عبيدة. وقال البغوى: والمحسنون: الأنبياء والمؤمنون، يعنى: أظهرنا فضله عليهم. قلت: كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الاعراف: ١٤٤]، ولا يلزم اصطفاؤه على محمد ﷺ خاتم الأنبياء والخليل، عليهما السلام ، لادلة آخر. قال ابن جرير: وروى أبو عمرو بن العلاء عن يحيى بن يعمر أنه كان يقرأها: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾، رفعا، بتأويل: على الذى هو أحسن ، قال: وهذه قراءة لا أستجيز القراءة بها، وإن كان لها فى العربية وجه صحيح. وقيل: معناه: تماماً على إحسان الله إليه زيادة على ما أحسن الله إليه، حكاه ابن جرير، والبغوى. ولا منافاة بينه وبين القول الأول، وبه جمع ابن جرير كما بيناه، والله الحمد.

وقوله: ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾: فيه مدحٌ لكتابه الذى أنزله الله عليه ﴿لَعَلَّهُمْ يَلْقَاءُ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾. وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحموا: ﴿فيه الدعوة إلى اتباع القرآن ووصفه بالبركة لمن اتبعه وعمل به فى الدنيا والآخرة .

﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

(١) فى المطبوع من «عمدة التفسير» وكذا المخطوطة الأزهرية: «وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون» وهو خلط بين آيتي السجدة - هذه - والآيتين (٧٣) . (الباز) .

قال ابن جرير: معناه: وهذا كتاب أنزلناه لئلا تقولوا: ﴿إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾. يعني: لينقطع عذرکم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا (١) رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧]. وقوله: ﴿عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قال ابن عباس: هم اليهود والنصارى وكذا قال مجاهد، والسدى، وقتادة، وغير واحد. وقوله: ﴿وَأَنَّ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ أى: وما كنا نقهم ما يقولون؛ لأنهم ليسوا بلساننا، ونحن فى شغل وغفلة مع ذلك عما هم فيه.

وقوله: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ أى: وقطعنا لتعللكم أن تقولوا: لو أنا أنزل علينا ما أنزل عليهم لكننا أهدى منهم فيما أوتوه، كقوله تعالى: ﴿وَأَنصَبُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢]، وهكذا قال هاهنا: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ يقول: فقد جاءكم من الله على لسان محمد ﷺ النبى العربى قرآن عظيم، فيه بيان للحلال والحرام، وهدى لما فى القلوب، ورحمة من الله لعبادة الذين يتبعونه ويقتفون ما فيه.

وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيَّاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أى: لم ينتفع بما جاء به الرسول، ولا اتبع ما أرسل به، ولا ترك غيره، بل صدَفَ عن اتباع آيات الله، أى: صَرَفَ الناس وصدَّهم عن ذلك، قاله السدى. وعن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾: أعرض عنها. وقول السدى ههنا فيه قوة؛ لأنه قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيَّاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾، كما تقدم فى أول السورة: ﴿وَهُمْ يَتَّبِعُونَ عَنْهُ وَيَتَّبِعُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ [الآية: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زَادَنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]، وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿سَتَجِدُ الَّذِينَ يُصَدِّفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُصَدِّفُونَ﴾. وقد يكون المراد كما قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيَّاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أى: لا آمن بها ولا عمل بها، كقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدْقَ وَلَا صُلَى. وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢]، ونحو ذلك من الآيات الدالة على اشتغال الكافر على التكذيب بقلبه، وترك العمل بجوارحه، ولكن كلام السدى أقوى وأظهر، والله أعلم.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَتُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَتِهَا خَيْرًا قُلِ انْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ (١٥٨)

يقول تعالى متوعداً للكافرين به، والمخالفين لرسوله والمكذبين آياته، والصادقين عن سبيله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾، وذلك كائن يوم القيامة ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾.

(١) فى المطبوعة والمطبوع من «عمدة التفسير»: «لقالوا» وهو خطأ واضح. (البار).

وَبِكَ ﴿ وذلك قبل يوم القيامة كائن من أمارات الساعة وأشراتها ، كما روى البخارى عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا رآها الناس آمن من عليها . فذلك حين ﴿ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴾ » . أخرجه بقية الجماعة فى كتبهم إلا الترمذى . وروى ابن جرير عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث إذا خرجن ﴿ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾ : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض » . ورواه أحمد ، وعنده : « والدخان » . ورواه مسلم (١) . وروى ابن جرير عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت آمن الناس كلهم ، وذلك حين ﴿ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴾ الآية » (٢) . وروى ابن جرير عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها ، قُبِلَ منه » . لم يخرجها أحد من أصحاب الكتب الستة (٣) . وعن أبى ذر جُنْدُب بن جُنَادَة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « تدرى أين تذهب الشمس إذا غربت ؟ » . قلت : لا أدرى ! قال : « إنها تنتهى دون العرش ، فتخر ساجدة ، ثم تقوم حتى يقال لها : ارجعى فيوشك يا أبا ذر أن يقال لها : ارجعى من حيث جئت ، وذلك حين : ﴿ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴾ » . رواه الشيخان وغيرهما . وروى الإمام أحمد عن حذيفة بن أسيد [أبى سريحة الغفارى قال : أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ، ونحن نتذاكر الساعة ، فقال : « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن ، تسوق - أو : تحشر - الناس ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا » . رواه مسلم وأهل السنن الأربعة وقال الترمذى : حسن صحيح (٤) . وعن صفوان بن عَسَّال قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله فتح باباً قبِلَ المغرب عرضه سبعون عاماً للتوبة ، لا يغلق حتى تطلع الشمس منه » . رواه الترمذى وصححه النسائى ، وابن ماجه من حديث طويل .

وروى الإمام أحمد عن أبى زُرْعَة بن عمرو بن جرير قال : جلس ثلاثة نفر من المسلمين إلى مروان بالمدينة فسمعوه وهو يحدث عن الآيات : أن أولها خروج الدجال . قال : فانصرف النفر إلى عبد الله بن عمرو ، فحدثوه بالذى سمعوه من مروان فى الآيات ، فقال : لم يقل مروان شيئاً ! قد حفظت من رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة ضحى ، فأيتهما كانت قبل صاحبتهما فالأخرى على إثرها » . ثم قال

(١) الطبرى (١٤٢٤٧) والمسند (٩٧٥١) . (٢) الطبرى (١٤٢١٩) .

(٣) الطبرى (١٤٢٢٠) . ورواه أحمد فى المسند (٧٦٩٧) . وقد بينت فى تخريجه فى المسند أنه رواه مسلم فى صحيحه (٢ / ٣١٢) . فلا ينبغي أن يوصف بأنه لم يخرجها أحد من أصحاب الكتب الستة .

(٤) المسند (١٦٢١٣) ومسلم (٣٦٦ / ٢) ، ٣٦٧ . وقد مضى عند تفسير الآيات : (١٥٥ - ١٥٩) من سورة النساء .

عبد الله - وكان يقرأ الكتب -: وأظن أولها خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وذلك أنها كلما غربت أتت تحت العرش وسجدت واستأذنت في الرجوع ، فأذن لها في الرجوع، حتى إذا بدا الله أن تطلع من مغربها فعلت كما كانت تفعل: أتت تحت العرش فسجدت واستأذنت في الرجوع، فلم يُردَّ عليها شيء، ثم تستأذن في الرجوع فلا يرد عليها شيء، حتى إذا ذهب من الليل ما شاء الله أن يذهب، وعرفت أنه إذا أذن لها في الرجوع لم تدرك المشرق، قالت: رب، ما أبعد المشرق. من لى بالناس؟ حتى إذا صار الأفق كأنه طوق استأذنت في الرجوع، فيقال لها: من مكانك فاطلعي. فطلعت على الناس من مغربها، ثم تلا عبد الله هذه الآية: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ الآية. وأخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجه (١). وروى الإمام أحمد عن ابن السعدي؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تنقطع الهجرة ما دام العدو يُقاتل». فقال معاوية، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عمرو بن العاص: إن النبي ﷺ قال: «إن الهجرة خصلتان: إحداهما تهجر السيئات، والأخرى تهاجر إلى الله ورسوله، ولا تنقطع ما تُقبَلُ التوبة، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب، فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه، وكفَى الناس العمل». هذا الحديث حسن الإسناد، ولم يخرجوه أحد من أصحاب الكتب الستة (٢).

فقلوه: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ أى: إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لا يقبل منه، فأما من كان مؤمناً قبل ذلك، فإن كان مصلحاً فى عمله فهو بخير عظيم، وإن كان مخلفاً فأحدث توبة يومئذ لم تقبل منه توبته، كما دلت عليه الأحاديث المتقدمة، وعليه يحمل قوله تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ أى: ولا يقبل منها كسبُ عمل صالح إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك. وقوله: ﴿قُلْ أَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾: تهديد شديد للكافرين، ووعد أكيد لمن سوف يؤمّنه وتوبته إلى وقت لا يتفعه ذلك. وإنما كان هذا الحكم عند طلوع الشمس من مغربها، لاقتراب وقت القيامة، وظهور أشرائها كما قال: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ [محمد: ١٨] ، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَاسًا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسًا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَرَأُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شَيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾



- (١) المسند (٦٨٨١) . ورواه الطبري أيضا مطولا (١٤٢١٤ ، ١٤٢١٥) . وقد تساهل الحافظ ابن كثير فى نسبته لمسلم وأبى داود وابن ماجه ، فإنهم لم يخرجوه بهذه السياقة ، إنما رووا قطعة منه مختصرة . ولذلك ذكره الهيثمى فى الزوائد (٨ / ٨ ، ٩) عن هذه الرواية . وأصاب فى ذلك . ورواه الحاكم (٤ / ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨) . وتفصيل التخرىج فى المسند والطبرى .
- (٢) المسند (١٦٧٢) . ورواه الطبرى (١٤٢١٢) مختصرا .

قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدي: نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى. وقال ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَابًا﴾ وذلك أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل أن يبعث محمد ﷺ، ففرقوا. فلما بعث محمد ﷺ أنزل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَابًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ الآية. والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفاً له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه ﴿وَكَانُوا شِعَابًا﴾ أى: فرقاً كأهل الملل والنحل - وهى الأهواء والضلالات - فالله قد برأ رسوله بما هم فيه. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ الآية [الشورى: ١٣]، وفى الحديث: «نحن معشر الأنبياء أولاد علأت، ديننا واحد». فهذا هو الصراط المستقيم، وهو ما جاءت به الرسل: من عبادة الله وحده لا شريك له، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء، والرسل برآء منها، كما قال: ﴿لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧]. ثم بين كيفية فصله يوم القيامة فى حكمه وعده فقال:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١١٠)

وهذه الآية الكريمة مفصلة لما أجمل فى الآية الأخرى، وهى قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ [النمل: ٨٩]، وقد وردت الأحاديث مطابقة لهذه الآية، كما روى الإمام أحمد . عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ، فيما يروى عن ربه، تبارك وتعالى: «إن ربيكم عز وجل رحيم، من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرة إلى سبعمائة، إلى أضعاف كثيرة. ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له واحدة، أو يمحوها الله، عز وجل، ولا يهلك على الله إلا هالك». ورواه البخارى، ومسلم، والنسائى (١). وروى الإمام أحمد أيضاً: عن أبى ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله، عز وجل: من عمل حسنة فله عشر أمثالها وأزيد. ومن عمل سيئة فجزاؤه مثلها أو أغفر. ومن عمل قرأب الأرض خطيئة ثم لقينى لا يشرك بى شيئاً جعلت له مثلها مغفرة. ومن اقترب إلى شبراً اقتربت إليه ذراعاً، ومن اقترب إلى ذراعاً اقتربت إليه باعاً، ومن أتانى يمشى أتيت هزولته». رواه مسلم وابن ماجه . وروى الحافظ أبو يعلى الموصلى عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرة. ومن هم بسيئة فلم يعملها لم يكتب عليه شيء، فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة» (٢).

(١) المسند (٢٥١٩) . ورواه قبل ذلك مختصراً (٢٠٠١) .

(٢) إسناده صحيح . وذكره الهيثمى فى الزوائد (١٤٥/١٠) وقال : «رواه أبو يعلى ، ورجاله رجال الصحيح» .

واعلم أن تارك السيئة الذى لا يعملها على ثلاثة أقسام: تارة يتركها الله ، فهذا تكتب له حسنة على كفه عنها الله تعالى، وهذا عمل ونية؛ ولهذا جاء أنه يكتب له حسنة، كما جاء فى بعض ألفاظ الصحيح: «فلما تركها من جرأى» ، أى: من أجلى. وتارة يتركها نسياناً وذُهلوا عنها، فهذا لا له ولا عليه؛ لأنه لم يتو خيراً ولا فعل شراً. وتارة يتركها عجزاً وكسلاً عنها بعد السعى فى أسبابها والتلبس بما يقرب منها، فهذا بمنزلة فاعلها، كما جاء الحديث فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقَاتِل والمَقْتُول فى النار». قالوا: يا رسول الله، هذا القَاتِل، فما بال المَقْتُول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه» (١). وروى الإمام أحمد عن خُرَيْم بن فاتك الأسدى؛ أن النبى ﷺ قال: «الناس أربعة، والأعمال ستة. فالناس مُوسِعٌ له فى الدنيا والآخرة، وموسع له فى الدنيا مَقْتُولٌ عليه فى الآخرة، ومقتور عليه فى الدنيا موسع له فى الآخرة، وشَقِيٌّ فى الدنيا والآخرة. والأعمال مُوجِبَتان، ومثل بمثل، وعشرة أضعاف، وسبعمائة ضعف؛ فالموجِبَتان من مات مُسْلِماً مؤمناً لا يشرك بالله شيئاً وَجِبَتْ له الجنة، ومن مات كافراً وَجِبَتْ له النار. ومن هَمَّ بحسنة فلم يعملها، فعلم الله أنه قد أشعرها قَلْبُهُ وَحَرَصَ عليها، كتبت له حسنة. ومن هم بسيئة لم تكتب عليه، ومن عملها كتبت واحدة ولم تضاعف عليه. ومن عمل حسنة كانت له بعشرة أمثالها. ومن أنفق نفقة فى سبيل الله، عز وجل، كانت له بسبعمائة ضعف». ورواه الترمذى والنسائى ببعضه (٢).

وروى ابن أبى حاتم عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبى ﷺ قال: «يحضر الجمعة ثلاثة نفر: رجل حضرها بلغو فهو حَظُّهُ منها، ورجل حضرها بدعاء، فهو رجل دعا الله، فإن شاء أعطاه، وإن شاء منعه، ورجل حضرها بإنصات وسكوت ولم يَتَخَطَّ رَقَبَةً مسلم ولم يُؤذَ أحداً، فهي كفارة له إلى الجمعة التى تليها وزيادة ثلاثة أيام؛ وذلك لأن الله يقول: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾» (٣). وعن أبى ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام الدهر كله». رواه الإمام أحمد - وهذا لفظه - والنسائى، وابن ماجه، والترمذى ، وزاد: «فأنزل الله تصديق ذلك فى كتابه: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ اليوم بعشرة أيام»، ثم قال: هذا حديث حسن . والأحاديث والآثار فى هذا كثيرة جداً، وفيما ذكر كفاية ، إن شاء الله ، وبه الثقة.

(١) البخارى (١ / ١٨ ، و ١٢ / ١٧٣ فتح) ومسلم (٢ / ٣٦٢) كلاهما من حديث أبى بكر . وقد مضى بنحوه عند تفسير الآيات: (٢٧ - ٣١) من سورة المائدة من رواية أخرى للشيخين أيضا عن أبى بكر بلفظ: «إذا تواجه المسلمان» .

(٢) المسند (٤ / ٣٤٥ حلى) . وهو حديث صحيح .

(٣) إسناده صحيح . ورواه أيضا أحمد فى المسند (٧٠٠٢) . ورواه قبل ذلك مختصراً (٦٧٠١) ، وفصلنا تخريجه هناك .

﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَ دِينِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٦١) قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَئِكَ أُتِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾

يقول تعالى أمراً لنبيه ﷺ سيد المرسلين أن يخبر بما أنعم به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم، الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ أي: قائماً ثابتاً ﴿مِثْلَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كقوله: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفَهٍ نَفْسُهُ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]، وقوله: ﴿إِنْ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانْنَا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . شَاكِرًا لَأَنْعَمَ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣].

وليس يلزم من كونه عليه السلام أمر باتباع ملة إبراهيم الحنيفية أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها؛ لأنه، عليه السلام، قام بها قياماً عظيماً، وأكملت له إكمالاً تاماً لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال؛ ولهذا كان خاتم الأنبياء، وسيد ولد آدم على الإطلاق، وصاحب المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق كلام، حتى إبراهيم الخليل، عليه السلام. وقد روى ابن مردويه عن ابن أبيزى، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: «أصبحنا على ملة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين» (١). وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ﷺ: أى الأديان أحب إلى الله تعالى؟ قال: «الحنيفية السمحة» (٢). وروى أحمد عن عائشة، قالت: وضع رسول الله ﷺ ذقنى على منكبيه، لأنظر إلى زَفَنِ الحِشَةِ، حتى كنت التى مللتُ فانصرفتُ عنه . قال لى عروة: إن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ يومئذ: «لتعلم يهود أن فى ديننا فُسْحَةٌ، إني أرسلت بِحَنِيفَةٍ سَمَحَةٍ» (٣). أصل الحديث مُخَرَّجٌ فى الصحيحين، والزيادة لها شواهد من طرق عدة، وقد استقصيت طرقها فى شرح البخارى، والله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: يأمره تعالى أن يخبر المشركين - الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه - أنه مخالف لهم فى ذلك، فإن صلاته لله ونسكه على اسمه وحده لا شريك له، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنحِرْ﴾ [الكوثر: ٢] أى: أخلص له صلاتك وذبيحتك، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص

(١) إسناده صحيح .

(٢) المسند (٢١٠٧) . وإسناده صحيح .

(٣) المسند (١١٦ / ٦) حلى . وإسناده صحيح . وقد مضت الإشارة إليه مختصراً عند تفسير الآية : (٢٨٦)

من سورة البقرة .

الله تعالى .

وقوله : ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ قال قتادة : أى من هذه الأمة . وهو كما قال ، فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام ، وأصله عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ، وقد أخبر تعالى عن نوح أنه قال لقومه : ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢] ، وقال تعالى : ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ . وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣٢] ، وقال يوسف ، عليه السلام : ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] ، وقال موسى : ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ . فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس: ٨٤ - ٨٦] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ الآية [المائدة: ٤٤] ، وقال تعالى : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١] .

فأخبر الله تعالى أنه بعث رسله بالإسلام ، ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة التى ينسخ بعضها بعضاً ، إلى أن نسخت بشريعة محمد ﷺ التى لا تنسخ أبد الأبدين ، ولا تزال قائمة منصوره ، وأعلامها منشورة إلى قيام الساعة ؛ ولهذا قال عليه السلام : « نحن معاشير الأنبياء أولاد علأت ديننا واحد » (١) . فإن أولاد العللات : هم الأخوة من أب واحد وأمها شتى ، فالدين واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وإن تنوعت الشرائع التى هى بمنزلة الأمهات ، كما أن إخوة الأخياف عكس هذا : بنو الأم الواحدة من آباء شتى ، والإخوة الأعيان : الأشقاء من أب واحد وأم واحدة ، والله أعلم .

وقد روى الإمام أحمد عن على رضى الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ كان إذا كبر استفتح ، ثم قال : « وَجْهَتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَقِيقًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » [الأنعام: ٧٩] ، « إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ » ، اللهم أنت الملك ، لا إله إلا أنت ، أنت ربى وأنا عبدك ، ظلمت نفسى واعترفت بذنبى ، فاغفر لى ذنوبى جميعاً ، لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق ، لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها ، لا يصرف عنى سيئها إلا أنت ، تباركت وتعاليت ، أستغفرك وأتوب إليك . ثم ذكر تمام الحديث فيما يقوله فى الركوع والسجود والتشهد . وقد رواه مسلم فى صحيحه (٢) .

(١) مضى مراراً ، آخرها عند تفسير الآيات : (٤٨ - ٥٠) من سورة المائدة .

(٢) المسند (٧٢٩) وصحيح مسلم (١ / ٢١٥) والملحى لابن حزم (٤ / ٩٥ ، ٩٦) بتحقيقنا .

﴿ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ بَنِي رَبِّكَ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه: ﴿أَغْيَرَ اللَّهُ بَنِي رَبِّكَ﴾ أى: أطلب ربا سواه، وهو رب كل شيء، يرينى ويحفظنى ويكلونى ويدبر أمرى، أى: لا أتوكل إلا عليه، ولا أنيب إلا إليه؛ لأنه رب كل شيء ومليكه، وله الخلق والأمر. فهذه الآية فيها الأمر بإخلاص التوكل، كما تضمنت الآية التى قبلها إخلاص العبادة له لا شريك له. وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيراً فى القرآن، كقوله تعالى مرشداً لعباده أن يقولوا له: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [المك: ٢٩]، وقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]، وأشباه ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ إخبار عن الواقع يوم القيامة فى جزاء الله تعالى وحكمه وعدله، أن النفوس إنما تجازى بأعمالها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد. وهذا من عدله تعالى، كما قال: ﴿وَأَن تَدْعُ مَثَلَةً إِلَىٰ مِثْلِهِ لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]، وقوله: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، قال العلماء بالتفسير: أى فلا يظلم بأن يُحمل عليه سيئات غيره، ولا يهضم بأن ينقص من حسناته. وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ. إِلَّا أَصْحَابَ الْإِيمَانِ﴾ [الدثر: ٣٨، ٣٩]، معناه: كل نفس مرتهنة بعملها السيئ إلا أصحاب اليمين، فإنه قد تعود بركات أعمالهم الصالحة على ذرياتهم وقرباتهم، كما قال فى سورة الطور: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الآية: ٢١] (١)، أى: ألحقنا بهم ذرياتهم فى المنزلة الرفيعة فى الجنة، وإن لم يكونوا قد شاركوهم فى الأعمال، بل فى أصل الإيمان ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ﴾ أى: أنقصنا أولئك السادة الرفعاء من أعمالهم شيئاً حتى ساويناهم وهؤلاء الذين هم أنقص منهم فى المنزلة، بل رفعهم تعالى إلى منازل الآباء ببركة أعمالهم، بفضلهم ومنه، ثم قال: ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] أى: من شر. وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أى: اعملوا على مكائتكم، إنا عاملون على ما نحن عليه، فستعرضون ونعرض عليه، ونبشئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم، وما كنا نختلف فيه فى الدار الدنيا، كما قال: ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ. قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبا: ٢٥، ٢٦].

(١) ﴿ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ فى الموضعين فى هذه الآية من سورة الطور - بالجمع - هى قراءة ابن عامر وأبى عمرو، من السبعة . وبها كتب الحافظ المؤلف فى هذا الموضع، كما ثبت فى المخطوطتين . وقراءة حفص وغيره ﴿ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ فى الموضعين ، بالافراد .

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَفُتُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿١٦٥﴾

يقول تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾ أى: جعلكم تعمرون الأرض جيلا بعد جيل، وقرنا بعد قرن، وخلفا بعد سلف. قاله ابن زيد وغيره، كما قال: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٠] ، وكقوله: ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ [النمل: ٦٢]، وقوله: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]، وقوله: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الاعراف: ١٢٩]. وقوله: ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ أى: فاوت بينكم فى الأرزاق والأخلاق، والمحاسن والمساوى، والمناظر والأشكال والألوان، وله الحكمة فى ذلك، كقوله: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣٢]، وقوله: ﴿ أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٢١].

وقوله: ﴿ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ أى: ليختبركم فى الذى أنعم به عليكم وامتحنكم به، ليختبر الغنى فى غناه ويسأله عن شكره، والفقير فى فقره ويسأله عن صبره. وقد روى مسلم عن أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَظَرُ مَاذَا تَعْمَلُونَ ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء » (١) . وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَفُتُورٌ رَحِيمٌ ﴾: تهيب وترغب، أن حسابه وعقابه سريع فيمن عصاه وخالف رسله ﴿وَإِنَّهُ لَفُتُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن والاه واتبع رسله فيما جاؤوا به من خبر وطلب.

وكثيرا ما يقرن تعالى فى القرآن بين هاتين الصفتين، كما قال ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْفُتُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠] ، وقوله: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الرعد: ٦] وغير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب، فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وائكالها وعذابها ، والقيامة وأهوالها، وتارة بهذا وهذا ؛ لينجع فى كُلِّ بَحْسِهِ . جَعَلْنَا اللَّهُ مِنْ أَطَاعِهِ فِيما أَمَرَ، وترك ما عنه نهى وزَجَرَ، وصدقه فيما أخبر، إنه قريب مجيب سميع الدعاء،

جواد كريم وهاب . وقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بالجنة أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من الجنة أحد ، خلق الله مائة رَحْمَةٍ فوضع واحدة بين خلقه يتراحمون بها ، وعند الله تسعة وتسعون [رحمة] » . ورواه الترمذى وقال : حسن . ورواه مسلم (١) .

آخر تفسير سورة الأنعام والحمد لله والمنة (٢)

(١) المسند (١٠٢٨٥) ومسلم (٢ / ٣٢٥) ، ولكن ليس عنده قوله : « خلق الله مائة رحمة ... » . ولكنه ثابت عنده بمعناه (ص ٣٢٤) من وجه آخر من حديث أبي هريرة .
(٢) هنا بهامش المخطوطة العتيقة ما نصه : « آخر الجزء الثانى من تفسير سورة الأنعام ، من خط المؤلف ، عفا الله عنه » . وبهامشه أيضا : « بلغ مقابلة بالأصل » .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
منهج الاختصار	٩
كلمات لابن كثير بشأن الإسرائيليات	١٤
كلمة عظيمة لابن عباس فى التنفير منها	١٧
صفة مخطوطة الأزهر من تفسير ابن كثير ، وهى التى اعتمدناها فى التصحيح	١٨
ترجمة الحافظ ابن كثير	٢٣
حوادث هامة شخصية لابن كثير ، مقتبسة من تاريخه الكبير	٢٧
مؤلفاته	٣٠
مصادر الترجمة	٣٢
الصفحة الأولى من مخطوطة الأزهر من تفسير ابن كثير	٣٣
خطبة الحافظ ابن كثير	٤١
أحسن طرق التفسير : بالكتاب ثم بالسنة	٤٢
ثم تأتى أقوال الصحابة	٤٣
أحسن ما يكون فى حكاية الخلاف	٤٤
فصل : فى آراء التابعين	٤٤
تفسير القرآن بمجرد رأى حرام	٤٥
أما فى عصرنا : فهؤلاء الذين يلعبون ويعبثون ، تبعاً لأهواء سادتهم ومعلميهم	٤٥
مقدمة الحافظ ابن كثير	٤٧
معنى « السورة » و « الآية »	٤٧
فصل : ليس فى القرآن أعجمى إلا الأعلام	٤٨

سورة الفاتحة (١)

ذكر فضل الفاتحة	٤٩
تفاضل بعض الآيات والصور على بعض	٥١
قراءة الفاتحة فى الصلاة	٥٢
الاستعاذة	٥٤
فصل : فى معنى « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم »	٥٥
البسملة : وهل هى آية من كل سورة ؟	٥٦

- ٥٨ فصل: في فضلها، والبدء في تفسيرها _____
 ٦١ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى آخر الفاتحة _____
 ٦٩ فصل: فيه إجمال معاني الفاتحة _____
 ٧٠ فصل: في استحباب « آمين » عقبها _____

سورة البقرة (٢)

- ٧٢ ذكر ما ورد في فضلها _____
 ٧٣ ذكر ما ورد في فضلها مع آل عمران _____
 ٧٤ ما ورد في فضل السبع الطول _____
 ٧٥ البدء في تفسير سورة البقرة _____
 ٧٥ الكلام في الحروف المقطعة في أوائل السور _____
 ٧٦ أول البقرة بعد الحروف المقطعة _____
 ٨٢ معنى ختم الله على القلوب والأسماع، والرد على الزمخشري في اعتزاله _____
 ٨٣ النفاق والمنافقون وصفاتهم _____
 ٨٩ المؤمنون صنفان، والكافرون صنفان، والمنافقون صنفان _____
 ٩٠ الدلالة على وحدانية الله وألوهيته بما خلق من الخلق _____
 ٩٢ التحدى بإعجاز القرآن _____
 ٩٣ كلام عظيم لابن كثير في وجوه الإعجاز _____
 ٩٥ ربيع: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ _____
 ٩٦ ضرب الأمثال في القرآن _____
 ١٠٠ خلق آدم وكلام الملائكة _____
 ١٠٣ أمر الله الملائكة بالسجود _____
 ١٠٤ أكل آدم وزوجه من الشجرة، والتنديد بمن يزعم أن حواء خدعت آدم _____
 ١٠٦ أمر بنى إسرائيل بالدخول في الإسلام، وأنهم يكتُمون الحق _____
 ١٠٨ ربيع: ﴿أَنَّا مُرَوِّعُ النَّاسِ بِالنِّيرِ﴾ _____
 ١٠٩ الاستعانة بالصبر والصلاة _____
 ١١٢ تذكير اليهود بنعم الله عليهم، والنعي عليهم في كفرهم أولاً وآخرأ _____
 ١١٧ فضيلة أصحاب محمد ﷺ في ثباتهم وصبرهم _____
 ١١٩ ربيع: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى﴾ _____
 ١٢٠ اليهود: ضربت عليهم الذلة والمسكنة _____
 ١٢٤ قصة البقرة التي أمروا بذبحها، وتعتهم ثم قسوة قلوبهم _____
 ١٢٧ ربيع: ﴿أَتَقَطِّعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ _____
 ١٣٦ ربيع: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ _____

- اليهود : أحرص الناس على حياة ١٣٨
- عداوتهم للملائكة ١٤٠
- ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ﴾ ١٤٢
- ذكر الحديث الوارد فى قصة هاروت وماروت . وبيان أنه حديث لا أصل له ١٤٦
- تكفير من تعلم السحر، وأن حد السحر القتل ١٤٨
- الكلام فى شأن السحر، ويعرض أنواعه ١٥٠
- ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ ١٥٢
- ربع: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾ ، وأحكام النسخ ١٥٣
- النهى عن كثرة الأسئلة ١٥٦
- غرور اليهود والنصارى ، وتبادلهم المطاعن ١٥٨
- بدء الكلام فى شأن القبلة ١٦٢
- تنزيه الله سبحانه عن اتخاذ ولد ١٦٤
- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ ١٦٧
- ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ والنعى على حال المسلمين اليوم فى التقرب إلى أولئك واصطناع تشريعاتهم وقوانينهم الوثنية ١٦٨
- ربع: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾ ، وما الكلمات التى ابتلى بها إبراهيم ١٧٠
- مقام إبراهيم ١٧٢
- بناء إبراهيم وإسماعيل الكعبة المشرفة، وتحريم مكة ١٧٤
- قصة إبراهيم وإسماعيل وهاجر ، من صحيح البخارى ١٧٩
- ذكر بناء قريش الكعبة بعد إبراهيم الخليل وقبل البعثة بخمس سنين ١٨١
- دعوة إبراهيم يبعث الرسول الأمين محمد ﷺ ١٨٥
- وصية يعقوب لنيه ١٨٧
- الجزء - ٢: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ ١٩٠
- شأن نسخ القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ١٩١
- ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ ١٩٧
- من يقتل فى سبيل الله أحياء ١٩٩
- البشرى للصابرين الذين يسترجعون ١٩٩
- ربع: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ ٢٠١
- الوعيد على كتمان البيئات والهدى ٢٠٢
- الآيات فى خلق السموات والأرض ... إلخ ٢٠٤
- الذين آمنوا أشد حبا لله ٢٠٤
- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِن مَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا... مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٦٩) وفيهما : الأمر باكل الحلال ، والنهى عن اتباع الشيطان ٢٠٦

- ٢٠٦ ————— إصرار الكفار على تقليد آباؤهم
- ٢٠٧ ————— الأمر بأكل الطيبات ، وبيان المحرمات
- ٢٠٨ ————— أهل الكتاب يكتمون ما أنزل الله ويأكلون فى بطونهم النار
- ٢١٠ ————— ربيع : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ ﴾ —————
- الأعمال التى هى البر . وما اشتملت عليه هذه الآية الكريمة ، من الجمل العظيمة ، والقواعد العميقة ، والعقيدة المستقيمة —————
- ٢١٠ —————
- ٢١٢ ————— القصاص فى القتل
- ٢١٤ ————— آية الوصية
- بيان صحة حديث « لا وصية لوارث » ، وما ابتدعه أهل هذا العصر ، من إجازة الوصية للوارث ، جراً ، واتباعاً للأهواء —————
- ٢١٤ —————
- ٢١٧ ————— آيات الصوم
- حديث معاذ : « وأحيل الصيام ثلاثة أحوال » —————
- ٢١٨ —————
- ٢١٩ ————— من تجب عليه الفدية ، ونسخها فى حق الصحيح غير المسافر
- ٢٢٠ ————— شهر رمضان ووجوبه
- ٢٢١ ————— الصوم والفطر فى السفر
- ٢٢٣ ————— الله سبحانه قريب يجيب دعوة الداعى
- ٢٢٥ ————— من أحكام الصيام
- ٢٢٧ ————— بيان الفجر ، وسنة السحور
- ٢٢٩ ————— تعجيل الفطر ، والنهى عن الوصال
- ٢٣٠ ————— ﴿وَلَا تَبَايَسُواْ وَهْنَ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِى الْمَسَاجِدِ﴾ —————
- ٢٣١ ————— النهى عن أكل الأموال بالباطل ، وأن قضاء القاضى لا يحل حراماً ، ولا يحق باطلاً
- ٢٣٢ ————— ربيع : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾ —————
- ٢٣٣ ————— الأمر بالقتال حتى لا تكون فتنة ، والنهى عن الاعتداء
- ٢٣٥ ————— الشهر الحرام ، ومقابلة العدوان بالمثل
- الإنفاق فى سبيل الله ، وبيان أن الإلقاء باليد فى التهلكة إنما هو الضن بالنفقة فى سبيل الله —————
- ٢٣٦ —————
- ٢٣٧ ————— آيات الحج والعمرة ، وأحكام الإحصار والهدى
- ٢٤٠ ————— التمتع بالعمرة إلى الحج
- ٢٤٢ ————— أشهر الحج وما نهى عنه فيه
- ٢٤٦ ————— الإفاضة من عرفات
- الأمر بالإكثار من الذكر بعد قضاء المناسك والدعاء بخيرى الدنيا والآخرة —————
- ٢٥٠ —————
- ٢٥٢ ————— ربيع : ﴿وَاذْكُرُواْ اللَّهَ فِى أَيَّامٍ مُّعْدُودَاتٍ﴾ —————
- ٢٥٣ ————— من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ، وإذا تولى أفسد فى الارض

٨٥٧	فهرس الموضوعات
٢٥٥	الأمر بالدخول فى السلم
٢٥٦	بنو إسرائيل وكفرهم
٢٥٧	سخرية الكفار من المؤمنين . وهم فوقهم يوم القيامة
٢٥٨	﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾
٢٥٨	هداية الله المؤمنين لما اختلف فيه أهل الكتاب من الحق بإذنه
٢٥٩	امتحان الله للمؤمنين بالبأساء والضراء
	مواضع الإنفاق الصحيحة المشروعة . ما ذكر فيها طبلا ولا مزماراً ، ولا تصاوير الخشب ، ولا
٢٦٠	كسوة الحيطان
٢٦٠	﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرَّةُ لَكُمْ ﴾
٢٦٢	ربع : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾
٢٦٣	مصارف النفقات
٢٦٤	أموال اليتامى ومخالطتهم فيها
٢٦٤	تحريم نكاح الشركات وإنكاح المشركين
٢٦٦	أحكام الحيض
٢٦٨	الحرث موضع الولد
٢٧٢	﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ ﴾
٢٧٤	أحكام الإيلاء
٢٧٥	العدة من الطلاق وأحكامها
٢٧٨	الطلقتان الأوليان ، والثالثة الباتة ، وأحكام الخلع
٢٧٩	« المختلعات هن المناقات » إذا لم يكن عن سبب صحيح
٢٨١	المبتوتة تحل للأول بعد دخول الثانى بها
	يجب أن يكون الثانى راغباً فيها قاصداً دوام عشرتها ، أما المحلل بقصد التحليل فإنه ملعون ،
٢٨٢	ولا يحلها ذلك للأول
٢٨٤	الإمساك بالمعروف أو التسريح بالإحسان
٢٨٥	النهى عن عضل المرأة ، ودلالة ذلك على أن المرأة لا تزوج نفسها
	صحة حديث : « لا نكاح إلا بولي » . ويان أثر تزويج النساء أنفسهن فى عصرنا ، وما دمر
٢٨٦	من الأخلاق والآداب والأعراض
٢٨٧	ربع : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾
٢٨٩	عدة المتوفى عنها زوجها
٢٩٠	جواز التعريض بالخطبة للمتوفى عنها فى عدتها دون التصريح
٢٩١	جواز الطلاق بعد العقد وقبل الدخول
٢٩٤	الصلاة الوسطى ، وتحقيق أنها العصر
٢٩٨	صلاة الخوف

- المتعة للمطلقات وللمتوفى عنها ٣٠١
- ربع : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ ٣٠١
- قصة بنى إسرائيل فى طلبهم ملكا ليقاتلوا فى سبيل الله . وبعث الله طالوت ملكا عليهم
﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ ٣٠٤
- الجزء - ٣ : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ ٣٠٦
- آية الكرسي ، ولها شأن عظيم ٣٠٨
- اشتغال آية الكرسي على عشر جمل مستقلة ٣١١
- آيات الصفات ، الأجود فيها طريقة السلف الصالح : أمروها كما جاءت ، من غير تكيف ولا
تشبيه ٣١٣
- لا إكراه فى الدين ٣١٣
- العروة الوثقى ٣١٤
- قصة إبراهيم مع الملك فى عصره ، وإقامته الحجة عليه ﴿ قَبِلَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ ٣١٥
- الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه ٣١٦
- طلب إبراهيم رؤية إحياء الموتى ٣١٨
- مضاعفة الأجر فى النفقة فى سبيل الله إلى سبعمائة ضعف فاكسر ٣١٩
- ربع : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ ٣٢٠
- مثل الغنى الذى عمل بطاعة الله ، ثم عمل المعاصى حتى أغرق أعماله ٣٢٢
- الأمر بالتصدق من الطيبات ٣٢٣
- ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ٣٢٥
- الصدقة فى الإعلان وفى الأسرار ٣٢٦
- ربع : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ﴾ ٣٢٧
- تحريم الربا ، والتنديد بمن يعترض على أحكام الله ، بأن البيع مثل الربا ٣٣٠
- بيان ما ابتليت به أكثر البلاد المنتسبة للإسلام بالقوانين الوثنية ، تبيح الربا والعقود الباطلة ٣٣٣
- الإسلام قول وعمل ، وسمع وطاعة ٣٣٥
- إيذان المتعاملين بالربا بحرب من الله ورسوله ٣٣٥
- إن الله لم يتوعد فى القرآن بالحرب على معصية غير الربا ٣٣٦
- آية الدين إلى أجل مسمى ، وهى أطول آية فى القرآن ٣٣٨
- ربع : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا ﴾ ٣٤٣
- الرهن فى الدين فى السفر ٣٤٣
- ﴿ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا لِي بِأَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ بِحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ ٣٤٤
- ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ ﴾ الآيتان من آخر سورة البقرة ٣٤٦
- آخر تفسير سورة البقرة ٣٤٩

سورة آل عمران (٣)

- المحكم والمتشابه ٣٥١
- معنى « التأويل » ٣٥٤
- ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُونَ وَتَحْشُرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ﴾ ٣٥٧
- المؤمنون والكافرون فى موقفهم يوم بدر ٣٥٨
- ﴿ زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴾ ٣٥٨
- ربع : ﴿ قُلْ أَوْفَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ ﴾ ٣٦١
- ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ ٣٦٣
- الذين يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولون ٣٦٣
- ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ ﴾ ٣٦٤
- النهى عن موالاة الكافرين . ومعنى التقية ٣٦٥
- من ادعى محبة الله غير متبع الشرع المسمى - فهو كاذب ٣٦٦
- ربع : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ ﴾ ٣٦٧
- ابتداء قصة مريم وأهلها ٣٦٨
- دعاء زكريا والبشرى بولادة يحيى . ومعنى « الحصور » ، وتنزيه الأنبياء عن النقائص ٣٦٩
- العود إلى قصة مريم ، ثم تبشيرها بالمسيح ٣٧٠
- إرسال عيسى إلى بنى إسرائيل ، وما أعطى من الآيات ٣٧٢
- ربع : ﴿ لَقَدْ أَحْضَىٰ عَيْسَىٰ مِنْهُمْ الْكُفْرَ ﴾ ٣٧٤
- رفع عيسى حيا ، وإقامة الدلائل على ذلك ٣٧٥
- دخول قسطنطين فى النصرانية ليفسدها ، حتى « صار دين المسيح دين قسطنطين » ٣٧٦
- المسلمون هم المؤمنون بالمسيح حقا ، وهم أتباعه الصادقون العارفون به ٣٧٦
- فتح القسطنطينية - المبشر به - سيكون فى المستقبل ، حين يعود المسلمون إلى دينهم ٣٧٦
- ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾ ٣٧٧
- سبب نزول آية المباحلة ٣٧٨
- ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ ﴾ ٣٧٩
- الإنكار على اليهود والنصارى فى محاجتهم فى إبراهيم الخليل جهلا بغير علم . وأن أولى الناس به أتباعه ومحمد والمؤمنون ٣٨٠
- أهل الكتاب وضلالهم وإضلالهم ونفاقهم ٣٨١
- ربع : ﴿ وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنهُ يَفْطَارْ ﴾ ٣٨٢
- الذين لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ٣٨٤
- فريق من أهل الكتاب يحرفون الكلم . وبيان أن التوراة والإنجيل دخلهما التبديل والتحريف ٣٨٥
- والزيادة والنقص ٣٨٥
- الأنبياء والرسل لا يأمرؤن إلا بعبادة الله وحده ٣٨٥

- أخذ الميثاق على الأنبياء بالإيمان بالمرسل من بعدهم ونصرته ٣٨٧ _____
- ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ ٣٨٧ _____
- الوعيد الشديد لمن يكفر بعد الإيمان ٣٨٨ _____
- ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ ٣٩٠ _____
- الجزء - ٤ : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ٣٩٠ _____
- أول بيت وضع للناس ، وفرض الحج ، وحرمة مكة ٣٩٢ _____
- قال لنسائه فى حجته : « هذه ثم ظهور الحصر » . وانظر ما يصنع النساء المنسوبات للإسلام
- من السفر دون محرم سافرات عاصيات ماجنات ٣٩٥ _____
- ﴿ إِنْ تَطِيعُوا قَرِيبًا مِّنَ الدِّينِ أَوْتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ ٣٩٦ _____
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٣٩٩ _____
- ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ٤٠١ _____
- ربع : ﴿ تَسُوا سَوَاءً ﴾ ٤٠٤ _____
- فائدة : فى اختلاف عبارات الصحابة وعبارات الرواة فى أسباب النزول ٤٠٥ _____
- أهل الذمة لا يجوز استعمالهم فى الأمور العامة - كالكتابة - التى فيها استطالة على المسلمين
- واطلاع على دواخل أمورهم ٤٠٧ _____
- الآيات فى وقعة يوم أحد ٤٠٨ _____
- تحريم الربا ٤١٣ _____
- ربع : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ٤١٣ _____
- اللاعبون بالدين وأولياؤهم من عابدى التشريع الوثنى الأجنبى ٤١٣ _____
- كروية الأرض كانت معروفة لعلماء الإسلام قبل أن تخطر ببال الإفرنج ٤١٥ _____
- ﴿ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ ٤١٦ _____
- قبول ربنا عز وجل التوبة والاستغفار ٤١٧ _____
- هزيمة المسلمين يوم أحد ، وجزعههم إذ ظنوا أن رسول الله ﷺ قتل ٤١٨ _____
- ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُؤَجَّلًا ﴾ ٤٢١ _____
- ﴿ إِنْ تَطِيعُوا الدِّينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَقَبَّلُوا خَاسِرِينَ ﴾ ٤٢٢ _____
- ربع : ﴿ إِذْ تَصْلَعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ ﴾ ٤٢٢ _____
- وقوع المسلمين فى هذه العصور الأخيرة ، فيما نهاهم الله عنه من طاعة الكفار ٤٢٣ _____
- بقية قصة يوم أحد ٤٢٣ _____
- بيان لعب اللاعبين بالدين فى هذا العصر بآبى المشاورة ، وزعمهم أنها الأكذوبة التى يسمونها
- « الديمقراطية » ٤٣٢ _____
- بيان أن أهل الشورى هم الرجال الصالحون القائمون على حدود الله ، المتقون لله - إلخ - ٤٣٢ _____
- التشديد فى النهى عن الغلول ٤٣٣ _____
- بقية الكلام فى وقعة أحد ٤٣٦ _____

- ٤٣٧ الشهداء وما لهم من رفيع المنزلة
٤٣٧ ربيع : ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ ﴾
٤٣٧ إذا غلبك أمر فقل : حسبى الله ونعم الوكيل
٤٤٢ ﴿ وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾
٤٤٣ البخل وما فيه من الوعيد
٤٤٤ لعن الله اليهود ، إذ زعموا أن الله فقير
٤٤٥ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾
٤٤٥ ربيع : ﴿ تَتْلُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾
٤٤٧ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْمُمُونَهُ ﴾
٤٤٩ ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾
٤٥١ ﴿ لَا يَغْرُنْكَ تَلَقُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴾
٤٥٢ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ﴾

سورة النساء (٤)

- ٤٥٥ ربيع : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ وهو أول السورة
٤٥٦ إيتاء أموال اليتامى والنهي عن أكلها
٤٥٧ لا يجوز الجمع فى النكاح بين أكثر من أربع زوجات
بحث نفيس فى تعدد الزوجات ، وبيان أن محاولة منعه بالقانون أو تقييده كفر وكذب
٤٥٨ على الله
٤٦٢ دفع أموال اليتامى إليهم إذا بلغوا راشدين ، والنهي عن دفعها للسفاه
٤٦٥ توريث الرجال والنساء ، وإيتاء من حضر القسمة من أولى القربى واليتامى والمساكين
٤٦٦ الوصية لا تزيد على الثلث
٤٦٧ تفصيل بعض الفرائض
٤٧١ ربيع : ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ ﴾
٤٧٣ الوعيد الشديد لمن تعدى حدود الله فى الوصية والميراث
٤٧٣ بيان كفر المطالبين بمساواة المرأة بالرجل فى الميراث
٤٧٤ الحكم الذى كان فى ابتداء الإسلام فى شأن الزنا
٤٧٥ التوبة مقبولة إلى ما قبل الغرغرة
٤٧٦ النهى عن عضل النساء
٤٧٧ « خيركم خيركم لأهله »
من إجرام القوانين الوثنية : أن لا يحكم بقتل رجل زنا بامرأة أبيه ، ثم ائتمر معها فقتلا
الاب - فلم يعاقبا على هاتين الجريمتين المنكرتين بأكثر من الاشغال الشاقة بضع سنين ، مما
لا يصنعه رجل مسلم

- ٤٨٠ _____ المحرمات من النساء
- ٤٨٠ _____ الجزء ٥ : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾
- ٤٨٥ _____ جواز نكاح الإمام لمن لم يجد طول الحرة
- ٤٨٧ _____ النهى عن أكل أموالنا بيننا بالباطل ، وجواز التجارة عن تراض
- ٤٨٩ _____ ﴿ إِن تَجْتَبُوا كِبَارًا مَا تُتْهَوْنَ عَنْهُ نُكْفَرُ عَنْكُمْ سِيقَاتِكُمْ ﴾ ثم البحث فى الكبائر : ما هى ؟
- ٤٩٤ _____ ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾
- ٤٩٥ _____ البيان عن الكذابين المفتريين ، الذين يخرجون المرأة عن خدرها ، ويكشفون سترها
- ٤٩٦ _____ « لا حلف فى الإسلام »
- _____ الرد على ابن جرير فى زعمه أن قوله : ﴿ فَاتَّوَهُم نَصِيَّهُمْ ﴾ غير منسوخ . لادعائه أن ليس المراد
- ٤٩٨ _____ بالنصيب الميراث
- ٤٩٩ _____ ﴿ الرَّجَالُ قَوَامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾
- ٥٠٠ _____ الرد على عدوان النساء وأشباههن من الرجال
- ٥٠٢ _____ ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا ﴾
- ٥٠٣ _____ ربيع : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾
- ٥٠٤ _____ الوصاة بالجار
- ٥٠٥ _____ الوصاة بالرقيق
- ٥٠٧ _____ التنديد بالرياء ، وقوله لعدى بن حاتم : « إن أباك أراد أمراً فبلغه »
- ٥٠٨ _____ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ﴾
- ٥٠٨ _____ ﴿ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾
- ٥١٠ _____ ﴿ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ﴾
- ٥١٣ _____ شرع التيمم
- ٥١٣ _____ تحقيق القول بأن لمس المرأة لا تنقض الوضوء
- ٥١٥ _____ التيمم
- ٥١٦ _____ صفة التيمم
- ٥١٩ _____ اليهود - عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة - يشتركون الضلالة بالهدى
- ٥٢٠ _____ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾
- ٥٢٢ _____ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾
- ٥٢٦ _____ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا ﴾
- ٥٢٦ _____ ربيع : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾
- ٥٢٨ _____ ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ ﴾
- ٥٣١ _____ ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ﴾
- ٥٣٣ _____ ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾

القوانين الإفرنجية الوثنية ضريبة المبشرين والمستعمرين على بلاد الإسلام. وهى فى الحقيقة دين

- آخر ، جعلوه ديناً للمسلمين بدلا من دينهم التقى السامى ٥٣٤
- ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ ٥٣٧
- ربع : ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴾ ٥٣٨
- ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ ﴾ ٥٤٠
- ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ ٥٤٢
- ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ ٥٤٣
- ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ ٥٤٤
- ﴿ وَإِذَا حُيِمَ بِحَيَّةٍ فَحِرَوا بِأَحْسَنِ مَنَها ﴾ ٥٤٦
- ربع : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ ﴾ ٥٤٧
- ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَا ﴾ ٥٤٩
- ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ٥٥٥
- ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ ﴾ ٥٥٧
- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ ٥٦٠
- ربع : ﴿ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ ٥٦٠
- صلاة السفر وصلاة الخوف ٥٦٢
- صفة صلاة الخوف ٥٦٥
- الامر بكثرة ذكر الله عقب صلاة الخوف ٥٦٩
- ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِصَحِّحَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ ٥٦٩
- ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ ٥٧٠
- ربع : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ ﴾ ٥٧٢
- ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ ٥٧٢
- ﴿ وَمَنْ أَحْسَنَ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ ٥٧٦
- ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَكَ فِي النَّسَاءِ ﴾ ٥٨٠
- الصلح خير ٥٨١
- ربع : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ﴾ ٥٨٥
- وصف المنافقين الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ٥٨٧
- المنافقون يتربصون بالمؤمنين دوائر السوء ٥٨٨
- ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ ٥٨٩
- النهي عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ٥٩٢
- الجزء - ٦ : ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ ٥٩٣
- اليهود - لعنهم الله - وتعتهم وعنادهم وعصيانهم ٥٩٥
- ادعائهم أنهم قتلوا المسيح ﷺ ﴿ وَمَا قُتِلُوا وَمَا صَلَّبُوا وَلَكِنْ شَبَّ لَهُمْ ﴾ ٥٩٧
- القصص الذى يذكره المفسرون عن رفع عيسى ليس لها سند صحيح من القرآن أو السنة

- الثابتة. والذي نؤمن به هو ما ثبت في القرآن ، دون تفصيل _____ ٥٩٨
 الأحاديث الواردة في نزول عيسى إلى الأرض قبل يوم القيامة ، وهي أحاديث صحيحة متواترة _____ ٦٠٠
 تحريم الله الطبيات على اليهود بسبب ظلمهم _____ ٦٠٦
 ربيع : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ _____ ٦٠٨
 ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ _____ ٦١١
 الكلاله _____ ٦١٥

سورة المائدة (٥)

- ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ _____ ٦٢٤
 ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ _____ ٦٢٨
 الصيد _____ ٦٣٢
 طعام الذين أوتوا الكتاب ونساؤهم _____ ٦٣٥
 بيان أن المنتسبين الآن للنصرانية واليهودية لا يحل طعامهم ، لكفرهم بالأديان
 نساء المنتسبين للنصرانية واليهودية الآن - أكثرهن ليس فيهن عفيفات ، ولسن بمحصنات ، فلا
 يجوز زواجهن . بل كثير من المنتسبين للإسلام ، خاصة الطبقة المتعلمة ، صاروا ملحدين
 لا يؤمنون بالدين . فنكاحهم باطل ، وأنساب ذريتهم مدخولة غير شرعية _____ ٦٣٦
 آية الطهارة : الوضوء ، والغسل ، والتيمم _____ ٦٣٩
 الأحاديث الواردة في غسل الرجلين _____ ٦٤٥
 ثبت بالتواتر مشروعية المسح على الخفين . وقد خالف الروافض في ذلك بجهل وضلال _____ ٦٤٧
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ _____ ٦٤٩
 ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلْقَوِّىِ﴾ _____ ٦٥٠
 ربيع : ﴿ وَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴾ _____ ٦٥١
 ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعِدَاةَ وَالْغِشَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ . وقد حقق الله وعده ، وسيحققه عليهم إلى يوم
 القيامة _____ ٦٥٣
 ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ _____ ٦٥٤
 عصيان اليهود - لعنهم الله - وضربهم بالتيه أربعين سنة _____ ٦٥٧
 ربيع : ﴿ وَأَتَىٰ عَلَيْهِمْ نَبَأُ ابْنَيْ آدَمَ ﴾ _____ ٦٦٢
 هما ابنا آدم لصلبه ، أما تسميتها « قاييل وهابيل » فلم تثبت في كتاب ولا سنة _____ ٦٦٢
 ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ _____ ٦٦٦
 ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ _____ ٦٦٧
 ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ _____ ٦٧٤
 كفر الذين لا يقبلون الحكم بقطع يد السارق ، ويقدمون عليه حكم القوانين الوضعية والوثنية _____ ٦٧٨
 ربيع : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ _____ ٦٧٨

- ٦٨٢ سبب آخر فى نزول هذه الآيات الكريمت
- رد السيد محمود محمد شاكر على المتلاعبين بالدين فى هذا العصر، الذين يتلمسون المезде فى ترك الحكم بما أنزل الله ، وفى القضاء فى الدماء والأعراض والأموال بغير شريعة وفى اتخاذهم قانون أهل الكفر شريعة فى بلاد الإسلام
- ٦٨٤ ﴿ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ﴾
- ٦٨٥ تلاعب الملحدون فى هذا العصر فى تسميتهم شريعة القصاص « شريعة الغاب » - بكفرهم
- ٦٨٧ والحادهم
- ٦٩٠ ﴿ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾
- تحقيق صحة حديث ابن عباس فى أن آية التخيير منسوخة، وبيان معناه بأنه يريد بالنسخ التخصيص. وتحقيق أن التخيير ليس فى شأن رعايا الدولة من أهل الكتاب، إنما هو فىمن يتحاكم إلينا منهم من لا يدخل فى سلطاننا
- ٦٩٣ ﴿ أَلْحَكُمَ الْجَاهِلِيَّةَ يَتَّخُونَ ﴾
- ٦٩٥ تحقيق لفظ كلمة « الياسق » وبيان معناها، وهى القانون الباطل الذى وضعه جنكيز خان
- ٦٩٥ « الياسق العصرى » - هو هذه القوانين المقتبسة من قوانين أوربة الوثنية الملحدة
- ٦٩٥ إن الأمر فى هذه القوانين الوضعية واضح ، هى كفر بواح ، لا عذر لأحد يتسبب للإسلام فى العمل بها أو الخضوع لها أو إقرارها
- ٦٩٦ ربيع: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ﴾
- ٦٩٧ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ﴾
- ٦٩٩ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر
- ٧٠٠ النهى عن تولى الذين يتخذون ديننا هزوا ولعباً
- ٧٠٢ ﴿ هَلْ تَقِفُونَ مَا إِلَّا أَنْ آمَنَّا ﴾
- ٧٠٣ ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾
- ٧٠٥ ربيع: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾
- ٧٠٨ ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾
- ٧١٢ ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾
- ٧١٥ الأحاديث فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر
- ٧١٥ الجزء - ٧ : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾
- ٧١٧ ﴿ لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾
- ٧١٩ ﴿ لَا يَأْخُذْكُمْ اللَّهُ بِالْفُحْرِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾
- ٧٢١ ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾
- ٧٢٣ الأحاديث الواردة فى تحريم الخمر
- ٧٢٤ ﴿ لَيَلُونَكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصِّيدِ ﴾
- ٧٣٠ نصيحة غالية من عمر بن الخطاب للشباب
- ٧٣٣

بيان عن جزء ثان من تفسير ابن كثير، مخطوط مصور، مقروء على قاضى القضاة الخضيرى،

- ٧٣٥ _____ تلميذ الحافظ ابن حجر
- ٧٣٦ _____ ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾
- ٧٣٩ _____ ربع : ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾
- تكميل فى تفسير آيات ترك الحافظ ابن كثير تفسيرها سهواً . ولخصنا تفسيرها من تفسير
- ٧٤٠ _____ الطبرى
- ٧٤٢ _____ ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تَبَدَّلَ لَكُمْ تَنُوبُكُمْ﴾
- ٧٤٥ _____ ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ﴾
- ٧٤٧ _____ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾
- ٧٤٨ _____ ليس فيها دليل على ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر
- ٧٥٠ _____ ﴿شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ﴾
- ٧٥٤ _____ ربع : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾
- ٧٥٤ _____ معجزات عيسى ﷺ
- ٧٥٥ _____ سؤال الحوارين نزول مائدة عليهم من السماء
- الرد على من زعم أن المائدة لم تنزل ، بحجة أنها غير معروفة عند النصارى ! وبيان أن
- ٧٥٧ _____ القرآن مهيمن على الكتب السابقة
- ٧٥٨ _____ ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾
- ٧٥٩ _____ ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾

سورة الأنعام (٦)

- ٧٦١ _____ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾
- ٧٦٢ _____ المشركون المكذبون مهما أتتهم من آية ومعجزة على وحدانية الله فهم معرضون عنها
- ٧٦٣ _____ لو نزل كتاب فى قرطاس فلمسه المشركون بأيديهم لقالوا : سحر مبین
- ٧٦٤ _____ ربع : ﴿وَلَهُ مَا مَكَّنَّ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾
- ٧٦٦ _____ الضر والنفع بيده سبحانه ، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه
- ٧٦٧ _____ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ﴾
- ٧٦٨ _____ مشهد الكفار يوم القيامة إذا وقفوا على النار وشاهدوا ما فيها
- ٧٦٩ _____ خسارة من كذب بقاء الله ، وعن خيبته إذا جاءته الساعة بغتة
- ٧٦٩ _____ ربع : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَعْطُهُمُ اللَّهُ﴾
- ٧٧١ _____ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾
- ٧٧٣ _____ الله تعالى هو المتصرف فى خلقه بما يشاء ولا معقب لحكمه
- ٧٧٤ _____ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾
- ٧٧٥ _____ رسول الله ﷺ لا يملك خزائن ربه ولا يعلم الغيب وليس ملكا

- ٧٧٨ ربيع : ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾
- ٧٧٩ ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾
- ٧٨١ تنجية الله تعالى المضطرين والحائرين من المهامه البرية واللجج البحرية
- ٧٨٥ تكذيب قريش بالقرآن واستهزاؤهم به
- ٧٨٦ ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾
- ٧٨٦ المشركون يقولون للمسلمين : اتبعوا سبيلنا واركبوا دين محمد
- ٧٨٩ ربيع : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَّ اتَّخَذَ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾
- ٧٨٩ الجزم بأن « أزر » اسم والد إبراهيم عليه السلام وبصريح القرآن الكريم
- ٧٩٢ جدال قوم إبراهيم عليه السلام في التوحيد
- ٧٩٤ هبة الله تعالى لإبراهيم : إسحاق ويعقوب عليهم السلام بعد أن طعن هو وزوجته في السن —
- ٧٩٦ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾
- ٧٩٨ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾
- ٧٩٩ ربيع : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾
- ٨٠٢ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾
- ٨٠٣ تنزيه الله تعالى عن البنين والبنات والصاحبة
- ٨٠٦ ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾
- ٨٠٧ ﴿اتَّبِعْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾
- ٨٠٨ النهى عن سب آلهة المشركين
- ٨٠٨ ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾
- ٨١٠ الجزء ٨ - : ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾
- ٨١٠ جعل الله لكل نبي عدواً من شياطين الإنس والجن
- ٨١٢ ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا﴾
- ٨١٣ حال أكثر أهل الأرض من بنى آدم الضلال
- ٨١٣ أباح الله لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح ما ذكر عليه اسمه تعالى
- ٨١٤ ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾
- ٨١٧ ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾
- ٨١٨ الانبياء جميعهم ابتلوا بأكابر المجرمين في قراهم
- ٨٢٠ ﴿فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾
- ٨٢١ ربيع : ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾
- ٨٢٢ ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدْ اسْتَكْرَثْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾
- ٨٢٢ ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّهِ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾
- ٨٢٣ تقرير الله تعالى كافرين الجن والإنس يوم القيامة وسؤاله: هل بلغتكم الرسل لرسالتي
- ٨٢٤ ﴿كَذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكِ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾

- ٨٢٥ ————— ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾
- ٨٢٦ ————— ذم وتوبيخ الله تعالى للمشركين الذين جعلوا له جزءاً من خلقه
- ٨٢٧ ————— رين للمشركين قتل أولادهم خشية الإملاق
- ٨٢٧ ————— ﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ ﴾
- ٨٢٧ ————— ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرْنَا وَمَحْرَمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا ﴾
- ٨٢٨ ————— خسران المشركين الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم
- ٨٢٨ ————— ريع : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾
- ٨٣١ ————— جهل العرب قبل الإسلام فيما كانوا حرموه على أنفسهم من الانعام
- ٨٣١ ————— ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُرْحِي إِلَيَّ مَعْرُومًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾
- ٨٣٣ ————— ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ ﴾
- ٨٣٤ ————— ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾
- ٨٣٥ ————— مناظرة وشبهة ذكرها الله تعالى تشبث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا
- ٨٣٥ ————— ريع : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾
- ٨٣٨ ————— ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾
- ٨٣٩ ————— أمر الله تعالى المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة
- ٨٤٠ ————— ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾
- ٨٤١ ————— ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا ﴾
- ٨٤٢ ————— ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾
- ٨٤٤ ————— ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْبًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾
- ٨٤٥ ————— الحسنة بعشرة أمثالها والسيئة بمثلها
- ٨٤٧ ————— ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا ﴾
- ٨٤٩ ————— ﴿ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبِغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾
- ٨٥٠ ————— ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾
- ٨٥٣ ————— فهرس الموضوعات